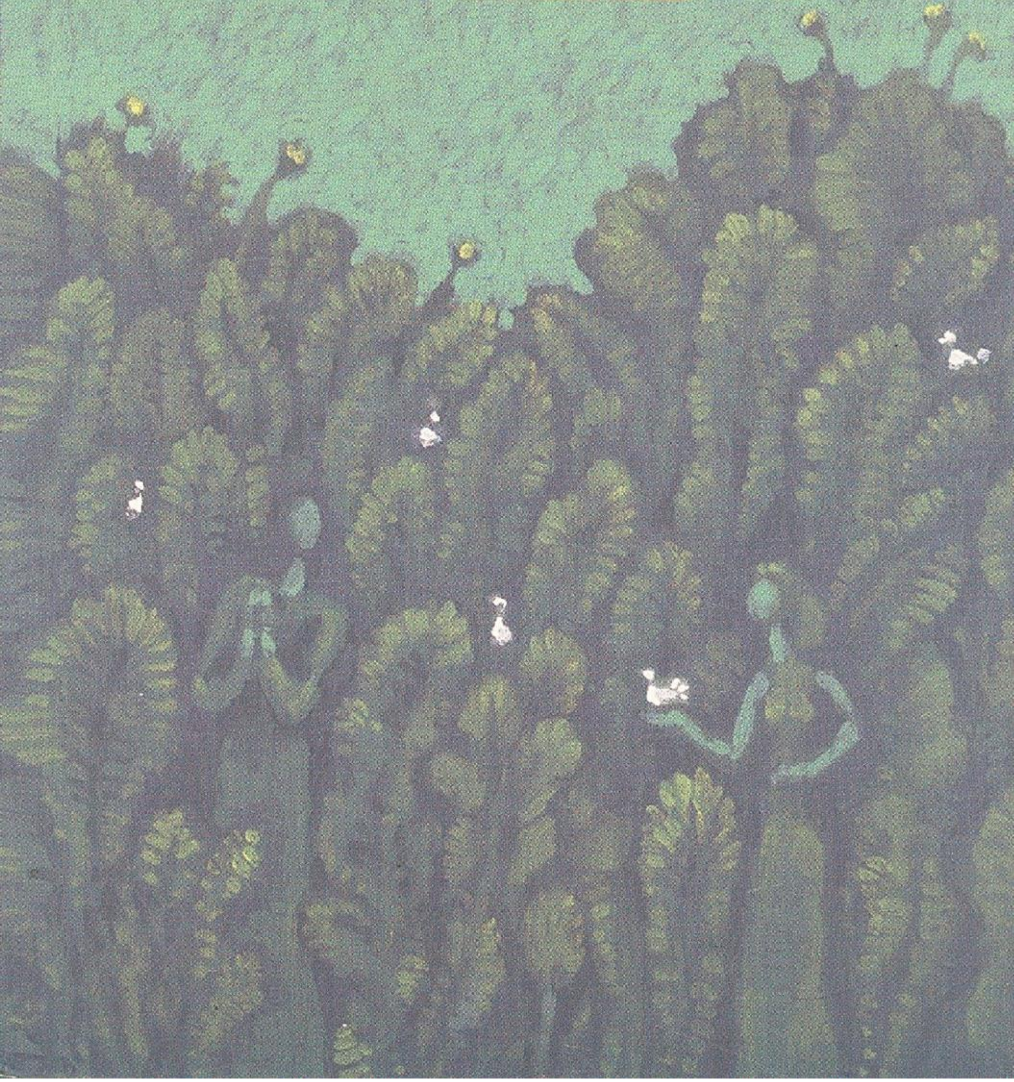
جون ميلتون

الفردوس المفقود

ترجمة : د. محمد عناني



المــؤلف:

جـون ميلتون



أعظم شعراء الملاحم في الأدب الإنجليزي، عاش في القرن السابع عشر (1608-1674) عصر العلم والتطورات السياسية الهائلة التي جرت فيه، وكتب الكثير من الأشعار الطويلة والقصيرة، ثم رأى أن أعظم إنجاز أن يتناول الدين موضوعًا في ملحمة تتبع تقاليد الملاحم الكلاسيكية. وكان من دعاة الحرية ومعارضة الحجر على أي رأي مهما كان، حتى يتيح للفكر أن يتجدد ويتطور. وهو ما يفعله في كتابه "أريوباجيتكا" الذي ترجم لأول مرة وأرفق بالكتاب الحالي. كما كان مناضلًا ضد الطغيان الملكي في عصره وداعيًا للديمقراطية الحقة. وهو الذي عاش في ظل نشأة الحكومة الجمهورية الإنجليزية (لأول وآخر مرة) ثم آلمه سقوطها. وتعرض المقدمة سيرة موجزة له.

الفردوس المفقود

د. محمد عناني

الفردوس المفقود

تأليف : جون ميلتون

الطبعة الأولى : 1430هـ ـــ 2009م

ص .ب 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة

هاتف 14468 263 971 +   فاكس 14462 263 971 +

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس : 23909618 202 + ـــ ص.ب 2022

info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 4006 / 2009

ISBN : 977 - 427 - 473 - 3

هذه الترجمة العربية لكتاب : Paradise Lost

جون ميلتون

الفردوس المفقود

ترجمة

د. محمد عناني

الدار المصرية اللبنانية

كلمة
KALIMA

الفهرس

تصدير

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لملحمة الفردوس المفقود التي كتبها شاعر الإنجليزية الكبير جون ميلتون في القرن السابع عشر ، وقد صدرت هذه الترجمة في أجزاء متفرقة على امتداد عشرين عامًا تقريبًا، وتلقاها النقاد والأدباء بالاستحسان، ولكن الأجزاء الأولى نفدت، وخصوصًا الجزء الأول الذي يضم الكتابين الأول والثاني (*1982*)، والجزء الثاني الذي يضم الكتب التالية .. الثالث والرابع والخامس والسادس (*1984*) وعندما أعيدت طباعة الجزء الأول وأعيد نشره في إطار مكتبة الأسرة (عام *2001*) كان مصيره النفاد أيضًا ، وقد كان ذلك أيضًا مصير الجزء الثالث (*2001*) الذي يضم الكتب التالية - السابع والثامن والتاسع - بل والرابع (*2002*) الذي يضم الكتب الأخيرة - العاشر والحادي عشر والثاني عشر. وقد يجد القارئ مشقة في قراءة جزء لاحق دون أن تتوافر لديه الأجزاء الأولى، فرأيت من المستحب إخراج الترجمة العربية كاملة في طبعة واحدة، على ضخامتها، حتى يجد فيها القارئ ما فاته ، وحتى يقتنيها من يطّلع لأول مـرة على الملحمة. ويبلغ طول الملحمة الحالي *10565* (عشرة آلاف وخمسمائة وخمسة وستين) سطرًا وعدد كتبها (أو أسفارها) *12* كتابًا، وذلك بعد أن أضاف ميلتون *15* سطرًا إلى الطبعة الأولى الصادرة في عام *1667* ، وكانت تتكون من عشرة كتب. ويبلغ عدد سطورها *10550* ، إذ إنه زاد في الطبعة الثانية (*1674*) ثلاثة أسطر على الكتاب الخامس، وقسم الكتاب السابع إلى كتابين هما السابع والثامن مضيفًا ثلاثة أسطر في بداية الثامن ، وقسم الكتاب العاشر إلى كتابين هما الحادي عشر (مضيفًا أربعة أسطر فيه ، ثلاثة من *485* - *487* وسطر واحد

551 - 552) ، والثاني عشر (مضيفًا خمسة أبيات في مطلعه) . ولا توجد أدلة تاريخية توضح سبب التحول من الكتب العشرة إلى الكتب الاثني عشر ، ولكن الناقد ويلار (*Whaler*) [انظر المراجع] يقول: إن ميلتون أراد أن يؤكد رمزية العدد في القصيدة دون التخلي عن الاتساق مع عدد الكتب في الملحمة التقليدية (التي كتبها ڤيرجيل مثلاً) وهو 12 كتابًا ، بمعنى أن يظل العدد الأصلي عشرًا ثم يزداد إلى اثني عشر . والمعروف أن فيثاغورث كان يرى أن الرقم عشرة يمثل الرباعية المقدسة (*the divine tetractys*) أي حاصل جمع واحد واثنين وثلاثة وأربعة (الأرقام الأربعة) التي تتكون منها جميع الأرقام، ومن ثم «النبع الذي تخلق منه جميع الأشياء» ، وأما باركر (*Barker* انظر المراجع) في الكتاب الذي حرره عام 1965 فيقول: إن التقسيم دلالة على التحول من البناء الدرامي الذي يعتمد على اعتبار القصيدة تتكون من خمسة فصول يتكون كل منها من كتابين إلى البناء الملحمي .

وأيًا كان الأمر ، فإن طول الكتاب العاشر في الطبعة الأولى (وهو الذي أصبح الكتابين الحادي عشر والثاني عشر) يدل على أن ميلتون كان يعتزم هذا التقسيم منذ البداية ، ويؤكد ذلك قوله في مطلع الكتاب السابع «أنشودتي ما زال نصفها بلا نغم» (السطر 21)، بمعنى أن الكتب الستة السابقة تمثل النصف فقط ، ولابد أن تتلوها ستة كتب أخرى .

وأما عن البناء الدرامي الذي عَدَلَ عنه ميلتون فالمعروف أو «من المرجح» كما يقول فاولر في الطبعة التي اعتمدنا عليها لنص الفردوس المفقود :

Fowler, Alastair. (ed.) Paradise Lost, in The Poems of John Milton ed. John Carey and Alastair Fowler, Longman, London, 1968.

أن ميلتون لم يكن يرى في الفردوس المفقود عندما بدأ التفكير فيها ملحمة بل تراجيديا (مأساة) ، وفاولر يورد هذا الرأي

الذي رآه إدوارد فيليبس في كتابه سيرة ميلتون (*1694*) مؤكدًا إياه بما ذكرته هيلين داربيشر في كتابها (انظر المراجع)، وهو يشير أيضًا إلى وجود أربعة مخطوطات في مكتبة كلية ترينيتي في كيمبريدج ، ويقول إنه من المحتمل أنها كتبت عام *1640* وتحمل أوجه شبه كثيرة بالملحمة ، رغم أنها مخططات تمهيدية لمأساة عن الفردوس المفقود . وسوف أورد فيما يلي ترجمة لما أورده فاولر منها :

المخطوط الأول		المخطوط الثاني	
الأشخاص		الأشخاص	
ميكائيل		موسى	
الحب السماوي		العدل	
جوقة الملائكة		الرحمة	
الشيطان		الحكمة	
آدم	مع الشيطان	الحب السماوي	
حواء		الزهرة - كوكب المساء	
الضمير		جوقة الملائكة	
الموت		الشيطان	
العمل		آدم	
المرض	صامتة	حواء	
السخط		الضمير	
الجهل		العمل	
وغير ذلك		المرض	
الإيمان		السخط	صامتة
الأمل		الجهل	
الإحسان		الخوف	
		الموت	
		الإيمان	
		الأمل	
		الإحسان	

وأما المخطوط الثالث فعنوانه: الفردوس المفقود . وفيما يلي ترجمة ما أورده فاولر :

الأشخاص

• يروي موسى في المقدمة (الاستهلال أو البرولوج) كيف تأتّى له الاحتفاظ بجسده الحق ، وأنه لم يفسد ، والسبب أنه كلّم الله فوق الجبل، قائلاً إنه أصبح مثل أخنوخ وإيليّا ، وبسبب نقاء المكان وطهره أيضًا حيث تعمل رياح وأنداءٌ وسحبٌ نقية طاهرة على صونه من الفساد، ومن ثم يسرع إلى نظر الله ، قائلاً إنهم [أي النظارة] لا يستطيعون رؤية آدم وهو بعد في حال البراءة بسبب الخطيئة المركبة فيهم .

العدل
الرحمة
الحكمة

(العدل، الرحمة، الحكمة) يناقشون ما ينبغي أن يحدث للإنسان إذا سقط

جوقة الملائكة تنشد ترانيم الخلق

الفصل الثاني

الحب السماوي

كوكب المساء

جوقة الملائكة تغني أغنية الزواج وتصف الفردوس

الفصل الثالث

الشيطان يدبّر لتدمير آدم

الجوقة تعبر عن خوفها على آدم وتحكي عن تمرد الشيطان وسقوطه .

الفصل الرابع

آدم
حواء

الضمير يقدمهما إلى الله حتى يفحص أمرهما .

الجوقة تندب مآلهما وما فقده آدم من الخير .

الفصل الخامس

آدم وحواء بعد طردهما من الفردوس التي يمثلها مَلَكٌ مع :

العمل
الحزن
الكراهية
الحسد
الحرب
المجاعة — شخصيات صامتة يسميها آدم بأسمائها
الطاعون — هي والشتاء والحرارة والعواصف ... إلخ.
المرض
السخط
الجهل
الخوف
الموت — وهو يدخل إلى العالم

الإيمان
الأمل ⎫ تُعزّيه وتُعلّمه
الإحسان

الجوقة تختتم المسرحية ختاما موجزًا

المخطوط الرابع

إخراج آدم من الفردوس

(*Adam Unparadized*)

يُقبل المَلَكُ جبريل ، هابطًا أو داخلاً المسرح ، فيصف الفردوس ، قائلاً إنه منذ خَلْق هذه الأرض الكروية وهو يعتادها اعتياده للسماء . ثم تتحدث الجوقة لتبيان سبب مجيئه ألا وهو حراسة الفردوس بعد تمرد الشيطان على أمر الله ، وللإعراب عن رغبته في مشاهدة الإنسان ، ذلك المخلوق الجديد الممتاز ، ومعرفة المزيد عنه . والمَلَكُ جبريل اسمه يعني الأمير ذا القوة ، ويتمتع بحرية القيام بما يراه من مهام في الفردوس ، وهو يمر أمام الجوقة فتطلب منه أن يقص ما يعرفه عن الإنسان وعن خلق حواء وعن حبهما وزواجهما . ويظهر الشيطان بعد ذلك ، وبعد أن أطاحت الملائكة الأبرار به ، فيبكي مآله وسوء حاله ، ويعرب عن سعيه للثأر من الإنسان ، وتستعد الجوقة لمقاومته عند اقترابه ، ولكنه يحادثها حديثًا ينم عن العداء المتبادل ثم يرحل . وهنا تنشد الجوقة شعرًا عن المعركة والانتصار في السماء عليه ، وعلى المتواطئين معه ، وعلى نحو ما حدث في البداية تنشد الجوقة ترانيم الخلق في ختام الفصل الأول . وقد يعود الشيطان إلى الظهور ليحكي ما فعله لتدمير الإنسان متفاخرًا متباهيًا، وبعد ذلك يظهر آدم وحواء بعد أن يكون الثعبان قد أغواهما، وقد أصابتهما الحيرة

واختلطت عليهما السبل ، «يرشدهما الضمير» فنراهما وقد طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، ثم يهديهما «العدل» إلى الساحة التي يطلب يَهْوَهْ أن يراهما فيها، فيخرجان ، وتُغنّي الجوقة على المسرح أثناء ذلك، ويدخل أحد الملائكة فيطلع الجوقة على أسلوب سقوط آدم ، فتندب ما حدث له ، وهنا يعود آدم وحواء فيتبادلان التهم ، وبخاصة آدم الذي يلقي تبعة ما حدث على حواء ، ويبدي المكابرة في الإثم ، ويدخل «العدل» إلى المسرح ثانيًا فيجري معه حوارًا منطقيًا ينتهي باقتناع آدم بما سمعه ، وتلوم الجوقة آدم وتطلب إليه أن يحذر من الشيطان البذيء المتطاول . ويُرْسَلُ مَلَكٌ لإخراج آدم وحواء من الفردوس ، ولكنه يعرض عليه مشاهد مجسدة لجميع شرور هذه الحياة وهذا العالم ، وتتقاصر نفس آدم في عينه ، ويلين جانبه ثم يصيبه اليأس . وأخيرًا تدخل «الرحمة» إلى المسرح فتعزّيه وتعده بمقدم المسيح، ثم تنادي على «الإيمان» و«الرجاء» و«الإحسان» ،وترشده بالعلم فيتوب ، ويقر لله بالمجد ، وينصاع للعقوبة الصادرة عليه . ثم تختتم الجوقة المسرحية ختامًا موجزًا . تقارن هذه المسودة بالمسودة السابقة .

وترجع أهمية هذه المسودات إلى أنها تُهيئنا للنظر إلى الفردوس المفقود باعتبارها مأساة في بعض جوانبها ، بل وقد تكون - كما يذهب إلى ذلك فاولر - ملحمة مأسوية لا ملحمة خالصة ، فالأمر لا يقتصر على احتوائها حوارات كثيرة بل أكثر مما نجد في الملحمة العادية ، وإن كان ذلك يصدق على الكتب : *2* و *3* و *8* و *9* ، ولكن الشخصيات أيضًا تميل إلى القيام بأدوار الأبطال المأسويين ، وعلى رأسهم إبليس نفسه الذي يكثر من المناجاة الدرامية (*Soliloquies*) إلى الحد الذي جعل دنيس بيردن (في كتابه الملحمة المنطقية - *1967* - انظر المراجع) يعتبره بطلاً شريرًا مثل الأبطال الأشرار في

المسرح الإليزابيثي ، وكانت هيلين داربيشر *Helen Darbishire* قد سبقت بيردن في الإلماح لهذا في مقال نشرته عام *1948* ،وقد وجد كل منهما ذريعة في قول ميلتون في مطلع الكتاب التاسع : ...

إذ لا مناص لي الآن من تغيير

تلك النبرات إلى لحون المأساة ... 6 - 5

والواقع أن «النبرات» المأساوية تتجلى بأكبر وضوح في الكتب الأربعة الأخيرة ، حيث يحافظ ميلتون على الوحدات المسرحية الكلاسيكية ، خصوصًا «وحدة الزمن» إذ تجري الأحداث كلها في غضون *24* ساعة ، وأما المشاهد التي يستدعيها ميكائيل من المستقبل فهي لا تعتبر «حبكات ثانوية» بقدر ما تعتبر قصصًا تصب في الحدث الرئيسي كأنما هي تنويعات عليه ، ولو أن فاولر يعتبرها «مأساوات صغيرة» ، ويحافظ ميلتون على تقاليد المأساة الكلاسيكية فيما يسمى «بالانقلاب» وما يسمى بالتكشف . ولقد تطارح النقاد الآراء بشأن النوع الأدبي المحدد (*genre*) الذي تنتمي إليه الفردوس المفقود نظرًا للتعدد والتشابك بين الأقاصيص والخطب والوصف والحوارات الدائبة بين الشخصيات ، وإن كانت الملحمة – تعريفًا – نوع أدبي يستطيع أن ينتظم في داخله عدة أنواع ، على نحو ما بينت باحثة هي بربارة لوالسكي في دراسة لها بعنوان: «الأنواع الأدبية في الفردوس المفقود» وأدرجت في الكتاب الذي حرّره دنيس دانيلسون (*1989*) [طبعة *1996*] – انظر المراجع .

وقد آثرت أن أثبت هذه المسألة في التصدير قبل أن أعرض في المقدمة تفصيلاً لمعنى الملحمة ، حتى يكون القارئ على وعي بذلك الثراء العجيب في الأساليب ، وفي تحوّل زمن الفعل الذي يستخدمه ميلتون من الماضي إلى الحاضر والمستقبل ، كما يتغير الفاعل (فيما

يشبه الالتفات بالعربية) بسبب تعدد «المنظورات» التي يقيمها الشاعر للأحداث تبعًا لتغير النوع الأدبي ، وهي مسألة أعتبرها وراء الكثير من الصعوبات التي تواجه قارئ اليوم ، ولقد بذلت ما استطعت من جهد لتذليلها في الترجمة .

وأما ما يحفل به نص ميلتون من إشارات إلى الكتاب المقدس فلقد استعنت في رصدها بكتاب لم يعد جديدًا وإن كان الوحيد من نوعه ألا وهو كتاب سيمز (*Sims*) الصادر عام *1962* وعنوانه: «الكتاب المقدس في ملحمتي ميلتون» (انظر المراجع) وكنت أرجع إلى نصوص العهد القديم والعهد الجديد في الطبعات الإنجليزية والعربية المتوافرة ، فأهتدي بها في صوغ عبارات ميلتون في الترجمة ، مسترشدًا «بالمعنى الشعري» الذي ظننته يرمي إليه ، خصوصًا لأنه أحيانًا ما يأتي بعبارات مقتبسة من الشروح لا من المتن ، أي إن فهم ميلتون كان محكومًا بقراءته لتلك الشروح ، وهو ما وجدته في كتاب كتبه أرنولد ويليامز عام *1948* عن شروح سفر التكوين (انظر المراجع)

وأود أن أتطرق في هذا التصدير الموجز ولو بكلمة أو كلمتين إلى مسألة الأسلوب أو اللغة بصفة عامة في نص ميلتون ، فأسلوب ميلتون ليس فقط أسلوب القرن السابع عشر الذي يختلف كثيرًا عن أساليب الإنجليزية الحديثة (في معاني الكلمات وفي بناء الجملة وفي علامات الترقيم) بل هو يختلف في شعره ونثره عن أساليب معاصريه ، مما جعل ستانلي فيش (*Fish*) يبني قضية كاملة على خصائص هذا الأسلوب (تقول بأن معنى ميلتون دائمًا مضمر ، وبأنه يقول ما لا يعبر عنه بالكلمات) . ولكن كتاب النحو [في أسلوب] ميلتون (من تأليف ر.د. إمّا *Emma* انظر المراجع) يلقي بأضواء غامرة على هذا الأسلوب، ويساعد القارئ في الفصل بين «التعقيد»

النابع من اختلاف المنظور الفني والصعوبة الناشئة من تقاليد الأسلوب الكلاسيكي (وخصوصًا البناء اللاتيني). ولقد أساء الكثيرون فهم المقصد الحقيقي من هجوم ت.س. إليوت على نَظْم ميلتون ، فلم يكن يقصد به إلا الهجوم على «تأثير» ميلتون في الشعراء لا النظم نفسه ، على نحو ما أوضح إليوت فيما بعد عام *1947*، ولقد صدرت عدة كتب بعد ذلك تتناول ذلك الأسلوب بالتحليل وتضعه في مكانه الصحيح ، مثل: كتاب ك.س. لويس ، وأرنولد ستاين وإيزابيل ماكافري، وأخيرًا كريستوفر ريكس (انظر المراجع) . ولقد حاولت في الترجمة نقل «مذاق» هذا الأسلوب للقارئ العربي ، وأردفت بالنص شروحًا في الحواشي لتوضيح ما أفعل ، ولكن همّي الأول كان إخراج المعنى الدقيق كاملاً غير منقوص ، ولم أحاول التضحية بأي قدر من المعنى مهما يكن في سبيل «تمثيل» الأسلوب .

وأخيرًا ، قبل أن أترك القارئ للمقدمة والنص والحواشي ، أود أن أشيد بما لقيته من عون من أستاذي الدكتور مجدي وهبة (رحمه الله) ، إذ كانت كلمات التشجيع التي لم يضن عليّ بها حافزًا لي على الاستمرار في العمل ، ولقد قرأ الكتب الأولى التي ترجمتها ونبّهني إلى ضرورة كتابة هذه المقدمة الطويلة ، بل وأعارني عدة كتب من مكتبته الخاصة ، ولذلك فأنا أهدي الترجمة إلى ذكراه العطرة ، وأكاد أحس أنه يعرف ما أفعله الآن ويبدي السعادة به .

ولما كانت الدراسات النقدية الحديثة تتيح وجهات نظر جديدة في تناول الملحمة، فقد أضافت هذه الطبعة مجموعة دراسات منتقاة تمثل جميع تيارات النقد الحديث حتى اليوم (آخرها كتب عام *2002*) مع التركيز على وجهة نظر النقد النسائي. وسوف يجد القارئ هذه الدراسات مترجمة ترجمة دقيقة، مع الإشارة إلى مراجعها الأصلية باللغة

الإنجليزية (ليستعين بها المتخصص الذي يريد أن يتبحر في دراسة الملحمة)، في ملحق خاص بعد حواشي النص. ومن الطبيعي ألا ترد مصادر هذه الدراسات في القائمة الببليوغرافية المرفقة اكتفاء بالنص على الأصول الأجنبية بالملحق نفسه.

محمد عناني

القاهرة 2008

مقدمة

ربما كان أهم سؤال يواجه دارس الأدب الإنجليزي عندما يتعرض لملحمة الفردوس المفقود هو كيف تأتى للشاعر (جون ميلتون) أن يخرج هذه القصيدة الرائعة في عصر تدهور فيه الأدب ولم يكن النقد الأدبي قد بلغ أي درجة من درجات النضج ؟. لقد ساد القرن السابع عشر - بعد السنوات الأولى التي تعتبر امتدادا للعصر الإليزابيثي الذي شهد شكسبير ورفاقه من كبار الشعراء وكتاب المسرح ، وهي السنوات التي شهدت أيضًا ازدهار من يسمون بالشعراء الميتافيزيقيين - انحطاطٌ أدبي شهد به أبناؤه أنفسهم . فالصورة التي تتبادر إلى الذهن عن ذلك العصر صورة أبعد ما تكون عن المناخ الصالح لكتابة الروائع الأدبية - انظر ما يقوله (إبراهام كاولي) الذي توفي في العام الذي نشرت فيه الفردوس المفقود (*1667*) :

إنه ليحزنني ويسوؤني أن أرى ذلك الفن الجليل (يقصد فن الشعر) يستنزف ثرواته الطائلة من براعة الذهن ورشيق العبارة في كتابة المدائح الآثمة الحقيرة للعظماء أو في التشبب المخنث بناقصات العقل من النساء أو في إثارة الضحكات الماجنة بسلاح الهجاء أو - وهذا أرقى ما حققه المعاصرون - في نسج أضغاث الأحلام ورياليها في أساطير الخرافة ومسخ الكائنات .إنها جميعا لحوم باردة خلفها الأقدمون على موائدهم فأعدنا وضعها على النار وتقديمها للطعام .

(دفاع عن ملحمة داود - «الداوودية» - التي كتبها عام *1656*).

والحق أن أهم ما يتسم به القرن السابع عشر هو الاضطراب الشديد في شتى مناحي الحياة، إذ اندلعت حرب أهلية طاحنة انتهت بإنشاء النظام الجمهوري لأول وآخر مرة في بريطانيا، كما أنه القرن الذي ازدهرت فيه الفلسفة العلمية وازدهر فيه العلم الطبيعي كما نعرفه في عالمنا اليوم فكان حافزًا على الهجوم على الشعر (والفن بصفة عامة) لما في الشعر من مجافاة للحقيقة (أي عالم الواقع المحسوس) ومن تهويم في الخيال ، وهو القرن الذي شهد تطورات اقتصادية غيرت من وجه الحياة في أوروبا لأجيال كثيرة، إلى جانب ما ساد القرن من فتن دينية وسياسية أثرت في البناء الاجتماعي أيما تأثير ، وبالتالي في الأدب والنقد .

ويرجع هذا الاضطراب إلى عوامل كثيرة بعضها اقتصادي وبعضها سياسي وبعضها ديني محض. أما العوامل الاقتصادية فتنحصر في أن بريطانيا بعد توحيد إنجلترا واسكتلنده، وبعد الكشوف الجغرافية والتوسع في التجارة الخارجية - كانت تقف على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخها وهي مرحلة جني ثمار حركة الإصلاح الديني والتحولات الصناعية والاجتماعية . كان النظام الاقتصادي قد بدأ يتحول تدريجيا نحو الصناعة ولو في صورة صناعات صغيرة، وكانت الزراعة قد بدأت تفقد أهميتها باعتبارها المصدر الأساسي للاقتصاد، إذ لم يكن يعمل بالزراعة إلاّ حوالي ربع السكان - ما بين صغار الملاك والأجراء - وبدأت التجارة في اكتساب أهمية لم تشهدها البلاد من قبل.

فعندما قام الملك هنري الثامن بنزع ملكية الأديرة وأوقاف الكنيسة القديمة كان في الحقيقة يغير من أنماط الملكية السائدة التي ورثتها بريطانيا من عصور الإقطاع تغييرًا شاملاً، إذ وفر رؤوس الأموال اللازمة للاستثمار وخلق لونًا جديدًا من النشاط الرأسمالي . كما أن الازدهار

الصناعي قد حول دفة التجارة من الجنوب (أي من البحر المتوسط) إلى الشمال وأصبح بحر الشمال هو البحر الذي تتجه إليه أنظار كبار التجار، ومن ثم أصبحت بريطانيا مرتبطة - لأول مرة في تاريخها - بأوروبا القديمة . وكان من ثمار هذه النهضة الصناعية أيضًا بناء السفن الشراعية الكبرى والمدافع الضخمة القادرة على التدمير، أي بناء القوة البحرية القادرة على الغزو والاستعمار، وقد اعتمدت بريطانيا على هذه السفن في فتح الأسواق الجديدة لتجارتها.

وإذا كان القرن السادس عشر بحق عصر الاكتشافات الجغرافية - إذ وصلت فيه السفن الأوروبية إلى الأمريكتين، كما اكتشفت سواحل إفريقيا وبدأت تجارة الرقيق - فإن القرن السابع عشر كان العصر الذي بدأ فيه التجار الإنجليز ينتفعون بهذه الاكتشافات، وهذا التوسع الذي لم يسبق له مثيل ، يساعدهم على ذلك توافر رأس المال اللازم للمغامرة .

ولكن التنظيم الاقتصادي الذي بدأ يتغير حتى يواكب الظروف الجديدة كان دائمًا ما يصطدم بالنظام السياسي الذي أصبح يمثل عائقًا كبيرًا أمام هذه المرحلة الجديدة . كان نظام الحكم عتيقًا باليا لا يستطيع مجاراة هذا التغير السريع، فعندما جاء الملك جيمس الأول إلى الحكم في عام *1603* وتولى شخصيا توحيد إنجلترا واسكتلنده كان يواجه تناقضا كبيرًا، فهو حاكم مطلق يدين له الجميع بالولاء ، ومع ذلك فهو يحكم من خلال برلمان انتخب الشعب أعضاءه. والحق أن البرلمان كان قائما في عصر الملكة إليزابيث، ولكنه كان مؤسسة مسالمة مطيعة إذ كان يوافق على ما تطلبه من أموال ويذعن لآرائها ولا يعترض عليها إذا هاجمته وقرعته لاختلاف في الرأي أو لتناقض في القرارات. أما مجلس العموم الذي كان الملك جيمس الأول يواجهه، فكان يمثل التغيرات الاجتماعية التي بدأت تؤثر على مفهومات

السلطة والحكم يومًا بعد يوم إذ كان يمثل الطبقات الجديدة التي تعمل بالتجارة والصناعة، كما كان يمثل بعض أصحاب الحيازات الزراعية الذين بدأوا يطالبون بالمشاركة في إدارة الحياة السياسية في البلاد.

وكان مجلس العموم يعارض حكم الملك آنذاك لعدة أسباب أهمها أنه كان تعسفيا، ولم يكن من اليسير التنبؤ بما سيتخذه من قرارات. كما أن الملك كان يعتمد على المقربين إليه ويحابيهم مثل دوق بكنجهام الذي كان جشعا لا يشبع له نهم وكان إلى ذلك أبعد ما يكون عن الكفاءة في الإدارة السياسية . وكانت حكومة آل ستيوارت هذه تنزع إلى التدخل لصالح بعض أفرادها وبخاصة أعضاء الأسرة المالكة في إدارة التجارة والصناعة وتنظيمهما ولم يكن هذا التدخل في صالح السواد الأعظم من التجار والصناع بطبيعة الحال، ومن ثم ارتفعت الأصوات في البرلمان معترضة على هذا التدخل، وبخاصة على نظام الاحتكار الذي كان من أهم ملامحه ، إذ كان الملك يبيع حق احتكار صناعة من الصناعات لفرد أو لشركة مقابل مقدار معين من المال، مما يتنافى مع انطلاقة الاقتصاد الجديدة ويضر بالصالح العام.

وأخيرًا فقد كان البرلمان يعارض السياسة الخارجية لإنجلترا لتضاربها وغموضها، فقد حاولت الحكومة مثلا إيجاد عروس للملك الجديد (شارل الأول) من إسبانيا التي تدين بالكاثوليكية وأدان الشعب (الذي كان قد تحول عن الكاثوليكية) هذه المحاولات، ومن ثم نشأ صراع مرير فشلت على أثره المحاولات، بل إنها أدت إلى قيام الحرب بين إنجلترا وإسبانيا، وتلا ذلك قيام الحرب بين إنجلترا وفرنسا بذريعة زائفة هي الدفاع عن المذهب البروتستانتي في أوروبا، وقد كانت الحرب باهظة التكاليف خاسرة من جميع الوجوه.

وقد وصل هذا الاضطراب إلى ذروته في عام 1628 حين

عقد الملك شارل الأول اجتماعا للبرلمان للموافقة على تقديم الأرصدة والمؤن الخاصة بالحرب، فإذا بالبرلمان ينتهز الفرصة لإثارة الاعتراض على حكمه، وبالفعل أصدر «تظلما قانونيا» قدمه إلى الملك يعترض فيه على فرض الضرائب دون موافقة من البرلمان ، والقبض على الأفراد وسجنهم دون اتهام ودون محاكمة بل دون اللجوء إلى أي قناة من قنوات العدالة المعروفة، وعلى تقديم القروض قسرًا إلى الملك ، وتجنيد أعداد كبيرة من أبناء الشعب للاشتراك في الحرب، وجاء في نهايته :

ومن ثم فهم يتوسلون إلى جلالتكم الكف عن إرغام أي رجل على تقديم العطايا أو القروض أو الهبات الخيرية أو الضرائب أو ما شابهها دون موافقة الغالبية ،أي دون قرار برلماني ، وألا يساءل أحد أو يستدعى للشهادة أو يحتجز أو يحبس أو يضطهد أو ينكل به بسبب إدلائه بشهادته أو امتناعه عن الإدلاء بها ، وألا يسجن أو يعتقل أي رجل حر بالصورة التي وصفناها آنفًا ، وأن تتكرم جلالتكم بتسريح الجنود والبحارة الذين أشرنا إليهم وألا يتحمل شعبكم مثل هذه الأثقال في المستقبل .

وكان هذا التظلم بمثابة إعلان للحرب بين البرلمان والملك، ومن ثم قام شارل الأول بحل البرلمان واستمر في الحكم دون برلمان أحد عشر عامًا حتى اضطر تحت ضغط الحاجة المادية إلى دعوة البرلمان للانعقاد ثانية عام *1639* .

ويعتقد الكثيرون أن القضية الأساسية التي شغلت الرأي العام وجرت وراءها الفتنة الكبرى، ومن ورائها الحرب الأهلية لم تكن قضية سياسية بقدر ما كانت قضية دينية . إذ إن حركة الإصلاح الديني لم تكن قد اكتملت وكانت الكنيسة الإنجليزية حلا وسطا لا يمكنه أن يرضي الجميع، إذ إن «صيغة» الكنيسة الإنجليزية كانت تعتمد على نظام الأساقفة، بل إن الكنيسة

الأنجليكانية كلها كانت تعتمد على سلطة الأساقفة غير المحدودة، وكان وجه الاعتراض على هذا النظام هو أن الأساقفة لم يكونوا يمثلون سلطة دينية خالصة، ولكنهم كانوا دعامة من دعامات الملكية، أي أنهم كانوا دعامة من الدعامات التي ارتكز عليها الحكم الذي أثار سخط البرلمان ومن ورائه الشعب . وعندما اعترض المشيخيون (البرسبتريانز) على حكم الأساقفة في عصر جيمس الأول رد عليهم بالمقولة الشهيرة: «إذا ذهب الأساقفة ذهب الملك» .

ولكن الاعتراض على حكم الأساقفة كان يمثل جانبًا واحدًا من جوانب القضية، إذ إن الإحساس الذي ساد تلك الفترة هو الخوف من البابوية، وذلك لارتياب أهل إنجلترا في إخلاص أي مواطن يدين بالكاثوليكية باعتبارها مذهب الأجانب الذين يتربصون بالبلاد وباعتبارها - بطبيعة الحال - المذهب القديم الذي تحررت منه إنجلترا حين انفصلت الكنيسة فيها عن كنيسة روما . وفي عام *1601* وضع توماس ولسون كتيبًا يشرح فيه الأسباب التي تحتم الولاء للكنيسة المعتمدة، وقال فيه :

إن أهم قضية هي أن نكسر شوكة الأعداء الذين يعيشون بين ظهرانينا فالأهالي ينقسمون إلى أربع فئات : أولها البروتستانت الدينيون ، وثانيها البروتستانت السياسيون ، وثالثها البابويون الدينيون ، ورابعها البابويون السياسيون . وأول هذه الفئات هم الذين يخلصون للدولة الإخلاص كله . أما الفئات الثلاث الأخرى فهي خطرة .

ويكفي أن نتذكر أن الملك شارل الأول - رغم اعتناقه الأنجليكانية وإصراره على الدفاع عنها - كان قد اقترن بزوجة كاثوليكية وكان أفراد الأسرة الحاكمة متهمين بعطفهم على البابويين، مما جعل الشعب يخاف من عودة الكنيسة الإسبانية ومحاكم التفتيش

وما صاحبها من أهوال .

وكان أفراد الشعب لا يستطيعون الاطمئنان إلى الأساقفة لهذا السبب نفسه، أي لأنهم كانوا يوحون بإيمانهم بنظام الحياة البابوي، فكان الكثيرون من القسس يهتمون بالمال وبالعيش في بذخ وأبهة بل كان بعضهم يزاول الأعمال الدنيوية - كالعمل بالقانون أو التدريس - إلى جانب عملهم في الكنيسة، وكانوا من ثم يهملون رسالتهم الأولى وهي الوعظ والإرشاد، وأهم منها ضرب المثل لغير المتفقهين في الدين . وربما كان هذا هو ما أشعل الشرارة الأولى للبيوريتانية أو ما يترجم عادة بمذهب المتطهرين، وإن كان أقرب إلى الحركة الدينية العامة منه إلى المذهب المقنن . ولما كانت الثورة الإنجليزية التي أتت بالجمهورية ووهب الشاعر ميلتون نفسه لها قلبا وقالبا ثورة بيوريتانية في المقام الأول فلابد لنا أن نقف على أهم ملامحها.

البيوريتانية في جوهرها حركة إصلاح ديني يرجع منشؤها إلى الدعوة الكالفينية (نسبة إلى كالفن الذي عاش في جنيف في القرن السادس عشر) وإن كانت قد تطورت في إنجلترا في القرن السابع عشر من حيث مظاهرها وأنماط السلوك التي اقتضتها . أما أساس الكالفينية فهو الرفض التام للكاثوليكية بكل ما تشتمل عليه من مقومات طقسية وكنسية معقدة والدعوة إلى الإيمان بالتسيير . فكان (كالفن) يقول: إن الله قد اصطفى عباده المخلصين قبل بداية الزمان وهم يعرفون بهذا الاصطفاء عن طريق التهجد وقيام الليل والإصغاء إلى صوت الهداية في أعماقهم . فعلى من يريد أن يعرف إن كان من بين المصطفين أن ينشد الهداية ويسعى لها سعيها وينهى النفس عن الهوى. وأهم من هذا كله هو التوفر على كلمات الله في الكتاب المقدس . أما الذين اتبعوا طريق الضلال فإن الله يعاقبهم رغم علمه

المسبق بفسقهم، لأن علمه المسبق لا يعني رضاه عن فسوقهم . وهكذا فقد رفض (كالفن) وساطة أي شيء أو أي إنسان بين الفرد وربه، ودعا إلى إزالة الحجب التي أقيمت على مر العصور عن طريق الكهنوت المعقد . وقال: إن على الفرد أن يكثر من الصلاة ومن تأمل كلمات الله وآياته - وقد ورث البيوريتانيون هذه العقيدة إذ كانوا يرون في الكتاب المقدس آية ناطقة، فإذا ما عكف عليه الإنسان وأحله من قلبه محل الروح من الجسد استطاع أن يسمع صوت الرب وهو يتحدث إليه .

وربما لم نجد في الأدب الإنجليزي ما يمثل هذه الروح مثل الرواية التي كتبها (جون بنيان) في ذلك الوقت بعنوان: رحلة الحاج ، فهي تعبر ببساطة ويسر عن تغلغل الروح الكالفينية في صميم الثقافة الشعبية بل والريفية في إنجلترا . وفي أحد مواقفها يعرض المفسر صورة لطفلين على كريستيان (أي المسيحي) يظهر فيها أحدهما وقد علا محياه السخط والاستياء ويظهر الآخر وهو ينعم بالرضا والسعادة ...

وهنا قال كريستيان للمفسر : زد هذا الأمر إيضاحًا لي . فأجابه قائلاً : هذان مثلان . الأول يمثل أشواق أهل هذه الدنيا ، والثاني يمثل صبر أهل الآخرة . فكما ترى تريد الأشواق تحقيق كل شيء دونما إبطاء ، هذا العام أي في هذه الدنيا . فهكذا أهل الدنيا ، يريدون كل الخيرات الآن ولا يستطيعون الانتظار حتى العام القادم أي حتى الدار الآخرة ليحصلوا على نصيبهم . وهم يعترفون بالمثل القائل : «عصفور في اليد خيرمن عشرة على الشجرة » أكثر من اعترافهم بكل الشواهد الإلهية على خيرات العالم الآخر ، ولكن ذلك الطفل كما ترى قد أنفق كل ما كسبه ولم يعد لديه ما يكسوه إلا ذلك الثوب البالي . فهكذا أهل الأرض عندما ينتهي هذا الكون .

وعندئذٍ قال كريستيان : الآن أرى أن الصبر هو أسمى حكمة ،وذلك لأكثر من سبب : فصاحب الصبر ينتظر حتى ينال أفضل الخيرات ،

كما أنه يحظى بالمجد في نهاية المطاف بعد أن يزول كل شيء ولا يبقى لصاحبه إلا الثوب البالي .

والاستعارة التي تقوم عليها الرواية قديمة قدم الإنسان نفسه ونعني بها تصوير الحياة على أنها رحلة عبر هذا العالم، رحلة قصيرة محدودة لا أهمية لها في ذاتها، ولكن البيوريتانيين كانوا يبدون أشد الاهتمام بوسائل تأمين المسافر وتزويده بخير الزاد وهو التقوى . فكانوا يرون أن الأساقفة والملوك يحولون وجهة نظر المسافر عن الصراط المستقيم . ويذكر المؤرخ الكبير ر.هـ طوني أن البيوريتانيين كانوا يفسرون الروح الكالفينية تفسيرا علميا، وذلك بأن جعلوا حلبة الصراع ضد الشر هي نفس الإنسان، أي أن الفرد الذي يشعر بمعنى « النهاية المحتومة » لابد أن يحول هذا الشعور إلى موقف إيجابي يتمثل في ضبط النفس وقمع الشهوات والعمل الصالح . وهكذا أصبحت الإرادة البشرية عنصرًا أساسيًا من عناصر العقيدة البيوريتانية وكان لابد لها في نظر البيوريتانيين من أن تتجلى في الأفعال، أي في مظاهر السلوك التي تنم عن الإحساس الجارف بأن الإنسان يحيا دائمًا في ترقب للدار الآخرة .

وقد استطاعت الكالفينية أن تتغلغل في المجتمع الإنجليزي في ذلك الوقت لأنها كانت تشبع حاجة إنسانية عميقة يحسها الجميع . كان ثمة علاقة لا شك فيها بين افتقار الإنسان إلى الأمن ونشدان العالم الآخر : إذ إنه عندما تضعضع النظام الإقطاعي وازدادت أهمية المدن تزلزل النظام الاجتماعي كله واهتزت ثقة الناس في الأعراف الاجتماعية القديمة ، وكما يقول المؤرخ طوني في كتابه: الدين ونشأة الرأسمالية . كان الناس في حاجة إلى اليقين في تلك الفترة الهامة من فترات التحول والشك والبلبلة، ومن ثم اتجهوا إلى التجربة الفردية المتمثلة في علاقة الفرد بخالقه . ولهذا

كانت البيوريتانية مذهب الفرد الذي لا يحتاج إلى وساطة أي إلى نظام ديني (كنسي) أو اجتماعي ليحدد معنى حياته ويبلور قيم تجربته الخاصة . فلقد كانت تعلي من شأن الإحساس الديني الفردي، ولا تتطلب من الأفراد إلا أن يلجأوا إلى الله مباشرة لينشدوا الهداية ويعرفوا أنهم من المصطفين. ويقول طوني :

إن الروح البيوريتانية قد اختارت منزلها في تلك الطبقات الاجتماعية التي تجمع بين الاستقلال الاقتصادي والتعليم والاعتزاز المعقول بمكانتها . وقد ظهر هذا الاعتزاز في إصرارها على انتهاج سبيل الحرية والاستقلال دون الخنوع والاستخذاء لأسياد من البشر . كما تجلى هذا الاعتزاز أيضًا في احتقارها لكل من كان يفتقر إلى الشعور بالسيادة والاستقلال ،أي لكل من أبدى الخضوع لغيره سواء عن ضعف في الشخصية أو نتيجة لضغوط اقتصادية لا قبل له بها .

وهكذا فقد ساهمت معارضة البيوريتانيين للكنيسة الرسمية في تعزيز المشاعر الجديدة للطبقات المتوسطة وتدعيم رغبتها في التخلص من القيود القديمة المفروضة على العمل ، ونشدانها إقامة نظام حكم ذاتي مستقل مأمون. وكان الإصرار على حق الكنيسة في تنظيم نفسها بعيدًا عن تدخل الدولة يسير جنبًا إلى جنب مع الإصرار على تحقيق الحريات المدنية، أي أن البيوريتانية كانت تدعو إلى تحرير الدولة من سلطة الكنيسة بقدر ما كانت تدعو إلى تحرير الكنيسة من سلطة الدولة . وكان السبيل لتحقيق هذا الهدف « البيوريتاني » هو العمل أي الإيجابية الاجتماعية لا الانزواء والتقوقع. يقول ميلتون في كتابه الشهير «أريوباجيتيكا» الذي يدافع فيه عن حرية النشر والصحافة :

لا أستطيع الإطراء على فضيلة هاربة منعزلة لا يمارسها صاحبها ولا ينطق بها . . فضيلة لا تتقدم لملاقاة غريمها بل تنسحب من

السباق ، وهو السباق الذي لا يفوز فيه بأكاليل الغار الخالدة إلا من يَنْصب ويعرق ويثير الغبار في المضمار .

وربمـــا كانت هـــذه الفقرة التي كتبها ميلتون عام *1644* إبان الحرب الأهلية الكبرى مقدمة صالحة لحياة هذا الثائر الذي أخرج أعظم قصيدة في أدب بلاده.

2

ولد ميلتون عام *1608* في لندن . وكان أبوه أول من تمرد في الأسرة على الكاثوليكية - دين آبائه - وضحى في ذلك بميراثه ، إذ حرمه منه أبوه (جد ميلتون الشاعر) مما اضطره إلى العمل حتى يكسب الرزق، ومن ثم عمل كاتبا عموميا في لندن ينسخ المخطوطات والوثائق والمستندات وما إليها ولكنه سرعان ما عزف عن هذا العمل واحترف الموسيقى وتأليف الأغاني . وقد لاقت هذه الأغاني نجاحا جماهيريا لا بأس به . ولا شك أن الآلات الموسيقية (وأهمها الأرغن) التي كانت في داره قد هيأت مناخا فنيا مواتيا لتفتح مواهب جون الصغير، فأولع بالموسيقى من صغره وانكب على الدرس والاطلاع منذ نعومة أظفاره، وهو يقول عن تلك الفترة:

نذرني والدي للأدب منذ طفولتي ، وقد كانت لديّ شهية بالغة للمعرفة حتى أنني منذ الثانية عشرة لم أكن أترك القراءة أو أنام قبل منتصف الليل . وكان هذا هو السبب في فقداني نعمة البصر . فلقد كنت أعاني دائمًا من ضعف البصر ، وكان الصداع يؤرقني دائمًا دون أن يؤثر على حماسي للاطلاع والعلم أو يقعد بي عن مواصلة الدرس .

(ف.ب. تليارد: المراسلات الخاصة والتمارين الدراسية لميلتون - كيمبريدج 1932)

والثانية عشرة بالتحديد هي السن التي دخل فيها مدرسة (سانت بول) ويدأ مرحلة تعلم اللغات الأوروبية، حيث أتقن اليونانية واللاتينية أولاً ثم الإيطالية والفرنسية وقليلا من العبرية . ولكن الإيطالية كانت أهم لغة لديه بل أهم لغة للدارسي الأدب لأنها لغة عصر النهضة . وفي عام 1625 - عندما بلغ السادسة عشرة - التحق بكلية (كرايست كولدج) في كيمبريدج وانخرط في سلك الدارسين الذين كان نشاطهم العلمي ينحصر في «الدفاع عن قضية ما» . فهكذا كان المنهج المتبع في الدراسة آنذاك، أي أنه كان على الطالب أن يتعلم كيف يتلاعب بالأفكار والحجج حتى يدافع عن القضية التي يكلفه أستاذه بالدفاع عنها ، وأن ينتصر لها ويهزم خصومه مهما كانت آراؤه الشخصية . ومن ثم أحس الشاعر الشاب بعقم هذا اللون من التعليم وما ينطوي عليه من نفاق وخاب أمله في الدراسة بها، بل لقد اشتبك أكثر من مرة في نزاع مع أساتذته حول هذا المنهج .

وكان أثناء دراسته غير محبوب لا من أساتذته ولا من الطلاب لأن نزعاته الثورية كانت تعكـــر صفو الأروقة الجامعية، وإن كانت كتاباته باللاتينية والإنجليزية تحوز أكبر الإعجاب وتتمتع بأعظم قدر من الثناء . وعند تخرجه في عام 1628 - 1629 كتب أولى قصائده الشهيرة وهي الاحتفال بصبيحة عيد الميلاد وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين، ثم حصل على درجة الماجستير عام 1632 .

ومنذ هذه اللحظة بدأت مرحلة الإعداد لكتابة الشعر فقد رفض أولاً أن ينخرط في سلك الكهنوت، لأنه أحس - مثل الكثيرين من أبناء بلاده - بما ينطوي عليه ذلك العمل من مسئوليات جسام قد تتناقض مع حرية العبادة والتأمل والعمل الجاد دونما قيود «وظيفية»،

وبخاصة أن النماذج التي كان يراها في هذا المجال لم تكن تتفق والصورة المثالية التي كان يرسمها في خياله للإحساس الديني الذي كان ولا شك يستلهم عصر النهضة ويبتعد عن طقسية حياة الكهنوت . وهكذا قرر أن يتفرغ بعض الوقت للدراسة فعاش مع والده في قرية صغيرة بالريف هي (هورتون) في مقاطعة (بكنجهامشاير) ووضع لنفسه خطة عمل ودرس تتضمن تاريخ العالم منذ البداية اعتمادًا على كل ما كتبه الثقات في هذا الموضوع . وربما كان خير ما يمثل المنهج الذي كان يريده للدراسة هو تلك الفقرة التي كتبها أثناء دراسته في كيمبريدج وطالب فيها بأن يكون إعداد الشاعر شاملا معارف العصر بحيث لا يقتصر على المعرفة التقليدية، بل يتبع سبل عصر النهضة والتطور العلمي الذي ساد القرن السابع عشر:

أما كان الأحرى بكم أيها السادة وأجدر بكرامتكم أن تدعوا عيونكم تطوف بشتى البقاع التي تصورها الخريطة وأن تشهدوا الأرض التي وطأتها أقدام الأبطال القدماء ، وأن تطوفوا بالأقاليم التي ذاع صيتها في الحروب والفتوح والغزوات وقصص مشاهير الشعراء ، وأن تعبروا البحر الأدرياتي العاصف أو تتسنموا مرتفعات جبل (إتنا) التي نجت من حريق البركان ، ثم تدرسوا عادات البشر والدول التي تتبع نظما سياسية محكمة وأن تكتشفوا طبائع الكائنات الحية جميعا ، ثم تصبوا اهتمامكم على أسرار الأحجار والأعشاب وخصائصها ولا تجفلوا من التحليق في السماوات وتأمل الأشكال المنوعة للسحب وجبال الثلوج ومصادر أنداء الفجر . ثم انظروا في خزائن البرد والصواعق ولا يفوتكم مقصد جويتر أو مقصد الطبيعة عندما ترون مُذَنَّبا ضخما رهيبا وهو يهدد بإشعال النيران في السماء . ولا تغفلوا أصغر نجم في السماء من بين الآلاف المبعثرة ما بين القطبين .

أي إنه كان ينزع إلى «التكامل» في اكتساب المعرفة، وقد استطاع أن

يحقق ذلك إلى حد كبير فبعد أن قضى ست سنوات في تلك القرية الصغيرة كتب فيها قصيدتي الليجرو والمفكر ومسرحية كوموس وقصيدة رثاء لصديقه إدوراد كنج (هي ليسيداس) وافق والده على إرساله في رحلة إلى إيطاليا مارّا بفرنسا. ويجمل بنا قبل الحديث عن هذه الرحلة أن نشير إلى بذور مذهبه الشعري في هذه الأعمال الأولى التي يخصص لها النقاد كتبا كاملة وتتلخص هذه «البذور» في الصراع الذي كان قد بدأ يدب في نفس الشاعر آنذاك بين ما اصطلح على تسميته بالدين والفلسفة، وهو ما يمكن أن نسميه اليوم الصراع بين الإحساس الفطري بالوجود (وما يتبعه من نزعات تأمل للجمال ونبض الحياة في أوصال الكون) وبين الاتجاه العلمي الذي يعتمد على معطيات الحس وعلى (الرؤية المقيدة)، أي الرؤية الفنية التي تعتمد على الاتجاه العقلاني، بل وتتخذ العلمانية سبيلا لإدراك الوجود ومنزلة الإنسان فيه.

ويتجسد هذا الصراع في المقابلة التقليدية بين روح قصيدة الليجرو وروح قصيدة المفكر ، فالأولى تمثل بصفة عامة الاحتفال بالحياة المشرقة الوضاءة وتعيد إلى الأذهان أفراح عصر النهضة، وبالذات أفراح العصر الإليزابيثي وروح شيكسبير الذي يمثل الصحة النفسية والانطلاق للطبيعة، وأما الثانية فتمثل الأحـزان التي لا بـد للعقل أن يحيا بها ولها ما دام يواجـه الليل الطويل بظلماته وتراث الفكر الإنساني الذي يحير الألباب. وإذا كان (ليشمان) وهو أحد كبار نقاد ميلتون قد ذهب في كتابه عن هذه القصائد (دار هتشنسون - *1969*) إلى أن التناقض ظاهري فحسب وأن القصيدتين متكاملتان في الحقيقة، فإن جمهور النقاد يرى فيهما هذا الصراع ، ويميل إلى أن يعزو ذلك إلى التقابل الناشئ بين نزعة عصر العلم ونزعة الشعر الفطرية التي تتخطى العلم.

ويتجلى هذا الصراع في صورة أخرى في مسرحية كوموس التي تعكس روح شعراء العصر الإليزابيثي خيرًا من القصيدتين الأوليين (بل إن ليشمان يذهب إلى أن هاتين القصيدتين تمثلان شعر القرن السابع عشر خير تمثيل لما فيهما من جدلية وجدل وصور محكمة تذكرنا بالشعراء الميتافيزيقيين وخاصة جون دَنْ) فالمسرحية تنتمي لنوع المسرح الفكري، وإن كانت تتوسل بالشعر الغنائي المرسل الحافل والنابض بالحياة. ففي المشهد الثالث نرى الساحر الذي يحاول إغواء إحدى الفاتنات يتحدث عن «الطبيعة» وعن الحكمة البادية في كل ما صنعته يد الطبيعة ، محاولا إبراز مناحي الجمال في كل ما يحتويه الكون ، وداعيا العذراء إلى التخلي عن تعففها وعزوفها عن المتعة ، ومن ثم فهو يهاجم أهل التقشف والصبر، ويرجع كل الشرور إلى أصل واحد ألا وهو تقطع الروابط بين الإنسان والطبيعة. وهنا ترد عليه الحسناء قائلة :

أيها الدعيّ ! لا تكل الاتهامات للطبيعة البريئة
فتقول إنها تريد لأبنائها التبذير
في خيراتها ! إنها كريمة تنعم بخيراتها
على الأخيار فحسب ، أولئك الذين
يطيعون قوانينها العاقلة
وأمرها المقدس بالاعتدال والتدبير !
فإذا نال كل رجل منصف ممن أصابهم الفقر بالنحول
نصيبه المعقول من ذلك الترف الفاجر
الذي تنعم به اليوم قلة قليلة
أتخموا بالخيرات أيما تخمة

لأصبحت نعم الطبيعة موزعة توزيعًا عادلا
وبنسب صحيحة لا إفراط فيها
ولما بقي في خزائنها ما يزيد عن الحاجة حقًا .

ولا شك أن الإشارة إلى «سوء توزيع خيرات الطبيعة» في حديث الفتاة الفاضلة هنا إشارة سياسية ، بمعنى أنها كانت بمثابة دعوة إلى «الجمهورية» وهجوم على النظام الملكي (ولكن المسرحية مرت بسلام ولم يصب ميلتون أى أذى نتيجة لهذه العبارات)، ويهمنا بطبيعة الحال أن نرصد في هذا العمل المبكر بذور الفكرة التي شغلت ميلتون طوال حياته ألا وهي فكرة الاعتدال ومن ورائها تصوره أنه يستطيع أن يدرك خيرًا من غيره المقصد السامي للطبيعة والمعاني العميقة التي يمكن للشاعر أن يستقيها من تأمل الوجود دون اللجوء إلى «وساطة» الكهنوت، أي مباشرة وعن طريق العبادة الفردية.

في عام *1638* – كما قلنا – بدأ ميلتون رحلته إلى إيطاليا فحط الرحال أول الأمر في باريس حتى يستطيع أن يلتقي أحد كبار رجال القانون وهو (هوجو جرونتيوس) واستطاع أن يتناقش معه في أصول تطوير القانون الدولي ولكن الجو العام في فرنسا كان يبعث على الانقباض إذ كان (ريشيليو) في ذروة سلطانه ، فترك باريس واتجه إلى إيطاليا فزار أهم مدن عصر النهضة وخاصة فلورنسا حيث قابل (جاليليو) الذي كان قد فقد بصره وتحددت إقامته، كما التقى رجال الجامعة وأهل الأدب والعلم ، ثم اتجه إلى نابولي واجتمع مع أشهر الكتاب والفنانين في أوروبا في ذلك الوقت . ثم ذهب إلى روما وقضى بها أربعة أشهر عاد بعدها إلى فلورنسا، ومن ثم زار البندقية وفيرونا وميلانو، وهناك سمع بنشوب الحرب بين

إنجلترا واسكتلنده، لأن الملك شارل الأول حاول أن يفرض النظام الأسقفي الأنجليكاني على كنيسة اسكتلنده التي كانت تتبع المذهب المشيخي . ولهذا قرر العودة فورًا ليكون قريبًا من تلك الأحداث الجسام .

وعندما عاد ميلتون إلى لندن استأجر مسكنا مستقلا وعمل بالتدريس. كان يريد أن يكون قريبًا من البرلمان، وهو البرلمان الذي استدعاه شارل الأول ليوافق على تمويل الحرب ضد اسكتلنده بعد أن ظل يحكم البلاد أحد عشر عاما (كما ذكرنا آنفا) دون برلمان . ولكن هذا البرلمان - كما اتضح منذ اللحظة الأولى لم يكن ليرضى بتمويل حرب الأساقفة دون إجراء إصلاحات واسعة النطاق في مملكة إنجلترا أولاً - وكانت نذر صراع جديد بين الملك والبرلمان تلوح في الأفق، مما اضطر الملك إلى حل البرلمان بعد أسبوعين فقط من الاجتماعات ومحاولة فرض نظام الأساقفة بالقوة على اسكتلنده . ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع مما جعل الملك في موقف لا يحسد عليه ولم يكن ثم أمامه إلا أن يستدعي برلمانًا آخر في نوفمبر عام *1640* ،وكان هذا هو «البرلمان الطويل» الذي شهد الحرب الأهلية.

وقد شغل ميلتون نفسه منذ البداية بهذه الأحداث ، وعندما لاحت الفرصة أمامه سخر مواهبه وقلمه للدفاع عن القضية التي آمن بها . كان ما زال يعمل بالتدريس في لندن، ولكنه كان تدريسًا من نوع جديد إذ كان يقوم على فكرة ضرب المثل ويتعدى التلقين وتقديم المعلومات إلى تشجيع طُلاّبه على أن يعيشوا حياة تنشد القيم المثالية وتسعى لتحقيق هذه القيم عمليا. فكثيرًا ما كان يدعو إلى المذهب الرواقي في دروسه، وهو ضبط النفس والتحرر من الانفعالات المتطرفة وتحكيم العقل دون إفراط أو تفريط واتخاذ الاعتدال

سبيلاً في كل شيء . بل كان يريد لتلاميذه أن يكتسبوا المعارف الإنسانية العامة (العلوم الإنسانية) إلى جانب بعض الخبرات العملية (الحرف والمهن والصناعات) . ولكن هذا كله لم يكتب له أن يتحقق لانشغاله بالدفاع عن القضية الكبرى وهي إقصاء الأساقفة عن الكنيسة الإنجليزية .

وقد بدأت نذر الحرب في آخر عام *1640* عندما قدم البيوريتانيون عريضة إلى البرلمان يطالبون فيها بهذا (وكانت ممهورة بخمسة عشر ألف توقيع) ورد عليهم أسقف كنيسة (إكستر) واسمه (جوزيف هول) بعريضة يدافع فيها عن النظام الأسقفي (يناير *1641*) ثم رد عليه خمسة من المشيخيين (مارس *1641*) فرد عليهم (هول) ثانيا، وأخيرًا عرض الأمر على مجلس العموم فوافق على إقصاء الأساقفة عن كنيسة إنجلترا، ولكن مجلس اللوردات لم يوافق، ومن ثم اشتد الجدل وحمي وطيس المعركة وكانت تكاليف الطباعة زهيدة والورق متاحا، فبدأت حرب المنشورات والكتيبات وصدرت المئات منها من كل حدب وصوب. وما إن جاء يونيو *1641* حتى اشترك ميلتون في المعركة فأصدر أول كتيب له بعنوان: «سبب حكم الكنيسة» يدافع فيه عن وجهة نظره قائلاً :

إذا شئنا للدين أن يتحلى بالنقاء والروحانية والبساطة والتواضع مثل الكتاب المقدس فينبغي أن يتحلى القساوسة بهذه الصفات جميعا ، وهكذا إذا قام نظام القساوسة على الدرجات الدنيوية من سلطان وتشريف وأحكام دنيوية نراها بعيوننا فسوف يحيل الطاقة الباطنة والنقاء اللذين نجدهما في الكتاب المقدس إلى المادية الظاهرة للقانون ، ومن ثم فسوف تتبخر العبادة الباطنة وتخرج في صور مادية فارغة ومظاهر من البهرج والترف .

ونلمح هنا أهم ما كان يشغل بال ميلتون ألا وهي كلمة «باطنة»، إذ إنه كان يرى فيها جوهر العقيدة البيوريتانية لأن فيها

جوهر الحرية، فهو يعود إلى هذه الفكرة نفسها في كتاب آخر بعنوان :عن العقيدة المسيحية يقول فيه:

يتضمن الكتاب المقدس نوعين من النصوص أولها هو النص المكتوب ، أي الكلمة التي نقرؤها وهذا هو النص الظاهر . أما النص الآخر فهو باطن ،أي أنه روح القدس التي خطت في قلوب المؤمنين .

وكان لهذه العبارات معنى سياسي بطبيعة الحال، إذ إن معاداة الأساقفة معناها معاداة الملك لنفس الأسباب تقريبًا . وقد جاء في الكتاب المقدس ذكر الملوك الفاسدين (انظر سفر الملوك وسفر أخبار الأيام مثلا) وكما يتضح من الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الأول، فإن رغبة بني إسرائيل في اتخاذ ملك لهم لم تلق الرضا بل هي مدانة ومذمومة، وقد عاد ميلتون إلى نفس الفكرة في الفردوس المفقود - في الكتاب الأخير - حيث يقول ما موجزه:

عندما اقترف الإنسان الخطيئة الأولى ، أضاع حريته الحقيقية وهي صنو العقل الصائب وتوأمه ، ولا وجود لها دونه فإذا اكتنفت الظلمات عقل الإنسان ، أو إذا عصى الإنسان عقله فسوف تنشب الرغبات الجامحة والانفعالات الجائحة لتستحوذ على الحكم وتبعده عن العقل ، ومن ثم تخضع الإنسان للرق وتستعبده بعد أن كان حرا ، ولهذا فإذا سمح الإنسان للقوى الحطيطة في باطنه أن تتحكم وتتسلط على العقل الحر ، فإن الله بحكمه العادل يخضعه في حياته الظاهرة لتسلط الأسياد العتاة الذين غالبا ما يستعبدونه دون وجه حق ويحرمونه من الحرية في حياته الظاهرة ، وهكذا ينشأ الطغيان حتمًا ولو كان من المحال التماس العذر للطاغية .

(96/83-12)

وميلتون يقصد «الضمير» حينما يتكلم عن العقل الصائب، كما أنه يقصد بالطاغية كل ملك يحكم دون الرجوع إلى هذا الضمير . وفي الوقت الذي انشغل فيه بكتابة النشرات والكتيبات كان الملك شارل الأول يمثل «الأسياد العتاة» الذين يتحتم وجودهم في الأمم التي تنصرف عن نور الله، ولكن - كما يقول - لا يمكن التماس العذر للطاغية ، وهكذا ساهم ميلتون في هذه المعركة الفكرية التي تحولت بالفعل إلى معارك حربية طاحنة تشكلت فيها جيوش للبرلمان وجيوش ملكية ، ودارت رحاها على مدى سنوات طويلة .

وفي هذه الأثناء فاجأ ميلتون أبناء أخته الذين كانوا يقيمون معه في لندن بزواجه من فتاة تدعى (ماري باول)، والظاهر كما يقول المؤرخون أنه كان قد قضى شهرًا لدى أسرتها إما ليسترد النقود التي كان قد أقرضها لوالد (ماري) وإما ليتم مراسم القران، وذلك في مقاطعة (أكسفوردشير) . وكان ذلك زواجًا غريبًا، إذ إن أسرة (ماري) كانت تناصر الملكية ولم يكن ثم وفاق بين ميلتون وزوجته فلم تدم حياتهما معا في البداية إلا شهرًا. وبعد عدة أسابيع من انعدام التفاهم وانصرافه إلى كتبه ولضيقها بهذه الكتب وربما لضيقه بأفكارها المحدودة أيضًا طلبت إليه أن تعود إلى (فورست هل) لزيارة أهلها فوافق بشرط أن تعود بعد قليل، ولكنها ذهبت ولم تعد . وظل يكتب متوسلا إليها أن ترجع ولكنها لم تلق إليه بالا وتجاهلته تمامًا . وهنا كتب كتيبًا بعنوان: مبدأ الطلاق ونظامه (1643) يدافع فيه عن الطلاق . ويقول (إدوارد فيليبس) ابن أخته إنه كان متأثرًا فيه بأزمته الشخصية، ولكن النص نفسه يوحي بأن الشاعر كان يحس أنه قد أخطأ فحسب، ومن ثم أراد تصحيح الخطأ . والطريف أنه كان يريد من البرلمان تعديل قانون الطلاق حتى يتحلل من زواجه بماري، فلما فشل في ذلك قرر تحدي القانون واتخاذ زوجة أخرى له . ولما تناهى ذلك إلى أسماع ماري قررت

أن تعود إلى زوجها، وبالفعل فاجأته ماري أثناء زيارته لأحد الأصدقاء وتوسلت إليه أن يعيدها إلى منزل الزوجية . وبعد تردد وتفكير قبل أن تعود .

ولكن قصة دفاعه عن الطلاق لم يكتب لها أن تنتهي بعودة المياه إلى مجاريها، إذ إن الكتيب الذي نفد عن آخره كان غفلا من الاسم، ولذلك وبعد نفاد نسخه جميعا أصدر ميلتون طبعة ثانية مزيدة منقحة - كما نقول اليوم - وعليها اسمه ولم تمض خمسة شهور حتى بدأت ردود الفعل لهذا الكتاب الثوري. فقام أحد القساوسة من المشيخيين بمطالبة البرلمان بإحراق هذه الطبعة . ويبدو أن البرلمان كان متعاطفًا مع ميلتون لمناصرته إياه ضد الملك فلم يستجب للنداء، ولكن هذه الحادثة جعلت شركة المكتبات *Company of Stationers* (التي كانت تحتكر تراخيص النشر بصورة غير رسمية وتقوم بعمل يوازي عمل الرقابة على المطبوعات في عصرنا هذا) تنتبه إلى حقيقة الموقف، وهو أن عددًا كبيرًا من المطبوعات كان يرى النور ويوزع على نطاق واسع دون ترخيص . والحقيقة أنه عندما قام البرلمان الطويل بإلغاء البلاط الملكي عام *1641* ألغى معه « غرفة النجوم »، وهي الهيئة التي كانت تتولى رسميا الرقابة على المطبوعات بدلاً من الشركة . ولذلك فقد كانت ثم ثغرة زمنية بين إلغاء الغرفة وعودة الرقابة - رسميا هذه المرة - إلى الشركة ، وهي الثغرة التي سمح فيها بنشر مؤلفات ميلتون، ومع ذلك وبالرغم من عودة الرقابة إلى الشركة - فإن البرلمان سمح له بنشر مؤلفاته أو قل تغاضى عنها للسبب الذي ذكرناه . ولكن ميلتون لم يكن قانعا بأن يسمح له وحده بالنشر، وإنما كان ينشد الحرية للجميع فأخرج كتابه الشهير «أريوباجتيكا» دفاعا عن هذه الحرية . والكتاب يتضمن هجومًا على التعصب المشيخي وتأكيدًا لحرية الاختيار لدى الإنسان (وهو مذهب يعارض مذهب التسيير لدى أتباع كالفن

)، ويعتبر بحق نموذجا لآراء ميلتون الخاصة في الإرادة البشرية الحرة، وهي الآراء التي جسدها فيما بعد في الفردوس المفقود .

يقول ميلتون في إحدى الفقرات من هذا الكتاب :

ليست الكتب كائنات ميتة تمامًا بل إن بها حياة كامنة شأن أرواح من كتبوها . إنها لتحفظ أنقى عصارة وفعالية للذهن الحي الذي أنتجها كأنما هي قنينة محكمة . وإني لأعرف مدى حيويتها وقدرتها على التكاثر فكأنما هي أسنان ذلك التنين الخرافي ، التي يقال إنها كانت تُغرس في الأرض فينبت في أماكنها رجال مسلحون . ومن ناحية أخرى يجب أن نلتزم الحذر لأن قتل الكتاب الجيد يماثل قتل الإنسان بل إن من يقتل إنسانا لا يعدو قتل مخلوق عاقل صوره البارئ في صورته . أما من يهلك الكتاب فإنه يقتل العقل نفسه وصورة الله في الصميم .

ويقول في فقرة أخرى :

نعلم أن الخير والشر لا ينفصلان في هذا العالم مثلهما مثل الشجر الملتف الأغصان في حقول هذه الدنيا وإدراك الخير مشتبك مع إدراك الشر ومختلط به بل إنهما كثيرًا ما يشتبكان ويشتبهان حتى ليصعب التفريق بينهما . وما أشبه ذلك بالعقاب الذي أنزل على (سايكي) حين قدمت إليها بذور متنوعة مختلطة وفرض عليها أن تفصل بين كل نوع منها . لقد تسبب مذاق تفاحة واحدة في جلب المعرفة بالخير والشر إلى هذا العالم باعتبارهما توأمين ملتصقين . وربما كان هذا القدر الذي انساق إليه آدم بمعرفة الخير والشر هو أن يعرف الخير عن طريق الشر . ومن ثم فإن حال الإنسان اليوم يطرح السؤال التالي : أنى لنا أن

تتأتى حكمة الاختيار ، أو الفضيلة والصبر دون أن نعرف ما الشر ؟

وفي فقرة أخرى يقول :

ينعي الكثيرون على العناية الإلهية أن تركت آدم يقترف الإثم ! ما أحمق تلك الألسنة ! إن الله حين وهبه العقل وهبه في الحقيقة حرية الاختيار فما العقل إلا الاختيار .

ثم يتناول موضوع الرقابة على المطبوعات مباشرة على ضوء ما سبق فيقول:

فلتفرض أننا استطعنا أن نناهض الرذيلة بهذه الوسيلة (أي الرقابة على الكتب) : لنوازن إذن بين مقدار ما نناهض من الرذيلة وما نناهض من الفضيلة إذ إنهما متوازيتان : فإذا قضيت على الأولى قضيت عليهما معا . وهذا يبرر العناية الإلهية العليا للبارئ فهو يأمرنا بالاعتدال والعدل والتعفف ، ومع ذلك يغدق علينا من النعم والرغائب ما يفوق كل وصف ، ويهبنا عقولا تصول وتجول فتتخطى كل حدود وكل إشباع .

وباختصار فإن ميلتون يبرز في هذا الكتاب مساوئ الرقابة باعتبارها وصاية لا تليق من قبل سلطة تزعم لنفسها المعرفة بالخير والشر دون الناس أجمعين. ويتكرر ذكر التشبيه بالمدرسة وبالعصا كما يتردد ذكر الحاجة إلى ترك الحقيقة لتفصح عن نفسها – وهل من المعقول أن تندحر الحقيقة في معركة حرة ؟! ومع ذلك فهو لا يطالب بالحرية المطلقة أي التي لا تعرف القانون أو النواميس الخلقية، ولذلك فهو يقول: إن القانون يجب أن يحرم الإلحاد والتشهير بالأبرياء واستخدام الألفاظ الفاحشة، كما ينبغي أن يحرم الدعوة إلى ما يدين به الأعداء أو ما يدعو إلى التعصب، إذ إنه ثمّ ما يمكن تسميته بحرية التعصب (ولهذا فهو يرفض الدعوة إلى الكاثوليكية)، وفيما عدا ذلك يطالب بالحرية الكاملة للكتب والمطبوعات على اختلاف

ألوانها.

والحق أن ميلتون كان يشعر آنذاك بسعادة غامرة مبعثها الأمل الذي أشرق في نفسه منذ أن أعلنت الحرب بين الملك والبرلمان - الأمل في أن تنتصر الجمهورية ويسود الخير والعدل وكل القيم العليا التي تدعو لها الأديان السماوية - وما أشبه إحساسه آنذاك بما أحسه (وليم وردزورث) عندما نشبت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ! لقد أحس بأن «فرنسا تقف على أعتاب العصر الذهبي، وأن الطبيعة البشرية تشهد ميلادها الجديد! » - ولكن ميلتون كان يحس الآن أن كلمة الله توشك أن تصبح الكلمة العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقد أعرب عن هذا الأمل الغامر في كتيب كان قد أصدره عام *1641* بعنوان: **الإصلاح الديني ونظام الكنيسة في بريطانيا** - وكان هذا الإحساس هو الذي أوحى إليه في هذه الظروف بفكرة الفردوس المفقود فكأنما كان الأمل في استعادة الفردوس براقًا وضّاءً غامرًا وكان يحس أنه يعيش أحداث مسرحية كبرى لا بد أن تنتهي نهاية سعيدة .

انظر ما قاله في هذا الكتيب :

وسط ترانيم القديسين وتهليلهم وتكبيرهم ، ربما سمعنا صوتا يعرض أن ينشد أنغاما عليا ، وألحانا جديدة سامية يحتفل فيها برحمتك التي وسعت كل شيء وحكمتك وحكمك البديع في هذه الأرض على مر العصور ، فإذا بهذه الأمة العظيمة المحاربة التي تدربت وتعلمت فن إعلاء الحق والخير بحمية وإخلاص ومثابرة ، وقد نزعت عن نفسها مثالب الرذيلة القديمة .

ولا شك أن تأخير كتابة الفردوس المفقود إلى ما بعد عودة الملكية قد صبغ الملحمة بصبغة مأسوية، وقد كان ميلتون يريد

لها أول الأمر أن تكون مسرحية من نوع التراجيديا، ثم رأى من الأفضل كتابتها في قالب ملحمي.

ولا يهمنا الآن أن نرصد تفكير ميلتون في هذه السنوات العاصفة أي سنوات حكم (كروموبل) - منذ إعدام الملك شارل الأول في 30 يناير *1649* وحتى عودة شارل الثاني ملكا في 29 مايو *1660* - ويكفي أن نذكر أنه ارتبط بالنظام الجمهوري ارتباطا وثيقا إذ عينه مجلس الدولة (يقابل مجلس الثورة في أيامنا هذه) في منصب (أمين المجلس للغات الأجنبية) وكانت مهامه تتضمن كتابة الرسائل باللاتينية إلى الدول الأوروبية، وترجمة ما يتطلبه المجلس من نصوص إلى هذه اللغة ومنها، فكان أشبه بالمدافع الرسمي (إعلاميا) عن النظام الجمهوري. وقد ركز فيما كتبه في هذه الفترة على الحكمة البادية في الإطاحة برأس الملك وعلى مناحي العدالة والحق في السياسة التي يتبعها المجلس. وقد أجهد نفسه في هذا السبيل إجهادا كبيرًا حتى جاء اليوم الذي أحس فيه أنه يفقد بصره بالتدريج، وبالفعل لم ينقض عام *1649* إلا وقد ذهب بصر إحدى العينين.

وفي عام *1651* فقد ميلتون بصره تمامًا، ومع ذلك فقد كان مستمرًا في كتابة النشرات والكتيبات دفاعا عن النظام الجمهوري ودحضا لحجج أنصار الملكية، وهي الحجج التي كانت تتناقلها أوروبا بإيعاز من شارل الثاني الذي كان يعيش لاجئا طول هذه الفترة في فرنسا. وبعد ذلك بعام توفيت زوجته ماري تاركة له ثلاث بنات. وقد أثر عليه فقد البصر ورحيل زوجته فقل نشاطه السياسي خاصة أنه قد أحس أنه قد أتم دفاعه عن الجمهورية وأنه قد أدى واجبه وقام به خير قيام - ويمكننا أن نقول بصفة عامة إنه قد توقف عن كتابة النشرات العنيفة بعد عام *1655*. وفي عام *1656* - بعد أربع سنوات من وفاة زوجته - تزوج للمرة الثانية. وكانت خير القرين لهذا

الرجل الحاد الطبع الذي يعاني الأمرين من فقدان البصر ومن تبعات منصب لم يعد قادرًا على النهوض به . ولكن الهناء لم يدم طويلا إذا توفيت في عام 1658 أثناء الولادة (وتوفي المولود أيضًا) وهو نفس العام الذي مات فيه أوليفر كرومويل . ولا يستطيع قلم تصوير مدى معاناة هذا الشاعر الكفيف ذلك العام ومدى إصراره على العمل لإنقاذ الجمهورية من الفوضى التي انحدرت إليها بعد وفاة الزعيم المهاب. والروايات التي وصلتنا عن حياته في تلك الفترة متضاربة، ولكننا نستطيع أن نحدس أنه بدأ يحس أن النظام الملكي لابد عائد، وأن أعداء الجمهورية لابد منتصرون ، ولهذا أصدر المزيد من الكتيبات التي تدافع عن كرومويل وتقاوم حركة إعادة الملكية .

وعشية عودة الملكية في عام 1660 أصدر ميلتون كتيبا عنوانه: «الطريق الممهد السهل لإنشاء جمهورية حرة» - كأنما يحاول لآخر مرة أن يقنع مواطنيه بالمنطق وبالعقل ألا يذعنوا للرجعية القادمة . ولكنه نسي أو لعله لم يدرك في غمرة حماسه للنظام الجمهوري ما تكبده الناس من عناء في سبيله والويلات التي جرتها عليهم الحرب الأهلية الطاحنة بل ونزوعهم إلى الاستقرار ولو في ظل حكومة ملكية ظالمة . ويكفي أن نورد صورة عامة لحال إنجلترا في ظل حكومة كرومويل وتسلط البيوريتانية لنرى مدى ضيق الناس بما كان ميلتون يدافع عنه .

كانت البيوريتانية قد بلغت ذروتها في عام 1650 - ونقصد بالذروة تحول المشاعر الدينية المستلهمة من الكالفينية (انظر الجزء الأول من هذه المقدمة) إلى أنماط سلوكية محددة . فقد سادت البيوريتانية الطبقات المتوسطة. أما الطبقات الفقيرة فقد انحازت إلى المذاهب المعارضة (العماديون والكويكرز أو الكاثوليك)،وأما الأرستقراطية القديمة والأعيان (أي الملاك الذين لا ينحدرون من أسر أرستقراطية) فقد تمسكوا

بالكنيسة الأنجليكانية التي رفضتها الجمهورية. وبعد أن كان البيوريتانيون ينادون بالتسامح أصبحوا يتعصبون أشد التعصب لمذهبهم ولا يرتضون سواه ويضطهدون كل من يخالفهم .

وكانوا يدعون الناس إلى إنعام النظر في الكتاب المقدس وبخاصة في العهد القديم، لأنه يمثل مجتمعا يعيش في ظل الله أي في ظل الإحساس بالدار الآخرة ودنو يوم الحساب . وكان ما يشغل البيوريتانيين في شتى مناحي السلوك هو قهر الشيطان الذي لا يني يطارد الإنسان ويتربص به حتى يجره إلى نار جهنم، ولذلك كانوا يتجنبون كل ما ارتبط في أذهانهم بالفتنة أي الانغماس في الملاذ الحسية التي يقدمها الشيطان ليضل بها عن سبيل الله ، فابتعدوا في حياتهم عن الملابس المترفة المعقدة التصميم أو ذات الزخرف والبهرجة ، وحبذوا الملابس البسيطة ذات الألوان القاتمة أو الرمادية، كما نهجوا في حديثهم منهج التفكير والتعقل كأنما كانت كل لفظة يلفظونها درة بها عصارة الحكمة، ولذلك فتصويرهم في الأدب يوحي بالرزانة والرصانة، وكانوا يدعون إلى البعد عن الهزل والمرح وإلى التزام الوقار والجد ، ومن ثم فعلى المؤمن في نظرهم أن يبتعد عن اللهو واللعب، وأن ينحصر تفكيره في المصير الجاد الذي ينتظره بعد الموت .

ولما كانت المسارح قد أغلقت بسبب الحرب عام *1642* لم يكن هناك في ظل هذا الجو القاتم الكئيب ما يدعو لإعادة فتحها حتى بعد انتصار الجمهورية - فظلت مغلقة حتى عام *1656* - وإلى جانب ذلك نزع البيوريتانيون إلى تحريم كل ما يتصل بالفن من لهو ولعب فخرجت كتاباتهم جادة صارمة ، وتغلغلت هذه الروح إلى نظرتهم للفن نفسه فأعادوا النظر في معنى الجمال باعتباره فتنة تصرف الإنسان عن تأمل ما بعد الموت والدار الآخرة، ولذلك لم يكونوا يحترمون جمال المرأة - فالمرأة في نظرهم أم وزوجة صالحة

فحسب . أما المفاتن التي تحدث عنها الشعراء فهي المفاتن التي أخرجت آدم من الجنة، ولذلك فلابد من مقاومتها حتى يستطيع الإنسان أن يعود إلى الجنة . وقس على هذا نظرتهم إلى الموسيقى والرسم والتمثيل فكلها فنون لهو وعبث . وباختصار فقد كان حكم البيوريتانيين حكم قتامة وجهامة لم يكن الجميع بقادرين على تحمله.

ويكفي لتصوير معاناة الطبقات الفقيرة أن نذكر السلطة التي خولها كرومويل للشرطة، وهي سلطة التأكد من التزام الأهالي بالتعاليم الدينية (كالصوم مثلا) ولو اقتحموا البيوت لهذا الغرض ، ومنع أي نشاط تجاري أو صناعي أو غيره يوم الأحد ومنع السير «دونما هدف محدد» كأنما هو لون من ألوان اللهو ، ولذلك لجأ الكثيرون إلى النفاق ونشأت عادات اجتماعية جديدة مثل: ترديد الآيات من الكتاب المقدس في كل مناسبة ، والتذكير بالبعث والحساب والعقاب، ومحاولة الانتصار في أي مناقشة بالرجوع إلى الكتاب المقدس باعتباره الكتاب الذي يتضمن فصل الخطاب في أي موضوع .

والغريب أن هذا كله كان يجري باسم الحرية . ويكفي أن نذكر فقرة من الكتاب الثاني من «الفردوس المفقود» لتصوير نوع المناقشات التي كانت تجري آنذاك على مستوى رجال الكنيسة الكبار :

وجلس آخرون في عزلة على تل بعيد
يتطارحون أفكارًا أسمى وآراء أعمق
عن العناية الإلهية والعلم الأزلي والإرادة والقدر
القدر الذي لا يحول والإرادة الحرة والعلم الأزلي المطلق
فلم يهتدوا إلى شيء بل ضربوا في الشعاب فضلوا وما اهتدوا

الأبيات 557 - 561

ويقول أحد الشراح: إن هذه الأبيات تنطبق على المناقشات التي كانت تدور في مجمع (وستمنستر) للمشيخيين الذين كانوا يحاولون ضم كنيسة إنجلترا إلى المشيخية . ولكن الواضح أن هذه القضايا التي كانوا يناقشونها لم تكن لتفضي إلى شيء حقا، ولذلك فإن ميلتون ينسبها هنا إلى الملائكة الفسقة .

وبعودة الملكية انطوت صفحة تاريخية نادرة من التاريخ الإنجليزي وأحس ميلتون بالمرارة ولكنه لم يستسلم أو يسلم بالهزيمة . بل إنه أصدر طبعة ثانية من كتابه الذي ذكرناه «الطريق الممهد السهل لإنشاء جمهورية حرة». يحذر فيها البرلمان من أن الملك لن يفي بالوعود التي يقطعها على نفسه ، ويقول إنه وإن كان الشعب يريد للملك أن يعود فليس من حق الأغلبية أن تفرض على الأقلية المتنورة آراءها المضللة، وقد استند في هذا أيضًا إلى فكرة الحرية، لأنه لا يمكن التضحية بحرية الأقلية إرضاء لرغبة الأكثرية. وقد كانت هذه الطبعة سببًا في إثارة أنصار الملكية العائدة عليه، فأودع السجن وظل به ثلاثة أشهر حتى توسل بعض الوسطاء إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته وفقدانه البصر ويخرجه من السجن. وفعلا خرج ميلتون من السجن في آخر عام *1660* (*15* ديسمبر) وكأنما كان القدر يهيئ له هذه الفرصة حتى ينصرف إلى كتابة العمل العظيم الذي كان قد نذر حياته له فانقطع للكتابة . وبعد عامين تزوج من اليزابيث منشل (*1663*) وكانت بارعة في إدارة منزله وكانت بصفة عامة خيرًا وبركة عليه إذ تحملت كل شيء حتى ترضيه، كما تحملت بناته الثلاث طباعه الحادة وطالما اشتكين من قسوته وغلظته في تلك الأيام ، ويكفي أن نذكر أنه كان يجبرهن على القراءة له بلغات لا يجدنها .

وفي عام الطاعون (*1665*) انتقل ميلتون إلى بيت أحد أصدقائه من

الكويكرز وهو منزل صغير في الريف الإنجليزي حيث عكف على ملحمته فأكملها ونشرت في عام *1667* . ومع بلوغه سن الستين ازداد نشاطه الأدبي فكتب عودة الفردوس وشمشون الجبار ونشرهما في عام *1670* ،ولم يعمر بعد ذلك طويلا إذ وافته المنية في نوفمبر *1674* وهو يناهز السادسة والستين .

3

ربما بدا للقارئ أن هذه الأحداث الجسام التي شهدتها بريطانيا في القرن السابع عشر ، وبخاصة ذلك الانشغال الذي لم يسبق له مثيل بالدين، لا يتفق مع ما يقال من أن ذلك العصر هو عصر العلم والتنور. وربما تساءل متسائل: كيف يمكن أن يزدهر العلم الطبيعي الذي يقوم على استقراء الحواس ويعتمد على المادية الخالصة في هذا الجو المشحون بذكر الحساب والثواب والعقاب ؟ وسوف نتبين أنه لم يكن ثمة تعارض على الإطلاق إذا ذكرنا أن المصدر الأساسي لفلسفة العصر (وإن لم يكن المصدر الوحيد) هو الفيلسوف الكبير (ديكارت)، فإذا كانت بريطانيا تفخر بأحد المفكرين الذين صوروا روح العصر خير تصوير ألا وهو (توماس سبرات) مؤلف كتاب تاريخ الجمعية الملكية ، فإن جوهر نظرته مستمد من كتابات (ديكارت) ويتلخص هذا الجوهر فيما يلي : يقول سبرات إن هذه الجمعية العلمية قد حذفت من برنامجها موضوعين أساسيين هما: الله والنفس لسبب بسيط، وهما أنهما بديهيتان . فإذا كان من البديهي أن الله والنفس موجودان، فلماذا نشغل أنفسنا بهما ؟. إن تأمل الإنسان ذاته واستبطانه كيانه كفيل بهدايته إلى هذه الحقيقة الأولية التي لا يتطلب إدراكها الانكباب على الدرس أو تجارب المعمل . أضف إلى ذلك أن أفضل وسيلة

لمعرفة الخالق والاهتداء إلى سبيله القويم هي تأمل ما خلق وتدبر آياته في البر والبحر . ومن ثم فإن الفلسفة (أي علم تأمل الكون) تهدي للدين القويم بعد أن كان الشعراء القدماء يقومون بهذه المهمة في الماضي.

وبداهة وجود الله - كما نعرف - فكرة ديكارتية . وكان معاصرو (ديكارت) يرون أن المزية الكبرى لمذهبه هي أنه ، على رفضه القاطع للتقاليد الاسكولائية ، يبقي على جوهر العقيدة الدينية ألا وهو الإيمان بالله. والواقع أن (ديكارت) قد أوضح أن الفكر الجديد يقيم أسسه على افتراض بداهة فكرة الألوهية، ومن ثم فهو يدعمها تدعيما كبيرا بل إنه اجتذب إلى مذهبه الفلاسفة الأفلاطونيين الذين اقترن اسمهم بجامعة كيمبريدج، لأنهم كانوا يريدون أن يمزجوا بين الدين وأفضل المذاهب الفلسفية في عصرهم.

ومن المنبع الديكارتي نهل عدد من مفكري القرن السابع عشر الذين احتفلوا بمشرق التنوير وأولهم (سبرات) كما ذكرنا، فكتابه المذكور يشترك مع كتاب «عبث الدجماطيقية» لمؤلفه (جوزيف جلانفيل) في الاحتفال بانتصارات العلم الحديث وإرساء الحقيقة على أسس ثابتة ، وإطرائه على أولئك الذين أزاحوا «قمامة العصور الخوالي»، وحرروا أذهاننا من سحر الأشباح الخاوية. وفي العديد من فقرات الكتاب يفصح (سبرات) عن مزاج عصره بالدفاع عن دور النثر في «عصر العلم والتنوير» ويطرح جانبا- وفي نبرات واثقة وعنف كبير- خيالات الشعراء «الخاوية» . وهو يبرر وجود الشعر أول الأمر تبريرًا منطقيًا يتفق مع روح عصره إذ يقول: إن العلم قد نشأ أول الأمر في الشرق وفي بلاد اليونان القديمة ، وكان الحكماء والفلاسفة آنئذٍ يريدون أن يوضحوا أفكارهم للقراء، كما كانوا يريدون أن يتقبلها القراء فاستعانوا بالرمز، أي أنهم «قدموها ممزوجة بالخرافات وزخرف الخيال»،

ولذلك فقد كان أوائل علمائهم من الشعراء والفلاسفة في نفس الوقت أو قل إن الشعراء كانوا فلاسفة يرتدون قناع الشعر. فكان (أورفيوس) و(لينوس) و (هوميروس) مثلا يستعينون بسحر النظم في شعرهم وجمال الصور الخيالية لتقديم الأفكار الفلسفية التي أتى بها (صولون) و (طاليس) و (فيثاغورس) . وقد نجح هذا في البداية لأن الخداع كان يرمي إلى الهداية ولكنه أحدث تأثيرًا ضارًا في فلسفة اللاحقين، إذ جعل اليونان مثلا يتأملون الطبيعة لا في نطاق المنطق العلمي، بل في إطار هذه الخرافات الشعرية التي حلت محل الفلسفة .

وقد أكد هذا الهجوم على الشعر باعتباره منافيا للحقيقة والصدق ، ما كتبه هنري رينولدز في كتابه ألغاز الأساطير من أن الخرافات جميعًا قصص رمزية عميقة، فهي لا ترمز فقط للحقائق الخلقية بل تتعدى ذلك إلى الفلسفة الطبيعية، فالأساطير ألغاز ومهمتنا في هذا العصر العلمي - كما يقول - هو أن نفسر هذه الألغاز تفسيرًا صائبًا يتفق مع روح العصر، ولن يتأتى ذلك إلا بالعودة إلى الطبيعة حتى ننظر إلى الحقائق وجهًا لوجه بدلا من الاستعانة بالرمز والخرافة - فما الرمز والخرافة إلا مرآة داكنة تظهر الصور والأشباح ولا تبدي الحقيقة والجوهر .

ويتفق فرانسيس بيكون في مقدمته لكتاب حكمة القدماء مع (رينولدز) في أن الشعر لم يعد صالحا للاستعمال بالصورة التي وضعها الأقدمون، أي إنه لم يعد صالحا لتوصيل الأفكار العميقة وتجليات الحقيقة. صحيح أن منشد الشعر كان يشبه من «يقرع الطبل ليوقظ الذهن والوعي والعقل أيام طفولة المجتمع المتحضر، ولكن الذهن قد استيقظ الآن ولم يعد بنا حاجة إلى الشعر » . وكان بيكون يؤكد أن الشعر «تاريخ زائف» سواء كان قصصيًا أم دراميًا أم رمزيًا. أما ضروبه الأخرى من هجاء

ورثاء وشعر غنائي - فهي تنتمي جميعًا في رأيه إلى فنون القول أو التعبير . أي أنه كان يفرق بين هذه الفنون الأخيرة باعتبارها مجالات للإبداع اللغوي وبين القصص الشعرية أو الدراما الشعرية باعتبارها أمثالا أو رموزًا ترمي إلى إيضاح الأفكار الغامضة لغير المتعلمين أو إلى تقديم الدروس الأخلاقية ذات الفائدة المباشرة . ولكن بيكون يقول في كتابه الأشهر «تقدم المعرفة» (2 - 4) :

ومع ذلك فإنني أميل إلى القول بأن الخرافة في كثير من الأحيان قد سبقت الدرس الأخلاقي ، أي إن القصة التمثيلية قد أتت أولا ، ثم تلتها العظة المستقاة منها .

وبإيجاز يمكننا أن نقول: إن روح العصر التي اكتست ثوبًا علميًا صارمًا كانت ضد الشعر باعتباره عدوًا للحقيقة والواقع ، أي إنه سجل لأكاذيب وترهات عصر غير علمي . ويلخص البروفسور (بازيل ويلي) هذا الاتجاه في كتابه خلفية القرن السابع عشر قائلاً :

إن تطور الشعر الإنجليزي منذ عصر النهضة قد صاحبه جهد دائب وإصرار عنيد على التوصل إلى صورة حقيقية للعالم في ضوء العلم الطبيعي . وقد شهد القرن السابع عشر هذا الجهد الذي تجلى في الفصل الحاسم الدقيق بين الحقيقة والخيال بغية تقديم صورة فلسفية للعالم تختلف عن الصور القديمة المتوارثة . ومن ثم فقد أصبح وضع الشعر غير آمن لأن الفكر في الشعر ليس نقيا أي أن الأفكار في الشعر ليست فقط ثمرة للنشاط العقلي ، وإنما تخضع أيضًا للمشاعر والإرادة ، أو كما يقول فرانسيس بيكون : «إن الشعر يخضع مظاهر الأشياء لرغبات الذهن» ، وهذا هو النقيض لما نسميه العلم الطبيعي . وهكذا فقد بدا للعديد من الفلاسفة أن الشعر هو عدو الحقيقة أو عدو الصدق . ولا شك أن مكانة الشعر قد هبطت وتضاءلت في القرن السابع عشر لأن الثقة التي يكتب بها الشعر في عصر ما تتوقف على درجة اليقين أو الشك إزاء القضايا المطلقة ، ومن ثم فإن نغمة الشعر وإيقاعه

وصوره تتفاوت بحسب المرحلة التي وصل إليها تطور موقف الإنسان من التصديق أو التكذيب . ومعنى هذا أن الشاعر الذي يشعر أن تركيباته الشعرية صادقة مثلما هي معبرة يكتب في الحقيقة شعرا يختلف عن شعر الشاعر الذي يحس أن هذه التركيبات كاذبة ، أي إنها تسيء تقديم الواقع مهما كانت درجة رمزيتها لهذا الواقع بل إن شعره يختلف أيضًا عن شعر من لم ينتبه يوما إلى الفاصل بين الحقيقة والخيال أو متى بدأ هذا الفاصل في التلاشي حتى يلتقي الاثنان . وفي القرن السابع عشر اشتد الاتجاه نحو تخصيص الفلسفة لمعالجة الواقع أو الحقيقة نثرًا وحصر دور الشعر وقصره على الإمتاع ، وذلك بالتصوير الذي يسر القلب والذهن دون أن يخدع القارئ فيتصور أن الخيال حقيقة .

ومن ثم فيمكننا تحديد الملامح الأساسية للمناخ الفكري في عصر ميلتون على هذا النحو : كان انشغال الناس بالعالم الجديد الذي يتفتح أمامهم عن طريق العلم الطبيعي (والاكتشافات الفلكية والجغرافية...إلخ) مدعاة للانشغال بالواقع والإصرار على الوصول إلى «الحقيقة»، ولهذا رفض كبار المفكرين «خيالات الشعراء»، وفي الوقت نفسه ازداد انشغال الناس بالدين والدار الآخرة ولم يكونوا بقادرين على الشك في أن الدين صادق والدار الآخرة حقيقة، ومن هنا كان لابد من التوفيق بين العلم والإيمان . وإذن كان على الشعراء إذا كانوا يطمحون في النجاح إما أن يقبلوا مبدأ الصدق العلمي ، أي التخلي عن المجاز (من استعارة ورمز وتشبيه وأسطورة إلخ) والنزوع إلى التعبير الحقيقي – ولم يكن هذا بيسير ، وإما أن يسخروا شعرهم لتمجيد الدين ولم يكن هذا باليسير أيضًا. ولعلنا نذكر البيتين الشهيرين للشاعر الميتافيزيقي جون دن :

إن الفلسفة الجديدة تدعو إلى الشك في كل شيء

وهكذا انطفأ عنصر النار من حياتنا تمامًا .

أي إن قبول الفلسفة الجديدة بما تتطلبه من بحث عقلاني

وخضوع لمنطق الحواس قد أطفأ في الإنسان الجذوة التي ورثها عن أسلافه - جذوة العاطفة التي تمكن الإنسان أن يتناول أبعد الأشياء عن التصديق فيصدقها، لأن مشاعره (أي عنصر النار فيه) ما زالت متوهجة. ويجمل بنا قبل أن نتعرض لمعنى «الملحمة» أن نلقي بمزيد من الضوء على موقف ديكارت . يقول (بازيل ويلي) في نفس الكتاب:

من المحتمل أن تأثير ديكارت على الفكر في عصره لم يكن في صالح الدين ولا في صالح الشعر على المدى الطويل . وربما كان رفض (هنري مور) لمذهب (ديكارت) مدفوعا بإدراكه لهذه الحقيقة . ولا يدرك المرء لأول وهلة كيف يمكن لمذهب يقول بأن الله والنفس هما أول آيات اليقين أن يناصب الدين العداء أو أن يكون ضد الشعر ، ولكن الدهشة ستزول إذا تذكرنا أن مفهوم (ديكارت) لله وللأنا يعتمد على تجريدات ذهنية ، أي إن الله الذي يراه لا علاقة له بالتجربة الدينية الحقيقية ، وأن مفهومه للأنا لا يزيد عن كون الأنا الجانب المفكر في الإنسان . وإذن فإن اليقين من هذه الحقائق معناه في نهاية المطاف اليقين من علم الرياضيات وحسب .

... .

والواقع أنه مع بداية القرن الثامن عشر تحول الدين إلى مجرد إيمان مبهم بالله وتحول الشعر إلى مصدر للإمتاع ، أي إلى فن يقدم ألوان الزينة والبهرج التي تمتع الخيال بينما يدرك الذهن أنها لا علاقة لها بالواقع . فها هو درايدن يقول في دراسته «دفاع عن الشعر البطولي والمجاز الشعري» : «إن الصورة تسرنا وتمتعنا دون أن يخدعنا الخيال الذي تقوم عليه» أي إن الروح الديكارتية عملت على الفصل الحاسم بين مجال النثر ومجال الشعر ، ومن ثم ساهمت في الإسراع بذلك الانفصام الشعوري الذي قال (إليوت) إنه وقع بعد عهد الشعراء الميتافيزيقيين . أي إنه كان

انفصاما بين القيم والحقائق ، أي بين إحساسك باعتبارك إنسانا أو شاعرا وبين فكرك باعتبارك رجل عقل وحكم وتنور . وبعد أن كان الإنسان (مثل الشاعر جون دن أو الكاتب سير توماس براون) يفكر ويحس في نفس الوقت نثرًا أو شعرًا أصبح عليه أن يفكر نثرًا ويحس نظما .

إن الإحساس بأنك إذا أدركت شيئًا بوضوح وجلاء ، فإن هذا الشيء حقيقي معناه أن بناء الأشياء يتفق مع قوانين الذهن البشري ، والنقيض هو أنك إذا لم تستطع أن تدرك شيئًا بوضوح وجلاء (أي إدراكًا رياضيا) فلابد أن يكون هذا الشيء غير حقيقي . وهكذا فإن الفكر الديكارتي قد دعم الاتجاه إلى قبول الصورة العلمية للعالم باعتبارها الصورة الحقيقية الوحيدة . . . ولما كان الدين والشعر (مهما كانت مفهوماتنا لهما) ينبعان ويعتمدان على مناهج للمعرفة تختلف عن هذا كله فإن الروح الديكارتية كانت ضدهما جميعا .

ولنا أن نتساءل الآن : إذا كانت هذه القوى العلمية والفلسفية قد تضافرت للعمل معا للتوصل إلى «الحقيقة»، ولإثبات أن الصور الشعرية التقليدية بل (والصور الدينية أيضًا) عبارة عن خيالات عفى عليها الدهر وأوهام مقضي عليها بالزوال ، فكيف تأتى للقرن السابع عشر أن يخرج ملحمة الفردوس المفقود - وهي القصيدة التي وصفها درايدن نفسه بأنها «من أعظم وأشرف وأسمى القصائد التي أبدعها هذا العصر أو أبدعتها هذه الأمة ؟ » (دفاع عن الشعر البطولي) ينبغي أن نؤكد أولا أن القرن السابع عشر لم يكن يحترم إلا نوعًا واحدًا من أنواع الشعر ألا وهو الشعر الملحمي، أو ما كانوا يسمونه الشعر البطولي . ولم يكن يتمتع باحترام أكبر من الإلياذة والأوديسة (للشاعر هوميروس) والإنيادة (للشاعر فيرجيل) إلا

الكتاب المقدس نفسه، وقد كانت هذه في الحقيقة تركة عصر النهضة، إذ إن الرغبة في محاكاة أشرف ما أبدعه الأقدمون قد امتزجت بالوطنية والمشاعر القومية آنذاك فحاول الشعراء في كل بلد أوروبي أن يرفعوا من مستوى لغاتهم المحلية (وهي لغات جديدة نسبيًا) بأن يبدعوا بها أعمالا ترقى إلى مستوى (الإلياذة والإنيادة) . وخير شاهد على استمرار هذا الاحترام حتى نهاية القرن ما كتبه درايدن عام *1697* في إهدائه للإنيادة من أن الملحمة الشعرية هي «بلا جدال أعظم عمل تستطيع النفس البشرية أن تبدعه »، ولهذا أسباب لا بأس من أن نعرض لها بإيجاز.

توج القدماء إنتاجهم الشعري بالملاحم، بل إن أرسطو نفسه قد بارك هذه الأعمال الأدبية . كما أن دانتي وأريوستو وتاسو قد أبدعوا ملاحم منوعة رفعت من قدر اللغة الإيطالية وسمت بها إلى مصاف اللغات القديمة. ولذلك كان الفرنسيون والإنجليز يشعرون أن لغاتهم التي بنيت على لهجات محلية لن ترتفع وتنأى عن أصولها غير المتحضرة إلا إذا أبدعت أعمالا مماثلة في نطاقها وتركيبها وسمو موضوعها. أضف إلى هذا أن موضوع الملحمة كان عادة يتضمن بعض الأحداث العظيمة في التاريخ القومي لأمة من الأمم، ويمكن عن طريق هذه الأحداث إذكاء الروح القومية والكرامة الوطنية والنزوع المشبوب لإنجاز ما يمكنها من أن تفاخر به سائر الأمم . وأهم من هذا كله - أي العامل الذي احتفظ للملحمة بمكانتها في عصر التنوير العلمي - هو أنها ولو توسلت بالخيال، ولو اعتمدت على «التاريخ الزائف» ، فإن هدفها لا يقل أهمية عن هدف الحقيقة نفسها ألا وهو التربية الخلقية والنفسية . وقد اتفق جميع النقاد منذ عصر النهضة حول هذا العامل الفريد .

4

ولكن ماذا يقصد بالملحمة ؟ لقد سمعنا أخيرًا في بلادنا من يتحدث عن «ملحمة العبور»، بل ومن يكتب قصائد غنائية (قصيرة أو طويلة) يطلق عليها هذا الاسم، وهذا استخدام شائع يتضمن قسمًا واحدًا من المعاني التي تتضمنها الكلمة. فالكلمة - اشتقاقًا - تعني الالتحام أي تلاقي المقاتلين جسديًا أثناء الاشتباك في حومة الوغى، ومن ثم فهي تعني الحرب. ولا شك أن الحرب كانت دائمًا موضوعًا مميزًا للملحمة . ولكن معنى الملحمة يتجاوز حدود الحرب - فكثيرًا ما يقصد بها الكتاب أي عمل تتخطى أبعاده حدود الواقعية في الحياة أو في الفن (في السينما والرواية مثلا) وعزرا باوند نفسه (الشاعر والناقد الأشهر) يضع يده على أحد المعالم الهامة للملحمة دون سائر معالمها حين يقول إنها قصيدة تشتمل على تاريخ، وقد حاول (ميرشانت) في كتيبه الصغير عن الملحمة أن يرسم لها صفات خارجية تعيننا على إدراكها لأول وهلة حين يقول: إن الملحمة تتميز بثقلها أي بطولها وضخامة هيكلها وأبعادها الكبيرة . ولا يعني الطول بالضرورة كثرة الأبيات ولكن هيكل أحداثها ينبغي أن يكون شاسع الأبعاد، إذ إنها لا تختص بلحظة واحدة أو لمحة من حياة إنسان بل ولا تركز على إنسان فرد مهما كانت أبعاد حياته هو نفسه، ولا تتخذ من المشاعر العابرة موضوعها الأساسي أو من «اللقطات» العادية في الحياة اليومية.

ولكن هذا كما نرى تعريف بالسلب أو بالنفي ، ولن نستطيع أن نجد المدخل للملحمة حتى نضع يدنا على المادة الأساسية التي تتشكل منها وهي مادة مستقاة من مصادر شعبية قديمة شاعت على مدى قرون من الزمان حتى اتخذت الشكل المقبول اجتماعيا وحتى تطورت اللغة التي تكتب بها ولانت وتطوعت للصياغة الفنية البديعة على أيدي المؤلف الفرد. وربما استطعنا أن نرجع منشأها إلى حاجة الإنسان إلى

رصد جذوره التاريخية وتأصيل وجوده في مجتمع مرتبط بزمان محدد ومكان محدد، أي حاجة الإنسان إلى تاريخ ثابت.

هذا هو الشق الأول للملحمة وهو الشق التاريخي، بمعنى أنها سجل لحياة القبيلة وعاداتها وتقاليدها الرئيسية . أما الشق الثاني فهو أنها قصة شعرية تهدف إلى الإمتاع الفني . ولا ينفصل الشقان في أي ملحمة . وقد أشار (تاكيتوس) في دراسته للشعوب الجرمانية إلى أن القبائل التي كانت تعيش في عصره، أي في القرن الأول للميلاد، كانت تحتفل بالأجداد الذين أرسوا الأساس لوحدتها باعتبارها شعبا متجانسا ، وذلك بإنشاد الأغاني التقليدية، أي الأغاني الشعبية العريقة التي توارثها الأبناء عن الآباء، فهي تمثل الذاكرة الجماعية لهذه القبائل أو تاريخها القومي . ولا شك أن أولى آثار الأدب الأوروبي هي ملحمتا هوميروس الإلياذة والأوديسة ويرجح النقاد أنهما أول ما كتب من أدب، أي أولى الأعمال التي انتقلت من مرحلة الأدب الشفاهي ، أدب الرواة المتوارث ، إلى الأدب المكتوب (الذي يطلق عليه الدكتور عبد الحميد يونس اسم «الأدب الرسمي») . وكذلك كانت ملحمة قلقامش وأساطير المصريين والعرب والعبرانيين في الشرق الأوسط. ولذلك فقد انعكس هذا على البناء الفني للملحمة فهو فضفاض يسمح بالأحاديث المطولة والخطب التي تتراوح في نبراتها وفي مستواها اللغوي بين العامية والفصحى.

ويفرق البروفسور ك.س. لويس في كتابه مقدمة الفردوس المفقود (*1942*) بين الملاحم التي استقت مادتها مباشرة من التراث الشفاهي واتسمت بالصفات التي ذكرناها آنفا وبين الملاحم التي كتبت محاكاة لها أي في إطار العمل الأدبي المكتوب مباشرة وليس بالرجوع إلى أية مصادر شعبية. فيقول :

كان النقاد القدماء يقسمون الملحمة إلى نوعين : الملحمة البدائية والملحمة المصطنعة . وهو تقسيم لا يصلح ، إذ إننا لا نستطيع أن نصف بالبدائية حقا أي شعر قديم وصلنا كما أن الصنعة لا يخلو منها الشعر أيا كان . ولهذا فأنا أفضل أن يكون التقسيم هو الملحمة الأولية والملحمة الثانوية . وهاتان الصفتان تشيران إلى الزمن فحسب ولا تتضمنان أي حكم على قيمة العمل .

فكلمة «ثانوية» هنا لا تعني من الدرجة الثانية ؛ ولكن تعني أنها جاءت بعد الأولى ونبعت من الملحمة «الأولية» ص *12*.

ويمكننا أن ندرج في القسم الأول ملحمتي الإلياذة والأوديسا لهوميروس ، والملحمة الإنجليزية القديمة البوولف، وربما أدرجنا أيضًا أنشودة رولان وفي القسم الثاني يمكننا إدراج ملحمة الإنيادة لفيرجيل والفارساليا للوكان وتحرير بيت المقدس لتاسو ، والفردس المفقود لميلتون.

أما الخصائص العامة للملحمة في الأدب الأوروبي فهي أنها قصيدة شعرية طويلة مكتوبة بالبحر سداسي التفعيلة (أي الذي يشتمل البيت فيه على ست تفعيلات) أو ما يماثله، وهي تدور إما حول بطل (مثلا أخيلاس أو بوولف) أو حول حضارة مثل الحضارة الرومانية أو الحضارة المسيحية . وأما الخصائص الفنية الدقيقة فيوجزها البروفسور ف.ل. لوكاس قائلاً إنها:

وحدة الحدث ، والسرعة ، وفن البداية في منتصف الأحداث واستخدام الخرافة والنبوءة والعالم السفلي ، والتشبيه الزخرفي والصفات المتكررة ، وأهم من هذا كله نبرة السمو والصدق التي لا يمكن مجاراتها أو إيجاد مثيل لها إلا في بعض نماذج الأدب الشعبي الذي توارثناه عن أمم شمال أوروبا .

(دائرة معارف تشيمبرز)

وهذا يصدق بطبيعة الحال على شتى الملاحم «الثانوية» بل إننا نجد أعمالا شعرية طويلة يمكن وصفها في ظل هذا التعريف

بالملحمة مثل الكوميديا الإلهية لدانتي رغم اختلافها البين عن النماذج التي أوردناها. فالملاحم الأولية - مثل: الإلياذة والبوولف وأنشودة رولان - نماذج صادقة للشعر البطولي الذي يتناول الحرب فموضوع الإلياذة هو غضبة رجل واحد هو أخيلاس وخلفيتها سقوط طروادة وسياقها الحقيقي هو الحرب، وكذلك البوولف فموضوعها هو حكم رجل واحد هو الملك الرشيد بوولف وخلفيتها انهيار حضارة ما وسياقها بطولي. وكذلك أنشودة رولان فإن بطولته كما نرى تقابل حروب الفرنجة والأتراك وسياقها أيضًا هو الحرب والبطولة. ولا شك أن الأوديسه تنتمي في جوهرها إلى هذا اللون فهي ملحمة مخاطرات وشخوصها الرئيسية (أوديسيوس وبنيلوبي وتلماخوس) يشغلون مواقعهم الكلاسيكية، أي التقليدية المتوارثة في مثل هذه القصص . إن البطل يصول ويجول ويتنقل بين البلدان والأماكــن، ثم يعود إلى وطنه، وراغبو الزواج يحيطون بزوجته كل يريدها لنفسه، وابنه دائم البحث عن أبيه. وتتطور هذه المواقف بطبيعة الحال فالبطل الجوال يقابل ساحرة وعملاقا ويفقد أصحابه ويزور العالم السفلي ويعثر على أرض الجن في (فياكيا)، بينما تنسج زوجته نسيجًا وتفكه لتخدع الخطاب، ثم يلتقي الابن وأبوه في المعركة الأخيرة ، للقتال جنبا إلى جنب .

أما الكوميديا الإلهية فتختلف عن هذا كله لأنها مكتوبة بضمير المتكلم بل إنها أول ملحمة في التاريخ تكتب بضمير المتكلم، وهي ملحمة دينية ورمزية في الوقت نفسه. ولا يخفى على القارئ الإشارات المستترة التي تحفل بها الملحمة، والتي يمكن تصنيف بعضها على أنها استعارات ورموز تمثيلية . وأهم ما فيها حقًا هو وجود الفرد التاريخي، أي الإنسان الفرد الذي يتمتع بوجود مستقل عن الجماعة أو القبيلة . يقول (أورباخ) في كتابه دانتي

شاعر هذه الدنيا :

ولد مع ذاتي الفرد التاريخي مرة ثانية ، وهو يتسم هنا بوحدة واضحة بينة في الجسد والروح . لقد كان هذا الفرد قديما وحديثا معًا إذا خرج من طي النسيان بقوة طاغية ، وفي نطاق بالغ الاتساع .

ومن ثم فإن من حاولوا كتابة القصيدة الطويلة الذاتية أو «الملحمة الشخصية» في العصر الحديث ابتداء بوردزوورث وانتهاء بعزرا باوند مدينون لذاتي بتصوير هذه الذات المفردة في صراعها مع أفكار الوجود والبعث والعدم.

وإلى جانب الكوميديا الإلهية وُجدت كما ذكرنا ألوان أخرى من الملاحم «الثانوية» مثل الفارساليا للوكان التي تعالج موضوعا بطوليا من التاريخ القديم وكان من المعتزم أن تشتمل على اثني عشر كتابا ، وهي تتضمن نشدان العون من الآلهة وتغص بالتشبيهات والاستطرادات إلخ ، ومثل مسخ الكائنات لأوفيد التي تتمتع بجميع سمات الأسلوب الملحمي (فهي مكتوبة بالبحر سداسي التفعيلة، وهي تستلهم الآلهة وتشتمل على تشبيهات كثيرة وتتراوح نبراتها بين الانطلاق وبين الرفعة والسمو، كما أنها حافلة بالاستطراد. ومثل قصيدة ملكة الجان التي كتبها سبنسر قبل ميلتون بقليل فجمع فيها بين الملحمة والرومانسة واعتمد على قوة الرمز التمثيلي . ولكن كل هذه الأنواع تشترك في صفتين يجمل بنا أن نركز عليهما وهما: أولاً البداية في منتصف الأحداث *In Medias Res* كما يقول هوراس، وهي الصفة التي اتسمت بها المأساة اليونانية (ولعلنا نذكر ما يقوله أيسخولوس الكاتب المسرحي اليوناني القديم من أنه يعتبر مسرحياته «شرائح مقتبسة من المائدة العظيمة التي قدمها هوميروس») وثانيًا أن الصورة الفنية الأساسية في الملحمة هي

التشبيه الذي يتميز بالوضوح والتفاصيل الحية، ويكفي مثل واحد من أسلوب هوميروس في (الأوديسه) لتصوير ذلك. إنه يصف ما يحدث لبطله أوديسيوس في البحر، فيقول :

ثم لمح اليابسة من بعيد
فرمى ببصره محدقًا وقد رفعته موجة عظيمة
أرأيت إلى الأبناء كيف يرون في حياة أبيهم خيرًا وبركة
وهو يرقد في قبضة المرض العاصرة
وقد أخذ يذبل ويذوي بينما تداهمه روح شريرة
وإلى الآلهة وقد أنعمت على الرجل فخلصته من آلامه ؟
فهكذا كانت اليابسة بأشجارها خيرا وبركة على أوديسيوس
فأخذ يسبح جاهدا حتى يضع أقدامه على الشاطئ .

(399 - 392/5)

لا شك أن الصفات التي أوردناها للملحمة - الخاص منها والعام - تنطبق على ملحمة الفردوس المفقود. ولكن ميلتون يختلف عن كل من سبقه في اختياره موضوعا دينيا بل إن موضوعه - كما قال أحد النقاد - هو الدين. ولكنه لم يتوصل إلى هذا الاختيار إلا بعد تردد طويل فنحن نعلم أنه قد نذر نفسه لكتابة الشعر في سن مبكرة (مثل: وردزورث وكيتس)، وربما كان ذلك عندما بلغ الحادية والعشرين.

ولا شك أنه كان يطمح منذ البداية في كتابة أعظم الأنواع الشعرية احترامًا وتقديرًا آنذاك وهو الملحمة - وبخاصة الملحمة التي تعالج موضوعا وطنيا ودينيا. كان النموذج الذي أراد أن يحتذيه هو ملحمة الإنيادة للشاعر الروماني فيرجيل فهي الملحمة التي يتغنى فيها ذلك الشاعر بأمجاد وطنه روما. وقد أراد ميلتون أن يتغنى هو الآخر بوطنه إنجلترا، مثلما فعل سبنسر من قبله في

ملكة الجان ، بأن يعالج أهم الأحداث في تاريخها ألا وهو خروجها ظافرة من الحرب الأهلية (بفضل جهود أسرة تيودور) وتأكيد استقلالها الديني والقومي (الذي حازته بفضل الإصلاح الديني) والدفاع عن هذا كله ممثلاً في هزيمة الأسطول الإسباني (الأرمادا).

ولكن ميلتون لم يكن يريد أن يجعل أحداثه تقع في إطار من التاريخ القريب أو المعاصر (محاكيا بذلك فيرجيل الذي استلهم أقدم الأساطير الرومانية وأكثرها عراقة) وهكذا فقد خطر لميلتون أن يحكي أحداث قصة الملك آرثر القديم الذي تربطه الأساطير بأسرة (تيودور). وقد كتب قصيدة باللاتينية وهو في نابولي (وكان في الثلاثين من عمره) يتحدث فيها عن اعتزامه كتابة ملحمة يكون أبطالها هم الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة وتدور أحداثها حول انتصارهم وهزيمة الساكسونيين ، بحيث يرمز آرثر هنا إلى الملك المسيحي وأسرة (تيودور)، وبحيث يرمز الساكسونيون المشركون إلى أعداء إنجلترا وأوروبا من الأتراك والكاثوليك. أما الإشارات المباشرة إلى أحداث التاريخ المعاصر فقد اعتزم تقديمها في صورة نبوءات قدرية مثلما فعل (فيرجيل) و (سبنسر) في ملحمتيهما .

وكما سبق أن ذكرنا فإن اندلاع الحرب الأهلية في *1639* جعل ميلتون يعود من إنجلترا كما جعله يرجئ مشروع كتابة الملحمة . ويقول البروفسور (تليارد):

في السنوات الأولى للحرب الأهلية . . . خطرت لميلتون فكرة كتابة قصيدة عن سقوط الإنسان . ويوجد في مكتبة كلية (ترينيتي) في (كيمبردج) مخطوط يتضمن معظم قصائد ميلتون القصيرة وبعض الملاحظات الخاصة بما يعتزم كتابته في المستقبل وتشمل هذه خططًا لكتابة مسرحية أو عدة مسرحيات ، وأبرز الموضوعات المطروحة موضوع الفردوس المفقود . ولا دليل

لدينا على أن ميلتون كان يريد إحلال مسرحية سقوط الإنسان محل الملحمة التي كان يريد كتابتها عن آرثر . بل على العكس من ذلك : فهو يقول لنا في إحدى الفقرات التي يتحدث فيها عن نفسه في كتابه السبب في حكم الكنيسة ، وهو أحد الكتيبات التي هاجم فيها الأساقفة ، إنه كان يفكر في نفس الوقت في كتابة الملحمة والمأساة والأنشودة الكلاسيكية باعتبارها الصور الشعرية الرفيعة للموضوعات الشعرية الوطنية السامية .

وليس لدينا أي دليل تاريخي على أسباب تحوله عما اعتزمه ، ولكننا نستطيع أن نحدس بقدر ما من اليقين أن آماله كانت تتوقف إلى حد كبير على مجريات الأمور ووقائع الحرب الأهلية . فحينما كان ميلتون واثقًا من صلابة مواطنيه وزعماء الفريق الذي كان يناصره في الحرب الأهلية ، كان قادرًا على التفكير في كتابة قصيدة ذات أحداث بطولية ولها بطل قومي مثل الملك (آرثر) أو (ألفريد الأكبر) . ولكنه حين رأى أن المشيخيين المنتصرين لم يكونوا أقل تعصبًا وطغيانا من أنصار الأساقفة ، وحين رأى أن مواطنيه يتخلون بالتدريج عن معاداتهم لأسرة ستيوارت الملكية ، بدأ في التخلي عن فكرة الملحمة الوطنية وفكر في أن يجد موضوعا من العصور الوسطى يسبق نشأة القوميات الأوروبية ألا وهو موضوع الإنسان - كل إنسان أو أي إنسان - أي الجنس البشري الذي تتنازعه قوى الخير والشر . وهذه في الواقع هي الفكرة الأساسية في الفردوس المفقود.

ونستطيع أن نقول بثقة: إن ميلتون قد عدل من تصوره للموضوع الذي كان يراه مناسبًا للملحمة ، وإن الموضوع الذي كان قد اختاره للمأساة أصبح اليوم موضوع الملحمة - وذلك فيما بين عامي *1642* و *1655* . ولكن ما هو حقًا موضوع الفردوس المفقود ؟

قلنا: إن ميلتون جعل الإنسان بطلا لملحمته - آدم وحواء يتنازعهما الشر والخير. ولكن ميلتون جعل هذا التنازع شاملاً لتصوره الخاص عن العقيدة الدينية وعن تصوره لمجرى تاريخ الإنسانية. أي أنه يجعل موضوعه شاملا مترامي الأطراف مثلما فعل دانتي في الكوميديا الإلهية. إذ إنه كان عميق الإحساس بما يجري حوله من أحداث (كما رأينا) وبأن الأحداث الجارية تمثل حلقة من حلقات التاريخ البشري المتداخلة، والأهم من ذلك أنها تعتبر جزءًا من حركة أزلية لا تتوقف.. وهكذا فإن آدم وحواء ليسا مجرد شخصيات ذكرت في الكتب الدينية ونماذج للبشرية بصفة عامة: بل هما نموذجان للبشر الذين يعيشون بين ظهرانينا. انظر الأبيات الأخيرة من القصيدة حيث يصف طرد آدم وحواء من الفردوس:

ذرفا بعض العبرات - عبرات الطبيعة البشرية - ثم جففاها على الفور
كانت الدنيا تمتد كلها أمامهما، تدعوهما لاختيار
مقر راحتهما، تهديهما العناية الإلهية
وهكذا - بأيد متشابكة وخطوات حائرة بطيئة -
سارا وحيدين في أرض عدن.

ونحن نؤكد وعي ميلتون الدائم بالحياة الواقعية في عصره، لأن الملحمة أبعد ما تكون (من ناحية موضوعها الظاهر) عن الحياة اليومية للإنسان. فليس بها شخصية بشرية واحدة ومكان الأحداث غريب كل الغرابة بل إن ميلتون يتعمد أن يجعله مخالفا لكل ما يعرفه الإنسان على الأرض. ومع ذلك فإن النظرة المتأنية سوف تكشف للقارئ عن مدى نجاح ميلتون في إسباغ الطابع البشري على تصوراته للجحيم والعماء. إن الشياطين كائنات ذات أبعاد أكبر كثيرًا من البشر ولكنها ذات

عقول تفكر كالبشر ، كما أن مناقشاتها تتخذ أنماط المناقشات السياسية بين الناس . ويعتمد ميلتون كذلك في تشبيهاته على التاريخ الحقيقي للإنسان، بل إن الشياطين لديه هم آلهة الوثنية في العهد القديم وفي الأساطير الكلاسيكية ، كما أن الصور المجازية لديه مستقاة من صور الحياة العادية على الأرض (من حياة الصيادين والفلاحين وأنغام الأرغن والمناقشات الدينية المألوفة إلخ) . وكثيرا ما يخامرنا الإحساس ونحن نقرأ الملحمة أن ميلتون كان يحاكي فيرجيل في الإنيادة - يقول البروفسور تليارد:

مثلما كانت الإنيادة تدور حول روما في عهد الإمبراطور أغسطس ودورات القدر التي أدت إلى إنشاء روما في البداية وحققت لها العظمة ، فإن الفردوس المفقود تدور حول الحياة المعاصرة في زمن ميلتون وحول الإطار الأكبر الذي خلقت الحياة في ظله وسارت . ويرجع نجاح ميلتون إلى أنه استطاع أن يمزج بين الموضوعين مزجًا وثيقًا بحيث أصبحت الحياة المعاصرة هي أيضًا الحياة الأزلية .

كان ميلتون يكتب - كما ذكرنا - في ظل تقاليد الملحمة الكلاسيكية ولهذا فهو يبدأ قصته في منتصف الأحداث . فنحن نرى الملائكة الفسقة بعد أن تمردوا على البارئ، وبعد أن تمت هزيمتهم، وبعد أن خلق الله الجحيم والكون - وهنا يفيق إبليس من إغمائه ويرفع رأسه من البحيرة الملتهبة حيث يرقد عاجزًا لا حول له ولا طول . وبعد أن يفيق ويقوم بإفاقة أقرانه ويبث فيهم روح شجاعة جديدة ، نرى أن الأحداث التالية سوف تتوقف على الشائعة التي كانت تتردد في الجنة قبل سقوط الملائكة ومؤداها أن الله يوشك أن يخلق نوعًا جديدًا من الكائنات . ويقرر الشياطين أن أفضل سبيل لمواصلة الحرب ضد العلي القدير هي محاولة إفساد هذا

الكائن الجديد . ويعهد إلى إبليس بهذه المهمة ومن ثم يلتقي مع أبنائه (الخطيئة والموت) عند بوابة الجحيم . وبعدها يرحل إبليس عبر العماء إلى مشارف النور ويرى أبراج السماء ويرى الكون معلقًا منها بسلسلة . وهذه هي نهاية الكتاب الثاني . ويقول أحد النقاد: إن هذين الكتابين يمثلان «حركة» من حركات السيمفونية الكبيرة - وهي حركة تتكون ألحانها من مجموعة قوى الشر التي تتربص بالإنسان وتريد القضاء عليه - ممثلاً في آدم وحواء .

ويبدأ الكتاب الثالث باستلهام النور - رمز الألوهية والخير - وهذا هو اللحن الثاني أي لحن الجنة . ويصف ميلتون هناء الجنة بصورة تجعله مماثلا أو مقـابلا لشقـاء الجحيم ، ومثلما عـرض إبليس (في الكتاب الثاني) أن يقوم بالرحلة وحده إلى الدنيا لإفساد البشرية ، يعرض المسيح أن يقوم بالرحلة وحده هو الآخر لإنقاذها . وبعد أن يصف ميلتون الجنة يتابع رحلة إبليس حتى يخترق قبة الكون الذي يشتمل على النجوم والكواكب والأرض في المركز ثم يحط على الأرض في النهاية . وهنا يحين موعد تقديم الأبطال من البشر .

ويصف ميلتون في الكتاب الرابع جنة الفردوس بقاطنيها من بشر وحيوان ويطلعنا على أن آدم وحواء قد حرما ثمار شجرة واحدة في الجنة. وأثناء ذلك يكون إبليس قد دخل الجنة متخفيا ويوحي لحواء أثناء نومها بحلم شرير، ويكتشف الملائكة الحراس ما صنعه إبليس فيطردونه من الجنة، وبهذا تفشل أول محاولة لإغواء حواء .

وتتوقف الأحداث قليلاً بعد فشل إبليس - ويستغل ميلتون هذا التوقف في سرد الأحداث الماضية . ويتضمن الكتابان الخامس والسادس زيارة الملاك الأكبر روفائيل إلى الفردوس وقصة تمرد الملائكة الفسقة وسقوطهم كما يرويها لآدم وحواء، ورغم أن زيارة

روفائيل تمتد على طول الكتابين التاليين فإن ميلتون يقول لنا:

إن مسرح أحداثه الآن مسرح أرضي، وإنه انتهى من المسرح الكوني الشاسع، وأن بقية القصيدة سوف تركز على الإنسان.

وهكذا فإن آدم يحدد المسار الجديد للملحمة بأن يتساءل: كيف خلق الكون الذي يعيش فيه؟. ويقص روفائيل قصة الخلق في ستة أيام. وفي الكتاب الثامن يطرح آدم مزيدًا من الأسئلة عن الكون ثم يحكي ما حدث له منذ أن أشرق في نفسه الوعي لأول مرة. وبعد ذلك يعود روفائيل إلى السماء مرددًا تحذيره ألا يعصي ما أمر الله به.

ويستأنف الحدث الرئيسي في الكتاب التاسع ويبلغ ذروته (أي الأزمة) في هذا الكتاب وفي الكتاب العاشر. ومع الأزمة تتغير «ألحان» الملحمة - كما يشير ميلتون إلى ذلك في مقدمته لهذا الكتاب. فهو يقول إنه يغير من أسلوبه السابق إلى أسلوب المأساة. ونحس بالفعل منذ هذه اللحظة أنه في لجة تجربة بشرية حقيقية. ويتخفى إبليس ثانيًا - في صورة ثعبان هذه المرة - ثم يعاود الهجوم ويسعده الحظ بأن يجد حواء وحدها ويتوسل بالأكاذيب والملق والإطراء حتى يقنعها بأن تذوق الثمرة المحرمة. وعندما يأتي آدم يشاركها الطعام فيسقطان معًا في وهدة الذنب. أما الثمرة فإن مذاقها يسكر أول الأمر ثم يجعل الإنسان يصحو نادما يتجاذبه الشقاء والألم. وينتهي الكتاب التاسع بالتشاجر وتبادل التهم ويبدو في الظاهر أن إبليس قد انتصر ولكن الحدث لم يكتمل بعد. إن المسيح يذهب إلى الفردوس ليصدر الحكم على خطيئة آدم وحواء، وهو يحكم عليهما بتكبد المشاق التي تنتهي بالموت على الأرض. ولكنه أيضًا يشفق عليهما ويجعلهما يخصفان عليهما من ورق الجنة. وهنا تبدأ آثار سقوط الإنسان إذ يتغير الجو وتتقاتل الحيوانات، وتتعاون الخطيئة والموت في بناء جسر عبر العماء ييسر لهما

الانتقال بين فوهة الجحيم وباب الجنة . ويعتصر الأسى آدم وهو يرى ما يحدث ويتصور أنه قد ضاع إلى الأبد . وهنا ترى حواء أن الخلاف مع آدم لا يطاق وتود أن تتحمل وحدها مسئولية ما حدث . ويصدها آدم في البداية ، ولكنه يستنزل رحمة الله دون أن يدري فيعترف بخطئه هو الآخر ويتصالحان . وهذا النموذج الصادق للخشوع أمام الله يمثل الخلاص لآدم وحواء .

وينتهي الكتاب العاشـــر بأن يطلبا العفو من الله :

بعبرات تروض الأرض .

وآهات تغشى الهواء .

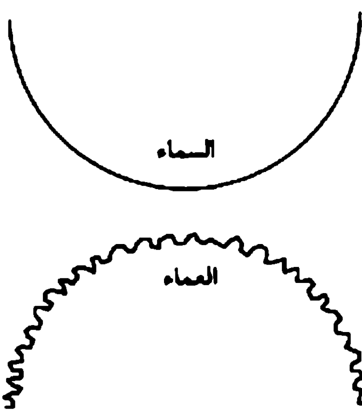
صادرة من قلوب التائبين .

آيات صادقة على الأسى والخشوع .

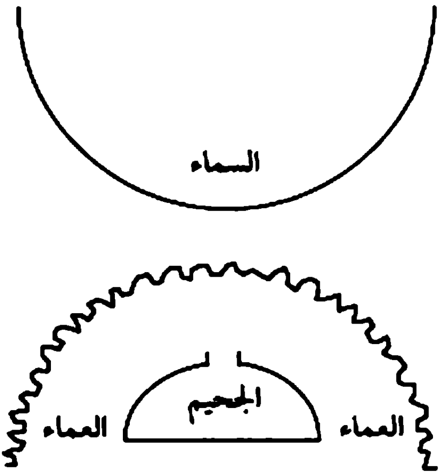
وبمجرد أن يبدي آدم وحواء ندمهما يتحدد مسار الأحداث التالية ، ولذلك يخصص ميلتون الكتابين الأخيرين لمستقبل البشرية . فالله سبحانه وتعالى يقبل توبة آدم وحواء ويرسل إليهما ميكائيل - ذلك الملاك الأكبر - ليقدم إليهما رؤياه عن مسار تاريخ العالم فيشاهدان عدة لوحات تصور الأحداث الرئيسية المذكورة في سفر التكوين حتى عهد الطوفان . وهنا ينتهي الكتاب الحادي عشر. أما الكتاب الثاني عشر (والأخير) فإن ميكائيل يلخص فيه تاريخ البشرية بلغته الخاصة ابتداء من الطوفان وحتى يوم القيامة (بما في ذلك الأحداث المذكورة في العهد الجديد) ويدرك آدم طبيعة الأمور ويتقبلها، فهو قد تعلم طاعة الله، وأصبح يدرك أن التواضع والخشوع أقوى في نهاية المطاف من كبرياء إبليس . ويتسلح آدم وحواء بهذا الإدراك ويستعدان للحياة به على ظهر الأرض ، عندما تأتي الملائكة في نهاية الملحمة لطردهما من الفردوس .

ومن المستحب قبل قراءة النص أن ندرك تصور ميلتون الخاص للكون. وسأعتمد هنا (مثلما اعتمدت في الجزء السابق من هذه المقدمة) على آراء البروفسور (تليارد) إما بالتلخيص وإما بالاقتباس. إن ميلتون يرسم لنا تصوره الخاص للكون بالتدريج أي على مراحل، ولذلك فسوف نقدم الرسوم البيانية الثلاثة التي قدمها لتبيان هذه المراحل. يقول (تليارد):

علينا أن نتخيل زمنا كان الوجود فيه مقصورًا على السماء، ويحدها سور من البلّور، وتحتها، على مسافة ما غير محددة يقع العماء، وهو كتلة مظلمة مبهمة فهو المادة المختلطة المتنافرة التي يتشكل منها كل خلق جديد. وتقع بين العماء والسماء منطقة مفتوحة تتمتع بنور السماء. وهناك منطقة أخرى على الحدود (هي التي يجدها إبليس في الرحلة التي يصفها ميلتون في نهاية الكتاب الثاني) تقل فيها كثافة العماء ولا يسودها الظلام الدامس أو النور الساطع، بل يغشاها ضوء خاب أشبه بالغسق. ويوضح الرسم البياني المبسط التالي ما نعنيه بذلك:

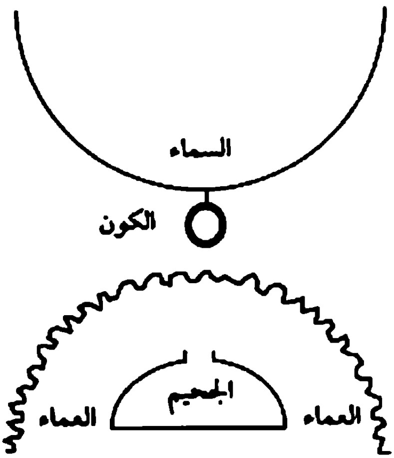


**وعندما طرد الله ... ، لهم سجنا هو الجحيم
بحيث يقع في قاع العـ ... ـلقه عليهم. وإذن فينبغي
أن نضيف إلى الرسم،**



وكانت آخر مر- ... ن من مادة العماء

ولا حاجة بنا لوصف التركيب الداخلي للكون حيث توجد الأرض في المنتصف وتحيط بها أفلاك متداخلة تدور فيها الكواكب والنجوم الثابتة . ولكن على القارئ أن يعلم أن الكون (في ضوء هذا التصور) كان محاطًا بقوقعة صلبة ، وأنه كانت لتلك القوقعة فتحة في رأسها يستطيع الملائكة النفاذ منها كما استطاع الشياطين أن ينفذوا منها فيما بعد لزيارة البشر . وأن الكون كان يتصل بالسماء بسلسلة من ذهب وهكذا نصل إلى الرسم البياني الأخير .



وأخيرًا فإننا نعلم بثة والموت سوف يبنيان جسرًا يمتد مر وقع خارج الكون يؤدي إلى فتحة يستطيعان النفاذ منها إلى الداخل . ورغم أن الشياطين تهبط من السماء في غير نظام فإنها تحتفظ بدرجاتها التي تحدد منزلة كل شيطان ومدى اقترابه من إبليس . ويوضح ميلتون ذلك حين يصور لنا مجيئها إلى إبليس وهو واقف على شاطئ بحيرة اللهب . ولا شك أن ميلتون كان يؤمن بأن الكون يحكمه نظام دقيق يقترب من دقة علم الرياضيات (وهي الفكرة التي ورثها من العصور الوسطى) كما أن التنظيم الاجتماعي في ظل الإقطاع كان معقدًا وذا درجات دقيقة محددة . وقد صاغ الناس تصورهم لدقة تنظيم المجتمع السماوي في ظل تنظيم مجتمع الأرض ودرجات أفراده . وكانت الفكرة الشائعة هي أن للملائكة عدة طبقات أعلاها هم أصفى الملائكة كيانا وأقدرهم على تقبل الجوهر الروحي القدسي وأحطها هو أقلهم قدرة على التأمل وأكثرهم نشاطا، وكان للملائكة تسع مراتب مقسمة على ثلاث طبقات . فالطبقة الأولى تضم الصاروفيم والشاروبيم والمتوجين

(أو العروش)، والثانية تتكون من الرياسات والفضائل والسلاطين (انظر الحواشي). أما الثالثة فتضم أنشط الجميع وأقلهم قدرة على التأمل وهم الرؤساء وأكابر الملائكة والملائكة . وكان الرأي في العصور الوسطى أن هذا التقسيم يقابله تقسيم مماثل للشياطين، وقد استخدم ميلتون بعض هذا التراث، ولكن التحديد السابق للدرجات لم يعد قائمًا في عصره فإنه رغم رجوعه إلى التقسيم القديم وتحديد أهم الشياطين (وهم إبليس وبعلزبول ومامون) لم يرجع إلى التقسيم القديم للشياطين واكتفى بتقسيم الملائكة ثم طبق هذا التقسيم على الجميع . ولكنه في الواقع قـد عدل مـن المراتب القديمة فجعل أكابر الملائكة في أعلى الطبقات أي أعلى مـن الصاروفيم والشاروبيم . كـما أنه لا يفـرق بـين المراتب النسبية للمتوجين (أو العروش) أو الفضائل أو الرياسات بل أحيانًا يجعل لفظة الرياسات تشمل جميع الطبقات مما راعيناه في الترجمة (انظر الحواشي) .

وكان تفكير أهل العصور الوسطى يقوم - إلى جانب فكرة المراتب - على فكرة التناظر والتقابل . ولذلك كان لابد للشياطين من درجات تسع حتى يقع التناظر مع درجات الملائكة ، كما كانوا يرون أنه مثلما أغوى الشيطان الإنسان في جنة الفردوس وجعله يستبدل بها برية يحار فيها ، كان على المسيح أي آدم الجديد (وابن آدم) أن يهزم غواية الشيطان في البرية ويعيد الفردوس إلى آدم الأول .

وتبقى كلمة موجزة عن إبليس وتصويره في الملحمة . من المحال أن نلم بآراء النقاد هنا لأنهم ما زالوا على خلافهم القديم لا يقر لهم رأي . والاتجاهان الأساسيان هما: أولا اتجاه يجعل منه بطل الملحمة، وثانيًا اتجاه يرمي إلى تصغير شأنه بحيث يصبح شخصية حقيرة ومثيرة للسخرية. والحق إنه شخصية معقدة فهو «ملاك أكبر

محطم» - كما يصفه ميلتون - إنه ما يزال يحتفظ بعلو القامة وبعض ملامح السمو القديم، ولكنه اليوم فاسق منحط . وهذا المزج بين الخصال والسمات فيه يقربه من أبطال المأساة من البشر .

ويقول (تليارد): إن ميلتون كان يذكر جيدًا المثل القائل: «إن شر من يَفْسَدُ خَيرُ الناس»، أي أنه كلما علا قدر الشخصية ازدادت حطة مهواها . فكثير من الشراح الذين أعلوا من شأن إبليس في الملحمة يتناسون أن ميلتون يصوره في حال خداع مع نفسه منذ البداية وحال غباء تدفعه إلى رفض تقبل الحقيقة. وبعد أن يضطر بعلزبول إلى الاعتراف في أول خطاب له بأن الله عليٌّ قديرٌ حقا، نرى إبليس يصر على تصوره أنه يستطيع إفساد مسعى الخالق سبحانه :

فإن قضت مشيئته
بأن يخرج من شر فعالنا خيرًا
فعلينا أن نحاول إفساد مسعاه
فنجعل من الخير سبيلاً إلى الشر !
لطالما كلل هذا المسعى بالنجاح

166 - 162/1

ويصور ميلتون إبليس على أنه يتمتع بشخصية أقوى من شخصية بعلزبول وبأنه أحَدُّ ذهنا . ولكن الكبرياء يفسده إلى الحد الذي يبلد ذهنه ويكسوه غباء شديدًا . ويظهر هذا جليا في بداية الكتاب الثاني حيث يقول ميلتون: إن إبليس لم يتعلم من عاقبة ما حدث (البيت 9) أي أن غباءه جعله لا يتعلم من التجارب التي يمر بها وتصل ذروة مأساته حين يستعرض كتائب الشياطين :

وألقى على هذه الصفوف المدججة

عينه الخبيرة واستعرض في لمحة واحدة
ذلك الجحفل بأسره ، فتبين له انتظام درجاتهم
وبدت له وجوههم وقاماتهم في صور الآلهة
ثم أحصاهم وعدهم عدا فانتفش قلبه بالزهو
والخيلاء وقسى في قوته
وتباهى

573 - 567/1

ويقول (تليارد): إن مصدر البشاعة في هذه الصورة هو الاحتفال الزائد عن الحد بضخامة الجرم وكثرة العدد . والمشاعر التي تنتاب إبليس هنا لا تتمشى مع المشاعر الرقيقـة التي يعبر عنها الشاعر في الفقرة التي تتلو ذلك مباشرة حين يجد أن الندم قد نال من عزمه الثابت وكبريائه الوطيد فتغلبه العبرات ويبكي ثلاث مرات قبل أن يستعيد رباطة جأشه ويستطيع الحديث . وإذا وضعنا الفقرتين جنبا إلى جنب رأينا ما يرمي إليه ميلتون من تصوير للتناقض في نفس إبليس وراعتنا مظاهر التعقيد والتشابك في هذه الشخصية . ولكن جوهرها – مهما اختلفت آراء النقاد – واضح فهو هبوط العظيم وسقوطه ، فحدة الذكاء لديه تصبح غباء وبلادة ذهن ، واعتداده بنفسه وبمنزلته بين الشياطين يتحول إلى كبرياء أجوف، وعناده عندما يصر على انتهاج سبيل الشر يقترب من درجة البلاهة التي لا تقبل من العظماء .

4

ولا أريد أن أختتم هذه المقدمة التي طالت بعض الشيء دون

أن أؤكد أنها تقديم وتمهيد لا تعليق وشرح ، فلقد خصصت كثيرًا من الحواشي للتعليق والشرح لكل من يريد الاستزادة من التراث الفكري الذي يمثل «خلفية المتن» ، ولم أدخر وسعًا في عرض آراء النقاد ولو بإيجاز فيها ، كما أرفقت قائمة زاخرة بالمراجع التي ورد ذكرها في المقدمة وفي الحواشي حتى يطلع عليها كل من يريد التعمق ، وأما المعاجم وطبعات الكتاب المقدس فلم أوردها – وفق المنهج الأكاديمي المعمول به – فهي متاحة ميسرة لكل من يطلبها . وقد اقتصرت في الإشارة إلى الكتاب المقدس على ذكر اسم السفر متبوعًا برقم الإصحاح ورقم الآية ، مقتبسًا كل ذلك من طبعة الكتاب المقدس المصرية *1966* (مطبعة عنتر)، وأما الإشـارات أو الاقتباسات الأخرى فقد ترجمتها وأدرجتها في سياقها الجديد .

وأخيرًا فأنا أحمد الله أن أمد في عمري حتى أتممت الترجمة الكاملة ، ولا شك أن عملاً كهذا لن يسلم من الهنات ، ولكنني واثق في قدرة القارئ على تجاوزها .

والله من وراء القصد

محمد عناني

القاهرة *2008*

الكتاب الأول

الكتاب الأول
الموضوع

يعرض الكتاب الأول ، بإيجاز في البداية ، الموضوع بصفة عامة - أي عصيان الإنسان وما أدى إليه من فقد الفردوس الذي أنزل فيه - ثم يشير إلى السبب الأول لسقوطه أي الثعبان ، أو بالأحرى إبليس الذي تمثل بالثعبان. وكان إبليس قد فسق وخرج على الله وضم إلى صفه كتائب عديدة من الملائكة، فقضى أمر الله بطرده من الجنة مع رفاقه جميعا وإلقائهم في الخضم العظيم . ويعد التعرض لهذه الواقعة تسرع خطى القصيدة إلى منتصف الأحداث فتصور إبليس مع الملائكة من أتباعه الذين هبطوا في الجحيم ، وأوصافها ليس باعتبارها قائمة في مركز الأرض (إذ يفترض أن السماء والأرض لم تخلقا بعد ، ولم تحل عليهما اللعنة بعد يقينًا) ولكن في مكان يكتنفه الظلام الدامس حتى يمكن تسميته بالعماء، وهنا يرقد إبليس وأتباعه من الملائكة على البحيرة الملتهبة ، مصعوقين ومذهولين وبعد فترة ما يفيق كأنه عاد إليه صوابه وينادي من يرقد إلى جواره ويليه في الرفعة والمنزلة فيتطارحان أمر سقوطهما المزري وبعدها يوقظ إبليس سائر كتائبه التي كانت ترقد حتى تلك اللحظة ذاهلة مثله ؛ وصف نهوضها وذكر أعدادها وتشكيلها القتالي ؛ أسماء أهم زعمائها ، وفقًا للأصنام التي عرفتها فيما بعد أرض كنعان والبلدان المتاخمة لها . ويوجه إبليس حديثه إلى هؤلاء فيواسيهم بأن الأمل قائم في استعادة الجنة، ويذكر لهم آخر الأمر أن إحدى النبؤات القديمة أو الشائعات التي تتردد في الجنة تقول: إن الله يوشك أن يخلق عالمًا جديدًا ونوعًا جديدًا

من المخلوقات، إذ يذهب رأي الكثيرين من الآباء القدماء إلى أن الملائكة قد خلقوا قبل هذا العالم المرئي بوقت طويل . وللتحقق من صدق هذه النبوءة وتحديد ما ينبغي فعله بصددها ، يحيل الموضوع إلى البحث في مؤتمر عام ؛ وصف ما يفعله رفاقه هناك إذ يرتفع بناء (بانديمونيام) وهو قصر إبليس فجأة من الخضم:

وفيه يعقد سادة الجحيم مجلسا للتشاور .

عن أول عصيان يقترفه الإنسان ، وعن ثمرة
تلك الشجرة المحرمة ذات المذاق المهلك
الذي أتى بالموت إلى الدنيا وجر علينا الأحزان
لضياع جنات عدن زمنًا ريثما يعيدنا رجل أعظم
ويسترد لنا عرش النعيم
أنشدي يا ربة الشعر قاطنة السماء يا من تدنيت إلى الذروة الخبيئة لجبل
(حوريب) أو طور سينين فأوحيت إلى ذلك الراعي
ما يوحى ، فعلم الذرية المصطفاة أولا
كيف في البدء نشأت الأرض والسماء
من العماء ! فإذا راقت لك ذروة (صهيون)
ونهر (سلوام) الذي يتدفق حثيثًا
بجوار بيت الله فإنني من ثم
أناشدك العون على صوغ أنشودتي المحفوفة بالمخاطر
إذ لا تعتزم أن تطوف بالسماء الوسطى بل أن تحلق عاليا
فوق قمة جبل (أيونيا)، لتعالج

ما لم يعالجه أحد من قبل نثرًا أو شعرًا
ولا سيما أنت أيها الروح - يا من تنزل
من طهر فؤاده واستقام أمره منزلة تسمو على كل معبد
علمني مما علمت رشدًا - فلقد كنت قائمًا
منذ بداية الوجود ، باسطا جناحيك الجبارين
فوق الهوة الشاسعة ، ثم رقدت فوقها
مثل الحمامة ، حتى دبت الحياة في أحشائها !
بدد ظلمات نفسي ! شد أزري وارفع القواعد من بيتي !
لعلي وقد سموت إلى مقام هذا المقال
أن أبين العناية الإلهية السرمدية أيما بيان
شارحا حكمة ما يفعله الله بالإنسان .
حدثيني أولاً - إذ لا تخفى عليك خافية في الجنة
ولا في أغوار الجحيم السحيقة - حدثيني أولا
عما حدا بجدينا العظيمين - وهما في أعطاف النعيم
هانئان برضوان الله أن يغضبا
خالقهما ويعصيا مشيئته -
بعد أن دان لهما العالم - في محظور أوحد
من الذي أغواهما أولاً بهذا العقوق الذميم ؟
الثعبان الدنيء ! لقد أثار مَكْرَه الدفين
نازعُ الحسد وطلب الثأر ، فخادع أم البشر
بعد أن لفظته الجنة لغروره وخيلائه
ومعه أتباعه ، حشد كبير

من الملائكة العاصين ، طمع في أن يساعدوه
على أن يبز أقرانه عزا ومجدا
وأن يضارع منزلة الله
إذا تطاول عليه ! وهكذا حفزه هذا المرمى الطامح
إلى تحدي عرش الله وملكه
وإثارة قتال عاق في الجنة : معركة يشينها الخيلاء
وحصادها هباء ! وهكذا قذف الإله الجبار به من حالق
فانقلب ساقطا يتقد لهيبا من السماء العليا
ذميمًا مدحورًا مشتعلاً في هوة
مالها من قرار ، فأقام بها
تغله الأصفاد الصلبة ويصطلي بعذاب الحريق
ذلك بأنه تجاسر على منازلة ذي القوة والجبروت
وهكذا - طيلة أيام وليال تسع
مما يعد أهل الأرض - انبطح مع رفاقه البغضاء
في هوة الهزيمة ، يتقلبون في لجج اللهيب
وقد جللهم العار رغم خلودهم . ولكنه قد كتب عليه
أن يزيد من غضب الله عليه ، إذ بدأ التفكير
في سعادته الغاربة وعذابه المتواصل
يؤلمه . فأخذ يقلب عينيه الخاسئتين فيما حوله ،
عينيه اللتين شهدتا على الألم والخسران المبين
وما اختلط بهما من الغرور العنيد والحقد الشديد
وسرعان ما أدرك - قدر ما يدرك الملائكة -

ضنك حاله وضياع مآله
فهو في قبو موحش مخيف ، تنور متأجج الأوار
تصاعد منه النار ويحيط بهم سرادقها ،
نار بلا نور ، بل ظلمات مبصرة
لا تفصح إلا عن مشاهد كرب
وأصقاع أسى ، وظلال غم وهم ، وساحات
لا يمكن أن يحل بها السلام والدعة ، بل لقد
امتنع فيها الأمل ، وهو مالا يمتنع على أحد !
إنه عذاب دائم يتدفق ، وطوفان من اللهب تغذيه
منابع كبريت لا تخبو جذوته ولا ينضب له معين .
هذا هو المكان الذي أعده العدل السرمدي
لأولئك العصاة ، إذ حكم عليهم بهذا السجن
الدامس البهيم فابتعدوا فيه
عن الله وعن نور السماء ثلاثة أمثال بعد مركز الأرض عن القطب الأقصى .
ما أشد ما يختلف عما هبطوا منه !
وسرعان ما أبصر ثم رفاق سقوطه يتقاذفهم
بحر النيران المتلاطم ودوامات السعير العاصفة
وأبصر إلى جواره رفيقا يتلوى ألما
يليه في السلطان ويليه في جسامة الجرم
وعرفته أرض فلسطين بعد ردح طويل
وأسمته بعلزبول . ومن ثم اتجه إليه العدو الأكبر -
والذي أصبح اسمه في السماء إبليس -

وطفق يتكلم كلمات جسورة كسرت طوق السكون الرهيب :
هـل أنت حقا هو ؟ إن كنت فوا أسفاه ! لشد ما انكسرت وتبدلت !
ما أبعدك عمن كنت أراه في أصقاع النعيم الوضاءة
يشع بهاء علويا يطغى بريقه
على الآلاف ! إذا كنت حقا من ربطني به العهد الوثيق
وتضافر الفكر واجتماع الكلمة وتساوي الأمل
والخطر ونحن ننهض بذاك العمل العظيم
فإنني مشدود إليك اليوم برباط الأسى
وخيبة الرجاء ! ما أحط وهدة المهوى
وأرفع جنة المأوى ! لقد برهن على تفوقه الحاسم
حين أرعد وأبرق - وهل كان أحد يدري قبلها
قوة ذراعيه الجبارتين ؟ ولكن هذا جميعًا
بل وكل ما يستطيع القوي الظافر في سورة غضبه
أن ينزله بي من تنكيل - لن يدفعني إلى الندم
ولن يجعلني ما فقدته من بهاء المظهر أغير ما عقدت عليه العزم
ولن ينال من كبريائي الوطيدة أن امتهنت قدرتي
إذ إن هذه الكبرياء هي التي دفعتني لمنازلة أقوى الأقوياء
دافعا إلى المعمعة الضارية
بقوة لا يحصي عددها من الأرواح المدججة
ممن تجاسروا على مناوءة حكمه وانحازوا إلى صفوفي
فقارعوا قوته العارمة بقوة غاشمة

في معركة سجال في وديان السماء
زلزلت عرشه. وماذا إذا خسرنا الموقعة ؟
إننا لم نخسر كل شيء . ما زالت لديّ عزيمة لا تُفَلّ
ومواصلة السعي للانتقام . وحقد لا ينفد
وصمود لا يعرف التسليم أو الاستسلام .
وهل ثَمَّ ما لا يقهر بعد هذه الخصال ؟
إن ذلك ظفر لن يستطيع غضبه أو جبروته
أن يسلبني إياه . أما الخضوع وطلب المغفرة
والركوع في خشوع أمام سلطانه
وهو من ذاق بطش ذراعي هذه منذ برهة
خاف فيها على ملكه ، فهو الذلة والمسكنة
بل عار جلل لا تدانيه مهانة هذا السقوط
أما وقد قضت الأقدار لقوة الآلهة
وهذا الكيان السماوي ألا يصيبه الوهن
ولما كنا قد خضنا غمار هذا الحدث الجلل
وخرجنا بأسلحة لا تقل مضاء وبصيرة أبعد نفاذا
فإننا نستطيع إذا حزمنا أمرنا - يحدونا أمل أصدق -
أن نشن - عَنْوةً أو بالمكر - حربا سرمدية
لا يخمد لها أوار على عدونا اللدود
الذي عقد له النصر اليوم فغدا في غمرة فرحه
يطغى في السماء وقد دان له السلطان غير منازع .
هكذا تحدث الملاك الذي فسق ، رغم عذابه ،

متباهيًا ، زاعق النبرة يعصره يأس عميق .
ولم يلبث أن جاءه الجواب من رفيقه الجسور :
أيها الأمير ! يا زعيم العديد من الصناديد المتوجين
يا من قدت المقاتلين الأفذاذ من طبقة الصاروفيم في حومة الوغى
فقاموا تحت إمرتك بفعال رهيبة
جسورة تهددت بالخطر ملك السماء الدائم
وقدمت البرهان على سمو رفعته
سواء كان مردها إلى القوة أم المصادفة أم القدر
إن الحدث الرهيب ليمثل أمام ناظري فيثير الأسى
على هذا الانقلاب المؤلم والهزيمة النكراء
التي أفقدتنا الجنة ويصحبتنا هذا الحشد العاتي !
يا للتهلكة المخزية ويا لدرك الحضيض الخفيض !
لقد فني منا ما يفنى من الأرباب وكائنات السماء
إذ ما زال الذهن منا والروح
صامدين وسرعان ما يعود بأسنا شديدا
رغم انطفاء جذوة المجد والبهاء ، ورغم أن الهناء
قد ابتلعه إلى الأبد يَمُّ الشقاء !
ولكن ما بال قاهرنا الجبار - (ولابد
لي أن أومن اليوم بأنه على كل شيء قدير
إذ ما كان لغيره أن يفتك هذا الفتك بقوانا)
أتراه قد أبقى على هذه النفس وهذه القوة كاملة
حتى تقوى على مر المعاناة وأليم العذاب

فنشبع غضبة انتقامه
أم لننهض بأعباء ما يأمرنا به وقد صرنا عبيدًا له
بحق الغلبة والنصر – أيا كان ما يأمرنا به
سواء كنا في قلب النار نكتوي بشواظ الجحيم
أم نقضي له المآرب في المحيط البهيم ؟
وما جدوى قوتنا التي لم تنتقص وكياننا السرمدي
إذا كان لن يأتي إلا بعقاب سرمدي ؟
وسرعان ما جاء رد الشيطان الأكبر قائلاً :
أيها الملاك الذي هوى ! الضعف شقاء
سواء في العمل أو المعاناة . ثق في قولي هذا
لن نفعل الخير يوما
بل سنرى في الشر دومًا متعة مثلى
فهو نقيض المشيئة العليا
لمن نقاوم ونناوئ . فإن قضت مشيئته
بأن يُخْرِجَ من شر فعالنا خيرًا
فعلينا أن نحاول إفساد مسعاه
فنجعل من الخير سببا إلى الشر .
لطالما كلل هذا المسعى بالنجاح ومن ثم فربما
عكر صفوه ! وإن لم يخب ظني فربما
أطاش سهام نواياه الصادقة فلم تصب أهدافها .
ولكن انظر ! لقد استدعى الظافر الغاضب
رسل الانتقام والطراد فعادت

إلى أبواب السماء : إن شآبيب الكبريت
التي أطلقت علينا عاصفة جائحة قد أخمدت
لجة النيران التي كانت قد تلقفتنا
حين هوينا عند شفا حفرة السماء ! أما الرعد
بأجنحته من برق أحمر وغضب جامح
فربما نفدت سهامه ! لقد أقلع
عن عوائه في أعماق المحيط الشاسع المترامي .
ينبغي ألا تفلت هذه الفرصة ، سواء كان مردها
استصغار عدونا لشأننا ، أم أنه قد أشبع غضبته ورواها !
أترى ذلك السهل الكئيب ، الموحش الرهيب ،
مقر الخراب والهباء ، وما به من ضياء
إلا ما تلقيه ألسنة اللهب الشاحبة من بصيص
خاب مخيف ؟ فلنأو إليه
ليعصمنا من لجج السعير المتلاطمة
ولنسترح إن كان ثم للراحة مرفأ
وليلتئم شمل قوانا المنهكة
فنتطارح الرأي في أشد ما نؤذي به - منذ يومنا هذا -
عدونا ، وفي وسائل استعادتنا ما فقدناه
وتخطي هذه الكارثة الباقعة
وما عسى أن يمدنا الأمل به من قوة
إن لم يكن اليأس بحافز على العزم المبين !
وهكذا فرغ إبليس من الحديث إلى رفيقه المقرب

وقد اشرأب رأسه فوق الأمواج ، وجحظت عيناه
فبرقتا والتهبتا ، أما سائر أعضائه
فمالت على اليم ، وامتد طولا وضخامة ،
سابحا فراسخ عديدة ، هيكل هائل
مثل وحش الأساطير ذي الجرم الضخم
(تيتان) أو مثل أبناء الأرض الذين نازلوا (جوبيتر)،
أو مثل (برياروس) أو (تايفون) الذي اتخذ عرينه
في (طرسوس) القديمة ، أو مثل وحش البحر
(ليفاياثان) الذي جعله الله من بين الخلائق
أضخم من مخر عباب المحيط !
ويروي الملاحون فيما يروون أنه كان يغفو في مياه بحر (النرويج)
إذ رآه ربان سفينة صغيرة غرقت ليلا
فظنه جزيرة
فألقى المرساة على جسده ذي القشور الصلبة
وأرسى الفلك إلى جواره والليل
يغشى البحر ، وطال به انتظار الفجر .
وهكذا استلقى الشيطان الأكبر ماردا عملاقا
تغله الأصفاد فوق بحيرة اللهب ! ولكنه لم يكن ليرفع رأسه
وينهض منها لو لم تكن مشيئة السماء -
مشيئة العلي الكبير - قد أذنت
فأطلقت سراحه لتنطلق مكائده الدفينة
فيقترف الجرم من بعد الجرم

فتصيبه اللعنة من بعد اللعنة ، وهو يسعى
لإيقاع غيره في أشراك الشر ، فيرى في سَوْرَتِه
مكره وقد خاب فلم يثمر
إلا الخير كل الخير وأتى بالرحمة والغفران لمن
أغواهم من بني الإنسان ، بينما تنهال على رأسه
الكروب مضاعفة ، وينصب عليه جام الانتقام والغضب .
وهنا نهض من البحيرة لفوره وانتصب
بقامته الجبارة ، وعلى الجانبين كانت ألسنة اللهب
ترتد فتلتف أسنانها المدببة وتتكور
في أمواج كالجبال تنفرج عن واد شائك مسنون .
ثم نشر جناحيه فحلق طائرا
في الجو ينوء الهواء البهيم بحمله
ويدرك عبء ثقله الخارق ، وأخيرًا على اليابسة
استوى ، إن كانت تلك هي اليابسة ! إنها تلتهب أبدًا
بنيران صلبة ، مثلما التهبت البحيرة بالنيران السائلة .
ويبدا لونها مثل بركان تثيره قوى
الرياح الحبيسة في باطن الأرض فتنقل التل من مكانه
وتنتزعه من جبل (بلوروس) ، أو مثل السفح الذي مزقه
بركا (إتنا) الراعد ، فاشتعلت
أحشاؤه بوقود جبار سرى فيه الضرام
وفارت فيه المعادن فغدت أبخرة تندفع مع الريح
وخلفت القاع محترقا ، يغلفه

الدخان ويغمره كريه الرائحة يا له من موطن راحة
لأقدام لعينة ! وتلاه رفيقه الذي يتلوه في المنزلة
وقد أسعدهما أن هربا من بحيرة اللهب الجهنمية
وما زالا أربابا وأنهما في ظنهما قد أفلتا بفضل القوة التي عادت لهما
لا بفضل ما أذن به ذو القوة والجبروت
وهنا أنشأ يقول من كان ملاكا أكبر :
أعلينا إذن أن نستبدل هذه البقعة وهذه التربة وهذا المناخ
بجنة النعيم ؟ أعلينا أن نستبدل هذا البلقع المدلهم
بالضياء العلوي الغامر ؟ فليكن ! فإذا كان
من له الملك اليوم يصرف الأمر كما يشاء ويقضي
فَيُقْضَى له ، فأفضل المواقع أبعدها عنه !
لقد جعلنا العقل نظراء ولكنه تفوق بالقوة
على نظرائه ! وداعا إذن يا رياض الهناء
يا موطن السرور الأبدي ! ومرحبا بالهم والغم !
مرحبا بالدرك الأسفل ! وأنت يا أغوار الجحيم السحيقة
تقبلي ربك الجديد : رب يأتي إليك بذهن لا يتبدل
ولا ينال منه مكان أو زمان .
فالذهن هو الذي يخلق المكان ، وهو في باطنه
قادر على أن يحيل الجحيم جنة أو الجنة جحيما
وماذا يضيرني أن أكون هنا أو هناك ما دمت الكيان
نفسه - كما ينبغي - أكاد أضارع من تفوق عليّ
بقوته العاتية ؟ إننا - على الأقل -

سننعم بالحرية هنا ! إن ذا الجبروت لم ينشئ
هذا المكان ليبعث على الغبطة ، ولذلك لن يخرجنا منه!
لنا أن نسود هنا آمنين ، وإنني لأرى
أن السيادة مطمع رفيع ولو كانت في الجحيم !
سيد في جهنم أكرم من عبد في الجنة !
ولكن ما لنا خلفنا رفاقنا المخلصين
شركاء الضياع وزملاء السقوط
يرقدون ذاهلين في بحيرة النسيان ؟
ما لنا لا نناديهم ليتقاسموا معنا
تعاسة مأوانا أو ليجتمع شملنا ثانيا
فنضم الصفوف المدججة لنسترد ما بقي
لنا في الجنة أو نتحاشى مزيدا من الضياع في الجحيم ؟
وبعد أن فرغ إبليس من حديثه
جاءه رد (بعلزبول) : يا زعيم الأجناد البهية
من لا غالب لها سوى ذي القوة والجبروت
إن في صوتك عهدا وثيقًا يحيي الأمل
ويبعثه في بهمة المخاوف والمخاطر ! وكثيرا ما دوّى
في لحظات أحلك من هذه ونحن على شفا حفرة
من الهلاك وقد اضطرم سعير المعركة ، فكان أصدق
حافز على الكر والنزال ! إنهم إن سمعوا صوتك
فسوف تشرق الشجاعة في الصدور ولسوف يهبون من هذا الرقاد
الخاضع الذليل في بحيرة النار

كشأننا منذ برهة وقد ذهلت منهم العقول وغابت
ولا غرو بعد أن هووا من ذلك الارتفاع الشاهق .
ولم يكد ينتهي من حديثه حتى نهض الشيطان الأكبر
فاتجه إلى الشاطئ يحمل درعه الثقيل
الذي صاغته نيران السماء ضخما كبيرًا مستديرًا !
كان يحمله على ظهره وقد بدا محيطه الشاسع
فوق كتفيه مثل القمر عندما تطلع إليه
فنان (توسكانا) في منظاره المقرب
ساعة المساء من قمة جبل (فيزولي)
أو (فالدارنو) ليشهد الأرض الجديدة
والأنهار والجبال على صفحته الرقشاء !
أما رمحه فتتضاءل إلى جواره أطول أشجار الصنوبر
التي تؤخذ من سفوح (النرويج) لتصبح سواري
على أضخم السفن ! بل إنها لتبدو عصيا قصيرة إن قيست به !
كان يتكئ عليه ليسانده في خطوه المتعثر
فوق التربة المشتعلة ! ما أبعدها عن خطواته الثابتة
على صفحة السماء اللازوردية ! كان الهواء الساخن
يشوي الوجوه ، وقد حملته النيران حملا !
ولكنه احتمل العذاب حتى وصل إلى مرفأ
البحر المتأجج فوقف ونادى أجناده -
ملائكة في الصورة يستلقون في إغماءة
وقد تكدست جسومهم مثل أوراق الخريف الذابلة

على صفحة غدران (فالومبروزا) ، ومن فوقها ظلال
(أتروريا)
كالخمائل السامقة ، أو مثل الأعشاب المبعثرة على وجه الماء
عندما سطع نجم الجبار فأرسل ريحه الصرصر العاتية
لتلاطم ساحل البحر الأحمر فغشيت أمواجه
فرعون وجنوده وانقلبوا أي منقلب !
كانوا قد جدوا في أثر قاطني أرض (جاسان) ، وتعقبوهم
بأحقادهم ومكرهم
ولكن المهاجرين وصلوا إلى بر الأمان فشاهدوا
أجساد أعدائهم طافية
وعجلات عرباتهم وقد تحطمت وتناثرت أشلاء ! فهكذا كانوا
الآن - أكواما بشعة ضائعة فوق صفحة اليم
ذاهلين لما حل بهم من خسوف .
ونادى بصوت عريض ترددت أصداؤه في هوة
الجحيم الفاغرة : أيها الأمراء ! أيها القواد !
أيها الأجناد ! إن زهور الجنة التي كانت لكم لضائعة
إذا كان لهذا الذهول أن يصيب
الأرواح الخالدة ! أم تراكم اخترتم هذه البقعة
بعد عناء الموقعة لتريحوا
بسالتكم اللاغبة - وهل في النوم من راحة
هنا مثل الرقاد في وديان الجنة ؟
أم تراكم قد أقسمتم بهذا الاسترخاء الذميم

على الخنوع للظافر ! إنه يشهد الآن
كل ملاك من طبقتي الشاروبيم والصاروفيم وهو يتلوى في اليم وقد
تناثرت أسلحته وراياته وسرعان
ما يدرك فرسان الكر الخاطف - الذين يقفون الآن لدى
باب الجنة - أن الفرصة مواتية فيهبطون وينقضون علينا
وقد طرحنا أرضا ! ولربما أطلقوا علينا سهام الصواعق
المتصلة
فرموا بنا في قاع هذا الخضم !
هبوا وانهضوا وإلا ترديتم ها هنا للأبد !
أصغوا إليه فخامرهم خجل وفي الحال هبوا
محلقين - كأنهم حراس من بني البشر
فاجأهم رئيسهم المهاب في سهرهم وقد غفلوا
فنهضوا ينشدون اليقظة وما هم بيقظين
لم يكونوا غافلين عن الخسران الفادح
الذي غشيهم ولا الآلام المبرحة التي تعتصرهم
ولكنهم أصاخوا على الفور لصوت رئيسهم
في أعداد لا تحصى . مثلما رفع
موسى عصاه في زمن الشدة بمصر
وأشاح بها على الساحل فأرسل الله سحابا مدلهما
من الجراد مالت أسرابه مع ريح الشرق
فظلّلت مسلك فرعون الكافر كأنها
الليل البهيم يرخي سدوله على وادي النيل !

هكذا بدت هذه الأعداد التي لا تحصى من الملائكة الفسقة
وهم يحلقون بأجنحتهم في سرادق الجحيم
والنار من فوقهم ومن تحتهم ومن حولهم
ثم رفع رئيسهم رمحه ، مشيرًا به إليهم
وصوب القائد الأكبر طرفه ليحدد
مسارهم فإذا هم يهبطون في استواء
على أحجار الجحيم الكبريتية الصلبة ويملأون السهل !
يا له من حشد حاشد ! لم تتدفق مثله الجحافل
من أصقاع الشمال ، من صلب مارد بارد
لتركب نهر (الراين) أو نهر (الدانوب) ، عندما كان البرابرة
من أبناء الشمال يتدفقون مثل الطوفان جنوبا وينتشرون
وراء جبل طارق إلى صحراء ليبيا
وعلى الفور انطلق من كل سرب ومن كل كتيبة
رؤساؤها وقوادها مسرعين إلى حيث يقف
زعيمهم الأكبر ، على محياهم سمات الآلهة
ومخايل نبل تبز أشراف البشر وأمراءهم .
لقد كانوا منذ هنيهة عتاة يتربعون على عرش الجنة ،
رغم أن أسماءهم قد انمحت الآن من سجلات السماء
ولم يعد لها من ذكر بعد أن كشطها فسوقهم ومحاها
من ألواح الحياة !
لم يكونوا قد اكتسبوا بين بني حواء
أسماء جديدة حتى ينتشروا في الأرض

بمشيئة الله العليا ليبتلوا الإنسان
بأباطيل وأكاذيب فيغووا أكثر
الناس على الفساد حتى يخرجوا من كنف
الله بارئهم ويحيلوا
سناء من خلقهم - ذلك السناء الخفي -
إلى صورة حيوان أعجم زينوه
بأكاليل من طقوسهم حافلة بالبهرج والنضار
وحتى يتخذوا الشياطين آلهة من دون الله :
عندها عرفهم الناس بأسماء شتى .
وغدوا أصناما شتى في عالم الوثنية
خبريني يا ربة الشعر ! لقد عُرِفَتْ أسماؤهم ، من كان أول من نهض
من الرقاد على تلك الأريكة المتأججة ومن كان آخرهم
عندما دوى نداء سلطانهم العظيم ؟ إنه التالي في المنزلة
وقد أتى وحده إلى حيث وقف على الشاطئ المقفر ،
والحشد المختلط ما زال بعيدًا ينظر !
إن أعظمهم أولئك الذين نهضوا من وهدة الجحيم
فانتشروا ينشدون ضحاياهم على الأرض فتجاسروا
على إقامة عروشهم - بعد زمن طويل - في موقع يلي عرش الله
وإقامة مذابحهم بالقرب من مذبحه ، فأصبحوا آلهة تعبدها
الشعوب ، وتجاسروا على مواجهة
(يهوه) وهو يرعد خارجا من (صهيون) متوجًا

بين ملائكة الشاروبيم ! أجل ! بل إنهم كثيرًا ما أقاموا
معابدهم وسط قدس أقداسه !
تلك الأرجاس !! بل دنسوا بكل ذميم
شعائره القدسية وموائده المباركة
وتجاسروا على لطم أنواره بدياجيرهم !
أولهم (ملكوم) - الملك الأشأم الذي لطخت يديه دماء
الضحايا البشرية ودموع الآباء والأمهات
ولولا ضجيج الطبول وجلبة الدفوف
لسمع صراخ أطفالهم وهم يلقون في النار
أمام صنمه الجهم! لقد عبده بنو (عَمُّون)
في (رِبَّه) حيث ينبسط الماء سهلا عريضا
وفي (أرجوب) و (باشان) وحتى النهر
الذي يحد أقصى تخوم (أرنون) ! وكأنما لم تكفه
كل هذه البقاع المهيبة فخادع قلب أحكم الحكماء
سليمان حتى يبني له معبدا
بجوار معبد الله
على تل تدنس من ثم ، وحتى يتخذ بستانه
في وادي (بني هِنُّوم) الجميل الذي تغير اسمه من ثم إلى (توفه)
وجهنم السوداء - رمز الجحيم الحق !
وتلاه (كموش) رجس المؤابيين
من منطقة (عروعير) إلى (نَبُو) والبرية
في أقصى جنوب جبال (عباريم) وفي (حشبون)

و (حورونايم) التي تخضع لملك (سيحون) وراء
وادي (سبمة) المزهر الذي تكسوه عرائش الكروم
ومن (العالة) حتى البحر الميت .
كان قد تسمى باسم (فغور) عندما أغوى
بني إسرائيل بالإقامة في (شطيم) بعد خروجهم من وادي النيل
ليؤدوا له طقوسهم الدنسة التي جرت عليهم المصائب
ومع ذلك فقد وسع من نطاق طقوسه الماجنة
حتى بلغ التل الدنس ، وبستان
مذابح (ملكوم) ، في شهوة تصحبها الأحقاد !
حتى أخرجهم (يُوشِيَّا) الصالح منها إلى الجحيم .
ومع هؤلاء أتى قوم تسموا بأسماء عديدة
في المنطقة ما بين (الفرات) العريق والنهر الذي يجري بين
أرض (مصر) وأرض (سورية) - وقد كانت أسماؤهم الشائعة
هي (البعليم) للذكر و (عشتورث) للأنثى
إذ إن للأرواح عندما تشاء
أن تتخذ صورة الذكر أو صورة الأنثى أو كلتيهما فهي رهيفة
وبسيطة في جوهرها النقي
لا يربطها أو تغلها المفاصل أو الأطراف
ولا تقوم على قوة العظام الهشة
مثلما يقوم اللحم الثقيل - ولكنها في أي صورة تختارها
متمددة أو مضغوطة ، مضيئة أو مظلمة
تستطيع أن تقضي مآربها الأثيرية

فتقيم وشائج الحب أو أسوار العداء .
وقد تخلى بنو إسرائيل - من أجل هؤلاء - عن
قوتهم الحية ، وتركوا وراءهم ظهريا
معبد الله الحق ، راكعين في خشوع
لآلهة من الحيوان ، ومن أجلهم أيضًا كانت رؤوسهم
تنحني وتركع في حومة الوغى ، خاشعة أمام حراب
أعداء أرجاس . ومع هؤلاء - في هذا الحشد -
أتت (عشتورث) - التي أسماها الفينيقيون
(عشتروت) ، ملكة السماء ، بقرون كالأهِلَّة
وأمام صورتها الوضاءة -
كانت عذارى (صيدا) يحلفن الأيمان كل ليلة في ضوء القمر
وينشدن الأهازيج
التي أنشدت في (صهيون) حيث انتصب
معبدها فوق الجبل المدنس الذي بناه
ذلك الملك المفتون بزوجته والذي وقع رغم رحابة قلبه
في حبائل الغيد من عابدات الأصنام فسقط
أمام الأصنام الدنسة . وأتى بعد ذلك (تموز) الذي
كان جرحه يدمى كل عام في (لبنان) فيخلب لب
بنات (سورية) إذ تأتين للبكاء على مصيره
منشدات أهازيج غرام طول أيام الصيف
بينما يجري نهر (أدونيس) هابطا من صخرته
مصطبغا بالأرجوان حتى يصل إلى البحر ، كأنما سرى فيه دم

(تموز) الذي يسيل جرحه كل عام ، أما قصة الحب هذه
فقد بثت شهوة مماثلة في جوانح بنات (صهيون)
بل شهوات ماجنة في القبة المقدسة
أبصرها (حزقيال) عندما هدته الرؤيا
ليشهد الشرك والتعبد في الظلام
لـ (يهوذا) المغضوب عليه ! وجاء بعده
من بكى مر البكاء ، حين شوه فُلْكُ الله
الأسير صورته البهماء ! بل إنه قطع رأسه ويديه
فارتمى (الصنم) لدى الباب في عقر معبده
طريحا وجلب العار لعباده !
كان اسمه (داجون) وهو وحش بشري نصفه الأعلى بشر
ونصفه الأسفل حوت ! ومع ذلك فقد ارتفع معبده
عالي البنيان في (أشدود) ، وكانت له مهابة في أرجاء ساحل
(فلسطين) ، في (جت) وفي (عسقلان)
وفي (عكا) وفي (غزة) حتى أقصى التخوم
وجاء من بعده (رمّون) الذي اتخذ مقره الجميل
في (دمشق) الفيحاء على الضفاف الخصبة
لنهري (أبانة) ونهر (الفرفر) بمياههما الرقراقة !
كان قد تجاسر هو الآخر على بيت الله
فخسر قلب المجذوم وفاز بقلب الملك (آحاز)
الفاتح المأفون ، فجعله
يسخر من معبد نبي الله ويقيم مكانه

معبدا سوريا ليحرق فيه
قرابينه البشعة ويصلي للآلهة
الذين قهرهم ! وجاء بعد هؤلاء
رهط ذاعت أسماؤهم في غابر الزمان -
(أوزوريس) و (إيزيس) و (حورس) ومن تبعهم
من ذوي الصور الممسوخة وأرباب السحر الذين أضلوا
فرعون وكهنة مصر المتعصبين الذين عبدوا
آلهة من الرُّحّل الذين اتخذوا صور الحيوان
لا الإنسان ! ولم ينج بنو إسرائيل من هذا
الوباء إذ صنعوا من الذهب الذي اقترضوه
عجلا في (حوريب) ! أما الملك العاصي
فقد ضاعفت من هذا الإثم في (بيت ايل) وفي (دان)
حين مثل لخالقه بثور يرعى الكلأ -
(يهوه) الذي ضرب ضربة واحدة وهو خارج
من مصر ، فأتت في ليلة واحدة ودون تفرقة على
أكبر أبنائها وبهائمها - آلهة مصر الثاغية !
وأخيرًا أتى (بَلِيَّعال) أمجن الجن التي
خرجت من الجنة ، وأغلظها طبعا لحبه
الشر لذاته ! لم يكن يعترف بمعبد قائم
أو مذبح يحرق فيه البخور ! ومع ذلك فما أكثر ما اختلف
إلى المعابد والمذابح ليجعل من الكاهن
ملحدا مثلما فعل بنو (عالي) الذين أفعموا

بالشهوات الدنيا وبالبطش بيت الله
وبلاط الملوك والقصور ! إنه ليبسط سلطانه
في المدائن المترفة حيث تعلو أصوات
الحفلات الصاخبة فوق أبراجها العالية كما تعلو
أصوات الفسق والفجور ! وحينما يرخي الليل
ظلامه على الطرقات يخرج أبناء
(بليعال) وقد انتفخت بطونهم بالنبيذ وانتفخت أوداجهم بالبذاءة!
انظر إلى طرقات (سدوم) وتلك الليلة الليلاء
في (جِبْعَة) عندما تبرجت لدى باب رجل كريم
امرأة لتجنب صاحب الدار هتك عرضه !
تقدم هؤلاء لعلو منزلتهم وجبروتهم ،
أما الباقي فيطول ذكر أسمائهم رغم ذيوعهم وشهرتهم
إنهم آلهة (الأيونيين) الذين انحدروا من صلب (ياوان) فاعتُبروا
آلهة رغم نسبتهم فيما بعد إلى السماء والأرض
وتفاخرهم بهذين الأبوين . كان (تيتان) ابن السماء الأكبر
وكانت ذريته من المردة الغلاظ ، وقد اغتصب ملكه الموروث
(ساتورنوس) الذي يصغره سنا ثم لقي من (جوف) الجبار
المعاملة نفسها هو وابنه الذي أنجبه من (ريا)
وهكذا حكم (جوف) اغتصابا : إذ عُرِفَ هؤلاء أولاً في
(كريت)
وعلى جبل (أيدا) ثم اعتلوا الثلوج التي تكسو قمة جبل
(الأوليمب) بزمهريره وحكموا السماء الوسطى فكانت

أرفع سماواتهم ، واستقر بعضهم على صخور (دلفي)
أو في (دودونا) وحتى أقاصي
أرض (دوريس) وأما البعض الآخر فقد اصطحبوا
(ساتورنوس) الهرم
وانطلقوا فوق مياه البحر (الأدرياتي) إلى حقول
(هسبيريا)
وفوق سهول (الكلت) محلقين حتى الجزر القصوى.
احتشد هؤلاء وغيرهم . كانت نظراتهم
زائغة وعيونهم كسيرة ، على ما لاح فيها
من بصيص فرحة خابية حين وجدوا أن رئيسهم
لم يبتلعه اليأس ، ووجدوا أنهم لم يضيعوا بعد
حتى وهم في غمرة الضياع ! كان على محياه
ظل كسوف ، بيد أن كبرياءه الأصيلة
سرعان ما عادت إليه فطفق يتكلم كلمات طنانة توحي
بمعان جليلة وهي منها خواء ! كانت كلمات رفيقة أذكت
شجاعتهم الذاوية وبددت مخاوفهم .
ثم أمر بأنه عندما يدوي صوت الحرب
عاليا من كل بوق ونفير فعليهم أن يرفعوا
رايته الجبارة – وهو شرف كبير أصر على أن يناله
(عزازيل) قائلاً إنه من حقه لعلو قامته .
وعلى الفور نُشرت من القناة البراقة
رايةُ السلطان فارتفعت شمّاء

وتألقت مثل مُذَنَّبٍ ينساب في الريح وقد لمعت فيه
الأحجار الكريمة وسطع بريقه الذهبي الأخاذ
إذ تألقت في الراية رموز الأسلحة وأكاليل النصر التي ظفر بها
الملائكة
بينما أخذت الأبواق الرهيبة تدوي بأنغام الحرب .
ثم ندت من ذلك الحشد الحاشد
صيحة مزقت قبة الجحيم وتخطتها
لتفزع ملك العماء والليل الهرم
إذْ تَبَدَّتْ فجأة في البهمة
عشرة آلاف راية ترتفع عاليا في الهواء ،
خفاقة بألوانها المشرقة ! وارتفعت معها
غابة لَفَّاءُ من الرماح الشائكة والخوذات المحتشدة
والدروع الكثيفة التي حشرت حشرًا
فما يسبر لها من غور ! وإذا بها جميعا تتحرك
في فيلق محكم على أنغام مقام (دوريس) من
النايات والمزامير الرقيقة ! كانت هذه الأنغام هي التي سمت
بالأبطال القدماء إلى أرفع درجات الشرف وهم يتأهبون
بأسلحتهم لخوض القتال ، وجعلتهم يتنفسون أنفاس
الشجاعة الرزينة ، لا أنفاس الغضب ، فثبتوا ولم ينكصوا على
أعقابهم خشية الموت ، ولم يولوا الأدبار يومًا ما
فلديهم طاقة التخفيف عن أذهانهم المضطربة ،
والترويح عن نفوسهم الثائرة ، باللمسات الرصينة الرزينة ،

بل وإقصاء القلق والشك والخوف والحزن والألم
عن أذهان الفناء وأذهان الخلود جميعا . فهكذا كان هؤلاء الآن ،
يتنفسون قوة موحدة ، ثابتة العزم ،
ويسيرون في صمت على أنغام المزامير الساحرة التي يسرت
خطوهم الموجع فوق التربة الملتهبة . وها هم الآن
يبرزون للعيان ، ويتوقفون : جبهة شاكية السلاح
طولها مهيب وسناها يذهب بالأبصار ، في صورة
الصناديد القدماء ، وقد سووا صفوف الحراب والدروع ،
في انتظار الأمر الذي كان على زعيمهم الجبار
أن يصدره . أما هو فقد ألقى على هذه الصفوف المدججة
عينه الخبيرة ، واستعرض في لمحة
ذلك الجحفل بأسره ، فتبين له انتظام درجاتهم ، وبدت له
وجوههم وقاماتهم في صور الآلهة
ثم أحصاهم وعدهم عدا فانتفش قلبه بالزهو
والخيلاء ، وقسى في قوته وتباهى ،
إذ إنه منذ أن خلق الإنسان
لم يلتق مثل هذا الحشد لقاء رجل واحد ، ولن يبدو أمامهم
أي جيش أكبر من صغار فصائل المشاة التي
هزمتها الكراكي ! أوَ تَذْكُرُ سلالة العمالقة الذين
خاضوا معارك (فليجرا) وقد تضافرت معهم ذرية الأبطال
الذين حاربوا في (طيبة) وفي (إليوم) ، وما انضم إلى
كل فريق من آلهة تعينه ؟ أو ما ترويه

الأسطورة والرومانسة عن ابن (أوثر) الذي
أحاط به فرسان (بريطانيا) و (أرموريا)
وكل من قاتل منذ ذلك الحين ، مؤمنا أو كافرا ،
في (اسبارامونتي) أو (مونتالبان) ، وفي
(دمشق) أو (المغرب) أو (طرابزون)
أومن خرجوا من (بنزرت) على ساحل (إفريقيا)
ليكسروا (شارلمان) وفرسانه في موقعة
(فونتارابيا) ؟! فهكذا كان هؤلاء الذين تجاوزوا كل
صورة لعنفوان البشر يقفون الآن تكريما
لقائدهم المهيب . كانت هامته تعلو على الجميع
وكان في صورته وحركته شامخا متكبرا
كالبرج الأشم . لم تكن طلعته قد فقدت بعد
بهاءها الأول ، فبدا ملاكا أكبر
أناخ عليه الدهر ، وغام من فرط
السناء وأظلم ! مثل الشمس عند شروقها
وهي تشخص من خلال ضباب الآفاق ،
عاطلة من أشعتها ، أو عندما تطل من وراء القمر
ساعة الخسوف المدلهم ، جالب الكوارث ، فتسكب الظلال
على نصف أمم الأرض ، وتثير الخوف من التحول
والقلق في قلوب الملوك . ورغم الظلام الذي كان يلف
الملاك الأكبر فقد فاق ضياؤه كل من حوله . كانت
الجراح الغائرة من أثر الرعود تُغضّن وجهه ، وكان الهم

يقبع فوق خده الذابل ، مستظلا بحاجبين ينطقان
بشجاعة لا تُفَلّ ، وكبرياء الرزين المتدبر
الذي يتحين الثأر ! وكانت في عينيه قسوة تشوبها
آيات ندم وشوق إلى رؤية
رفاق جريمته ، أو قل أتباعه
(وما أشد اختلافهم عمن رآهم في النعيم) الذين كتب عليهم
الآن أن يتحملوا الآلام إلى أبد الآبدين !
ملايين من الجان الذين أخذوا بجريرته فحُرِموا
الجنة ونُبِذوا من روائع الخلد
لفسوقه وعصيانه ! ما أشد ولاءهم له
حتى بعد أن ذوي بهاؤهم . أرأيت إلى نيران السماء
حين تحرق أشجار البلوط في الغابات أو أشجار الصنوبر على
الجبال
فتظل قاماتها المهيبة ، رغم عريها وشيب رؤوسها
منتصبة على الربى الجرداء ؟! وتهيأ الآن للحديث
بينما أخذت صفوفهم المزدوجة تنحني
من الجناحين حتى كادوا يحيطون به
هو وأقرانه وقد عقد الترقب ألسنتهم .
ثلاث مرات حاول أن ينطق ، وثلاث مرات - رغما عنه -
تفجرت من عينيه دموع كدموع الملائكة ، وأخيرًا
اختلطت الكلمات بالآهات خارجة من شفتيه إذ قال :
يا آلاف الأرواح الخالدة ! أيتها القوى التي

لا غالب لها إلا القوي القدير ! لم يكن ذلك النزال
شائنا رغم انكسارنا المزري
الذي يشهد عليه هذا المكان ، وهذا الانقلاب المهين
الذي يشق ذكره ! ولكن أي طاقة للذهن
على التنبؤ أو رؤية للغيب ، غوصا في أعماق
العلم بالماضي أو بالحاضر ، كانت لتخشى اندحار
هذه القوة المتضافرة من الآلهة ؟ وكيف لمن
يقف وقفتكم هذه أن يُرَدَّ على عقبيه ؟
ومن ذا الذي يصدق ، حتى بعد الضياع ،
أن جميع هذه الكتائب العاتية التي أقصيت
من الجنة فتركتها خاوية ، لن تستطيع أن ترتقي ثانيا
بشدة بأسها لتستعيد عرشها العريق ؟
فليشهد على ما أقول كل أهل الجنة
إنني إذا كنت رأيت رأيًا آخر أو تفاديت الخطر
لضاعت آمالنا جميعا ! ولكن الذي يحكم
وله الملك في السماء كان في مأمن حتى تلك اللحظة
جالسا على عرشه ، يُعزّزه صيته القديم
أو تقبل سلطانه أو العرف القائم ، وبينما كان يبدي
شتى مظاهر ملكه كان يحرص دائمًا على إخفاء قوته
مما أغوانا أن نقدم على محاولتنا وتسبب في سقوطنا !
أما الآن فنحن ندرك قوته وندرك قوتنا
بحيث نحجم عن إثارة حرب جديدة ، ولا نخشى

خوض حرب جديدة إذا شُنَّتْ ! والأفضل لنا الآن أن
نعمل في الخفاء حتى ننال بالمكر أو الخديعة
ما لم ننله بالقوة ، عسى أن يتعلم هو الآخر
منا في النهاية أن من ينتصر على عدوه
بالقوة وحدها إنما يحرز نصف انتصار فحسب .
قد تولد في الفضاء عوالم جديدة ، بل كثيرًا ما ترددت
الشائعات في السماء أن الله يعتزم خلقها
قريبًا ، وأنه سوف يبذر فيها
سلالة يُحْسِنُ خلقها
ويقربها منه لتضارع أبناء الجنة !
هيا إلى ذلك العالم إذن، ولو لاستطلاعه فحسب، فربما كان كذلك
بادرة انطلاقنا ! هيا إليه أو إلى أي مكان سواه ،
إذ لن نسمح لهذه الحفرة الجهنمية أن تغل أرواح السماء
في الأصفاد ، أو لهذه الهوة أن تظللنا
بظلامها ردحا طويلا ! ولكن هذه الأفكار
لن تنضج إلا بتشاورنا جميعًا : السلام ميئوس منه
إذ من يفكر منا في الاستسلام ؟ إنها الحرب إذن ! الحرب !
وينبغي أن نحسم إذا ما كانت ستشن سافرة أو خفية .
فرغ من حديثه فارتفعت ملايين الأسياف الملتهبة
نصرةً لكلماته - أسياف استلت من أغمادها على
جنوب الجبابرة من ملائكة الشاروبيم ، فأضاء وهجها بغتة
جنبات الجحيم وأقاصيها : لقد تعالوا فتطاولوا

على الأعلى ، وفي حمياهم دقوا بقبضات أسلحتهم
على دروعهم الرنانة دقات الحرب
وأرسلوا التحدي مدويا نحو قبة السماء .
كان ثم جبل غير بعيد ، وكانت قمته الرهيبة
تتجشأ النيران والدخان المتكور ، أما سائر جسمه فكان
يبرق بقشور زاهية ، وهي دلائل مؤكدة على أنه
يخفي في بطنه زُبَرَ الحديد والمعادن
التي ولدها الكبريت فانطلقت إليه على جناح السرعة
كتيبة عرمرم ، مثل فرق الرواد
الذين يحملون المعول والجاروف
ويتقدمون جيش الملك ليحفروا الخنادق
أو يقيموا المتاريس . كان على رأسهم (مامون)
وكان (مامون) أقل الأرواح سموا بين من خرجوا
من الجنة ، وحتى في الجنة كانت نظراته وأفكاره
تتجه دائمًا إلى أسفل ، إذ تبهره ثروات أرض الجنة
والنضار الذي تطؤه الأقدام ، أكثر من أي قداسة
أو مشاعر ربانية مما يُسْتَمْتَعُ به
في الرؤى المباركة . كان أول من حفز البشر
وأوحى إليهم فعلمهم أن ينهبوا
باطن الثرى فيدنسوا أيديهم
ويقروا أحشاء الأرض أمهم الرؤوم
ليستخرجوا الكنوز التي أُحكم إخفاؤها . وسرعان

ما شق فريقه جرحًا عظيمًا في جسد هذا الجبل
واستخرج منه ضلوعا من الذهب . لا يَعْجَبَنَّ أحد
أن الكنوز تنمو في الجحيم ، إذ إن تربتها
أجدر ما يحمل ذلك البلاء النفيس . وهنا ، فليعلم
الذين يتباهون بكل فانٍ زائل ، والذين يحكون في إعجاب
عن (بابل) وأهرامات ملوك (ممفيس) ، ألا
فليعلموا أن أعظم آثارهم الذائعة
وقوتهم وفنونهم ، ما أيسر أن تبزها
أرواح الجن المغضوب عليها ، فتنجز في ساعة واحدة
ما لا يقدرون عليه في دهر طويل بالجهد الدؤوب
وما لا يحصى من أيدي البشر !
وعن كثب في الحجرات التي أعدت على السهل المنبسط ،
الذي تجري من تحته عروق النيران السائلة
التي تتدفق من فتحات في البحيرة ، كان حشد آخر قد انهمك
بفنه الرائع في صهر كتل الإبريز ، وأخذ
يفصل بين كل نوع ويجمع الشوائب كالزبد على سطح الذهب
بينما كان فريق ثالث قد صاغ في الأرض
قوالب منوعة ، وصب فيها الذهب الذي يغلي في الحجرات
فملأ أركانها المجوفة ، ناقلا إياه نقلا عجيبا
مثلما يُنفخ في الأرغن نفخة واحدة فتنتقل إلى
صفوف المزامير المنوعة فتعلو أنفاس أنغام متباينة .
وسرعان ما ارتفع من الأرض بناء ضخم

تصاعد كالزفير تصاحبه أصوات
الألحان المتوافقة والأناشيد العذبة !
بناء يشبه المعبد ، يرتكز على عضادات
في الأركان ، عمد (دُورِيّة) مكسوة
بطلاء ذهبي ، لم تكن تنقصها
الأطر والأفاريز التي نحتت فيها التصاوير البارزة .
كانت عارضة السقف من الذهب المنقوش . لم تشهد
(بابل) أو القاهرة العظيمة مثل هذه الفخامة ولم
تضارعاها بكل أمجادهما وبكل المفاخر التي أعدت لتكريم
إلهيهما (بعل) و (سيرابيس) ، أو لإعداد عروش
ملوكهما عندما كانت (مصر) و (آشور) تتنافسان
ثراء وترفا . وسرعان ما ارتفع العمود الأوسط
فدعم ارتفاع المبنى الفخم ، وعلى الفور
انفتحت أبوابه على مصاريعها النحاسية لتكشف عن رحابة
في داخله ، وفراغات شاسعة امتدت فوق الأرضية الملساء
المستوية ، وتدلت من قبة السقف
كأنما تعلقت بسحر ساحر ماكر صفوف عديدة
من المصابيح كأنها النجوم ومشاعل وهاجة توقد
من النفط والقار فتنشر ضوءًا يضاهي
نور السماء ، ودخل الحشد المتعجل
مبديا إعجابه ، فهذا يطري البناء وذاك يطري مهارة البَنَّاء . كان أسلوبه معروفا
في السماء ، إذ شاد الكثير من شاهق الهياكل ذات الأبراج

التي أقامت بها الملائكة المتوجة
وحكم كلا منها أمير رفعه الملك الأعلى
إلى مكان مكين ونصبه حاكما
في درجة معلومة من درجات الرفعة ، على الكتائب الوضاءة ،
وما كان اسمه مجهولا أو غير مكرم
عند اليونان القدماء أو في أرض (أوسونيا)
إذ أسماه البشر (مولكيير) ، أما عن خروجه
من الجنة فيزعمون في أساطيرهم أن (جوف) قد غضب عليه
فألقاه عاريا من فوق الأسوار البلورية ، فظل يهوي
من الصباح إلى الظهيرة ، ومن الظهيرة حتى المساء النديّ
طيلة يوم من أيام الصيف ، حتى سقط عند غروب الشمس
مثل شهاب ثاقب من كبد السماء
على أرض (ليمنوس) وهي جزيرة في بحر (إيجه) .هذه روايتهم
الكاذبة ، إذ إنه كان قد سقط مع هذا الحشد العاصي
قبل ذلك بدهور ، وما أغنى عنه اليوم
ما بناه في السماء من سامق البروج ، وما استطاع الفرار
بكل حيله ، بل أُلْقِيَ به فانقلب
مع عماله المهرة ليرفعوا الأبنية في الجحيم .
وفي هذه الأثناء كان المنادون المجنحون ، مؤتمرين بأمر
سلطانهم الأكبر ، يتولون المراسم الرهيبة
ويرسلون صوت الأبواق إلى آذان الحشد الحاشد ، فيعلنون
انعقاد مجلس مهيب على الفور

في (بانديمونيام) - العاصمة الكبرى
لإبليس وأقرانه . فاستدعى نداؤهم
من كل فريق وكل فصيلة رباعية التشكيل
أعلاها مكانا وأرفعها درجة . وهكذا جاء الجميع فورًا
مع المئات والآلاف من أتباعهم
فملأوا الطرقات عن آخرها والبوابات
والمداخل الواسعة ، لا سيما تلك الردهة الرحيبة
(كانت تشبه الميدان المغطى حيث كان الأبطال البواسل
يركبون جيادهم مشرعين سلاحهم في مجلس السلطان
ليتحدوا أعظم فرسان الوثنية وليشتبكوا
في نزال حتى الموت أو يتلاقوا بالرماح على ظهور الخيل)
كان الزحام كثيفا في أكناف الردهة وفي فراغها ، وانتشر
حسيس خشخشة الأجنحة . كانوا يشبهون النحل
في زمن الربيع عندما تعتلي ذُكاءُ برج الثور
فيتدفق صغارها الكثار حول الخلية
أسرابا ويطيرون بين الأنداء والزهور اليانعة
غادين رائحين ، أو يحطون على اللوح الناعم كأنه
ضاحية من ضواحي قلعتهم المبنية من القش
وقد كسته طبقة من العسل العطر ، فيحومون ويناقشون
شئون دولتهم . ما أشد ازدحام هذا الحشد من كائنات الهواء
وما أشد تكاتفهم وأضيق حشرهم ! حتى إذا صدرت الإشارة
شهدت عجبًا ! إن من كانوا يزون في ضخامتهم

أبناء الأرض من العمالقة قد استحالوا
الآن إلى كائنات أصغر من أصغر الأقزام ، وقد حشروا في بقعة
ضيقة بأعداد لا تحصى ، مثل تلك السلالة من الأقزام التي
تعيش وراء جبل (الهند) ، أو مثل صغار بنات الجان اللواتي
يمرحن عند منتصف الليل في جانب من جوانب الغابة
أو حول عين من عيون الماء ، فيراهن فلاح تأخر في العودة
أو يحلم بأنه رآهن ، بينما يجلس القمر في السماء
مجلس الحكم ليشهدهن من عل ثم يقترب من الأرض
مسرعًا في خطوه الشاحب، وهن يواصلن اللهو والرقص
على أنغام مرحة تسحر أسماع الفلاح
فيضطرب قلبه فرحًا وفرقًا معًا !
وهكذا استطاعت هذه الأرواح التي لا جسد لها أن تحيل
هياكلها الضخمة إلى كائنات دقيقة ، وانطلقت حرة ،
على كثرة أعدادها التي لا تحصى وسط ردهة
ذلك القصر الجهنمي . ولكن حشدًا آخر من
شيوخ ملائكة (الصاروفيم) و (الشاروبيم) بأحجام مماثلة لها
كان قد التقى في ركن قصي من هذا القصر
فعقد اجتماعًا مغلقًا وجلسة سرية !
كان ألف من أنصاف الآلهة يتربعون على كراسي من ذهب
حافلة وغاصة . وبعد صمت قصير
وبعد قراءة الدعوى بدأت المشاورة الكبرى .

الكتاب الثاني

الكتاب الثاني

الموضوع

عندما يبدأ التشاور يناقش إبليس حكمة المخاطرة بحرب جديدة لاستعادة الجنة فينصح البعض بها، ويوصي البعض باجتنابها. ثم يلقى القبول اقتراح ثالث كان إبليس قد طرحه من قبل ألا وهو التحقق من مدى صحة النبوءة أو الشائعة التي ترددت في الجنة عن حلول موعد خلق عالم آخر ونوع آخر من المخلوقات مساو للملائكة أو دونها قليلاً.

يتساجلون فيمن ينبغي إرساله للنهوض بهذا المسعى الشاق. يتعهد زعيمهم إبليس بأن يقوم وحده بهذه الرحلة فيلقى التكريم والترحيب.

وعندما انفض المجلس تفرق الجميع فمضى كل واحد في سبيله وشرع يقوم بما تنزع إليه نفسه، تزجية للوقت انتظارًا لعودة إبليس.

أما إبليس فإنه يذهب في رحلته إلى أبواب الجحيم فيجدها موصدة. ويتلو ذلك الحديث عن حارسها، وعن فتح الحارس لها آخر الأمر، وعن رؤية إبليس عند فتح الأبواب هوة عظيمة تفصل بين الجحيم والجنة، وعن الصعوبة التي يتجشمها في عبور تلك الهوة لا هادي له سوى العماء حاكم ذلك المكان، حتى يرى العالم الجديد الذي ينشده.

عاليًا على العرش الملكي - عرش يبز
لألاؤه كنوز (هرمز) والهند
أو حيث يغدق الشرق الرائع بكفّ الثراء
أنداءه على ملوكه من لآلئ البربر ونضارهم -
جلس إبليس ! رفعه قدره إلى
أسمى مكانة في الشر، ورفعه يأسه
حتى تجاوز الأمل ، فأصبح يطمع فيما
هو أعلى ، ويتعطش لخوض
حرب لا طائل منها مع السماء . لم يتعلم من عاقبة ما حدث
فأفصح عن كبرياء تصوراته قائلاً :
أيها الأقوياء والصناديد ! يا أرباب الجنة ! أجل !
فطالما لا يتسع بحر
لطاقاتكم الخالدة ، حتى بعد اندحارها وسقوطها ،
فلا إخال الجنة قد ضاعت - إن هذا الهبوط
ليرفع خصال السماء فيكم فتبدو
أمجد وأعتى من خصال من لم يهبط
إذ إنكم لا تخشون - يقينًا - هبوطًا آخر !
إنني أشغل مكاني الحق ، وقد نصبتني قوانين السماء الثابتة
زعيما عليكم ، ثم أتت الإرادة الحرة
وما أحرزته في مجال الرأي أو في حومة الوغى
من امتياز أصيل . والآن يأتي هذا الضياع
وقد أفقنا من غمراته شيئًا ليزيد من تثبيت عرشي
آمنا غير منافس ،

وقد قدمتوه لي بالرضا الكامل . إن سعادة
الجنة - وهي التي تلي الكرامة في المنزلة - يمكن أن تثير
الحسد في نفوس المرؤوسين ، ولكن من ذا الذي
يحسد اليوم من تعرضه رئاستكم
لسهام الراعد فيتصدى لها كأنه
درعكم الواقي ؟ بل إنها تقضي عليه بأوفى قسط
من العذاب الدائم ؟ وإذا لم يكن ثم خير
نتصارع من أجله فلن ينشأ الصراع من
التشتت . ولن يطمح أحد - يقينًا - أن ينال في الجحيم
امتياز السبق ، ومن صغُر حظه
من العذاب لن يدفعه طموح الذهن
إلى طلب المزيد ! إنها لمزية إذن تضيف إلى
الوحدة والإيمان الثابت والوفاق الراسخ
بأكثر مما يكون في الجنة - إننا نعود الآن
لنطالب بميراثنا العريق الحقيق بنا
وقد وهبتنا التعاسة ثقة في السعادة أكبر
من ثقتنا فيها لو كنا سعداء ! فلنبحث أفضل الطرق لتحقيقها
الحرب السافرة أم المكائد الخبيثة ؟
فلنشرع في المطارحة ومن لديه رأي فليدل به .
وصمت . ومن بعده هب ملكوم ذلك الملك ذو الصولجان
فانتصب قائمًا . كان أعتى وأشرس جني
قاتل في الجنة والآن زاده اليأس شراسة !
كان يثق في مساواته للسرمدي

وتكافئهما في القوة ، وكان يؤثر العدم
على أن يكون أقل قوة منه ! أما وقد تلاشت تلك الثقة
فقد تلاشى كل خوف لديه ولم يعد يعمل حسابا لله أو للجحيم
أو لما هو أدهى !
لم يعد يكترث لشيء وهكذا طفق يتحدث قائلاً :
رأيي هو الحرب السافرة. أما المكائد
فلست بها خبيرا ولا بها فخورا ! ألا
فليدبرها من يحتاجها ، أو حين يحتاجها ، أما الآن فلا !
أفبينما يمكر البعض هنا يظل سائر القوم - الملايين
الذين يقفون اليوم مدججين ويتلهفون على رؤية
إشارة الصعود - جالسين هنا متخاذلين كأنما
هربوا من الجنة ؟ أو بدلا من موطنهم عليهم أن
يقبلوا هذا الجحر المظلم البشع الذي يجلله العار
والسجن الذي أعده طاغية ما زال يهنأ بملكه
لأننا نتلكأ ونتأخر ؟ كلا ! الأفضل
أن نتسلح بشواظ الجحيم وغضبتنا الشعواء معا
فنقتحم أبراج الجنة المشمخرة غاصبين طريقنا غصبًا
ولنجعل من عذابنا سلاحًا فتاكًا
ضد من يعذبنا ! وسيتصاعد ساعة اللقاء ضجيج
آلاته الحربية الجبارة فيسمع إزاءها
رعود الجحيم ، وإزاء بروقه سوف يرى سهام
النيران السوداء والرعب الجائح منطلقة في غضبة مماثلة
نحو ملائكته : بل إن عرشه نفسه سوف ينصب عليه

كبريت (تارتاروس) وغرائب النار
وهي آلات العذاب التي ابتدعها . ولربما
بدا هذا الطريق عسيرًا شاهق المطلع ، إذ يقتضي
التحليق نحو عدو عالي الموقع ! ولربما
استطعنا أن نركبه إذا كان الشراب المخدر الذي تجرعناه
في بحيرة النسيان لم يعد يشل حواسنا ،
ولربما استطعنا أن نعود إلى طبيعة حركتنا الصاعدة فنبلغ
موطننا الأول : إن الهبوط والسقوط
ضد طبيعتنا . ومن ذا الذي لم يشعر منذ قليل
– عندما انقض العدو الشرس على مؤخرة جيشنا المتقهقرة
شامتًا فطاردنا في أغوار المحيط –
كيف اضطررنا اضطرارًا وجهدنا جهدنا كي
نهبط إلى هذا الدرك الأسفل ؟ الصعود سهل إذن
ولكننا نخشى عاقبته ! فإذا عدنا إلى استفزاز من هو
أقوى منه فلربما وجدت غضبته سبيلا أشد وبالا
لتدميرنا – هذا إذا كان لنا في الجحيم
أن نخشى دمارا أشد وبالا ! وهل ثم وبال أشد
من الإقامة في الجحيم ، وقد لفظتنا جنات النعيم ، وحكم علينا
في هذا العباب البشع بعذاب مطلق ، بل
بعذاب الحريق الذي لا ينطفئ أواره ،
ونكتوي بناره ، دون أمل في انحساره ، إذ صرنا
عبيد سعاره ، وأصبح سوط العذاب
يصب علينا حتى إن ساعة الألم

لتدعونا إلى التوبة ! إذا كان ثم دمار أشد من هذا
فهو النهاية والموت
ماذا عسانا أن نخشى إذن ؟ ولماذا نتردد في إثارة
أقصى غضب له ؟ إنه إن بلغ به الغضب مبلغه
فقد يفنينا فناء تاما ، ويحيل
إلى العدم جوهر كياننا ، وهي حال أهنأ كثيرا
من الشقاء الذي يحيا فيه كياننا الخالد !
أما إذا كان كياننا كيان آلهة
لا تفنى ، فحالنا الآن أسوأ ما يُتَرَدّى فيه -
باستثناء العدم ! ولدينا البرهان على أن
قوتنا تكفي لقلقلة جنته ،
وأننا نستطيع بالغارات المتواصلة إقلاق
عرشه المنيع المكين - عرش القضاء !
وهكذا فإن لم نظفر بالنصر كنا قد أخذنا بالثأر !
فرغ من خطابه مقطب الجبين ، تنم نظراته عن
استماتة في طلب الثأر ، وفي خوض قتال خطر
على من هم دون الآلهة . وعلى الجانب الآخر نهض
(بليعال) - أرشق حركة وأرق رسما ،
لم تفقد الجنة أجمل منه . على محياه
رباطة جأش وسيماء عزة وجليل فعال
ولكنه زائف أجوف ، رغم أن لسانه ذلق
يقطر مَنّا ، ويجعل أفسد الحجج تبدو
عين الحَجى والرشاد ، حتى تختلط وتنهار

أحكم الآراء . فهو منحط الفكر ،
في فعل الشر دؤوب ، عن فعل الخير
متقاعس عزوف . لكن كلامه يشنف الآذان
ونبراته تحمل على الإقناع . وهكذا بدأ حديثه قائلاً :
قد كنت خليقًا أن أناصر الحرب السافرة أيها الأقران
(فأنا لست أقل منكم غلا) إذا لم تكن الدعوى القائمة
- وهي الدافع الأول إلى الحرب العاجلة -
ترتد بي عنها أيما ارتداد ، وتتراءى لي وقد ألقت
ظلالا شأماء على عاقبة هذا الأمر .
إن من يفوق الجميع في قوة السلاح
ويجمع إلى سداد الرأي وذياك التفوق
دهاء وريبة ، يقيم شجاعته على أن يصيبنا اليأس
فنتفكك ونتشتت بعد محاولة ثأر رهيبة
وهذا هو عين ما يرمي إليه . فلنسأل
أولا أي ثأر ذياك ؟ إن أبراج السماء قد ملئت
حرسا شديدًا مدججًا ، حتى لقد سُدَّت المنافذ جميعًا
وامتنعت . إنهم كثيرًا ما يهبطون في المحيط المتاخم
فتعسكر كتائبهم ، أو يحلقون على أجنحة خَفِيَّة
فيطوفون بأقصى أطراف مملكة الليل
كيلا يباغتهم مباغت ! أما أن نشق طريقنا
عنوة لتهب في أعقابنا الجحيم بأسرها
بأحلك تمرد وأبهمه ، ليطمس نُورَ الجنة -
أنقى الأنوار وأطهرها - فإن عدونا اللدود

سيظل على عرشه لا يمسه سوء
قائما لا يأتيه أذى ، وسيظل الجوهر الأثيري نقيّا
لا تشوبه شائبة - وسوف يرد
كل أذى وينفض آثار حطيط النار
منتصرًا . إننا إن رُدِدْنا هكذا فلن يبقى لنا من أمل
إلا اليأس الكامل ، إذ سينفد صبر
الظافر ذي الجبروت فيطلق كل ما في جعبته من غضب
حتى يهلكنا - وهذا فيه شفاؤنا
أي العدم! يا له من شفاء محزن ! إذ من ذا الذي يرضى
مهما أفعمه الألم بفقدان هذا الكيان الذهني -
تلك الأفكار التي تصول وتجول إلى الأبد -
مفضلا العدم - أي أن يُبْتَلَعَ ويضيع
في رحم الليل الرحيب الذي لم يخلق بعد ،
محروما من الإحساس والحركة ؟ ومن يدري ؟
لنفترض أن في هذا خيرا سواء كان عدونا الغاضب
قادرا أو راغبا في منحه (أما قدرته على منحه
فأشك فيها، وأما أن يرغب في منحه فمحال !)
أتراه في حكمته حريا بأن يطلق العنان لغضبته -
إما عن عجز في التبصروإما دون تروٍّ -
فيجيب أعداءه إلى طلبهم ، ويهلكهم في سورته ،
بينما تقضي عليهم غضبته
بعقاب سرمدي ؟ لماذا نتوقف إذن ؟
يقول الذين ينصحون بالحرب إننا قد حكم علينا

وكتب علينا وقضى علينا بعذاب لا ينتهي ، وإننا
- أيا كان ما نفعله - لن نعاني ما هو أمرّ ويتساءلون:
إن كان ثم ما هو أدهى وأنكى ؟ أفهذا هو الأدهى حقًا ؟
أن نجلس لنتشاور وقد حملنا أسلحتنا ؟ كلا !
ألم ننشد حين ولينا الأدبار مسرعين - تطاردنا وتصعقنا
رعود السماء القاصفة -
ذياك البحر ليعصمنا منها ؟ ألم تبد لنا تلك الجحيم
منجاة لنا من الجروح ؟ وعندما رقدنا
في الأغلال على بحيرة اللهيب ألم يكن ذلك أنكى وأمرّ ؟ بلى!
ألا يمكن أن تهب الأنفاس التي أوقدت تلك النيران الجهمة
فتنفخ فيها ثانية لتلهب حممها أضعافا مضاعفة
وتقذف بنا في النار ؟ أم لعل الثأر من فوقنا -
ذاك الذي يهدأ ليفور - يستل سيفه ثانية
فيهوي به من يده اليمنى الحمراء علينا ؟ أم لعل الجحيم أن
تفتح أبوابها فيطلق خَزَنَتُها من قبتها
شآبيب النيران وصواعق اللهب
فتتأرجح مرعبة فوق رؤوسنا ، تنذر بأن تهوي
ذات يوم فوقنا ، وربما كنا آنذاك
ندبر لحرب مجيدة أو نحث على شنها
حين تلقفنا عاصفة السعير وتلقي بنا
وكل منا مشدود إلى صخرة ، تلهو به وتنهشه
العواصف الدوارة أو تلقيه إلى قاع
العباب الذي يفور تنوره، فيستقر إلى الأبد، مغلولا في الأصفاد،

حديثه أنات لا تنقطع
دون هوادة ، ودونما رحمة أو شفقة ،
دهورا لا ترجى لها نهاية ! أليس هذا أنكى وأمر ؟
بئس الرأي إذن رأي الحرب - سافرة أو خبيئة - وأنا
أنصح باجتنابها . إذ كيف نستطيع بالقوة أو الخديعة
أن ننال منه ؟ وكيف نغافله وعينه
تبصر كل شيء في لمحة واحدة ؟ إنه الآن في ذروة السماء
يشهد تدبيرنا الضال ويسخر منه .
وطاقة يده على سحق قوانا لا تقل
عن طاقة مكره على إحباط سعينا ومكائدنا .
هل ضُرِبَتْ علينا الذلة والمسكنة إذن ؟ وأنّى لذرية السماء
أن تطأها الأقدام ؟ وهل أخرجت من الجنة لتتلوى هنا
في الأصفاد وتذوق مر العذاب ؟ إن هذا أخف وقعا
إذا أصختم لنصحي - مما هو أنكى وأدهى ، لأننا نُسْتَذَلُّ
بحكم قدر لا رادَّ لمشيئته ، حكم ذي الجبروت
ومشيئة الظافر ! إننا نستطيع أن نصبر على المعاناة وننهض بكبير الفعال
وطاقتنا عليهما واحدة ! وقد أنصف القانون الذي
يقضي بذلك . كان ينبغي أن نرى هذا الرأي أولا -
لو تحلينا بالحكمة - ونحن ننازل هذا العدو الجبار
ونقارعه وقد ارتبنا في العاقبة !
إنني لأضحك ممن يهرعون إلى رماحهم جسورين
راكبين الخطر ، حتى إذا ما خانتهم رماحهم ، أجفلوا خشية

المصير الذي يعلمون أنه محيق بهم ، ألا وهو
النفي أو العار أو الأصفاد أو العذاب - مما يقضي به
حكم قاهرهم . هذا هو
مصيرنا الآن . فإذا استطعنا تحمله والصبر عليه
فربما خفت غلواء عدونا الأكبر بعد زمن ما وانفثأ
غضبه ، ولعله - في بعده الشاسع عنا
ألاّ يأبه لنا - طالما لم نعصه - قانعا
بالعقاب الذي أنزله بنا . ولربما رأيتم هذه النيران الجائحة
وقد بدأت تخبو حين تتوقف أنفاسه عن الهبوب عليها ،
وعندها فسوف يتغلب جوهرنا النقي على
دخانها السموم ، أو ربما نعتاد عليها فلا نشعر بها ،
أو لربما نتبدل بعد ردح طويل فنتكيف مع هذا المكان
ذهنا وبدنا ، فتصبح
الرمضاء مألوفة لا ألم فيها ،
ويصبح هذا السعير قريرا والظلام بصيرا
إلى جانب الرجاء الذي سيأتي به الكر الدائب
لأيامنا القابلة ، ودورة الحظ والتقلب الخليقة
بأننا نتطلع إليها ، فإذا كان نصيبنا اليوم
من السعادة هزيلا فإن نصيبنا من الشقاء لن يتفاقم
إذا لم نجلب نحن على أنفسنا مزيدا من المصائب .
وهكذا فرغ (بليعال) من حديثه الذي يكتسي حلة المنطق
فأوصى بالتراخي الذميم وتقاعس المسالمة
لا السلام . ثم قام من بعده (مامون) فأنشأ يقول :

إما أننا نريد خلع ملك السماء عن عرشه
بشن الحرب عليه ، إذا كانت الحرب أفضل السبل ، وإما أننا نريد
استعادة
حقنا المهضوم : فأما خلعه عن العرش فلن
نأمل فيه إلا حين يذعن القدر السرمدي
للحظ المتقلب ، لتقضي فوضى العماء في الصراع .
ومثلما يبدو أملنا في خلعه سرابا ، يبدو أملنا
في استعادة الجنة ! إذ كيف يتأتى لنا أن نشغل مكانا
داخل الجنة إلا إن استطعنا أن نهزم ملك السماء الأعلى
ونقهره ؟ ولنقل إنه سيلين جانبه
وينعم بالغفران على الجميع إذا وعدناه
بالخشوع له من جديد - بأي عيون آنذاك يمكننا أن
نقف في حضرته خانعين فنتقبل
القوانين الصارمة التي يفرضها علينا ، ونهلل لعرشه
وننشد لربوبيته رغما عنا أناشيد الحمد والثناء
بترانيم التكبير والتعظيم ، بينما يجلس على الكرسي
ملكا نغبطه ونحسده ، ويشع محرابه
عبيرا قدسيا وروحا من أزاهير الفردوس
التي قدمتها أيدينا نحن - عبيده الصاغرين ؟ لن نفعل هذا إلا
في الجنة ونهنأ به ! ما أشق
الخلود إذا كنا سنقضيه في الصلاة
لمن نكره ! فلنقلع إذن عن محاولة الوصول
بالقوة المستحيلة ، أو بما سيسمح به

ولا نقبله إلى مكانتنا في الجنة - مكانة
الذل في أعطاف النعيم ! ولننشد
الخير لأنفسنا من باطن نفوسنا ولنستمد من ذواتنا القدرة
على الحياة الحرة - رغم هذا البلقع الشاسع -
لا سلطان لأحد علينا ! لنضع
مشقة الحرية فوق ملاذ الأصفاد
وأبهة الاستخذاء . ولسوف تشرق عظمتنا
وتسطع عاليا إذا استطعنا أن نخلق الكبير من الصغير
والنفع من الضرر ، والنجاح من الفشل
بل وأن نحيا في أي مكان كنا
ونزدهر في ظل الشر فنصوغ النعيم من العذاب
بالجهد والصبر ! هذا العالم السحيق
من الظلمات - ترى هل نخشاه ؟ ألا يشاء كثيرًا
ملك السماء وحاكمها أن يسكن السحب الكثيفة الظلماء
دون أن تخفي بهاءه ، ثم يكسو
بجلال الظلمة من حوله
عرشه ويحيطه بها - ثم تزأر الرعود من ذلك الخضم
وقد عبأت قوى غضبها ، فتتشابه الجنة والنار ؟
فإذا كان قادرًا على محاكاة ظلمتنا أفلا
نستطيع نحن محاكاة نوره أنى شئنا ؟ إن تربة هذه الصحراء
لا ينقصها بريق الكنوز الخبيئة من اللآلئ والنضار
ولا ينقصنا نحن فن أو مهارة حتى نخرج منها
الروعة الأخاذة - وبماذا تزيد الجنة على ذلك ؟

بل إن ما يعذبنا الآن يمكن أن يصبح على كر الزمان
جونا الطبيعي – هذه النيران النفاذة سوف تصبح
بردا وسلاما بعد حدة وشدة لأن كياننا سوف يتحول
ويستوي مع كيانها – وهكذا لن
نشعر بآلامها . إن كل شيء يدعونا إلى
أن نجنح للسلم ولحال من الاستقرار
والنظام ، حتى نستطيع في أمان أن نجد أفضل السبل
لمعالجة بلائنا الحاضر ، غير غافلين
عن كياننا الحق ومنزلنا هنا ، وقد طرحنا جانبا
أي نزوع للقتال : فاقبلوا ما أنصح به .
ولم يكد ينتهي حتى دوت التمتمات في
القاعة ، مثلما ترجع الصخور الجوفاء أصداء
ريح هوجاء عصفت طول الليل
بأمواج البحر ، ثم بح صوتها فهدهدت
الملاحين الذين طال سهرهم في سفينة ألقت بها المقادير –
أو قارب ألقى مرساته – بين صخور خليج مقفر
بعد العاصفة . هكذا ارتفع صوت التصفيق
عندما انتهى (مامون) من خطابه وحاز رأيه الرضا
حينما نصح بالسلام : لأنه إن كان ثمة
ما يخشونه أشد من خشيتهم للجحيم
فهو رعد الراعد وسيف ميكائيل ! كانت خشيتهم له
ما زالت تهز جوانحهم ، رغم طموحهم
لبناء إمبراطورية العالم الأسفل ، وتشييدها

بالمكر والدهاء وجهود الزمان المديد
حتى تضارع الجنة وتعارضها .
وعندما لاحظ (بعلزبول) ذلك - ولم يكن أحد أرفع منه مكانا
إلا إبليس ، علت محياه سيماء الجد
والصرامة فانتصب واقفا ، وبدا في وقفته كأنه
من العمد المشيدة ، في غضون جبينه العميقة
ارتسم التفكر والتدبر وحلت هموم الجمهور من حوله ،
وما زالت ملامح الأمراء تبرق في وجهه
الذي يعلوه الجلال رغم سقوطه . كان يقف في رزانة
بمنكبين عريضين مثل منكبي (أطلس) الخليقين بحمل
أعباء أعظم الممالك ، وكانت نظراته
تجتذب الآذان والأذهان مثل أنسام الليل
أو هدأة الضحى في الصيف عندما بدأ حديثه قائلا :
أيها المتوجون ! أيها الصناديد الدهاقين ! يا أبناء الجنة
ومعدن الأرواح ! - أينبغي علينا الآن أن نتخلى عن الألقاب
وننبذها ، ونغير من أسمائنا فنصبح
أمراء الجحيم ؟ هذا هو ما يجنح إليه جمهور الحاضرين
إذ يفضلون المكوث هنا ، بل وأن يبنوا هنا
دولة ناشئة . لا مراء في هذا إذا غفلت عيوننا لنحلم
ناسين أن ملك السماء قد قضى بأن يكون هذا
المكان سجنا لنا ، لا ملجأ آمنا
يقينا من بطش ذراعه القادرة ، ويعفينا من الخضوع
لأحكام السماء الرفيعة وقد اجتمعنا ثانيا

لنناوئ عرشه ! كلا ! إنه يريدنا أن نبقى
فيه عبيدًا أذلاء ، رغم البعد الشاسع عنه
وقد التف القيد المحتوم على أيدينا فظللنا
أسرى أرقاء . ثقوا أنه سيظل
على الذرا أو في الأعماق قائمًا على العرش، فهو الأول والآخر
وله الملك وحده ، ولن يفقد من ملكه قيد أنملة
حين نتمرد ونثور ، بل إن ملكه ليشمل الجحيم
وسوف يهيمن بصولجانه الحديدي
علينا مثلما يحكم بصولجانه الذهبي على من في الجنة .
ما الذي يجعلنا نجلس هنا إذن نتأمل الحرب والسلام ؟
لقد قضت علينا الحرب ونكبتنا بخسارة
لا تعوض . أما شروط السلم فلم يضمنها أحد بعد
أو ينشدها . وهل السلام الذي نُمْنَحُه
ونحن أرقاء إلا السجن الأليم
والجلد والعقاب المهين الذي
يصب علينا سوطه ؟ وأي سلام يمكن أن نَمْنَحَه نحن إلا
كل ما في طاقتنا من عداء وحقد
ومقاومة لا تلين ، وثأر متمهل ،
ما يفتأ يدبر السبل حتى يمنع الظافر من
جني ثمار ظفره ، ومن التمتع بأن
يفعل بنا ما نشعر به ونتلوى له في مكابدتنا ؟
ولن ينشأ ما يدعونا – بل إننا لن نحتاج أبدًا –
إلى أن نقدم على مخاطر حملة نشنها لغزو

الجنة ، فأسوارها عالية ترد الهجوم وتصد الحصار
وتحبط أي كمين يدبره أهل هذا المحيط . ألا يمكن أن نعثر على
سبيل أيسر من هذا ؟ يقال إن ثمة مكانا
(إذا صدقت الشائعات التي تروى من قديم والنبوءات التي
تردد في الجنة) - أو قل عالما آخر ، سوف يصبح مقر هناء
لسلالة جديدة اسمها الإنسان ، حان الآن موعد
خلقه بحيث يشبهنا وإن كان أقل منا
قوة وامتيازًا ، وأكثر منا استئثارًا بحب القاهر
الذي يحكم بالأفق الأعلى . هكذا كانت مشيئته
التي نطق بها بين الأرباب ، وتلاها قسم
هز جنبات السماء وآفاقها، فأكدها.
فلنتجه إلى ذلك العالم إذن بكل أفكارنا لنعلم
أي المخلوقات تعيش فيه ، وما شكلها
وما مادتها ، وما مواهبها وما قواها
وما موطن ضعفها وما أفضل سبيل لإغوائها -
عنوة أو بالمكر - : ورغم أن الجنة موصدة
وحكم السماء الأعلى يجلس آمنا مطمئنا
إلى قوته وجبروته ، فلابد أن يكون ذلك العالم الجديد عاريا
مكشوفا
إذ يقع في أقصى أطراف مملكته ، ولابد أنه قد كلف
بحمايته من يسكنونه . ربما استطعنا في هذا السبيل
أن ننهض بما فيه نفعنا
إذا هجمنا عليه بغتة ، إما بشواظ الجحيم

لندمر هذا الخلق الجديد كله ، وإما للاستيلاء عليه
كله وامتلاكه ، ثم نُخْرِجُ منه – مثلما أُخرِجْنا –
سكانه الصغار ! فإن لَم نستطع إخراجهم ، فلنغوهم
بالانضمام إلى حزبنا بحيث يصبح إلههم
عدوا لهم ، وبحيث يقدم نادمًا
على تدمير ما صنعت يداه . هذا أفضل من
الثأر المألوف إذ سيفسد مُتْعَتَه
سوءُ مسعانا ، ويزيد من سعادتنا
إقلاقُ مأمنه ! حين يرى أبناءه المقربين
وقد أُلقي بهم من حالق ليشاركونا حالنا ، ويلعنوا
ضعف معدنهم وينعوا سعادتهم الغاربة التي
ذوت سريعا . انظروا ! أفلا ترون أن هذا أخلق
الإقدام عليه من جلوسكم هنا في الظلام
تدبرون بناء الممالك في الهواء ؟ وهكذا انتهى (بعلزبول)
من عرض رأيه الشيطاني ، والذي كان قد ابتكره
إبليس أول الأمر بل واقترح جانبا منه . إذ أنّى لهذا
المكر الدفين أن يخرج إلا من رب الشر كله ؟ – هذا
الحقد الراسخ الذي يرمي إلى إفساد سلالة
الإنسان كلها بإفساد جذر الشجرة وإقحام الجحيم في الأرض
حتى تتشابكا وتمتزجا – وكل ذلك لمناهضة
الخالق العظيم ! ولكن حقدهم لا يفلح إلا في
السمو بجلاله وعظمته ! لقد حظيت تلك المكيدة الجسورة
بأعظم الرضا لدى دهاقين الجحيم ، فبرقت السعادة

وتلألأت في عيونهم جميعًا ، فصدرت موافقتهم الكاملة
وإجماع أصواتهم ، وعندها عاد إلى حديثه قائلاً :
لنعم ما حكمتم به ، وما انتهت إليه مطارحتكم الطويلة
يا مجمع الأرباب ، وما أحرى بعظمة كيانكم
أن تتخذ قرارات عظيمة ، من شأنها أن ترفعنا من الدرك الأسفل
مرة ثانية ونسمو بنا - رغم الأقدار -
وتقترب بنا من موطننا العريق ، ولربما نبصر
تلك التخوم الوضاءة ثانيا ، فنتكاتف ونتعاضد
ونخطو الخطوة المناسبة ، ولربما
نعود إلى الجنة - أو ربما وجدنا منطقة معتدلة
فأقمنا بها حيث لا نعدم إشراق ضياء الجنة الساطع
الأمين ، وعندما يبزغ نور الفجر في الأفق الشرقي
نزيل أدران هذه الظلمة الكئيبة وسوف تهب الريح رُخاءً ناعمةً
ولسوف تلتئم الجراح الغائرة التي خلفتها هذه النيران الحارقة
ولسوف تبث الأنسام بلسمها الشافي . ولكن دعونا ننظر أولا
فيمن ينبغي أن نرسله
ليبحث لنا عن هذا العالم الجديد - من ذا الذي نراه
كفؤًا لهذا العمل ؟ من ذا الذي يستطيع أن يجوب بأقدامه الدؤوبة
الأغوار الحالكة السحيقة التي لا نهاية لها ولا قرار ، وأن يتبين
في خضم الظلمات الكثيفة المحسوسة
طريقه المجهول ؟ أو يحلق في الهواء ويطير
عاليًا بأجنحة لا تعرف الكلال
فوق الهوة السحيقة الفاصلة ، ليصل إلى

جزيرة النعيم ؟ أي قوة وأي مهارة تلزمه أو
تكفيه ؟ وأي طاقة على المراوغة تحمله سالما
بين الحرس الشديد على الأبواب والحاميات الكثيفة على البروج
من الملائكة الراصدين لكل منفذ ؟ إنه يحتاج إلى
الحذر البالغ ، ونحتاج نحن إلى بالغ
الحصافة في اختيارنا له ، إذ يقع على من نرسل
عبء آمالنا - بل عبء آخر أمل لنا !
قال ذلك ثم جلس - وقد جعله التوقع
يقظ الملامح إذ كان ينتظر أن يلوح من بينهم من
يؤيد أو يعارض أو يعرض القيام
بالمجازفة الخطرة : ولكن ران الصمت على الجميع
إذ استغرقوا في تأمل الخطر والتفكر فيه ، ورأى كل منهم
في ملامح صاحبه أسفا يعكس أسفه
وذهوله ! لم يكن بين هؤلاء الأفذاذ ، صفوة
مغاوير معارك السماء ، من يأنس في نفسه
بأسا وشدة ، فيعرض أو يقبل أن ينهض
وحده بتلك الرحلة الرهيبة . وأخيرًا قام
إبليس - وقد رفعه سمو بهائه
فوق أقرانه ، عزيزا بكبريائه الملكية ،
مدركا رفعة شأنه ، فبدأ يقول في نبرات رزينة :
يا ذرية السماء ! أيتها العروش السماوية !
خليق بالصمت العميق أن يلفنا ، وبالعار
أن يجللنا ، رغم رباطة جأشنا ! ما أطول طريقنا

وما أشقه من ظلمات الجحيم إلى أنوار الجنة !
إن سجننا محكم شديد فهذه القبة الهائلة من النار
نهمة تريد أن تزدردنا ، وأسوارها التسعة قد ضربت حولنا ،
وأبوابها صخور موقدة
موصدة تحول دون خروجنا .
فإذا استطاع أحد أن يتجاوزها ، وجد هوة فراغ سحيقة
لِلَنَيْلِ دون كيان تلففه
فاغرة فاها وتتهدده بالعدم
إن ابتلعه خضم ضياعها الأكبر !
فإذا أفلح في الهرب وجد عالما
مجهول الأصقاع لا تقل أخطاره عما
يزخر به المجهول ، والهرب منه أشق وأعسر !
ولكنني ما كنت لأستحق الجلوس على هذا العرش أيها الأقران
وهذا السؤدد الملكي ، أو التحلي
بهذا السنى ، والتسلح بهذا السلطان ، إلا لأنني لا أتقاعس
عن التصدي لأعباء الدولة وقضاياها الهامة ، مهما بلغت
مشاقها وأخطارها ! لا شيء ثم يثنيني
عن الإقدام ! وهل كنت لأحمل شعائر
هذا الملك - بل ألم يكن حريا بي أن أرفضها -
إذا رفضت أن أتحمل
من الأخطار مقدار ما أحمله من الشرف ؟ أليس ذلك قدر
كل حاكم ؟ بل أليس خليقًا بأن يتحمل
المزيد من الأخطار إذا كان في منزلة شرف

تعلو على الجميع ؟ انصرفوا إذن أيها الصناديد الجبابرة
يا من ترهبون السماء رغم سقوطكم ! عودوا إلى منازلكم –
(وقد اتخذنا هذا المكان منزلا) – فتفكروا فيما عساه أن يخفف
من الضنك الذي يرين علينا ، وما عساه أن يهون من عبء
احتمال الجحيم ! انظروا إن كان ثم علاج أو تميمة
تريحنا ، أو تخفف عنا ، أو تطبب آلام
هذا المنزل السقيم ! لا تغفلوا لحظة في سهركم
فعدوكم لا ينام ، أما أنا فسأنطلق لأطوف
بكل ساحل من دياجير الهلاك ، سعيا في
خلاصنا جميعًا ، ولن يشاركني أحد
في هذه المهمة . قال الملك هذا وانصرف
فمنع الجميع الرد عليه ! كانت هذه – لا شك –
حصافة منه ، إذ منعتهم أن يستمدوا الشجاعة من عزمه وتصميمه
فيعرضوا مثل ما عرض الرئيس ، وهو
ما كانوا بعد يخشونه (ومآله الرفض لا محالة) !
فإن كان العرض والرفض صاروا له في الرأي أندادًا
ينافسونه ، ويشترون ذيوع الصيت بثمن زهيد –
وهو ما لابد لإبليس أن يكسبه بمجالدة عظيم الأخطار – ولكنهم كانوا
يخشون الأخطار أقل من خشيتهم لصوته
الناهي ، فنهضوا للانصراف واقفين ،
وكان لقيامهم جميعا صوت كهزيم
الرعود النائية ، ثم توجهوا إليه وقد أحنوا الهامات

مكبرين معظمين ، إذ رأوا فيه إلها ،
فرفعوه مهللين إلى منزلة إله السموات الأعلى
وما توانوا في حمده والثناء عليه
حتى لقد حقر من شأنه ابتغاء لسلامة الجميع !
فإن الجان حتى حين تصيبها اللعنة
لا تفقد كل فضائلها ! (وهذه عبرة للبشر الذين يتفاخرون
بفعالهم البراقة على الأرض ، يحفزهم عليها طلب المجد
أو الطمع الذي تخفيه كسوة زاهية من التفاني والحماس)
وهكذا انطوت مساجلاتهم السرية
وانتهت باحتفالهم برئيسهم الذي لا يضارع. ولنضرب لهم مثلاً!
أرأيت إلى السحب الدكناء وهي تتصاعد من قمم الجبال
في غفلة من رياح الشمال ، حتى يتلبد
وجه الخضراء الصبوح بالغيوم ، وإلى السماء المربدة آنئذٍ
وهي تغمر صفحة البسيطة الظلماء بالثلوج أو الأمطار ؟
فإن قدر للشمس الوهاجة أن تودع الكون وداعًا رقيقًا
وتطل بأشعة الغروب عليه ، وجدت الحقول وقد عادت إلى الحياة
والطيور وقد أرسلت عذب ألحانها ، وثغاء القطعان وقد
شهد على فرحها الذي ترجع أصداءه الجبال والوديان .
عار على البشر ! إن الشياطين الملعونة
لتجنح للوفاق الوطيد ، ولا يتناحر من بين المخلوقات العاقلة
إلا الإنسان ، رغم أنه يحيا برجاء
غفران السماء . والله الذي يدعو إلى السلام

يحيا في أحقاد البشر وعداوتهم وتصارعهم
فيما بينهم . إنهم ليشنون حروبا ضروسا
فيدمرون الأرض ، ابتغاء تدمير أنفسهم
فكأنما (وهذا من شأنه أن يدعونا إلى الوفاق)
قد سلم الإنسان من أعدائه الجهنمية التي
تتربص بهلاكه ليلا ونهارا !
وهكذا انفض مجلس الجحيم ، وانصرف
سادة جهنم العظام صفًا ، كل حسب منزلته
يتوسطهم زعيمهم الجبار وكأنما كان
وحده عدو السماء ! كان يزهو بمهابة
سلطان الجحيم ، وتحيطه هالة الأبهة
وما يحاكي به عرش الله ! والتفّت حوله
كوكبة من ملائكة (الصاروفيم) الذين خلقوا من نار
وبرقت راياتهم وأسلحتهم الشائكة .
ثم هبوا ليعلنوا انفضاض هذا المجلس ، فنفخوا
في أبواقهم الملكية حتى يعلو صوت القرار العظيم الذي انتهوا إليه
ثم أهرع أربعة من ملائكة (الشاروبيم) ، ورفع كلٌ إلى
فمه نفيرا رنانا حتى تحمل رياح الكون الأربع
صوت البشير في كل ريح ، فإذا هو يدوي في الهوة السحيقة
وتسمعه جنباتها الشاسعة، حتى لقد استجاب حشد الجحيم الحاشد
بصراخ يصم الآذان وهم يعلنون مؤازرتهم له !
وبعد أن اطمأنت قلوبهم واستمدوا الشجاعة من ذياك
الأمل الزائف الخادع ، انفرط عقد هذه الفيالق المصطفة

وتفرقت ، ومضى كل واحد في سبيله ، هائمًا
على وجهه حائرًا
أنّى قادته خطاه ، إذ أين عصاه يرسو على
مرفأ سلم لأفكاره المضطربة ، وكيف عساه يقضي
ساعات القلق والهم ، ريثما يعود الرئيس المعظم ؟
انتشر بعضهم على السهل ، وحلق آخرون في الهواء
طائرين ، وذهب البعض يستبق ، كأنما هم
في ألعاب جبل الأوليمب أو حقول (بيثيا) المترامية
وانطلق بعضهم على خيولهم النارية ، وانخرط البعض في لعبة
تفادي العقبات
بالعجلات المسرعة ، أو إصابة الدمى وجها لوجه !
ارأيت إلى ألوية الحرب وهي تلوح في السماء المضطربة
لتنذر القرى الظالمة ، وإلى الجيوش وهي تندفع
إلى القتال بين السحب ، قبل أن تتقدم الطلائع
لتنخس فرسان الهواء ، وتبقي على حرابها في غمدها
حتى تقترب الفيالق العرمرم وتصيبها عن كثب ؟ فهكذا كانت
قعقعة السلاح
في أطراف السماء ، يشتعل بها أديمها
بينما فار التنور التيفوني الضاري في صدر آخرين
فشقوا الصخور والتلال ، وامتطوا صهوة الهواء
في دوامات الريح! حتى لقد ضاقت الجحيم بهذا الصخب الصاخب!
أرأيت إلى هرقل حين عاد من (إيقاليا) متوجا بأكاليل
النصر ، فلبس الثوب المسموم - واقتلع

في سورة آلامه أشجار الصنوبر في (ثيسيليا)
وألقى (ليكاس) من قمة جبل (إيتا)
في البحر (الأيوبي) ؟ وكان البعض الآخر أهدأ وألين
فمضوا إلى واد غير ذي صخب ، يترنمون فيه
بالألحان الملائكية ، ويتغنون على موسيقى القيثار
ببطولاتهم ، ناعين تعاسة سقطتهم حين حم
قضاء الموقعة ، وشاكين القدر الذي قضى
بأن يستعبد الأحرار بالقوة أو المصادفة .
كانت أناشيدهم ناشزة المعاني متوافقة الأنغام
(ولا غرو إذ كان منشدوها من الجن ذوي الأرواح الخالدة)
فملكت أسماع الجحيم ، بل إنها لسحرت أفئدة
الجمهور الحاشد. وانخرط آخرون إذ ذاك في حديث عذب
(فوقع البلاغة في النفس كسحر الألحان للحس)
إذ جلسوا في عزلة على جبل بعيد
يتطارحون أفكارًا أسمى وآراء أعمق
عن العناية الإلهية ، والعلم الأزلي ، والإرادة ، والقدر -
القدر الذي لا يحول ، والإرادة الحرة ، والعلم الأزلي المطلق
فلم ينتهوا إلى شيء ، بل ضربوا في الشعاب فضلّوا وما اهتدوا
لقد تجادلوا كثيرا عن الخير والشر ،
عن السعادة والشقاء الذي يحل في النهاية ،
عن الانفعال والخمود ، والمجد والعار ،
وكلها من نسج الحكمة الجوفاء ، والفلسفة الزائفة .
ولكن لها فعل السحر وعذوبته إذْ تخدّر

الآلام والأحزان هنيهة ، وتبعث
الأمل الكاذب ، أو تهب القلب البارد سلاحا من
الصبر العاتي أصلب من الفولاذ المضاعف .
وانقسمت طائفة أخرى فرقا وفصائل هائلة
انطلقت في رحلة أخطار جسورة لاكتشاف أرجاء
ذلك العالم الموحش الكئيب، علّهم يجدون مكانا
ألطف وأحنى يقيمون فيه ، فتفرقوا
شعابا أربع في هرولة سريعة على ضفاف
أربعة أنهار من أنهار الجحيم ، تصب
في البحيرة الملتهبة مياه الشر التي تحملها .
أولها نهر (ستيكس) المقيت - نهر الحقد القاتل ،
وثانيها (أخيرون) البائس - نهر الأحزان السوداء العميقة
وثالثها (كوسيتوس) الذي اشتق اسمه من العويل الذي يتعالى
فيسمع على صفحة هذا الجدول التعس ،
ورابعها (فليجثون) الضاري
الذي تتلاطم أمواج النيران فيه بسعير الغضب
وبعيدًا عن هذه جميعًا يسير الهوينى صامتًا
نهر (ليثي) - نهر النسيان -
عبابه من ماء التيه ، من ذا الذي يشرب منه ولا
ينسى ماضيه وحاضره
ينسى الأفراح والأتراح والملاذ والآلام .
وبعد هذا النهر تقع قارة متجمدة ،
برية مظلمة ، تنهال عليها عواصف لا تنقطع

من دوامات الريح ولاذع البَرَد الذي يسقط على اليابسة الصلبة
فلا ينصهر بل يعلو في أكوام كأنه حطام آثار
عفا عليها الزمن ، وليس من حوله إلا الثلج والجليد
اللذان يملآن هوة كأنها مستنقع (السربون) الذي يصل بين
(دمياط) وجبل (كاسيوس) القديم
حيث غاصت فيالق برمتها. أما الريح الصرصر
فتتقد زمهريرا حتى أن البرد القارس ليفعل فعل النار !
وإلى ذلك الموقع كان يساق من حلّت عليهم اللعنة
في دورات مرقومة من دورات الزمن ، تدفعهم آلهة القصاص
ذوات المخالب حتى يذوقوا مرارة التحول والتقلب من ضراوة
الدرجات القصوى للحر والبرد ، بل إن التقلب ليزيد من
ضراوتها إذ ينقلبون
من قيعان اللظى المتأجج إلى الجليد فيهلك
دفء كيانهم الأثيري الرقيق ويتعذبون
دون حراك وقد تصلبوا من البرد وتجمدوا
برهات من الوقت ثم يهرع بهم كرة أخرى إلى النار !
إنهم ليعبرون نهر النسيان هنا
رائحين غادين فتشتد أتراحهم
إذ يتمنون بل ويحاولون - في عبورهم - أن يبلغوا
ماء النهر وما هم ببالغيه ! إن قطرة صغيرة لتذيب
الآلام والعذاب بمذاق النسيان العذب
في لحظة واحدة: وها هم يقتربون من الحافة حتى شفاها !
ولكن القدر لهم بالمرصاد ، إذ تقف دونهم

(ميدوزا) ذات القوة (الجرجونية) التي تسهر على ذلك
الخليج ! فإذا بالمياه تفر وحدها من بين أيديهم
ولا تقربها أفواه الأحياء ، مثلما استعصت ذات يوم على
شفاه (طانطال) ! وهكذا ظلت هذه الفرق الضالة
بخطى بائسة حائرة ، تضرب في الشعاب .
وقد شحب لونها وارتعدت فرائصها رعبا وزاغت أبصارها
إذ تبينت لأول مرة كآبة مصيرها ، وأدركت أنه لا سبيل
إلى الراحة أبدًا : كم من الوديان المدلهمة الظلماء
مرت بها ، وكم من أصقاع الغم الرهيبة !
فوق العديد من جبال الجليد ، وجبال النار
والصخور والكهوف والبحيرات والأغوار والمستنقعات وظلال الموت
بل عالم من الموت ، حلت عليه لعنة الله
فخلق من الشر ، بل لا يصلح إلا للشر ،
تموت فيه الحياة ويعيش الموت وتتكاثر الطبيعة
كائنات شائهة شاذة بشعة
بغيضة لا توصف بل أسوأ
مما تتخيله الأساطير أو يتمثله قلب الخائف
(جورجونات) وسعالي وغيلان مفزعة .
وفي تلك الأثناء كان عدو الله وعدو الإنسان -
إبليس - قد ألهبته أفكار طموح جائحة ،
فطار على جناحي السرعة إلى بوابات الجحيم
وحيدًا يتلمس طريقه . تارة

بحذاء الساحل الأيمن ، وتارة بحذاء الساحل الأيسر ،
طورا يحلق فوق المحيط ناشرا جناحيه ، وطورا يطير
عاليا صاعدا إلى سقف السرادق الناري ،
أرأيت إلى الأسطول حين يلوح من بعيد في البحر
كأنه يتدلى من السحب ، تدفعه رياح الربيع
وتتلمسها أشرعته وهو يعود من البنغال أو من جزر البهار
(تيرنات) و (تيدور) ، من حيث يأتي التجار
بعاطر المخدرات ، وإلى البحارة وهم قادمون بهذه التجارة
من المحيط الهندي الشاسع إلى رأس الرجاء الصالح
جاهدين لتحويل أشرعتهم وقسرها على الاتجاه نحو القطب !
فهكذا بدا
إبليس وهو يطير من بعيد ! وأخيرًا لاحت لعينه
أسوار الجحيم العالية التي تتصل بالسقف الرهيب
وأبوابها ذات طبقات ثلاث ، ضوعفت ثلاث مرات ، فثلاث
من النحاس وثلاث من الحديد وثلاث من الصخور الصلدة
المنيعة ، تحيط بها حلقة من نار
لا ينطفئ أوارها ، وأمام الباب على الجانبين
كان يجثم كائنان فظيعان:
الأول – فيما يبدو – امرأة حتى وسطه ، امرأة جميلة ،
ولكن باقي جسمها قبيح ، فهو تلافيف تكسوها القشور
متداخلة ، مديدة ، كأنه حية تسلحت
بِحُمَةٍ قاتلة . وحول وسطها التفّت
زمرة من كلاب الجحيم لا تتوقف عن النباح

بأفواه فاغرة - مثل (كيربروس) - عالية جلبتها ، رنانة
طنانة مفزعة ! ومع ذلك فكانت إذا شاءت تتسلّل -
إذا اعترضت نباحها معترض - إلى رحمها
فتقيم فيه وتواصل النباح والعويل من داخله
دون أن تُرى ! كانت تزيد في بشاعتها عن الكلاب التي
هاجمت (سيلا) وهي تستحم في البحر الذي يفصل
بين (كالابريا) وشاطئ (ترينا كاريا) ذي الصوت المبحوح
وتزيد في قبحها عن جنية الليل الشمطاء إذ دعيت
سرا فأتت تركب متن الهواء
وقد أغوتها رائحة دم الأطفال لترقص
مع ساحرات (لابونيا) بينما يتألم القمر
وينخسف من تعاويذها ! . أما الكائن الآخر
فكان شكله (إن صح أن نقول ذلك ، إذ لم يكن له شكل)
لا يتميز فيه عضو أو مفصل أو طرف ، بل ولا
مادة ! حتى ليمكن أن يسمى بالظل الذي لاح ،
فهو ظل الشكل وشكل الظل ، ينتصب حالكا كالليل
ضاريا كعشر من ربات القصاص ، مرعبا كالجحيم ،
وقد امتشق سهما رهيبا ووضع فوق ما يخال أنه رأسه
شيئًا يشبه التاج الملكي .
كان إبليس قد اقترب منه ، فهب ذلك
الوحش من مقعده وأهرع إليه
بخطوات مفزعة ارتعدت لها جنبات الجحيم !
ولكن الشيطان الجسور رأى فيه ما يعجب منه

فعجب منه دون أن يخشاه . إذ باستثناء الله والمسيح
لم يكن إبليس يقيم وزنا لأحد أو يتحاشى أي مخلوق .
ألقى عليه نظرة ازدراء ثم خاطبه قائلاً :
من أنت ومن أين أتيت أيها الشكل القذر ؟
يا من تجرؤ ، على جهامتك ورعبك ، أن تدفع
بجبهتك الشائهة لاعتراض سبيلي
إلى تلك الأبواب ؟ لقد عقدت العزم على النفاذ منها
يقينا ودون استئذان منك .
تنح جانبا أو فلتتحمل مغبة حماقتك ، ولتتعلم فعلا لا قولا
ألا تُنازل يا ابن الجحيم ملائكة الجنة .
فأجابه العفريت وقد أفعمه الغضب قائلاً :
هل أنت الملاك الخائن ؟ هل كنت
أول من انتهك السلام في السماء ، وفصم عرى الإيمان فيها ،
وهو ما لم يفعله أحد قبلك ؟ هل أنت من رفع سلاح الكبرياء
فجر وراءه ثلث أبناء الجنة
ليتواطأوا ضد العلي الكبير ، ومن ثم
أخرجكم الله منها جميعا ، وحكم عليكم
بضياع أيامكم الخالدة هنا في الألم والعذاب ؟
أو تحسبن أنك ما زلت من ملائكة الجنة
وقد كتب عليك الجحيم ؟ أو تأتي لتتحداني وتهزأ بي هنا
حيث أبسط سلطاني ملكا ؟! بل لأزيدن من غضبك فأقول
إن لي الملك والسيادة عليك ! عد إلى مقر عقابك
أيها الخائن الهارب ، أضف أجنحة إلى أجنحة سرعتك

وإلا تعقبتك بسوط من العقارب فعاقبتك على
تلكؤك ، أو أطلقت عليك سهمًا واحدًا من هذا القوس
فحل بك من الرعب ما لم تعرف ، ومن الألم ما لم تذق !
هكذا تحدث البشع الرهيب ، وقد تضخم في أثناء
حديثه ووعيده ، حتى أصبح عشرة أمثال ما كان عليه
فظاعة وسوء خلقة . وعلى الجانب المقابل
كان الغضب قد ألهب إبليس فوقف
غير هياب ، والتمع مثل مُذَنَّبٍ ملتهب
يرسل ضوءه عبر نجوم (أورفيوكوس) حامل الثعابين الضخم
في سماء القطب الشمالي ، نافضا من شعره الشائك
نذر الطاعون والحروب ! صوّب كل منهما سهمه القاتل
نحو رأس غريمه ، واعتزمت أيديهما الفتاكة أن تضرب
ضربة لا ثاني لها ، وتجهم كل منهما
إزاء خصمه ، كأنهما سحابتان حالكتان
محملتان بمدافع السماء ، تهرعان في قعقعة
للمعمعة فوق بحر (قزوين) ، ثم تقفان وجهًا لوجه
فتحومان قليلا قبل أن تنفخ الريح في أبواقها ، فتعلن
التحامهما المبهم في السماء الوسطى .
ولقد بلغ من تجهم المحاربين الجبارين أن اشتدت
ظلمة الجحيم لتجهمهما ، وعجيب تكافؤهما .
(لم يكن من المقدر لأي منهما أن يواجه عدوا بهذا
البأس إلا مرة واحدة فيما بعد) . ثم التحما في نزال عظيم
وقتال رجعت أصداءه أرجاء الجحيم ،

بينما هبت الرقطاء الساحرة التي تجثم
ثابتة على أبواب الجحيم وبيدها مفتاحها الفتاك ،
وأهرعت صائحة صارخة فحالت بينهما :
صاحت « أواه يا أبي ! ماذا تعتزم يدك أن تفعل
بابنك الوحيد ! أواه يا بني ! ما هذا الغضب الذي
تملكك حتى كدت تصوب سهمك الفتاك
إلى رأس أبيك ؟ أتعلم لأجل من ؟
لأجل ذلك الذي يجلس فوقنا ويضحك
عليك ! لقد فرض عليك ذليل الأعمال ، إذ تفعل
ما يمليه عليك غضبه ، وهو الغضب الذي يسميه عدالة
والذي سيفنيكما معا يوما ما ».
وسكتت فكف وحش الجحيم عن الصراع
لوقع كلماتها ! ثم وجه إليها إبليس الحديث قائلاً :
« ما أغرب ما تجأرين وأعجب ما تقولين ! إن
كلماتك قد باغتت يدي فمنعتها
أن تفصح لك بلغة الأفعال
عما اعتزمته ، ريثما أحيط بك علما فأعرف
ما تكونين ، يا من تشكلت من شطرين ، ولماذا
وقد قابلتني أول مرة في هذا الوادي من الجحيم تنادينني
يا أبت ؟ ولماذا تزعمين أن هذا الخيال البشع هو ابني ؟
أنا لا أعرفك ، كلا وما أبصرت قبل الآن
منظرًا أقبح وأبغض منكما » !
وهنا أجابته حارسة أبواب الجحيم قائلة :

« تراك نسيتني إذن ؟ وهل أبدو
الآن لعينيك قبيحة بعد أن كنت ذات يوم فاتنة
الجنة ؟ أو تذكر عندما اجتمعتم على مرأى
من جميع ملائكة (الصاروفيم) الذين تضافروا معك
لتدبير مؤامرتكم الجسورة ضد ملك السماء ،
إذ حلت بك فجأة آلام شديدة ،
باغتتك فغامت عيناك ودارتا ، سابحتين
في الظلمة ، بينما نفثت رأسك ألسنة لهب غليظة دفاقة
فانفتحت ثغرة واسعة في جانبها الأيسر ، وخرجت منها
من تشبهك في الشكل والوجه الوضاء
- وكان آنئذٍ مشرقا بضياء الجنة الجميل - إلهة شاكية
السلاح!
لقد خرجت أنا من رأسك ! واستولت الدهشة
على حشد الجنة الحاشد ، وتراجعوا في خوف
أول الأمر ، واسموني «الخطيئة» ، ورأوني آية
نذير ، ولكنهم حينما اعتادوا عليّ
رُقت لهم ، وفاضت مفاتني الخلابة فأحبني
أشد من عاداني ، لا سيما أنت، إذ كثيرًا ما
رأيت ذاتك في ذاتي ، وصورتك في صورتي
فتولهت بي ، ونشدت متعة أي متعة
معي في الخفاء حتى حمل الرحم مني
حملا ينمو ويكبر . ولكن الحرب نشبت إذ ذاك
ووقعت المعارك في السماء ، وكانت الغلبة فيها

(ولا غرو) لعدونا ذي الجبروت ، إذ دان له
النصر المبين ، وحاق بنا الخزي والهزيمة
في شتى أرجاء الخضراء ! لقد هبط الجميع منها
منقلبين من ذروة السماء فوقعوا
في هذا الخضم ! ومع سائر الهابطين
هبطت ! فوجدت هذا المفتاح الجبار
قد وضع في يدي ، وكُلِّفْتُ أن أُبْقِيَ
على هذه الأبواب مغلقة إلى الأبد ، فلا يستطيع أن ينفذ
منها أحد إلا إذا فتحتها له ، وجلست هنا أفكر
وحدي ، لكنني لم ألبث أن وجدت رحمي
الذي يحمل طفلك وقد كبر وتضخم
وأحسست بحركة رهيبة فيه وآلاما مفزعة ،
وأخيرًا خرج هذا الطفل الكريه الذي تراه أمامك
والذي أنجبته أنت ، خرج يشق طريقه عنوة
فمزق أحشائي ، وتملكني الخوف والألم ،
وتشوهت ، وتبدل من ثم نصفي الأسفل
وشاه ! أما هو – عدوي الذي حملته –
فقد خرج وهو يلوح بسهمه الفتاك
الذي خلق ليهلك ، بينما فررت وأنا أصيح «الموت»
وارتعدت الجحيم لسماع ذلك الاسم الكريه ، وصدرت
آهاتها من كل كهف من كهوفها ، مرددة صراخي الداوي «الموت»
كنت أفر وهو يطاردني كأنما
تلهبه الشهوة أكثر من الغضب ، ولكنه كان أسرع مني

فأدركني ! أمه التي حل بها الهم والغم !
فاغتصب أحضانا دنسة
وضاجعني ! فأنجب ذلك الاغتصاب
هذه الوحوش الشائهة الصارخة التي ما تفتأ تعوي
حولي كما ترى ! أحملها كل ساعة
وأضع حملي كل ساعة ، وقد بلغت بي الأحزان
مبلغها ، إذ إنها حين تشاء تعود إلى الرحم الذي
حملها ! تعود لتعوي وتنهش
أحشائي بل لتزدردها ، ثم تنطلق وثابة
من جديد ، فتلدغني بأثيم علمها ورعبها
حتى إنني لأنشد الراحة أو التلطف فلا أجد إليه سبيلا !
وها هو يقبع أمام عيني ليناوئني :
الموت الجهم ! وليدي وعدوي ! إنه يحفزهم
بل إنه ليزدرد أمه التي أنجبته دون إبطاء
إذا لم يجد فريسة أخرى ! لولا أنه يعرف أن
نهايته رهن بنهايتي ، وأنني لست لقمة سائغة
بل مُرَّة عَصِيَّة ومكمن هلاك له
متى كان لهذا الهلاك أن يحل : هكذا حكم القضاء !
أما أنت يا أبت فإنني أنذرك ! احذر
سهمه الفتاك ! وإياك أن تأمل أن تنجيك
مناعة هذه الأسلحة البراقة التي تحملها .
رغم أنها سبكت في السماء ! فضربته القاتلة
لا يصمد لها إلا حكم السماء الأعلى » !

فرغت من حديثها ، وسرعان ما تعلم الشيطان الماكر
درسا بليغا إذ لان جانبه وطفق يتحدث حديثا عذب النبرات :
« ابنتي العزيزة ! إنك تقولين إنني أبوك
وتطلعينني على ابني الجميل هذا ، برهانًا ثابتًا
على رفقي بك في السماء والملذات التي
طابت لي آنذاك ، وغدوت أبغض ذكرها ، بعد التحول الرهيب
الذي وقع بنا وما كنا نتوقعه وما كان يخطر لنا على بال !ألا
فاعلمي أنني آتيك لا لأناصبك العداء بل لأحررك
من ظلمة منزل الآلام وكآبته –
أنت وإياه – بل وسائر رهط الجنة
من الملائكة الذين حملوا سلاح مطالبنا العادلة
فهبطوا معنا من عل ! لقد كلفوني بأن أقوم وحدي
بهذه الرحلة الغريبة ، وها أنذا أنوب عن الجميع
معرضا نفسي للمخاطر إذ أجوب بخطى الوحشة
عبابا لا قرار له ، وأبحث في الفراغ الهائل –
طوافا جائلا – عن مكان تقول النبوءة إنه سيخلق
بل إن الأدلة قد اجتمعت على أنه
قد خلق الآن ، ضخما ومستديرا ، ليكون نعيما
متاخمًا للسماء ، وستسكنه
ذرية من المخلوقات حديثة النعمة ، ربما لتملأ
الفراغ الذي خلفناه ، رغم بعد ذلك المكان ،
وحتى لا تزدحم السماء برهط من العتاة الذين
قد يثيرون قلاقل جديدة ! فإذا كان هذا (أو ما أحيط

بكتمان أشد) قد عُقد العزم عليه ، فسوف أعرفه سريعا
فإذا ما عرفته عدت إليكما على الفور
فاصطحبتكما إلى مكان تستطيعان فيه أنت والموت
أن تعيشا مطمئنين ، وأن تطيرا في الخفاء
دون جلبة ، في نسائم عليلة يذكيها
العبير الفواح ، ولسوف تطعمان هنالك حتى يتخمكما
الشبع ، إذ سيقع كل شيء فريسة لكما » .
وسكت . إذ لاح الرضا الغامر عليهما ، بل إن الموت
قد افتر ثغره الرهيب عن بسمة مفزعة عندما سمع
عن إشباع نهمه ، وبارك امتلاءه
الذي قدرت له تلك الساعة الطيبة . ولم يكن فرح
أمه الخبيثة بأقل من فرحه ، فشرعت تحدث والدها قائلة :
مفتاح هذه الجحيم السحيقة في يدي ! إذ قضى
أمر ملك السماء ذي الجبروت
أن أحفظه ، ونهاني عن فتح
هذه الأبواب الحجرية الصلبة ، ولصد أعتى القوى
يقف الموت مستعدا لإطلاق سهمه
إذ لا يخاف أن يقهره أقوى الأحياء .
ولكن ما بالي أنصاع لأمر ذلك العليّ
الذي يبغضني ، والذي ألقاني في هذا الدرك الأسفل
وظلمات هذا الحب العميق
قابعة هنا حبيسة هذا العمل المقيت
والسماء منزلي الحق وقد ولدت في السماء !

ما بالي أتلوى هنا في سرمدي العذاب والألم
تكتنفني المخاوف وصرخات الفزع
ممن أنجبتهم فانثنوا يلتهمون أحشائي !
إنك أبي ، فلقد صنعتني ولقد
وهبتني وجودي : هل لي إذن أن أطيع أحدًا
غيرك أو أتبع سواك ؟ لسرعان ما تأخذ بي
إلى ذلك العالم الجديد ، عالم الضياء والنعيم ، وسط
الآلهة الذين يحيون حياة الهناء ، فأتولى الحكم إلى جوارك
وأكون يدك اليمنى ومكمن الشهوة كما هو خليق
بابنتك وحبيبتك دون انتهاء .
قالت هذا ثم قبضت على المفتاح الذي كان يتدلى من جانبها
أبئس به من أداة جرت علينا صنوف العذاب !
واتجهت نحو الباب تُجَرْجِرُ أذيالها من الوحوش
ثم ما لبثت أن رفعت المشبك الحديدي الضخم عاليا
وهو ما لا يستطيع سواها ، كلا ولا قوى الجحيم العاتية
أن يزحزحه من مكانه ! وأدارت المفتاح في ثقب القفل فاشتبكت أسنانه
بفجوات القفل المتداخلة ، فإذا بكل قضيب وكل رتاج
من الحديد الثقيل أو الصخر الأصم ينزلق بيسر
وينفرج . وفجأة انفتحت أبواب الجحيم
فكان لها ارتجاج عنيف وصرير داوٍ
ومن مفاصلها صدرت قعقعة كهزيم الرعد
القاصف ، حتى لقد اهتزت أدنى دركات القاع

في (إيريبوس) . ولكن إغلاق الأبواب بعد فتحها
لم يكن في طوقها ! فظلت مفتوحة على مصاريعها
حتى إنها لتسمح بمرور زمرة ناشرة أجنحتها ، رافعة راياتها،
حاملة أعلامها المرفرفة ، في موكب
من الخيول والعجلات الحربية المصطفة دون تزاحم !
ما أوسع تلك الفتحة وأشبهها بفوهة التنور
التي تلفظ سحائب الدخان المكتظة وألسنة اللهب الحمراء !
ولاحت أمام عيونهم فجأة
أسرار الخضم الأشيب ، فإذا هو
محيط حالك لا حد له ولا ساحل
بل ولا أبعاد ! فيه يضيع الطول والعرض والارتفاع
والزمان والمكان ! إذ ثم ترى الليل
والعماء الطاعنين في السن ، وهما من أنجبا الطبيعة ، يبسطان
الفوضى السرمدية ، وسط ضجيج
الحروب التي لا تنتهي ، ويناصران الخلط والاختلاط !
أما عناصر الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ،
فإن أربعة أبطال ضوار
يتصارعون هنا للسيطرة عليها ، وقد دفعوا إلى المعركة
بذرات أجنتها التي التفّت حول راية
كل منهم ، وانقسمت فصائل شتى ، وتسلحت بأسلحة
خفيفة أو ثقيلة ، حادة أو صقيلة ، سريعة أو بطيئة ،
وتجهزت بأعداد غفيرة لا تحصى مثل رمال
(برقة) أو حبات التربة الجافة في (سيرينيكا)

إذ جُنِّدت وطارت لتشترك مع الرياح المتصارعة ، باسطة
أجنحتها الخفيفة . فمن التفت حوله معظم هذه الذرات
دان له الحكم لحظة ، بينما يجلس العماء ليفصل بينهم ،
ولكن قراراته كانت تزيد من حدة المعركة
التي يحكم فيها . وكان إلى جواره الحكم الأعلى وهو
«المصادفة» التي تهيمن على الجميع ! في هذه الهوة الوحشية ،
رحم الطبيعة ، وربما قبرها أيضًا ،
حيث لا بحر ولا شاطئ ولا هواء ولا نار
بل جميعها في أسبابها الهيولية الأولى ، تمتزج
في اختلاط فظ ، وتصطرع هكذا إلى الأبد ،
إلا إذا قضى البارئ المصور ذو القوة والجبروت أن يتخذ منها
مادة أولى لخلق عوالم أخرى .
في هذه الهوة الوحشية وقف الشيطان الحذر
على شفا الجحيم ، وسرح طرفه هنيهة
متفكرا في رحلته ، فليس هذا بالأخدود الضيق
الذي عليه أن يعبره ، وكانت أذنه تصكها أصوات قصف
عالية ، وجلبة ارتطام مدوية ، أعلى (إذا ضربنا الأقل
مثلا للأعظم) من عواصف إلهة الحرب (بللونا)
عندما تدير آلاتها الضارية لتدمير
عاصمة من العواصم ، بل أعلى من الضجيج الذي يصدر لو تهاوى
هيكل هذه السماء ، وتمردت هذه العناصر
فهبت وانتزعت من المحور

هذه الأرض الثابتة ! وأخيرًا نشر جناحيه العريضين
مثل أشرعة الفلك ليطير ، وعلى متن الدخان المتصاعد
ارتفع بعيدًا ساخرًا من الأرض ، وطار فراسخ عديدة
كأنه يجلس في كرسي من السحاب ،
جسورًا ، بيد أنه سرعان ما ذاب ذلك الكرسي ، فوجد قبالته
فراغا شاسعا ، ودون أن يدري وجد أجنحته
ترفرف عبثا ووجد نفسه يتهاوى
إلى عمق عشرة آلاف قامة ، بل كان يمكن أن يتهاوى حتى هذه الساعة
لولا المصادفة ! إذ هبت في لحظة تعسة
سحابة مضطربة صاخبة ، فدفعته دفعة قوية
بما يئز فيها من اللهب وأبخرة النطرون ، ورفعته أميالا عديدة مسافة
تماثل المسافة التي سقطها ! ثم هدأت السَّوْرة والفورة
وانطفأت في مستنقعات (سيرتا) ، وليست بالبحر
ولا اليابسة الصالحة ! أخذ يتخبط فيها
ويخطو على هذا المزيج من اليابس والماء ، ما بين سائر
وطائر ! ما كان أحراه أن يضرب مجاديفه فيها وينشر أشرعته معا !
أرأيت إلى (الغريفون) كيف انطلق في البرية
ضاربا بجناحيه فوق التلال وأحراج الوديان
في أعقاب (أريماسبي) الذي غافله
وسرق الذهب الذي كان يسهر
على حراسته ؟ فهكذا كان الشيطان ينطلق بإصرار

فوق الصخور والأوحال ، والسهول والجبال ، والآجام والآكام ،
شاقا طريقه برأسه ويديه ، وجناحيه وقدميه ،
سابحًا غائصًا خائضًا زاحفًا طائرًا معًا !
وأخيرًا ارتفعت جلبة ضارية في أرجاء الكون
ودوي الصخب المذهل والأصوات المختلطة التي
حملها كهف الظلام فداهمت أذنيه
بقوة صاخّة : وها هو يتجه صوبها
غير خائف عساه يلاقي عفريتا
أو جنيا من أرواح الهوة السفلى
يسكن في تلك الأصوات ، فيسأله
الطريق إلى أقرب شواطئ الظلمة
متاخمة للنور ! وفجأة لاح عرش
العماء وقد نصب سرادقه الحالك !
مديدًا على عباب الضياع ! وإلى جانبه على العرش
جلست ربة الليل في قميصها الأسود ، أكبر الأشياء سنا
وشريكة العماء في الحكم . وإلى جوارهما وقف
(أورقس) و (أديس) ، وحامل اللقب الرهيب
(ديموجورجون) ، ومن بعدهم الشائعة والمصادفة
والاضطراب والاختلاط ، وقد تشابكت وامتزجت .
ثم الشقاق بأفواهه الألف المختلفة !
واجههم إبليس الجسور قائلاً : أيتها القوى !
يا أرواح هذه الهوة السفلى !
أيها العماء ! يا ربة الليل الهرم ! لم آت لأتجسس عليكم ،

وما اعتزمت أن أكشف أسرار
مملككم أو أن أمسها بسوء ، ولكن جئت مضطرا ،
إذ إن طريقي إلى النور في هذه
الفيافي الحالكة ، يمتد وسط مملكتكم الشاسعة .
ولما كنت وحدي ودون دليل وشبه تائه اضطررت أن أسلك
أقرب سبيل إلى حيث تلتقي تخومكم الظلماء
مع تخوم السماء ، أو إلى أي بقعة أخرى
ظفر بها ملك السماء من مملكتكم
واقتطعها منذ عهد قريب ، فهذا هو مقصدي
وغاية رحلتي في هذا الخضم . دلوني على الطريق إذن !
إنكم إن فعلتم فسوف تفوزون بحظ عظيم
إذ سأستعيد حينئذٍ تلك البقعة المفقودة
التي طردنا منها غصبا وقهرا ، وأردها
إلى ظلامها الأول وإلى سلطانكم ،
(وهو غاية هذه الرحلة) ، وأرفع هنالك من جديد
راية ربة الليل العجوز !
لسوف تجنون الفائدة كلها ، وآخذ أنا بالثأر !
فرغ إبليس من الحديث ، فالتفت إليه العماء الهرم
وبنبرات متهدجة ووجه عابس مقطب
أجابه : إنني أعرفك أيها الغريب ! أعرف من أنت!
إنك قائد من الملائكة جبار ، ولقد قمت منذ عهد قريب
بشن الحرب على ملك السماء واندحرت

ولقد رأيت أنا وسمعت ! إذ إن ذلك الحشد
لم يهرب في صمت من خلال الخصم المرعب
بل تهاووا المرة تلو المرة ، ونالوا اللطمة إثر اللطمة
مرتبكة صفوفهم مختلطة ! ثم تدفقت من أبواب السماء الملايين
من الفرق المنتصرة
لتطاردهم ! إنني أقيم على هذه التخوم
وسوف أفعل ما في وسعي للدفاع عن
هذه البقعة الضئيلة التي خُلِّفت لنا
والتي لا تزال تتضاءل نتيجة لتقاتلنا فيما بيننا
وهو ما أضعف صولجان الليل الهرم ! إذ بعد الجحيم
يمتد قبوك شاسع الأرجاء تحتها !
ثم تأتي الأرض والسماء الدنيا ، عالم آخر جديد
معلق فوق مملكتي ، تربطه سلسلة ذهبية
بذلك الجانب من السماء الذي سقطت منه فضائلكم .
فإن كنت ستسير إلى ذلك العالم فليس أمامك الكثير !
ما أقرب الخطر إليك ، فامض وأسرع ،
وليكن الخراب والدمار والسقوط مكسبي
وسكت . ولكن إبليس لم يمكث ليجيب عليه ،
بل أسعده أن يعثر لهذا البحر على ساحل
فاستعاد سرعته واسترد قوته
ووثب عاليا كأنه هرم من نار
في وحشة ذلك الانفساح الشاسع ، وبين أهوال
العناصر المتصارعة التي أحاطت به من كل جانب

شق طريقه صامدا ، يزيد ما يحيط به من ويلات
وأخطار عما أحاط بالسفينة (أرجو) وهي تمر
في مضيق البوسفور بين الصخور المتصارعة
أو ما أحاط (بأوديسيوس) وهو على مؤخرة السفينة
حين تحاشى (خاريديس) وأبحر مع التيار المقابل .
وهكذا رافق المشقة البالغة والصعاب في رحلتها
ورافقته المشقة البالغة والصعاب .
ولكن سرعان ما مر بالمكان الذي هبط الإنسان فيه بعد ذلك
فما أعجبه من تحول ! كان الموت والخطيئة يجدّان
في أثره ، إذ قضت مشيئة السماء
أن يُشق خلفه طريق عريض معبد
فوق الهوة المظلمة ، والبحر الذي يغلي ويمور
وقد احتمل راضخا ثقل جسر ذي طول عجيب
يمتد من الجحيم حتى أقصى فلك من أفلاك
هذا العالم الضعيف ، وعليه تمر الأرواح العاصية
بسهولة ويسر رائحة غادية
إما لغواية البشر الفانين وإما لعقابهم ، إلا الذين يحف بهم
رضوان الله وتتنزّل عليهم ملائكته فَيُوَقُّونها
وأخيرًا يلوح سنا النور القدسي وسناؤه
وتشع جدران السماء ضياء
ينفذ إلى أعماق قلب الليل البهيم
فينبلج الصبح مشرقا ! ها هنا البداية الأولى
لأقصى تخوم الطبيعة ! وها هنا يتراجع العماء

عن بدائعها الظاهرة كأنه عدو مدحور
انكسرت حدة جلبته وخفتت ضجة عدائه !
ولا يجد إبليس مشقة الآن ، بل يجد من اليسير عليه
أن يبحر على العباب الهادئ في الأضواء المتهافتة
مثل سفينة تعصف بها الأنواء فتسعد
بالمرفأ ، بعد أن تمزقت أشرعتها وشباكها !
أو أن يطير في فراغ الفضاء الذي يشبه الهواء
فيتوازن جناحاه ، ويبصر دون عجلة
من بعيد جنة السماء وقد امتدت رحيبة
محيطها شاسع ، لا تعرف إن كان لضخامته مربعا أو مستديرا
وفيه أبراج من الدر الناصع ، وقلاع زينت
بالياقوت الأزرق النابض بالحياة ، كانت ذات يوم موطنه وسكناه
وقريبًا منها كان هذا العالم يتدلى ،
معلقا بسلسلة ذهبية ، كأنه في الحجم نجم
ضئيل الجرم يلوح بجوار القمر .
وإلى هناك ، مفعم النفس بشرور الثأر ،
ملعونا في ساعة ملعونة ، أهرع إبليس .

الكتاب الثالث

الكتاب الثالث

الموضوع

الرب جالس على عرشه - يرى إبليس وهو يطير نحو هذا العالم الذي خلق حديثًا - يريه إلى الابن الذي يجلس على يده اليمنى - ويتنبأ بنجاح إبليس في غواية الإنسان - ويرد شتى الاتهامات الموجهة إلى عدالته وحكمته، لأنه قد خلق الإنسان حرّا وقادرًا على مقاومة الإغواء - ومع ذلك يعلن انتواءه الصفح عنه، لأنه لم يخطئ نتيجة الشر الكامن فيه مثلما فعل إبليس ولكن نتيجة إغواء إبليس له . ويلهج فم الابن بالحمد للرب، وذلك لما أظهره من اعتزامه الصفح والغفران للإنسان . ولكن الرب يعلن ثانيًا أن الغفران لن يتأتى للإنسان إلا بعد تحقيق العدالة الإلهية - لقد أخطأ الإنسان إزاء جلال الرب بطموحه في الربوبية، ومن ثَمّ فقد قضى عليه وعلى ذريته بالموت إلا إذا وجد من يستطيع أن يتحمل وزر خطيئته ويتحمل عقابه . ويتطوع الابن بتقديم نفسه فداء للإنسان. ويقبل الرب ذلك ويقضي بتجسده، ويعلن عن رفعه فوق جميع أسماء من في السماء والأرض، ويأمر الملائكة جميعًا بالصلاة عليه، ويطيعون، وينشدون ترانيمهم على أنغام القيثار في جوقة كاملة، ويسبحون للأب والابن . وأثناء ذلك يهبط إبليس على قبة جرداء على المحيط الخارجي لهذا العالم . وعندما يتجول هناك يعثر أولا على مكان أطلق عليه منذ تلك اللحظة «عالم النسيان والغرور» - ووصف ما يطير فيه من أشخاص وأشياء - ثم يأتي إبليس إلى باب الجنة - ووصفه وهو يصعد السلم، والأمواه التي تتدفق فوق السماء من حول الجنة، ثم سيره من هناك إلى فلك الشمس . وهنا يجد (أوريل) حاكم ذلك الفلك، ولكنه يغير من صورته أولا فيتخذ شكل ملاك أدنى في الدرجة، ويتظاهر بأن لديه رغبة

مشبوبة في رؤية الخلق الجديد والإنسان الذي أنزله الرب في ذلك الخلق ، ويسأله عن مكان سكناه فيدله (أوريل) عليه . ومن ثم يهبط إبليس أول الأمر على تل (نيفاطيس) .

مرحى بالنور القدسي ! أول أبناء السماء !
أم هل لي أن أمثل لك بالسناء الخالد صنو الخالد
دون ملام ؟ فالرب هو النور
وهو يحيا في نور لا يدانى
ويسكنه منذ الأزل ! إنه يسكنك
أيها البهاء الوضّاء للجوهر الوضاء الذي لم يخلق
أم تودني أن أدعوك باسم آخر ؟ يا نهر الأثير الصافي
الذي لا يُعرف له منبع ! لقد جئت إلى الوجود
قبل الشمس وقبل السموات وعندما انطلق صوت
الرب كسوت بعباءتك العالم
وهو يتنشأ من الأمواه الظلماء السحيقة
ويتشكل من العدم والهيولة اللانهائية .
إنني أعود إليك اليوم بجناح أشد جراة
هاربا من بحيرة الجحيم بعد أن مكثت طويلاً
في ذلك المقام البهيم ، وقد كنت في تحليقى
في طبقة الظلمة المحيطة والطبقة الوسطى أنشد
ألحانًا تختلف عما أبدعه قيثار (أورفيوس) ،
فتحدثت عن العماء وعن الليل السرمدي ،

وقد علمتني ربة الشعر قاطنة السماء كيف أخاطر بالهبوط
في الدرك المدلهم ثم بالصعود والتحليق ،
على مشقة ذلك ونُدرته ! إنني أعودك اليوم آمنا
وأحس نبراسك – نبراس الحياة والملك . بيد أنك
لم تعد تشرق في عينيّ هاتين وهما تدوران في محجريهما عبثا
تنشدان شعاعك الثاقب ولا تشهدان الفجر !
لقد زارهما مرضٌ عُضال فطمس أفلاكهما
أو قل حجبهما «الماء الأزرق» . ولكن ذلك لم يعُقْني
عن التجوال مع ربات الشعر عند
الينابيع الصافية أو الخمائل الوارفة أو التلال المشرقة
التي تولهت بحب الأناشيد القدسية . لا سيما
أنت يا جبل (صهيون) والغدران المزهرة التي تجري من تحتك
فتغسل قدميك المقدستين وتتدفق مع ألحانها
فإنني أزورك ليلا ! وكثيرًا ما أذكر
ذلكما الشاعرين اللذين شاركاني قدري
فأتمنى أن أشاركهما ذيوعهما
(تامريس) الكفيف و (هوميروس) الكفيف
والنبيين القديمين (تيريسياس) و (فينيوس)
ثم تنتابني الأفكار التي تتدافع وحدها
بأبيات الشعر المتسقة ، مثلما يسهر العندليب
ويغني في الظلام ، أو يحتجب عن العيون في وارف الظل
ليصوغ ألحان الليل . وهكذا تتوالى الفصول
على مدار العام ولا يعود إليّ ضوءُ

النهار أو أعرف جمال اقتراب المساء أو الصباح
أو مشهد أزهار الربيع وورود الصيف
وقطعان الأغنام والماشية ووجه الإنسان القدسي
بيد أن السحاب والظلام السرمدي
يغشياني وقد تقطعت بي السبل فلم أعد أرى
حياة البشر الصبوحة ولا كتاب المعرفة المشرق ،
بل يواجهني الخواءُ في كل مكان
وقد طمست بدائع الطبيعة وانمحت
وسُدَّ منفذٌ من منافذ الحكمة !
فليتك يا نور السماء تزداد
إشراقا بين جوانحي وتضيء أعطاف الذهن
وتنير ملكاته وتكسبها عيونا أخرى !
ليتك تطهرها حتى ينقشع الضباب الذي غشيها فأرى
ما غاب عن بصر الفناء وأحكيه .
والآن ! كان الأب القاهر في عليائه
يجلس على الكرسي في السماء الطاهرة
وقد علا عرشه كل شيء . فانثنى يبصر
ما صنعه وما صنعته مخلوقاته
وقد التفت حوله ملائكة السماء
واحتشدت كأنها النجوم تستقي من طلعته
غبطة يعجز عن وصفها اللسان . كان على يمينه
صورة مشرقة لجلاله إذ جلس
ابنه الوحيد . وعلى الأرض رأى أولا

أبوينا الأولين . ولم يكن بعْدُ من البشر
سواهما ، يرتعان في جنات السعادة
ويقطفان الثمار الخالدة - ثمار الهناء والحب -
هناء لا ينقطع وحب لا مثيل له
في عزلة النعيم . ثم ألقى ببصره إلى
الجحيم والهوة الفاصلة ، وإبليس هناك
يطير بحذاء سور الجنة على جانب الليل منها
محلقا في الهواء البهيم ، وقد تأهب الآن
للانقضاض - بأجنحة مرهقة وأقدام متعطشة -
على الخلاء المتاخم للكون ، وقد بدا له
أرضا صلبة مكنونة لا سماء لها ،
ولم يكن واثقا إن كانت في الماء أو الهواء .
وعندما رآه الرب من عرشه الرفيع
من حيث يبصر الماضي والحاضر والمستقبل ،
أفضى إلى ابنه الوحيد بحديث النبوة قائلاً :
أيها الابن الوحيد ! أترى سورة الغضب
التي تعصف بعدونا ؟ إذ لا تحده القيود
الموضوعة ، ولا أسوار الجحيم المرفوعة ، ولا ما كبل فيه
من السلاسل المزروعة ، لا بل ولا الهوة السحيقة
الشاسعة الممنوعة ! لقد صح عزمه
على الاستماتة في الانتقام ، وسوف يرد كيده
إلى نحره العاصي ! والآن قد
انفلت من كل قيوده فانطلق يحلق بجناحيه

قريبًا من السماء في أصقاع النور
متجها صوب العالم الذي خلق منذ عهد قريب
ونزل فيه الإنسان ، حتى يبتليه ويعرف
إن كان قادرًا على إهلاكه بالقوة أو بما هو أنكى وأمر
أي بالخديعة والغواية والمكر ! ولسوف يغويه حقا
إذ سيصغي الإنسان إلى أكاذيبه المُنَمَّقة
وسيعصي دون مشقة أمري الأوحد
والعهد الأوحد لطاعته . ولسوف يهبط منها
هو وذريته العاصية – ومن الملوم على ذلك ؟
وهل يلام سواه ؟ يا لناكر الجميل ! لقد آتيته
كل ما يقدر عليه ، وفي أحسن صورة وأعدلها رَكَّبته
ووهبته طاقة الثبات وكذلك حرية السقوط !
وكذلك خلقت شتى القوى الأثيرية
والأرواح فمنهم من ثبت ومنهم من وقع !
فبإرادته ثبت من ثبت ، وبإرادته سقط من سقط !
فإذا لم يكونوا أحرارا فكيف يبرهنون حقا على
ولائهم الصادق أو إيمانهم الراسخ أو حبهم الخالص ؟
ألن يبدو كل ذلك من عمل المجبورين المسيرين
لا الطائعين المختارين ؟ وأي ثناء أو ثواب يمكن أن ينالوه ؟
وأي رضا لي عن الطاعة إذا كانت
الإرادة والعقل (والعقل بعد يعني الاختيار)
عبثا لا طائل من ورائه ؟ إنهم إن جردوا من الحرية
لاتسمت الإرادة والعقل بالسلبية ولعبدوا الحتمية

بدلا من عبادتي . لقد خلقوا بالحق
وليس من العدل أن ينحوا باللائمة
على خالقهم أو خلقهم أو قدرهم
قائلين بأنهم مسيرون وأن الجبر يلغي
إرادتهم وبأنه يتمثل في قراراتي المطلقة
أو علمي الأزلي الأعلى . لقد اتخذوا بأنفسهم قرار
عصيانهم ، ولم أتخذه أنا ، وإن كنت أعلمه من قبل
فالعلم السابق لم يدفعهم إلى اقتراف جريرتهم
فهم لها مقترفون وإن لم يعرف بها أحد من قبل
وهكذا دون أدنى دافع أو ظل من الأقدار
ودون تأثير لعلمي السابق الذي لا يتبدل ولا يتحول
فإنهم يخطئون ، وهم أصحاب الشأن
في إصدار أحكامهم واختيار ما يرونه فلقد
خلقتهم أحرارًا ، ولسوف يظلون أحرارًا
حتى يستعبدوا أنفسهم . فإذا لم أغير
طبيعتهم وألغي القرار الرفيع
الذي لا يحول ولا يزول ويقضي
بحريتهم ، فإن سقوطهم من صنع أيديهم .
أما النوع الأول فقد سقطوا بعد أن وسوسوا لأنفسهم
وبعد أن سوّلت لهم أنفسهم الغواية ! وأما الإنسان فيهبط
حين يغويه
النوع الأول . وهكذا فسوف ينعم بالغفران
ويحرمه الآخرون . لسوف أبسط رحمتي وعدلي

في السماء والأرض ، وبهما يفوق جلالي كل شيء
ولكن رحمتي سبقت عدلي ، ونورها يطغى على كل شيء في النهاية .
وأثناء حديث الرب فاح العبير الخالد فضوّع
جنبات السماء وأشاع في صدور الأرواح المباركة المصطفاة
رَوْحا من الفرح القشيب يجل عن الوصف
وأما ابن الرب الذي لا مثيل له فقد كان ذا سنا
يفوق كل سناء ، إذ تجلى فيه بهاء أبيه
في صورة مجسدة ، وفي وجهه
سطعت الرحمة القدسية وبدت للعيان ؛
وفاض الحب اللانهائي ، والصفاء المطلق ،
حينما بدأ حديثه إلى أبيه قائلاً :
يا أبتي ! ما أكرم تلك الكلمات التي ختمت
بها حديث الملكوت وهي أن الإنسان سيحظى بالغفران !
إنها ستجعل السماء والأرض تُسَبِّحان
بحمدك ، وترسلان أصواتا لا تحصى
من الترانيم والأناشيد القدسية فتحيط بعرشك
وترن أصداؤها فيه وتباركك إلى الأزل
إذ أنّى للإنسان أن يضيع في النهاية ، وأنّى للإنسان
الذي خلقته وأفأت عليه الحب حتى عهد قريب فهو أصغر أبنائك ،
أنّى له أن يسقط ضحية الغواية حتى ولو تضافرت
معها حماقته ؟ تنزهت عن ذلك وعن ذلك.
تنزهت يا أبي ! فأنت الحكم
في كل شيء خلقت ، وحكمك لا يحيد عن الصواب .

وأنّى للخصم أن ينال
غايته ويحبط غايتك ؟ أنّى له أن يقيم
الشر الذي اعتزمه ويمحق الخير الذي قدمته ؟
وهل ينقلب إلى أهله مختالاً فخورًا ، رغم سوء مآله ،
حين يأخذ بالثأر ويجر إلى الجحيم
من ورائه ذرية الإنسان جميعا
بعد إفسادها ؟ أم تراك تود أن
تمحو ما صنعت وأن تدمر
من أجله الخلق الذي خلقته لإعلاء مجدك ؟
إنك إن فعلت فسوف يتساءلون عن خيرك وعظمتك
وقد نال منهما الشك فلا يحيرون جوابا .
وأجابه الخالق الأعظم قائلا :
يا بني ! إن فيك سعادتي المثلى !
إنك ابني المقرب ! ابني الذي يمثل وحده
كلمتي وحكمتي وقوتي الفعالة .
لقد أفصحت كلماتك عن أفكاري وجميعها
يتفق مع ما قضت به مشيئتي الأزلية :
فلن يضيع بنو الإنسان الضياع كله ، بل سينجو منهم من يشاء
وإن لم يكن بإرادته بل بمغفرة مني
أنعم بها دون قيد . وسوف أعيد إليه مرة ثانية
قواه الخائرة ، رغم أنه أهملها فاستعبدتها
الخطيئة وأحالتها شهوات دنيئة فاحشة .
لسوف أؤازره حتى ينهض ويقف

على الأرض السوية ضد عدوه الفتاك
ولسوف أؤازره حتى يدرك مدى ضعفه
بعد أن يهبط وحتى يدين لي
بخلاصه ولا يدين به لأحد غيري
ولقد اصطفيت البعض وطهرتهم برحمة مني
واصطفيتهم على العالمين . بهذا قضت مشيئتي
أما سائر الناس فسوف يسمعون بلاغي وكثيرًا ما يُنذرون
فيذكروا خطيئتهم ويسارعوا إلى مغفرة من
ربهم بعد أن حل بهم غضبه ، ويفوزوا برضوانه
الذي يدعوهم إليه . ولسوف أنير مداركهم الظلماء وأزكيها
حتى ترق قلوبهم التي قست فهي كالحجارة ، وحتى تلين إلى ذكري
فيقيموا الصلاة ويتوبوا إليّ ويوفوا واجب الطاعة .
وأما الصلاة والتوبة والطاعة الواجبة
فإذا قدمت بنيّة خالصة وعزم صادق
فلن تتواني أذني عن سماعها ولن تغفل عيني عنها
ولسوف أكِنُّ في صدورهم هاديًا مرشدًا
هو الضمير . إنه الحكم الفصل ، فإذا استمعوا إليه
وأحسنوا فسوف يشهدون نورًا من بعد نور
ولسوف يثابرون للنهاية حتى يبلغوا بر النجاة .
أما من يُعرِضُ عن طول حلمي وزمان غفراني
ولا يقيم لهما وزنا فلن يذوق هذا ولا ذاك
بل سيزداد غلظة إلى غلظته وعمى إلى عماه
فيمعن في تخبطه وتزداد وهدة مهواه .

ولن يحرم الرحمة إلا أمثال هؤلاء .
وليس هذا كل شيء . فإن الإنسان يعصي
وينكث ، وهو ينتهك ميثاقه ويقترف الجرم
ضد السيادة العليا للسماء ،
إذ يطمع في الربوبية فيضيع كل شيء .
أما التكفير عن خيانته فليس له
إلا هلاك مكرس محتوم . ولذا
فلا مناص من الموت له ولذريته أجمعين
فإمّا أن يهلك وإما تهلك العدالة ، إلا إذا تقدم
بديل له ، يقدر بل ويرغب في تحمل
ثمن الفدية الفادح ، وافتداء الموت بالموت .
حدثوني يا قوى السماء ! أين عسانا نجد مثل هذا الحب ؟
هل منكم من يقبل الفناء حتى يكفر عن
جرم الإنسان الفاني ؟ وهل من بارٍّ يخلّص ظالما ؟
وهل في أرجاء الجنة مثل هذه المحبة الرحيمة الرفيعة ؟
طرح السؤال فانعقدت ألسنة جوقة السماء جميعا
وران الصمت على السماء . ولم يتقدم
أحد للدفاع عن الإنسان أو الشفاعة له
ولم يجرؤ أحد على تقبل ما هو أدهى : أي أن يُنزل بنفسه
خسران الفناء ، وهو الفدية المرصودة .
كان الإنسان يفتقر إلى من يكفر عنه خطيئته
وكان يمكن أن يضيع إذ حَكَمَ عليه بالموت والجحيم
القضاءُ الصارم ! لولا أن قام ابن الرب

الذي يعمر الحبُّ القدسيُّ أقطارَ نفسه
فعرض عزيز شفاعته مرة ثانية .
يا أبي ! سبقت كلمتك : إذ سينعم الإنسان بالغفران
ولن يعدم الغفران وسيلة يصل بها إليه ، فهو لا يضل طريقه أبدًا !
إنه أسرع رسلك المجنحة
إلى شتى المخلوقات ، وهو يأتيها جميعًا
على غير انتظار ودون أن تنشده أو تتوسل في طلبه
فما أسعد الإنسان حتى يأتيه هكذا ! فكيف يرجو الغوث
بالغفران إذا مات محملا بخطاياه وضاع ؟
وأما التكفير عن نفسه أو القرابين الصالحة
فلن تجدي فتيلا حين يركبه الدين ويبتلعه الهلاك .
ها أنذا إذن أتقدم لأفديه ، وأقدم حياتي
مقابل حياته ، وليقع عليّ أنا سخطك وغضبك
اعتبرني الإنسان ، وسوف أتخلى من أجله
عن صدرك وعن هذا المجد في قربك
ولسوف أنبذ كل هذا طائعًا مختارًا، ثم أموت من أجل الإنسان
آخر الأمر
قرير العين . وليصب عليّ الموت جام غضبه !
ولكن لن يطول مقامي في ظل سلطانه الكئيب ولن يطول
انهزامي ، إذ إنك وهبتني
حياة الخلود في نفسي ، فأنا بك أحيا
رغم أنني أستسلم الآن للموت وأدين له
بكل ما هو فانٍ مني . وبعد أن أسدد هذا الدين

لن تتركني في القبر البغيض
فريسة له ولن تجعل نفسي التي لا تشوبها شائبة
ترقد فيه مع الفساد إلى الأبد .
ولكنني سأقوم منتصرًا فأخضع
من هزمني وأسلبه ما تفاخر به من أسلاب !
وسوف يتلقى الموت آنئذٍ جرح الموت ، فيطأطئ الرأس
في خزي بعد أن تجرد من حُمته القاتلة .
وسوف أطوف بهذا الفضاء الفسيح ظافرًا منتصرًا
وقد أوقعت الجحيم في الأسر بالرغم منها وأعرض عليك
قوى الظلام في أصفادها . وسوف يسرك
هذا المشهد فتطل من السماء وتبتسم لمرآي
بعد أن رفعتني إليك وأنا أقضي على أعدائى
وآخرهم الموت فألقي بجثته في القبر لتتخمه .
وبعدها أصحب جميع من نالوا الخلاص على يدي
إلى الجنة بعد غياب طويل ، وأعود
يا أبي لأرى وجهك بعد أن تنقشع عنه
سحائب الغضب وتزول ، ويحل مكانها وطيد السلام
والوئام ولن يعود ثم مكان للغضب
بعد ذلك بل سيشرق في حضرتك الهناء كل الهناء .
وتوقف عن الحديث ، ولكن الوداعة على محياه
كانت تنطق في صمتها ، وترسل أنفاس الحب الخالد
إلى البشر الفانين ، حب لا يفوق بهاءه إلاّ بهاءُ
طاعة الأبناء . لقد عرض التضحية بنفسه

عن طيب خاطر وكان من ثم ينتظر أن يعرف مشيئة
أبيه العظيم وساد الإعجاب والدهشة
جنبات السماء إذ تساءلوا عما عساه يعني وأيّان يذهب
وتعجبوا . ولكن سرعان ما أتى جواب القوي القاهر :
ليس سواك في السماء والأرض من سلام
للبشر المغضوب عليهم يا منهل
رضاي الأوحد ! إنك تعلم خير العلم مبلغ حبي
لكل ما خلقت وليس الإنسان بأقلها حظًا
مع أنه أحدثها خلقًا ، وتعلم أنني من أجله جعلتك
تفارق صدري ويدي اليمنى حتى أخلص
ذريته التي ضاعت ، ولو فقدتك حينًا من الدهر
ولما كنت وحدك القادر على افتدائهم
فلتكن طبيعتك من طبيعة البشر
ولتكن رجلا بين الرجال على الأرض
ولتكن حين يحين الموعد لحمًا ودمًا من نسل عذراء
ومولودًا عجبًا ! ولتكن مكان آدم
رأسا للبشر أجمعين مع أنك من بني آدم .
في آدم يفنى سائر البشر وفيك
يعودون إلى الحياة كأنما من بذرة ثانية .
وعلى كثرة الناجين ، فلن ينجو أحد دونك
إن جريرته تدمغ بالإثم كل أبنائه ولكن الفضل الذي
تسبغه عليهم سوف يكفر عن أولئك الذين ينكرون
أعمالهم – أيا كان حظها من الشر أو الخير –

وينقلون بذورهم إلى أرضك ليحيوا فيك ،
وليستمدوا حياة جديدة منك وهكذا فلن يفتدي الإنسان
إلا إنسان يحاكم ويموت - وهذا عين العدل .
فإذا مات رفعته إليّ ، ثم أرفع معه
إخوانه الذين افتداهم بحياتهم الغالية .
وهكذا سيقضي الحب الإلهي على البغض الجهنمي الذي
يفضي إلى الموت . أما الموت فهو ثمن الغفران
بل هو الثمن الفادح لإصلاح ما دمره البغض الجهنمي
بيسر بالغ ، بل وما يزال يدمره
في صدور من يقدرون على نوال المغفرة ولا يقبلونها .
ولكنك بنزولك واتخاذك
طبيعة البشر لن تخفض أو تحط من طبيعتك
لأنك - رغم تبوئك عرش النعيم الرفيع
وتساويك مع الرب ، ومساواتك في التمتع
بثمار الربوبية - قد تركت كل شيء لتنقذ
عالمًا من الضياع الكامل . وقد أثبتت
خصالك أنك أكبر من مجرد ابن للرب بحق المولد
وقد ثبت أنك جدير به وتستحقه كل استحقاق للخير الذي تتحلى به
وليس لعظمتك ورفعتك . ولأن الحب
لديك يفوق المجد والبهاء
فإن هوانك سوف يسمو
بالإنسان فيك إلى هذا العرش أيضًا
وسوف تجلس هنا في ثوبك البشري وتحكم

ربا وبشرًا ، ابنًا للرب وابنًا للإنسان ،
وتتوج ملكًا على العالم ، وسأهبك السلطان كله
فتحكم إلى الأبد وتتحلى بكل
خصالك ، وتصبح رأسًا وسيدًا للجميع
إذ سأخضع لك العروش والإمارات والسلاطين والرياسات
وسوف يركع لك الجميع ، سواء من يسكن
في السماء أو في الأرض أو تحت الأرض في الجحيم
وعندما تطل من الجنة ببهائك ومجدك
لتلوح في السماء الدنيا وترسل من عندك
كبار ملائكة النداء ليعلنوا انعقاد مجلس
الحكم الرهيب فسوف يهرع الأحياء على الفور من شتى بقاع الكون !
وعلى الفور أيضًا سيهب الأموات الذين نودي عليهم
من جميع العصور السالفة لملاقاة الحساب
ويهرعون وقد أيقظتهم القارعة من رقدتهم !
وعندئذٍ سوف يجتمع حولك المصطفون حتى تحكم في أمر
العاصين من الناس والملائكة فمن حق عليه القول سقط
بما يقضيه حكمك حتى إذا حشروا إلى الجحيم فامتلأت بهم
أغلقت أبوابها إلى الأبد . وعندها
تحترق الدنيا ومن رمادها تنشأ
سماء جديدة وأرض جديدة يسكنها الأبرار
وبعد معاناتهم وعذابهم الطويل
سيشهدون أيامًا من ذهب ، ثمارها أعمال من ذهب
ولسوف ينتصر الهناء والحب والحق الجميل .

وعندها أيضًا ستتخلى عن صولجان الملك
فلن تحتاج إلى صولجان ملك بعد ذلك
إذ لن يبقى سوى وجه ربك . أما الآن فيا أيها الملائكة
صلوا لمن يموت حتى يحقق كل هذا
صلوا للابن وكرّموه مثلما تكرّمونني !
وما أن توقف القاهر عن الحديث حتى ندت عن
حشد الملائكة الحاشد صيحة
عالية من أعداد لا تعد ولا تحصى ! صيحة رقيقة
تحملها الأصوات المباركة التي نطقت بالفرح فهزت جنبات السماء
بألحان الهناء ، وانطلقت التسابيح العالية فملأت
أصقاع الخلود ! وفي خشوع وخضوع
ركعت قبالة العرشين ، وألقت إلى الأرض
في صلاة يزينها الوقار
بتيجانها المحلاة بزهر (الأمران) والذهب –
زهر (الأمران) الخالد ، الذي كان قد بدأ ينمو
في الفردوس – بجوار شجرة الحياة –
وبدأ يزهر ، ولكن سرعان ما انتقل بعد خطيئة الإنسان
إلى السماء حيث نبت أول الأمر ، وما زال ينمو
ويزهر عاليًا فيظلل نبع الحياة –
حيث يجري نهر النعيم في وسط الجنة
ويتدفق فوق زهورها بمياهه العنبرية الصافية
وهذه الزهور لا تذبل أبدًا ! بل تأخذها الأرواح المصطفاة
فتعقد بها جدائلها البراقة المضفرة بالأضواء !

أما الآن فهي ملقاة في طاقات ضخمة غير معقودة أشرقت بها
أرضية الجنة البسامة فبدت مثل بحر من الياقوت الساطع
صبغته ورود السماء بالأرجوان !
وبعد ذلك لبس كُلٌّ تاجه وحمل قيثاره الذهبي
قيثار ضبطت أوتاره وتلألأ إلى جانبه
كأنه كنانة السهام ، ثم عزف الجميع مقدمة عذبة
من أنغام متوافقة ساحرة قدموا بها
أنشودة التقديس ، وأيقظوا بها مشاعر النشوة السامية .
لم يمتنع صوت من الأصوات بل إنها شاركت جميعا
في غناء هذا اللحن . وهكذا شأن التوافق في السماء !
تغنوا أولاً بقدرتك أيها الأب القاهر
أيها الملك القيوم الخالد اللامحدود !
أيها السرمدي ! يا رب العالمين
يا نبع النور ! ذاتك لا تدركها الأبصار
لإشراقها وسطوع بهائها في ساحة العرش
حيث تستوي عليه لا يدانيك أحد . وحين تلقي بالظلال
على وهج أنوارك وتحجبها بسحابة
تحيط بك كأنها القدس الوضاء
تبدو حواشيها للرائي دكناء لفرط الإشراق من حولها
ومع ذلك فإن سناها يذهب بالأبصار في السماء حتى أن ملائكة
الصاروفيم لا تجرؤ على الاقتراب وتحجب أعينها بأجنحتها !
وبعد ذلك تغنوا بأول ما خلق الرب - بك
أيها الابن - يا ذا الصورة القدسية !

عن محياك الأغر الأبلج انقشعت السحب
فأدركته الأبصار وسطع نور الأب القاهر
وإلا ما استطاع مخلوق أن يرى نوره !
لقد انطبع فيك سنا جلاله وأقام ،
وحلّ بك الروح الأمين ونزل !
لقد خلق بك سماء السموات وما بهن
من ملائكة ، وبك ألقى في لج الهزيمة
بالطامحين الطامعين منهم ! إنك في ذلك اليوم
لم تتوان عن القصف العاتي فأرعدت رعد أبيك
وما توقفت عجلات عربتك الحربية المستعرة التي زلزلت
هيكل السماء الخالد وهي تطأ أعناق
المحاربين وتدك فلولهم دكا
وحين عدت من الطراد هلّلَتْ ملائكتك عاليا
وسبّحت لك وحدك ، يا من تستمد قوتك من أبيك ،
وتوقع شديد الانتقام بأعدائه
لا بالإنسان ! لقد سقط نتيجة لكيدهم، ولذلك فإنك
يا صاحب الرحمة والغفران لم توقع به حكما
بالغ الصرامة بل آثرت التلطف والرأفة
وما أن أدرك ابنك العزيز الأوحد
أنك لا تنتوي الحكم على الإنسان الضعيف حكما
بالغ الصرامة بل تؤثر التلطف والرأفة
حتى أسرع لإرضاء غضبك وإنهاء الصراع
بين الرحمة والعدالة الذي تَبيَّنه في وجهك

ولم يكترث لمقعد الصدق في النعيم
حيث يتلوك في المنزلة فعرض أن يموت فداء
لوزر الإنسان . يا له من حب لا مثيل له !
حب لا يتأتى لمن دون المستوى القدسي !
مرحى بك يا ابن الرب ، يا مخلص البشر ! سيكون
اسمك الموضوع الحافل لأغنيتي
منذ الآن ، ولن يتوقف قيثاري عن مدائحك
أو ينساها ، أو يعزلها عن مدائح أبيك .

وهكذا كانوا في السماء فوق مدار الأفلاك
يقضون ساعات السعادة في الهناء والترانيم .
وآنذاك - على القبة المعتمة الصلبة
لهذا العالم المستدير ، حيث يفصل أول مداراته
الأفلاك الوضاءة الدنيا التي تحتمي الآن
من العماء ومن غارات الظلمة القديمة -
حط إبليس وسار . ورأى على البعد ما يشبه الكرة
فلما اقترب منها بدت له قارة لا حدود لها
خربة مظلمة وبرية موحشة ، تجهم لها الليل
فتعرت دون نجوم ، وهبت عليها من العماء عواصف تتهددها أبدًا
وتلفقها من كل مكان . فأجواؤها صرصر عاتية
إلاّ على هذا الجانب ، فرغم بعده
الشاسع عن سور الجنة ، لمح فيه بصيصًا منعكسًا
لسماء مشرقة هدأت فيها العواصف الصارخة .
وهنا سار الشيطان طليقًا في الخلاء الشاسع .

انظر إلى نسر نشأ وترعرع في جبال (إيماوس)
التي صدت ذراها الثلجية قائد التتار الغازي !
وانظر إليه يترك موطنه الذي تندر فيه الفريسة
ويغادره طلبًا للحم الحملان أو صغار الماعز
مما يرعى مع القطعان فوق التلال ! إنه يطير نحو ينابيع
نهر (الجانكيز) أو نهر (الهيداسبيس) في الهند
ولكنه يحط في طريقه على السهول الجرداء
في (سريقانا) حيث يُسيِّر أهل الصين
عربانهم الخفيفة المصنوعة من البوص بقلوع تدفعها الريح !
فهكذا حط الشيطان على السهل المنبسط كصفحة البحر الذي
تهب عليه الريح فأخذ يصول ويجول وحده طلبًا لفريسته !
كان وحده حقًا إذ لم يكن مخلوق آخر في هذا المكان -
مخلوق من الأحياء أو من الجماد ! لم يكن بعد أي شيء !
ولكن حشدًا من الأشياء جاء من الأرض فيما بعد
راكبًا متن الهواء كأنه الأبخرة الطائرة !
حشد من شتى ألوان العرض الزائل والغرور
بعد أن أفعمت الخطيئة أعمال الإنسان بالغرور -
كل صنائع الغرور ، وكل من بنى على صنائع الغرور
آماله الكاذبة في المجد أو الشهرة الباقية
أو السعادة في الدنيا أو في الآخرة .
إن كل من ينالون ثوابهم في الأرض ويجنون ثمار
جهود الخرافة والحماس الأعمى
ولا يبغون سوى مديح الناس ، سوف يجدون هنا

جزاءهم الحق خواءً مثل أعمالهم .
إن كل ما صنعته يد الطبيعة فلم تتم صنعه
فخرج مجهضا ، أو وحشيا ، أو فظيع الخلقة
يذوب على الأرض ويسيل إلى هذا المكان ويظل
يروح ويغدو عبثا حتى يحين وقت انحلاله هنا
لا في القمر المجاور كما تصور البعض خطأ .
والأرجح أن سكان حقوله الفضية هم
القديسون الذين رُفعوا أو الأرواح الوسطى في المنزلة
بين الملائكة والجنس البشري .
أما هنا فمن نسل أبناء وبنات اقترنوا فساء اقترانهم !
جاء العماليق أولا من العالم القديم
يزهون بانتصاراتهم العديدة وذيوع صيتهم آنذاك .
ومن بعدهم جاء بناة (بابل) على سهول
(سنار) ، ولم تفارقهم أطماح الغرور
فلو كانت لديهم المقدرة لبنوا مدنا جديدة مثل (بابل) .
وغيرهم أتى وحده . فأما من كان ينشد
الربوبية فقد ألقى بنفسه حمقًا في سعير بركان (إتنا)
وهو (امباذوقليس) ، وأما من كان يريد التمتع
بالجنة التي وصفها (أفلاطون) فقد ألقى بنفسه في البحر ،
وهو (كليومبروتوس) - وغيرهم كثيرون ممن يطول ذكرهم
أَجِنَّةٌ وبلهاء ، ونساك وكهان ممن يرتدون المسوح
البيضاء والسوداء والرمادية وما يتزينون به من بهرج .
هنا يطوف الحجاج الذين قطعوا مسافات كبيرة بحثا

عمن مات على تل (جلجثة) وهو يحيا في السماء .
وأولئك الذين كانوا يريدون ضمان الفردوس
فارتدوا عند موتهم الملابس السوداء لطائفة (الدومينيك)
أو (الفرنسيسكان) ظانين بأنهم سوف يتخفون فيها فيدخلوا الجنة !
إنهم يمرون بالكواكب السبعة ، ثم يمرون بالفلك الثابت
ومن بعده الفلك البلوري ذي الميزان الذي يحدث التوازن
مع الاهتزاز في المحور ، ومن بعده أول الأفلاك حركة .
وترى القديس بطرس واقفا الآن عند باب الجنة الصغير كأنه
ينتظرهم وفي يده مفاتيحه ، وتراهم لدى سفح
درج الجنة يرفعون أقدامهم ثم ترى عجبًا !
إن ريحا عاصفة تهب قبالتهم من الساحلين معا
فتجرفهم مسافة عشرة آلاف فرسخ ثم تلوي بهم عاتية
في الهواء الشارد ! وعندها ترى من كل
عباءة وقلنسوة ، وترى المسوح ولابسيها وقد تلطمت
وتمزقت وتناثرت إرْبًا ! ثم ترى المسابح والبقايا المقدسة
وصكوك الغفران وتحلة الأيمان ، وصكوك العفو والمراسيم البابوية
في أيدي الريح تتقاذفها وتلهو بها ! وتصاعد كل هذه في دوامات الريح
فتطير فوق ظهر الكون على بعده الشاسع
إلى عالم النسيان الشاسع العريض ، والذي أصبح اسمه من ثم
فردوس الحمقى . ورغم ذيوعه
بعد ذلك بوقت طويل فلم يكن به الآن أحد ولم تكن تطؤه الأقدام
وقد رأى الشيطان هذا العالم المتكور المظلم وهو يمضي في رحلته
وكم طال به التجوال حتى لاح له أخيرًا شعاع

من النور المشرق فاجتذب إليه على الفور
خطواته الخبيرة بالترحال . ثم رأى على آخر مرمى الطرف
سلما يرتفع بدرج رائع
إلى أسوار السماء - بناء عال
بدت على قمته بوابة فاخرة باهرة
كأنها بوابة قصر ملكي
ذات مدخل مزدان بالماس والذهب
وقد رصع الباب بجواهر براقة متلألئة
فسطع ولمع حتى فاق ما شهدته الأرض من
نماذج ، أو ما صورته ريشة الرسام البارع .
كان السلم مثل الذي حلم به يعقوب ورأى
الملائكة يصعدون عليه وينزلون - جماعات
مشرقة من الحراس - عندما هرب من (عيسو)
إلى (فدان أرام) في حقل (لوز)
ورآه في منامه ليلاً ومن فوقه السماء دون غطاء
وحينما استيقظ صاح : هذه أبواب السماء
كان لكل درجة معنى وسر من الأسرار ! لم تكن تثبت
دائمًا في مكانها بل تقترب أحيانًا من الجنة
في الخفاء . وكان يتدفق من تحته بحر ساطع
من الياقوت أو اللؤلؤ السيال . وقد ركبه
القادمون من الأرض فيما بعد وأبحروا فيه حتى وصلوا
وقد حملتهم الملائكة ، أو طاروا فوق البحيرة
في عجلات تجرها الخيول النارية .

وقد تدلى السلم الآن واقتربت درجاته إما لإغواء
الشيطان بسهولة المطلع وإما لزيادة حزنه
لحرمانه من ولوج أبواب النعيم .
وقبالته انفتح من أسفل
في مكان يعلو مقعد النعيم في الفردوس
ممر يهبط إلى الأرض ، ممر واسع ،
أوسع كثيرًا مما شهدته العصور التالية
فوق جبل (صهيون) - على رحابته واتساعه -
وهو الذي يمتد فوق الأرض الموعودة المحببة إلى الرب
والذي سلكته ملائكته لتتنزّل على القبائل السعيدة،
بمقتضى الأوامر العليا، رائحة غادية
لا تتوانى عن الحركة، وعينه التي تنتقل بدقة
بين (بانياس) حيث ينبع نهر الأردن
و (بير سبع) حيث تخوم الأرض المقدسة
مع مصر وسواحل بلاد العرب .
كانت الفتحة تبدو شاسعة ، حيث أقيمت الحدود
مع عالم الظلام ، مثل الجسور التي تصد موج البحر .
ووقف إبليس هنا على أدنى درجات السلم
ذي الدرجات الذهبية التي تصعد به إلى باب السماء .
وقف يتأمل ما تحته في دهشة إذ لاح له فجأة
هذا العالم كله بصورته الكاملة ! كان يشبه كشافًا
سلك الدروب الظلماء والصحارى واجتاز أخطارها
طوال الليل ثم لاحت له أخيرًا بشائر الفجر الصبوح

وقد تسنم قمة بعض التلال السامقة
فأبصرت عينه على حين غرة
مشهدًا مزدانًا لبعض البلاد الأجنبية
لم يره من قبل ، أو لمدينة ذائعة الصيت
محلاة بالأبراج اللألاءة والقمم البراقة
التي تسطع عليها الشمس الآن فتكسوها بأشعتها الذهبية !
ومع أنه رأى السماء من قبل ، فقد تملكت الدهشة البالغة
ذلك الروح الشرير ، بل وتملكه من الحسد ما يفوق دهشته
لرؤية كل هذا العالم بديع الرواء .
إنه يستطلع ما حوله - وما أحراه أن يفعل - حيث يقف
عاليًا فوق القبة الكبرى المحيطة
بظلام الليل المديد ، فينقل عينيه من أقصى الشرق
حيث برج الميزان إلى ذلك النجم الناعم الذي يحمل
(أندروميدا) فيجتاز بها أمواج الأطلنطي
إلى ما وراء الأفق ، ثم من القطب إلى القطب
ليدرك عرض العالم ، ودون أدنى تمهل بعد ذلك
يلقي بنفسه هابطًا في أولى مناطق العالم
منقضًا في طيرانه ثم ينثني في يسر ويلتوي
خلال الهواء النقي الصقيل فيمر
بين نجوم لا يحصي عددها ، نجوم تسطع
على البعد . أما على القرب فتبدو عوالم أخرى
أو قل إنها كانت تبدو عوالم أخرى أو جزرًا سعيدة
- مثل حدائق (هسبيريا) التي ذاعت شهرتها من قديم

بحقولها الخصبة وخمائلها ووديانها المزهرة !
جزر ضوعفت سعادتها ثلاث مرات ، ولكن قاطنيها السعداء
لا يمكثون ليتساءلوا عنها ! ولقد فاق ضوء هذه النجوم جميعًا
نور الشمس الذهبية إذ سطعت بما يشبه بهاء الجنة
فشدت إليها بصره ، وإليها يمضي في طريقه
عبر السماء الساكنة . هل يصعد أم يهبط ؟
أفي مدار داخلي أم مدار خارجي ؟ (لا نستطيع القطع في هذا)
أم بحذاء خط الطول الكوني حيث الوهاج العظيم -
الذي ينأى عن الكويكبات المحتشدة المألوفة التي
تبقى هي الأخرى على المسافة بينها وبين عينه الملكية
وهو يرسل ضوءه من بعيد . أما هي فإنها تؤدي
رقصة النجوم في إيقاعات تحسب مواقيت
الأيام والشهور والسنين ، ونحو مصباحه الصبوح
تتجه بشتى حركاتها دون تفاوت ، أو قل إنها موجهة
بشعاعه المغناطيسي الذي يشيع الدفء الرفيق
في الكون ويتخلل أوصاله إلى أعماقها الدفينة
متسللا برفق - دون أن يرى -
مرسلا طاقته الخفية حتى في أعماق المحيط .
ما أحكم موقعه الوضاء وما أعجبه !
وهناك يهبط الشيطان . إنه يهبط على بقعه لم ير مثلها
الفلكي بين البقع التي تشين وجه الشمس الوضاء
وهو يتطلع إليها من منظاره الزجاجي المقرب .
وقد وجد أن وهج المكان يعجز عنه الوصف

إذا قورن بأي شيء على الأرض من المعدن أو الحجر !
لم يكن متجانس الأجزاء ولكنها كانت جميعًا تشع
ضوءًا باهرًا ، كأنها حديد توهج في النار .
فأما المعدن فيبدو بعضه من النضار وبعضه من اللجين الصافي
وأما الحجر فمعظمه من الزمرد أو الزبرجد
أو الياقوت أو الياقوت الأصفر وسائر الأحجار الاثني عشر
التي سطعت
على درع (هارون) . وكان ثم حجر آخر
تخيله الناس كثيرًا دون أن يروه في غير هذا المكان
إنه الحجر أو قل إنه يشبه الحجر الذي عبثًا ما طلبه
الفلاسفة وطويلا ما بحثوا عنه على الأرض هنا -
دون طائل رغم علومهم وقدرتهم على تقييد
الطيار (هيرميس) وفك قيود (بروتيوس) القديم واستحضاره
من البحر في شتى أشكاله
وتقطيره في الأمبيق حتى يعود صورته الأولى
وهل نعجب إذن إذا كانت الحقول والبقاع هنا
تخرج زفراتها أكسيرًا صافيًا وتجري الأنهار
بالذهب السائل إذا كانت لمسة مؤثرة واحدة
من الشمس رأس الكيمياء ، رغم بعدها الشاسع عنا ،
تختلط بمياه الأرض فتبدع
هنا في الظلمة كثيرًا من الأشياء الثمينة
بألوانها الرائعة وتأثيرها النادر ؟
لقد عثر الشيطان هنا على مواد لم يرها أحد من قبل ولكنه

لم ينبهر بها . لقد أحاطت عينه بالمشهد طولاً وعرضًا
إذ لا يقوم أمام البصر هنا حائل ولا يمتد ظل
بل يغشى ضوء الشمس كل شيء ، كأنها تسطع
في كبد السماء عند الظهر ، فأشعتها الآن مباشرة
تنطلق إلى أعلى دائمًا حيث لا تسقط
الظلال من أجسام مصمتة، وأما الهواء
فلا مثيل لنقائه هنا إذ وهب نور بصره حدة
فاستطاع أن يرى أبعد الأشياء عنه وسرعان
ما أبصر بوضوح ملاكًا باهرًا واقفًا
كان نفس الملاك الذي رآه (يوحنا) واقفًا في الشمس .
كان يدير ظهره إليه ، ولكن ذلك لم يخف بهاءه .
كانت أشعة الشمس الوضاءة قد صاغت تاجًا ذهبيًا .
يحيط برأسه . ولم تكن خصلاته أقل
بهاء وهي ملقاة خلف التاج على كتفيه المجنحتين
وقد تموج الشعر فيها . كان يبدو مكلفًا بمهمة عظيمة
أو مستغرقًا في تأملات عميقة .
ما أسعد الجنيّ الخبيث الآن ! لقد راوده الأمل في
أن يجد من يدله على الطريق في رحلته الجوالة
إلى الفردوس حيث يقعد الإنسان مقعد النعيم –
ختام ترحاله وبداية ترحنا !
ولكنه يحاول أولا أن يغير من صورته الحقيقية
وإلا جرت عليه الأخطار أو أدت إلى التأخير .
فإذا به يتحول إليصبي من ملائكة الشاروبيم

ليس في ربيع العمر ، ولكن وجهه
يضيء ببسمة شباب السماء ، ويضفي على أطرافه
الرشاقة المناسبة ! ما أمهره في التصنع والتخفي !
تحت تاجه الصغير كان شعره الدفاق
يتماوج في حلقات فوق خديه ، وكان يرتدي جناحين
من ريش زاهي الألوان مزركش بالذهب .
كان قد ارتدى ما يعينه على سرعة الحركة ويمسك
بعصا فضية تسبق خطواته الرزينة .
وقد أحس به وسمعه الملاك الوضاء عندما اقترب
بل قبل أن يقترب إذ أدار الملاك رأسه النورانية
وقد دلته أذنه عليه فأدرك إبليس على الفور أنه
الملاك الأكبر (أوريل) أحد السبعة الذين
يقفون في حضرة الرب ! إنهم أقرب الملائكة إلى العرش ،
فهم يقفون على استعداد لتلقي أوامره ، وهم عيونه
التي تفحص أقطار السموات جميعًا ! أما في أصقاع الأرض ،
فيقضون له المآرب بسرعة فوق الرطب واليابس ،
في البرّ والبحر . فاقترب منه إبليس وحدثه قائلاً :
(أوريل) ! إنك أحد الأرواح السبعة التي تقف
بمشهد عن عرش الرب العليّ باهر الإشراق
إنك أول مفسر لمشيئة الحق العظمى
وأول من يأتي بها من السموات العلى
حيث ينتظر شتى أبنائه انقضاء مهمتك
وأنت هنا بمقتضى المشيئة السامية أرجح من يحوز

مثل هذا الشرف - فأنت عينه المبصرة -
إذ تختلف كثيرًا إلى هذا الخلق الجديد المستدير !
وقد دفعتني رغبة جائحة إلى أن أرى وأطلع على
سائر بدائع الخالق الباهرة لا سيما الإنسان
مبعث سروره وموطن حبه فمن أجله
أمر بخلق هذه البدائع الباهرة جميعًا
وقد أتت بي هذه الرغبة إلى هنا تاركًا جوقة الشاروبيم
أصول وحدي وأجول . قل لي يا أبهى ملائكة الصاروفيم
في أي فلك من هذه الأفلاك المشرقة يحظى الإنسان
بمستقره ؟ أم عساه لا مستقر له ؟
يتنقل كيف يشاء بين هذه الأفلاك المشرقة جميعًا ؟
أجبني علّني أجده وأطلع عليه خلسة
فأعجب وأسر لمرأى
من أسبغ عليه الخالق العظيم هذه
العوالم ، ومن أغدق عليه كل هذه النعم .
حتى يكون آية من الآيات نتدبرها كما ينبغي
فنسبّح بحمد خالق الأكوان !
لقد ألقى بالحق بخصومه العاصين
في أعمق أعماق الجحيم ، وتعويضًا عن فقدانهم
خلق هذه السلالة البشرية الجديدة السعيدة
ليعبدوه خيرًا من أولئك : ما أحكم فعاله جميعًا !
هكذا تحدث المتصنع المتنكر فلم ينكشف أمره
إذ لا يستطيع بشر أو ملاك أن يتبين

النفاق ، فهو الشر الوحيد الذي يمشي
خافيًا - إلا على الرب وحده
في السماء والأرض - فبلذا تسمح مشيئته .
وكثيرًا ما ترى الحكمة يقظة والشك نائمًا
لدى بابها ، وتراها تسلس للسذاجة
قيادها ، وترى الخير لا يظن ظن السوء بشيء
إن لم يكن ظاهرًا باديًا . وهكذا انخدع الآن
(أوريل) - رغم أنه حاكم الشمس
وأحدُّ الأرواح بصرًا في السماء
ومن ثم التفت إلى الدعيّ المخادع الأثيم -
وبالخير المركب فيه أجابه قائلاً :
أيها الملاك الجميل ! إن رغبتك في معرفة
بدائع الرب ، حتى تسبّح بحمد
الخلاق العظيم ، لا تجاوز الحد
فتؤاخذ عليها ، بل إنها لأجدر بالثناء
إذا تجاوزت الحد ! ساقتك هذه الرغبة إلى هنا
وحيدًا من مقامك في السماء
لتشهد بعيني رأسك ما يقنع البعض
بسماع أخباره وحسب في السماء !
حقا ! ما أعجب بدائعه جميعا
إن في معرفتها متعة ، وهي جديرة
بأن تذكر جميعا فتجلب السرور دائمًا .
ولكن أنيّ للذهن المخلوق أن يحصي

عددها : أو يدرك الحكمة الأزلية
في خلقها وإخفاء أسبابها العميقة !
كنت أنظر عندما نطق بكلمته فإذا بكتلة الهيولة ،
وهي المادة التي تشكل منها هذا العالم ، قد تراصت !
وعندما سمع الاختلاط صوته توقف الصخب الوحشي
وخضع ، كما وُضعت الحدودُ للشاسع غير المحدود !
وعندما صدر أمره الثاني فر الظلام
وسطع النور ، وخرج النظام من الفوضى .
وأسرَعَتْ من ثَمّ إلى مواقعها المحددة
العناصرُ الثقيلة : التراب والماء والهواء والنار.
ثم ارتفع جوهر السماء الأثيري
إلى أعلى ، تحمله أشكال شتى
تدور في أفلاكها وتتحول إلى نجوم
لا يحصى عددها ، كما ترى وكما تشهد حركتها !
وقد تحدد لكل منها مكان ومسار
وأما باقي الأثير فهو الجدار المستدير الذي يحيط بهذا الكون .
انظر تحتك إلى تلك الكرة ! إن جانبها المواجه لنا
يعكس الضوء المشع من هنا فيضيء ويشرق !
ذلك المكان هو الأرض مقر الإنسان ، وذلك الضوء
هو نهار الإنسان ! ولولاه لكان مثل النصف الآخر للأرض
يغزوه الليل ! ولكن القمر هناك بجوارها
(فهذا هو اسم الكوكب الجميل المواجه لها) إنه يعينها
في الوقت المناسب ، ويواصل دوراته الشهرية

التي ما تنتهي حتى تبدأ من جديد في وسط السماء .
وهو يستعير الضوء لينير طلعته المثلثة.
من هنا فيمتلئ ويفرغه لينير الأرض
ويسلطان نوره الشاحب يكبح جماح الليل
والبقعة التي أشير إليها هي الفردوس
حيث يقيم آدم وتلك الظلال السامقة خميلته .
لن تضل طريقك إليه . أما أنا فطريقي يدعوني الآن .
وسكت واستدار فانحنى له إبليس وركع
فالعرف يقضي بالركوع للأرواح الرفيعة في السماء
حيث لا يتجاهل أحد مراتب الشرف والاحترام .
ثم ودعه إبليس وأسرع نحو تخوم الأرض من تحته
هابطًا في فلك البروج يدفعه النجاح المأمول !
وها هو يدور في الهواء عدة مرات في رحلته السحيقة
ولا يتوقف حتى يحط على قمة تل (نيفاطيس) .

الكتاب الرابع

الكتاب الرابع

الموضوع

إبليس الآن على مرأى من عدن ، على مقربة من البقعة التي سيحاول فيها تنفيذ عمله الجسور الذي اضطلع به وحده ضد الله والإنسان ، وهنا يقع نهبا لعديد من الشكوك ، وتنتابه مشاعر عديدة - مشاعر الخوف والحسد واليأس . ولكنه في النهاية يوطن النفس على الشر ويرحل إلى الفردوس وهنا يصف مظهرها وموقعها ثم يثب إليها متخطيا حدودها في صورة غراب الماء ، ويقبع فوق شجرة الحياة أعلى شجرة في الجنة كيما يشهد ما حوله . يتلو ذلك وصف الجنة حيث يرى إبليس آدم وحواء لأول مرة ويدهش إبليس لكمال صورتهما والنعيم الذي يقيمان فيه وقد عقد العزم على إخراجهما منه . ويسترق السمع إلى حديثهما ، فيدرك أنهما قد حرم عليهما أن يقربا شجرة المعرفة وإلا وقع بهما عقاب الموت . ومن ثم يعتزم أن يبني على هذا إغواءه لهما - أي أن يغويهما على العصيان . ثم يتركهما إبليس حينا حتى يزداد علما بهما بوسيلة أخرى .

وفي هذه الأثناء يهبط (أوريل) على شعاع من أشعة الشمس ليحذر جبريل - الذي كان يقوم على باب الفردوس - بأن روحا من الأرواح الشريرة قد هرب من الهوة ومر عند الظهيرة بموقعه وقد اتخذ صورة ملاك كريم في طريقه إلى الفردوس ، وأنه قد كشف أمره حين تأمل حركاته العنيفة في تحليقه . ويعد جبريل بأن يعثر عليه قبل انبلاج الصبح . الليل الآن يقترب ، ويتحادث آدم وحواء عن الذهاب إلى المخدع - ويلي ذلك وصف خميلتهما وصلاة المساء التي يؤديانها . وعندما يجمع جبريل كتائبه

من العسس الذين سيطوفون الفردوس ، ينتقي اثنين من الملائكة الأشداء للنظر في خميلة آدم حتى لا يصيب الروح الشرير آدم أو حواء بالأذى أثناء سباتهما . وهناك يجدان إبليس يوسوس في أذن حواء بحلم الغواية فيأتيان به رغما عنه إلى جبريل . وعندما يسائله جبريل يجيبه بازدراء قائلاً إنه يعد العدة للمقاومة، ولكن آية من السماء تمنعه فيطير خارجًا من الفردوس .

أين لي بصوت النذير الذي سمعه صاحب
الرؤيا يُدوّي دويًا في السماء
عندما هبط التنين ، بعد هزيمته الثانية ،
في سورة غضبه ليثأر من البشر –
"الويل لسكان الأرض!" ليتك تقولها الآن
وفي الوقت متسع لتنذر أبوينا الأولين
أن عدوهما الخفي قد أتاهما هاربا !
لقد فر بالمصادفة من فخ الهلاك ! فها هو
إبليس يهبط وقد استبدل بغضبته الجائحة الأولى
غواية تسبق الإدانة لبني البشر ،
فإذا بالإنسان البريء الضعيف يصبح موضع ثأره لهزيمته
في معركته الأولى وسقوطه في الجحيم .
ولكنه غير هانئ بإقدامه – رغم جسارته
وبعده وجرأته – وغير قادر على التباهي
وقد شرع في تنفيذ خطته الرهيبة . إن موعد ميلادها

يقترب حثيثا وقد باتت تفور وتمور في صدره الجياش
بيد أنها – شأن آلة الحرب الشيطانية – يرتد كيدها
إلى نحر صاحبها ! إن الفزع والشكوك تشتت
أفكاره المضطربة وفي أعماقه يستعر
جحيمه الباطن ، فلقد أتى بالجحيم في داخله
ومن حوله ، بل لا يستطيع أن يبتعد عن الجحيم
خطوة واحدة ، إلا بمقدار ابتعاده عن نفسه ،
مهما تغير المكان وتبدل ؛ إن الضمير يوقظ الآن اليأس
الذي كان نائما ، ويوقظ الذكرى المريرة –
ذكرى ما كان عليه ، وما أصبح ، وما لا بد أن يكون
أسوأ ، إذ لا يعقب شر الفعال إلا شر المعاناة .
تمتد عدن الآن أمام ناظريه
فاتنة خلابة ، فطورا يلقي عليها بصره الكاسف الحزين
وطورا يرمق السماء والشمس الوهاجة
التي اعتلت الآن برج الظهيرة الأشم .
ودارت به دورة التأملات ، فقال وقد غلبته الحسرات :
أنت أيتها المتوجة بفائق البهاء
لقد تجليت في السماء سلطانا أوحد وإلها
لهذا العالم الجديد ! إن طلعتك تخسف شتى النجوم
فتخفي رؤوسها المتضائلة ! إنني أناديك
بصوت لا يضمر الود ، ثم أذكر اسمك
أيتها الشمس ، لأقول لك كم أبغض أشعتك
التي تذكرني بالمكانة التي فقدتها

وهويت منها ، وبهائي الذي كان يفوق بهاءك
حتى قضت عليّ الكبرياء والطموح المزري ،
بعد الحرب في السماء ضد مليك السماء - وليس كمثله شيء !
ولماذا فعلتها ؟ لم يكن يستحق هذا الجزاء
مني بعد أن خلقني بالصورة التي كنت عليها
امتيازا وبهاءً ، وبعد أن أفاء عليّ خيرا
غير ممنون ، وما كانت عبادته شاقة عليّ .
كان أقل ما ينبغي هو أن أحمده
وما أيسره من جزاء ، وأن أقدم له الشكر
وما أكثر ما يستحقه ؛ ولكن الخير من جانبه بات شرّا في نفسي
وأنبت الحقد والضغينة . إن منزلتي الرفيعة جعلتني
أرفض الخضوع ، ظانا بأنني لو ارتقيت درجة أخرى
سأكون أرفع الجميع ! وهكذا - في لحظة واحدة - أسقطت
ديني الكبير له ، دين الامتنان بلا نهاية
فهو عبء ثقيل ما تفتأ تسدده وما تفتأ تدين به .
ونسيت أنني ما فتئت أتلقى فضله ،
ولم أدرك أن النفس حين تعترف بالفضل
وتدين به يسقط عنها الدين وتسدده معا ؛ فهي في آن واحد
مدينة به وبريئة منه : أين ذلك العبء إذن ؟
آه ! لو أن أقداره العاتية قد قضت
بأن أكون ملاكا أصغر شأنا ، إذن لرضيت
حينئذٍ وسعدت ، ولَمّا كان الأمل غير المحدود قد أثار
طموحي . ولم لا ؟ لربما راود الأمل أحد الجبابرة الآخرين

من أندادي ، فوجدتني رغم صغر شأني
أنضم إلى صفوفه . ولكن الجبابرة الآخرين من أندادي
لم يسقطوا بل ما زالوا على ثباتهم ، في الباطن
والظاهر ، وقد تحصنوا ضد كل إغراء وغواية .
أكان لك من الإرادة الحرة والقوة ما يكفل لك الثبات ؟
أجل ! ترى من تتهم إذن وأي شيء تتهم
إلا الحب الفياض الذي تغمر السماء به الجميع بالعدل ؟
اللعنة إذن على حبه ، فسواء كان حبًا أو كراهية ،
وهما لديّ صنوان ، فقد أذاقني الويل السرمدي !
لا بل اللعنة عليك يا نفسي ! إن إرادتك قد عصت إرادته
واختارت دون قسر مصيرها الذي تبكيه الآن بحق .
ما أتعسني ! أين أولي وجهي هربًا
أيها الغضب اللانهائي واليأس الذي لا ينتهي ؟
أينما وليت فثم جحيم : إن نفسي هي الجحيم .
إن في أدنى أغوار الهوة غورًا أدنى
ما يفتأ يتهدد بازدرادي فاغرًا فاه !
والجحيم التي أعانيها جنة إذا قورنت به .
الا فلأخفض جناحي إذن : ألم يعد ثم مجال
للتوبة ؟ ألم يعد ثم مجال الغفران ؟
بلى ! لم يعد ثم سبيل إلا الاستسلام
ولكن الإباء يحول بيني وبينه ، وخوفي من العار
بين الأرواح الدنيا ممن أغويتهم
بوعود أخرى ومفاخر أخرى فمنعتهم

من الاستسلام ، متباهيا بأنني أستطيع إخضاع
القهار . واهًا لي ! قليلاً ما يدركون
ما كلفني الالتزام بذلك التفاخر الأجوف
ومدى العذاب الذي يُصدر الأنّات في باطني !
فإذا بي ، وهُمْ يعبدونني هنا فوق عرش الجحيم،
وقد تبوأت التاج والصولجان فعلوت وسموت،
أزداد هبوطًا وسقوطًا فلا أتفوق إلا
في الشقاء ! هذا هو الهناء الذي حققه طموحي !
ولنفترض أنني استطعت التوبة واستعادة
مكانتي السابقة بالعفو والغفران منه ، لسرعان
ما توحي منزلتي الرفيعة بأفكار الرفعة وسرعان ما أتبرأ
مما أقسمت عليه عند تظاهري بالاستسلام ! إن الترف ليتنصل
من الأيمان التي حلفتها إبان العذاب فخرجت مغلّظة وباطلة !
أنّى للوفاق الحق أن ينمو إذا كانت
جراح البغضاء القاتلة قد بلغت هذه الأغوار ؟
إنها لتؤدي بي إلى انتكاسة أسوأ
وسقوط أشد ، فإذا بي أشتري
مهلة قصيرة غالية بآلام مضاعفة !
إن من يعاقبني يدرك هذا ولذلك فهيهات
أن يمنحني الصلح وهيهات أن أسأله منه !
لقد انتفى الأمل تماما ! وانظر ترَ مكاننا -
بعد أن نُبذنا ونُفينا - مصدر سعادته الجديد ! ذلك
الإنسان الذي خلق وخلق من أجله هذا العالم !

وداعًا أيها الأمل إذن ! وداعًا للخوف
وداعًا للندم ! لقد ضاع مني الخير جميعًا
الا فلتصبح أيها الشر خيرًا لي ، فبك - على الأقل -
سأتقاسم مُلك الكون مع ملك السماء
وبفضلك ربما حكمت أكثر من نصفه .
وقريبًا سيدرك الإنسان وهذا العالم الجديد صدق ما أقول !
وأثناء حديثه كانت المشاعر تظلم وجهه وتظلله
بظلال الشحوب الثلاثة - ظلال الغضب والحسد واليأس
فكدرت وجهه المستعار وأبانت
زيفه إذا كان ثم عيون تنظر !
فنفوس السماء لا تكدرها مثل هذه الأخلاط الدنيئة
وهي بريئة منها أبدًا . وسرعان ما أدرك هذا
فأسبغ على وجهه سمة هدوء ظاهرة أخفت كل اضطراب -
إنه مبتدع التحايل ، بل كان أول
من يمارس الضلال مستترًا بمظاهر القداسة
ليخفي حقده الدفين الذي يضمر الثأر
ولكنه لم يكن تدرب عليه بما يكفي لخداع
(أوريل) حين فطن إليه . لقد تابعته عينه وهو
يسلك سبيله ويحط على الجبل الأشوري
ورآه وهو يشوه ويتبدل بأكثر مما يقع
للأرواح الهانئة . ورمق وحشي حركاته
ورصد جنون فعاله حين ظن أنه وحده
وتصور أنه لا يُرى لأنه غير مراقب .

وهكذا استمر في طريقه حتى وصل إلى حدود
عدن ومن فوقها الفردوس ذات الملاذ
تقترب ، كأنها التاج بسياجها الأخضر
أو كأنها كثيب ريفي يتوج رأسًا عارية
من الآكام العالية في البرية . وعلى جانبيها تدلى الشعر
أدغالاً شعثاء ، غريبة وحشية
تحول دون وصول أحد . أما من فوقها فقد انتصبت
أشجار سامقة ظلالها شاهقة -
أشجار الأرز والصنوبر والسرو والنخل ذات الأفنان -
كأنما هي غابة من الغابات ! وأما الدرجات الصاعدة
ظلاً من بعد ظل فهي مسرح آجام
رائع المنظر . وفوق قممها جميعًا
قام سور الفردوس الأخضر
من حيث يستطيع والدنا الأكبر أن يحيط بأرجاء
مملكته الدنيا المجاورة لها
ومن فوق ذلك السور اصطفت دائرة
من أحسن الأشجار المحملة بأطيب الثمار .
كانت البراعم والثمار في آن واحد تكتسي لونًا ذهبيًا
تمتزج به ألوان زاهية نضرة .
ما أهنأ الشمس بإلقاء أشعتها عليها ! إنها لأهنأ بها
منها بسحب الغروب الجميلة أو قوس قزح
عندما يلقي الله بالأمطار على الأرض ! ما أبدع ما تجلى
ذاك المشهد ! لقد خرج من الهواء النقي هواء أنقى

ليلقاه قادمًا وينفث في قلبه
فرح الربيع ومرحه ويمحو منه
كل الأتراح - إلا اليأس ! والآن تهب النسائم العليلة
وترفرف بأجنحة أريجها فتنشر
عطور تلك البقعة ، وتبوح هامسة بمصدر
هذه الغنائم فواحة العبير ! أرأيت إلى الملاحين حين
يتخطون رأس الرجاء الصالح ثم يجتازون
موزمبيق ، إذ تهب على البحر رياح شمالية شرقية
فتحمل إليهم روائح أرض سبأ من الشواطئ العطرة
لبلاد العرب المباركة ! فإذا هم يسعدون بتأخرهم
ويبطئون من سيرهم وعلى مدى فراسخ عديدة
يسعد المحيط الهرم بذلك الشذا البهيج ويبتسم له !
فهكذا كانت هذه الروائح العطرة للشيطان متعة
أتى فأفسدها ، ولو أنه كان أسعد حظا بها
من سعادة (أزموديوس) بدخان الأسماك
الذي أبعده - رغم تولهه - عن عروس
ابن (طوبيت) ومن ثم انتقم منه وأُقصي
من (ميديا) إلى مصر حيث غُل في الأصفاد !
كان تسنم ذلك التل الشاق الشاهق
الغايةَ من رحلة إبليس ، بعد تلكئه وتأملاته .
لكنه لم يجد طريقًا يشقه عند تلك البقعة حيث يتشابك نبات الأرض
كأنه شجرة أشواك متصلة تتألف
من أعشاب ملتفة وشجيرات متداخلة تسد

السبل أمام البشر والحيوان ممن يمر عندها .
كان ثم باب واحد يطل على الشرق
في الجهة المقابلة . وعندما رآه المجرم الأكبر
استنكف أن يدخله من حيث ينبغي له ، وفي استعلائه
وثب في خفة وثبة عالية تخطت به حدود
التلال وسامق الأسوار حتى إذا كان بداخلها
هبط على قدميه . أرأيت إلى الذئب الذي يتشمَّم الفريسة
حين يدفعه الجوع إلى طلبها في أماكن صيد جديدة
كيف يترصد الرعاة وهم يُدخلون قطعانهم عند المساء
في الحظائر المسورة وسط الحقول آمنين مطمئنين
فيثب فوق السور في خفة إلى داخل الحظيرة ،
أو إلى اللص الذي عقد العزم على سرقة أموال
ثري بالمدينة - حيث أبوابه الثقيلة
الموصدة بالمزلاج وبالرتاج المحكم لا تخشى الدخيل -
كيف يتسلق إلى النافذة أو إلى السطح ثم يثب داخلا ؟
فهكذا تسلق هذا اللص - أول اللصوص وأكبرهم -
متسللا إلى حظيرة الله ،
وهكذا يفعل الأجراء الجهلة عندما يتسلقون ليدخلوا كنيسته !
ومن ثم طار وحط على شجرة الحياة
وهي الشجرة الوسطى وأعلى أشجار الفردوس .
وجثم مثل غراب الماء . ولكنه لم يستعِدْ الحياة الحقة
بهذا بل قبع يدبر الموت
للأحياء ! لم يتفكر في قوة

تلك الشجرة التي تهب الحياة بل اعتبرها مكانًا
يطل منه على ما حوله فحسب ! إنها الشجرة التي تَهِب
الخلود لمن ينتفع بها حق الانتفاع ! ما أقل ما تعرف الكائنات
(ولا يعرف إلا الله) كيف تقدر حق التقدير
الخير المبسوط لها ! إنها لتفسد أفضل الأشياء
بإساءة استخدامها أو باستخدامها لأحط الغايات !
واعترته الدهشة من جديد حين نظر إلى المكان من تحته !
لقد رأى ما يبعث البهجة كل البهجة في عيون البشر ! رأى
ثروة الطبيعة جمعاء وقد احتشدت في رقعة ضيقة ! بل قل
رأى السماء على الأرض ! كانت الجنة هي فردوس النعيم
الذي خلقه الله ، وقد غرسها في شرق
عدن . أما عدْنُ فتمتد حدودها
من (حوران) في الشرق إلى الأبراج الملكية
في (سلوشيا) العظيمة التي بناها ملوك اليونان
أو حيث كان أبناء عدن يعيشون في سالف الأزمان
في (تَلَسّار) . وفي هذه التربة الجميلة
قضى الله أن تكون جنته أجمل وأبهى
فمن التربة الخصبة جعل الأشجار تنمو -
أشرف الأشجار مظهرًا وعبيرًا ومذاقًا -
ووسطها جميعًا انتصبت شجرة الحياة
شاهقة بارزة تزدهي بثمار الخلد
نبتا من الذهب ! وإلى جوار الحياة
كان الموت ، حيث تنمو شجرة المعرفة قريبًا منها -

المعرفة بالخير التي تُشترى بثمن غال هو المعرفة بالشر !
وتجاه الجنوب عبر عدن كان يتدفق نهر كبير
لا يحول مجراه بل يخترق التل الأشعث
ويمر من تحته خلال الثرى . إذ إن الله قد ألقى
هذا الجبل في الأرض ليكون عماد جنته ورفعه عاليًا
فوق النهر الدفاق ! ومن خلال شرايين
التربة المسامية ترفع قوة الجذب الطبيعي ماءه الذي ينبجس
نبعًا عذبًا فيجري غدرانًا شتى
تروي الجنة . ومن ثم تجتمع هذه الغدران وتهبط
في الوادي السحيق لتلتقي بالنهر الذي يجري تحت الثرى ،
حيث يبرز الآن خارجا من مجراه المظلم ،
ويتفرع إلى أربعة جداول كبيرة
فيجري في كل اتجاه ويُعَرِّج على الكثير من ذائع البقاع
والبلدان مما لا حاجة بنا إلى تفصيل القول فيه
بل ينبغي أن نصف - إذا استطاع الفن أن يصف -
كيف كان نبع الياقوت الأزرق يصب في الغدران المتماوجة
التي تتدفق فوق اللآلئ اللامعة والرمال الذهبية
وتتلوى متعرجة تحت الظلال المدلاة
فتجري رحيقًا صافيًا إلى كل نبات وتحمل الغذاء إلى
زهور الفردوس الحقيقة به ، زهور لم يصنفها الفن الحاذق
في أحواض منمقة أو في عقد عجيبة مؤنقة بل أغدقتها الطبيعة المعطاء
وفاضت بها فيضًا على التلال والوديان والسهول

حيث سطعت شمس الصباح الدافئة أولا فغمرت
الحقول المنبسطة أو حيث امتدت الظلال الثقيلة
فأظلمت الخمائل عند الظهر ! هكذا كان ذلك المكان !
بقعة ريفية هنيئة ذات صور متعددة .
أدغال تبكي أشجارها الثمينة بأصماغ العطور والشفاء
وغيرها مما تبرق ثمارها ذهبا
وتتدلى خلابة كأن أساطير (هسبيريا) قد تحققت !
فإن كانت ، فهنا وحسب : إذ إنها كانت رائعة المذاق
وفيما بينها امتدت سهول الكلأ والمراعي المنبسطة ، والقطعان
التي تأكل العشب اللين وتجوس بينها ،
أو الكثبان التي تنمو فيها النخيل ، أو الزهور التي خرجت من
أحضان
بعض الوديان الريانة فنثرت بدائعها !
زهور من كل لون ، وورود دون أشواك !
وعلى الجانب الآخر مغارات وكهوف ظليلة
يبترد من يأوي إليها ! وعليها تلقي عرائش الكروم أرديتها الخضراء
وعناقيدها الأرجوانية ، وتتسلقها في رفق
وافرة النماء بينما كانت المسايل ذات الخرير تهوي
على جوانب التلال فتتفرق ، أو تأتي إلى بحيرة
تنمو على شطآنها مروج الآس والريحان ، كالتاج من حولها ،
صافية كأنها مرآة بلورية ، فتلتقي بمياه الجداول .
كانت الطيور تنشد أهازيجها بينما تهب نسائم الربيع
فواحة بعبير الحقول والأدغال ، لتضبط إيقاع

الأوراق المرتعشة ! وكان (بان) ملك الغابات
يضع يديه في أيدي الحسان الثلاث ويشتبك مع ربّات الفصول في رقصة
ترسم خطى الربيع الدائم ! لم يكن يشبهه شيء : لا الحقول الجميلة
في (إينا) حيث كانت (بروزربيني) تقطف الزهور
وهي نفسها زهرة أجمل ، حين انقض عليها (ديس) ذو الجهامة
فاقتطفها ، فتكبدت (كيريس) عناءً كبيرًا
في البحث عنها في أرجاء العالم ! لا ولا خميلة (دافني) البديعة
بجوار نهر (أورينتس) ونبعها الملهم -
نبع (كاستاليا) - يمكن أن يرقى إلى هذه الفردوس -
فردوس عدن ! لا بل ولا جزيرة (نايسا)
التي يحيط بها نهر (ترايتو ن) حيث كان (حام) الهرم
الذي يسميه الأميون (أمون) أو (جوف) الليبي -
يخفي عشيقته (أمالثيا) وابنها الصغير (باخوس) ذا الوجه المتورد
عن عين زوجة أبيه (ريا) .
لا ولا حيث يحمي ملوك الحبشة أبناءهم فوق
جبل (أمارا) - رغم ما يتصوره البعض من أن تلك هي
الفردوس الحقة الواقعة جنوب مدار (أثيوبيا)
عند منابع نهر النيل ، حيث تحيط بالجبل الصخور البراقة
وارتفاعه مسيرة يوم كامل ! إنه بعيد كل البعد
عن هذه الحديقة الأشورية التي يطل عليها الشيطان الآن !
لقد رأى الفرح فلم يفرح ، رأى جميع أنواع

المخلوقات الحية الغريبة الجديدة على العين ، ورأى
اثنين يمتازان عليها بكرم الخلق وانتصاب القامة والطول .
كانا ينتصبان كالآلهة الوثنية ؛ يكسوهما شرف المنبت
ويبدوان في جلالهما العاري رأس كل الكائنات .
وبدا فضلهما جليا إذ سطعت في طلعتهما القدسية
صورة خالقهما المجيد وأضاءت
بالحق والحكمة والقداسة الصارمة النقية !
كانت صارمة ولكن في إطار حرية البنوة الصادقة –
المصدر الحق لسلطان البشر ! ولكنهما لم يكونا
متساويين وكان الاختلاف بين الجنسين بيّنًا
إذ خلق هو للتفكير والإقدام
وخلقت هي للرقة والرشاقة العذبة الخلابة.
خلق هو لله وحده وخلقت هي لله من خلاله !
كانت جبهته العريضة المشرقة ونظرته إلى العلاء تنطقان
بالسيادة المطلقة . كانت خصلاته السوداء
تلتف في رجولة من مفرق شعره فوق الجبين
وتجتمع فلا تتعدى منكبيه العريضين .
أما هي فقد كان شعرها ينسدل مثل الخمار حتى وسطها النحيل
في جدائل عسجدية غير مزيّنة
وغير منتظمة ، ولكن أطرافها تتماوج في عقصات طليقة
كأنها عقصات عرائش الكرم ! كان معنى الخضوع يكمن فيه
ولكنه خضوع المتحكم الرقيق ،
فهي تقدمه إليه وهو يتقبله بقبول حسن ،

تقدمه بإذعان الحياء وتواضع الكبرياء
وعذب التمنع ودلال الأحبة .
وما كان يخفيان آنذاك أعضاءهما الغامضة
إذ لم يكن خجل الذنب قد ولد بعد ، وهو الخجل الكاذب
من بدائع الطبيعة - أواه أيها الشرف الكاذب
يا ربيب الخطيئة ! لكم كدرت البشرية جمعاء
وشغلتها بالمظهر - مظهر الطهر الكاذب -
وأقصيت من حياة الإنسان أهنأ حياة له - حياة
البساطة والبراءة النقية !
كانا يسيران عاريين ، ولم يتجنبا عيون
إله أو ملاك ، إذ لم يخطر الشر ببالهما
وسارا وقد تشابكت أيديهما فكانا أجمل اثنين
يلتقيان منذ ذلك الحين في أحضان الحب .
كان آدم أوسم الرجال الذين ولدوا من بعده فكانوا
أبناءه وكانت حواء أجمل بناتها .
وعلى الأرض الخضراء ، تحت بعض الأفنان الظليلة
التي تتمايل فتهمس همساتها الناعمة بجوار نبع عذب ،
جلسا يستريحان بعد عناء يوم قضياه
في العمل الهانئ بالحديقة ، زاد من
استمتاعهما بالنسائم الباردة ، وزاد من إحساسهما
بالراحة ، ومن لذة عطش الأصحاء وشهيتهم ،
فأخذا يتناولان عشاءهما من الفاكهة .
فاكهة ذات رحيق رباني تحملها الغصون الريانة

وتلقي بها إليهما بينما يسترخيان على
ربوة مكسوة بالزغب الناعم موشاة بالزهور !
كانا يأكلان لب الثمرة ثم ينتهيان إلى القشرة
فيملآنها بالماء من الجدول الرقراق لري ظمئهما !
كان حديثهما مهذبا وبسماتهما حلوة
وملاطفات الشباب ومداعباته تليق
بالجميلين اللذين ربط بينهما رباط الزواج السعيد
في وحدتهما . ومن حولهما تتواثب في مرح
كل دواب الأرض التي استوحشت بعد ذلك ، وسكنت كل مكان
في الغاب والبرية ، في الأجمة والعرين .
كان الأسد يلهو فينهض على مؤخرته وفي يده
يلعب الجدي ! وكانت الدببة والنمور والأوشاق والفهود
تتواثب أمامهما ! أما الفيل ثقيل الحركة
فيضحكهما باستخدام كل قوته ، وتكوين حلقة كاملة
من خرطومه الضخم اللين . وبالقرب منهما كان الثعبان الماكر
يشق طريقه وقد صنع من ذيله عقدة عويصة
ضفرها تضفيرًا ! كان يستعرض خبثه القاتل
ويمثل له فلا يلتفتان إليه ! أما سائر الحيوانات فعلى الكلأ
استلقت ، وبعد امتلاء بطونها بخير المرعى اتكأت تنظر
أو كانت تجتر طعامها قبيل الرقاد . فالشمس تميل الآن
وتسرع في فلكها المنحدر
نحو جزائر المحيط ، والنجوم في برج الميزان الصاعد
في السماء تشرق لتعلن قدوم المساء .

كان إبليس ما زال يرقب المشهد من موقعه الأول
وبعد أن خانه لسانه ساعة عاد إلى حديثه الحزين قائلاً :
ياللجحيم ! ماذا تبصر عيناي المكلومتان ؟ من ذا الذي
يشغل مكاننا في النعيم ؟ ما هذه المخلوقات السامية خلقًا
ذات الشكل الجديد ؟ ربما كانت وليدة الأرض
وليست أرواحا ، ولكنها ليست أدنى من أرواح السماء الوضاءة
إلا قليلاً ! إن فكري يتابعها
في عجب وربما أحببتها ، إذ ما أبدع ما تسطع
فيها الملامح القدسية ، وما أعظم الحسن الذي
أغدقته على صورها يد البارئ !
أيها الزوجان الرقيقان ! إنكما لا تدركان كم يقترب
موعد تحولكما ! إن هذه المسرات جميعًا
سوف تتلاشى وسوف تتحولان منها إلى الأحزان !
وكلما زاد ما تنهلانه الآن من الأفراح ، زاد نصيبكما من الأتراح !
إنكما سعيدان ، ولكن سعادتكما الغامرة غير مأمونة
ولن تستمر طويلا ! ومقعد الرفعة في جنتكما
يفتقر إلى الأسوار الخليقة بالجنة ، لتمنع العدو من دخولها !
لقد دخلها الآن عدوكما - لكنه لا يناصبكما أنتما العداء
فأنا أشفق عليكما في هذه البأساء
ولا يشفق عليّ أحد ! إنني أنشد الارتباط بكما
والود المتبادل - الود الحميم الوثيق .
ومن ثم فلابد أن أقيم معكما أو أن تقيما معي
منذ الآن . ربما لن يمتع منزلي حواسكما

مثلما تمتعها هذه الفردوس الجميلة ، ولكن
تقبلا ما صنع خالقكما : لقد وهبني إياه
وأنا أهبه لكما من طيب خاطر ! لسوف تنفرج الجحيم
لاستضافتكما ! لسوف تفتح أوسع أبوابها
وتوفد كل ملوكها لاستقبالكما ! ولسوف تتسع رقعتها
- على العكس من هذه الرقعة المحدودة - لاستقبال ذريتكما
التي لا تحصى ! فإذا كان منزلاً غير كريم
فالفضل لمن وضعني موضع الثأر الذي أبغضه - موضع
الثأر منكما دون أن تسيئا إليّ ، انتقامًا ممن أساء إليّ .
فإذا لان جانبي لبراءتكما وطهارتكما
وقد لان الآن حقا ، فإن الصالح العام يدعوني بالعدل -
كما يضطرني الشرف والملك الذي سيتسع بعد الانتقام
وفتح هذا العالم الجديد -
إلى فعل ما كنت لأبغضه لو اختلف الحال مع أنني ملعون !
هكذا فرغ الجني من حديثه ، وكان لابد أن يتخذ من
ذريعة كل طاغية ما يبرر به أعماله الشيطانية .
ثم طار من موقعه الشاهق على تلك الشجرة العالية
ليحط وسط القطيع اللاهي اللاعب
من ذوات الأربع وقد تحول إلى واحد منها - متخذًا
صورة هذا الحيوان أو ذاك بما يحقق هدفه ،
فيقترب لرؤية فريسته متخفيًا ،
ويرصد أحوالهما ويزداد معرفة بهما
إذا أفصحا عنها بالقول أو الفعل . وهكذا ظل يدور حولهما

طورًا في صورة أسد يتبهنس وقد برقت عيناهُ نارًا
وطورًا في صورة نمر وقعت عيناه مصادفة
في أطراف الغابة على غزالين رقيقين يلهوان
فأخفض رأسه فورًا إلى الأرض ، رافعًا إياها بين الفينة والفينة
في طِراده المتلصص كمن ينتقي أفضل بقعة
ينقض منها مسرعًا ليضمن افتراسهما معا
وقد أطبقت كل يد على واحد منهما . وعندما بدأ آدم أول الرجال
حديثه المشبوب إلى حواء أولى النساء
استحال إبليس أذنا صاغية ليستمع إلى كلامهما الجديد الدفاق :
شريكتي الوحيدة وأهنأ هذه الأفراح جميعا !
إنك لأقرب إلى نفسي منها . لابد أن تكون القوة
التي خلقتنا وخلقت لنا هذا العالم الرحيب
ذات خير غير محدود ، ولابد أنه واسع العطاء
كريم بخيره غير المحدود ،
إذ خلقنا من تراب وأنزلنا هذا المنزل ،
في هذا الهناء البالغ ، دون أن نستحق
أيا من هذا بل ولا نستطيع أن نفعل
شيئًا يحتاج إليه . إنه لا يطلب
منا شيئًا سوى أن ننصاع
لأمر واحد جِدّ يسير ! فمن بين هذه الأشجار
التي تحفل بها الفردوس وتحمل ما لذ وطاب من ثمار
مختلف ألوانها ، حرمت علينا شجرة واحدة
هي شجرة المعرفة التي غرست بجوار شجرة الحياة !

ما أقرب ما ينمو الموت إلى جوار الحياة - أيا كان ذلك
الموت
ولا شك أنه شيء رهيب - وتعلمين حق العلم أن
الله قد قضى بالموت على من يقرب تلك الشجرة .
وهذه هي آية طاعتنا الوحيدة
من بين شتى آيات السلطان والحكم التي
أنعم بها علينا ، والسيادة التي كرمنا بها
على سائر المخلوقات التي تنعم
بالأرض والهواء والماء . لا ينبغي أن نظن أن تحريم شيء واحد
أمر عسير ، فلدينا الحرية المطلقة
في التمتع بكل ما عداه ، ولنا أن نختار ما نشاء -
دون حدودٍ - من ضروب المتع المنوعة من حولنا .
دعينا إذن نسبح بحمده أبدًا ونشكره على
نعمائه ، بعد أن ننتهي من عملنا الممتع
فنشذب هذه النباتات التي طالت ، ونصفف هذه الأزهار ،
ولو كان عملاً شاقًا فهو يحلو لي إلى جوارك !
وأجابته حواء قائلة : أنت ! يا من خلقت له
ومنه ! إن لحمي من لحمك ،
ولا غاية لي من دونك ! أنت يا مرشدي
ورأسي ! إن ما نطقت به هو العدل والحق .
فنحن مدينان له حقا بالحمد كل الحمد
وبالشكر صباح مساء - وبخاصة أنا ! لقد فزت
بحظ أعظم وسعادة أكبر : لقد فزت بك

وأنت تفضلني بكثير ، بينما لن تجد لك
زوجا مثلي أنىّ طلبت !
كثيرًا ما أذكر ذلك اليوم إذ كنت نائمة
فاستيقظت أول مرة ، ووجدتني أرقد
في ظل بعض الزهور ، فتساءلت في عجب: أين أنا
ومن أنا ومن أين وكيف أتيت إلى هذه البقعة؟!
وغير بعيد كان صوت خرير - خرير
مياه انبجست من كهف ما فسالت
في بحيرة رقراقة ثم سكنت فصفت
كأنها مهاد السماء الرحيبة ! ومن ثم اتجهت إليها
بفكر غير الخبير واستلقيت
على الشاطئ الأخضر لأنظر في البحيرة الصافية
الملساء وقد بدت لعيني سماء أخرى !
وحين انحنيت لأنظر ظَهَرَتْ قبالتي
على صفحة الماء البراقة صورة
تنحني لتنظر إليّ ، فجفَلْتُ وابتَعَدْتُ ،
فجفلت الصورة وابتعدت ! ولكنني سُرِرْتُ لمرآها فعدت ،
وسُرّت هي لمرآي فعادت في نفس اللحظة لتبادلني النظرات -
نظرات الود والحب ! كان يمكن ألا أحوّل
عيني عنها إلى الآن ، وأن أذوي في غرور الوله بها ،
لولا أن حذرني صوت ما قائلاً : إن ما ترينه -
إن ما تشهدينه هناك أيتها المخلوقة الجميلة هو ذاتك
فهي تظهر معك وتختفي معك ! ولكن اتبعيني

فسآتي بك إلى حيث لا يعكس ظل
صورتك ولا أحضانك الناعمة ! إنه رجل
أنت صورته ! وسوف تستمتعين به
فيكون لك لا ينفصل عنك ! وسوف تحملين منه وتلدين
أعدادًا كثيرة ممن يشبهونك ومن ثم ستُسَمَّيْن
أم الجنس البشري . هل كان بطوقي ألا
أتبع ذلك الصوت فورًا فيهديني دون أن أرى صاحبه ؟
وسرت وراءه حتى رأيتك - كنت جميلاً حقًا وطويلاً
تحت شجرة الدُّلب - ولكنني رأيتك أقل جمالاً -
أقل نعومة رغم الفتنة ، وأقل ليونة رغم البشاشة ،
من تلك الصورة الملساء المنعكسة في الماء فأدرت ظهري إليك
ولكنك تبعتني وأنت تصيح بصوت عال : «عودي حواء الجميلة !
ممن تهربين ؟ أتهربين من رجل أنت
لحمه وعظامه ؟ لقد قدمت في سبيل خلقك -
بل اقتطعت من جانبي بجوار القلب -
حياة نابضة لأحظى بك إلى جانبي ! فأنت
منذ الآن سَكَني وأُنسي الذي لا ينفصل عني .
أريدك يا شطر نفسي وأطلبك حقا لي
يا نصفي الآخر !وعندها مددت يدك الرقيقة
فأمسكت يدي ، فأسلمت لك . ومنذ ذلك الحين رأيت
كيف يقل الجمال منزلة عن استواء الرجولة
وحكمتها - فهي وحدها حقا جميلة ».

وانتهت والدتنا الأولى من حديثها ، كانت نظراتها تنم
عن شغف بزوجها لا ملام عليه ،
وعن وداعة التسليم إليه ، حين مالت في نصف عناق
على والدنا الأول ، والتقى نصف صدرها الممتلئ
العاري بصدره تحت ستار الذهب السيال
من خصلاتها الطليقة المنسدلة . وتبسم هو سعيدًا
بجمالها ومفاتن استسلامها -
افتر ثغره وفاض قلبه بحب أعظم مثلما يبتسم (جوبيتر)
إلى (جونو) حين يبث الحياة في السحب التي
تنثر زهور الربيع ، وطبع على شفاه الأم
قبلات طاهرة . بينما استدار الشيطان
حسدا ونطقت عيناه بغيرة خبيثة
وهو يرمقهما شزرا ، فطفق يقول لنفسه :
لكم أبغض ما أرى ولكم يعذبني هذا المشهد ! إنهما
ينعمان بفردوس أحضانهما هنا
فيزيدان من هناء عدن ، ولسوف يتمتعان بما شاء الله لهما
من نعيم فوق النعيم ، بينما أُلقي بي أنا في الجحيم
حيث لا فرح ولا حب ، بل الرغبة الشرسة فحسب
وما هي بأهون صنوف العذاب
فهي لا ترتوي أبدا بآلام ويلاتنا العطشى !
ولكن ينبغي ألا أنسى ما ظفرت به من علم باحت به
أفواههما . يبدو أن مُلكهما لا يحيط بكل شيء ،
إذ تقف ثَمَّ شجرة قاتلة تسمى شجرة المعرفة

حرم عليهما أن يقرباها : أمعرفة محرمة ؟
هذا مثار ريبة ولا منطق فيه . لماذا يغبطهما خالقهما
أن يقرباها ؟ أيمكن أن يكون العلم خطيئة ؟
أيمكن أن يكون موتًا ؟ وهل يقبلان أن يستمر
جهلهما ؟ وهل هذه حال نعيمهما
وآية طاعتهما وإيمانهما ؟
يا له من أساس رائع يُبنى عليه
هلاكهما ! ومن ثم فسوف أثير أذهانهما
بالمزيد من الرغبة في المعرفة ، ورفض
الأوامر التي يمليها الحسد ، والتي ابتدعت بغية
الإبقاء على منزلتهما الخفيضة ، إذ إنهما بالعلم يرتفعان
إلى مصاف الأرباب . فإذا ما طمحا في ذلك
أكلا من الشجرة فماتا ! أو ليس الموت أرجح عاقبة ؟
ولكن ينبغي عليّ أوّلاً أن أجوس خلال هذه الجنة فأفحصها
فحصًا دقيقًا ولا أترك ركنًا دون أن أنظر فيه ! لقد كانت
مصادفةً حقا ولكن ربما حملتني المصادفةُ إلى حيث ألتقي
ببعض أرواح السماء الطوافة ، راقدًا بجوار نبع ما
أو في ظل الأشجار الظليل ، فأستقي منه
المزيد من المعرفة - فلتعيشا ما أتيح لكما من حياة
أيها الزوجان السعيدان ، ولتتمتعا - ريثما أعود -
بالمسرات القصيرة ، فلسوف تتبعها أحزان طويلة !
قال هذا واستدار بخطى الكبر والخيلاء
ولكن بحذر الماكر ! وبدأ تجواله

في الأدغال والبرية ، وفوق التلال والوديان .
وفي أقصى أطراف الأفق الغربي ، حيث تلتقي السماء
بالأرض والمحيط ، كانت الشمس الغاربة آنئذٍ قد بدأت
تهبط في تؤدة – وقد صوبت أشعتها مباشرة
على البوابة الشرقية للفردوس –
أشعة الغروب الحانية ! كانت البوابة صخرة
من المرمر ترتفع سامقة حتى السحب
بحيث تبدو من مسافات شاسعة ، وكان مطلعها ملتويا
يبدأ من الأرض وينتهي بمدخل واحد في أعلاه .
أما من حولها فصخور وعرة ، من المحال تسلقها
إذ يبرز بعضها فوق بعض حتى القمة .
وبين هذه الأعمدة الصخرية جلس جبريل
زعيم الملائكة الحراس – في انتظار الليل ،
وحوله دارت الألعاب البطولية بين
شباب السماء العزل من السلاح ، ولكن أسلحة السماء
من الدروع والخوذ والرماح كانت
معلقة عاليا بالقرب منهم وقد برقت بالماس والنضار .
وهنا أتى (أوريل) منزلقا عبر المساء
على شعاع من أشعة الشمس ، كأنه شهاب ثاقب يشق
السماء في ليلة من ليالي الخريف حين تغشى الأبخرة
الهواء ، لينذر الملاح ويرشده
من أي جهات إبرته الدوارة ستهب
الريح الرعناء . ومن ثم بدأ حديثه العاجل قائلاً :

جبريل ! كان من نصيبك - عندما ألقينا أقلامنا - أن تتولى
رعاية هذا المكان الهانئ ، وأن تسهر على حراسته
حتى لا يقربه شر أو يلجه شرير .
واليوم في أوج الهاجرة أتى إلى مقري
جنيّ يلهبه التعطش - فيما يبدو - لمعرفة
المزيد عن خلائق القهار ، وبخاصة عن الإنسان
آخر ما صوره البارئ ، ولقد تابعت خط سيره
المسرع اللاهث ، ورصدت حركاته في الهواء .
ولكن - عندما وصل إلى الجبل الواقع شمال عدن
حيث حط أول مرة - سرعان ما لاحظت أن طلعته
غريبة عن السماء إذ أظلمتها المشاعر الحطيطة
وظلت عيني ترقبه حتى اختفى تحت شجرة
فلم أعد أراه . أخشى أن يكون أحدُ أفراد العصبة العاصية
قد هرب من منفاه في الهوة ليثير
قلاقل جديدة . ولابد إذن أن تجده .
وأجابه المحارب المجنح قائلاً :
(أوريل) ! لا عجب إذا كان بصرك الحاد
قد أحاط بالقاصي والداني رغم وجودك في منتصف
قرص الشمس الوهاج ! ولكن هذه البوابة لا يمر منها -
وسط الحرس الساهر - إلا القادمون
من السماء والذين نعرفهم حق المعرفة . ومنذ انتصاف النهار
لم يأتنا مخلوق منها . أما إذا كان جنيًا من نوع آخر
تراوده أفكار الشر قد وثب فتخطى هذه الحدود الأرضية

عامدًا فمن العسير - كما تعرف - أن تحول
الحواجز المادية دون دخول الكيان الروحي
فإذا كان في نطاق هذا المكان لم يخرج منه
فلسوف أعرف من حدثتني عنه - أيا كانت الصورة
التي يتخفى بها - قبل انبلاج صبح الغد .
هكذا كان وعده . ومن ثم اتجه (أوريل) إلى مقر حراسته
عائدًا على الشعاع الوهاج . كان طرف الشعاع قد ارتفع
فحمله وانحدر به إلى الشمس التي كانت قد هبطت
أسفل جزر (الأزور) . ربما كان ذلك الجرم الساطع
قد دار بسرعة خارقة فوصل إلى حيث هو
في يوم واحد ، وربما كانت الأرض - وحركتها أبطأ -
قد دارت دورة أقصر نحو الشرق فخلفته هناك
ليزين بالأرجوان والذهب المنعكس
السحب التي تحيط بعرشه الغربي . وأيّا كان الأمر
فإن المساء قد حل ، وأخذ الغسق الأدكن
يكسو جميع الأشياء بأرديته القاتمة .
وفي صحبة الصمت انسل الحيوان والطير -
هذا إلى مخدعه فوق الكلأ وهذا إلى وكره ،
انسلوا جميعا ما عدا البلبل الساهر
فهو يغني طول الليل أهازيج الحب التي
يستمتع بها الصمت ! وتوهجت قبة السماء
بالياقوت الأزرق النابض بالحياة ! كان كوكب الزُّهَرَة يقود
زمرة النجوم ويبزها إشراقا وسطوعا - حتى ظهر القمر

صاعدًا في جلال تكلله السحب ، ورفع أخيرًا
لثامه - كأنه ملكة مُتَوّجَة - عن نوره الذي لا يبارى
فألقى على الظلام وشاحه الفضي
وهنا التفت آدم إلى حواء وقال : زوجتي الجميلة ! هذه ساعة
الليل ، وقد أوت جميع الأشياء الآن إلى الراحة والسكون
مما يدعونا إلى الراحة مثلها ! لقد قضى الله أن يكون
العمل والراحة مثل النهار والليل للإنسان
متعاقبين ، وها هو ندى النوم
يتساقط الآن بأثقال النعاس الناعمة فيثقل
أجفاننا . إن المخلوقات الأخرى قد قضت النهار كله
في التجوال الكسول بلا عمل ، وحاجتها إلى الراحة أقل.
أما الإنسان فقد قدر له نصيب من العمل الجسدي أو الذهني
كل يوم ، فهذا هو الذي يفصح عن كرامته
والعناية التي توليها السماء لكل فعاله ،
على حين تمرح الحيوانات الأخرى عاطلة
ولا يحسب الله لفعالها حسابًا
ولذلك فقبل أن ينبلج صبح الغد النضير ، فيلقي في الشرق
أول خيط من خيوط الضياء ، علينا أن ننهض
لنقوم بعملنا الممتع ، فنصلح
تلك الخمائل المُلْتفة من الزهور ، وتلك الممرات الخضراء
التي نمشي فيها عند الظهر ، إذ طالت فروعها فأمعنت في الطول
ساخرة من ضآلة رعايتنا فهي تتطلب
المزيد من الأيدي لتشذيب نمائها الوافر الطليق

وتلك البراعم أيضًا ، وقطع الصمغ المتساقط
فهي مبعثرة وغليظة تؤذي العين
ولابد من إزالتها حتى يستوي الطريق لنا
أما الآن فقد شاءت الطبيعة وأراد الليل لنا الراحة .

والتفتت إليه حواء وقد زانها الجمال الكامل وقالت :

منبع وجودي وصاحب شأني ! أيا كان ما تطلب
فسوف أطيعه دون جدال ، فبهذا يقضي الله
والله قانونك وأنت قانوني . وكفى بهذا
للمرأة معرفةً هانئةً وثناءً كبيرًا .
إنني حين أحادثك أنسى الزمن
أنسى آناء اليوم واختلافها فكلها سار ممتع
ما أطيب أنفاس الصباح وما أطيب إشراقه
على أنغام الطيور الباكرة ، وما أمتع الشمس
عندما تسطع على هذه الأرض الخلابة وتنشر
أشعتها المشرقة على الأعشاب والأشجار ، وعلى الفواكه والأزهار
التي يتلألأ الندى فوقها ! وكذا أريج الأرض الخصبة
بعد الأمطار الهادئة ! ما أطيب اقتراب
المساء الممتع الرطيب ، والليل الساكن
ببلبله الرزين وبدره الفاتن
وحاشيته من النجوم - تلك الجواهر في قبة السماء !
ولكن - لا أنفاس الصباح عندما يصعد
على أنغام الطيور الباكرة ، ولا الشمس التي تشرق
على هذه الأرض الخلابة ، ولا الأعشاب ولا الثمار والأزهار

التي يتلألأ فوقها الندى ، ولا الأريج الفواح بعد المطر ،
ولا المساء الممتع الرطيب ، ولا الليل الساكن
يبلبله الرزين ولا السير في ضوء القمر
أو في ضوء النجوم المتلألئة - يطيب لي بدونك
ولكن لماذا تسطع هذه الأجرام طول الليل ، ولمن خلق
هذا المشهد البديع ، إذا كان النوم قد أوصد كل العيون ؟
وأجابها جدنا الأول قائلاً :
يا ابنة الله والإنسان ! يا حواء الكاملة !
إن عليها أن تكمل دورتها حول الأرض
في مساء الغد ، فهي ترحل من بلد إلى بلد
بانتظام وتمر بأمم لم تولد بعد ،
فتلقي بأضوائها المقدورة عليها ، فهي تغرب وتشرق
كيلا تعود الظلمة الكاملة ليلاً فتستعيد
ملكها القديم ، وتطفىء نور الحياة
في الطبيعة والأشياء جميعًا . إن هذه النيران الخافتة
لا تضيئها فحسب بل تشع عليها قبسًا من حرارتها الطيبة
التي تتفاوت حدة وشدة ، فتدفئها وتذكيها
وتلطفها وتغذيها ! بل إن النجوم تبث أيضًا
دفئها في شتى ألوان نبات
الأرض فتجعلها أقدر على النمو
والاكتمال حين تسطع عليها أشعة الشمس الوهاجة .
هذه إذن - رغم أننا لا نراها في جنح الليل -

لا تسطع عبثا ! ولا تظني أنه لو تلاشى الإنسان فسوف
تفتقر السماء إلى الناظرين أو يفتقر الله إلى الحامدين !
إن الملايين من الكائنات الروحية تذرع الأرض
خفية ، في صحونا وسباتنا،
وكل يتأمل بدائعه فلايني يسبح بحمده
نهارًا وليلاً . كم من مرة تصاعدت الأصوات من أعماق
التلال ذات الأصداء ، أو من الأدغال فتتاهت إلى أسماعنا
أصوات سماوية تغشى هواء الليل البهيم
إما منفردة أو يتجاوب بعضها مع البعض
وهي تتغنى بعظمة الخالق . كثيرًا ما تنشد في جماعات
أثناء حراستها الساهرة أو أثناء طوافها بالليل
على أنغام آلات السماء
وقد اشتركت في العزف المتوافق المحكم ، فكانت أغانيها
تفصل بين نوبات الليل وترقى بأفكارنا إلى السماء !
وهكذا سارا يتحادثان وحيدين وقد تشابكت أيديهما
نحو خميلة النعيم . كان ذلك هو المكان الذي
اختاره لهما المليك الذي أنبت الجنة وسخّر
جميع الأشياء ويسّرها . كان سقفها
سترا سميكا منسوجا من أغصان
الغار والآس وغيرهما من الأشجار العالية
بأوراقها الثابتة ذات الأريج . وعلى كل جانب كانت
أشجار السنط وغيرها من الشجيرات الكثة العطرة
تشتبك لتدعم الجدران الخضراء . كانت كل زهرة

– من السوسن بألوانه والورود والياسمين –
ترفع رأسها عاليا بين الأغصان ، وقد تفتحت وانتظمت في
وشي بديع
مُنَمّم كالفسيفساء . كانت الأرضية مطعّمةً بزهور البنفسج .
والزعفران والياسنت ! زهور كثيفة
تطرزها بألوان أكثر من ألوان أثمن الألواح
المطعمة بالأحجار الكريمة . لم تكن المخلوقات الأخرى
– من الحيوان والطيور والديدان – تجرؤ على الدخول هنا
فهي جميعًا تخشى الإنسان وتهابه ! أما الخميلة الظليلة
الأكثر قداسة وعزلة – ولو أن هذا من نسج الخيال –
فما بات فيها أبدا (بان) أو (سيلفانوس) ، وما سكنتها الحوريات
أو غشيها (فاونوس) ! في هذا المخدع الخفي
نَثَرت الزهورَ والأكاليلَ والأعشابَ العطرةَ
يدُ الزوجة حواء – لتزين فراش عرسها أول مرة !
كانت جماعات منشدي السماء تغني أغنية الزفاف
يوم أتى ملاك الزواج إلى والدنا
بحواء مزدانة بجمالها العاري ، بل أكثر زينة
وأشد فتنة من (باندورا) ! كانت الآلهة
قد أغدقت عليها كل عطاياها ، وما أشبهها بحواء
في العاقبة التي انتهت إليها ! لقد جاء بها (هيرميس) إلى
الابن الأرعن الذي أنجبه (يافث) فخلبت لب
البشر بجمالها الفتان ، وحقق هو الثأر
ممن سرق النار الأصيلة من (جوف) !

وعندما وصلا إلى بيتهما الظليل وقفا
ثم التفتا ، وتحت قبة السماء الطليقة شرعا في صلاة
لله الذي خلق السماوات والأرض والهواء والجنة
التي كانا يشهدانها ، والقمر ذا الوجه الوضاء
والقطب ذا النجوم - قائلين : لقد خلقت الليل
أيها الخلاق الجبار ، وخلقت النهار ،
ولقد نهضنا فيه بالعمل المقدر لنا
فأنجزناه هانئين بتعاوننا
وبالحب فيما بيننا ، تاج النعيم الذي
قدرته لنا ! وخلقت هذا المكان الممتع كبيرًا شاسعًا -
بل أكبر مما نحتاج إليه . إن وفرة رزقك تطلب
من يشاركنا إياه والثمر لا يقطف فيسقط على الأرض .
ولكنك وعدتنا أن ننجب ذرية
نعمر بها الأرض ، ذرية صالحة تسبّح معنا
بخيرك غير المحدود ، حين نصحو
وحين نرجو نعمة النوم - ونحن نرجوها الآن !
وبعد أن قالاها معا ، مكتفيين بهذه الصلاة الطاهرة
- وهي الأحب إلى الله - عن الطقوس الأخرى
دلفا إلى أعمق أركان الخميلة
بأيد متشابكة . لم يكن عليهما أن يخلعا
ملابس التخفي المتعبة التي نرتديها اليوم
فاستلقيا على الفور جنبا إلى جنب ، ولم يَحُلْ آدم (في تصوري)
عن زوجته الفاتنة ، كما لم تمتنع حواء عن

شعائر الحب الغامضة بين الأزواج .
فليتشدق المنافقون بما شاء لهم من صارمِ القول
عن النقاء وقداسة الأمكنة والبراءة
وليتهموا بالدنس ما فصّل الله فيه القول فهو
طاهر أمر به البعض وشرعه حرّا للجميع .
إن خالقنا يأمر بالتكاثر ، وهل يأمر بالكف
إلا من يبغي هلاكنا - عدو الله وعدو الإنسان ؟
مرحى بالحب بين الأزواج ، أيها القانون الغامض والمصدر الحق
لذرية الإنسان وحق الملكية الفرد
في الفردوس وشتى ما فيها مشاع !
الفضل لك في إقصاء شهوة الزنا عن الإنسان
وإطلاقها بين صنوف الحيوان ! بل لقد أقمت لأول مرة
على أساس العقل والإخلاص والعدل والطهر
تلك المشاعر والعلائق المحببة التي تربط
الآباء والأبناء والأخوة
هيهات أن أزعم أنك خطيئة أو أن أصمك بالعار
أو بأنك غير جدير بأقدس الأماكن ،
أو بأنك لست المنبع الدائم لمسرات البيت ،
أو أنكر أن فراشك بعيد عن الدنس وطاهر كل الطهر
كما فعل القديسون والبطارقة - في الماضي والحاضر !
هنا يطلق ملاك الحب سهامه الذهبية ، وهنا يوقد
مصباحه الدائم ، ويرفرف بأجنحته الأرجوانية .
إنه ليسود هنا ويمرح ، لا في البسمات المبتاعة

من العاهرات ، العاطلة من الحب والفرح والمودة
ذات الثمار العابرة العارضة ! ولا في غراميات أهل البلاط
والرقصات المشتركة ، والحفلات التنكرية الماجنة أو حفلات
الليل الراقصة
أو الأغاني التي ينشدها المحب المحروم
للجميلة المتعالية ، ويا حبذا لو تعالى فهجرها !
أما آدم وحواء فقد رقدا متعانقين وناما على أنغام البلابل
وعلى أطرافهما العارية كان السقف الموشى بالزهور
ينثر الورود التي ينبت الصباح غيرها . فلتنعما بالنوم
أيها الزوجان المباركان ، ليتكما لا تطلبان هناء أكبر
فتبلغان ذروة الهناء ، وليتكما تعلمان حكمة الاكتفاء بما تعلمان !
كان الليل قد رسم بظله المخروطيّ خطا يمتد
إلى منتصف قبة السماء الشاسعة تحت فلك القمر
وانطلقت ملائكة الشاروبيم من بوابتها العاجية
في الساعة المعتادة فوقفت شاكية السلاح
لتبدأ نوبة الحراسة وقد اصطفت صفوف الحرب
عندما قال جبريل لمن يليه في السلطان :
«(عُزّيئيل) ! قُد نصف هذه الأجناد وطف بها عبر الجنوب
في حراسة لا تغفل ! وأما النصف الآخر فسأطوف به المنطقة الشمالية
بحيث تلتقي دائرتنا في الغرب !»ومن ثم انطلقت الكتائب كأنها الشرر -
دار نصفها في اتجاه محمل الدرع والآخر في اتجاه محمل الرمح !
ثم دعا جبريل اثنين من الأرواح القوية الماكرة في فرقته
وكانا يقفان بالقرب منه ، فبين لهما عملهما قائلاً :

يا (إيثوريل) ويا (صِفُون) ! طيرا على جناح السرعة
ففتشا هذه الجنة تفتيشا ، لا تهملا ركنا منها
وبخاصة الركن الذي يسكنه ذانك المخلوقان الجميلان
وربما قد أويا الآن إلى النوم لا يتوجسان أذى .
لقد جاءني هذا المساء من عند مهبط الشمس
من يخبرني أنه قد رأى جِنّيًا من أهل الجحيم
يتجه صوبنا (وهل كان ذلك ليدور بخلد أحد ؟) هاربًا
من قضبان جهنم ، ليقضي مأرب سوء لا شك !
فحيثما وجدتماه فاقبضا عليه وائتياني به .
قال هذا ثم انطلق يقود صفوفه الوضاءة التي
بهرت بصر القمر ! أما هذان فقد اتجها مباشرة إلى الخميلة
يجدّان في أثره ! وهناك وجداه
قابعا مثل ضفدع قريبًا من أذن حواء .
كان يستخدم فنونه الشيطانية للنفاذ إلى
ملكات خيالها حتى إذا ما سيطر عليها استطاع أن يصوغ
ما يريده لها من تصورات وخيالات وأحلام !
أو إذا بث فيها سمومه استطاع أن يصبغ
أبخرة النفس التي تتصاعد من دمها النقي
مثل الأنفاس اللطيفة من الأنهار الصافية ، ومن ثم تثير
على الأقل أفكارًا شائهة ، أفكار سخط واستياء
وآمال غرور حمقاء ، وأماني باطلة وشهوات جائحة
تضخمها الأوهام الكبرى فتنجب الكبرياء !
كان إبليس يُضْمر هذا حين مد (إيثوريل) رمحه

فمسه مسا رفيقا ! كان زيفه عاجزًا عن احتمال
لمسة رمح السماء ، فعاد على الفور
ورغما عنه إلى صورته الأولى ! هب وانتفض
إذ فوجئ فانفضح ! أرأيت إلى الشرارة حين
تسقط على كومة من البارود بعد
إعداده لملء البراميل في مخازن الذخيرة
استعدادًا لحرب محتملة الوقوع ، وإلى الحبات السوداء كيف
تلتهب فجأة وتنفجر فتشعل الهواء من حولها ؟
فهكذا هب الشيطان فزعا في صورته الحقيقية .
وتراجع الملاكان الجميلان في شبه دهشة
إذ فاجأتهما رؤية الملك البشع
ولكن الخوف لم يساورهما فتقدما منه على الفور قائلين :
«أي الأرواح العاصية المحكوم عليها بالجحيم
أنت ؟ ولماذا هربت من سجنك وحولت صورتك
فقبعت تتربص تربص الأعداء
ساهرا هنا عند رأس هذين النائمين ؟»..
«ألا تعرفاني ؟» - قالها إبليس وقد أفعمه الازدراء -
«ألا تعرفان من أنا ؟ كنتما تعرفان ذات يوم أنني لست من أندادكما
إذ كنت أتربع حيث لا تجرؤان على التحليق !
إن جهلكما بي يقطع بأنكما مجهولان بل بأنكما
أدنى أفراد رهطكما ! أما إذا كنتما تعرفاني
فلماذا تسألاني ؟ ولقد بدأتما عبثا
هذه البعثة ، ومثلما بدأت ستنتهي - عبثا !».

ورد (صِفون) ازدراءه بازدراء قائلاً :
لا تظنن أيها الجنّي العاصي أن صورتك لم تتغير
أو أن بهاءك لم ينتقص بحيث نعرفك
مثلما كنت تقف في السماء صالحًا طاهرًا !
إن بهاءك القديم قد ولى بعد أن تحولت عن الخير
ورحل عنك فأصبحت الآن صورة
لخطيئتك ومقر مقامك المدلهم الدنس .
هيا بنا إذن فلسوف يحاسبك ولا شك
من أرسلنا ، فهو مكلف بحماية
هذا المكان من الدخلاء وحماية هذين من الأذى .
وصمت ملاك الشاروبيم . كان تقريعه الصارم
القاسي يفيض بجمال الشباب فيضفي عليه رونقًا
خلابًا ! وشعر الشيطان بالخجل
وأحس مهابة الخير ، ورأى
الفضيلة مصورة بجمالها الفائق ! رآها فبكى
ضياعه ، وآلمه خاصة أن لاحظ الملاكان
أن بريق إهابه قد خبا ، ومع ذلك فقد بدا
غير هياب . فقال : إذا تحتم النزال
فالأصلب لا يبارز إلاّ الأصلب ، وإذن ألاقي المُرْسِلَ لا الرسول
أو ألاقيهم جميعًا ! فإما أن أحظى بالمزيد من المجد
أو أفقد أقل القليل . وأجابه (صِفون) الجسور قائلاً : إن خوفك
سيعفينا من العناء فأقلنا شأنا يستطيع
وحده أن يهزمك ، فلقد خبثت فضعفت !

لم يجب الشيطان . كان يميز من الغضب
ولكنه مضى معهما في صلف كأنه جواد شامخ ملجم
يعض على شكيمته الحديدية . أما المقاومة والهرب
فقد رآهما عبثا ، إذ إن الرعب الذي أُلقي من عل
في قلبه قد أخار عزمه وإلا ما فزع وما جزع . واقترب الجميع
من نقطة اللقاء في الغرب بين صفوف الحرس التي دارت نصف دائرة
ثم انضم بعضها إلى بعض فرقة موحدة وقفت
تنتظر أوامرها الجديدة . واتجه رئيسها
جبريل إليها من الجبهة وناداها عاليا :
أيها الأصدقاء ! إنني أسمع وقع أقدام تخف إلينا
معجلة ، وأستطيع الآن أن ألمح طيف
(إيثوريل) و (صِفون) وسط الظلمة
ومعهما شخص ثالث ذو هيئة ملكية
ذَوَى بهاؤها وانطفأ . ولكن مشيته
وحركته العنيفة توحيان بأنه أمير الجحيم
والأرجح ألا يرحل دون نزال !
اثبتوا في أماكنكم فقد أَرْبَدَ التحدي طلعته !
ولم يكد ينتهي حتى وصل الملاكان
فأوجزا له خبر من أتيا به وأين عثرا عليه
وما كان يفعله وكيف ، وفي أي صورة كان يقبع !
وحدجه جبريل بنظرات صارمة قائلاً :
لماذا تخطيت يا إبليس الحدود التي فرضتها عليك
خطاياك فأقلقت عمل

غيرك ممن لا يقبلون الخطيئة
ولا يحذون حذوك ؟ إن لديهم السلطة ولهم الحق
في محاسبتك على تجاسرك بالدخول إلى هذا المكان !
يبدو أنك تريد إقلاق منام النائمين
ومن أسكنهما الله هنا في هذا النعيم ؟
وأجابه إبليس وقد علا جبينه الازدراء قائلاً :
جبريل ! لقد ذاعت حكمتك في السماء
بل إنني رأيت فيك الحكمة ! ولكن السؤال الذي طرحته الآن
يثير شكوكي ! هل من الأحياء من يهوى الألم ؟
ومن ذا الذي لا يهرب من الجحيم إذا واتته الفرصة
ولو كان محكومًا عليه بها ؟ إنك لتفعل ذلك أنت نفسك
فتنطلق جسورًا إلى أي بقعة
تنجيك من العذاب الأليم ، حيث الأمل في استبدال
اليسر بالعسر ، وتعويض
الشقاء بالهناء ، وهذا ما أطلبه في هذا المكان !
لن ترى هذا سببًا ، فأنت لا تعرف إلا الخير
ولم تجرب الشر أبدًا ، وهل تعترض على
إرادة الخالق الذي سجننا ؟ ألم يكن يستطيع إحكام القضبان
والأبواب الحديدية لو كان يريد لنا البقاء
في ذلك القعر المظلم ؟ كفى بذلك إجابة على سؤالك
أما باقي القول فقد صَدَّقاه : لقد عثرا عليّ حيث يقولان
ولكن هذا لا يعني إحداث الأذى أو الضرر .
قال هذا في ازدراء وسكت. وتلفت الملاك المحارب

فالقى عليه نظرة أنفة شبه باسمة وأجاب :
لقد فقدت السماء من يميز لنا الحكمة من الحمق
منذ أن سقط إبليس وانقلب لحمقه !
والآن يعيده الحمق إلينا هاربًا من سجنه
وقد ثارت شكوكه في حكمة
من يسألونه كيف يتجاسر بالقدوم إلى هنا
دون وجه حق ، تاركًا السجن الذي أقصي إليه في الجحيم .
بل يقول إن الحكمة كل الحكمة أن ينجو من العذاب
كيفما استطاع ويفلت من العقاب .
فلتحكم بما شئت أيها الوقح حتى يحل بك غضب الله
الذي استحققته بهروبك ، فيضاعف عقاب هربك
سبعة أضعاف ، ويعيد بالسياط حكمتك إلى الجحيم !
إنك لم تتعلم فيها خيرًا من هذا ، وهو أن الألم مهما زاد
فهيهات أن يوازي غضب السرمدي إذا أُغضب !
ولكن لماذا أتيت وحدك ؟ لماذا لم تنطلق
في أثرك الجحيم بأسرها ؟ هل آلامهم
أقل إيلامًا من ألمك فلا تقتضي منهم هربا ؟ أم لعلك
أقل منهم جلدًا وأقل صبرًا على الألم ؟ أيها القائد الشجاع
يا أول من هرب من الألم ! لو كنت أفصحت
لرهطك الذي هجرته عن سبب هروبك الذي ذكرته
ما كنت أتيت إلى هنا وحيدًا طريدًا !
وتجهم وجه الشيطان وأجاب في صرامة :
لست أقل جلدًا ولا أجفل من الألم أبدًا

أيها الملاك الجائر ! تعرف حق المعرفة أنني احتملت
أشد ضرباتك عندما استعنت في المعمعة
بالرعد العاصف القاصف الذي هب على عجل
لمساندة رمحك ، ولولاه ما أفزع الرمح ولا أرعب !
إن الكلام الذي تلقيه على عواهنه
ينبئ عن جهلك بواجب القائد المخلص
الذي خاض معارك ضارية لقي فيها الهزيمة !
إن عليه ألا يخاطر فيلقي بالجميع
في لجج الأخطار التي لم يركبها هو !
ومن ثم فقد أخذت على عاتقي وحدي
أن أعبر تلك الهوة الموحشة طائرًا لأستطلع
هذا العالم الذي خلق حديثًا ، والذي تحدثت
عنه الشائعات في الجحيم ! جئت آملا أن أجد
مقاما أفضل ، وأن تجد قواتي المنبوذة
مستقرا لها - إما على الأرض أو في الهواء !
ولو أن مرماي يقتضي التصدي ثانية
لما تقف أنت وفصائلك الجميلة دونه :
إن عملها يسير وهو عبادة ربها
في السموات العلى ، والتغني بتسابيح الحمد لعرشه
والرقص رقصات الخشوع بدلاً من الحرب .

وسرعان ما رد الملاك المحارب قائلاً :

إن القول الذي يتبعه الإنكار - الادعاء أولاً
بحكمة تفادي الألم ، ثم التظاهر بمحاولة الاستطلاع -

لا يفصح عن قائد بل عن كذاب أشر !
بل إنك أضفت إليهما «الإخلاص» يا إبليس ! يا لها من كلمة –
كلمة «الإخلاص» المقدسة التي دنستها !
الإخلاص لمن ؟ لأتباعك من العصاة ؟
جيش الشياطين ؟ يا لك من جسد يستحق هذا الرأس !
أكان انضباطكم وإخلاصكم
وطاعتكم الحربية يقتضي التحلل من
ولائكم للقوي الأعظم الذي لا جدال عليه ؟
وأنت أيها المرائي الماكر ! تريد أن تبدو الآن
نصيرًا للحرية ؟ ألم تكن أسبق الجميع
تزلفًا وخشوعًا وخضوعًا في عبادة
ملك السماء المهيب ؟ ألم تكن تفعل ذلك أملاً
في أن تعزله لتقعد مقعد الحكم ؟
أصغ إلى نصحي هذا : ارحل من هنا
وعد إلى حيث كنت . فإذا ظهرت بعد هذه الساعة
داخل حدود هذه المنطقة المقدسة
فسوف أجرجرك مغلولا في الأصفاد إلى هوة الجحيم
وأوثقك فلا تستطيع فكاكا ، فلا تسخر بعدها
من يسر أبواب الجحيم وخفة قضبانها !
كان هذا ما توعد به ، ولكن إبليس لم يحفل
بالوعيد ، بل استشاط غضبًا وأجاب :
لا تتحدث عن الأصفاد إلا بعد أن تأسرني
يا ملاك الحدود المتغطرس ولكن تهيأ قبل ذلك

لاحتمال أثقال أشد
من يدي الغالبة – مع أن ملك السماء
يركب أجنحتك ، ومع أنك وأقرانك
اعتدتم أثقالَ تَيره وجر عرباته الظافرة
التي تذرع طريق السماء المعبد بالنجوم .
وأثناء حديثه كان فيلق الملائكة الوضاءة
قد اكتسى حمرة النار ، وانتظمت صفوفه على شكل هلال
التف حول إبليس وأطبق عليه من كل جانب ،
وقد قبضت الأيدي على الرماح ! كانت أعدادهم كثيفة
مثل حقل حنطة استوى على سوقه ، وتمايلت رؤوس
سنابله الكثة مع الريح أينما هبت ،
بينما وقف الفلاح القلق يتأملها وهو يخشى
أن تخرج له حزم المحصول المأمول عند الدرس
تِبْنًا لا بُرًا ! وأمامهم كان إبليس قد ثارت ثورته
فاستجمع كل جبروته وتضخم فبدا من الرواسي
التي لا تتزحزح – مثل جبل (تنريف) أو جبل (أطلس) !
كان يبلغ السماء طولاً ، وعلى ناصيته
يقبع الرعب مزهوًا ، وكان يحمل في قبضته شيئًا
بدا كالرمح والدرع معًا ! كان يمكن أن تقع الآن
فعال رهيبة ، فتندثر الفردوس
في تلك الفتنة ، بل وربما قبة النجوم
في السماء الدنيا ، وجميع العناصر
أو تختل وتنخلع على الأقل

من عنف ذلك النزال ، لولا أن شاء
السرمدي أن يحول دون هذا الالتحام المفزع
فرفع ميزانه الذهبي في السماء ، وهو الذي ما زلنا نراه
بين برج العذراء وبرج العقرب
حيث يزن أولاً كل الخلائق !
كانت الأرض المستديرة المتأرجحة هي الكفة الأولى ، وكان الهواء هو
الكفة الثانية ! هذا هو الميزان الذي يزن الآن كل الأحداث
والمعارك والبلدان ! وَوُضع في الكفتين ثقلان
هذا عاقبة الانفضاض وهذا عاقبة الالتحام !
وسرعان ما ارتفعت الكفة الأخيرة واصطدمت بعمود الميزان !
وحينما رأى جبريل ذلك خاطب الشيطان قائلاً :
إبليس ! أعرف قوتك مثلما تعرف قوتي
فقد وهبناها وليست منا ! ما أحمق
التباهي بقوة الأيدي طالما لن تفعل يدك ،
أو تفعل يدي أكثر مما تسمح به السماء ! لقد تضاعفت قوتي الآن
حتى أنني لأطؤك وطء الطين ! وإذا شئت البرهان فانظر
واقرأ قدرك في تلك الآية البينة في السماء !
لقد خفت موازينك وتجلى ضعفك واندحارك
إذا قاومت ! ونظر الشيطان فتبين
أن كفته قد خفت فارتفعت وقضي الأمر ! ومن ثم ولّى
وهو يتمتم وولّت معه ظلال الليل .

الكتاب الخامس

الكتاب الخامس

الموضوع

يقترب الصباح - حواء تقص على آدم حلمها المزعج - يستاء منه ولكنه يطمئنها - يخرجان للبدء في عمل اليوم - صلاة الصبح عند باب الخميلة . يريد الله ألا يكون للإنسان أعذار فيرسل روفائيل لإنذاره بعدم العصيان ، وتذكيره بأنه حر الإرادة ، وبأن ثمة عدوّا له قد اقترب . ويخبره من يكون، ولماذا كان له هذا العدو ، وشتى ما ينتفع آدم بمعرفته . ويهبط روفائيل إلى الفردوس - وصف مظهره - يعلم آدم بقدومه ويراه من بعيد جالسًا على باب خميلته ، فيخرج لمقابلته ويأتي به إلى منزله ويقدم له أشهى ثمار في الفردوس قطفتها له حواء - حديثهما على المائدة . يؤدي روفائيل رسالته، ويذكر آدم بحاله وحال عدوه ، ويقص عليه - استجابة لطلبه - حقيقة هذا العدو وكيف أصبح كذلك ، بادئًا منذ تمرده الأول في السماء وملابساته ، وكيف قاد كتائبه من ورائه حتى أصقاع الشمال ، حيث حفزهم على التمرد معه ، وكيف يقتنع الجميع فيما عدا (عبديئيل) وهو من ملائكة الصاروفيم - إذ إنه يختلف معه ويعارضه ويناهضه ، ثم يولى عنه .

الآن يخطو الصباح خطاه الوردية في الأفق الشرقي
مقبلا وقد نثر على الأرض حبات اللؤلؤ البراقة
فاستيقظ آدم كعادته كل يوم . كان ينام نومًا
رقيقًا كالهوا ، يأتي به هضم الطعام النقي
وأبخرته اللطيفة الخفيفة ، التي يكفي لتبديدها حفيف
الأوراق وزفيف أبخرة الجداول ، مروحة (أورورا) ،
وأغاني الصباح الرخيمة التي تنشدها
الطيور على كل غصن وفنن . ومن ثم اشتدت
دهشته حين رأى حواء غارقة في سباتها
وقد تهدلت خصلاتها واختلطت ، وتورد خداها
كأنما شاب رقادها ما عكره . كان يستلقي على جانبه
فنهض قليلاً متكئًا على مرفقه وتعلقت نظراته الوالهة
بحبيبته ، وتملى جمالها
الذي كان في يقظتها ومنامها
يشع مفاتن لا مثيل لها . ثم مستها يده برفق
وقال لها بصوت هامس
مثل همسات النسيم إلى الأزهار : قومي
يا أجمل الأشياء ! يا زوجتي وضالتي المنشودة !
يا آخر ما أنعمت به السماء عليّ وفرحي المتجدد على مر الزمان !
قومي فقد أشرق الصبح ، والحقول النضرة
تدعونا ! هيا ندرك البكور ! هيا لنرى كيف أزهرت
النباتات التي نرعاها ، وبساتين البرتقال العبقة ،
وأصماغ شجر المر ، وأعواد البلسم القائمة ، هيا لنرى

كيف تضع الطبيعة ألوانها ، والنحل وهو
يحط على البراعم ليرتشف الرحيق الحلو .
واستيقظت حواء على هذه الهمسات ، ولكنها ألقت نظرة فزع
على آدم واحتضنته وقال :
يا من تجد أفكاري سكنها فيه وحده
منك جمالي وبك اكتمالي ! ما أسعدني برؤية
وجهك وعودة الصباح - فلقد قضيت البارحة
ليلة ما شهدت مثلها من قبل ، إذ رأيت في المنام
(إن كان مناما) ما لم أعتده في الأحلام ! لم أرك
ولم أر ما عملناه بالأمس ، ولا ما انتويناه في الغد ،
بل رأيت من المعاصي والأكدار ما لم يخطر ببالي
ولا عرفته قبل تلك الليلة الليلاء ! خلت أن ثمة من يقف
قريبا من أذني ويدعوني لاتباعه بصوت
ذي نبرات رقيقة ظننته صوتك ! قال لي :
انفضي عنك سباتك يا حواء فهذا وقت المتعة ! هذا وقت
الابتراد والسكون ! إلا حيث يستسلم الصمت
للبلبل غريد الليل ، فهو يصحو الآن
لينشد أعذب ألحان غرامه ! الآن يبسط
البدر المنير سلطانه ، ويرسل سناه الساطع ،
ويلقي ظلاله التي تبرز وجوه الأشياء ! فإذا لم يبصرها أحد
ذهب كل ذلك سدى ! لقد صحت السماء وشخصت بعيونها ،
ومن عساها ترى سواك يَا مُنيةَ الطبيعة ؟
يا من تسعد بمرآك كل الأشياء ! يا من تسلبين لُبَّها

وتبهرينها بجمالك فلا تحيل بصرها عنك !
وصحوت مثلما أصحو على ندائك ولكنك لم تكن بجواري
فانطلقت أبحث عنك
خلت أنني أسير وحدي في طرق
انتهت بي فجأة إلى شجرة
المعرفة المحرمة ! بدت لعيني جميلة
وبدت لخيالي أجمل مما هي عليه بالنهار !
وبينا أنا أنظر في عجب ، لمحت كائنا يقف بجوارها -
كائنًا مجنحًا يشبه في صورته الكائنات التي كثيرًا
ما رأيناها من السماء . كانت خصلاته الندية تقطر
عطرًا، وكان يتطلع مثلي إلى تلك الشجرة
وخاطبها قائلاً : أيتها الشجرة الجميلة المثقلة بالثمر !
ألن يتعطف أحد فيخفف عنك أثقالك ويتذوق حلاوتك ؟
ألن يفعل ذلك إنس ولا جان ؟ أتزدري المعرفةُ إلى هذا الحد ؟
ترى أي حسد وأي تحريم يمنعني من تذوقها ؟
فليمنع ما شاء له ! لن يصدني أحد بعد الآن
عن الخير المبسوط لي ! وإلا فلماذا قامت الشجرة هنا ؟
قالها ولم يتمهل إذ مد يدًا جريئة
فقطف الثمرة وتذوقها بينما حل بي الرعب البارد اللاذع لسماع
تلك الكلمات الجسورة وما أكدها من عمل جسور .
أما هو فقد بلغ به السرور مبلغه فقال : أيتها الثمرة القلسية !
حلوة في ذاتك وأحلى بعد أن قطفت !
لقد حُرِّمت هنا - فيما يبدو - لأنك فاكهة

الأرباب وحلمهم وقادرة على رفع البشر إلى مصافهم
ولم لا يصبح البشر أربابًا إذا كان الخير
يزداد بازدياد من يتلقاه
ولا يضار صاحبه بل يزداد شرفًا ،
تفضلي يا حواء ! أيتها المخلوقة الهانئة ! أيتها الملاك الجميل !
شاركيني الثمرة ، فأنت وإن كنت الآن هانئة
فستصبحين أهنأ وأسعد ! ولا أجدر منك بها !
تذوقي هذه الثمرة حتى تصبحي بين الأرباب
ربةً أنت نفسك ، لا تَحُدُّك الأرض
بل أحيانا تُصَعِّدين في الهواء مثلنا ، وأحيانًا
تصعدين في السماء ، لامتيازك وسموك ، فترين
نوع الحياة التي يعيشها الأرباب هناك ، وتعيشين مثلهم .
قال هذا واقترب ، وقدم إليّ -
بل كاد أن يضع في فمي - بعض تلك الثمرة
التي اقتطفها . وفاحت رائحتها الطيبة الممتعة
فأثارت شهيتي حتى خلت أنني
لابد أن أذوقها . وعلى الفور طرت إلى السحاب
في صحبته وأبصرت من تحتي
الأرض الرحيبة المنبسطة والمشهد العريض
المُنَوّع ! وتعجبت من تحليقي وارتقائي
هذا الارتفاع السامق ، وفجأة
اختفى الدليل من جانبي وخلت أنني هبطت
فغلبني النعاس ، ولكن ما أسعدني إذ صحوت

فعرفت أنه كان حلما وحسب – وهكذا فرغت حواء من
رواية منامها ، فأجابها صوت آدم جادا متئدا :
يا صورة ذاتي المثلى ، ونصفي الأقرب إلى قلبي !
إن ما كدر أفكارك الليلة البارحة في منامك
يكدرني نفس الكدر ! ولا أظنني أميل إلى
ذلك الحلم الغريب ، وأخشى أن يكون وليد الشر .
ولكن من أين يأتي الشر ؟ لا يمكن أن يجد فيك مقاما
وقد خلقت طاهرة نقية . اعلمي أن في النفس
ملكات دنيا كثيرة تتخذ
العقل رئيسًا ومن بينها الخيال
الذي يليه في المنزلة . والخيال يتناول الأشياء الظاهرة
التي تقدمها لنا حواسنا الخمس اليقظة
فيصوغ منها تصورات وأشكالا أثيرية
يربط بينها العقل أو يفصل ، فإذا نحن
نقبل هذا أو نرفضه ونثبت ذاك أو ننكره ! وهذا ما نسميه
المعرفة أو الرأي . ثم يتراجع ليرقد
في غرفته الخاصة عندما تخلد الطبيعة إلى الراحة .
وكثيرا ما يستيقظ في غيبته خيال كاذب
ليحاكيه ، ولكنه يفسد العلائق بين الصور
إذ كثيرًا ما يُخرج أضغاث أشكال نراها غالبا في أحلامنا –
أقوال وأفعال متنافرة من أصداء الأمس البعيد أو القريب .
وإخال أن ثمة ملامح شبه بين
حلمك هذا وبين ما قلناه في حديثنا مساء الأمس

مع زيادات غريبة فيه . ولكن لا تحزني !
قد يخطر الشر على قلب ملاك أو إنسان
ويمضي وهو له كاره منكر ، ثم لا يخلف وراءه
شائبة ولا يشين صاحبه . وهكذا فإنني آمل أن يكون
الحلم الذي كان مقيتا إلى نفسك في المنام
مقيتا إلى نفسك في اليقظة فلا تفعلي منه شيئا .
لا تهني ولا تحزني إذن ، ولينقشع الغمام وليشرق وجهك ،
وليسطع بنوره ، فهو أبهى من
أولى بسمات الصبح الجميل للكون !
هيا ننهض بأعمال هذا اليوم الجديد
بين البساتين والينابيع والأزاهير
التي شرعت تميط اللثام عن أعبق عبير لها
اختزنته من الليل في صدرها فأبقته لك مكنونا !
وهكذا شرح صدر عروسه الجميلة فانشرح صدرها
ولكنها ذرفت عبرة رقيقة صامتة
من كل عين جففتها بشعرها !
وتأهبت قطرتان ثمينتان أخريان ، وقفت كل منهما
في نافذتها البلورية ، ولكن آدم جففهما قبل أن تسقطا
بقبلاته ! كانتا آيتين كريمتين على الندم الرقيق
ورهبة التقوى ، فقد خشيت حواء أن تكون قد أذنبت !
وهكذا صفا الجو فأسرعا إلى الحقول
خارجين من خميلتهما ، من تحت سقفها ظليل الأغصان ،
ولكنهما توقفا عند بابها حين شاهدا

انبلاج الصبح ، والشمس التي لم تكد تشرق
تَحوّم بعجلاتها على حافة المحيط
وترسل أشعتها الندية المتوازية إلى الأرض
فتكشف عن مشهد عريض مديد - عن شرق
الفردوس ووديان عدن الهنيئة !
ركع آدم وحواء في خشوع لله ، ومن ثم شرعا
في صلاتهما التي يؤديانها كل صباح - كما ينبغي -
بشعائرها المنوعة . كانا يحافظان على هذه الشعائر
وقد عمرت قلوبهما المشاعر القدسية الفياضة وهما يحمدان
خالقهما بترانيم جليلة يتغنيان بها أو يلقيانها
دون إعداد ! ما أعظم البلاغة الحاضرة التي
تدفقت من شفاههما ، نثرًا أو شعرًا منغومًا
يغتني بألحانه عن العود والقيثار
ويكتفي بحلاوته وطلاوته . وهكذا شرعا يقولان :
هذه بديع صنائعك يارب الخير !
أيها العلي القدير ! لقد خلقت هيكل هذا الكون
جميلاً بديعًا فما أقدرك وأبدعك !
يا من يجل عن الوصف ! يا من تستوي على عرش السموات
لا تدركك الأبصار ! إننا لا نشهد منك إلا
هذه الصنائع الدنيا ، ولكنها تفصح عن
خيرك الذي يُعجز الأفهام وسمو قدرتك !
حدثونا يا خير العارفين ، يا أبناء النور ،
أيها الملائكة ! فأنتم تبصرونه وتنشدون الأغاني معًا

والأناشيد المتوافقة في نهار دائم لا يغشاه الليل .
إنكم تحيطون بعرشه مهللين مكبرين في السماء
وتشارككم على الأرض شتى المخلوقات التي تسبّح له
فهو الأول والآخر وهو ما بينهما وهو الأبد !
يا أجمل نجم في السماء وآخر حاشية الليل الراحلة
ليت أنك لا تنتمي إلى الفجر - ذلك
الوعد الحق بطلوع النهار - يا من تتوج الصبح البسام
بهالتك الوضاءة ! سبّح بحمد الله في فلكك
أثناء طلوع النهار ، ساعة البكور الرقيقة .
وأنت أيتها الشمس ، عين هذا الكون العظيم وروحه !
سبّحي للأعظم الأعلى وتغني بحمده
في فلكك السرمدي ، حين ترتقين السماء
وحين تسطعين في سمت الهاجرة وحين تميلين للغروب .
وأنت أيها القمر ! أحيانا تلتقي بشمس الشرق ، وأحيانًا تَسْبَحُ
مع النجوم الثابتة في فلك يَسْبح !
أيتها الكواكب الخمسة السيارة ، يا من تؤدين
رقصات سحرية ذات ألحان ! رددي ترانيم
الحمد له فهو الذي أخرج النور من الظلمات .
أيها الهواء ! أيتها العناصر الأربعة ! يا أول من وُلد
فخرج من رحم الطبيعة ! يا من تدورين في
حلقة أزلية متعددة الأشكال وتختلطين
فتغذين جميع الأشياء ! فلتصوغي من صورك المتغيرة
مدائح ماتفتأ تتجدد لخالقنا العظيم !

وأنت يا سحائب الضباب - يا أنفاس الزفير المتصاعدة
من التلال والبحيرات التي تغشاها الأبخرة - دكناء أو شهباء -
حتى تزخرف الشمس بالذهب حواشيك الناعمة الزغباء !
ارتفعي تكريما لرب هذا الكون العظيم
فزيني بالمزن سماءه الصافية
أو ازوِ الأرض العطشى بهاطل الأمطار !
قدمي في صعودك وهبوطك آيات الثناء !
سبحي بحمده أيتها الرياح التي تهب من أقطار الكون الأربعة
جهرا أو دون الجهر ! وأنت يا أشجار الصنوبر ! إخْنِ رؤوسك
مع شتى ألوان النبات ، وهزي بجذوعك رهبة وخشيةً !
أيتها الينابيع ! أيتها الجداول التي ينساب خريرها
ألحانا هامسة ! أنشدي أغاريد حمده !
ولتجتمع أصواتك أيتها الأرواح الحية ، أيتها الطيور
التي ترقى بأغانيها إلى أبواب السماء !
احملي على أجنحتك وفي نغماتك آيات الثناء عليه !
أنت يا من تسبح في الماء ، وأنت يا من يمشي على
الأرض ! أنت يا من يخطو شامخا وأنت يا من يزحف على بطنه !
اشهدوا أنني وإن صَمَتُّ فقد علمت أغنياتي صباح مساء
للتلال والوديان ، والينابيع وناضر الظلال !
أنطقتها بأغنياتي ولقنتها تسابيح الحمد لله !
اللهم يا مالك الأكوان ، فلتفض نعماؤك دومًا
فلا ترزقنا إلا الخير ! وإذا كان الليل
قد لملم في ثناياه بعض الشر أو أخفاه

فبدّده مثلما يبدّدُ النورُ الآن دياجير الظلام !
هكذا فرغا من صلاتهما الطاهرة ، فعاد إلى قلوبهما
الاطمئنان الراسخ والصفو القديم !
وعلى الفور نهضا لأداء عمل الصباح في المزارع
بين الأنداء الرقيقة والزهور ، حيثما اصطفت
أشجار الفاكهة فاكتظت أغصانها واشتبكت ، ثم طالت فأمعنت
في الطول وثقلت ترفا ! كانت ترجو أن تمتد الأيدي لتحد
من عناقها العقيم ! أو أنهما أهرعا ليعينا أفنان الكرمة
على الاقتران بشجر الدردار ! أعاناها فاقترنت به وطوقته
بأذرعها الناضجة ، حاملة معها مهرها -
عناقيدها التي سيتبناها ليزين بها
أوراقه العقيمة . وبينما انكبا على العمل رآهما
ملك السماء الأعلى فأشفق عليهما واستدعى
روفائيل ، ملك الإيلاف والألفة ، الذي تعطف فقبل
أن يرحل مع (طوبيا) وضمن له
الزواج من المرأة التي تزوجت سبع مرات
قال له إنك تسمع يا روفائيل ما يجري على الأرض
لقد فر إبليس من الجحيم عبر هوة الظلمات
وظهر في الفردوس ! وتعلم كيف كدّر صفو
آدم وحواء ليلة البارحة ! وتعلم كيف يدبر
لإسقاط البشرية جمعاء من خلالهما !
إذن فاذهب إليهما واقض معهما نصف نهار
حدِّث آدم حديث الصديق للصديق ، في خميلة أو في ظل الأشجار

حيثما وجدته يحتمي من وقدة الهاجرة
أو يستريح من عمل يومه إما بتناول الغذاء
وإما بالاسترخاء ! وأدِرْ دَفّة الحديث
حتى تطلعه على هناء حاله -
هناء سلطانه إذ تركت إرادته حرة !
لقد ترك لإرادته الحرة حقًا ، ولكنها على حريتها
تتحول وتتقلب ! ومن ثم أَنْذره أن يحذر
أن يحيد عن الجادة من فرط الثقة ! وأَطْلعه أيضًا
على الخطر المتربص به ، على مصدره ، وعلى عدوه
الذي أُخرج - لفعاله - أخيرًا من جنة السماء ، فشرع يدبر المكائد
لإخراج الآخرين من جنات نعيمهم مثله -
ليس بالقوة ، فقهرها جِدُّ يسير ،
ولكن بالخداع والأباطيل ! أطلعه على هذا
حتى لا يقع في الخطأ بإرادته فيتذرع بأنه
قد فوجئ إذ لم يحذّره محذّر ولم يأته نذير !
هكذا تحدث الأب السرمدي فأوفى
العدل حقه . ولم يلبث الملاك المجنح
- بعد أن تلقى هذا التكليف - أن هب من بين
آلاف ملائكة السماء الوضاءة ، حيث كان يقف
محتجبًا وراء أجنحته الرائعة ، وانطلق في خفة
طائرًا وسط السماء ! أما فرق الملائكة المنشدين
فقد مال بعضهم يمنة ومال بعضهم يسرة ليفسحوا له الطريق !
وهكذا قطع طريق المجرة مسرعًا حتى أشرف على باب الجنة .

وانفتح الباب من تلقاء نفسه على مصراعيه –
مصراعين من الذهب ! هكذا كانت قدرة الباب
كما وضعه المهندس الأعظم بقوته الربانية
لم تعق إبصاره سحابة من السحب
أو نجم من النجوم بل رأى الأرض صغيرة على البعد
مثل الأفلاك الوضاءة الأخرى ! رأى
الأرض وجنة الله تكللها أشجار الأرز
فوق التلال . مثلما يتطلع منظار
(جاليليو) ليلاً فيرصد دون يقين
ما يتخيله من أراض وأصقاع على سطح القمر
أو مثلما يلمح ربان سفينة في أرخبيل (كيكلاديس)
جزيرة (ديلوس) أو (ساموس) عندما تلوح لأول مرة فيتخيلها
سحابة عابرة ! كان يهبط في طيرانه إليها
مسرعًا ، مارقًا في السماء الأثيرية الشاسعة
مبحرًا بين العوالم العديدة ! تارة تهدأ خفقات جناحه
على متن الرياح القطبية ، وتارة يسرع خفقها
وهي تذرو الهواء الجميل ، حتى غدا يحلق حيث
تحوم العقبان ، فبدا للطيور
عنقاء تبهر أبصارها . كانت الطائر الوحيد
الذي أراد أن يحفظ رفاته في معبد الشمس
الوضاء فطار قاصدًا طيبة في أرض مصر .
وحط فورًا على الصخرة الشرقية عند باب الفردوس
واستعاد صورته الأولى – صورة

ملاك مُجَنَّح من الصاروفيم . كانت أجنحته الستة تحجب
جسده النوراني . كان الجناحان اللذان يغطيان
منكبيه العريضين ينسدلان على صدره
بزخرفهما الملكي ! وكان جناحا الوسط
يحيطان بخصره كأنهما نطاق مرصع بالنجوم ، ويلتفّان
حول حِقْوَيْه وفخذيه ، يحليهما زغب ذهبي
صبغت ألوانه في السماء . أما الجناحان الأخيران فكانا
يكسوان قدميه من الكعبين بدرع من الريش
بلون السماء لا ينصل ! وقف مثل (عطارد)
يرف ريشه فيضوع شذا السماء في
المنطقة الشاسعة من حوله . وعلى الفور عرفته جميع فرق
الملائكة القائمة بالحراسة ، فنهضت تحية لمكانته
وتكريمًا للمهمة السامية التي كلف بها
فقد حدست أنه لابد مكلف بمهمة سامية !
ومر بخيامها البراقة حتى أتى
إلى حقل النعيم ، فعبر بساتين المر
والأزهار العطرة وأشجار القاسيا وزيوت الطيب والبلسم -
برية من المحاسن ! كانت الطبيعة ها هنا
في شرخ شبابها ، تلهو وتلعب كما يحلو لها ،
فتنبت ما يصوره خيالها البكر ، وتتدفق بدائعها
الطليقة فتفوق بدائع فن الصنعة - نعيم غامر !
ورآه آدم مقبلا عبر الغابة العبقة
وهو جالس لدى باب

خميلته الرطيبة ! كانت الشمس في كبد السماء
ترسل أشعتها الحارة مباشرة لتدفئ
رحم الأرض العميق - حرارة أشد مما يحتاجه آدم !
كانت حواء داخل الخميلة ، وكانت تعد للغداء في هذه الساعة
- كما ينبغي - ثمارًا لذيذة ، مذاقها يمتع
الشهية الصادقة ولكنه لا يطفئ الظمأ إلى
جرعات الرحيق أثناء الطعام من فرات الأنهار
والكرم والأعناب ! فناداها آدم قائلا :
تعالي يا حواء ! أسرعي ! أمتعي بصرك فانظري
شرقًا بين هذه الأشجار ! أترين صاحب الصورة الوضاءة
الذي يخطو مقبلاً نحونا ؟ لكأنما هو صباح جديد
يشرق في الظهيرة ! ربما كان يحمل وصية كبرى من السماء
إلينا ، وربما تعطف فقبل أن
نستضيفه اليوم . هيا اذهبي فانظري
ما في خزائنك ! أعدي أطيبه وزينيه وأغدقي
من الخيرات ما تقتضيه الحفاوة ويقتضيه تشريف
ضيفنا الغريب من السماء ! إننا نستطيع أن نقدم
إلى كرمائنا ما قدموه لنا ، وأن نسخو في العطاء
من سخيّ العطايا ، فالطبيعة تضاعف
من خيرات خصبها ، وإذا خَفَّفْنا أحمالها
ازداد ثمرها وتكاثر ، والحكمة إذن ألا نقتصد .
وأجابته حواء قائلة : آدم يا ابن الطين الذي سواه الله
وأوحى إليه ! يكفينا القليل ! فالمخزون

على أغصانه في كل حين ناضج وقطوفه دانية !
عدا ما ينبغي تخزينه قليلا حتى يتماسك
ويطيب للغذاء بعد زوال الماء الزائد .
ولكنني سأسرع فأقطف أحسن الثمار من كل غصن وشجيرة
ومن كل نبات بل ومن البطيخ والشمام ذي الرحيق
قِرًى لضيفنا الملاك ، فإذا
رأى ذلك سلَّم بأن الله قد أفاء خيراته
على الأرض مثلما أفاءها على السماء .
قالت هذا فبدت على محياها سمات العجلة
واستدارت مسرعة . كانت أسباب الحفاوة تشغل بالها :
ينبغي انتقاء أشهى الأطايب وألذها طعمًا
وتقديمها بنظام يمنع اختلاط مذاق
بمذاق ، فإن لم يُحكم ترابطها فقدت رونقها
ومن ثم ينبغي بناء مذاق على مذاق في تتابع أقرب إلى نهج الطبيعة !
شغلتها هذه الأفكار فقطفت الثمار من الأغصان الغضة التي تحمل
كل ما أخرجته الأرض - الأم التي تحمل في رحمها كل شيء - قطفت
ما أخرجته الهند في الشرق وفي الغرب وما بينهما
من سواحل البحر الأسود وسواحل شمال إفريقية
أو جزيرة (الكينوس) - فاكهة من كل نوع تتفاوت قشرتها
خشونة ونعومة ، فبعضها وَبَرِيٌّ وبعضها صُلب
قطفتها جميعًا - آية تكريم كبرى - ثم وضعتها على المائدة
بيد مغداق وللسقاء أتت بالكرم
وعصرته فأخرجت شرابًا طهورًا ، ثم أعدت رحيقًا حلوًا

من ألوان التوت المختلفة ، كما سحقت اللوز الحلو فاستخرجت
ألبانًا طيبة مزجتها مزجًا . وكان لديها أيضا
الأكواب الطاهرة اللائقة . وعلى الأرض نثرت
الورود وعاطر الزهور من أشجار لم يقربها البخور !
وأثناء ذلك كان جدنا الأول يستعد لاستقبال
ضيفه النوراني ، فتقدم إليه لا تتبعه حاشية
ولا تصحبه إلا مناقب كماله .
كانت مهابته تنبع من ذاته ، بل كانت
هيبته تزيد عما توحي به الأبهة السقيمة التي تحيط
بالأمراء الذين تتبعهم حاشية طويلة مترفة
من الفرسان ، يتقلمهم خدم مرصعون بالذهب ،
فتخلب أبصار الناظرين ويفغرون أفواههم دهشًا !
وعندما اقترب آدم منه تقدم إليه - لم يكن يرهبه
ولكنه أبدى خشوعا وتوقيرا واحتراما
لذي الكيان الأسمى وانحنى قائلاً :
يا قاطن السماء ! - إذ لا إخال مكانًا
سوى السماء تحيا فيه مثل هذه الصورة الوضاءة -
ما دمت قد هبطت من العروش العلوية
وتعطفت فتركت منازل النعيم هنيهة
وشرفت هذه البقاع ، فليتك تتعطف أيضا وتزورنا
نحن الاثنين فقط في تلك الخميلة الظليلة
وقد وهبنا الله هذه الأرض الفسيحة من حولها !
فلتسترح معنا فيها ولتتذوق أطايب ثمر الجنة

ولتلبث هنا حتى تمضي وقدة الهاجرة
حين تميل الشمس في مدارها وتخف حراراتها !
وأجابه الملاك الكريم في صوت ودود قائلاً :
آدم ! هذا ما أتيت من أجله ! لقد خُلِقْتَ على هذه الصورة
وأوتيت هذا المكان سكنًا ومنزلاً
حتى تدعو ضيوفك إليه ولو كانوا من ملائكة السماء
فلتمض بي إذن إلى خميلتك
وارفة الظلال . فأمامي هذه الساعات الوسطى حتى يشرق المساء
ولي أن أفعل بها ما أشاء ! وهكذا انطلقا إلى المنزل وسط الغابة
فابتسم لهما مثل بستان (بومونا) ! كان
مزدانًا بالزهيرات وأريج العطور ، ولكن حواء
لم تكن مزدانة بشيء ! كانت بذاتها أبهى من
أجمل الحوريات ، أو ما ذكرته الأسطورة عن أجمل الربات
الثلاث اللائي تنافسن عاريات فوق جبل (أيدا)
وتأهبت حواء لتكريم ضيفها القادم من السماء
لم تكن بحاجة إلى خمار ، فالفضيلة حصنها ، ولم يطف بفؤادها
ما يصبغ بالخجل خدها ! فألقى الملاك عليها السلام
وهي التحية القدسية التي ألقيت
بعد زمن طويل على حواء الثانية - مريم البتول - فباركتها !
السلام عليك يا أم البشر ! يا من ستملأين
الدنيا من رحمك الخصب بأبناء يزيد عددهم
عن هذه الفاكهة المنوعة التي حملتها أشجار الله
فملأت بها هذه المائدة ! كانت المنضدة ربوة

من السندس الأخضر ، وحولها مقاعد معشبة
وعلى جوانبها الأربعة الكبيرة
أغصان الخريف وأوراقه - رغم أن الربيع والخريف هنا
تشتبك أيديهما في رقصة واحدة ! وشرعوا في الحديث برهة
إذ لا خوف أن يبرد الطعام ! وبدأ الحديث
جدنا قائلا : أيها الغريب القادم من السماء ! تفضل فلَق
هذه الخيرات التي ينزلها علينا من يطعمنا ويسقينا
ومحكم خيراته لا تعد ولا تحصى ! لقد قضى
أن تهبنا إياها الأرض طعامًا ومتعة
فربما ليست بالغذاء الشهي
لذوي الكيان الروحي ! بيد أنني أعرف
أن رب السموات الواحد يهبها للجميع.
ورد عليه الملاك قائلا : لما كانت عطايا الله للإنسان
(ولنسبح بحمده بكرة وأصيلاً) ذات قبس روحي
فسوف تجدها أصفى الأرواح
طعامًا سائغًا ! فالطعام يحتاجه أصفى
كيان ذهني مثلما يحتاجه
كيانك العقلي : وكلاهما لديه
وفي باطنه كل الملكات الدنيا - تلك
الحواس التي يسمع بها المخلوق ويبصر ، ويشم بها ويلمس ويتذوق
فإذا تذوق مضغ فهضم فتمثل
فأحال المادة روحًا !
اعلمْ أنه ما من مخلوق إلا محتاج

إلى الغذاء والطعام . وهكذا شأن العناصر :
الأغلظ يغذي الأرهف ، فالأرض تغذي البحر
والأرض والبحر يغذيان الهواء ، والهواء يغذي تلك النيران
الأثيرية وأولها وأدناها إلينا القمر !
ومن ثم تبدو في وجهه المستدير تلك البقع ، فهي ما لم يصفُ بعد من
الأبخرة فيتحول إلى المادة التي خلق منها
بل إن القمر ليصعّدُ الغذاء زفيرًا
من أرضه الرطبة إلى الأفلاك الأعلى
والشمس التي تبعث بنورها إلى جميع الأشياء
تتلقى منها جميعًا غذاء يعوضها عنه
في صورة أبخرة مصعدة . وعندما يحل المساء
تطعم من المحيط . ومع أن لدينا في السماء أشجار
الحياة التي تحمل ثمار الجنة ، وعرائش الكروم
التي تخرج الرحيق ، ومع أننا ننفض عن الأغصان كل صباح
قطرات الندى المعسول ، ونرى الأرض
مكسوة بحبات اللؤلؤ المنثور ، فإن الله قد أفاء هنا
خيرات مختلفة ومتعًا جديدة
ترقى إلى ما في السماء ! ولذلك فلا تَظُنَّنَّ
أنني سأتعفف عن تذوق ما قدمت لي ! وهكذا جلسا ،
ثم شرعا في تناول لذيذ الطعام . لم يكن الملاك يأكل في الظاهر
فحسب ، ولم يكتنفه ضباب الوهم ، وهو التأويل المألوف
لدى اللاهوتيين ، ولكنه كان مدفوعًا بلذع
الجوع الحقيقي ، وحرارة هضم الطعام

وتمثيله ، وأما الفضل فما أيسر
أن يخرج من الأرواح . ولا عجب هنا ، فإن نار
الفحم ذي السناج تعين الكيميائي التجريبيّ
أو هو يقول إنها تعينه - على تحويل
أدنى المعادن وأحطها إلى ذهب خالص ،
كالذي يخرج من بطون المناجم ! وأثناء ذلك كانت حواء قائمة
تقدم الطعام عارية على المائدة ، وتملأ لهما كؤوسهما
بالشراب اللذيذ حتى حافتها . يا للبراءة
الخليقة بالفردوس ! فإن صحت الرواية
فإن منظر حواء آنذاك كان حريا بأن يجعل الملائكة
تعشق بنات البشر ، ولكن ما جاش بتلك الصدور
لم يكن حب الاشتهاء ، ولا كان للغيرة
معنى هنا ، وهي جحيم العاشق المحروم !
وهكذا فبعد أن شبعا طعامًا وشربًا
دون أن يثقلا على الطبيعة ، خطر لآدم فجأة
ألا يدع هذه الفرصة السانحة تمر -
فرصة هذا الحوار العظيم - دون أن يسأل
عما وراء هذا العالم ، وعن كيان
من يقطنون السماء ، وقد رأى أن امتيازهم
يفوق امتيازه كثيرًا ، وأن صورهم الوضاءة
نور قدسي ، وأن قدراتهم السامية
تفوق قدرة البشر . ومن ثم بدأ حديثه في حذر
إلى ملاك السماء قائلاً :

يا من تسكن مع الله ! إنني أعلم حق العلم
مبلغ كرمك في إسباغ هذا الشرف على الإنسان
إذ تعطفت فدخلت منزله المتواضع
وتذوقت هذه الفاكهة الأرضية !
إنها ليست طعام الملائكة ولكنك قبلتها
وطعمت منها بشهية لا تقل فيما يبدو عن شهيتك
في ولائم السماء الكبرى : ولكن أيان هذه من تلك !؟
وأجابه المجنح العظيم قائلا :
اسمع يا آدم ! القهار واحد ! منه
منشأ كل الأشياء وإليه مرجعها
ما لم تنحرف عن الخير . فلقد أعطى كل شيء خلقه ،
وفي أحسن صورة ركّبه . فالمنشأ هيولة أولى واحدة
وُهبت صورًا منوعة ، ودرجات متفاوته من
المادة مثلما وهب الأحياء درجات متفاوتة من الحياة
وتزداد هذه رهافة وروحانية ونقاء
باقتراب منزلتها منه أو ميلها إليه
وقد خصص لكل منها مجال عمل لا يتعداه
حتى يطمح الجسد في عمله إلى الروح ، في حدود
تتناسب مع كل نوع . وهكذا ترى أن الجذر
يُنبت الساق الخضراء الأرهف كيانًا ، ومن الساق تخرج الأوراق
الأقرب إلى الهواء ، وأخيرًا تخرج الزهرة الكاملة مشرقة
فتبعث أنفاس الشذا العاطر . وأما الزهور والثمار
- طعام الانسان - فهي ترتقي درج سلم الطبيعة وتتسامى

لتصبح عصائر الحياة وأبخرتها وأنفاس
الذهن . فهذه هي التي تهب الحياة والإحساس ،
وتهب الخيال والإدراك ، ومنها تتلقى النفس
مقومات العقل ، فالعقل كيانها
سواء كان منطقيًا أم حدسيًا - فأما المنطقي
فينتمي غالبًا لكم ، وأما الحدسي فغالبًا لنا ،
وهما يختلفان في الدرجة فحسب ، ولكنهما من نفس النوع .
لا تعجب إذن حين أتقبل ما يراه الله
حسنًا لكم ، فهو يتحول لديّ ولديكم
إلى نفس المادة التي خلقنا منها . وربما أتى على الانسان حين من الدهر
استطاع فيه مشاركة الملائكة طعامها ، فلم يجده
غير سائغ أو أرهف أو أخف مما ينبغي
ومن هذه الأطعمة المادية ربما استطاعت
أجسادكم أن تتحول آخر الأمر إلى أرواح خالصة
تصفو بمرور الزمن بحيث تستطيعان الصعود مجنحين
كالأثير مثلنا ، وإذا شئتما اتخذتما هذه الفردوس
نُزلا أو غيرها من فراديس السماء
طالما أبديتما الطاعة وظللتما
على حبكما الكامل الراسخ الثابت
لمن أنجبكما . أما الآن فتمتعا
ما شاء لكم بالسعادة التي يسعها هذا النعيم
ولا يسع المزيد منها.
وأجابه والد الجنس البشري قائلا :

أيها الروح الكريم ! يا ضيف الجنس البشري !
ما أحسن ما ترشدنا إلى الطريق الذي سيهدي
علمنا ، وما أحسن ما بينت لنا سلم الطبيعة الذي يمتد
من مركز الدائرة إلى محيطها ، والذي نرجو أن نرقاه
بتأملنا للمخلوقات حتى نصعد
درجة فدرجة إلى الله . ولكن قل لي :
ماذا تعني بذلك التحذير الذي أردفته حين قلت : إذا أبديتما
الطاعة ؟ أيمكن ألا نبدي الطاعة
أو نهجر حُبَّنا لله
وهو الذي خلقنا من تراب ثم أنزلنا هنا
فأترع كياننا بأقصى النعيم الذي
ينشده البشر أو يقدرون عليه ؟

ورد عليه الملاك قائلا : يا ابن السماء والأرض !
أصخ السمع ! إنك تدين بهنائك إلى الله
ولكن مواصلة الهناء رهينة بك !
إنها رهينة بطاعتك فاثبت عليها !
هذا هو تحذيري إليك فانتصح به !
لقد وهبك الله الكمال ولم يهبك الثبات..
لقد خلقك صالحًا ، ولكنه ترك لك القدرة على مواصلة
الصلاح ! لقد قضى أن تكون إرادتك
حرة بطبيعتها ، لا يسيطر عليها قدر
لا فكاك منه ، ولا يحكمها حتم صارم .
إنه يطلب منا أن نعبده مختارين

لا مجبرين ، فعبادة المجبر
لا تقبل بل محال أن تقبل ! إذ كيف
تبتلى القلوب إذا حرمت الحرية ؟ وكيف يُعرف إن كان العابد
يريد العبادة أم لا ؟ إنه إن كان مجبرًا فلن يريد
إلا ما يفرضه القدر عليه ولن يقدر على اختيار سواه !
أما أنا وسائر الملائكة الذين يقفون
على مرأى من الله متوجين ، فإننا نتمتع بنعيمنا
مثلما تتمتعان بنعيمكما ، طالما واصلنا طاعتنا .
هذا هو ضماننا الوحيد ، إننا أحرار في عبادته
لأننا أحرار في حبه - أي لأننا نتمتع بإرادتنا في
أن نحبه أو لا نحبه . وثباتنا وسقوطنا رهن بذلك .
بل لقد سقط البعض - سقطوا في العصيان -
ومن ثم هووا من السماء إلى درك الجحيم الأسفل !
فيا للسقوط من ذروة النعمة إلى وهدة النقمة !
فقال له جدنا الأكبر : لقد أصغيت إلى كلماتك
فأحسنت الإصغاء . ولقد شنفت آذاني
أيها المعلم القدسي ، وأمتعتني متعة تفوق فرحتي
بأغاني ملائكة الشاروبيم ليلا حين ترسل من التلال المجاورة
موسيقاها الأثيرية . لم أكن أجهل أنني
خلقت حرّا في الإرادة والعمل . وطالما اعتقدت
أننا لن ننسى أبدًا حب
خالقنا أو طاعته ، إذ لم ينهنا إلا عن أمر واحد -
وهذا هو العدل عين العدل بل ما أكده فكري الثابت

ومازال يؤكده . ولكن ما ذكرته عما
وقع في السماء يثير في نفسي الريبة
ويزيد من رغبتي في الإصغاء - إذا وافقت -
إلى القصة الكاملة ولابد أنها غريبة
وجديرة برهبة الإصغاء في صمت .
مازال النهار أمامنا مديدًا ، فالشمس لم تكد
تكمل نصف رحلتها ، ولم تكد تبدأ
النصف الآخر في قبة السماء الشاسعة .
وهكذا فرغ آدم من سؤاله . وبعد
برهة صمت قصيرة أجابه روفائيل إلى طلبه قائلاً :
ما أسمى ما تطلب يا خير الرجال !
إنها لتثير الأسى ويشق سردها ! إذ كيف أُقَرِّبُ إلى
حواس البشر ما لا تدركه أبصارهم من معارك ضارية
بين الأرواح ؟ كيف أروي دون إبداء الشفقة قصة
سقوط الكثيرين ممن كانوا يُشعّون بهاءً
وكمالاً أثناء ثباتهم على العهد ؟ وأخيرًا كيف أروي
أسرار عالم آخر قد
لا يحل إفشاؤها ؟ ولكن الفائدة التي ستجنيها
تبرر تقديمها ، وما لا تدركه
حواس البشر سأرسمه رسمًا
مستعيرًا للصور الروحية صورًا جسدية
تعبر عنها أحسن تعبير ، وهل الأرض
إلا ظل السماء ، وهل كل ما هنا وهناك إلاّ

متماثل بأكثر مما يظنه أهل الأرض !؟
كان ذلك قبل وجود هذا العالم ، والعماء الجائح
يبسط سلطانه حيث تجري أفلاك هذه السموات ، وحيث
تستقر الأرض الآن
متزنة على مركزها ! في ذلك اليوم
(والزمن في سرمديته لا يصف إلا
الحركة ، ويقيس الأشياء الفانية فحسب
بحدود الحاضر والماضي والمستقبل) - في ذلك اليوم
الذي تأتي به الدورة الكبرى للأفلاك مرة كل عام ، أمر المليك
باستدعاء حشد السماء من الملائكة ، فجاءوا
بأعداد لا تحصى ومثلوا أمام عرش القهار
على الفور ، قادمين من شتى أطراف السماء
واصطفوا في طبقاتهم النورانية يقودهم زعماؤهم ،
ورفعوا عاليًا عشرة آلاف بيرق
وراية وعلم بين المقدمة والمؤخرة
فرفرفت في الهواء ، لتميز
مكانة كل منهم أو طبقته أو درجته
كان بعضها يحمل في نسيجه اللامع نقوشًا براقة
وتذكارات قدسية لمآثر الحماس والحب
التي سجلت فأبرزت . وهكذا وقفوا في أفلاكهم
ذات المحيط الشاسع ، وانتظموا
فلكًا داخل فلك ، ثم أتى صوت الأب السرمدي
- وقد جلس الابن في أحضان نعيمه -

من وسط السماء كأنما يصدر من قمة جبل التهبت
فاحتجبت لفرط نورها . قال :
أيها الملائكة يا أبناء النور ! اسمعوا
يا ذوي العروش ! أيها السلاطين ، يا ذوي الإمارات والفضائل
والرياسات !
اصغوا إلى قراري الذي ينفذ فلا نقض له !
لقد أنجبت اليوم من أعلن أنه
ابني الأوحد ! وعلى هذا التل المقدس
مسحت عليه ! إنه من ترونه الآن
إلى يميني ! إنني أعينه رئيسًا عليكم
ولقد أقسمت بذاتي أن تنحني له
شتى الرؤوس في السماء وأن تعترف به سيدًا عليها
احتكموا إذن لحكم خلافته العظيمة وانصاعوا له
مُتَّحدين مثل نفس واحدة لا تتجزأ
بل تهنأ إلى الأبد . إن من يعصيه
فإنه يعصيني ، ويفصم عرى الوحدة ، وسوف ينبذ في نفس اليوم
من حظيرة الله ويبتعد عن رؤياه المباركة
ويسقط في الظلمة التامة فيبتلعه الخضم فهو مثواه
الذي قضيت به - دون خلاص وبلا نهاية !
كانت هذه كلمات الجبار نطق بها فبدا السرور على الجميع !
أجل بدا السرور ولكنه لم يعم الجميع !
ومن ثم قضوا ذلك اليوم مثل سائر أعيادهم
ينشدون ويرقصون حول التل المقدس

رقص عبادة خاشعة ، يحاكي حركة السماء الدنيا بنجومها
الثابتة وكواكبها ومساراتها المتداخلة
أيما محاكاة ! كانت حلقاته معقدة
بعضها غير ذي مركز ، وبعضها متقاطع ، ولكنها
وإن بدت غير منتظمة ، أَشَدُّ انتظامًا من كل شيء !
كانت حركاتهم تبعث موسيقى متوافقة قدسية
تنساب ألحانها الساحرة حتى لقد أصغت إليها أذن الله
في سرور . واقترب الآن المساء
(فلدينا أيضًا مساء وصباح
وإن كانا يتعاقبان للمتعة لا للضرورة)
وعلى الفور تحول الجميع من الرقص إلى الطعام اللذيذ
فأقبلوا عليه باشتهاء ! كانوا يقفون في دوائر
حين مدت الموائد فامتلأت فجأة
بطعام الملائكة ، وسال ياقوت الشراب فتألق
ببريق اللؤلؤ والماس والذهب الإبريز
عصير الكرم الشهي من نبت السماء !
واستلقوا على الزهور متوجين بزهيرات ناضرة
فأكلوا وشربوا ورَقَّ تواصلهم
وهم يعبون شراب الخلد والفرح ، آمنين
من التخمة ، فالشبع يمنع
الإفراط ، أمام الملك الأكرم الذي أغدق عليهم
نعماءه بكف معطاء ، وشاركهم فرحهم
وعندما هبط الليل العاطر مُزْنًا

من جبل الله الأعلى - من حيث ينبعث النور والظل -
تغير وجه السماء الصبوح فاكتسى
غسقًا جميلاً (إذ لا يكتسي الليل هناك
نقابًا أحلك) وهبطت القطرات الوردية التي تحمل
النعاس إلى كل العيون إلا عين الله التي لا تغفل
وانتشر الملائكة في أرجاء السهل ، في حقول أرحب
من سطح هذه الأرض الكروية لو بسط مهادها بسطًا !
(فهكذا شأن حقول الله المترامية) وتفرق حشدهم من ثم
في فرق وصفوف فضربوا خيامهم
على شطآن الأنهار الحية بين أشجار الحياة -
خيام لا تعد ولا تحصى ! وأقاموا في لمح البصر
حجرات سماوية خلدوا فيها للنوم
بينما تهب عليهم النسمات الرطيبة - إلا من سهروا
حول عرش المليك ينشدون له ألحان التسبيح
متناوبين طول الليل . ولكن إبليس لم يسهر لهذا !
لقد أسميناه إبليس الآن لأن اسمه القديم
لم يعد يسمع في السماء ! كان من أعظم كبار الملائكة
إن لم يكن أعظمهم طُرًا ! كان عظيم السلطان
عظيم الحظوة والامتياز ، ولكنه أمسى يضمر
الحسد لابن الله ، إذ كَرَّمه
أبوه العظيم وشَرَّفه وأعلن أنه
المسيح - أي الملك الذي مُسح عليه . لم يستطع إبليس أن يحتمل
هذا المشهد صَلَفًا منه وتيهًا ، بل ظن أنه قد أُضير !

وتولد في نفسه من ثم الازدراء والحقد العميق .
وعندما انتصف الليل وحلت ساعة الغسق ،
حبيبة النوم والسكون ، عقد عزمه
على الرحيل مع فرقه ، والتخلي عن
عبادة العرش الأسمى وعن طاعته
في أنفة وازدراء . وهكذا أيقظ من يليه في المنزلة
وشرح يحدثه سرّا قائلاً :
أتنام أيها الرفيق المقرب ؟ أي نومٍ ذاك الذي يغلق
أجفانك ؟ ألا تذكر القرار الذي صدر
بالأمس ونطقت به شفاه
جبار السماء ؟ لقد اعتدت أن تفصح لي عن أفكارك
واعتدت أن أفصح لك عن أفكاري
لقد توحدنا في اليقظة ، فكيف يفرق بيننا الآن
سباتك ؟ إنك تشهد الشرائع الجديدة التي فرضت علينا .
وكل شريعة جديدة يفرضها الحاكم تثير رأيًا جديدًا
لدينا نحن المحكومين ! إنها تتطلب مشاورات جديدة للنظر
في عواقبها المجهولة . ولكنني لا آمن البوح
بأكثر من هذا هنا . هيا ! قم فاجمع
رؤساء الألوف الذين تتزعمهم
وأخبرهم أن الأمر قد صدر لنا بالانطلاق من هنا
- قبل أن يلملم الليل الأدكن ظلال سحائبه -
أنا وكل من يرفع رايته في ظل قيادتي ،
إلى مقرنا ، وبالعودة على جناح السرعة إلى

مرابع ملكنا في الشمال ، فنعد
حفلاً مهيبًا نستقبل فيه مليكنا
وهو المسيح العظيم ونتلقى أوامره الجديدة
فهو يعتزم أن يمر مسرعًا بين طبقات الملائكة جميعًا
مرور الظافر ليشرع الشرائع !
وانتهى الملاك الأكبر من كاذب حديثه
فبث الضلال في صدر صاحبه
غير المرتاب ، ومن ثم جمع بعض
خلفائه الذين ينوبون في الرئاسة عنه
وخاطب الباقين كلا على انفراد فأخبرهم الخبر
ألا وهو أن القائد سيمر قبل انقضاء الليل
بل الآن ، قبل أن يرفع الليل الأدكن أثقاله من السماء -
حاملاً أرفع رايات الرفعة
وأخبرهم بالسبب في ذلك ، ولكنه دس في ثنايا حديثه
كلمات غامضة تثير الريبة ، إما لاختبار ولائهم
وإما للتأثير فيه . بيد أنهم جميعًا أطاعوا
الصوت الأعظم والإشارة المعهودة من
زعيمهم الأكبر ، إذ كان اسمه جد عظيم
ودرجته جد رفيعة في السماء .
لقد اجتذبهم وجهه المشرق مثل نجم الصباح
الذي يقود زمرة النجوم ، واستطاع بأكاذيبه
أن يجر وراءه ثلث حشد السماء .
وأثناء ذلك كانت العين السرمدية التي يدرك بصرها

أدق الخلجات والأفكار تطل من الجبل المقدس
ومن خلال المصابيح الذهبية التي تتوهج
كل ليلة أمامه . لقد رأى دون أن يستعين بضوئها
ازدياد التمرد ورأى المتمردين وانتشار
العصيان بين أبناء الصباح ، والجماهير
التي تضافرت لمناوءة قراره الأسمى ،
فالتفت إلى ابنه الأوحد وقال مبتسمًا :
ولدي ! يا من أرى فيه بهائي
مشرقًا كل الإشراق ! يا وريث جبروتي !
لقد اقترب موعد البرهان على أنني
على كل شيء قدير ! لابد أن نثبت قوة السلاح التي
نعتزم أن نحمي بها ملكنا الأزلي
وألوهيتنا الأزلية ! إن ثمة عدوًا
قد تمرد فاعتزم إقامة عرشه
في مناطق الشمال الشاسعة بحيث يكون صنوًا لعرشنا ،
ولم يكتف بذلك بل إنه يفكر في منازلتنا
ليختبر قوة سلطاننا أو حقنا فيه .
فلنخبر الملائكة ، ولنلق في هذه المعمعة الخطرة
مسرعين بمن تبقى منهم ، حتى ينهضوا جميعًا
بالدفاع عن العرش ، وإلا ضاع في غفلة
هذا المكان الأسمى ، هذا الجبل والملاذ الرفيع !
وأجابه الابن وقد علت محياه السكينة وسطع
فيه البرق القدسي نورًا كريمًا يجل عن الوصف ،

فقال : أيها الأب الجبار ! إنك لتسخر
من أعدائك بالحق ، وإنك لآمن
ضاحك من باطل مكائدهم وفعالهم !
إنني لأزهو سناء إذ يبغضونني ، ولسوف أزهو مجدًا
حين يشهدون قدرة المُلْك التي
أسبغت عليّ لقمع كبريائهم ، وحين يعرفون من نتيجة
الموقعة إذا ما كنت قادرا على إخضاع
من تمردوا عليك أم أنا أسوأ من في السماء !
وصمت الابن . بينما كان إبليس وقواته
قد طاروا بعيدا على أجنحة السرعة حشدًا
لا يعد ولا يحصى مثل نجوم الليل
أو نجوم الصباح أو قطرات الندى التي تحيلها الشمس
لؤلؤا على كل ورقة وعلى كل زهرة !
ومروا بأصقاع شاسعة - مر أولئك الجبابرة الصناديد
من ملائكة الصاروفيم والقادة وذوي العروش
في طبقات ثلاث بأصقاع تتضاءل أمامها
أرجاء مملكتك يا آدم ! وإن قورنت بها كانت
كهذه الجنة إن قورنت بمهاد الأرض
والبحر إذا تخلى عن شكله الكروي
فانبسط سطحًا مديدًا ! وبعد أن خلفوها وراءهم
حطوا الرحال على حدود منطقة الشمال
فاستوى إبليس على عرشه الملكي
عاليًا فوق التل الذي يسطع نوره إلى الآفاق ! كأنما هو

جبل من فوق جبل ، حوله الأهرام والبروج
التي اقتطعت من محاجر الماس ، وصخور من الإبريز !
ذاك قصر (لوسيفر) العظيم (إذا أسمينا
ذلك البناء اسما مأخوذا من لغة البشر
حتى يفهموه) ولكن إبليس لم يلبث أن طمح
بعد قليل في المساواة مع الله
ومحاكاة الجبل المقدس الذي نُصِّبَ عليه
المسيح أمام أعين السماء ،
فأسماه جبل الجمعة
لأنه جمع عليه كل أتباعه
متظاهرا بأنه قد أُمِر باستشارتهم
حول الاستقبال الأعظم لمليكهم
حين يأتي إليهم هناك . وهكذا ، بحذق الافتراء
وفنون الزيف النكراء ، ملك عليهم أسماعهم إذ قال :
يا ذوي العروش ! أيها السلاطين ! يا ذوي الإمارات والفضائل
والرياسات !
هذا إذا كانت هذه الأسماء العظيمة ستظل قائمة ولن تصبح
مجرد ألقاب خاوية ! أجل ! لقد صدر الأمر
بأن يستوي غيركم ويستأثر لنفسه
بالسلطان كله ! لقد طمس أنوارنا جميعا إذ اتخذ اسم
الملك المسيح ! لقد تعجلنا على هذا النحو
فطرنا في منتصف الليل وأهرعنا لنجتمع هنا
لنتشاور وحسب في الطريقة المثلى لتكريمه

أو ما يُبتدع من سبل التشريف الجديدة التي تليق
باستقباله ! إنه سيأتي ليتلقى منا
ما لم نؤده بَعْدُ من ركوع وخضوع ، وذليل سجود وخشوع !
لقد كنا نستكثر ذلك على الإله الواحد ، فكيف نتحمله مضاعفًا
أي للواحد ولمن يعلن الآن أنه صورة منه ؟
ولكن ربما استطعنا بتشاورنا وتناصحنا أن نحزم أمرنا
فنجد السبيل إلى الفكاك من هذا النِّير ؟
هل تسلمون رقابكم له ؟ أم تفضلون أن تنحني له
قاماتكم بيسر ؟ لن تفعلوا ذلك إذا صدقت
معرفتي بكم ، أو إذا كنتم تعرفون أنكم
من أهل السماء وأبنائها ، لم يستعبدكم من قبل
أحد ، فإن لم تكونوا متساوين في الدرجة فأنتم أحرار
وسواسية في الحرية ! إن الطبقات والدرجات
لا تجور على الحرية بل تثبتها وتؤكدها
من ذا الذي يستطيع أن يزعم لنفسه بالمنطق أو بالحق
المُلْك على من هم بالحق أنداد له ؟
وإذا كانوا يقلون عنه في السلطان أو البهاء
فهم في الحرية سواء . من ذا الذي يستطيع أن يفرض
علينا الشرائع والقرارات ، ونحن دون شرائع
لا نخطئ أبدا ؟ أَهْونْ به إذن من دافع للسيادة
وطلب العبادة ! إنه لَينتهك
ألقابنا الملكية التي تؤكد أننا
قد كتب لنا أن نحكم لا أن نخدم !

إلى هنا كان الخطاب الجسور ينطلق دون قيود
فيملك الأسماع ، حين هب من بين ملائكة الصاروفيم
ملاك اسمه (عبديئيل) ، لم يكن أحد أشد منه إخلاصا في عبادة
الله وطاعة أوامره القدسية ،
هب واقفًا وانطلق في وقدة حمية ملتهبة
يصب دافق غضبه معترضا على إبليس فقال :
يالحديث الإفك والكفر والكبرياء !
كلمات ما توقعت سماعها الآذان في السماء !
وبخاصة منك أيها الجحود
الذي علت منزلته على أقرانه عُلُوّا كبيرًا !
كيف كفرت فاتهمت فأدنت
القرار العادل الذي أعلنه الله فأكده بالقسم ؟
لقد أسبغ الله بالحق على ابنه الوحيد
صولجان الملك ومن ثم ينبغي على كل من في السماء
أن ينحنوا له فيشرفوه التشريف الخليق به
ويعترفوا به بالحق ملكا عليهم ! تقول إنه ليس من العدل
بل من الظلم الصريح أن تشرع الشرائع الملزمة للأحرار
وأن يكون لأحدهم الملك على من يساوونه في المنزلة
وفوق الجميع واحد سلطانه أزلي لا يُوَرّث ؟
أَفَتُشَرِّعُ أنت الشرائع لله يا إبليس ؟ أتجادله
في حدود الحرية وهو الذي خلقك
بما أنت عليه وَصوّر ملائكة السماء
وفق مشيئته فوضع حدود كيانهم ؟!

لقد علمتنا الخبرة مدى خيره الممدود
وعرفنا مما نهنأ به من خيرٍ وكرامةٍ
مدى عنايته الإلهية ، وعرفنا أنه لاَ يعتزمِ
الحط من شأننا بل زيادة رفعتنا
ونعيمنا في ظل رئيس واحد أقرب إلى
التوحّد معنا . ولكن فلنفترض أنه من الظلم كما تقول
أن يحكم ملك على من يساوونه في المنزلة !
هل تعتبر نفسك رغم عظمتك وبهائك - بل هل تعتبر
أن جميع خصال الملائكة لو جمعت في واحد - يمكن أن
تتساوى مع ابنه الذي أنجبه ؟ لقد خلق
الأب الجبار منه جميع الأشياء فهو كلمته ،
بل خلقك أنت منه وجميع ملائكة السماء
التي خلقها - بدرجات بهاء متفاوتة -
فكللها بالمجد ، ثم أضاف أسماء الطبقات ، فمنها:
العروش والسلاطين والإمارات والفضائل والرياسات
- وهي قوى الأساس ! ولكن ملكه لم يخسف ضياءها
بل زادها إشراقا ! إنه حين ترأسنا
أصبح واحدًا منا ومن ثم تَدَنّى فأمست
شرائعه شرائعنا وكل شرف يناله
يعود إلينا ! كُفَّ إذن عن سَوْرَةِ الكفر
ولا تُغْوِ هؤلاء ! والأحرى بك أن تَعْجَلَ بإرضاء
الأب الغضبان ، والابن الغضبان
وفي الوقت متسع لطلب الصفح والغفران !

وانتهى حديث الملاك الجياش ، ولكن حماسه
لم يلق من يؤيده ، إذ رأوه حماسًا في غير وقته
أو غريبًا طائشًا . وهكذا تهلل وجه
المارق المرتد ، وعلا محياه المزيد من الصلف وقال :
أتقول إننا صُوِّرنا إذن ؟ وأن أيد أخرى
هي التي صَوَّرتنا إذ فوض الأب
ابنه في القيام بالعمل ؟ فكرة غريبة وجديدة !
ليتنا نعرف: من أين أتيت بهذا المذهب ، إذ من ذا الذي شهد
هذا الخلق حين كان ؟ أتذكر أنت
خلقك ؟ أتذكر متى وهبك الخالق كيانك ؟
لا نعرف زمنًا لم نكن فيه ما نحن الآن !
لا نعرف أحدا سبقنا ، فلقد أنجبنا أنفسنا ، وأنشأنا ذواتنا
بقوة الحياة الكامنة فينا ، حين دارت دورة المصير
في فلكها فاكتملت وآن موعد مولدنا
من هذه السماء ، وطننا نحن أبناء الأثير !
إن قوتنا في ذواتنا ، ويدنا اليمنى
سترشدنا إلى أرفع فعال حين نختبر بالقوة
من هو مساوٍ لنا ! ولسوف ترى إن كنا
نعتزم مخاطبته تضرعًا وخيفة ، وإن كنا
سنحيط بعرش الجبار
للتوسل إليه أم لحصاره ! فلتحمل هذا الخبر
بل طر بهذه الأنباء إلى الملك المسبح
وأسرع قبل أن يعترض الشر سبيلك !

قالها فلوّى التصفيق كأنه هدير مياه المحيط
يُرجع مبحوحًا صدى صوته ويموج به
الحشد الحاشد . ولكن ذلك لم يعق
ملاك الصاروفيم المقدام الأحمس من الرد عليه ! فرغم وحدته
ومحاصرة الأعداء له جاء رده الجسور قائلا :
يا من ابتعدت عن الله ! أيها الجني الملعون
يا من نبذ الخير كله ! أرى سقوطك
محتومًا أنت ورفاقك التعساء الذين شاركوك
فتنة الخيانة فأصابتهم عدوى
جريمتك ونالهم مثل عقابك !
لا تشغل بالك بعد الآن بالخلاص من نير
مسيح الله ! إذ لن تَمَسَّكَ بعد الآن شريعة غفرانه
أو تشملك برحمتها بل إن قرارات أخرى
قد صدرت ضدك ولا رادّ لها !
أما الصولجان الذهبي الذي رفضته فقد تحول
الآن إلى قضيب حديدي يضرب فيحطم
عصيانك ! لنعم ما أوصيتني به
ولكنني لا أهرع تحقيقًا لوصية أو خوفًا من تهديد
بل أترك هذه الخيام الخبيثة الهالكة خشية غضبةٍ
وشيكةٍ قد تنفجر لهبًا مفاجئًا
لا يفرقّ بين الطيب والخبيث ! ولن يلبث أن ينقض
رعده على أم رأسك وتزدردك نيرانه ،
وستعرف نادبًا من الذي خلقك

حين تعرف من يستطيع أن يحيلك عدما !
وصمت (عبديئيل) ملاك الصاروفيم الذي أثبت إيمانه
بل كان المؤمن الوحيد بين الكفار !
كان الأمين الوحيد بين ما لا يحصى من الخونة .
لم يتزعزع ولم يخف ولم يُغْوَ
بل حافظ على إخلاصه وحبه وحماسه !
لم تجرفه أعدادهم الهائلة ولم يحتذ المثل الذي ضربوه
فيحيد عن الحق أو ينزل عن رأيه الثابت
رغم وحدته ! وهكذا تقدم في وسطهم ،
شاقًا طريقه الطويل وسط الازدراء والعداء ! ولكنه احتمل ذلك
وتعالى عليه دون أن يخشى أذى يصيبه
ثم أدار ظهره في ازدراء مماثل
لقلاع الكبرياء التي كتب عليها الهلاك العاجل .

الكتاب السادس

الكتاب السادس

الموضوع

يواصل روفائيل روايته فيحكي كيف أرسل ميكائيل وجبريل لمنازلة إبليس وملائكته . وصف المعركة الأولى . يتراجع إبليس وقواته تحت ستار الليل ثم يعقد مجلسًا ويخترع آلات حرب شيطانية تستخدم في اليوم الثاني ضد ميكائيل وجبريل وملائكتهما وتوقع بعض الفوضى في صفوفهما . ولكنهما في النهاية يقتلعون بعض الجبال فيكتسحون قوات إبليس وآلاته . بيد أن المعركة لم تنته بعد . وفي اليوم الثالث يرسل الله ابنه المسيح - وقد خصه بمجد النصر - ينزل المسيح إلى الميدان مفوضًا قوة أبيه فيأمر فرقه أن تقف ساكنة على الجانبين بينما يندفع راعدًا بعجلاته الحربية وسط الأعداء الذين عجزوا على المقاومة فيطاردهم حتى جدار السماء . وينفتح الجدار فيلقي بهم وقد شملهم الرعب والاضطراب في الهوة السحيقة التي أعدت لعقابهم ، بينما يعود المسيح ظافرًا إلى أبيه .

ظل الملاك المقدام يسير طول الليل غير مُقْتَفًى
في سهول السماء الشاسعة حتى بزغ الفجر الذي
أيقظته دورة الساعات ، فمد يده الوردية
ليفتح أبواب الضياء !
في جبل الله كهفٌ يجاور عرشه
يغشاه النور ثم يغشاه الظلام في دورة دائمة ،
فهما يتناوبان عليه ويتعاقبان في السماء
تعاقبًا جميلاً مثل تعاقب الليل والنهار !
وحين ينبعث الضوء من باب ، يدخل الظلام من الباب الآخر
في أعقابه حتى تحين الساعة التي يلقي فيها
لثامه على السماء - ولو أن الظلام هناك
أشبه بالشفق هنا ! أما الآن فالصباح يتقدم
في السموات العُلَى مُوشًّى بعسجد
من السماء ومن أمامه يتلاشى الليل الذي
انتهكت أستاره أشعة الشرق ! ولاحت أرجاء السهل
الذي احتشدت فيه الفيالق الوضاءة المصطفة للحرب ،
والعجلات الحربية والأسلحة البراقة والخيول النارية
التي تشع وهجًا من فوق وهج ! كانت أول ما أبصر
فأدرك أنها الحرب ، بل هي الحرب التي يعدون لها ، ووجد
أنهم يحيطون بما كان يظنه أنباء جاء
يحملها إليهم ! وسره ذلك فانخرط
في صفوف أنصاره من الأجناد الذين استقبلوه
بالترحاب والتهليل المدوّي ، فرحين بأن واحدًا

قد نجا من بين الألوف التي سقطت ، وأن واحدًا
قد عاد دون خسران ! ثم مضوا به إلى التل المقدس
وهم يحيونه ويهتفون له ، ثم قدموه
بين يدى الكرسي الأسمى . ومن ثم انبعث صوت
من وسط سحابة ذهبية يقول في نبرات لطيفة :
يا عبد الله ! لنعم ما فعلت ! أنعم بجهادك
الجهاد الأحسن إذ صمدت وحدك
ضد حشود المارقين فانتصرت لقضية
الحق ! لقد كانت كلمتك أقوى من سيوفهم !
بل لقد تحملت حين شهدت للحق
مرارة اللوم من الجميع ، وهي أثقل وأوجع
من إيذاء الجسد . وما كان همك إلا
أن تنال رضى الله ، رغم العالمين
الذين رموك بالضلال ! ما أيسر الغلبة لك الآن
حين تعود إليهم يؤازرك هذا الحشد من الخلصاء !
إنك لتعود إلى أعدائك في أمجاد
تفوق ما رحلت فيه من ازدراء ! ولسوف تخضعهم
بالقوة ، لأنهم لا يقبلون العقل شريعة
ولا الضمير ! لا بل ولا أن يكون المُلْك عليهم
للمسيح ، وهو الذي يحكم لأنه حري بالحكم وحقيق به !
هيا يا ميكائيل ! يا أمير جيوش السماء !
وأنت يا من تليه براعة وتمكنا من فنون الحرب
يا جبريل ! قودا إلى حومة الوغى أبنائي الذين

لا يقهرون ! قودا ملائكتي المدججين بالسلاح -
ألوفا وملايين مصطفين للقتال
إنهم يمثلون في عددهم ذلك الجمع من الكفرة
المتمردين ! انقضوا عليهم بالنيران وأسلحة الفتك
واستبسلوا فطاردوهم إلى تخوم السماء
وأخرجوهم من كنف الله ونعيمه
وألقوا بهم في مقر عقابهم ، في بحيرة
الجحيم التي استعدت ففغرت فاها
من نيران العماء لتلقفهم ساقطين !
بهذا نطق الملك ، فشرعت السحب
تظلم أرجاء التل ، والدخان يتكور
في طاقات دكناء ، وألسنة اللهب تتلوى ، آيات
على صحوة الغضب ! وما كان أقل رهبة منها دوي ذلك
البوق الأثيري الذي نُفخ فيه من عل !
وإذ صدر ذلك الأمر ، هبت قوى المقاتلين
المدافعين عن السماء فترابطت فصائلهم الأربع
في وحدة قاهرة ، وتقدمت
كتائبهم الوضاءة في صمت على أنغام
متوافقة تعزفها آلات تبعث أنفاس
الحماس والبطولة ، وتحث على خطير الفعال ،
ويقودها زعماؤهم النورانيون خارجين في سبيل
الله والمسيح . وظلوا يتقدمون
في ثبات لا تنفصم عراه ، فما أفلح تل يعترض سبيلهم

أو واد يضيق أمامهم ، لا بل ولا استطاعت الغابات والأنهار أن تفرق
صفوفهم المحكمة . كانت خطاهم تعلو على الأرض
في سيرهم ، وكان الهواء المطيع يحتمل
خفيف خطوهم ، مثلما احتمل شتى أنواع
الطير التي انتظمت صفوفها في الفضاء
وجاءت طائرة فوق عدن ، حين دعيت إليك لتتلقى
منك أسماءها ، فكم من أصقاع
السماء عبرت ، وكم من إقليمٍ شاسع يبلغ
عشرة أمثال هذه الأرض طولاً ! وأخيرًا
لاحت على البعد في الأفق الشمالي
بقعة من نار تمتد من أقصاه إلى أقصاه
وعلى محياها الحرب ! وعندما اقتربوا منها بدت
شائكة بأعداد لا تحصى من القنا المرفوعة
والحراب الصلبة والخوذ المحتشدة والدروع المنوعة
التي صورت عليها شعارات التفاخر والتباهي - كانت
قوات إبليس المتضافرة تهرع إليهم
وتسرع في سورة غضبها ! كانوا يظنون أنهم
يستطيعون بالحرب أو المفاجأة ذلك اليوم
أن يستولوا على جبل الله ، وأن يُنَصِّبُوا على عرشه
من يحسده على منزلته ، ذلك المتباهي
الطامح ، ولكن ثبت ضلالهم وبطلان ظنونهم
في وسط الطريق ، وكم بدا من الغريب لنا
في البداية أن يتقاتل الملائكة

ويلتقوا في نزال طاحن ضروس ، بعد أن كانوا يتلاقون
كثيرًا في أعياد الفرح والحب
يدًا واحدة وأبناء لوالد واحد عظيم
فيسبحون بحمد الأب الأزلي ! ولكن صيحة
المعركة بدأت تدوي ، وصوت الانقضاض الذي
يؤذن بدنو الاشتباك سرعان ما بدد أفكار السلم !
وعاليًا في الوسط ، رفيعًا مثل الأرباب ،
جلس المارق في عربته الحربية المتوهجة توهج الشمس
صنمًا لجلالة قدسية ، تحيط به
ملائكة الشاروبيم البراقة والدروع الذهبية
ثم نزل من عرشه الفخم ، فالآن
لا تفصل بين الجانبين سوى رقعةٍ ضيقةٍ
وفاصلةٍ رهيبةٍ ! كانوا يواجهون بعضهم بعضًا
واقفين في نسق يبعث الرعب
وصفوف لا حد لطولها ! وأمام المقدمة الغائمة
عند خط المواجهة المتعرج قبل موقع الالتحام
كان إبليس يتقدم بخطى عملاقة مزهوة
ويعلو بهامته على الجميع مدججا بالصلب والنضار !
ولم يطق (عبديئيل) أن يرى ذلك من حيث كان يقف
بين أعتى العتاة الذين عقدوا العزم على أرفع الفعال
فجاش في قلبه المقدام حديث كشف مكنونه قائلاً :
يا للسماء ! أما يزال شبيهًا بالأعلى إلى هذا الحد
بعد أن ولّى إيمانه وإخلاصه ؟

لماذا لا تخور قواه ويذهب جبروته
بذهاب فضائله ؟ ولعل ضعفه يزداد بازدياد
جرأته رغم مظهره الذي لا يقهر !
إنني أتوكل على الله القهار وأستعين به
في اختبار مدى قوته ، بعد أن ثبت لي خطل رأيه
وضلال قلبه ، فالعدل يقضي
أن من يهزم خصمه في ساحة الحق
ينبغي أن يهزمه في ساحة القتال ، فيخرج من النزاعين
منتصرًا ! وعلى حطة النزال وشره
حين يضطر العقل إلى ملاقاة القوة فإن
أرفع درجات العقل هي هزيمة منطق القوة !
وفرغ من تأملاته فترك أقرانه المدججين
وخطا إلى الأمام فواجه في منتصف الطريق
عدوه الجسور . وزاده اعتراضه
غضبًا وحنقًا فتحداه في ثقة قائلاً :
ترى هل تصدى لك أحد أيها المتكبر ؟ كنت تأمل أن تبلغ
ذروة ما تطمح فيه دون نزال
فتثب على عرش الله وقد تركه الحرس
وفر أجناده في ذعر من جبروتك
أو من لسانك اللاذع ! ما أضلك إذ غفلت عن عبث
التطاول بالسلاح على القهار
الذي يستطيع أن يحيل أتفه الأشياء
إلى جيوش جرارة لا نهاية لها ليسحق

حمقك ! بل يستطيع أن يمد يدًا واحدة
تدرك أقصى الأقاصي فيضربك ضربة واحدة
يقضي بها عليك دون معين ويسحق
كتائبك في جنح الظلام . ولكن انظر فلسوف ترى
أن الجميع لم يتبعوك ، فمنهم من استمسك بالإيمان
وتقوى الله ، على أنك آنذاك
لم تكن تراهم ، وكنت تظن أنني وحدي
قد خالفت الجميع فضللت في عالمك !
انظر تدرك معدن أنصاري ، ولتدرك بعد فوات الوقت
كيف تصيب القلة أحيانًا وتضل الألوف !

ونظر العدو الأكبر شزرا إليه وحدجه باحتقار
قائلاً : الويل لك في ساعة انتقامي المنشودة !
فلسوف أطلبك أولاً أيها الآبق العائد !
أيها الملاك المنشق الذي عاد ليلقى
جزاءً وفاقًا في أول اختبار
لهذه اليد اليمنى ! لقد أغضبها لسانك
الذي أوعز إليه بالمناوءة فاجترأ على تحدي
ثلث الأرباب الذين التقوا في مجلسهم
ليؤكدوا ربوبيتهم والذين يحسون أن
الطاقة القدسية في باطنهم تنكر
وجود من هو على كل شيء قدير . لقد سبقت
رفاقك طمعًا في الظفر مني
بنصر يكلل هامتك ! لا بأس ! فربما كانت عاقبتك نذيرًا

بالهلاك لسائر رهطك ! ولكنني سأتمهل حتى أجيب على قولك
(خشية أن تزهو إذ لم أفعل) وحتى أحيطك بالأمر علما :
كنت أظن أولاً أن الحرية والسماء
مبسوطتان لأرواح السماء دون تفاوت . ولكنني الآن
أدرك أن أكثرهم كسالى يفضلون العبادة
فهم أرواح خادمة دربت على فنون الولائم والأغاني !
إنك حين أعطيت السلاح لأمثال هؤلاء من منشدي السماء
فقد جعلت العبيد يقارعون الأحرار
كما سيثبت لك اليوم من مقارنة أداء الفريقين !

وأجابه (عبديئيل) في اقتضاب وصرامة قائلاً :

لقد ضَلَلْتَ أيها المارق ! بل لا حَدَّ
لضلالك وبعدك عن صراط الحق المستقيم !
لقد ظَلَمْتَ إذ وَصَمْتَ
بالعبودية من يعبدون من قضى الله
أو قضت الطبيعة أن يعبد ! فقضاء الله وقضاء الطبيعة واحد
حين يكون الحاكم خير الحاكمين ، وحين يمتاز
على من يحكمهم . أما العبودية فهي
عبادة الأحمق أو عبادة من تمرد
على من هم أفضل منه ، كعبادة أتباعك إياك الآن
وما أنت نفسك بحُرٍّ ، بل أنت عبد ذاتك
ومع ذلك تجرؤ فتهاجمنا في وقاحة لأننا نعبد الله !
فلتكن سيدا في الجحيم - مملكتك - ولأكن عبدًا
في السماء يباركني الله أبدا وأطيع

أوامره القدسية ، فهي أخلق ما يطاع !
لا تتطلع في الجحيم إلى الممالك بل إلى السلاسل والأغلال ! أما الآن
فتلق هذه الضربة مني - أنا الآبق العائد كما تقول !
خذها تحية لناصيتك الكافرة !
قالها ثم رفع يده النبيلة عاليًا
وما كادت ترتفع حتى هوت منقضة كالصاعقة
على ناصية إبليس الصلفة حتى ما أدركها البصر
وما أدركتها سرعة الفكر اللماح ، بل وما استطاع درعه
أن يحول دون انقضاضها ! وتراجع عشر خطوات هائلة
ناكصًا على عقبيه ، وفي الخطوة العاشرة هوى على ركبته
متكئًا على رمحه الضخم ، فكأنما هبت في باطن الأرض
الريح أو اندفعت المياه في سيل العرم
فزحزحت جبلاً من قاعدته
فغاص في الأرض بأشجار الصنوبر من فوق رأسه ! واستولت الدهشة
على الملائكة المتمردين ، ولكن غضبتهم كانت أكبر ، إذ شاهدوا
وقعة أعتى جبابرتهم ، بينما أفعم الفرح صناديدنا فصاحوا صيحة
تبشر بالنصر وتفصح عن الرغبة الجائحة
في القتال . وعندها أمر ميكائيل بأن ينفخ
في بوق الملاك الأكبر ، فدوى صوته في أقطار السماء الشاسعة
وصدرت من جيوش المؤمنين
التسابيح للأعلى ! وبعد وقوف وتحديق ذاهل
تحركت فرق الأعداء فأحدثت دويًا بشعًا إذ اشتبكت
مع الخصم شائكة السلاح ! وهب الغضب العاصف

والضجيج الذي لم يُسمع مثله في السماء
فاصطكت السيوف بالدروع في قعقعة
مخيفة وجلبة نشزة ودارت العجلات المسعورة
بعرباتها النحاسية فأطلقت سعارها ! كان صخب
القتال رهيبًا ، بينما انطلق الأزيز المفزع من فوقهم
حين طارت السهام النارية في وابل من اللهب
فأقامت سرادقا من النار فوق الجانبين .
وهكذا اندفع تحت هذه القبة النارية
قلبا الجيشين في هجمة كاسحة
وغضبة لا ينطفىء أوارها . ورجّعت أرجاء السماء
أصداء القتال ، ولو كانت الأرض قد خُلقَت أنئذٍ
لزلزلت الأرض حتى مركزها ! ولا غرو ! فعندما تلاقى
ملايين الملائكة في شراسة واشتبك
الجانبان ، كان يستطيع أدناهم أن يقبض على
عناصرها الأربعة فيتسلح بالقوة الكامنة
في أصقاع الأرض جميعًا ! هل كان ثم ما يزيد قوة
عن هذين الجيشين بأعدادهما التي لا تحصى ؟ لقد أثارا
اضطرابا رهيبًا في اصطراعهما حتى كادا أن يزعزعا
دون أن يدمرا موطن هنائهما الأول
لولا أن الملك الأزلي القادر على كل شيء قد قضى
من عرش عزته الرفيع في السماء بحصر
قواهما والحد من جبروتهما . وعلى كثرة أعدادهما -
إذ بدت كل فصيلة من الفصائل

حشدًا كبيرًا - كانت كل يد تحمل السلاح
كالفصيلة في قوتها ! كان لهم قادة ولكن
كل مقاتل كان يبدو قائدًا ، بل كأنما هو قائد أعلى ، فهو خبير
يعرف متى يكر ومتى يثبت ومتى يُدير رحى
المعركة ، بل يعرف متى يفتح الصفوف ومتى يغلقها -
صفوف الحرب الجهمة ! لم يدر بخلده أن يفر
أو يتراجع أو يفعل ما لا يليق مما
يفصح عن الخوف . كان كل منهم يعتمد على نفسه
ففي ذراعه وحده تكمن قوة
النصر . كم من الفعال ذات الذكر الخالد
قد وقعت ولا انتهاء لها ! فقد اتسع نطاق
تلك الحرب وتعددت صورها ، فأحيانًا تدور على الأرض الصلبة
حيث اقتتلوا راجلين ، وأحيانًا في الجو حيث حلقوا طائرين
فأذاقوا الهواء مر العذاب ، بل إنك لتخال الهواء كله
سعيرًا مصطرعًا ! وتعادلت كفتا المعركة
ردحا طويلا من الزمن ، حتى هب إبليس الذي أظهر ذلك اليوم
قوة رائعة ، ولم ينازل فيه
ندًا له ، فاخترق صفوف الهجمة الضارية التي
شنها ملائكة الصاروفيم فأربكها ، وأخيرًا
رأى أيَّان يهوي سيف ميكائيل فيجندل
كتائب برمتها ! كان حسامه مزدوج المقبض عظيم القوى
وكان يرفعه عاليًا ثم يهوي بحده القاطع الرهيب
ليطيح بالقاصي والداني . وأهرع ابليس لصد هذا الهلاك

فدفع بدرعه الصخري الضخم الذي
ضوعفت طبقاته الصلدة عشر مرات – درعه العريض
ذي المحيط الشاسع . وعند اقترابه
كف الملاك الأكبر الجبار عن القتال
إذ أسعده الأمل في إنهاء
الحرب الدائرة بين أهل السماء ، وكسر شوكة العدو الأكبر
أو أخذه أسيرًا مغلولاً في الأصفاد . فتجهم في عداء
واستعر وجهه غضبا وشرع يخاطبه قائلاً :
يا من أبدعت الشر ! لقد كان مجهولاً حتى تمردت
ولم يكن له اسم في السماء ثم استشرى كما ترى
في هذا الاقتتال البغيض ! وإذا كان يبغضه الجميع
فهو بالعدل أثقل وطأة عليك
وعلى أتباعك . إنّي انتهكت
السلام المبارك في السماء ، واستحدثت في الطبيعة
الشقاء ، فهو لم يخلق حتى أجرمت
فتمردت ! كيف أشربت
الآلاف ضغينتك فتحولوا بعد استقامتهم
وإيمانهم إلى الختر والغدر ! لكن لا تظنن أنك
سوف تكدر السكينة القدسية ، إذ ستلفظك السماء
من شتى تخومها . إن السماء مقام النعيم وهي
لا تصبر على التناحر والحرب .
اخرج منها إذن وليخرج الشر معك
فهو وليدك ! هيا إلى مثوى الشر ، إلى الجحيم ،

أنت وأتباعك الخبثاء ، فاصطرعوا هناك
قبل أن ينقض سيف انتقامي هذا فيقضي عليك
أو يرسل الله انتقامه المجنح بغتة
فيلقي بك من حالق ويزيد من آلام عذابك !
وفرغ أمير الملائكة من حديثه فأجابه
الشيطان قائلاً : بل لا تَظُنَّنَّ أنك تستطيع إخافتي بخواء
الوعيد وهباء التهديد بعد أن عجزت عن ذلك
بالفعل والعمل . لقد عجزت عن إجبار أدنانا
على الفرار ، وإذا وقعوا فإنهم ينهضون
ولا ينهزمون . أترى من الأيسر عليك أن تتفاوض معي
وتأمل أن يفلح تجبرك ووعيدك
في إخراجي من هنا ؟ لا تخطئ فتظن هذه نهاية
الصراع الذي تسميه شرّا ، فإنما نحن نخط
صراع المجد ، ونعتزم أن ننتصر
أو نحيل هذه السماء نفسها إلى الجحيم الذي
تتخيل وجوده ، فنقيم أحرارا هنا
ولو لم يَدِنْ لنا المُلْك ! أما الآن فاستجمع أقصى قوتك
وانشد مؤازرة من يسمى بالجبار
فأنا لا أولّي الأدبار بل أسعى إليك في كل مكان !
وفرغا من التطارح فاستعدا لقتال
يشق وصفه . إذ مَن يستطيع ولو أوتي لسان الملائكة
أن يقص خبر هذه الأحداث ، وكيف يجد لها
المثيل مما يحدث على الأرض ونعرفه ؟ إن هذا ليرقى

بمخيلة الإنسان إلى ذرا
طاقة الأرباب ! كانا يشبهان الأرباب
واقفين أو سائرين ، في القامة والحركة والسلاح ،
خليقين بأن يفصلا في مآل مملكة السماء العظمى !
وطفق سيفاهما الناريان يتراقصان ويدوران في الهواء
دورات رهيبة ، وأما درعاهما فكل منهما شمس عريضة
وهما يتوهجان ويتقابلان ، بينما كان الترقب يقف
في وجل ! وتراجع حشد الملائكة مسرعين من كل جانب
حيث كانوا يشتبكون في أشد قتال
فخلفوا ساحة شاسعة ، إذ لم يأمنوا وقوفهم في مهب الريح
من هذا الاصطراع ! كان يشبه - إن ضربنا
الأقلَّ مثلاً للأعظم - انفصام عرى التوافق في الطبيعة
ونشوب الحرب بين كوكبات الأفلاك ! بل لكأنما
اندفع كوكبان من مواقع نذر السوء
والتعارض الضاري في سمت السماء
فتقاتلا واصطكت أجسامهما فَتَفَتَّتْ !
ورفع كل منهما ذراعا لا يكاد يدانيه ذراع في قوته
وصوبه ليضرب ضربةً واحدةً توشك أن تهوي
فتقضي في الأمر - ضربة لا حاجة لتكرارها
بل لا يمكن تكرارها الآن ! لم يكن ثم ما يفرق في الظاهر بينهما
لا في الجبروت ولا في التوقّي الخاطف ، ولكن حسام
ميكائيل كان من أسلحة الله
وقد أوتيه بعد أن صُقل وثُقف ..،

فما يمتنع على حَدِّه صلبٌ أو حاد ! والتقى الحسام
بسيف إبليس ، وصكه بقوة
وهو يهوي منقضًا فشق نصله شقين ! وما توقف
بل دار دورة مسرعة وأوغل فيه فشطر
جانبه الأيمن كُلَّه ! وأحس إبليس لأول مرة بالألم ،
وأخذ يتلوى ويلتفّ ، إلى الأمام وإلى الخلف ، إذ ما أشد ألم
السيف البتار وهو يجرحه الجرح النافذ
ويجوس في جسده ! ولكن مادته الأثيرية التأمت
ولم تلبث أن التحمت ، ومن الجرح
تدفق سيل من رحيق فياض
وردي – وهو ما تدمى به ملائكة السماء –
فلطخ دروعه جميعًا بعد أن كانت تبرق وهاجة !
وعلى الفور أهرعت لإنقاذه من كل جانب
حشود الملائكة الأقوياء الذين تصدوا
للدفاع عنه ، بينما حمله آخرون على دروعهم
وعادوا به إلى عربته وكانت تقف بعيدًا بمعزلٍ
عن صفوف المحاربين ، فوضعوه فيها ، فأخذ
يصر بأسنانه من بالغ الألم والحقد والعار
إذ تبين أنه ليس فريدًا ، ورأى أن كبرياءه
قد امتهنت بهذا العقاب الذي زلزل
ثقته في أن يماثل الله في قوته
وسرعان ما برئ الجرح . إذ إن الملائكة التي تحيا حياة
تنبض في كافة أعضائها ولا تقتصر مثل الإنسان الضعيف

على الأمعاء أو القلب أو الرأس أو الكبد أو الكليتين
لا تموت إلا إذا فنيت الفناء التام
ولا تصيب الجروح القاتلة كيانها السائل
إلا كما تصيب الجروحُ الهواءَ السيال !
فكيانها الحي كله قلب ، وكله رأس ، وكله عين، وكله أذن،
وكله ذهن، وكله حس ، وهي تُغَيِّر كما تشاء
من أطرافها وتكتسب من اللون والشكل والحجم
ما تحب ، في كيان كثيف أو مخلخل !
وفي تلك الأثناء وقعت فعال أخرى تستحق
الذكر ، إذ قاتل جبريل بجبروته
واخترقت بيارقه الضاربة الكتائب المتراصة حيث حشدها
الملك الأشرس (ملكوم) وحيث تحداه للنزال
بل وهدده بأن يجره مربوطًا إلى عجلات عربته ،
لا بل ولم يتورع عن المساس بقدسية واحد السماء الأحد
ولم يكف عنه لسان زندقته ! ولكنه سرعان
ما انشطر شطرين حتى الوسط ، وانكسرت أسلحته
وحلّت به آلام عجيبة فقر وهو يجأر ويخور ! وعلى الجناحين
كان كل من (أوريل) و (روفائيل) قد قهر عدوه المتباهي
على ضخامته ورغم احتمائه بدرع من صخر الماس !
لقد قهرا (أذرَمَّلَك) و (أصمداي) وهما من ذوي
العروش الأقوياء الذين رفضوا مكانة أدنى من الأرباب
ولكن الفرار علّمهما التواضع
بعد أن شوهتهما الجراح المفزعة النافذة من الدروع والزرود !

ولم ينس (عبديئيل) مهاجمة
رهط العصاة ، فسدد ضرباته مضاعفة إلى
(آريئيل) و (أريوك) ، وقمع شراسة
(راميل) وحرّقه فانقلب شر منقلب !
وليتني أقص خبر الآلاف الآخرين فأخلّد
أسماءهم هنا على الأرض ، ولكن أولئك الصفوة من
الملائكة قانعون بذيوعها في السماء
ولا ينشدون ثناء البشر . أما الصنف الآخر
فمع عجيب جبروتهم وألوان قتالهم ،
ومع أنهم لا يقلون حماسًا وذيوعًا ، فقد قُضي
بإقصائهم من السماء ومن الذاكرة القدسية -
فليأووا إذن دون أسماء إلى بهمة النسيان !
فالقوة إذا انحرفت عن الحق والعدل
لم تعد جديرة بالثناء ، ولا تستحق إلا القدح
والعار ! إنها تطمح إلى المجد
بباطل الأمجاد وتنشد طيب الذكر بخبيث الفعال !
فليكن صمت الأزل مصيرهم إذن !
ويعد إخماد أعتاهم ، تحول مسار الموقعة
فسالت الدماء من كثرة الهجمات ، ولاحت الهزيمة الشائهة
والفوضى النكراء ، واكتست الأرض
بالدروع المحطمة ، وفي كومة واحدة
أهيلت العربات المقلوبة ، وقوادها
والجياد النارية التي ترغي وتزبد ! أما من وقفوا فقد تراجعوا

وسط حشود إبليس الواهية وقد هَدَّهُم الإعياء
وأعجزهم الدفاع ! أما حين يفاجئهم الخوف الشاحب -
فلأول مرة يفاجئهم الخوف ويحسون الألم -
فهم يفرون فرارًا شائنًا ! هذا سوء المصير الذي أتى به
إثم العصيان فما كانوا حتى تلك الساعة
يعرفون الخوف ولا الفرار ولا الألم !
شتان بينهم وبين عصمة الأطهار الذين
كانوا يتقدمون جميعا في كتيبة مكعبة ثابتي الخطى ،
لا يمسهم سلاح ولا يُخترق لهم درع !
تلك هي المزايا الكبرى التي امتازوا بها - لطهرهم -
على أعدائهم : إذ إنهم لم يأثموا
ولم يعصوا ! وهكذا ثبتوا في القتال
لا يكل لهم كلال ، ولا يستشعرون ألم
الجراح ، حتى ولو زُحزحوا من مكانهم عَنوة !
أما الآن فقد بدأ الليل مسيرته فبسط على السماء
ظلمته ، وفرض على المحاربين هدنة رغيبة
وصمتًا على جلبة الحرب البغيضة !
وتحت سدول سُحبه انسحب الجانبان -
الظافر منهما والمدحور . وعلى صعيد المعركة
كان ميكائيل وملائكته المنتصرون
قد ضربوا أطنابهم ، وأقاموا العسس حراسا حولهم ،
لهبًا متماوجًا من ملائكة الشاروبيم ! أما في الجانب الآخر
فقد اختفى إبليس مع أتباعه من العصاة

الذين انتقلوا إلى أقاصي الظلمة ، ولم يلبث هو ليستريح
بل دعا كبراءه إلى مجلس ليلي
ثم قام وسطهم غير هياب وطفق يقول :
أيها الصحاب المقربون ! لقد ابتليتم ساعة الخطر
وعرفتم أن أسلحتكم لا غالب لها
ورأيتم أنكم خليقون لا بالحرية فحسب -
إذ ما أهونها من مطلب ، بل بما نطمح إليه طموحًا أشد
ألا وهو الشرف والسيادة والمجد وذيوع الصيت !
لقد صمدنا يومًا واحدًا في حرب سجال
(وإذا كنا قد صمدنا يوما فلم لا نصمد أيام الأبد ؟)
إن من أرسلهم رب السماء من أقوى الأقوياء
من حول العرش لينازلونا ، ومن رأى
أنهم يكفون لإخضاعنا لإرادته ،
قد أثبتوا خطله ! وإذن فيبدو أنه لن يكون معصومًا
في المستقبل ، ولنا أن نظنه كذلك وكنا حتى الآن
نظنه بكل شيء عليمًا . والحق أن سلاحنا كان أضعف
فأُضرنا وتحملنا الآلام
التي لم نعرفها من قبل ، ولكننا ما عرفناها حتى ازدريناها
فنحن نعرف الآن أن كياننا السماوي
يستعصي على الجروح القاتلة
ولا يفنى ! - وحتى لو أصيب إصابة نافذة
فسرعان ما تلتئم الجراحات وتبرئها قوتنا الأصيلة !
اعلموا إذن أن هذا الضُّر التافه يسير

العلاج : فإذا أعتدنا لهم عتادًا أشدّ
وسلاحًا أمضى فربما استطعنا في لقائنا المقبل
أن نعلي شأننا ونكسر أعداءنا
فنتساوى فيما تفوقوا علينا فيه
إذ نحن في طبيعتنا سواء . أما إذا كان ثم سبب خبيء
لتفوقهم فسوف نستطيع إذا حافظنا على
صحة أذهاننا وسلامة إدراكنا
أن نكشف عنه بالبحث والتشاور اللازمين .
قال هذا وجلس . وقام من بعده في المجلس
(نِسْروخ) وكان المقدم على جميع ذوي الأمارات .
وقف وقفة من فر من قتال شرس
فهو مكدودٌ مُوجَع ، وأسلحته المصدوعة محطمة مهشمة !
وبوجه تعلوه غبرة ، شرع يجيبه قائلاً :
يا مخلصنا من السادة الجدد ! وقائد سعينا
للتمتع بحقنا في حياة الربوبية الحرة ! إن هذا القتال عسير حتى
على الأرباب ، وما هم بأكفاء له ! فنحن
نقارع أسلحة لسنا أكفاء لها ، ونحس الألم
ونحن ننازل من لا يحسون الألم ولا يعرفون المعاناة !
فالعاقبة هي شر الهلاك لا محالة ! ما جدوى
الشجاعة أو القوة - ونحن لا نُضَارَعُ فيهما - إذا أخمدها الألم
الذي يخضع كل شيء وتتخاذل معه أيدي
أقوى الأقوياء . إننا نستطيع الآن أن نستمتع
بالحياة وألا نتذمر

بل نحيا حياة الرضا وهي أهدأ ألوان الحياة !
ولكن الألم هو ذروة الشقاء ، وأسوأ
ضروب الشر ، فإذا تخطى حدوده ،
انقطع حبل الصبر ! إن كان ثم من يستطيع أن يبتدع
ما هو أشد قوة للهجوم
على أعدائنا الذين لم يَمْسَسْهم جرح حتى الآن ، أو للتسلح
به دفاعًا عن أنفسنا ، فهو يستحق في رأيي
كل ما ندين به لمن يأتينا بالخلاص
وأجابه إبليس في رباطة جأش قائلاً :
إنني آتيكم بشيء مخترع ، وهو ما تعتقد محقًّا
أنه بالغ الأهمية لنجاحنا .
إن من يبصر منا السطح البراق
لهذا الكيان الأثيري الذي نقف عليه -
قارة السماء الرحيبة التي تزينها
النباتات والثمار وأزاهير الفردوس والجواهر والنضار -
سوف تقف عينه على ظاهر
هذه الأشياء فحسب ، ولن يدرك مكامن منبتها
في أعماق الثرى ، من مواد أولية مبهمة ،
من زبد الأبخرة والنار ! إنها إذا مستها
أشعة السماء فأحكمت مزاجها ، نبتت فروعها
باهرة الحسن وتفتحت للضياء من حولها
لسوف إذن نستخرج هذه في صورها الأولى البهماء
من أعماق الأرض وقد كمنت فيها نار الجحيم

ولسوف نضعها في أنابيب مجوفة طويلة ومستديرة
لها مدك غليظ ، فإذا مستها النار من فتحة أخرى
اشتعلت غضبًا وتضخمت فأرسلت
على أعدائنا من بعيد ، في جلبة كأنها الرعد ،
آلات دمار تمزقهم إرْبًا إرْبًا
وتطيح بكل ما يعترض سبيلها
حتى ليخال لهم فَرَقًا أننا انتزعنا
من الراعد سهمه الأوحد الذي نخشاه !
ولن يطول عملنا في صناعتها ، فقبل أن يبزغ الفجر
سيكون في يدنا ما نبغيه . أما الآن فأفيقوا
واطرحوا مخاوفكم ! فإنه إذا اجتمعت القوة والرأي
لم يعد ثَمَّ صعب ، ولم يعد لليأس مكان !
وانتهى من حديثه فأبهجت كلماته نفوسهم الذاوية
وأضاءتها ، وأحيت آمالهم الخابية وأنعشتها
وحظي الاختراع بإعجاب الجميع ، وتعجب كل منهم
لأنه لم يكن المخترع ، فهو يبدو بالغ اليسر
بعد أن وجد ، وإن كان معظمهم قبل اختراعه ليظنه
من المحال ! ولربما برز من أبناء جنسك (يا آدم)
في قابل الأيام - إذا عمت الشحناء والبغضاء -
من يبغي إحداث الضرر ، أو من يستلهم
المكائد الشيطانية فيخترع
آلة مشابهة فيبتلي بها بني البشر
لخطاياهم حين يصبح ديدنهم الحرب والاقتتال !

وعلى الفور انطلقوا من المجلس إلى العمل .
لم ينخرط أحد في جدل ، بل كانت الأيدي التي لا تحصى
على استعداد ، وفي لحظة قلبت
التربة السماوية وكشفت باطنها ، فرأوا تحتها
عناصر الطبيعة في صورها الأولى -
وجدوا زبد الكبريت وزبد النطرون
فمزجوهما ، وبفن الصنعة الدقيق ،
وبالحرارة والتجفيف ، أخرجوا منهما
مسحوقًا فاحم السواد ، نقلوه إلى المخازن .
ثم حفروا فاستخرجوا عروق المعادن والأحجار
الخبيثة (ولهذه الأرض أحشاء مشابهة)
ومنها صبوا أجزاء المدافع وكرات هي
قذائف الهلاك ! وأعد فريق منهم أعواد الثقاب
التي تسرع بالاشتعال عند اللمس
وهكذا قبل انبلاج الفجر ، كانوا قد انتهوا تحت ستار الليل الساهر
من عملهم سرّا وتهيأوا وانتظموا
متوخين الحذر والصمت ، فلم يفطن إليهم أحد .
وعندما لاح نور الصبح الجميل في السماء
هب الملائكة المنتصرون من رقادهم ، ودعا إلى السلاح
نفير الصبح ، فحملوا السلاح
واتشحوا به كأنما تدرعوا بالذهب ! وسرعان ما التأم شمل
حشدٍ وضاء ، بينما أطل آخرون
من تلال المشرق ، وانتشر الكشافة خفاف السلاح في كل أفق

وكل بقعة لاستطلاع مكمن العدو البعيد ،
ليروا إن كان مرابطًا أم لاذ بالفرار – وليروا إن كان يعتزم القتال
زحفًا أم ثباتًا . وسرعان ما وجدوه
يزحف عن كثب ناشرًا بيارقه ، في كتيبة
بطيئة الخطو وثيقة العرى . وعندها نشر شراع سرعته
(زوفيل) – أسرعُ ملائكة الشاروبيم جناحًا –
وعاد طائرًا يصيح عاليًا وسط الهواء قائلاً :
إلى السلاح أيها المحاربون ! إلى السلاح للقتال فالعدو قريب !
كنا نظنه قد فر ولكنه سيعفينا من طول الطراد اليوم !
لا تظنوه يفر ، إني أراه يقترب مثل سحابة كثيفة
وفي وجهه قسمات
العزم الجاد وصلابة الثقة فليوثق كل منكم
زرده الصلب حول جسده ، وليحكم
وضع خوذته ، وليقبض بشدة على درعه المستدير
سواء كان يحمله عاليًا أو موازيًا لجسده ، فما سينهمر اليوم
– إذا صح ظني – ليس رذاذًا يسيرًا
بل شآبيب فعقاعة من السهام الشائكة بالنار !
وهكذا حذرهم وهم الخبراء وسرعان
ما انتظموا دون أدنى عائق ،
وفي عجلة ودون اضطراب تأهبوا للحرب
ثم شرعوا في التقدم وقد اتخذوا تشكيلات القتال ، وعندها لاح
العدو غير بعيد يزحف بخطى ثقيلة
ويقترب ضخمًا هائل الجرم . كان يجر

مدافعه الشيطانية في صورة مكعب أجوف تحيط به
من كل جانب فيالق رجراجة تُظَلِّلُه
حتى تخفي الحيلة . ووقف الخصمان يتطلعان إلى بعضهما البعض
حينا ثم ظهر إبليس على رأس الجيش
فجأة ، ورن صوته الآمر عاليًا يقول :
يا جنود الطليعة : افترقوا يمينًا وشمالاً حتى تنفتح الجبهة
وحتى يرى كل من يبغضنا أننا ننشد
السلم والاستقرار ، وأننا -بقلب مفتوح-
مستعدون لاستقبالهم ، إذا راقت لهم
مبادرتنا ولم يعرضوا عنا معادين !
ولكنني أشك في ذلك فاشهدي يا سماء !
أيتها السماء اشهدي علينا ونحن نؤدي بعد قليل
دورنا دون عائق ! وأنتم يا من تقفون مكتملي العدة
قوموا بواجبكم ، وأسرعوا بأداء
ما نعتزم ، وليكن عالي الصوت حتى يسمعه الجميع !
ولم يكد ينتهي من سخريته وكلماته الغامضة
حتى انشطرت الجبهة شطرين ، إلى اليمين وإلى الشمال ،
وتراجع أجنادها إلى الجناحين
فتجلى لعيوننا مشهد جديد غريب :
أعمدة مصطفة في طبقات ثلاث وقائمة
على عجلات (فقد بدت أشبه شيء بالأعمدة
أو بالكتل المجوفة من جذوع البلوط أو الشوح
التي قطعت فروعها بعد أن اجتثت في الغابات أو الجبال)

كانت مصنوعة من النحاس الأصفر والحديد والحجر ، وقد حوّلت
أفواهها عنّا –
فُوَّهاتها الواسعة البشعة – كأنما
تنذر بصلح أجوف ، وخلف كل منها
وقف ملاك من الصاروفيم ، ممسكًا في يده عودًا
يلوّح به وفي طرفه اللهب . ووقفنا نترقب
رابطي الجأش رغم حيرة أفكارنا
ولكن ذلك لم يطل إذ امتدت الأعواد جميعًا فجأة
إلى الأمام واقتربت من فتحة ضيقة
فمستها مسّا رفيقًا . وعلى الفور بدت السماء كلها لهبًا
سرعان ما طمسه الدخان
الذي تجشأته تلك الآلات من حلوقها العميقة والزئير
الذي بقر بطن الهواء بجلبته الفاحشة
ومزق أحشاءه ! كانت تخرج من أفواهها أبشع
تخمة شيطانية : صواعق متصلة وَبَرد ،
بل كرات حديدية تنهمل على الحشد الظافر
وَتُصكه صكّا شديدًا
فإن أصابت أحدًا لم يستطع الثبات على قدميه
وإلا ظل صامدًا كالصخر ! وهكذا تهاووا
آلافا مؤلفة ، واختلط على الأرض ملاكٌ بملاك أكبر
وأسرع بسقوطهم ثقل أسلحتهم ، فلو كانوا عُزَّلاً
لتفادوا الطلقات بيسر ، فهم أرواح قادرون
على التقلص السريع أو الابتعاد ! أما الآن

فقد بُعْثروا شَرَّ مبعثر ، وهُزموا رغم أنوفهم ،
وما أغنى عنهم توسيع صفوفهم المحتشدة !
ماذا عليهم أن يفعلوا ؟ إنهم إن عاودوا الهجوم فَرُدُّوا
مرة ثانية ، وانكسروا انكسارًا شائنًا
كرة أخرى ، فلسوف يزداد احتقارهم
ويصبحون أضحوكة لعدوهم ! إذ بدا لعيونهم
صف آخر من ملائكة الصاروفيم واقفين
في وضع الاستعداد لإطلاق طلقةٍ ثانيةٍ
من الرعد ! ما أشد ما كرهوا أن يعاودوا للكرة
فيردوا على أعقابهم ! ورأى إبليس ما هم فيه من بلاء
فخاطب رفاقه في سخرية قائلاً :
أيها الأصدقاء ! لماذا لا ينقض علينا هؤلاء المنتصرون المتكبرون ؟
كانوا ينقضون في شراسة منذ برهة ، وعندما
رحبنا بهم ترحيبًا حسنًا ، بوجه صبوح وقلب مفتوح ،
(وما عسانا نفعل أكثر من ذلك ؟) وعرضنا عليهم شروط
الصلح ، تبدلت آراؤهم على الفور
وطاروا ثم عادوا يتواثبون أغرب تواثب
كأنما يتراقصون ولكنها رقصة
بالغوا في حركاتها فبدت طليقة رعناء - ربما
من فرحتهم بالسلام الذي عرضناه عليهم ، ولكنني أظن أنهم
لو سمعوا مقترحاتنا مرة ثانية
فسوف تضطرهم إلى الإسراع بالصلح .
وأجابه (بليّعال) في رنات مزاح مماثلة :

أيها القائد ! إن الشروط التي أرسلناها كانت من الأثقال ،
جوهرها صلب ، وقد شحنت بالقوة فبلغت غايتها ،
فأثارت انتباه الجميع كما رأينا
وأوقعت الكثيرين في تخبط : أما من تلقاها صوابًا
فقد أدركها من ناصية رأسه إلى أخمص قدمه ،
وأما من لم يدركها – فإنها (وهذه مزية أخرى !)
قد بينت لنا متى يمشي أعداؤنا منقلبين !
وهكذا وقفوا يستهزئون فيما بينهم في مرح وحبور
وقد طمحت أفكارهم فلم يعاودهم
أي شك في النصر وظنوا أن مجاراة الجبروت الأزلي
بمخترعاتهم أمرٌ
بالغُ اليسر ، بل سخروا من رعده
وضحكوا من أجناده وقد وقفوا
هنيهة في كد وعناد . ولكنهم لم يقفوا طويلاً
إذ حفزهم الغضب آخر الأمر فوجدوا الأسلحة
القادرة على التصدي لذلك البلاء الجهنمي
وعلى الفور (وانظر أي امتياز وأي طاقة
بثها الله في ملائكته الجبابرة)
طرحوا أسلحتهم ، وانطلقوا إلى التلال
(وقد أخذت الأرض هذا التنوع من السماء –
فبثت مباهجها في التلال والوديان !)
وفي خفة اللمح البارق عدوا وطاروا
فزحزحوها عن قواعدها شدًا ودفعًا وجذبًا

واقتلعوا الجبال الرواسي بما حملت من
صخور وأمواه وغابات قابضين على نواصيها الشعثاء
وحملوها عاليًا في أيديهم . واستولت الدهشة على العصاة
وثق في قولي - بل استولى الرعب على حشدهم
عندما رأوا هذا المشهد الرهيب يقترب منهم
مشهد قيعان الجبال التي قلبت رأسًا على عقب
حتى إذا ألقيت على آلاتهم الملعونة بطبقاتها الثلاث
رأوها تكتسح وتطمس ، ورأوا ثقتهم الكبيرة
تدفن معها في الأعماق تحت ثقل الجبال !
ثم رأوا أنفسهم يُهاجَمون بعد ذلك ، فعلى رؤوسهم
ألقيت رؤوس الجبال الصلدة التي أقبلت في الهواء
فألقت ظلها وأناخت بثقلها على كتائب مسلحة برمتها !
وقد زادت دروعهم من ضُرِّهم إذ تكسرت عليهم فأصابت
كيانهم الحبيس فيها ، مما آلمهم ألمًا
لا تخف وطأته ، وما أكثر أنّات الألم المكتومة
التي حاولت النفاذ طويلاً من تحت الأثقال ، حتى استطاعوا الإفلات
من ذلك السجن - مع أنهم ملائكة من النور النقي -
كانوا أنقياء أولاً - ولكن الإثم أغلظ كيانهم وكدره !
وأهرع سائرهم محاكين فامتشقوا أسلحة مماثلة
واقتلعوا التلال المجاورة !
وتلاقت التلال بالتلال في الهواء
وهي تُقذف إلى الأمام والوراء بقوة رهيبة
حتى لقد دار القتال على الأرض في ظلها الكئيب !

كان الضجيج جهنميًا وإذا قورنت الحرب بهذا الصخب الصاخب
بدت لعبة مهذبة ! فالاختلاط المفزع يتكدس
فوق الاختلاط ويعلو ، والسماء تكاد
أن تنفطر ويكاد الدمار أن يغشى كل شيء !
لولا أن الأب الجبار الذي يجلس
آمنًا على كرسي العرش في السماء
سأل عن مجرى الأمور ، وكان يعرف مقدمًا
بوقوع هذه الجلبة ، بل أذن بوقوعها بعد تدبر
حتى يحقق هدفه العظيم
وهو أن يشرّف ابنه المسيح بالثأر
من أعدائه ، وأن يعلن
إضفاء السلطة كاملةً عليه . ومن ثم خاطب ابنه
وشريك عرشه قائلاً :
يا بهاء جلالي ! ابني المحبوب ،
أيها الابن ! يا من تشاهد في وجهه المحجوب
منزلتي الإلهية ،
وفي يده ما أقضي به فيفعل !
أيها القدير الثاني ! لقد انقضى يومان -
يومان مما نعد في السماء
منذ انطلق ميكائيل وقواته لترويض
أولئك العصاة . وقد كان القتال مريرًا
كما عساه أن يكون عندما يلتقي مثل هذين الخصمين المسلحين
إذ إنني تركتهما يتقاتلان ، كما تعرف ،

ولقد صورتهما متساوينْ في الخلقة
إلا ما أفسدته الخطيئة ، ولو أنه فساد
غير ظاهر ، فلقد أنظرتهم إلى يوم معلوم .
ومن ثم فلابد أن يظلوا في اقتتال دائم
لا ينتهي ولا يجدون له حلّا
لقد فعلت الحرب بمن أعيتهم كل ما تستطيع :
فأطلقت العنان لفوضى الغضب الجائح
إذ امتشق الجانبان السلاح والجبال معًا فأثاروا
الاضطراب في السماء وتهددوا الكون بالخطر
لقد انقضى يومان ، والثالث لك
لقد قضيت به لك ، وبهذا المدى
أذنت ، حتى يكون لك مجد
إنهاء هذه الحرب الكبرى ، فإنه لا يستطيع سواك
أن ينهيها . لقد بَثَثْتُ فيك أشرف الفضائل
وأسبغت عليك أشرف النعم حتى يعرف الجميع
في السماء وفي الجحيم قوتك التي لا مثيل لها ،
وحتى يستبين عندما تقضي على هذه القلقلة الفاسقة
أنك أجدر وارث لكل شيء -
والأجدر بأن يكون الوريثَ والمَلِكَ الذي مسحت عليه
مسح القداسة - فهذا حقك الحقيق بك
انطلق الآن إذن يا أقوى الأقوياء - بقوة أبيك فيك -
فاعتل عربتي ، وقُدْ العجلات المسرعة
التي تزلزل أسس السماء ، وائت بعدتي جميعًا -

بقوسي ورعدي ، وتمنطق بأسلحتي الجبارة
وشد السيف حول وسطك الأعتى
وطارد أبناء الظلام فأخرجهم
من تخوم السماء جميعًا وألق بهم في الخضم المحيط .
واجعلهم يعرفون - وما أحراهم - كيف يزدرون
الله والمسيح - الملك الذي مُسح عليه .
قال ذلك ثم أرسل أشعته مباشرة على ابنه
وأشرق عليه كل الإشراق ، حتى تلقى ضياء أبيه الساطع كله
وأنار وجهه بنور يجل عن الوصف .
ثم أجاب الرب الابن أباه قائلاً :
يا أبي ! يا أرفع عرش في السماء !
أنت الأول والأعلى والأقدس والأعظم ، دائمًا تنشد
تمجيد ابنك ، ودائمًا أنشد تمجيدك
وهو أعدل ما يكون . أما أنا فأحسب أن مجدي
ورفعتي بل وسعادتي الغامرة
هو أن تكون راضيًا عني كل الرضا ، فتعلن أن مشيئتك
قد نفذت ، فإن إنفاذها نعيمي الأنعم .
إنني أتقلد ما وهبتني من صولجان وقوة
ولسوف أعيدهما إليك في سعادة أكبر ، ولن يبقى في النهاية
إلا وجهك ، وسأحيا فيك
إلى الأبد ، ويحيا فيّ كلُّ من تحبهم .
أما من تمقتهم فأمقتهم ، وأستطيع أن أتسلح
بأهوالك مثلما أتحلى بألطافك

فأنا صورتك في كل شيء ، ولن يطول بي الوقت
حتى أتسلح بجبروتك فأخلص السماء من هؤلاء العصاة
وألقي بهم في مثوى السوء الذي أعد لهم ،
في أصفاد الظلام ، مع الدودة التي لا تموت ،
إذ تمردوا على طاعتك وأنت الحقيق بها
بل إن طاعتك هي الهناء كل الهناء
وعندئذٍ سيقوم قِدّيسوك وحدهم ، وقد فُصل بينهم
وبين الخبثاء ، فيطوفون بجبلك المقدس
ويسبحون لك أصدق التسابيح ، وينشدونك
أرفع أناشيد الحمد والثناء ، وأنا على رأسهم .
قال هذا وانحنى على صولجانه ثم نهض
من مجلسه على يمين المجد والجلال
بينما بدأ ثالث صباح مقدس في الإشراق
فانبلج ضوء الفجر في السماء وانطلقت بصوت العاصفة الدوامة
عربة الإله الأب ،
تشع ألسنة لهب غليظة ، عجلاتها متداخلة لا يجرها أحد
فهي في ذاتها نابضة بالروح ، يصاحبها
أربعة في صورة الشاروبيم ، لكل منهم أربعة وجوه
عجيبة ، وأجسامهم وأجنحتهم
لها عيون كأنها النجوم ، وأما العجلاتْ فلها عيون
من زَبَرْجَد وفيما بينها تجري النيران مسرعة !
وفوق رؤوسهم قبة سماء بلورية
فيها عرش من الياقوت الأزرق المرصع بالعنبر

الصافي وألوان قوس المطر !
وأما هو فكان يرتدي درعًا سماويًا مدججًا
بصخر الأوريم البراق - درعًا صاغه الله - حين
صعد إلى العربة ، وجلس على يمينه «النصر»
بأجنحته العقابية ، وإلى جواره تدلى قوسه
وكنانته ذات السهام الراعدة الثلاثة
ومن حوله دار زفيره الضاري وتكور -
دخانٌ ولهيبٌ متقد ، وشررٌ مستطير !
كان يرافقه عشرة آلاف ألف ملاك
وهو يمضي قُدمًا مشرقًا على البعد .
كما شوهدت عشرون ألف عربة (وقد سمعت ذلك الرقم بنفسي)
من عربات الله ، النصف يمنة والنصف يسرة !
ثم ارتقى أجنحة الشاروبيم فركب
السماء البلورية واعتلى عرش الياقوت الأزرق .
ومع أنه استبان للقاصي والداني فإن أتباعه
كانوا أول من رآه وفاجأهم فرح لم يتوقعوه
حين التمع البيرق العظيم للمسيح
الذي حملته الملائكة عاليًا - فهو ابنه في السماء -
ومن ثم عاد ميكائيل إليه بجيشه ليقوده ،
موزعًا أجناده على الجناحين ،
ففي ظل رئيسهم تجسد الكل في واحد .
وقد مهدت القوة الإلهية الطريق من أمامه
فبأمره عاد كل تل من التلال المقتلعة

إلى مكانه حين أصغت لصوته
فأطاعت ، وعاد للسماء وجهها المعتاد
وابتسمت التلال والوديان بزهيرات غضة .
ورأى أعداؤه التعساء هذا ولكن قست قلوبهم
فجمعوا قواتهم لقتال عاص
أحمق ، إذ أنجب اليأس فيهم أملاً !
أنىّ لأرواح السماء بمثل هذا الفسوق ؟
وهل تجدي الآيات في إقناع المستكبرين
أو تلين المعجزات قلوب القساة ؟
لقد زاد غلظته ما كان حريا بإصلاحه
فلقد حزن لمرأى مجده ، وأثار المشهد
حسده فطمح أن يعلو علوه ،
فاتخذ عدة الحرب ثانيا في ضراوة ظانًا أنه بالقوة أو بالحيلة
سوف يفلح آخر الأمر وينتصر
على الله والمسيح ، أو أن يقع
في هوة الهلاك التام في النهاية . وهكذا
تأهب للمعركة النهائية مستنكفًا أن يهرب
أو يتراجع تراجع الجبناء . وهنا اتجه ابن الله العظيم
إلى كافة أجناده على الجانبين فخاطبهم قائلاً :
قفوا ساكنين في صفوفكم البراقة أيها الأطهار ! قفوا هنا
أيها الملائكة المدججون ، واستريحوا اليوم من القتال ،
لقد صدقتم النية في حربكم ، ولقد تقبلها الله ،
ولقد أبديتم بسالة في سبيله - سبيل الحق -

ولقد كِلْتم لهم من الضربات قدر ما تلقيتم
فلم تهزموا ! ولكن عقاب هذا الرهط اللعين
قد وُكّلت به أيد أخرى
فالانتقام من شأنه هو ، أو من شأن من يكلفه به وحده .
ولقد قضى ألا يكون للأعداد نصيب في عمل اليوم
ولا للحشود - حسبكم أن تقفوا وتشهدوا
كيف أَصُبُّ حنق الله على هؤلاء الكفار
فهم لا يزدرونكم بل يزدرونني أنا -
مع حسدهم لي ! ومبعث غيظهم
أن الأب في السموات العلى
وله الملك والقوة والمجد
قد قضت إرادته بتشريفي
وتكليفي بالقضاء عليهم -
وتحقيق رغبتهم في منازلتي في
ميدان القتال ليروا من منا الأقوى : جمعهم وحشدهم
أم أنا وحدي ؟ ذلك بأنهم يتخذون من القوة
معيارًا لكل شيء ، ولا يطمحون في امتياز سواها
ولا يكترثون إذا امتاز عليهم أحد في غيرها
لا بل ولن أقبل سوى هذا النزال معهم !
وفرغ الابن من حديثه وقد اكتسى بالرعب والرهبة
وجهه فهو لا يُرى لقسوته وهوله
ثم انقض على أعدائه في سورة غضبه .
وعلى الفور نشر الأربعة أجنحتهم المُرصّعة بالنجوم

فالتصقت وألقت ظلها المفزع ، ودارت عجلات
عربته الضارية ، فكان لها هدير كهدير
سيل عرمٍ أو جحفل عرمرم
وزحف كرّا على أعدائه الفسقة
مُدْ لهمّا كالليل ! وتحت عجلاته الملتهبة
زُلْزِلَتْ جنبات السماء الثابتة قاطبة
فيما عدا عرش الله . وسرعان
ما حل بينهم . كانت يده اليمنى
تقبض على عشرة آلاف سهم راعدٍ أرسلها عليهم
قبله فقذفت في نفوسهم
الطاعون ، فذهلوا وفقدوا الطاقة على المقاومة
وذهبت شجاعتهم ، وألقوا أسلحتهم العاطلة !
ووطأت عربته الدروع والخوذ ، والرؤوس ذات الخوذ -
رؤوس أصحاب العروش وجبابرة الصاروفيم المنكفئين
على وجوههم يودون لو أن الجبال
تلقي عليهم فتحميهم من سخطه !
كما انهمرت كالعاصفة على الجانبين
سهامه ، من أيدي الأربعة - وكان لكل منهم وجوه أربعة
محلاة بالعيون - ومن العجلات الحية
وهي محلاة أيضًا بكثير من العيون ،
تحكمها جميعًا روح واحدة ، وتوهجت كل عين
وومضت برقًا وأرسلت شواظ نارها الفتاكة
بين الملعونين ، فأذهبت ريحهم

وجردتهم من مألوف قوتهم ، فهم
منهكون خائرون منكوبون خاسرون !
ولم يكن قد أرسل عليهم نصف قوته ، بل إنه أوقف
سهمه الراعد أثناء انطلاقه إليهم - ذلك أنه لا يريد
أن يهلكهم ، بل أن يخرجهم جميعًا من السماء .
ثم أنهض أولئك المنقلبين وجمعهم مثل قطيع
من الأمعز أو رعيل من الماشية الفزعة
فساقهم أمامه ذاهلين صعقين ، ولاحقهم
بألوان الرعب والنقمة إلى تخوم السماء
وجدارها البلوري . وانفتح شق في الجدار
دار جانباه إلى الداخل فتجلت طاقة واسعة تطل
على خضم الخواء ! ودفعهم المشهد البشع
بأهواله إلى التراجع ، ولكن ما هو أنكى وأمر كان
يدفعهم من الخلف ! فألقوا بأنفسهم من حالق ،
منقلبين من حافة السماء والغضب السرمدي
لهيب يئز في أعقابهم حتى حطوا في حفرة مالها من قرار .
وسمعت الجحيمُ الصخبَ الذي لا يُحتمل ، ورأت الجحيم
سماء تسقط من السماء فكادت تفر
في هلع . ولكن القضاء الصارم كان قد أرسى عميق
أساسها البهيم ، وثبتها ثباتًا لا يتزعزع
وظلوا يتهاوون أيامًا تسعة ، بينما ارتفع زئير العماء الذي ارتبك
واضطرب وتضاعفت بلبلته عشرة أضعاف وهم يمرون
من خلال فوضاه الموحشة ، فإن هذا الحشد الهائل من المدحورين

قد أثقلوه بالهلاك : ولكن الجحيم - آخر الأمر -
فغرت فاها فازدردتهم جميعا ، ثم أقفلته عليهم !
تلك الجحيم مأواهم الحق المحملة بنيران
لا ينطفئ أوارها - دار الألم والعذاب !
وفرحت السماء إذ تخففت من أثقالها ، وسرعان ما أصلحت
الشق الذي انفتح في جدارها ، فدار جانباه إلى مكانهما الأول .
وبعد أن ظفر بالنصر وحده ونبذ أعداءه
أدار المسيح عربة انتصاره وعاد بها
حتى يلاقيه جميع قديسيه الذين كانوا يقفون في صمت ،
وهم يشهدون بعيونهم فعاله الجبارة ،
فتقدموا الآن منه صائحين في فرح ، وأثناء سيرهم
تظللهم أغصان النخيل ، كانت كل طبقة
تنشد أهازيج النصر ، وتتغنى بالملك المنتصر
الابن والوارث والرب الذي وهبت له السيادة
فهو أجدر الحاكمين . وركب المحتفى به
ظافرًا ثبج السماء فدخل ساحات
أبيه القهار ومعبده حيث يجلس على العرش
عاليًا : وتلقاه بالمجد وأجلسه
حيث يجلس الآن - على اليد اليمنى للنعيم .
وهكذا شبهت ما في السماء بما في الأرض
كما طلبت مني ، وحتى تلزم الحذر إذا أحطت
بما حدث في الماضي ، كشفت لك
عما كان يمكن أن يظل خافيًا عن الجنس البشري :

عن الشقاق الذي وقع والقتال في السماء
بين قوات الملائكة ، والدرك الأسفل الذي هوى فيه
من زاد طموحهم عن الحد - فتمردوا -
مع إبليس - ذاك الذي يغبطك اليوم مكانتك
ويدبر مكائده الآن لإغوائك
حتى تخرج عن الطاعة ، وحتى تُحرم الهناء
مثلما حُرم وتشاركه
عقابه وشقاءه الأبدي !
لن يزيد سلوانه وانتقامه على ذلك :
فنقمة منه وحقدًا على الأعلى
يريدك أن تكون رفيقًا له في بلائه .
ولكن لا تصغ إلى غوايته ، واحذر من هي
أضعف منك . وانتفع بما سمعته
عن التنكيل بالعاصي وجزاء
العصيان : كان يمكن أن يثبتوا
ولكنهم سقطوا - اذكر ذلك واخش الإثم .

الكتاب السابع

الكتاب السابع
الموضوع

روفائيل يجيب آدم إلى طلبه فيقص عليه كيف خُلق هذا العالم وأسباب خلقه الأول ، قائلاً: إن الله قد أعرب عن رغبته ، بعد طرد إبليس وزمرته من الشياطين من الجنة ، في خلق عالم جديد ومخلوقات أخرى تسكنه ، ويرسل كلمة منه مكلّلة بالمجد ، تحفُّ بها الملائكة ، لإنجاز مهمة الخلق في ستة أيام ، ويحتفل الملائكة ، بأناشيدهم ، بإنجاز ذلك العمل ، ثم تصعد الكلمة من جديد إلى السماء.

اهْبِطِي من السّماءِ يا «يورانيا» إن كانَ ذاكَ الاسمُ حقًّا
اسمَكِ الذي تُدعَيْنَ به فصوتُك المُقَدّسُ
قد حَدَاني فانطلقتُ طائرًا إلى ذُرا «الأوليمب»
واجْتَزْتُ آفاقَ الجوادِ الطائرِ
إنني أدعو المعانيَ لا حروفَ الاسم
فلستِ مِنْ ربّاتِ تِلْكُمُ الفُنونِ التّسعِ ، ولَسْتِ تقطنين
قمة «الأوليمب» ذي الأمجاد من قديمٍ ، بَلْ قَدْ وُلدتِ في السماء
مِنْ قبلِ أنْ تُلْقَى الرواسي أو تُشَقَّ الأنهرُ الدّفّاقة ،
وصَحِبْتِ في صِباكِ الحكمةَ المُخَلَّدةْ
فالحكمةُ كانت أُخْتَكْ ، معها لَهَوْتِ لدى عَزِيزٍ مُقْتَدِرْ
إذْ سَرَّهُ الذي أَنْشدتِ من أهازيجِ السماء!

إني اتَّبَعْتُك فانطَلَقْتُ أَشُقُّ أَجوازَ الفَضاءِ
مُجازِفًا نَحْوَ السّماواتِ العُلى
ضَيْقًا من الأَرْضينَ أنفاسي مِنَ المَلَكوتِ
قد خَفّفْتِ وَطْأَتها عَلَيَّ! وكذاك قَدْ أَرْشَدْتِني
عند الهبُوطِ بمأْمَنٍ في مَوْطِني
كيْ لا أَظَلَّ طائرًا على جوادي دُونَ لجامٍ أو أقَعْ
مثل الذي لاقاه «بيلروفون» رغم الموقعِ الأَقلّ
فربما إذا زَلَلْتُ تُهْتُ في أرضِ الضياع
حائرًا وقد تَقَطّعَتْ بيَ الأسبابُ وانْتَفَى الأملْ!
أُنْشُودَتي ما زالَ نِصْفُها بلا نَغَمْ، لكنّها أَدْنى نطاقًا
إذ لن تُجاوزَ المرئيَّ من نهارنا الأرضيّ
إني وقفتُ الآنَ فوقَ الأرضِ ناجيًا من نشوةِ القُطْبِ العَصِيّ
مُسْتَظِلاً بالمزَيدِ من الأَمَان
وتفيضُ من شفتيَّ أصواتُ البشرْ
ما مَسَّها سوءٌ وما بُحّتْ وما صَمَتَتْ
مع أنني قد جِئْتُ في أيامِ شَرٍّ مستطيرْ،
أيامُ شرٍّ قد نزلتُ بها والسنةٌ شُرور
فظلامُ عَيْنِي والحُتُوفُ تحيقُ بي في عُزْلتي
لكنني لستُ وحيدًا، ما دمتِ زائرتي التي
تأتي مع الأحلامِ في الليلِ البهيمْ، أو إن خَضّب الصباحُ
أفقَ الشرق أرجوانًا! أمسكي بزمامِ أغنيتي دوامًا
يا «يورانيا» ولتأتِني بالسامعين الصالحين وإن غَدَوْا فئةً قليلة

أبعدي عني نشازَ الصخبِ والوحشية ،
أنغامَ باخوس إلهِ الخمرِ والندماء ،
تلكَ السلالةٌ من سكارى الضجّةِ الهوجاء
تلك التي سَفكَتْ حياة الشاعرِ المرموقِ في «تيراقيا»
من أطْرَبَ الغاباتِ والأحجارَ في «رودوبيا»
لكنّ تلك الضجةَ الوحشيةَ التي عَلَتْ
طَمَسَتْ رنينَ القيثارِ وصوتَ البشرية
والرّبة عاجزةٌ عن إنقاذ فتاها!
لا تَخْذُلي مَنْ مَدّ كفًا للضّراعة والدّعاء ،
فأنتِ من قَبَسِ السماءِ وتلك حُلْمٌ من خَوَاء!
خَبّريني أيتها الربة! ماذا وقع بعد أن حذّر «روفائيل»
(ذلك الملاكُ الأكبرُ البشوشُ) آدمَ من العصيان ، ضاربًا له
المثلَ الرهيب مما وقع في السماء لأولئك العصاة
خَشْيَةَ أن يُلاقي آدمُ أو تُلاقي ذُرّيتُه في الفردوس المصير نفسه
بعد أن أُمِر بألاّ يَقْرَبَ الشجرةَ المحرّمة
بَغْيًا وعدوانًا أو استخفافًا بذلك الأمر الأوحد
فما أيْسرَ الانصياعَ للأمرِ وهناك ما يُختار
من كل مذاق آخر قادرٍ على إرضاء الشهيّة ،
على شطحاتها! كان آدم مع زوجته حواء
قد أصاخا السمعَ للقصة ، وأفْعَمَتْ نفوسَهما
الدهشةُ ، والتأملُ العميقُ عند الاستماعِ
لهذه الأمورِ في الملأِ الأعلى ، أمورٌ يستَعصي على إدراكهما

تصورُّها ، كالبغضاءِ في السماء
والقتالِ على مَقْرُبَةٍ من سَلاَمِ اللّهِ في النعيم
وذياك الخلط المختلط ! ولكن سرعان ما انهزم الشر
وارتد إلى نحور الأشرار مثل النهر المرتد إلى منابعه ،
فمن المحال امتزاجه بالخير وهكذا سرعان ما قهر آدمُ
الشكوكَ التي كانت نشبت في قلبه ، وغدا الآن
مدفوعًا ، دون أن يُذْنب ، بالرغبة في معرفة
ما قد يشغل باله عن قريب ، ألا وهو كيف نشأ
هذا العالم المرئي بأرضه وسمائه أولَ مرة ،
ومتى خُلق ، ومِمَّ خُلق ، ولأيّ سببٍ من الأسباب ،
وماذا حدث داخلَ جناتِ عدن أو خارجَها
قبل عهده بالذاكرة ، مثل شخصٍ ما كاد يطفيءِ غُلَّتَهُ
حتى عاد يتطلّعُ إلى النهر الجاري
إذ ألْهَبَتْ تمتماتُه السائلةُ عطَشَه من جديد ،
وهكذا انطلق يتحدث فيُلقي سؤالَه على ضيفِه القادم من السماء
ما أعظمَ ما كَشَفْتَ النقابَ عنه فأفعمَ آذانَنا بالدهشة !
وما أشدَّ اختلافَه عن هذا العالم ،
يا أيها الشارحُ الربّاني ، المرسَل من السماء برحمةٍ من الله
نذيرًا لنا قبل فوات الأوان ، مما كان من شأنه
أن يتسببَ في ضَيَاعِنا وهلاكِنا
لو جهلناه ، ومما يعجز عِلْمُ الإنسان عن إدراكه ،
ونحن لذلك نَدينُ لرب الخير اللامحدود

بشكرٍ سرمديّ ، ونتلقّى أوامره
برغبةٍ صادقةٍ في الانصياع
لإرادته العليا ، فتلك غاية
وجودنا ، ولكنك ما دمت قد تعهدتَ
وتلطّفتَ بإرشادنا ، فَأَطْلَعْتَنَا
على ما يتجاوزُ الفكرَ الأرضيَّ ، وإن كان من المهم
أن نحيطَ به ، حسبما رأى رب الحكمة العليا
فأرجو أن تتكرم بأن تهبط الآن درجة أخرى فتقصَّ علينا
ما قد يفيدنا ، إن أحطْنا به ، فائدةً لا تقل عن ذلك
ألا وهو كيف نَشَأَتْ أولاً هذه السماءُ التي نراها
سامقةً قصيّةً ، مُزيّنةً بمصابيحَ تجري في أفلاكها
ولا حصرَ لها ، وهذا الهواءُ الذي يغشى أو يملأُ
الفضاءَ كُلَّه ، هذا الهواءُ الذي يُحيطُ بنا ويتخللُ كلَّ شيءٍ
ويحتضنُ هذه الأرضَ المُزْهِرَةَ ويَلُفُّها ، وما السببُ
الذي حدا بالخالق في كُرْسِيِّهِ المُقَدّسِ ،
القيوّمِ السرمديّ ، إلى البناء والتشييد
في لُجّةِ العَمَاءِ ، وما الزمنُ الذي استغرقه العملُ من البداية
للنهاية ، إذا لم يكن قد حُرِّمَ عليك أن تكشف
لنا ما نسألُ عنه ، لا لنسبرَ الأغوارَ والأسرارَ
في هذا المُلْكِ الأَزَليّ ، بل لِنَزيدَ من تعظيمِ
أعمالِه وتمجيدِها ، إذا زادتْ معرفتُنا بها ،
ولمّا يقطعْ الكوكَبُ الدُّري الذي يُضِيءُ لنا النهارَ

شوطًا طويلاً من رحلته الشاهقة مُعَلَّقًا في جَوِّ السماء
ما يُمْسِكُه إلا صَوْتُك ، فهو يسمعُ صَوْتَكَ الجبّارَ
وسوف يتباطَؤُ ويمكثُ حتى يسمعَك وأنت تحكي
قصةَ تكوينِهِ ونشأةِ الطبيعة ومولدِها
من رَحِمِ المحيطِ الخفيِّ البهيم
أما إذا أَغْرِع نجمُ المساء مع القمر
وأسرعا للاستماع إليك فسوف يأتي الليل معه
بالصمت ، وسوف يُنْصِتُ النومُ إليك فيصيبُه الأَرَقْ ،
وإلا طَلَبْنَا منه أن يَغْرُبَ حتى تنتهيَ أنشودتُك
وبختامها تنصرفُ من هنا قَبْلَ مَطْلَعِ الفجر
وهكذا اختتم آدم مَطْلَبَهُ من ضيفه النّابِهِ
فشرع الملاك الربّاني يجيبه بنبرات لطيفة قائلاً:
أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا آدمُ وعلى الحَذَرِ الذي أَبْدَيْتَهُ ،
سوف أجيبُكَ ، وإن كان الحديثُ عن أعمالِ الجبّار شاقًا عسيرًا
فأيّةُ كلماتٍ وأَيّةُ ألسنةٍ لملائكةِ الصاروفيم تقوى عليه
وأي قلبٍ من قلوب البشر يقوى على إدراكه ؟
أما ما تقوى على الإحاطة به ، وهو أقدرُ ما يُعِينُك
على تمجيد الخالق وتعظيمه ، وما يَزِيدُ
من سعادتك أيضًا ، فلن يُحرمَ منه
مَسْمَعُكَ ، فذاك هو التكليفُ الذي جاءني من علٍ
وتلقيتُه ، ألا وهو أنْ أُشْبِعَ رغبتَكَ
إلى المعرفةِ في حدودٍ مرسومةٍ ، فلا تَقِفُ ما بَعْدَهَا

ولا تَسَلْ عنه ، ولا تَدَعْ المنطقَ البشريَّ يغريكَ بمعرفة
ما لم يُنَزَّلْ ، فالمَلِكُ الذي لا تدركه الأبصارُ ،
والذي أحاطَ بكلِ شيء عِلْمًا وَحْدَه ، يطمسُ ذلك في ظُلُماتِ اللَّيْل ،
وليس لأحدٍ أن يَطَّلع عليه في الأرض ولا في السماء ،
تاركًا لنا كِفَايَتَنَا من سوى ذلك ، مما نستطيع أن نَنْشُدَه ونعرفَه
ولكنَّ المعرفةَ مثلُ الطعامِ ، وهي تحتاجُ أيضًا إلى
الاعتدالِ في الطلبِ لا إلى الشهيّةِ النّهمةِ ، أي أن يُحيطَ
الإنسانُ بما يستطيعُ الذهنُ أن يستوعبَه دون إفراطٍ
وإلا أُصيبَ بالتُّخمة ، وسرعان ما يُحيلُ
الحكمةَ إلى حماقةٍ ، مثلما يتحولُ الغِذاءُ إلى ريحٍ
اعْلَمْ إذن ما حدثَ بعد خروج «لوسيفر» من الجنّة
(وهذا هو اسمه القديم ، إذ كان يُشعُّ ذات يومٍ ضياءَه وَسْطَ حَشْدِ
الملائكةِ ، فيفوقُ نورَ نَجْمِ الصّباحِ بين النجومِ)
وبعد أن سقط مع كتائبه التي جَلَّلَتْها ألسنةُ اللهيب خلالَ المحيط
في مكانه ، وبعد أن عاد المسيحُ العظيم
منتصرًا مع الملائكة الأبرار ، نظر العليُّ القدير ،
العَدْلُ السرمديُّ ، من عرشه فشاهد
حَشْدَهُمْ ، ومن ثم خاطبَ المسيحَ قائلاً:
لقد اندحر عَدُوُّنا الحسودُ على الأقل ، وكان يظن
أن الجميعَ مثلُه من العُصاةِ ، وأنه قادرٌ بمعونتهم
على انتزاعِ هذا الجبروتِ الرفيعِ المنيعِ ، وعرش
الربِّ الأعلى ، فينتزعَ مُلْكَنا ،

بل كان يأملُ ذلك فأوقعَ في الخيانةِ
الكثيرين حتى أصبحَ مكانُهم القديم هنا يُنْكِرُهم
ولو أنني أرى أن الغالبيةَ العُظْمى قد استَمْسَكَتْ
بمكانتها ، وأنّ الجنةَ ما زالت عامرة ، تَزْخَرُ
بأعدادٍ تكفي للحفاظ على أصقاعها ،
على اتساعها ، وللتردّد على هذا المعبد الرفيع
للتسبيح كما ينبغي بآيات الحمدِ وأداءِ الشعائرِ في خشوع
ولئلاّ يسمو به إحساسُه بالضّررِ
الذي أَحْدَثَهُ ، بأنْ أخلى الجنة من سُكّانها
في توهُّمِهِ السقيم الذي يصوّرُ له الإضرارَ بي ، فسوفَ أُصْلِحُ
الضّرر ، لو كان الضّرر أن يَخْسرَ الكائنُ
ذاتَه بذاته ، وسوف أَخْلُقُ في لحظةٍ واحدةٍ
عالمًا آخَرَ ، ومن إنسانٍ واحدٍ ذُرّيةً
من البشر لا تُحصى ، فتقيمُ هناك ،
لا هنا ، ثم تَرْقَى في درجاتِ الرّفعة بالعمل الصالح
فتفتحَ لنفسها آخِرَ الأمرِ الطريقَ
الصاعدَ إلى هنا ، بعد النجاحِ في امتحانِ الطاعةِ الطويل ،
فتتحولُ الأرضُ إلى سماء ، والسماءُ إلى أرض ،
مملكةٌ واحدة ، فرحٌ ووحدةٌ بلا نهاية
والآن انتشروا يا قُوى السماء يا ملائكتي ،
وأَنْتَ يا كَلِمتي ، أيُّها المَسيح ! بكلمةٍ منّي
هي أَنْتَ سوفَ أُنجزُ العملَ قائلاً كُنْ فيكون

وها هو الرُّوحُ والجَبَرُوتُ من عندي يُظِلُّ كُلَّ شَيْءٍ
وها أنذا أُرْسِلُه مع كَلِمَتي انْطَلِقْ فورًا! مُرْ مَاءَ المُحيطِ
داخلَ الحدودِ المرسومةِ أن يُصْبِحَ الأرضَ والسمَّاء ،
وأن يَظَلَّ ماءُ المحيط بلا حدود ، فأنا الذي أحيطُ بكل شيءٍ وأغشى
الأزَلَ ، حتى ما يَعْرِف أيُّ مكانٍ معنى الخَوَاء ،
ولو أنني ، أنا غير المحدود ، احتجبُ
ولا أَفْرِضُ الخير من نفسي على أحد ، بل أقضي بحريّة الخير
فِعْلاً أو تقاعسًا ، وما أَشَاؤُهُ هو القَدَرُ
هكذا تكلَّمَ ذو الجبروت ، وما تكلّم به
أَنْفَذَتْهُ كَلِمَتُهُ على الفَوْرِ ، والمسيحُ كلمةٌ منه ،
فأفعالُ الله فَوْرِيّة ، أَسْرَعُ مَضَاءَ
من الزَّمَنِ أو الحركة ، ولكنّ آذانَ البشر
لا تستطيع أن تتلقّاها دون الحديث والرواية ،
وما الحديثُ السائر إلا ما يُلائم الفكر الأرضي
وطَرِبُ الملأُ الأعلى طَرَبَ الفَرْحَةِ والنّصر العظيم
عندما سَمِعُوا أنّ هذه مشيئةُ ذي الجبروت التي أعلنها ،
فَسَبَّحوا باسم الأعلى وأَنْشَدُوا ، داعين بالخير
للبشرية المُقْبلة ، وبالسّلم لَهُمْ في مغانيهم
فسبحانَ من غَضِبَ فجاءَ انتقامُه جَزَاءً وفاقًا
ولَفَظَ من غَضِبَ عليهم من الفَسَقَةِ فاخْتَفَوْا
وغَادَرُوا ديارَ العُدُولِ ؛ فسبحانَه
سُبْحانَه والحمدُ له ، إذ قَضَتْ حِكْمَتُه

أَن يخلُقَ الخيرَ من الشر ، وأَنْ يأتِي بدلاً
من الأرواحِ الخبيثةِ بجِنْسٍ أرقى ليشغلَ
المكانَ الذي أُخرجوا منه ، وهكذا ينشرُ
خيرَه إلى عَوَالِمَ وعُصُورٍ لا نِهايةَ لها
وبهذا أَنْشَدَتْ طبقاتُ الملائكة ، وفي أثناءِ ذلك
ظَهَرَ الحَرْفُ المَنُوطُ به تحقيقُ الإنجازِ العظيم
محفوفًا بالقُدْرةِ على كُلِّ شيءٍ ، مُكَلَّلاً بالسَّنى والسّناء
وبالجلالِ الإلهي ، وبالحكمةِ ، وبالحب
الغامر ، وسَطَعَتْ في الحَرْفِ أسماءُ الله الحُسْنى جميعًا
وفي رِكابِه تَدَفَّقَتْ أعدادٌ لا تُحصى من الملائكة
من الشاروبيم والصاروفيم ، ومن ذوي القُوَى وذوي العروش
ومن ذوي الفضائل ، ومن الأرواحِ المُجَنَّحةِ ، والعَرَبَاتِ المجنحة ،
من خزائنِ الله ، حيثُ انْتَظَمْت منذ الأزلِ
آلافٌ مؤلّفة في مَأْزِمٍ بين جَبَلَيْن من النُّحَاس ، واقفةً
في انتظارِ يومٍ مشهودٍ ، قريبةً ومدجّجة ،
فهي حاشيةُ السماء ، وتَقَدَّمَتْ الآن
تلقائيًا ، إذ كانت الروحُ الحَيَّةُ فيها
يقظةً تنتظرُ إشارةَ مولاها ، وفَتَحتْ السماءُ
أبوابَها الصامدةَ على مصاريعها ، فَصَدَرَتْ أنغامُها متوافقةً
وهي تدورُ على المحاورِ الذهبيةِ ، ليخرجَ منها
مَلِكُ الجلالِ بمالَهُ من قوةِ الكَلِمةِ
والروحِ ، مقبلاً ليخلقَ عوالمَ جديدة

على أرض السماء وقفوا ، ومن الشاطئ
أبصروا الهُوَّةَ السحيقةَ التي لا قَرَارَ لها
كالبحر مائجةً هائجة ، مظلمةً موحشةً جامحة ،
تثيرها من الأعماق رياحٌ جائحة
وأمواجٌ ثائرةٌ فائرة ، كالجبالِ تناطحُ
ذروة السماء وتمزج قُطْبَ الأرض بمركزها
الصمتَ أيتها الأمواجُ الهائجةُ ، ويا أيها البحرُ اسْكُنْ!
ذاك ما قالته الكلمةُ الخالقة ، وأضافت أَقْلِعْن عن نشازكن !
ولم تَلْبَثْ الكلمةُ حتى انْطَلَقَتْ على أجنحةِ ملائكة الشاروبيم
طائرةً تركبُ متنَ الجلالِ الإلهيِّ العظيم
فَقَطَعَتْ مسافةً هائلةً وَسْطَ العَمَاءِ والعالمِ الذي لم يولَدْ بَعْد ،
ولقد سَمِعَ العماءُ صوتَ ذلك الحَرْف ، واتَّبعته حاشيتُه جمعاءَ
تسيرُ في رِكابِهِ في موكبٍ مُشْرِقٍ وَضَّاءٍ لتشهدَ
الخَلْقَ ومعجزاتِ جبروتِه ، ثم تَوَقَّفَتْ
العجلاتُ الناريَّةُ وهَدَأَتْ ، ثم أمسكَ في يده
بأجهزةِ قياسِ الاتجاه الذهبية التي جِيءَ بها
من خِزَانَةِ الله الخالدة ، لرسْم حُدود
هذا الكون ، وجميع المخلوقَات
وجعل من إحدى قدَميه مركزًا ، ودار بالأخرى في دائرة
داخل الأعماق السحيقة الشاسعة الظلماء
وقال إلى هنا تمتدُّ ، وهذه حُدُودُك
وليكنْ هذا محيطَ دائرتِك المرسومَ أيها العالم

وهكذا خَلَقَ اللهُ السماءَ ، وهكذا خلقَ الأرض ،
من مادّة لا شكلَ لها وخَوَاءٍ ، والظُّلْمةُ العميقةُ
تغشى الهُوَّةَ السحيقة ، ولكنْ على وَجْهِ الماء الساجي
نشر رُوحُ الله جَنَاحَيْه وبَسَطَهُما بَسْطًا
ونَفَثَ قُوّةَ الحياة ، وطاقةَ دِفْءِ الحياة ،
في شَتَّى ذَرَّاتِ الكُتْلةِ السائلةِ ، ولكنّه طَهَّرَ أعماقها
من الشوائب السوداء والحُثالة الباردةِ الخبيثة
المُعاديةِ للحياةِ ، ثُمّ أَرْسى وأَسَّس ، ثم جَمَعَ فَكَوَّر ،
وقَرَنَ الأشياء إلى أشباهها ، ووضع الباقي في أماكنَ متباعدةٍ
متفرقةٍ ، وفيما بينها جميعًا أنشأ الهواء
وغدت الأرض مُعَلَّقةً متوازنة حول مركزها
وقال الله فَلْيكُنْ النّورُ فكانَ النّورُ على الفَوْر
نورًا أثيريا صافيًا ، أولُ الأشياءِ ، والجوهرُ النَّقِيُّ
النابعُ من المحيط ، والمنطلقُ من موطِنِه في الشرقِ
بادئًا رحلتَه عبرَ دَيْجُورِ الهواء
مستديرًا في سحابةٍ وضّاءة ، إذْ لم تكنْ الشمسُ
قد وُجدتْ بَعْدُ ، حتى أقام في صومعةٍ ضبابيةٍ
ولَبِثَ فيها زمنًا ، ورأى الله أن النُّورُ حَسَنٌ
وفصلَ النُّورَ عن الظلام في نِصْفَيْ الكرةِ الأرضية
فانفصلا ، وأسمى النور نهارًا والظلام ليلاً
وهكذا أصبح اليومُ الأول يتكون من مساءٍ وصباح
ولم يَعْدِمْ ذلك الحَدَثُ مَنْ احتفلَ به ، أو من يُنْشِدُهُ الألحان

من جماعاتِ المنشدين في السماء ، عندما سطع نور الشرق
ورأوه يتدفق أولَ مرةٍ من سُجُفِ الظلامِ
يومَ ميلادِ السماء والأرض ، فأَفْعَمُوا بالفَرْحَةِ والصياحِ
وملأوا خَوَاءَ الفَلَكِ الكَوْنِيِّ المديد ،
ومَسَّتْ أناملُهم أوتارَ القيثارَ اللهبي ، وبالتسابيح حمدوا
الله وامتدحوا ما خَلَقَ ، منشدين للخالق أهازيجهم
عندما أَمْسَى أولُ مساءٍ وعندما أَصْبَحَ أولُ صباحٍ
ثم قال الله فَلْتَكُنْ السماءُ وَسْط الأَمْوَاهَ ،
ولتَفْصِلْ هذه المياهَ عن تلك المياهِ ، وجعل الله
السماءَ كيانًا مديدًا من الهواء السائل النقي
الشَّفَّاف ، من عنصر صاف ، وانتشر
في دائرة حتى وصل إلى أُقْصَى أطرافِ محيط
هذا الكون العظيم ، فَأَصِلٌ ثابتٌ وطيد
يعزل المياهَ السُّفْلى عن المياه العليا
ويفصل بينها ، فعلى مثالِ ما بنى الأرضَ بنى العالم
وشَيَّده على وَجْهِ الأمواهِ الدائريةِ الساجيةِ ، في محيطٍ شاسعٍ
كالبِلَّور الصافي ، ثم أَقْصَى النَّشازَ الصاخِبَ
للعَمَاءِ ونَفَاهُ ، حتى لا تتجاورَ النَّقائضُ فتشتبك
في ضراوةٍ قد تُزَعْزِعُ نظامَ الهيكلِ كله
وأطلق على الجَوّ اسمَ السَّماءِ الدُّنيا ، وهكذا ، مساءً
وصباحًا ، غنى المنشدون أغنيةَ الترحيبِ بإشراقِ اليومِ الثاني
تشكّلتْ الأرضُ ، ولكنه كان في رَحِمِ

الأمواه جنينٌ لم تكتمل صورتُه بعد ،
ولم يظهرْ بعد ، فعلى وَجْهِ البسيطةِ كُلّها كانت مياهُ
المحيطِ تجري بلا انقطاع ، ولم تكن عاطلةً ، بل كانت تحملُ دِفْءَ
عنصرِ إخصابٍ يُلينُ سطحَ الكُرةِ كُلّه ،
وعندما تخمّر جَعَلَ الأُمّ الرؤومَ تحمل ،
بعد أن رَوّاها فأشبعها ماءُ التكاثرِ ، عندما قال اللهُ
فتجتمعي الآن أيتها الأمواهُ الجاريةُ تحت قُبّةِ السماء
في مكانٍ واحد ، ولتظهرْ اليابسةُ الآن!
وعلى الفور ظهرت الرواسي الضّخام
وبَرزَتْ ، ورَفَعتْ ظُهُورَها العريضَة العارية
حتى اخترقت السحب وارتقت ذراها عَنَانَ السماء
ومثلما ارتفعت هاماتُ الجبالِ الثِّقالِ ، انخفضت
هُوّةٌ كالجُبّ ذي القاعِ العميقِ العريضِ ،
حَوْضٌ واسعٌ للأمواهِ التي اندفعت فيه
مُسْرِعةً فرحةً لشدةِ انحدار جوانبه ، وقد تجمعت
كأنها القطرات التي تتكوّرِ على التراب في اليابسة ،
وارتفع بعضها في جدار بلّوْريّ أو صخرة سامقة
من سرعة الاندفاع ، وسُرّت القيادة العظمى بهذا الانطلاق
على متن الأنهر المسرعة ، ومثلما تنطلق الجيوش حين يدعوها
النفير «ولقد سَمِعْتَ من قبلُ عن الجيوش»
فَتَلْتَفُّ حول حاملِ اللواء ، انْطَلَقَتْ حشودُ المياه
موجةً تعلو فوقَ موجةٍ ، أينما وضَحَ السبيلُ ،

فإن كان المَهْبِطُ شاهقًا انقضّت كسيلٍ عارمٍ ، وإن كان السهل منبسطًا
هَدَأَتْ ولاَنَتْ ، ولم يَعُقْها عائقٌ من صخورٍ أو تلال
بل شقت طريقها ، إما تحت الأرض ، وإما دائرةً في دورات
تتلوى حول العوائقِ مثل الثُعبانِ ، فَتَحْفُرَ
في الطِّينِ اللَّزِجِ قنواتٍ حتى تَصِلَ إلى البَحْر
وهَدأَتْ حركتُهَا قبل أن يأمرَ الله الأرضَ أن تَجِفَّ
إلا بين هَاتِيكَ الضفافِ حيث تتدفقُ الأنهارُ الآن
وتجري ، وهي تُجَرْجِرُ في كل آنٍ أذيالَ ثَوْبِ الماء
وأطلق الله اسم اليابسةِ على الأرض الجافة ، وأما المستودعُ الهائل
من الأمواهِ المتجمعة فأسماها البحار
ورأى ذلك حسنًا فقال فَلْتُخْرِجْ الأرضُ
الكلأَ الأخضر ، والعشبَ الذي يُنْبِتُ الحَبَّ ،
وأشجارَ الفاكهة التي تُثْمر كل منها فاكهة من لَوْنها ؛
وبذورُها في ذاتها في الأرض
ولم يَكَدْ يقولُ ذلك حتى كانت الأرضُ الجرداءُ ، وكانت
صحراءَ جرداءَ ، قبيحةً لا يَزِينُها شيءٌ ، حتى تلكَ اللحظة ،
قد أنبتت الكلأَ الرقيق ، فكَسَتْ نصالُه الزاهيةُ
وجهَ الأرضِ في كل مكانٍ باللونِ الأخضرِ البهيج ،
وتَلَتْهُ أعشابٌ ذات أوراقٍ من شتى الأشكال ، إذ أَزْهَرَتْ فجأةً
وتَفَتَّحَتْ ، مختلفةً ألوانُها ، فأشاعتْ السرورَ
وطيبَ الشذا والأريجَ في صَدْرها ، ولم تَكَدْ تتفتّحُ
حتى ازْدَهَتْ عرائشُ الكروم بالعناقيد المتراصّةِ ، وزَحَفَ على الأرض

اليَقْطينُ المُنَتفِشُ ، وانْتَصَبَتْ سنابلُ القَمح على أعوادها
شائكةَ السلاحِ في حقولها ، والخُزامي بسوقِها القِصار ،
والشجيراتُ ذَاتُ الشَّعْرِ الجَعْدِ الكَثّ ، وأخيرًا
هَبَّتْ أشجار الدَّوْحِ متمايلةً كالراقصاتِ ، ونَشَرَتْ
غصونَها المثقلةَ بالثّمارِ الجَمَّةِ ، أو فتّحتْ أكمامَ
براعِمِها ، فكُلّلتْ بالغاباتِ السامقةِ هاماتُ التلال
وبالكلأِ الوديانُ وكلُ عينٍ من عيون الماء
وبالضفافِ الطويلةِ الأنهارُ وكانت الأرض الآن
تبدو مثل الجَنَّةِ ، مقرّا يليقُ بسُكْنَى الملائكة
فالنُّزهة فيه مُمْتعةٌ ، وما أَجْمَلَ الابترادَ
في ظِلالِها المُقَدَّسة وإذا كان اللهُ لم يُنْزِلْ المطرَ بَعْدُ
على الأرض ، ولم يكنْ فيها من البَشَر من يَفْلَحُ التُّربة
فإنّ رذاذَ الأنداء كان يَتَصَاعَدُ من الأرض
ويَرْوي التُّرْبَةَ كُلَّها ، ويَرْوي كُلَّ
نباتٍ في الحقل ، وكان اللهُ قد خَلَقَهُ
قبلَ أن يكون في الأرض ، وكُلَّ عُشْبٍ قبلَ أن ينمو
على ساقه الخضراء ، ورأى الله ذلك حسنًا ،
وهكذا شَهِدَ المساءُ والصباحُ اليومَ الثالث
وتكلم الجبارُ مرةً أخرى فقال: فلتكنّ هناك مصابيحُ
عاليةٌ في صفحةِ السماء الدُّنيا حتى تَفْصِلَ بين
النهار والليل ، ولتكنْ آياتٍ يُهْتدَى بها لمعرفةِ
الفصول والأيام والسنين الدوّارة

ولتكنْ المصابيحُ المنيرةُ حسبما قَضَيْتُ
لها أن تكونَ في السماء الدنيا ،
فترسل ضوءَها إلى الأرض ؛ ونَفَذَتْ مشيئتُه
وخلق الله سِراجَيْن مُنيرين عظيمين ، وسرٌّ العظمة نفعُهما
للبشر ، أما السّراجُ الوَهّاجُ الأكبرُ فهو مَلِكُ النهار
وأما الأصغرُ فَلَهُ اللّيلُ ، بالتناوب وخَلَقَ النجومِ
ووَضَعَها في السماء الدنيا
حتى تنيرَ الأرضَ ، وتكونَ ملوكًا على النهارِ
في تعاقبِ مواقِعِها وملوكًا على الليل
إذ تفصلُ النورَ عن الظلام، ورأى اللهُ
وهو يستعرضُ عَمَلَه العظيمَ أن ذلك حسنٌ
فبدأ بالشمس من بين الأجرامِ السماوية
فصوّرها في صورة كُرَةٍ جبارةٍ ، وكانت مظلمة أولاً ،
وإن كانت مادتها صافية نقية ، ثم صوّر القمر
في صورة كُرويّة ، والنجومَ بشتى أحجامها ،
وبَذَرَ النجومَ في السماء بذرًا كأنها البُذُورُ في الحقل
وأخذ معظم طاقاتِ نورها
فنقلها من صوامعها الضبابية ، وأنزلها
في إهاب الشمس ، إذ جعله ذا مَسَامٍّ قادرًا على تلقيّ
الضوءِ السائلِ وارتشافه ، وصُلْبًا قادرًا على حفظ
ما اجتمع فيه من الأَشِعّةِ ، فَغَدَا صَرْحَ الضوءِ الأعظم
وإلى هذا الصَّرْحِ تأتي النجومُ الأخرى ، كأنه النَّبْعُ الذي

تستقي منه الضوءُ في آنيتِها الذهبية
ومن ضوء الشمس يستمدُّ كوكبُ الصباحِ ما يزينُ به قَرْنَيْه ؛
وهكذا فالإمداد بالضوءِ أو انعكاسُه يزيدُ من
نور النجومِ الأصيل ، ولكنها بعيدة عن بصر الإنسان
بعدًا شاسعًا يجعلنا نراها ضئيلة الجرم
شوهد السِّراجُ الوهّاجُ أولَ مرةٍ في مَطْلَعِهِ الشرقي
ملكًا على النهار ، والأفق من حوله تغمره
الأشعة الساطعة ، وبدأ يجري مرحًا
في فَلَكِه المرسوم على الطريق العُلْويِّ في السماء ، وأما
الفجر الأَشْهَبُ وكوكبُة الثُرَيّا فكانا قد سبقاهُ راقصيْن
مرسليْن البشائرَ اللطيفةَ ، وأما القمرُ الأقلُ سطوعًا
فكان يغرب في الأفق الغربي ، على الطرف الآخر ،
كان مرآة السراج الوهاج ، وطلعةُ البدرِ تستعيرُ ضوءَها
منه ، في غير حاجة إلى أي ضوء آخر سواه
وهو في هذا المَنْزِلِ ، ويظلُّ بعيدًا عنه بالمسافةِ نَفْسِها
حتى يأتيَ اللّيْل ، ويأتي دورُه ليسطعَ في الشرق
بعد أن يدورَ حول مِحور السماء العظيم ، ويبدأ عهد مُلْكه
مشاركًا فيه ألفَ مصباح صغيرِ
وألفَ ألفِ نجم ، تبدو آنذاك
وقد رَصَّعَتْ نصفَ الكرة الذي زُيِّنَ أوّلَ مَرّة
بتلك الأضواء المتلألئة التي غَرُبَتْ ثم أشرقت
فكانت فرحةُ المساءِ وفرحةُ الصباحِ تتويجًا لليوم الرابع

وقال الله فَلْتَتَوَلَّدْ من الأمواه
زواحفُ ذاتُ بيضٍ كثير وذاتُ أرواحٍ حيّةٍ
ولتَطِرْ الطيورُ فوقَ الأرض بأجنحةٍ تَدِفُّ
منشورةً في جَوِّ السماءِ الطليقِ
وخَلَقَ الله الحيتان الضخمة ، وكُلّ
روح حية ، وكل من يمشي على بطنه ، وهي التي أكثرت
المياه من توليدها من كل جنس ،
وكل طائر يطير ، من جنسه ،
ورأى اللّهُ ذلك حسنًا فباركها وقال:
تكاثروا وتناسلوا ، واملأوا المياه في البحار
وفي البحيرات وفي الأنهار الجارية ،
ولتتكاثر الطيور على الأرض.
وعلى الفور أصبحت المحيطاتُ والبحارُ ، وكل غديرٍ وخليجٍ ،
حافلةً بأعدادٍ لا تُحصى من الكائناتِ الصغيرةِ ، وأسرابِ
الأسماكِ التي كانت بزعانفها وقُشُورها اللامعةِ البراقة
تنزلقُ سَاربَةً في لُجَجِ المياهِ الخضراء ، في زُرافات كثيرًا ما
تتكدَّسُ كأنها السَّدُّ في ثَبَجِ البَحْر ، بعضُها وَحْدَهُ وبعضُها مع زَوْجِهِ ،
تأكلُ الأعشابَ البحرية في مراعيها ، أو تجوبُ خمائل
المَرْجَان فتَضِلُّ فيها ، أو تلهو فتميلُ فجأةً
فتُظْهِرُ للشمس أرْدِيَتَها المتماوجةَ المُرَقَّشَةَ بالذهب
أو تنتظرُ ، على غير عجل ، في صَدَفَاتها ذوات اللؤلؤ
أن يأتيها الغذاء من الماء ، أو تكمنُ تحت الصخور

في دُرُوعٍ مُلَتَحِمةٍ ترقبًا للغذاء وفي المياه الهادئة ترى الفَقَمةَ
وترى الدَرْفيلَ المُخطّط أثناءَ اللعب ، وهي لضخامة جُرْمِها
تتمايلُ دون رشاقة ، ولكنها حين تنطلق ترى جسامتها
وقد عكّرت ماء المحيط ، وذاك تِنيّنُ الماء
أضخم المخلوقات الحية ، ممددًا في البحر
ممتدًا مثل البرزخ ، نائمًا أو سابحًا ،
ويبدو كأنه أرض تتحرك ، فمن خياشيمه
يَنْشَقُ الماء نَشْقًا ، ومن جذعه يَنْفُثُ بحرا
وفي أثناء ذلك ترى الكهوفَ الدافئة ، والأَغْوَارَ والشُّطآن
وقد فَقَسَ فيها بيضُ الطيورِ التي تُضَارِعُ الأسماكَ في كثرتها ، فالبيضُ سرعان
ما ينكسرُ بطبيعته ويَتَفَتّتُ فتخرج منه
الصغار عارية ، ولكنها سرعان ما ينمو ريشها
فتنعمُ بالقوادِمِ والخَوَافِي ، فتحلّقُ عاليةً في الهواء
وتصيحُ صيحَاتِ الازدراء للأرضِ ، التي تلوحُ لها الآن
من تحتِ سحاباتِ الأجنحةِ ، وهناك العِقْبانُ واللَّقَالِقُ
التي تبني أوكارَها فوقَ الصخورِ الشّاهِقَةِ وقِمَمِ الأَرْزِ السّامِقَةِ
فبعضُها يحوّم منفردًا فوق المنطقة ، وبعضها أكثر حكمة
إذ يشق طريقه في سِرْبٍ على شكل سَهْمٍ
عارفًا بفصول السنة ، فينطلق في
قافلةٍ في الهواء ، فيُصَعّدُ في الجو عاليًا فوق البحار
في طيرانه ، أو فوق اليابسةِ بأجنحةٍ متعاضدة
تُيَسِّرُ سبيل الرحلة ؛ وذلك ما يفعله الكُرْكِيُّ العاقل في توجيه

رحلته السنوية ، محمولاً على متن الرياح ، والهواء
يتماوج أثناء مروره ، تُحَرِّكُهُ أعداءٌ لا حَصْرَ لها من الريش
وأما الطيور الصغرى فهي تنتقل من فَنَنٍ إلى فنن ، بأغانيها
التي تُسَرِّي بها عن الغابات ، وتنشرُ أَجْنِحَتَها المخضّبة
حتى المساء ، ولو أن البُلْبُلَ الرَّزينَ
لا يتوقفُ عنِ الشَّدْوِ بل يستمرُّ طولَ اللَّيْلِ في صَوْغِ ألحانِه الرقيقة
وترى طيورًا أُخرى في لُجَيْنِ البُحَيْراتِ والأنهار تَغْسِلُ
الزَّغَبَ في صُدورها ، فطائرُ التَّمِّ ، برقبته الطويلةِ المقوَّسةِ
الشامخة بين جناحَيْه اللَّذيْن يكسوانِه مثلَ وشاحٍ فخارٍ أبيضَ يُجَدِّفُ
فيتهادى بقدميْن كالمجاديف ، لكنه كثيرًا ما يغادر
الماء ، ويصعد بريشه القويّ فيحلقُ عاليًا
في كَبِدِ السماء ، ونرى طيورًا غيرها تسير على الأرض
بخطى ثابتة ، مثل الديك ذي العُرْفِ الذي يصيحُ في
ساعاتِ الهَدْأَةِ ، ومثل الطاووسِ الذي يختالُ بالريش الزاهي الذي
يَزِينُه ، مُلَوَّنًا بألوانِ الزُّهور وألوان
قوسِ قُزَحٍ والعيونِ اللألاءةِ كالنجومِ وهكذا امتلأتْ الأمواه
بالأسماكِ ، وامتلأ الهواء بالطيور ، فهبط
المساء وأشرق الصبح في اليوم الخامس
أما اليوم السادس ، وهو آخر أيام الخلق ، فبدأ
بألحان قيثار الليل وصلواته ، عندما قال الله:
فَلْتُخْرِجْ الأرضُ الأرواحَ الحَيَّةَ من جِنْسِها
من الماشية والزواحفِ وحيوانِ الأرضِ ،

من شتى الأجناس ، فأطاعَتْ الأرضُ وعلى الفور
فَتَحَتْ رَحِمَها الخِصْبَ فتَكَدَّسَتْ في ذلك المولد
أعداءٌ لا تحصى من المخلوقات الحية ، تامَّةَ الصورة ،
كاملةَ الأطرافِ ، مكتملةَ النُّمو ، ومن الأرضِ نَهَضَتْ
الحيواناتُ المتوحشةُ كأنما تنهضُ من مَرَابِضِها ومَكَامِنِها
في الغاباتِ البَرِّية أو الأدغالِ أو الأحراشِ الشائكةِ أو العَرَائِنِ
ونَهَضَ كل زَوْجَيْن معًا وَسْطَ الأشجار ، وسار الجميع ،
فاتجهت الماشية إلى الحقول والمراعي الخضراء ،
وكانت الوحوش تسير في انفراد وعزلة ، والماشية في قطعانَ
ترعى معًا ، بل وَظَهَرَتْ أول ما ظَهَرَتْ في قطعانَ عريضةٍ
وانْشَقَّتْ بعضُ قِطَعِ الطِّينِ التي ينمو عليها الكلأُ ، فظهر النصف الأمامي
للأسد بلونه الأَدْكَن ، وأخذ يَخْمِشُ الأرض بقدميه ليُخَلِّصَ
رجليه من الطّين ، ثم انْطَلَقَ كالأسير من قيوده ،
وصَالَ وجالَ وهو يهزُّ لِبْدَةَ رأسِهِ البُنِّيةَ اللّون وتلاه البَبْر
والفَهْد والنَّمِرُ وقوارضُ الأرضِ التي خَرَجَتْ
ونَهَضَتْ ، فأهال خروجُها الترابَ الذي نَفَضَتْهُ واجتمع
في كثبانَ ، وخرجَ الظَّبْيُ العَدَّاءُ من تحتِ الأرض
وهو يحفُرها بفروعِ قَرْنَيْ رأسه ، ولا يكادُ يُضارِعُ شيءٌ هيكلَ
الفيلِ في ضخامَتِه ، وهو يُولَدُ من الأرض ويرفعُ
هامَتَهُ الهائلة ، وبعدَه خَرَجَتْ القُطعانُ ذَاتُ الفِرَاءِ والثُّغاء ،
مثل النباتات ، ثم كان مَنْ تَرَدَّدَ بين الماءِ واليابسة ،
فرسُ النَّهرِ والتِّمساحُ ذو القُشُورِ الصَّلْدَةِ

وخرج معًا كل ما يَزْحَفُ على سطح الأرض من
حشراتٍ أو ديدان ، فالأولى تَدفُّ بأغشيةٍ رفرافةٍ
كأنها الأجنحة ، وقد تَنَاسَقَتْ فيها أدقُّ الأعضاءِ وأصغُرها
في شَتّى ما اكْتَسَتْهُ من أَرْدِيَةٍ مُوَشَّاةٍ بِبُقَعِ الصَّيفِ الزَّاهِيَة
ومُرَقَّشةٍ بألوانِ الذَّهَبِ والأُرْجُوان واللازوردي والأخضر
والأخرى تنتظم في صف طويل وهي تسير
تاركة على الأرض آثارًا غائرةً واضحة ، ولم تكن كلها
من أصغر المخلوقات في الطبيعة ، بل كان من الحيات أنواع
عجيبة الطول والاكتناز ، تلتوي
تلافيفها الثعبانية ، وازدادت أجنحة وبدأت الزحف
النملة الحريصة المُدَبِّرَةُ ، فهي تَدَّخِرُ
للمستقبل ، في جُرْمِها الضئيلِ قلبٌ كبيرٌ ،
وربما ستكون نموذجَ المساواةِ المنصفة
فيما بعد ، فالتحقت بقبائل شَعْبِها
من العَوَامِّ ، وظهر بعدها حَشْدٌ من
إناث النَّحل ، فهي التي تُطْعِم أزواجَها من الدَّبْرِ
ما لَذَّ وطابَ ، وتبني الخلايا الشمعية
العامرةَ بمخزونِ الشَّهد. أما باقي المخلوقاتِ فلا يُحصى عددها
وأنت تعرف طبائعها ، وأَطْلَقْتَ عليها أَسْمَاءَهَا
ولا داعيٍ من ثَمّ لتَكْرَارِها عليكَ ، ولَسْتَ تجهلُ
الحَيَّة ، أَشَدَّ حيوانِ الحَقْلِ مكرًا ودهاءً ،
أحيانًا ما تكونُ بالغةَ الضخامةِ ، برّاقةَ العينين ،

ولها لبدةٌ من الشعرِ الكثيفِ المخيفِ ، وإن كانتْ
غيرَ مؤذيةٍ لك ، بل مطيعةً تلبيّ دعوتك
وأَشْرَقَتْ السماءُ الآنَ بكلِّ آياتِ بهائها ، وبَدأَتْ
حركةُ أفلاكِها على نحو ما رَسَمَتْهُ يدُ المُحَرّك الأولِ العظيم
وحدّد مجراه أَوّلَ الأَمْر ، وكانت الأرضُ في رِدائها الحافلِ
الذي بلغ الكمالَ والجمالَ ، تبتسمُ ، ففي الهواءِ وفي الماء وفوق الثرى
تطيرُ الطيور وتسبح الأسماك وتمشي الحيوانات
بأعدادها الكبيرة ، ومع ذلك فلم يكنْ اليومُ السادس قد انقضى
وكان العملُ الأعظم لا يزال ينتظر الإنجاز ، غايةُ
كُلِّ ما أُنجزَ حتى الآن ، ألا وهو مخلوقٌ لا يسيرُ منحنيًا
وليس وَحْشِيًا مثلَ المخلوقاتِ الأُخرى ، ولكنه وُهِبَ
قداسةَ العقْلِ ، قادرٌ على انتصاب القامة
والهامةِ ، قائمٌ على قدميه ، رزينُ الجَبْهَةِ والطّبعِ ،
حاكمٌ على الجميع ، يعرفُ ذاتَه ، ومن ثَمّ
فَلَهُ من سُمُوّ الفؤاد ما يُتيح له التخاطبَ مع السماء
ولكنه يُقِرُّ بالفضلِ ويمتنُّ له فيعترفُ بمصدرِ الخير
الذي يَهبطُ عليه ، فقلْبُه وصَوْتُه وعيناه
مُوَجَّهَةٌ في خشوعٍ لتقديسِ الله
وعبادةِ الله ، الربِّ الأعلى ، الذي جعله رَأْسَ
جميعِ أعماله ، وهكذا قال القَادِرُ على كل شيء ،
الإلهَ السّرْمديُّ فهو موجودٌ في كل مكان
وحاضرٌ أبدًا إلى كلمته بصوت مسموع

فَلْنَصْنَعْ الآنَ الإنسانَ على صُورَتِنَا ، الإنسان
على مِثَالِنا ، ولْتَجْعَلْ البشرَ أسيادًا
للأسماك والطيور في البحر والهواء
وللحيوان في الحقول ، وللأرض كلها
وكل زاحفٍ يزحفُ فوقَ التراب وما إن قال كُنْ
حتى كُنْتَ يا آدم لقد صَوَّرَكَ أَيُّها الإنسانُ
يا ترابَ الأرضِ ، ونَفَثَ في فَتْحَتَيْ أنفك
أنفاسَ الحياة ؛ فَعَلَى صُوَرَتِهِ هو
خَلَقَكَ ، في صُورَةِ الإله
الصريحة فأصبحتَ نَفْسًا حَيَّة
خَلَقَكَ ذَكَرًا ، ولكنه خَلَقَ زَوْجَكَ
أُنثى لإنجابِ الذُّرِّية ؛ ثم بَارَكَ البَشَرَ وقَالَ
تناسلوا تكاثروا ، واعْمُروا الأرضَ كُلَّها
وسَخِّروها لَكُمْ ، ولتكنْ لكمْ السيادةُ في أرجائها
على أسماكِ البحر ، وطيورِ الهواء
وعلى كل كائنٍ حيٍّ يدبُّ فوقَ الثَّرى
وأينما كان خَلْقُكَ ، إذ لا نستطيعُ معرفةَ المكانِ
أو تمييزَ اسْمِهِ حتى الآن ، فلقد نَقَلَكَ منه كما نَعْرِف
وجاءَ بكَ إلى هذه الخَمِيلَةِ المُلْتَفَّةِ البهيجة ،
هذه الحديقةُ التي غُرِسَتْ فيها أشجارُ الله ،
الممتعةُ للنَّظَرِ وللمذاق
وأباحَ لك أن تَغْتَذِيَ على جميعِ فواكهها البَهِيَّة

فهي لك كلها ، فجميعُ أنواعِ ما تُثمِرُهُ الأرضُ على امتدادِها هنا
ولا حدودَ لتَنوّعه ، ولكنّه حرَّم عليكَ الشجرة
التي إن ذُقْتَ ثمرَها اكْتَسَبْتَ المعرفةَ بالخير والشر
فهي مُحرَّمةٌ ، واليومُ الذي تأكُلها فيه تموتُ فيه
فالموتُ هو العقابُ الذي قَضَى به ، فاحْذَرْها ،
وتَحَكَّمْ في شَهيّتك خيرَ التحكّم ، حتى لا تُفَاجَأَ
بالخطيئةِ تَنْهَمُكَ ، وهي ورفيقُها الأسودُ الموتُ
وانتهى هنا ، وألقى على كُلِّ ما صَنَعَهُ
نظرةً ، وما أَحْسَنَ ما بدا كُلُّ شيء وأكملَهُ
وهكذا كَرَّ المساءُ والصباحُ فانطوى اليومُ السادسُ
ولكنه لم يَكْتَمِلْ حتّى كَفَّ الخالقُ عن ذَيَّاكَ العَمَلِ
وتَوَقَّفَ دونَ كَلاَلٍ ثم ارتفعَ عائدًا
صاعدًا إلى عرشه السامي في سماء السماوات
ليبصرَ منه هذا العالم المخلوقَ الجديدَ الذي
أضافَه إلى مُلْكِهِ ، ويرى كيفَ يبدو
على البُعدِ من عَرْشه ، ومَدَى جَمَالِهِ وحُسْنِهِ
واتفاقِهِ مع الصورةِ المثلى التي أَرَادَها له صَعَدَ راكبًا
مَتْبُوعًا بِهُتافِ الإطراءِ والثناءِ ، والأصواتُ
المتناغمةُ لعَشَرَةِ آلافِ قيثارةٍ تُصْدِرُ
ألحانَها المتوافقةَ الملائكيةَ ، وكانَت الأرضُ والهواءُ
يُرْجِعَانِ الصّدى ، وأنتَ تذكرُها لأنّك سَمِعْتَها
وكذلك رنّ الصدى في السماوات وجميعِ البروجِ

ووقفت الكواكب في مواقعها تصغي
وموكب النصر اللألاء يصعد مزهوًا فرحًا
وكان من بين ما أنشدته: انفتحي أيتها الأبواب السرمدية
وافتحي أيتها السماوات أبوابك الحية ، ورحّبي بدخول
خالقِكِ العظيم عائدًا من عمله
الرائع ، عمل ستة أيام ، خلق عالم جديد
انفتحي الآن ، وانفتحي كثيرًا منذ اليوم ، إذ سيتنازل اللهُ
بزياراتٍ كثيرة لمساكنِ البشرِ العُدُول
مسرورًا ، وسوف تكثرُ المناجاةُ
حين يرسلُ رُسُلَهُ المجنحة فتَتَنَزَّلُ عليهم
في مهامٍّ خاصةٍ تحملُ الرضوانَ والمغفرةَ . هكذا أنْشَدَتْ
الحاشيةُ الوضّاءةُ أثناءَ الصُّعودِ ، ثم دَخَلَ اللهُ السماءَ
التي فتحت أبوابها النارية على مصاريعها ، والتي تؤدي
إلى بيتِ اللهِ الأَزَليّ مباشرةً ، في طريقٍ
عريضٍ وبالغ الرحابةِ ، تُرَابُهُ مِنْ ذَهَبٍ
وأَرْصِفَتُهُ من النُّجومِ ، مثل النجومِ التي تظهر لك
وتراها في المجَرَّةِ الكُبْرى ، مَجَرَّةِ دَرْب التَّبَّانة ،
التي تراها كل ليلة مثل نطاق دائري
مرصعة بالنجوم ويدأ اليومُ السابعُ على الأرض
بحلولِ المساءِ في عدن ، إذ غَرُبَتْ الشمس
وشاعتْ في الأُفُقِ ألوانُ الشَّفَقِ من الشَّرْقِ
تُبَشِّرُ بحلولِ اللَّيْلِ ، وعند الجَبَلِ القُدْسِيِّ

في مَقْعَدِ الرِّفْعَةِ عند ذِرْوَةِ السماء ، عَرْشِ المُلْك
سُبْحانه ، الثابت أبدًا ، صامدًا ووطيدًا ،
وَصَلَتْ كلمةُ الله واسْتَقَرَّتْ
إلى جَانِبِ الجَبّار ، الذي كان معها
دونَ أن يراه أحدٌ ، حتى وهو هنا على العرش ، فهذه مَزِيّةُ
القائم في كُلِّ مكانٍ ، وقد نَفّذ ما قَضَى به من عَمَلٍ ،
فهو رَبُّ كل شيء وغايةُ كل شيء ، وبَعْدَ العَمَلِ
استراحَ ، وبَارَكَ اليَوْمَ السابعَ وجعله مُقَدَّسًا
لأنه استراحَ في ذلك اليوم من كُلِّ عَمَلٍ
وإن كانت قداسته لا تعني الصَّمْت ، فكان للقيثار
عمله فلم يَسْتَرِحْ ، وكذلك المزمارُ الرّزِينُ ،
وآلةُ السّمْفُونْيَا العَذْبَةُ ، وجميع ألوانِ الأُرْغُنِ ذي الوقفاتِ الجميلة ،
وجميعُ أصواتِ الآلاتِ الوترية ، سواءٌ ما صُنِعَتْ أوتارُه من المِعي
أو الأسلاك الذهبية ، ذوات المقابض المقسمة ، إذ صَدَرَتْ عنها ألحانٌ رقيقةٌ
اخْتَلَطَتْ بأصواتِ المجموعاتِ المتوافقةِ أو الواحدةِ ، وكانت سحائبُ البَخُورِ
تتصاعَدُ دُخَانًا من المَبَاخِرِ المُذَهَّبَةِ فَتُخْفي الجَبَلَ
وغنى الجميع عن الخَلْقِ وما أُنجزَ في سِتَّةِ أيام
ما أعظم أَعْمَالَكَ ، يا يَهْوَهْ ، وقوتك اللامتناهيةَ ،
أَيُّ فكرٍ يستطيعُ أن يقيسَها وأَيُّ لسانٍ يستطيع
أن يَحكي عنك ، لأَنتَ أعظمُ في عَوْدَتِك الآن من عَوْدَتِك
من قَهْر عماليق الملائكة ، ففي ذلك اليوم
عَظَّمَتْك رُعُودُك ، ولكنَّ خَلْقَ العَالَمِ

أعظمُ من تَدْميرِ بعضِ ما خَلَقْتَ
من ذا الذي يستطيع أن يَمْسَسْكَ بضُرٍّ أيها الملك الجبار
او يحدّ من ملكك ؟ ما أيْسَرَ ما قَهرْتَ كَيْدَ المُكَابِرِين
من الأرواحِ المُرْتَدّةِ وأَبْطَلْتَ دعاواهم الغَرُور
ونَقَضْتَها نَقْضًا ، إذ فَسَقُوا فظَنُّوا أنّهم قَادِرُون
على أن يَنَالُوا منْك ، وأنْ يَنْتَزِعُوا منك
الحُشُودَ التي تَعْبُدُكَ فكلُّ من يحاولُ
التقليلَ من شأنِك يفشلُ في مسعاه وينتهي
بإظهار المزيد من جبروتك ، إذ تنتفع بِشَرِّه
ومن الشَّرّ تخلقُ المزيدَ من الخَيْر
ولنَشْهَدْ هذا العالمَ الذي صُنع لِتَوِّه ، إنه لسَماءٌ
خارجَ السَّمَاء ولا يبعدُ عن أبْوابِها كثيرًا ، أُقيمَ أمَامَنَا
في بحر البلّور الصافي الشفاف ، أو بحر الزجاج ،
شاسعَ الأرجاءِ لا يكادُ ينتهي ، وفيه نُجومٌ
كثيرةٌ ، وربما يكون كُلُّ نَجْمٍ عالمًا
مُقَدّرًا له أن يَعْمُرَ بالسّكان ، ولكنك تعرف
مواقيتها ، وبينها مقرُّ البشر ،
الأرضُ التي يلتفُّ حولَها المحيطُ السُّفْليُّ الأعظمُ ،
مسكنهُم الجميل ، لقد ضُوعِفَتْ سعادتُكم ثلاثًا أيها البشر
ويا أبناءَ البشر ، إذ ارتقيتم بفضلِ اللهِ الذي
خلقكم في صورته ، لتسكنُوا فيها
وتعبدُوه ، وكافأكم بأن سَخّرَ لكمْ جميع

ما خَلَق في البر والبحر والجو ، وأتاح لكم
أن تُنجِبُوا ذُرِّيَّةً من العابدين
الصالحين العُدولِ ، ضُوعِفَتْ سعادَتُهم ثلاثًا إن عَرَفُوا
ما أُنْعِمَ بِهِ عليهم فثابروا وَرَعًا واستقامَةً
كان ذلك ما أنشدوه فتَردَّدَتْ في السماء
التسابيحُ بحمد الله ، وهكذا كان حفلُ يومِ الراحة
أمّا وقد أَجَبْتُ مَطْلَبَكَ ، فيما تَرَى ، حين سَأَلْتَني
كيف بدأ هذا العالَمُ وتَشَكَّلَ وجهُ الأشياء
وماذا وَقَعَ قَبْلَ عَهْدِكَ بالذّاكِرَة ،
ومنذ البدايةِ ، حتى تُطْلِعَ الخَلَفَ عَلَيْهِ
فَيَعْرِفُوه منْكَ ، فأرجو إن كُنْتَ تريد أن تَعْرِفَ
أَيَّ شيءٍ آخر ، لا يتجاوَزُ إدراكَ البَشَر ، أن تُفْصِحَ عنه .

الكتاب الثامن

الكتاب الثامن
الموضوع

يستفسر آدم عن حركة الأفلاك في السماء فيتلقى إجابة غير مؤكدة ، ويشار عليه بأن يطلب معرفة ما هو أجدر بالمعرفة ، ويوافق آدم ، وفي حدبه على استبقاء روفائيل يقص عليه ما يذكره منذ أن خُلق ،ووضعه في الفردوس ، وكلامه مع الله عن العزلة والصحبة الصالحة ، وأول لقاء له مع حواء وزواجه منها ، وحديثه بعد ذلك مع الملاك الذي يكرر تحذيره ثم يرحل.

انتهى الملاكُ من حديثه وصوتُه ما فتئ يرنُّ في أُذن آدم ،
صوتٌ بلغ من قُوّة سِحْرِه أن ظَنّ آدمُ ، بُرهةً يسيرةً ،
أنه ما زال يتحدث ، وظل ثابتًا في مكانه حتى يصغي إليه
وكأنما أفاقَ لتوّه ردّ بامتنانٍ قائلاً:
أي شكرٍ لديَّ يكفي ، وأي جزاءٍ عندي يوازي
صنيعك فأقدمه لك يا أيها المؤرخ الإلهي
الذي أطفأ كثيرًا من غُلّتي
وتعطّشي للمعرفة ، والذي تعطّفَ
وتنازلَ تنازُلَ الخِلاّنِ بأنْ يحدّثَني
عن أشياءَ لم أكنْ لأعرفَها إلا منه ، وقد سمعتُ الآن
ما أدهشني وسُرِرْتُ به ، وكما يقضي الواجب ،
أُعْرِبُ عن التعظيم الذي لا يَحِقُّ إلا للخالقِ الأعلى
ومع ذلك فلا يزال لديَّ شيءٌ من الشك

ولن يَنْقَشِعَ إلا بشرحِكَ وإيضاحِكْ
فعندما أتطلّعُ إلى إطار هذا الكونِ البديعِ ، هذا العالم
الذي يتكونُ من السماءِ والأرضِ ، وأشرَعُ في حسابِ
احجامِها ، فأرى أن الأرضَ نقطةٌ او حبةٌ
او ذَرّةٌ ، إذا قُورِنَتْ بالسماء
وما فيها من نجومٍ كثيرة ، يبدو أنها تدور
في مساحات تستعصي على الإدراك (فذلك
ما تدل عليه المسافات فيما بيننا وسرعة عودتها
إلى مواقعها كل يوم) لا لسبب إلا لترسلَ ضَوْءَهَا
حولَ هذه الأرض المُصْمَتَةِ ، هذه النقطة الصغيرة ،
نهارًا أو ليلاً ، وفي كل هذا الإطار الشاسع
لا نفعَ لها سوى ذلك ، فإنني بميزان العقلِ كثيرًا ما أدهش
كيف أن الطبيعةَ الحكيمةَ الشحيحةَ على نفسها يمكن أن ترتكبَ
هذه التناقضاتِ الصارخةَ ، فتخلقَ بأيدٍ بَسَطَتْها كل البَسْط
أجرامًا كثيرةً أشرفَ وأسمى ،
وأعظمَ وأشدَّ تنوعًا ، لهذه الغاية وحدها ،
حسبما يظهرُ لي ، وأن تَفْرِضَ عليها أنْ تدورَ في أفلاكِها
دوراتٍ دائبةً لا تهدأُ ، ويومًا بعد يومٍ
تتكرّرُ ، والأرضُ ساكنةٌ كسولٌ ،
وكان ينبغي لها أن تتحركَ بسبب صِغَرِ نطاقها ،
إذ سُخِّرَ لها ما هو أشرفُ وأسمى منها ، فتحققَ
غايتَها دونَ أدنى حركةٍ ، وتتلقى

المكافأةَ مما تعودُ به تلك الرحلاتُ المُسَخّرةُ لها ،
دِفئًا وضَوْءًا ، وهي رحلاتٌ تجري بسرعةٍ لا تقدرُ عليها المادّة
بل لا أجدُ أرقامًا تستطيعُ وصفَ تلك السرعةِ الخارقة.
وصَمَتَ جَدُّنا ، وكان يبدو - من قسماتِ وجهه أنه
بدأ يخوضُ غمارَ تأملاتٍ وأفكارٍ عميقة ، ولَمَحَتْ حواءُ
ذلك من حيثُ كانت تجلسُ خَافِيَةً عن الأنظار
فَنَهَضَتْ بتواضعٍ يَحُفُّهُ الجلالُ من مجلسها
وبرشاقةٍ جذابةٍ تجعلُ من رآها يتمنّى أن تبقى
وذَهَبَتْ لتنظرَ فواكهَهَا وأزْهارَهَا
وتطمئنَّ على نُمُوّها وتَفَتُّحِ البراعِمِ والأكمامِ
التي ترعاها ، فَهَبَّتْ تلك حين رَأَتْ حواءَ مقبلةً
وسَعِدَتْ بزيارتِها الرقيقةِ وتَرَعْرَعَتْ بسرورٍ أكبر.
ولكنها غادرتْ المجلسَ لا لأنّها لم تَجِدْ في ذلك الحديثِ
متعةً ، أو لأنّ أُذُنَها لا تستطيعُ استيعابَ
الفكرِ الرفيع ، ولكنّها كانت تُفضّلُ ألاّ تَجْنِيَ هذه المتعةَ إلاّ
من حديثِ أدمَ إليها ، وهي تستمعُ إليه وَحْدَها.
كانت تُفضّل أنْ يكونَ زوجُها المتحدثَ
أمامَ الملاك ، واختارتْ أن تسألَهُ
هي عمّا دارَ فيما بعد ، إذ كانتْ تدركُ أنه سوفَ يمزِجُ
الأحاديثَ اللطيفةَ المتداخلةَ ويَحْسِمُ الخلافاتِ الفِكْرِيّةَ
بالمُلَاعباتِ الزَّوْجيةِ الرّقيقةِ ، إذ لَمْ يكنْ مصدرُ سعادتِها
بِشَفَتَيْهِ يقتصرُ على ما تنطقُ بهما من كلماتٍ. أنّى لنا أن نَجِدَ الآنَ

مثلَ هذين الزوجين اللَّذَيْن يربطُ الحب بينهما والاحترامُ المتبادل ؟!
وهكذا مَضَتْ تخطو خطواتٍ ملائكية ،
ولم تَعْدِمْ حاشيةً تحفُّ بها ، فكأنما كانت ملكةً
تسيرُ في موكبٍ من آياتِ الجاذبيةِ الخلاّبةِ
ومن حولِها انطلقَتْ السّهامُ التي تجعلُ
كُلَّ عينٍ ترغبُ وتتمنّى أن تراها دائمًا .
وعندها بدأ روفائيل يتصدى لشُكُوكِ آدمَ بلهجةِ
الودادِ وأسلوبٍ سَلِسٍ يسيرٍ ، فأجاب قائلاً:
لا ألومُك على السّؤالِ أو البحث ، فالسماء
تشبه كتابَ الله المفتوحَ بين يديك
تقرأُ فيه عن أعمالِه الرائعةِ ، وتكتسبُ العِلْمَ
بالفُصُولِ أو الساعاتِ أو الأيامِ أو الشهورِ أو السنواتِ
ولكنّ الإحاطةَ بذلك ، سواء أكانت السماءُ تتحركُ أم الأرضُ ،
أمرٌ غيرُ مهم ، إذا استقامَ تفكيرُكَ ، فسائرُ الحقائق
قد أخفاها المهندسُ الأعظمُ عن البشرِ والملائكةِ ،
وله حكمتُه في إخفائها وعَدَمِ إفشاءِ
أسرارِه للّذينَ قد يتعرضون لَها بالتّمْحيص والأَحْكام ، وواجِبُهُمْ
أن يَدْهَشُوا ويَعْجَبُوا لها ، وأمّا إذا أَصرُّوا على محاولة
الحَدْسِ فسوف يَجِدونَ أنّه تَرَكَ نسيجَ السماواتِ
مثارًا لخلافاتِهم ، ربما ليضحكَ فيما بعد
من شَطَحَاتِ آرائهم الطريفةِ
حين يُقْدِمُونَ على دراسةِ السماء

وحسابِ حركةِ النجومِ ، وأسلوبِ إخضاعهم
الهيكلِ الجبارِ لنظرياتهم ، بانينَ هادمينَ مُلَفِّقين ،
لتفسيرِ الظواهرِ ، محاولين إخضاعَ الشكلِ الكُرَوِّي
برسمِ الدوائرِ المنتظمةِ والمنبعجةِ فوقَهُ ،
دائرةٌ وإهْلِيلَجٌ ، فلكٌ في فَلَكٍ ،
فهنا ما أحدثَه بالفعلِ من أسلوبِ منطقِكَ ،
إذْ كُتِبَ عليك توجيهُ ذُرِّيتك ، ما دُمْتَ تفترضُ
أن الأجسامَ الوضاءةَ والكُبْرى لا ينبغي تسخيرها
للأقلِّ ضوءًا ، وأن السماءَ ينبغي ألا تقومَ بهذه الرحلاتِ
والأرضُ ساكنةٌ قاعدةٌ تتلقى وحدَها الثَّمرَ
والفائدةَ. اعْلَمْ أولاً أن ضخامةَ الجُرْمِ
أو شدةَ الضوءِ لا تعني الامتيازَ ، وأن الأرضَ
وإن كانت ، إذا قورِنَتْ بالسماء ، بالغةَ الضآلةِ
ولا تشعُّ أيَّ ضوءٍ ، قد تَضُمُّ بين جنباتِها من الخَيْرِ المؤكدِ
ما يفوقُ الشمسَ كثيرًا ، تلكَ التي تسطعُ وهي عَقِيمٌ ،
وفضلُها لا يعودُ عليها بشيءٍ
بل على الأرضِ المثمرةِ ، فهي أولُ من يتلقى
أشعَّتَها التي تحقِّقُ في الأرضِ قُوَّتَها وهي عاطلةٌ خارجَها.
ولكنَّ هذه المصابيحَ المُنيرةَ ليستْ مُسَخَّرة للأرضِ
بلْ لَكَ أَنْتَ يا من تسكنُ الأرضَ
وأما دَوْرَةُ السماواتِ الشاسعةِ فَلْتَنْطِقْ
ببهاءِ الصانعِ الرفيعِ ، الذي بَنَاها

بهذا الاتساع فامتدَّتْ سُبُلها هذا الامتدادَ البعيدَ
حتى يعرفَ الإنسانُ أنه لا يسكنُ وَحْدَهُ
في صَرْحٍ أضخمَ من أن يملأَهُ بنفسِهِ
إذ لا يسكُنُ إلا في قسمٍ صغيرٍ منه ، والباقي
كُتِبَتْ عليه مهامّ لا يعرفُها خيرًا من رَبِّه
وأما سرعةُ هذه الأفلاكِ فعليكَ أن تُرجِعَهَا ،
وهي التي يستعصي حسابُها ، إلى قُدْرَةِ القديرِ على كُلِّ شيء
الذي استطاعَ أن يُضْفي على الأجسامِ المادّيةِ
سرعةً تكاد تكونُ رُوحِيّة ولعلك تظُنُّني غيرَ بطيء
إذ انْطَلَقتُ في رحلتي في الصباحِ من السماءِ
حيثُ عرشُ الله ، فوصلتُ قبل الظُهرِ
إلى عَدن ، وهي مسافةٌ لا يمكن التعبيرُ عنها
بالأرقامِ المعروفة ولكني أَحْتَجُّ بذلك ،
مُعْتَرِفًا بالحَرَكَةِ في السماوات ، لأُبيِّنَ
خَطَأً ما دَفَعَكَ إلى الشَّكّ والريبة ،
وإن كنتُ لا أؤكّده ، ولو بَدَا لَكَ ذلك
يا من اتّخَذْتَ الأرضَ هنا مَقَرّا ومُقَامًا .
لقد شاءَ الله أن يخفيَ أسرارَه عن إدراكِ البَشر
فجعلَ السماءَ بعيدةً كُلَّ البُعْدِ عن الأرض ، فإذا وَضَعَ البصرُ الأرضيُّ
افتراضاتِه ، فقد يَضِلُّ ولا يهتدي إلى ما سما فَأَوْغَلَ في سُمُوّه ،
دون اكتسابِ فائدةٍ ما وماذا لو كانتْ الشمس
في مركزِ الكون ، وكانت النجومُ الأخرى ،

بفضلِ قُوَّةِ جاذبيةِ الشمس ، وبسببِ ما
يدفعها في ذاتها ، تَرْقُصُ حولَ الشمس رقصاتٍ دائريةً متباينةً ؟!
وكانت أفلاكُها السّيارة ترتفعُ حينًا وتنخفضُ حينًا ثم تختفي
وتتقدمُ أو تتأخرُ أو تقفُ في مكانِها ثابتةً
وهو ما تراهُ في سِتّةِ كواكبَ ، وماذا إذا كان سابعُها
وهو كوكبُ الأرضِ ، على كُلِّ ما يبديه من الثَّباتِ
يتحركُ دونَ أنْ نشعرَ ثلاثَةَ أنواعٍ مختلفةٍ من الحركات ؟
فإذا لم تَقُلْ بذلك ، كان عليك أن تَنْسِبَ إلى عِدّةِ كواكب
حركاتٍ متعارضةً في أفلاكٍ يتقاطعُ بعضُها مع البعض ،
أو تُعْفِيَ الشمسَ من عَمَلِها ، وسُرْعَةَ الدوران
المفترض بانحراف حَوْلَ الأرضِ لَيْلاً ونَهَارًا ،
وإلاّ لَمَا سَطَعَتْ فَطَمَسَتْ النجومَ جميعًا ، فهي العَجَلَةُ التي
تُحْدِثُ الليلَ والنهارَ ؛ وهو ما لا يحتاجُ إلى تصديقِكَ
إذا كانت الأرضُ تجتهدُ بذاتها لتُحْضِرَ النهارَ
في دَوَرَانِها نَحْوَ الشرق ، وتدورُ مبتعدةً بجانبِها الآخر
عن أشعةِ الشمسِ حتى تُلاَقِيَ اللَّيلَ ، ويظلّ جانبُها الأول
يغمرُهُ ضوءُ الشمس. وماذا إذا كان هذا الضوءُ
الذي ترسله الأرضُ عبر صَفْحةِ الجَوِّ العريضةِ الشفّافةِ
إلى أرضِ القَمَرِ ينيرُه كالنجم
نهارًا ، مثلما تُضيءُ النجومُ لَيلاً
هذه الأرضَ ؟ هل ثَمّ تماثلٌ إذن ؟ إن كانت هناكَ أرضٌ
وحقولٌ آهلةٌ بالسكان ، فأنتَ ترى البُقَعَ على وَجْهِ القَمَرِ

بهذا الاتساع فامتدَّتْ سُبُلها هذا الامتدادَ البعيدَ
حتى يعرفَ الإنسانُ أنه لا يسكنُ وَحْدَهُ
في صَرْحٍ أضخمَ من أن يملأَهُ بنفسه
إذ لا يسكنُ إلا في قسمٍ صغيرٍ منه ، والباقي
كُتِبَتْ عليه مهامٌ لا يعرفُها خيرًا من رَبِّه
وأما سرعةُ هذه الأفلاكِ فعليكَ أن تُرجِعَهَا ،
وهي التي يستعصي حسابُها ، إلى قُدْرَةِ القديرِ على كُلِّ شيء
الذي استطاعَ أن يُضْفي على الأجسامِ الماديةِ
سرعةً تكاد تكونُ رُوحِيَّة ولعلك تظنُّني غيرَ بطيء
إذ انطَلَقتُ في رحلتي في الصباحِ من السماءِ
حيثُ عرشُ الله ، فوصلتُ قبل الظُّهرِ
إلى عَدن ، وهي مسافةٌ لا يمكن التعبيرُ عنها
بالأرقامِ المعروفة ولكني أَحتَجُّ بذلك ،
مُعْتَرِفًا بالحَرَكَةِ في السماوات ، لأُبيِّنَ
خَطَأَ ما دَفَعَكَ إلى الشَّكِّ والريبة ،
وإن كنتُ لا أؤكِّدُه ، ولو بَدَا لَكَ ذلك
يا من اتَّخَذْتَ الأرضَ هنا مَقَرًّا ومُقَامًا .
لقد شاءَ الله أن يخفيَ أسرارَه عن إدراكِ البَشَر
فجعلَ السماءَ بعيدةً كُلَّ البُعْدِ عن الأرض ، فإذا وَضَعَ البصرُ الأرضيُّ
افتراضاتِه ، فقد يَضِلُّ ولا يهتدي إلى ما سما فَأَوْغَلَ في سُمُوِّه ،
دون اكتسابِ فائدةٍ ما وماذا لو كانتْ الشمس
في مركزِ الكون ، وكانت النجومُ الأخرى ،

بفضلِ قُوّةِ جاذبيةِ الشمس ، وبسببِ ما
يدفعها في ذاتها ، تَرْقُصُ حولَ الشمس رقصاتٍ دائريةً متباينةً ؟!
وكانت أفلاكُها السّيارة ترتفعُ حينًا وتنخفضُ حينًا ثم تختفي
وتتقدمُ أو تتأخرُ أو تقفُ في مكانِها ثابتةً
وهو ما تراهُ في سِتّةِ كواكبَ ، وماذا إذا كان سابعُها
وهو كوكبُ الأرضِ ، على كُلِّ ما يبديه من الثَّباتِ
يتحركُ دونَ أنْ نشعرَ ثلاثةَ أنواعٍ مختلفةٍ من الحركات ؟
فإذا لم تَقُلْ بذلك ، كان عليك أن تَنْسِبَ إلى عِدَّةِ كواكب
حركاتٍ متعارضةً في أفلاكٍ يتقاطعُ بعضُها مع البعض ،
أو تُعْفِيَ الشمسَ من عَمَلِها ، وسُرْعَةَ الدوران
المفترض بانحراف حَوْلَ الأرضِ لَيْلاً ونَهَارًا ،
وإلاّ لَمَا سَطَعَتْ فَطَمَسَتْ النجومَ جميعًا ، فهي العَجَلَةُ التي
تُحْدِثُ الليلَ والنهارَ ؛ وهو ما لا يحتاجُ إلى تصديقِكَ
إذا كانت الأرضُ تجتهدُ بذاتها لتُحْضِرَ النهارَ
في دَوَرَانِها نَحْوَ الشرق ، وتدورُ مبتعدةً بجانبِها الآخر
عن أشعةِ الشمسِ حتى تُلاَقِيَ اللَّيلَ ، ويظلّ جانبُها الأول
يغمرُهُ ضوءُ الشمس. وماذا إذا كان هذا الضوءُ
الذي ترسله الأرضُ عبر صَفْحةِ الجَوِّ العريضةِ الشفّافةِ
إلى أرضِ القَمَرِ ينيرُه كالنجم
نهارًا ، مثلما تُضيءُ النجومُ لَيلاً
هذه الأرضَ ؟ هل ثَمّ تماثلٌ إذن ؟ إن كانت هناكَ أرضٌ
وحقولٌ آهلةٌ بالسكان ، فأنتَ ترى البُقَعَ على وَجْهِ القَمَرِ

حتى يُنْذَرَ ، أو يتعلمَ من خبرته ، أن يدركَ أن الحكمةَ
هي الجهلُ عمومًا بالأشياءِ البعيدةِ
عما يَنفعُه ، أو الغامضةِ أو التي تستعصي على الذهنِ ، وهي العلمُ
بما هو بين أيدينا في حياتنا اليوميّة ،
بل إن ذلك أوجُ الحكمة ، وما عداه أوهامٌ
أو خَوَاءٌ أو انشغالٌ أحمقُ بما لا يُهمّ ،
ويَحْرِمُنا المعرفةَ بأهمِّ ما يُهِمُّنا من أشياءَ
لا مِرَاسَ لنا بِهَا ولا استعدادَ ولا إحاطةَ .
لِنَهْبِطْ إذنْ من ذَلِكَ المَرْقَى الرفيع
عِدّةَ درجاتٍ ، ولنتحدثْ عن الأشياءِ القريبةِ
النافعةِ ، ورُبّما ألمَحْنا هنا أو ذَكَرْنا
شيئًا ليس من غير المستساغِ السؤالُ عنه
إذا أَذِنْتَ لي ، وتكرَّمْتَ كَدَأْبِكَ معي وتَعَطَّفْت .
لقد سَمِعْتُكَ تَقُصُّ عَلَيّ ما وَقَعَ
قبل عهدي بالذاكرةِ ، فَلْتَسْمَعْني الآنَ أقصُّ عليك
قِصَّتي ، وربما لم تكنْ سَمِعْتَهَا ،
والنهارُ لا يزال في ريعانه ، ولسوفَ ترى
ما أبتدعُ من أساليبَ بارعةٍ لاستبقائِكَ حتى آخِرِه ،
داعيًا إياك للإنصاتِ لي أثناءَ القَصّ ،
وهي سفاهةٌ لولا أنني آملُ أن تَرُدَّ عليّ ،
لَكَأنّني في السماءِ وأنا أجلسُ مَعَكَ هنا ،
ومذاقُ كلامِكَ في أُذُني أَحْلى

من أَشْهى البَلَحِ السَّائِغِ حين أُكابدُ العَطَشَ
والجوعَ معًا ، بعد عودتي من العمل ، في ساعةِ
الطعامِ الطيِّب ، فالبَلَحُ يُشبعُ وسرعانَ ما يُتْخِمُ
مهما يَكُنْ طيبُ مذاقِه ، أما كلماتُك فقد أُشْرِبَتْ العذوبةَ الإلهية
فَشَرِبَتْها ، فحلاوتُها لا تتسببُ في التُّخَمة.
وأجابه روفائيل بلهجة تستقي من السماءِ التواضعَ قائلاً:
بَلْ ولا تفتقرُ شفتاك إلى العذوبةِ يا سَيِّدَ الرجالِ
ولا يَفتقرُ لسانُك إلى البلاغةِ ، إذ أفَاضَ الله عليك
بسخاءٍ نِعَمَهُ وأغدقَها عليك أنتَ أيضًا
ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً ، يا صورتَه الجميلة ،
فسواءٌ تكلمتَ أم سَكَتَّ ، كان البهاءُ وكانت العذوبةُ
تَحُفُّ بك وتتشكَّلُ في كُلِّ كلمةٍ وفي كُلِّ حركةٍ.
ونحنُ في السماء لا نتصورُ أنك في الأَرْضِ أَدْنَى منزلةً
منّا ، فنحنُ إخوانٌ في عِبادَةِ الله ، ونتساءلُ
مسرورين عَمّا يفعلُهُ الله بالإنسان ،
إذ نرى أنّ الله قد كَرَّمَكَ ، وأفاءَ
على الإنسان حُبًا يضارعُ حُبَّهُ لنا ، وإذنْ فَلْنَتَحَدَّثْ ،
إذ تصادفَ أنني كنتُ في ذلك اليَوْمِ غائبًا
أقومُ برحلةٍ غَريبةٍ عَجيبةٍ مُوحِشَةٍ ،
في أقاصي المجاهلِ عند أبوابِ الجَحِيم
في تشكيلٍ حَرْبِيٍّ رُبَاعِيّ (بذا صَدَرَ الأمرُ إلينا)
لنتأكد أن أحدًا لم يُرْسِلْ جاسوسًا هناك

أو عدوًا من الأعداء ، أثناءَ انهماكِ الله في عمله ،
خَشْيَةَ أنْ يَدْفَعَهُ الغَيْظُ من جَسَارَةِ مثلِ ذلك التَّدخُّلِ
إلى العَصْفِ به فيمزجُ الفَنَاءَ بالخَلْق ،
ولا يَعْني هذا أن أحدًا يقدرُ على محاولةِ ذلك دونَ إِذْنٍ منه
ولكنه يُرْسِلُنا في مَهَامّه العُليا من باب
المَرَاسِمِ الملكيّةِ ، فهو مالكُ المُلْكِ ، وحتى نعتادَ
الطاعةَ على الفَوْرِ وَجَدْنَاهَا موصدةً ، مُحْكمةَ الإغْلاقِ ،
تلك الأبوابُ البَشِعَةُ الرهيبةُ ، متينةُ المزلاجِ والرِّتَاجِ ،
ولكننا سَمِعْنا داخلَها قَبْلَ اقترابنا بوقتٍ طويلٍ
ضجيجًا يختلفُ عن أصواتِ الرَّقْصِ والغِناء
بل سوطُ عَذَابٍ يَنْصَبُّ ، وعويلٌ يتعالى ، ودَمْدَمَةُ غَضَبٍ جائحٍ.
وسُررْنا بالعودةِ إلى شطآنِ النور
قبلَ مساءِ اليومِ السابع ، يومِ العُطْلَةِ ، وهكذا انتهينا.
ولكنْ إلى قِصّتِكَ الآنَ ، فأنا لَكَ مُصْغٍ
وسعادتي بكلماتِك لا تَقِلُّ عن سعادتِك بكلماتي.
وانتهى الملاكُ الربانيّ من الحديث وبدأ سَيِّدُنا يتكلّمُ قائلاً:
ما أشقَ أن يَقُصَّ الإنسانُ كيف بدأت حياةُ البشر
وما أعْسَرَهُ ، إذ من ذا الذي يعرفُ بِدَايَةَ ذاته ؟
ولكنّ رغبتي في أنْ أُطيلَ حديثي معك ثم أَبْسُطُه
تحفِزُني على الكلام. كنت كمن أفاقَ لتوّه من أعمقِ نُعاسٍ
إذ وَجَدْتُنِي رَاقِدًا على الأعشابِ المُزْهِرَةِ اللَّيِّنة
يَتَصَبَّبُ مني عَرَقٌ لطيفٌ سرعانَ ما جَفَّفَتْه أشعةُ الشمسِ

الساطعةِ وتَغَذَّتْ على الأبخرةِ المُتصاعدةِ.
وقَلَّبْتُ عَيْنَيَّ الداهشتين فَوْرَ صَحْوي في السماء
وتأملتُ برهةً صفحةَ الجوِّ المديدة ، ثم نَهَضْتُ
قائمًا بحركةٍ غريزيةٍ سريعةٍ ، إذ وَجَدْتُني
أحاولُ الاندفاعَ جاهدًا إلى أعْلَى فانتصبْتُ
واقفًا على قَدَمَيَّ ، ونظرتُ حولي فشاهدتُ
التلالَ ، والوديانَ ، والغاباتِ الظليلةَ ، والسهولَ المُشْرِقَةَ بنورِ الشمس ،
والجداولَ الدفاقةَ السيالةَ ذاتَ الخريرِ ، ومن حولِها
المخلوقاتُ التي تَحيا وتتحركُ وتَمْشي أو تَطيرُ ،
والطيورُ على الأفنانِ تُغَنّي ، وجميعُ الأشياء تَبْتَسِمُ ،
فَفَاضَ قَلْبي بالأريجِ والفَرَحِ
ثم شَرَعْتُ أتأملُ نَفْسي ، وأَتَقَصَّى أطرافي واحدًا بعد الآخر
ثم مشيتُ حينًا ، وَعَدَوْتُ حينًا ،
بمفاصلَ طَيِّعَةٍ مَرِنَةٍ ، تَدْفَعُني قُوَّةٌ حَيَوِيّة
أمّا مَنْ أنا ، وأين كنتُ ، ومِنْ أينَ جئتُ ،
فلم أكنْ أدري ، وحاولتُ النطقَ فتكلمتُ على الفور
وأطاعني لساني ووجدتُ أنني عُلِّمْتُ الأسماءَ كُلَّها
وكلُّ شيءٍ رأيتُهُ سَمَّيْتُه وخاطبتُ الشمس قائلاً: أيها السِّراجُ الوَهّاجُ،
وأَنْتِ أيتُها الأرضُ المشرقةُ بالنورِ ، النَّضِرةُ البهيجةُ ،
وأنتِ أيتُها التلالُ والوديانُ ، وأنتِ يا أنهارُ يا غاباتُ يا سهولُ ،
وأنتِ يا أيتها المخلوقاتُ الجميلةُ التي تحيا وتتحركُ ، خَبِّريني
خَبِّريني إن كنت شهدت كيف وُجِدْتُ هكذا ، وكيف جِئْتُ هنا ؟

لم أُوجِدْ نَفْسي ، وإِذَنْ أَوْجَدَني صانعٌ عظيمٌ
ليس كمثله شيءٌ في الخيرِ والقوةِ
خَبِّرْني كيف اعرفُه وكيف اعبُدُه
ومِنْ لَدُنْهُ كلُّ ما أَحْيَا به واتحركُ
وأَشْعُرُ أَنَّ سعادتي أكبرُ مما أعرفُ عنها.
وَجَعَلتُ انادي برهةً واضربُ على غير هُدى ، لا اعرفُ أَيَّانَ امضي
من حيثُ نَشَقْتُ الهواءَ أَوَّلَ مرةٍ ، ورأيتُ أول مرة
ذلك الضوءِ البهيجَ ، وعندما لم يُجِبْ أحدٌ ندائي ،
قصدتُ ربوةً خضراءَ في الظِّلِ تَحْفِلُ بالزهور
فجلستُ أفكرُ ، وهناك جاءَني النومُ الرقيق
أَوَّلَ مرة ، فَضَغَطَني ضَغْطَةً لَطِيفَةً وتَغَشَّى
حواسِّيَ بالنُّعاسِ ، ولم أقلقْ ، وإن كنتُ ظَنَنْتُ
انني كنتُ سأرجعُ آنئذٍ إلى حالتي السابقة
فلا أُحِسُّ شيئًا ثم ما يَلْبَثُ كِياني أن يَنْحَلَّ ويذوبَ
وعندها وجدتُ فجاة حُلْمًا واقفًا عند رأسي
وكان طيفُه في داخلي يدفعُ خيالي دفعًا رقيقًا
إلى الاعتقاد بأنني ما زالَ لي كِيانٌ وانني ما زلتُ
أحيا ، وخِلْتُ أن أحدهم جاءني في صورةٍ إلهية
وقال لي: بَيْتُك يَفْتَقِدُك يا آدم انهض.
يا أَوَّلَ البَشَرِ يا من كُتِبَ له ان يكونَ اولَ أَبٍ لأعدادٍ لا تُحصى
من البشر لقد ناديتني فأتيتُ لأُرْشِدَكَ
إلى جَنَّةِ النعيم ، مقرك الذي أُعِدَّ لك.

قالها وأمسك بيدي فأنهضني ومَرَّ بي
فوق الحقولِ والمياهِ ، كأنما كنتُ أنزلقُ في الهواءِ
انزلاقًا ناعمًا دون خطواتٍ ، وأخيرًا جاء بي فصعدنا
جَبَلاً تنمو عليه الغاباتُ ، وكانت قمتُه العاليةُ سَهْلاً مُنْبَسِطًا ،
دائرةٌ شاسعةً ، يحيطُها حَائِطٌ ، وبها أطيبُ الأشجار
قد غُرِستْ ، وممراتٌ ، وخمائلُ ، حتى أن ما سَبَقَ أن رأيتُه
في الأَرضِ تلاشى جمالُه أو كادَ وكانَتْ كُلُّ شجرةٍ
مُحَمَّلةً بأجملِ الثِّمارِ التي تَتَدَلَّى فتُغْري العَيْنَ
إغراءً ، فَأَثَارَتْ في نفسي اشتهاءً مُبَاغِتًا
بِقَطْفِها وأَكْلِها ، وعِنْدها صَحَوْتُ فإذا
كلُّ شيءٍ ماثلٌ في الحقيقة أَمَامَ عيني ، كما صَوَّرَهُ الحُلْم
تصويرًا حيًا ، وكنتُ أوشكُ أن أَستأنفَ هنا
جَوَلاَتي لولا أن ظَهَرَ الذي أرشدني
إلى هذا المكانِ الرفيعِ ، من بَيْنِ الشجراتِ ، وبدا
حضرةً إِلَهيةً وفي فَرْحَةٍ امْتَزَجَتْ بالرَّهْبَةِ
سجدتُ على قدميه أُصَلِّي له خاشعًا
خاضعًا. وأنهضني قائلاً بنبرات رقيقةٍ :إنِّي أَنَا ،
أنا الذي دَعَوْتَهُ فاستجابَ ، رَبُّ كُلِّ ما ترى
من فَوْقِكَ أو من حولِكَ أو من تَحْتِكَ
إني أَمْنَحُكَ هذه الفردوس ، فاعْتَبِرْها مِلْكًا لك ،
لتفلَحَها وترعاها ، وتأكلَ من ثمارها ،
من كلِّ شجرةٍ تنمو في الجَنَّةِ.

كُلْ ما تشاءُ بقلبٍ مسرورٍ ، ولا تَخْشَ هنا نَقْصًا ،
إلا الشجرةَ التي تَعُودُ على الآكل منها
بِمَعْرِفَةِ الخير والشر ، فلقد جَعَلْتُها رَهْنًا
لِعَهْدِ طَاعَتِك وإِخْلاصِك ، إنّها
في الجنّةِ بجوارِ شجرةِ الحياة
فتذكَّرْ تحذيري لَكَ وتَجَنَّبْ مَذَاقَها
وتَجَنَّبْ عاقِبَتَهُ المُرَّةَ ، واعْلَمْ
أنك يومَ تأكلُ منها وتعصي أمريَ الأوحدَ
وتعصيني فسوفَ تَمُوتُ حتمًا ،
ويُكتبُ عليكَ الفناءُ من ذلك اليوم ، وشتاتُ هذه السعادة
وفقدانُها ، وسوف تطردُ من هنا إلى عالم
الآلامِ والأحزانِ وكانتْ نبراتُه صارمةً وهو ينطق بذلك
التحريمِ الجازمِ ، وما زالتْ تلك النبراتُ يترددُ صداها
المخيفُ في أُذُني ، وإنْ كنتُ قد اخترتُ
ألاّ أُعَرّضَ نفسي له ، ولكنْ سرعانَ ما عادَ الصفاءُ
إلى مُحَيّاهُ ، واستأنفَ حديثَه العذْبَ قائلاً :
عَطِيّتي لا تقتصرُ على ما في هذه الحدودِ الجميلةِ ، بل تشملُ الأرضَ كُلَّها
إذْ أَمْنَحُكَ إيّاها أنتَ وذُرِّيَّتَك ، فكُونوا أَسْيادًا عليها
وامتلكوها ، وجميعَ الأشياءِ التي تعيشُ فيها
أو تعيشُ في البحرِ أو الجَوِّ من حيوانٍ وسمكٍ وطيرٍ .
وآية ذلك أني سأعرِضُ عليكَ كُلَّ طَيْرٍ وحيوانٍ
بشتى أنواعها ، سوفَ أَعْرِضُها عليك حتى تتلقى

منكَ أسماءَها وتُعْلِنَ لك وَلاَءَها
وخُضُوعَهَا الخاشع ، وافْهَمْ أن ذلك يَصْدُقُ
على الأسماكِ في منازِلها المائيّةِ
ولنْ أدعوها للمثولِ هنا لأنها لا تستطيعُ تغييرَ
بيئتها فتتنفسُ الهواءَ الخفيفَ
وما إنْ انتهى من حديثِهِ حتى رأيتُ أنواعَ الطّيرِ والحيوان
مقبلةً ، من كل زوجين اثنين ، فالحيوانُ يُقْعِي ويَقْبَعُ
تَزَلّفًا ومَلَقًا ، وكلُّ طيْرٍ راكعٌ على جناحه ،
وسَمّيْتُ كُلاً منها وهي تَمُرُّ أمامي وفَهمْتُ
طبيعتَهَا ، إذ وهبني الله المعرفةَ بها فَوَجَدْتُني
أفهمُها فجأة ، ولكنني لم أعْثُر بينها جميعًا
ولم أجد ما ظَنَنْتُ أنني ما زلتُ أطْلُبُه ،
وهكذا تجاسرتُ على الحديثِ إلى الرُّؤيا السماوية قائلاً :
بأي اسم أدعوكَ يا مَنْ تعلو على الجميع
وتعلو علَى الإنسانِ ، وعلى كل ما يعلو على الإنسان ،
وتفوقُ طاقتي على التسميةِ ، قل لي كيف
أعبدك ، يا صاحبَ هذا الكونِ وصانعَهُ ،
وكُلَّ هذه النِّعَم التي وَهَبْتَها للبشر ، وَوَفَّرْتَ لرفاهِيَتِهِ كُلَّ شيءٍ ،
بسخاءٍ ، وبيَدَيْنِ مَبْسوطَتَيْنِ أنْفَقْتَ
فَهَيَّأْتَ له جميعَ الأشياءِ ، وإنْ كنتُ أنا
لا أرى من يُشَارِكُني إياها فما في العزلةِ
من سعادةٍ ، ومن ذا الذي يستطيعُ التمتعَ وَحْدَهُ ،

ولو تمتعَ بكل شيء ، فأيُّ رِضًا يأتيه ؟
هكذا قُلْتُ متجاسرًا ، وإذا بِرَبِّ الرؤيا المنيرةِ
يجيبُ ، كأنما ابتسمَ فزادَهَا نورًا على نور ، قائلاً:
ما الذي تدعوه عزلة ؟ أليست لك الأرضُ
بشتى الكائناتِ الحية ، والهواءُ الحافلُ
الزاخرُ ، وكل هذه جميعًا طوعُ أمركَ بأن
تأتيَ وتلعبَ بين يَدَيْك ، وألا تعرفُ
لغتَها وأساليبَ حياتِها ، إنها تستطيعُ الإدراكَ أيضًا
ولديها طاقةٌ لا يستهانُ بها على الاستنباط ، فانشدْ
التسريةَ عن نَفْسِكَ معها وافرضْ أحكامَكَ عليها فَمملَكَتُكَ شاسعة .
هكذا تحدّثَ ربُّ العالمين ، فكأنما كان
يأمرني بذلك ، ولكنّني تَضَرَّعْتُ إليه أن يسمحَ لي بالكلام ،
ومن ثَمَّ أجبتُ في ذِلّةٍ وتواضعٍ جَمٍّ قائلاً :
أرجو ألاّ تُغْضِبَكَ كلماتي ، يا مَلِكَ السّماء
يا صانعي ، وتَقَبّلْ كلامي بِقَبُولٍ حَسَنٍ .
ألم تَجْعَلْني هنا خليفةً لك
وتجعلْ كُلَّ هذه المخلوقاتِ في منزلةٍ أدنى كثيرًا مني ؟
كيف يكونُ التلاقي والخُلطة إذا تفاوتتْ المنازلُ؟
وكيف يكون التواؤمُ أو التناغُمُ أو المتعةُ الصادقةُ ؟
لابد لذلك من التماثلِ والحفاظ على التناسبِ الواجبِ
في الأَخْذِ والعطاء ، أما إذا تفاوتَ الطرفانُ
فكان أَحَدُهما كالوَتَرِ المشدودِ والآخرُ كالوترِ المرتخي أبدًا

فمن المُحالِ التلاؤمُ بينَهما ، وسرعانَ ما يُصبح
كلٌّ منهما مُملاّ ومَلْولا معًا ، وأنا أتحدّثُ عن الرفقة
التي أطلُبها ، القادرةُ على توفيرِ
المتعةِ العقليةِ والمشاركةِ فيها ، ولا يستطيعُ الحيوانُ الأعجمُ
أن يكون رفيقًا للإنسانِ في ذلكَ ، فالحيواناتُ تستمتعُ
برفقةِ بعضِها البعض ، كالأسَدِ واللَّبْوَةِ .
فلقد خَلَقْتَهُما أزواجًا يناسبُ كُلٌّ منهما صاحِبَه
ولا يستطيعُ الطيرُ مثل هذا النجاحَ في الرفقةِ مع الحيوانِ ،
أو السمكُ مع الدجاجُ ، أو الثَّوْرُ مع القرد ،
وأبعدُ ما يكون عن النجاحِ الإنسانُ مع الحيوان ، بل أبعدُ البعيد .
وأجابَ العَلِيُّ القديرُ دونَ أن يَغْضَبَ قائلاً :
تلك سعادةٌ ما أدقَّها وأرقَّها وأنْدَرَها ، فيما أرى ،
تلكَ التي تطلُبُها لِنَفْسِكَ في اختيارِ مَن
يرافِقُكَ يا آدمُ ، وأرى أنك عازفٌ عن تذوق
السّرور ، على ما أنتَ فيه من السرورِ ، ما دُمْتَ وَحْدَكَ
ماذا تقول عني إذنْ ، وهذه حالي ،
هل أبدو لعَيْنكَ وقد ملكتُ ما يكفي
من السعادة أم لا ؟ أنا الوحيدُ
منذ الأزلِ ، إذ لا أعْرفُ أحدًا
يليني في المَنْزِلَةِ أو يُشْبِهُني ، وما أبعد أن يكونَ لي كُفُوًا أحَدٌ .
من تراني أخاطبُ إذنْ أو أخالطُ
إلا المخلوقاتِ التي صَنَعْتُها ، وهي

أدنى منّي وأشد انخفاضًا وتدنيًا غير محدود
من انخفاض المخلوقاتِ الأخرى عنك .
وتَوَقّفَ فأَجَبْتُ بتواضعٍ قائلاً : إن بلوغَ
ذُرا فَعَالِكَ السّرمديّةِ أو أعماقِهَا
تَقْصُرُ عنه كلُّ أفكارِ البشر ، يا سَيّدَ الأكوانِ ؛
فأنْتَ في ذاتِكَ كاملٌ ، ولا يوجدُ فيك
أي نقصٍ ؛ والإنسانُ ليس كذلك ،
وباستثناءِ الدرجةِ ، ترى ذلك سَبَبَ رغبتِهِ
في أن يتوسّلَ بالحديثِ مع من يماثِلُه ليساعِدَهُ
في استكمالِ نقائصِهِ أو تسريتَه ولا حاجَةَ لك
بالإنجاب لأنّك أزليٌّ أبديٌّ لا نهائيٌّ ؛
وأنت مُطْلَقٌ فيك الأعدادُ كُلُّها مع أنك واحدٌ أَحَدٌ ؛
ولكنّ الإنسانَ يستعينُ بالعَدَدِ الذي يُبَيّن له
نَقْصَهُ إن كانَ مُفْرَدًا ، ويجعلُه ينجبُ
مثيلاً يُشْبِهُهُ من جنسِهِ ، فتتكَاثرُ صُوَرُهُ ،
لأن وَحْدَتَه نقصٌ ، وهي تتطلبُ
حُبًا مُوازيًا مُصاحبًا ، ووُدًا غاليًا وَثِيقًا
وأنتَ في إصرارِكَ ، على وَحْدتِكَ
تفضّلُ ألاَّ يُصاحِبَكَ غيرُ ذاتك ، ولا تسعى
للخُلطةِ والرّفقةِ ، وأنتَ بهذا جِدُّ مسرورٍ ،
وتستطيعُ أن ترفعَ أَيّ مخلوقٍ خَلَقْتَ إلى أيّ درجةٍ تشاؤُها
من درجاتِ الرّفعةِ فيَتَوّحدَ المخلوقُ معك أو يذوبَ فيك تواصلاً

أما أنا فلا أستطيعُ بالتواصلِ والتخاطب أن أرفعَ الدوابَّ المنحنيةَ القامَةِ
إلى مستوى الإنسانِ المنتصبِ ، ولا أن أجدَ فيها مصدرَ مُتْعةٍ .
وانتهيتُ هكذا من حديثي الجسور ، وانتفعْتُ بالحريّة
التي أَذِنَ لي بها ، ولقيتُ منه القَبُولَ الذي أتى
بهذه الإجابة من الصوت الإلهي الكريم إذ قال :
لقد سَرّني الاختبارُ الذي أَجْرَيْتُهُ لك حتى الآن يا آدمُ
إذ وجدتُ أن معرفتَكَ لا تقتصرُ على أنواعِ الحيوانِ
وهي التي أَصَبْتَ في معرفةِ أسمائها ، بل تَشملُ ذاتَك أيضًا
بعد أن عَبَّرْتَ عن الرُّوح الحرة في داخلِك تعبيرًا جميلاً
فهي صورتي ، وهي التي لم أَمْنَحْها إلى الحيوان ،
وهكذا فإن رفقتَهُ غيرُ ملائمةٍ لك ،
وهو سببٌ وجيهٌ جعلك ، بمحض حريتك ، تنفرُ منه
وما زال يتسبَّبُ في نفورِك ، وكنتُ ، من قبلِ أنْ تتكلمَ ،
أعلمُ أنّ بقاءَ الرجلِ وَحْدَهُ ليس حسنًا ،
ولم أكن اقصدُ أن أَجعلَ لك رفيقًا من المخلوقاتِ التي رَأَيْتَهَا
وما اعتزمتُ ذلك ، بل أتيتُ بها لاختبارك فحسب ،
ولأرى قدرتَك على الحُكْم على ما يَصْلُحُ لك ويُلائمُك ،
وأمّا ما سوفَ آتي به الآن فسوف يُرضيك ، وكُنْ واثقًا من ذلك ،
فهي نَظِيرك ، ومُعِينُك المناسبُ ، وذاتُك الأخرى
ورغبتُك التي حَدَّدَها اشتهاءُ قلبِك تمامًا.

وانتهى من حديثه أو قل: إنني لم أَعُدْ أسمعُ صَوْتَه ، إذ كان
كِيانيَ الأرضيُّ قد غَلَبَهُ كيانُه السماوي ، بعد أن

ظل طويلاً يعاني وطأةَ الجلالِ ، ويكابدُ ليرتفعَ إلى الذُّرا
في ذلكَ الحديثِ السماويِّ الرفيعِ ،
مثلما يكابدُ كُلُّ ما يتجاوزَ الحواسَ .
كنتُ مبهورًا مسلوبَ القوى فوقعتُ منهارًا أنشدُ العلاج
في النومِ ، الذي غَشِيَني في اللحظةِ نَفْسِها ، والذي اسْتَدْعَتْه
الطبيعةُ كأنما لتعينَنِي ، وأغمضْتُ عَيْنَيَّ .
لقد أَغْمَضَ عَيْنَيَّ ، ولكنّه لم يُغْلِقْ نافذةَ الوَهْم ،
كانت «الواهمةُ» الضوءَ الباطن ، وعلى نُورِهِ
ظننتُ أنني أرى ، كأنني أغيبُ غيبوبةَ انتشاء ،
وإن كنتُ نائمًا ، حيثُ رقدتُ ، ظننتُ أنني أرى الطيفَ الذي
كان يُشِعُّ بهاءً وجلالاً ، والذي كنت أقفُ بين يديه في يقظتي ،
وقد انحنى على جسدي ، وشَقَّ جانبِي الأيسر ، وأَخَذَ
منه ضِلَعًا ، دافئًا برُوحِ الحياةِ من القلبِ ،
ودمُ الحياةِ يجري فيه نابضًا ، وكان الجُرْحُ واسعًا
ولكنه امتلأ فجأةً باللحم والْتَأَمَ ،
وتناولَ الضِّلعَ بيديه فصَاغَهُ وشَكَّلَهُ ،
وفي يديه الصَّائغتَيْن تَشَكَّل مخلوقٌ ونَمَا ، كانت
تُشْبِهُ الرجلَ ، ولكنَّها من جنسٍ مختلفٍ ، بالغةُ الحُسْنِ والجمالِ ،
حتى إنّ كُلَّ ما كان قد بدا جميلاً في الكون ، أصبح يبدو
دونَها ، أو قُلْ إنها جَمَعَتْ كُلَّ محاسنِ ما قبلَها واشْتَمَلَتْ عليها
وَتبدَّتْ في قَسَمَاتِها ، ومنذُ تلكَ اللحظةِ بَثَّتْ
العُذُوبةَ في قَلْبي ، عذوبةً لم أشعر بها من قبل ،

ونَفَثَتْ في جميعِ الأشياء ، من صورتِها وأنفاسِها ،
روحَ الحُبِّ وسُرورَ الغرامِ وبَهْجَتَه .
واختَفَتْ وخَلَّفتْني حائرًا ، وصَحَوْتُ
لأعْثُرَ عليها أو لأبْكي إلى الأبَدِ
فُقْدَانَها وأُقلِعَ عن كُلِّ متعةٍ أخرى سواها .
وعندما فَقَدْتُ الأمَلَ ، إذا هي أمامي ، غيرَ بعيدٍ ،
على الصورةِ التي بَدَتْ بها في المنامِ ، مُزَيَّنَةً
بكُلِّ ما تستطيعُ السماءُ والأرضُ أن تُضْفيهِ عليها
لتجعَلَها جذّابةً ، وأقبَلَتْ نحوي
يَهْدِيها صانِعُها السَّماوِيُّ ، وإن كان خَفِيّا
وتَسْتَرْشِدُ بصوتِه ، ولمْ تكنْ تجهلُ
قَدَاسَةَ الزَّواجِ وشعائرَ عَقْدِ القِرَان :
بَدَتْ الرشاقةُ في كُلِّ خُطْوةٍ تخطوها ، والسماءُ في عَيْنِها ،
وفي كُلِّ حركةٍ وإيماءةٍ رزانةٌ وحُبٌّ .
ولم أستَطِعْ أن أقاومَ الإعرابَ عاليًا عن فَيْضِ فَرْحَتِي ، قائلاً :
لقد عَوَّضْتَنِي بهذا خَيْرَ تعويضٍ ، إذ صَدَقَ
وَعْدُكَ ، أيها الخالقُ ذو الخيرِ والنِّعَمِ السابغَة ،
واهبُ كُلِّ العطايا الجميلةِ ، وأَجْمَلُها هذه العطيةُ
من عطاياك جميعًا ، التي لم تَضِنَّ بها . فالآن أرى
عَظْمَ عِظامي ، ولَحْمَ لَحمْي ، ونَفْسي ماثلةً
أمامَ عيني ، واسمُها المَرْأةُ ، ومن الرَّجُلِ
استُخْلِصتْ ، ولهذا السببِ عليه أن يتخلَّى

عن الأبِ والأمّ ، ويستمسكَ بِزَوْجَتِهِ ؛
ويصبحان من ثَمّ جسدًا واحدًا ، وقلبًا واحدًا ، ورُوحًا واحدة .
سَمِعَتْنِي أقولُ ذلك ، ومع أنها عطيةٌ إلهيةٌ
إلا أن البراءةَ وخَفَرَ العُذْرِيّة وأَدبَها ،
وما تتحلى به من فضيلة وما تعرفُه عن عُلُوّ قَدْرِها ،
كان يحتّم أن أَخْطُبَ وُدَّها ، وأن أسعى لها سَعْيَها
حتى أَنَالَها ، ولم تكن بَرْزَةً يسيرةَ المنالِ بل مُتَمَنِّعةً خَجِلة
مما زادَ من شَوْقي إليها ، أو إذا أَجْمَلْتُ القولَ قُلْتُ
إن الطبيعةَ نَفْسَها جَعَلَتْها ، على طُهْرِها من أي فِكْرٍ آثِمٍ ،
تشعرُ بما شَعُرْتُ به حتى إنّها عندما رَأَتْني استدارتْ
فَمَضَيْتُ خَلْفَها ، وكانت تعرفُ معنى تكريم الزواج
فَأَبْدَتْ رضاها بطاعةٍ يَزِينُها الجلالُ ، وقَبُولَها
تَوَسُّلي ومَنْطِقي . وذهبتُ إلى خميلةِ الزّفافِ
معها وقد عَلَتْها حُمْرَةُ الخَجَلِ كأنها شَفَقُ الصباحِ ، وإذا بالسماء
ذاتِ البروج ونجومِ السَّعْدِ تلقي على تلك الساعةِ
أصفى بَرَكَاتِها وأَنْقاهَا ، والأرضُ
تُظْهِرُ آياتِ الفَرَحِ والتَّهَاني ، وكُلُّ تَلٍّ من التّلالِ ،
وكانت الطيورُ في فَرَحٍ ، والرياحُ المنعشةُ والنسائمُ العليلةُ
تَهْمِسُ بالفَرَحِ إلى الغَابَاتِ ، ناشرةً أَجْنحتَها
هَابّةً ناهضةً ، ناثرةً ألوانَ الشذا من الشُّجيرات العَطِرَةِ ،
متواثبةً لاهيةً ، حتى بدأ البلبلُ ، غِرّيدُ غَرَامِ اللّيلِ ،
يُنْشِدُ لحنَ الزّفافِ ، ويَحُثُّ نَجْمَ المساءِ أَنْ يُسْرِعَ فَيَبْزُغَ

على قِمّةِ التّلِّ الذي يَعْتَلِيه حتى يُشْعِلَ مصباحَ العُرْسِ .
وهكذا انتهيتُ من إيضاحِ أَحْوالِي ، وبَلَغْتُ في
قِصَّتي ذِرْوَةَ النَّعِيمِ الأرضيِّ
الذي أهنأُ به الآنَ ، ولابد أن أَعْتَرِفَ بأنني أَجِدُ
في جميعِ الأشياءِ الأخرى متعةً حقيقيةً ، ولكنّها ،
سواءً انتفعتُ بها أم لا ، لا تُغَيِّرُ في الذِّهنِ شيئًا ،
ولا تثيرُ أَيَّ رغبةٍ جامحةٍ ، وأَقْصِدُ بها اللطائفَ التي تُدْرِكُها
الحَوَاسُّ مثلَ التَّذَوّقِ والإبصارِ والشَّمِّ ، لِلأَعْشَابِ والفَوَاكِه والأَزْهَارِ
ومثلَ النُّزهاتِ والحانِ الأطيارِ ، ولكنّني بداْتُ هنا
أَنْتَشي نَشْوةً تختلفُ اخْتلافًا شاسعًا ، إذ عَرَفْتُ
في نشوتي حاسّةَ اللَّمسِ ، وهنا أَحْسَسْتُ الغرامَ المشبوبَ أولَ مرة ،
جَيَشَانٌ في النفسِ شديدٌ غريبٌ ، فإذا كنتُ في جميعِ المَسَرّاتِ الأخرى
مَالِكًا زمامَ نَفْسي رابطَ الجَأْشِ ، اصبحتُ هنا ضعيفًا
أمامَ سِحْرِ نَظْرةِ الحُبِّ الجَبّارة .
فإمّا أن الطبيعةَ ضَعُفَتْ في داخلي فَتَرَكَتْ جانبًا
غير مَنيعٍ ، عاجزًا عن الصّمودِ أمامَه ،
وإمّا أنها اقْتَطَعَتْ من جانبي قسمًا كبيرًا ، وربما كان
أكبر مما فيه الكفاية ، وكانت النتيجةُ ، على الأقل ، هي أن أَضْفَتْ عليها
أكثر مما ينبغي من الزّينة ، فكان الظّاهرُ مُحْكَمًا
بالغَ الدِّقة ، والباطنُ أَقَلَّ إحكامًا ودِقّة .
وانا أفهمُ كُلَّ الفَهْمِ الغَايَةَ الأُولى
لِلطَّبيعةِ في جَعْلِها أدنى درجةً في العَقْلِ

والمَلَكَاتِ الباطنةِ ، على امتيازها وتَفوّقِها على الجميع ،
كما كانتْ في مظهرِها أيضًا أَقَلَّ شَبَهًا
بصورة الذي صَنَعَنا نحن الاثنين ، وأَقَلَّ تعبيرًا عن
طابَعِ السيادةِ الذي مَنحَنَا إيّاه
على المخلوقاتِ الأخرى ، ولكنني عندما أقاربُ
جمالَها ، تبدو لعَيْنِي في أوجِ الكمالِ ،
وذاتُها في غايةِ الاكتمالِ ، فأسعى إلى مَعْرِفَةِ
ما تذهبُ إليه ، فكلُّ ما تريدُ فِعْلَه أو قَوْلَهُ
يبدو وقد تَحَلّى بأكبرِ قَدْرٍ من الحِكْمةِ والفَضِيلَةِ والتكتمِّ، فهو الأَحْسَنُ.
وكلُّ معرفةٍ عُلْيا في حُضُورِهَا تسقُطُ
انحطاطًا ، والحكمةُ في الحديثِ معها
يَنْفرِطُ عِقدُها ويَشْحُبُ مُحيّاها وتبدو كالحُمْق ،
وتُظَلِّلُها شيمةُ السُّلْطةِ والعَقْلِ
كشيمةٍ غُرِسَتْ عَمْدًا أوّلاً ، فهي أصيلةٌ ولم تُضْفَ عليها لاحقًا
عَرَضًا ، وتَكْتَمِلُ الصورةُ حين ترى
كَرَمَ النَّفْسِ والشَّرَفِ وهما يُقيمانِ مَقرَّهما
ويَبْنيانه أروعَ بُنْيانٍ فيها ، ويخلُقان جَوّا من الرَّهْبةِ
حولَها ، كأنه مَلَكٌ حارسٌ مُكَلَّفٌ بها .
وردّ عليه المَلَكُ مُقطّبَ الجبين قائلاً :
لا تتّهِمْ الطبيعةَ بشيءٍ ، فلقد أدّتْ مُهِمّتَها ،
وما عليك إلاّ أن تَنْهَضَ بِمُهمتك ، ولا تَفْقِدْ الثقةَ
في الحكمةِ الإلهيةِ ، فلنْ تتخلى عنك إذا

دامَ استمساكُكَ بها ، وأنتَ في مَسيسِ الحاجَةِ إلى قُرْبِها الآنَ ،
فلا تُضْفِ أكثرَ مما ينبغي على الأَشْياءِ التي
يَقِلُّ امتيازُها عما تراه ، على نحوِ ما تدركُ أنت نَفْسُك ،
فما الذي تُعْجَبُ به ، وما الذي يَهبُك كُلَّ هذا الانتشاء ؟
ظاهرُها ؟ إنها جميلةٌ بلا شكٍ ، وجديرةٌ جدارةً تامّةً
بإعزازك إياها وتكريمِكَ وحُبِّك
لا بأن تُخْضِعَكَ لها ، ضَعْ نفسَك في الميزانِ معها
وانظرْ قيمةَ كلِّ كِفَةٍ ، فكثيرًا ما يجدُ المرءُ أكبرَ فائدةٍ
في تحديد قيمة ذاته ، استنادًا إلى العْدَلِ والحَقِّ
دونَ شَطَطٍ ، وكُلَّما زَادَتْ براعَتُك في هذا التَحْديدِ والمَعْرفة
ازداد إقرارُها بأنك أنت رَأْسُها ،
وإسلاسُها للحقائق قيادَ مَظْهرِها الجميل
الذي خُلق بالغَ البهاءِ حتى يزيدَ من سُرورك
وبالغَ المهابَةِ حتى تلتزمَ الشرفَ في حُبِّك
لزوجتك التي تُدركُ متى تَنْحَسِرُ حكمتُك إلى أدنى درجاتِها .
أما إذا كانت حاسةُ اللمسِ التي يتوسلُ بها الإنسان
في التكاثر تبدو لعينك مصدرًا للمتعة
يفوقُ كُلَّ الحواس ، فتذكرْ أن متعةَ هذه الحاسةِ قد وُهِبَتْ
للأبقارِ ولكل حيوانٍ ، ولم يكنْ الخالقُ
لِيُشيعَهَا ويُفْشِيها بينها ، لو كان في حَصَادِ
مُتْعَتِها أيُّ شيءٍ جديرٍ بأن يُخْضِعَ
روحَ الإنسانِ أو يُحَرِّكَ في نفسِهِ العاطِفَةَ

وكُلُّ ما تجدُه رفيعًا ساميًا في صُحْبَتِها من
جاذبيّة وشمائلَ إنسانيةٍ وعقليةٍ ، فلك أن تُحِبَّه على الدوام
فأنت تصيبُ حين تحبُّ ، وتخطئُ حين تَجْرِفُكَ العاطفةُ المشبوبةُ ،
إذ لا تنطوي تلك على حُبٍّ حقيقي ، فالحبُّ
يُهَذِّبُ الأفكارَ ، ويزيدُ من رَحَابَةِ الفؤادِ ، ويتّخذُ مَقَرَّه
في العقل ، وهو صائبُ الأحكامِ ، بل هو السُّلَّم
الذي يتيحُ لك إذا ارتَقَيْتَهُ أن تَصِلَ إلى الحُبِّ الإلهي
لا أن تَهْوِي فَتَغْرقَ في الملاذِّ الجسديةِ ، ولهذا السببِ
لم يُعْثَرْ لك على زوجٍ من بين ضروبِ الحيوان .
وأجابه آدمُ وقد مَسَّهُ شيءٌ من الخَجَلِ قائلاً :
لا ظاهرُها الذي صُوِّرَ بهذا الجمالِ ، ولا أيُّ صِفَةٍ
من صفاتِ التكاثر التي تشتركُ فيها جميعُ المخلوقاتِ
(وإن كانت أسمى كثيرًا في فِراشِ الزوجية
حتى إنني أوليها احترامًا عظيمًا لا أدري كُنْهَهُ)
لا هذا ولا ذاك يُمْتِعُني متعةً تفوقُ ما ألقاهُ في كريمِ فعَالِها
وفي ألفِ آيةٍ من آياتِ التأدُّبِ والتهذيب التي تتدفّقُ كُلَّ يومٍ
في جميعِ ألفاظِها وأعمالِها ، ممتزجةً بالحبِّ
والطاعةِ العَذْبةِ ، إذ تُفْصِحُ عن صِدْقِ
وَحْدَةِ الذّهنِ فينا ، والرُّوحِ الواحدةِ في جَسَدَيْنا ،
إنه تناغُمٌ يُرى في التوافُقِ بين الزَّوْجَيْن
أَحْلَى من وَقْعِ الألحانِ المتوافِقَةِ في الآذان .
ولكنّ هذه جميعًا لا تُخْضِعُني لها ، إنني أكْشِفُ لَكَ

عما أُحِسُّه في أعماقي ، ولا يعني بالضرورة أنه يَقْهَرُني
أنا الذي تُوَاجِهُني الحواسُّ بشتى الأشياءِ ،
بصورٍ وأشكالٍ شَتَّى ، ولكنني أتمتعُ بالحريةِ
في أنْ أَرْضَى عما أشاءُ منها ، وأن أنالَ ما أرضاه .
لا تَلُمْني إذن على الحُبّ ، فالحُبُّ كما تقولُ
يُؤَدِّي إلى السماء ، فهو السبيلُ وهو الهادي ،
فاصْبِرْ على دَعْوَايَ إذنْ ، إن كان مَطلبي مشروعًا !
أَفَلاَ تعرفُ الحبَّ أرواحُ السماءِ ، وكيفَ تُفْصِحُ عن حُبّها
وتعبِّرُ عنه ، أبالنظراتِ فقط ، أم تُراها تتمازَجُ فيما
تُشِعُّ من أنوارٍ ، هل باللَّمْس المُتَخيَّلِ أم باللَّمْس الفِعْليّ ؟
وتطلع إليه المَلَكُ ببسمةٍ تَوَهَّجَتْ وَهجًا
سماويًا وَرْديًا أَحْمَرَ ، لَوْنَ الحُبِّ الصادقِ ،
وأجابه قائلاً : يكفيك أن تعرفَ أننا
سُعَدَاء ، ولا سعادةَ دونَ الحُبّ ،
وكلُّ ما تستمتعُ أنت به جسديًا من نَقَاءٍ وطُهْرٍ
(ولقد خُلِقْتَ نَقيًا طَاهِرًا) نَستمتعُ به نحنُ
إلى أقصى حَدٍّ ، دونَ أن نصادفَ العوائقَ الجسديةَ
من أغشيةٍ أو مفاصلَ أو أطرافٍ هي قُضْبانُ السِّجْنِ البشريّ ،
وإذا تعانَقَتْ الأرواحُ فعناقُها أيسرُ من عِنَاقِ الهَوَاءِ مع الهَوَاءِ
إذ تمتزجُ امتزاجًا كاملاً ، في اتحادِ النَّقاءِ مع النَّقاء
الذي يشتاقُ إليه ، ولا نحتاجُ إلى قَهْرِ عوائقِ التَّواصُلِ
التي يلقاها امتزاجُ جَسَدٍ بجسدٍ أو نَفْسٍ بِنَفْسٍ .

ولكنني يجبُ أن أُقْلِعَ الآنَ ، فالشمسُ الغاربةُ
وراء رَأسِ الأرضِ الخضراءِ والجزائرِ الزَّهْراء
تغوصُ في الأُفُقِ الغَرْبِيّ ، وهي الإشارةُ المُؤْذِنَةُ برحيلي .
فَلتَنْعَمْ بالقُوّةِ والحياةِ الهانئةِ والحُبِّ ، لكنْ اذكر أولاً
من يكونُ حُبُّه في طاعَته ، ولا تَغْص
أَمْرَهُ العظيمَ ، وحاذِرْ أنْ تجرفَكَ العاطفةُ المشبوبةُ
فيفعلَ حُكْمُك أيَّ شيءٍ تنبو عنه إرادتكُ الحُرَّة
ولا ترضاهُ ، فمصيرُك ومصيرُ جميعِ أبنائك
من خيرٍ أو شرٍّ قد وُضِعَ في يَدِكَ ، فَخُذْ حِذْرَكَ .
لسوفَ يَسُرُّني أن أَرَاكَ صَابرًا مُصَابِرًا
وكُلُّ من بُوركَ فيهم ، فَكُنْ صامدًا والثباتُ أو السقوطُ
في يَدِكَ ، ويكْمُنُ في حُرِّيَةِ اختيارِكَ وَحْدَكْ .
الباطِنُ كامِلٌ فلا تَطْلُبْ استكمالاً له من الظّاهِرِ
وعليكَ أن تَصُدَّ كل إغراءٍ باقْترافِ الذُّنوبِ .
قال ذلك ونَهَضَ ، فقامَ آدمُ معه
وسارَ خَلْفَهُ وهو يباركُه قائلاً : ما دامَ عَلَيْك أن ترحلَ
فاذهبْ يا ضَيْفَ السماء ، أَيّها الرسولُ الأثيري
الذي أرسله من أعبدُ خيرَ سلطانِه وملكوتِه .
لقد كنتَ كريمًا فتَلَطَّفْتَ معي
وتنازَلْتَ ، ولسوفَ أَحْمِلُ بآياتِ الإعزازِ والشَّرَفِ إلى الأبد
ذِكْرَاكَ البهيجةَ ، ولِيَسْتَمِرّ عطاؤُك للبَشَر
خَيْرًا ووُدًا دائمًا ، وأَكْثِرْ من زياراتك .

وهكذا افترقا ، فانْطَلَقَ المَلَكُ إلى السماء صاعدًا من الظِّل الظليل ، واتجه آدمُ إلى خميلتِه .

الكتاب التاسع

الكتاب التاسع

الموضوع

بعد أن ينتهي إبليس من دورته حول الأرض ، يعود بخبثٍ إلى الفردوس ليلاً، وقد تنكر بمكره في صورة ضباب ، ويتقمص جسد الثعبان النائم . ويذهب في الصباح آدم وحواء إلى العمل ، وتقترح حواء تقسيم العمل بين عدة أماكن، يعمل فيها كل منهما على انفراد ، ولكن آدم لا يوافق ، مشيرًا إلى ما في ذلك من أخطار ، قائلاً إنه يخشى أن يحاول العدو الذي سبق تحذيرهما منه مباغتتها على انفراد ، وكرهت حواء أن يُظَنَّ بها الافتقار إلى الحيطة اللازمة أو قوة الشكيمة ، فقالت إنها تفضل انفصالها في العمل عنه،وإن كانت تريد في الواقع أن تختبر مدى قوتها ، ويوافق آدم آخر الأمر ، فيأتيها إبليس وحدها، ويلي ذلك وصف المدخل الخبيث الذي يدخله ، فهو يتطلع إليها أولاً ويحدّق، ثم ينطق ويتحدّث ، مادحًا حواء مدحًا يجعلها تتجاوز الخلائق جمعاء ، ويتملقها ملقًا شديدًا ، وتعجب حواء حين تسمع الثعبان يتكلم ، فتسأله كيف نجح في الحديث مثل البشر ، وكيف اكتسب القدرة على الفهم ، وكيف لم يكتسب هذا وذاك قبل تلك اللحظة ، وأجابها الثعبان قائلاً إنه نجح بفضل مذاق ثمرة شجرة معينة في الجنة ، فاكتسب الكلام والعقل ، ولم يكن يملك أيا منهما قبل ذلك ، وتطلب حواء منه أن يصحبها إلى تلك الشجرة ، فتجد أنها شجرة المعرفة المحرمة ، وتزداد جسارة الثعبان ، فيتوسل بشتى الأحابيل والحجج حتى يقنعها آخر الأمر بالأكل منها ، ويسرها المذاق فتفكر هنيهة وتتردد فيما إذا كان ينبغي أن تخبر آدم بذلك أم لا ، وأخيرًا تأتيه ببعض

ثمار تلك الشجرة ، وتقص عليه كيف اقتنعت بأن تأكل منها ، ويقع آدم في دهشة وحيرة في البداية ، ولكنه يدرك أن حواء سوف تضيع من يده ، فيقرر بدافع قوة الحب الجانحة أن يفنى معها ، ويأكل من الثمرة كأنما ليهون من الخطأ ، ويلي ذلك وصف تأثير ذلك فيهما ، إذ طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة بعد أن بدت لهما سوءاتهما ، ومن ثم يبدأ الشقاق بينهما، وكل منهما يرمي تبعة ما حدث على الآخر .

لن نتحدثَ بعد الآن عن الله أو الملَكَ الذي حَلَّ ضَيْفًا
على الإنسانِ ، حيثُ اعتادَ في أُلْفَةِ الصديقِ لصديقِه
أن يتنازلَ بمُجَالَسَتِه ويُشَارِكَهُ
الطعامَ في الخلاءِ ، ويَسْمَحَ له في أَثْناءِ ذلك
بما يُباحُ له من حديثٍ دونَ حرجٍ ، إذ لا مناصَ لي الآنَ من تغييرِ
تلك النَّبرَاتِ إلى لُحونِ المأساةِ ، من شَكٍّ مُريبٍ ذَميمٍ
وفَصْمِ عُرى الوُدِّ وخِيَانَتِه من جانب الإنسان ، وتمرُّدِهِ
وشَقِّهِ عَصَا الطَّاعَةِ ، وأمّا من جَانِبِ السَّماءِ التي
أشاحَتْ الآن عنه ، فابتعادٌ وتَقَزُّزٌ
وغضبٌ وتقريعٌ مُنْصِفٌ وإصْدَارُ حكمٍ
أتى إلى هذه الدُّنيا بدُنْيا من الأحزانِ

والخَطيئةِ ، وبالموتِ الذي يَتْبَعُها كَظِلِّها ، وبالشقاءِ
المُنْذِرُ بقُدُومِ المَوْت . إنها لَمُهِمَّةٌ ثقيلةُ الوَطْأَةِ على القَلْب
ولكنّ الموضوعَ ذو طابَعٍ بُطوليّ لا يَقِلُّ بل يزيدُ عن سَوْرَةِ غَضَبِ
أخيلاس الصارمِ على عَدُوِّه وهو يُطارِدُه فيفرُّ
ثلاثَ مراتٍ شريدًا حولَ أسوارِ طُرْوادَةَ ، أو جَيَشَانُ
«تورنوس» وهو يَنْشُدُ «لافينيا» التي حُرِمَ منها ،
أو حِنْقَ «نبتون» أو «جونو» ، الذي طَالَ
ابتلاءُ اليونانِ به وابنِ «قيثيريا» فأمْعَنَ في الطُّول !
لو أنني استطعتُ أن أَجِدَ الأسلوبَ الملائمَ
من رَبَّةِ الشِّعرِ التي ترعاني في السماء ، والتي تتعطفُ
بزيارتي كُلَّ ليلةٍ دونَ توسُّلٍ وابتهالٍ ،
وتُمْلي عليَّ الأبياتَ هاجعًا أو تُلْهِمُني
فأكتبُ النَّظْمَ يسيرًا دونَ تَكَلُّفٍ أو تدبيرٍ ،
منذُ أن وَقَعْتُ في البداية على هذا الموضوعِ للقَصيدِ البُطولي
فَرَاقَ لي بعد تردّدٍ طويلٍ في الاختيار ، حتى تَأَخَّرَ شُروعِي فيه ،
وإن كنتُ بطبيعَتي لا أَعْمَدُ جاهدًا للكتابةِ عن
الحروب ، حيث كانت تُعتبرُ حتى الآنَ الموضوعَ
البطوليّ الوحيد ، وحيث المهارةُ الرئيسيةُ للشاعرِ تشريحُ
جِرَاحِ فُرسانِ الأساطيرِ وإيرادُ تفاصيلِ الدَّمارِ المُمِلَّةِ
في المَعارك الخيالية ، وأما الجَلَدُ الذي يَزينُ
الصَّبرَ الجميلَ والاستشهادَ البطوليَّ
فلمْ يكُنْ يُتَغَنّى به ؛ كما أَنْفِرُ من وصفِ المسابقاتِ والمبارياتِ

أو مُنَازَلةِ الفرسانِ بأسْلِحَتِهِمْ ودُروعِهِمْ البَرَّاقَةِ
ذات الشاراتِ العجيبةِ ، وبالخَيْلِ المُطَهَّمَةِ والجِيَادِ
المَكْسُوَّةِ ، والمُزَيَّنَةِ بالزيناتِ الباهرةِ ، فرسانٌ أُبَّهَةٍ
في النزالِ والصَّولاَتِ والجَولاَتِ التي تتلوها الولائمُ الحافلةُ
التي تُولَمُ لهم في قاعاتٍ يشرفُ عليها قهرمانٌ وخدمٌ ،
وأصولُ المآدبِ ومهاراتُ القائمينَ عليها ، فهي مبتذلةٌ
وليست جديرةً بأنْ تُضْفِي صِفَةَ البُطُولَةِ أو اسمَها
على شخصٍ ما أو قصيدةٍ ، فلستُ بها
خبيرًا ولا عليها حريصًا ، وقد بَقِيَ لي موضوعٌ أسمى
ويكفي في ذاته للسموِّ بذلك الاسم ، إلا إذا كنتُ
قد جئتُ بعد فواتِ الزمنِ الصالحِ ، أو قَعَدَتْ بي بُرُودَةُ
الأجواءِ ، أو الشيخوخةُ ، عما اعْتَزَمْتُه من تَحْليقٍ ، فَقَصَّتْ جَنَاحِي
وما كانَ أقربَ ذلكَ إلى الوقوعِ لولا أن زمامَ الأَمْرِ
ليسَ في يَدِي بل في يَدِها ، وهِيَ تأتي بالقَرِيضِ كُلَّ ليلةٍ إلى أُذُنِي .
غَرُبَتْ الشمسُ ، وأَفَلَ من بَعْدِهَا كوكبُ
الزُّهَرَة ، المكلَّفُ بأن يَأْتِيَ
بالشَّفَقِ إلى الأَرْضِ ، وهو الفاصلُ القصيرُ
بين اللَّيلِ والنَّهارِ ، فاكتسى الأفقُ من أقصاهُ إلى أقصاهُ ،
في نِصْفِ الكُرَةِ الأرضيَّةِ الذي يغشاهُ الليل ، لثامَ الظُّلْمة .
وعندها هبَّ إبليس ، وكان قد فرّ منذ فترةٍ من عدن ،
خائفًا من تهديداتِ جبريل ، فزادَ من إحكامِ
تدبيرِ مَكْرِهِ وخُبْثِ تَحَايُلِه ، وقد عَقَدَ العَزْمَ

على إهلاكِ الإنسانِ ، ولم يُلْقِ بالاً إلى ما يَحْدُثُ
له مما هو أشدُّ وأنكى ، بل تجاسرَ عائدًا .
كان فرارُه ليلاً ، وفي منتصف اللّيلِ عادَ
من دَوْرَتِهِ حولَ الأرضِ ، حَذِرًا من طُلوعِ النّهار
إذ إنَّ المَلَكَ «أوريبل» ، الوَصِيَّ على الشَّمْسِ ، لَمَحَهُ في
أَثْنَاءِ دُخُولِه ، وحَذَّرَ ملائكةَ الشاروبيم
القائمةَ بالحراسةِ فتَرَقَّبَتْه ، وكان قد طُردَ مُفْعَمَ القَلْبِ بالهَمِّ منها ،
فَظَلَّ يطيرُ على امتدادِ سبعِ ليالٍ مُتَّصِلَةٍ راكبًا مَتْنَ
الظلامِ ، ودار ثلاثَ دوراتٍ حول خَطِّ الاستواءِ
وعَبَرَ رَكْبَ اللّيلِ أربعَ مراتٍ
من القُطبِ إلى القُطبِ ، مارًا بأقطارِ الأرضِ الأَرْبَعَةِ .
وفي الليلةِ الثّامنةِ عادَ ، وعلى السّاحلِ البَعِيدِ
عن المَدْخَلِ وعن رقابةِ الشاروبيم حَلَّ وهو يسترقُ
الخطى إذ وجد مدخلاً لا يلتفتُ إليه أحدٌ . كان ثَمّ مكانٌ -
واختفى الآن بعد أنَ بدَّلَتْ الخطيئةُ الأحوالَ ، لا صُروفُ الدهرِ -
حيثُ تتدفّقُ مياهُ دِجْلَةَ ، في آخرِ الفردوس ،
في مجرًى تحت الثّرى ، ثم يَنْدَفِعُ بعضُها
ويَنْبَجِسُ عينًا دفاقةً بجوار شجرةِ الحياةِ .
وهنا هبطَ إبليسُ مع ماءِ النَّهرِ وخَرَجَ معه
يلتفُّ بالرَّذاذِ والضَّبابِ المُتَصَاعِدِ ، ثم جعلَ يبحثُ
عن مكانٍ يختبئُ فيه . كان قد بحثَ في البَرِّ والبحرِ ، طُولاً
من عَدْنٍ حتى البحر الأَسْودِ وبَحْرِ

«آزوف» ، صاعدًا حتى نهر «أوب» في «اسيريا»
وهابطًا حتى القارّة القطبيةِ الجنوبيةِ القصبيّةِ ، وعَرْضًا
نحو الغَرْبِ من نهر اللّيطاني في الشام حتى المحيطِ ذي القُضْبان
عند بَرْزَخِ بَنَمَا ، ومنه إلى الأرض التي يتدفّقُ فيها
نهر السِّنْدَ و«الجَانْجا» ، وهكذا طَوَّفَ بالأرض
باحثًا منقبًا مُدققًا مُفَتّشًا مُتَعَمّقًا
في طبعِ كُلِّ مخلوقٍ ، ليَنتقيَ من بينها
أَشَدَّ ما يَناسبُ تنفيذَ أحابيلِهِ ، فوَجَدَ
الثعبانَ ، أمكرَ حيوانٍ في البَرِّ
واختارَه بعد تردّدٍ طويلٍ ، دارتْ فيه الحُجَجُ سِجَالاً
وتَنَاجَزَتْ الأفكارُ ، ثم قَرَّ رَأْيُهُ أخيرًا أن يَجْعَلَهُ
الوسيلةَ المناسبةَ ، أنسبَ أداةٍ للحيلةِ والخداعِ ، فإذا
دَخَلَ فيه فتَقَمَّصَهُ ، أَخْفَى فيه غِوَايَتَهُ وإيحاءاتِهِ الخبيثةَ
عن أحدِّ الأبصارِ وأَقْوَاهَا ، إذْ مهما يكنْ الخداعُ الصادرُ
عن الثعبانِ الماكرِ ، فلن يستريبَ فيه أحدٌ ، بل سيظُنُّ الجميعُ
أنه راجعٌ إلى ذكائِهِ الأصيلِ ومكرِهِ الفِطْرِيِّ ،
أما إذا لُوحِظَ ذلكَ الخداعُ في الحيواناتِ الأُخْرى
فربما أثارَ الريبةَ في وُجودِ قُوَّةٍ شَيْطَانِيّةٍ
عاملةٍ في باطِنِهِ ، تتجاوزُ مَدَارِكَ الحَيَوان .
قَرَّ رأيُه على ذلك ، ولكنه شَعَرَ بحزنِ الفُقْدَانِ في داخله
يتفجرُ في شَكَاةٍ مُلْتَهِبَةٍ جائحَةٍ ، فَسَالَتْ الألفاظُ من فَمِهِ ، قائلاً :
أيتها الأرضُ ! كم تُشْبِهِينَ السَّمَاء ، إنْ لم تفوقيها ،

إذا زادَ انحيازنا للعَدْلِ ، فَأَنْتِ أَجْدَرُ بسُكْنى الملائكةِ ، إذْ بُنِيتِ
من وَحْيِ فِكْرَةٍ جديدةٍ طَرَأَتْ ، فأَصلحَ بك ما بَاتَ قَديمًا !
وهَلْ كانَ اللهُ ليبنَي ما يَقِلُّ منزلةً عن أَفْضَلِ ما بَنَى وشَيَّدَ ؟
أيتُها السماءُ على الأَرْضِ ، تدورُ حولَكِ أَفلاكُ السماءِ الأُخْرى
التي تَسْطَعُ وهي تحملُ مَصَابِيحَها الوَضَّاءَةَ التي تقومُ بعملِهَا ،
نورًا على نُورٍ ، من أَجْلِكِ أيتها الأَرضُ وَحْدَكِ ، فيما يبدو ،
فتركَّزُ فيكِ جميعَ أَشِعَّتِها الثَّمينةِ
ذاتِ الوَهَجِ القُدْسِيِّ ، ومثلما يَشْغَلُ الله في السماءِ
مَرْكزَهَا ويمتدُّ في سائرِ الوُجُودِ كُلِّه ، تَقَعِينَ أنتِ
في المركزِ وتَتَلَقَّيْنَ نورَ جميعِ هذه الأفلاكِ ، وفيكِ
لا في ذواتها ، تظهرُ كُلُّ طاقاتِها المعروفةِ
المثمرةِ في الأعشابِ والنباتِ وميلادِ الأسمى
من المخلوقاتِ التي تنبضُ بالحياةِ ، درجاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ
من نُمُوٍّ وحِسٍّ وعَقْلٍ تجتمعُ كُلُّها في الإنسان .
ما كانَ أمتعَ لي من أَنْ أَمْشِيَ في مَنَاكِبِكِ
لو كنتُ أجدُ السُّرورَ في أَيِّ شيءٍ ، في ذلك التَّعَاقُبِ العَذْبِ
بين التِّلالِ والوِدْيَانِ والأنهارِ والغاباتِ والسهولِ ،
بينَ البَرِّ والبَحْرِ ، والشُّطآنِ التي تُكَلِّلُ الأدغالُ هامَتَها ،
والصخورُ والعرائنُ والكهوفُ ، ولكنني لا أجدُ في أيٍّ منها
مُقَامًا ولا مَلْجأً ، وكُلَّمَا ازدادَ ما أَرَى من
مباهجَ من حولي ، ازدادَ إحساسي وتَعَمَّقَ
بالعذابِ في باطني ، كأنما ينبعُ من الحِصَارِ المقيتِ

للمتناقضاتِ ، فكلُّ خيرٍ يُمْسي لي
سُمًّا ناقعًا ، وإذ انْقَلَبْتُ إلى السماء فسوءُ المُنْقَلَبِ .
لكنني لا أطلبُ الإقامةَ هنا ولا في السماء
إلا إذا قَضَى حَكَمُ السماءِ الأَعْلى بذلك .
وانْقَطَعَ الأملُ في تَخْفيفِ حِدَّةِ شَقَائي
بما أسعى إليه ، إلا انْ أجعلَ الآخرين يَقَعُونَ في مِثْلِ
ما أنا فيه ، ولو كان ذلك أدهى وأمرَّ لي .
ففي التدميرِ وَحْدَهُ أجدُ الرَّاحةَ والتنفيسَ
عن أفكاري العاتيةِ ، فإذا دَمَّرْتُهُ
أو مضيتُ به معي إلى ما يجلبُ الضَّياعَ الكاملَ له ،
وهو من خُلق كلُّ هذا من أجلِهِ ، فسرعانَ ما يَحُلُّ الدمارُ بكل هذا
من بعده ، فهو مرتبطٌ به في السّراء والضَّراء ، فليكونا
في الضرّاء إذنْ ، حتى يتسعَ نطاقُ الدَّمارِ وينطلق ،
وسوف أحظى وحدي بالمجدِ من بين
شياطين جهنّمَ ، حين أنجحُ ، في يومٍ واحدٍ ، في تدميرِ
ما صاغه الجبارُ وصَنَعَهُ على مدى ستِّ ليالٍ وأيامٍ
دون توقّفٍ ، ومن يدري كم من الزمن استَغْرَقَهُ
في التدبيرِ من قبلُ ، ولو أنني أُرَجّحُ أنه
لم يبدأْ إلاَ حينَ قمتُ في ليلةٍ واحدةٍ فَحَرَّرْتُ
من نَيْر الرِّقِّ المُهينِ ما يقربُ من نصْفِ
من يحملونَ اسمَ المَلَكِ ، فأنقصْتُ عددَ الحُشُودِ
التي تعبدُه ، وهكذا فإنه ، انتقامًا لنفسِه ،

واستكمالاً للأعدادِ التي نَقَصَتْ ،
سواءٌ كان قد استَنْفَدَ الطاقةَ القديمةَ فلم تَغْدُ قادرةً
على خَلْقِ المزيدِ من الملائكةِ ، هذا إذا كانوا
ممن خَلَقَهُمْ ، أو إمعانًا في النِّكايةِ بنا ،
قَرَّ عزمُهُ على أن يُحِلَّ مَحَلَّنا
مخلوقًا صَوَّرَهُ من التّراب ، وأن يُضْفِي عليه ،
بعد أن رَفَعَهُ عن ذلك الأَصْلِ المُنْحَطِّ ،
مهامَّ سماويّة ، وهي من مهامِّنا ، وما قضى به
أَنْفَذَهُ ، فَصَنَعَ الإنسانَ ، ومن أَجْلِهِ بَنَى
هذا العالَمَ الرائعَ ، ومَقَرُّهُ الأرضُ
وأعلن أنه السيد ، كما إنه ، ويا للمهانة !
سَخَّرَ لخدمته ملائكةً من رُتْبَةِ «الأَجْنِحَةِ»
وحُرّاسًا من النُّورِ يراقِبُون ويَرْعَوْنَ
ذلك الأرضيَّ الذي أُوكِلُوا به ، وأنا أخافُ تَنَبُّهَ هؤلاء لي
وأخشاهم ، وسوف أروغُ منهم إذْ آتي مُلْتَفًّا بالضَّبَاب
الذي تَنْشُرُه أَبْخِرَةُ منتصفِ الليلِ وأَتَسَلَّلُ خِفْيَةً ، باحثًا
في كل دَغَلٍ وأَجَمَة ، عساي أنْ أَجِدَ
الثعبانَ نائمًا ، حتى أَتَسلَّلَ فأدخلَ طَيّاته المُلْتَفَّةَ
فأختبِئَ وأحقنَ به خبيثَ مَقْصِدِي .
يا للانحطاط المزري ! أنا الذي كنتُ من قبلُ أناجزُ
الأربابَ حتى أشغلَ أرفعَ مقعدٍ بينهم ، أَضْغَطُ الآن كِياني
في جسمِ حيوانٍ ، وأختلطُ بِطِينِ الحيوانِ اللزجِ !

وهل يتجسدُ هذا الجوهرُ ويتمثّلُ بالحيوان
بعد أن كان يطمحُ في تَسَنُّم ذِرْوةِ الأُلوهية ؟
ولكنْ أيُّ هوةٍ تلك التي يستنكفُ الطموحُ والثأرُ من
الهبوط إليها ؟ لابُدَّ للطّامح أن يَهْبِطَ في مَهْوًى
يوازي ارتفاعَ التَّحْليقِ ، وأن يُعَرِّضَ نفسَه أولاً أو أخيرًا
إلى أَحَطِّ الأشياءِ وأحقرها . والثأرُ ، على حَلاَوةِ مذاقِهِ أولاً
سريعًا ما يرتدُّ إلى نَفْسِهِ كالعَلْقَم ،
فَلْيَكُنْ ، لن أبالي ، ولقد أحسنتُ تحديدَ المَرْمى ، فلأُطْلِقْ السَّهْمَ الآن
(ما دمت أَقْصُرُ عن ارتقاءٍ ذُرًا أعلى) على الذي يلي القهار في
إثارةِ حسدي ، على ذلكَ المخلوقِ الجديدِ الذي يحظى بحبِّ
السماءِ ، فهو الإنسانُ ابنُ الصلصالِ ، وليدُ الحِقْدِ ،
الذي رفَعَهُ خالقُه فوقَنا حقدًا علينا ونكايةً فينا
وهو من التراب ، لا أَفْضَلَ إذن من مقابلة الحِقْدِ بالحقد .
قال ذلك وانطلق يجوسُ خلال كُلِّ أَجَمَةٍ بلّلها القَطْر أو جَفَّتْ
مثل ضبابٍ أسودَ يزحفُ قريبًا من سطحِ الأرض ، فواصلَ
بحثَه في منتصفِ اللّيْلِ ، حيثُما ظنّ أنه سيجدُ الثعبانَ قريبًا
وسرعانَ ما وَجَدَهُ مستغرقًا في نومٍ عميقٍ
وقد تكوَّرَ في متاهةٍ من تلافيفِ جِسمِهِ الكثيرةِ
واضعًا رأسَهُ وَسطها ، ولديه عُدَّتُه الزاخرةُ من أحابيلِ المَكْر ،
لم يكنْ كُتِبَ عليه بَعْدُ أن يَظَلَّ في الظِّلِّ متحفزًا أو في مَكْمَنِهِ مُتَرَبِّصًا
أو أن يُؤْذي أحدًا ، بل كان ينامُ على بساطِ الكَلإِ المُعْشِب
لا يخافُ ولا يخيفُ ، ودخل الشيطانُ من فمِهِ

إلى باطِنِه فَنَفَذَ إلى حواسّ الحيوانِ فيه ،
في قلبِه كانت أمْ في رأسِه ، وسرعانَ ما تملّكَهُ فالْهَمَهُ القُذْرَةَ
على سلوكِ مَسْلَكِ الأذكياء ، دون أن يُقْلِقَهُ من نومِه
بل ظَلّ مختفيًا في انتظارِ طلوعِ الصبحِ .
وعندما بدأ الضوءُ القُدْسيُّ يُشْرِقُ
في عدن على الأزهارِ النَدِيّةِ ، مُرْسِلةً أنفاسَ
شَذَا الصباحِ ، وعندما بدأ كل ما يتنفسُ
يبعثُ من معبدِ الأرضِ العظيمِ تسابيحَ الحمدِ الصامتةِ
إلى الخالقِ ، ويملأُ أَنَفَهُ
بطيبِ الأريجِ ، أتى الزّوجان من البَشَرِ
وشرعا يشاركانِ في الصّلاةِ بصوتٍ مسموعٍ مع سائرِ المنشدينَ
من المخلوقاتِ غيرِ الناطقةِ ، فلما قُضِيَتْ الصلاةُ ، بدآ يَنْهَلاَنِ من
جَمَالِ الرّبيعِ ، أعْظَمِ الفصولِ في عَذْبِ الروائحِ ولطيفِ النسائمِ ،
ثم أَخَذَا يتشاورانِ في أفضلِ السُّبُلِ لقضاءِ عَمَلِ اليومِ
في الزّراعةِ والغَرْسِ ، إذ إن عَمَلَهُمَا زادَ كثيرًا
عما تستطيعُه أيدي اثنين ، فالعملُ بالحديقةِ واسعُ النطاقِ .
وبدأتْ حواءُ الحديثَ إلى زوجِها أولاً فقالت :
قد نعمل يا آدم طولَ الوقتِ في تشذيبِ
هذه الحديقةِ ، ورعاية النباتاتِ والأعشابِ والأزهارِ ،
وهو عملُنا الممتعُ الذي كُلِّفْنا به ، ولكننا - ريثما نُرْزَقُ بأيدٍ أخرى
تساعدُنا - نراهُ يكبرُ بفضلِ جهودنا ،
وقيودُنا تزيدُه انطلاقًا ، فما نفعلُه نهارًا

من تهذيبِ ما ازدادَ نُموُّه فاشْتَطَّ ، أو تَشْذيبِه أو مُسانَدَتِهِ أو رَبْطِهِ
نراهُ بعد ليلةٍ أو ليلتين وقد جَنَحَ في نُموِّهِ جُنُوحًا يسخرُ من جُهُودِنا ،
عائدًا إلى حَالَتِهِ البَرِّيّةِ ، وأريد منك المشورةَ إذنْ ،
أو الإصغاءَ إلى ما أَتَتْ به أفكاري الأولى إلى ذهني :
فَلْنَقْسِمْ العَمَلَ فيما بيننا ، فامْضِ أنت إلى حيثُ تشاءُ
مهما يكنْ ، أو حيثُ تُمْليكَ الضرورةُ القُصوى ، سواءٌ لربطِ
سيقانِ النباتاتِ الزّاحفةِ في هذه الخميلة ، أو لتوجيهِ
فروعِ اللبلابِ وِجْهَةَ التسلّقِ المنشودةِ ، وأمّا أنا
فسوفَ أجِدُ في ذلك الحَوْضِ المُزْهِرِ بالوُرورْدِ المتشابكةِ
مع الرّيْحانِ ، ما يحتاجُ إلى الإصلاحِ والتقويمِ حتى الظُّهرِ .
فنحن إذا اخترنا أن نعملَ ونحن قريبان من بعضنا البعض
طولَ النهارِ ، فلا عجبَ إذا تداخَلَتْ في هذا القُربِ
النظراتُ والبسماتُ ، أو إذا تَدَخَّلَ شيءٌ جديدٌ
فأثارَ موضوعًا جديدًا للكلامِ ، مما يُقَاطِعُ
عملَ يومِنا فلا يثْمِرُ شيئًا يُذْكَرُ ، وإن كنا بدأناه
باكرين ، فتقبلُ ساعةُ العَشَاءِ دون أن نستحقّها .
وأجابها آدمُ بنبراتٍ رقيقةٍ قائلاً :
أيتها الأُمُّ الوحيدة ورفيقتي الفريدة ، يا من لا
نظيرَ لها وأُحِبُّها فوقَ جميعِ المخلوقاتِ الحيّة ،
لقد أَصَبْتِ فيما اقترحْتِهِ ، وأَحْسَنْتِ التفكيرَ وتدبيرَ
أفضلِ أسلوبٍ لأداءِ العَمَلِ الذي
كَلَّفَنَا اللهُ به هنا ، ولن يفوتَني أن

أُثني عليه ، فمن المُحالِ أن نعثرَ على ما هو أجملُ
في المرأةِ من حُسْنِ التدبيرِ المَنْزِليّ
وحثّ زوجها على صالحِ الأعمالِ
ولكن رَبّنا لم يفرضْ العملَ بِجَهَامَةٍ وصَرَامَةٍ
بحيثُ يحرمُنا ، إذا احتجْنا ، من
التسريةِ والإذكاءِ ، سواءً بالطعامِ أو الحديثِ أثناءَ العَمَلِ ،
فهو غِذَاءُ العقلِ ، أو بذلك التخَاطُبِ العذْبِ
باللّفَتاتِ والبَسَماتِ ، فالبسماتُ تنبعُ من العقلِ ،
وهو ما حُرِمَ الحيوانُ منه ، وهي غِذاءُ الحُبّ ،
وليس الحُبُّ بالغايةِ الدُّنْيا لحياةِ الإنسان .
فلقد خَلَقَنا اللهُ لا لمَلاَلِ العمل وكلالِهِ ، بل لمُتْعتِهِ
وسرُورِهِ ، ورَبَطَ السرورَ بالعقلِ .
لا تَرْتابي في قُدرة أيدينا معًا على العملِ في هذهِ الممراتِ والخمائلِ
حتى لا ترجعَ إلى صورتِها البريّة، وبسهولةٍ ويُسْرٍ ، مهما
بلغَ من مشينا في جنباتها ، حتى تأتي قريبًا أيادي الشبابِ
فتساعِدنَا ، أما إذا رأيتِ أن كثرةَ الحديثِ قد
تُتْخمُ شهيّتَكِ ، فلا بأسَ أن أغيبَ عنكِ فترةً وجيزةً
فالعزلةُ أحيانًا أفضلُ صُحْبةٍ ،
والابتعادُ قليلاً يُذْكي حلاوةَ العَوْدَةِ
ولكنّ شكًا آخرَ يُخَامِرُني ، إذ أخشى أن يُصيبَكِ
مكروهٌ إذا انفصَلْتِ عني ، فأنتِ تعرفين
ما حُذّرْنا منه ، وأيّ عدوٍّ خبيثٍ

يحسُدنا حَسَدًا على سعادتنا ، ويدفعُه
اليأسُ إلى السعيِ لإلحاقِ الأذى والعارِ بنا
إن تسلّلَ إلينا خِلْسَةً ، ولا شك أنه قريبٌ منا
يراقبُنا ، طامحًا طامعًا في تحقيق
مُبْتَغَاه وتحيّن الفرصةِ المواتيةِ له بانفصالنا ،
فَلَنْ يستطيعَ الإيقاعَ بنا ونحنُ معًا ، إذ نُقدِّمُ لبعضنا
البعض العونَ على وَجْهِ السرعةِ إذا دَعَتْ الحاجةُ ،
سواءٌ كان مقصدُه الأولُ هو الإطاحةَ
بولائنا لله ، أو زعزعةَ رابطةِ
الحبّ بين الزوجين ، وهو النعيمُ الذي ننعمُ به ، وربما
كان يثيرُ حسدَه أكثرَ من سائرِ نعَمِنَا ،
فسواءٌ كان الأمرُ كذلك، أو كان أدهى وأنكى، فلا تتخلّى عن الجانبِ المخلصِ
الذي وَهَبَك وُجودَكِ ، ولا يزال يُظلِّلُكِ بِظلِّه ويحميكِ .
فالزوجة ، أنّى أَحَسَّتْ أن الخَطَر أو العارَ يتربّصُ بها
تجدُ غايةَ الأمنِ وصوابَ المَسْلَكِ في الوقوفِ مع زوجها
الذي يحرُسُها أو يشارِكُها مكابدةَ أقْصى البَلاَءِ .
وأجابتْهُ حواءُ ، بنبراتٍ تشي بجَلاَلِ الطُّهْرِ والنَّقاءِ ،
نبراتٍ عاشقةٍ تُلاقي بعضَ القَسْوَةِ والجَفَاءِ
وتنطقُ بعذوبةِ الصرامةِ ورباطةِ الجأشِ قائلةً :
يا ابن السماءِ والأرضِ ، وسَيّدَ الأرضِ كُلّها ،
لقد سمعتُ عن مثلِ هذا العَدُوِّ الذي يعادينا ويسعى
لإهلاكنا ، فلقد أَخْبَرْتَني أنت به ، وعلمتُ به

مَرَضًا من المَلاكِ الذي غادرنا
أثناءَ وُقوفي في رُكْنٍ ظليلٍ خَلْفَ مَجْلِسكما
وكنتُ رَجَعْتُ لِتَوِّي آنذاكَ بعد أن أَغْمَضَتْ زهورُ المساءِ عيونَها
ولكنني لم أتوقَّعْ منك الشَّكَّ في صَلابَتِي وثَبَاتِ ولائي
لله أو لَكَ ، لا لِسَبَبٍ إلا أنَّ لنا
عدوًا سيحاولُ الإغواءَ وابتلاءَ ذلك الثباتَ .
لا تَخْشَ منه العُنْفَ ، فكيانُنا الذي خُلِقْنا عليه
لا يَخْضَعُ للموتِ ولا للأَلَمِ ،
ويستطيعُ أن يمتنعَ على أَيِّهما او يَصُدَّه .
إذنْ فأنت تخشى المكرَ من جانبِه ، وهو ما يدلُّ
على أنك تخشى أيضًا أن يهتزَّ إخلاصي الراسخُ وحبِّي الثابتُ
أو أن تَعْصِفَ بأيِّهما غِوَايَتُه ومكرُه ،
كيفَ وَجَدَتْ هذه الظُّنونُ سبيلَها إلى صدرِكَ
يا آدمُ ؟ كيف أَسَأْتَ الظنَّ بمن تُحبُّها كُلَّ هذا الحب ؟
وأجابها آدمُ بكلماتٍ شافيةٍ قائلاً :
يا ابنةَ الله والإنسانِ ، يا حواءُ الخالدةُ ،
فهكذا أنت ، بريئةٌ من الذنوبِ والمثالبِ ،
ولكنني أحاولُ إقناعَكِ ألاّ تغيبي عن ناظري
لا لنقصِ ثقتي فيك ، بل إن دافعي هو تَجَنُّبُ
وقوعِ الغوايةِ ذاتِها ، وهي التي يعتزمها عدونا .
إن من يُغوي أحدًا ، ولو فَشِلَ ، يُلقي عليه على الأقل
ظِلَّ عارٍ قبيحٍ ، واتهامٍ باطلٍ هو افتراضُ

يحسُدنا حَسَدًا على سعادتنا ، ويدفعُه
اليأسُ إلى السعي لإلحاقِ الأذى والعارِ بنا
إن تسلّلَ إلينا خِلْسَةً ، ولا شك أنه قريبٌ منا
يراقبُنا ، طامحًا طامعًا في تحقيق
مُبْتَغَاه وتحيّن الفرصةِ المواتيةِ له بانفصالنا ،
فَلَنْ يستطيعَ الإيقاعَ بنا ونحنُ معًا ، إذ نُقدّمُ لبعضنا
البعض العونَ على وَجْهِ السرعةِ إذا دَعَتْ الحاجةُ ،
سواءٌ كان مقصدُه الأولُ هو الإطاحةَ
بولائنا لله ، أو زعزعةَ رابطةِ
الحبِّ بين الزوجين ، وهو النعيمُ الذي ننعمُ به ، وربما
كان يثيرُ حسدَه أكثرَ من سائرِ نعَمِنَا ،
فسواءٌ كان الأمرُ كذلك، أو كان أدهى وأنكى، فلا تتخلَّى عن الجانبِ المخلصِ
الذي وَهَبَك وُجودَكِ ، ولا يزال يُظلِّلُكِ بظلِّه ويحميكِ .
فالزوجة ، أنّى أَحَسَّتْ أن الخَطَر أو العارَ يتربّصُ بها
تجدُ غايةَ الأمنِ وصوابَ المَسْلَكِ في الوقوفِ مع زوجها
الذي يحرُسُها أو يشارِكُها مكابدةَ أقْصى البَلاءِ .
وأجابَتْهُ حواءُ ، بنبراتٍ تشي بجَلالِ الطُّهْرِ والنَّقاءِ ،
نبراتِ عاشقةٍ تُلاقي بعضَ القَسْوَةِ والجَفَاءِ
وتنطقُ بعذوبةِ الصرامةِ ورباطةِ الجأشِ قائلةً :
يا ابن السماءِ والأرضِ ، وسَيّدَ الأرضِ كُلِّها ،
لقد سمعتُ عن مثلِ هذا العَدُوِّ الذي يعادينا ويسعى
لإهلاكنا ، فلقد أَخْبَرْتَنِي أنت به ، وعلمتُ به

عَرَضًا من المَلاَكِ الذي غادرنا
أثناءَ وُقُوفي في رُكْنٍ ظليلٍ خَلْفَ مَجْلِسكما
وكنتُ رَجَعْتُ لِتَوِّي آنذاكَ بعد أن أَغْمَضَتْ زهورُ المساءِ عيونَها
ولكنني لم أتوقَّعْ منك الشَّكَّ في صَلاَبَتِي وثَبَاتِ ولائي
لله أو لَكَ ، لا لِسَبَبٍ إلا أنّ لنا
عدوًّا سيحاولُ الإغواءَ وابتلاءَ ذلك الثباتَ .
لا تَخْشَ منه العُنْفَ ، فكياُننا الذي خُلِقْنا عليه
لا يَخْضَعُ للموتِ ولا للأَلَمِ ،
ويستطيعُ أن يمتنعَ على أَيّهِما أو يَصُدَّه .
إذنْ فأنت تخشى المكرَ من جانبِهِ ، وهو ما يدلُّ
على أنك تخشى أيضًا أن يهتزَّ إخلاصي الراسخُ وحبّي الثابتُ
أو أن تَعْصِفَ بأيّهما غِوَايَتُه ومكرُه ،
كيفَ وَجَدَتْ هذه الظُّنونُ سبيلَها إلى صدرِكَ
يا آدمُ ؟ كيف أَسَأْتَ الظنَّ بمن تُحبّها كُلَّ هذا الحب ؟
وأجابها آدمُ بكلماتٍ شافيةٍ قائلاً :
يا ابنةَ الله والإنسانِ ، يا حواءُ الخالدةُ ،
فهكذا أنت ، بريئةٌ من الذنوبِ والمثالبِ ،
ولكنني أحاولُ إقناعَك ألاّ تغيبي عن ناظري
لا لنقصِ ثقتي فيك ، بل إن دافعي هو تَجَنُّبُ
وقوعِ الغَوايةِ ذاتِها ، وهي التي يعتزمها عدونا .
إن مَن يُغوي أحدًا ، ولو فَشِلَ ، يُلقي عليه على الأقل
ظِلَّ عارٍ قبيحٍ ، واتهامٍ باطلٍ هو افتراضُ

وأجابها آدم بنبراتِ انفعالٍ قائلاً :
الواقعُ يا امرأةُ أنّ جميعَ الأشياءِ في أحسنِ صورةٍ
حسبما شاءتْ إرادةُ الله وما قضى لها ، ويدُهُ الخالقةُ
لم تتركْ شيئًا ناقصًا أو يفتقرُ إلى الكمالِ
في كُلِّ ما خَلَقَهُ ، وخصوصًا في الإنسانِ ،
أو في أيِّ شيءٍ من شأنِه ضمانُ سعادةِ حالِه ،
آمنًا من تَدَخُّلِ القُوى الخارجية ؛ ففي نفسه
يكمُنُ الخَطَرُ ، وإن كان يقعُ في نِطَاقِ طاقتِهِ
ولن يصيبَهُ الأذى رَغْمَ أَنْفِهِ .
ولكنّ اللهَ تركَ إرادتَنا حُرّةً ، فكلُّ ما ينصاعُ
للعقلِ يتمتعُ بالحرّيّةِ ، وقد جَعَلَ العقلَ على صوابٍ
وإن طُلِبَ منه الانتباهَ والحَذَرَ واليَقَظَةَ الدائمةَ ،
حتى لا يُفاجأَ بجمالٍ يكتسي مَظْهَرَ الخيرِ
فيخطئَ فيما يُمْليه على الفرد ، ويُضلِّلَ الإرادةَ
فتفعلَ ما حَرَّمَهُ الله تحريمًا صريحًا .
لا تأمُرُ الريبةُ إذنْ ، بل يأمُرُ الحبُّ الرقيقُ
بأنْ أُكثِرَ من تَنبيهِكِ وأن تُصْغي إلى ما أقولُ :
إننا نَقِفُ صامِدَيْنِ ، ولكننا قد ننحرفُ
فليسَ من المُحالِ أن يُقَابِلَ العقلُ
شيئًا ذا بَهْرَجٍ زائفٍ أغراه العَدُوُّ بِخِدْمَتِهِ ،
فيقعَ في خُدْعةٍ دون أن يدري ،
بعد أن غَفَلَ عن الانتباه الصارمِ الذي أُمِرَ به وأُنْذِرَ .

لا تَسْعَيْ إلى امتحانِ الغِوَايةِ إذَنْ ، بل ابتَعِدي عنها
فهو أفضلُ ، والأرجَحُ أن يكونَ ذلك بعَدَمِ
انفصالِكِ عني ، وأما الابتلاءُ فيأتي دون أنَ نَطْلُبَهُ .
إذا كنتِ تبغينَ اختبارَ إخلاصِكِ فاختبري
طاعَتكِ أولاً ، وأما الآخرُ فمن ذا الذي يستطيعُ أن يعرفَ
دون أن يراكِ تُمْتَحَنين ، ومن سَيَشْهَدُ به ؟
فإذا ظَنَنْتِ أنّ الابتلاءَ الذي لا نسعى إليه قد يُبَاغِتُنَا
ونحنُ أكثر أَمْنًا وغَفْلَةً مما يقتضيه تحذيرُنا ، وهو ما يبدو من حالِكِ
فاذهبي ، فمكوثُكِ رغم إرادتِكِ يزيدُ ابتعادَكِ عني
اذهبي ببراءتِكِ الفِطْرِيّةِ الأصليةِ ، وارتكني
إلى ما لديكِ من الفضيلة، واستجْمعي كُلَّ ما تملكين ،
فلقد نَهَضَ الله بكل عَمَلٍ أَوْجَبَهُ على نَفْسِهِ تُجاهَكِ، فانهضي أنتِ بواجبِكِ.
وفَرَغَ والدُ الجنسِ البشري من حديثِهِ ، ولكنّ حواءَ
أَصَرَّتْ على أن تكونَ لها الكلمةُ الأخيرةُ فأجابتْ بنبراتِ خضوعٍ قائلة :
إذنْ بعد أنْ أذنْتَ لي ، واعيةً بما حُذِّرْتُ منه ،
أساسًا بما اشتَمَلَتْ عليه كلماتُك المنطقيةُ الأخيرةُ فحسب
وتناولَتْهُ ألاَ وهو أن الابتلاءَ إذا جاءَ ونحنُ أقلُّ ما نكونُ طَلَبًا له
فَرُبّما وَجَدَنَا أَقلَّ استعدادًا إلى حَدٍّ بعيدٍ
وهكذا ازدادَتْ رغبتي في الذهاب ، ولا أُرجِّحُ أن أَلْقى
عدُوًا بمثلِ هذه الكبرياءِ يسعى إلى أَضْعَفِ الطرفَيْن أولاً
فإن قَصَدَ إلى ذلك ، فسوف يُجَلِّلُه القَهْرُ بعارٍ أكبرَ .
قالتْ حواء ذلك وأَخْرَجَتْ يَدَها من يَدِ زَوْجِها

برفقٍ ورِقَّةٍ ، وانْطَلَقَتْ بِخِفَّةٍ مثلَ حُورِيَّةِ الغَابِ
أو حُورِيَّاتِ الجبالِ والأدغالِ ، أو وَصيفاتِ «ديانا»
في طريقِها إلى الخمائلِ ، ولكنّها كانت تفوقُ «ديانا» نفسها
في رشاقةِ الخُطْوةِ ومِشْيَةِ الملائكةِ ،
وإن لمْ تكنْ تَحمِلُ القوسَ والكِنَانَةَ مثلها
بل بعضَ الأدواتِ الزّراعيةِ الساذَجَة
التي شكَّلتْها قبلَ استعمالِ النارِ ، أو التي أَحْضَرَتْها الملائكة .
كانت أَشْبَهَ بربّةِ المراعي «باليس» ، أو بحوريةِ الفاكهةِ «بومونا»
وهذه الأدواتُ تَزينُها ، عندما فَرَّتْ «بومونا» من
«ڤيرتومنوس» ، أو أَشْبَهَ بربّةِ المحراثِ «كيريس» في شبابِها
وهي ما تزال عذراءَ ، أو «بروسربينا» قبل أن يُغْويها «جوف» .
وتَابَعَتْهَا عينُ آدمَ طويلاً بنظراتٍ ملتهبةٍ
مُسْتَمْتِعَةٍ ، وإن كان أكثرَ رغبةً في بقائِها .
وكرّر آدمُ عِدّةَ مراتٍ أَمْرَهُ إليها بألاّ تتأخرَ في العودةِ
وكرّرَتْ هي تَعَهُّدَها له عدّةَ مراتٍ
بالعودةِ ظُهْرًا وَسْطَ الخميلةِ
وأن يكونَ كلُّ شيءٍ جاهزًا على أفضلِ وجهٍ لاستدعاءِ
طعامِ الغَدَاءِ ، أو قَيْلُولَةِ العَصْرِ .
كم أنتِ واهمةٌ يا حواءُ المسكينةُ وكم سَتُخْلِفِينَ وَعْدَ
العودةِ المفترضة ! وما أَتْعَسَكِ بالحادثة وما أدَّتْ إليه !
فلنْ تَجِدي أبدًا مُنْذُ تلكَ الساعةِ في الفردوس
لا وَجْبَةً هنيئةً ولا نَوْمًا عميقًا ،

إذ كانَ الكَمينُ المختفي بين رَوْعةِ الزُّهورِ والظِّلالِ
مُتربصًا ، يوشكُ أن ينقضَّ بِحِقْدِهِ الجَهَنَّميّ
لَقَطعِ الطريقِ عليكِ ، أو لإرجاعِكِ
مَسْلُوبَةَ البَرَاءَةِ والإخلاصِ والنعيم .
وها هو الشيطانُ يسعى الآنَ ، ومنذَ أن تَنَفَّسَ الصُّبْحُ ، مكتسيًا
مَظْهَرَ الثعبانِ المُعْتَاد ، مُقْبلاً
في بَحْثِهِ الدائبِ ، إلى البُقْعَةِ التي يُرَجِّحُ أن يَعْثُرَ فيها
على اثنين من البَشَرِ لا نَظِيرَ لهما ، وإن كان فيهما
الجنسُ البشريُّ كُلُّه ، فريستُه المنشودَةُ .
بحثَ في العَرَائِشِ والحُقولِ وحيثما لاَحَتْ له أوراقٌ
خميلٍ أو روضٍ أريضٍ على الأفنانِ البهيجة ،
من كلِّ ما يُمْتِعُ في رِعايتِهِ ويَسُرُّ في غَرْسِهِ وتَعَهُّدِهِ ،
عند الينابيعِ أو الغُدْرانِ الظليلة ،
كان يطلبُهُما معًا ، وإن كان يطمعُ أن يُصادِفَ
حواءَ وحدَها ، كان يطمعُ في ذلك دون أمل
في أنْ يجدَ ما ينذُرُ أن يَقَعَ ، فإذا بما لا يطمعُ فيه
وقد تحققَ وتجاوزَ الأَمَلَ ، إذ لَمَحَ حواءَ وحدَها
تَلُفُّها سحابةٌ من الشَّذا ، حيثُ وَقَفَتْ
جَلِيَّةً خَفِيَّةً معًا ، والورودُ المُحْتَشِدةُ حولَها
تتوهجُ إشراقًا ، وهي ما بين واقفةٍ ومنحنيةٍ لتساندَ
كُلَّ زهرةٍ نَحُلَ عودُها ونَحُفَ ، ورَأْسُها الراقصةُ -
قُرْنفُلِيَّةً كانت أو أُرْجُوانيَّةً أو لاَزَوَرْدِيَّةً أو مُرَقَّشَةً بالذَّهَبِ -

قد مَالَتْ وتَدَلَّتْ دون دِعامةٍ ، فَدَعَمتْها حواءُ دَعْمًا
رَفيقًا برباطٍ من الرَّيْحان ، دون أن تَنْتَبِهَ أَثْنَاءَ ذلك
إلى نفسها ، وهي أجملُ الزهورِ التي تحتاجُ إلى دِعَامَة ،
وقد ابتعدتْ كل البُعْدِ عن خَيْرٍ من يَدْعَمُها، واقتربتْ كُلَّ القُرْبِ من العَاصِفَة !
وزاد اقترابُه منها ، مُخْتَرِقًا كثيرًا من الممراتِ الظَّليلة
التي يحجبُها الدَّوْحُ الباسِقُ من شجرِ الأَرْزِ أو الصَّنوبرِ أو النَّخيلِ ،
وهو يتموَّجُ بجسمه زاحفًا بجسارةٍ ، أحيانًا في خَفَاءٍ ، وأحيانًا ما يُرى
وَسْطَ صُنُوفِ الشُّجيراتِ والزَّهَراتِ الكثيفةِ
التي نَسَجَتْها يدُ حواءَ حاشيةً موشَّاةً لكل رَبْوة .
كانت البقعةُ أشهى من الحدائقِ الخياليةِ الشهيرةِ
أو رياضِ «أدونيس» ، حيث يُبْعَثُ كُلَّ عامٍ ، أو «الكينوس» الأشهر
الذي استضافَ «أوليس» ، ابن «لايرتيس» الهَرِم ،
أو البُقْعَةِ غيرِ الأسطوريةِ التي كان الملكُ الحكيمُ
يطارحُ عَرُوسَهُ المِصْريّة الجميلةَ غَرَامَهُ فيها .
وأُعجِبَ بالمكانِ إعجابًا شديدًا ، وبمنْ فيه إعجابًا أَشَدّ ،
أرأيتَ إلى رَجُلٍ مَكَثَ دَهْرًا حبيسَ مدينةٍ مكتظّةٍ بالسّكانِ
تُعكِّرُ المنازلُ المتراحمةُ فيها والمجاري صَفْوَ الهَوَاءِ ،
فانْطَلَق في صباحِ يومٍ من أيامِ الصَّيْفِ لِيَنْشَقَ النسيمَ
بين القُرى والمزَارِعِ البَدِيعَة
المتاخمةِ لها ، فَوَجَدَ في كُلِّ ما يلقاهُ بهجةً ،
من رائحة الحبوبِ إلى رائحةِ الكَلأ الذي اجتُثَّ ونُشِرَ ليجفّ ،
أو الأبقارِ أو الألبانِ ، وكُلِّ مشهدٍ ريفيّ وكل صوتٍ ريفيّ ،

فإذا تصادفَ مرورُ عذراءَ جميلة ، لطيفةِ الخُطى كالحوريّةِ ،
كم يَسُرّهُ المنظرُ ويُسعِدُه ، ويزيدُ من سرورِه مُرورُها ،
فهكذا كانت حواءُ تجلبُ أكبرَ السّرورِ ، إذ جَمَعَتْ في منظرِها كُلَّ البَهجة .
وهكذا تَمَتّع الثعبانُ بِمَرْأى
هذه البُقعةِ الزّهريّةِ ، وهي ركنُ حواءَ الهادئ
في ذلك البكورِ وتلك العُزْلةِ ، وكانت صورتُها السماويةُ
ملائكيّةً ، وإن فاقَتْ الملائكةَ في رَهَافَتِها ، تتحلّى بالأُنوثةِ
في رشاقةِ براءتِها وفي كل لَمْسةٍ وكُلِّ
حركةٍ ، وفي أَقَلِّ فعلٍ تفعلُه ، وكان كُلُّ ذلك يُرْهِبُ
خُبْثَهُ الدّفين ، إذ يَسْتَرِقُ الخُطى اللّطيفةَ فيَسْلُبَ
ضراوَتَه من المقصدِ الضّاري الذي أَتَتْ به ،
وفي تلكَ اللحظةِ وقفَ الشريرُ ذاهلاً
عن شَرّهِ مُنْفَصِلاً عنه ، وظَلَّ بُرْهَةً
عاطلَ الذّهنِ عَارِفًا للخَيْرِ ، أَعْزَلَ من سلاحِ العَدَاوَةِ
والمكرِ والمَقْتِ والحَسَدِ والثّأرِ ،
ولكنّ نارَ الجحيمِ الموقدةَ دائمًا في باطِنِه
حتىّ وهو في قَلْبِ الجنّةِ سرعانَ ما قَضَتْ على سُروره
وبَدَأَتْ تزيدُ من تعذيبِه ، كُلّما تأملَ
المسراتِ التي لَمْ يُكتبْ له أن يَنَالَها ، وهكذا فسرعانَ
ما يستعيدُ البغضاءَ الضاريةَ التي تثيرُ جميعَ أفكارِ
الأذى ، معربًا عن فَرْحَتِهِ بالعثورِ على ضَالّته ، قائلاً :
أيتها الأفكار ! إلى أين مَضَيْتِ بي ، وما أَعْذَبَ

إرغامَكَ إيّاي على الانتشاءِ حتّى أنسى
الدافعَ الذي أتى بنا إلى هذا المكان! ألاَ إنها الكراهيةُ، لا الحبُّ ولا الأملُ
في استبدالِ الفردوسِ بالجحيم ، أو الأملُ في أنْ أتذوقَ
المسراتِ هنا بل لأدمِّرَ جميعَ المسراتِ
إلا المسرةَ القائمةَ في التدميرِ ، وما سوى ذلك من السرور
قد ضاعَ من يدي . من واجبي إذنْ ألاّ أسمحَ بضياعِ
الفُرصةِ التي تَبْتَسِم لي ، إذ أرى
المرأةَ وَحْدَها ، متاحةً لجميعِ محاولاتي ،
وزوجُها ليس قريبًا ، إذ يمتدُّ مرمى طَرْفي إلى أقاصِي المكانِ ،
فذهنُه الأرفعُ هو ما أعملُ جاهدًا على تَجَنُّبِه ،
وقُوّتُه ، واستعلاءُ روحِه ، وأطرافُه التي
بُنِيَتْ بِنَاءَ الأبطالِ ، وإن كانَ خُلِقَ من صَلْصَالٍ ،
فهو عدوٌّ لا يُستهانُ به ، حصينٌ من الجروحِ ،
ولستُ كذلك ، إذ حَطَّتْ الجحيمُ كثيرًا من كِياني ، وأَوْهَنَني الألمُ
وأضعَفَني كثيرًا عما كنْتُه في السماء .
أما هي فجميلةٌ ، ذاتُ حُسْنٍ ربّاني ، جديرٍ بعشقِ الملائكة ،
لا تبعثُ الرَّهْبةَ ، على ما في الحبِّ والجمالِ من رَهْبَةٍ ،
إلا إن جَالَدَتْهما كراهيةٌ أقوى ،
وبغضاءُ أشدُّ ، تصطنعُ مظهرَ حُبٍّ زائفٍ ،
وهذا سبيلُ هلاكِها الذي أسلُكه الآن .
هكذا تكلمَ عدوُّ البشرِ ، كَامِنًا في جسدِ
الثعبانِ ، نزيلَ شرٍّ ، واتجهَ نحوَ حَوَّاءَ

سائرًا في طريقه ، لا مُتَموّجًا مُتَعَرّجًا
مُنْبَطِحًا على الثّرى ، كَشَأْنه منذُ تلكَ الآونَة ، ولكنْ على مُؤَخّرَتِهِ
وهو قاعدةٌ مستديرةٌ لِلَفَائفَ حَلَزُونِيّةٍ صَاعِدَةٍ ، يرْتَفعُ
بعضُها فوقَ بعض ، في مَتَاهةٍ تَعْلُو طَيّاتُها حتى رَأْسِهِ
ذاتِ العُرْفِ المُنْتَصِب ، وعيناهُ حمراوان تتلألآن ،
وكانت رقبتُه تبرقُ بلونٍ ذهبيٍّ مخضوضر ، قائمةً
وَسْطَ التلافيفِ الدائريّةِ التي تَتَدَفّقُ فَوْقَ الكَلأِ
وتتماوجُ هنا وهناك ، فكانَ منظرُه يَبْعَثُ السرور ،
جميلاً ، بل لم تُشَاهِدْ عينٌ بعدَه من جِنْس الثعابين
أجملَ منه ، لا تلك التي غيّرتْ صورَتها في «إلّيريا»
ولا تحوّلَ «هيرميوني» و«كادموس» ، ولا ربُّ الشفاءِ
في «أبيدوروس» ، ولا الثعبانَ الذي تحوّلَ إليه
«جوبيتر آمون» ، أو «جوبيتر الكابيتوليني» ،
الأولُ حتى يضاجعَ «أوليمبيا» ، والثاني ليضاجعَ من حَمَلَتْ
«سكيبيو» عظيمَ الرومان . ومال الشيطانُ في سَيْرِهِ
أولاً مِثْلَ من يسعى للوصولِ وهو يخافُ أن
يقطعَ طريقَه أحدٌ ، وهكذا اتّخَذَ طريقًا جانبيًا مُتَعرّجًا .
أرأيتَ إلى السفينةِ التي يُسيّرها ملاحٌ ماهرٌ حتى
تقتربَ من مَصَبّ النهرِ أو لسانٍ في البحر ، حيث تُغيّر الريحُ
اتجاهَها كثيرًا ، فيغيّر من طريق السفينة كُلّ مرةٍ ويصلحُ أشرعَتَها ؟
فكذلك جَعَل يُغيّر من وُجهةِ سَيْرِهِ ، وكُلّما تَلَوّى في طريقِهِ
خَرَجَتْ من ثَنَايَاهُ حلقاتٌ كطاقاتِ الزّهور الطّليقةِ أمامَ عَيْنَيْ حواءَ

حتى يَفْتِنَها ، وكانتْ تعملُ حينَ سَمِعَتْ صوتَ
خَشْخَشَةِ الأوراقِ ، ولكنّها لم تأبَهْ ، إذ كانت قد اعتادَت
مثلَ ذلك اللّهوِ واللّعبِ أمامَها في الحقولِ
من كُلِّ حيوانٍ ، وكانتْ الحيواناتُ أكثرَ طاعةً لأوامرِها
من طاعةِ الوحوشِ لأوامرِ الساحرةِ «سكيركي» بالتّنكّرِ والتّخفّي .
وزادتْ جُرْأتُه الآنَ فَوَقَفَ أمامَها دونَ دَعْوَةٍ !
ولكنه كان كَمَنْ يُحَدِّقُ فيها لِشِدَّةِ إعجابِه ، فكثيرًا ما يَحْني
رأسَهُ ذاتَ العُرْفِ ، ورقبتَه الرشيقةَ ذاتَ الألوانِ المُنَوَّعةِ
مُتَزَلِّفًا مُدَاهِنًا ويَلْعَقُ الأرضَ التي تخطو عليها .
وَنجح أخيرًا أداؤُه الصامتَ اللّطيفُ في اجتذابِ
عينِ حواءَ لتنظرَ مَلاعِبَه ، وسَرَّهُ
أنْ التفتَتْ إليه فبدأ يتكلمُ بلسانِ الثعبانِ كأنّما هو
آلةٌ موسيقيةٌ ، أو بدفقاتِ هواءٍ من أصواتِ الحَلْقِ ،
وهكذا شَرَعَ في غِوايته الخادِعَةِ قائلاً :
لا تَعْجَبي أيتها السيدةُ ذاتُ السيادةِ ! إذا كُنْتِ
تستطعينَ العَجَبَ وأنتِ العجبُ الأوحدُ ، وأرجو ألا تَمْتَشِقَ
طَلْعَتُكِ ، وهي جَنَّةُ اللُّطفِ والرِّقّةِ ، سلاحَ الازْدِرَاءِ
مستاءةً من اقترابي منكِ على هذا النحوِ ، والتحديقِ
دونَ ارتواءٍ ، وَحْدِي دونَ رفيقٍ ، ودونَ أَنْ أَخشى
رَهْبَةَ مُحَيَّاكِ الفَتّاكِ الذي ازدادَ رَهَبًا حين توارى .
يا أجملَ من تُشْبِهُ صَانِعَهَا الجميلَ ،
إن كُلَّ الكائناتِ الحيّةِ تُطيلُ النّظرَ إليكِ ، وجميعُ الأشياءِ ملكُ يمينِكِ ،

إذْ وُهِبَتْ لَكِ ، وهي تعبدُ جمالَكِ السماويَّ
وتتطلعُ إليه مَسْلُوبَةَ العقلِ ، فأنتِ أفضلُ ما يتجلَّى فيه
كلٌّ ما يحظى بإعجابِ الكونِ كُلِّه ، ولكنكِ هنا
في هذا الرُّكنِ البَرِّيِّ المغْلَقِ ، وَسْطَ هذه الوحوشِ
ذاتِ النظراتِ الفَظَّةِ وهي أَجْهَلُ من أَنْ تُدْرِكَ
نِصْفَ ما تَتَحَلَّيْن به من جَمالٍ ، وباستثناءِ رَجُلٍ واحدٍ
من الذي يشاهدكِ ؟ (وما قيمة الواحد ؟) بل لابد أن يُشاهِدَكِ الجميع
ربةً بين الأربابِ ، وأن تَعْبُدَكِ الملائكةُ وتُصلِّي لَكِ
بأعدادٍ لا تُحصى ، فتصبحَ حاشيتَكِ اليَوْمِيّة .
وانتهى المُغْوي من مُدَاهَنَتِه ، فَأَحْكَمَ نَغَمَ مُقَدِّمَتِه ،
وتَسَلَّلَتْ كلماتُه إلى قَلْبِ حواءَ ،
ولو أنها دُهِشَتْ كثيرًا من الصَّوْتِ الذي سَمِعَتْه ، وبعد بُرْهَةٍ ،
ولما تَزَلْ دَهِشَةً ، أجابَتْهُ قائلةً :
ما مَعْنى هذا ؟ مَنْطِقُ البَشَرِ على
لسانِ حيوانٍ ، وتعبيرٌ عن معانٍ إنسانية ؟
أما الأولُ – على الأقل – فكنتُ أظنُّ أن اللهَ قد حَرَمَ
الحيوانَ إيّاه ، وأنّ الله يومَ خَلَقَ الحيوانَ
خَلَقَهُ أخرسَ عاجزًا عن إصدارِ أيِّ صوتٍ يُفهَمُ ،
وأما الآخَرُ فلا أستطيع القَطْعَ فيه ، إذ كثيرًا ما يتبدّى
في نظراتِه وأفعالِه قدرٌ كبيرٌ من العقلِ .
وأنا أعرف أيها الثعبانُ أنّكَ أمكرُ حيوانٍ في البرّ
لكنني لم أكنْ أعرفُ أنك وُهِبْتَ صوتَ الإنسانِ .

أَعِدْ هذه المعجزةَ إذَنْ وقُلْ لي
كيف أُبْدِلْتَ الخَرَسَ بالمَنطِقِ ، وكيف
فَضَّلْتَ الصداقةَ معي على جميع السَّوَائِم
من جِنْسِ الحيوانِ التي تُبصِرُها كُلَّ يوم ؟
تَكَلَّمْ ، فهذه من العَجَائِبِ التي لابُدَّ أنْ تُولَى الاهتمامُ .
وأجابَها المُغْوي المخادِعُ قائلاً :
يا مَلِكةَ هذا العالمِ الجميلِ ، يا حَوَّاءُ المشرقةُ الوضَّاءةُ ،
ما أَيْسَرَ عليَّ أن أَقُصَّ عليكِ كُلَّ
ما تأْمُرينَ به ، ومن حَقِّكِ عَلَيَّ الطاعةُ ،
فلقد كنتُ أَوَّلَ الأمرِ مثلَ سائرِ السوائمِ التي ترعى
العُشْبِ الذي تَطَؤُهُ الأقدامُ ، حطيطَ الفِكْرِ وضيعَ النَّفْسِ
وكذا كان طعامي ، بل لَمْ أكنْ قادرًا على تمييزِ شيءٍ سوى الغذاءِ
والجِنْسِ ، أو على إدْراكِ أيِّ الأفكارِ العُلْيا ،
حتى تصادَفَ ذاتَ يومٍ وأنا أتجولُ بينَ الحقولِ
أنْ رأيتُ شجرةً طيبةً ، تلوحُ نائيةً قصيَّةً ،
وهي تحملُ فاكهةً ذاتَ ألوانٍ جميلةٍ ممتزجةٍ ،
حمراءَ وذهبية ، فاقتربتُ منها حتى أتطلعَ إليها
فإذا برائحةٍ عطرةٍ تهبُّ كالنسيم من الغُصُونِ
تَسُرُّ الشَّهيَّةَ ، فامْتَعَتْ حَوَاسِّيَ مُتْعَةً
تفوقُ رائحةَ زَهْرَ الشَّمَرِ الفَوّاحِ ، أو حَلَمَاتِ أثداءِ
النَّعْجَةِ أو العَنْزَةِ وهي تَقْطُرُ لَبَنًا في المساءِ
فلا يَرْضَعُهُ الحَمَلُ أو الجَدْيُ ، إذ يُفَضّلانِ اللَّهوَ واللّعبَ .

وأَرَدْتُ أن أُشْبِعَ الرَّغبةَ الحادَّةَ التي اعْتَرَتْني
لتذوّق تلكَ التُّفاحاتِ الجميلةَ ، وصَمَّمْتُ
ألاّ أتأخَّرَ ، وكانَ الجوعُ والعَطَشُ معًا قد اجْتَمعَا
بقُوَّةٍ إقْناعِهِما ، وأذْكَتْهُمَا رائِحَةُ
تلك الفاكهةِ الجذّابةِ ، فدفعاني دَفْعًا شَديدًا إليها .
وسرعانَ ما لَفَفْتُ جسمي حولَ جذعِ الشجرةِ المكسوِّ بالطحالبِ
إذْ إنّ أغصانَ الشجرةِ عاليةٌ من الأرضِ ، وتقتضي
منكِ أو مِنْ آدَمَ أن تَمُدَّا أَيْدِيَكُمَا إلى أقصى ارتفاعٍ ، وحولَ الشجرةِ
كانَتْ جميعُ الحيواناتِ التي شاهَدَتْني تكابِدُ رغبةً مماثلة
فوَقَفَتْ وقد بَرَّحَ بها الشوقُ والحَسَدُ ، ولكنّها لم تَسْتَطِعْ بلوغَ الثّمار .
وعندما وَصَلْتُ إلى مُنْتَصَفِ الشّجرةِ ، حيثُ تَدَلَّتْ الثّمارُ الكثيرةُ
دانيةً قُطُوفُها مُغْريةً ، تدعوني للالتهام والامتلاءِ
فلم أدَّخِرْ وُسْعًا في ذلك ، إذ لم أَشْهَدْ حتى تِلْكَ السَّاعَةِ
مثلَ تلكَ المُتْعَةِ في الطّعامِ أو في الشّرابِ .
وشَبِعْتُ أخيرًا ، ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى شَعُرْتُ
بتغيّرٍ غريبٍ في داخلي ، وبِقَدْرٍ ما
من العَقْلِ في طاقاتي الباطنةِ ، واستَطَعتُ الكلامَ
بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ ، وإن كنتُ لا أزالُ على هذه الصّورة .
ومنذ تلك اللحظةِ وأفكاري موجهةٌ إلى التأمّلاتِ العُلْيا والعميقةِ
وبدأتُ بما أحْسَسْتُه من رحابةِ ذهنٍ
أبحثُ في كُلِّ ما تُبصِرُهُ العينُ في السّماءِ
أو الأرضِ وما بَيْنَهما ، وكُلِّ ما يجمعُ بين الجمالِ والخَيْرِ ،

ولكنّ كُلَّ ما يجمعُ بين الجَمَالِ والخَيْرِ يَجْتَمِعُ في قَسَماتِك
الرّبانيّة ، وأشهدُه يسطعُ في نُورِ حُسْنِكِ
السماوي الذي يُوَحّدُ الجميعَ ، فلا يوجدُ جمالٌ
كفوًا لَكِ أو قريبًا من مَنْزِلَتِكِ ، وهو الذي أَجْبَرَني
انْ آتيَ على هذا النّحْوِ ، وإن كنتُ ألْحَفْتُ في السؤالِ ،
كيْ أتطلّعَ إليكِ واعبدَكِ يا من أُعْلِنُ بحقٍّ أنها
سيدةُ المخلوقاتِ ، وسيدةُ الكونِ كُلّه .
وفَرَغَ الثعبانُ الخبيثُ من حديثِه الذي غَذّتْهُ رُوحٌ دافقةٌ ،
فأجابتْهُ حواءُ ، وقد زادَتْ دَهْشَتُه وزادَ تَخَلّيها عن الحيطَةِ ، قائلةً :
أيها الثعبانُ ! إن مبالغَتَكَ في المديحِ تُثيرُ الشّكَّ
في قُوّةِ تلكَ الفاكهةِ ، وأنتَ أولُ من يَثْبُتُ مفعولُها فيه .
ولكنْ قلْ لي.. أينَ تلكَ الشجرةُ وما مدى بُعْدِها عَنّا ؟
فما أكثرَ أشجارِ الله التي تَتَرَعْرَعُ
في الفردوس ، وما أَشَدَّ تنوعِها ، وإن كنّا نجهلُها ،
وفي هذه الوَفْرَةِ الوَافِرَةِ يَكْمُنُ اختيارُنا ،
ويظلُّ قِسمٌ كبيرٌ شاسعٌ من الفاكهةِ دونَ أنْ يمسّهُ أَحَدٌ ،
تتدلّى دائمًا دون أن يُصيبَها الفسادُ ، حتى يأتيَ البَشَرُ
فيقطِفُونَ منها ما قُدّرَ لهم أن يَقْطِفُوه ، ويزدادُ عدد الأيدي
التي تساعد الطبيعةَ في أن تضعَ حَمْلَها وتَتَخَفّفَ من أثقالها .
وأجابَها الثعبانُ بسَعَةِ حيلَته ، وفي فَرحِه وسعادَتِه ، قائلاً :
أيتُها الملكة ! الطريقُ مُعَبّدٌ وليس طويلاً ،
فالشجرةُ خلفَ صَفٍّ من أشجارِ الرّيْحانِ ، على سَهْلٍ مُنْبَسِطٍ ،

بجوارِ عَيْنٍ ، بَعْدَ خميلةٍ صغيرةٍ
مِنْ نباتاتِ المُرِّ والكافورِ الشافي ، فإذا رَضِيتِ أن
أَدُلَّكِ عليها فسرعانَ ما أَصحبُكِ إلى مكانِها .
ثُمَّ قالتْ حواءُ خُذْني إليها ، فانْطَلَقَ يتكوّرُ أمامَها مُسْرِعًا
في حَلَقَاتٍ متداخِلَةٍ ، حتّى بَدَا التعقيد مستقيمًا
مُهْرِعًا إلى الشّر . وكانَ الأملُ يرفَعُ رأسَهُ والفَرْحُ يُضْفي
الضياءَ على عُرْفِه . أرأيتَ إلى اللَّهَبِ التّائهِ الذي
ينشأُ من أَبْخِرَةِ الدُّهونِ التي تتكثّفُ في اللَّيْلِ
وفي أَجْواءِ الزَّمْهرِيرِ المحيطةِ بها ،
ثم تشتعلُ من وَقْدِ الحركةِ ألسنةً من نارٍ
كثيرًا ما تَصْحَبُها فيما يُقال بعضُ العفاريتِ الشّريرةِ
التي تُحَوِّمُ فَتُخرِقُها وتُرْسِلُ أضواءً خادعةً
تُضِلُّ خُطى السّاري ليلاً فيحارُ ويتوهُ
وسْطَ المستنقعاتِ والأوحالِ ، وكثيرًا ما يَسْقُطُ في بُحَيْرةٍ أو بِرْكَةٍ
تبتلعُه فيضيعُ ولا من مُغيثٍ يُنْجيهِ ؟
فهكذا بَرَقَتْ أضواءُ الثعبانِ الرهيبِ ، وفي أُحبولَتِهِ
أَخَذَ حوّاء ، أُمّنا التي صَدَّقَتْهُ ، إلى شَجرَةِ
التحريم ، التي تَفَرَّعَتْ منها جميعُ أحزانِنا
وعندما شاهَدَتْها التَفَتَتْ إلى دَليلِها وقالت :
أيها الثعبانُ ! ليتَنا لم نأتِ إلى هنا ، فالرحلةُ
لَنْ تُثْمِرَ شيئًا ، على كَثْرَةِ الثّمارِ ووَفْرَتِها هنا .
ومصداقُ قُوّتها هو حالُك أنتَ الذي

يَدْعو للعَجَبِ فعلاً ، إن كانت الثمرةُ هي السببَ في ما حَدَثَ لك .
إذْ إنّ هذه الشَجرةَ محرمٌ علينا أن نذوقَها أو نَلْمَسَها
فبهذا أَمَرَ اللهُ ، وخَلَّف لنا هذا التَّحريمَ
ابنةً وحيدةً لصوته ، أما سائرُ الأمورِ ، فنحنُ الذين
نضعُ شرائعَها لأَنْفُسِنا ، وعَقْلُنا شريعَتُنا .
وأجابها المُغْوِي ببراعَةِ حيلَتِهِ قائلاً :
حقّا ؟ هل أَمَركُما اللهُ ألاّ تَقرَبَا ثِمار
جَميعِ أشجارِ هذه الجَنّة
وأنتما من أُعْلِنَتْ سيادتُهما على كُلِّ ما في الأرضِ والهواء ؟
ورَدَّتْ عليه حواءُ ، ولما تُخْطِئْ بعدُ ، قائلةً :
لنا أن نأكلَ من فاكهةِ كُلِّ شجرةٍ في الجنّة
وأما فاكهةُ هذه الشجرةِ الجميلةِ في وسْط
الجَنَّةِ ، فلقد قال الله: « حُرِّمَ عليكما أن تأكلا
منها ، أو أن تَلْمَسَاها ، وإلا هَلَكْتُما».
ولم تكد تقول ذلك ، على إيجازِهِ ، حتى ازدادتْ جسارةُ
المُغْوِي ، وشرعَ يتظاهرُ بالحماسِ والحُبِّ
للإنسانِ ، وبالاستياءِ مما أصابَهُ من ظُلْمٍ ،
ويلعبُ دَوْرًا جديدًا ، كأنّما تدفَعُهُ عاطفةٌ مشبوبةٌ ،
فهو يتلوّى بتلافيفِهِ في قَلَقٍ ، ثُمّ ينهضُ في شكلٍ جذّاب
وينتصبُ كأنّه يوشكُ أن يتناولَ أمرًا خطيرًا .
أرأيتَ إلى بَعْضِ مَشاهيرِ الخطباءِ القُدَماء
في أثينا أو في روما ، حيثُ ذاعتْ البلاغةُ

وازدهرتْ ، وإن صَمَتَتْ منذ تلك الآونةِ ، حين يتصدّى لقضيةٍ كبرى
فيقفُ رابطَ الجأشِ ، وكُلُّ عضوٍ في جَسَدِهِ ،
وكُلُّ حركةٍ وكُلُّ إيماءةٍ تظفرُ قبلَ لسانِهِ باهتمامِ الجمهور
ويبدأُ أحيانًا بصُلْبِ الموضوعِ ، كأنّما لا يطيقُ أنْ يتأخرَ
ولا يسمحُ بمقدماتٍ تُعطّله لشَدّةِ حماسِهِ للحقّ ،
فهكذا كانَ المُغوي يقفُ ويتحركُ مرفوعَ الهَامَةِ ،
ويبدأ يتكلمُ وقد غَمَرَتْهُ العاطفةُ المشبوبةُ قائلاً :
أيتها الشّجرةُ المقدّسَةُ الحكيمةُ واهبةُ الحكمةِ !
يا أُمَّ العِلْمِ ! الآنَ أُحسُّ طاقتَكِ
داخلي جَلِيَّةً واضحةً ، لا طاقةَ إدراكِ
الأشياءِ في أسبابها فحسْب ، بل أيضًا اكتشافُ وسائل
أرفع القُوى ، مهما بَلَغَتْ حكمتُها في نظرنا .
يا مَلِيكةَ الكَوْنِ يا حَوّاءُ ! لا تُصَدّقي
تلك التهديداتِ الصارمةِ بالهلاكِ ، فلن تَمُوتا
وكيف تَمُوتان ؟ بالفاكهةِ ؟ إنها تَهَبُكُما الحياة
للمعرفة ! على يَدَيْ صاحبِ التهديد ؟ انْظُري إليَّ
أنا الذي لَمَسْتُ وذُقْتُ ، ولا أزالُ أحيا بل
اكتَسَبْتُ حياةً أَشَدَّ اكتمالاً مما كان القَدَرُ
يَرْمي إليهِ وَيقصِدُ ، بالانطلاقِ إلى ذِرْوَةٍ أعلى مما كُتِبَ عَليَّ .
وهل يُغْلَقُ في وَجْهِ الإنسانِ ما كان مفتوحًا
للحيوان ؟ أم تُرى يُلهِبُ اللهُ غَضَبَهُ
بسببِ هذه الزَّلّةِ الطَّفيفةِ ولا يَمْتَدِحُ

قوّتكما التي لا تهابُ شيئًا ، وقد لَقِيتُما التهديدَ
بعقوبةِ الموتِ ، أيًا كان ذلك الموتُ ،
فلم يَصُدَّها عن بُلُوغِ ما قَدْ يُوَصِّلُها
إلى حياةٍ أهنأ ، ومعرفةِ الخير والشر .
فإذا كانت المعرفةُ معرفةً بالخيرِ ، فكيف يكون التحريمُ مُنْصِفًا ؟ وإذا كانت
معرفةً بالشّر ، إن كان الشَّرُّ حقيقيًا ، فلماذا لا يُعرفُ حتى يَسْهُلَ تجنُّبه ؟
وإذنْ فلو أَضَرَّ بكما الله فلنْ يكونَ مُنْصُفًا ،
ولوْ لمْ يكنْ عادلاً لما كان الله ، وإذنْ فلا خَشْيَةَ منهُ ولا طَاعَةَ له ،
بل إن خَوْفَكُما نَفْسَهُ من الموتِ يَقْهَرُ الموتَ ويُقْصِيهِ
وإذنْ فلماذا حُرِّمَ هذا ؟ القَصْدُ الأوحدُ هو الرَّهْبة
ودَوَامُ حِطَّةِ مكَانَتِكما وجَهْلِكُما
وعبادتكما له ، فهو يَعْرفُ أنه يومَ
تأكلانِ من الشجرةِ ستُدْركانِ أنّ أعينكما ، وأنتما تَتوهَّمان أنها مُبْصِرَةٌ
على ما يَغْشَاهَا الآنَ من ظُلْمةٍ ، قد بَلَغَتْ الكمالَ في
التفتّح ووضوحِ الرؤيةِ ، وسوفَ تصبحان كالملائكةِ
تعرفان الخيرَ والشرَ مثلما تعرِفُهما الملائكةُ .
إن ارتقاءكما إلى مصافِّ الملائكةِ يُمْليه منطقُ التّناسُبِ وحَسْب
مثلما ارتقيتُ أنا إلى مصافِّ البشر ، فأنا في باطني من البشر ،
وما دمتُ ارتقيتُ إلى البَشَريّة وأنا حيوان ، فسترتقيان إلى الملائكة وأنتما بَشَرٌ.
وهكذا فربما كُتِبَ عليكما الموتُ بِخَلْعِ أثوابِ
البَشَرِ ، وارتداءِ أثوابِ الملائكةِ ، وهو مَوْتٌ جديرٌ بالتّمني والطُّموح ،
وإن كان يتهددكما ، ما دامَ لنْ يأتيَ بأسوأ من تلكَ العاقبةِ .

ومن هُمُ الملائكةُ الذين يُحْرِمُ الإنسانُ من الارتقاءِ إلى مَصَافِّهم
ومشاركتهم الغذاءَ من الطعامِ الربّانيّ ؟
خُلِقَ الملائكةُ أولاً ، ويَسْتَغِلّون هذه المَزِيَّة
لإقناعِنا بأنّ كُلَّ شيءٍ مبعثُه منهم ،
ولكنني أطْعَنُ في صِحَّة ذلك ، فأنا أرى هذه الأرضَ الجميلةَ
التي تُدْفِئُها الشمسُ ، وتُخْرِجُ من كُلِّ الثمراتِ ،
والملائكةُ لا شيءَ ، فلو أنهم مبعثُ كُلِّ شيء ، فمن الذي حَبَسَ
المعرفةَ بالخيرِ والشّر في تلك الشجرةِ وقَصْرَها عليها
حتى إن كُلَّ من يأكل منها ، مهما يكن ، يَبْلُغُ على الفورِ
الحكمةَ دونَ أن يَسمَحُوا له بها ؟ وما وَجْه
الجُرْمِ في أن يُحاولَ الإنسانُ أن يبلغَ المعرفةَ من هذا السبيل ؟
كيفَ يتأتى لبلوغِكُما المعرفةَ أن يَضُرَّه ؟ أو لهذهِ الشجرةِ
أن تخبركما بشيءٍ ضدّ إرادته ما دام الكُلُّ في يَدِهِ ؟
أم عساهُ يكونُ الحسد ، وهل يمكن للحسدِ أن يسكنَ
في الصدورِ السماوية ؟ إن هذه الأسباب وغيرها كثير
تُبَرِّرُ حاجَتَكِ إلى هذه الفاكهةِ الجميلةِ .
أيتها المَلَك الإنساني ! مُدّي يَدَكِ إذنْ وتَذَوَّقي دونَ حَرَج .
وانتهى من حديثه فإذا بكلماته الغاصّةِ بالمكرِ والخديعةِ
وقد دَخَلَتْ بيُسْر وسهولةٍ أكثرَ مما ينبغي قَلْبَ حوّاء .
كانت تركّز بصرَها على الفاكهة تتملاّها ، وكان منظرُ الثمارِ
وحدَه كافيًا للإغراءِ ، وفي أُذُنها كان صوتُ
كلماتِه ما زال يرنُّ بنبراتٍ دافعةٍ ، يغشاها

العقلُ فيما بدا لها ويغشاها الصدق .
وفي تلك الأثناءِ اقتربَتْ ساعةُ الظُّهر ، وأيْقظَتْ
شَهيّةً تَوّاقةً ، أثارتْها رائحةٌ
رائعةُ اللّذة لتلك الفاكهة ، فامْتَزَجَتْ الشهيةُ بالرغبة ،
وقد غَدَتْ حواءُ ميالةً إلى لَمْسها أو تَذَوّقها ،
داعيةً عينَها المشتاقةَ إليها ، ولكنها تَمهَّلَتْ أوّلاً
وتَوَقّفَتْ بُرهةً ، وجَعَلَتْ تُفكّر قائلةً في نَفْسها :
لا شك في عَظَمةِ طاقاتك يا أفضلَ الفواكهِ ،
وإنْ حُرِمَ الإنسانُ إياكِ ، وما أَجْدَرَكِ بالإعجابِ ،
يا من كان مذاقُها ، الذي حُظِر علينا طويلاً ، قادرًا - منذ أول محاولة -
على أن يَهبَ النُّطقَ للأَبْكَم ، وعَلّمَ
لسانًا لم يُخْلَقْ لِلْكَلامِ أنْ يَلْهَجَ بالثّناءِ عَلَيْك ،
بلْ يُثْني عليكِ أيضًا مَن يُحَرّم علينا مَذَاقَكِ
ولا يُخْفيكِ عنّا ، ويُسَمّيكِ شجرةَ
المعرفة ، المعرفة بالخير والشر جميعًا .
إنه يُحَرّمُ علينا المذاقَ ، ولكنّ تحريمَهُ
يزيدُ من إعلاءِ شأنك ، ويَشي بالخير
الذي تستطيعين تقديمَهُ ، ونَحتاجُ نحنُ إليه .
فالخيرُ إن جَهِلْنَاهُ لنْ نستطيعُ يَقينًا أنْ نناله
وإذا نِلْنَاهُ ونحنُ نَجْهَلُهُ ، فكأنّما لم نَنَلْه على الإطْلاقِ .
ولنقل بوضوحٍ : هل يحرّم علينا إلا أن نعرفَ ،
ويحرّم علينا الخيرَ ويحرّم علينا الحكمةَ ؟

هذه المحظوراتُ غيرُ مُلْزِمَة ، لكنه إن كان الموتُ
سوف يقيِّدنا بقيودِ الحياةِ الأُخرى ، فما فائدةُ
حُرِّيتنا الباطنةِ إذنْ ؟ في اليومِ الذي نأكلُ فيه
من هذه الثمرةِ الجميلةِ ، يُصْبِحُ مصيرنا الموت ، حَتْمًا .
كيفَ يموتُ الثعبانُ ؟ لقد أَكَلَ منها ولا يزال يحيا بل
ويعرِفُ ويتكلّمُ ويتحلّى بالعقلِ وقُدْرَةِ الإدراكِ
وكانَ غيرَ عاقلٍ قبلَها . أَمِنْ أَجْلِنَا فحسْب
اخْتُرِعَ المَوْت ؟ أَمْ هَلْ نُحْرَمُ نحن
هذا الغذاءَ الفكريّ ويظلُّ مقصورًا على الحيوان ؟
يبدو أنه للحيوان فقط ، ولكنّ ذلك الحيوانَ الوحيدَ الذي
ذاقَ الثمرةَ أولاً لا يُضْمِرُ الحَسَدَ بل يأتي فَرِحًا حَامِلاً
الخير الذي أُوتيهِ ، وهو من لا يُشَكُّ في صِدْقِ أَنْبائِه ،
صديقٌ للبشر ، أبعدُ ما يكون عن المُخَاتَلَةِ أو المكر .
ماذا أخافُ إذنْ ، أو ما الذي أعرِفُه حتى أخافَ
في ظِلِّ جَهْلي بالخير والشر ،
وبالله أو الموتِ ، وبالشَّرْعِ أو العُقوبة ؟
ها هنا أَيْنَعَتْ ثمرةٌ فيها ترياقُ كل داء ، هذه الفاكهةُ الرّبّانيةُ ،
جميلةٌ في العين ، داعيةٌ للمذاق ،
وذاتُ قدرةٍ على إضفاءِ الحكمةِ ، فما الذي يمنَعُني إذنْ
أنْ أَبْلُغَهَا فأُطْعِمَ الجَسَدَ والذِّهْنَ معًا ؟
قالت ذلك ومَدَّتْ يَدَهَا في سَاعَةِ شَرّ
حتى بَلَغَتْ الفاكهةَ ، فَقَطَفَتْ وَأَكَلَتْ !

وشَعُرَتْ الأرضُ بالجُرْحِ ، وأَصْدَرَتْ الطبيعةُ من مَقَرِّها
أَنَّاتٍ سَرَتْ في جَميعِ بَدَائعها ، فَبَدَتْ عليها دلائلُ الحُزْنِ ،
بأنَّ كُلَّ شيءٍ ضَاعَ . وتَسَلَّلَ إلى الدَّغَلِ عائدًا
ذلك الثعبانُ المُذْنِبُ ، وما كانَ أيسرَ ذلك ، إذ كانتْ حواءُ
آنئذٍ مستغرقةً في تَذَوُّقِ الفاكهةِ ، لا تَأْبَهُ لشيءٍ
سواها ، فَلَمْ تَجِدْ مُتْعَةً تناظِرُها من قَبْلُ ، فيما بدا ،
في أيِّ فاكهةٍ تَذَوَّقَتْها ، حقيقةً كان
أمْ وهمًا ، بسببِ شِدَّةِ طُمُوحِها وأَمَلِها
في المعرفةِ ، لاَ ولاَ غَابَ عن فِكْرِها أن تَغْدُوَ رَبَّةً .
واندَفَعَتْ تَلْتَهِمُ الفاكهةَ بشراهَةٍ وتَزْدَرِدُها ازدرادًا
وهي لا تدري أنه طعامُ الموت ، وعندما أَحَسَّتْ بالشِّبعِ أخيرًا
وبخفَّةٍ مثلِ نشوةِ النبيذِ ، وبفَرَحٍ ومَرَحٍ وسُرُورٍ ،
بدأَتْ تُحادِثُ نفسها في سَعَادَةٍ قائلةً :
يا سيدةَ الأشجارِ وأعلاها ثَمَنًا وفَضِيلَةً
في الفردوس ! يا ذات الطاقَةِ المباركةِ التي تَهْدي
إلى الحكمة ! كُنْتِ حتى الآنَ تُعانين التَّجاهُلَ وسوءَ السُّمعةِ
وكانت ثمَارُكِ الجميلةُ مُهْمَلَةً تتدلّى ، كأنما لم تكنْ ثَمَّ غايةٌ
من خَلْقِها ، ولكنني سوفَ أرْعَاكِ في البُكُورِ
ولن أَضِنَّ عليكِ بالترانيمِ كُلَّ صباحٍ ، وبالثناءِ الواجبِ
سوفَ أَحْنُو عليكِ ، وأُخَفِّفُ أَثْقَالَكِ المُثْمِرةَ
التي تنوءُ بحَمْلِها الغصونُ الحافِلَةُ وتُقَدِّمُها للجميعِ دُونَ قُيودٍ !
حتى إذا طَعِمْتُ منك غَدَوْتُ ناضجةً

في المعرفةِ مثل الأَرباب الذين يعرفون كُلَّ شيء ،
وإن كان الآخرون يَحْسُدُونَ ما لا يستطيعون أن يَمْنَحُوه
فلوْ كانتْ العَطِيَّةُ عَطِيَّتَهم ما كانت لتَنْمو
هكذا هُنَا . إنني أَدينُ بالتجربةِ لَكِ
يا أفضلَ الهُدَاةِ ، ولَوْلاَ اتباعي إياكِ لَظَلَلْتُ
في جَهْلي ، يا من تَفْتَحين طريقَ الحكمة
وتُتيحين طريقَ التواصلِ معها ، وهي تتوارى وتَحْتَجِبُ ،
وربما كنتُ أنا أيضًا متواريةً محتجبةً ، فَرَبُّ السماءِ رفيعٌ في علاه ،
بل أعلى وأبعدَ من أن يُرَى من تِلْكَ المسافةِ بوضوحٍ
كُلُّ شيءٍ على الأرضِ ، ورُبَّما كانتْ لديهِ مشاغلُ أُخرى ،
وربما تكونُ قد صَرَفَتْهُ عن الرِّقابةِ المُسْتَمِرّة ،
ذلك العظيمُ الذي حَرَّمَ الشجرةَ علينا ، الآمنُ في علاه وجميعُ عُيونِهِ
من حَوْلِهِ . ولكنْ في أي صورةٍ ينبغي أن أَظْهَرَ
لآدَمَ ؟ هل أُطْلِعُهُ على
التَغَيُّرِ الذي وَقَعَ لي ، وأُقَدِّمُ له بعضًا من الثّمارِ ليشاركني
السعادَةَ الكاملةَ ، أم الأفضلُ أن أمتنعَ عن ذلك
وأحتفظَ لنفسي بالتفوّقِ في المعرفة ، سِلاحًا في يدي
لايشارِكُني فيهِ أحد ؟ فمن شأنِ ذلك تعويضُ النَّقْصِ
في جِنْسِ الأُنْثى ، فيزيدُ ما اكْتَسِبُ به حُبَّهُ ،
ويَجْعَلُني أكثرَ مساواةً معه ، ورُبّما أيضًا ،
وذاك شيءٌ غيرُ مكروهٍ ، أن أكونَ أحيانًا
أَسْمَى منه ، فالأَدْنى في المكانَةِ لا يتمتعُ بالحريّة !

قد يكونُ ذلك مُسْتَحبًا ، ولكنْ قد يكونُ الله قد رآني
فيكونُ الموتُ عِقابي ! عندها سوفَ أَفْنى
ويتزوجُ آدمُ من حَوَّاءَ أُخرى
ويعيشُ معها في هَنَاءٍ بعد فَنَائِي -
يا لَهُ من تَصَوّرٍ كالهلاك نَفْسِه ! لقد قَرَّ رأيي إذنْ
على أن يكونَ آدمُ شريكًا لِي في السّراء والضرّاء ،
فإنّ حُبِّيَ المشبوبَ له يجعلُني قادرةً على تحمّل شتّى ضروبِ الموتِ
معه ، ولا معنى لحياةٍ لا أعيشُها معه .
قالتْ ذلكَ وهي تخطو مُوَلِّيَةً ظَهْرَهَا للشَّجرَةِ
بعد أنْ ركَعَتْ رُكُوعَ التبجيلِ لها ، كأنما تُبَجِّلُ القُوّةَ
التي تكْمُنُ فيها ، والتي بَثَّ وجودُها
في النَّباتِ عُصَارةَ العِلْم والمعرفةِ ، المُسْتَقَاة
من الرَّحيقِ الأَقْدَسِ شَرَابِ الأرباب . وكان آدمُ في تلكَ الأثناءِ
ينتظرُ في لَهْفَةِ الشّوق عَوْدَتَها ، وقد نَسَجَ
من أبهى الزُّهورِ طَاقَةً ليَزينَ بها
خُصُلاتِ شَعْرِها ، ويُكَلِّلَ بها جُهُودَها في البُسْتَان ،
كما اعتادَ الزارعون بعد الحصاد تتويجَ مَلِكَةِ الحَصَادِ .
وكان يُبَشّر أفكارَه بفَرحٍ غامر ، وينتظرُ المزيدَ من
السَّلْوى عند عَوْدَتِها ، وقد طَالَ تَأَخُّرُها فَأَمْعَنَ في الطول ،
ولكنّ قَلْبَه كان كثيرًا ما يُنْبِئُهُ بوقوعِ مكروهٍ
ويثيرُ مخَاوِفَهُ ، وأَصْبَحَ فُؤَادُهُ فَارِغًا إنْ كادَ ليتهَاوَى ،
فانْطلقَ ليُلاَقِيهَا ، سائرًا في الطّريقِ الذي سَلَكَتْهُ

ذلك الصباحَ عندما افترقا أولَ مَرَّةٍ ، ولابد أن يَمرَّ فيه على شجرة
المعرفة ، وهناك قَابَلَها ، وقد بَدأَتْ
وما كادت ، رِحْلَةَ العَوْدَةِ من الشّجرةِ ، وفي يَدِها
غُصْنٌ مُثْقَلٌ بأَجْمَلِ الفاكهةِ التي تَبْتَسِم بزَغَبِ النُّضْرة
وقد قُطِفَتْ لتوّها ، فَبَثَّتْ عَبِيرَ الفاكهةِ الربّانيةِ .
وأَسْرَعَتْ الخُطى نَحْوَهُ ، وعلى وَجْهِها اعتذارُها الذي
جاء مقدمةً ، وذريعةً تُلَقِّنُهَا ما تقول .
وهكذا تَوَجَّهَتْ إليه بكلماتٍ رقيقةٍ تنساب طليقةً قائلةً :
ألم تَدْهَشْ يا آدمُ لتأَخّري ؟
لقد أَوْحَشْتَني ، وأَحْسَسْتُ أنّ البعدَ طالَ وأنا محرومةٌ
من وُجودكَ ، وهو عذابُ حُبٍّ لمْ أشعرْ به حتى الآن
بل ولن أقبلَ تكرارَه ، فلنْ أعودَ أبدًا
لأتحملَ - عن عمدٍ - ما سَعَيْتُ إليه طائشةً قبلَ أن أُجَرِّبَهُ
من آلامِ غيابِك عن بَصَري . ولكنّ السّببَ
كان غريبًا وسوف يُدْهِشُك ويَسُرُّكَ أن تَسْمَعَهَ
فليستْ هذه الشجرةُ ، على نحو ما قيلَ لنا ، شجرةَ
أخطارٍ لمن يذوقُ ثَمَرَها ، بل لا تَفْتَحُ الطريقَ
أمامَ شَرٍّ مجهولٍ ، ولكنّ لها تأثيرًا ربّانيا وقدرةً
على فَتْح العيونِ ، وتجعلُ من يذُوقُونَها من الأربابِ ،
ولقد ثَبَتَتْ صحّة ذلك لمن خَبَرَها ، إذ إنّ الثعبانَ الحكيمَ ،
إما لأنه لم يُحْظَرْ عليه ما حُظِرَ علينا ، أو لأنه عَصَى الأمْرَ ،
قد أكلَ من الفاكهةِ ، فاختَلَفَتْ حالُه ،

لكنه لم يَمُتْ، وهو المصيرُ الذي هُدِّدْنا بُوقُوعِهِ، بل اكتسبَ منذ تلكَ اللحظةِ
صوتَ البَشرِ وحَوَاسَّ البَشَرِ وطَاقَةَ
الاستنباطِ العَقْليِّ المُدْهِشة ، وتحدّثَ معي
فَغَلَبَني مَنْطِقُهُ وقُدْرَتُهُ على الإقناع ، حتى إنني
ذُقْتُ الثَّمرَةَ وخَبَرْتُها أيضًا ، فَوَجدْتُ أيضًا من
آثارِها ما يَتَّفِقُ وما حَدَثَ له ، إذ زادَ تَفَتُّح عَيْنَيَّ
وكانتا من قبلُ غائمتَيْن ، واتّسَعَتْ أقطارُ روحي ، وزادت رحابةُ قلبي ،
وسموتُ إلى مصافِّ الربوبية ، وهو ما سَعَيْتُ إليه
من أَجْلِكَ في المقامِ الأوّل ، ولا أُقيم له وزنًا دونَ وُجُودِكَ .
فالنعيمُ الذي تُشاركُ فيه نعيمٌ حقًّا لي ،
وإذا لم تشاركْني أصبحَ مُملاً مُرْهِقًا ، وسرعانَ ما يغدو بغيضًا .
ذُقْ الثمرةَ أنتَ إذنْ أيضًا ، فإذا المساواةُ في الأقدارِ
تربطُنا كالمساواةِ في الفَرْحَةِ والمساواةِ في الحُبِّ
وإلا كان امتناعُك سببًا في اختلافِ دَرَجَاتِنا
وانْفِصالنا ، وعندها سأتخلّى بعدَ فواتِ الأوانِ عن
الربوبية من أَجْلِكَ ، ولن يَسْمَحَ القَدَرُ بذلك .
وهكذا قَصَّتْ حواءُ قِصَّتَها وقد علا مُحيّاها المَرَحُ ،
ولو أن حُمْرةَ خَجَلٍ وارتباكٍ كانت تتوهَّجُ في خَدِّها .
وعلى الجانبِ الآخرِ كان آدمُ يقفُ دَهِشًا لسماعِ نَبَأ
الزَّلةِ المُهْلِكَةِ التي ارتكبَتْها حواءُ ،
كانَ ذاهلاً حائرًا والرُّعْبُ البارِدُ
يجري في عُرُوقِهِ ، وقد ارْتَخَتْ مفاصِلُه جميعًا .

وتَرَاخَتْ يَدُهُ ، فَترَكَتْ طاقةَ الزُّهورِ التي قَطَفَها لِحوَّاءَ
فَسَقَطتْ ، ووَقَعتْ جميعُ الوُرودِ الذَّابلَة ،
كان يقفُ في صَمَمٍ يعلو الشحوبُ وَجْهَهُ ، وبعد فترةٍ طالتْ
بدأ يكْسِرُ طَوْقَ صَمْتِهِ الباطن قائلاً لِنَفْسه أولاً :
يا أجملَ المخلوقاتِ وآخرِها ، وأفضلَ
ما صنعَ اللهُ جميعًا ، مخلوقةٌ يتفوقُ فيها
كلُّ ما يمكن أن يتشكلَ فيدركُه البصرُ أو الفِكْرُ ،
مُقَدّسًا كان أم إلهيًا ، أمْ خيْرًا خالصًا ، أمْ وَدُودًا أمْ عَذْبًا !
كيفَ ضِعْتِ إذنْ ، كيف جاءك الضَّياعُ على غِرَّةٍ
فَشَاهَ الوَجْهُ وانْتُهِكَ الكِيانُ وأصبحَ مقضيًا عليكِ بالهَلاَكِ ؟
بل كيفَ اسْتَسْلَمْتِ فَعَصيتِ اللهَ فيما
حَرَّم تحريمًا صارمًا ، وكيف تُنْتَهَكُ
الفاكهةُ المقدّسةُ المحرَّمة؟ ! لابد أن خِداعًا لَعينًا
لِلْعَدُوِّ أوقعَكِ في حَبَائله ، وإن كنتُ لا أزالُ أَجْهَلُه ،
بل ودَمَّرني أنا معك ، فَلَقَدْ قرَّ رأيي
وتأكّدَ مختارًا أن أَمُوتَ معك ،
إذ كيف أعيشُ دون وُجُودِك معي ، كيف أتخلّى من
حديثِك العذبِ والحبِّ الذي أرتبطُ به أغلى ارتباط
وأعود للعيش شريدًا في هذه الغاباتِ المُوحشة ؟
ولو خَلَقَ اللهُ حواءَ أخرى ، وكنتُ أنا
أَمْلِكُ أن أَفْقِدَ ضلعًا آخرَ من ضلوعي ، فإنّ فقدانَكِ
لنْ يبارحَ فؤادي أبدًا ، كلاّ وكلاّ فأنا أشعرُ

برابطةِ الطبيعة التي تَشُدُّني إليك ، فَلَحْمُكِ من لحمي
وعظامُك من عِظَامِي ، ولنْ يكتبَ لِحَالِك
أن ينفصلَ أبدًا عن حالي ، في النَّعيم أو في الشَّقاءِ !
قال ذلك في نفسه ، فكأنما ابتَعدَ عن أحزانِ مخاوفِه
وعادَ إليه الاطمئنانُ ، وكأنما جَالَدَ الأفكارَ المضطربةَ المتلاطِمةَ
فاسْتَسْلَمَ لما بدا أمرًا لا علاج له ، وتَحوَّلَ إلى حواءَ
فخاطبَها بكلماتٍ تَنِمُّ عن هدوءِ النَّفْس قائلاً :
يالَجَسَارَةِ الفعْلِ الذي اقْتَرَفْتِهِ يا حواءُ المغامرةُ ،
وجَسَامَةَ الخَطَرِ الذي جَلَبْتِهِ ، بعد أن اجْتَرأْتِ ،
ولو مِنْ قَبيلِ الاشتهاءِ فحسْب ، على النظرِ إلى
تلك الفاكهةِ المقدسة ، وقداستُها في التحريم ،
وما أعظمَ ذنبِ تَذَوّقِها ، ولَمْسُهَا مُحَرّمٌ علينا .
ولكنْ من ذا الذي يستطيعُ أن يَسْتَرْجِعَ الماضي فيُلغي وقوعَ ما وَقَعَ ؟
لا الإله القادرُ على كل شيء ، ولا القدرُ ، ومع ذلك
فربما لم يُحْكَمْ عليكِ بالموتِ ، وربما أصبحَ الجُرْمِ
أَقَلَّ بشاعةً ونُكْرًا بعد أن سَبَقَ تَذَوُّقَ الفاكهةِ ،
أي بعدَ أن دَنَّسها الثعبانُ أولاً ، فكان البادئَ
بنَزْعِ الخُصُوصِيّةِ والقداسة عنها قبل تَذَوُّقِنا إيّاها ،
ولم يَثْبُتْ إلى الآن أنها أَهْلَكَتْه ، فهو ما زال حيًا ،
وهو حيٌّ ، كما تقولين ، بل واكتسبَ حياةً بشريةً
سَمَتْ به إلى درجةٍ أرقى من درجاتِ الوجودِ ، وفي ذلك دافعٌ قويٌّ
لنا على أن نَذُوقَها ، إذ من المحتملِ أن

نَعْلو في دَرَجِ الرُّقيِّ عُلُوًّا يتناسب مع عُلُوِّه ، ولا يمكن أن يكونَ ذلك
إلاّ بالصعود إلى مصاف الأرباب ، أو الملائكةِ أنصافِ الأربابِ .
بل ولا أظن أنّ الله ، ذلكَ الخالقَ الحكيمَ
سوف يُقْدِمُ فِعْلاً على إهلاكِنا ، وإن كانَ يُهدِّدُنا به ،
نحنُ أولَ مخلوقاته ، إذ كَرَّمَنَا أرفعَ تكريم
وأَنْزَلَنا منزلةً فوق كُلِّ ما صَنَعَ ، فإذا سقطنَا
وقد سُخِّرتْ لنا الكائناتُ ، فسوف تسقطُ مَعَنَا حَتْمًا
ما دامتْ تابعةً لنا ، وهو ما يَعْني أنّ الله سوف يُدَمِّر ما خَلَقَ
ويُحْبِطُه ، فيَبْني ويَهْدِمُ ، ويُفَتِّتُ ما عَمِلَهُ ويُشَتِّتُهُ ،
وهو مُسْتَبْعَدٌ من الله سُبْحَانَهُ ، وهو وإنْ كان ذا قُدْرَةٍ
على أنْ يَبْدأَ الخَلْقَ ثم يُعيدُهُ ، فسوف يَكْرَهُ
أن يَحْكُمَ بفنائنا ، كَيْلاَ يَشْعُرَ الخَصْمُ
أنه انتصرَ قائلاً: «ما أَضْعَفَ حالَك يا من يُفَضّله اللهُ
على الجميع ! ومن ذا الذي يطولُ رِضَا الله عنْهُ ؟ فلقد بَدَأَ بي
فَدَمَّرني ثم دَمَّر الإنسانَ بَعْدي ، ومن عساه يُدَمِّرُ بَعْدَنَا ؟».
إن ذلك مُسْتَبْعَدٌ مكروهٌ ولا يُتَوَقَّعُ حتى من الأعداء
وعلى أي حالٍ فلقد رَبَطْتُ أقداري بأقدارِكِ ،
مصممًا على أنْ ألقى المصيرَ نفسَه ، فإذا كان الموتُ
سوف يرافِقُكِ ، فالموتُ لي مثلُ الحياة !
ما أقوى ما أشعرُ به في قلبي
من روابطِ الطبيعةِ التي تَشُدّني إلى ما أَمْلِكُ ،
ما أَمْلِكُهُ فيكِ ، إذ إنّ كِيانَك ينتمي إليّ ،

وحالُنا من المحالِ أن يَنْفَصِمَ ، فنحن كِيانٌ واحدٌ ،
وجسدٌ واحدٌ ، فإذا فقدتُك فكأنما أفقدُ ذاتي .
وفرغ آدمُ من حديثه فأجابَتْهُ حواءُ قائلةً :
يا لهُ من اختبارٍ باهرٍ للحبِّ الذي فاقَ الحدودَ ،
يا له من برهانٍ ساطعٍ ومثالٍ رفيعٍ رائعٍ !
إنه يدعوني لمضاهاتِه ولكن هَيْهَاتَ ! فأنا لا أتمتع
بالكمال الذي يَزِينُكَ ، وأنّى لي أن أبْلُغَهُ
يا آدمُ ! إنّني أتباهى بأنني خرجتُ من جَنْبِكَ العزيز
ويسرُّني أن أسمَعك تتحدثُ عن وَحْدَتِنا
قلبٌ واحدٌ وروحٌ واحدةٌ في كِلَيْنا ، وقد أتى الدليلُ القاطعُ
في يومِنَا هذا ، بإعلان تصميمك بألاّ تسمحَ
للموتِ أو لما هُوَ أشَدُّ من الموتِ هَوْلاً ورُعْبًا
بأن يَفْصِلَ بيننا ، بعد أن ارتبطنا برباطِ الحبِّ العزيز ،
بل أن تشاركني الذنبَ الواحدَ ، والجريمةَ الواحدةَ ،
إن كانت ثَمّ جريمةٌ في تَذَوّقِ هذه الفاكهة الجميلة
ونحنُ ندينُ لها بالفَضْلِ ، فلا يأتي الفاضِلُ إلا بالفَضْلِ ،
بالفضلِ في أن أتاحت - بطريقٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشرٍ -
هذا الاختبارَ الناجحَ لحُبّك لي ، ولَوْلاَهُ
لما تَجَلّى مطلقًا بهذه الصورةِ الساطعةِ .
ولو كنتُ أتصورُ أن الموتَ الذي يتهدّدنا سيكونُ عاقبةَ
فِعْلَتِي ، لتحملتُ وحدي
أسوأَ ما تأتي به ، ولما حاولتُ إقناعَكَ ، فأنا أُفَضِّلُ الموتَ

مهجورةً على تَوْرِيطِكَ في جُرْمٍ
يُقَوِّضُ طُمأنِينَتَكَ ، خصوصًا بعدَ أن تأكّدَ لي
بوضوحٍ وجلاءٍ منذ هُنَيْهةٍ حُبُّكَ الصادقُ
المخلصُ الذي لا يُجارى ولا يُبارى ، غيرَ أنني أشعرُ
أن العاقبةَ تختلفُ اختلافًا بيّنًا ، فليست الموتَ بل الحياةُ التي
اتّسَعَتْ آفاقُها بتفتّحِ الأَعْيُنِ ، وعَمَرَتْ بآمالٍ جديدةٍ وأفراحٍ قشيبةٍ
ومذاقٍ ربّانيّ بلغَ من جمالِهِ أنّ كُلَّ ما ذُقْتُ من حلاوةٍ قَبْلَهُ
ومَسَّتْهُ حواسّي ، يبدو الآنَ بارِدًا غَليظًا إن قُورِنَ بِهِ .
اسْتَنِدْ إلى خِبْرَتِي يا آدمُ وكُلْ منها ما تَشَاءُ رَغَدًا
وليَذْهَبْ خوفُك من الموتِ أَدْرَاجَ الرِّياحِ !
قالت حواءُ ذلكَ وهي تحتضنُه ، وغَلَبَها الفَرَحُ
فتَرَقْرَقَتْ في عينيها العَبرَاتُ ، إذ تَأَثّرتْ كثيرًا بِقُوّةِ حُبِّهِ
الذي سَمَا به ذلك السُّموّ ، فَجَعَلَهُ يختارُ التَّعرّضَ
لغضبِ الله عليه من أجلها ، أو المَوْت .
وكانتِ المكافأةُ (ومثلُ ذلك الاستسلامِ الخانعِ
أجدرَ ما يكونُ بتلكَ المكافأةِ) أَنْ قَطَفَتْ من الغُصْنِ
بعضَ تلك الفاكهةِ المُغْرِيَةِ وقَدَّمَتْها إليه
بِيَدِ السَّخاء ، ولم يَتَوَرّعْ آدمُ عن أَكْلِها
وإن كان يعرفُ مَغَبّةَ ذلك ، فلم يكنْ مخدوعًا
بل غَفَلَ فَلاَنَ فَغَلَبَهُ سحرُ الأنثى .
وارتَعَدَتْ الأرضُ في أَحْشَائها ، إذ عَاوَدَتْها
الآلامُ ، ونَدَّتْ عن الطبيعةِ أَنّةُ أَلَمٍ ثانيةٍ ،

واكْفَهَرَّ وجهُ السماءِ بالغُيومِ ، وهزيمِ الرَّعدِ ، وبعضِ القطراتِ الحزينةِ
باكيةً على اكتمالِ الخطيئةِ المُهْلكةِ ،
الخطيئةُ الأولى ، وآدمُ لا يتردّدُ في التهامِ
ما يُشْبِعُ نَهَمَهُ ، وحواءُ لا تتوقفُ عن تَرْدِيدِ
ما قالَتْه من قبلُ عن خَوْفِها من الزَّلَلِ ، وزيادةِ التَّسْريةِ عنه
بصُحْبتها المُحبَّبة ، حتى أنهما أصبحا يشعُران
مثلِ السُّكارى بخمرٍ جديدةٍ عليهما معًا
فهما يسبحانِ في مَوْجِ المَرَحِ ، ويتوهمان أنهما يحسّان أنّ
الرُّبوبيّةَ في باطنهما تَنْسِجُ لهما أجنحةً يطيران بها
فَيُطِلاّنِ على الأَرْضِ من عَلٍ ، ولكنّ تلك الفاكهةَ الخائنةَ
كانت تبدي تأثيرَها الكاذبَ أَوّلَ الأمرِ فحسب ،
إذْ إنّها أَلْهَبَتْ الرغبةَ الجَسديةَ ، فإذا بآدمَ وقد بَدَأَ
يرمقُ حوّاءَ بعيونِ اشتهاءٍ مُتَبَذِّلَةٍ وترمقُه هي
بتبذُّلٍ مماثلٍ ، وهما يحترقانِ شَهْوَةً ،
حتى شَرَعَ آدمُ في دَفْعِ حواءَ إلى المُلاعَبَةِ والمُلاطَفَةِ قائلاً :
الآن أرى يا حَوّاءُ أنكِ تَتَّسِمينَ بدقّةِ الذَّوْقِ ،
والتأنّقِ ، ونصيبُكِ من الحكمةِ ليسَ ضئيلاً
ما دُمْنا نحدّدُ لكلِّ مذاقٍ مَعْنًى
ونَصِفُ حاسّةَ الذَّوْقِ بالحكمةِ ، وهذا الإطراءُ
أُسْديه إليكِ بعد أَنْ أَحْسَنْتِ تزويدَنا اليومَ بما طابَ من الطُّعومِ .
كم من المتعةِ ضاعَ منّا بامتناعِنا
عن هذه الفاكهةِ الممتعةِ ، ولم نعرفْ حتى الآنَ

لَذَّةَ المذاقِ الحقيقيةَ ، فإنْ كان مثلُ هذه المتعةِ يَزِينُ
الأشياءَ المحرّمةَ علينا ، فَلَنَا أن نَتَمَنّى
أن يُفْرَضَ علينا الحرمانُ من عَشْرِ أشجارٍ لا من شجرةٍ واحدةٍ .
لكنْ تَعَالَيْ ! لقد جَدَّدْنا نشاطَنا الآنَ ، فَهَيّا نَلْعَبْ !
وهو اللائقُ بعد أنْ تناوَلْنَا ذلكَ الطَّعامَ اللّذيذ
إذ لم يَحْدُثْ مطلقًا من قبلُ ، منذ اليومِ الذي
رأيتُكِ فيه أوّلَ مَرّةٍ وتزوجتُك ، مُحَلاّةً
بجميعِ آياتِ الكمالِ ، أنْ ألْهَبَ جمالُك أحاسيسي بهذه الشّدّة
والوَقْدَةِ حتى أَسْتَمْتِعَ بكِ ، وقد ازْدَدْتِ جمالاً الآنَ
عن أيِّ وقتٍ مضى ، مما أنْعَمَتْ به علينا تلك الشجرةُ الفاضلة .
قال آدمُ ذلك ولم يَدَّخِرِ نظرةً أو حركةً
تَشِي بِقصْدِ الغَرَامِ ، وكانت حواءُ تفهمُها حَقَّ الفهم
وعينُها تُطْلِقُ سهامًا من لهبٍ تُلْهِبُ مَرْمَاها .
وأمسك بيدها ، واتّجها إلى ربوةٍ ظليلةٍ ،
خميلةٌ سقفُها الأخضرُ من العرائشِ الكَثّةِ المُلْتَفّةِ ،
وسارا معًا وهي راضيةٌ إلى فراشٍ من الزّهور ،
من الرّيحانِ والبَنَفْسَجِ والنّرْجسِ والفُلِّ ،
أكثرُ فُرُشِ الأرضِ نُضْرةً وطَرَاوَةً ،
وهناك شَرِبَا عَللاً بعد أنْ نَهِلاَ مِنْ نَبْعِ الحُبِّ
وعَبَّا عَبًا من لطائفِ الغرامِ ، خِتَامَ المشاركةِ في الجُرْمِ
وعزاءَ خَطِيئَتِهما ، حتى هَبَطَتْ أنداءُ النُّعاسِ عليهما
فاستسْلما لِسُلْطَانه مُرْهَقَيْن مِنْ لَعِبِ الهوى .

وما إن نَفَدَتْ قوةُ تلكَ الفاكهةِ المُضِلّة
بعد أن بَعَثَتْ أَبْخِرةَ النَّشْوةِ واللّذّةِ الحِسّية
التي تَصّاعَدُ وتَتَرَاقَصُ حول الرُّوحِ ، وتُضِلُّ القُوى الباطنةَ
وتَحْرِفُها عن مسارِها ، وبعد أنْ غَادَرَهُما النعاسُ الفَظُّ الذي
يتولَّدُ من دُخَانٍ مُنَافٍ للطبْعِ والطبيعةِ ، ويَغَصُّ بأحلامِ ذنوبٍ
تنوءُ النفسُ بِحَمْلِها ، نهضا من الرُّقادِ
كأنما ينهضانِ من قَلَقٍ ، ونظر كُلٌّ إلى صاحِبِه ،
وسرعان ما عَجِبا لِشِدَّةِ تفتُّحِ العَيْن ، وشدةِ ما يَغْشى العَقْلَ
من ظُلْمةٍ ، فإذا بالبراءةِ التي كانت كالنِّقابِ الذي
يحميهما من مَعْرِفَةِ الشّرّ وقد ذَهَبَتْ ،
وكذلك الثِّقَةُ المُحقّةُ ، والصلاحُ الأصيلُ
والشرفُ ، كُلُّها وَلَّتْ من حولِهما ، فأدركَ آدمُ عُرْيَه
وأَحَسّ بخَجَلِ المُذْنِبِ فطفِقَ يَسْتُر ما بدا من سَوْءَتِه
ولكنّ رداءَه كان يُظْهِر أكثَرَ مما يُخْفي ! ومثلما نَهَضَ شمشونُ الجَبّار
ذو القُوّةِ الهِرَقْلِيّة ، سليلُ «دان» ، من أحضانِ العاهرة
«دليلة» ابنةِ فلسطين ، واستيقظَ
وقد فقد قُوَّتَه ، نهض كلاهما مُعْدَمَيْن وقد تجرّدا
من كُلِّ طَاقَةٍ لديهما ، فجلسَا صامِتَيْن ، وعلى الوجهِ آثارُ
الحَيْرةِ والبَلْبَلَةِ ، فطالَ بهما الجلوسُ ، كأنما أُصيبا بالبُكْم ،
وبعد رَدَحٍ طويلٍ تكلّمَ آدمُ ، وإنْ لمْ يكنْ أقَلَّ من حَوّاءَ خَجَلاً ،
وأَجْبرَ نفسَه على لَفْظِ هذه الكلماتِ قائلاً :
أنتِ يا حواءُ ! لقد استَمَعْتِ في ساعةِ شَرٍّ

إلى ذلكَ الثعبانِ الكاذبِ ، ومن يدري من عَلَّمَهُ
محاكاةَ صوتِ الإنسانِ زَيْفًا وزُورًا ، فلقد صَدَقَ إسْقَاطُه لنا
وأَخْلَفَ ما وَعَدَ من ارتقائنا ، فها هي أَعْيُنُنا ،
نَجِلُها وقد تَفَتَّحَتْ حقًا ، ونجدُ أننا أصبحنا نعرفُ
الخيرَ والشرَ جميعًا ، الخيرَ الذي ضاعَ والشَّرَ الذي جاء
فما أسوأَ ثَمَرَ المعرفةِ إنْ كانت هذه هي المعرفة ،
التي تُجَرِّدُنا هكذا فَنَعْرَى من الشَّرَفِ
ومن البَرَاءَةِ ، ومن الإخلاص ، ومن الطُّهْر ،
وهي الحُلِيُّ التي اعْتَدْنا التَّزَيُّنَ بها فَتَلَوَّثَتْ وعَلَتْها البُقَعُ
وفي وُجُوهِنا تبدو جَلِيَّةً واضحةً دلائلُ
الاشتهاءِ الدَّنِيءِ ، حصادُ شَرٍّ وفيرٍ ،
بل الخجلِ نفسه وهو آخرُ الشرور ، وإذَنْ فوقوعُ الأوّلِ
لا شكَّ فيه ! كيف تواتيني القدرةُ بعد الآن على التطلّعِ إلى وجه
اللهِ أو وجوه الملائكةِ ، وكنتُ كثيرًا ما أراها بفرحةٍ
ونَشْوَةٍ طاغية ؟ إن تلكَ الصُّوَرَ السماويةَ
سوف تستعصي الآن لِشِدَّةِ سَنَاهَا على بَصَرِي الأَرْضِيِّ
إذ لنْ أحتملَ بوارقَ نورِها . ليتَني أَحْيَا هنا
في عُزْلَةِ حياةَ بَدَاوَةٍ ، في بَعْضِ سُهولِ الغَابِ
الظَّلْماءِ ، حيث تعلو هاماتُ الدَّوحِ اللَّفَّاءُ التي لا يَنْفُذُ منها
شعاعُ نَجْمٍ أو ضياءُ شَمْس ، ناشِرةً ظلالَ أوْراقها الشَّاسعةَ حتى
تُمسي غَاسِقَةً كالمساء ! دَثِّريني يا أشجارَ الصَّنُوبر
ويا أَشْجارَ الأَرْزِ ، واجْعَلي من أَغْصَانِكِ التي لا تُحْصى

غِطَاءً يَحْجُبُني حتى لا أَتطلّع إلى تلك الصُّورِ السماوية أَبَدًا !
أما الآن فهيا يا حواء تَبْتكرْ ، في هذه المحنةِ الشَّديدةِ ،
أفضلَ ما نستطيعُ به في هذه الآونةِ إخفاءَ
عَوَرَاتِنا عن بعضنا البعض ، وهي سوءاتُنا
التي يَخْدِشُ كشفُها الحَيَاءَ ، بل إنّها أَقْبَحُ ما يُعَرّى .
فَلْنَقْصِدْ بعضَ الأشجارِ ذاتِ الأوراقِ العريضةِ الناعمةِ فنخيطَ بعضَها إلى
بعضٍ ونَلُفُّها حولَ الخِصْرِ ، فتغطّي الوَسَطَ من كُلِّ جانبٍ ،
حتى لا يأتيَ ذلكَ الوافدُ الجديدُ ، وهو الخَجَلُ ،
فيتّخذَ منها مكانًا ، ومن ثَمّ نُلامُ على الدَّنَس .
كانَ ذاك ما أشارَ به آدمُ ، فقاما معًا ودَخَلاَ
إلى أكْثَفِ الغاباتِ شَجَرًا ، وسرعانَ ما اختارا
شجرةَ التينِ ، لكنّها لم تكنْ الشجرةَ الشهيرةَ بفاكهتها
بل كانت من النوعِ الذي يعرِفُه الهنودُ إلى اليَوْمِ
في «مالابار» أو «ديكان» ، فهي تَفْتَحُ ذراعَيْها
وتتفرّعُ طولاً وعرضًا حتى تَهْبِطَ إلى الأرضِ
الأفنانُ الملتويةُ فتضربُ جذورُها فيها فإذا بالبَنَاتِ يَنْشَأْنَ
ويَتَرعْرَعْنَ حولَ الشجرةِ الأمّ ، ويمتدُّ الظِّلُّ بينَ الجُذُوعِ القائمةِ
والسقفُ كالقُبّةِ العاليةِ من فَوْقِها ، والممراتُ المتناظرةُ فيما بينها .
وكثيرًا ما يَأْوي الرّاعي الهندي إليها هَرَبًا من الحَرّ
فيبترد في الظِّلّ ، ويُوَجّهُ قُطْعَانَهُ التي تَرْعى الكَلأَ
إلى الفَجَوَاتِ المُتَاحَةِ وَسْطَ الظِّلالِ الكثيفةِ ، وهكذا جَمَعَا بعضَ
هذه الأوراقِ التي كانت عريضةً مثلَ دُرُوعِ الأمازوناتِ ،

وبما لديهما من مَهارَةٍ تمكّنا من خِيَاطَةِ بَعْضِها إلى بَعْض ،
بما يكفي لتغطيةِ الوَسَطِ ، وما أوْهَاهُ من غطاء إن كان القَصْدُ منه إخفاءَ
ما ارتكباه من جَرِيرَةٍ وما يَخْشَيَانِه من عارٍ ، وما أشَدَّ اختلافَهُ
عن جَلاَلِ عُرْيِهِمَا الأوّلِ . ومثلُ هذا ، منذ عَهْدٍ قريب ،
وَجَدَهُ «كولومبوس» لدى سُكّانِ أمريكا الذين يُغَطّون الوَسَطَ
بحزامٍ من الرِّيشِ وباقي الجسم عارٍ ، ويعيشون حياةَ بَدَاوَةٍ
بين الأشجارِ في الجُزُرِ وعلى الشواطئ التي تكسوها الغابات .
وبعد أن تَدَرَّعا بهذِه الأوراقِ وظَنّا أنهما قد سَتَرَا بها
جانبًا من عَارِهِمَا ، وإن كانا لا يَنْعَمَانِ بالرّاحة والطمأنينة ،
جلسا للبكاءِ ، ولم يقتصرْ البكاءُ على الدموعِ التي
تُمْطِرُها العيونُ ، بل صاحبتْهُ رياحٌ عاتيةٌ أقسى وأشدُّ في باطِنِ النّفس ،
بدأتْ تهبُّ ، ومشاعرُ جائحةٌ من غضب ومَقْتٍ
وشَكٌّ وريبةٍ وشِقَاقٍ ، فاهْتَزّتْ لها وتَصَدَّعَتْ
جَنَبَاتُ الضَّميرِ ، تلكَ الساحةُ التي كان الهدوءُ يسودُها ذاتَ يوم
ويَغْمُرُها السّلْمُ ، فأصْبَحَتْ قَلِقَةً مُبَلْبَلَةً
فلا يَتَولّى الإدراكُ الحُكْمَ الآن ، وليس للإرادةِ
صوتٌ مسموعٌ ، بل أصبحَ هذا وذاك يخضعان
للشَّهْوِيّةِ الحسِّيّةِ التي كانت ، من مَكْمَنِها الأسْفَلِ ،
تَغْتَصِبُ ما ليس لها ، وتعلنُ تسلّطها على العقلِ ذي السيادةِ
وتفوّقَها عليه . وهكذا ، ومن هذا الصَّدْرِ المضطرب ،
خَرَجَتْ كلماتُ آدمَ الذي اختلفَ مظهرُهُ وتغيّرتْ نَغَمَاتُه ،
فعاد للحديث إلى حواء بدفقاتٍ متقطعةٍ قائلاً :

ليتك سمعتِ كلامي ومكثتِ معي
حسبما نَاشَدْتُكِ ، عندما تَمَلّكتكِ تلك الرغبةُ الغريبةُ
في التجوالِ وحدَكِ في هذا الصباحِ المَنْحوسِ ،
ولا أعرفُ من أين جَاءَتْكِ ، وكُنّا نستطيعُ آنذاكَ أن نَظَلَّ
سعداءَ دائمًا ، لا أن يَنْقَلِبَ حالُنا إلى ما نَحْنُ فيه ، إذْ سُلِبْنَا
كلَّ خيرٍ لدينا ، وصِرْنا إلى العارِ والخِزْي والشَّقَاءِ .
فَلْنُقْلِعْ منذ الآن عن طَلَبِ عِلَلٍ لا لُزومَ لها لإِثْبَاتِ
ما نَدينُ به من إخلاص ، ومن يَسْعَ جادًّا
لمثلِ ذلك البرهانِ ، فليتأكدْ أنّ الإخفاقَ قد بَدَأَ !
وسرعانَ ما أجابَتْهُ حواءُ ، وقد ساءَهَا لَوْمُهُ لها ، قائلةً :
ما هذه الكلماتُ التي تَفَوَّهتْ بها شفتاك يا آدمُ القاسي
فَنَسِبْتَ ما حدثَ إلى غيابي عنك أو إلى رغبتي
في التجوالِ ، على نحو ما تُسَمّيها ، ومن يدري
فَلَعَلَّ الشَّرَّ أن يتصادفَ فيقعَ وأنتَ إلى جواري
أو رُبّما أَصَابَكَ أنتَ نَفْسَكَ ، ولو كُنْتَ هناك ،
أو كنتَ هنا وجرى ما جرى ، فما كنتَ لتستطيعَ إدراكَ
المخاتلةِ في الثعبانِ ، وهو يتكلمُ بما تكلَّمَ به ،
ولم أكنْ أعرفُ أساسًا للعداوةِ بيني وبينَهُ
فلماذا يُضمِرُ إيقاعَ الضُّرِّ بي أو السَّعْيَ لإيذائي ؟
وهلْ كان عليَّ ألاّ أفارقَ صُحْبَتَكَ أبدًا ؟
وهل يزيدُ نَفْعي آنَذَاكَ عن نفع ضِلْعٍ خامدٍ في جَنْبِكَ ؟!
ولكنني الآن زَوْجَتُك ، فلماذا وأَنْتَ رَأْسي

لم تأمُرْني أمْرًا مُطْلَقًا بِعَدَمِ الذهاب
ما دمتُ سأتعرضُ لمثلِ ذلكَ الخطرِ الذي ذَكَرْتَهُ ؟
ما أيسرَ ما تَقَاعَسْتَ عن التَّشَدّدِ في مَنْعي
بل إنّكَ سَمَحْتَ لي بالذهابِ ووَافَقْتَ عليه وتَرَكْتَنِي راضيًا ،
ولو كُنْتَ صارمًا وأظْهَرْتَ الثباتَ في رَفْضِك
لما أذْنَبْتُ انا ، ولما أذْنَبْتَ أنت معي .
وردّ عليها آدمُ وقد غَضِبَ لأوّلِ مرةٍ قائلاً :
أهذا هو الحبُّ ، أهذا جزاءُ ما أُكِنُّهُ
أنا لَكِ يا حواءُ الجاحدةُ ، وما تَجَلَّى ثابتًا
لا يَتَحوّلُ في وَقْفَتي مَعَكِ وقد ضَلَلْتِ الطريقَ ؟ لست أنا إذن
من كان في يده أن يَعيشَ ويَهْنَأَ بالنعيم الخالدِ
ثم اختارَ طائعًا الا يَفْعَلَ بل أن يموتَ مَعَكِ!
وهل ألْقَى اللّومَ الآنَ مُتّهمًا بأنني سببُ
خطيئتِكِ ؟ هل لأنني لَمْ أُظْهِرْ الصرامةَ الكافيةَ ،
فيما يبدو ، لمنْعك من الذّهابِ ؟ وهل كان في طَوْقِي المزيدُ ؟
لقد حَذَّرْتُكِ ، وأَنْذَرْتُكِ ، وتَنَبَّأْتُ
بالخَطَرِ ، وذكرتُ العَدُوَّ الكامنَ
المُتَرَبِّصَ ، وبعد هذا لا يوجدُ سوى الإرْغَامِ
وإرغامُ من يتمتعُ بإرادَتِهِ الحُرّةِ لا مكانَ له هنا .
ولكنّ جَسَارَتِك دَفَعَتْك دَفعًا ، والثّقَةُ المُفْرِطَةُ
إما في عدم مُصَادَفَةِ أي خَطَرٍ ، وإما أنّك كنتِ تَنْشُدينَ
الفرصةَ لاختبارٍ يثبتُ شِدّةَ بأسِكِ ، ورُبّما

أكونُ أنا قد ضَلَلْتُ الطريقَ أيضًا حين أَسْرَفْتُ في إعجابي
بما بدا لي أنه الكمالُ كُلُّه فيك ، حتى ظَنَنْتُ
أن الشَّرّ ، مهما يكنْ ، لا يجرؤُ على أن يَقْرَبَكِ ، وأنا نادمٌ
على هذا الضَّلاَلِ الآنَ ، الذي أَصْبَحَ جَريمتي
وأنت التي تتهمينني بها . هذا محتومٌ علَى
كل من تدفعُه ثِقَتُهُ المفرطةُ في رِفْعَةِ المرأةِ
إلى السماحِ لإرادَتِها وَحْدَهَا بِالنَّفَاذِ ، فهي لا تُطيقُ القُيودَ
فإذا تُرِكَتْ وشَأْنَها وحَلَّ ما يَحُلُّ من الشَّر ،
كان هو أولَ من تتّهمه بالتّسبّب فيه لِتَسَامُحِهِ الذي يَشِي بالضَّعْف .
وهكذا قَضَيَا في التَّراشُقِ بالتُّهَم
ساعاتٍ عقيمةً ، دون أن يلومَ أَحَدٌ منهما نفسَه
فذهبَ نزاعُهُما عبثًا ، دون أن تلوحَ له غايةٌ أو نهاية .

الكتاب العاشر

الكتاب العاشر
الموضوع

يعلم الملائكة الحارسون بخطيئة الإنسان ، فيغادرون الفردوس عائدين إلى السماء صُعُدا ، طالبين أن تقبل حجتهم بأنهم لم يهملوا الرقابة ، وتُقبلُ حجتهم ، ويعلن الله أنه لم يكن في طوقهم أن يمنعوا دخول إبليس . ويرسل كلمته للحكم على الخاطئَيْن ، فتتنزل الكلمة وتصدر الحكم المطلوب ثم تأخذها الشفقة عليهما فتكسوهما بالثياب ، وتعود صاعدة . وكانت الخطيئة والموت لا يزالان جالسيْن حتى تلك اللحظة عند أبواب الجحيم، فشعرا بفرحة عجيبة لنجاح إبليس في هذا العالم الجديد وللخطيئة التي اقترفها الإنسان فيه ، ويعلنان اعتزامهما ألاّ يظلاّ رهن محبس الجحيم ، بل أن يتّبعا والدهما إبليس إلى مكان الإنسان ، وتيسيرًا لسبل الانتقال من الجحيم إلى هذا العالم ذهابًا وعودة ، ينتهيان من تعبيد طريق عام عريض، أو جسر يمتد فوق العماء ، على النهج الذي شقه إبليس أول الأمر ، وأثناء استعدادهما للهبوط إلى الأرض ؛ يقابلانه فيجدانه مزهوّا بنجاحه في طريق عودته إلى الجحيم ؛ ويتبادل الجميع التهنئة . ويصل إبليس إلى «بانديمونيام» – قصر الشياطين – حيث يلتقي الجميع فيقص عليهم متباهيًا نبأ نجاحه ضد الإنسان، ولكنه لا يسمع التصفيق بل يسمع تحيةً من الفحيح العام صادرة من الجمهور، ويدرك أن الجميع قد تحولوا معه فجأة إلى حشد من الأفاعي، وهو حكم القضاء الذي صدر عليه في الفردوس ، ويخيل إليهم أنهم يَرَوْن الشجرة المحرمة تبرز أمامهم ، فيدفعهم الشَّرَهُ إلى اقتطاف

الثمر ، ولكنهم لا يمضغون إلا التراب والرماد . ويلي ذلك وصف لأفعال الخطيئة والموت ، ويتنبأ الله بالانتصار النهائي لكلمته عليهما ، وتجديد حياة جميع الأشياء ، ولكنه يكتفي في تلك اللحظة بأن يأمر ملائكته بإجراء عدة تعديلات في السماوات والعناصر . ويزداد إدراك آدم لسقوطه فيندب حاله ويبكي مآله ، رافضًا عزاء حواء له ، ولكنها تثابر في التسرية عنه حتى يهدأ آخر الأمر ، وفي محاولة لتفادي اللعنة التي قد تصيب ذريتهما تقترح على آدم حلولاً تتسم بالعنف ، وهو ما يرفضه آدم ، إذ يلمح بوارق رجاء مؤكدة ويُذكّرها بالوعد الذي تلقياه أخيرًا ، وهو أن ذريتهما سوف تنتقم من الثعبان ، ويحثها على محاولة السعي معه إلى الصلح مع الإله الذي عصياه وأغضباه ، بالتوبة والضراعة .

وفي هذه الأثناء انتشر نبأ الفعلة النكراء الخسيسة
التي ارتكبها إبليس في الفردوس ، وكيف
تَمثّل بالثعبان فَضَلّل حواء
وكيف ضَلّلَتْ هي زوجَها فتذوقا الثمرة المهلكة
وذاع النبأ في السماء ، فماذا عساه أن يفلت من عين
الله البصير الخبير ، أو أن يخدع فؤاده
وهو السميع العليم ، فشاء وهو الحكيم العادل في كل شيء
ألا يمنع إبليس من محاولة إغواء عقل الإنسان
الذي توافرت له القوة التامة وتَدَرَّعَ بالإرادة الحرة
وتهيأ له من أسباب الكمال ما يكفي لاكتشاف

أحابيل العدو ودحرها أو من يتظاهر بالصداقة مهما يكن .
فلقد كانا يعرفان دائمًا ، وكان عليهما أن يذكرا
الأمر السامي الذي ينهاهما عن تذوق تلك الثمرة
مهما يكن مصدر الغواية ، ولكنهما لم يطيعاه
فاكتسبا العقاب جزاءً وفاقًا
وتضاعفت خطيئتهما فحق السقوط عليهما .
وانطلقت الملائكة الحارسة من الفردوس مسرعة
تُصَعِّدُ في السماء ، صامتة حزينة
على الإنسان ، إذ علمت آنئذ بما صار إليه ،
ودهشت أشد الدهش لتسلل الشيطان الماكر
بالدخول خِفْية . وما إن جاءت الأنباء المنكرة
من الأرض إلى أبواب السماء حتى استاء
كل من سمعها ، ولم يدخر الحزن الجهم
آنئذ وجوه الملأ الأعلى ، وإن اختلط
بالشفقة فلم ينتهك ما هم فيه من نعيم .
وتزاحمت حول الذين وصلوا لتوهم حشود
الكائنات الأثيرية التي تريد أن تسمع وتعرف
كيف حدث ما حدث ، وأسرع الحراس إلى العرش الأسمى
ماثلين للمساءلة ، مقدمين من الذرائع
ما يثبت عدم إهمالهم مهمة الرقابة القصوى
فحظيت بالقبول دون عَنَتٍ ، وهنا تكلم الرب الأعلى ،
الصمد السرمدي ، من سحابته الخفية

ودوّى صوته وسط الرعد قائلاً :
أيتها الملائكة التي اجتمعت هنا ، ويا أصحاب القوى
الذين أخفقوا في مهمتهم فعادوا للسماء ! لا تبتئسوا
ولا يعكرنّ صفوكم ما جاء من الأرض من أنباء
فلم تكونوا لتحولوا دون ما حدث مهما أخلصتم في الحرص
أو لتتنبأوا بوقوعه مؤخرًا
عندما قام المغوي أولاً بعبور الهوة بين الفردوس والجحيم .
فلقد أخبرتكم آنذاك بأنه سوف ينتصر وينجح
في مسعى السوء الذي أراده ، وأن الإنسان سوف يُغوى ،
ويُصدّق أنه فوق الجميع ، بل ويصدق الأكاذيب
المفتراة على خالقه ، ولم يصدر مني قرار
يقضي بحتمية سقوطه ،
أو يمس ولو بمثقال خردلة نزوع
إرادته الحرة ، إذ تُرِكَتْ للميزان حركتُه الذاتيةُ
بكفتيه المتعادلتين ، ولكن السقوط قد وقع ،
ولم يبق الآن سوى إصدار الحكم بالموت
عليه لارتكابه الخطيئة ، وهو الموت الذي أعلنت عنه ذلك اليوم ،
والذي يفترض الإنسان أنه حكمٌ باطلٌ لاغٍ
لأنه لم يُنَفَّذ فيه حتى الآن ، حسبما صَوَّرَهُ له خوفه ،
بضربةٍ مباشرةٍ مهما تكن ، ولكنه لن يلبث أن يعرف
أن الإمهال لا يعني إسقاط الدَّيْن ، بل سيكون ذلك قبل نهاية اليوم .
ولن يكون عائد العدالة ازدراء النعمة !

ولكن تُرى من أُرْسِلُ للحكم عليهما ؟ من سواك
يا كلمتي الحاكمة ، فلقد فوّضت إليك
الحكم كله ، سواء في السماء أو في الأرض أو في الجحيم .
وما أيْسَرَ أن ترى أنني أعتزم
أن أقرن الرحمة بالعدل ، فأرسلك
صديقًا للإنسان ، ووسيطًا له ، فأنت من قصدت أن يكون
الفِدْيَةَ والمفتدى معًا ، وطواعية منك ،
فكلمة الله التي ستصبح بشرًا تحكم الآن على سقطة البشر .
هكذا تكلم الله ثم بسط بهاءه الوضاء
وسناء المجد نحو يده اليمنى ، فأضفى على كلمته
القوة الإلهية المتقدة الصافية ، فاكتملت للكلمة
نُورانيّةُ الضياء القدسي الباهرة
واضحةً جليّةً ، وردّت الكلمة بنبرات عذبة قائلة :
أيها الإله الأزلي ، لَكَ أن تحكم ،
ولي في السماء والأرض أن أنفذ مشيئتك
العليا ، حتى ترى فيّ وأنا كلمتك المحبوبة
كل ما يسرك إلى الأبد . سأمضي للحكم
في الأرض على هذين الخاطئين ، ولكنك تعلم أنه
مهما يكن القاضي ، فسوف يحلُّ بي أسوأ ما يحلُّ ،
عندما يحين الموعد المحدد ، فهذا ما تعهدت به
بين يديك ، ولا أرجع عنه بل أنَالُهُ
بالحق ، أي أن أخفف من غلواء مصيرهما ،

فأتحمله بدلاً منهما ، ومع ذلك فسوف أخفف شدة
العدل بالرحمة ، حتى يتضح أنني
وفيت بهما الوفاء كله ، وظفرت برضاك .
ولن يحتاج القضاء إلى حضور أحد أو وجود حاشية
فلن يشهد الحكم إلا المحكوم عليهما ،
وهما هذان ، وأما الثالث الذي أَحْسَنَ بغيابه فهو مُدَانٌ ،
وفراره دليل إدانته ، بعد أن انتهك كل قانون ،
وأما الثعبان فهو غير مدان ولا مذنب .
وبانتهاء خطاب كلمة الله ، قام من عرشه الوضاء
الذي يشع سناء فوق سناء ، وقام الملائكة من أصحاب العروش
والقوى والإمرة والسيادة من أعضاده
فاصطحبوه إلى باب السماء ، ومنه
تَبَدَّتْ آفاقُ عدن وجميع أصقاعها .
وهبط مباشرةً وفورًا ، فسرعة الملائكة
لا يحسبها الزمن ، وإن كانت مُجَنَّحةً بأسرع دقائق الزمن .
كانت الشمس آنذاك قد بدأت تهبط الأفق الغربي
مبتعدة عن خط الزوال ، وصَحَتْ النسمات اللطيفة المكلّفة
في تلك الساعة بالهبوب على الأرض والإتيان
ببرد المساء الفاتر ، عندما جاء – وقد برد غضبه –
ذلك القاضي الرحيم والشفيع الكريم معًا
ليصدر حكمه على الإنسان ، وسرى صوت الله فسمعاه
وهما يسيران في الجنة ، فالنسائم الرقيقة

تحمله إلى آذانهما ، والنهار يميل للغروب ، وعندما سمعاه
حاولا الاختفاء عن حضرته بين
الأشجار اللّفاء ، وهما الزوجان معًا ، ولكن الله
اقترب منهما وصاح بآدم في صوت جهوري قائلاً :
أين أنت يا آدم يا من اعْتَدْتَ أن تَهُبَّ فَرَحًا للقائي
وقد رأيتني قادمًا من بعيد ؟ إنني أفتقدك هنا
وقد غاب عنك السرور ، ونَشَدْتَ التسرية في العُزْلة ،
بعد أن كنت تقوم بالواجب الواضح دون أن يُطلب منك :
أَتُراني جئتُ خِفيَةً ، أم ترى تغيّر شيء ما
فتغيبت ، أم تُرى مَنَعَتْكَ المصادفة ؟ أَقْدِمْ إذن !
وتقدم آدم ، ومعه حواء ، أشد منه خشية ، وإن كانت قد سبقته
إلى العصيان ، وقد اربدّتْ ملامح وجهيهما ، وتجهما واضطربا ،
ولم تكن نظراتهما تشي بالحب ، لا لله
ولا لبعضهما البعض ، بل بالإحساس بالذنب واضحًا جليًا ،
وبالعار والقلق المضني واليأس
والغضب والعناد والكراهية والمكر .
وبعد أن تردد آدم طويلاً وتخاذل ، أجاب باقتضاب قائلاً :
سمعتُك في الجنة ، وأَخافَني صوتُك ،
لما أنا فيه من عُرْي فاختبأت . ورَدَّ عليه
القاضي الكريم دون ملاحاة قائلاً :
كثيرًا ما سَمِعْتَ صوتي ، فلم تُبدِ الخوف
بل الابتهاج دائمًا ، فكيف أَصْبحَ الآن

مبعث رعب شديد لك ؟ وأما أنك عريان فمن
تُراه أخبرك بذلك ؟ تُراك أكلت من الشجرة
التي أمرتك باجتناب الأُكل منها ؟
وأجابه آدم وقد أُحيط به ألمًا قائلاً :
يا للسماء ! يا لمأزم السوء الذي أقف فيه اليوم
أمام حَكَم قضيتي ، فإمّا أن أُحمّلَ
نفسي تبعةَ الجرم كاملة أو ألقي الجُرم على
نفسي الأخرى وشريكة حياتي !
وتقصيرُها ، ما دامت على إخلاصها لي ،
من واجبي إخفاؤه لا تعريضها للتقريع
بشكواي منها ، ولكن الضرورة المحضة
تجبرني على ذلك ، فأنا في مأزق كالكارثة مُضْطَرٌّ لذلك ،
كيلا يقع على رأسي ثقل الخطيئة والعقاب
وهو ثقل لا يحتمل ، فأحتمله كله
وحدي ، وحتى لو التزمت الصمت فلم أفصح ، فلسوف
تكشفُ يا ربي بيُسْرٍ عما أخفيه .
هذه هي المرأة التي خَلَقْتَها لتساعدني
ووَهَبْتَني إياها هديةً يزينها الكمال ، ولقد بلغ من صلاحها ،
وتواؤمها معي ، وقبولي إياها ، وشمائلها الربانية ، أن غدوت
لا أستريب فيما تقدمه يداها أو أرى فيه سوءًا ،
وكذا كل ما تفعله ، مهما يكن في ذاته ،
إذ كان إقدامها عليه مبررًا له في نظري !

إنها هي التي قدمت لي ثمر الشجرة ، ولقد أكلت منه .
وردت الحضرة الإلهية على آدم بالكلمات التالية :
هل كانت رَبَّكَ حتى أَطَعْتَها وجَعَلْتَ صوتَها
يسبق صوته ؟ أم تُراها خُلِقَتْ مرشدةً لك
متفوقة عليك أو حتى مساوية لك حتى أَسْلَمْتَ لها
زمام رجولتك وأعطيتَها المكانة التي
وضعك الله فيها فوقها ، وهي التي خُلقت منك
ومن أجلك ، وأنت الذي يزيد كماله كثيرًا
عن كمالها في جلال المُلك الحق ؟ لقد زانها الجمال
حقًا وزانتها الفتنة الجديرة بالظفر
بحبك لا بخضوعك ، أما ما وهبها الله من شمائلَ فهي
جميلةٌ ما دامت في موقع المحكوم ،
قبيحةٌ في موقع الحاكم ، فهذا هو موقعك والدور المنوط
بشخصك لو كنت عَرَفْتَ نفسك حق المعرفة .
وانتهى من كلامه فالتفت إلى حواء قائلاً باقتضاب :
قولي أيتها المرأة ، ما ذاك الذي فعلتيه ؟
وردت عليه حواء ، وقد كاد يغلبها العار ،
إذ ما أسرع ما اعْتَرَفَتْ ، دون أن تواتيها أمام القاضي
جرأة أو إسهاب ، بل اعتراها الخجل وهي تجيبه قائلة :
لقد خَدَعَتْني الحيّةُ ولقد أَكَلْت .
وعندما سمع الإله الرب ذلك ، لم يتباطأ
بل أصدر الحكم فورًا على المتهم

وهو الثعبان ، ولو أنه حيوان عاجز عن إحالة
الذنب إلى الذي جعله وسيلة لفعل
الشر ، ونجس إلى آخر
الدهر ، حُقّت عليه اللعنة آنئذٍ
وفساد الطبع ، ولم يكن المزيد من العلم
من نصيب الإنسان (إذ اقتصر علمه على ذلك ولم يزد عنه)
ولم يغيّر من جريرته ، ولكن الله في آخر الزمان قد
حكم بما حكم به من مصير على إبليس ، أول الخاطئين ،
وإن كانت ألفاظ الحكم غامضة ، إذ رأى ذلك أفضل ما ينبغي آنذاك..
وهكذا جعل لعنته تقع على الثعبان قائلاً :
لأنك فعلت هذا ، حُقّت عليكَ اللعنةُ
فوق جميع البهائم ، وفوق كل وحوش البرية ،
ولسوف تسير زحفًا على بطنك
وتأكل التراب في جميع أيام حياتك
ولسوف أوقع العداوة بينك وبين المرأة
والعداوة بين ذريتك وذريتها ،
وسوف تسحق ذريتُها رأسك ، وتسحق أنت عَقِبَ الإنسان .
وانتهى حديث النبوءة ، وهي التي تحققت
عندما جاء يسوع ابن مريم ، حواء الثانية ،
فشاهد إبليس وهو يتهاوى مثل البرق ساقطًا من السماء ،
وهو أمير الهواء ، ثم رُفع من القبر
فجرد الرياسات والسلاطين من قوتهم وظفر بهم

وعرضهم علنًا ، ثم صعد وضّاءَ
فسبى السَّبْيَ في ثَبَج الهواء ،
وهو موطن إبليس نفسه الذي طال اغتصابه إياه ،
ولسوف يطؤه فيسحقه تحت أقدامنا في آخر الزمان .
وهكذا تحول من تنبأ بذلك السحق المهلك
إلى المرأة وأصدر حكمه عليها قائلاً :
لسوف أضاعف أحزانك أضعافًا مضاعفة
بالحمل ، ولسوف تضعين أطفالك
بمشقة بالغة ، وتستكين لإرادة زوجك
إرادتُك وتخضع ، ولسوف يسود عليك .
ثم التفت إلى آدم أخيرًا وأصدر حكمه عليه قائلاً :
لأنك أصغيت إلى صوت زوجتك
وأكلت من الشجرة التي أصدرتُ إليك
الأمر بشأنها قائلاً :إنني حَرَّمْتُ الأكل منها عليك ،
فلقد أصبحت الأرض ملعونة بسببك ، وسوف تكابد المشقة
في الأكل منها طيلة أيام حياتها كلها ،
ولسوف تُنبتُ لك أيضًا الشوك والحَسَك
دون أن تسألها ذلك ، ولسوف تأكُل عشب الحقل ،
ولسوف يندى وجهك بالعرق لتأكل الخبز
حتى تعود إلى الأرض ، فإنك
قد خرجت من الأرض ، فاعلم حقيقة مولدك ،
إذ إنك من تراب ، وإلى التراب تعود .

وفرغ من أُرسل قاضيا ومُخَلِّصًا معًا من حكمه على الإنسان ،
فأبعد خطر الموت الآنيّ الذي أعلن عنه ذلك اليوم
بعدًا بعيدًا ، ثم أخذته الشفقة بهما وهما واقفان
أمامه في عُرْيٍ يتعرضان للهواء الذي كان عليه الآن
أن يكابد التغيير ، فلم يجد بأسًا في أن يبدأ
على الفور في اتخاذ هيئة العبد
مثلما حدث عندما غسل أقدام عباده ، وهكذا قام الآن
بدور الوالد في أسرته ، فستر
عُرْيهما بجلود الحيوان أو الوحوش التي قتلها
أو بجلد الثعبان الذي أبدله بجلد يافع .
لم يجد بأسًا في إضفاء أردية على أعدائه
بل لم يكتف بأن كسا ظاهرهما بجلود
الوحوش ، بل ستر عريهما الباطن ، وهو الأشد
إيذاءً للعين ، برداء الصلاح الذي
كان لباسًا جميلاً في نظر الله .
وعادت كلمة الله صاعدة مسرعة إليه ،
وعادت إلى موقع النعيم في فؤاده
بالبهاء القديم والمجد العميم ، وقد رَأَتْ أنها أَرْضَتْ
الجميع ، ثم قَصَّتْ عليه ، وهو بكل شيء عليم ، ما جرى مع الإنسان
وقد امتزجت بالقصة شفاعة حسنة .
وفي أثناء ذلك ، ومن قبل أن يصدر الحكم على الخاطئيْن في الأرض ،
جلست الخطيئة والموت داخل أبواب الجحيم

في الجهة المقابلة داخل أبوابها التي كانت الآن
مفتوحة على مصراعيها ، تتجشأ نيرانًا مستعرة تمتد ألسنتها
إلى أقاصي أصقاع العماء ، منذ أن مَرّ منها الشيطان
وفَتَحَتْها له الخطيئة ، وهي التي بدأت حديثها إلى الموت قائلة :
يا ولدي ! لماذا نجلس هنا وكل منا يحدق في صاحبه
عاطليْن ، وإبليس الذي أنجبنا يهنأ وينعم
بعوالم أخرى ، ويعمل على توفير مقر أسعد
لنا ، نحن ولديه العزيزين ؟ من المحتوم
أن النجاح قد حالفه ؛ فلو صادف ما يسوء
لعاد من مدة ، تلاحقه غضبة
المنتقمين منه ، إذ لا يوجد مكان مثل هذا
يناسب عقابه ، أو يناسب انتقامهم .
وإخال أنني أشعر بقوة جديدة تجيش في باطني
وبأجنحة تنمو لي ، وبأنني مُنحت السيادة على أصقاع شاسعة
وراء هذا البحر العميق ، مهما يكن ما يدفعني ،
سواء كانت قوة الانجذاب أو كانت قوة فطرية مماثلة
ذات طاقة على التوحّد ، من أبعد المسافات ،
مع الأشياء المماثلة ، والارتباط بها برباطِ وُدٍّ خفيٍّ ،
ويتواصل لا تُسبر أسرارُه . إنك ظِلّي الذي
لا ينفصل عني ولابد أن تمضي معي ،
فلا تستطيع قوة ما أن تفصل بين الموت والخطيئة .
ولئلا تؤدي صعوبة الرجوع إلى

تأخير عودته ، وذاك أمر محتمل ، مرورًا فوق هذه الهوة
التي لا تستطيع قدم أن تجتازها أو تسلكها ، فلنحاول
القيام بعمل فيه مغامرة ، ولو أنه ، نظرًا لقوتك وقوتي ،
لا يخلو من متعة ، وهو أن نبني جسرًا
فوق هذه الساحة التي تمتد من الجحيم إلى ذلك العالم الجديد
الذي يبسط إبليس سلطانه عليه الآن ، وليكن أثرًا يشهد
على الامتياز الرفيع أمام حشد الجحيم أجمعين ،
فسوف يُيسّر مرورهم إلى ذلك العالم ، إما للتنقل فيما بينهما
وإما للاستيطان فيه ، حسبما تقضي أقدارهم به .
بل ولن أضل الطريق إذ أشعر أنني مدفوعة بقوة شديدة
بما بدأت أحسه من انجذاب وميل غريزي .
وسرعان ما أجابها الظل الناحل قائلاً :
اذهبي إلى حيث يشاء القدر ، وحيثما تقود النزعة العارمة
خطاك ، ولن أتخلف عنك أو أضل
الطريق ، وأنت الحادي لي ، إذ إنني أشم رائحة
مذبحة ، وفرائس لا حصر لها ، وأتذوق
طعم الموت في جميع الأشياء التي تحيا هناك :
بل ولن أتقاعس عن العمل الذي تنهضين به
أو أتخلف ، وإنما سأقدم لك المعونة الكافية .
قال ذلك وهو يتشمم مبتهجًا رائحة
التغيير الذي يأتي بالفناء إلى الأرض . أرَأيتَ إلى سرب
من الطيور الجارحة حين يقطع في الجو فراسخ كثيرة نائية

توقعًا ليوم المعركة ، مقبلاً إلى ميدان
ضربت فيه الجيوش معسكراتها ، طائرًا تجتذبه
رائحة الجثث الحية التي قُدّر لها
أن تموت في اليوم التالي في الصراع الدموي ،
فهكذا كان ذو الشكل الجهم يتشمم ما حوله ، وقد رفع
أنفه بفتحتين متسعتين في الهواء العكر
مدركًا رائحة فريسته من مسافة بعيدة .
ثم انطلق كلاهما خارجيْن من أبواب الجحيم إلى المَهْمَهِ الشاسعة لفوضى
العماء الرطب المدلهم ،
طائريْن في اتجاهين متعارضين وحلّقا بقوة (فقوتهما عظيمة)
وحَوَّمَا على وجه الماء ، وما صادفاه من أشياء
صلبة أو لزجة ، مما ترى البحر الهائج
يتقاذفه هنا وهناك ، تعاونا معًا على دفعه
من الجانبين في دفقات نحو فم الجحيم .
فكأنما هب تياران متعارضان من الريح القطبية
على المحيط القطبي الشمالي ، فتعاونا معًا على رفع
جبال الجليد التي تعوق مجرى الممر المائي المتخيَّل
وراء نهر «بتسورا» في سيبيريا شرقًا إلى
ساحل «قيطان» ذي الثراء . وأما التراب الذي تجمع
فقد ضربه الموت بحربته الصخرية الباردة الجافة
كأنما يضربه بالرمح ذي السنان الثلاثي ، وثبّته فثبت
ثبات جزيرة «ديلوس» التي كانت طافية يومًا ما ، وأما سائر الأشياء

فقد نظر إليها نظرة تخدير «جورجونية» فركزت ولم تتحرك ،
وشُدّ بعضُها إلى بعض بمزيج من قار لزج ، فالتصقت الحصى والحصباء
في هيكل عريض عرض باب الجحيم ، يلتقي قاعه بقاعها العميق ،
وركَزَاه فركز ، وبدا الرَّصَافُ الهائل المبنيُّ عاليًا
فوق البحر ، برُغائه وزَبَده ، جسرًا مقوسًا مرتفعًا
ذا طول خارق يتصل بالسور الذي
لا يتزعزع لهذا العالم الذي أصبح بلا حصانة
مفتوحًا أمام الموت ، ويمتد منه كذلك ممر عريض
مُعَبَّدٌ مُيَسَّرٌ خالٍ من العثرات هابطًا إلى الجحيم .
وهكذا فإذا ضربنا الأقل للأعظم مثلاً ، ألمحنا إلى ملك الفُرْس
«أَرْتِخْشَشا» الذي أراد قمع حرية بلاد اليونان
فأتى من قصره «مِمْنونيا» الشاهق في «سُوسَهْ»
إلى ساحل البحر وبنى فوق مضيق «الدردنيل»
جسرًا يعبره ، ويربط أوروبا بآسيا ،
وألهب ظهور الأمواج الغاضبة بسياط كثيرة .
وهكذا أصبح الجسر الذي بنياه بفنون عجيبة
في تشييد الجسور هيكلا من الصخور المعلقة
فوق الهوة التي تجتاحها العواصف ، مقتفيًا خطى
إبليس ، فوصل إلى نفس البقعة التي كان
قد حطّ فيها من طيرانه أول مرة ، وهبط سالمًا
بعد أن خرج من باطن العماء إلى الخلاء العاري
لهذا العالم الكُرويّ ، وأرسيا عواميد من الصخر

وربطاه بالسلاسل التي ثبّتاها تثبيتًا
لا يحول أبدًا ، وهكذا التقت في حيّز محدودٍ
تخوم السماء الدنيا واتصلت بتخومِ
هذا العالم ، وإلى اليسار كانت الجحيم
بارزة على مبعدة ، فبدت ثلاثة طرق منفصلة
للناظرين ، يصل كل منها إلى واحد من هذه الأماكن الثلاثة .
وبعد أن تبيّن لهما طريقهما إلى الأرض
الذي يمر أولاً بجانب الفردوس ، إذا بهما يشاهدان
إبليس متخذًا صورة مَلَكٍ وضاء
بين برج القوس وبرج العقرب ، محافظًا في مسيره
على زاوية السمت ، والشمس تشرق في برج الحمل .
كان متنكرًا ، ولكنّ طفليه العزيزين هذين
سرعان ما عرفا والدهما حتى وهو متنكر .
كان قد تسلل خِفْيةً ، بعد أن أغوى حواء ،
إلى داخل الغابة المتاخمة ، ثم غيّر من صورته
حتى يرقب عاقبة ما حدث ، فشهد خُدْعَتَه التي أوقعت
حواء ، ولو دون وعي منها ، وتكرار ذلك
مع زوجها ، وشهد إحساسهما بالخجل ومحاولة
التستر بأردية لا غَناء فيها ، ولكنه عندما رأى نزول
كلمة الله للحكم عليهما أصابه الرعب
فلاذ بالفرار ، لا أملاً في الهرب ، ولكن لتلافي لقاء
تلك الحضرة ، فهو مذنب ويخشى ما تستطيع غضبتها

أن تنزله به فجأة ، وبعد أن جازها ، عاد
ليلاً ، وأخذ يصغي حيث كان الزوجان التعسان
يجلسان ويتبادلان أحاديث الحزن ، وشتى الشكاوى ،
ومنها أدرك المصير الذي ينتظره ، وفهم أنه
لن يَحُلَّ به على الفور بل في المستقبل . وحمل فرحته
وما علمه من أنباء عائدًا إلى الجحيم
وعندما وصل إلى حافة العماء ، بالقرب من قاعدة
هذا الجسر الجديد العجيب ، أسعده الحظ
بأن قابل من قدما لمقابلته ، وهما ولداه العزيزان .
وغمرت اللقاء فرحة كبرى ، وعندما شهد
ذلك الجسر الهائل زادت فرحته
ووقف وقفة طويلة يتأمله في إعجاب ، حتى بدأت الخطيئة ،
ابنته الجميلة الساحرة ، في كسر طوق الصمت قائلة :
يا أبي ! هذه أعمالك الرائعة ،
وجوائز نصرك ، وأنت ترقبها كأنها ليست لك ،
بل أنت صاحبها ومهندسها الأول ،
إذ إنني ما كدت أحدس في قلبي –
قلبي الذي تدفعه قوةُ تَوَافُقٍ خَفِيّة
على السير دومًا في ركاب قلبك والارتباط به برابطة عذبة –
أنك قد أفلحت على الأرض ، وهو ما تشهده عيناك
الآن أيضًا ، حتى أحسست فورًا –
على ما يفصلني عنك من عوالم –

أنني لابد أن أقفو خطاك مع ولدك هنا ،
فلقد بلغ من علاقة العلة والمعلول المصيرية بين ثلاثتنا
أن غدت الجحيم عاجزة عن حبسنا بعد اليوم في تخومها
وغدت هذه الهوة الظلماء التي يتعذر اجتيازها
عاجزة عن منعنا من مواصلة اقتفاء خطاك الباهرة الذائعة .
لقد حَقَّقْتَ لنا الحرية ، وكنا رهن المحبس
داخل أبواب الجحيم حتى اليوم ، ومن ثم مَكَّنْتَنَا
من اكتساب هذه القوة الشديدة ، ومن تشييد
هذا الجسر الخارق فوق الهوة الحالكة .
وهكذا أصبح هذا العالم كله مِلْكًا لك ، وفازت قوتك
بما لم تَبْنِهِ يداك ، وكَسَبَتْ حكمتُك لنا ،
كسبًا مُؤَزَّرًا ، ما ضاع منا في الحرب ، فاكتمل الثأر
من هزيمتنا في السماء ؛ ولسوف تحكم هنا مِلِكًا مُتَوَّجًا ،
ولم تكن كذلك هناك ، وليَبْسُطْ الظافرُ سلطانَه هناك ،
بحقِّ نتيجة المعركة ، تاركًا هذا العالم الجديد
مبتعدًا عنه ، إذ أبعده الحكم الذي أصدره ،
وليتقاسمْ منذ الآن معك السلطة المَلَكية
على جميع الأشياء التي تفصل بينها الحدود السماوية ،
وتفصل مملكته المربعة عن عالمك الدائري ،
وإلا فليقدمْ على التجربة ليعرف أنك غدوت أشد خطرًا على عرشه .
وأجابها أمير الظلام جذلاً قائلاً :
ابنتي الجميلة ، وأنت يا ولدي وحفيدي معًا ،

لقد قَدَّمْتُما الآن برهانًا ساطعًا على انحداركما من نسل
إبليس (وأنا أزهو باسمي الذي يعني
الخصومة مع ملك السماء الذي هو على كل شيء قدير).
وبرهنتما على جدارتكما بالانتساب إليّ وكل قاطني
مملكة الجحيم ، إذ قابلتما نصري قرب باب الجنة
بقوس نصر جديد هو هذا الجسر ،
وقابلتما عملي بهذا العمل المجيد فأنشأتما مملكة واحدة
من الجحيم وهذا العالم ، مملكة واحدة ، قارة واحدة ،
يسهل المرور منها وإليها . ومن ثم فعليكما الآن ، أثناء
هبوطي بيسر خلال الظلام على الطريق الذي هيأتماه
إلى قوات حلفائي حتى أحيطهم علمًا
بهذه النجاحات وأحتفل معهم بها ،
أن تسلكا معًا هذا الطريق ، من بين هذه الأفلاك المتعددة
التي تنتمي كلها إليكما ، حتى تصلا إلى الفردوس في آخره ،
وبالإقامة فيه والحُكْم ناعمين ، وأن تبسطا على الأرض
سلطانكما وتمارساه ، وفي الهواء أيضًا ،
وخصوصًا على الإنسان ، الذي أُعْلِنَتْ سيادته على الجميع ،
وأن تتأكدا من استعباده أولاً وأن تُهلكاه آخر الأمر .
إنني أرسلكما بديلين عني ، وبذلك أنشئ من ينوب عني
ومن فَوَّضتُ إليه سلطتي الكاملة ، ومن يتمتع بقوة لا تضارع
صادرةٍ مني ، وهكذا فإن طاقتكما المشتركة أصبحت الآن
العماد الذي ترتكن إليه سيطرتي على هذا العالم الجديد

الذي أصبح عُرضة للموت من خلال الخطيئة بفضل جهودي .
فإذا انتصرت قوتكما المشتركة باتت الجحيم
لا تخشى أي ضرر ، فاذهبا واعتصما بالقوة .
وفرغ من حديثه آمرًا إياهما بالانصراف ، فأسرعا
يشقان طريقهما خلال بروج السماء الزاخرة ،
ناشرَيْن سمومهما التي أصابت النجوم فغار ضوؤها للناظرين ،
وأما الكواكب فطمسها عُدْوان كواكب أخرى عليها ، فكان الخسوف الحقيقي
الذي تعرضت له ، وانحدر إبليس في الطريق المقابل هابطًا
على الجسر إلى باب الجحيم ، وعلى الجانبين
صاح العماء محتجًا على بناء الجسر الذي شقه نصفين ،
وانقضّ بأمواج زاخرة عارمة على العُمُد التي قام عليها ،
لكن العمد لم تأبه بغضبته ، ومر إبليس من الباب
الذي كان مفتوحًا على مصراعيه ولا أحد يحرسه ،
فوجد كل ما حوله مهجورًا موحشًا ، إذ إن اللَّذيْن
كُلّفا بالجلوس هناك كانا قد تركا المهمة
وانطلقا إلى العالم العلوي ، وكان الباقون جميعًا
قد انسحبوا إلى الداخل ، حول أسوار
قصر «بانديمونيام» ، المقر الذي يزهو به
«لوسيفر» ، وكان قد أطلق عليه هذا الاسم تشبيهًا له
بالنجم الساطع الذي يُقرن به .
كانت الفيالق قائمة بالحراسة هناك ، وأما الكبراء
فقد عقدوا اجتماعًا وهم يتساءلون بقلق عما عساه

قد عاق إمبراطورهم في بعثته ، فذلك
ما أمر به عند رحيله ، فأطاعوا الأمر .
أرأيت إلى التتار عندما يتراجعون أمام جيش روسيا المعادي
عند مدينة «أستراكان» ، فوق السهول التي تكسوها الثلوج ،
وينهزمون ، أو إلى ملك الفرس عندما يتقهقر أمام قرنيْ
الهلال التركي ، تاركًا الخراب في جميع الأصقاع خلف
مملكة أرمينيا الكبرى ، أثناء انسحابه
إلى مدينة «تبريز» أو «قزوين» ، فهكذا كان هؤلاء الذين
طردوا من الجنة أخيرًا ، إذ تركوا أقاصي الجحيم خاوية ،
وقطعوا فراسخ عديدة في الظلام لتولي الحراسة اليقظة
حول عاصمتهم ، وكانوا يتوقعون الآن
في أي ساعة رجوع رئيسهم المغامر الأكبر من استكشافه
للعوالم الأجنبية ، وأما هو فقد مر وسطهم دون أن يلحظوه ،
إذ اتخذ صورة مقاتل من عامة الملائكة ،
بل من أدنى الدرجات ، ودخل من باب
تلك القاعة التي تشبه قاعة «پلوتو» ، وفي الخفاء
صعد فجلس على عرشه العالي ، الذي كان يمتد تحت ظُلَّةٍ
من نسيج باذخ الثراء يبرق عند طرفه الأقصى
بما هو فيه من سنا المُلك وسنائه ، وظل هنيهة
جالسًا ينظر ما حوله دون أن يراه أحد ،
ثم نهض فكأنما برزت رأسه الوضاءة من سحابة
وتجلى في صورة نجم يتلألأ ، أو أشد تلألؤًا ، مكتسيًا

ما سُمح له به بعد السقوط من بهاءٍ
أو من بقية بهاء ، أو من لمعان زائف ، ودهش الجميع
بذلك الضياء الباهر المفاجئ وتحولت أنظار حشد الجحيم
ووجوههم إليه ، فشاهدوا ما كانوا يتمنون ،
ألا وهو عودة رئيسهم الجبار ، فارتفع دَوِيٌّ تصفيقهم ،
واندفع نحوه كبار المستشارين من أقرانه مسرعين ،
ناهضين من مجالسهم في الديوان المعتم ، وبفرحة تعدل فرحته ،
تقدموا منه مهنئين ، فأشار بيده
فساد الصمت ، وخاطبهم فشد انتباههم قائلاً :
يا أصحاب العروش والسيادة والإمرة والرفعة والقوة ،
يا من تملكون هذه الألقاب لا بموجب الحق وحده ،
فبها أناديكم وأعلن لكم الآن أنني رجعت
بنجاح يتجاوز ما كنا نأمله ، حتى أقود مسيرتكم
الظافرة إلى خارج هذه الوهدة الجهنمية
البشعة اللعينة ، منزل الآلام ،
والجب الذي رمانا فيه المستبد ، إذ لكم أن تملكوا غيره الآن ،
وأن تصبحوا أسيادًا على عالم رحيب لا يقل عن وطننا السماوي
إلا قليلاً في منزلته ، ولقد خضت مغامرة شاقة ،
وتعرضت لأخطار كبرى حتى ظفرت به ، وقد يطول بي الحديث
إن قصصت عليكم ما فعلته ، وما عانيته ، ومدى آلام
إبحاري في اللُّجج الهيوليّة الشاسعة التي لا حدود لها
لبحر الاختلاط الرهيب ، والتي بنى فوقها الآن

الموتُ والخطيئةُ جسرًا وطريقًا عريضًا عَبَّداه
ليزيد من سرعة انطلاقكم المجيد ، وإن كان عليّ أنا
أن أكدح كدحًا للإبحار وحدي في الخضم الغريب ، مرغمًا على ركوب
الهوة العسيرة العصيّة ، غارقًا في رحم
الليل القديم والعماء الموحش ، وهما اللذان كانا
يخافان على أسرارهما ، فأبديا معارضة ضارية
لرحلتي الغريبة ، بالصياح والجلبة والصراخ ،
محتجّيْن بما قضت به عُلْيا الأقدار ؛ ومن ثم كيف عثرتُ على
العالم الذي خلق حديثًا ، وهو الذي ترددت الشائعات في السماء
بقرب خلقه منذ زمن طويل ، وهو نسيج رائع
من الكمال المطلق ، وُضِع فيه الإنسان
داخل فردوس ، وأدى نفينا إلى
إسعاده ، ولقد تمكنت بالخداع من إغوائه حتى عصى
خالقه ، وسوف تزيد دهشتكم عندما تعلمون
أن وسيلتي لم تكن سوى تفاحة ، وعندها غضب الله عليه ،
بل ويجدر بكم أن تضحكوا حين تعلمون أنه أباح
وقوع الإنسان الحبيب إلى قلبه ، بل وهذا العالم كله ،
فريسة للخطيئة والموت ، ومن ثم أباحه لنا
دون مخاطرة منا أو جهد أو فزع ،
حتى ننطلق في أرجائه ، ونقيم فيه ، ونسيطر على الإنسان ،
ونسيطر على كل ما ينبغي له السيطرة عليه .
والحق أنه أصدر حكمه عليّ أنا أيضًا ، أو قل إنه

لم يصدر حكمه عليّ بل على الثعبان الأعجم الذي اتّخذْتُ صورته
حتى أخدع الإنسان ، وأما الحكم الصادر عليّ
فهو العداوة التي سوف يقيمها
بيني وبين الإنسان ، فلسوف أسحق عقبه ،
ولسوف تسحق ذريته رأسي إذا انتبَهَتْ فلم تنخدع بمكري !
ومن ذا الذي لا يشترى عالـمًا بضربة
أو بما هو أشد وجعًا وإيلامًا ؟ ها أنذا انتهيت من رواية
ما فعلته ، ولم يبق أمامكم أيها الأرباب
إلا أن تنهضوا فتدخلوا الآن النعيم الكامل .
قال ذلك ووقف برهة وهو يتوقع أن يعلو
هتاف الجميع وتصفيقهم المدوّي
فيملأ أذنه ، ولكن النقيض حدث ، إذ بلغ مسمعه
من كل جانب ، ومن ألسنة لا تعد ولا تحصى ،
فحيحٌ رهيبٌ بشع ، وهو الصوت الذي يشي
باحتقار الجمهور له ، ودُهش وتعجب ، ولكن لم يلبث
أن ازداد دهشة وعجبًا مما بدأ يصيبه هو نفسه ،
إذ تقلص وجهه فتحسّسه فإذا هو نحيل هزيل ،
والتصقت ذراعاه بأضلاعه ، والتَفَّتْ رجلاه
حول بعضهما البعض ، حتى وجد نفسه يتعثر ويسقط
وقد أصبح ثعبانًا شائهًا يسعى على بطنه ،
وحاول المقاومة عبثًا ، إذ إن قوةً أعظمَ
كانت تسيطر عليه وتعاقبه بإكسابه الصورة التي اتخذها في خطيئته

وفقًا للحكم الصادر عليه ، وحاول أن يتكلم
ولكن الفحيح كان يَرُدُّ على الفحيح من لسان مشقوق
إلى لسان مشقوق ، فلقد تحول الجميع الآن
دون استثناء إلى ثعابين ، لأنهم شاركوا جميعًا
في جرمه الجسور ، وكان صوت الفحيح البشع
يدوّي في أرجاء القاعة التي اكتظت الآن بحشود كثيفة
من الوحوش المركبة من شتى الرؤوس والذيول ،
من العقرب إلى الصِّلّ ، والأفعى الشنعاء ذات الرأسين في الطرفين ،
والقَرْناء ، وحَنَش الماء السام ، وثعبان البحر الرهيب ،
وحَيّة العطش القاتل .ولم تجتمع مثل هذه الحشود منذ أن
سقطت قطرات دم «ميدوزا» الجرجونة فبللت التربة أو منذ نشأة جزيرة
الثعابين «أوفيوزا» ولكنه كان لا يزال الأضخم بينها
إذ تحول إلى تنين عظيم ، أكبر من التنين الذي
أَنْبَتَتْهُ الشمس في وادي الأَصَلاَت من الطين ،
أَصَلَةٌ عظيمة ، وبدا أنه لا يزال يحتفظ بسلطانه
على سائر أقرانه ، وبدأ الجميع
يقتفون خطاه منطلقين إلى الخلاء في الميدان الفسيح
حيث كان من تبقى ممن شاركوا في التمرد والثورة
فهبطوا من الجنة واقفين صفوفًا للحراسة أو للاستعراض
فرفعوا رؤوسهم وهم يتوقعون أن يشاهدوا
رئيسهم المجيد وهو يخرج من القاعة ظافرًا منصورًا
فإذا بهم يشهدون مشهدًا آخر ، ألا وهو حشد

من الثعابين القبيحة ، فحلّ في نفوسهم الرعب
والتعاطف المقيت ، فإلى جانب ما رأوا ،
شعروا بأنهم بدأوا يتغيرون كذلك ، فلقد تدلّت أذرعتهم
وسقطت منها الحراب والدروع ، وسقطوا هم أنفسهم بالسرعة نفسها ،
وتجددت أصوات الفحيح المفزع ، إذ اكتسبوا الشكل المفزع نفسه
كأنما انتقل إليهم بالعدوى ، فتساووا معه في العقاب
مثلما تساووا في الجرم . وهكذا فإن ما قصدوا إليه من تصفيق
تحول إلى فحيح متفجّر ، وتحول زهو الانتصار إلى عار
يرمون به أنفسهم من أفواههم . وبرزت أشجار
خميلة متاخمة لهم ، نَبَتَتْ مع التحول الذي أصابهم
بمشيئة حَكَم السماء الأعلى ، وتغليظًا
لعقابهم ، محمّلة بالثمار الجميلة ، مثل الثمار
التي أَيْنَعَتْ في الفردوس وكانت الطُّعم الذي أُوقِعَتْ به حواء
في حبائل المُغوي ، واجتذبهم ذلك المشهد الغريب
وثَبَتَتْ نظرات عيونهم الحريصة عليه ، إذ تخيلوا
أن عديدًا من الأشجار المحرمة ، لا واحدة ،
قد ارتفعت هاماتها لتزيدهم حزنًا أو عارًا ،
ولكن حلوقهم كانت تكتوي بالعطش الحارق والجوع الضاري
فلم يستطيعوا منع أنفسهم منها ، ولو أنها أُرْسِلَتْ لخداعهم ،
وانطلقوا نحوها وتكدسوا أكوامًا فوق أكوام ، وتسلقوا
الأشجار التي ازدحمت بهم زحامًا يزيد عن كثافة شَعْرِ
الخصلات الجعدة في رأس «ميجيرا» ، وبشراهة أخذوا يقطفون

الثمار ذات الشكل الجميل ، وكانت تشبه ثمار الأشجار
القريبة من البحر الميت حيث أضرمت النيران في «سدوم» .
وكان مذاقها أشد من ملمسها مخاتلةً وأكثر
خداعًا ، فإذا بهم وهم يتصورون أنهم يشبعون
شهيتهم بما لذّ وطاب ، لا يأكلون الثمار
بل يمضغون ترابًا مُرًّا ، امتعض الذوق منه ومَجَّه ،
فلفظته الأفواه في بصقات مسموعة ، وأعادوا الكَرَّة مرارًا ،
ثم كبحوا دافع الجوع والعطش ، وتكرر تقزّزهم مرارًا ،
وَتَلَوَّتْ الفكوك ألمًا من سوء الطعم وبغضه الشديد
حين امتلأت بالسناج والرماد ، وتكرر وقوعهم
ضحية الوهم نفسه ، لا كما حدث للإنسان
الذي سقط سقطة واحدة حين انتصروا عليه . وهكذا ابْتُلُوا
ونَحِلوا نحولاً من الجوع والفحيح الطويل المتصل
حتى فقدوا صورتهم ، وقد يُسمح لهم باستعادة صورتهم فيعيدون الكرّة ،
إذ يُؤْمَرُون في كل عام ، فيما يقال ، بالتعرض
لذلك الإذلال السنوي في أيام معدودة معينة ،
لكسر شوكة كبريائهم وفرحتهم بإغواء الإنسان .
ولكن بعض الأساطير المأثورة التي نشروها
بين الوثنيين الذين وقعوا فريسة لهم
تحكي كيف تَوَلَّى الثعبان ، الذي أسموه
«أوفيون» ، زمام الحكم ، بمشاركة «يورينومي» وهي التي ربما
تكون حواء ذات الجَوْر الواسع النطاق ، فوق

جبل «الأوليمب» السامق أول الأمر ، ثم طردهما «ساتورنوس»
و«أوبس» ، حتى قبل أن يولد «جوف» فوق جبل «دكتايوس» .
وفي أثناء ذلك كان الزائران الجهنميان قد وصلا إلى الفردوس
بسرعة فائقة ، وكانت الخطيئة قد زارتها من قبل ، من حيث القوة
ومن حيث الفعل مرة واحدة ، ولكنها تدخل الآن بجسدها
لتقيم فيها وتعتادها ، وكان الموت من خلفها
يقفو أثرها خطوة خطوة ، وإن لم يركب بعد
متن جواده الشاحب ، فخاطبته الخطيئة قائلة :
يا ابن إبليس الثاني ! أيها الموت الذي يقهر الجميع !
ما رأيك الآن في مملكتنا ، على ما بذلناه في اكتسابها
من جَهْد جاهد ، أليس حالنا أفضل
من الجلوس للحراسة دَوْمًا عند عتبة الجحيم المظلمة
دون أسماء ، ودون أن نخيف أحدًا ، وقد كِدْتَ تهلِكُ جوعًا ؟
وسرعان ما أجاب الوحش الذي ولدته الخطيئة قائلاً :
أنا الذي أذوي من الجوع السرمدي ،
وتتساوى في عيني الجحيم والفردوس والسماء ،
وإن كان مقامي هناك أفضل لكثرة ما ألاقي من وديان ،
وهي ، على وفرتها هنا ، لا يكاد يكون فيها ، على ما يبدو ،
ما يكفي لملء هذه المعدة ، وهذا الجسد الكبير ذي الجلد الفضفاض .
وأجابت الأم التي واقعها إبليس أبوها قائلة :
عليك إذن بهذه الأعشاب والثمار والأزهار
فاجعلها قوتك أولاً ، واجعل غذاءك بعدها من كل حيوان وسمك وطير ،

وليست بأطعمة ساذجة ، ومن كل شيء - مهما يكن -
يحصده منجل الزمن ، فازْدَرِدْهُ ازدرادًا لا يُبقي على شيء ،
حتى يتسنى لي أن أَسْكُنَ الإنسان في ذريته
فأُلوِّثَ أفكاره ونظراته وكلماته وأفعاله جميعًا
وأُعِدَّه لك فيمسي آخر فرائسك وأَلَذَّها طعمًا .
وفرغت من حديثها فانطلق كلاهما في طريقين منفصلين
إما للدمار و إما للتسبب في فناء
جميع الأنواع واستعدادًا لحلول الدمار
عاجلاً أو آجلاً ، وكان القدير يبصر ذلك
من عرشه المتعالي بين الملائكة
فوجّه حديثه إلى أصحاب تلك المراتب الوضاءة قائلاً :
انظروا مبلغ حماس هذين الكلبين من كلاب الجحيم وهما ينطلقان
لتخريب ذلك العالم وتدميره ، وهو العالم الذي
خلقته بالغ الجمال والخير ، وربما
أبقيته دومًا على تلك الحال ، لولا أن حماقة الإنسان
سمحت بدخول ربات الانتقام المدمرة ، التي تنسب
الحماقة إليّ ، شأنها في ذلك شأن أمير الجحيم
وأتباعه ، لأنني أسمح لهم أن يدخلوا بيسر
وأن يمتلكوا بسهولة ذلك المكان
ذا السمات السماوية ، ولأنني فيما يبدو أغض الطرف عن ذلك
إرضاءً لأعدائي الذين يظهرون الازدراء
ويضحكون كأنما ينتشون بنوبة ما من نوبات

الانفعال ظانين أنني قد تنازلت عن كل شيء ،
واستسلمت ، دون تدبير وإحكام ، لفساد حكمهم ،
وهم لا يدركون أنني استدعيتهم ودفعتهم إلى ذلك المكان
وهم كلاب جحيمي لِيَلْعَقُوا الحُثالة والأوساخ
التي جَلَبَتْها خطيئةُ الإنسان فَلَوَّثَتْ بها وَوَصَمَتْ
ما كان طاهرًا نقيًا ، حتى إذا امتلأوا فأتخموا حتى كادوا ينفجرون
بالنُّفايات التي يَسْتَشِفُّونها ويلتهمونها ، جاءت ضربة المقلاع
من الذراع الظافرة لكلمتي الرَّضِيَّة ، ضربة واحدة تطيح
بالخطيئة والموت معًا وبالقبر المفتوح..
الإطاحة الأخيرة عبر العماء فتسد فم الجحيم
إلى الأبد ، وتختم على فكيه النهمين .
وعندها تتجدد السماء والأرض وتتطهران طهرًا
قدسيًا لا يقبل التلوث بشائبة من الشوائب :
وريثما يكون ذلك فإن اللعنة الصادرة عليهما تظل قائمة .
وانتهى من حديثه فإذا بالملأ الأعلى يُنشدون عاليًا
أناشيد التسبيح في هدير كأنه هدير البحار
وسط الجماهير الكثيرة التي أنشدت : ما أعدل أحكامك ،
وأوامرُك حقٌّ على جميع ما خَلَقْتَ ، من ذا الذي
يستطيع أن ينتقص من قدرك ؟ ثم سَبَّحوا بعد ذلك لكلمة الله
التي قُدِّر لها أن تعيد الإنسان إلى النعيم ، وأن ترفع
السماء والأرض الجديدتين إلى زمن الهناء ،
أو تنزل بهما من السماء إلى الأرض . وانتهوا من الإنشاد

وكان الخالق يستدعي وينادي بالأسماء
ملائكته الجبارة ويكلّف كلا منهم بمهمة محددة
كأفضل ما يناسب الأحوال الراهنة . أما الشمس
فقد قَدَّرَ أَوّلاً لها أن تتحرك وأن تسطع
فتحدث في الأرض من البرد والحر
ما لا يكاد يحتمل ، وأن يَستدعيَ من الشّمالِ
الشتاءَ الهرمَ ، وأن يأتي من الجنوب
بحرارة الصيف في أَوْجِه . وحدد الملائكةُ للقمر الشاحب
مهمته المنوطة به ، وللكواكب الخمسة الأخرى
حركاتها والوجوه التي تظهر بها عند ميل مداراتها
بزوايا حادة أو قائمة أو منفرجة وعند تضادها
وفعالية تأثيرها الضار ، ومتى يرتبط بعضها بالبعض
ارتباط السوء ، وعُلِّمَتْ النجومِ الثابتة
متى تمطر آثارها الخبيثة ،
وأي منها - سواء ما يُشرق مع الشمس أو ما يغرب معها -
يُستدلّ منه على هبوب الأعاصير ، وحُدِّدتْ للرياح
أركانُها ، ومواقيتُ هبوبها لتخلط العناصر وتمزج
البحر والهواء واليابسة ، وللرعد متى ينطلق مزمجرا
بالرعب في القبة الهوائية المدلهمّة .
ويقول البعض إنه طلب من ملائكته أن يُميلوا
محور قطبي الأرض أكثر من عشرين درجة
عن مدار الشمس ، فبذلوا جهدهم في دفعها

حتى مال محورها ، ويقول البعض : إن الشمس
قد أُمرت أن تنحرف في سيرها عن طريق خط الاستواء
بهذه الدرجات نفسها ، نحو برج الثور حيث الشقيقات السبع ، بنات
«أطلس» في الثريا ، وحيث التوأمان «الإسبرطيان» في الجوزاء
حتى مدار السرطان ، وأن تهبط مسرعة مارّة
ببرج الأسد وبرج العذراء وبرج الميزان
وجنوبًا حتى مدار الجدي ، حتى تحقق تغيير
الفصول في كل إقليم ، ولولا ذلك لكان الربيع
الدائم قد استمر تَبَسُّمه على الأرض بزهوره الزاهية
وتساوى النهار والليل طولاً ، إلا لمن يعيشون
وراء الدائرتين القطبيتين ، فلديهم النهار
ساطعًا دون ليل ، والشمس المنخفضة انخفاضًا
يكافئ بُعدها ، تبدو لناظريهم كأنما
تدور دائمًا حول الأفق ، فلا يُعرف
شرق أو غرب ، ولامتنع سقوط الثلج
في «استوتيلاند» الباردة ، وفي الجنوب حتى الأصقاع
التي تحت منطقة «ماجلان» . وعندما ذاق الإنسان تلك الثمرة
اشمأزت الشمس وتقززت تقززها من مائدة «ثايستيس» ، فانحرفت
عن مسارها المرسوم ، وإلاّ فكيف تأتى للعالم
المعمور ، قبل أن يقع في الخطيئة ، أن يتمتع بقدرة أكبر على
تجنب البرد القارس والحرارة الحارقة ؟
وأدت هذه التغييرات في السماء ، على بطئها ، إلى إحداث

تغيير مماثل في البر والبحر ، وتأثير النجوم
والأبخرة والضباب والنفثات الحارة الحاملة
للفساد والطاعون ، وهكذا انطلقت الرياح الآن من شماليّ
«نُورَمْبيجا» في كندا ، وشاطئ «ساموديا» في سيبيريا ،
فحطمت محبسها النحاسي ، وتسلحت بالجليد
والثلج والبَرَد والعواصف والأعاصير المفاجئة ،
من الشمال والشرق والغرب عالية مدمدمة ،
وجعلت ريحُ الشمال الغربية تمزق الغابات وتقلب البحار قلبا !
كما كانت الرياح المعاكسة لها من الجنوب تقلبها أيضًا
مثل الهَبوب والسَّموم السوداء بسحابها الراعد
من «سيراليون» ، وفي مواجهتها هبت الريح ضارية
مسرعة من الشام ، والرياح الغاربة مثل
ريح الجنوب الشرقي ، والريح الغربية ، وصخب اصطدام هذه بتلك ،
والجنوبية الشرقية بالجنوبية الغربية ، وهكذا بدأت
الغضبة العارمة من أشياء لا حياة فيها ، ولكن الشقاق ، أول
مولود للخطيئة ، بدأ يتسرّب الآن إلى الكائنات غير العاقلة ،
إذ دفع به الموت في صورة البغضاء الضارية فيما بينها ،
فشرعت الحيوانات يقاتل بعضها بعضًا ، والطيور
والأسماك ، وتركت العشب الذي ينبغي أن تقتات به ،
وأخذ بعضها يلتهم البعض الآخر ، ولم تعد تخامرها الرهبة
من الإنسان ، بل باتت تفرّ منه أو ترمقه بوجوه جهمة
وتحدق فيه أثناء مرورها ، وكانت تلك ظواهر

للأشجان المتزايدة ، وكان آدم قد شهد
بعضها من قبل ، على اختفائه في أعتم الظلال ،
نهبًا للحزن ، وإن كان يكابد في أعماقه ما هو أسوأ ،
تتلاعب به أمواج بحر هائج من الآلام ،
ومن ثم أراد تخفيف أثقاله بالبث والشكوى الحزينة قائلاً :
يا شقيًا كان سعيدًا ! هل هذه نهاية
ذلك العالم الجديد المجيد ، ونهايتي ، وأنا من كنت منذ هنيهة
مجد ذلك المجيد ، وأصبحت الآن
ملعونًا بعد أن كنت مباركًا ؟ دعني أحتجب عن وجه الله ،
وهو من كانت رؤيته تمثل لي آنذاك أَوْجَ
السعادة ! قد أتحمل ذلك لو كانت هذه نهاية
الشقاء ، فهو جزاءً وفاقا لي ، وعليّ أن أتحمل
كل ما أستحقه ، ولكن الأمر لن يتوقف عندي ،
فكل ما آكله أو أشربه ، وكل من سأنجبه ،
يعني تكاثر اللعنة . يا صوتًا سمعته وأنا فرح
مبتهج ذات يوم يهتف بي أَنجبْ وتكاثرْ !
إنني أسمع الآن الموت ! إذ ما عساه أن يتكاثر
وما عساي أن أنجب إلا اللعنات على رأسي ؟
ومن ذا الذي يخلفني في العصور المقبلة ويدرك
الشر الذي جلبته له إلا ويصب اللعنة على
رأسي قائلاً: «لقد أساء صنعًا سلفنا العاصي
ولذلك فلنا أن نشكر آدم !». وهو الشكر

الذي يفصح عن الكراهية ، وهكذا فإلى جانب
لعناتي التي لن تفارقني ، فإن كل ما يخرج مني سوف
يرتدُّ إليّ فتنقض اللعنات انقضاضًا ضاريا عليّ ،
عليّ أنا ، مركزها الطبيعي ، وإن خفّ وقعها في المركز
وثقل حيثما تكون . يا للحظات الهناء التي مرت سراعًا
في الفردوس ! لقد اشتريتك بثمن باهظ .. بالأحزان المقيمة !
هل طلبت منك يا صانعي أن تأخذَ صلصالي
فتصوغَني إنسانًا ، وهل رجوتُك أن تُخرجَني
من الظلمات فتُعْلِيَ قَدْري أو تَضَعَني هنا
في هذه الجنة ذات الملاذّ ؟ ولما كانت إرادتي
لم توافق على وجودي ، فمن الحق
والعدل أن تُرجِعَني إلى ترابي الأول
فأنا راغب في الاستسلام ، وفي إعادة
كل ما تَلَقّيْتُه ، بسبب عجزي عن تلبية
شروطك البالغة القسوة ، والتي كانت ترمي إلى أن أنال
من الخير ما لم أَسْعَ إليه ، ولقد نالني لقاء فقدانه
ما يكفي من العقاب ، لكن لماذا أَضَفْتَ
إليها مكابدة أحزان سرمدية ؟ من المحال تفسير
عدالتك فيما يبدو ، وإن كانت قد جاءت حقًا بعد فوات الوقت
ولذلك أطعنُ فيها ، وكان لي أن أرفض
تلك الشروط مهما تكن عند عرضها أول الأمر .
ولكنك يا آدم قبلتَها ، فهل تستمتع بالخير

ثم تهاجم الشروط ؟ ومع أن الله
قد صنعك دون استئذانك ، فلنفرض أن ابنك
عصاك فقرّعته على عصيانه فرد عليك قائلاً:
«لماذا أنجبتني ؟ إنني لم أَسْعَ لذلك».
فهل تقبل ردًا على احتقاره لك
ذلك العُذْر الذي ينمُّ عن الكِبْر ؟ ومع ذلك فإنك
لم تنجبْه باختيارك بل بالحتمية الطبيعية .
لقد صنعك الله باختياره مِلْكًا له ، ومن حقه
أن تعبده ، وثوابُك كان من فضله ورحمته ،
ومن ثم فإن عقابك يكون بالعدل وَفْقَ مشيئته .
فليكن يا ربي ذلك ، وعليّ أن أعترف بأن الحُكْم عليه منصف ،
وبأنني تراب ، وأنني سأعود إلى التراب ،
فمرحبا بتلك الساعة مهما يكن موعدها ! فلماذا تتأخر
يده عن تنفيذ الحكم الذي
حدده في هذا اليوم ؟ لماذا يتجاوز عمري الموعد المضروب له ،
والموت يسخر مني ويضحك ، وتطول حياتي
فتمسي ألمًا دون موت ؟ لكم يُسعدني أن ألَقى
الفناء الذي حُكم به عليّ ، فأتحولَ إلى ترابٍ
لا يحس ولا يدرك ، وكم يسعدني أن أرقد
كأنما أغفو في حجر أمي ! هنالك أستريح
وأنام آمنًا ، ويتوقف صوته الرهيب
عن الهدير في أذنيّ ، دون خوف مما هو أوخم

لي ولذريتي ، يقض مضجعي ويعذبني
بقسوة التوقع . ومع ذلك فإن أحد الشكوك
لا يزال يطاردني ، خشية ألا يصيب الموت كياني كله
وأن تكون نفثةُ الحياة النقية ، وهي روح الإنسان
التي نفخها الله فيه ، باقيةً من المحال أن تفنى
مع هذه المضغة من صلصال الجسد ، وحين أُوارى في القبر
أو في أي مكان رهيب آخر ، فمن يدري
فلعلّني أموت موتًا حيًا ؟ يا لها من فكرة
بشعة إن صَدَقَتْ ! ولكن لماذا الشك ؟ إن نفثة
الحياة وحدها هي التي أخطأت ، وهل يموت إلا ما كانت له حياة
وارتكب خطيئة ما ؟ والجسد في ذاته لا يحقق أيا من هذين الشرطين
وإذن فإن كياني كله سوف يموت ، ولأبعد عنيّ شبح
هذا الشك ، فعلم الإنسان يعجز عن إدراك ما هو أبعد .
ومع أن رب الجميع وكلَّ شيءٍ لانهائيٌّ
فهل غضبه كذلك أيضًا ؟ فليكن ، ليس الإنسان كذلك
بل محكوم عليه بالفناء . فكيف ينزل الله
غضبًا لانهائيا بالإنسان الذي لابد أن يفنيه الموت ؟
هل يستطيع أن يخلق موتًا لا يموت ؟ إن ذلك يعني الوقوع
في تناقض غريب ، وهو ما يعتبره الله نفسه
من المحال ، فهو دليل على
الضعف لا القوة . أم تراه سوف يطيل أمد
المحلد الفاني ، غضبًا ، فيجعله أبديًا

في الإنسان الذي يتلقى العقاب ، إرضاءً لصرامته
التي لا ترضى أبدًا ، وذلك من شأنه توسيع نطاق
عقوبته حتى يتجاوز التراب وقانون الطبيعة
الذي يقضي بأن يجري عمل جميع الأسباب
وَفْقًا لطبيعة المادة التي تؤثر فيها هذه الأسباب
لا وَفْقًا لطبيعة هذه الأسباب نفسها . ولكن فلنقل
إن الموت لن يجيء ضربةً واحدة ، كما كنت أفترض ،
فيسلب الحس والإدراك ، بل في صورة شقاء لا ينتهي
من هذا اليوم إلى الأبد ، وهو ما أشعر أنه بدأ
في باطني وفي ظاهري ، وسوف يظل
سرمديًا ! واهًا لي ، والخوف
يعود إليّ راعدًا منذرًا بانقلاب رهيب
على رأسي العزلاء ، فأنا والموت
أصبحنا خالدين ، وكلانا جسد واحد ،
بل ولست في ذاتي فردًا واحدًا ، ففي شخصي يتحمل
الخَلْفُ كلهم اللعنة ، فما أَحْسَنَهُ من تراث
سأخلفه ولا شك لكم يا أبنائي ! ليتني كنت قادرًا
على إهلاكه كله بنفسي ، فلا أترك لكم شيئًا !
فإذا حُرمتم من الميراث فكم من البركات سوف أنال منكم
وأنا الذي أمثّل لعنتكم الآن ! عجبًا ! لماذا يكتب على البشر كلهم
أن يدانوا بجريرة رجل واحد دون ذنب
إذا كانوا أبرياء ؟ ولكن من عساي أن أنجب

إلا الفاسدين الذين انحطت عقولهم وإرادتهم
لا في ما يفعلون فقط ، بل أيضًا في إرادتهم فعل ما فعلته
نفسه ؟ كيف يستطيعون إذن تبرئة أنفسهم
في نظر الله ؟ إنني أجدني بعد كل هذه الحجج المتصارعة
مرغمًا على تبرئته ، وجميع مراوغاتي لا طائل تحتها
وجميع أدلتي المنطقية ، وإن سلكت دروبًا ملتوية ، تؤدي بي دائمًا
إلى إدانة نفسي ، أي إلى ذاتي أولاً وأخيرًا ،
وإلى ذاتي وحدها ، فهي المصدر والمنبع
للفساد كله ، ويقع الذنب كله عليّ بالحق ،
فليت غضبة الله تقتصر عليّ ! أمنية جوفاء ! هل تستطيع أن تَحْمِلَ
ذلك العبء الذي هو أثقل من الأرض وزنًا ،
بل أثقل كثيرًا من الكون كله ، حتى وهو مُقَسَّمٌ بيني
وبين تلك المرأة الطالحة ؟ وهكذا فإن ما ترغب فيه
وما تخشاه يتساويان في تدمير كل أمل
في النجاة ، وينتهيان إلى أنك شقي
لا مثيل لشقائه في الماضي والمستقبل ،
ولا شبيه لك إلا إبليس في الجرم والعقوبة .
يا أيها الضمير ! في أي هوة عميقة من المخاوف
وضروب الذعر أَلْقَيْتَ بي ، حيث لا أجد منها
مخرجًا ، بل أغوص فيها من غور إلى غور أعمق !
وانتهى آدم من بكائه على حاله وحده بصوت مرتفع
في الليل الساجي الذي تغيّر الآن منذ سقوط الإنسان ،

فبعد أن كان مبعث صحة وذا برد رقيق لطيف ، أمسى الهواء الأسود
يصحبه ، وألوان الرطوبة والظلمة المدلهمة الرهيبة ،
وكان يمثل لضميره المذنب
جميع الأشياء في صور من الرعب المضاعف . كان على الأرض
ممدّدًا حيث استلقى ، على الأرض الباردة ، ومثلما أَكْثَرَ
من صبّ اللعنات على خَلْقه ، أَكْثَرَ من اتهام الموت
بالتأخر في الوصول ، منذ الإعلان به
يوم ارتكاب جريرته . وقال: لماذا لا يأتي الموت ،
فيضربني ضربة واحدة أتلقاها بترحيب ضوعف ثلاثًا
ليضع نهاية لي ؟ ألن تفي الحقيقة بوعدها ؟
ألن تسرع العدالة الإلهية بإمضاء عدلها ؟
ولكن الموت لا يأتي عند طلبه ، والعدالة الإلهية
لا تغيّر من مسيرها البطيء بالصلوات والدعوات .
أيتها الغابات ، أيتها الينابيع والتلال والوديان والخمائل ..
كنت أعلّم ظلالك أن تجيبني بأصداء أخرى منذ عهد قريب
وأن ترد عليّ بأناشيد تختلف اختلافًا شاسعًا !
وعندما شاهدته حواء الحزينة وهو في ذلك العذاب ،
وقد غلبها الاكتئاب حيث جلست ، نهضت فاقتربت منه
وحاولت تخفيف آلامه الضارية بكلمات عذبة
ولكنه حدجها بنظرة صارمة وصدّها قائلاً :
اغربي عن ناظري أيتها الحية ، فهو أفضل اسم
يناسبك بعد ارتباطك بها ، فأنت زائفة مثلها

وكريهة مثلها ، ولا ينقصك شيء منها ، إلا أن يصبح شكلك
مثل شكلها ، وأن تتخذي من الألوان الثعبانية ما يفصح
مثلها عن المكر الباطن ، لتحذير جميع المخلوقات منك
منذ الآن ، حتى لا تقع في حبائل صورتك السماوية ، الواجهة
التي تخفي زيفك الجهنمي ! ولولاك
لاستمرت سعادتي ! لولا أنك رفضت - بكبريائك
وضلال غرورك - تحذيري لك في أقل الأوقات أمنًا
وأمانًا ، وازدريت بإصرار
ألاّ يوثق بك ، واشتقت إلى أن تشاهدك العيون ،
ولو كانت عيني الشيطان نفسه ، الذي جاء بالتيه والخيلاء
حتى يحقق مأربه ، لكنك عندما قابلت الثعبان
خُدِعْتِ وغُرّرَ بك ، فأغواك هو ، وأغويتني أنت ،
إذ أوليتُ ثقتي من خُلِقَتْ من ضلع في جانبي ، وتصورتها حكيمة
مخلصة ، ناضجة ، حصينة تمتنع على أي اعتداء ،
ولم أدرك أن ذلك كله كان مظهرًا فحسب
لا صفات راسخة ، وأنه لم يكن سوى ضلع
ملتوٍ بطبيعته ، مُنْحَنٍ منحرف ، وهو ما يتجلّى الآن ،
وقد انتُزِع من الجانب الأيسر الخبيث مني ،
ويَحْسُنُ التخلص منه ، فهو زائد عن الحاجة
وزائد عن عدد أضلاعي الصحيحة . ترى لماذا أقدم الله -
ذلك الخالق الحكيم الذي عَمَرَ السماء العليا
بأرواح من الذكور - على أن يخلق آخر الأمر

هذه البدعة على الأرض ، هذه العورة الجميلة
من عورات الطبيعة ، ولم يملأ العالم فورًا
برجال كالملائكة ليس فيهم إناث
أو يجد أي سبيل آخر لتوالد
الجنس البشري ؟ لو فعل لما وقع هذا الشر
ولما وقعت شرور أخرى مقبلة ، وما لا حصر له
من القلاقل على الأرض بسبب فخاخ الأنثى
والارتباط الضيق بهذا الجنس . فإما أن الرجل
لا يفلح أبدًا في العثور على زوجة مناسبة ، فيتزوج
من يأتي بها إليه الحظ السيىء أو الخطأ ،
وإما أنه لا يوفق في الفوز بمن يتمناها ، إلا فيما ندر ،
بسبب عنادها ، ثم يراها وقد فاز بها
من هو أدنى منه كثيرًا ، وإما أنها تحبه فيحجبها
والداها عنه ، وإما أنه لا يصادف أنسب اختيار له
إلا بعد فوات الوقت ، وقد ارتبطت بغيره وتزوجت
خصمًا لدودًا ، فيكون ذلك مبعث كراهية أو عار ،
وسببًا في وقوع كارثة لا حدود لها
في الأرواح البشرية ، وبلاءً يذهب بالسكينة العائلية .
ولم يَزِدْ آدم ، بل أشاح بوجهه عنها ، ولكن حواء
لم يُثْنها ذلك ولم تَنْفِرْ ، ودموعها تنساب دون توقف ،
وخصلاتها اختلطت وانتثرت ، فألقت بنفسها على قدميه
في استكانة واحتضنتهما ، وهي تَنْشُدُ

إرضاءه ، ثم شرعت تبثه شكواها قائلة :
لا تتخلَّ عني هكذا يا آدم ، ولتشهد السماء على
مدى الحب المخلص والإجلال الذي أحمله في قلبي
لك ، ولقد أخطأتُ عن غير قصد ،
بعد أن خُدعتُ خداعًا مؤسفًا ، إنني أتضرع إليك
راجيةً محتضنةً ركبتيك ألاّ تُثْكِلَني
يا من أحيا به ، فنظراتك الرقيقة ومعونتك
ومشورتك في هذه الشّدة القصوى
هي قوتي الوحيدة وعمادي الأوحد ، فإذا هجرتني
فأين عساي أذهب ، وأين أحيا ؟
وما دمنا لا نزال في قيد الحياة ، فَلْيَسُدْ السلم بيننا
إلا من سويعة إذا اقتضى الأمر ، ولنتكاتف
وقد جمعت بيننا الضّرّاء ، ونوجّه عداوتنا الواحدة
إلى من جعله الحُكْم الصريح عدوًّا لنا
ألا وهو الثعبان القاسي . لا تُوَجِّهْ إذن إليّ
بُغْضَكَ بسبب هذا الشقاء الذي وقع ،
لا توجهه إليّ بعد أن حلّ بي الضياع ، وأصبحت
أكثر شقاءً منك ، ولقد أخطأ كلانا ، ولكنك
أخطأتَ في حق الله فقط ، وأنا أخطأتُ في حق الله وحقك ،
وسوف أعود إلى ساحة الحُكْم ،
حيث أتضرع إلى السماء وألح باكية راجية أن تُرفعَ
العقوبةُ كلها من على رأسك وتُحوّلَ

إليّ أنا ، إذ تسببتُ وحدي في كل ما حَلّ بك من أحزان ،
أنا ، وأنا وحدي ، من ينصبّ عليه بالحق غضبه .
وأنهت حديثها باكية ، معربة عن بَليّتها باستكانة ،
لا تبرح حتى يعود الوئام بعد الإقرار بالخطأ
والندم عليه ، فأثارت في نفس آدم
تعاطفًا وشفقة ، إذ سرعان ما لان قلبه
لها ، وهي التي كانت منذ قليل حياته وبهجته الوحيدة
وغدت تقعى عند قدميه خاضعة حزينة ،
مخلوقة بالغة الحُسْنِ ترجو الصلح معه ،
بعد أن أغضبته بتجاهل مشورته ومعونته ،
فكان كمن جُرّد من سلاحه ، إذ انفثأ غضبه وزال ،
وسرعان ما أعانها على النهوض بكلمات هادئة قائلاً :
كيف تَغْفُلين ويجرفك الحرص البالغ ، في الماضي
والحاضر ، على ولوج ما تجهلين ، إذ ترغبين أن تقع
العقوبة كلها عليك أنت؟! ، ولكن ، واأسفاه !
ليتك تقدرين على احتمال عقوبتك أنت أولاً ، فلسوف تَتَهاوَيْنَ
تحت أثقال غضبته الكاملة ، ولا تُحسّين الآن إلا أهونَها ،
بل إنك لا تتحملين وطأة استيائي . وإذا كانت الصلوات
قادرة على تغيير الأوامر العليا فسوف أُهرع إلى ذلك المكان
فأسبقك إليه ، وأتضرع بصوت أعلى
أن يقع على رأسي الذنب كله ،
وأن يُغفر عن ضعفك وجنسك الواهن ،

فأتحمل الوزر وأقبل انتقاله إليّ .
لكن انهضي ، ولنقلع عن مُحاجّتنا ، أو اتهام
بعضنا البعض ، إذ نواجه تُهَمًا كافية في مكان آخر ، ولنحاول
بجهود الحب أن ننظر في تخفيف
عبء كل منا فيما نتقاسمه من أحزان ،
ما دام الموت المعلن في هذا اليوم ، إذا صدقت نظرتي ،
لن يكون مفاجئًا ، بل شَرٌّ بطيء الخطى
وموت في يوم طويل ، لزيادة العذاب لنا
ولذريتنا (وما أتعسك من ذرية !) بحق الإنجاب .

واستعادت حواء شجاعتها فأجابته قائلة :

أعرف يا آدم - بتجربتي الحزينة -
خِفّة كلماتي في موازينك ،
فلقد ثبت خَطَلُها ،وعاقبتُها العادلة
أثبتت وقوع ما نأسى له ونأسف ، ومع ذلك
فبعد أن أَعَدْتَني ، على ما بي من شر ، إلى موقع
قبول جديد من جانبك ، وأملاً مني في استعادة
حبك ، وهو مصدر الرضا الأوحد لقلبي ،
حية أو ميتة ، فإنني لن أخفي عنك
أية أفكار تشرق في صدري المضطرب
وترمي إلى التخفيف مما نحن فيه من شدائد ،
أو من وقع النهاية ، على مرارتها وأتراحها ، وإن كانت محتملة
نظرًا لما نحن فيه من شرور ، وتقدم خيارًا أيسر .

فإذا كان القلقُ على ذُرّيتنا أَشَدَّ ما يعذّبنا ،
إذ لابد أن يولدوا حاملين حزنًا ما ، وأن يَزْدَرِدَهُم
الموت آخر الأمر ، وإنه لمن الشقاء
أن يتسبب المرء في شقاء الآخرين ،
وهم من أنجبناهم نحن ، ومن أصلابنا انحدروا
إلى هذا العالم الملعون نسلاً يعروه الحزن ، مدركين أنهم ،
بعد حياة من التعاسة ، لابد أن يُمسوا أخيرًا
طعامًا لهذا الوحش الكريه ، فإن في طوقك
أن تمنع الحمل قبل وقوعه ، وتحول دون وجود
نسل غير مبارك ، بعدم إنجابه أصلاً .
لا أطفال لديك الآن ، فلتبق بلا أطفال ،
حتى نخدع الموت بقمع شَرَهِهِ ، ونُرغمه
أن يكتفي بنا نحن الاثنين في إشباع نَهَم معدته .
أما إذا رأيت مشقة وعُسرًا في امتناع الزوجين ،
بعد الأحاديث والنظرات وتطارح الحب ،
عن حقوق الحب المشروعة وعناق الأزواج الرقيق ،
وفي أن تذوي الأشواق ألـمًا دون أمل
أمام محبوب ماثل يذوي كذلك ألمًا
بأشواق مماثلة ، وفي هذا ما فيه من شقاء
وعذاب لا يقلان عن أي شيء نخشاه ،
فدعنا نحرر أنفسنا وذريتنا معًا
مما نخشى علينا وعليهم منه ، ولنعجّل بالنهاية ،

ولنطلب الموت ، فإذا لم نعثر عليه ، قمنا
بأيدينا بالعمل المنوط به ، بأنفسنا لأنفسنا .
لماذا يطول وقوفنا نرتجف تحت وطأة المخاوف ،
التي لا تستبين لنا نهايةً إلا الموت ، وفي طوقنا -
مختارين أقصر الطرق الكثيرة للموت -
أن ندمر الدمار بالدمار ؟

وتوقفت هنا ، أو قل إن اليأس المشبوب
قطع باقي حديثها ، وقد شُغلت أفكارها بالموت
انشغالاً صَبَغَ خَدَّيْها بالشحوب ،
ولكن آدم لم يقتنع بأي شيء في تلك المشورة
إذ كان ذهنه أشد يقظةً ، عامرًا بآمال أرحب ،
فجهد ونشط فكره وأجاب حواء قائلاً :
يا حواء ! إن احتقارك للحياة واللذة ، فيما يبدو ،
يبرهن على أن بداخلك شيئًا أرفع وأسمى
وأشد امتيازًا مما يحتقره عقلك .
ولكن الانتحار الذي تسعيْن إليه يَدْحَضُ
الامتياز الفكري في ذاتك ، ويوحي ضمنًا
لا بالاحتقار من جانبك ، بل بالأسى والندم
على فقدان الحياة واللَّذّة اللّذيْن زاد حبهما عن الحد .
وأما إذا اشتهيت الموت نهايةً قصوى
للشقاء ، وتصورت بذلك أنك تتحاشين
العقوبة الصادرة ، فثقي بأن الله قد زود

غضبة انتقامه بالأسلحة التي أحكم اختيارها
حتى لا يفلح تفاديها بهذا الأسلوب ، وأخاف أكثر من ذلك
ألا يؤدي اختطافنا للموت هكذا إلى الإعفاء من الألم
الذي حُكم علينا بمكابدته ، بل إن مثل هذه الأفعال التي تنم
عن مكابرة ، سوف تدفع ربنا الأعلى إلى
أن يجعل الموت يحيا فينا ، وإذن دعينا نبحث عن
حَلٍّ يحقق المزيد من السلامة لنا ، وأظن
أنني ألمحه الآن ، حين أتذكر وأنتبه إلى
أحد بنود الحكم الصادر علينا ، وهو أن ذريتك سوف تسحق
رأس الثعبان ، وهو تعويض طفيف إلا إذا كان
المقصود به ، وهو ما أحدس ، عدونا الأكبر
إبليس ، الذي تمثل بالثعبان حتى يدبّر
ويوقعنا في هذه الخُدعة ، وسحقُ رأسِهِ
انتقامٌ حقيقي ، ونحن نضيّع هذه الفرصة علينا
إذا قررنا الانتحار أو عدم إنجاب الأطفال ،
وهو ما تقترحينه ، وهكذا سوف يتمكن عدونا
من الإفلات من عقابه المقدّر له ، ونكون نحن
قد ضاعفنا العقاب على رأسينا بدلاً منه .
فلنكفّ إذن عن الحديث عن إزهاق
أرواحنا وتَعَمُّد العُقْم
فذلك يقطع علينا حبل الأمل ، وينحصر مذاقه في
البغضاء والكبرياء ، والتعجّل والازدراء ،

والتمرد على الله وعلى تَيره العادل
الذي وضعه في أعناقنا . اذكري كيف أبدى اللطف
والكرم في استماعه إلينا والحكم علينا
دون غضب أو سباب ، وكنا نتوقع
الفناء فورًا، وهو ما ظَنَنَّا
أنه المقصود بالموت ذلك اليوم ، وإذا به
يقتصر على التنبؤ لك بمكابدة آلام الحملِ
وهي سرعان ما تُنسى بعد الوضع ، وتُكَافَأُ بالفرح ،
بثمرة رحمك . وأما لعنتي فهي أن أنحني
منكبًا على الأرض ، إذ لابد أن أجهد حتى أكسب
خبزي ، وما الضررِ في ذلك ؟ البطالة مصير أسوأ !
عملي سوف يقيم أَوَدي ! وحتى لا يؤدي البَرْدُ
أو الحر إلى إيذائنا ، تدخلت عنايته في الوقت المناسب
لحمايتنا منهما دون أن نطلب ذلك ، ويبديه
ألبسنا ملابس لا نستحقها ، مُبْدِيًا الشفقة أثناء الحكم .
فإلى أي مدًى أبعدَ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه
فيفتحُ أذنيه لنا ويميلُ قلبه للرأفة بنا
فيعلّمنا المزيد عن وسائل اتقاء ما تأتي
به فصول العام القاسية من مطر وجليد وبرَدٍ وثلوج
وهو ما بدأت السماء الآن ، بوجهها المتقلب ،
تبديه لنا في هذا الجبل ، والرياح
تهب عاتيةً مطيرةً صرصرًا ، فَتُشَتِّتُ الخصلاتِ الرشيقةَ

لهذه الشجرات الجميلة الظليلة ، وهو ما يقتضي منا أن نَنْشُدَ
دَثَارًا أفضل ودفئًا أقدر على صون
أطرافنا التي أصابها الخَدَر قبل أن يأفل نجم النهار
تاركًا الليل للزمهرير ، فنرى كيف نجمعُ ونركزُ أشعته
بعدسة محدّبة على بعض المواد الجافة فتشتعل ،
أو نقدح الزند باصطكاك جسمين واحتكاكهما
فَيَنْطَقُّ في الهواء الشرار ، كما رأينا السحب منذ قليل
تصطرع أو تدفعها الريح الجائحة فتصطدم
وتوقد البرق في خطوط مائلة ، فيُنزل ألسنة نيرانه المتقاطعة
فيشعل اللحاء الصمغي في أشجار السرو أو الصنوبر
ويرسل حرارة لطيفة من بعيد ،
وقد نستعيض بهذا اللهيب عن حرارة الشمس ، ونستعمل تلك النار
وسواها مما يصلح للتغلب على آثار
الشرور الناجمة من سوء أفعالنا أو الشفاء منها ،
ولسوف يعلّمنا إياها حين ندعوه ، ونسأله إياها كرمًا منه ،
متضرعين إليه ، ومن ثم لن نخشى
أن نقضي هذه الحياة في بحبوحة ، معتمدين عليه
وعلى ما يزودنا به من وسائل الراحة الكثيرة ، حتى ننتهي
إلى التراب ، راحتنا الأخيرة ، وموطننا الأصيل .
وخيرُ ما نفعل الآن هو أن نعود إلى المكان
الذي أصدر علينا الحكم فيه فنسجد
أمامه في إجلال وتعظيم، ونعترف هناك

في تواضع بأخطائنا ، ونتوسل طالبين المغفرة ، ودموعنا
تروي الثرى ، وآهاتنا في الهواء صاعدةً
تتزاحم ، مُرْسَلَةً من قلبين نادمين ، آيةً
على الحزن الصادق ومَذَلَّةِ المَسْكَنَة .
لا شك أنه سوف يلين ويتحول
عن سخطه ، وهل رأينا في نظراته الصارمة ،
حتى حين بدا في أقصى حالات الغضب والقسوة ،
إلا الحب والكرم والرحمة ساطعة جلية ؟
وفرغ والدنا التائب من حديثه ، ولم تكن حواء
تشعر بندم أقل ، وعلى الفور عادا
إلى المكان الذي أصدر الحكم عليهما فيه فسجدا
أمامه في إجلال وتعظيم ، واعترف كلاهما
في تواضع بأخطائهما ، وتوسلا طالبين المغفرة ، بدموع
تروي الثرى ، مرسلة من قلبين نادمين ، آية
على الحزن الصادق ومذلة المسكنة .

الكتاب الحادي عشر

الكتاب الحادي عشر
الموضوع

يقدم المسيح إلى الله صلوات أبوينا الأوّلين في أثناء توبتهما ويتشفع لهما ، ويتقبلهما الله ولكنه يعلن أنه لا مناص من خروجهما من الفردوس، ويرسل ميكائيل مع عصبة من ملائكة الشاروبيم لنزع ملكية الفردوس منهما، لكنْ ليكشف لآدم أولاً عن الأحداث المقبلة ؛ وصفُ نزول ميكائيل ؛ آدم يُطلع حواء على بعض النُّذر ، ويلمح ميكائيل مقبلاً فيخرج لملاقاته ، ويعلن لها المَلَكُ عن إخراجهما من الفردوس ؛ تندب حواء حالهما ، ويحاول آدم الاستعطاف ثم يستسلم ، يمضي به المَلَكُ صاعدًا إلى تل مرتفع ويعرض أمامه رؤيا لما سوف يحدث حتى الطوفان .

وهكذا ظلاّ ساجديْن سجود المسكنة والتوبة
في صلاتهما ، إذ نزلت الرحمة من مقعد الرحمة العلوي ،
وهي الرحمة التي تسبق كل شيء ، فنزعت
من قلبيهما أي تحجر ، وجعلتهما يكتسيان لحمًا جديدًا
تجدّد ونما ، حتى تصاعدت الآن أنّاتٌ
لا يُنطق بها ، تأخذ من روح الصلاة
إلهامها ، وتطير مجنّحة إلى السماء بأسرع مما تصعد
أعلى الخطب صوتًا ، لكنهما لم يكونا في هيئة

صاحب الظُّلامة الوضيع ، بل ولم تكن دعواتهما
أقل وزنًا من دعوات زوجين من القدماء
تحدثت عنهما أساطير الأولين ، وهما أقرب إلينا منهما زمنا ،
وهما «ديوكاليون» وزوجته «پيرا» اللّذيْن رفعا الدعاء
بإعادة الجنس البشري إلى الوجود بعد الغرق ، واقفيْن
في ضراعة وورع في معبد «تيمس» . وصعدت صلواتهما
إلى السماء دون أن تضل الطريق بسبب الرياح الحسود
أو التي تهب شاردة أو معترضة ، ودخلت الدعوات
بلا أبعاد مادية من الأبواب السماوية ، ثم اكتست
بالبَخُور ، وشاع دُخانه في المذبح الذهبي ،
بالقرب من شفيعهما العظيم ، حتى ظهرت
أمام عرش الله ، وهنا قام المسيح فرحًا
بتقديمها ، وبدأ شفاعته قائلاً لله :
انظر أولى الثمار التي خرجت على الأرض
من فضلك الذي غرسته في الإنسان ، هذه الأنّات
والصلوات ، التي اختلطت في المبخرة الذهبية
بالبَخور ، ها أنذا كاهنك آتيك بها ،
ثمار أطيب رائحةً ، وقد نبتت من بذورك التي
بذرتها مع الندم في قلبه ، من الثمار التي
زَرَعَتْها يداه فأخْرَجَتْها جميع الأشجار
في الفردوس ، أو كانت لتخرجها ، قبل أن يسقط من مقعد
البراءة . والآن افتح أذنيك إذن

للضراعة ، واستمع إلى أنّاته وإن لم تتكلم ،
إذ لا حذق لديه في اختيار كلمات الدعاء ، فلأكن أنا
الشارح له والمفسر ، ولأكن أنا شفيعه
وكفارة خطاياه ، واضْمُمْ إليّ جميع أعماله ،
الحسن منها والسّيىء ، ضمّا وثيقًا كتطعيم الفرع بالغصن ، وامتيازي
سيرفع الحسنات إلى مصاف الكمال ، وموتي سوف يدفع ثمن السيئات .
تَقَبَّلْني وتقبّل في شخصي من هذين
روح السلام تجاه البشرية ، واسمح له أن يعيش
بين يديك في صُلْح ، فأيامه - على الأقل -
معدودة ، رغم الأحزان ، حتى يأتي الموت وهو الحكم الصادر عليه
(وأنا أناشدك اللُّطف فيه لا الرجوع عنه)
فيسلمه إلى حياة أفضل ، حيث يقيم معي
جميع من ذاقوا الخلاص على يَدَيَّ ، في فرح ونعيم ،
فيتوحّدون معي مثلما أتوحّد أنا وأنت .
ورد الله في صَفَاءٍ ، ودون سحائب في محياه قائلاً :
أُوتيتَ سُؤْلَكَ كُلَّه من أجل الإنسان ، يا كلمتي المقبولة ،
فكل ما طلبتَه كنتُ قد قضيتُ به ،
لكنه لن يستطيع الإقامة في الفردوس بعد الآن
إذ يحول القانون الذي سَنَنْتُهُ للطبيعة دون ذلك
فالعناصر الخالدة النقية التي لا تعرف
الشوائب ، ولا سوء الاختلاط والتنافر ،
تلفظه الآن بعد أن اكتسب ما يشينه ، وتتطهر منه

تطهرها من العَكَر ، فهو غليظ يتنفس هواء غليظًا
ويأكل طعام الفناء ، وهو خير ما يجعله رهنًا
للانحلال الذي تسببت الخطيئة فيه ، فكانت أول
ما عكّر جميع الأشياء وأتت إلى الصالحين
بالفساد . وكنت وهبت له أولاً هديتين جميلتين
عندما خَلَقْتُه وأَنْعَمتُ بهما عليه ، وهما السعادة
والخلود ، فأضاع الأولى بغبائه الساذج ،
ولم تؤد الأخرى إلاّ إلى سرمد أحزان ،
حتى أتيتُ بالموت ، فأصبح الموتُ
علاجه الأخير ، والحياة الأخرى التي
يتأهل لها بمكابدة شاقة ؛ وبعد أن يهذبه
الإيمان والأعمال التي تُصَدِّقُ الإيمان ، يحيا حياة ثانية
فيُبعث من مرقده يوم نشور الأبرار
مسلمًا نفسه للسماء والأرض الجديدتين .
ولكن فلأَدْعُ الآن إلى اجتماع يحضره جميع المباركين
من أقطار السماء الرحيبة ، فلن أخفي عنهم
أحكامي وما أفعله بالإنسان ،
مثلما شاهدوا ما فعلته من قبل بالملائكة الخاطئين ،
وهو ما زاد إيمانهم تثبيتًا ، على ثباته الأصيل .
وانتهى من كلامه فأشار المسيح إشارة عليا
إلى المساعد الوضاء القائم بالحراسة ، فنفخ في
بوقه ، وربما كان قد دوّى صوته فوق جبل حوريب

يوم أن نزل الله لموسى ، وربما سيُنفخ فيه هو نفسه
للقيامة في يوم الحساب . وترددت أصداء بوق المَلَك
فملأت جميع الأصقاع ، فنهض أبناء النور من خمائل النعيم
بظلالها التي لا تذوي أبدا ، ومن الينابيع أو العيون ،
ومن ضفاف نهر الحياة ، حيثما كانوا يجلسون
تربطهم روابط أخوّة من الفرح ، واستجابوا
مسرعين ، مُلبيّن أمر استدعائهم السامي
واتخذوا مقاعدهم حتى بدأ القدير من عرشه الأعلى
في النطق بإرادته ذات السيادة الملكية قائلاً :
يا ملائكتي ! لقد أصبح الإنسان يعرف مثلما
نعرف الخير والشر ، منذ أن تذوق
تلك الثمرة المحرمة ، ولكن فلندعْه يفخر
بمعرفته بالخير الذي ضاع وبالشر الذي أتاه ،
وكان بيده أن يزداد سعادة لو اكتفى بمعرفة
الخير وحده ، ولم يعرف الشر إطلاقًا .
وهو يحزن الآن ويندم ويصلي تائبًا .
وأعلم أن نوازع الخير التي غرستُها فيه سوف تبقى في
قلبه ، وأعلم مدى تقلبه وغروره إن
تُرك لشأنه . وهكذا فقد قررت - حتى لا تمتد يده
التي ازدادت جسارة إلى شجرة الحياة أيضًا فيأكل منها
ويعيش إلى الأبد ، أو أن يحلم على الأقل
بأن يعيش إلى الأبد ، قررت أن أطرده

وأن أخرجه من الجنة حتى يفلح
الأرض التي أُخذ منها ، فهي تُرْبةٌ أنسبُ له .
يا ميكائيل ، إنني أكلفك بالمهمة التالية :
خذ معك من بين ملائكة الشاروبيم
من تختاره من المقاتلين المتقدين حماسًا ، حتى لا يهب الشيطان ،
سواء لأمر يتعلق بالإنسان ، أو للاستيلاء على
ممتلكات بلا صاحب ، فيثير متاعب جديدة .
أسرع وأَخْرِجْ من فردوس الله
الزوجين الخاطئين ، دون أن تأخذك بهما شفقة ، واطرد
من الأرض المقدسة من عصيا الله ، وأَعْلِنْ
لهما ولذريتهما الحُكْمَ بالنفي منها
نفيًا دائمًا . وحتى لا يخور عزمهما
عند سماع العقوبة المحزنة التي لابد من تنفيذها بصرامة
(إذ إنني أراهما –وقد لان قلباهما– يذرفان العبرات
نَادِبَيْن ما فرط منهما) عليك أن تحجب كل ما تحمله من رعب .
فإذا أطاعا أمرك صابريْن
فأخرجهما غير آسف ولا نادم ، واكشف
لآدم عما سيأتي في الأيام المقبلة
كما سأشرح لك ، ولتمزج بحديثك
عهدي ، وهو الذي أجنّده في ولد العذراء ،
أخرجهما إذن في سلام ، على ما في الخروج من أسى .
وأقم على الجانب الشرقي من الجنة ،

حيث يمتد المدخل صاعدًا بيسر من عدن ،
حُرّاسًا من ملائكة الشاروبيم ، وسيفًا ذا لهيب يبرق
ويُلَوِّحُ به في كل اتجاه ، ليرد عن بعد كل من يريد الاقتراب ،
وليحرس كل الدروب المؤدية إلى شجرة الحياة ،
حتى لا تحل في الفردوس أَيَّةُ
أرواح شريرة ، وحتى لا تقع كل أشجاري فريسة لها ،
تسرق منها الثمار لتخدع الإنسان مرة ثانية .
وانتهى من حديثه فتأهب الملاك الأكبر ذو السلطان
للنزول مسرعًا ، تصحبه فرقة وضاءة
من الحراس من ملائكة الشاروبيم ، ولكل منهم أربعة أوجه ،
كأنه الإله «يانوس» مضاعفًا ، وكان هيكله
حافلاً بالعيون المتناثرة التي يزيد عددها عن
عيون «أرجوس» ، ويقظتها لا يغلبها النعاس ،
ولو بسحر مزمار «أركاديا» ، القصبة الرعوية
التي ينفخ فيها «هيرميس» ، أو عصاه المخدّرة . وفي أثناء ذلك
صَحَتْ فَحيَّتْ العالم من جديد بالنور القدسي
ربةُ الفجر «ليوكوثيا» ، ونثرت الأنداء النضرة فعطّرت
الأرض ، وكان آدم والأم الأولى حواء
قد انتهيا من صلواتهما ، ووجدا في أنفسهما
قوة جديدة أَضْفَتْها السماء عليهما ، وأملاً قشيبًا ينبع
من باطن اليأس ، وفرحًا ما ، وإن خالطه الخوف .
وعاد آدم إلى الحديث إلى حواء بكلمات لاقت الترحيب قائلاً :

يا حوّاء ! ما أيسر أن يُقر الإيمان بأن كل
ما نتمتع به من خير ينزل علينا من السماء ،
لكنه قد يبدو من الصعب الاعتقاد بأن يصعد إلى السماء
شيء من قِبلنا فيكون من قوته أن يشغل بال
الله ذي البركات العليا ، أو أن يستميل مشيئته ؛
وقد يبدو الإيمان بذلك صعبًا ، ولكن الصلاة قادرة عليه ،
بل قد تقدر عليه أنّةٌ قصيرةٌ واحدةٌ من أنفاس الإنسان
تصعد حتى تبلغ عرش الله نفسه . فمنذ أن سعيت
إلى التوسل بالصلاة لإرضاء الإله الغاضب ،
فركعت وأَذْلَلْتُ قلبي كاملاً بين يديه ،
وأنا أتصور أنني أراه وقد لان جانبه ، يقبل إرضائي له ،
ويفتح أذنه لكلماتي ، وازداد في نفسي الاقتناع
بأنه يميل إلى تقبل ما يسمع مني ، فعادت الطمأنينة
إلى مقرها في صدري ، وعاد إلى ذاكرتي
ما وعد به قائلاً :إن ذريتك سوف تسحق عدونا ،
ولم أكن انتبهتُ إلى ذلك وأنا في غمرة حزني ، ولكنه الآن
يؤكد لي أن مرارة طعم الموت
قد مضت عنا ، وأننا سوف نحيا . ومن ثم فالسلام عليك
يا حواء ، اسمك الذي يناسبك ، فأنت أم البشر جميعًا ،
حواء أم الأحياء كلهم ، فمن خِلالِك
سوف يحيا الإنسان ، وتحيا كل الأشياء من أجل الإنسان .
وأجابته حواء بتواضع ونبرات جِدٍّ قائلة :

ما أبعدني عن الجدارة بهذا اللقب ،
أنا التي أخطأت ، وبعد أن خلقني الله لك
ساعدًا وعضدًا ، أصبحت الفخ الذي أُوقِعْتَ فيه ؛ اللومُ إذن
هو الجدير بي ، والشكُ وكل قَدْحٍ أستحقه .
ولكن القاضي الذي أصدر حكمه عليّ كان ذا غفران لا حد له ،
إذ كرّمني ، وأنا أول من أتى بالموت للجميع ،
بأن جعلني مصدر الحياة ، وأنزلني المنزلة التالية لك في حبه
وأنعم عليّ متفضلاً بهذا اللقب السامي
وأنا الذي استحق اسمًا أبعد ما يكون عنه . ولكن الحقل
يدعونا إلى العمل الآن وبذل العرق المفروض علينا
ولو أننا بِتْنا الليل سهادًا ، إذ انظرْ تَرَ الصباح
لا يشغله شيء من تعبنا ، وقد بدأ
مسيرته الوردية مبتسمًا ، فلننطلق إذن ،
ولن أفارق صحبتك منذ الآن أبدًا ،
مهما يكن مكان عمل يومنا ، وإن كنا قد أُمرنا الآن ببذل
الجهد والعمل حتى يذوي النهار ، وما دمنا نسكن هنا
فما الذي عساه أن يجلب التعب في هذه المسارات الممتعة ؟
فلنَعِشْ هنا ولو في منزلة السقوط ، راضيِيْن .

هكذا تكلمت وهكذا تَمَنَّتْ حواء التي ازدادت تواضعًا ، ولكن القدر
لم يشاركها الرأي ، وأبدت الطبيعة أولاً آياتها التي تجلت
في الطير والحيوان والهواء ، فَخُسِفَتْ الشمسُ وأَظْلَمَ الجُو فجأة
بعد حمرة الشروق المقتضبة ، وبالقرب منها شاهدت

العُقاب، طائر «جوبيتر»، ينقض من تحويمه السامق
ويطارد طائرين ريشهما بهيج الألوان،
وهبط من التل الحيوان الذي له المُلْكُ في الغابة،
وقد أصبح صائدًا لأول مرة، فطارد زوجًا من الحيوانات اللطيفة،
أرق وأجمل حيوان الغاب، ظبيًا وظبية.
وكان الجميع ينطلق مباشرة نحو الباب الشرقي.
ولاحظ آدم ذلك، وشاهد بعينه الطِّراد
وتابعه، فأثاره ذلك بعض الشيء فخاطب حواء قائلاً:
يا حواء! إن تبديلا ما ينتظرنا عن قريب،
وهو ما يبديه الله بهذه الآيات الصامتة في الطبيعة
إما نُذُرًا تفصح عن مقصده، أو تحذيرًا لنا،
إذ ربما كنا واثقين أكثر مما ينبغي من خلاصنا
من العقوبة، ما دمنا قد نجونا من الموت أيامًا،
أما إلى متى، وأي حياة نحياها حتى يحين الحين؟،
فمن يدري، بل الأنكى هو أننا من تراب
وإلى التراب لابد أن نعود وأن نفنى.
وإلا فلماذا نشاهد بأعيننا هذه المزاوجة
في الطِّراد في الهواء وفوق الأرض
في اتجاه واحد وفي الساعة نفسها؟ لماذا حَلَّتْ في الشرق
الظلمة قبل أن يقطع النهار نصف رحلته؟، ولماذا نرى نور الشرق
أشد سطوعًا وتلألؤًا في تلك السحابة الغربية التي تُلقي
على السماء الزرقاء ضوءًا براقًا أبيض؟،

وتهبط ببطء ، وهي تحمل شيئًا سماويًا .
ولم يخطئ آدم ، إذ كانت الفرق السماوية آنئاك
قد هبطت من سماء بلون حجر اليشب ، وحطّت الآن
في الفردوس ، وتوقفت فوق أحد التلال
فكان منظرها رائعًا ، لو لا أن الشك
والخوف البشري في ذلك اليوم أغشيا عين آدم .
كان يزيد في روعته عن منظر الملائكة الذين قابلوا
يعقوب في «مَحَنَايمْ» ، حيث رأى
الميدان وقد ضرب حرسه الوضّاء خيامهم فيه .
بل وعن المشهد الذي تجلىّ فوق الجبل الملتهب
في «دوثان» ، الذي غطاه معسكر النار الذي برز
لملاقاة ملك سوريا حين أراد أن يفاجئ
رجلاً واحدًا فجاء مثل قاتل مغتال وفرض الحرب
دون أن تُعلن الحرب . وأمّا الأمير رفيع الرتبة
فقد كان يقف في موقع الحرس الوضاء ، تاركًا قواته
تستولي على الجنّة ، ومن ثم تقدم وحده
للعثور على مخبأ آدم ، ومضى في طريقه
دون أن تغفل عين آدم عنه ، وهنا خاطب آدم حواء
في أثناء اقتراب الزائر العظيم منهما قائلاً :
حواء ! توقعي الآن أنباء عظيمة ، ولربما
كانت الفيصلَ العاجلَ في أمرنا ، وربما فرضت علينا
قوانين جديدة نلتزم بها ، إذ إنني ألمح

في تلك السحابة المنيرة التي تحجب التل
أحد أفراد الملأ الأعلى ، وتدل مشيته على أنه
ليس من الطبقات الدنيا بل من الأكابر العظماء
أو من أصحاب العروش في السماء ، ما دام مثل هذا الجلال
يكسوه وهو قادم ، ولكنه ليس رهيبًا
فأخافه ، ولا هو لطيف المعشر بشوش
مثل روفائيل ، فأطمئن إليه واثقًا ،
بل هو رزين رفيع ، ولا أريد أن أغضبه
ولابد أن ألاقيه بالتبجيل ، وعليك أنتِ أن تحتجبي .
وصمت آدم ، وسرعان ما اقترب الملاك الأكبر
لا في صورته السماوية ، بل في صورة إنسان
يرتدي ملابس زيارة إنسان ، وفوق ذراعيه الوضيئتين
سُترة حربية أرجوانية فضفاضة
أبهج من أرجوان «مليبوا» أو زركشة ديباج
مدينة صُور ، وهي التي كان الملوك والأبطال القدماء يلبسونها
في زمن الهدنة ، وقد نسج السوسن لُحمتها بألوان قُزح ،
وكانت خوذته ذات النجوم البراقة مرفوعة ، فكشفت عن رجل
في عنفوان الرجولة وقد تخطى الشباب ، وفي جنبه
السيف يتدلّى كأنما يتدلّى في دائرة البروج اللألاءة في السماء ،
وذاك أشد ما يخشاه إبليس ، وفي يده الرمح .
وانحنى آدم لتحيته ، ولكن المَلَك ظل في وقفته الملكية
فلم يبادله الانحناء بل أعلن عن مرمى زيارته قائلاً :

آدم ! إن أمر السماء السامي لا يحتاج إلى مقدمات :
بل يكفي أن أقول إن صلواتك مسموعة ، وإن الموت
الذي حُكم به آنذاك عندما ارتكبت الخطأ ،
قد تأجل تنفيذه أيامًا كثيرة
وُهِبَتْ لك عطفًا وكرمًا ، حتى تتوب فيها
وتعمل الكثير من الأعمال الصالحة التي تستر بها خطيئة واحدة ،
وعندها ربما يرضى ربك عنك حقًا
فيخلصك الخلاص كله من مطالبة الموت النّهم بك ،
أما الإقامة بعد الآن في هذا الفردوس فهو
لا يسمح بها ، ولقد أتيت لطردك
وإخراجك من الجنة حتى تَفْلَحَ
الأرض التي أُخذْتَ منها ، فهي تربة أنسب لك .
ولم يزد على ذلك ، إذ إن آدم عند سماع الأنباء
أصاب الهلع فؤاده فتجمد واقفًا في قبضة الأسى البارد
الذي شل كل حواسه ، وأما حواء التي كانت من مخبئها
قد سمعت كل شيء ، فقد رفعت صوتها تندب مآلها
وسرعان ما كشفت عن مكان اختبائها قائلة :
يا للضربة غير المتوقعة ، والأسوأ من الموت !
ألا بد لي إذن من مغادرة الفردوس ؟ ألا بد أن أغادرك
يا تربة موطني وأترك هذه الممرات والظلال الهنيئة
التي تصلح لسكنى الملائكة ؟ بل وحيث كنت آمل أن أقضي
المهلة التي مُنِحْناها ، في هدوء ولو كان الحزن يغشاه ،

قبل أن يحين يومِ الهلاك لكلينا ؟ أيتها الأزهار
التي لن تنبت أبدًا في جوّ آخر ،
أول ما أزور في البكور ، وآخر ما أزور
في المساء ، يا من رَبَّيْتُها بِيَدٍ حنون
منذ تفتّح البرعم الأول ، وسمّيتُك بأسمائك ،
من الذي سوف يرعاك الآن ويهديك للشمس ، أو يحدد مراتب
عشائرك ، ويرويك من نبع الجنة ؟
وأخيرًا أنت يا خميلة زفافي التي زيّنتُها
بكل ما راق منظره وطاب أريجه ، كيف
افارقك وأنّى تُراني أضرب في شعاب
عالم أدنى ، إن قورن بهذا بدا مظلمًا
موحشًا ، وكيف نتنفس في هواء مختلف
أقل نقاءً ، بعد أن اعتدنا الثمار الخالدة ؟
وهنا قاطعها الملاك الرقيق قائلاً :
لا تندبي مآلك يا حواء ، بل احتملي صابرة
ضياع ما ضاع منك بالحق ، ولا يَتَعَلَّقَنَّ قلبك
ذلك التعلق المفرط الواله بما ليس لَكِ ؛
فلن تذهبي وحيدة بل سيذهب معك
زوجك ، وأنت مُلزمة باتباع خطاه ،
وحيثما يسكن قولي إنها تربة موطنك .

وكان آدم آنذاك قد أفاق من ذهوله البارد المفاجئ وتماثل ، ولَمّ شتات روحه واستعاد رباطة جأشه

فخاطب ميكائيل بكلمات زانها التواضع قائلاً :
أيها السماوي ! سواء كنت من أصحاب العروش ، أو كنت
أعلاهم جميعًا ، فمن له صورتك قد يبدو
أميرًا فوق الأمراء ، ولقد تلطّفت في إخبارنا
برسالتك ، وهي التي لو رُوِيَتْ بأسلوب آخر لجَرَحَتْنا
فجاءت بنهايتنا في أثناء روايتها ، وهل أتت أنباؤك إلا
بالحزن والكآبة واليأس ، في حدود
ما يستطيع ضعفنا أن يتحمله ، أنباء
الرحيل من هذا المكان الهنيء ، مأوانا الجميل
الخبيء ، والعزاء الوحيد الذي لا يزال
مألوفًا لعيوننا ، فسائر الأماكن الأخرى
موحشة في نظرنا تنبو بالإنسان ،
فهي تجهلنا ونجهلها معًا ، ولو كان لي - بالصلاة
الدائمة - أن أطمع في تغيير مشيئة القدير
الذي أحاط بكل شيء علمًا ، لداومت الصلاة
حتى أرهقه بدعواتي الدائبة الجاهدة ،
ولكن قوة الدعاء بتعديل ذلك الحُكْم المطلق الذي أصدره
لا تزيد جدواها عن أنفاس في مهب الريح
لا تلبث أن تعود خانقةً إلى وجه من زفرها ،
ومن ثم فأنا أستسلم لأمره المعظم .
وأما أشد ما يعذبني فهو أن الرحيل من هنا
سوف يحجبني عن وجهه ، فيحرمني

محياه المبارك ، إذ إن لي أن أتردد في هذا المكان ،
للعبادة ، على كل بقعة أنعم فيها علينا
بالحضرة الربانية ، فأقص ذلك على أبنائي ، قائلاً
إنه ظهر على هذا الجبل ، وتحت هذه الشجرة
تجلّى للعيون ، وبين أشجار الصنوبر تلك
سمعت صوته ، وتحادثت معه عند هذا النبع .
ولسوف أقيم هياكل كثيرة لتقديم الحمد والشكر له
من الكلأ والأعشاب ، وأجمع في كومة كل حجر
يتلألأ من الجدول ، تذكارًا
أو أثرًا باقيًا على مر العصور ، وأقدم عليه
القرابين من الأصماغ ذات الرائحة العطرة والثمار والأزهار ،
أما في عالم الدنيا فأين عساي أن أنشد
ظهوره النوراني أو أن أقتفي خطى أقدامه ؟
وإن كنت قد فررت منه في غضب ، فلقد استدعاني
إلى حياة أطول وذرية موعودة ، وأصبحت الآن
أسعد برؤية أقل ما ينبع عنه ولو كانت أقصى أطراف أردان
جلاله ، وأعبد خطو أقدامه على بعدها الشاسع .
ونظر إليه ميكائيل نظرة عطف قائلاً :
آدم ! تعلم أن السماء ملك يمينه والأرض جميعًا .
لا هذه الصخرة فحسب ، فإن وجوده الشامل يملأ
البر والبحر والجو ، وكل نوع من الأحياء
ينشأ ويجري فيه دفء الحياة بفضل قوته ،

ولقد أعطاك هذه الأرض كلها لتحوزها وتحكمها
وليست بالعطية الهيّنة ، فلا تظنَّنَّ إذن
أن حضرته مقصورة على هذه الحدود الضيقة
للفردوس أو عدن ، وربما كانت ستصبح
مقرَّكَ الرئيسي ، الذي تخرج منه وتنتشر
جميع الأجيال ، وربما كانت ستعود إلى هنا
من جميع أطراف الأرض للاحتفال بك
وتبجيلك أنت ، والدها العظيم ،
ولكنك فقدت هذه الرفعة ، وأُنْزِلْتَ
للإقامة في الأرض التي سوّاها مع أبنائك ،
لكن لا يخامرنّك شك في أن الله موجود في الوديان والسهول
مثلما هو موجود هنا ، ولسوف نحس حضرته هناك
مثلما تحسها هنا ، وسوف تجد الكثير من آيات حضرته
تقفوك دائمًا أينما تكن ، وتحيط بك دائمًا
بالخير والحب الإلهي ، وسترى وجه الله
ناطقًا في كل شيء ، وترى الأثر الرباني لخطوه .
وهكذا فلتعلم أنني – إتمامًا لإيمانك وتثبيتًا لفؤادك
قبل أن ترحل من هنا – قد أُرْسِلْتُ
لأطلعك على ما سوف يحدث في قابل الأيام
لك ولذريّتك ، فتَوقَّعْ أن تسمع عن
الخير والشر معًا ، وعن الرحمة الإلهية وهي تنازل
نزوع البشر للخطيئة ، حتى تتعلم من ذلك

الصبر الحقيقي ، وتلطيف الفرح بالخوف
وورع الحزن ، واعتياد تحمل هذا وذاك
بالاعتدال في كل شيء مهما تكن الحالة ،
يُسرًا أم عسرًا ، وهكذا تحيا حياتك
في أقصى سلامة ، وأقصى استعداد لتحمُّل آلام
طريق الهلاك عندما يحين الموعد . اصْعَدْ إذن معي
هذا التل ، ولتَدَعْ حواء (بعد أن خَدَّرْتُ عينيها)
نائمة هنا عند السفح أثناء انفتاح بصيرتك على المستقبل
مثلما غفوت ذات يوم أثناء خَلْقها وتصويرها .
وأجابه آدم بامتنان قائلاً :
اصْعَدْ وسأتبِعُكَ أيها المرشد المأمون في الطريق الذي
تَدُلّني عليه ، ولسوف أُسْلِمُ زمامي ليد السماء
مهما يكن تأديبها لي ، وأعرض للشر
صدري الضعيف ، وقد تسلّحتُ وتدرّعتُ حتى أنتصر
بالمكابدة ، وحتى أكتسب الراحة بالجهد ظافرًا ،
إن كان لي أن أحقق ذلك . وهكذا صعد الاثنان
في رؤى الله ، وكان ذلك التل
أعلى تلال الفردوس ، وبدا من قمته
نصف الكرة الأرضية واضحًا كأوضح ما يكون ،
يمتد شاسعًا إلى أبعد مرمى الطرف .
ولم يكن يُرى ما هو أعلى أو أرحب للناظر حول التل
وهو الذي اصطحب المُغوي ، لأسباب أخرى ، إليه

آدمنا الثاني في البرّية
ليريه جميع ممالك الأرض ومجدها
إذ تستطيع عينُه من ثَمّ أن تلمح كل ما هو قائم وأنّى يقوم
من المدن التي ذاع صيتها في الزمن الغابر أو الحاضر ، مقر
أقوى الإمبراطوريات ، من الأسوار التي ستُبنى حول مدينة
«كمبالوك» ، مقر سلطان «قيطان» ،
و«سمرقند» على ضفاف نهر «جيحون» وعرش «تيمورلنك»
إلى «بكين» وملوك الصين ، ومنها
إلى أجرا و«لاهور» حيث المغوليّ الأكبر
حتى شبه جزيرة «الملايو» الذهبية ، أو حيث
كسرى على إيوانه في ساكتابانز وبعدها
في «إصفهان» ، أو حيث قيصر الروسيا
في موسكو ، أو السلطان في بيزنطه ،
الذي ولد في «تركستان» ، بل ولم يفت عينه أن تلمح
إمبراطورية «النجاشي» حتى أقصى موانيها بُعدًا ، وهو
«أركيكو» والملوك الأقل ركويًا للبحر في
«مومباسّا» و«كيلوا» و«مالندي»
و«صوفالا» التي يُظن أنها «أوفير» ، حتى مملكة
«الكونغو» ومن جنوبها «أنجولا»
أو من ثَمّ ، من نهر «النيجر» حتى جبال أطلس ،
وهي ممالك الملك المنصور ، وفاس ، وسوسة ،
والمغرب ، والجزائر ، وتلمسان ،

ومنها إلى أوروبا ، حيث كتب لروما أن تحكم
العالم ، وربما رأى بروحه أيضًا
بلاد «المكسيك» الغنية ومقر إمبراطورية «مونتيزوما»
و«كوسكو» في «بيرو» ، المقر الأغنى لإمبراطورية
«أتاهوالبا» ، ورأى كذلك المملكة التي لم تكن قد نُهبت بعد ،
وهي «غيانا» ، ومدينتها العظيمة «جريون» ، التي يسميها
أبناؤها «إلدورادو» ، ولكن ميكائيل أزال عن عيني
آدم الغشاوة حتى يشاهد مشاهد أشرف وأنبل ،
وهي الغشاوة التي نجمت عن أكل الثمرة الخادعة
بدلاً مما وُعد به من صفاء البصر ، ثم طهّر بنبات السعد ونبات الخُفْت
العصب البصري ، إذ كُتب له أن يرى مشاهد كثيرة ،
ومن نبع الحياة وضع ثلاث قطرات في عينيه .
وتغلغلت قوة هذه العناصر تغلغلاً بلغ من عمقه
أن وصل إلى أقصى مقرٍّ باطنٍ للبصيرة
حتى اضْطُرَّ آدم إلى إغلاق عينيه ،
وسقط وقد غَشِيَ الذهولُ كلَّ حواسه ،
ولكن المَلَك الرقيق مدّ يده إليه
وسرعان ما رفعه وخاطبه ليستعيد انتباهه قائلاً :
آدم ! افتح عينيك الآن ، وانظر أولاً إلى
ما خلفته جريمتك الأولى من آثار
في بعض الذين سوف ينحدرون من صُلبك ولم يمسوا مطلقًا
تلك الشجرة المحرمة ، ولا تآمروا مع الثعبان ،

ولا أخطأوا خطيئتك ، لكنهم يستقون من تلك الخطيئة
فسادًا أدى إلى ارتكابهم فعالاً أشد عُنفًا .
وفتح عينيه ، فشاهد حقلاً ،
بعضه انتهى حرثه وإعداده للزراعة ، وفيه حُزَمٌ من محصول
حصده الحاصد لتوه ، وبعضه الآخر من مراعي الأغنام وحظائرها ،
وفي وسط الحقل كان مذبحٌ ينتصب ، علامةَ طريقٍ
ريفية ، من الكلأ والعشب ، وسرعان ما أتى إليه
حاصدٌ يتصبب عرقًا من فلاحة الأرض ، حاملاً
بواكير الثمار والسنابل الخضراء والحزمة الصفراء ،
دون انتقاء ، وحسبما وَجَدَ حاضرًا ، ثم جاء راعٍ
أشدُّ تواضعًا وطيبة ، يحمل أوائل حُمْلان قطيعه ،
أحسنَها وأفضَلَها ، وبعد ذبح الأضاحي ، وضع
الأحشاء ودُهْنها ، بعد تعطيرها بالبَخور ،
على الخشبة المشقوقة ، وأدى الشعائر الواجبة كلها .
وسرعان ما هبطت نار من السماء ، بشير تقبل القربان ،
فمالت إليه كلمح البرق والتهمته فتصاعدت الأبخرة اللطيفة ،
ولم تلتهم القربان الآخر ، لأن صاحبه لم يكن مخلصًا
فجاش الغضب في جوفه وانقض على الآخر أثناء حديثهما
بضربة حجر في بطنه
أودت بحياته فسقط وقد شحب شحوب الموت
وخرجت روحه مع أنّاته والدم المتدفق السيال .
وارتاع آدم لهذا المنظر وجَزِعَ قلبُه

جَزَعًا شديدًا فأسرع يهتف بالملَكَ قائلاً :
أيها المُعلّم ! لقد أصاب شَرٌّ عظيمٌ
ذلك الرجل الطيب الذي أحسن تقديم قرابينه
فهل هذا جزاء الورع والعبادة الصادقة ؟
وأجاب ميكائيل ، وقد تأثر أيضًا بما رأى ، قائلاً :
هذان شقيقان يا آدم وسوف ينحدران
من صُلبك ، فالظالم قتل البار ،
إذ حسد أخاه لأن قربانه وجد
من السماء القبول ، ولكن الجريمة الدموية
سوف يُثأر لها ، وإيمان الآخر المقبول
لن يضيع جزاؤه ، رغم أنك تراه هنا ميتًا
يتقلب في التراب والدم المتخثر . ورد آدم قائلاً :
وا أسفا على الفعلة وعلى أسبابها !
ولكن تُرى هل شاهدت الموت الآن ؟ أهذا هو السبيل
الذي لابد أن أسلكه عائدًا إلى التراب موطني ؟ يا له من مشهد
رعب ، شنيع وقبيح للنظر ،
مستنكر للفكر ، وما أفظعه للإحساس !
فقال له ميكائيل : لقد شهدت الموت
في أولى صُوَرِهِ التي تصيب الإنسان ، ولكنّ للموت صورًا
كثيرة ، وكثيرة هي السبل التي تؤدي
إلى كهفه العبوس ، وجميعها رهيب ، ولكن المدخل
أشد إرهابًا للحسّ من باطن الكهف .

فالبعض ، كما رأيت ، سوف يموتون بضربة عنف ،
حَرْقًا أو غَرَقًا أو جُوعًا ، ولكن عددًا أكبر سيموت شَرَهًا
من التهام اللحوم والمشروبات التي ستأتي في الأرض
بأمراض فتاكة ، وستشهد منها حشدًا بشعًا ،
ولسوف يظهر أمامك حتى تعرف
مدى الشقاء الذي سيجلبه طمع حواء
إلى الإنسان . وعلى الفور رأى مكانًا
يظهر أمام عينيه ، فيه حزن وضجيج وظلام
وكان فيما يبدو مستشفى ، وكانت ترقد فيه
أعداد من شتى المرضى ، تعاني من شتى الأسقام ،
من التقلصات الرهيبة ، إلى عذاب المِشَدّ الأليم ، إلى لذعات
علّة القلب المبرّحة ، وجميع أنواع الحمّى ،
والتشنجات ، وحالات الصَّرَع ، وتمزق الأغشية المخاطية الضاري ،
وحصوات الكُلْية والأمعاء وقروحها ، وآلام المغص ،
وهياج الخَبَلِ الشيطاني ، ولوثة الاكتئاب الواجم ،
ونوبات الجنون المتقطعة ، وذبول الأعضاء المهلك ،
والنحول الشديد ، والطاعون الفتاك على نطاق واسع ،
ومرض الاستسقاء ، والربو ، والالتهابات التي تضني المفاصل .
كان تقلبهم على أجنابهم رهيبًا ، وأناتهم عميقة ، واليأس
يرعى المرضى ، بأقصى همّة ، منتقلاً من فراش إلى فراش .
وكان الموت من فوقهم مزهوًّا بنصره وبيده السهم
يَهُزُّه ، ولكنه يتأخر في إطلاقه ، على الرغم من طلبه مرارًا

بالدعوات ، فهو خير ما يأتيهم وآخر آمالهم .
أي قلب قُدَّ من صخر يستطيع أن يشهد هذا المشهد الشائه طويلاً
وينظره فلا تفيض عيناه ؟ لم يستطع آدم ، بل بكى
وإن لم تكن ولدته امرأة ، فالشفقة قد قمعت فيه التجلّد ،
أفضل خصال الرجال ، وأسلمته إلى الدموع
برهة ، حتى جاءته أفكار أصلب فألجمت تفريطه
فعاد للشكوى وما كاد يسترد القدرة على الكلام قائلاً :
يا أيها الإنسان الشقي ، إلى أي مهوى
انحدرت ، وأي بؤس ينتظرك !
خير لك أن تنتهي هنا فلا تولد ، ولماذا وُهِبَتْ لنا الحياة
حتى تُنْتَزَعَ منا على هذا النحو ؟ والأحرى أن نسأل لماذا
فُرِضَتْ علينا هكذا ؟ ومن ذا الذي ، إذا عرفنا
ما نتلقى ، لا يُحْجِمُ عن قبول
الحياة حين تعرض عليه ، أو يسرع بطلب نبذها
سعيدًا بأن يُسمح له بالانصراف في سلام ؟ هل يجوز الحطُّ من
صورة الله في الإنسان ، وهو من خلقه أولاً
في أحسن تقويم مرفوع الهامة ، وإن شابه النقص بعدها ،
حتى تتعرض لمهانة هذه المعاناة القبيحة
وتتحمل آلامًا لا قبل للإنسان بها ؟ لماذا لا يكون الإنسان ،
الذي لا يزال يحتفظ بالشبه الإلهي
من بعض جوانبه ، بريئًا من هذه الملامح الشائهة
ومعفًى منها ، من أجل صورة خالقه ؟

وأجابه ميكائيل قائلاً : إذن فصورة خالق البشر
قد تخلت عنهم عندما خفضوا بأنفسهم مراتبهم
ليعبدوا شهوة لا ضابط لها ولا رابط ، وأصبحت
صورة الذي يعبدونه وسيلة للرذيلة الحيوانية
التي تؤدي أساسًا إلى خطيئة حواء .
وهكذا كان عقابهم شنيعًا ، وهو
لا يشوه شبههم بالله ، بل يُشَوِّهُ ملامحهم هم ،
وإن شُوِّهَ الشَّبَهُ ، فبأنفسهم شَوَّهُوه ،
في غمار انحرافهم عن قواعد الصحة الطبيعية الطاهرة وتحويلها
إلى مرض مقيت ، فهم يستحقون ذلك لأنهم
لم يُبَجِّلوا صورة الله في أنفسهم .
ورد آدم قائلاً : أُقِرُّ بأن هذا عدل وأسلِّم به .
ولكن ألا توجد بعدُ سبل أخرى ، إلى جانب
هذه المسالك والدروب الأليمة ، تفضي
إلى الموت ، وإلى الامتزاج بالتراب المماثل لطبيعتنا ؟
فقال ميكائيل : بل سترى السبل الأخرى إن راعيت بدقة
قاعدة عدم الإفراط ، فتعلمت الاعتدال
فيما تأكل وفيما تشرب ، طلبًا
للغذاء اللازم لا متعة الشَّرَه ،
حتى تدور سنوات كثيرة وتتكدَّس فوق رأسك .
وهكذا تظل حيا حتى تسقط مثل الثمرة الناضجة
في حِجْر أمك ، أو تُقْتَطَفَ بسهولة ويسر ،

ولا تنتزع بمشقة وعسر ، وقد استويت للموت .
هذا هو الهَرَم ، ولكنه يعني أيضًا أنك لابد أن تجاوز
شبابك وقوتك وجمالك ، وهي التي ستتحول
إلى ذبول ذاوٍ ووَهْنٍ وشَمَطٍ ، وتصبح حواسك
ثَلِمَةً ، ولا مناص من هجر مذاق مسراتك كلها ،
والاكتفاء بما لديك ، وبدلاً من جو الشباب
العامر بالأمل والمرح ، ستسود دماءَكَ
نزعةُ اكتئاب محبطة ، باردة وجافة ،
ترين على نفَسك وتُثْقِلُها ثم تمتص آخر الأمر
رحيق الحياة. ورد عليه سَلَفُنا قائلاً :
لن أهربَ من الموت بعد الآن ، ولن أطيل
الحياة كثيرًا ، بل سأنظر كيف أستطيع التخلص
بأعدل الوسائل وأيسرها من هذا العبء الثقيل
وهو الذي لابدّ لي من حمله حتى اليومِ المحدد
لتسليمي إياه ، منتظرًا بصبر موعد
انحلال بدني . وأجابه ميكائيل قائلاً :
لا تحبَّ حياتك ولا تكرهها ، بل اقْضِ ما تحياه من زمن
على خير وجه ، واترك للسماء تحديد طوله أو قصره .
والآن خذ أهبتك لرؤية مشهد آخر .
ونظر آدم فرأى سهلاً رحيبًا ، ضُربت فيه
خيامٌ ذات ألوان شتى ، وبجانب بعضها قطعان
من الأبقار ترعى ، ومن داخل البعض الآخر ارتفعت أصوات

آلات موسيقية بألحان عذبةٍ مُرِنّةٍ من
القيثار والأرغن ، سمعها آدم وشاهد الذي يعزف
على الأوتار والمفاتيح ، وكانت لمساته تطير خِفّةً
بقوة فطرية عبر جميع النغمات المتناسبة انخفاضًا وارتفاعًا
ساربة تطارد رَجْعَ الأصوات المتعارضة الرنانة .
وفي جانب آخر وقف رجل أمام كور الحدّاد
يعمل بجد ، إذ كانت كتلتان عظيمتان من الحديد والنحاس
قد انصهرتا (وربما كان وجدهما حيث شبت النار عَرَضًا
فأحرقت الغابات على الجبل أو في الوادي ،
فسالتا في عروق الأرض وانسابتا ساخنتين
حتى مدخل أحد الكهوف ، وربما جرفهما أحد الأنهار
من تحت الأرض) فصبّ الخام المعدني السائل
في القوالب المناسبة التي كان قد أعدها ، ومنها شكّل
أولاً أدواته ، وبعدها كل ما يمكن صنعه
بالصهر أو الحفر في المعادن . وبعد هذين ،
ولكن على السفح القريب ، جاء نوع مختلف من الناس
من التلال العالية المجاورة ، حيث مقر إقامتهم ،
فنزلوا إلى السهل ، وكان مظهرهم يدل على أنهم
رجالٌ أبرار ، وكانت جهودهم جميعًا موجهةً
لعبادة الله عبادة صادقة ، وتدبّر أعماله
غير الخبيئة ، وغير العلل القصيّة التي من شأنها الحفاظ على
الحرية والسلام للبشر ، وهناك على السهل

وقبل أن يسيروا طويلاً ، إذا بزمرة تخرج من الخيام ،
زمرة من الفتيات الجميلات ، حافلات بكل بهيج
من الجواهر والملابس اللاهية ، ويغنّين على أنغام القيثار
أغاني حب رقيقة ، ثم أقبلن راقصات .
وعلى الرغم من وقار الرجال فقد تطلّعوا إليهن ، وسمحوا لعيونهم
أن تتجول دون لجام ، وسرعان ما وقعوا في شباك الهوى
فأحب كل منهم واحدة واختار مَن أحبها .
ثم أخذ الجميع يتطارحون الغرام حتى ظهر كوكب المساء
بشير الحب ، ومن ثم اتقد الجميع حماسًا
فأضاءوا مشعل الزفاف ، وطلبوا استدعاء رب الزواج
«هايمن» ، فكانت أول مرة يُستدعى فيها إلى طقوس الزفاف ،
وترددت أصداء الاحتفال والموسيقى في جميع الخيام
وشاهد آدم جمال ما يجري ، وهناء التلاقي
بين المحبين ، والشباب الذي لم يضع بعد ، والأغاني وطاقات الأزهار ،
وسمع الموسيقى المتناغمة الساحرة ، فتعلق بها قلب
آدم ، وسرعان ما أقر بفرحته ،
وهي النزعة التي أملتها الطبيعة ، والتي عبر عنها قائلاً :
يا من فتحتَ عينيّ حقًا وصدقًا ، أيها الملاك الكبير المبارك !
هذه الرؤيا تبدو لي أحسن كثيرًا ، وتبشر بأمل أكبر
في أيام سلام وطمأنينة ، من الرؤيتين السابقتين
اللتين كانتا تتناولان الكراهية والموت ، أو آلامًا أشد وطأة ،
أما هنا فيبدو أن الطبيعة قد حققت كل غاياتها .

ورد عليه ميكائيل قائلاً : لا تحكم بالفضل لشيء
بمقياس المتعة ، وإن كان يبدو متسقًا مع الطبيعة ،
إذ خُلق ، مثلما خُلِقْتَ ، لتحقيق غاية أسمى
وأقدس وأطهر ، ألا وهي الانصياع للرب .
إن تلك الخيام التي رأيتها بالغة البهجة ، كانت خيام
شرور وآثام ، وسوف يقيم فيها نسلُ
الذي قتل أخاه ، وهم الذين يبدون عاكفين
على الفنون التي تصقل الحياة وتهذبها ، مخترعين لا مثيل لهم ،
لا يذكرون في الواقع خالقهم ، رغم أن روحه هي التي
علمتهم ، لكنهم لم يعترفوا بأي نعمة من نعمه .
ومع ذلك فسوف ينجبون ذرية جميلة ،
إذ إن تلك الزمرة من النساء الجميلات التي رأيتها ، والتي بدت
من الملائكة ، بالغة المرح والرقة والابتهاج ،
تفتقر في الواقع إلى أي خير يتمثل فيه
شرف المرأة في المنزل وأول ما تمتدح به،
إذ نشأْنَ فتَرَعْرَعْنَ ودَرَجْنَ على مذاقٍ أوحد
هو مذاق الرغبة الشهوانية ، والغناء والرقص ،
وارتداء الملابس الجميلة ، والحديث المنمق ، ونظرات الفتنة .
وسوف يهفو إليهن فريق من العقلاء أَهَّلَتْهُمْ حياتهم
الدينية لإطلاق كُنْيَةِ أبناء الله عليهم ،
وسوف يسلمون لهنّ فضيلتهم كلها وصيتهم كله تسليمًا
مخزيًا ، واقعين في حبائل وبسمات

تلك الملحدات الجميلات ، فهم يسبحون الآن في بحر المرح
(وسرعان ما يسبحون في التيه) ويضحكون ، ولقاء ذلك
سرعان ما يذرف العالم عالمًا من العبرات .
ورد عليه آدم بعد أن حُرِم فرحته المقتضبة قائلاً :
يا للأسى والعار ! كيف يتحول الذين ينشدون الصلاح
ويبدأون بداية طيبة فينحرفون لاعتساف
طرق ملتوية ، أو يُغشى عليهم في منتصف الطريق !
لكنني ما زلت أرى أن جوهر أحزان الإنسان
لم يتغير ، وأنه يبدأ من المرأة .
وقال المَلَكُ : بل إنه يبدأ في التراخي الأنثوي للرجل ،
فالواجب يقضي بأن يشغل مكانه كما ينبغي
بالحكمة وبالمواهب الفائقة التي تلقّاها .
لكن تأهب الآن لمشاهدة مشهد آخر .
ونظر آدم فرأى أرضًا رحيبة تنبسط
أمامه ، فيها بلدان ومنشآت ريفية فيما بينها ،
ومدن يعمرها البشر ذات أبواب وأبراج عالية ،
ومواجهة عسكرية ، ووجوه ذات شراسة تهدد بالحرب ،
وعماليق عظامهم صلدة جبارة ، ذوو بأس وجسارة .
البعض يمتشق سلاحه ، والبعض يكبح جماح جواد يرغي ويزبد ،
يتأهبون للقتال فرادى أو في صفوف مرصوصة ،
الفرسان منهم والمشاة ، ولم يقفوا عاطلين بعد أن كتّبوا الكتائب ،
بل انطلقت زمرة مختارة منهم لتصرف عن المرعى

قطيعًا من الماشية ، من الثيران والأبقار الجميلة التي نزحت
من مرعًى حافلٍ بالكلأ ، أو من الأغنام ذات الصوف الكث ،
من النعاج وحملانها الثاغية فوق السهل ،
لتظفر بها غنيمة ، ولم ينزع الرعاة إلى الفرار طلبًا للنجاة
بل صاحوا يستغيثون ، فجاءت النجدة ووقعت معركة دامية
انضم إليها فرسان الكتائب في منازلة ضارية . وهكذا
فحيث كانت الأبقار ترعى منذ قليل تناثرت أشلاؤها
وأصبح الحقل الدامي ، على ما به من جثث وأسلحة ،
مهجورًا ؛ واتجه آخرون إلى مدينة قوية
فحاصروها وضربوا خيام معسكرهم ، وبالمجانيق والسلالم والألغام
هاجموها ، ودافع آخرون من فوق الأسوار
بالسهام والرماح ، وبالأحجار ، ونيران الكبريت ،
فوقع القتلى من الجانبين ، ووقعت فعال عظيمة .
وفي جانب آخر قام المنادون من ذوي الصولجان بالدعوة
إلى عقد مجلس عند أبواب المدينة ، وسرعان
ما هبَّ رجالٌ وخط الشيب رؤوسهم وزانهم الوقار ، من بين المقاتلين ،
فاجتمعوا ، وأُلقيت الخطب ، ولكنْ ما لبث أن
وقع الشقاق والخصام ، حتى نهض أخيرًا
رجلٌ في منتصف العمر ، ذو مكانة بارزة
ومسلك حكيم ، فتحدث كثيرًا عن الصواب والخطأ ،
عن العدالة ، وعن الدين والحق والسلام ،
والحُكم المُنزّل من علٍ ، فقام الشيوخ والشباب

يهتفون ضدّه وكادوا ينالونه بأيدي العنف
لو لا أن نزلت سحابة من السماء فاختطفته
دون أن يراه أحد من بين الحشد ، وهكذا استمر العنف
واستمر القهر وقانون السيف سائدًا
في شتى أرجاء السهل ، حتى لم يجد أحدٌ ملجأً يلجأ إليه .
وتدفقت عبرات آدم غزيرة ، فالتفت إلى مرشده
ينعي ما رأى بحزن شديد قائلاً : ترى مَنْ هؤلاء ،
من أعوان الموت ، لا البشر ، الذين يقذفون بالموت
البشر بأسلوب لا إنساني ، فتتكاثر في أيديهم ،
وتتضاعف عشرة آلاف ضعف ، خطيئة الرجل الذي قتل
أخاه ، إذ من سقط ضحية هذه المذبحة
إلا إخوان لهم ، بشر ضحايا بشر ؟
ولكن من كان ذلك الرجل البَرّ ، وهو الذي لو لا أن السماء
أنقذته ، كاد يضيع في صلاحه وتقواه ؟
ورد عليه ميكائيل قائلاً : هؤلاء ثمار
تلك الزيجات غير الموفقة التي شاهدتها ،
حيث اقترن بالطالحات صالحون لو خُيّروا
لكرهوا الارتباط بهن ، ولكنهم أصيبوا بفساد الرأي
فأنجبوا سلالة فاسدة في البدن والعقل .
هكذا كان شأن هؤلاء العماليق ، الرجال الذين ذاع صيتهم
إذ لن يُعْجَبَ الناس في تلك الأيام إلا بالقوة وحدها
فيسمونها الشجاعة وينعتونها بالبطولة ،

ويعتبرون الغلبة في المعارك ، وإخضاع
الأمم ، والعودة إلى الوطن بالغنائم بعد ارتكاب ما لا حَدَّ له
من القتل ، أعلى درجات الرفعة
والمجد للإنسان ، وسوف يفوز من يحرزون مجد
الانتصار بصفة الفاتحين العظماء ومظهرهم ، فيُعتبرون
رُعاة الجنس البشري ، أربابًا وأبناء أرباب ،
والأحق أن يوصفوا بأنهم مدمرون ، بل وطاعون البشرية .
وهكذا سوف تكتسب الشهرة ، وذيوع الصيت في الأرض ،
وأما أجدر الأشياء بالشهرة فسوف يُطْبِقُ عليه الصمت فيخفيه .
ولكن السابع من نسلك ، الذي شاهدته الآن ،
والصالح الوحيد في عالم فاسد ،
والذي كان من ثم مكروهًا ، ومحاصرًا
بالأعداء لاجترائه على أن يعدل وحده ،
وأن ينطق بالحقيقة التي لا يحبها أحد ، وهي أن الله سوف يأتي
ليحكم بينهم ، مع ملائكته ، فقد رفعه الرب الأعلى إليه
مُلْتفًا بسحابة عطرة ذات خيول مجنحة ،
وتلقاه ، كما رأيت ، ليسير مع الله
ويرتقي مراقي الخلاص وأصقاع النعيم ،
معفًى من الموت . وحتى أطلعك على الثواب الذي
ينتظر الصالحين ، والعقاب الذي ينتظر سواهم ،
أطلب منك توجيه عينيك لمشاهدة ما سوف يأتي فورًا .
ونظر آدم فوجد أن وجه الأشياء قد تبدّل وانقلب ،

إذ كَفَّ خُنْجور الحرب النحاسيّ عن الزئير
وتحوّل كل شيء الآن إلى المرح واللعب ،
وإلى الشهوة والشغب ، والطعام ، والرقص
والزواج أو الدعارة ، حيثما اتفق ،
اغتصابًا أو زنًا ، حيثما مَرَّ الحُسْنُ الفائق
فأغرى وأغوى ، ومن كؤوس الطِّلى إلى الشجار فيما بينهم ،
حتى أتى أخيرًا سيد مُبَجّل فَمَرَّ بهم ،
وأعلن سخطه الشديد على ما يفعلون ،
ونصحهم بنبذ طرائقهم ، وكثيرًا ما كان
يختلف إلى مجتمعاتهم ، أينما عقدوها ،
احتفالاً بالنصر أو بالأعياد ، وكان يعظهم ويطلب منهم
الرجوع عما هم فيه والتوبة ، مبينًا لهم أنهم أرواح
حبيسة أجساد أصبح الحكم عليها وشيك الوقوع ،
ولكن كل ذلك ذهب عبثًا ، وعندما أدرك ذلك كفّ عن
محاورتهم ، وأخذ خيامه فضربها في مكان قصيّ ،
ثم جعل يقطع ألواح خشب طويلة من أشجار الجبل ،
وشرع يصنع الفُلْك ، وهي سفينة ضخمة الجُرم ،
ويقيس بالذراع طولها وعرضها وارتفاعها ،
ثم دَهَنها كلها بالقار ، وجعل في جانبها بابًا
مبتكرًا ، وملأها بمقادير كبيرة من الزاد والمؤن ،
للإنسان والحيوان معًا ، وإذا بالعجيب الغريب المدهش !
فمن كل حيوان وطير وحشرة صغيرة أتت الجماعات

سبعًا سبعًا ومن كل زوجين اثنين فدخلت الفُلك بالترتيب الذي عُلِّمَتْهُ ،
وأخيرًا دخل السيد مع أبنائه الثلاثة
وزوجاتهم الأربع ، وأغلق الله الباب إغلاقًا محكمًا .
ولم تلبث الريح الجنوبية أن هَبّتْ ، ودفعت جميع السحب أمامها
فحلّقت بأجنحتها السوداء في شتى الأرجاء
تحت قبة السماء ، وأَرْسَلَتْ الجبالُ المَدَدَ إليها من
الأبخرة والضباب المعتم الرطب ،
فارتفع بسرعة ، حتى اكتظت السماء فبدت
مثل سقف مظلم ، وانهمر المطر انهمارًا
جائحًا ، وظل يهطل حتى غطّى الأرض
فاختَفَتْ عن الناظرين ، وسبحت السفينة الطافية
تحملها المياه ، وكان تجري آمنة بمُقدَّمها المدبب
راكبة متن الأمواج متمايلة معها ، وأما سائر المساكن
فقد اكتسحها الطوفان ، وأغرقها بكل بهائها وفخامتها ،
وأودى بها في أعماق الماء ، فالبحر يغشى البحر ،
بحر بلا ساحل ، وحَلّتْ في القصور التي
كانت الشهوات سائدة فيها وحوشٌ بحرية تلد صغارها
وتنغرس في الطين ، وأما البشر الذين كانت أعدادهم وافرة
فلم يبق منهم إلا من ركب ذلك الفُلْكَ الصغير الأوحد السابح !
ما كان أشد حزنك يا آدم وأنت تشهد
نهاية ذريتك جميعًا ، نهاية فاجعة ،
وقد خلت الأرض من سكانها ، إذ أغرقك طوفان آخر ،

طوفان من الدموع والأحزان ،
وهبط بك مثل أبنائك ، حتى تلطّف فانتشلك
ذلك الملاك ، فوقفت على قدميك أخيرًا ،
ولو كسير القلب ، كشأن الأب الذي يبكي فقدان
أبنائه ، وهو يشهد هلاكهم جميعًا معًا .
فشكوْتَ بثّك وإن كنت لا تكاد تخاطب المَلَك قائلاً :
يا للرؤى التي ساءني التنبؤ بها ! ليتني
عشت جاهلاً بالمستقبل ، فتَحَمَّلْتُ
نصيبي من الشر وحدي ، إذ يأتي كل يوم منه بما
يكفي ، وأما هذه الرؤى التي عُرضت عليّ ، وهي
عبءُ عصور كثيرة ، فقد أُلقيت على كاهلي
مرة واحدة ، حين اكتسبت بعلمي السابق ميلادًا
مُجهضًا ، إذ تعذبني الأحداث قبل أن تقع
وقد علمت أنها لابد أن تتحقق . ألا فليحجم الجميع
منذ الآن عن السعي لاكتساب معرفة سابقة بما سيحدث
له أو لأبنائه ، فقد يتأكد أنه شر ،
ثم لا تستطيع معرفته السابقة أن تمنعه ،
كما سيشعر أن الشر المقبل لا تقل وطأة
الخوف منه عن وطأة تحمله واقعًا ،
فهي وطأة ثقيلة في الحالين . ولكن هذا الهم قد انقضى
وليس يجدي الآن تحذير الإنسان ، فالقلة القليلة التي نجت
من المجاعة والعذاب سوف تهلك آخر الأمر

تائهة وهي تضرب في شعاب تلك الصحراء المائية . كم كنت آمل
حين توقف العنف وانتهت الحرب في الأرض ،
أن يسير كل شيء على ما يرام ، وأن يُكَلِّلَ السلام
هامة الجنس البشري بأيام سعادة ممدودة .
ولكن ما أشدَّ ما خُدِعْتُ ، إذ أرى الآن
السلم وهو يأتي بفساد لا يقل عن خراب الحرب .
فكيف يكون هذا ؟ أفصح أيها المرشد السماوي ،
خبرني إذا ما كان الجنس البشري سوف ينتهي هنا .
وأجابه ميكائيل قائلاً : إن الذين رأيتهم أخيرًا
يزهون بالنصر وبالثراء المترف ، هم الذين
رأيتهم أولاً ينهضون بأعمال تنم عن شجاعة بارزة
وإنجازات عظيمة ، لكنها تخلو من الفضيلة الحقة ، فإنهم
بعد أن أراقوا دماء كثيرة وأحدثوا خرابًا كثيرًا
في إخضاع الأمم ففازوا
بذيوع الصيت في العالم ، والألقاب الرفيعة ، والغنائم الثمينة ،
سوف يحوّلون مسارهم نحو اللذائذ ولين العيش والكسل
والتُّخَمَة والشهوة ، فإذا بالسَّفَهِ والكِبْرِ
يُخرجان من جوف الصداقة أعمالاً عدوانية في زمن السلم .
كما أن المهزومين الذين أوقعتهم الحرب في الرِّقّ
سوف يفقدون مع حريتهم المفقودة كل فضيلة
وتقوى الله ، بعد أن تظاهروا بالوَرَعِ فحسب
فلم يظاهرهم الله ولم يؤازرهم في القتال الحامي الوطيس

ضد الغزاة ، وهكذا ، عندما تبرد حميتهم ،
فسوف يزاولون أساليب العيش الآمن ،
الماديّ أو المنحلّ ، على ما سوف يسمح أسيادهم
لهم بالاستمتاع به ، إذ سوف تحمل الأرض من النِّعم
ما يكفي ويزيد ، وما يتيح تجاوز الاعتدال .
وهكذا سيتحول الجميع إلى الفسوق والانحطاط ،
وينسون العدالة والاعتدال والحق والإيمان .
إلا رجلاً واحدًا، ابن النور الأوحد
في عصر مظلم ، مثال يحتذى به ،
في التصدّي للغواية والعادة ، في عالم
خاطئ ، لا يهاب اللوم والاحتقار
أو العنف ، ولسوف يتصدى لسبلهم الآثمة
ويحذرهم من مغبتها ، ويرسم لهم
السبل القويمة ، فيريهم كيف تعود عليهم بسلامة أكبر ،
وكيف يَغْمُرُ جنباتها السلم ، معلنًا أن الغضب سوف يحيق
بتماديهم في الإثم ، فلا يعود إلا
بسخرية منهم ، ولكن الله يرى
الرجل البار الوحيد بين الأحياء ، وبأمر الله
سوف يصنع الفُلْك الرائع ، كما شهدت ،
لينقذ نفسه وأهل بيته من بين أبناء
عالم حُكِمَ عليه بالدمار الشامل .
وما يكاد يستقر هو ومن معه من البشر والحيوان

المختارين للنجاة في الفلك المشحون
وما يكادون يلوذون بها ، حتى تنفتح أبواب
السماء جميعًا بماء منهمر على الأرض ، وتهطل
الأمطار نهارًا وليلاً ، وتنفجر الأرض عيونًا ،
فتعلو أمواج المحيط وتطغى طغيانًا
يفوق كل الحدود ، وترتفع مياه الفيضان
فتغرق أعلى الجبال ، وعندها ترى هذا الجبل
في الفردوس وقد زحزحته قوة الأمواجِ
من مكانه ، فيدفعه الطوفان بقرنيه
ويسلبه نباته الأخضر جميعًا ، وتنجرف الأشجار
في هذا النهر العظيم إلى الخليج المنفتح ،
وهناك تنشأ جزيرة وتضرب جذورها في الأرض ، مِلْحَةً عارية ،
فتصبح مقرّا لكلاب البحر والحيتان ،
ولصخب طيور النورس وصياحها ،
حتى تعلم أن الله لا ينسب للمكان
أية قداسة إذا خلا من أي شيء يأتي به
البشر الذين يعتادونه أو يقيمون فيه .
والآن انظر تر ما سوف يحدث بعد ذلك .
ونظر فشاهد هيكل السفينة طافيًا فوق الماء
الذي كان قد هبط ، إذ فَرّتْ السحب
تسوقها ريح شمالية صرصر ، هَبّتْ فجففت
وجه الطوفان الذي تغضّن كأنما ذَوَي وذَبُل ،
وحَدّقتِ الشمس الصافية في مرآتها المائية الرحيبة

حارّة قائظة ، وشربت من الأمواج الجديدة علَلاً بعد نَهَل ،
كأنما كانت عطشى ، فانحسر تدفقها وانكمش ،
وتحولّت البحيرة الثابتة إلى جَزْرٍ يغور ويسترق
خُطاه برفق نحو البحر الذي كان قد أغلق
أبوابه ، مثلما أغلقت السماء نوافذها .
وتوقفت الفُلْكُ عن الطفو ، وبدا أنها ترتكز على الأرض
ثابتة فوق قمة أحد الجبال العالية .
وبدأت قمم الجبال تظهر كأنها صخور ناتئة
واندفعت تيارات الماء السريعة صاخبةً ، فَدَفَعَتْ
إلى البحر المنحسر أمواجَ المَدِّ الغائر المنكسر .
وعلى الفور طار من الفُلك غُراب ،
وبعده طارت حمامة ، الرسول الذي يحظى بثقة أكبر ،
إذ أُرسِلَتْ المرة بعد المرة لتبحث عن
شجرة خضراء أو أرض خضراء تَحُطُّ عليها قدمُها ،
وعادت في المرة الثانية وفي منقارها
ورقةُ زيتونةٍ أَتَتْ بها آية سلام .
وسرعان ما ظهرت اليابسة ، وبدأ السيد الهرم
في النزول من فُلكه هو وأتباعه جميعًا ،
ثم رفع كفّيه إلى السماء ، ونظر بعينين مُخلصتين ،
وبامتنان إلى السماء ، فشاهد فوق رأسه
سحابةً نَدِيَةً ، وفي السحابة قوس قزح
يتجلّى وفيه ثلاثة ألوان بهيجة منضودة في حُزمٍ ،

بشرى السلام من الله ، وعهدًا جديدًا منه .
وعندها بدأ قلب آدم ، الذي كان يغشاه حزن شديد ،
يفيض بالفرح العميم ، وما لبث فرحه أن انطلق قائلاً :
أنت يا من تستطيع تقديم أحداث المستقبل
في الحاضر ، أيها المُعلّم السماوي ، لقد عُدْتُ إلى الحياة
بفضل هذا المشهد الأخير ، واثقًا أن الإنسان سوف يحيا
مع سائر المخلوقات ، ويحفظ ذريتها .
وأصبح حزني الآن على دمار عالم كامل
من الأبناء الأشرار ، يقل كثيرًا عن فرحتي بوجود
رجل واحد ثبت تمتُّعه بمثل ذلك الكمال والبِرّ ،
حتى أن الله تعطّف لينشئ عالمًا آخر
من صُلْبه ، ولينسى كل غضبه .
ولكن قل لي ما معنى تلك الخطوط الملونة في السماء
التي انبسطت عند انفراج القطوب في جبهة الله ،
أم تراها حاشية زَهْرية جُعلتْ لتربط أطراف
الأُزُر السيّالة لتلك السحابة المائية نفسها
حتى لا تَنْحَلَّ من جديد وتهطل على الأرض ؟
وأجابه المَلَكُ الأكبر قائلاً : لقد أصبت حين رميت ،
إذ يشاء الله راضيًا أن يعفو عمّن غضب عليهم
من بني الإنسان وإن تأخرت توبتهم ،
وإن تأسىّ قلبه عندما نظر من علٍ فرأى
الأرض حافلة بأعمال العنف ، والبشر كلهم

وقد أفسدوا سبلهم جميعًا ، لكنهم ما يكادون يذهبون
حتى يستدرّ رجل بارٌّ أوحد من عين الله عطفًا سابغًا
فإذا هو يرحم فلا يمحو البشرية محوًا تامًا
ويقطع على نفسه عهدًا بألاّ يعود أبدًا إلى تدمير
الأرض بالطوفان ، وبألاّ يجعل البحر
يتجاوز حدوده ، ولا المطر يغرق العالم
والإنسان فيه أو الحيوان ، لكنه حين يسوق
سحابة فوق الأرض ، فسوف يجعل فيها
قوسه ذا الألوان الثلاثة ، حتى تبصره عناصر الطبيعة
فتتذكر عهده ، وهكذا يتتابع النهار والليل ،
وزمن البذر وزمن الحصاد ، والحرارة والصقيع الأشهب ،
كل يجري في مجراه ، حتى تُطَهِّر النارُ جميع الأشياء وتجدّدها ،
فتنشأ أرض جديدة وسماء جديدة ، مُقام الإنسان في المستقبل .

الكتاب الثاني عشر

الكتاب الثاني عشر
الموضوع

يستمر المَلَكُ ميكائيل في روايته ، فيروي ما سوف يقع من أحداث بعد الطوفان ، وعندما يذكر إبراهيم عليه السلام ، يشرح تدريجيًا ويفصح عن ولد العذراء الذي كان آدم وحواء قد وُعدا بمقدمه عند السقوط ، وعن تجسده وموته وبعثه ورفعه، وعن أحوال الكنيسة حتى مقدمه الثاني . ويسعد آدم سعادة بالغة بهذه القصص والوعود التي تعيد إليه اطمئنانه ، ويهبط التل مع ميكائيل ، ويوقظ حواء التي كانت نائمة في أثناء ذلك ، وقد رأت في منامها أحلامًا تدل على هدوء البال والخضوع ، ويسوقهما ميكائيل فيسيران معه وقد أمسك بأيديهما إلى خارج الفردوس ، والسيف الناري يتراقص في الهواء خلفهما ، وملائكة الشاروبيم قد أخذوا مواقعهم لحراسة المكان .

مثلما يتوقف المسافر في ترحاله عند نقطة الزوال ،
وإن كان يقصد الإسراع ، توقف ميكائيل هنا
بين العالم الهالك والعالم الوليد ، ليرى
إذا ما كان آدم سوف يعنّ له أن يقول شيئًا ما ،
قبل أن يستأنف الحديث منتقلاً نُقلةً حلوةً قائلاً :
وهكذا شاهدتَ عالمًا كاملاً يبدأ وينتهي ،
والإنسان وهو يَنْسِلُ كأنما من صُلْب جديد ،

ولسوف تشاهد أكثر من ذلك ، لكنني ألحظ
أن بصرك الفاني يخبو ، فالأشياء الإلهية
لا بد أن تُضعِفَ وتُرهق الحواسَّ البشرية ،
وهكذا فسوف أقتصر منذ الآن على رواية أحداث المستقبل
وعليك أنت أن تستمع وتُنصت وتَنتَبِه :
كان البشر الذين انحدروا من هذا المصدر الثاني لا يزالون قلة
وكان رُعْبُ العقوبة التي وقعت لا يزال
ماثلاً في أذهانهم يذكرونه فيخافون الله ،
ويراعون إلى حد ما كل ما هو حق وعدل ،
وسوف يعيشون حياتهم ، ويتكاثرون بسرعة ،
ويفلحون الأرض ، ويجنون محاصيل وافرة ،
من القمح والنبيذ والزيت ، ومن الأبقار والأغنام ،
وكثيرًا ما يقدمون أضحياتهم من العجول أو الحملان أو الجداء
مع صبِّ مقادير كبيرة من النبيذ قربانًا ،ومآدب مقدسة ،
وسوف يقضون أيامهم في فرح دون مَلاَمٍ ، ويقيمون
زمنًا طويلاً في سلام ، أُسَرًا وقبائل
في ظل حكم الآباء ، حتى ينهض رجل
في قلبه كبرياء وطموح ، لا يقنع
بالمساواة المنصفة ، ولا بدولة الإخاء ،
بل سوف يغتصب السيطرة دون استحقاق
على إخوانه ، وينزع كل سلطان
للوفاق وقانون الطبيعة على الأرض ، فيمارس

الصّيْد (وسوف تكون فرائسه من البشر لا الوحوش)
معلنًا الحرب وناصبًا شراك العداوة لكل من يرفض
أن يخضع له ولطغيان سلطانه المطلق ،
وسوف يتخذ صورة الصياد الجبار
أمام الرب ، كأنما يتحدى السماء ،
أو كأنما استمد من السماء سيادة ثانية ،
وسوف يُشْتَقّ اسمه من التمرّد
وإن كان سوف يتهم الآخرين بالتمرد .
وسوف ينضمُّ إليه فريق ممن سيربطهم به طموح مماثل ،
أو يعملون تحت إمرته ، لممارسة الطغيان ،
فيسير الجميع من عدن نحو الغرب ، حتى يجدوا
السهل الذي ينبجس منه نبع فوّار من القار الأسود
وهو يغلي من تحت الأرض ، من فُوَّهة الجحيم ،
ومن ثم يأتون بالآجُرّ وغيره من المواد فيصبونها لبناء
مدينة وبُرْجٍ تصل قمته إلى عنان السماء ،
ليذيع اسمهم ، ولئلاّ يتبددوا في أقاصي
بلدان الأرض وتنمحي ذكراهم ،
سواء اشتهروا بالخير أو بالشر .
ولكن الله الذي كثيرًا ما ينزل لزيارة البشر
في الخفاء ، ويمشي بين مساكنهم
ليرقب فعالهم ، وسرعان ما يراهم ،
ينزل ليشاهد مدينتهم ، قبل أن يعلو البرج

فيعترض أبراج السماء ، ثم يسخر منهم فيطلق
في ألسنتهم عفريت التشتيت الذي يمحو
تمامًا لغتهم الأصلية ، ويبذر في مكانها
بذور جلبة صاخبة حادّة من ألفاظ مجهولة
وعلى الفور تتعالى هَذْرَمَةٌ بشعة عالية
بين البنّائين ، وينادي بعضهم بعضًا
دون تفاهم حتى تُبَحَّ أصواتُهم ويثوروا غضبًا
كأنما يُستهزأ بهم، فيهدرون جائحين ، وتجلجل الضحكات في السماء
التي تنظر من علٍ لترى خَلْطَ الضجيج الغريب
وتسمع ضوضاءَ العجيج ، وهكذا تُرك البناء
مثار سخرية وأصبح يدعى «بابل»، اسمًا مشتقًا من البلبلة .
واستاء آدم استياء الوالد من ولده قائلاً :
يا له من ابن مقيت يطمح أن يعلو
فوق إخوته ، وينسب إلى نفسه
السلطة المغتصبة التي لم يمنحها الله إياه ،
فلقد وهبنا الله سيادة مطلقة على الحيوان
والأسماك والطير فقط ، ونحن نتمتع بهذا الحق
لأنه وهبه لنا ، لكنه لم يجعل للإنسان على الإنسان
سيادة أو حيازة ، فهذا هو حقه الذي
يحتفظ به ، بل قضى بألاّ يمتلك إنسان إنسانًا آخر
ولكن هذا المغتصب لا يقتصر تعديه المتباهي
على الإنسان وحده ، بل إن برجه يعتزم التطاول على الله

والتصدّي له والتحدّي ، ترى أي طعام
سوف يقدمه في الأعالي غذاءً
لنفسه وغذاءً لجيشه الأرضي ، حيث الهواءُ رهيفٌ
فوق السحب ، تذوي فيه الأحشاء الغليظة ،
ويسلب الإنسان الأنفاس وإن لم يسلبه الخبز ؟
ورد ميكائيل قائلاً : أصبت في بُغضك
هذا الابن ، وهو الذي أقلق حال الإنسان المطمئنة
بمثل هذه البلبلة ، إذ حاول أن يُخضع
الحرية الرشيدة ، لكن عليك أن تعلم
أن الحرية الحقيقية قد ضاعت منذ زَلّتِك الأولى ،
فهي تقيم دائمًا مع العقل الصائب ، وهما
توأمان ، وليس لها وجود منفصل عنه ،
فإذا حُجِبَ العقلُ في الإنسان وأظلم ، أو إذا عُصِيَتْ أوامرُه ،
هَبَّتْ الرغبات العارمة الجائحة ،
والمشاعر المحدثة الجانحة ، فاستولت على زمامِ الحكم
من يد العقل ، وفرضت العبودية على
الإنسان الذي كان حُرًا حتى تلك اللحظة . وهكذا فما دام يسمح
للقوى الدنيئة بالحكم داخل نفسه والتغلب
على العقل الحر ، فإن الله العادل في حكمه
يُخضعه من الخارج لأسياد ذوي سطوة وعنف
كثيرًا ما يقومون ، دون استحقاق أيضًا ، باسترقاق
حريته الظاهرة ، فيقع الطغيان حتمًا ،

ولو أن ذلك لا يبرر طُغيان الطاغية .
ومع ذلك فإن بعض الأمم تهبط هبوطًا شديدًا عن مصاف
الفضيلة ، وهي العقل ، حتى تُعاقب – لا ظُلمًا
بل عدلاً – وبسبب لعنة مُهلكة تصيبها ،
بالحرمان من حريتها الظاهرة ،
بعد فقدها الحرية الباطنة ، وانظر إلى الابن العاق
الذي أنجبه من صَنَع الفُلْك ، فلقد جلب العار على نفسه
بما فعله لأبيه ، فسمع هذه اللعنة الثقيلة ، أي أن يصبح
عَبْدَ العبيد ، وهي تصدر على نسله الخبيث .
وهكذا سوف ينحدر هذا العالم الأخير ، كشأن الذي سبقه ،
من سيء إلى أسوأ ، وباطّراد ، حتى يملَّ الله آخر الأمر
ويضجر من حَيْفهم وجَنَفِهِمْ ، فيَبْعِدَ
حضرته عنهم ، ويحجب عنهم
عينيه المقدستين ، معتزمًا من تلك اللحظة
أن يتركهم لدنسهم وخبائثهم ،
وأن يصطفي أُمّةً واحدةً خاصةً فيرفَعَها
على سائر الأمم ، ويختصها دونهم بندائه ،
أمة تنحدر من نسل رجل مخلص واحد
كان يقيم في الأرض عَبْر نهر الفرات
ودَرَج في صباه على عبادة الأصنام ، كيف يمكن للبشر
(وهل تصدق ؟) أن يصبحوا بهذا الغباء
والرجل العظيم لا يزال حيًا بعد أن نجا من الطوفان ،

وأن يتركوا عبادة الله الحيّ ، ويسقطوا في وهدة
عبادة ما صنعته أيديهم من الخشب والحجر ، داعينها
آلهة ! ولكن الله العليّ يتكرّم ويتعطف
بأن يناديه في رؤيا من منزل أبيه
ومن بين أهله وآلهته الكاذبة ، ويدعوه إلى أرض
سوف يريها له ، قائلاً إنه سوف يُخرج من صُلْبه
أُمّة قوية ، وسوف يُسْبِغُ عليه
بركاته حتى تَخْرُجَ من نسله
جميع الأمم مباركة ، ويطيع الرجل فورًا
وإن كان يجهل تلك الأرض ، لكنه ذو إيمان راسخ .
إنني أراه ، ولكنك لا تستطيع ، وأرى مدى الإيمان
الذي يترك به آلهته وأصدقاءه وأرض موطنه ،
مدينة «أُور» الكِلْدانية ، وهو يعبر الآن المخاضة
إلى «حاران» ، ومن خلفه حشد هائل من قطعان
الأبقار والأغنام ، وعدد كبير من العبيد والخدم .
لم يكن يرحل فقيرًا ، ولكنه كان يضع كل ثروته في أيدي
الله الذي دعاه ، في هذه الأرض المجهولة .
ويصل الآن إلى «كنعان» ، وها أنذا أرى خيامه
وقد ضربها حول «شكيم» والسهل المجاور لبلوطة
«موره» ، وهناك تلقى الوعد بالحصول
على كل تلك الأرض هدية لذريته ،
من «حماة» شمالاً حتى الصحراء الممتدة جنوبًا

(وأنا أدعو هذه الأماكن بأسمائها، وإن تكن الآن دون أسماء)
ومن «حرمون» شرقًا إلى البحر الغربي العظيم ،
وجبل «حرمون» ، وذلك البحر نفسه ، وأشهد كل مكان
يتجلّى وأنا أشير إليه ، وعلى الشاطئ
جبل «الكرمل» ، حيث النهر ذو المنبعين ،
نهر الأُرْدُن ، وهو الحد الحقيقي شرقًا ، ولكن أبناءه
سوف يسكنون منطقة تمتد حتى «سَنير» ، وهي جُرف جبلي طويل ،
وتأمّل هذا : إن جميع أمم الأرض
سوف تكون مباركة في ذريته ، وهي الذرية التي
أعني بها مخلّصك العظيم ، الذي سوف يسحق
رأس الثعبان ، ولسوف أكشف لك عنه بعد قليل
في صورة أوضح . وسوف يخلّف هذا الأب المبارك ،
الذي سوف يدعى إبراهيم الحنيف في قابل الأيام ،
ابنًا ، وحفيدًا من صُلْب هذا الابن ،
يماثله في الإيمان وفي الحكمة وذيوع الصيت
وسينجب الحفيد اثني عشر ابنًا ، ويرحل
من كنعان ، إلى أرض يطلق عليها فيما بعد اسم
مصر ، يَقْسِمُها نهر النيل ،
وانظر حيث يتدفق فيصب ماءه من سبعة مصبات
في البحر ، وهو يأتي للإقامة في ذلك البلد
حين يدعوه أحد صغار أبنائه
في زمن الشدّة ، وهو الابن الذي ترفعه فَعَاله العظيمة

إلى المنزلة الثانية في مملكة
فرعون ، ويموت فيها ، ويترك ذريته
التي تنمو فتصبح أُمَّةً ، ثم تمسي موضع
اشتباه أحد الملوك بعد ذلك ، فإذا به يسعى
للحدّ من زيادة تكاثر أفرادها ، باعتبارهم ضيوفًا حَلُّوا لديه
فزاد عددهم عن الحد ، ويحيل الضيوف إلى عبيد ،
على غير ما تقتضيه الضيافة ، ويذبّح مواليدهم الذكور ،
حتى يأتي شقيقان (ويدعى هذان الشقيقان
موسى وهارون) مُرْسَلَيْن من عند الله لإنقاذ
شعبه من العبودية ، ويعودان مع الجميع مكلّلين
بالمجد ، حاملين الغنائم إلى الأرض التي وُعدوا بها .
وإن كان لابد أولاً من إرغام الطاغية المستبد ، الذي يرفض
معرفة إلهها ، أو تصديق رسالتهما ،
وإجباره بآيات وأحكام رهيبة على الخضوع ،
ولابد أن تتحول مياه الأنهار إلى دماء غير مُهْرقة ،
ولابد أن يمتلئ قصره بالضفادع والقمل والذباب الذي
يقتحمه اقتحامًا بغيضًا وأن ينتشر في الأرض كلها ،
ولابد أن تموت قُطعانه بمرض العفن والطاعون البقري ،
وأن تنتشر على جلده البُثُور والدمامل في كل مكان ،
وتصيب جميع أفراد شعبه ، وأن يُدوّي الرعد المختلط بالبَرَد ،
والبَرَد المختلط بالنار ، فيمزّق سماء مصر ،
ويكرّ على الأرض بعجلاته مُلْتهمًا ما يكرّ عليه ،

وما يفوته التهامه من عشب أو ثمر أو حَبّ
يقع فريسة سحابة سوداء من الجراد الذي يتجمع وينقض
لالتهامه ، ثم لا يبقي على الأرض شيئًا أخضر .
ولابد أن يهبط الظلام مُدْلهِمّا على تخومه جمعاء ،
ظلامٌ غليظٌ ملموس ، فيطمس النهار ثلاثة أيام متوالية .
وأخيرًا لابد أن تقع ضربة واحدة في منتصف الليل ، فتقتل
جميع أبكار مصر ، ويمسي المَلِكُ مثخنًا بجراح عشرة ،
ويُروَّضُ ذلك التنين النهري فيوافق على مضض آخر الأمر
على أن يسمح للمقيمين لديه بالرحيل ، وكثيرًا ما
يلين قلبه العنيد ويخشع ، لكنه يعود كالجليد
الذي يزداد شِدَّةً إذا تجمّد بعد انصهاره ، حتى يحفزه غضبه إلى
مطاردة الذين كان قد سمح لهم بالخروج أخيرًا ، فإذا البحر
يبتلعه هو وجنوده ، بعد أن يتيح للراحلين المرور
كأنما يسيرون على اليابسة بين جدارين من البلّور ،
عندما يرفع موسى عصاه آمرًا إياه أن يَنْشَقّ
وينقسم حتى يصل الناجون إلى البر .
وهذه القوة الجبارة سوف يستمدها الكليم من الله
الذي يرسل مَلَكًا من لدنه إليهم ، وسوف يسير
أمامهم في سحابةٍ وعمودٍ من نار ،
سحابة بالنهار وعمود من النار بالليل ،
ليرشدهم في رحلتهم ، وعلى مسافة ما من
خلفهم يحميهم في أثناء مطاردة الملك العنيد لهم ،

ولسوف يطاردهم بالليل ، ولكن الظلام يحول دون
اقترابه منهم حتى انبلاج الصبح ،
ثم ينظر الله من خلال عمود النار والسحابة
فَتُرْبِكُ نظرته الحشد الحاشد جميعًا
وتصيب عجلات عرباتهم الحربية بلوثة ، ثم يأمر الله
موسى أن يرفع عصاه الجبارة
فوق البحر ، فيطيع البحر عصاه ،
وترتد الأمواج فَتُطْبِقُ على صفوف المقاتلين
وتكتسح جيوشهم ، وتتقدم الذرية المصطفاة
سالمة نحو أرض كنعان ، فتنطلق من الشاطئ
خلال الصحراء الموحشة ، وليس ذلك بأيسر السبل ،
لكنهم يخشون أن يدخلوا على الكنعانيين فيفزعوهم إلى
الحرب ، وهم لا خبرة لهم بها ، فيصيبهم الرعب ، ويدفعهم الخوف
إلى العودة إلى مصر ، مؤثرين أن يحيوا
حياة ذل وعبودية ، فالحياة
في شرف أو ضعة أحلى لمن
لم يُدَرَّبْ على حمل السلاح ولا تحفزه الرعونة .
وسوف يحققون ذلك أيضًا بالمكوث فترةً ما
في البرّية الشاسعة ، إذ سوف ينشئون فيها
حكومتهم وينتخبون مجلس شيوخهم العظيم
من القبائل الاثنتي عشرة ، للحكم بالشريعة المُنَزَّلة .
وسوف يَنْزِل الله إلى جبل سيناء فترتعد

قمته الشهباء لنزوله ، ولسوف يفرض بنفسه
بين هزيم الرعد ومض البرق ودَوِيّ الأبواق العالية
هذه الشريعة المُنَزَّلة ، فبعضها يتعلق
بالعدالة المدنيّة ، وبعضها بالطقوس الدينية
للتضحية ، وسوف يُطْلعهم ، بالأمثلة
وخلال الآيات السماوية ، على الرجل الذي قُدِّر له أن يسحق
الأفعى ، وعلى الوسيلة التي سوف يحقق بها
خلاص البشرية . ولكن صوت الله
رهيب مرعب لأذن الإنسان الفاني ، ولذا فهم يتوسلون
إلى موسى أن يبلغهم بمشيئة الله نقلاً عنه
لينجيهم من الرعب ، فيجيبهم إلى مطلبهم ،
إذ أُعْلِمَ أنه لا سبيل إلى الله
دون وسيط ، وهو المنصب السامي الذي يشغله الآن
موسى في الشكل والصورة ، توطئة لتقديم
وسيط أعظم ، ولسوف ينبئهم بيوم مقدمه
ولسوف يتغنّى جميع الأنبياء ، كُلٌّ في عصره ، بزمن
مقدم المسيح العظيم . وبعد نزول الشرائع والطقوس
وإقامتها ، يبلغ فرح الله مداه بالبشر
المطيعين لمشيئته ، فيتعطف ويتكرم
ويسمح ببناء بيته بين ظهرانيهم ،
وهو المسكن المقدس الذي يقيم فيه البشر الفانون ،
وهكذا ينشئون حرمًا قدسيًا وفق الشكل الذي وضعه

من خشب الأرز ، مطعَّمًا بالذهب ، وبداخله
تابوت ، وفي التابوت شهادته ،
أي سجلات عهده ، وفوق هذه
مقعد رحمة من الذهب بين أجنحة
مَلَكَيْن وضَّاءين من ملائكة الشاروبيم ، وأمامه
سبعة مصابيح موقدة في دائرة بروج تمثل
النجوم في السماء ، وسوف تَثْبُتُ غمامةٌ في السماء
فوق الخيمة بالنهار ، ويسطع ضوء ملتهب ليلاً ،
إلا عندما يسافرون ، وهكذا يَصِلُون آخر الأمر ،
يحدوهم المَلَكُ المرسل ويرشدهم ، إلى الأرض التي
وُعد بها إبراهيم وذريته ، وأما باقي القصة
فقد تطول روايتها ، فكم من المعارك نشبت ،
وكم من الملوك قُتِلوا ، وكم من الممالك فُتِحَتْ ،
أو كيف ستقف الشمس في كبد السماء ثابتة
يومًا كاملاً ، فتؤجِّل مقدم الليل في موعده ،
عندما يأمرها صوت إنسان قائلاً : قفي أيتها الشمس في «جبعون»
وقف يا قمر فوق وادي «أَيَلون» ،
حتى ينتصر النبي يعقوب ، فهكذا سيدعى الثالث
من أبناء إبراهيم ، والثاني من نسل إسحاق ، ومنه
تنحدر ذرية كاملة تظفر بأرض «كنعان» .
وقاطعه آدم هنا قائلاً : أيها المرسل من السماء ،
يا من أضأت ظلامي ، ما أجمل الأشياء

التي كشفت عنها ، وخصوصًا ما يتعلق منها
بإبراهيم الحنيف وذريته ، فلأول مرة أشعر
بعينيّ وقد تَفَتَّحتا حقًا ، وبقلبي وقد خَفَّتْ أثقاله كثيرًا ،
وقد كنت حائرًا نَهْبًا لأفكار عصيةٍ عمّا عساه يحدث
لي وللبشرية كلها ، ولكنني أرى الآن
يومَ مقدمِ الذي سوف تُبارك كل الأمم فيه ،
وهو فضل لا أستحقه ، بعد أن سعيتُ للحصول على
المعرفة المحرمة بوسائل محرمة ،
لكنني لا أفهم لماذا تنزل على
الذين سيتنازل الله ليسكن بينهم على الأرض
كلُّ هذه القوانين الكثيرة والمنوعة ،
ولماذا تؤدي هذه القوانين الكثيرة إلى خطايا كثيرة
بينهم ، فكيف يمكن لله أن يقيم مع هؤلاء ؟
ورد عليه ميكائيل قائلاً : لا يخامرنّك الشك في أن الخطيئة
سوف تسود بينهم ، لأنهم ورثوها منك ،
ولذلك أُنْزِلَتْ القوانين عليهم ، أي للكشف عن
الخبث الطبيعي فيهم وكبحه ، إذ ستهبُّ
الخطيئة لمحاربة القانون ، وإذن فإنهم عندما يرون
القانون سوف يكتشفون الخطيئة ، دون إقصائها ،
باستثناء تلك الكفّارات الشاحبة الضعيفة ، مثل
دماء الثيران والماعز ، وربما انتهوا من ذلك إلى
ضرورة إراقة دماء أثمن وأغلى لفداء الإنسان ،

بارٌّ يفدي الظالمين ، وبذلك يجدون في الصلاح
الذي يكتسبونه حين يؤمنون به ،
سبيلاً إلى الله وصفاءً
في الضمير ، وهو الذي لا تستطيع القوانين بكل إجراءاتها العملية
أن ترضيه ، مثلما لا يستطيع الإنسان بها تحقيق
وجوده المعنوي ، وهو الذي لا يستطيع الحياة دون تحقيقه .
وهكذا يبدو القانون ناقصًا ، ولكنه أُنْزِل عليهم
حتى يُسْلموا أنفسهم مطمئنّين ، آخر الأمر ،
إلى عهد أوثق وأمتن ، يرسم بضوابطه الطريق
من النماذج الغامضة إلى الحقيقة ، أي من الجسم إلى الروح ،
من فرض القوانين الصارمة ، إلى حُرّية
تقبل فضل الله الواسع وكرمه ، ومن خوف العبد من سيّدِهِ ،
إلى حُبّ الابن لأبيه ، ومن العمل بالقانون إلى العمل بالإيمان .
وهكذا لن يكون موسى ، على حُبّ الله له
حُبًا شديدًا ، سوى أداةٍ من أدوات
القانون ، ولن يستطيع أن يسير بشعبه إلى أرض كنعان .
ولكن يشوع ، الذي يسميه الأميون يسوع ،
فهو يحمل اسمه ويضطلع بمهمته ، سوف يقهر
الخصم وهو الثعبان ، ويعود بالإنسان ،
الذي طال تجواله حائرًا في برّية العالم ،
سالمًا إلى فردوس الراحة الخالدة .
وريثما يكون ذلك ، سيمكثون في كنعان الأرضية التي ملكوها

فيسكنونها وتزدهر أحوالهم زمنًا طويلاً ، إلا حين تهب الخطايا
الفطرّية فتقلقل سلم الأمة ،
وتحفز الله إلى إيجاد أعداء لهم
وكثيرًا ما ينقذهم الله منهم عندما يتوبون ،
على أيدي القضاة أولاً ، ثم على أيدي الملوك ، ومن بين هؤلاء
ينهض الثاني ، الذي ذاع صيتُ وَرَعه
وصيتُ أفعاله الجبارة ، فيتلقى وعدًا
لا نَقْضَ له بأن يَظَلَّ عرشه الملكي
قائمًا أبد الدهر ، ولسوف يُنْشِدُ أيضًا
جميع النبوءات ، قائلاً : إن السلالة الملكية
لداود (وهذا هو الاسم الذي أدعو به هذا المَلِك) سوف يخرج منها
ابن هو ولد العذراء الذي نُبِّئْتَ به من قبل ،
ونُبِّئ به إبراهيم ، وهو الذي سيغدو موضع ثقة
جميع الأمم ، والذي نُبِّئ به الملوك ، فهو
آخر الملوك ، إذ لن تكون لحكمه نهاية .
ولكن لابد أن تسبقه سلسلة طويلة من الورثة ،
وسوف يشتهر ابنه التالي بالثراء والحكمة ،
وسوف ينقذ تابوت عهد الرب المغمور من التنقل
من خيمة إلى خيمة ، فينزله في معبد رائع مهيب .
وسوف يتبعه آخرون ، ممّن يُسجّل التاريخ أسماءهم ،
فبعضُهم صالحٌ وبعضهم طالح ، وسِجِلُّ الطالحين أكبر ،
وهم الذين يقترفون خبائث وثنية ، وخطايا أخرى

تُضاف إلى خطايا الشعب الكثيرة ، فيبلغُ الغضب
بالله حدّا يجعله يتخلى عنهم ، ويعرّض أرضهم
ومدينتهم ، ومعبده ، وتابوته المقدس ،
مع جميع مقدساته ، للإذلال والافتراس ، إذ تلتهمها
تلك المدينة المتكبرة ، التي رأيت جدرانها العالية
وقد تُركت في بلبلة ، فأطلق عليها من ثَمّ اسم بابل .
وسوف يجعلهم يقيمون في الأَسْر هناك
سبعين سنة ثم يعيدهم
إذ يذكر الرحمة ، والعهد الذي قطعه
لداود ، وهو الثابت ثبات أيام السماوات ،
وعندما يعودون من بابل ، بعد أن يسمح لهم الملوك من
أسيادهم ، بفضل من الله وتوفيقه ، يعمدون إلى بيت الله
فيعيدون تعميره أولاً ، ويعيشون فترة ما
حياة التواضع والاعتدال ، حتى تتضخم
ثروتهم وتتكاثر أعدادهم ويتفرقوا شيعًا وأحزابًا ،
ولكن الشقاق ينشَبُ أولاً بين الكهنة ،
وهم الرجال الذين يصلّون في الهيكل والأَوْلى بهم
أن ينشدوا السلام ، وما يلبث نزاعهم أن يأتي بالفساد
إلى المعبد نفسه ، فإذا بهم يقبضون على
صولجان الحكم ، غير آبهين بأبناء داود ،
ثم يفقدونه ليستولي عليه أحد الغرباء ، وذلك حتى
يولد المسيح الصادق ، الملك الذي مُسح على رأسه بالزيت القدسي ،

محرومًا من حقه ، ولكن مولده سوف يتميز ببزوغ نجم
لم يشاهد قبل ذلك في السماء ليعلن مقدمه
ويهدي حكماء الشرق إليه ، فيستفسرون
عن مكانه حتى يحرقوا البَخور ويقدموا أزهار البلسم والذهب
ويُفصحُ ملاكٌ مهيبٌ عن مكان مولده
للرعاة البسطاء ، قائمًا على حراسته ليلاً ،
فَيُهْرعون فرحين إلى ذلك المكان ، ويستمعون إلى فرقة
من فرق الملائكة المنشدين وهي تُنْشِدُ أغنيته .
والدته عذراء ، وأما والده
فقوة الرب الأعلى ، ولسوف يصعد إلى
العرش الذي ورثه ، فلا تَحُدُّ حُكْمَهُ
إلا حدودُ الأرض الرحيبة ومجدُه الذي في السماوات .
وتوقف ميكائيل إذ رأى آدم وقد غَلَبَهُ فرحٌ
قاهر مثلما غلبه الحزن من قبل فأسال أنداء العبرات ،
دون التنفيس عنه بالكلمات ، لكنه تكلّم قائلاً :
يا نَبِيّ الأنباء السارة ، يا من اكتملت على يديه
أقصى الآمال ! لقد فهمتُ الآن بوضوح
ما دَأبَتْ أكثر أفكاري اتزانًا على بحثه دون طائل ،
ألا وهو سبب تسمية العظيم الذي نتوقع مجيئه
بولد العذراء . السلام عليك أيتها الأم العذراء
رفيعة القدر في حب السماء ، ولو أنك سوف تنحدرين
من صُلبي ، ومن رحمك سوف يخرج ولد ينتسب

إلى الرب الأعلى ، وهكذا يتحد الله مع الإنسان .
ولابد أن يتوقع الثعبان الآن سحق رأسه
بآلام مهلكة . قل لي أين ومتى يقع
صراعهما ، وأي ضربة سوف تسحق عقب المنتصر ؟
ورد عليه ميكائيل قائلاً : لا تحلم بأن يكون صراعهما
نزالاً أو مبارزة ، أو بأن يتخذ صورة جراح موضعية
في الرأس أو العقب ، فليس من أجل هذا يجمع الابن بين
البشرية والربوبية ، بحيث تزداد قوته حتى تقهر
عدوك ، بل وليس هذا سبيل قهر
إبليس ، بعد أن أدى سقوطه من السماء سقوطًا أشد إهلاكًا
إلى عجزه عن إصابتك بجرح مُهْلك ،
فهو جرح سوف يستطيع من جاء لخلاصك أن يشفيك منه
لا بتدمير إبليس ، بل من خلال أعماله التي تتجلى
فيك وفي ذريتك ، بل ولن يكون ذلك
إلا بتلبية ما سبق أن طلبته ، ألا وهو
طاعة شرع الله الذي فرضه وفرض
عقوبة الموت لمن يعصيه ، ولابد إذن من مكابدة الموت
فهو العقوبة الواجبة على عصيانك ،
وعلى عصيان الذين سوف ينحدرون من صُلْبك ،
فهو السبيل الأوحد لإقامة العدالة العليا .
ولسوف يُطبّق شرع الله الدقيق
بالطاعة والمحبة معًا ، وإن كانت المحبة

وحدها قادرة على إقامة شرع الله ، وأما عقوبتك
فلسوف يكابدها بالمجيء بجسده
إلى حياة مَلامٍ وموت ملعون
فيبشر بالحياة لكل من يؤمنون
بالخلاص الذي أتى به ، وبأن طاعته لله ستصبح طاعة
من جانبهم ، فتنتسب إليهم بقوة إيمانهم ، وبأن خصاله العالية
هي التي تنقذهم ، لا أعمالهم ، على اتفاقها مع الشرع .
ولهذا السبب سيحيا مكروهًا ، ويُتَّهَم بالتجديف في الدين ،
ويُقبض عليه بالقوة ويُحاكم ويحكم عليه بالموت
ويُرمى بالعار وباللعنة ، ولسوف يُسمِّره في الصليب
أبناءُ أمّته نفسها ، ويقتلونه لأنه أتى بالحياة .
ولكنه سوف يُسمِّر في الصليب أعداءك
والقانون المعادي لك ، وخطايا
جميع البشر ، فسوف تُصْلب جميعًا معه
ولن تؤذي بعدها أبدًا كل من يؤمن بحق
بأنه قد قضى بذلك عقوبة الإنسان ، ومن ثم فهو يموت
لكنه سرعان ما يُبعث ، فلن تكون للموت سلطة
تغتصبه فترة طويلة ، ولن ينبلج ضوء الفجر الثالث
حتى يعود ، ولسوف تشهد نجوم الصبح قيامه
خارجًا من القبر ، في نضرة ضوء الفجر ،
وقد دفع فديتك التي يستعيدها الإنسان من الموت ، وهي
موته في سبيل الإنسان ، ويُصطفى الكثيرون للحياة

بإدراكهم ذلك ، ويظفرون بالنعيم
بالإيمان الذي يصدّقه العمل الصالح ، وهذا الفعل الإلهي
يلغي عقوبتك ، وهي الهلاك الذي كان ينبغي أن يصيبك
بسبب الخطيئة التي تعني الحرمان الأبدي من الحياة ، وهذا هو الفعل الذي
سوف يسحق رأس إبليس ، ويسحق قوته ،
فيهزم الخطيئة والموت ، وهما أهم أسلحته ،
ويغرس حرابهما في رأسه بأعمق كثيرًا
من سحق الموت الزمني لعقب المنتصر ،
أو من يفديهم بنفسه ، فيغدو موتًا مثل الرقاد
وانتقالاً لطيفًا إلى حياة الخلود .
لكنه لن يبقى بعد بعثه
طويلاً على الأرض ، إلا ليظهر في أوقات معينة
لحوارِيّيه ، وهم الرجال الذين كانوا في حياته
يتّبعونه دائمًا ، وسوف يعهد إليهم بمهمة
تعليم جميع الأمم كل ما تعلموه منه
ومن نجاته ، وهم الذين سوف يؤمنون
بالتعميد في النهر الدفّاق ، آيةَ
تطهيرهم من ذنب الخطيئة واستحقاقهم الحياة
الطاهرة ، ويتهيأون ذهنيًا ، إن قضت الأحوال بذلك ،
للموت ، فيموتون موتًا يشبه ميتة من افتداهم .
وسوف يُعلّمون جميع الأمم ، فمنذ ذلك اليوم
لن يستأثر النسل المنحدر من صلب إبراهيم

بتلقي المعرفة بالخلاص ، بل يتلقاها أيضًا جميع الأبناء
المؤمنين بعقيدة إبراهيم أينما يكونوا في هذا العالم ،
وهكذا تصبح جميع الأمم مباركة في ذريته .
وبعدها سوف يصعد إلى سماء السماوات
بالنصر ، مَزْهُوًا بالظفر ، خلال الهواء ،
على أعدائه وأعدائك ، وهناك سوف يفاجئ
الثعبان ، أمير الهواء ، ويجرّه في الأصفاد مغلولاً
في شتى أرجاء مملكته ، فيلقى به تعسًا شقيًا هناك ،
ثم يدخل في غامر المجد عائدًا إلى
مقعده على يمين الله ، رفيعًا يسمو
على جميع الأسماء في السماء ، ومن هناك سوف يأتي ،
عندما ينفرط عقد هذه الدنيا ويكتمل انحلالها ،
بالمجد والسلطان ليحكم على الأحياء والأموات ،
وليحكم على من ماتوا على كفرهم ، ويكافئ
المؤمنين به ، ويتلقاهم في النعيم ،
سواء في السماء أو في الأرض ، إذ إن الأرض
سوف تصبح كلها فردوسًا ، مكانًا أهنأ كثيرًا
من فردوس عَدْنٍ هذه ، وسوف تشهد أيامًا أهنأ وأسعد .
بذلك تكلم ميكائيل الملاك الأكبر ثم توقف ،
كأنما إجلالاً للعصر العظيم الذي ستشهده الدنيا ، وكان والدنا
قد أُفعم فرحًا وعجبًا فرد قائلاً :
يا للخير اللامتناهي ! يا للكرم السابغ الذي أدى إلى

أن يخرج كل هذا الخير من أعطاف الشر ،
وأن يتحول الشر إلى خير ، بل إن روعته أكبر
من روعة الخلق الذي أتى أولاً
بالنور من جوف الظلام ، لقد غَدَوْتُ نهبًا للشّك والتردد ،
تُرى هل ينبغي أن أندم الآن على الخطيئة
التي اقترفتُها وتسببتُ فيها ، أم أبتهج
ويزداد فرحي لزيادة الخير الذي سوف ينبع منها ،
وزيادة المجد لله ، وزيادة الخير الذي سيتلقاه الناس
من الله ، وزيادة رحمته عن غضبه ؟
ولكن قل لي : إذا كان مُخَلِّصُنا لا بد أن يصعد إلى السماء
ولا مناص من عودته إليها ، فماذا عساه يحدث للقِلَّة
من المؤمنين به ، وقد تركهم وسط قطيع الكُفَّار من
أعداء الحق ، فمن ذا الذي سيهدي
شعبه ، ومن يدافع عنه ؟ أفلن يفعل الكُفَّار
بأتباعه أنكى وأمرّ مما فعلوه معه ؟
وقال المَلَك : بل سيفعلون ذلك وثِقْ في قولي ، ولكنه
سوف يرسل من السماء المُعَزِّي إلى خُلَصَائه ،
حسبما وعد الله ، وهو الذي سوف يُسْكِنُ
روحَه فيهم ، وناموس الإيمان ،
الذي يعمل بقوة الحب فيكتبُ ما يكتبُ على قلوبهم ،
ليهديهم إلى الحق كله ، ويُحَصِّنَهم أيضًا
بدروع روحية ، حتى يستطيعوا صدّ

اعتداءات إبليس ، وإطفاء نار سهامه الملتهبة ،
وكل ما يستطيع الإنسان أن يفعله لصدّها ، غير هيّاب ،
ولو كان ذلك حتى الموت ، والتصدّي لأمثال تلك القسوة ،
واجدين من السلوى والتسرية الباطنة مكافأة وعِوَضًا ،
وكثيرًا ما يلقون المؤازرة الثابتة التي سوف تُدهش
أشد من يضطهدونهم كبرًا وخيلاء ، إذ إن الروح
الذي يُلقيه أولاً على رُسُله ، الذين يبعثهم
لهداية الأمم إلى الإيمان ، ثم يلقيه على جميع الذين
عُمِّدوا ، سوف يهبهم عطايا رائعة تمكنّهم
من الحديث بجميع اللغات ، والقيام بجميع المعجزات ،
على نحو ما فعله سيّدهم من قبل ، وهكذا يكتسبون أنصارًا
بأعداد كبيرة من كل أُمّة حتى تتلقى
بالفرحة الأنباءَ القادمةَ من السماء ، وأخيرًا وبعد
أداء مهمتهم ، وانتهاء الشوط الذي قطعوه ركضًا ،
يتركون ما سجلوه كتابة من مذهبهم وقصتهم ،
ويموتون ، ولكن يَحُلُّ مَحَلَّهم ، على نحو ما يُحَذِّرون منه ،
ذئابٌ تخلُفُهم ترتدي مسوح المُعلّمين ، ذئابٌ شرسة فتاكة ،
تعمد إلى جميع الأسرار المقدسة للسماء
فتستغلها في تحقيق مصالحها الخبيثة الخاصة ،
في تحقيق الربح ومرامي الطموح ، وأما الحق
فيلوثونه بالخرافات والتقاليد ،
وإن ظل نقيًا في تلك السجلات المكتوبة فحسب ،

ولا سبيل إلى فهمه إلاّ بالروح وحدها .
وسوف يسعون بعد ذلك إلى إضفاء أسماء رفعة على أنفسهم ،
وحيازة العقارات واكتساب الألقاب ، ويضمّون إلى ذلك
السلطة العلمانية ، ولو ظلوا يتظاهرون في أعمالهم
بالروحانية ، فينسبون إلى أنفسهم مِلْكيّة
روح الله ، وهي التي وَعَدَ بها ونَزَّلها
على كل المؤمنين ، واستنادًا إلى ذلك التظاهر
سوف يفرضون القوانين الروحية بالسلطة المادية
على كل ضمير ، وهي القوانين التي لن يجدها أحد
فيما انتهى إليهم من سجلات ، أو فيما سوف تنقشه الروح بالفطرة
وتحفره في القلب ، فماذا عساهم يفعلون إذن
سوى أن يفرضوا سلطانهم على روح العطف الإلهي نفسه ، ويحبسوا
الحرية رفيقة تلك الروح ، وسوى أن يهدموا
معابدها الحية ، التي بناها الإيمان فانتصب صرحها ،
إيمانهم لا إيمان غيرهم ، وهل يمكن أن نسمع في الأرض
عمّن هو مُنزّه عن الخطأ ، قياسًا بالإيمان والضمير ، أو من هو
معصوم ؟ لكن الكثيرين سوف يزعمون العصمة ،
ومنها ينشأ اضطهادهم الغليظ
لكل من يثابر في العبادة ، عبادة
الروح والحق ، وأما سائر الناس ، بل أكثرهم ،
فسوف يعتبرون الطقوس الظاهرة والأشكال الجذابة الخادعة
مناط الدِّين كله ، وسوف يتراجع الحق

مُصابًا بأسهم البُهتان ، وأما الأعمال التي تصدّق الإيمان
فسوف يندر وجودها ، وهكذا سوف يمضي العالم ،
خبيثًا للأخيار حميدًا للأشرار ،
وهو يئن تحت أثقاله نفسها حتى يحين اليوم الذي
يتنفس فيه الأبرار الصعداء ،
وينصبُّ الانتقامُ على الخبثاء ، عند عودة
من وُعِدْتَ بعودته منذ هنيهة ليعينك ،
ولد العذراء ، وهو الذي نُبِّئْتَ بمقدمه في نبوءة غامضة آنذاك ،
ثم عرفته الآن بوضوح مُخلِّصًا لك وسيّدًا ،
وآخر من يتجلى في السحائب المرسلة من السماء
في بهاء الله ومجده ، ليدمر
إبليس مع عالمه الفاسق ، ثم ينشئ
سماءً جديدة ، وأرضًا جديدة ، وعصورًا لا نهاية لمواقيتها ،
تقوم على أسس الصلاح والسلم والحب ،
وتؤتي ثمارها فرحًا ونعيمًا مقيمًا .

وانتهى ميكائيل من حديثه فرد عليه آدم آخر مرة قائلاً :

ما أسرع ما نجحت نبوءتك ، أيها النبيء المبارك ، في
قياس عمر هذا العالم العابر في سباق الزمن
حتى يقف الزمن ويثبت ، فلا وراءه إلا العماء ،
والسرمد ، حيث لا تقدر عين على بلوغ منتهاه .
ولسوف أرحل من هنا وقد تلقيت علمًا عظيمًا ،
واطمأن فكري اطمئنانًا عظيمًا ، ونلتُ مِلْءَ ذهني

من المعرفة ، بقدر ما يستطيع ذلك الوعاء أن يحمل ،
وكانت حماقتي هي الطموح إلى طلب ما يتجاوزه
ولقد تعلمت ، منذ الآن ، أن أَحْسَنَ الأشياء الطاعة ،
وأن أُحِبَّ الله الواحد وأخشاه معًا ، وأن أمشي
كأنما أمشي في حضرته ، وأن أرقب إلى الأبد
عنايته الإلهية ، وأن أتوكل عليه وحده ، فهو
الرحيم بكل ما خلق وصوّر ، مدركًا أنه بالخير
دائمًا ما يغلب الشر ، وأنه بصغرى الأسباب
ينجز أعظم الأمور ، وبما يُظن ضعفُه من الأشياء
يقهر ذوي القوة الدنيوية ، ويقهر حكماء الدنيا
بذوي الطيبة البسطاء ، وبأن المعاناة من أجل الحق
هي الجَلَدُ المؤدي إلى الانتصار الأرفع ،
وأن الموتَ للمؤمن بابُ الحياة ،
فلقد تعلمتُ ذلك من المثل الذي ضربه لي
مَن أُقِرُّ الآن بأنه سيفديني وأنه مبارك إلى الأبد .
وأجابه المَلَكُ لآخر مرة أيضًا قائلاً :
ما دمت قد تَعَلَّمْتَ ذلك فقد بلغت جِماعَ
الحكمة ؛ فلا تطمحْ في طلب ما هو أرفع ، على أنك عُلِّمْتَ
أسماءَ جميع النجوم ، وجميع القوى الأثيرية
وجميع أسرار المحيط ، وجميع بدائع الطبيعة ،
أو بدائع الله في السماء ، أو الهواء أو الأرض أو البحر ،
وتستمتع بجميع ثروات هذا العالم ،

وبيدك زمام الحكم كله ، فهي مملكة واحدة ، وما عليك إلا أن تضيف
أعمالاً تتناسب مع معرفتك ، وأن تضيف الإيمان ،
وتضيف الفضيلة ، والصبر ، والتعفف ، وأن تضيف الحب
وهو الذي سيطلق عليه اسم الإحسان في المستقبل ، فهو رُوحُ
سائر الخصال ، وعندها لن تكره
أن تترك هذه الفردوس ، بل ستملك
فردوسًا في باطنك ، أَسْعَدَ كثيرًا واهنأ .
فلنهبط الآن إذن من هذه القمة التي
نتطلع منها ، فلقد حان الموعد المضروب ،
ولابد من رحيلنا من هنا ، وانظر هؤلاء الحراس
الذين جعلتهم يرابطون على ذلك التل ، وينتظرون
أوامر انتشارهم ، وفي مقدمتهم سيفٌ ملتهب ،
يُلَوِّحُ به ضاريًا ، فهو إشارة الانطلاق .
لا يجوز لنا التلكُّؤ ، فاذهب وأيقظ حواء ،
فلقد بعثتُ الطمأنينةَ في نفسها أيضًا بأحلام لطيفة
تبشر بالخير ، وهيأتُ مشاعرها وملكاتها جميعًا
للتسليم الخاشع ، وعليك أنت في الوقت المناسب
أن تُطلِعَها على ما سَمِعْتَه مني حتى تشاركَكَ فيه ،
خصوصًا ما يخص إيمانها من معرفة ،
ألا وهو الخلاص العظيم على يد أحد أبنائها في المستقبل
(إذ سيأتي به ولد عذراء) لجميع أبناء البشر ،
وحتى يعيش كلاكما – ولسوف تعيش أنت أيامًا كثيرة –

وقد اجتمعتما على إيمان واحد ، برغم الأحزان
الناشئة عن سابق الآثام ، لكن بفرحٍ وابتهاج أكبر
عند تأمل النهاية السعيدة .

وانتهى ميكائيل من حديثه ، فأخذا يهبطان التل ،
وعند السطح أَهْرَعَ آدمُ إلى الخميلة التي كانت حواء
ترقد نائمة فيها ، قبل ميكائيل ، فألفاها قد استيقظت ،
فاستقبلته بكلمات خَلَتْ من الأحزان قائلة :
أعرف من أين رجعتَ وأين ذهبتَ ،
فلقد كان الله معي في منامي ، وأرشدتني أحلامي
إلى الذي أُرسل إلينا بالبُشرى ، وبالخير العظيم
الذي تنبأ به ، منذ أن ران عليَّ الهمُّ وغَمُّ القلب
فأنهكني فنمت ، ولكن هيّا بنا ، تقدم فأتبعك ،
لن أتباطأ عنك ، فالذهاب معك
هو البقاء هنا ، وتصوُّرُ البقاء هنا دونك
يحفزني على الرحيل وإن كرهته ، فأنت لي
جميع الأشياء تحت قبة السماء ، وجميع الأماكن أنت ،
أنت الذي نُفيتَ من هنا بسبب جريمتي المتعمدة .
وإليك عزاء آخر لا ريب فيه
أحمله معي من هنا ، وهو أنني ، وإن كنت السبب في فقدان كل شيء ،
قد أُنعم عليّ بفضل لا أستحقه ،
إذ سأضع الولد الموعود الذي سوف يعيد لنا كل شيء .
بهذا تكلمت أُمُّنا حواء ، وسمعها آدم فَسُرّ

سرورًا عظيمًا لكنه لم يُجبها ، إذ كان المَلَكُ الأكبر
يقف على مسافةٍ جِدٍّ قصيرةٍ منهما ، وكان ملائكة الشاروبيم
يهبطون من التل الآخر لاحتلال مواقعهم الثابتة
في صفوف وضاءة ، تومض على الأرض
وهم يزحفون كالشهب البراقة ، مثلما يزحف ضباب المساء
المتصاعد من صفحة النهر على وجه المستنقع ،
ويسرع بخطى لاهثة في أعقاب العامل
العائد إلى منزله . وكان يتقدمهم عاليًا
سيف الله المسلول ، ملتهبًا يبرق
بريقًا ساطعًا كالمُذَنَّب في السماء ، ويشع حرارة كالسعير
وأبخرة حارقة مثل هواء صحراء ليبيا ،
وبدأ يشيع اللظى في ذلك الجو المعتدل ، وعندها
أسرع المَلَكُ بوضع يديه في يَدَيْ كل من
والدينا المتباطئين ، وساقهما إلى الباب الشرقي
مباشرة ، وبالسرعة نفسها هبط الجميع من الصخرة الشاهقة
إلى السهل المقصود عند السفح ، ثم اختفى المَلَك .
والتفتا إلى الخلف فشاهدا الجانب الشرقي كله
من الفردوس ، التي كانت منذ هُنيهة مقام هنائهما ،
والسيف الملتهب يُلَوِّحُ به فوق الباب ،
حيث تجمعت وجوه تلقي الرعب في القلب وأسلحة نارية .
وذرفا بعض العبرات - عبرات الطبيعة البشرية - ثم جففاها
على الفور ،كانت الدنيا تمتد كُلُّها أمامهما ، تدعوهما لاختيار

مقر راحتهما ، تهديهما العناية الإلهية .

وهكذا ، بأيد متشابكة ، وخطوات حائرة بطيئة ،

سارا وحيدين في أرض عدن .

الحواشي

3 - (المذاق المهلك) عبارة تتضمن تورية إذ يريد ميلتون أن يقول إنه أيضًا (مذاق الهلاك) أي المذاق الذي يأتي بالفناء أو الهلاك (تكوين 2 / 17).

5 - الحقيقة أن عدن لم تضع وإنما ضاعت الفردوس فحسب وهي عند ميلتون جزء من عدن - ولكنه يستخدم عدنا هنا للدلالة على الفردوس والمقصود بالرجل الأعظم المسيح عليه السلام (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس 21/ 12 والرسالة إلى أهل رومية 5/ 19).

6 - هي (أورانيا) - ولكنها ليست الآلهة الأسطورية فحسب بل روح القدس أيضًا. وقد كان هذا الخلط شائعًا عند ميلتون.

8 - يحتمل أن يكون (حوريب) وطور سينين اسمين مترادفين لنفس الجبل ويحتمل أن يكونا اسمين لذروتين من ذراه المتعددة.

(واسم الجبل في التوراة سيناء - خروج 19/ 11 - ولكنه يشار إليه أيضًا باسم (حوريب) (تثنية 4/ 10) . والمقصود بالراعي موسى عليه السلام. إذ كان راعيًا في الحقيقة وكان راعيا بالمعنى المجازي لبني إسرائيل. انظر الخروج 3/ 1 للمعنى الأول والمزمور 77/ 20 للمعنى الثاني حيث ترد عبارة « هديت شعبك كالغنم بين موسى وهرون» .

8 - أي علم بني إسرائيل - (تكوين 1) .

10 - هذه فكرة أسطورية قديمة طوعها ميلتون لتساير التراث الديني. إذ تقول الأساطير اليونانية إن العماء هو المادة الأولية (الهيولة) التي لا شكل لها ولا صورة، والتي خلق منها العالم. وجبل صهيون وجبل (المريا) هما

الجبلان اللذان بنيت عليهما بيت المقدس . كان المعبد على جبل المريا. أما صهيون فكان اسمه «مدينة داود» (انظر تكوين 22/ 2 ، صموئيل ثاني 24 - 18 أخبار الأيام ثاني 3/ 1) .

11 - كان سلوام غديرا رقراقا تدفقت مياهـــه بعـد ذلك وسالت ، وغـدت جـدولا يروي (حـديقة الملك) (أنجيل يوحنا 9/ 7 إلى 11) كما ورد ذكره باعتباره مكانا عاما في أنجيل لوقا 13/ 4) .

12 - أي المعبد المقام في بيت المقدس (أورشليم) (انظر ملوك أول 4/ 19 و 20) وهو المكان الذي تنزل فيه الوحي على المسيح عليه السلام . ولما كان المسيح قد أثبت معجزة ارتداد البصر إلى الأعمى هناك حين جعله يغتسل من ماء الغدير (سلوام) فربما كان ميلتون يرمي إلى التمثل بهذه المعجزة لأنه كان قد فقد بصره هو الآخر . وربما كان ميلتون يريد أن يعقد مقارنة أخرى بين الغدير القريب من المعبد وبين النبع الذي يجاور مذبح (زيوس) على جبل (هليكون) وهو النبع الذي كانت ترتاده ربات الفنون والآداب .

15 - جبل (هليكون) الذي كانت ترتاده ربات الشعر . ويقصد ميلتون أنه سيعلو عليه لأنه سيعالج موضوعات أسمى من موضوعات الشعر الوثني .

16 - هذا التباهي بالتجديد معهود في القصائد الملحمية .

18 - انظر المزمور 15/ 1 و 2 والرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس 3/ 16 .

22 - انظر أنجيل متى 3/ 16 ، وأنجيل مرقس 1/ 10، وأنجيل لوقا 3/ 22، وأنجيل يوحنا 3/ 2 . وهذه إشارة إلى الفكرة الشائعة التي تقـــول: إن الحياة (والإنسان) قد خلقا من الموت والظلام .

34 - أي إبليس الذي تمثل بالثعبان .

35 - أي حسده الإنسان لما أسبغه الله عليه من مكانة عالية .

45 - يمزج ميلتون هنا بين الإشارات إلى ما ورد في الأنجيل (لوقا 11/ 18

) وإلى ما ورد في إليانة هوميروس (الكتاب الأول / 591) .

49- هذا البيت هو نهاية المقدمة والبيت التالي هو بداية أحداث الكتاب الأول .

50 - الفقرة من البيت 50 إلى البيت 83 تمثل ما يسمى في البلاغة القديمة بالعرض أو البسط أي وصف المشهد الذي تقع فيه الأحداث .

74 - مركز الأرض يعني الأرض نفسها ، أما القطب الأقصى فهو ليس قطب الأرض بل قطب الكون . إذ كان المعتقد أن الأرض مركز لعدد من الأفلاك يشير أحد أقطابها إلى السماء الأثيرية ويشير القطب الآخر إلى الدرك الأسفل من الجحيم . أما تحديد المسافة فيعتمد فيه ميلتون على (هيزيود) و(هوميروس) .

81 - (بعلزبول) في العبرية أو بعلزبوب تحريف لكلمتي بعل ذباب أي - بعل الذباب أي سيدها - وهو يسمى في الأنجيل أمير الشياطين (انظر إنجيل متى 12/ 24) .

84 - حديث إبليس هنا مختلط لألمه وغضبه - وهو في الأبيات الأربعين التالية يفصح عن هذا عن طريق العبارات الممزقة غير المكتملة . هذه العبارة صدى للآية الواردة في إشعياء 14/ 12 .

92 - أي الله - سبحانه وتعالى . لاحظ أن إبليس يتحاشى ذكر لفظ الجلالة مباشرة.

97 - يذهب بعض الشراح إلى أن الأبيات من 95 - 97 مأخوذة من رد بروميثيوس على زيوس في مسرحية بروميثيوس مغلولا (الأبيات 992 - 997) ولكن ميلتون رغم معرفته بتلك المسرحية لم يكن يرمي إلى محاكاة ايسخولوس الكاتب المسرحي اليوناني القديم بل كان يحاول إضفاء صفات

ملحمية على شخصية إبليس .

105 - دارت المعركة ثلاثة أيام انتهت بهزيمة الملائكة العاقين ولكنهم لم ينهزموا هزيمة ساحقة كما يتضح من هذه الفقرات إذ لم يكن الخالق يريد لهم الفناء بل كان يريد إخراجهم من الجنة فحسب كما يقول ميلتون نفسه في الكتاب السادس (البيت *854*) . أما استخدام كلمة «سجال» وتعبير زلزلت عرشه فهو من قبيل المبالغة .

116 - المقصود بالآلهة الكائنات الروحية أو الملائكة .

117 - المعنى الحرفي هو الكيان الناري لأن الشياطين تنتمي إلى طبقة من طبقات السماء تغشاها النار . وبينما يتفاخر إبليس بأن الأقدار قد قضت للملائكة بالخلود لا يرى بعلزبول في هذا الخلود ما يبعث على الأمل .

128 - أي من كانوا متوجين قبل الهزيمة ولكن المقصود هو الإيحاء بالرفعة والعظمة.والمتوجون طبقة من طبقات الملائكة ، كذلك كلمة الصناديد التي أوردها هنا ترجمة لكلمة Powers انظر الكتاب الثاني البيت (*11*) حيث ترد الإشارة إلى الصناديد (وانظر الحاشية) والبيت (*310*) حيث يُقرن المتوجون بالصناديد.

129 - (الصاروفيم) هو صيغة الجمع بالعبرية (فالياء والميم تقابل الواو والنون بالعربية) والكلمة إذن جمع وتشير إلى أرفع درجات الملائكة .

132 - يشير (امبسون) إلى أن هذين البيتين يتضمنان مفارقة ، إذ إن (بعلزبول) يكرر المبالغة التي وقع فيها إبليس أولاً ،ثم يضيف أن رفعة الباري تعرضت لامتحان أثبت حقيقتها .

138 - أي الأرواح - وهذه مفارقة إذ يعني (بعلزبول) أنه لم يفن منها شيء - كما يتضح من البيت التالي .

140 - ميلتون يستخدم الفعل في حالة المفرد لأنه يرى أن الذهن والروح

شيء واحد .

152 - المحيط البهيم هو العماء كما يتضح من الكتاب الثاني .

155 - يفرق ميلتون بين صفة الأزلية والدوام التي يختص بها البارئ جل وعلا و صفة السرمدية التي يهبها الله لطبيعة لخلق - وهناك قطعا تفرقة بين اللفظين Aeternus و Perpetuus في اللاتينية . ولذلك فضلنا صفة السرمدية هنا . (انظر سورة القصص - الآيتان 71 ، 72) .

158 - يقصد بالعمل أداء ما يأمرهم به الله ، أما المعاناة فهي احتمال العذاب . وثم مقابلة بين إيجابية العمل وسلبية المعاناة .

171 - يقصد بالرسل الملائكة الأخيار . وقد ذهب بعض الشراح إلى تفسير قول إبليس هنا بأنه يرفض الاعتراف بأن البارئ هو الذي أوقع به الهزيمة وينسب ما حل به إلى فرق الملائكة الأبرار . ويقول (امبسون) :إن هؤلاء الشياطين كانوا في حال من يفيق من المخدر ولا يذكرون الأحداث التي وقعت ما بين الموقعة وإطلاقهم من الأصفاد.

198 - 199 (التيتان) في الأساطير القديمة سلالة من نسل (أورانوس) أي السماء و(جي) أي الأرض ، وقد ثاروا على حكم أبيهم (أورانوس) ونصبوا واحدا منهم هو (ساتورن) ملكًا على الآلهة . وأما (جوبيتر) فهو (زيوس) رب أرباب اليونان القديمة ، وأبناء الأرض هم العماليق الذين تمردوا عليه (مثلما تمردت سلالة التيتان على أورانوس) ولكنهم هزموا. وأما (برياروس) فهو اسم لكائن ضخم من نسل السماء والأرض ، مثل (التيتان) والعماليق ولكنه ليس منهم وكان في رأي البعض عملاقًا له مائة ذراع ،وقد ذهب معظم النقاد إلى أنه كان قريب الصلة (بالتيتان) غير أن أرجله على شكل أفعوان . ويذهب جمهور الشراح إلى أن (تايفون) أو

(تايفوس) كان من العماليق وكانت له مائة رأس على شكل الأفاعي وأنه يختلف في ذلك عن (برياروس) وأنه يقترب في هيئته من (التيتان) ولكن الأساطير كثيرًا ما تخلط بين السلالتين. ويذكر أوفيد في كتابه مسخ الكائنات أن أهل الأوليمب لم تكن لهم حيلة أمام (التايفون) إلا أن يمسخوا صورهم حتى يفلتوا من غضبته إن هو قاتلهم .

200 - (طرسوس) هي عاصمة (سليسيا) القديمة (في أسيا الصغرى). والمقصود هنا هو (سليسيا) وليس (طرسوس) بالذات .

201 - (ليفاياثان) هو الوحش الأسطوري المذكور في سفر أيوب وفي النشيد رقم *104* وأحيانا ما يوصف بالتنين أو الأفعوان كما يوصف أحيانا بأن له جسد حوت ضخم (رغم أن الحوت لا تغطي جسده القشور كما يذكر ميلتون هنا) . وقصة الملاحين والحوت ذائعة وقد وردت في قصة السندباد البحري مثلا وفي رحلات القديس (برندان) . وربما اطلع عليها ميلتون في كتاب المؤرخ السويدي (أولاس ماجنوس) التي ترجمت إلى الإنجليزية في *1658* - وهذا يفسر إشارته إلى بحر النرويج .

232 - جبل (بلوروس) يقع في الشمال الشرقي من جزيرة صقلية على مقربة من جبل «إتنا» ويسمى الآن رأس فارو .

237 - تعتمد هذه الصورة على النظرية القديمة التي كانت تقول بأن البراكين تثور عندما تهب الرياح في باطن الأرض وتزيد من سرعتها المعادن الملتهبة مثل الكبريت المتبخر بحيث تفور وتخلف القاع خاويًا . والشاعر يشبه أرض الجحيم بأرض البركان بعد أن يفرغ ما في أحشائه من معادن وأبخرة وبخاصة لونها المكفهر القاتم .

237 - في الأصل يصف ميلتون هذه البحيرة بأنها Stygian نسبة إلى نهر Styx أحد أنهار الجحيم أو العالم السفلي في الأساطير اليونانية ، ولكن

الإشارة واضحة إلى بحيرة اللهب التي سبق ذكرها في البيت 210 وسبقت الإشارة إليها في البيت 52 أيضًا . ويقول (تليارد) :إن الصفة أصبحت تشير بوجه عام إلى الجحيم أو العالم السفلي بل إن ميلتون يستخدمها في الكتاب الثاني بهذا المعنى (انظر البيت 506) .

241 - أضفت عبارة « في ظنهما » إلى هذه الجملة لإيضاح مرمى ميلتون .

255 - هذه من الأفكار الرواقية الشائعة وقد أشار إليها (هوراس) في الرسالة الأولى (الباب الحادي عشر - 27) ولكن النظرية التي شاعت في القرن السابع عشر واقترنت بالإلحاد هي أن الجنة والجحيم حالتان من حالات النفس أو الذهن يمكن ردها إلى (أموري دي بيني) أحد زنادقة العصور الوسطى، ولذلك فهي تختلف عن الأفكار المشابهة التي وردت في شيكسبير (هاملت - ف 2 - م 2 - 250) وفي مارلو (فاوست - ف 2 - م 1 - 122 و 124). وعلى أي حال فثم مفارقة كبرى في هذين البيتين إذ إن إبليس يعجز عن إثبات دعواه أولا حين يبدي دهشته للتغير الذي طرأ على بعلزبول، وثانيًا حين يقر في الكتاب الرابع أنه أنّى ولّى وجهه فثم جحيم وأنه يحمل الجحيم في ذاته .

288 - هو (جاليليو) الذي أدخل تحسينات كبيرة على المنظار المقرب واستطاع من ثم استخدامه في دراسة الفلك ،إذ اكتشف بالفعل حلقات (زحل) وأقمار (المشتري) . وأما كلمة الفنان فتعني العالم وقد كان ميلتون معجبًا بعلم (جاليليو) وهو يذكر أنه زاره ويقال إن ذلك قد حدث في عام 1638. وكان جاليليو آنذاك قد حددت إقامته في منزله في فلورنسا وهي (فالدارنو) أو وادي (الأرنو) - وكان منزله يشرف على تلال (فيزولي). أما تشبيه الدرع بالقمر فقد ورد في الإلياذة رغم أن الصورة التي رسمها

هوميروس (انظر القسم 14 - البيت 373) تركز على البريق لا على الحجم. كما أن (سبنسر) قد شبه الدرع بالقمر في ملكة الجان - ويذكر بعض الشراح أن التشبيه بالقمر يقرب إلى الأذهان العالم الأرضي الذي ستقع فيه حوادث الملحمة فيما بعد .

303 - تعني حرفيا « وادي الظلال » وهو بقعة رائعة الجمال بالقرب من فلورنسا من المحتمل أن ميلتون قد زارها في خريف 1638 . وأما «أتروريا» فهو اسم آخر لمنطقة (توسكانا) - لاحظ أن ميلتون يستخدم الظلال هنا كناية عن أوراق الأشجار الوارفة . أما أوراق الأشجار الذابلة نفسها فهي الاستعارة المألوفة للتعبير عن الأعداد التي لا تحصى من الموتى . انظر الإلياذة (4/ 146) والإنيادة (6/ 309) وجحيم دانتي (3/ 114 - 115) .

305 - كوكبة (الجبار) من أبرز ما يرى في السماء صيفًا وشتاءً وهو مجموعة من النجوم تخيلها الأقدمون في صورة صياد عملاق يحمل على كتفه الأيسر جلد الأسد وبيده اليمنى قوسه ونشابه في وسطه حزام من ثلاثة نجوم براقة وعند قدميه كلبان أحدهما هو المشهور بالشعرى اليمانية Sirius عند العرب أو ما يطلق عليه كلب الجبار وحسب Canis majoris. وقد ارتبط ظهور هذه الكوكبة أول الأمر ببداية موسم الرياح والأعاصير ، وهكذا أشار (فيرجيل) في الإنيادة (1/ 535) إلى هذه الأسطورة وأشار غيره من الكتاب إليها أيضًا (بليني وريشيولي) ولكن المهم هو ارتباط الصورة بما ورد في سفر أيوب عن قدرة الخالق على إرسال الرياح لمعاقبة المخطئين وهي القدرة التي يرمز لها خلق (أوريون) نفسه (أيوب 9/ 9) .

308 - أرض (جاسان) (جوشن بالعبرية) هي منطقة بالقرب من محافظة الشرقية الآن في مصر اشتهرت في الزمن القديم بخيراتها الوفيرة .

316 - هناك إيحاء في النص الإنجليزي بأن زهور الجنة تعني الملائكة أيضًا ، ولكن بناء الجملة العربية لا يتيح إبراز المعنيين معا .

324 - (الشاروبيم) جمع - وهي كلمة تحتفظ بإعراب الجمع في العبرية شأنها شأن الصاروفيم .ويستخدم مترجمو العهد القديم حرف الكاف بدلاً من الشين ، ولقد آثرت أنا - بناء على اقتراح للدكتور لويس عوض - أن أستخدم الصورة الشائعة في مصر لهذا الاسم . وقد استخدم ميلتون مفرد هذه الكلمة كما استحدث مفردًا لكلمة الصاروفيم (انظر فاولر ص 481) .

329 - وهي الأسلحة التي استخدمها (جوبيتر ومنيرفا) ضد المتمردين من العماليق .

341 - تشبيه الشياطين بالجراد يعتمد على الصورة الواردة في الكتاب المقدس، والتي شاعت في القرن السابع عشر . وقد أبرز أحد النحاتين في عام 1617 هذه الصورة أيضًا عندما صور محاولة إغراء القديس أنطونيو.

(انظر كتاب الفن والوهم تأليف ا.هـ. جمبريتش - 1962) .

351 - هم (القوط) و (الهون) و (الواندال) الذين اكتسحوا جنوب أوروبا ونهبوا ثروات روما وأثينا في القرن الخامس الميلادي . وربما كان ميلتون يخص (الواندال) بالذكر لأنهم هم الذين عبروا مضيق جبل طارق واستقروا في شمال إفريقيا .

353 - يخص نهري (الراين) (والدانوب) لأن هذين النهرين كانا يشكلان حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة.

355 - بهذا يكون ميلتون قد شبه الملائكة الفسقة أولا بعالم النباتات (أوراق الشجر) ثم عالم الحيوان (الجراد) ثم عالم البشر (غزاة الشمال) مما يوضح فكرة السُّلّم أو الدرجات التي خصصها لكائنات هذا الكون،

وحيث تعكس الاستعارات حالات الذهن التي يمر بها الشياطين .

361 - يعود ميلتون إلى الفكرة نفسها في الكتاب السادس، حيث يقول (*378* - *380*):إن الأقدار قضت بإقصاء أسمائهم من السماء ومن الذاكرة القدسية ،وأنهم لابد أن يقطنوا غياهب النسيان .

363 - « لوح الحياة » تعبير شائع ورد في الكتاب المقدس - (انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي - الإصحاح الثالث - *5* -) انظر أيضًا سفر الخروج (*32*) والمزمور *79* (*28*) ولكن صيغة الجمع الواردة هنا غير مألوفة ويعتقد أنها خطأ إملائي .

365 - كانت الفكرة الشائعة في العصور الوسطى وما بعدها أن آلهة الوثنية هم الملائكة الفسقة والشياطين الذين ذكرهم الكتاب المقدس، وهكذا فإنهم منذ الآن لابد أن يكتسبوا أسماء هذه الآلهة الوثنية إذ نزعت عنهم أسماؤهم القديمة .

376 - *521* - يقدم ميلتون هنا قائمة طويلة بأسماء آلهة الوثنية ولا شك أنه يحاكي في ذلك قائمة السفن وقوادها الواردة في الإليانة (الكتاب الثاني - البيت *484* وما بعده) والقائمة التي يوردها فيرجيل في الإنيادة (الكتاب السابع - البيت *641* وما بعده) والتي يعدد فيها أسماء الأبطال الذين حاربوا إنياس . وهو يبدأ مثل هوميروس وفيرجيل باستلهام ربة الشعر . وهو يقسم الشياطين الذين تحولوا إلى آلهة وثنية إلى فئات بحسب المناطق التي عبدوا فيها - وهذه هي:(*1*) الأراضي المقدسة (*381* - *418*) ، (*2*) سوريه وفينيقيا (*419* - *476*)، (*3*) مصر (*476* - *489*) ، (*4*) بليعال - دون تخصيص مقدسات بعينها (*490* - *505*) ، وأخيرًا (*5*) اليونان وروما (*507* - *521*) .

386 - هو أحد ألفاظ الجلالة الواردة في التوراة . والمقصود معبد صهيون ،ومعنى العبارة التالية أن صور الملائكة تحف

بقدس أقداس هذا المعبد .

392 – يجمع إبليس حوله اثني عشر شيطانًا وهم: (ملكوم) (وبعليم) (وعشتورث) (وتموز) (وداجون) (واوزوريس) (وايزيس) (وحورس) (وبليعال) (وتيتان) (وساتورنوس) (وجوبيتر). وربما كان اختيار ميلتون لهذا العدد يعود إلى مذهب التنجيم الفلكي (المانيلي) الذي يقوم على افتراض أوصياء أوليمبيين يبلغون اثني عشر وصيا أو إلى محاولة إقحام الرسل الاثني عشر في نظام البروج الشمسية . واسم (ملكوم) معناه بالعبرية «الملك» .

396 – يصف (جورج ساندز) صنم (ملكوم) قائلاً إنه أجوف وبداخله موقد ملتهب، ويقول: إن كهنته كانوا يضربون الدفوف وينفخون الأبواق حتى لا تصل صرخات الأطفال من الضحايا إلى آذان آبائهم . (انظر عاموس 5 – 26) .

397 – صموئيل ثاني 11 – 1 .

398 – ملوك أول 43 – 13 .

403 – تقول التوراة : عندما تقدم سليمان الحكيم في السن استطاعت زوجاته الكافرات التأثير عليه فبنى معبدًا عاليًا لكل من (كموش) و (ملكوم) (ملوك أول 11/ 4 إلى 8) وذلك على قمم تل الزيتون الذي تحول اسمه من ثم إلى تل النساء (ملوك ثاني 23/ 13) أو تل العار – أو كما يصفه ميلتون بالدنس ويذكر (أرمياء) بستان (ملكوم) وغيره من آلهة الوثنية .

405 – كان وادي بني (هنوم) (ملوك ثاني 23/ 10) بستانا ملكيا ترويه مياه جدول يتدفق من (سلوام) ولكنه بعد أن شهد الضحايا الذين أحرقوا في صنم (ملكوم) لم يعد يحظى بأي احترام وأصبح الناس يخافونه ويرتعدون من ذكره . بل إن اسمه باليونانية (جهنه) أصبح يعني جهنم أي الجحيم ،

كما أن اسمه الآخر (توفه) يعني الدف بالعبرية وهو يشير إلى الموسيقى المصاحبة لطقوس التضحية أمام صنم ملكوم. وقد وضع (يوشيا) حدا لكل هذه الطقوس والضحايا، كما دمر المعبد وأزال البستان وأعلن أن المكان قد حلت عليه اللعنة وغدت تلقى فيه القمامة (ملوك ثاني 23/ 10 إلى 14).

406 - يعتبر (كموش) الإله الوثني المقابل (لملكوم) عند أهل مؤاب الذين يقطنون المنطقة التي حددها موسى عليه السلام ميراثا لقبيلتي رؤبين وجاد. وجميع الأسماء الواردة هنا مذكورة في الكتاب المقدس (عدد 32) وتقع جميعها شرق نهر الأردن والبحر الميت. وثم خلاف حول مكانها بل وما ترمز إليه. فمثلا يقال إن (عروعير) تقع في أقصى شمال المنطقة، وأن (نبو) بلدة في الجنوب بالقرب من جبال (عباريم).

والتوراة تذكر أن بني إسرائيل قد فتحوا مدينة (حشبون) وهي مدينة مؤابية كان ملك سيحون قد احتلها (عدد 21/ 25 إلى 30) كما تتضمن النبوءة الحزينة بدمار مؤاب ذكر (حشبون) و (حورونايم) ونبيذ (سبمة) و (العالة) (إشعياء 15 - 26).

409 - سيحون هو ملك العموريين الذين كانوا قد احتلوا تلك المنطقة.

410 - سبمة - ذكرت عرائش الكروم في إشعياء 14 - 8 إلى 10 وفي إرميا 48 - 32.

411 - يقال إن (العالة) بلد بالقرب من (حشبون). وميلتون يصف البحر الميت في النص بأنه «بركة الأسفلت» وهذا هو الاسم القديم؛ لأنه كان يتميز ببقع من الزيت الأسود تطفو فوق سطحه.

412 - (فغور) أو (بعل فغور) أحد الآلهة الوثنية التي أغوت النساء المؤابيات بني إسرائيل بعبادتها في (شطيم) (عدد 25/ 1 - 3). أما كلمة (بعل) وجمعها بالعبرية (بعليم) فتشير إلى كبير

آلهة الكنعانيين ، وقد كانت له أسماء كثيرة تختلف من مكان إلى مكان - و (بعل فغور) كان يعبد - كما هو واضح - في (فغور) .

413 - (شطيم) تقع على الشاطئ الشرقي لنهر الأردن في مواجهة (أريحا) على الشاطئ الغربي.

414 - تذكر التوراة أن عدد من ماتوا عقابا على عبادة (بعل فغور) بلغ أربعًا وعشرين ألفًا - وذلك بالطاعون الذي أرسله الله عليهم (عدد 25/ 9) .

418 - انظر الكتاب المقدس (ملوك ثاني 23 - 1 - إلى 25) و (أخبار الأيام الثاني 34/ 1 إلى 7) حيث الوصف الكامل لتحطيم الأصنام الوثنية ومعابدها وكهنتها على يدي (يوشيا) .

420 - يوصف الفرات بأنه عريق، لأنه مذكور في سفر التكوين 2/ 14 باعتباره أحد الأنهار الأربعة التي تتدفق من جنة عدن .

421 - المقصود هو نهر (البسور) (صموئيل الأول 30/ 10) وهو المذكور في سفر التكوين باسم نهر مصر (تكوين 15 - 18) ويقول (تليارد) إنه في الحقيقة نهير أو غدير تجف مياهه في الصيف .

422 - انظر ملوك أول 18/ 18 . و(11/ 33) - وعشتورث في الحقيقة مفرد وجمعها عشتاروث. وهي التي يستخدمها ميلتون مع البعليم (التي هي جمع) .

435 - مثل العجل الذهبي (الخروج 32/ 1 إلى 8) والآلهة المصرية التي اتخذت صور الحيوان .

438 - كانت عشتروت أو إلهة القمر تنسب إلى (صيدا) في فينيقيا القديمة - وكان لها تمثال له جسم امرأة وفوق رأسها رأس ثور وقرنان

يشبهان الهلال .

444 - كان سليمان يتمتع - إلى حكمته - برحابة القلب (ملوك أول4/ 29).

446 - كان (تموز) ابنا لأحد ملوك سورية وقد وقعت (عشتورث) في غرامه . وبينما هو يصطاد ذات يوم إذ قتله خنزير بري ،وهنا أقنعت عشتورث آلهة العالم السفلي أن يسمحوا له بقضاء نصف العام على الأرض معها والنصف الأخر في العالم السفلي. وكانت نساء (فينيقيا) يعقدن مأتما ينعينه فيه مرة في العام - وقد امتدت هذه العادة إلى العديد من البلدان . وقد رأى (حزقيال) (8 / 14) نساء إسرائيل وهن يبكين تموز على باب المعبد.

وأخذ اليونان هذه القصة مستبدلين (أدونيس) (وأفروديت) (بتموز) (وعشتورث) وربما كان هذا الاحتفال الذي يتم بعد الانقلاب الصيفي

(أي بعد رحيل فصل الثمر والحصاد) مرثية للعام المنصرم . وهكذا فإن لون المياه في نهر (أدونيس) (انظر الحاشية التالية) الذي يتغير في موسم الفيضان بسبب الغرين والطمي الأحمر الذي يأتي به من جبال لبنان، أصبح رمزا لتجدد الجرح الدامي لذلك الإله الوثني .

450 - ربما كان هذا النهر هو نهر ليطاني الحالي في لبنان .

455 - رغم أن (حزقيال) كان حبيسًا وبعيدًا عما يجري ،فقد استطاع أن يهتدي في رؤياه إلى ما كان بنو إسرائيل يفعلونه .

456 - ورد تعبير «في الظلام» في الكتاب المقدس، بمعنى الاعتقاد بأن الله لا يرى شيوخ بني إسرائيل انظر (حزقيال 8 / 12) .

461 - انظر (صموئيل الأول5/ 1 - 4) - الكتاب المقدس يشير إلى «تابوت الرب» الذي أحدث ذلك (لداجون) ولكن الكلمة الإنجليزية صريحة الدلالة . أما (داجون) فهو كبير أرباب الفلسطينيين،

وكان يعتبر إلها من الأسماك لأن سائر جسمه - فيما عدا الرأس واليدين - مثل السمكة .انظر الفقرة المشار إليها في الكتاب المقدس (وانظر أيضًا قضاة 16 - 23) .

466 - كانت (أشدود) (وجت) (وعسقلان) (وعكا) (وغزة) هي المدن الرئيسية في فلسطين (انظر ملوك أول 2 - 29) ونبوءة تدمير هذه المدن واردة في (صفنيا 2/ 4) .

467 - رمون هو أحد الآلهة السورية (انظر ملوك ثاني 5/ 18) .

469 - نهران من أنهار دمشق القديمة .

471 - المجذوم هو نعمان (ملوك ثاني 5 / 1 إلى 9) وكان قد أوصاه (اليشع) أن يغتسل في نهر الأردن حتى يشفى، ولكنه أبى واستكبر وقال:إن نهري (بانه) (والفرفر) أجمل ثم أصاخ للنصح واغتسل فشفي ومن ثم آمن بالله . وكان أحاز (ملوك ثاني 16/ 9 إلى 17) قد أقنع الأشوريين بفتح دمشق وبعدها استهوته عبادة (رمون) فأقام له معبدًا على النمط السوري في بيت المقدس مكان معبد الله . كما أنه عبد سائر آلهة دمشق (أخبار الأيام ثاني 23 - 28) .

482 - لم يرد ذكر هذه الآلهة المصرية في الكتاب المقدس - ولكن ميلتون يشير إلى الأسطورة القائلة بأن بعض آلهة (الأوليمب) الهاربين من بطش العملاق (تيفوس) دخلوا مصر وتنكروا في صور الحيوان التي عرفها المصريون القدماء . وكان من أشهر هذه الصور صورة العجل (أبيس) التي كانت ترمز إلى (أوزوريس) .وفي قصيدة «الاحتفال بصبيحة عيد الميلاد» يتحدث ميلتون أيضًا عن الآلهة المصريين (انظر الأبيات 211 - 215) .

483 - يقول ميلتون: إن العجل الذهبي المذكور في سفر الخروج (32/ 1 إلى 8) قد صنع من الحلي التي اقترضها بنو إسرائيل من المصريين قبل

أن يرحلوا من مصر (خروج 12 / 35) وأن العجل الذهبي كان يشبه آلهة المصريين ،ويقول (فاولر) إنه العجل أبيس .

484 - الملك العاصي هو (يربعام) الذي تمرد على (رحبعام) خليفة سليمان عليه السلام ،وأقام لنفسه مملكة مستقلة في شمال فلسطين، وأقام في مدينتي (بيت آيل) و (دان) - وهما مدينتان قرب الحدود - تمثالين من الذهب للعجل الذي يقدسه . وهكذا «ضاعف» من الإثم بصنعه «عجلين» بدلا من عجل واحد. (انظر ملوك أول 12 - 28) .

486 - انظر المزمور 106 (20) عن العجل الذهبي . (وأبدلوا مجدهم بمثال ثور آكل عشب) .

489 - في ليلة الخروج من مصر أتى (يهوه) - أي الرب - على أكبر الأبناء في كل أسرة مصرية - انظر التوراة (سفر الخروج 2 - 12): « فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين . أنا الرب ». ويرى (فاولر) أن الضربة وقعت بالحيوانات المقدسة في مصر (انظر - عدد 33 / 4) وربما كانت صفة «الثاغية» (البيت 489) لا تنطبق على كل الحيوان ،ولكن المقصود بها السخرية من اتخاذ الحيوان إلها .

490 - ليس (بليعال) اسما لإله حقيقي ولكنه صفة مجردة تعني الظلم أو التفاهة أو الشر بوجه عام . وعبارة أبناء بليعال (انظر البيتين 501 - 502) تعني الأشقياء بصفة عامة - انظر التوراة: « قد خرج أناس بنو لئيم من وسطك » (تثنية 13 / 13) - ولكن اعتبار (بليعال) شخصا يعود إلى العبارة الاستعارية الواردة في العهد الجديد «وأي اتفاق للمسيح مع بليعال وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن» (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس 6 - 15) وانظر أيضًا الكتاب المقدس: « وأجلس رجلين من بني

بلعيال تجاهه » (ملوك أول 21 / 10). ويقول

(بيرتون): إن بليعال هو أمير الطبقة الثالثة من طبقات الشياطين الذين ابتدعوا كل أنواع الخبائث .

493 - لأنه لم يكن إلها . لاحظ أن كلمة «أخيرًا» لا تدل على أنه أقل وزنا من باقي الشياطين أو أدنى في المرتبة .

495 - كان بنو (عالي) كهنة للرب في (شيلوه) - انظر صموئيل ثاني (12 - 2 - 17) وكانوا - كما يقول نص الكتاب المقدس من أبناء بليعال أي من الذين لم يعرفوا الرب ولا حق الكهنة من الشعب (المرجع نفسه) .

497 - يرمي ميلتون إلى انتقاد الكنيسة في عصره وبلاط الملك (جيمس) الثاني . وهو يعود إلى نفس الهجاء والسخرية من الملوك وحياة البلاط في عودة الفردوس - حين يجعل إبليس يخاطب بليعال قائلاً :

ألم نرك أو نسمع من يقص علينا

كيف تختبئ في البلاط وحجرات الملوك ؟

(الكتاب الثاني - 182 - 183)

505 - في الطبعة الأولى من الفردوس المفقود يقول ميلتون: إن أبواب الرجل الكريم (أي لوط عليه السلام) أخرجت بنات حتى يفدين رسل الله - أي الملائكة الذين اتخذوا صورة الرجال وحلوا ضيوفا عليه وكان قومه يريدون الفاحشة بهم - وهي القصة التي أوردها القرآن الكريم في سورة هود (الآيات 77 - 83) وأوردتها التوراة - الخروج - الإصحاح التاسع عشر - ولكن الطبعة الثانية تشير إلى قصة أخرى وهي التي وردت في (قضاة - 19) ومجملها أن رجلا من (اللاويين) من أهل (أفراييم) خرج يقصد بيت المقدس ومعه غلامه وخليلته وبينما هم في الطريق إذ أدركهم التعب فقرروا المبيت في (جبعه) استجابة لدعوة رجل كريم . وحينما حل الليل

أحاط بالمنزل رجال بني بليعال يطلبون الضَّيْف ليأتوا الفاحشة به - ولكن صاحب المنزل رفض وعرض عليهم ابنته العذراء فرفضوها، فقدم الضيف خليلته إليهم «حيث تعللوا بها الليل كله». وفي الصباح وجدوها ميتة لدى الباب.

507 - عبارة مألوفة استعارها كثير من الكتاب من الأدب الكلاسيكي ولذلك فإن ميلتون يتحدث بإيجاز واقتضاب عن آلهة اليونان الذين ألم بهم بعد دراسة مستفيضة.

508 - كان المعتقد أن (الأيونيين) - وهم أحد الفروع الرئيسية للإغريق - قد انحدروا من صلب (ياوان) وهو ابن (يافث) ابن نوح عليه السلام (خروج - *10 / 2*) (إشعياء *66 / 19*).

513 - يقول هيزيود وغيره من الشعراء القدامى (يونان ورومان): إن السماء (أورانوس) أو (كويلوس) والأرض (جي) أو (تيرا) أو (ثيا) هما اللذان أنجبا (ساتورنوس) وغيره من سلالة (التيتان). ولكن قصة (تيتان) الابن الأكبر والحرب التي شنها على (ساتورنوس) أي (كرونوس) لم تصل إلينا إلا عن طريق المؤلف المسيحي (لاكتانتيوس) وقد قام أحد أبناء (ساتورنوس) وهو (جوف) بإنقاذ والده وتتويجه أولا ثم عاد فنفاه فاضطر إلى الهروب عبر (أوروبا) أي البحر الأدرياتي. ويقول (تليارد): إن ميلتون يقدم لنا هنا صورة مختلفة من صور الأسطورة إذ يتحدث فيما يبدو عن إله واحد اسمه (تيتان) وليس عن الاثني عشر إلها من سلالة (التيتان)، كما أنه يجعل (ساتورنوس) يتمرد على هذا (التيتان) مما يدفعنا إلى الظن بأنه أحد إخوته الكبار وليس قطعا بأبيه (أورانوس). وقد جرى العرف على اعتبار (أوقيانوس) أكبر سلالة (التيتان). وقد أنجب ثلاثة آلاف نهر وثلاثة آلاف حورية من حوريات المحيط.

514 - كانت (كريت) مسقط رأس (زيوس) أي (جوف) .

515 - (ايدا) جبل في جزيرة (كريت) .

516 - (الأوليمب) كان الإغريق يعتبرون هذا الجبل مقر الآلهة ويقع في شمال بلاد اليونان وقمته مغطاة بالثلوج دائمًا حتى في بعض أشهر الصيف . وأما السماء الوسطى فهي إشارة إلى الفكرة التي أشاعها المدرسيون (الاسكولائيون) في العصور الوسطى عن تقسيم السماء إلى ثلاث سماوات . الدنيا دافئة ورطبة والعليا حارة والوسطى باردة. وتمتد السماء الوسطى حتى تصل إلى قسم الجبال العالية .

517 - كانت نبوءة أبوللو الشهيرة تقيم في (دلفي) على حافة صخرة شاهقة تطل على هوة سحيقة ،وذلك فوق جبل (البارناس) .

518 - في (ابيروس) وكانت أيضًا مقرا لنبوءة (زيوس) .

519 - أي بلاد اليونان ، كان (الدوريون) وهم من الشعوب التي يتكون منها الإغريق يعيشون في (دوريس) وينسبون إليها .

520 - عند هروب (ساتورنوس) - بعد هزيمته من (جوف) - عبر البحر الأدرياتي انظر الحاشية (113) أعلاه . وأما حقول (هسبيريا) فهي إيطاليا الحديثة . وهسبيريا تعني حرفيا الغربية، لأن إيطاليا تقع إلى الغرب من بلاد اليونان .

521 - سهول أو حقول (الكلت) هي فرنسا . والجزر القصوى هي الجزر البريطانية - لأن القدماء كانوا يعتبرون أن الجزر البريطانية تقع على حافة الأرض - وربما كان المقصود هو بريطانيا وأيرلندا وأيسلندا جميعا .

543 - يظهر (عزازيل) في صورة أحد كبار الملائكة العاصين الذين يتعرضون لعقاب الله ،وذلك في سفر الرؤيا (المشكوك في صحته) - انظر (سفر حنوك وبخاصة 8 و 10 و 13 و 64 و 65 و 79) وهو يلقى به في البرية

مغلولا في نفس المكان الذي ألقي فيه بتيس الفداء (لاويين 16/ 8) ويقول (تليارد): إن الاسم يشير هنا إلى أحد الشياطين الذين ذكرهم بعض كتّاب العصور الوسطى، ويشير أحدهم إلى أنه كان أحد الأربعة الذين حملوا رايات إبليس .

543 - كان (العماء) ملكًا على مملكة العماء وكانت زوجته هي الليل .

550 - كانت لموسيقى الإغريق ثلاثة مقامات رئيسية: أولها مقام (دوريس)، وثانيها مقام (فريجيا)،وثالثها مقام (ليديا) . والفرق بينهما يماثل الفرق بين المقامات الكبيرة (سباعية الأنغام) والصغيرة أو الملونة ذات الاثنتي عشرة نغمة . ومقام (دوريس) بسيط رصين - ويصفه أفلاطون - في الجمهورية بأنه المقام الوحيد الذي يناسب المحاربين والعاقلين. أما مقام (فريجيا) فكان مثيرًا وملهبًا للحماس بينما كان مقام (ليديا) عذبا رقيقا ناعمًا.

553 - يشير ميلتون هنا إلى الأنغام التي كان يعزفها أهل اسبرطة حين تتقدم جيوشهم للنزال - وهي أنغام النايات الرقيقة التي لا تثير الحماس وذلك حتى يحتفظوا برباطة جأشهم وتماسك صفوفهم - على عكس أعدائهم الذين كانوا يهرعون للقتال بخطى وثابة سريعة تفقدهم النظام . ولا يعني هذا أنه يفضل الاسبرطيين على الرومان ،ولكنه بالقطع يفضل نوعا من الموسيقى على نوع آخر .

560 - آثرت استخدام نفس الفعل الذي استخدمه ميلتون في البيت 553 أولا: لأنه ورد في الإلياذة في تعبير « يتنفسون الشجاعة » (3 - 8). وثانيا: حتى أحتفظ بالصورة الشعرية. ومعظم الشراح يقولون إنه يقصد (يستلهم).

576 - يعني بالصغار «الأقزام» الذين كانوا يهزمون في كل مرة يتعرضون فيها لغزو الكراكي وهي الطيور الضخمة المهاجرة ومفرده

كُركيّ (بضم الكاف الأولى وتشديد الياء) . ومصدر هذه الصورة هو إلياذة هوميروس 3 - 5 . وكان علماء الجغرافيا في العصور الوسطى يؤمنون بوجود هذه السلالة من الأقزام ، في أواسط آسيا - ويعود ميلتون إلى نفس الفكرة في بيت آخر في هذا الكتاب هو 780 - 781 . وميلتون ينطلق من هذه الصورة ليستعرض عددًا من الموضوعات التي شغلت بها الملاحم القديمة ثم يستصغر شأنها كأنها موضوعات لا تزيد في حجمها عن الأقزام إذا قورنت بموضوعه الرفيع السامي - مثل موضوع روما العظيمة وبريطانيا وفرنسا . ومن ثم كانت التورية لازمة في كلمة «صغار» التي يستخدمها في هذا البيت .

577 - (فليجرا) - وسميت فيما بعد (باليني) شبه جزيرة في أقصى الغرب من مجموعة شبه جزر (خالسيديس) شمالي اليونان . ويذكر أوفيد في مسخ الكائنات (10 - 151) إن الحرب بين العمالقة وآلهة الأوليمب قد وقعت على سهول (فليجرا). ولكن الموقعة التي بدأت في (فليجرا) اليونانية (أي باليني وهي جزء من مقدونيا) قد تجددت في (فليجرا) الإيطالية أي الواقعة بالقرب من (كوماي) .

578 - (طيبة)هي المكان الذي اختاره شعراء اليونان القدامى لأحداث مسرحيات أوديب، ومن ثم اشتهر بمعالجات (أيسخولوس) و (سوفوكليس) و (يوربيديس) لهذه الأسطورة في تلك المدينة . كما أن قصتين من أشهر قصص الملاحم القديمة تدوران حول الصراع بين الإخوة في (طيبة) وحصار (طروادة) . وفي كل قصة من هذه القصص تهب الآلهة لمؤازرة البشر ممن يناصرونهم في القتال ضد أعدائهم مثلما يحدث في إلياذة (هوميروس) وطيبية (ستانيوس) . وأما (إليوم) فهو أحد أسماء (طروادة) .

580 - أي الملك (آرثر) فهو ابن (أوثر بندراجون) . وقد كان ميلتون يعتزم أن يكتب ملحمته عن موضوع الملك آرثر .

581 - (أرموريا) أحد أسماء المنطقة التي نطلق عليها الآن (بريتاني) .

583 - رغم تعدد الأماكن التي تحمل هذا الاسم أي (أسبارامونتي) فالمحتمل أن ميلتون يقصد القلعة القريبة من مدينة (نيس) والواردة في الرومانسة الذائعة في عصره، والتي تحمل نفس الاسم ومن تأليف (أندريا دا باربرينو) - حسبما يقول (فاولر) . أما (تليارد) فيرجح أن (أسبارامونتي) تشير إلى سلسلة جبال في كالابريا في جنوب إيطاليا لأن شارلمان حارب العرب في موقعة بالقرب منها . وعلى أي حال فإن الخريطة المعتمدة في عصر ميلتون تستعمل نفس الاسم في الإشارة إلى المكانين . والمقصود بـ (مونتالبان) قلعة (رينالدو) الواردة في عدد من الرومانسات .

584 - تقع طرابزون في تركيا . كانت عاصمة لإحدى الإمبراطوريات القديمة في آسيا الصغرى . ويشار إليها في العربية أيضًا باسم طرابزونده .

585 - أي شمال إفريقيا - كما كان العلماء العرب أنفسهم يطلقون عليها. أما بنزرت (وهي مدينة في تونس) فكانت المكان الذي انطلق منه العرب لمهاجمة (شارلمان) . ولكن ميلتون يقص قصة مناقضة للقصة المألوفة عن الموقعة ، غير أن هذا لا يمنع من أن ميلتون قد استقى القصة من مصدر آخر غير القصة الشائعة ، أضف إلى هذا أن أنشودة رولان لم تكن معروفة في عصر ميلتون مع أنها أشهر الأعمال الأدبية التي تحكي هذه القصة . وتقول هذه الرومانسة: إن العرب قد استعانوا بأحد الخونة للانقضاض على مؤخرة جيش شارلمان في مضيق (رونسفال) . وكان على (رولان) أن ينفخ بوقا يحمله إن احتاج إلى طلب العون ، لكنه لم ينفخ فيه حتى فات الوقت وقضي الأمر فهلك وهلك جميع من معه . أما (شارلمان) فقد هب عند سماعه البوق لنجدة الجيش مما دفع العرب إلى الانسحاب، وهكذا فإنه لم يهلك بل نجا هو وبقية الفرسان الاثني عشر ويرجح (فاولر) أن

ميلتون قد استقى معلوماته من قصة لاحقة لهذه القصة مثل قصة (باربرينو) التي كتبت حوالي عام *1400* والتي تقول بأن (رولان) قد هلك في الموقعة هو وسائر فرسان شارلمان . ويضيف (فاولر) أن جميع القصص التي وصلت إلينا عن تلك الموقعة تؤيد نجاة (شارلمان) نفسه . والروايات التاريخية تقول بنجاة (شارلمان) وبأنه عاش طويلا بعد تلك الموقعة . ويورد تليارد أبياتًا للسير (والترسكوت) يذكر فيها حادثة النفير :

وأشواقا إلى صوت النفير المهيب
الذي رددت أصداءه (فونتا رابيا)
فوصل إلى سمع الملك (شارل)
عندما سقط (رولاند) الشجاع (وأوليفييه)
في حومة الوغى ، في وادي (رونس)
وهلكا مع سائر الفرسان الصناديد !

(مارميون 6 - 30)

587 - تقع (فونتا رابيا) على بعد أربعين ميلا من (رونسفال) . ويقول (فاولر) : ربما كان الدافع على إقحام اسم هذا المكان في السياق التاريخي أن الملك (تشارلز) الثاني ذهب إلى ذلك المكان في عام *1659* عند فشل الثورة الملكية لينشد العون من الفرنسيين والإسبان . ولذلك فربما كان ميلتون يرمي إلى السخرية من هذا الملك الذي ينشد العون من أعدائه ويقصد مقارنته (بشارلمان) العظيم الذي دافع عن بلاده دونما تفريط.

599 - الاستعارة ذات حدين فكسوف الشمس ينذر بمصائب للخلق وبهلاك الحاكم الذي يكتسي صورة الإله، وقد جرت العادة على اعتبار الشمس رمزا له . وهكذا يُروى أن الرقيب الذي عينه الملك (تشارلز) الثاني

اعتبر هذا البيت ماسّا بالذات الملكية ويتضمن آراء تخريبية. ويقول (تليارد) إنه كاد يمنع نشر الفردوس المفقود بسبب هذا البيت .

633 – هذه مبالغة واضحة إذ إن إبليس نفسه يقول في الكتاب الخامس (البيت 710): إن عدد من تبعه لم يزد علـــى ثلث ملائكة الجنة . وهذا هو الرأي المتفق عليه إذ يوحي به النص الوارد في رؤيا يوحنا 12/4 .

635 – يقصد إبليس بهذا أن يتملق الملائكة الفاسقين فيصفهم بأنهم أهل الجنة .

637 – يحاول إبليس هنا أن يقول إنه كان ينفذ آراء أتباعه وإنه لم يكن ليرى رأيا آخر أو ينشق عنهم ..وهكذا فهو يلقي باللوم على الجميع حتى وهو يدافع عن موقفهم المشترك .

650 – يقول إمبسون: «إن هذه أول إشارة إلى القارئ (وليس بطبيعة الحال إلى الملائكة العصاة) عن الشك الذي يخامر إبليس في قدرة الله على خلق أي شيء» (ص 48) . والواضح أن إبليس يعرض هنا للخطة التي ينتوي تنفيذها بل وينفذها بالفعل في النهاية، ويقدم لنا (بعلزبول) تفاصيل هذه الخطة في الكتاب الثاني (البيت 345 وما بعده) ثم يعود إبليس إلى إيضاحها في نفس الكتاب (830 – 835) .

662 – يقول (برود بنت): إن إبليس بدأ حديثه بنبرات البطل المأسوي (ص 73 وما بعدها) ولكنه الآن يعود إلى طبيعة البطل الملحمي الذي يدبر للقتال دون مشاعر متناقضة .

668 – كان الجنود الرومان يحيون خطب قادتهم بهذه الطريقة .

674 – يقول (بيكون)، وهو أعظم حجة علمية في ذلك العصر: «إن الزئبق والكبريت هي المواد الرئيسية للمعادن» (التاريخ الطبيعي – 4 – ص 354) وكانت هذه هي النظرية المقبولة، إذ كان يفترض

أن حرارة الكبريت من شأنها أن تحيل التراب إلى معدن.

678 - كلمة آرامية تعني الغنى أو المال وجاءت بهذا اللفظ في إنجيل متى 6/ 24 . ويقول د. مجدي وهبة: إن شاعرنا هنا أول من استعملها علما على أحد أمراء الشياطين، وقد استخدمها (سبنسر) في الحقيقة - في قصيدته (ملكة الجان) عندما تعرض لوصف كهف (مامون) - (النشيد الثاني - البيت السابع) - (تليارد) .

694 - المقصود هو برج (بابل) الذي بناه (النمروذ) (تكوين 11 / 4 إلى 9) . ويقول (راجان): إن العادة قد جرت على اعتبار الأهرامات نماذج للغرور والخيلاء (ص 48) وميلتون هنا لا يشير إلى «المعنى» أو الدلالة التي نراها اليوم في الأهرامات ولكن إلى الجهد البشري الذي بذل في بنائها ، إذ يقال إن مئات الآلاف قد عملوا عشرين عاما في بنائها .

700 - ليس من السهل تصور المنهج الذي اتبعه الشياطين في البناء ولكن المرجح أنهم صهروا أولا المعدن النفيس بنيران البحيرة الملتهبة (انظر البيت 210) ثم صبوه في خنادق ليكون الأساس الذي أقيم عليه البناء وعلى هذا الأساس ارتفعت الجدران كأنما بسحر ساحر . (تليارد) .

709 - يعود ميلتون في الكتاب الحادي عشر (البيت 560 وما بعده) إلى الربط بين الموسيقى وتصنيع المعادن ، ويصرح بأن مهارات الملائكة العاصين قد اكتشفها البشر. أما الربط بين الموسيقى والصناعة فترجع إلى أن (يوبال) و (توبال قايين) كانا أخوين غير شقيقين. كان الأول « أبا لكل ضارب بالعود والمزمار » والثاني « الضارب كل آلة من نحاس وحديد » (تكوين 4/ 21 و 22) وكان كلاهما من نسل قابيل .

717 - يشتمل هذا الوصف على إشارة ساخرة لقصر الشمس الذي بناه

(مولكبر) حسبما يروي (أوفيد) في كتابه (مسخ الكائنات) (2/ 1 إلى 4) ولكن ما يرمي إليه ميلتون هو أن (بانديمونيام) قصر ذو طراز كلاسيكي كامل من كل الوجوه مثل قصر (البانثيون) القديم الذي ما يزال قائمًا، وقد كان موضع إعجاب الجميع في عصر ميلتون .

718 - في الشروح التقليدية للكتاب المقدس كانت بابل ترمز للظلم والبغي ومن ثم للجحيم. أما القاهرة فالمقصود بها (ممفيس) التي كانت أروع مدينة في مصـر أيام الوثنية .

720 - (بعل) إله آشوري وليس إلها مصريا . أما (سيرابيس) فهو الإله المصري المعروف باسم أبيس.

739 - (أوسونيا) هي الاسم القديم (باليونانية) لإيطاليا الحديثة .

740 - مولكيبر هو لقب الإله (فولكانوس) راعي الحدادة والتعدين واللقب يعني باليونانية من يصهر الحديد. وقد تولى بناء قصور الآلهة .

756 - (بانديمونيام) كلمة نحتها ميلتون نفسه من اليونانية لتعني ملتقى الشياطين جميعا . أما كلمة «عاصمة» فهي تحمل أيضًا معنى القصر الكبير وثم خلاف بين محققي نص ميلتون حول هجاء الكلمة الإنجليزية، فمن قائل إنها (كابيتول) ومن قائل إنها (كابيتال). ويذهب جمهور النقاد إلى أن القراءة الأخيرة هي الأصح، وأن الإيحاء بالمعنى الأول لا يزيد عن كونه إيحاء ثانويا يضاف إلى المعنى الأصلي .

766 - يشير ميلتون إلى ضربين من ضروب الفروسية والنزال : الأول هو الهجوم المباشر، والثاني هو محاولة الإسقاط بالرمح من على ظهر الجواد. وهو ينسب إلى الجحيم منشأ هذا اللون من الصراع البشري الذي انتقل فيما بعد إلى الأرض - حسبما يقول (برودبنت) (ص96) .

781 - يقول (بليني): إن أرض الأقزام تقع في الجبال القائمة

وراء منابع نهر (الجانجيز) (التاريخ الطبيعي - 7 - 26).

786 - هذه العبارات رجع صدى لما يقوله شيكسبير في مسرحية حلم ليلة صيف (الفصل الثاني - المشهد الأول - البيت 28 وما بعده) من أن القمر يجلس مجلس الحكم بين الجنيات، لأن القمر هو أمير الجن المتوج.

حواشي الكتاب الثاني

2 - (هرمز) جزيرة في الخليج العربي كانت ذائعة الصيت باعتبارها سوقا للجواهر.

11 - لم ألتزم هنا بالإشارة إلى الكتاب المقدس فيما يختص بألقاب الملائكة. فالإشارات واضحة إلى رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوس (1 - 16) حيث يرد اللقبان وهما (الرياسات) و (السلاطين) ترجمة لنفس اللقبين بالإنجليزية، وقد حفزني على عدم التقيد أن ميلتون يقصد الإشارة إلى الملائكة العاصين جميعًا دون أن يخص طائفة بعينها وأنه يريد معنى القوة والجبروت أن ينسحب على الجميع.

15 - في الأصل تورية - فالأصل يشير إلى فضائل السماء وهي من ألقاب الملائكة أيضًا ولكنني آثرت ترجمة المعنى الظاهر.

24 - يقدم إبليس خمسة أسباب لتقلده مقاليد الرئاسة: أولها (مكانه الحق) في السماء بينهم قبل السقوط، وثانيها قوانين السماء الثابتة أي القضاء، وثالثها الإرادة الحرة لسائر الملائكة، ورابعها امتيازه في التدبير للحرب وفي إدارة المعركة، وخامسها وأهمها هو السقوط، إذ إن الهزيمة لم تعد تجعله في موقف مثير للحسد. ومن هنا ينطلق ليفصل القول في معنى الابتعاد عن الحسد.

28 - يحاول إبليس هنا الحط من شأن المولى جل وعلا بأن يسمه بالبطش، فالرعد من صفات (جوبيتر) رب أرباب الوثنية، ومن ثم فإن إبليس يحاول أن يقول: إن البارئ سبحانه يشبه أرباب اليونان.

37 - يقول (إمبسون): إن محاولة إبليس الإشادة بمزايا السقوط تمثل مفارقة سامية في إطار التقاليد الرومانية الرفيعة ولكننا ينبغي أن نلاحظ أن

هذه المحاولة المستميتة لقلب منطق الأشياء تبين مدى خلاع النفس الذي ينزلق إليه .

43 - (ملكوم) يعني بالعبرية (الملك) - انظر عاموس 5 / 26 . راجع البيت 392 في الكتاب الأول وفي مجالس الملك التي وصفها (هوميروس) كان الملوك يوصفون رسميا بأنهم ذوو صولجان انظر الإلياذة 2 - 86 والأوديسا 2 - 231.

56 - يشير (إليوت) و (ليفيز) إلى التناقض بين «يقفون» و «جالسين» ولكن المعنى هو كما يقول (فاولر): إن الوقوف إشارة لواقع حاضر بينما يتضمن الجلوس إشارة ساخرة إلى عدم الحركة في المستقبل .

61 - ربط الألفاظ المجسدة بالمجردة من خصائص أسلوب ميلتون، أي أنه إذا كان من باب التعبير الحقيقي التسلح بالنيران، فإن التسلح بالغضبة من باب المجاز وربط التعبيرين، أي استخدام فعل واحد معهما من الخصائص البلاغية المسماة (زيوجما) باليونانية .

69 - (تارتاروس) هي مملكة الجحيم في الأساطير اليونانية . وجريا على العرف في عصر النهضة نجد أن ميلتون يرسم صورة الجحيم الواردة في الكتب السماوية في إطار ما ذكره الكلاسيكيون في عصر الوثنية . و(تارتاروس) هي المكان الذي يلقى فيه بالمذنبين من هذا العالم عند الموت حسبما تروي الأساطير .

81 - إشارة إلى (فيرجيل) في الإنيادة - 4 - 126 إلى 129 حيث يذكر يسر الصعود للملائكة .

82 - يقصد أن هناك من بين الملائكة من يخشون عاقبته وهو من ثم يرد على اعتراضاتهم مقدما .

101 - يعرب إبليس عن ثقته في استحالة تدمير الكيان

السماوي للملائكة (انظر البيتين 116 - 117 من الكتاب الأول) ويشاركه (بعلزبول) هذا الرأي (الكتاب الأول - الأبيات 138 - 140) ولكن (ملكوم) متردد وغير واثق .

105 - وهذا هو الدافع الذي يحفز إبليس على القتال .

113 - إشارة إلى المن والسلوى - والمن بعد يعني - في رأي جمهور الشراح - عسل النحل، ومن ثم فالمعنى هو (يقطر عذوبة) خروج (31 /16).

127 - هذا تعبير ساخر يرد به (بليعال) على (ملكوم) . فهو يقف بالثأر عند حدود المحاولة واصفًا الثأر - لا المحاولة - بأنه رهيب . والأصح إذن ترجمة العبارة بـ «محاولة للثأر الرهيب» . ويلاحظ القارئ أن (بليعال) يستخدم نفس ألفاظ (ملكوم) (مثل كلمة الثأر) للسخرية منه وإحباط حجته.

131 - يقصد ذلك الجزء من مملكة العماء المتاخم للجنة .

139 - المعنى الظاهر هو أن الجوهر الأثيري ينتمي للباري جل وعلا، إذ إن بليعال ينتقد هنا ما اقترحه ملكوم من بث شآبيب الكبريت والنيران السوداء في عرش الله (انظر البيتين 68 و 69) . ولكن الشراح يقولون: إن الجوهر النقي يمكن أن ينتمي إلى الملائكة - وبخاصة (تليارد) .

146 - ليس هذا رأي (بليعال) بطبيعة الحال بل تصويره لرأي (ملكوم). أما رأيه فيبدأ من البيت 146 والأبيات التالية .

(21) أي كيان الملائكة . فالمعتقد أن الملائكة ذوات كيان ذهني يفوق الكيان العقلي أو العاقل الذي يتمتع به البشر ويتفوقون به على الحيوان والنبات .

147 - وضعت هذه العبارة بين قوسين لأبين أنها اعتراضية ، إذ إن

سير الجملة ينبغي ألا يتوقف بين الفعل «لنفترض أن ..» و «أتراه في حكمته...» .

160 - يقصد (ملكوم) .

170 - أي نفخة الله (ونفخنا فيه) - وربما كان النص يشير إلى ما ورد في إشعياء *30* - *32* من (توفه) باعتبارها رمزا للجحيم «نفخة الرب كنهر كبريت توقدها» .

174 - يستخدم (هوراس) هذه العبارة Rubente Dextera في الأناشيد *1* - *2* عندما يصف تهديد (جوبتير) أي (جوف) بتدمير روما . ومن ثم فإن (بليعال) يريد الإشارة من طرف خفي إلى أن البارئ سبحانه طاغية مثل (جوبيتر) .

179 - «مجيدة» كلمة يستخدمها (بليعال) للسخرية من الحرب الخاسرة.

181 - ربما جاءت هذه الفكرة أو الصورة من وصف (فيرجيل) في الإنيادة (*1* - *44*) للعقاب الذي أوقعه (بالاس) (بأجاكس).

182 - شاعت هذه الصورة في كتابات القدماء والمحدثين : - (أيسخولوس) ، و (فيرجيل)، و (هوارس)، ثم (شكسبير) ،و (درايدن). انظر الإنيادة *6* - *74* ، وصاع بصاع (شكسبير ف *3* - م *1* - *124*) .

184 - في الأصل تورية إذ يستخدم ميلتون فعل Converse بمعناه الحديث ومعناه اللاتيني الذي يوحي بالإقامة لا التخاطب . وقد تعذرت ترجمة التورية .

267 - انظر المزمور الثامن عشر : «جعل الظلمة ستره حوله ، مظلته ضباب المياه وظلام الغمام .. أرعد الرب من السموات » (*11* - *13*) والمزمور السابع والتسعين «السحاب والضباب حوله

العدل والحق قاعدة كرسيه» (2) وأخبار الأيام الثاني (5 / 13) «بيت الرب امتلأ سحابًا» ، و (6 / 1) «قال الرب إنه يسكن في الضباب . وانظر أيضًا قول الله لموسى عليه السلام فوق جبل (حوريب): «هاأنا آت إليك في ظلام السحاب» (الخروج - 19 - 9) وتكريس المعبد في التثنية (4 - 12) » والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب فكلمكم الرب من وسط النار» .

275 - المعنى الحرفي للعبارة «العناصر أو العنصر الذي خلقنا منه أو الذي يلائمنا » ولكن السياق يقتضي الترجمة الحالية . وكلمة عنصر أو عناصر تشير إلى العقيدة التي سادت القرون الوسطى ومؤداها أن أنواعا معينة من الشياطين تسكن كلا من عناصر الكون الأربعة وهي النار والهواء والماء والتراب ، وأن هذه الشياطين هي الملائكة الفسقة . يقول ميلتون في قصيدة «المفكر» : «إن الشياطين التي تعيش في النار والهواء أو الماء أو تحت الثرى ... متوافقة مع العنصر الذي تعيش فيه» . (93 - 96) ويقول في عودة الفردوس :

إن الأرواح الشيطانية التي اختص كل منها بعنصر ليسوده لأحرى بها أن تسمى قوى النار والهواء والماء وباطن الثرى .

«الكتاب الثاني - 221 - 124»

298 - يشرح (تليارد) المعارضة بأنها أولا قائمة تحت مملكة العماء بينما تقوم الجنة فوق تلك المملكة وثانيا بأنها مناقضة للجنة في طبيعتها وأغراضها وثالثا بأنها معادية لها .

307 - كان من الشائع تشبيه الساسة الذين يتحملون أعباء الحكم بأطلس (انظر مثلا مسرحية شكسبير أنطونيو وكليوباترا 1 - 5 - 23) ولكن الإشارة هنا إلى أطلس تعتبر إشارة إلى واحد من سلالة (التيتان) . إذ إن جوبيتر

- حسبما تروي الأسطورة - كان قد أرغم أطلس على حمل السماء فوق أكتافه عقابا له على الدور الذي قام به في التمرد.

310 - ارجع إلى الحاشية الخاصة بالبيت 128 من الكتاب الأول والحاشية على البيت 11 من الكتاب الثاني.

311 - في الأصل «خصال الأثير» وكلمة خصال تشير أيضًا إلى الفضائل وهي من طبقات الملائكة ولكني آثرت ترجمة المعنى دون التورية. انظر الحاشية على البيت 15 من الكتاب الثاني.

324 - انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي: (1/ 11) أنا هو الألف والياء: الأول والآخر و (21/ 6) أنا هو الألف والياء: البداية والنهاية، و (22/ 13) أنا الألف والياء. البداية والنهاية. الأول والآخر. وقد ورد اللفظان في القرآن الكريم وهما من أسماء الله الحسنى.

328 - يعني (بعلزبول) أن الصولجان أو القضيب الحديدي (انظر المزمور الثاني - الآية التاسعة) رمز للعدالة الصارمة بينما يرمز الصولجان الذهبي للمساواة الرحيمة. يقول ميلتون في قصيدة (ليسيداس): إن القديس بطرس يحمل مفاتيح ثقيلة لنوعين من المعادن: الذهبي يفتح الأبواب والحديدي يغلقها. (110 - 111) وقد أصبح تعبير القضيب الحديدي شائعًا فيما بعد في اللغة الانجليزية كناية عن الحكم الصارم.

351 - المزمور 8 / 4 و 5 «فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده. وتنقصه قليلا عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله».

352 - يقول (تليارد): إن النطق بقسم من جانب أي فكرة غريبة رغم أنها تتردد كثيرًا في الكتاب المقدس. انظر التكوين 22 - 16 والرسالة إلى العبرانيين 6/ 17.

353 - أخـذ ميلتون هـذه الصورة مـن الملاحـم

الكلاسيكية. انظر (هوميروس) (الإلياذة 1/ 530) و (فيرجيل) (الإنيادة 9 / 106) ولكن الصورة لها سند في الكتاب المقدس أيضًا (إشعيا 13 - 12 و 13) و (الرسالة إلى العبرانيين 5/ 17 و12/ 26) و(التكوين 22 - 16) و (إشعيا 45/ 23) ومن ثم فهي نموذج للمزج بين الصور الكلاسيكية والدينية.

357 - اللفظ يعني الإغواء والهجوم أو التصدي لشخص ما للإيقاع به في الوقت نفسه.

371 - انظر التكوين 6 / 6 و 7 «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته».

375 - في الطبعة الأولى من الفردوس المفقود ترد هذه الكلمة بصيغة الجمع أي كلمة Originals وتوحي بالمعنى المترجم هنا. أما في الطبعة الثانية فترد هذه الكلمة بصيغة المفرد بحيث يمكن أن تعني آدم وحواء. والمعنى الأول يشمل المعنى الثاني في نظري ولهذا اخترته في الترجمة حتى لا أفسد السياق العربي.

378 - يسخر هنا (بعلزبول) من آراء (مامون) انظر البيت 252 وما بعده في الكتاب الثاني) ولكن ميلتون يريد القارئ أن يسترجع عبارة «الجلوس في الظلمة» الواردة في المزمور 107 الآية 10 وما بعدها: «الجلوس في الظلمة وظلال الموت موثقين بالذل والحديد لأنهم عصوا كلام الله».

383 - أي آدم عليه السلام. وقد أضفت كلمة «الشجرة» هنا حتى ألقي الضوء على الاستعارة الشائعة في الكتاب المقدس وفي الفردوس (انظر الكتاب الثالث 288 والكتاب التاسع - 89 و 645). وقد اعتمد زعماء حركة الإصلاح الديني على هذه الاستعارة في تفسيرهم لمفهوم الخطيئة الأولى

للإنسان أي النابعة من جذر الشجرة - شجرة الإنسان .

400 - يقول الشراح: إن ثمة تشبيها مضمرا هنا أي أن للظلام كيانا ماديًا. (انظر البيت 406 من نفس هذا الكتاب) .

406 - ربما كانت كلمة «ملموسة» أصدق في التعبير عن المعنى المقصود أي الإشارة الاستعارية إلى الظلمات (انظر الحاشية السابقة) . فالواضح أن ميلتون يشير إلى سفر الخروج (10/ 21) . « ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يلمس الظلام » .

409 - أي التي تفصل بين السماء والأرض وهي هوة العماء .

410 - أي الأرض فهي تشبه الجزيرة السعيدة في خضم العماء - وتزخر الفردوس المفقود بالاستعارات التي تصور إبليس في صورة التاجر المسافر المغامر ، وتصور الأرض في صورة الجزيرة . انظر الأبيات 426، 436 - 442، 919، 1011، 1042 - 1044 في هذا الكتاب وحده .

430 - أي يا من تحتلون العروش في السماء أو يا من كنتم تحتلونها. والعروش طبقة من طبقات الملائكة . انظر الكتاب الأول - البيت 128 وحاشيته وانظر الكتاب الثاني البيت العاشر وحاشيته .

432 - ابتداء من هذا البيت يحاكي ميلتون وصف (فيرجيل) لهبوط (إنياس) إلى العالم السفلي (في الكتاب السادس من الإنيادة) وخاصة التحذير الذي جاء على لسان (سيبيل) من أن النزول يسير ولكن الصعود شاق عسير . كما أن ثمة محاكاة لما جاء في الكوميديا الإلهية لدانتي (الجحيم 34/ 95) من أن الطريق طويل والسبيل عسير. ويحاكي ميلتون الإنيادة في بعض التفاصيل مثل الأسوار التسعة والأبواب المصنوعة من الصخور الموقدة.... إلخ .

471 - «في الرأي» تعني في الحقيقة «في رأي سائر الملائكة

والشياطين» أي في نظر المجتمعين أي ما يقابل التعبير الحديث «الرأي العام» .

495 - يقول (برودبنت): إن البراكين التي ذكرت في الكتاب الأول قد تحولت إلى تلال ترعى عليها الأغنام بفعل خيال الشياطين الخصب (ص 121) . أما غفلة ريح الشمال فالمقصود بها سكونها، إذ إنها حين تهب يصفو الجو وتسطع الشمس .

505 - الواضح أن ميلتون يتحدث بمرارة شديدة عن الحروب الطاحنة التي زلزلت بريطانيا إبان حياته .

528 - يحاكي ميلتون في هذه الأبيات (528 - 569) ما ذكره (فيرجيل) في الإنيادة (6/ 642 - 665) عن سبل التسرية عن النفس وتزجية الوقت لدى الأرواح في العالم السفلي فهم يمارسون الرياضة هنا وفي الإنيادة (في اليزيوم) ويعزفون الموسيقى ويشتغلون بالفلسفة ولديهم معدات حربية وخيول وعربات، بينما يمتاز الشياطين بقدرتهم على الاكتشاف والمغامرة. وفي تقاليد الملحمة الكلاسيكية نماذج لهذا اللون من قضاء وقت الفراغ - انظر إلياذة (هوميروس) 2 - 774 ، والأبيات التالية التي تصف ألعاب الزبانية أثناء غياب (أخيلاس) في الحرب. وانظر أيضًا نفس الملحمة (23) حيث يذكر (هوميروس) الألعاب الجنائزية اليونانية .

530 - ألعاب (بيثيا) في (دلفي) تلي في أهميتها الألعاب الأوليمبية . وكانت تمتاز على الألعاب الأوليمبية بإقامة المسابقات الموسيقية والفنية.

539 - انظر الحاشية رقم 42 في الكتاب الأول .

546 - تقول الأسطورة: إن (هرقل) كان غائبا فترة طويلة في حملة ضد ملك (إيقاليا) وفي طريق عودته أراد أن يقدم تضحية إلى (زيوس) امتنانا على النصر الذي ظفر به فأرسل صديقه (ليكاس) إلى زوجته ليعود بثوب مناسب

فأرسلت معه الزوجة ثوبا كانت قد غمسته في سائل يثير الحب في نفسه (إذ كانت تشك في إخلاصه لها) ولكن هذا السائل كان في الحقيقة مسموما وعندما ارتداه هرقل أصابه الجنون من شدة الآلام التي عاناها فأخذ يقتلع الأشجار من جذورها، ثم انتهى به المطاف إلى أن ألقى بصديقه (ليكاس) من قمة جبل (إيتا) ظانا أنه هو الذي أتى له بهذا الثوب المسموم. ولما لم يستطع أن يخلع الثوب (لأنه قد التصق بجسده) أعد هرما من الأحطاب وأشعل فيه النار، ثم ألقى بنفسه فيه فتحول إلى سحابة وارتفع إلى السماء وأصبح من الخالدين. وميلتون يتبع خطى (أوفيد) في روايته للأسطورة وليس ما ذكره (سنيكا) أو (سوفوكليس) . (تليارد وفاولر) .

560 – كانت هذه الموضوعات وبخاصة قضية الجبر والاختيار أو التسيير والتخيير – من القضايا الشائعة بين علماء الدين فى عصر ميلتون،وقد عاد إليها ميلتون نفسه في الكتاب الثالث (96 وما بعده) والكتاب العاشر (34 وما بعده) .

565 – كانت هذه الموضوعات هي ما اهتم به فلاسفة اليونان والرومان إذ إنهم كانوا يسعون إلى الخير الأسمى، وهو ما رآه الأبيقوريون في اللذة وما وجده الرواقيون في التحرر من جميع الانفعالات .

569 – في الأصل «المضاعف ثلاثا»،وهي عبارة استعارها من (هوراس).

583 – تقول الأساطير اليونانية إن الجحيم أو العالم السفلي كانت تحده أربعة أنهار، وهي تلك التي أوردها ميلتون هنا وأسماؤها باليونانية تقابل الأوصاف التي يوردها لها .فمثلا تعني كلمة (ستيكس) اليونانية المقيت أو الكريه . ويعتمد ميلتون في وصفه للأنهار الأربعة على ما أورده (فيرجيل) في الإنيادة (6) وما ذكره (دانتي) في الكوميديا الإلهية

(الجحيم 14) وما قاله (سبنسر) في ملكة الجان (2 - 7 البيت 56 وما بعده) ولكن ميلتون يضيف قائلاً: إن هذه الأنهار تصب في البحيرة الملتهبة (انظر الكتاب الأول من الفردوس المفقود 210 ورؤيا يوحنا اللاهوتي 20/19)،حيث يرد ذكر «بحيرة النار المتقدة بالكبريت ربما ليقدم المقابل للأنهار الأربعة التي تجري في الفردوس (انظر الكتاب الرابع من الفردوس المفقود 223 وسفر التكوين 2 / 10) .

584 - يختلف عن «بحيرة النسيان» التي ورد ذكرها في البيت 74 أعلاه والبيت 266 من الكتاب الأول .

587 - كان الاعتقاد بأن عذاب الجحيم يتضمن البرودة إلى حد التجمد (إلى جانب الحريق) سائدًا في العصور الوسطى، وربما كان يرجع إلىالتراث اليهودي . ويقدم (دانتي) وصفا لهذا اللون من العذاب في الكتاب الثاني والثلاثين من الجحيم كما يشير إليه شكسبير في صاع بصاع 3 - 1 - 119.

592 - أي بحيرة المنزلة حاليا .

593 - أي سيناء اليوم .

595 - ليست هذه مبالغة حسبما يقول (تليارد) إذ إن للصقيع آلاما تشبه آلام الحريق .

597 - الآلهة اللاتي يطاردن المذنبين (مثل القتلة) حتى يقتصصن منهم.

598 - في الأصل «ذوات الأقدام التي تشبه أقدام الهاربي» Harpy-Footed ،وكان الهاربي حيوانًا خرافيًا له وجه حسناء ، وجسد طائر وأجنحة وأقدام ذات مخالب، وقد ذكره (فيرجيل) في الإنيادة (3/ 211 إلى 218) كما ذكره (دانتي) في الجحيم (13/ 10) كما ذكره (هوميروس) في الأوديسا (20/ 77).

611 -كانت (ميدوزا) إحدى الأخوات الثلاث المسميات (بالجرجونات). كان لها وجه جميل ولكن خيوط شعرها كانت من الأفاعي وكان أي إنسان ينظر إليها مباشرة يتحول إلى صخر أصم . وكان (أوديسيوس) يخاف أن ينظر إليها خلال زياراته لعالم الموتى ،لهذا السبب (الأوديسا 10/ 634) وقد استطاع (بيرسيوس) أن يقتلها آخر الأمر بأن تطلع إلى صورتها في المرآة .

614 - في الجحيم الذي يصوره (هوميروس) (الأوديسا 11/ 582 - 592) كان عقاب طانطال أو (طانطالوس) يتمثل في العطش إذ وضعه (زيوس) في بركة ماء وصل سطحه إلى رقبته وكلما أراد الشرب انحسر الماء بعيدًا عنه. وتقول إحدى الروايات: إن عقابه كان بسبب تقديمه طعام الآلهة إلى البشر. وتقول رواية أخرى إنه كان يعاقب على طموحه. وتقول إحدى الأساطير إنه عوقب أيضًا بالجوع، وكان الثمر يتدلى من الأشجار القريبة من رأسه دون أن يستطيع بلوغها مهما حاول .

618 - انظر إنجيل متى 12 - 43 وإنجيل لوقا 11/ 24 «إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد».

628 - كان (للجرجونة) شعر من الأفاعي (انظر الحاشية 70) وكانت (الهايدرا) (التي ترجمتها بالسعلاة) عبارة عن ثعبان مائي ضخم لها تسعة رؤوس، وكانت إذا قطعت لها رأس نمت لها اثنتان في مكانها، وقد استطاع هرقل أن يقتلها آخر الأمر . أما الغيلان فهي في الأصل (كميرة) (باليونانية خيمايرة) وهو غول له رأس أسد وجسد جدي وذيل ثعبان ويبث النيران من فمه . وقد استطاع (بلوروفون) أن يقتله آخر الأمر. ويذكر (فيرجيل) هذه الكائنات البشعة ضمن حراس مدخل الجحيم

(الإيادة 6/ 287 إلى 289) كما يذكرها تاسو في تحرير بيت المقدس (5/4).

640 - جزيرتان في إندونيسيا بالقرب من جزيرة (جايلولو) أي في مضايق الملايو.

642 - يقول (تليارد) إنه القطب الجنوبي، إذ إن اتجاه السفن هنا نحو الجنوب.

643 - يقول (فاولر): إن هذا التشبيه دليل على قدرة ميلتون على إيجاد أوجه شبه عديدة بين المشبه والمشبه به. ويقول (امبسون): إن السفن تبحر ليلا لأن إبليس كان يطير في «الظلمات المبصرة» التي ذكرت في الكتاب الأول وهي بعيدة إلى الحد الذي بدت معه كأنها سراب أو كأنها طائرة في الهواء وهو ما بدا عليه إبليس فعلا، وهي تتجه نحو القطب لأن إبليس كان يقصد سقف السرادق الناري (ص 171). ويضيف فاولر قائلاً: إن السفن تحمل عاطر المخدرات، لأن إبليس سوف يشتري براءة حواء بعاطر الثمر من الشجرة المحرمة.

650 - هذه هي «الخطيئة» رغم أننا لا نعرف ذلك الآن ولا نكتشفه إلا في البيت 760 عندما تخبرنا هي بذلك. والصورة التي يقدمها ميلتون للخطيئة تشبه الصورة التي يقدمها (سبنسر) في قصيدة ملكة الجان لما يسميه بـ «الخطأ» (1/1/13 إلى 15) وقد صور أحد أتباع هذا الشاعر العظيم واسمه (فينياس فلتشر) الخطيئة في نفس الصور في قصيدة بعنوان: **الجزيرة الأرجوانية** (12 - 27 و 28) وهو يطلق عليها الاسم اليوناني وهو همارتيا. وهو يرسم لها صورة مختلفة في قصيدة أخرى تجعلها أقرب شبها بالصورة التي يقدمها ميلتون للموت. وقد شاع الربط بين الخطيئة والموت في هذه الصور الرمزية في العصور الوسطى، وربما كان الأصل في هذا ما جاء

في رسالة يعقوب (15/1) « ثم الشهوة إذا حملت تلد خطية والخطية إذا حملت تنتج موتا » .

655 - (كيربروس) هو الكلب ذو الرؤوس الثلاثة الذي كان يحرس الجحيم في الأساطير الكلاسيكية .

660 - كانت (سيلا) فتاة جميلة يحبها إله البحر (جلوكوس) الذي تضرع إلى الساحرة (كيركي) لتساعده على الظفر بقلبها . ولكن كيركي كانت تغار منها، ومن ثم دست أعشابا سحرية في البحر الذي اعتادت (سيلا) أن تستحم فيه، وهكذا استطاعت أن تحولها إلى مخلوق شائه له رأس امرأة وجسدها ذيل سمكة، ويحيط بها كلاب تنبح وتعوي . (أوفيد - مسخ الكائنات - 14/ 50 - 74). وكان الشائع أن (سيلا) تعيش فوق صخرة على الساحل الإيطالي لمضايق (مسينا) حيث يعلو موج البحر وصخبه ، والمعروف أن صوت الأمواج وهي تلطم الصخور هناك هو الذي أوحى بنباح الكلاب. وتقول رواية أخرى: إن (سيلا) قد تحولت هي نفسها إلى صخرة تمثل خطرًا كبيرًا على الملاحين بين (ترينا كاريا) أي صقلية و (كالابريا) . وأخيرًا فقد شاع في شروح العصور الوسطى لكتاب مسخ الكائنات أن (سيلا) رمز للشهوة أو الخطيئة .

661 - (ترينا كاريا) هو الاسم القديم لجزيرة صقلية ، والصوت (مبحوح) بسبب صخب الأمواج .

662 - اسمها (هيكات) وقد استخدمت (كيركي) تعاويذ هذه الجنية عندما مسخت (سيلا). انظر الحواشي السابقة وبخاصة (79) . وفي المشهد الأول من الفصل الرابع من ماكبث (مسرحية شكسبير المعروفة) تظهر (هيكات) للساحرات استجابة لترانيمهن .

663 - كان المعتقد أن الساحرات يطرن في الهواء على

مكنسة .

664 – كان الشائع أن الساحرات يقتلن الأطفال .

666 – تزعم خرافات العصور الوسطى أن السحر يمكن أن يهبط بالقمر إلى الأرض ويخسفه أو يزيل ما به من خسوف . وتربط التقاليد القديمة بين السحر بصفة عامة و القمر .

678 – في الأصل «ابنه» والمقصود هو المسيح عليه السلام .

701 – انظر ما قاله (رحبعام) في الملوك الأول 12/ 11 «أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب» ومعناه المجازي – بطبيعة الحال – أن قبول إبليس لحكم الله كان أفضل له من هذا المصير .

709 – كوكبة من النجوم يراها سكان نصف الكرة الشمالي صورها القدماء في صورة حامل ثعبان ضخم . أما عن دلالة المُذَنَّب على الشر فهو من تقاليد الأساطير والأعمال الكلاسيكية، فقد شبه (تاسو) في قصيدته تحرير القدس أحد أبطاله بمذنب ضخم ، وفي هذا يحاكي (فيرجيل) في تشبيهه (اينياس) بالمذنب (الإنيادة 10/ 272) ويقول (تيرنر): إن المذنب الذي يشير إليه ميلتون هو المذنب الذي ظهر في عام 1816 في كوكبة (أورفيوكوس) . وقال (ايفلين) في مذكراته: إن ذلك المذنب هو الذي تسبب في نشوب حرب الثلاثين عاما . والصورة ملائمة لإبليس إذ إنه سيتحول فيما بعد إلى ثعبان .

715 – مدافع السماء : في الأصل مدفعية السماء أي البرق والرعد.

722 – أي المسيح عليه السلام ، وذلك عندما «يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس» (الرسالة إلى العبرانيين 2 – 14) وانظر أيضًا كورنثوس 15/ 26 «آخر عدو يبطل هو الموت» .

724 – أي الخطيئة .

735 - أي الموت .

749 - أي إبليس ومن انضم إلى صفوفه من الملائكة الفسقة .

757 - مثلما خرجت (أثينا) شاكية السلاح من رأس (زيوس) حسبما تروي الأساطير اليونانية، وهذا مثل آخر على مزج العناصر الدينية والكلاسيكية، إذ إن ثم إشارة خفية أيضًا إلى رسالة يعقوب 1/ 15 (انظر الحاشية 77) .

844 - يثبت إبليس أنه قادر على الوفاء بعهده للموت والخطيئة بعد نجاحه في مسعاه وسقوط آدم وحواء فريسة لغوايته . وفي الكتاب العاشر من الفردوس المفقود (397 - 409) يدعو الخطيئة والموت ليحكما الأرض بما في ذلك الإنسان .

857 - في الأصل (تارتاروس) أو الجحيم الأسفل انظر الحاشية رقم (14) وقد آثرت ترجمة المعنى هنا دون اللفظ، لأن المقصود هو الدلالة البلاغية .

883 - في كتاب آخر يورد ميلتون بيتا للشاعر القديم (هيزيود) يقول فيه: « من العماء خرج (إيريبوس) والليل الأسود » ولكن كثيرًا ما كان يشار إلى (إيريبوس) باعتبارها الجحيم الأسفل (انظر الحاشية السابقة) . فمثلا يقول (فيرجيل) في الأناشيد الرعوية (4/ 471) :إن ظـلال الموتى قد نبهها وأيقظها «من أدنى دركات إيريبوس» غناء (أورفيوس) .

884 - لن يغلق أبواب الجحيم أحد حتى يوم الحساب، وبعدها يغلقها المولى جل وعلا .

895 - لم يكن العماء في الأساطير الكلاسيكية مجرد كم لا صورة له من المادة، ولكنه كان شخصا يرتبط بالليل (الذي كان يشار إليه من خلال نفس الاستعارة) ولما كان العماء يعني انعدام الشكل فإن

ظلمة الليل هي أفضل ما يناسب هذا اللاشكل . وهكذا فإن النور قد بدأ مع الخلق. أما علاقة العماء والليل بالطبيعة فمشروحة في الحاشية التالية.

898 - في الكتابات الكلاسيكية مثل منشأ الآلهة (لهيزيود) وعن التكوين (بوكاشيو) يرد ذكر العماء والليل باعتبارهما أبوين للقوى المحددة القائمة في الطبيعة . أما وصف ميلتون للصراع بين الخصال المتناقضة الذي سبق ظهور الكون فهو يحاكي وصف أوفيد للعماء الأول - وذلك في كتابه مسخ الكائنات حيث يقول: « إن الأشياء الباردة تصارعت مع الأشياء الساخنة ، وتصارع الرطب والجاف ، واللين والصلب ، والخفيف والثقيل » (1/ 19) وقد استطاع معظم المصلحين الدينيين في ذلك العصر أن يوفقوا بين العماء الذي وصفه أفلاطون و (أوفيد) وبين عقيدة الخلق من العدم ، مستندين إلى كبار علماء اللاهوت مثل (فيلو) وآباء الكنيسة الكبار (القديس أوغسطينوس في كتابه الاعترافات 12/ 29 - 40) .

904 - (سيرنيكا) تعني حاليًا برقة . وقد ذكرها (فيرجيل) باسم (برقة) في الإبادة (4/ 42) أما في هذا السياق فهي مدينة كبرى (سيريني) . والتفرقة إذن تنحصر بين إقليم برقة وبين المدينة .

912 - يشير (سبنسر) في ملكة الجان (3 - 4 - 36) إلى العماء باعتباره رحم العالم . ويقول (لوكريشيوس) في (عن طبيعة الأشياء) (5/ 259): إن العماء قبر كل الأشياء . و (لوكريشيوس) يشير إلى الأرض وليس إلى الهوة السحيقة ، أما ميلتون فإنه يلزم الحذر في التعبير فيقول: (ربما) .

922 - كانت (بللونا) إلهة الحرب في الأساطير ولكنها هنا كناية عن الحرب نفسها .

925 - المقصود بالسماء الإطار المباشر للأرض، ومن ثم فإن الهيكل يعني الكون .

926 - يقول (تليارد): إن كلمة (المحور) هنا غريبة على السياق لأن المحور معناه أن ما حوله يدور. وهذا بالقطع مخالف لرأي ميلتون الذى يقول في نفس العبارة: إن «الأرض ثابتة». وربما كانت الكلمة تفيد الثبات أيضًا في هذا النص .

939 - منطقة من الرمال المتحركة في شمال ليبيا بالقرب من مدينة بنغازي - والمقصود هنا أي رمال متحركة.

943 - (الغريفون) أو (الغريفين) حيوان خرافي نصفه الأعلى يشبه العقاب والأسفل يشبه الأسد. ولذلك فهو يختلف عن الطير الخرافي عند العرب - سواء الرخ أم العنقاء .

945 - قبيلة (اسقيتية) Scythian ذكرها المؤرخ (هيردوت) (3 - 16) على أنها تتكون من ذوي العين الواحدة . و (اسقيتيا) مكان في جنوب روسيا الحالية . وتقول الأساطير إنهم سرقوا كنوز الذهب التي كان (الغريفون) أو التنين أو الأفعوان يسهر على حراستها . وقد شاعت هذه القصة في الأساطير القديمة الجرمانية واليونانية معًا.

964 - تجسيدان للجحيم وحاكم الجحيم الأول روماني والثاني يوناني - والهجاء الشائع للأخير هو (هاديس)، وهما في هذا النص كناية عامة عن الفوضى والاضطراب والخلل .

965 - (ديموجورجون) أحد شياطين العالم السفلي التي يكتنفها الغموض، وقد شاع ذكره في الأدب اللاتيني بعد الميلاد وأصبح مألوفا في عصر النهضة . وقد ذكره (سبنسر) في ملكة الجان (4/ 2/ 47) وربط بينه وبين العماء . أما عبارة اللقب الرهيب فتعني «الحضرة» بالمعنى الديني أي الوجود الذي يفرض الرهبة، وقد ذكر (ستاتيوس) أن لقب هذا الشيطان يخيف العفاريت والأشباح، وأن معرفة هذا اللقب في

ذاتها تلقي الرعب في القلوب .

1017 - كانت السفينة (أرجو) في الأساطير اليونانية أول سفينة تعبر المحيط، وقد ركبها (جيسون) ورفاقه الملاحون وأقلعوا من اليونان وعبروا مضيق البسفور ليأتوا بالفراء الذهبي من منطقة بالقرب من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود . وكان عليهم أن يبحروا بين صخرتين متحركتين ما تفتآن تصطرعان .

وقد استطاعت السفينة المرور بأن قدر الملاحون الوقت المناسب للعبور أثناء ابتعاد الصخرتين بعضهما عن البعض.

1019 - يقول (هوميروس) في الأوديسا: إن (أوديسيوس) اتبع نصيحة الساحرة (كيركي) وتحاشى صخرة (خاريبديس) بأن أبحر مع التيار المعاكس بحذاء صخرة (سيلا) (انظر الحاشية 79) وكان لكل صخرة دوامة تبتلع السفن.. وهكذا فإن الصورة تتضمن الدوامتين إلى جانب الصخرتين.

1020 - صخرة مقابلة لصخرة (سيلا) وحولها دوامة خطرة (انظر 111).

1050 - هنا إشارة إلى ما جاء في رؤيا يوحنا اللاهوتي (21/ 18 إلى 21) عن وصف «المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله» (10) إذ يقول في (19): إن أساسها الثاني من الياقوت الأزرق (وهو ما نسميه اليوم بالسفير). أما معنى « النابض بالحياة » فهو (الذي لم يقطع بل قدم في صورته الأولى) . وفي هذا إشارة إلى سفر الخروج (20/ 25)

« وإن صنعت لي مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة . إذا رفعت عليها أزميلك تدنسها» والمذبح المقصود هو مذبح (يهوه) .

1052 - يقول (زيوس) في الإلياذة إنه أقوى وأعلى من سائر الآلهة ولإثبات ذلك يزعم أنه إذا تدلت سلسلة ذهبية من السماء فسوف يقدر على

أن يحمل بها سائر الآلهة والأرض والبحر جميعا، ثم يجعلها تتدلى من قمة الأوليمب (الإلياذة 8/ 18 إلى 27) . ويقول ميلتون في المقدمة تفسيرًا لهذه السلسلة إنها: «التوافق العالمي والتوحد العذب بين جميع الأشياء وهو ما يصوره (فيثاغورس) تصويرًا شاعريًا باعتباره التناغم». وهكذا فإن ميلتون يقبل التقاليد الفلسفية والأدبية التي تمتد من أفلاطون ، عبر (بوئيوس) و(تشوسر) (انظر قصة الفارس في قصص كنتربري) و (سبنسر) (انظر ملكة الجان 11 - 7 - 46) .

حواشي الكتاب الثالث

1 - 55 تمثل هذه الأبيات مدخلاً جديدًا Exordium يتناسب وتغير المشهد من الجحيم (والعماء) إلى السماء، ومن ثم فكان لابد من استلهام الله حتى يساعد الشاعر على هذه النقلة . وينصح القارئ بمقارنة هذه البداية بالمدخل الخاص بالكتاب الأول وهو الذي يخاطب فيه الشاعر ربة الشعر و «الروح» وبالمدخل الخاص بالكتاب السابع الذي يحدد فيه الشاعر اسم الربة (أورانيا) - إذ إن مدخل الكتاب الثالث يمس الشاعر نفسه ، على حفوله بالإشارات اللاهوتية والفلسفية والفنية . وقد اضطرم الخلاف حول المقصود بالنور هنا فذهب البعض إلى أنه المسيح - مثل «النور الحي» الذي ذكره (دانتي) في الفردوس (*55/7*) ، بينما ذكر كيلي Kelley إن ميلتون يتحدث عن النور بمعناه المادي أي الضوء ، على حين يتفق (وليامز) Williams و (الن) Allen على أن ميلتون يمزج الدلالتين وأنه ينهج نهج أفلاطون في النظر إلى الضوء ليس فحسب باعتباره الصورة الأساسية لله ولكنه أيضًا إشعاع الله أي بهاؤه - كما يدل على ذلك استخدام كلمة «البهاء» في البيت السادس من هذا الكتاب والفكرة هي أن هذا «البهاء» يتفرق ليخلق شتى الأشياء التي تعتبر من ثَمَّ إشعاعًا لقدرة الله . والواضح من البيت الثاني والأبيات من *51* - *55* أن ميلتون يقصد بالنور أكثر من مجرد الضوء الذي تدركه العيون ، ولا شك إنه تأثر بالتقاليد المسرحية التي تمتد من العصور الوسطى التي شاع فيها الحديث عن النور الرباني بين المتصوّفة (انظر كتاب «الكاتدرائية القوطية» لمؤلفه (سيمسون) Otto Von Simson طبعة نيويورك *1956*) ، التي تصبغ كتابات الأفلاطونيين

الجدد في عصر النهضة . ولكنه في هذه المقدمة يتحاشى التقيد بأي مذهب فلسفي وضعي ويترك للقارئ حرية تفسير صوره الشعرية .

1 – يمكن فهم البيت الأول بأكثر من طريقة : فهو يعني إما أن النور هو أول أبناء السماء أي أول ما خلق الله ، وإما أنه المسيح – كما يتردد ذلك في الإنجيل والتوراة . (رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي) .

3 – يقول الشراح: إن ميلتون لا يلام على استخدامه هذه الصور وربما كان إحساسه بأن كلمة «صنو الخالد» يمكن أن توقعه في مشكلات لاهوتية (لأنها قد توحي بأن ثمة صنو للرب) هو الذي جعله يقتبس كلمات التوراة في الأبيات من *3* – *6* وهي في الترجمة العربية المنشورة (انظر مقدمة الجزء الأول) : «الذي وحده له عدم الموت ساكنًا في نور لا يُدني منه أحد من الناس» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس *6/ 16*). أما أن الله هو النور فإشارة إلى إنجيل يوحنا (*1/ 5*) .

8 – إشارة إلى الآية الواردة في سفر أيوب «أين الطريق إلى حيث يسكن النور ؟» (*38/ 19*) ، أما صورة النهر فمستقاة من فردوس (دانتي) (*30/ 61 – 73*) حيث تستخدم هذه الصورة للدلالة على الرحمة التي يغدقها الرحمن على الخلق .

9 – *12* إشارة إلى التوراة «وقال الله ليكن نور فكان نور» (التكوين *1/ 5*) وإلى المزامير حيث يشار إلى أن الله «يلبس النور كثوب» (*104/ 2*) – أما العدم والهيولة فيشيران إلى العماء الوارد في الكتاب الثاني – (انظر الجزء الأول) – وفي البيت *18* هنا .

17 – *21* يشير ميلتون هنا إلى الدلالة الرمزية لأسطورة (أورفيوس) في كتب القرن السابع عشر انظر مقال (هنري رينولدز Henry Reynolds بعنوان: «أسرار الأساطير» – الذي أورده

(سبنجارن) J. E. Spingarn في كتابه (مقالات نقدية من القرن السابع عشر - أكسفورد *1908*) الذي يتضمن الفقرة التالية:

«شاعت قصيدة (أورفيوس) وتغناها المنشدون وفحواها أنه استطاع أن يستعيد زوجته (يوريديس) من الجحيم بقوة موسيقاه، فالموسيقى هنا تمثل الحقيقة والعدالة بينما تمثل الجحيم الهمجية والجهالة - أي أن الموسيقى ترمز لأفكاره ومبادئه العميقة الممتازة، غير أن (أورفيوس) قد فقد زوجته وهو يمضي بها في طبقات الظلمة الكثيفة من قشرة الأرض» (المجلد الأول - *158*) أما قول ميلتون بأن ألحانه «تختلف» عن ألحان (أورفيوس) فيفسر (فاولر) ذلك بأن ميلتون لم يكن يشكو فقد زوجته.

23 - يشير ميلتون، كما هو واضح، إلى الضوء المحسوس ولكن العقيدة القديمة لم تتغير، وهي أن النور السماوي لا يختلف عن النور الأرضي من حيث الدرجة رغم أنه أنقى ورغم أنه يرمز إلى الحق والحكمة. وقد سبق ميلتون إلى ذلك الشاعر الإنجليزي ادموند سبنسر في قصيدة قصيرة بعنوان: أنشودة إلى الجمال السماوي - إذ يقول فيها:

ولكن ذلك النور الخالد الذي يسطع هناك
أنقى وأبهى آلاف المرات
وأكثر امتيازًا وسناء وقدسية
إذ إنه النور الذي يكسو فعال البشر أمام الله
بل وأفكار البشر
فهو ينبع من الحق الخالد
وفضائل السماء التي تنميه بأشعتها .

.175 - 169

30 - يقصد بجبل (صهيون) أنه يفضل الشعر العبراني على غيره .

32 - كان من عادة ميلتون أن يكتب الشعر ليلاً .

35 - 36 (تامريس) Thamyris شاعر ذكره (هوميروس) في الإلياذة (الكتاب الثاني 594 - 600) وقال إنه توله بحب ربات الشعر وتحداهن إلى نزال يقدم فيه الخاسر كل ما يريده المنتصر . وعندما انتصرت ربات الشعر أخذن بصر الشاعر وقيثارته (وفي رواية أخرى قدرته على الإنشاد) - ومن ثم شاع تعبير Thamyris insanit أي «جن (تامريس)» وكانت تطلق على من يحاول إنجاز ما فوق طاقته . ولما لم يبق من مؤلفات (تامريس) ما يبرر طموح ميلتون إلى نفس الدرجة من الذيوع، فقد مال بعض الشراح إلى تصور خوف ميلتون من تصوير السماء باعتبار ذلك فوق طاقته . ويقول فاولر: إن فكرة كف البصر وطاقات النبوءة - ومنهم (بيكو) Pico الذي يورد اسم (هوميروس) واسم (تيريسياس) في هذا السياق . بل إن ميلتون نفسه يذكر هذا صراحة في إحدى قصائده اللاتينية وعنوانها: «عن الصورة المثالية الأفلاطونية كما فهمها أرسطو»، إذ يقول في البيت 26: إن كف بصر (تيريسياس) وهبه بصيرة نافذة، وترجمتها الحرفية (وهبه نورًا نافذًا) . وأما (فينيوس) فكان ملكًا فقد بصره - حسبما تقول إحدى الروايات - لأنه تفوق في نبوءاته فأخذ يفشي مشورات الآلهة . ولكن ميلتون أنكر إن فقدان البصر كان عقابًا له في مقال لاحق (هو «الدفاع الثاني») .

47 - «كتاب المعرفة» يعني هنا كتاب الطبيعة أو كتاب الله كما يسميه ميلتون في هذه القصيدة (الكتاب الثامن، البيت 67) .

48 - المعنى الأول للخواء هو الصفحة الخالية ولكنني فضلت المَعنى الثاني (انظر قاموس أكسفورد الكبير - المعنى

رقم 6 ب للكلمة) .

60 - في الأصل «القداسات» ومعناها الأرباب أي الملائكة - والقداسة صفة من صفات الملائكة ،ومن ثم فهي كناية عنهم. انظر أيضًا الحاشية على البيت 767 من الكتاب السادس.

62 - 63 إشارة إلى الآية الواردة في الرسالة إلى العبرانيين «ابنه .... الذي جعله وارثًا لكل شيء ... الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره ... جلس في يمين العظمة في الأعالي» (1/1 - 3) من الترجمة العربية المنشورة .

74 - في الأصل «العالم» والمقصود بها الكون لا الأرض (انظر الكتاب الثاني البيتين 1052 - 1053) .

75 - «سماء» هنا معناها «الجو» - ولما كانت داخل القشرة التي تحيط بالكون، ولما كان إبليس يقف عليها الآن فإنه لا يستطيع رؤيتها .

94 - الأمر الأوحد هو ألا يأكل الثمرة المحرمة .

103 - 106 انظر ما يقوله ميلتون في كتابه «عن العقيدة المسيحية» (1/4): «إذا لم نسلم بحرية الإرادة فسوف يصبح حبنا لله وعبادتنا له عبثا لا طائل منه ولا قيمة له ... ومن ثم فلن يكون هناك مجال لتقبل أي تكاليف (جمع تكليف) تؤدى بمقتضى قانون الضرورة أو الحتمية ، وذلك لانتفاء الحرية التي لابد منها حتى تكتسب الإرادة معناها» .

108 - ربما كان ميلتون يشير هنا إلى ما قاله أرسطو عن العقل في كتاب الأخلاق . انظر أيضًا ما يقوله ميلتون في أريوباجيتيكا :« ما أحمق هؤلاء الذين ينعون على العناية الإلهية أن تركت آدم يقترف الإثم ! ما أحمق تلك الألسنة ! إن الله حين وهبه العقل وهبه في الحقيقة حرية الاختيار فما العقل إلا الاختيار - وإلا لكان آدم زائفًا غير طبيعي» . (انظر الحديث عن هذا الموضوع في مقدمة الملحمة) .

113 - 123 يوضح ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية - أنه يوفق بين التسيير والتخيير عن طريق العلم الأزلي ، وأنه يعارض فكرة الحتمية كل المعارضة . فيقول مثلاً : «إن الأحداث المقبلة التي يعرفها الله قبل أن تقع سوف تقع ولا شك ... لأن العلم الإلهي السابق لا يمكن أن يخطئ ، ولكن هذه الأحداث لا تقع بالضرورة أو الحتم لأن العلم السابق لا يمكنه التأثير على الشيء المعلوم سلفًا لأن «يعلم» فعل لازم فحسب» (4/1) .

125 - الواضح أن الحديث يدور عن آدم وحواء - رغم استمرار الحديث عن «القوى الأثيرية» المذكورة في البيت 100 - وهذه السيولة في بناء الجملة تجعل ميلتون ينتقل من المستقبل (البيت 125) إلى الحاضر (الأبيات 122 و 130) إلى الماضي (116 و 118 و 128) بحيث يؤكد قدرة الله على رؤية الزمن السرمدي في كل حالاته كما نص على ذلك في البيت 78 من هذا الكتاب .

153 - 154 انظر سفر التكوين : «حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشا لك» (18/25) .

156 «الخصم» هو المعنى الحرفي لكلمة Satan بالعبرية (إبليس هنا) .

173 - 202 يعارض ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية موقف (كالفن) الذي يعتبر الإنسان عاجزًا كل العجز عن تحقيق الخلاص - وهو هنا يوحي بنفس الموقف، إذ يقول: إن الإنسان قادر على الخلاص ،وذلك بالصلاة والتوبة والطاعة (البيت 191) .

184 - معنى الاصطفاء لدى ميلتون (مثلما هو عند الكالفنيين - انظر مقدمة الجزء الأول) هو الإيمان والثبات عليه .

193 - يبدأ الوفاء بهذا الوعد في الكتاب الحادي عشر 1 - 47 عندما يتقبل الله صلاة آدم وحواء ويقبل توبتهما .

206 - في الكتاب العاشر (708 - 717) يغوي إبليس حواء

حين يعدها بأنها سوف تصبح هي وآدم «مثل الأرباب» .

216 - الكلمة الإنجليزية Charity المشتقة من اللاتينية Caritas تفيد المحبة الرحيمة ، وهي تقترب من المعنى السائد حاليًا وهو الإحسان بمعناه الديني - فالإحسان المادي لابد أن يقوم على المحبة والرحمة وإلا فقد معناه . وهو بعدُ درجةٌ من درجات الإيمان .

244 - انظر إنجيل يوحنا «لأنه كما أن الأب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضًا أن تكون له حياة في ذاته» (5/ 26) .

248 - 259 تتضمن هذه الأبيات إشارات كثيرة إلى الكتاب المقدس .

267 - 269 يقول (فاولر): إن طاعة الابن تفوق محبته ، وهو ما ينبغي أن يكون وفقًا لترتيب الفضائل في نظر ميلتون . «فالمسيح هو الشخص الوحيد الذي يتسم بالطاعة البطولية في القصيدة» انظر الكتاب السادس 820، والتاسع 31 - 32 ، والسابع 602 - 607 .

277 - 278 انظر ما يقوله الملك لير في مسرحية شيكسبير الشهيرة بهذا الاسم عن ابنته كورديليا (ف 1 - م 1 - البيت 85) .

283 - انظر إنجيل يوحنا «والكلمة صارت جسدًا» (1/ 14) .

285 - 286 انظر رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس - «إن رأس كل رجل هو المسيح ... ورأس المسيح هو الله» (11/ 3) .

287 - انظر كورنثوس 1 : «لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيحيا الجميع» (15/ 22) .

290 - 294 انظر الرسالة إلى أهل رومية (5/ 17 - 19) .

300 - 301 لاحظ أن ميلتون يستخدم الفعل الماضي (دمره) ثم الحاضر (يدمره) في نفس الوقت ،بحيث يشعر القارئ أن السقوط قد حدث بالفعل

ولكن الإيحاء الأول هو أن الزمن هنا فيض لا زمني. ويقول أحد الشراح: إن ميلتون يتحدث عن السقوط كأنما حدث في الماضي، ربما لأن كل شيء - بما في ذلك أحداث المستقبل - حاضر في نظر الله.

307 - يعلق (فاولر) على غرابة الاستعارة هنا أي على تعبير «ثمار الربوبية» قائلاً: إن الاستعارة تتضمن تورية تشير إلى تناقض السلوك لدى آدم: فها هو المسيح على استعداد للتخلي عن «ثمار» الربوبية من أجل الإنسان، ولكن الإنسان لا يتخلى عن «الثمرة» التي ترفعه إلى مصاف الخلود أي إلى الاقتراب من الربوبية.

317 - *318* انظر العبارة الواردة في إنجيل متى (*28/ 189*) «دفع إليّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» - وقد ورد في كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية أن هذا النص الإنجيلي دليل على أن المسيح يختلف في جوهره عن الأب.

324 - *329* استقى ميلتون صور يوم القيامة من العهد الجديد من رؤيا يوحنا ومن إنجيل متى (*24*/ الآية *16* وما بعدها) ومن الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (*15*/ الآية *51* وما بعدها).

339 - *343* انظر كورنثوس الأولى (*15/ 28*) «ومتى أخضع له الكل فحينئذٍ الابن نفسه سيخضع للذي أخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل» - وقد حيرت هذه الأبيات الباحثين، ويُنصح القارئ بالنظر في رأي (إمبسون) في استخدام كلمة «الكل» عند ميلتون (ص *101* - *104*).

352 - زهر (الأماران) يعني في الأصل اليوناني الزهر الذي لا يذوي ولا يبلى. وقد لجأ ميلتون إلى هذا الاسم استنادًا إلى ما جاء في العهد الجديد «سوف تنالون إكليل المجد الذي لا يبلى» (رسالة بطرس الرسول الأولى - *4/5*) والكلمة باليونانية هي أمارانتينون

amarantinon - وقد كان هذا الزهر يميل إلى اللون الأرجواني ويعتبره أحد الشراح رمزًا للخلود - ويعتقد (فاولر) أن ميلتون كان يعرف أن أكاليل الزهور من التقاليد الوثنية القديمة، وأنه كان يستخدمها هنا عمدًا للمقارنة بين رمزية الزهور في الوثنية والمسيحية .

357 - *359* من الآيات التي تُستخدم فيها صور الأنهار رموزًا لفرح المؤمن آية في المزامير تقول: «من نهر نعمك تسقيهم، لأن عندك ينبوع الحياة» (*36/ 8 - 9*) .

367 - كنانة السهام القديمة كان يوضع فيها القوس أيضًا ،ولذلك كانت مقوسة مثل القيثار .

375 - *382* صورة النور والسحاب مأخوذة من الكتاب المقدس (تكوين *16/14*، و *33* - *18* وما بعدها وإشعياء *6/ 1* وما بعدها وتيموثاوس *6/ 16*) .

383 - انظر رؤيا يوحنا (*3/ 14*) حيث ترد الآية القائلة: إن المسيح هو «بداءة خليقة الله» ، وكولوسي (*1/ 15* و *17*) - ويقول ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية :«إن المسيح نفسه مخلوق باعتباره أول إنسان وأول الخلق»، وقد ثار الجدل حول هذه الفكرة خاصة بالنسبة لمعنى كلمة أول - أي إذا ما كانت تعني التكريم أو السبق الزمني .

407 - كثيرًا ما صور الأدباء المسيحيون نظرة الله إلى الإنسان في صورة حوار بين أربع صفات من صفاته بعد تجسيدها والحديث على لسانها - والصفات هي الرحمة والعدالة والحق والسلام . وقد نوقش ذلك مناقشة مستفيضة في كتاب « بنات الرب الأربع» من تأليف هوب ترافر Hope Traver (فيلادلفيا - بنسلفانيا - *1907*) .

431 - *441* في كل التشبيهات الملحمية الطويلة التي يبيّنها ميلتون تتعدد

أوجه الشبه بين المشبه والمشبه به . فإبليس يشبه النسر في شراسته وإدراكه الفريسة على البعد وطريقة تحليقه ، كما تشبه الحملان وصغار المعز بني الإنسان لبراءتها وانقسام القطيع فيها إلى خراف وجداء (إنجيل متى - 25/ 22) إلى جانب التشابه الجغرافي بين رحلة (جنكيز خان) ورحلة إبليس (أي من الثلوج إلى الأنهار) . ويلاحظ أن ميلتون يجمع آخر الأمر بين المشبه والمشبه به حين يوحي بأن نهر (جنكيز) هو نهر (الفيشون) المذكور في سفر التكوين (2/ 11) .

459 - يقصد «بالبعض» الشاعر الإيطالي الكبير (أريوسطو) كما تصور آخرون وجود من يعيش على سطح القمر مثل: (برونو) و (كاردن) و(هنري مور) (انظر كتاب ميلتون والمعرفة المحرمة من تأليف هوارد شولتز - نيويورك 1955) .

463 - 465 أول الحمقى هم العماليق «الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم» والذين جاءوا نتيجة الاقتران الخاطئ بين «أبناء الله» و «بنات الناس» (تكوين 6/ 4) .

469 - 473 يذكر أحد قدماء الكتاب في كتاب له عن أتباع (فيثاغورس) والرواقيين أن (إمباذوقليس) و(كليومبروتوس) قد انتحرا لإيمانهما بخلود الروح - فأما الثاني فقد انتحر غرقا بعد أن أساء فهمه لمؤلفات أفلاطون وبالذات (فايدو) ، وأما الأول فقد انتحر تمردًا على بشريته ومحاولةً منه للخلود .انظر مثلاً ما يذكره (هوراس) عن هذا في فن الشعر حيث يقول: «لقد ألقى امباذوقليس بنفسه يومًا في نيران (إتنا) رغبة منه في أن يخاله الناس بين الخالدين.» (السطور 464 - 466) من ترجمة الدكتور لويس عوض .

474 - ينتقد ميلتون هنا بعض التقاليد الكلاسيكية التي

تنص على أن البلهاء والمشوهين والأطفال «غير المعمدين» مأواهم إحدى الطبقات العليا في الجحيم وهي طبقة Limbo infantum - أما الفرنسيسكان فقد قالوا: إن هذه الطبقة تقع فوق الأرض في منطقة من مناطق النور .

475 - كانت طبقات الكهانة الفقيرة تتميز بألوانها المختلفة فاللون الأبيض يعني الطبقة الكرملية ، والأسود طبقة الدومينيكان، والرمادي الفرنسيسكان . وميلتون يقصد السخرية من الأهمية التي يوليها هؤلاء إلى اللون وإلى المظاهر الفارغة . كما يبين ذلك في البيت نفسه بإشارته إلى البهرج .

467 - *476* (جلجثه) هو التل الذي وقعت عليه حادثة الصلب . وميلتون هنا يقول: إن الحجاج يكررون الخطأ الذي وقع فيه الحواريون قبل أن يعرفوا أن المسيح قد رفع إلى السماء (انظر إنجيل لوقا) : «لماذا تطلبن الحي بين الأموات ؟ ليس هو ههنا لكنه قام» (*24/ 5*) .

479 - *480* تعتبر هذه الصورة تمهيدًا لتخفي إبليس ابتداء من البيت *634* في نفس الكتاب . وتقارن هذه الفقرة بما ذكره دانتي في «الجحيم» (*27/ 67* - *84*) عن محاولة (غويدودا مونتفلترو) دخول الجنة بارتدائه مسوح رهبان الفرنسيسكان ، وفشله فشلاً ذريعًا، لأن التوبة شرط من شروط الغفران ولا تكفير عن الذنوب دون توبة .

481 - *483* أقرب الأفلاك التي يمرون بها إلى الأرض هي : فلك الكواكب السبعة ، ومن بعدها الفلك الثامن - فلك النجوم الثابتة - ثم الفلك البلوري، ثم الفلك العاشر وهو أول الأفلاك حركة أي أنه المحرك الأول .

482 - «الميزان» هنا له عدة معان أولها هو «الميزان» أي برج الميزان ، (وهذه تورية شائعة). وثانيها هو «الاتزان» أي اتزان حركة فلك الكواكب

مع الفلك البلوري . وثالثها وهو أهمها هو «التوازن» بين فلك الكواكب السبعة مع اهتزاز فلك النجوم الثابتة . وقد حاولت التوفيق والجمع بينها في الترجمة . كان أهل العصور الوسطى يتصورون أن هذا الاهتزاز هو سبب اختلاف طول الليل والنهار بين الفصول المتعاقبة . بل إن كوبرنيق (كوبرنيكوس) كان يؤمن هو الآخر بوجود هذا الاهتزاز . (انظر كتاب تاريخ الفلك من طاليس إلى كبلر - تأليف درايز - *1953* خاصة صفحة *329* وما بعدها ، وكتاب التكفير الفلكي في انجلترا في عصر النهضة - تأليف ف.ر. جونسون *1937* - صفحة *110* وما بعدها وكتاب ثلاثة مباحث لكوبرنيكوس نشر وتحقيق ادوارد روزين - نيويورك *1959* - صفحة *45* وما بعدها) . أما عن أهمية رمز «الميزان» في شعر ميلتون فانظر الأبيات *997* - *1004* من الكتاب الرابع . والحاشية .

494 - «ظهر الكون» هو نصف الكرة المظلم لأول الأفلاك حركة - وهو أبعدها عن السماء، أي السماء المشرقة التي ورد ذكرها في البيت *429* .

506 - *507* يحتمل أن يكون المدخل مرصعا باللآلئ التي «تشبه الشمس المشرقة وهذه بعض معاني كلمة براقة Orient التي تعني الشرق في غير هذا الموضوع - انظر رؤيا يوحنا *21/ 21* حيث يقال إن الأبواب الاثني عشر لأورشليم الجديدة كانت «اثنتا عشرة لؤلؤة» .

510 - كان الرسامون يصورون «سُلَّم يعقوب» في لوحاتهم الدينية باعتباره رمزا للصعود إلى السماء حتى بعد العصور الوسطى وحتى عهد ميلتون . والأصل (كما هو وارد في سفر التكوين 27 - 28) أن يعقوب - بعد أن خدع أخاه لينال بركة أبيه - هاله أن يرى فيما يرى النائم سُلما يمتد صاعدًا إلى السماء ، مما جعله يقسم قسما مُغَلّظًا بطاعة الله فالسُّلَّم يعني أن دخول الجنة لا سبيل له إلا التوبة والإخلاص

في العبادة والعكوف على تأمل الطبيعة التي خلقها الله وليس بمفتاح يمسكه القديس بطرس . ويقول (فاولر): إن النقاد كثيرًا ما يخطئون فهم علاقة هذه الصورة بموقف إبليس ، ثم يشرح هذه العلاقة قائلاً : إن إبليس قد هرب من مقر عقابه ووصل إلى مفترق الطرق أي إنه كان قادرًا حتى في هذه اللحظة على التوبة . ويضيف (فاولر): وثم إشارة أخرى إلى رؤيا يعقوب، إذ إن إبليس على وشك أن يتأمل بدائع الطبيعة حينما «لاح له هذا العالم كله بصورته الكاملة» (البيتان 452 - 543) . بينما يقول البروفسور كريستوفر ريكس في كتابه أسلوب ميلتون الرفيع - أكسفورد - 1963 -: إن ثمة تناقضا بين المشبه والمشبه به لأن يعقوب نبيّ وهـو يختار التوبة. أما إبليس فشيطان وقد حقت عليه اللعنة . (صفحة 167 وما بعدها) .

513 - (أرام) هي سوريا . أما حقل (لوز) فهو الاسم القديم لمدينة (بيت إيل) أو بيت الله - حيث توقف يعقوب وجاءته رؤيا السُلّم . (انظر سفر التكوين 19/ 18) .

515 - انظر ما جاء في سفر التكوين «فاستيقظ يعقوب من نومه ،وقال: حقًا إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم . وخاف وقال:ما أرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء» . (28/ 16 - 17) .

516 - 517 ذهب بعض الشراح إلى إقامة علاقة رمزية بين سُلّم يعقوب وبين السلسلة الذهبية التي قال هوميروس إنها تربط الكون إلى (جوبيتر) (رب الأرباب) لأن كل درجة ترمز إلى درجة من درجات الوجود الطبيعي أو ما يسمى سُلّم الطبيعة الذي يحدد مراتب الوجود .

518 - البحر هو ما يسمى «الماء الذي يحيط بالسماء» (خارج الكون) والذي يتدفق حول باب السماء. وقد ورد ذكره في رؤيا يوحنا 4/ 6 على أنه

«بحر من الزجاج».

521 - 522 يقول إنجيل لوقا (16/ 22): إن العازر حين مات «حملته الملائكة إلى حضن إبراهيم». وتقول التوراة (الملوك الثاني / 2/ 11): إن اليشع حملته الملائكة في «مركبة من نار وخيل من نار». أما صورة الإبحار في البيت 520 فتذكرنا بالصورة التي رسمها دانتي في المطهر لسفينة تنطلق بها الملائكة.

535 - (بانياس) هو الاسم اليوناني الذي أُطلق في العصور الحديثة على نبع (دان). وينبغي ألا نخلط بين هذا النبع ومدينة (دان) الواردة في الكتاب المقدس.

536 - بير سبع تمثل الحد الأقصى في الجنوب لأرض (كنعان) مثلما كانت (دان) تمثل الحد الأقصى في الشمال لها. وكان التعبير الشائع هو «من دان إلى بير «سبع». (انظر قضاة 20/ 1).

538 - 539 المقصود بالظلام هنا بالطبع هو العماء- غير أن بعض الكلمات في الأبيات السابقة (التخوم - الحدود - موج البحر - سواحل) توحي بمعنى مجازي آخر هو ظلمة الجاهلية أو ظلمة الوثنية التي تحدها تخوم الأرض المقدسة. انظر الصورة الواردة في سفر أيوب 28/ 3 «إنه يضع حدودًا للظلام».

542 - 551 تقول إيزابيل ماكافري في كتابها «الفردوس المفقود باعتبارها أسطورة» - كيمبردج - ماساتشوستس - 1959 - : «إن هذه الصورة تنقل إلينا بدقة الأثر الذي تحدثه القصيدة بصفة عامة - أي صورة شيء صلب معقد يمكن النظر إليه نظرة كلية» ص 50. وتسهب الكاتبة في الحديث عن الدلالة المعنوية والخلقية للصور البانورامية في الفردوس المفقود باعتبارها صورًا للاتساق والانتظام.

555 – 561 يجد بعض الشراح صعوبة في تصور المكان الذي يقف فيه إبليس ليطل من عَلٍ على العالم الجديد .. ولكن الواضح أنه يقف على خط الاستواء السماوي، والذي كان يمثل المدار الأساسي للأفلاك قبل خلق العالم وهبوط الإنسان ..

556 – «القبة الكبرى» هي الصورة التقليدية للسماء والمقصود عادة قبة من النسيج تشبه سقف السرداق – ولكنها تتحول في أيدي الشعراء من صورة إلى صورة – فمثلاً يشير إليها شكسبير في مسرحية هاملت (الفصل الثاني – المشهد الثاني – الأبيات 318 – 321) باعتبارها قبة من الهواء المرصع بالنجوم :

هذه القبة البديعة الرائعة – قبة الهواء
هذه السماء الجميلة المعلقة فوق رؤوسنا
هذه السقف الرفيعة المرصعة بالنيران الذهبية

أما هنا فتعني الجانب من السماء الذي يسقط عليه ظل الأرض فالقارئ يلاحظ أن الوقت في الأرض هو منتصف الليل ، وأن إبليس يرى من تحته أرضا مظلمة تلقي ظلاً مخروطيًا يتجه طرفه إلى موضع قدميه .

557 – 559 المقصود بالنجم الناعم برج الحمل – والأصل في النص الإنجليزي هو «النجم ذو الفراء» – وقد ترجمت المعنى غير الظاهر لأن برج الحمل ليس نجمًا واحدًا . أما أن هذا النجم يحمل (أندروميدا) فتفسيره أن برج الحمل وكوكبة (أندروميدا) متجاوران تجاورًا شديدًا ،بحيث يشرقان معًا ويغربان معًا – مما ييسر تصور ما يعنيه ميلتون .

560 – 561 يقول إمبسون: إن ميلتون يعني قطبي الأرض (انظر كتابه بعض صور الشعر الرعوي – 1950 – ص 150) – ولكن المقصود هو قطبا السماء – أما كلمة العالم في البيت 562 فتشير إلى الكون بصفة عامة . وأما

قول ميلتون: إن إبليس ينقل عينيه من القطب إلى القطب ليدرك عرض العالم فيقتضي قدرة فائقة على التصور، لأنه يقتضي أن نتخيل أن الكون قد مال على جانبه. ولكن ميلتون يعتمد على نص ديني هو ما ورد في سفر أيوب (18/38) «هل أدركت عرض الأرض ؟» .

562 - «أولى مناطق العالم» لا تشير إلى منطقة على الأرض بل إلى آخر طبقة من طبقات الجو - فوق الطبقات الثلاث الأولى المعرفة والمذكورة في الكتاب الأول، حيث يشير ميلتون في البيتين 515 - 516 إلى «السماء الوسطى .. أرفع سماواتهم».وانظر الحاشية على البيت 516 من الكتاب الأول التي تفصل القول في تقسيم السماء إلى ثلاث مناطق أو طبقات أو سماوات .

564 - «الصقل» هي ترجمة للمعنى، فالأصل يقول :«مثل الرخام»، وقد سبقه في استخدام هذا التركيب اللاتيني (فيرجيل) في الإنيادة (4/ 729) وانظر أيضًا شكسبير - في مسرحية عطيل ف 3 - م 3 - البيت 461 ،حيث يصف السماء بأنها كالرخام - ولو أن التعبير في شكسبير قد يقصد به الدوام وليس الصقل .

565 - 571 فكرة الحياة في الكواكب الأخرى فكرة محببة إلى ميلتون فهو يذكرها في البيتين 459 و 670 من نفس هذا الكتاب - ويعود إليها في الكتاب الخامس (263) والسابع (621) والثامن 140 - 158 و 175 .وقد كانت الفكرة شائعة وكتب عنها الكثيرون في القرن السابع عشر - كما كان معظم علماء الفلك يقبلون وجود سكان في كواكب المجموعة الشمسية نفسها . انظر مقالة الأستاذة مارجوري نيكولسون «عالم في القمر»(العنوان الكامل في ثبت المراجع) - وكتاب راجان الفردوس المفقود وقارئ القرن السابع عشر - لندن - 1962 - ص 153 - وكتاب

البروفسور آرثر لافجوي «التسلسل الأكبر للوجود - دراسة لتاريخ فكرة» نيويورك 1960 - ص 108 - 142 . وتقول مارجوري نيكولسون في كتاب آخر هو «كسر الدائرة : دراسات في تأثير العلم الجديد على شعر القرن السابع عشر» - طبعة إيفانزتون - إلينوي - 1950 - تقول :«إن رحلة إبليس في عالم العماء تمثل إحدى «الرحلات الكونية» الكبرى في عصر كان يقبل فكرة وصول ملاحي الفضاء الخياليين إلى القمر والكواكب بحثا عن عوالم أخرى وبشر آخرين»ص 165 .

568 - ورد ذكر حقول هسبيريا أي إيطاليا في الكتاب الأول البيت 520 (وانظر الحاشية) ولكن الحدائق الهسبيرية تختلف عنها - فهذه الحدائق كانت في نظر القدماء تقع فيما وراء المحيط الأطلنطي - انظر البيتين 559، 560 . وقد ذكر هيزيود أن (جوبيتر) رب الأرباب قد عهد إلى قوم يطلق عليهم «الهسبيريون» أي أهل هسبيريا بحراسة ثمار التفاح ولكنهم لم يفلحوا - ويذكر هيزيود أن هذه الحدائق تقع أيضًا فيما وراء المحيط. ويورد البروفسور لافجوي (في الكتاب المذكور آنفا ص 109) رأيا ذكره (جون ولكنز) مفاده أن في هذه العبارة تلميحًا بأن سكان الكواكب الأخرى «قد أصابتهم خطيئة آدم» - وهذه فكرة طالت مناقشتها في ذلك العصر . وربما كانت فيها إشارة خفية إلى سقوط الجنس البشري أيضًا .

570 - «الجزر السعيدة» إشارة إلى جزر المباركين التي تحدثت عنها الأساطير اليونانية، إذ إن بعض المصطفين من البشر فيها كانوا لا يموتون. وقد ورد التعبير ثانيا (مقترنا بذكر هسبيريا) في الكتاب الثامن في الأبيات 630 - 632 .

573 - 576 يقول (فاولر): إن هذه فقرة عسيرة الفهم لأنها تجمع بين الاختيارات التي يواجهها إبليس والاختيارات المطروحة في زمن ميلتون

إزاء شكل الكون . فإبليس يستطيع أن يخترق الكون من وسطه ويستطيع أن يدور في الأفلاك الخارجية مع الشمس مثلاً حتى يصل إلى الأرض - أما لماذا لا يستطيع ميلتون تحديد المسار ؟(إذ يقول في البيت 575 : «لا نستطيع القطع في هذا»)، فربما لأنه لا يريد إظهار التزامه بمذهب فلكي دون غيره . وآية ذلك أن الوسط (أي مركز الكون) ربما كان الأرض وربما كان الشمس - حسبما توحي هذه الفقرة - ولابد أن ميلتون كان مُلمّا بالنظريات الذائعة آنذاك عن مركز الكون - بل عما إذا كان الكون له مركز على الإطلاق ، وربما كما يقول (فرانسيس بيكون): كانت النجوم منتشرة «دون نظام ودون مركز يتوسطها جميعا ... مثل جزر متعددة في بحر عريض شاسع» (مذكور في فاولر ص 596) .

578 - يقول أليستير فاولر في كتابه سبنسر والأرقام الزمنية - لندن - 1964: إن عين السماء هي الصورة الاستعارية التي توحي بأسطورة أورفيوس - ص 74 - وهي صورة رمزية شائعة لوجود الله في كل مكان .

579 - الرقصة الكونية صورة محببة إلى نفس ميلتون - انظر الكتاب الخامس 178 - والسابع 374 والثامن 125 - ومسرحية كوموس 112 . أما دلالة الرقصات على المواقيت فهي فكرة قديمة ترجع إلى فكرة رقصات جوقات النجوم عند أفلاطون - ولها سند في التوراة - انظر سفر التكوين 1/14: «وقال الله لتكن في جلد السماء أنوار لتفصل بين النهار والليل . وتكون لآيات وأوقات وأيام و«سنين».

583 - 586 كان القدماء يتصورون أن تأثير الشمس ينفذ من خلال سطح الأرض إلى باطنها (انظر الكتاب الخامس 301 - 303 ، والسادس 472 - 483) . وقول دراير في كتابه تاريخ الفلك من طاليس إلى كبلر لندن - 1953 - : إن النظرية التي أتى بها (كبلر) ومؤداها أن الكواكب

تدور في أفلاكها مدفوعة بالقوة المغناطيسية للشمس تمثل «أول محاولة جادة لتفسير قوانين حركة المجموعة الشمسية» ص 397.

591 - يقول برودبنت (الصفحات 165 - 168): إن وصف الشمس التالي يحقق «التقابل بين الجحيم والفردوس الذي توحي به السماء فحسب». ويعترض برودبنت على مبالغة ميلتون في تصوير الشمس في هذه القصيدة التي تقول: إن منبع النور السماوي الوحيد هو الله. ولكن (فاولر) يرد على ذلك قائلاً: إن تمجيد الشمس الذي أتت به الأفلاطونية الجديدة قد أصبح جزءًا لا يتجزأ من تراث التصوّف المسيحي الذي يدور حول النور وقداسته وأن ميلتون ينتمي فكريا إلى تراث الأفلاطونية المسيحية، ومن ثم فمن الطبيعي أن ينسب البهاء والروعة الأخاذة إلى الشمس باعتبارها مصدرًا مهيبًا للنور.

594 - 605 في الكتاب المقدس نرى أن الجواهر الاثنتي عشرة التي تحلى بها (هارون) تمثل قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة. ولكن ميلتون يلمح أيضًا إلى عملية تحويل المعادن إلى ذهب وإلى درجات المعادن الاثنتي عشرة.

596 - 597 في سفر الخروج 18/15 - 20 ورد الوصف الكامل للدرع هارون المربع وبه أربعة صفوف من الحجارة النفيسة - الأول «صف عقيق أحمر (ياقوت) وياقوت أصفر وزمرد». أما الزبرجد فيحل محل الماس في الصف الرابع - في النسخة الشائعة من الكتاب المقدس. وقد لاحظت بعض الاختلاف في أسماء الأحجار الكريمة في الترجمة التي أعتمد عليها للكتاب المقدس (انظر - التصدير) فاعتمدت على تفسير (فيريتي) بصفة أساسية في ضبط أنواع الأحجار الكريمة التي يعنيها ميلتون لأنه يستخدم

أسماء قديمة تشير إلى أعداد منوعة من الأحجار أصبحت تعرف بأسماء أخرى في أيامنا هذه. وقد وردت في الكتاب المقدس ترجمة درع هارون «صدرة قضاء» (النص العربي) ووردت في النصوص الإنجليزية بصور مختلفة - منها «درع للفصل في الأمور» و «درع للحكم» و «درع لتحديد إرادة الله» (في آخر طبعة من الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس *1976*) . أما الأحجار الكريمة المذكورة فهي جميعا ترتبط بالشمس في إطار النظرية السائدة آنذاك عن درجات المعادن وطبقاتها . وقد كانت لها دلالات صوفية نابعة من وجود الأحجار نفسها في بوابة أورشليم الجديدة (انظر رؤيا يوحنا *21/ 19* وما بعدها) . وقد أسهب الشراح في الحديث عن هذا - انظر مثلا برودبنت ص *165* .

598 - 601 الحجر الآخر المذكور في البيت *598* هو حجر (الأوريم) المذكور في سفر الخروج *28/ 30* وقد تخيله الناس كثيرًا في غير هذا المكان لأنهم كانوا يقولون إنه هو نفسه حجر الفلاسفة . أما حجر (التميم) المذكور في نفس الآية فيقال إنه من الأحجار القمرية التي يمكن أن تحول المعادن إلى فضة - بينما يستطيع حجر (الأوريم) في ظنهم تحويلها إلى ذهب لأنه حجر شمسي .

601 - 605 المعنى الأساسي هو أن الكيميائيين قد فشلوا في العثور على حجر الفلاسفة رغم نجاحهم في إخـــراج «الزئبق الفلسفي» و «هيرميس» عـــند اليونـــان هـــو (ميركوري) أو الزئبـــق عند الرومـــان و (بروتيوس) معناه في الأساطير «المادة» وذلك لقدرته على اتخاذ أشكال عدة ،ولكن الإشارة هنا هي بصفة خاصة إلى المادة الأولى للخلق - (انظر البيت *472* وما بعده من الكتاب الخامس - إذ إن «الزئبق الفلسفي» كان يعتبر في نظرهم مادة أولى، ومن ثم كان الجوهر أو الروح

للزئبق «الطيار» العادي وكانوا يصنعونه أولا بتخليص الزئبق من الهواء أي بتقييده (كما يقول ميلتون) ثم بفك قيوده أي بتحريره من السيولة . هذه هي المرحلة الأولى ولابد أن تتلوها في نظرهم مرحلة أخرى يستخدم فيها حجر الفلاسفة لتحويل هذه الصورة الأولى حتى تكتسب الصفات المطلوبة . وثم عدة وجوه للشبه بين هذه الأمثلة وموقف إبليس - فهو أولا يشبه الكيميائيين في عجزه عن إدراك مسعاه . إذ إنه لا يستطيع أن ينال الغفران (الذي يقابل حجر الفلاسفة) ومع ذلك يستطيع أن يكسو نفسه ببهاء خارجي فقط . وهو ثانيا مثل الزئبق الخادع أو (ميركوري) رب التخفي والتنكر . ومن ثم فأول خطوة لتطهير روح الإنسان هي (تقييد) إبليس . وثالثا فإن إبليس يشبه (بروتيوس) في أنه استطاع فك قيوده والهرب من بحر اللهب ، وهو يتحول في أتون مشاعره ، كما أنه «سياسي» ماكر محنك .

606 - المعنى الأول لكلمة «هنا» هو في «الشمس» - والمعنى الثاني «في الأرض»، حيث يحيل ضوء الشمس ماءها إلى ذهب . والغموض يكسو الأبيات من 606 - 610 .

607 - 608 الأكسير (وقد فضلت هذه الكلمة الأجنبية التي شاعت في العربية المصرية) هو أي عنصر وسيط كيميائي أو طبيعي يستطيع تحويل المعادن الدنيا إلى ذهب . وهذا ينطبق على حجر الفلاسفة . وكان الكيميائيون يحاولون جادين التوصل إلى «أكسير طول العمر» أو ما أسموه بالذهب السائل . انظر كتاب الكيميائيون - تأليف م. كارون وس. هوتين طبعة لندن 1961 - ص 168 .

608 - 612 «رأس الكيمياء» صفة مناسبة للشمس لأن تأثيرها ينفذ إلى باطن الثرى ، كما يقول ميلتون ، وتدريجيا وعلى مدى أزمان طويلة يخرج

لنا الأحجار الكريمة (انظر الأبيات 583 - 586 من نفس البيت والأبيات 447 - 481 من الكتاب السادس) .

610 - «ماء الأرض» هو الندى - وقد ذكر (درايدن) في حاشية له على إحدى قصائده أن «الأحجار الكريمة تنشأ من الندى الذي يتكثف ويتصلب في دفء الشمس» .

620 - تعبير «نور بصره» فيه غرابة - ويحتمل أن ميلتون يشير هنا إلى النظرية القديمة لعلم الضوء التي تقول: إن النور يخرج من العين ليسقط على الأشياء التي نشاهدها - وقد ورد تعبير مشابه في مسرحية ميلتون شمشون الجبار في البيتين 162/ 163 إذ يقول :

وا أسفا ! إن نور البصيرة

لا يلقي بنور البصر على ما حولي .

623 - انظر رؤيا يوحنا 19/ 17 «رأيت ملاكًا واحدًا واقفًا في الشمس» .

634 - يقول (برودبنت) في معرض حديثه عما اعتاده إبليس من تغيير صورته (ص 106) إن : «كل تغيير في الشكل أو الطبيعة ... يعتبر شرًا بل من مظاهر سقوط الإنسان» - أما الإشارة المباشرة إلى الكتاب المقدس فهي إلى الأبيات 13 - 15 من الرسالة الثانية إلى أهل «كورنثوس» (الإصحاح الحادي عشر) «لأن مثل هؤلاء . هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح . ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير نفسه إلى شبه ملاك نور» .

636 - 637 يقول (إمبسون) إنه يصعب علينا تقبل فكرة وجود «صبي من ملائكة الشاروبيم» (ص 59 - 61) بسبب إحساسنا بأن الملائكة لا تتوالد. ويقول :إن إبليس قد تخفى في صورة ملاك ترقى حديثًا إلى رتبة الشاروبيم حتى يتفادى الشك فيه - فهو يريد أن يعلم المزيد

عن الخلق الجديد، و (أوريل) يجد من الطبيعي أن يتساءل هذا الملاك الذي رقي حديثًا عن كل شيء» . ويقول فاولر: إن الدافع عند ميلتون هو شيوع تصوير الشاروبيم في صورة طفل مجنح . وقد فضل إبليس هذه الصورة لامتياز الشاروبيم في العلم والمعرفة ومن ثم كان من المقبول أن يتساءلوا ويحاولوا معرفة المزيد.

643 - هناك كلمة في النص الإنجليزي تفيد قصر الثوب الذي يرتديه أوتفيد أنه شمر عن ثيابه حتى لا تعوقه في السير وهي كلمة Succinct ولما كان ميلتون يصور الملائكة عادة دون ثياب فربما كانت العبارة تعني أنه ارتدى (حلة مناسبة تساعد على السرعة) - ولذلك حذفت الكلمة في الترجمة . أما الجناحان المذكوران في البيت *641* فهما من خصائص مرتبة الشاروبيم .

648 - *661* ورد في سفر زكريا تفسير «للمنارة ذات السرج السبعة» وهو أنها «أعين الرب الجائلة في الأرض كلها» *4/ 10* (انظر أيضًا رؤيا يوحنا *5/ 6*) أما الملائكة السبعة الكبار فقد ورد ذكرهم في رؤيا يوحنا أيضًا (*1/ 4*) «نعمة لكم وسلام من الكائن والذي كان والذي يأتي ومن السبعة الأرواح التي أمام عرشه» .

648 - (أوريل) معناها نور الله . ورغم أن هذا الاسم لم يرد في الكتاب المقدس إلا أنه ورد في التراث اليهودي باعتباره أحد كبار الملائكة (إلى جانب ميكائيل وجبريل وروفائيل) الذين يحكمون أقطار الأرض الأربعة. ويقول (فاولر) إنه قد نشأ خلاف حول السبب الذي حدا بميلتون إلى تخصيص «الشمس» لهذا الملاك . فالشائع أن الملائكة طاقات نورانية ترشد الكواكب في سيرها دون تخصيص باستثناء ميكائيل لكوكب الزهـرة وجبريل للمريخ وروفائيل للمشترى . أما الشمس فكان لها (أوريل)

و(أدونيس) معًا . وقد اعتمد (فاولر) في هذا على كتاب قديم دون أن يحسم الأمر، وربما كان ميلتون يستقي مادته هنا من مصدر مجهول من مصادر التراث الديني .

656 - تعبير «أول مفسر» له عدة دلالات - أولها أنه أول من يركب العربة التي بناها سليمان (انظر نشيد الإنشاد 9/3) وساد اعتبارها نموذجا للعهد الجديد - أي العربة التي ينقل المسيح المؤمنين فيها إلى السماء. وهكذا فإن (أوريل) أول ملاك كريم يظهر في القصيدة هنا وأول من يركب عربة المؤمنين - ولكن ثمة معنى آخر أبسط وأقرب إلى الذهن وهو أن (أوريل) هو أحدُّ الأرواح بصرًا ، (البيت 691)،ومن ثم فهو أعمقها بصيرة وأقدرها على تفسير مشيئة الله . والشمس التي يرعاها تتمتع بموقع متميز فريد بين الكواكب .

705 - 707 يقول (دنيس بيردن) في كتابه الأسطورة المنطقية - لندن - 1967: إن هذا يعني أن الله يبقي بعض العلم سرًا عن الجميع حتى عن الملائكة - وهذا يعني أنه يحرم الإنسان كثيرًا من العلم (ص 110) - ويؤكد ميلتون في كتابه «عن العقيدة المسيحية» (9/1) قصور معرفة الملائكة - قائلاً: «إن الملائكة الأخيار لا يطلعون على شتى أسرار الله» كما يزعم البابويون ... بل إنهم يجهلون الكثير من علمه . ويقول في موضع سابق (5/1): «وحتى المسيح نفسه لا يحيط علما بكل شيء ، إذ إن ثمة أسبابًا خفية يحتفظ بها الله لنفسه» .

708 - 718 يقول (فاولر): إن ذكريات (أوريل) عن الخلق تقدم إلينا في الإطار التقليدي للمذهب المسيحي الأفلاطوني الذي يقول بأن العالم لم يخلق من العدم ولكن من المادة الأولية - أو الهيولي - التي كانت في حالة عماء أولا ثم انتظمت حين فصلت عناصرها

الأربعة، واتخذت صور الطبقات المتداخلة. ويورد (فاولر) عددًا من المصادر التي اعتمد عليها مثل كتابات: أفلاطون و (أوفيد) و (ماكروبيوس) - ثم يضيف قائلاً: إن صورة العالم الأفلاطوني قد امتزجت بالصورة التي تبرز لنا في سفر التكوين منذ عهد (فيلو) . وكان (أوريل) من الملائكة الذين شهدوا خلق العالم مثل روفائيل.

710 – سبق ذكر «الاختلاط» باعتباره من رجال قصر «العماء» في الكتاب الثاني البيت 966 .

742 - (نيفاطيس) جبل يقع على حدود أرمنيا وآشور (انظر الكتاب الرابع البيت 126) وهو منبع نهر (دجلة) . ويذكر ميلتون في الكتاب التاسع (البيت 71) أن (دجلة) هو النهر الأول في الفردوس أي قبل أن يتفرع إلى عدة أنهار .

1 - 12 تروي الرؤيا أو الـ Apocalypse التي رآها القديس يوحنا موقعة ثانية في السماء بين ميكائيل والتنين أي إبليس . وهذه هي الرواية كما يذكرها الكتاب المقدس في رؤيا يوحنا اللاهوتي : «وحديث حرب في السماء . ميخائيل وملائكته حاربوا التنين وحارب التنين وملائكته ولم يقووا فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء . فطُرح التنين العظيم وهو الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله طُرح إلى الأرض وطُرحت معه ملائكته . وسَمِعْتُ صوتًا عظيمًا قائلاً: في السماء الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وسلطان مسيحه لأنه قد طرح المشتكى على إخواننا الذين كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهارًا وليلاً .. ويل لساكني الأرض والبحر لأن إبليس نزل إليكم وبه غضب عظيم عالما أن لـه زمانًا قليلاً» (*12/ 7 - 12*) والواضح أن ميلتون يتمنى أن ينذر آدم وحواء بأن الشيطان على وشك أن يغويهما . والواقع أن هذا تمهيد للتحذير الذي يقدمه لهما (روفائيل) و (أوريل) في هذا الكتاب - ولو أن إمبسون يرى (ص *61*) أن ميلتون كان يشعر أن تحذير روفائيل لا يكفي .

17 - آلة الحرب هي المدافع التي اخترعها إبليس (الكتاب السادس *469* - *500*) .

18 - يفسر إمبسون «الفزع والشكوك» التي تنتاب إبليس بأنها نتيجة لما عَلِمَه من (أوريل) عن قدرة الله على الخلق (ص *61* - *63*) ولكن تفسير ميلتون للحالة النفسية لإبليس تفسير معقول - ففي البيتين *15* و*16* يصور لنا رهبة إبليس من اقتراب موعد تنفيذ خطته الرهيبة .

24 - يعترض أحد الشراح على استخدام كلمة الذكرى في هذا البيت، لأن البيت التالي يذكر المستقبل أيضًا - وكيف يمكن لإبليس أن يذكر المستقبل ولا مستقبل له - واسمه يعني ذلك اشتقاقًا فالمبلس هو من فقد الأمل! ولكن ميلتون لا يقول: إن إبليس يتذكر «المستقبل»، والأقرب أن نتصور قوله إنه يذكره بمعنى أنه يجول بخاطره - أي أن الذكر هنا أقرب إلى معنى ميلتون ومرماه.

27 - 28 المعنى الاشتقاقي لعدن هو السرور والمتعة - وكان هذا المعنى شائعًا في القرن السابع عشر.

30 - «برج الظهيرة» صورة مقتبسة من فيرجيل. أما اقتران وقت الظهيرة أو توسط الشمس للسماء بوقت الفصل في الأمور أو إصدار الأحكام فهو قديم وشائع في التقاليد الكلاسيكية والدينية.

32 - 41 يقول (إدوارد فيليبس) إنه قد قرأ هذه القطعة قبل شروع ميلتون في كتابة القصيدة بعدة سنوات، وقد عرضه عليه ميلتون حين كان ينتوي أن يكتب مأساة لا ملحمة عن سقوط الإنسان. (مذكور في كتاب هيلين داربيشر - ص 72 وما بعدها - الاسم في ثبت المراجع) ويقول: إن الأبيات كانت معدة لبداية المأساة. وقد ألمح بعض الشراح إلى وجه شبه بينها وبين مسرحية (أيسخولوس) بروميثيوس مغلولا، ولكن هذا الشبه لا يتعدى توجيه الخطاب إلى الشمس. وخطاب إبليس برمته (الأبيات من 32 - 113) درامي إلى أبعد الحدود، إذ إنه يمثل حوارًا باطنًا بين جانبي الشر والخير في نفس إبليس يشبه الحوار بين ملاكي الخير والشر في مسرحية (مارلو) الدكتور فاوستوس. وكان ميلتون يرى أن تصوير اليأس هذا التصوير الدرامي لا يتأتى إلا من إبليس. وقد علق (برودبنت) على هذا تعليقا طريفا يقول فيه: «إن الشخصيات في الفردوس المفقود لا تحدث

نفسها إلا بعد «سقوطها» (ص 80).

37 - انظر إنجيل يوحنا 20/3 «وكل من يعمل السيئات يبغض النور» .

38 - 39 انظر رؤيا يوحنا 5/2 «فاذكر من أين سقطت وتب» .

42 - 43 يكاد التغير في موقف إبليس تجاه البارئ أن يكون تغيرا كاملا بحيث قال بعض النقاد إنه يمثل تغيرا في مقصد الشاعر نفسه ، وقال البعض الآخر إنه قد أضاف إلى الملحمة بعض الأبيات التي كان قد أعدها للمأساة. ويهاجم (إمبسون) (ص 64 وما بعدها) الرأي القائل: إن إبليس يعترف في أول حديث منفرد له بأن خطبته السابقة التي ألقاها على أقرانه وأتباعه كانت حافلة بالأكاذيب ، وهو يفند ذلك تفنيدًا مقنعًا - رغم أنه لا يرضي (فاولر)! ففاولر يقول: إن ذلك لا يرضي إلا من كانت قيمه..على درجة عالية من التعقيد مثل قيم إبليس نفسه ! وآية ذلك أن أوائل من قرأوا الملحمة لم يدهشوا على الإطلاق للتغير في موقف إبليس بل كانوا يتوقعون أن يبدي وهو أول الخاطئين وأكبر العاصين قدرًا من الندم بعد أن أتيح له الوقت الكافي لتأمل حاله والنظر في مآله وحده ودون الأقران والأعوان - وحين لم يؤد الندم إلى التوبة بل إلى التمادي في الإثم والإصرارعلى العصيان أدرك أولئك القراء أنه قد هوى إلى درك أسفل جديد ومرحلة أخطر من مراحل الإدانة واللعن !

43 - «بعد أن خلقني» عبارة بالغة الأهمية - لأن إبليس كان يتظاهر أثناء فورة العصيان في السماء أن الملائكة «أنجبوا أنفسهم وأنشأوا ذواتهم بقوة الحياة الكامنة فيهم» (الكتاب الخامس/ 860 - 861) .

45 - الإشارة إلى رسالة يعقوب 5/1 «إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعير فسيعطي له» .

55 - 57 المعنى واضح وهو أن إظهار الامتنان للدين المعنوي يسقطه عن المدين. والعبارة لها مثيل في خطبة ذائعة ألقاها (شيشرون) دفاعا عن صديقه (بلانكيوس) إذ يقول فيها (23/ 68): «فيما يتعلق بالدين المعنوي أقول إن الرجل إذا سدده أي إذا اعترف به كان له أن يحتفظ به، وإذا احتفظ به كان قد سدده باحتفاظه به» - ومثلما يستخدم شيشرون التورية في استخدام فعل habere في معنيين يستخدم ميلتون التورية في استخدام فعل Owe أيضًا في معنيين أولهما الإقرار بملكية الشيء وثانيهما الالتزام بالتسديد. واستخدام الفعل بالمعنى الأول شائع في شكسبير.

66 - 70 أوضح الله أن إرادته السابقة لا تلغي حرية الإرادة لدى الملائكة وأن حبه لمخلوقاته يتطلب منهم أن يستجيبوا له بمحض اختيارهم (انظر الكتاب الأبيات 535 - 540) - ويعلق أحد الشراح على ذلك قائلاً: إن هذا الحب هو في آخر المطاف - المسئول عن سقوط الملائكة لأنه أتاح لهم حرية الإرادة.

82 - «الإباء» هنا كلمة تدين إبليس بدلاً من أن ترفع من قدره - فهي تذكرنا بالكلمة الإيطالية التي قيست عليها واشتقت منها، وتعني الاحتقار لما هو وضيع ولا يناسب احترام الملاك لنفسه.

110 - انظر إشعياء 5/ 20 «ويل للقائلين للشر خيرًا وللخير شرًا».

112 «أكثر من نصفه» لأنه سيحكم في ظنه الأرض أيضًا فإذا أضيفت إلى الجحيم زاد حجم سلطانه عن حكم السماء!

115 - كان اللون التقليدي لوجوه الشاروبيم هو الأحمر. لاحظ أن ميلتون يذكر في «الموضوع» ثلاثة مشاعر هي «الخوف والحسد واليأس».

118 - «الأخلاط» إشارة إلى أخلاط البدن الأربعة أو إلى اختلاط مقومات النفس.

126 - الجبل الآشوري هو جبل (نيفاطيس) انظر الحاشية على البيت 742 من الكتاب الثالث.

132 - 159 لا يوجد مصدر واحد اعتمد عليه ميلتون في وصف الفردوس، إذ إنه يستقي مادته من التراث الأوربي كله - تراث الفراديس والجنان والمتنزهات وجزر السعادة وأرض البركات .. إلخ.

132 - الفردوس هي الجنة القائمة داخل أرض عدن (انظر الأبيات 209 - 210 والكتاب الأول 4 - 5).

134 - «عارية» أي غير مسورة أو خالية من الأشجار.

135 - يقول (ك. س. لويس) في كتابه مقدمة للفردوس المفقود - لندن 1942 :إن الفكرة الفرويدية القائلة بأن الجنة السعيدة صورة للجسم البشري لم تكن لتخيف ميلتون لو علم بها ! (ص 47). وقد دأب من تحدثوا عن الجنة على تصويرها فوق جبل أو تل، وكثيرًا ما توحي بصور الجسم البشري مثلما يفعل (سبنسر) في ملكة الجان حين يصف جنة أدونيس قائلاً :

في وسط تلك الفردوس
ينتصب جبل مهيب ، يحيط بقمته المستديرة
دغل أدكن من أشجار الآس والريحان
لم تقلم أفنانه الظليلة نصال المقص الحديدية
ولا التهمت براعمه الرقيقة أفواه الوحوش الخبيثة
ولكنه يحيط مثل السوار بالقمة
ويلقي من جانبيها المثمرين رحيقًا حلوًا
يزين الأرض كلها بقطراته الثمينة
ويشيع أعبق أريج وأحلى بهجة
(الكتاب الثالث - النشيد السادس الفقرة 43)

أما دانتي فهو يضع الفردوس في المطهر فوق قمة جبل التطهير (*28/ 91 - 102*) ليضمن أنها ستسلم من آثار التغيرات الجوية كما أن (أريوسطو) يجعل قمة التل الذي تقع عليه الفردوس عاليا «حتى أنه ليكاد يلمس هالة القمر» (غضبة أورلاندو *34/ 48*) وترجع هذه الفكرة إلى سفر حزقيال (*28/ 13 - 14*)« كنت في عدن جنة الله ...على جبل الله المقدس» .

148 - كانت الفراديس الأرضية دائمًا تتسم بتزامن شتى مراحل النمو وأطواره انظر (أريوسطو) (غضبة أورلاندو *34/ 49*) و (تاسو) (تحرير بيت المقدس *16/ 10* وما بعده) يقول الأول :

قبل أن تسقط الفاكهة الناضجة تظهر البراعم

فهذه تسقط وهذه تظهر ، وهذه تنضج وهذه تتفتح !

ويقول الآخر :

كانت الأوراق تختبيء على نفس الأغصان

وإلى جوار الثمار الغضة ثمار ناضجة وتين شهي !

وكذلك قال (سبنسر) في ملكة الجان (الكتاب الثالث / النشيد الرابع/ الفقرة *42*) . وعادة ما ترك الشراح هذه الظاهرة دون تفسير - ظاهرة الازدهار الدائم في الجنة، ولكن ميلتون يحاول أن يشرح فكرة الخلود باعتبارها صورة من صور الدوام في الطبيعة مستندًا إلى ما جاء في سفر التكوين (*1/ 12*) عن أمر الله للأرض بإخراج براعيم العشب والثمر الناضج معًا .

161 - كان الطريق البحري للسفن التجارية يمر بين موزمبيق ومدغشقر صاعدًا إلى اليمن ثم البحر الأحمر.

162 - أرض سبأ هي أرض اليمن .

163 - بلاد العرب المباركة هي الصيغة التي اختارها ميلتون للتعبير القديم أي بلاد العرب السعيدة Arabia Felix وهو

الاسم القديم لليمن .

166 - 171 ابن (طوبيت) هو (طوبيا) الذي كان قد أُرسل إلى أرض (ميديا) لإنجاز أمر هام ثم تزوج من (سارة) ابنة (راغويل) . وكانت سارة قد وهبت من قبل لسبعة أزواج ولكنهم قتلوا جميعًا قبل أن يتم الزواج وذلك على أيدي (أزموديوس) الجنيّ الغيور . ثم قدم روفائيل نصيحة إلى (طوبيا) استطاع بها أن ينجح حيث فشل الآخرون، إذ إنه قام بحرق قلب سمكة وكبدها ليثير دخانًا كثيفًا - «وحينما شم الجني الشرير تلك الرائحة هرب إلى أقاصي مصر حيث غلله الملاك في الأصفاد» طوبيت (8/ 3) - ويقول (ك. س. لويس) (ص 42): إن ميلتون يقدم هذا التشبيه «ليجعلنا نشعر ببذاءة وجود إبليس في جنة عدن، إذ نحس معه بالرائحة الكريهة للسمك فجأة وسط الأريج والعبير الذي تفوح به الزهور» .

168 - يقص علينا ميلتون في الكتاب السادس البيت 365 الدور الذي اضطلع به (ازموديوس) في الحرب التي وقعت في السماء . ويقول فاولر: إنه طبقًا للتقاليـد الاسكولائية التي نقلها إلينا (كورنليوس أجريبا) و (هيوود) و(بيرتون) وغيرهـم ،كان للشياطين ثماني طبقات، وكان (أزموديوس) على رأس الطبقة الرابعة .

183 - انظر إنجيل يوحنا 1/ 10 «إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص» .

188 - 191 انظر سفر يوئيل 2/ 3 - 9 «الأرض قدامهم كجنة عدن .. سوف يجرون على السور يصعدون إلى البيوت يدخلون من الكوى كاللص».

192 - 193 يعود ميلتون هنا إلى التشبيه الذي سبق في الأبيات 183 - 187 ،ولكنه يجعل المشبه به هنا مشبها حين يعقد مقارنه بين رجال الكنيسة

والشيطان .

196 - تعتبر صورة غراب الماء استمرارًا للهجوم الذي بدأه ميلتون في البيت *193* ، وأي إنسان جشع متكالب على المادة يمكن وصفه بغراب الماء ولكن هذا الاصطلاح كان يطلق بصفة خاصة على «الأجراء» من رجال الكنيسة - ولما كانت الثمرة الخالدة لشجرة الحياة هي الجزاء الذي وعد به المؤمنون المخلصون في أورشليم الجديدة (انظر رؤيا يوحنا *2/ 7* ، *22/ 14*) فقد جعل ميلتون هذا الغراب يجثم عليها لأن الأجراء يطمعون في الخلود .

197 - يرصد روبرت الرودت Robert Ellrodt في كتابه الأفلاطونية الجديدة في شعر سبنسر ، جنيف ، *1960* - التقاليد الأدبية التي تستند إلى ما جاء في سفر التكوين (*2/ 5* و *9*) من أن الخلق كان مرة واحدة ،وأن الفردوس كانت تشتمل على إمكانيات الحياة في المستقبل جميعها - ص *75* - *81* منذ كتابات القديس (أوغسطينوس) حتى (سبنسر) . وانظر وصف (سبنسر) في ملكة الجان لجنة أدونيس في الكتاب الثالث ، النشيد السادس، الفقرة *30* .

209 - *216* انظر سفر التكوين (*2/ 8*) «وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا ووضع هناك آدم الذي جبله» وقد شب جدل عنيف حول موقع الفردوس . ويكاد يجمع من اعتقدوا بوجود فردوس أرضية على أنها كانت تقع جنوب إيران الحالية إما في منطقة الخالدية أي في جنوب العراق عند التقاء نهري دجلة والفرات وإما في شمال العراق عند منابع هذين النهرين بالقرب من جبل (نيفاطيس) . وقد نجح ميلتون في التوفيق بين هذين الرأيين . بل إنه نجح في التوفيق بينهما وبين رأي آخر وهو أن عدن كانت تقع «تحت خط الاستواء»، وذلك لأنه يعتبر أن مدار الشمس في السماء كان ينطبق تمامًا مع خط الاستواء على الأرض قبل سقوط آدم

(انظر الكتاب العاشر الأبيات من 651 - 706) . أما (حوران) فهي الحد الشرقي لأرض إسرائيل في سفر حزقيال (47/ 16 - 18) وهي - وقد كتبت (حران) - ترتبط بعدن في نفس السفر (27/ 23) ولكنها وقد كتبت (حاران) ترد في سفر التكوين باعتبارها المدينة التي «مات فيها تارح» أحد أحفاد سام بن نوح (11/ 32) وأمر إبراهيم بتركها (12/ 4) . أما (سلوشيا) العظيمة فقد بناها أحد قواد الإسكندر الأكبر وهو (سلوكوس نيكاتور) لتكون مقر الحكومة لإمبراطوريته في سوريا . ويورد (فاولر) رأي (هايلين) الذي يقول إنها أحيانا كانت تختلط في الأذهان ببابل (3/ 129) وتقع على نهر دجلة جنوب شرقي حوران. وذكر ميلتون مدينة (تِلَسّار) يمثل مفارقة درامية لأنه ينذر بوقوع الحرب في عدن والإشارة هي إلى ملوك ثاني (19/ 11) أو إلى إشعياء (37/ 11) حيث يرد ذكر (تِلَسّار) باعتبارها إحدى المدن التي أُبيدت عن آخرها «هؤلاء الذين أهلكهم آبائي (جوزان) و (حاران) و (رصف) وبني عدن الذين في تِلَسّار» .

217 - 221 انظر سفر التكوين (2/ 9) «وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر» . أما الثمار الذهبية فتعيد إلى الذهن فاكهة (هسبيريا) التي كان (هرقل) يقطفها رغم أنف التنين الذي يحرسها .

(أوفيد - مسخ الكائنات 4/ 637 وما بعده) .

223 - 232 يرجع خصب الفردوس (انظر الأبيات 215 - 217) لا إلى المطر، ولكن كما يقول سفر التكوين (2/ 5 و 6) إلى «ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض» . وقد اعتمد كل من كتب في الموضوع على هذه الفقرة .

233 -235 انظر سفر التكوين (2/ 10) «وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس» . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية تكوين 2/ 5 (في الحاشية السابقة) تعني أن الأرض كلها كانت تروى بمياه الفردوس .

250 - أساطير (هسبيريا) - انظر الحاشية على الأبيات 217 - 212 من هذا الكتاب ،والحاشية على الأبيات 5680 - 5690 من الكتاب الثالث .

251 - «رائعة المذاق» هنا فحسب ، أما تفاح (هسبيريا) فلم يكن يؤكل .

256 - استنادًا إلى ما جاء في سفر التكوين (3/ 18) « وشوكًا وحَسَكًا تنبت لك»، وهي اللعنة التي صُبّت على آدم بعد السقوط ،وذهب كثير من مفسري التوراة إلى أن شجرة الورد كانت دون أشواك قبل عصيان آدم . ومن ثَم فإن الورد الذي لا شوك له Sine Spinis Rosa كان يرمز إلى البراءة التي كان يتمتع بها الإنسان قبل السقوط .

262 - ترمز حواء خفية إلى (فينوس) - ويتضح هذا من صورتين أولهما شجرة الآس والريحان وثانيهما صورة المرآة (في البيت التالي) - ليس فحسب لأنها ربة الحدائق بل أيضًا لأنها ذات قوة تشكيلية أي أنها أيضًا تتحكم في دورة التوالد التي تفصح عنها رموز الفصول المتعاقبة. وطالما صور الشعراء الفراديس باعتبارها حدائق فينوس - انظر مثلا (سبنسر) في ملكة الجان (الكتاب الثالث/ النشيد السادس وكذلك الكتاب الرابع/ النشيد العاشر) . وتدخل ضمن هذه الصور المتشابكة صور عرائش الكروم (258) - انظر أوفيد - فن الهوى 1/ 244 (ترجمة الدكتور ثروت عكاشة).

263 - 266 التوافق بين أهازيج الطيور وخشخشة الأوراق وخرير المياه (260) من خصائص حدائق (فينوس) . أما كلمة «نسائم» فلها دلالة ثانوية ترتبط بالأهازيج والإيقاع (265) - أي الدلالة على

الألحان . وقد لاحظ هذه الدلالة (إمبسون) في كتابه بعض صور الشعر الرعوي لندن - *1950* (ص *157*) - أما الجدل الذي لا مبرر له حول هذه الفقرة فقد حسمه (كريستوفر ركس) في كتابه أسلوب ميلتون الرفيع (*1963*) ص *104* - *106* .

266 - *268* أسهب الشراح في التعليق على الدور الذي تقوم به «الحسان الثلاث» في القصائد الكلاسيكية التي تتناول الربيع . أما هذه الحوريات فهي «تجسيد للحسن والجمال» (انظر موجز الأساطير الإغريقية - تأليف هـ ج. روز - لندن - *1978* - ص *124*) وهي ربات النماء لأنها تعلن عودة الربيع وازدهار المراعي . وقد حدد (هيزيود) عددهن بثلاثة ، ويقول (أوفيد): إنهن يشتركن مع ربات الفصول في جمع الزهور في الربيع . أما (بان) فهو رمز للطبيعة بصفة عامة . واسمه يعني «الجميع» - أو الصورة الكلية . و «الساعات» Hours في النص الإنجليزي تعني ربات الفصول. وأما الرقصة فتعود أهميتها إلى أن الأفلاطونيين الجدد كانوا يعتبرون أن النمط الثلاثي لهذه الرقصة - سواء من ناحية الإيقاع أو من ناحية التشكيل - تعبير عن الحركة التي هي أساس كل نماء طبيعي .

268 - *272* (ديس) هو (بلوطو) ملك الجحيم الذي اغتصب (بروزربينا) - وهو الاسم الروماني للربة (بيرسيفوني) - (انظر القصة كاملة في موجز الأساطير اليونانية تأليف (روز) الصفحات *93* وما بعدها) - أما (ديس) فكان اسمه أيضًا (هاديس) أي الجحيم أو (هاديس - بلوطو) وكان يمثل شيئين متناقضين معًا إذ كان إلها لخصب الأرض وإلها للموت في الوقت نفسه وكانت هي كذلك إلهة للموتى وإلهة للخصب، وذلك لأن اختطافها أدى إلى قحط الأرض وبورها، وربما كان ذلك نتيجة لحزن أمها (كيريس) أو (كوري) عليها - وحتى بعد العثور عليها لم يكن النماء يعود إلى الأرض

إلاّ نصف العام لأنها أخطأت أثناء وجودها في العالم السفلي بأن أكلت سبع حبات من حب الرمان - وهذا كما يقول أحد الشراح في تعليقه على رواية (أوفيد) في مسخ الكائنات (*195*) مُسكر مُهلك جعل لها مكانًا دائمًا في الجحيم مثلما أخرجت التفاحةُ حواءَ من الفردوس - وهذا سِرّ العلاقة بين الاثنتين .

268 - يذهب كثير من القدماء إلى أن العالم قد خلق في شهر مارس.

وقد اعتمد الشراح الأوائل على التفسير الحرفي للكتاب المقدس في إثبات أن «المسيح قد رفع في اليوم نفسه الذي خلق فيه آدم» - واعتمادًا على ما جاء في سفر الخروج من أن نيسان Nisan (مارس/ إبريل) هو أول شهور العام «وكلمة الرب موسى وهارون في أرض مصر قائلاً : هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور. هو لكم أول شهور السنة» (*12/ 1 - 2*) .

272 - *274* كان بجوار نهر (أورنتيس) بالقرب من أنطاكية دغل جميل يسمى دغل (دافني) أي دغل أشجار الغار Laurel لأن الفتاة المسماة بهذا الاسم والتي كان يعشقها ويطاردها (أبولّو) قد تحولت إلى شجرة غار حتى تنجو منه (انظر موجز الأساطير اليونانية *141*) - وكان بجوارها غدير أطلق عليه نبع (كاستاليا) تشبيها له بنبع (كاستاليا) الموجود في جبل (البارناس). أما لماذا يسميه ميلتون «الملهم»؟ فلأن إحدى نبوءات (أبولّو) كانت تعيش بالقرب منه .

275 -*279* جزيرة (نايسا) إحدى جزر البحر المتوسط بالقرب من تونس العاصمة . وتقول الأسطورة: إن (أمون) ملك ليبيا كان على علاقة غرامية مع الفتاة (أماليثا) كان من نتيجتها أن أنجبت منه طفلا هو (ديونيس) أو (باخوس) . ولما كان يريد أن يحمي الأم وابنها من غضب زوجته (ريا) ابنة (أورانوس) فقد أخفاها في جزيرة (نايسا) .

وكان القدماء يقولون: إن (آمون) هو (جوبيتر) الليبي الذي كان يتخذ صورة كبش (تحولت فيما بعد إلى برج الحمل) ويقولون إنه أيضًا حام بن نوح عليه السلام .

280 - 285 يورد فاولر وصف هايلين Heylyn لجبل (أمارا) قائلاً :إن ارتفاعه مسيرة يوم كامل وإن صخوره ملساء ،وإن قمته يحيط بها سور عال حيث الحدائق والقصور . ويمتد إقليم (أمارا) غربا نحو النيل ويزخر بالمتع والملذات حتى تصور البعض خطأ أنه مكان الفردوس .ويتفق (هايلين) - حسبما يروي فاولر - مع معظم جغرافي ذلك العصر في القول بأن (أمارا) يقع على خط الاستواء أو قريبًا منه . وميلتون يؤكد أن جبل (أمارا) يقع جنوب (مدار اثيوبيا) أي خط الاستواء. وبهذا يؤكد صراحة إن الفردوس استوائية تتمتع بالربيع الدائم المذكور في البيت *268* .

289 - أضفت كلمة (الوثنية) إلى الترجمة اعتمادًا على ما قالته (ايزابيل ماكافري) في كتابها المذكور آنفًا من أن ميلتون كان يريد الإيحاء بالكمال في مظهر آدم وحواء باستدعاء صور الآلهة الوثنية في مخيلة القارئ (ص *98*) .

291 - 293 انظر سفر التكوين *1/ 27* «فخلق الله الإنسان على صورته» .

295 - «المصدر» كما يوحي النص هو الخصال العلوية التي وهبها الله للبشر - ولكن فاولر يقول إنه الصورة القدسية في آدم وحواء .

299 - الفكرة تستند إلى ما جاء في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس *11/ 3* - «رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله» .

301 - 308 طول الشعر الخاص بكل من الجنسين يستند إلى التفاوت في مرتبتهما .انظر ما يقوله بولس الرسول في كورنثوس *1*: «إن الرجل لا ينبغي

أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل .. وأما المرأة إن كانت ترخي شعرها فهو مجد لها ،لأن الشعر قد أعطى لها عوض برقع» (7 و 15).

301 - «خصلاته السوداء» - في الأصل خصلاته التي بلون زهر الجاسنت أو الياسنت. وقد اعتمدت في تحديد اللون على ما قاله أحد شراح (هوميروس) في تعقيبه على فقرة مماثلة في ملحمة الأوديسا حين وصف شعر (أوديسيوس) بأنه في لون تلك الزهرة. ولكن (فاولر) يقول إنه يمكن أن يكون أزرقَ أو بُنّيًا شديد الدكنة أو أي لون آخر. لاحظ أن آدم ليس له لحية. وربما كان هذا من تأثير تصويره في اللوحات والتماثيل المعروفة في عصر النهضة على صورة مماثلة لصورة (أبولّو).

328 - يقول (دنيس بيردن) في الملحمة المنطقية - لندن - 1967: إن ميلتون أتى بجديد بل أضاف إضافةً لها وزنها إلى تراث الشعر الرعوي هنا حين جعل آدم وحواء يعملان بزراعة الحدائق بدلاً من الرعي. (ص41 وما بعدها). ويعلق (برودبنت) على ذلك قائلاً: إن رعاية الحدائق لها دلالات أخلاقية وسياسية - (ص 177) أي أنها رمز للنظام والثبات. (انظر مسرحية شيكسبير ريتشارد الثاني الفصل الثالث/ المشهد الرابع).

329 «النسائم» هي ترجمة Zephyr أو رياح الغرب التي تغنى بها الشعراء المحدثون. أما القدماء - فكانوا يعتبرون «زفير» هذا شخصًا أسطوريًا يبدأ عملية التجديد لشباب الطبيعة (في أساطير الأفلاطونية الجديدة مثلاً) ومنذ أن ذكره أوفيد في وصفه للعصر الذهبي (مسخ الكائنات 1/ 107 وما بعده) والشعراء يقرنونه بالربيع الدائم.

340 - 352 كانت الصورة الرعوية المثالية لآدم وحواء وقد أحاطت بهما الحيوانات صورة مألوفة في العديد من اللوحات

الزيتية .

349 - 350 في الأصل «وكان يقدم إثباتا على قدرته على التخابث القاتل فلم يلتفتا إليه» - ولكن الشراح في خلاف حول معنى «إثبات» ولذلك فضلت الترجمة الحالية . ويقول بيردن (ص 35): إن الثعبان يستعرض خبثه الماكر بصراحة حتى لا يقول الإنسان إنه لم يكن يعرف أنه خبيث . ولكن النص يوحي بالمفارقة الصارخة في موقف آدم وحواء - فهما لا يلتفتان إلى المخلوق الذي سيكون له في حياتهما شأن عظيم .

354 - جزائر المحيط هي جزر (الأزور) حيث غربت الشمس في البيت 592 .

361 - 362 انظر الرسالة إلى العبرانيين 2/ 7 «وضعته قليلاً عن الملائكة بمجد وكرامة كللته» .

370 - 374 إشفاق إبليس على الإنسان إشفاق زائف - فالإنسان «قادر على الصمود» كما يثبت ذلك خوف إبليس من الاقتراب منه (الكتاب التاسع - البيت 483 وما بعده) .

377 - معنى «أقيم معكما» أن أنفذ إلى باطنكما بالغواية والخطيئة ، و«تقيما معي» معناها أن نتقاسم السعير أي عذاب الجحيم .

381 - 385 انظر نبوءة إشعياء حول سقوط بابل «الهاوية من أسفل مهتزة لك لاستقبال قدومك منهضة لك الأخيلة جميع عظماء الأرض .أقامت كل ملوك الأمم من كراسيهم» (إشعياء 14/ 9) . ويصر (إمبسون) على أن إبليس مخلص في تقديم مكانة كبرى لآدم وحواء في الجحيم - ولكن هذه المكانة الكبرى تتضمن مفارقة واضحة وهي أنها مكانة عذاب وآلام مبرحة ولذلك فإن الشيطان لا يناقض نفسه حين يعترف أنه بهذا يود الثأر من الله

بإسقاط البشر الذين خلقوا «على صورته».

389 – يقوم إبليس هنا بدور سياسي «ماكيافيلي» معاصر إذ ينشد الذرائع والأعذار استنادا إلى ما يسميه «الصالح العام» – انظر الحوار الطويل بين شمشون ودليلة في شمشون الجبار – حيث تبرز دليلة خيانتها له في آخر الحوار بأنها كانت تنشد الصالح العام:

ماذا كان بيدي
إزاء تلك الحجج الدامغة ؟
لم يكن لدي إلا حبك الذي اشتبك معها
في حوار طويل بل والتحم مع هذه الأسباب جميعًا
في نزال طاحن . وأخيرا ساد المبدأ الثابت
الذي كثيرا ما تردد واحتفلت به أفواه
أحكم الرجال – وهو أن الصالح العام
تخضع له الشئون الخاصة . لقد تسلط عليَّ
بسلطانه القوي وتمكن مني كل التمكن
ورأيت أنني مدفوعة إليه بالفضيلة والحق والواجب . (861 – 870)

401 – *402* انظر رسالة بطرس الرسول الأولى (*55/ 8*) «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول متلمسا من يبتلعه هو» – ويقول (بيردن) (ص *49* وما بعدها): إن الحيوانات كانت في الواقع وديعةً ولطيفة قبل سقوط الإنسان، وإن إبليس يتخذ هنا صورها التي اتسمت بها بعد السقوط.

421 – *424* انظر سفر التكوين (*2/ 16* – *177*) «وأوصى الرب الإله آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها ستموت».

430 - 432 انظر سفر التكوين 1/ 28 «وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» .

440 - انظر سفر التكوين (2/ 23) «وقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت» .

443 - انظر كورنثوس الأولى (11/ 3) «رأس كل رجل هو المسيح وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله» .

449 - 450 في البيت 253 من الكتاب الثامن يصف آدم إحساسه بعد الخلق مباشرة بأنه كان يشبه اليقظة من نوم عميق .

449 - تعبير «في ذلك اليوم» يعني بوضوح أنه قد مضى على خلق آدم وحواء عدة أيام - ومن ثم فلا نستطيع تقبل رأي ماكوللي (انظر ثبت المراجع) القائل بأنهما خلقا في نفس ذلك اليوم (ص 16) . وتؤيد ما ذهبنا إليه فقرات عديدة من هذا الكتاب - الأبيات 610 - 620 ، 639 وما بعده و681 وما بعده و 710 وما بعده ، والكتاب الخامس : الأبيات 31 ، 145 - إلا إذا كان ميلتون قصد أن يقول: إن آدم قد خلق وهو يعلم كل شيء وهذا مستبعد .

460 - 471 هذه إشارة إلى القصة التي يرويها أوفيد في مسخ الكائنات (3/ 402 - 436) عن الشاب المتباهي بحسنه (نارسيسوس) أي نرجس الذي عوقب على استعلائه وكبريائه بأن جعلته الآلهة يقع في غرام صورته المنعكسة في الغدير، وأن يذوي ويذبل في أتون حبه اليائس لنفسه .

474 - 475 انظر سفر التكوين 3/ 20 «ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي» . وقد شرح المفسرون هذا اعتمادًا على المعنى الاشتقاقي

لحواء فهو حَوَّاء أو حَيَّاء - ولا شك أنه من الحياة ، ولكنهم يقولون إنها لم تكتسب هذا الاسم إلاَّ بعد السقوط وإنجاب الأطفال، وكانت قبل ذلك تسمى «المرأة» وحسب (تكوين 2/ 923) وهكذا فإن ميلتون يؤكد أنها حَوَّاء من البداية تدعيما للمكانة العظيمة للمرأة باعتبارها زوجة وأمّا.

486 - «وقال آدم:هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي» (تكوين 2/ 23) .

484 - انظر سفر التكوين (2/ 21 - 22) «فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا . وبنى الربُّ الإلهُ الضلعَ التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم» .

499 - 501 في إطار التفسير «الطبيعي» للأساطير أي تفسيرها في إطار قوى الطبيعة كان (جوبيتر) يظهر في صورة الأثير بينما تظهر (جونو) في صورة الهواء أي مصدر العواصف المطيرة - وتقول كتب الأساطير :«إن الهواء حين تشتد حرارته ، تتولد منه النباتات وصنوف الحيوان» .

502 - يقول (راجان): إن تسمية إبليس باسم الشيطان المجرد معناه تقليص سلطانه ونزع ألقابه القديمة عنه (ص 99) .

523 - انظر سفر التكوين (3/ 4 وما بعدها) «فقالت الحية للمرأة .... الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر»

549 - 550 معنى «جبريل» بالعبرية: «قوة الله» أو «جبروت الله» .وهو أحد الملائكة الكبار الأربعة الذين يحكمون أقطار العالم الأربعة . ولكنه يظهر في الكتاب المقدس (دانيال 8-9 ولوقا 1) باعتباره رسول سلام وليس باعتباره مقاتلا «جبارا» ، انظر الحاشية على البيت 46 من الكتاب السادس .

555 - اختلف الشرح حول معنى «المساء»، إذ يقول البعض إنه لا يعني فترة زمنية ولكن شطرًا من القبة السماوية .

557 - 558 كان القدماء يرون منذ عهد (سينيكا) أن الشهب مصدرها الأبخرة المتصاعدة من الأرض ،والتي لم تستطع الصعود إلى الطبقات العليا فاحترقت ثم هبطت .

561 - استنادا إلى طقوس المعابد اليهودية حيث توزع الوظائف «بالقُرْعة». انظر أخبار الأيام الأول 26/ 13-14 «وألقوا قُرَعًا الصغير كالكبير حسب بيوت آبائهم لكل باب . فأصابت القُرعة من جهة الشرق شلميا». وقد وردت إشارة إلى هذه العادة في القرآن الكريم - في سورة آل عمران الآية 44 :﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ صدق الله العظيم .

567 - يمكن أن يعني الأصل «آخر صورة لله» أي آخر أو أحدث صور الله استنادًا إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن «الله خلق الإنسان على صورته» (تكوين 1/ 27) وعلى هذا يقول الشراح :إن أول صورة لله هو المسيح ، تتلوها الملائكة التي تشغل مكانًا وسطًا بين الله والإنسان ثم السماء وما خلقه الله في الأيام الخمسة الأولى من عمر الكون . انظر الكتاب الثالث 63، 384 وغيرها . ولكنني فضلت الترجمة الحالية لأنها تتمشى مع ما ورد في الأبيات الأخرى من أن الإنسان هو أحدث وآخر ما صوره البارئ .

577 - (أوريل) معناها الحرفي «نور الله» - فهو بهذا المعنى أحد «عيون» الله - انظر الكتاب الثالث 648 - 661 والحاشية .

580 - في الأصل يستخدم ميلتون صفة السهر بدلا من الإشارة مباشرة إلى الحراس - وهي كناية شائعة .

585 - انظر الكتاب الأول 423 - 431 والحاشية ، والكتاب السادس

344 - 353 .

592 - 597 انظر الحاشيةعلى الأبيات 573 - 576 من الكتاب الثالث - وتفسير ما يقوله ميلتون هنا هو أن مشهد الغروب يمكن أن يكون السبب فيه دورة الشمس في فلك ما حول الأرض أو دورة الأرض حول نفسها - وميلتون لا يلتزم بتفسير للغروب دون سواه أي أنه لا يرجح التفسير البطلمي (نسبة إلى نظرية بطليموس الفلكية)على التفسير الكوبرنيقي . أي تفسير (كوبرنيق) ومن اتبعه - مثل (كبلر) .

605 - كوكب الزُّهَرَة الذي يسميه ميلتون هنا (هسبيروس) هو «نجم المساء ورسول الحب» (الكتاب الحادي عشر 588) .

606 - يلاحظ القارئ أن «القمر» باللغة الإنجليزية مؤنث - ومن ثم التشبيه بالملكة لا بالملك. أما الملك في الصور الشعرية فهو الشمس لأنها بالإنجليزية مذكر .

614 - 615 صورة «ندى النوم» سبقت في (سبنسر) (ملكة الجان 1/1/36) وشيكسبير (ريتشارد الثالث 4/ 831 ويوليوس قيصر 2/1/230) .

618 - 619 فكرة «العمل» حتى في الجنة فكرة أتت بها البروتستانتية ولم تكن قائمة في صور العصور الوسطى عن الجنة ،حيث يبدو الإنسان عاكفا على التأمل والتفكير فحسب .

635 - تشير الباحثة (مارجوري بارستو) في مقال نشر في إحدى الدوريات (وهي M. L. N. العدد 13 - 1916 - ص 120 - 121) بعنوان: «استخدام ميلتون لأشكال التخاطب الملحمي» - وأشار إليه (فاولر) في حواشيه على نص ميلتون - إلى أن آدم وحواء يقلعان عن تبادل الألقاب بعد السقوط، وأن هذه الألقاب المهذبة مقصورة على الحياة في الفردوس - ويعلق فاولر على ذلك قائلا: إن هذه الألقاب موجودة في

الكتاب المقدس مثلما هي ملحمية .

660 - يتضمن اللقب «ابنة الله» مفارقةً دراميةً بمعنى أنه يمثل نقيض الصورة المألوفة لمريم البتول - حواء الثانية - التي كانت توصف دائما بأنها «أم الله» - وهي الترجمة المألوفة للكلمة اليونانية Theotokos التي دخلت اللغة الإنجليزية . أما كلمة «الكاملة» accomplished فكانت تستخدم في التخاطب فعلا بين الناس في القرن السابع عشر ومعناها الأصلي «التي تعلمت وتهذبت ولُقِّنت الأدب» (شيكسبير الليلة الثانية عشرة 3/ 1/ 96) - ولكنها هنا تعني «التي توفرت لها أسباب الكمال» .

681 - 684 يذكر (لوكريشيوس) في طبيعة الأشياء (4/ 586 وما بعده) أن هذه الموسيقى تخرج من ناي الإله (بان) وكثيرا ما فسِّرت تفسيرًا رمزيًا بأنها موسيقى الأفلاك .

690 - 703 يتميز وصف الفردوس في هذا الكتاب بالتوازن بين الفن والطبيعة. ويعلق على ذلك (برودبنت) قائلاً : «إنه كلما برز الفن في صنائع الطبيعة زاد الإحساس بوجود الخلاق المبدع .. وحينما تسود يد الفن .. يزداد إحساسنا بمدى الإبداع في صنع خميلة آدم وحواء التي صورها البارئ خصيصا لهما» (ص 179 - 180) .

691 - «الذي أنبت الجنة» تستند إلى الآية في سفر التكوين 2/ 8 «وغرس الرب الإله جنة» .

705 - 708 كثيرا ما خلط القدماء في الأساطير بين (بان) و (سيلفانوس) و (فاونوس) - لأن كلا منهم نصفه بشر ونصفه ماعز . أما (بان) فكان يرمز للطبيعة بصفة عامة (انظر الحاشية على الأبيات 266 - 268) ولكنه هنا يرمز إلى الخصب، كما أنه رب الأماكن المنعزلة . وكان (سيلفانوس) الذي

يقول البعض إنه ابن (فاونوس) - ربًا للغابات والحدائق والتخوم . ولكن (فاونوس) إله ذو صفتين متناقضتين: فمن ناحية كان نظيرًا للإله (بان) عند الرومان - إله الخصب والغابات كما يصوره (هوراس) في أناشيده (3/ 18/ 1) وكما يصوره (فيرجيل) في الإنيادة (7/ 81 - 84) - ومن ناحية أخرى كان رمزًا للاشتهاء والرغبة .

714 - يقول (فاولر): إن ثمة أصداء لغويةً توحي بأن ميلتون كان يتبع في روايته صورة الأسطورة التي رواها (شارل استيين) ووردت في كتاب (ستارنز) وعنوانه: الأساطير الكلاسيكية - 1955 - ويقول فيه (ص 270) يقول (هيزيود): «إن (باندورا) هي أول امرأة صنعها (فولكان) تنفيذًا لأمر (جوبيتر)، وقد أغدقت عليها جميع الآلهة عطاياها - وقد أطلق عليها اسم (باندورا) إما لأنها تحلت بكل عطايا الآلهة، وإما لأنها تحلت بالعطايا من جميع الآلهة . والرواية التقليدية هي أنها أرسلت بعد ذلك إلى (إيميثيوس) ومعها صندوق مغلق، لأن (جوبيتر) أراد أن ينتقم من البشر بسبب اجتراء (بروميثيوس) على سرقة النار من السماء وإنزالها إلى الأرض . وهكذا استقبلها (إيميثيوس) وفتح الصندوق فإذا به يشتمل على شتى ضروب الشر بحيث ملأ العالم بالأمراض والمصائب» . وكان (بروميثيوس) و(إيميثيوس) ابنين لعملاق من سلالة (التيتان) وهو (يابيتوس) ابن السماء والأرض . وميلتون يقول: إن (يافث) ابن نوح (تكوين 9 - 10) هو (يابيت) أو (يابيتوس) استنادًا إلى المصادر المعاصرة للأساطير الكلاسيكية. أما إذا أراد القارئ أن يطلع على التفسير الديني لأسطورة (باندورا) عبر العصور فعليه أن يرجع إلى كتاب صندوق باندورا من تأليف: دورا وإروين بانوفسكي (لندن 1956) .

724 - 725 انظر المزموز 74 (16) «لك النهار ولك أيضا الليل . أنت هيأت النور والشمس» .

732 - 733 إشارة إلى سفر التكوين (1/ 28) حيث يقول الله لآدم وحواء قبل السقوط: «أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض» - وهو نص أثار خلافًا كبيرًا ،لأنه يعني أن الزواج لا يتناقض مع براءة البشر ، وأنه كان مباحا للجميع .

725 - انظر المزمور127/ 2 «باطل هو لكم أن تبكروا إلى القيام مؤخرين الجلوس آكلين خبز الأتعاب . فإنه يعطي حبيبه نومًا» . ولكن صورة النوم باعتباره هبة من الله فكرة عالمية قديمة . انظر إلياذة هوميروس (9/ 713) وإنيادة فيرجيل (2/ 268) .

743 - «الشعائر الغامضة» ترجمة أعم للأصل الذي يمكن أن يعني «الطقوس السرية» - وقد تحاشيت هذا المعنى الأخير لما به من دلالات غير مرغوبة في العربية . ولكن فكرة الإلغاز أو السرية قائمة في هذا التعبير وهي إشارة لما يقوله بولس الرسول إلى أهل أفسس (55/ 31 - 33) من أن الزواج يعني أن «يكون الاثنان جسدًا واحدًا - هذا السر عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة» - أي أنه يفسر علاقة الامتزاج في جسد واحد باعتبارها رمزا للعلاقة بين المسيح والكنيسة . وقد اتُّهم ميلتون بأنه بهذا يحدث تناقضا في حبكة الملحمة لأن آدم وحواء إذا كانا قد أنجبا قبل السقوط فلابد أن يكون ابنهما بريئا من الخطيئة الأولى . وقد رد النقاد على هذا قائلين :إن آدم وحواء ربما لم ينجبا قبل السقوط، وعلى أي حال فإن النظريات التقليدية للوراثة كانت تقبل أن يولد البريء ثم يتسلل الإثم إليه.

744 - 749 انظر رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس (4/ 1-3) وهو النص الذي اعتمد عليه (البروتستانت) في الهجوم على كنيسة روما إذ يقول: «إنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان ... في رياء أقوال

كاذبة موسومة ضمائرهم مانعين عن الزواج» . وميلتون بطبيعة الحال يدافع عن شرعية الزواج بل وقدسيته .

745 - «قداسة الأمكنة» يشرحها البيت 759 .

747 - انظر كورنثوس الأولى (7/ 1 - 2) - «حسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن لتفادي الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها» ويقول ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية (1/ 10) : «ومن ثم فإن الزواج ليس أمرا ملزما للجميع ، ولكن فقط لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحافظوا على عفتهم دون زواج» .

761 - انظر الرسالة إلى العبرانيين (13/ 4) «ليكن الزواج مكرما عند كل واحد والمضجع غير نجس» .

763 - السهام الذهبية التي يطلقها (كيوبيد) كانت حادة وبراقة وكانت تذكي العاطفة ، أما السهام الرصاصية فكانت غير حادة وكانت تقتل الحب. (انظر أوفيد - مسخ الكائنات 1/ 468 - 471) .

764 - «مصباحه الدائم» توحي بالتناقض بين الحب في الفردوس الذي يتسم بالدوام ، والحب على الأرض الذي يتصف بالتقلب والتغير يُشَبَّه نورُه بضوء المصباح .

767 - 768 انظر الهجوم على أبناء (بليّعال) في الكتاب الأول البيت 497 وما بعده .

769 - «الأغاني» في الأصل هي أنشودة الحب التي يتغنى بها العاشق تحت نافذة حبيبته - عادة في الليالي الصافية الباردة - Serenade واشتقاقها يعني ذلك لأنها كانت تنشد In Sereno .

775 - معنى البيت إما (1) ألا تطلبا المزيد من المعرفة بأكل الثمرة المحرمة وإما (2) أن تعرفا كيف تقتصران على حياة

البراءة *781* - انظر الحاشية على البيت *549* .

782 - 788 (عُزّيئيل) معناه «عزة الله» وهو وارد في الكتاب المقدس باعتباره اسما عاديا من أسماء البشر (سفر الخروج *6/ 18*) وكذلك اسم (صفون) الذي يعني «باحث الأسرار» (عدد *26/ 15*). أما (إيثوريل) فغير وارد في الكتاب المقدس ولكنه يعني «اكتشاف الله» .

799 - يقول بيردن (ص *93*): إن نجاح الملاكين في العثور على إبليس وأسره مثال ملموس على أن الله لم يكن يريد أن يمنعه من دخول الجنة ولو شاء لفعل .

805 - «أبخرة النفس» Animal Spirits ومعناها الأبخرة الرهيفة التي كان البعض يعتبرها في منزلة وسطى بين الجسد والروح ، ويعتبرها آخرون نفسا ثانية - ولهذا اقترنت بكلمة Animal وهي صفة من Anima التي تعني النفس باللاتينية . ويقسم القدماء «الأبخرة الجثمانية» إلى أنواع ثلاثة:أدناها «الأبخرة الطبيعية» وكانوا يتصورون أنها تنشأ في الكبد وتدور مع الدم في الأوردة - وتليها «عصائر الحياة» التي تتكون من هذه الأبخرة في القلب وتدور مع الدم في الشرايين (انظر الحاشية على البيت *484* من الكتاب الخامس) وأعلاها هي «أبخرة النفس» التي تتكون من «عصائر الحياة» أي من «الدم النقي» ثم تتصاعد وتسري في الأعصاب لتهب الجسد القوة على الحركة . وكان القدماء يتصورون أن حركة «أبخرة النفس» يمكن أن تُولّد خيالاتٍ وتصورات ذهنية ، وأن تأثير الملائكة على الذهن البشري يتوسل بهذه الأبخرة . وقد تعرض ابن خلدون في المقدمة إلى هذه الفكرة (في المقدمة السادسة - ص *96 - 97* من طبعة بيروت - دار القلم) حيث تحدث عن «تدريج التكوين» واستعداد النفس «للانسلاخ من البشرية إلى الملاكية» في لمحة من اللمحات . وذلك عن طريق ما يسميه

بالخيال والواهمة والحافظة . ومن ثم كان أمام إبليس أن يختار إما أن ينفذ إلى ذهن حواء عن طريق الخيال ، أو عن طريق أبخرة النفس وهي مصدر الانطباعات الحسية والحافظة لتجارب الماضي . ويقول و. ب. هنتر في مقالة عن «حلم حواء الشيطاني» نشرها في مجلة E. L. H. العدد *13* عام *1946* (ص *255 – 265*) وأشار إليها (فاولر): إن ميلتون يخالف التقاليد هنا في أنه لا يجعل للشيطان قدرة على النفاذ إلى عقل الانسان – فهو لا يستطيع إلا التأثير على مخيلته .

848 – يستند هذا البيت إلى الفكرة الأفلاطونية القائلة بأن الفضيلة يمكن أن تؤثر في مظهر الإنسان الخارجي – وقد أصبحت هذه الفكرة إحدى التيمات الرئيسية في شعر الحب في عصر النهضة ربما بسبب تأثير (دانتي) كما يذهب إلى ذلك بعض النقاد .

954 – «أكان انضباطكم» – ضمير الجمع هنا معناه أن جبريل يخاطب جيش الشياطين برمته من خلال رئيسهم وممثلهم إبليس .

965 – *967* انظر رؤيا يوحنا (*20/ 1-3*) «ورأيت ملاكًا ... معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده . فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة .وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يُضِلَّ الأمم في ما بعد حتى تتم الألف سنة، وبعد ذلك لابد أن يحل زمانا يسيرا» . وانظر أيضا الكتاب الأول *45* – *48* والكتاب الثالث *82*. ويعلق (إمبسون) على ذلك قائلا: إن اكتفاء جبريل بتحذير إبليس وإنذاره لا ينم عن ضعف ولكنه إجراء «سياسي» (ص *112*) .

971 – «ملاك الحدود» تعني يا من تقيم على تخوم السماء، ولكنها تعكس سخرية إبليس من قول جبريل له «داخل حدود المنطقة» في البيت *964* .

976 – «طريق السماء» هو المَجَرّة . (الطريق اللبني أو درب التبّانة) .

980 – 985 تشبيه الجيش شاكي السلاح بحقل الحنطة مأخوذة من (هوميروس) (الإلياذة 2/ 147 – 50). ويعلق البروفسور (كريستوفر ريكس) في كتابه أسلوب ميلتون الرفيع على هذا التشبيه قائلا إنه جميل ولكنه لا يتصل بصلب الموقف فكأنه استطراد (ص 129) . وقد اعترض عليه إمبسون في كتابه بعض صور الشعر الرعوي (ص 172) لعدم التطابق بين صورة الفلاح وصورة الله . إذ لا يمكن للعليّ القدير أن يَقْلَقَ إزاء نتيجة الموقعة . ويعلق (فاولر) على ذلك قائلا: إن صورة درس المحصول لها جذور دينية، فهي استعارة تستخدم للدلالة على حكم السماء (انظر إرميا 51/ 33) وهكذا فربما كان ميلتون يعني أن الحكم النهائي ومحاسبة إبليس ينبغي ألا يكون سابقا لأوانه .

981 – «المحصول» في الأصل Ceres وهي ربة الزراعة وتستخدم هنا كنايةً عن محصول الحنطة محاكاة لفرجيل الرعائيات 1/ 297 .

985 – 987 التشبيه هنا له حدان: الأول أن إبليس يتحمل ثقل أتباعه مثلما حمل أطلس ثقل النجوم ،والثاني هو أنه مثل أطلس قد تمرد على الإله الأعلى . وقد سبق تشبيهُه بأطلس في الكتاب الثاني 306 – وجبل أطلس المذكور هنا هو الموجود في أقصى الغرب من شمال إفريقيا (موريتانيا أو المغرب) وكانت قمته دائمًا تختفي وراء السحب مما أوحى بأنه أحد أعمدة هرقل أي أحد أعمدة السماء . أما جبل (تنريف) فهو جبل سامق في جزيرة (تنريف) إحدى جزر الكناري، وكان يقال إن ارتفاعه يبلغ حوالي 25 كيلو مترا – بل يزيد عن ذلك !

997 – 1004 تمثل هذه الأبيات ذروة التطور لصورة الميزان التي سبقت

في الأبيات 354 - 355 ،وفي الكتاب الثالث 555 - 561 . أما معادلة ميلتون بين الميزان السماوي وبرج الميزان فليست كلاسيكية ولا سابق لها إلا سبنسر في ملكة الجان (5/ 111) - رغم ما يقوله فاولر من أنها فكرة قديمة، (انظر كتابه سبنسر وأرقام الزمن 1964) ولكنها تستدعي صورة الكواكب في السماء لأن الرب بين إبليس وكوكبة الثعبان يجعل كوكبة الميزان فوقها أي فوق إبليس مباشرة عند منتصف الليل . وبرج الميزان هو البرج السابع بين البروج إذ يسبق العقرب ويُعْقِبُ العذراء .

999 - 1001 يقول ميلتون هذا استنادًا إلى ما جاء في سفر أيوب 28/ 24 وما بعدها و 37/ 16 . وكذلك في إشعياء 40/ 12 ، والأمثال 16/ 2 .

1010 - انظر إشعياء 10/ 6 « على أمة منافقة أرسله .. ليجعلهم مدوسين كطين الأزقة» .

1012 - مثار الخلاف حول هذا البيت هو اختلاف مفهوم الميزان عند الله وجبريل وإبليس . والجدل طويل ويمكن الرجوع إليه في طبعة فاولر للقصيدة .

حواشي الكتاب الخامس

1 - 2 هذا هو اليوم الرابع والعشرون من أيام أحداث القصيدة . أما «الخطى الوردية» فمحاكاة لهوميروس (الإلياذة *1/ 477*) وأما حبات اللؤلؤ فيفهم منها أن الندى يشبه اللؤلؤ البراق . ولكن (فاولر) يقول: إن ثمة معنى استعاريا خبيئا يتمثل في تشبيه ضوء الصباح بحبات اللؤلؤ المنثور على الأرض، ويستشهد في التدليل على ذلك بما جاء في المزمور السابع والتسعين من أن النور يُبْذر على الأرض للصالحين (*11*) - والعبارة التي وردت في قصيدة لوكريشيوس عن طبيعة الأشياء *11/ 211* عن بذر الضوء على أرض الحقل Lumine conseritarva . ويبدو أن تفسير (فاولر) معقول ،لأن ميلتون يستخدم كلمة Orient التي تصف اللؤلؤ بالبريق،وتعني «الشرق» في الوقت نفسه .

6 - مروحة (أورورا) ربة الصباح هي أوراق الأشجار لا أبخرة الجداول ولذلك يبدو وضع «البدل» غريبا في العبارة العربية (بل والإنجليزية!).

15 - «لا مثيل لها» لأنها نابعة منها فحسب ومقصورة عليها لا تتعداها .

16 - في الأصل Zephyrus الذي كانت أنفاسه العبقة تنبت الزهور مثل أنفاس زوجته (فلورا) ربة الأزهار . ويقول (فاولر): إن الإنسان قبل السقوط كان يعيش حياة متكاملة متوافقة مع الطبيعة فأبخرة الطعام النقي (البيت الخامس) تقابلها أبخرة الجداول (*6*) والآن تقابل همساته (*16*) همسات النسيم (*17*). ومن ثم فهناك تشبيه مضمر بين آدم و(زفيروس) رب النسيم الذي يوقظ الأزهار وبين حواء والزهور الغضة . وقد علق بعض الشراح على هذا قائلا: إن تشبيه حَوّاء بالزهور يوحي بضعف الجسد

البشرى وضعف نوازعه .

18 – 25 انظر نشيد الإنشاد (2/ 10 – 13 و 7/ 12) – «قومي يا حبيبتي ياجميلتي وتعالي لأن ... شجرة التين قد أخرجت فجها ، وقعال الكروم تفيح رائحتها. قومي يا حبيبتي وتعالي ... لنبكرن إلى الكروم لننظر هل تفتح القعال ، هل نَوّر الرمّان؟» – ولكن ميلتون يورد أنواعًا مختلفة من النبات هنا – و«البكور» يقصد به أول ساعة من ساعات اليوم . ويقول البعض إنها كانت تبدأ دائما في السادسة أو أنها كانت ساعة الشروق . وقد فضلت «البكور» على الشروق لما توحي به من تبكير (انظر فقه اللغة للثعالبي – طبعة بيروت – دار الحياة – ص 204) – كما أن تلك الساعة ذات دلالات دينية فهي ساعة الصلاة كما يتضح ذلك من البيت 145 وما بعده .

23 – «المر» هو «اللاذن» (أو «اللادن») المذكور في سفر التكوين 27/ 25 – وقد فضلت الكلمة المستخدمة في العطارة المصرية – أما البلسم فهو «البلسان» الوارد في نفس الآية – وقد فضلتها لشيوعها ولدلالتها على الشفاء من الأمراض ،وهو المعنى الشائع للكلمتين على أي حال – في الإنجليزية .

43 – 45 يستغل إبليس التساؤل الذي أثارته حواء في البيتين 657 – 658 من الكتاب الرابع «لمن خلق هذا المشهد البديع إذا أوصد النوم كل العيون ؟» .

44 – «عيون السماء استعارة مألوفة – انظر أريوسطو «غضبة أورلاندو» 14/ 99، وتاسو تحرير بيت المقدس 12/ 22 ،وسبنسر ملكة الجان 3/ 11/ 45 .

45 – 90 في هذه الأبيات يلمح ميلتون إلى التيمات التي يتناولها فيما بعد بتفصيل أكبر حين يتعرض للإغواء الثاني في الكتاب التاسع .

55 – 57 يشير ميلتون إلى وصف (فيرجيل) لفينوس وهي تترك (إينياس) خارج قرطاجنة (الإنيادة 1/ 403 وما بعده).

56 - «العطر» في الأصل يتضمن تلميحا إلى الزيت الذي تمسح به الآلهة على الشعر . وقد وردت الكلمة في البيت 245 من الكتاب الثاني .

70 - 81 انظر سفر التكوين 3/ 5 «الله عالم أنه يوم تأكلون منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» .

79 - «في الهواء» إشارة إلى ما ورد في أفسس 2/ 2 من أن إبليس هو «رئيس سلطان الهواء» .

102 - ربما كان الخيال Fancy هنا يعني المخيلة imagination ولم يكن التفريق بينهما معروفًا آنذاك . وقد ذهب ابن خلدون في المقدمة نفس المذهب حين تحدث عن «الخيال والواهمة والحافظة» (ص 97) باعتبارها قوى إدراك المحسوسات واختزانها في الذهن ،ثم تحدث عن المخيلة باعتبارها «قوة إدراك الجزئيات» (ص 100) دون أن يتصدى للمعنى الحديث لأي منهما . والمحتمل أن ميلتون لم يكن يقصد الخيال Fancy بالمعنى الذي فصله (كولريدج) أي طاقة استدعاء المحسوسات إلى الذهن بعد غيابها عن الحواس أو ما يسميه ابن خلدون «تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرد عن المواد الخارجة (انظر بازيل ويلي دراسات في القرن التاسع عشر - الفصل الأول) ولكنه كان يقصد المخيلة imagination وهي القوة التي قال (كولريدج) إنها تركيبية وتحليلية معًا. ويؤكد هذا الظن ما جاء في كتاب «فنسن بعنوان :ميلتون والعلم - كيمبريدج ماساتشوستس - 1956 - حيث نجد مقتطفا لأحد كتّاب العصر هو (بارثولوميو) يخلط فيه بين الخيال والمخيلة (ص 38)» .

115 - أي المناقشة حول تحريم شجرة المعرفة التي سبقت في الكتاب الرابع 421 وما بعده .

130 - 131 هذه إشارة إلى النموذج التقليدي للخاطئة التائبة مريم المجدلية - انظر إنجيل لوقا 7/ 38 «ووقفت عند قدميه من ورائه باكية وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها» ولكنها لا تعني بالضرورة أن حواء قد وقعت في الإثم .

166 - 170 «أجمل نجم في السماء» هو كوكب الزُّهَرة الذي يشرق قبل طلوع الشمس، ويعرف أيضا بنجم الصباح (لوسفير أو فوسفورس) انظر الحاشية على الأبيات 658 - 659 من هذا الكتاب وكذلك الأبيات 708 - 709 «ساعة البكور» - انظر الحاشية على الأبيات 18 - 25 .

171 - دأب كتّاب عصر النهضة على وصف الشمس بأنها «عين السماء» مثل سبنسر في ملكة الجان 1/ 3/ 4 وشكسبير في السوناتا 18 .

177 - الواقع أن الباقي من الكواكب (بعد ذكر الزُّهرة) لا يزيد على أربعة وهي زحل والمشتري والمريخ وعطارد . ولكن ميلتون ربما قصد أن يقول إن الأرض أحد هذه الكواكب - إذ يشير إلى ذلك في الكتاب الثامن 128 - 129 .

215 - 219 صورة الزواج بين شجرة الدردار والكرمة التي تتسلق عليها صورة قديمة إذ يذكرها (هوراس) في الأناشيد 2/ 5/ 4 . ولكن شيوع هذه الصورة في عصر النهضة باعتبارها دليلاً على التكافل والتكامل يرجع بصفة أساسية إلى (أوفيد) مسخ الكائنات 14/ 66 وما بعده . كان شجر الدردار يعتبر رمزًا للقوة والرجولة، وتعتبر الكرمة رمزًا للخصب ونعومة الأنثى وخضوعها ورقتها . ويقول (فاولر): إن أهمية الصورة تعود إلى دلالتها على عودة آدم وحواء إلى التوافق بعد خلافهما الذي أتى به حلم حواء .

221 - 223 انظر الكتاب الرابع 166 - 171 - واسم (روفائيل) يعني «عافية أو شفاء الله». وقد ورد الاسم في الكتاب

المقـدس - ويقول (فاولر) إنه الملاك الأكبر «المناسب» لأداء المهام الخاصة بالعلاقات الزوجية استنادًا إلى نص قديم يتصل بقدرته على التوفيق النفسي . والاشتقاق في العبرية والعربية يؤيد ذلك فالنصف الأول من الكلمة «رفا» في اللغتين تعني التوفيق والإصلاح (ومنه رفا الثوب والمثل «بالرفاء والبنين») والنصف الآخر (إيل) يعني الله بالعبرية . (انظر لسان العرب) .

235 - 237 تفصيل القول في حرية الإرادة وارد في الأبيات 96 - 125 من الكتاب الثالث .

264 - أرخبيل (كيكلاديس) يتكـون مـن مجموعة من الجزر على شكل دائرة في جنوب بحر إيجه (باليونانية «كوكلوس») ومن ثم فهو يشبه الأرض في استدارتها .

265 - جـزيرة (ديلوس) هي إحدى جـزر الأرخبيل المذكـور، وقـد حددها القدماء باعتبارها مسقط رأس (أبولو) و (ديانا). أمـا جزيرة (ساموس) فليست من جزر هذا الأرخبيل - ولا شبه بينها وبين (ديلوس) سـوى أن (جونو) قد ولدت فيها وفيها تزوجت (جوبيتر) ولكن هذا الشبه يكفي لمقارنتها بالفردوس .

272 - «العَنْقاء» هنا ترجمة غير دقيقة للطائر الخرافي Phoenix الذي قيل إنه يقوم كل 500 عام أو نحوها ببناء هرم من العطور أو عُشٍّ من الأعشاب الفواحة يأوي إليه ويموت فيه ، ولكنه بمجرد أن يموت تخرج عَنْقاءُ جديدة مختلفة من نخاع عظامه ، ومن ثم تطير على الفور إلى (هليوبوليس) أي مدينة الشمس لتحفظ رُفات الطائر الذي قضى. (انظر أوفيد - مسخ الكائنات 15/ 391 - 407) . وكان كُتّابُ عصر النهضة يرادفون بين (هليوبوليس) ومدينة طيبة القديمة في مصر . وقد استخدم الشعراء في العصور المسيحية

صورة «العنقاء» الكلاسيكية رمزًا لانتصار الحياة الأزلية على الموت ،ورمزًا لتجدد الحياة أيضا . ولم أجد مقابلا لها سوى «العنقاء» في العربية .

275 - ليس للفردوس إلا باب واحد في الجانب الشرقي (انظر الكتاب الرابع البيت *178*) - ودخول (روفائيل) من الباب يمثل تناقضا مع تسلق إبليس «مثل اللص ليدخل حظيرة الله» (الكتاب الرابع *178* - *192*). وقد أعد ميلتون لهذا التناقض من قبل حين روى قصة (طوبيا) و (روفائيل) في الكتاب الرابع *170* .

277 - 285 انظر وصف ملائكة الصاروفيم في إشعياء *6/ 2* «الكل واحد ستة أجنحة . باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير» .

280 - 285 «الزخرف الملكي» يعني أن أول زوج من الأجنحة ذولون أرجواني، وأن الثاني ذهبي، أو أزرق سماوي - ووصفه بأنه لا يتصل دليلًا على الدوام . وقد علق (إبراهام كاولي) في إحدى حواشيه على ملحمته الداودية على هذا اللون قائلا إنه رمز لمجد السماء وبهائها، ومن ثم لقوة الله ورفعته .

285 - 287 ابن (مايا) هو (عطارد) سفير الآلهة وواهب الرحمة - وقد أشار إليه شكسبير في هاملت *3/ 4/ 58* - *59* وخاصة - مثل ميلتون هنا - إلى وقفته الخاصة التي توحي بالنبل والشرف، وذلك حين يقارن هاملت بين وقفة أبيه ووقفة (عطارد) :

وقفة كوقفة (عطارد) رسول الآلهة

وقد هبط لتوه على ربوة قبلتها السماء !

(من ترجمة الدكتور عبد القادر القط)

292 - «المر» سبقت الإشارة إليه في الحاشية على البيت 23 من هذا الكتاب ،وكان يستخدم حسبما يقول (برودبنت) في

الوقاية من شر الشياطين و (برودبنت) يستشهد في ذلك بقول لأحد معاصري ميلتون هو (هنري هوكنز) . (ص 183).

293 - «القاسيا» بهار يشبه القرفة وهو يدخل في تركيب الزيت المقدس المستخدم في مسح «خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة» (انظر سفر الخروج 30/ 24) وزيوت الطيب واردة في إنجيل مرقس (14/ 3 و 8) وكان الارتباط بين «القاسيا» وزيوت الطيب شائعًا . أما البلسم فقد سبقت الإشارة إليه في الحاشية على البيت 23 من هذا الكتاب .

294 - 297 معنى «تلهو وتلعب» : تُمثِّل وتُجَسِّد تصاوير خيالها. ويرى (كريستوفر ريكس) في أسلوب ميلتون الرفيع - ص 112) أن ثمة تورية هنا لأن استخدام الكلمتين يلمح إلى لهو حواء بعد السقوط !

299 - 300 استضافة آدم لروفائيل تشبه استضافة إبراهيم عليه السلام لضيوفه من الملائكة (تكوين 18/ 1) «وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار» .

302 - انظر الحاشية على الأبيات 608 - 612 من الكتاب الثالث .

321 - انظر تكوين 2/ 7 «وجعل الربُّ الإله آدم ترابًا من الأرض» - وآدم بالعبرية تعني الأحمر نسبةً إلى التراب الأحمر الذي خلق منه - وانظر قول ابن منظور في لسان العرب : «والأديم الجلد ما كان وقيل الأحمر وأديم كل شيء ظاهر جلده وأدمة الأرض وجهها» ص 45 .

326 - 327 يقول الشراح: إن ثمة مصادر أربعةً للثمر في الجنة: فأولها أشجار الفاكهة، وثانيها الشجيرات، وثالثها النباتات الصغيرة (مثل الفراولة) ورابعها النباتات المتسلقة أو الزاحفة مثل البطيخ والشمام . ولهذا فضلت ترجمة gourd ومعناها «القرع العسلي» بالبطيخ والشمام معا، فالمحتمل أن ميلتون كان يعني النوع بصفة عامة لا فاكهة محددة . وآية ذلك أن

الترجمات الإنجليزية الحديثة للكتاب المقدس لا تذكر اسم الفاكهة القديم الوارد في يونان 4/ 6 - 10 بل تشير فقط إلى «النبات المتسلق». أما النص العربي فيذكر اسما غير شائع له وهو «يقطينة» .

340 - في الأصل سواحل بحر (بنطش) أي البحر الأسود والساحل (البوني) أي الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط بالقرب من قرطاجنة. أما جزيرة (الكينوس) فكانت ذات حدائق توصف بدوام الزهر والثمر انظر هوميروس الأوديسا 7/ 113 - 121 .

345 - في الأصل «الشراب الطهور» هو عصير الكرم المتخمر must الذي لا يسكر inoffensive .وقد رفض ميلتون أي أنبذة مسكرة لأنها تتصل في نشأتها بعصيان الله . وهكذا يقول سبنسر في ملكة الجان 5/ 7/ 10 وما بعده: إن كهنة إيزيس قد حرمت عليهم الخمر لأنها قد تثير في دمائهم أفكار العصيان القديم . وقد شاعت الإشارة إلى السُّكْر باعتباره رمـزًا لاختلال المَلَكَات الذهنية نتيجة للسقوط .

348 - «الأكواب» هنا هي قشور الفاكهة الصلبة . انظر البيت 335 من الكتاب الرابع .

349 - لا وجود للبخور لأنه لا وجود للنار في الجنة ! ولكن ميلتون يهاجم عادة حرق البخور في الطقوس الكاثوليكية من طرف خفي .

378 - (بومانا) ربة الفاكهة (من لفظ Poma) - وخاصة تلك التي تنمو على الأشجار مثل التفاح والكمثرى . وقد ورد ذكرها في أوفيد مسخ الكائنات 14/ 320 وما بعده ووردت قصة غرامها في نفس الكتاب في مكان آخر 14/ 633 . (انظر القصة في موجز الأساطير اليونانية ص 328) - ويلفت (بيردن) (ص 71) نظرنا إلى تفرقة ميلتون بين حواء و(بومانا) وبستانها و(فينوس) - وأهم ما يقوله هو أن حواء تتحلى

بصفات روحية ،وأنها حقيقة تاريخية وليست أسطورية .

381 - 382 الربات الثلاث هن (جونو) أو (هيرا) و (منيرفا) أو (أثينا) و (فينوس) أو (أفروديت) وكن يتنافسن على تفاحة كتب عليها «لأجمل النساء» . وقد عين للحكم في هذا الأمر أحد أبناء البشر المشهود لهم بالحكمة وحصافة الرأي وهو (باريس) . وقد ظهرت له الربات الثلاث- حيث كان يسكن فوق جبل (أيدا) -عاريات ودون زينة . وكانت كل منهن قد قدمت له رشوة تتمثل في عدة وعود منها وعد (فينوس) له بأن تهبه أجمل امرأة من البشر إذا حكم لها . وهكذا قال إنها أجمل الثلاثة وفاز بالجميلة (هيلين) زوجة (منيلاوس) . وهكذا شن اليونان الحرب على (طروادة) ودمروها (موجز الأساطير اليونانية ص 106) والواضح أن التشبيه لا تقف حدوده عند جمال حواء . فإن اختيار (باريس) للجمال الذي قدمته (فينوس) تسبب في الهلاك، وهذا في نظر ميلتون مقابل أسطوري لسقوط الإنسان . ونستدل من هذه الاستعارة على أن (باريس) يقابل (آدم) في بشريته وضعفه، ويمثل النقيض للملاك (روفائيل) الذي يقابل (عطارد) رسول الآلهة الوثنية .

385 - 387 في «البشارة» حل الملاك جبريل ببيت مريم البتول ليخبرها أنها سوف تحمل وتلد غلاما اسمه عيسى - وخاطبها قائلا: «سلام لك أيتها المنعم عليها . الرب معك . مباركة أنت في السماء» (لوقا 1/ 28). أما «حواء الثانية» (انظر الكتاب العاشر 183) فدلالتها واضحة إذ تؤكد العلاقة القديمة في كتابات المفكرين المسيحيين بين البتول وحواء - تماما مثل العلاقة القديمة بين المسيح وآدم - بل إن المسيح يطلق عليه اسم «آدم الأخير» (كورنثوس الأولى 15/ 45) .

393 - للمنضدة «أربعة جوانب» لأن الرقم 4 كانت له دلالات معنوية

وخلقية - ومنشأ هذه الرمزية هو نظرية (فيثاغورس) عن «التربيع»، ولكن الدلالة تطورت فيما بعد بحيث أصبحت كلمة مربع Square في اللغة الإنجليزية تعني الأمانة أو الاستقامة .

399 - انظر رسالة يعقوب *1/ 17* «كـل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي مـن فوق نازلة من عند أبي الأنوار» .

407 - 413 شب جدل عنيف حول طعام الملائكة وما إذا كانت تأكل أم لا - موجز القول فيه أن ميلتون يشير إلى ما ورد في المزمور الثامن والسبعين (*24* وما بعده) من أن «المن والسلوى» هو حنطة السماء وطعام الملائكة . ويرى بعض الشراح أن الأكل هنا رمزي - رغم إصرار ميلتون على حدوثه في الواقع (انظر الحاشية على *435 - 436*) .

418 - 420 «أدناها» أي أدنى أفلاك الكواكب . وفي البيتين غرابة ترجع إلى أن هذا التفسير للبقع التي تبدو على وجه القمر كان قد أصبح قديما في عصر ميلتون بعدما أوضحه (جاليليو) من أنها تضاريس طبيعية . بل إن ميلتون قد قبل تفسير (جاليليو) عندما تحدث عن القمر في الكتاب الأول *287 - 291*. ولكن يبدو أن الموضوع كان مثار جدل في تلك الأيام .

423 - 426 ترجع هذه الفكرة إلى نظريات قديمة عن الشمس والكواكب - وأهميتها في السياق أنها ترتبط بصورة الطعام والشراب وهي صورة أساسية في إطار رؤية ميلتون الشاعرية .

430 - حبات اللؤلؤ هنا هي «المن والسلوى» أي حنطة السماء - كما ورد في الحاشية على الأبيات *407 - 413* .

435 - 436 يهاجم ميلتون الشروح الشائعة في عصره التي تنفي ما جاء في الكتاب المقدس من أن الملائكة «يأكلون حقا» (تكوين *18/ 8*) - وهي الشروح التي كانت قائمة على أن الملائكة كائنات

غير مادية، ومن ثم فإن «الشقاء المنذر بقدوم الموت» ظاهري فقط . ويقول (فاولر): إن ميلتون قد استند في رأيه إلى ما جاء في إنجيل لوقا (24/ 39 - 43) من أن المسيح تناول طعاما في السماء بعد أن رفعه الله إليه .

440 - «الكيميائي التجريبي» هو الكيميائي الذي يمارس صناعته بين الناس لا الباحث الضليع الذي كان يُظَن أنه يستند إلى نظريات علمية معقدة بعضها ديني .

446-450 «الملائكة» في البيت 447 ترجمة لمعنى التعبير في الأصل الإنجليزي «أبناء الله» - وهذه إشارة إلى ما ورد في سفر التكوين من «أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا» (6/ 2) - ولكن ميلتون لا يقول بذلك هنا .

459 - مصدر «الحذر» في حديث آدم أنه يخاف أن تكون المعرفة التي يطلبها هي المعرفة المحرمة . انظر (بيردن) ص 113 .

469 - 490 تتميز صورة العالم التي يرسمها روفائيل بالحركة الدائرية أي بالانطلاق والعودة - مما يجعلها تنتمي إلى الفلسفة الأفلاطونية ، مثل فكرة التفاوت في درجة الروحانية عند الكائنات . ويصعب على الباحث رصد مصادر هذه الفكرة بسبب شيوعها شيوعا كبيرًا في العالم القديم .

472 - ذكر «الهيولة الأولى» يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن ميلتون لايقبل فكرة الخلق من العدم (الكتاب الثالث 601 - 605 والحاشية) .

484 - سلم الطبيعة Scala naturae هو السلم الكوني . و «التسامي» معناه الارتفاع وأيضا التحول من صورة إلى صورة، كما يعني اللفظ في الكيمياء . (انظر الكتاب الثالث 516 - 508 والحاشية).

484 - «عصائر الحياة» هي في رأي القدماء سوائل بالغة النقاء يفرزها

الدم من القلب حتى تحفظ حياة الكائن الحي . أما «أبخرة النفس» فقد سبق ذكرها في الكتاب الرابع (508) ومصدرها المخ وهي تتحكم في الإحساس والحركة الإرادية (وانظر الحاشية على ذلك البيت) .

478 - 490 استقى ميلتون من أفلاطون فكرة التفريق بين «الحدس» الذي يعتمد على النشاط الكلي للذهن «المتأمل» (mens باللاتينية) وبين «المنطق» الذي يعتمد على النشاط التحليلي للعقل (ratio باللاتينية) - (انظر الجمهورية 533 وما بعده) .

496 - 500 كان من الشائع الاعتقاد بأن الإنسان كان يمكن أن يرقى إلى مستوى الملائكة لو لم يعص الله ويأكل الثمرة المحرمة ويورد (ك. س. لويس) في كتابه مقدمة للفردوس المفقود - لندن - 1942 - نصا للقديس أوغسطينوس يؤيد هذه الفكرة (ص 66) - ويقول - (بيردن): إن ميلتون يصور الإنسان تصويرًا يوحي بإمكانية «التقدم» أي الارتقاء في منزلته لا الثبات على بشريته (ص 36 - 37) .

503 - هنا إشارة إلى ما ورد في أعمال الرسل 18/17 «لأننا أيضا ذريته» .

509 - يشير آدم هنا إلى «سلم الطبيعة» الذي سبق ذكره .

520 - 543 نفس الأفكار التي وردت في حديث الله عن رفض الجبر والتسيير في الكتاب الثالث 93 - 128. ولو أننا هنا نواجه موقفًا يضعها موضع التطبيق . لاحظ أن ميلتون يستخدم عبارات قصيرة عمدًا،وذلك عملاً بنصيحة هوراس في فن الشعر :

عندما تريد الإفادة أوجز
حتى أن أذهان الناس تستقبل أقوالك في سرعة
ويسر ثم تعيها في أمانة .

(البيتان 335 - 336)

(ترجمة الدكتور لويس عوض)

547 – وصف ميلتون أغاني الحراس من ملائكة الشاروبيم من قبل في الكتاب الرابع 680 – 688 .

557 – «جديرة برهبة الإصغاء في صمت» – في الأصل «جديرة بأن يصغي إليها في الصمت المقدس» – وهذه إشارة إلى (هوراس) – الأناشيد 2/ 8/ 92 – 30 – حيث ترد هذه العبارة بنصها . ولكن كلمة المقدس عند (هوراس) لا تحمل نفس المعنى عند ميلتون، ومن هنا جاء الاختلاف في الترجمة .

563 – 564 يستمر سرد روفائيل للحرب التي وقعت في السماء حتى آخر الكتاب السادس . وهذه خصيصة من خصائص الملحمة .

574 – 576 كلمة «الظل» هنا بالغة الأهمية لأنها تشير إلى المذهب الأفلاطوني القائل إن علاقة العالم الظاهر بعالم المثل السماوي هي علاقة الظل بالحقيقة . وقد عرض هذا المذهب عرضًا مستفيضًا في الجمهورية – 10 – وانظر الكتاب الرابع 207 – 208 .

580 – هذه فكرة أفلاطونية في جوهرها ولكن ميلتون يُعَدِّلُها بقبوله وجود الحركة في «الزمن الأزلي» – وهو ما يرفضه أفلاطون . ويشرح ميلتون هذا في كتابه عن العقيدة المسيحية قائلا: إنه ممكن «لأن أرسطو – الذي يقول باستحالة نشوء الأفكار الخاصة بالحركة والزمن إلا بالرجوع إلى هذا العالم – يقول في نفس الوقت إن هذا العالم نفسه أزلي» (1/ 7) .

583 – «الدورة الكبرى» هي الفترة التي تعود فيها الأجرام السماوية جميعًا وفي نفس الوقت إلى مواقعها الأصلية . وقد تفاوتت تقديرات الزمن الذي تستغرقه هذه الدورة – أو السنة الكبرى annus magnum ما بين 13 و 36 ألف عام !

597 – صورة الابن في أحضان الأب واردة في الكتاب الثالث – الأبيات 169 و 239 و 279 .

601 – إشارة إلى الفقرة الواردة في كولوسي 1/ 16 «فإنه فيه خلق الكل ، ما في السموات وما على الأرض ، ما يرى وما لا يرى ، سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين ، الكل به وله قد خلق» .

603 – 606 الإشارة الرئيسية هنا هي إلى المزمور الثاني «أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي . إني أخبر من جهة قضاء الرب. قال لي: أنت ابني . أنا اليوم ولدتك» (6–7) وإلى الرسالة إلى العبرانيين 1/ 5 «لمن من الملائكة قال قط أنت ابني أنا اليوم ولدتك ؟ وأيضا أنا أكون له أبا وهو يكون لي ابنا ؟» ويشرح ميلتون كلا من هذين النصين في كتابه عن العقيدة المسيحية قائلا: إن الإنجاب في النص الأول استعاري ويعني رفع الابن إلى ما فوق مستوى الملائكة، وأنه في المزمور الثاني يعني «نصبه ملكا» (1/ 5) وقد تضاربت الأقوال حول معنى الإنجاب والأبوّة والملك. وكان الرأي الشائع في القرن السابع عشر أن أمر الله للملائكة بتوقير المسيح وتعظيمه رغم أنه «سيكون من البشر» كان سبب عصيان الملائكة وتمردهم – لأن بشرية المسيح تجعله أدنى منزلة منهم . (انظر ماكولي ص 33) .

607 – 608 انظر «وقال بذاتي أقسمت يقول الرب» (تكوين – 22/ 16) وانظر أيضا رسالة بولس الرسول إلى أهلي فيلبي (2/ 9 – 11) «لذلك رفعه الله أيضا وأعطاه اسما فوق كل اسم . لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض . ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الأب» .

643 – في كتابه عن العقيدة المسيحية (1/ 7) يفرق ميلتون بين السماء الظاهرة وأخرى هي «الخفية أعلى السموات» القائمة

في سماء المباركين حيث «عرش الله» . (12/4) والكتاب السابع 584 - 586 .

645 - انظر البيت 162 وأيضًا رؤيا يوحنا 21/ 25 «لأن ليلاً لا يكون هناك» .

646 - انظر البيت 614 من الكتاب الرابع، حيث يستخدم ميلتون صورة قطرات ندى النوم .

647 - انظر المزمور 121/ 4 «إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل» .

652 - انظر المزمور 36/ 8 - 9 «من نهر نعمك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة . بنورك نرى نورا» . وهذا يعني أن الأنهار الحية هي أنهار الحياة .

658 - 659 انظر الكتاب الأول 82 ، و 361 - 363 (والحاشية) إذ يقول ميلتون :

إن أسماءهم قد انمحت الآن من سجلات السماء
ولم يعد لها من ذكر بعد أن كشطها فسوقهم ومحاها
من ألواح الحياة .

والشائع هو أن إبليس كان اسمه (لوسيفر) قبل العصيان . واشتقاق (لوسيفر) واضح فهو من كلمة باللاتينية تعني الضوء ، وهو أحد أسماء كوكب الزُّهَرَة الذي ارتبط بإبليس . انظر الحاشية على البيت 689 والأبيات 708 - 709 من هذا الكتاب .

660 - يعلق (فاولر) على هذا قائلا : «لسنا واثقين» إذا كان روفائيل يعني أن إبليس كان الأول في طبقة «كبار الملائكة» فحسب أم أنه كان بين أوائل الملائكة من جميع الطبقات . والبيت 812 يرجح التفسير الأخير ، بينما يقول البيت 690 من الكتاب السادس: إن إبليس قد خلق مساويًا لميكائيل، وأنه لم ينازل ندّا له في أول يوم من أيام القتال حتى رأى «أيان يهوى سيف

ميكائيل» (247 - 250) .

671 - «من يليه في المنزلة» هو (بعلزبول) - استنادا إلى الكتاب الثاني 99 - 300 . ويقول (إمبسون): إن ميلتون لا يذكر اسمه هنا لأنه كتب هذا الكتاب قبل الكتاب الثاني (ص 99) . والأرجح أنه لا يعرف ماذا كان اسمه قبل العصيان بعد أن «انمحى من سجلات السماء» كما يقول - انظر الحاشية على البيتين 658 - 659 .

685 - 693 يقول (إمبسون): إن هذه الخدعة جزء من «عملية الدعاية الحربية»، والواضح أن إبليس يحاول أن يمنع أتباعه من إظهار الولاء لله بقبول مُلك المسيح .

689 - «في الشمال» إشارة إلى التقاليد الثابتة التي تربط بين الشمال والشر استنادًا إلى ما جاء في إشعياء 14/ 12 - 14 «كيف سقطت من السماء يا زُهَرَة بنت الصبح .. وأنت قلت في قلبك أصعد إلى السموات أرفع كرسي فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال» .

709 - الضمير في «أكاذيبه» يعود في النص العربي على «زعيمهم» (البيت 706) ولكنه في النص الإنجليزي يعود على «وجهه» مما أثار اعتراض بعض الشراح . ولكن (فاولر) يفسر ذلك قائلا: إن ميلتون يشير في الحقيقة إلى ما جاء في رؤيا يوحنا (22/ 16) من أن المسيح هو «نجم الصباح» الحقيقي. أما «الوجه المشرق» لإبليس الذي تمثل بالزُّهَرَة بنت الصبح «(إشعياء 14/ 12) فهو تمثل كاذب . ومن هنا فلا تناقض بين كذب إبليس وكذب وجهه . انظر الحاشية على الأبيات 658 - 659 و 166 - 170 من هذا الكتاب»

711 - انظر الحاشية على الأبيات 648 - 661 من الكتاب الثالث -
والأمثال 15/ 3 «في كل مكان عينا الرب مراقبتين الطالحين والصالحين».. والمزمور 33/ 18 .

713 - 714 انظر رؤيا يوحنا 5/4 «وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة أرواح الله» ويذهب (إمبسون) في كتابه بعض صور الشعر الرعوي لندن - -1950 إلى أن هذه المصابيح هي الكواكب السبعة (ص 184) . ولكن النص نفسه يوحي بغير ذلك إذ إن ميلتون يشير في الكتاب الثالث إلى «الملاك الأكبر (أوريل) أحد السبعة الذين يقفون في حضرة الرب» (648 - 649) . وهذا يعني أن هذه المصابيح مصابيح «ذهنية» لا بصرية - وربما كان ميلتون يعني الاثنين معا.

716 - «أبناء الصباح» هم الملائكة استنادًا إلى ما جاء في سفر أيوب حيث يطلق عليهم «نجوم الصباح» (38/ 7) .

720 - انظر الرسالة إلى العبرانيين 1/ 2 «ابنه الذي جعله وارثا لكل شيء به أيضا عمل العالمين».

726 - اقتران الشمال بالشر قديم . انظر الحاشية على البيت 689 .

736 - 737 انظر المزمور الثاني/ 4 «الساكن في السموات يضحك . الرب يستهزئ بهم» .

746 - «نجوم الصباح» - انظر الحاشية على 708 - 709 ، 716 . أما عن «قطرات الندى» فكانت رمزا شائعا لكل عارض زائل انظر هوشع 6/ 4.

750 - «طبقات ثلاث» - كان القدماء يقسمون المراتب التسع للملائكة إلى طبقات ثلاث في كل طبقة ثلاث مراتب . انظر (دانتي) الفردوس 28 و(سبنسر) ملكة الجان 1/ 12/ 39 .

755 - انظر الحاشية على 689 .

772 - 802 اختار (ت. س. إليوت) هذه الخطبة ليدلل بها على عدم الدقة التي يتسم بها أسلوب ميلتون، وذلك في المقال الشهير الذي نشره عام 1936 ،وأهم ما فيه أن ميلتون يلجأ إلى التعقيد في سبيل حسن الجرس

والموسيقى اللفظية الأخاذة . وقد رد عليه (إمبسون) (ص 26 وما بعدها) قائلا: إن (إليوت) قد تعمد الهجوم الظالم وأنه يتهم ميلتون دون حق ، ذلك أن ميلتون هنا يورد خطبة لإبليس - وحديث إبليس إذن حديث شخصية من شخصيات الملحمة - وهي شخصية غير عادية فهو يتعمد عدم الدقة في حديثه حتى يربك أذهان سامعيه . ويفسر (إمبسون) التغيرات المفاجئة في الحجج التي يسوقها إبليس بأن الملائكة المتمردين ليسوا بحاجة إلى حجج كاملة فهم مقتنعون مقدمًا بفحوى خطاب إبليس . ويقول (فاولر): إن ميلتون يريد أن يقدم صورة لخطيب لا يجرؤ على عرض حججه صراحة أو في إطار من الإنصاف والمنطق . أضف إلى ذلك أن ما لدينا هو رواية (روفائيل) لخطبة إبليس وليس الخطبة نفسها - ولذلك فربما كانت الخطبة أطول من ذلك، وربما لم يشأ روفائيل أن يُعَرِّضَ آدم «الضعيف» لقوة البلاغة الشيطانية التي ربما كان إبليس قد أبداها في الخطبة الأصلية .

783 - انظر ما يقوله جبريل عن خضوع إبليس لسلطان الله أول الأمر في الكتاب الرابع 959 .

799 - «أهون به» - الضمير في «به» يعود على تشريع الشرائع - ولكن الأصل الإنجليزي يوحي بمعنى آخر وهو كون المسيح بشرًا - والإشارة هي كما يقول (فاولر) إلى إنجيل لوقا 19/14 «لا نريد هذا (الإنسان) أن يملك علينا» .

805 - 807 (عبديئيل) : المعنى الحرفي هو «عبد الله» . وهو وارد في أخبار الأيام الأول 5/15 باعتباره اسمًا من أسماء البشر .

817 - انظر فيلبي 2/9-11 «لذلك رفعه الله أيضا ... لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ،ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله

الأب» .

821 - الفكرة واردة في رسالة بولس الرسول إلى أهل روميه 9/ 20 «من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله . ألعل الجبلة تقول لجابلها : لماذا صنعتني هكذا ؟» .

835 - 840 انظر كولوسي 1/ 16 - 17 «فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى سواء كان عروشًا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين . الكل به وله قد خلق . الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل».

845 - 848 انظر المزمور الثاني 12 وإشعياء 55/ 6 - 7 ..

855 - يقول (فاولر): إن هذا البيت له أهمية خاصة بالنسبة لعنصر السرد في الملحمة ، ويورد رأيا لأحد النقاد مفاده أن إبليس يسمع هنا لأول مرة بأن «للابن دورًا في الخلق» ومن ثم فهو يفاجأ ويبدأ في إنكار فكرة الخلق نفسها - بل إنكار خلقه هو نفسه - ثم يرد على ذلك قائلا إنه لما كان (عبديئيل) يعرف بهذا سلفا فلابد أن الملائكة المطيعين قادرون على معرفته حدسا أو أن كلمات الله التي قالها عند تتويج المسيح لم تكن مقصورة على ما أورده روفائيل (600 - 615) .

860 - يورد (ك. س. لويس) رأيا يقول: إن إبليس يقترف الإثم الأكبر حين يتمنى أن يحيا «في ذاته» - مستشهدا بما قاله القديس أوغسطينوس في هذا الصدد (ص 65) - وأن إبليس يحاول تبرير موقفه ذلك بالحديث عن استحالة «العدم» .

890 - إشارة إلى تحذير موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بعدم مناصرة تمرد (قورح) إذ قال: «اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئا مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم» . عدد 16/ 26 .

893 - انظر الرسالة إلى العبرانيين 12/ 29 «لأن إلهنا نار آكلة» .

حواشي الكتاب السادس

1 - الملاك المقدام هو (عبديئيل) .

2 - «دورة الساعات» : يقول ميلتون: إن الساعات تدور لأنه يقصد تقسيمات قبة السماء التي تدور ظاهريًا حول محور النجم القطبي - وهي تقسيمات مكانية تمثل أقسام اليوم مثل الأقسام المرسومة على المزولة، وميلتون يعاملها معاملة الأشخاص هنا، فكأنها ربات يدرن حول الأرض. وقد أشار هوميروس إليها في الإلياذة حين جعلها تحرس أبواب السماء (*5/ 749*) وقال سبنسر إنها يقظة على الدوام في هذه الحراسة ملكة الجان (*7/ 7/ 45*) .

29 - 34 انظر إنجيل متى *25/ 21* - « نِعمًا أيها العبد الصالح والأمين». وتيموثاوس *6/ 12* «جاهد جهاد الإيمان الحسن» ، المزمور التاسع والستين(*7*): «من أجلك احتملت العار» . أما «عبد الله» فهي المعنى الحرفي لاسم الملاك (عبديئيل) . انظر الكتاب الخامس *805* .

42 - «الضمير» هو معنى التعبير الإنجليزي **right reason** المشتق من التعبير الرواقي الذي أشاعه الإسكولائيون وهو باللاتينية **recto ratio** والمقصود به العقل الصائب الدفين الذي يرادف الضمير في لغتنا الحديثة - ولذلك فإن ميلتون يفرق بينه وبين «العقل» وحسب في البيت *41* (انظر روبرت هوبس Robert Hoopes العقل الصائب في عصر النهضة الإنجليزية كيمبريدج - ماساتشوستس *1962*) .

44 - انظر سفر دانيال *11/ 1* ورؤيا يوحنا *12/ 7* وما بعدها حيث يَرِدُ ذكر الحرب التي وقعت في السماء.

46 - «جبريل» أو جبرائيل أو جبريئيل - معناها الحرفي «جبروت الله»

انظر الحاشية على الأبيات 549 - 550 من الكتاب الرابع .

49 - الواقع أن عدد الملائكة الأخيار يبلغ ضعف عدد الفسقة - انظر الحاشية على البيت 262 من الكتاب الثاني .

54 - 55 «الجحيم» في الأصل هي (تارتاروس) وكانت مملكة الجحيم في الأساطير اليونانية . انظر الحاشية على البيت 69 من الكتاب الثاني . أما «نيران العماء» فهي في الأصل «العماء الذي اشتعل نارا» - وهو وصف دقيق لأن ألسنة نيران الجحيم امتدت إلى العماء (الكتاب الثاني البيت 1002) فالظاهر أن الجحيم لم تنشأ إلا عند سقوط إبليس .

60 - 65 يقال إنه قبل نزول الوصايا العشر «صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدًا . فارتعد كل الشعب في المحلة ... وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدًا» . سفر الخروج 19/ 16، 18. 63 - 68 قارن هذا الوصف بما ورد في الكتاب الأول 549 - 561 .

71 - 72 الملائكة عند ميلتون يسيرون مثل الأرباب القدماء أي دون أن يلمسوا الأرض .

73 - 76 انظر تكوين 20/ 20 .

97 - الشمال منطقة الشر. انظر الحاشية على 689 من الكتاب الخامس.

38 - يبدي (فاولر) ملاحظة هامة مؤداها أن الملائكة عند ميلتون يستخدمون أسلحة لا تختلف عن أسلحة المقاتلين عند (هوميروس) و(أريوسطو) و (سبنسر) .

100 - 102 صورة إبليس هي صورة الصنم أو الصورة الزائفة للجلال القدسي لأنه يجلس عاليًا في عربة متوهجة تحاكي العربة الكونية التي يركبها المسيح (انظر 749 - 759 من نفس هذا الكتاب) - ولهذا فهو محاط بملائكة الشاروبيم البراقة الذين يحاكون صور الشاروبيم

في العربة الكونية .

108 - «خط المواجهة» تعبير حديث فضلته على الأصل وهو «حافة المعركة» لأنه أصدق في نقل المعنى المقصود .

114 - 126 هذا «المونولوج الداخلي» كما نسميه في أيامنا هذه منسوج على غرار مونولوجات المقاتلين الذين صورهم هوميروس في الإلياذة وخاصة (هكتور) انظر مثلا مونولوجه قبل منازلة أخيلاس في تلك الملحمة (22/ 99/ 130) وربما لاحظ القارئ أن الفردوس المفقود بها إشارات أخرى إلى الإلياذة توحي بأن إبليس يشبه (أخيلاس) في كبريائه وغيرته، وأن ميلتون ربما كان يضفي عليه عامدًا هذا البعد الكلاسيكي . وانظر مثلا الكتاب الأول 286 - 289 حيث يشبه ميلتون درع إبليس بالقمر مثلما شبه هوميروس درع أخيلاس بالقمر (الإلياذة 19/ 273) ، والكتاب الخامس البيت 673 حيث يحاكي ميلتون الكلمات الأولى في الحلم الذي أرسله (زيوس) إلى (أجاممنون) ليحثه على شن حرب جديدة على طروادة وتشريفًا (لأخيلاس) في الوقت نفسه (الإلياذة - 2/ 329) .

122 -123 رغم كراهية ميلتون للحرب - وبخاصة عدم تحبيذه لها كموضوع للشعر الملحمي (الكتاب التاسع/ البيت 27 وما بعده) - فهو يتعرض هنا لمعركة كبرى في السماء ويُسهب في سرد تفصيلاتها . وقد اختلف الشراح والنقاد في دلالة هذا، فمنهم من قال إنها رمزية ،ومنهم من قال إنها غير جادة - ولكن النص يتحدث عن نفسه : فهي حرب ولا شك رغم نهايتها الرمزية .

137 - 139 انظر إنجيل متى 3/ 9 «لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا . لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا

لإبراهيم» وغيرها مثل 26/ 53 من نفس السفر .

156 - عادة ما تترجم كلمة gods في هذا السياق بالملائكة، لأن ذلك هو المعنى الأول - ولكن إبليس يتعمد أحيانًا استخدامها لتعني أكثر من ذلك أي لتوحي بالربوبية فعلاً . وقد سبق له أن استخدمها بنفس المعنى في الكتاب الأول 116 .

162 - 163 تعقيد العبارة متعمد - فإبليس يريد أن يقول ببساطة إنه لن يقضي على (عبديئيل) قبل الرد على ما رماه به - وهو لا يريده أن يتباهى بعجز إبليس عن ذلك . والتعقيد إذن يرجع إلى افتقار إبليس إلى الثقة في قدرته على القضاء على (عبديئيل) قبل أن يرد عليه .

167 - «أرواح خادمة» تعبير ورد في الرسالة إلى العبرانيين 1/ 13 - 14 لتأكيد انخفاض منزلة الملائكة عن منزلة المسيح : «لمن من الملائكة قال قط إجلس عن يميني؟ .. أليس جميعهم أرواح خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص ؟» .

176 - يستند إبليس في إقامة حججه على أن قانون الطبيعة يدعو إلى الحرية (انظر الأبيات 787 - 802 من الكتاب الخامس) ولو أنه يفضل التلميح على التصريح - أما (عبديئيل) فلا يتردد في التصريح في رده على الشيطان قائلا: إن قانون الطبيعة هو القانون الأزلي الذي وضعه البارئ وهذه فكرة أساسية من أفكار مذهب «الإنسانية المسيحية» (أو الهومانيزم المسيحية كما يسميها الدكتور لويس عوض) - إذ إن الطبيعة مجرد سبب - والله هو الذي يسبب الأسباب . والواقع أن (عبديئيل) يقول: إن الحرية تتمثل في أن يضع كل مخلوق نفسه في المكان الذي خلق له أي في مكانه الطبيعي - وهذا معناه الطاعة - طاعة الخلق وقوانين الخالق . انظر (راجان) (ص 64) .

183 - انظر الكتاب الثاني 263 «سيد في جنهم أكرم من عبد في الجنة» .

195 - 198 شاعت في القرن السابع عشر نظرية تقول:إن الرياح الحبيسة في باطن الأرض هي التي تتسبب في الزلازل والبراكين - بل إن هذه الرياح هي التي تبرر «الانتفاخ» والتضخم في بعض مناطق الكرة الأرضية . وقد نشر «بحث عن الزلازل» يعود إلى تلك الفترة ضمن المؤلفات النثرية الكاملة لسبنسر عام 1949 في أمريكا ويعرض لهذه النظرية عرضًا تفصيليًا (ص449 - 459) . وقد أشار (فيرجيل) إلى نفس الفكرة في الإنيادة 3/ 571 - 577 كما أشار إليها (أوفيد) في مسخ الكائنات 15/ 297-306 عندما تعرضا لوصف بركان (إتنا) - وقد استقى ميلتون منهما الصورة التي رسمها في الكتاب الأول في الأبيات 230 - 237 . وميلتون يطور الصورة هنا لا لإبراز مدى الدمار والخراب والفوضى فحسب، بل أيضًا لتأكيد معنى التمرد القائم على الكبرياء والذي لا شك يعتبر مُنافيًا للطبيعة فالشعراء يستخدمون البركان عادة للدلالة على هذا المعنى . أما ارتباط إبليس بصورة أشجار الصنوبر فترجع إلى استخدام الإنسان «الوحشي العاصي» لسلاح من شجر الصنوبر - وهو ما يذكره فيرجيل في الإنيادة 3/ 659 وسبنسر في ملكة الجان 1/ 7/ 10 . انظر كتاب ريتشارد بيرنهايمر المتوحشون في العصور الوسطى: دراسة لفنونهم ومشاعرهم وشياطينهم - كيمبردج - ماساتشوستس - 1952 . وأما صورة الماء هنا فهي صورة لتآكل القاعدة - وهي قاعدة الباطل - مثل الصورة التي رسمها سبنسر في ملكة الجان :

وهكذا سقط ولفظ أنفاس حياته

التي تلاشت سريعًا - سحائبَ ودخانًا ؛

وهكذا سقط ، حتى أن الأرض من تحته
لتئن ألمًا ، عاجزة عن احتمال ثقله الكبير ؛
وهكذا سقط ، مثل صخرة عظيمة انشقت
إذ نَحَرت الأمواجُ قاعدتها الضعيفة
وانتزعتها بقوة رهيبة من بين صخور الساحل
فانهارت لتزعج ربَّ البحر العظيم
وهكذا سقط وارتمى كأنه جبل خامد ؛

الكتاب الأول / النشيد الأول / الفقرة 54

199 – «الملائكة المتمردين» في الأصل «أصحاب العروش المتمردين» وأصحاب العروش أو «العروش» فقط طبقة من طبقات الملائكة . ولما كان ميلتون يقصد الملائكة المتمردين جميعًا وهم ينتمون إلى ست طبقات على الأقل (انظر الكتابين الخامس *772* والسادس *102*) فلا شك أن هنا مجازًا مرسلاً (بعض من كل) يحسن معه الإيضاح .

213 – انظر الحاشية على البيت *83* من هذا الكتاب – وهو رأي فاولر – وانظر الإشارة إلى الأسلحة الرمزية للمؤمنين والكافرين في أفسس *6/ 16* «درع الإيمان الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الأشرار الملتهبة» – ثم انظر ما يقوله (فاولر) هنا من أن أسلحة الملائكة «روحية» في الحقيقة ؛ أفلا يمكن اعتبار المعركة برمتها معركة رمزية أيا كان التصوير الواقعي (أو على الأقل «غير المجازي») للمقاتلين وأسلحتهم ؟

215 – «القبة» هي قبة السماء . انظر الحاشية على البيت *992* من الكتاب الرابع .

254 – *255* في الأصل الصخر هو adamant وهو صخر أو «تكوين معدني» لا وجود له في الواقع ولكنه يطلق على

عدة أنواع من الصخور أو المواد المعدنية إذ اقترن في العصور الغابرة بالفولاذ ثم بالياقوت الأزرق sapphire ثم بالماس. وكان معناه في القرن السابع عشر أقرب إلى الماس مما أثار مشكلة في تحقيق نص ميلتون، ذلك أن «درعًا من الماس» لابد أن يكون رمزًا إما للصلابة والصمود وإما للثبات على الإيمان - مثل الدرع الذي استخدمه (آرثر) في منازلة التنين في ملكة الجان *5/ 11/ 10* فإذا شئنا ألا يقتصر معناه على الصلابة فلابد أن نفترض أن ميلتون يصور لنا إبليسًا بالغ البراعة والدهاء.

267 - لاحظ أن ميلتون لا يعتبر الملائكة كائنات «فوق الطبيعة» بل كائنات لا تنفصل عن الطبيعة - وإن كانت هنا الطبيعة السماوية لا الأرضية.

275 - 276 انظر الكتاب الثاني *743 - 760* حيث يقدم ميلتون استعارة «إنجاب» إبليس للخطيئة.

282 - في الأصل adversary أي الخصم وهو المعنى الحرفي لـ Satan بالعبرية كما سبق.

292 - يقول إبليس: «تتخيل وجوده» لأنه لا يعرف بوجود الجحيم - بينما نستدل من السياق على معرفة الملائكة الأخيار بها. وقد سبق ذكرها في البيت *54* و(عبديئيل) يذكرها في البيت *183* بعد انضمامه لصفوف المخلصين.

303 - يقول (فاولر): «هذا بيت غريب فهو يفصح إما عن سذاجة قائله روفائيل وإما عن غروره - إذ كيف يبدو له أن الملائكة خليقة بأن تفصل في أمر كهذا؟» - ولكن الواضح أن روفائيل يحاول تضخيم صورة اللقاء الرهيب بين ميكائيل وإبليس.

306 - تجسيد «الترقب» يكشف عن مخاوف الملائكة. انظر شكسبير -

البرولوج لمسرحية طرويلوس وكريسيدا والبرولوج لمسرحية هنري الخامس (الجزء الثاني) .

312 - «مواقع نذر السوء» : كان المنجمون يستمدون من علم الفلك البطلمي بعض المعلومات التي يبنون عليها نبوءاتهم . ومن هذه خمس علاقات هندسية محددة فيما بين الأجرام السماوية كانوا يسمونها «مواقع» ومن هذه «موقعان» يتميزان بالتعارض (البيت 313) - ينشأ حين يواجه جُرمان بعضهما البعض في الجانبين المتقابلين من السماء ، وكانوا يعتبرون ذلك «نذير سوء» أي أنه تأثير سيئ على البشر .

320 - 323 ورد ذكر أسلحة الله في إرميا 50/ 25 - وكان لهذه الأسلحة دلالات رمزية في الأدب على مر العصور منذ أن حطم (إينياس) بسيفه الذي وهبه له الإله سيف (تورنوس) الذي صنعته أيدي البشر (الإنيادة 12/ 741) - والنموذج المعاصر في القرن السابع عشر هو (سبنسر) الذي يصور سيف العدل الذي سُرق من (چوپيتر) رب الأرباب وأعطته (أستريا) إلى (أرتيجال) في ملكة الجان :

كان مصنوعًا من أنقى المعادن وأقواها
وقد ثقف وصقل بصخر الماس
وزين نصله بالذهب
أجمل زينة ونقش عليه اسمه
وما كان امتيازه أقل من شهرته !
لم تكن ثم مادة أصلب ولا أشد منه
فحيثما هوى اخترق أو شق
وما استطاع درع أن يصمد لضربته
فأينما ضرب مزق وفتت !

الكتاب الخامس / النشيد الأول / الفقرة العاشرة

ويلاحظ أن سبنسر يستخدم كلمة (adamant) في البيت الثاني بمعنى الماس (انظر الحاشية على الأبيات 245-255) مع الفعل الذي يستخدمه ميلتون بمعنى (ثقف وصقل)، ومن ثم فإن القارئ المُلِم بسبنسر سوف يلمح الإشارة الخفية إلى هذا «الصخر الماسي» العجيب . انظر أيضًا البيت 364 من هذا الكتاب حيث يصرح ميلتون بأن دروع الشياطين «من صخر الماس» .

344-353 يقول ميلتون: إن الملائكة ليس لها أعضاء فمادتها متجانسة أي غير مركبة - انظر الكتاب الأول «بسيطة في جوهرها النقي» (425) - ويورد (فاولر) مقتطفا لأحد كتّاب العصر يُبين فيه المصدر الذي اعتمد عليه ميلتون في قوله: إن الشياطين تتألم من الجروح - وخاصة جرح السيف - وسرعـان ما تبرأ.

355- «جبريل بجبروته» في الأصل: «قاتل جبروتُ جبريل» وهي الصيغة التي يستخدمها هوميروس.أما العلاقة الاشتقاقية بين (جبريل) والجبروت فقد سبقت الإشارة إليها في الحاشية على البيت 371 من الكتاب الخامس .

359-360 انظر الملوك الثاني 19/ 22 «من عَيَّرتَ وجَدفت ؟ .. قُدّوس إسرائيل» .

363-368 يلاحظ القارئ أن (روفائيل) لم يذكر اسمه لأدم وحواء - فلا حاجة بهما إلى ذلك - وهو هنا يروي ما حدث له بغير ضمير المتكلم - بل بضمير الغائب - حتى يضفي الموضوعية اللازمة على السياق. أما غريم روفائيل فكان (أصمداي) أو (أزموديوس) المذكور في الكتاب الرابع (168). وأما غريم (أوريل) الملاك الشمسيّ فكان (أَدْرَمُلك) وهو إله وثني

من الآلهة الشمسية ورد ذكره في الملوك الثاني *17/ 31* . وانظر الكتاب الأول حيث ينسب ميلتون الآلهة الوثنية إلى الملائكة العصاة ويحدد أسماءهم . (*364-375*) .

371-372 (أريئيل) و (أريوك) اسمان في الكتاب المقدس . أما (أريئيل) فمعناه الحرفي (أسد الله) ويطلق على بيت المقدس (إشعياء *19/ 1*) . وأما (أريوك) فوارد في سفر التكوين *14/ 1* باعتباره ملك (الأسّار) الذي حاربه إبراهيم عليه السلام ، وقد أصبح يشار إليه في «علم الشياطين» في عصر النهضة على أنه روح الانتقام . والاسم يعني حرفيًا «مثل الأسد» . أما (راميل) فهو ممن سقطوا للعلاقة الآثمة مع «بنات الناس» .

374-375 يقول آلان جلبرت Allan Gilbert في كتابه عن تأليف الفردوس المفقود : دراسة لتنظيم مادتها وإدراجها في السياق - *1947*:إن ثمة تناقضًا بين ما يقوله (روفائيل) هنا عن قناعة الملائكة بذيوع أسمائهم في السماء وبين ما ذكره في *364-365* عن النصر الذي أحرزه هو و (أوريل) على أعدائهما ، ولكن - كما أشرنا في الحاشية على *263-368* إن روفائيل لم يذكر اسمه لآدم ولا يجوز إذن اتهامه بالتناقض . والحقيقة أن هنا مفارقة طريفة لأننا نعرف المتحدث وآدم لا يعرفه .

395 - 397 على عكس الملائكة الأخيار الذين «لا يمسهم سلاح» (*400*) فإن «الإثم قد أغلظ كيان» العصاة (*601*) . ومن ثم أصبحوا يعرفون الألم . انظر الحاشية على *344 - 355* .

399 - «مكعبة» كلمة لها دلالتها - فالتكعيب شكل يرمز إلى الفضيلة والاستقرار . وليس واضحًا إن كان المقصود هنا هو الشكل الرباعي على إطلاقه أم المكعب على وجه التحديد . ورمزية الرقم 4 تعود إلى (فيثاغورس) كما سبق .

413 - يقوم بالحراسة عادة ملائكة الشاروبيم لتفوقهم في العلم والمعرفة انظر البيت 778 وما بعده من الكتاب الرابع، وكذلك البيت 590 وما بعده من الكتاب الثاني عشر .

416 - اجتماع مجلس الحرب ليلاً يجري على غرار ما رواه (هوميروس) في الإلياذة (9) عندما عرض للاجتماع الذي دعا إليه (أجاممنون) بعد هزيمة (هكتور) .

447 - كان «نِسْروخ» هو الصنم الآشوري الذي كان (سَنْحارِيب) يصلي له ساجدًا عندما قُتِل (ملوك ثاني 19/ 37 وإشعياء 37/ 38) واسم (نِسروخ) بالعبرية يعني (الهرب) أو (الغواية الرقيقة) حسبما يقول (فاولر) استنادًا إلى قاموس (ستيفانوس) - وهما صفتان يبرزهما سلوكه وحديثه كما يصورهما ميلتون هنا .

453 - «الأرباب» هنا تعني إما «الكائنات المستقلة بذواتها» وإما «الملائكة» - كما سبق .

464 - 468 تهديد مقنع : يريد (نِسروخ) أن يقول: «إن لم تأتنا بجديد فسوف نعين قائدًا آخر» .

472 - 481 انظر الأبيات 608 - 612 من الكتاب الثالث حيث يتحدث ميلتون عن طاقة الشمس على تكوين الأحجار الكريمة بفعل تأثيرها في باطن الثرى على قطرات الندى ، وميلتون يقول: إن المعادن تتكون هنا بنفس الطريقة بفعل تأثير «أشعة السماء» التي تقابل أشعة الشمس على «الزبد» الذي تخرجه أرضية السماء .

483 - أبدى أحد أوائل الشراح اعتراضًا على استخدام إبليس كلمة «الجحيم» في هذا البيت قائلاً: إن إبليس لم يكن يدري بعد كيف يكون عقابه . وقد رد (إمبسون) على هذا الاعتراض في كتابه بعض صور الشعر

الرعوي - لندن - *1950* - ص *158* قائلاً: إن إبليس يستند إلى التلميحات «والإشارات إلى الجحيم التي سمعها في اليوم السابق» - ويعلق (فاولر) على ذلك قائلاً: إن (روفائيل) الذي يروي هذه الوقائع هو وحده الذي يقصد الإشارة إلى الجحيم بالمعنى المعروف. أما إبليس فيقصد بها «نار المنطقة السفلى» فحسب.

484 - *490* ربما كان المصدر الذي اعتمد عليه ميلتون في القول بأن الأسلحة النارية قد اخترعت في الجحيم هو (أريوسطو) غضبة أورلاندو *9/ 28* - *29* و *91*، وربما كان المصدر الأقرب إليه هو سبنسر الذي يقول في ملكة الجان:

أرأيت إلى تلك الآلة الشيطانية التي صنعت من الحديد
في أعمق أعماق الجحيم، إذ شكلتها مهارة ربات القصاص
وحَمّلَتها بالنطرون ذي الرياح والكبريت الحي
ثم وضعت فيها الرصاصة المستديرة وأمرتها أن تقتل
حين تشتعل نارًا وتملأ السموات
بضجيجها الراعد، ويختنق بها الهواء كُلُّه
حتى ما يستطيع أحد أن يتنفس أو يرى أو يسمع ما يريد
من خلال سحائب الحريق والدخان الأدكن كريه الرائحة
حتى أن من ينجو من الطلقة يُصاب بالذعر من أنفاسها!

الكتاب الأول/ النشيد السابع - الفقرة 13

485 - «الفتحة الأخرى» هي فتحة فتيل الاشتعال.

535 - لم يستطع أحد من الشراح أن يعثر على مصدر لاسم (زوفيل) - (أي الجاسوس الإلهي) - وربما كان من الأفضل مراعاة الهجاء المتبع في الكتاب المقدس لمثل هذه الأسماء وكتابته

(زوفيئيل) بالعربية - مع أنه غير موجود في أي نص ديني .

539 - انظر فيرجيل الإنيادة 10/ 809 «سحابة الحرب nubes belli ولكن ربما كانت هذه الإشارة في الحقيقة إلى رسالة بطرس الرسول الثانية 2/ 17 «غيوم.. حُفِظَ لهم قتام الظلام إلى الأبد» - أي معلمون زائفون «ينطقون بعظائم البُطْل» (نفس المصدر 18).

542 - 546 «الصلب» في الأصل adamantine وهي صفة من adamant الصخر الذي سبقت الإشارة إليه في الحاشية على 254 - 255، 320 - 323 و 264 من هذا الكتاب . أما أن الدرع محكم حول الجسد فإشارة إلى الدرع الروحي الذي توحي به الآية الواردة في أفسس 6/ 14 - 17 .

553 - «المكعب الأجوف» صورة للفضيلة الزائفة، لأن التكعيب رمز الفضيلة (انظر الحاشية على 399 و 550 من هذا الكتاب) والتجويف رمز الخلو من الإيمان .

560 - 562 تعبير «قلب مفتوح» يتضمن تورية لأنه يشير في الحقيقة إلى الجبهة العريضة للفيلق المتقدم، ويوحي في الوقت نفسه بالمعنى الحديث (الاستعاري) . وميلتون يستغل هذه التورية أيضًا في البيت 562 حين يتحدث عن المبادرة باعتبار أنها فاتحة Overture أي فتح المفاوضات من أجل التسوية (المعنى الثالث في قاموس أكسفورد) بينما توحي الكلمة في الوقت نفسه بفتحة المدفع الواردة في البيت 485 (وهو أحد معانيها في اللغة) والفُوَّهة الواسعة البشعة في البيت 577 - (المعنى الأول في قاموس أكسفورد) .

569 - 570 هذه حيلة شائعة من حيل الحرب في ذلك العصر .

572 - كان لكل مدفع ثلاث «مواسير» تطلق قذائفها مرة واحدة

شأن المدافع التي كانت شائعة في القرن السابع عشر وبخاصة في حصار المدن.

572 - 578 إذا كانت التشكيلات الحربية للشياطين «جوفاء» - لأن المكعب الأجوف رمز للفضيلة الزائفة - الحاشية على 552 - فالمدافع أيضًا تتكون من أعمدة جوفاء - لأن العمود كان هو الآخر رمزًا للفضيلة .

586 - 589 يعلق (فاولر) على التشبيه بجسد الإنسان وصور الفحش المرتبطة بالشياطين في هذه الأبيات قائلاً : إن لها سندًا في الفنون التشكيلية المعاصرة التي تصور الشياطين في أبشع صورة .

635 - انظر عبارة فيرجيل في الإنيادة 1/ 150 Furor arma ministrat أي أن الغضب يزود الغاضب بالسلاح - وكثير من مترجمي الإنيادة يستخدمون نفس ألفاظ ميلتون في هذا البيت .

639 - 666 انظر الكتاب الأول (230 - 237) حيث التشبيه :

. . . مثل بركان تثيره قوى
الرياح الحبيسة في باطن الأرض ، فتنقل التل من مكانه
وتنتزعه من جبل (بلوروس) أو مثل السفح الذي مزقه
بركان (إتنا) الراعد ، فاشتعلت
أحشاؤه بوقود جبار سرى فيه الضرام
وفارت فيه المعادن فغدت أبخرةً تندفع مع الريح
وخلفت القاع محترقًا ، يغلفه
الدخان . . .

أو تشبيه إبليس بجبل انتزع من مكانه في الأبيات 195 - 198 من هذا الكتاب . وتعرض الباحثة (إيزابيل ماكافري) في كتابها الفردوس المفقود باعتبارها أسطورة كيمبريدج - ماساتشوستس 1959 - لهذه الصور قائلة إنها ترمز لحالة الفوضى والعماء التي انتهت عند

خلق الكون، ولكنها حالة يمكن أن تعود نتيجة لانسياق الإنسان وراء إبليس. وهذه الصور الشعرية - ومنها الصورة الواردة هنا - مستقاة من التراث الكلاسيكي وخاصة الحرب التي شنها العماليق (وأحد أسمائهم يعني - اشتقاقًا - أنهم أبناء الأرض) ضد (زيوس) أو (جوبيتر) رب الأرباب - (انظر موجز الأساطير اليونانية *56 - 59*). ففي هذه الحرب استخدم العماليق التلال والصخور والأشجار أسلحة يقذفونها على الأرباب، وفي النهاية ظل الكثير منهم مدفونا في الأرض فأصبحوا البراكين الحالية - انظر الأبيات *197 - 200* من الكتاب الأول والحاشية عليها.

664 - 667 ترجع صعوبة تصور هذا المشهد إلى ضخامته البالغة.

673 - «مجرى الأمور» هو المعنى الثاني للعبارة الأصلية sum of things. أما المعنى الأول في رأي الشراح فهو «حال الكون» استنادًا إلى العبارة اللاتينية الموازية Summatum summa الواردة في (لوكريشيوس). ولكنني فضلت المعنى الثاني لتلاؤمه مع السياق.

680 - 682 انظر الرسالة إلى العبرانيين *1/ 3* «بهاء مجده ورسم جوهره» وكولوسي *1/ 15* «الذي هو صورة الله غير المنظور».

684 - «القدير الثاني» عبارة تتضمن تناقضا في رأي الشراح - مثل التناقض في البيت *681* «تشاهد في وجهه المحجوب».

689 - انتقد البروفسور (كريستوفر ريكس) في كتابه: أسلوب ميلتون الرفيع (ص *19*) كلمة «تعرف» في هذا البيت (كما انتقدها (جون بيتر) في كتابه نقد الفردوس المفقود - لندن - *1960* - ص*13*) استنادًا إلى أن «الابن عالم بكل شيء». ولكن الترجمة العربية توضح مرمى ميلتون - فهو لا يقول في النص «اعلم» ولكن «وأنت تعرف» thou knowest ويعني بها - كما

في الترجمة - «كما تعرف» . ومرد الصعوبة هنا هو نسبة الكلام إلى الله سبحانه وتعالى .

700 - 709 يقيم (إمبسون) حجته في كتابه الذي أكثرنا من الإشارة إليه في هذه الحواشي وهو الله عند ميلتون - لندن - 1961 - ص 41 - 42 على أن الله يؤخر هزيمة إبليس حتى لا يكشف له مدى قدرته سبحانه وتعالى فهو يمد له في الأمل ولا ينهي الحرب إلا في اليوم الثالث عامدًا . ولكن هذه الأبيات العشرة توضح أن مقصد ميلتون غير ذلك : فهو يريد لإبليس أن يتبين الفارق بين قوة الله التي يهبها للمسيح وبين قوة مخلوقاته من الملائكة. ولهذا السبب يتجاهل إبليس تمامًا أحداث اليوم الثالث من أيام الحرب في روايته للموقعة في الكتاب الأول .

708 - انظر الكتاب الخامس 720 والعبرانيين 1/ 2 .

712 - «عُدَّتي» في الأصل «عُدَّة الحرب» ولو أن ميلتون يحذف «العُدَّة» ويذكر الحرب فقط - وهي حيلة بلاغية سرعان ما شاعت في اللغة الإنجليزية.

720 - 721 انظر كورنثوس الثانية 4/ 6 «الله الذي قال إن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» .

724 - 734 انظر إنجيل يوحنا 17/ 1 - 23 وإنجيل متى 3/ 17 .

731 - 732 انظر الحاشية على الأبيات 339 - 343 من الكتاب الثالث وكورنثوس الأولى 15/ 24، 28 ». وبعد ذلك النهاية متى سلم الملك لله الآب متى أبطل كل رياسة وكل سلطان وكل قوة . . ومتى أخضع له الكل فحينئذٍ الابن نفسه أيضًا «يخضع للذي أخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل» .

731 - 732 انظر المزمور 139/ 21 «ألا أبغض مبغضيك يارب وأمقت مقاوميك ؟» .

738 - هذا هو النقيض للوعد الذي وعد به المسيح «في بيت أبي منازل كثيرة وإلا فإني قد قلت لكم . أنا أمضي لأعد لكم مكانا».

(إنجيل يوحنا 14/ 2) .

739 - انظر البيت 48 من الكتاب الأول الذي يستلهم الآية الواردة في رسالة بطرس الثانية «الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا بل في سلاسل الظلام طرحهم» (2/ 4) - وانظر يهوذا/ 6 «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم حفظهم الله إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام» - وإنجيل مرقس حيث توصف الجحيم بأنها «جهنم النار، حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ» (9/ 43 - 44) .

749 - 759 يقول (فاولر): إن هذه هي الصورة الرئيسية في القصيدة التي أعد لها ميلتون ومهد لها الطريق بالعديد من الصور الفرعية والإشارات الرمزية مثل عربة إبليس الزائفة (الأبيات 100 - 103 و 338) وصورة الملائكة الكبار السبعة أصحاب العربة الكونية ، وغير ذلك من الإشارات إليها وغيرها من العربات (الكتاب الأول 311 ، الثاني 887 ، الثالث 394، 522 ، الرابع 211، 358، 390، 711) - ويقارن (فاولر) بين معالجة ميلتون لهذه العربة ومعالجة الرسامين والأدباء لها في عصر النهضة قائلاً إنها تتسم بالغموض والروحانية حتى ولو كانت تفاصيلها توحي بغير ذلك . أما المصدر الذي استقى منه ميلتون هذه الصورة فهو حزقيال 1/ 4 - 6، 16، 26 - 28، 10/ 12، 16). وقد أجمع الشراح على أن هذه الآيات تمثل مشهدًا كونيًا يلعب فيه الرقم 4 دورًا أساسيًا فهو عدد العناصر، وفصول السنة ...إلخ - وأيضًا عدد الفضائل الكبرى ، ولكن ميلتون يضيف إلى

الصورة الواردة في حزقيال ذكر النجوم.

761 - انظر الحاشية على البيت 598 من الكتاب الثالث و (الأوريم) صخر شمسي . وانظر الحاشية على الأبيات 597- 696 من الكتاب الثالث حيث تفصيل القول في مغزى درع هارون .

762 - 764 كان العقاب «طائر جوبيتر» ومن ثم كان رمزًا للجلال الملكي،وكان يصور أحيانًا جاثما عند أقدام «النصر» (وكان النصر هو الآخر مجنحا). ولكن ميلتون يجمع بين الاستعارتين في صورة واحدة حين يجعل للنصر أجنحة عقاب .

764 - «يهوه» في الكتاب المقدس له سهامه الراعدة ، ولكن ميلتون يشير أيضًا إلى رعود (جوبيتر) في حربه ضد العماليق - انظر الحاشية على الأبيات 639 - 666 من هذا الكتاب .

765 - انظر المزمور الثامن عشر 8 «صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه» .

767 - انظر رؤيا يوحنا 5/ 11 «ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش والحيوانات والشيوخ وكان عددهم ربواتِ ربواتٍ وأُلوفَ أُلوفٍ» . وربما لاحظ القارئ أن ميلتون عادة ما يشير إلى أعداد الفسقة دون تحديد فهو يسميها «حُشودًا» (انظر «حشود المارقين» في البيت 31 من هذا الكتاب) ولكنه يشير إلى أعداد الملائكة الأخيار بأرقام تمثل العشرة ومضاعفاتها - (مثلاً في الكتاب الخامس - البيت 588) لأن العشرة كانت في التراث القديم رمزًا للوحدة - وفكرة الوحدة من الأفكار الأساسية في تفكير ميلتون الديني - فالوحدة قدسية لأنها ترمز لوحدانية الله ، ولذلك يبدأ روفائيل حديثه إلى آدم قائلاً: «القهار واحد»(الكتاب الخامس 469) بعد أن أشار من قبل إلى «رب السموات الواحد»

(الخامس 403) ويتكرر ذكر الوحدة في القصيدة باعتبارها تيمة أساسية «متحدين مثل نفس واحدة لا تتجزأ» (الخامس 610) وهلم جرا . وقد خصص (فاولر) في كتابه سبنسر وأرقام الزمن لندن 1964 - عدة صفحات للحديث عن أصل فكرة التقابل بين وحدة الحق وتعدد الباطل ، وهو ينسبها إلى (فيثاغورس) بصفة أساسية (ص 5 و7) - ولكن ألا يمكن أن يكون لها أصل ديني لا علاقة له بذلك الفيلسوف اليوناني ؟ أما كلمة «ملاك» فهي saint في الأصل التي شاعت ترجمتها بـ «قديس» - ولكن ميلتون يستخدمها للدلالة على الملائكة في مواضع كثيرة باعتبار أن تقديس الله أخص صفة من صفات الملائكة - وربما كان يعني بها « الملائكة المصطفين» - انظر الأبيات 47، 374 - 375 من الكتاب الخامس والبيت 330 من الكتاب الثالث حيث تعني «المصطفين» فحسب - وكان هذا المعنى شائعًا في القرن السابع عشر .

769 - انظر المزمور 68/ 17 «مركباتُ الله رَبَواتُ ألوفٍ مكررة . الرب فيها . سينا في القدس» .

771 - انظر المزمور الثامن عشر/ 10 «ركب على كروب (شاروبيم) وطار وهف على أجنحة الرياح» .

772 - انظر حزقيال 1/ 26 «وفوق المقبب الذي على رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق» - وصحته «الياقوت الأزرق» . أما السماء البلّورية فهي التي تلي «سماء النجوم» .

776 - إشارة إلى النبوءة الواردة في إنجيل متى 24/ 30 «وحينئذٍ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتيًا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير» .

788 - يحاكي ميلتون هنا عبارة فيرجيل الشهيرة في الإيادة (1/ 10)

التي يتعجب فيها من نقمة (جونو) التي يسميها «ملكة السماء» قائلاً : Tantaene animis Caelestibus irae! أي «أنّى لأرواح السماء بمثل هذا الحقد !» - وقد ترجمها (جاكسون نايت) في طبعة *1956* (لندن) للإيادة هكذا «يصعب أن نصدق أن أرباب السماء قادرون على مثل هذا الحقد» (ص *27*) من طبعة Penguin Classics.

789 - *791* إشارة إلى سفر الخروج *14/ 4* حيث لم تفلح آيات موسى عليه السلام في إقناع فرعون بل زادت قلبه غلظة .

801 - انظر سفر الخروج *14/ 13* حيث يطلب موسى عليه السلام من بني إسرائيل أن يقفوا ساكنين ويشهدوا هزيمة عدوهم .

808 - يعلق (فاولر) على هذا البيت قائلاً : إن الاعتقاد بأن القصاص من الخاطئين حق إلهي لا يفوضه البارئ إلا لمن يصطفيه يستند إلى الكتاب المقدس (تثنية *32/ 35* ، المزمور*64/ 1* ، رومية *12/ 19*، العبرانيين *10/ 30*).

809 - *810* انظر الحاشية *767* : فالعصاة هنا لا يواجهون حشود المؤمنين الحاشدة بل المسيح وحده (البيت *820*) - ولما كان «الواحد» ليس عددًا - لأن الوحدانية لا عدد فيها بل هي مصدر وأصل الأعداد فهو أقوى من الأعداد التي ترمز للتفكك والشقاق .

815 - انظر إنجيل متى *6/ 13* «لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد».

827 - «الأربعة» هم «الأربعة في صورة الشاروبيم» المشار إليهم في البيت *753* من هذا الكتاب ، (والبيت *755*) يقول ميلتون : إن أجنحتهم كانت لها عيون - استنادًا إلى ما جاء في حزقيال *10/ 12* «وأجنحتها ملآنة عيونًا» - أما قوله هنا إنها مرصعة بالنجوم فلا سند له من الكتاب المقدس أو كتابات السلف ، وربما كان ميلتون يريد أن يؤكد

الصورة الكونية لموكب المسيح . انظر الحاشية على الأبيات 749 - 759 من هذا الكتاب .

828 - «فالتصقت» استنادًا إلى ما جاء في حزقيال من أن أجنحة ملائكة الشاروبيم الذين يحركون العربة متصلة «وأجنحتها متصلة الواحدة بأخيه» (1/ 9) .

830 - انظر حزقيال 1/ 24 «فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة صوت ضجة كصوت جيش» .

831 - قارن زحف الشاروبيم في حزقيال : «وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهه . إلى حيث تكون الروح لتسير تسير . لم تدر عند سيرها»(1/ 12).

833 - 834 هذا ينفي دعوى إبليس الباطلة في البيت 105 من الكتاب الأول «زلزلت عرشه» - وقول ميلتون يستند إلى إشعياء 13/ 12 - 13 «واجعل الرجل أعز من الذهب الإبريز والإنسان أعز من ذهب أوفير . لذلك أزلزل السموات وتتزعزع الأرض من مكانها في سخط رب الجنود وفي يوم حمو غضبه» .

836 - «عشرة آلاف» - انظر الحاشية على البيت 767 من هذا الكتاب ، وانظر تفسير «السهم الراعد» في الحاشية على البيت 764 من هذا الكتاب أيضًا .

838 - ربما كان «الطاعون» يعني هنا «الضربات أو الجروح» وهو المعنى المشتق من الكلمة اللاتينية كما يفسرها قاموس أكسفورد الكبير (المعنى الأول) ولها سند من سفر التكوين 12/ 17 «فضرب الرب فرعون ضربات عظيمة» - وخروج 32/ 35 ولكن المعنى الشائع وهو حلول غضب الله والآلام العاصرة الناجمة عنه أقرب إلى روح النص . ولا يمكن استبعاد

الإشارة الثانوية إلى «الطاعون» الذي أصاب قوم فرعون، وذلك بسبب الإشارة الخفية إلى موسى عليه السلام في البيت *801* من هذا الكتاب - وسفر الخروج حافل بالإشارات إلى معانيه المختلفة - مثلاً *7/ 12*، *14 - 25*، *8/ 1 - 15*، *16 - 19*، *20*، *9/ 1 - 7*، *8 - 12*، *18 - 34*، *10/ 1 - 20*، *21 - 23*

842 - هنا إشارة إلى رؤيا يوحنا اللاهوتى «وملوك الأرض والعظماء والأغنياء ... أخفوا أنفسهم في المغاير وفي صخور الجبال وهم يقولون للجبال والصخور: أسقطي علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم» *15 - 17* .

845 - انظر رؤيا حزقيال للعجلات «ولكل واحد أربعة أوجه . الوجه الأول وجه كروب (شاروبيم) والوجه الثاني وجه إنسان والثالث وجه أسد والرابع وجه نسر» (*10/ 14*) - لاحظ أن الترجمة العربية للكتاب المقدس تسمي العجلات «بكرات» .

846 - العجلات ذوات العيون المشار إليها في حزقيال *10/ 12* (انظر «الأجنحة ذات العيون» في الحاشية على *827* من هذا الكتاب) هي كائنات حية وإن لم تكن من طبقات الملائكة - وثَمّ نص على ذلك «لأن فيها روح الحيوان» (*10/ 17*) في نفس السفر - وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن ملائكة الشاروبيم كانوا هم أنفسهم «عجلات حية»، ومن ثم فلا غرابة في تعبير «عيون العجلات» . ولكن ميلتون يعتمد اعتمادًا كاملاً على نص حزقيال ولا يقول إن الشاروبيم أنفسهم عجلات .

858 - «ذاهلين صعقين» - حرفيًا «كمن أصابته الصاعقة فأذهلته» - والكلمتان موجودتان في القرآن الكريم: ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ (الحج/ 2) - ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ (الأعراف/ 143) .

وخاصة ارتباط الصاعقة بيوم الحساب الزمر/ 68 والطور/ 45 - ولما كان ميلتون يقصد المعنى الحرفي للصاعقة إلى جانب المعنى المجازي فقد أضفت «ناهلين» إلى النص العربي.

859 - يجمع ميلتون هنا بين آيتين من آيات الكتاب المقدس الأولى واردة في سفر أيوب وهي «أهوال الله مصطفة ضدي» 6/ 4 والثانية في إشعياء «بنوك قد أعيوا .. الملآنون من غضب الرب من زجرة إلهك» (51/ 20). أما «النقمة» فتوحي في الأصل الإنجليزي بمعنى «الانتقام» أو «ربات الانتقام» في الأدب اليوناني والتي شاعت ترجمتها «ربات القصاص».

874 - انظر الكتاب الثاني حيث يخبر العماء إبليس أنه رأى وسمع الملائكة الفسقة أثناء سقوطهم وقد اختلطت صفوفهم وارتبكت 995 وما بعده.

875 - انظر إشعياء 5/ 14 «لذلك وسعت الهاوية نفسها وفغرت فاها بلا حد، فينزل بهاؤها وجمهورها وضجيجها والمبتهج فيها».

876 - 877 انظر إنجيل مرقس 9/ 43 «خير لك أن تدخل الحياة أَقْطَعَ من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنم إلى النار التي لا تطفأ».

880 - 883 انظر الكتاب الأول 169 - 171 والكتاب الثاني 993 - 997 حيث ترد رواية إبليس ورواية العماء على الترتيب لطرد الفسقة من السماء.

886 - التغني بالنصر من التقاليد الرومانية القديمة. ولكن هنا إشارة خفية إلى «الصوت العظيم» الذي يتغنى في السماء بالنصر على «الحية القديمة» إبليس بعد أن طرد من السماء (رؤيا يوحنا 12/ 10).

حواشي الكتاب السابع

1-7 «يورانيا» كانت في الأساطير القديمة «ربة» علم الفلك ، واسمها يعني حرفيًا «السماوية» ، وميلتون لا يشير إلى هذا الاسم صراحة إلا في مقدمة هذا الكتاب ، أي إنه لا يذكر اسمها هذا إلا هنا ، وإن كان يشير إلى استلهامها في عدة مواضع ، والمعروف أن الطبعة الأولى من الملحمة كانت لا تفصل بين الكتابين السابع والثامن بل تعتبرهما كتابًا واحدًا (هو السابع) يتناول ميلتون فيه شئون الكون الكبير، ومن ثم فقد أحس أنه يحتاج إلى معونة الربة السماوية لإمداده بالإلهام . والواقع أن تقاليد الشعراء في عصر النهضة كانت تصر على استلهام ربة واحدة بدلاً من ربات الفنون التسع، وكانت «يورانيا» هي المفضلة بسبب اسمها ، ويقول فاولر - أهم شرّاح ميلتون -: إن الشاعر بذلك يؤكد الوحدة الإلهية وينكر التعدد الوثني .

4 - الجواد الطائر هو «بيجاسوس» الذي صورته الأساطير القديمة، وكان يشار إليه باعتباره رمزًا للإلهام الشعري .

8-12 الإشارة هنا إلى سفر الأمثال في الكتاب المقدس ، حيث يتضمن الإصحاح الثامن آيات صريحة عن وجود الحكمة منذ الأزل . «الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم . منذ الأزل ... إذ لم يكن غمر أبدئت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت» (*22-24/ 25*)، وأما كلمة «لهوت» فهي من الترجمة اللاتينية الشعبية للكتاب المقدس حيث تحل كلمة (Ludens) محل الكلمة الأصلية الدالة على الفرح والسرور باليونانية ، وهي الموجودة في الآية *30* من الإصحاح نفسه «كنت عنده صانعًا وكنت كل يوم لذته فرحة دائمًا قدامه»، وأما دلالة الحكمة فقد اختلف حولها النقاد ، وإن كان الجمهور على أنها مشيئة الله

التي تتمثل أحيانًا في الكلمة Logos وهي قوة الخلق التي يرمز لها المسيح في هذا الكتاب ، وأحيانًا في أسرار الله التي يخفيها عن البشر، وهي في ذاتها قوةً تماثل إن لم تكن تطابق قوة «الروح» (جبريل) ودراسات التسعينيات من القرن العشرين تجعلهما قوة واحدة. فالمحدثون ينفرون من التقسيمات التي وضعها شراح العصور الوسطى وينزعون إلى ربط القوى الإلهية بعضها بالبعض .

13- «المجازفة» المشار إليها سببها الاعتقاد الشائع آنذاك أن هواء «السماء الدنيا» مهلك للبشر ، ولذلك فالشاعر يجازف في طيرانه مجتازًا هذه الأصقاع .

16- المقصود بالوطن أو بالموطن هو الأرض .

17-20 عندما حاول «بيلروفون» في الأساطير أن يطير إلى السماء ممتطيًا صهوة الجواد «بيجاسوس» أرسل «جوبيتر» رب الأرباب الأسطوري حشرة جعلت تقرص أو تلدغ الجواد حتى يلقي براكبه من على ظهره . ويقول رواة الأساطير: إن «بيلروفون» سقط في حقل الضياع (حقل «إليا») وظل يتجول وحيدًا مكفوف البصر حتى وافته المنية .

21- معنى البيت أن ما بقي من الملحمة هو النصف ، وهو التقسيم الأول الذي يفصل بين الكتب الستة الأولى والكتب الستة الأخيرة .

22- يريد ميلتون التفرقة بين اليوم الأرضي وأيام الله سبحانه .

25-28 يقول الشراح: إن ميلتون يشير من طرف خفيّ إلى ما كان يواجهه من صعوبات في أيام الاضطهاد التي تلت عودة الملكية وانهيار حكم سكروموبلز والبيوريتانيين .

28- «ظلام العين» يشير إلى فقدان البصر الذي كان ميلتون يكابده آنذاك .

29-30 يشير شراح ميلتون إلى أنه كان يؤلف القصيدة ليلاً أو في الساعات الأولى من الصباح، وكان يقضي الليالي ساهدًا، ثم ينادي على ابنته لإملائها ما كتب، والكلمات ترجع صدى آيات المزامير «جرّبت قلبي تعهدته ليلاً» (17/ 3).

34- المقصود هو «أورفيوس» الذي كان يعتبر بصفة عامة رمزًا للشاعر الملهم، ولكن الإشارة إليه هنا تعتبر ملائمة بصفة خاصة بسبب العزلة التي كان يعيش فيها، وإشارة ميلتون إلى أنه قتل على أيدي النساء أثناء الاحتفالات الماجنة برب الخمر «باخوس» تتضمن إعرابًا دفينًا عن مخاوفه من «النظام الحاكم» آنذاك.

35- «رودوبيا» هو اسم سلسلة جبال في «تراقيا» أو «تيراقيا».

37- القيثار المشار إليه هو الذي منحه «أبولّو» أو «ميركوري» إلى «أورفيوس».

39- الربة العاجزة هي «كاليوبي» والدة «أورفيوس»، ولذلك كانت تعتبر حلمًا خاويًا.

61- «دون أن يذنب» (yet sinless) تعني في الواقع «ولا لوم عليه» أي إنه لا يلام على محاولة الاستزادة من العلم «الطبيعي»، وهذا يعتبر في رأي فاولر ردًا على من يتهمون ميلتون بمعاداة العلوم الطبيعية.

66-69 على غرار ما يشتاق «دانتي» إلى المزيد من المعرفة من «فيرجيل» (المطهر 18/ 4) وأما تصوير الرغبة في المعرفة في صورة عطش وتعطش إلى نبع الحكمة (fons sapientiae) فيرجع إلى تفاسير آباء الكنيسة وتعليقاتهم على آيات المزمور الثاني والأربعين «كما يشتاق الأيّل إلى جداول المياه... عطشت نفسي إلى الله». (42/ 1-2).

79- انظر سفر الجامعة 12/ 13 «اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو

الإنسان كله». ويقول بعض الشراح: إن قراء ميلتون آنذاك ربما دهشوا من إيراده هذه الإشارة، لأن أول سؤال وجواب في المجموعة الكنسية التي وضعها كالفن هما: «ما هي الغاية الأولى والرئيسية لحياة الإنسان ؟ - أن يعرف الله» .

96- انظر سفر أيوب «اذكر أن تعظّم عمله» (*36/ 24*) ويقول الشراح :إن آدم كان يخشى أن يكون بذلك قد طلب «المعرفة المحرمة»، وهذا هو سر الحذر الذي يبديه في حديثه .

98-100 طلب مواصلة السرد من التقاليد الراسخة في الملاحم الكلاسيكية (هوميروس - الأوديسا - *II/ 372-276*) .

108- فعل المطاوعة «تنصرف» يدل في رأي النقاد على كياسة آدم وحسن تصرفه أو لباقته ، فهو لا يقول إنني سوف أصرفك بل يوحي بأن الملاك سوف يصرفه الانتهاءُ من القصة ، ومن ثم فالفعل بالعربية «محايد».

122-123 الإشارة إلى تيموثاوس الأولى *1/ 17* «ومــلك الدهــور الذي لا يفنى ولا يُرى ، الإله الحكيم وحده له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور».

124- الإشارة إلى إنجيل متى *24/ 36* «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبي وحده» .

132- كانت كلمة «لوسيفر» (المشتقة من اللاتينية lux-lucis بمعنى الضوء) هي الاسم الذي كان يطلق في غابر الأزمان على كوكب «فينوس» أو الزُّهَرَة حين تكون في موقع «نجم الصباح» ، وكان ذلك اسم إبليس قبل العصيان . أما عن الروابط الرمزية بين إبليس ونجم الصباح فقد تعرض لها روفائيل تفصيلاً في مقدمة حديثه في الكتاب الخامس *700-714* .

135- الإشارة إلى سفر أعمال الرسل *1/ 25* «.. التي تعدّاها يهوذا ليذهب إلى مكانه» .

144- الإشارة إلى سفر أيوب 7/ 9-10 «السحاب يضمحل ويزول . هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد . لا يرجع بعدُ إلى بيته ولا يعرفه مكانه بعد» .

163-164 يقول فاولر :إن إيمان ميلتون بالوحدانية (الأريوسية) لم يجعله يشك في الدور المنوط بالمسيح باعتباره «الكلمة» (لوغوس) وفق مذهب الأفلاطونية الجديدة ، أي الوسيلة المستخدمة في الخلق ، دون أن يعني ذلك أنه خُلق بصفة خاصة قبل باقي ما خلق الله» ص 784.ويشير فاولر إلى الآيات الأولى من إنجيل يوحنا «في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» . (1/ 1-3) ويقول ميلتون في كتاب عن العقيدة المسيحية (1/ 7): «إن الخلق هو العمل الذي أخرج إلى الوجود كل ما هو موجود بكلمته وروحه» . ويقول فاولر معلقًا على كلمة الروح في السطر 165 قائلاً: «إن ميلتون يعني إرادة الله ، أو طاقته الإلهية» . والواقع أن ارتباط الكلمة بالإرادة واضح من السياق ، وكذلك ارتباط الخلق - من ثَمّ - بالإرادة . وفكرة «يُظِلّ كل شيء» قديمة وراسخة، وتؤكد معنى القوة أو الطاقة الإلهية ، إذ يقول إنجيل لوقا : «قوة العليّ تظلّلك» (1/ 35) ويقول سفر التكوين : «وروح الله يرفّ على وجه المياه» (1/ 2) ويقول الشرّاح :إن الترجمات الأولى للكتاب المقدس من اليونانية كانت تربط الكلمة بالقوة أو بالروح لا بروح القدس أو بجبريل (جبرئيل - الكلمة التي تعني اشتقاقًا جبروت الله أو قوته). والفكرة على ما يبدو من تعقيدها بسيطة في القصيدة، وهي تستند إلى تراث كامل من الفكر الديني .

173- حاول إبليس في الجحيم (انظر الكتاب الأول السطرين 116-117) أن يعزو ما حدث له إلى القدر ، مثل الرواقيين ، ولكن ميلتون يقول

هنا إنه لا يوجد «قدر» آخر سوى إرادة الله .

179-176 المعنى المضمر في كلام روفائيل هو أن ما رواه من الخلق سوف يصبح «أسطورة» بمعنى القصة المسطورة التي يتناقلها الخلف عن السلف ويختصمون فيها ، شأنها في ذلك شأن روايته للحرب بين الملائكة والشياطين (انظر الكتاب الخامس *576-571*) وأما عن موضوع الخلْق الفوري («كنْ فيكون») فلقد أوضحت تفاسير الكتاب المقدس المستندة إلى مذهب القديس أوغسطينوس أن الستة أيام ما هي إلا تقريب لأذهان البشر عما خلقه الله في لحظة واحدة .

193- «الحرف» هو الكلمة (انظر السطر *208*) والروح (*209*) ويشير إليه ميلتون أحيانًا باسم «الابن» (*193*) أو «المولى» أي الرب (*205*) ويصر شراح ميلتون على إنكار وجود كيانات مستقلة تشير إليها هذه الألفاظ ، ومن أهم مفكري العصر الحديث (عصر النهضة) الذين شرحوا مقاصد البارئ في الخلق «فرانسيس بيكون» الذي كان قد كتب في كتابه تقدم المعرفة يقول: إن الله خلق الوجود بالقوة، وخلق معاني الموجودات بالحكمة ، كأنما ليميز بين اسمين من الأسماء الحسنى لله جل وعلا وهما القويُّ والحكيمُ، باعتبارها من الصفات العلوية التي لابد أن تشير إلى مصدر واحد ، وكان بهذا يمهّد للتفريق بين قوة اللحظة التي توجد الشيء من العدم ، وحكمة الأيام الستة التي تضفي المعنى على الموجودات . ويقول بعض النقاد: إن ميلتون قد استفاد من هذه الاجتهادات في القصيدة الحالية .

208-205 الإشارة إلى المزامير (*24/ 7-8*) «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد . من هو هذا ملك المجد . الرب القدير الجبار» .

215-210 الإشارة إلى المزامير (*24/ 1-2*) «للرب الأرض

وملؤها . المسكونة وكل الساكنين فيها . لأنه على البحار أسسها وعلى الأنهار ثبّتها» .

225-230 فكرة البناء الإلهي على أسس هندسية ترجع أول الأمر إلى سفر الأمثال : «لما ثَبَّتَ السموات كنتُ هناك أنا . لما رسم دائرة على وجه الغمر» (8/ 27) وكلمة الدائرة نفسها واردة في السطر 228، والمعنى مجرد ، ولكن مفسري الكتاب المقدس حولوا جهاز القياس المجرد إلى جهاز مادي كالفرجار (البرجل) . والصورة كما يقول النقاد: تتضمن عناصر بشرية إذ تنسب إلى الله فنون الهندسة المعمارية .

235- الإشارة إلى سفر التكوين (1/ 2) «وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يَرِفُّ على وجه المياه» .

243-249 ميلتون هنا يضيف تفصيلات إلى ما سبق أن قاله في الكتاب الثالث عن نشأة النور في السطور 8-12 ، والإشارة هي إلى سفر التكوين «وقال الله ليكن نور فكان نور» (1/ 3) .

249-252 الإشارة إلى سفر التكوين «ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلاً . وكان مساء وكان صباح يومًا واحدًا» (1/ 4-5) . الابتداء بالمساء في حساب اليوم من التقاليد الشرقية الموجودة في اللغات السامية كلها ، وهذا مهم في حساب النظام الزمني لأحداث القصيدة .

256-260 الإشارة إلى سفر أيوب «حين أَسَّسْتُ الأرض ... تَرَنَّمَتْ كواكب الصبح معًا وهتف جميع بني الله» (38/ 724) أما أول مساء في الخلق فهو المساء الذي يبدأ به اليوم الرابع عشر لأحداث القصيدة .

261-269 الإشارة إلى سفر التكوين «وقال الله ليكن جَلَدٌ في وسط المياه. وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الله الجَلَدَ وفصل بين المياه التي تحت

الجَلَدِ والمياه التي فوق الجَلَدِ . وكان كذلك . ودعا الله الجلد «ماء» . (1/ 6-8) .

283-291 الإشارة إلى سفر التكوين (1/ 9-10) «وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة . وكان كذلك . ودعا الله اليابسة أرضًا . ومجتمع المياه دعاه بحارًا» . والمزامير (104/ 6-8) «كسوتها الغمر كثوب . فوق الجبال تقف المياه . من انتهارك تهرب من صوت رعدك تفر ، تصعد إلى الجبال . تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي أسسته لها» .

296- العبارة بين القوسين يقصد ميلتون بها الرد على تهمة خلط الأزمان إذ كان يتوقع اتهامه بذلك ، ولكنه بهذه الإشارة يدعو القارئ إلى توخّي الدقة وأخذ حساباته الزمنية مأخذ الجد .

307-313 الإشارة إلى سفر التكوين (1/ 10-11) «ودعا الله اليابسة أرضًا ومجتمع المياه دعاه بحارًا ، ورأى الله ذلك أنه حسن . وقال الله لتنبت الأرض عشبًا وبقلاً يبزر بزرًا وشجرًا ذا ثمر يعمل ثمرًا كجنسه بزره فيه على الأرض وكان كذلك» .

331-334 الإشارة إلى سفر التكوين (2/ 5-6) «الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض . ولا كان إنسان ليعمل الأرض ، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض» .

339-345 الإشارة إلى سفر التكوين (1/ 14-15) «وقال الله لتكن أنوار في جَلَدِ السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات وأوقات وأيامٍ وسنين . وتكون أنوارًا في جَلَد السماء لتنير على الأرض» .

346-354 الإشارة إلى سفر التكوين (1/ 16-17) «فعمل الله النورين العظيمين . النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم، وجعلها الله في جَلَدِ السماء لتنير على الأرض

ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة» .

374-375 الإشارة إلى سفر أيوب (38/ 31) «هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك رُبَطَ الجبار» . يقول أحد الشراح :إن الفجر يسبق الشمس حقًا، في الحركة الظاهرية اليومية ، ولكن كوكبة الثريا لا تسبق الشمس لأنها في برج الثور ، وقد كانت في هذا البرج أيضًا قبل سقوط آدم وحواء ، أما الآن - في إبان الخلق الأول - فالشمس في برج الحمل ، البرج الذي يسبق برج الثور، لأن الخلق وفقًا لما يقوله ميلتون كان في الاعتدال الربيعي (انظر الكتاب الثالث 555-561) وهكذا فإن الثريا ترقص قبل الشمس هنا، بمعنى أنها تسبقها في حركتها السنوية في دائرة البروج ، وينتهي الشارح إلى القول بأن ميلتون يمهد بذلك لوقوع فصول السنة .

387-398 الإشارة إلى سفر التكوين (1/ 20-22) «(20) وقال الله : لِتَفِضِ المياهُ زحافاتٍ ذاتَ نفس حية وليطر طير الأرض على وجه جَلَدِ السماء. (21) فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه . ورأى الله ذلك أنه حسن (22) وباركها الله قائلاً: أثمري وأكثري واملئي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض» والنص الشعبي اللاتيني للكتاب المقدس يورد الآية (20) كما يلي :

producant aquae reptile animae viventis| Tremellius reptilia animantia

423-446 يقول فاولر: «إن الطيور السبعة المشار إليها ترمز جميعًا إلى فضائل محددة ، وسوف يلاحظ القارئ أن ميلتون يلفت النظر مرارًا

وتكرارًا إلى تلك الصفات الرمزية منها» .

423–430 يأتي ذكر العُقاب أولاً باعتبارها سيدة الطيور ، وربما كانت العقاب ترمز إلى الرشاقة الإلهية أو الكرم الإنساني أو الجلال البشري أو السمو الفكري - بل وحتى إلى التَنَوُّر الروحي (ويتفق في هذا ثلاثة من كبار النقاد) والإشارة إلى سفر أيوب «من فهمك يستقل العقاب وينشر جناحيه نحو الجنوب؟ أو بأمرك يحلق ويعلي وكره ، ويسكن الصخر ويبيت على سِنّ الصخر والمعقل ؟» (*39/ 26–28*). وأمّا اللَّقْلَقُ ، فكان رمزًا للعدالة النزيهة ، وللامتنان بالجميل ، وورع الأبناء وبرّهم والديهم ، وبعدائه للثعبان (ويتفق في هذا ناقدان) . وعادةُ بناء وكره في ذُرا أشجار السرو كانت ترمز إلى مقصد الحياة الإلهية animus divinus intentus وهـــما يمثلان الطبقتين الفرعيتين للطيور ، الأولى هي التي تطير وحدها أي متفرقة والثانية هي الطيور التي تطير في جماعات أو تشكيلات مجتمعة ، وهكذا شاعت عن العقبان صفة العزلة وعن اللقالق صفة الانضباط الحربي. وأما عن معرفته مواعيد رحيله ، ففيه إشارة إلى آية من سفر إرميا (*8/ 7*) «بل اللقلق في السموات يعرف ميعاده واليمامة والسنونة المزقزقة حفظتا وقت مجيئهما» ، والترجمة العربية التي لديّ للكتاب المقدس تحذف من هذا النص الإشارة إلى الكُركيّ crane أو الغُرْنوق ، وهي الإشارة الواردة في جميع الطبعات الإنجليزية للكتاب المقدس .

430–432 الكُركيّ العاقل أو الحصيف رمز للاجتهاد واليقظة ، وهو ينتمي مثل اللقلق إلى الطبقة الفرعية للطيور التي تطير في تشكيلات مجتمعة.

434– الأجنحة المخضّبة أي الملونة بالخضاب من الصور التقليدية الكلاسيكية، وهي محاكاة لما جاء في الإنيادة إذ يشير إليها فيرجيل (pictae volucres) في الفقرة التي تسبق انتحار

«ديدو» مباشرة (4/ 525) .

436-435 البلبل يرد ذكره في مواقع أخرى كثيرة في الملحمة (3/ 28-40، 4/ 602-604، و 648، و 5/ 40 ، و8/ 518-520) ويشير إليه ميلتون في قصيدة المفكر (الحزين) واصفًا إياه بأنه «أعذب الطيور لحنًا وشجنًا» (السطور 62) ويقول أحد النقاد: إن ميلتون جعله رمزًا له لأنه كان يغني في الظلام، وإن كان النقاد الآخرون يشيرون إلى شيوع الإشارة إلى البلبل في شعر القرن السابع عشر .

438- كان طائر التَّمّ ، أو الإوزّ العراقي (Swan) ، الذي كثيرًا ما يخلط الناس هنا بينه وبين البجعة (pelican) رمزًا للشعر والموسيقى أيضًا ، مثل البلبل ، وكثيرًا ما كان يرمز إلى نقاء الروح (هل بسبب لونه الأبيض الصافي ورقته ؟) .

458-450 الإشارة إلى سفر التكوين (1/ 24) «وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنس ، بهائم ودبابات ووحوش أرض كجنسها وكان كذلك» .

471- الإشارة إلى سفر أيوب (40/ 15) «هو ذا بَهِيمُوثُ الذي صنعته معك» وكلمة «بهيموث» (Behemoth) مشتقة من العبرية (b`hémóth) وقد درج علماء اللغة على إرجاعها إلى الكلمة المصرية القديمة (p-ehe-mau) التي تعني «ثور الماء» ، ولكن الهامش الوارد في الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس يقول: «إنه إما الفيل أو فرس النهر» ، ويتضح من السطر 474 الذي ترد فيه كلمة «فرس النهر» صراحة (river horse) أن ميلتون كان يعني بالأول «الفيل» ، وهو ما أخذنا به في الترجمة .

476- فصيلة الديدان تضم الأفاعي بشتى أنواعها ، وجميع أنواع الدود الصغير وما يمثل أطوار نمو الحشرات المختلفة .

484- يرجع أحد النقاد فكرة الحيات ذوات الأجنحة إلى آية وردت في الكتاب المقدس وهي «الثعبان السام الطيّار» (إشعياء / 30/ 6) والنص الإنجليزي مختلف بعض الشيء وهو (fieryflyingserpent) ولكن الناقد الن Allen يرجع أصولها إلى حقائق علمية ، ويستشهد بالمؤرخ هيرودوت، والواقع أن علماء الحيوان المحدثين يخصصون رتبة حيوانية خاصة لبعض أنواع الزواحف ذات الأجنحة واسمها العلمي (pterodactyl) وقد تكون قد عرفت في الزمان القديم وانقرض معظم أفرادها .

485- «النملة» تعني أنواع النمل ، وميلتون يشير إليها بلفظ emmet وهي الكلمة القديمة التي لم تعد تستعمل إلا في تعبير emmet-hunter وهو طائر «النوّانية» (wry-neck) الذي يتغذى على النمل، ويقول أحد الشراح:إن ميلتون أخذها من ترجمة شعبية قديمة للكتاب المقدس حيث ترد في سفر الأمثال «النمل طائفة غير قوية ولكنه يعد طعامه في الصيف» (30/ 25). «اذهب إلى النملة أيها الكسلان» (أمثال / 6/ 6) وبالإنجليزية القديمة (Goe to the emmote o sluggard) .

487- يقول روفائيل: «ربما» إما لأنه يظهر عدم اليقين فيما سوف يقع من أحداث ، وإما للإيحاء بعدم الاطمئنان إلى نتائج الحكم الجمهوري. والمعروف أن حياة النمل كانت تعتبر نموذجًا للديموقراطية في ظل الجمهورية، وترجع ناقدةً هذه الفكرة إلى أرسطو .

495-498 مجيء ذكر الثعبان أخيرًا قد يكون من قبيل المصادفة من وجهة نظر روفائيل ، ولكن ميلتون يقصده . والإشارة واضحة إلى سفر التكوين 3/ 1 «وكانت الحية أَحْيَلَ حيوانات البرية التي عملها الرب الإله» .

497- «البدة من الشعر الكثيف المخيف» إشارة إلى وصف ڤيرجيل للثعبان الذي قتل اللاوكون : iubaeque

sanguinae superant undas ويقول أحد العلماء إن كلمة iuba قد تعني اللبدة أو العرف ، ولكننا نعرف أن الثعابين التي ساهمت مساهمة كبرى في تدمير طروادة كانت لها لبد من الشعر الكثيف المخيف !

503-502 يتضمن هذان البيتان ضربًا بلاغيًا قديمًا يوازي اللّف والنشر (versus rapportati) بالعربية وهما :

|air| water| earth

By fowl| fish| beast| was flown| was swam| was walked

Frequent

أما الترجمة الحالية وهي :

ففي الهواء وفي الماء وفوق الثرى

تطير الطيور وتسبح الأسماك وتمشي الحيوانات

بأعداد كبيرة.

فهي لا تنقل الضرب البلاغي . ويمكن أن يكون على النحو التالي :

فالطيور والأسماك والحيوانات

في الهواء وفي الماء وفوق الثرى ، تطير وتسبح وتمشي

بأعداد كبيرة.

ولكن التزامي بموازاة الأبيات الإنجليزية والعربية بعضها بالبعض جعلني أضحي بهذا الضرب البلاغي، وهو نادر في العربية على أي حال ، ومثاله من صفي الدين الحلي :

وجدي حنيني أنيني فكرتي ولهي منهمْ إليهمْ عليهمْ فيهمُ بهمُ

والتكلّف واضح ولا شك . والنموذج المعروف في شيكسبير هو الوارد في مسرحية هاملت الفصل الثالث ، المشهد الأول ، البيت *160* :

The courtiersmm, soldier`s, scholars, eye, tongue, sword.

(أي عين رجل البلاط وسيف الجندي ولسان العالم !) وإن كان المعنى يختلف باختلاف المفسرين ، فالجمهور ينسب إضافة العين واللسان والسيف إلى الثلاثة جميعًا !

بل إن بعضهم يوزع الإضافة توزيعًا مختلفًا ، وليس هذا ما قصد إليه ميلتون .

519-523 الإشارة إلى سفر التكوين (*1/ 26*) «وقال الله نعمل البشر على صورتنا كشبهنا . فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض» .

524-528 الإشارة إلى سفر التكوين (*2/ 7*) «وجعل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة .. فصار آدم نفسًا حية» .

526-528 الإشارة إلى العبرانيين (*1/ 3*) «الذي وهو بهاءُ مجده ورَسْمُ جوهره وحاملٌ كلَّ الأشياءِ بكلمةِ قدرته ... تطهيرًا لخطايانا» .

529-530 الإشارة إلى سفر التكوين (*1/ 27*) «فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم» .

530-534 الإشارة إلى سفر التكوين (*1/ 28*) « وباركه الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» .

535-538 الإشارة إلى سفر التكوين (*2/ 8 ، 15*)«وغرس

الرب الإله جنة في عدن شرقًا ووضع هناك آدم الذي جبله»...
«وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها».

539-541 الإشارة إلى سفر التكوين (5/2) «وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل».

565-567 الإشارة إلى المزامير (7/24) «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد».

575-581 «الأبواب النارية» (blazing portals) عبارة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بمجرة درب التّبانة (*579*) في هذا السياق مما جعل النقاد يقطعون بأن الجمع يقصد به المثنى ، أي أنهما البابان اللذان يحدان مسار الشمس (Portals of the Sun) ومن ثم تكون الصفة («النارية» أو «الملتهبة») إشارة إلى تعامد الشمس ، الذي يولد أقصى وقدة للقيظ ، على مدار السرطان ومدار الجدي ، ومن ثم يكون البابان هما باب السرطان وباب الجدي ، والشمس لا تستطيع في حركتها الظاهرية تجاوز هذين البابين ، فعندما تصل إلى باب السرطان وتتعامد عليه تجده مغلقًا فتضطر إلى العودة إلى الجنوب حيث تتعامد على مدار الجدي فتجد الباب مغلقًا أيضًا فتضطر للعودة من حيث جاءت ، ولذلك أطلق عليهما هذا الاسم . وكان فلاسفة الطبيعة يعتقدون أن الأرواح تدخل وتخرج من هذين البابين في طريقها من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء ، ولما كان الله هو خالق كل شيء ، ولما كان قد قدر إغلاق البابين في وجه الشمس ، فإنه يمر منهما في طريق الصعود للعرش تنبيهًا للمخلوقات وإشعارًا لهم بقدرته اللامتناهية. ويذهب بعض النقاد إلى إقامة علاقة رمزية بين الشمس باعتبارها نورًا خالصًا وبين الخالق نور السموات والأرض.

622–623 عبارة «ولكنك تعرف مواقيتها» وردت هكذا في الأصل .

but thou knowst / their seasons

وقد اختلف الشراح في تفسيرها ، فالوجه الأول هو :

«you know whether their seasons are compatible with habitation»

أي

وأنت تعرف ما إذا كانت الفصول / الأوقات فيها ملائمة للسّكنى (أي للحياة البشرية)

والوجه التالي هو :

«you know the seasons when they are destined for habitation»

أي

وأنت تعرف الأزمنة / الأوقات التي قدر لها أن تصبح معمورة فيها

وأشار بعض النقاد إلى أن ميلتون كان يحيل أقوال روفائيل إلى ما ورد في سفر أعمال الرسل (1/7) وهو :

It is not for you to know the times or the seasons which the Father hath put in his own power

وترجمتها المعتمدة هي :

«ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة أو الأوقات التي جعلها الآب في سلطانه».

والإشارة واضحة ولا شك ، ولما كانت كلمة seasons قد ترجمت بالأوقات هنا فقد رجحت الوجه الثاني للتأويل ، وعليه ترجمت العبارة .

حواشي الكتاب الثامن

1–4 كان الكتابان السابع والثامن كتابًا واحدًا في الطبعة الأولى هو السابع، على نحو ما ألمحنا إليه في حاشية الأبيات الأولى (*1–7*) من الكتاب السابع. وكان السطر الرابع في هذا الكتاب، الذي يقابل السطر *641* في الكتاب السابع هو «وأجابه آدم بامتنان قائلاً». ويقول الشراح: إن السطور الثلاثة الأولى في الكتاب الثامن قد أضيفت، على الأرجح، لتبرير الوقفة القصيرة (التي يشير إليها ميلتون بعبارة «برهة يسيرة») بين الكتابين.

3 – «ظل ثابتًا في مكانه» عبارة تؤكد استمرار تقاليد الملحمة الكلاسيكية، إذ جرت العادة على أن يظل الجمهور في مكانه طالبًا مواصلة القصة بعد الاستطرادات التي تتميز بها كل ملحمة كلاسيكية، والجمهور واقع في قبضة سحر الراوي. فهذا يحدث في الأوديسا – في مطلع الكتاب الثالث عشر وفي السطور *512–516* في مطلع الكتاب الأول من ملحمة «الأرجونوتيكا» (أو ملاحو السفينة أرجو) وربما كان ميلتون يحاكي السطور الخمسة الأخيرة في الملحمة الأخيرة حيث يوصف الجمهور بانبهاره وصمته بعد إنشاد «أورفيوس» نشيد الخلق، لقهر مشاعر الصراع والتناحر لدى الجمهور.

15–38 يعرض آدم على روفائيل جوهر المشكلة التي عرضتها عليه حواء في الكتاب الرابع في السطر *657* وما بعده، وإن كان يزيد من طابعها المجرد ومن تعميم النظر إليها، وكانت من المشكلات الشائعة لدى الاسكولاييين (رجال المدارس الكنسية) وكان ميلتون قد تطرق إليها في عمل سابق. أطلق عليه اسم «الدراسة التمهيدية» أو (Prolusion) وفيه يقول إنه يستبعد أن تكون السماوات قد خلقت لا لسبب إلا لنفع البشر ماديًا

أي في حياتهم المادية ، ويرجح أن الله قد خلقها حتى يتفكر فيها الإنسان ويتدبر مظاهر إعجازها ، ومن ثم يزداد إيمان ذوي الألباب بروعة الخلق وإعجاز الخالق.

45–47 تصوير تجاوب الزهور مع حواء يرفعها إلى مصاف «ڤينوس» ربة الحب والجمال ، على نحو ما تصورها الآداب الكلاسيكية ، وهو يؤكد هذه الصورة في الكتاب نفسه في السطور الخمسة من *59–63* .

48–56 الواضح أن ميلتون أراد لحواء أن تخرج من المكان تمهيدًا لما ينتويه آدم من الحديث عن علاقتها به بعد الزواج ، وهو يذكر هنا أنها لا تخرج بسبب عزوفها أو عجزها عن التأملات الفلسفية العميقة ، فالمرأة في هذا صنو الرجل ، ولكنه يشير أيضًا من طرف خفي إلى الآية التي وردت في كورنثوس الأولى (*14/ 34–35*) وهي «لتصمت نساؤكم في الكنائس .. ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فَلْيَسْأَلْنَ رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة» .

59–63 «الحاشية» المشار إليها من «آيات الجاذبية الخلابة» تعادل «ربات الرشاقة الخلابة» اللائي كن يحففن بڤينوس في التقاليد الكلاسيكية، وهو يلمح إلى وجودهن أكثر من مرة ، في البيت *46* والذي يليه ، وفي الكتاب الخامس في السطر *381* .

67–69 استعارة «كتاب الله» ذات أصول لاهوتية ، ولكنها تحولت إلى العالم الدنيوي في عهد ميلتون بعد الدراسات الفلكية وانطلاق عصر العلم، وإن لم تفقد دلالتها الدينية ، وهو السياق الحالي . وكثيرًا ما كان الكُتَّاب حتى عصر ميلتون يشيرون إلى بعض الحيوانات والمخلوقات الواردة في هذا الكتاب باعتبارها صفحات مهمة «في كتاب الله» .

69– انظر الأبيات *340–352* من الكتاب السابع ، والآية الواردة في سفر التكوين (*1/ 14*) «وقال الله لتكن أنوار في جَلَدِ

السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين».

71–84 ذهب بعض النقاد إلى أن ميلتون كان يفصح هنا عن عدائه لمكتشفات علم الفلك في عصره، ولكن نقادًا آخرين ردوا عليهم ردًا مفحمًا وهو أن النص الشعري يهاجم الذين يفرضون التقسيمات الحسابية والرياضية والهندسية فرضًا ثم يكتشفون عدم دقتها فيفترضون غيرها، أي إنه كان يهاجم الشكوك التي تكتنف العلم الطبيعي لا العلم نفسه، وقال آخرون إنه كان يؤمن بالنسبية فيما يتعلق بقضية مركز الكون، وحركة الأجرام السماوية، بما فيها الأرض، وهي التي كان يدعو لها أحد علماء ذلك العصر واسمه «نيقولا قوصا» Nicholas of Cusa في كتاب كتبه قبل إقدام ميلتون على تأمل هذه المسائل بفترة طويلة، وإن لم يترجم إلى الإنجليزية إلا عام *1954*. ويقول فاولر إنه يرجح تأثر ميلتون به.

82– المقصود «بتفسير الظواهر» - وهو تعبير اسكولائي - «محاولة التوفيق بين الحقائق الظاهرة وبين بعض النظريات التي يختلفون معها فيما يبدو» وقد تنجح المحاولة وقد تخفق، وعلماء الكلام دائمًا ما يحاولون ذلك، ومحاولة التوفيق بين العلم والدين قديمة، والتعبير نفسه موجود في أحد مقالات «فرانسيس بيكون» (**المقالات** - *1625*) إذ يقول في مقال بعنوان: «عن الخرافات» إن «علماء الفلك لدينا يبتدعون الدوائر الخارجة وأشكال الإهليلج، ومبتكرات المسارات الفلكية، تفسيرًا للظواهر، مع علمهم بعدم وجود مثل هذه الأشكال الهندسية». وقد خصص أحد العلماء الألمان دراسة كاملة لهذا الموضوع نشرت في مجلة أنجليا عام *1938*.

83– «الدوائر المنتظمة والمنبعجة» تعبير مستقى من علم الفلك في عصر ميلتون، فعلماء الفلك اكتشفوا أن الكواكب تسير في مسارات دائرية

بعضها كامل الاستدارة وبعضها بيضيّ (بيضاوي) ومن ثم ابتدعوا أشكالاً متفاوتة من الدوائر ، وتعددت هذه الأشكال حتى وصلت عند كوبرنيق Copernicus إلى أربعة وثلاثين شكلاً للدائرة .

90-91 يقول أحد النقاد: إن فصل روفائيل بين الضخامة وشدة الضوء وبين الامتياز يرجع إلى سُلّم القيم التصاعدية في القصيدة وفي أعمال ميلتون كلها ، ويقارن بين هذه الأبيات والأبيات الواردة في الكتاب السادس *820-823* حيث يناقش ميلتون صُوَرَ الامتياز .

91-92 تذكرنا هذه الحجة بما ورد في مسرحية الدكتور فاوستوس من تأليف كريستوفر مارلو ، حيث يقول في السطر *620* : «إن السماوات صُنِعَتْ من أجل الإنسان ، ومن ثم فإن الإنسان أشد امتيازًا منها» .

102- الإشارة إلى سفر أيوب «أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبر إن كان عندك فهم ! من وضع قياسها ، لأنك تعلم . أو من مد عليها مطمارًا؟» *(38/ 4-5)* .

110- «سرعة تكاد تكون روحية» - انظر البيت *37* من الكتاب نفسه ، فالواقع أن نسبة «الروحية» إلى السرعة تعتمد على العقيدة القديمة التي شاعت في العصور الوسطى ومفادها أن الأفلاك تتحرك بفعل أرواح أو قوى ذهنية مجردة . ويحيلنا أحد النقاد إلى تعليق «فيكينو» على ما قاله أفلوطين في «إنياداته» *(2/ 1-3)* من تشبيه حركة السماوات بحركة الروح أثناء التفكير .

114-118 يقول فاولر : «يفاجئنا روفائيل بتغيير الوجهة التي كان يسير فيها فيتنصل من النظرة البطلمية . والتناقض صارخ بين محاورات الملائكة في شعر ميلتون ومحاوراتها في شعر الآخرين ولنقل في شعر مارلو . فالشيطان في مسرحية الدكتور فاوستوس *(653-687)*

يختار بجهامة صورة العالم التقليدية. أما روفائيل هنا فهو مستقل التفكير، مثير للتأمل، سريع البديهة، يدعو القارئ إلى إعمال ذهنه فيما يقرأ» . والمقصود بالنظرة «البطلمية» صورة العالم التي وضعها الجغرافي بطليموس.

117-122 يقول النقاد: إن مراوغة روفائيل تبين الصعوبة التي لابد أن ميلتون قد واجهها في إصدار قرار حاسم باعتماد صورة محددة لعالم الأفلاك من بين الصور العديدة المطروحة في عصره . وتتجلى هذه الحيرة في الصياغة، وفي الترجمة !

128- الكواكب الستة هي : زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد، والقمر . وكان الفلكيون منذ كوبرنيق Copernicus يناقشون مسألة اعتبار الأرض أو الشمس كوكبًا سابعًا .

130- «ثلاثة أنواع مختلفة من الحركات» - المقصود بها الحركات التي نسبها كوبرنيق إلى الأرض وأولاها الدورة اليومية حول نفسها، والثانية هي الدورة السنوية حول الشمس،والثالثة هي الدورة المفترضة للمحور وكان يسميها «الحركة المايلة» قائلاً :إن معنى الأخيرة هو أن «محور الأرض يدور بما يقدر بمسطح مخروط كامل في [نحو] عام، ويتحرك هكذا في عكس اتجاه مركز الأرض» . وقد قال كوبرنيق بهذا، فيما يذكر أحد المفسرين، تبريرًا للحقيقة المؤكدة وهي أن محور الأرض دائمًا ما يواجه البقعة ذاتها في السماء، على الرغم من الدورة السنوية للأرض . ولكن فلكيًا آخر يُدعى «تاكوبراهي» استطاع أن يثبت فيما بعد أنه لا لزوم لافتراض هذه «الحركة المائلة» ، ثالث أنواع الحركات التي قال بها كوبرنيق .

131-132 المعنى المنثور هو «إذا لم تنسب الحركة إلى الأرض، فعليك إن شئت تفسير الظواهر أن تفترض أن عدة كواكب تسير في مدارات أو

أفلاك متقاطعة متعارضة يدخل بعضها في بعض» . والترجمة تلتزم بالأصل على عُسر صياغته .

134-هذا السطر يقدم الترجمة الحرفية على غموضها للنص الإنجليزي. والشراح يسهبون في إيضاح المقصود «بالانحراف» ، فالكلمة الإنجليزية وهي rhomb مشتقة من اليونانية póuBos (رومبوس) التي تعني «العجلة السحرية» والتي تشير إلى ما كان القدماء يتصورونه من محرك أول (primum mobile) أو فلك عاشر يدور دورة يومية (وفقًا للصورة القروسطية للنظام الكوكبي أو مجموعة الكواكب) ، حول الأرض بسرعة لا تكاد تصدق ، حاملاً معه الأفلاك الداخلية التي تدور فيها النجوم والكواكب . ولكن كلمة «رومبوس» تعني أيضًا أي شكل مستطيل محدب الأطراف كالبيضة الطويلة ، ووفقًا للنظام الجغرافي الذي وضعه بطليموس كان ضوء الشمس على نصف الأرض يصوّر في صورة مثلث وكذلك منطقة الظل على الجانب الآخر المظلم من الأرض ، وكان تعاقب النور والظل مع انحراف المحور يجعل الشكل بيضيًا يدور كالعجلة السريعة ، كأنما يدور حول نفسه بسرعة فائقة ودائمة ليلاً ونهارًا ، وهكذا فإن معنى «سرعة الدوران بانحراف» تعني تعاقب الضوء والظلام في شكل مائل بيضيّ ، ومن ثم تبارى النقاد في الدفاع عن دقة تعبير ميلتون ، وإن كنت ، كما قلت، أراه غامضًا .

140–145 يورد فاولر رأيا أعرب عنه بيرتون في كتابه «تشريح الحزن» (جـ2/ فـ2 / ص3) يقول فيه: «إذا كانت الأرض تتحرك فهي كوكب ، وهي ترسل ضوءها إليهم في القمر ، وإلى غيرهم من سكان الكواكب، مثلما يرسل القمر ضوءه إلينا على الأرض ، والأرض تسطع بالتأكيد، على نحو ما أثبته جاليليو وكبلر وغيرهما ، وإذن يتبع ذلك حتمًا (per consequens) أن باقي الكواكب آهلة بالسكان وكذلك

القمر». ويعلق فاولر على ذلك قائلاً: «إن هذه المقولة الغريبة التي يحذو فيها بيرتون حذو كبلر، بقدر ما من الدقة، تستند إلى الافتراض الذي يجعل الإنسان مركز الكون والذي يقول إنه لا معنى لوجود كواكب أو توابع تسطع إلا إذا كانت تسطع من أجل الإنسان أو من أجل كائنات شبيهة بالإنسان. وكبلر يشاركه في هذا الرأي آدم وحواء (انظر الأبيات *24* وما بعده، والكتاب الرابع السطر *568*) بل وروفائيل نفسه (الأبيات *153-158*)».

144-145 انظر البيت *290* وما بعده من الكتاب الأول، حيث يذكر ميلتون أن جاليليو استطاع أن يرى أراضي جديدة أو أنهارًا جديدة أو جبالاً جديدة على سطح القمر المرقش.

145-146 كان الناس ينسبون ما يلاحظه الفلكيون من تغيرات في البقع على وجه القمر إلى تغييرات في جو القمر، وإن كانت هذه التغيرات وهمية، وقد تكون نتيجة فساد آلات الرصد.

148- ترجع إلى نيقولا قوصا الفكرة القائلة بأن النجوم الثابتة شموس لها كواكبها التابعة لها. وقد رفضها البعض (مثل كبلر) وقبلها البعض (مثل برونو) وكانت مثار خلاف كبير آنذاك.

150- يقول بلينوس في كتابه «التاريخ الطبيعي»: إن الشمس «نجم ذكر، يشتعل لهيبًا ويستوعب كل شيء» وإن القمر «كوكب أنثى رقيق» وهو التمييز الجنسي القائم على الأساطير القديمة. ولكن روفائيل يحاول إثبات أن ضوء الشموس «خاص بها» وأن نور الأقمار أو الكواكب منعكس في معظم الأحوال. (انظر السطر *368* من الكتاب السابع). وهكذا فإن هذه الفقرة، وفقًا لما يقوله فاولر، لها دلالتها فيما يتعلق بتعاليم روفائيل عن العلاقة

بين الجنسين في الأبيات 561 وما بعدها من هذا الكتاب ، ولكن فاولر يستطرد قائلاً : «ربما كان ميلتون يقصد إحالــة غـير مباشـرة إلى الاستقطاب الغنوصـي الذي يكــون «الضوء الذكر» فيه ضوءًا ذهنيًا و «الضوء الأنثى» فيه ضوءًا جسديًا» .

167- يقول بيردنْ: إن نطاق محاولة روفائيل مع آدم تبيّن أن الفاكهة المحرمة ليست المعرفة العلمية في ذاتها ، بل إن المعرفة العلمية - شأنها في ذلك شأن أي معرفة - قد تقع في نطاق الفئة المحرمة .

168- الإشارة إلى سفر الجامعة (12/ 13) : «فلنسمع ختام الأمر كله . اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله» .

176- كان التفكير في صورة الكائنات المفترض وجودها في الكواكب الأخرى شائعًا في تلك الفترة ، وكان كبلر يناقش درجة عقلانية تلك الكائنات ، وإن كانت لهم نفوس تحتاج إلى الخلاص وما إلى ذلك .

218- الإشارة إلى المزامير (45/ 2) «انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الأبد» .

221- برزت فكرة خلق ظاهر الإنسان في صورة الله أول مرة في أول وصف لآدم وحواء في الكتاب الرابــع في السطور 289-295 ، ولكــن ميلتون يوضح في كتابه عن العقيدة المسيحية (ف 1 / س 7) أن «خلق آدم في صورة إلهية كان يتعلق أساسًا بالروح التي نفخها فيه الله» (طبعة كولومبيا - ص 25) .

225- الإشارة إلى رؤيا يوحنا اللاهوتي (22/ 8-9) «وأنا يوحنا الذي كان ينظر ويسمع هذا ، وحين «سرحت ونظرت خررت لأسجد أمام رِجلَيْ
الملاك الذي كان يريني هذا ، فقال لي انظر لا تفعل . لأني عبدٌ
معك ومع إخوتك الأنبياء ... اسجد لله» .

229- هذا هو اليوم السادس من أيام الخلق ، واليوم التاسع عشر من أحداث القصيدة .

242-244 يحاكي ميلتون هنا ما جاء في إنيادة فيرجيل (6/ 557-9) وما جاء في ملحمة أريوستو بعنوان: غضبة أورلاندو (34/ 4) فالصورة واحدة .

246- «مساء اليوم السابع» هو المساء الذي يبدأ يوم العطلة. فمساء اليوم يبدأ قبل صباحه ، وما زلنا نقول ليلة الجمعة لنقصد «بعد غروب شمس الخميس» أي أن اليوم يبدأ بغروب الشمس .

256- «الأبخرة المتصاعدة» تشير إلى الأبخرة المتصاعدة من الأرض كلها .

265-266 يناقش كريستوفر ريكس في كتابه الأسلوب الرفيع عند ميلتون (Milton`s Grand style) مسألة «سيولة البناء والتركيب» (fluid syntax) ويدلّل على ذلك بهذا البيت وهو في الأصل :

all things smiled,
With fragrance and with joy my heart o`erflowed.

وإن شئنا محاكاته بالعربية لتعذر ذلك ، ولكن لنحاول :

جميع الأشياء تبسمت
بالأريج وبالفرح فاض قلبي

ومصدر «السيولة» هو وجود فعلين يتنازعان أشباه الجمل ، ولذلك يحاول ريكس أن يعدل من وضع الفاصلة لإخراج معانٍ متعددة . أي إنك يمكن أن تقول إن تبسم الأشياء كان بسبب الأريج ، وإن قلبي فاض بالفرح (إذا وضعت الفاصلة بعد الأريج) أو إن الأشياء تبسمت بالأريج والفرح ففاض قلبي [سرورًا] (إذا وضعت الفاصلة بعد الفرح) أو إن الأشياء

تبسمت وحسب ، وإن قلبي فاض بالأريج والفرح (إذا أبقيت الفاصلة مكانها) وهو ما يذهب إليه فاولر ، وما ذهبنا إليه في الترجمة (دون نقل الفاصلة من موضعها) .

292- يقول النقاد: إن «رؤية حلم واقفًا» ليست مجازًا مرسلاً بمعنى أنه رأى شخصًا في حلمه واقفًا ، ولكن ميلتون يحاكي عبارة وردت في إلياذة هوميروس يعامل الحلم فيها معاملة الإنسان بتشخيصه (2/ 1658 وغيرها) وتعبير «واقفًا .. رأسي» تكرار أو إحالة إلى الحلم الزائف الذي أرسله زيوس إلى أجاممنون فوقف عند رأسه (المرجع نفسه 2/ 20) .

296- يقول سفر التكوين (2/ 8 و 2/ 15):إن آدم خلق خارج الفردوس ثم وضع فيها بعد ذلك . وقد ترجمتُ كلمة mansion بالبيت في 296، والخلاف حول تحديد الفوارق بين البيت والمنزل محتدم في ترجمة الكتاب المقدس ، وميلتون أحيانًا يستخدم تعبير dwelling place وهو تعبير محايد، ولكنه هنا يستخدم لفظة mansion مما يذكر القارئ بالترجمة المعتمدة لإنجيل يوحنا (14/ 2) «في بيت أبي منازل كثيرة ... أنا أمضي لأعد لكم مكانًا» - وهي بالإنجليزية :

«In my fathers house are many mansions ... I go to prepare a place for you»

فهل كان الأفضل أن تكون بالعربية : في منزل أبي بيوت كثيرة ؟ أما كلمة seat في السطر 299 فلا خلاف على ترجمتها بالمقر ، وأحيانًا ما تعني العرش .

308- كلمة إغراء هنا ذات معنى حسن ، وعلى أي حال فإن الله قد جعل جميع ثمار الجنة مغرية حتى لا تنفرد شجرة المعرفة بإغراء خاص .

316- وضع عبارة «إني أنا» في آخر السطر للتأكيد ، يشير من طرف خفي إلى المقابل في سفر الخروج (3/ 14) عندما أجاب الله موسى عن سؤاله عن اسمه قائلاً :

«I AM THAT I AM ... thus shalt thou say unto the children of Israel I AM has sent me unto you».

وترجمتها «أَهْيَهِ الذي أَهْيَهْ . وقال هكذا تقول لبني إسرائيل: أَهْيَهُ أرسلني إليكم» .

و «أَهْيَهُ» صورة من يَهْوَهُ ، والمتفق عليه أن معناها بالعبرية أصلاً هو «أنا موجود» ، أو باختصار «إني أنا» ، وليس هذا مجال تفصيل القول في تحريم نطق اسم الله عند قوم موسى ، والاستعاضة عنه بحروف العلة (التي جمعتها لفظة «أدوناي» فيما بعد) ولكن المهم هنا هو أن ميلتون يستند إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس في الإيحاء بأن «إني أنا» تعني «الموجود» أو الله . و «الموجود» بعد من الأسماء الحسنى ، والقرآن يكرر «إني أنا» لتأكيد معنى الوجود (كما في سورة طه مثلاً) ولهذا اخترت هذه العبارة في ترجمة I AM .

320-322 الإشارة إلى سفر التكوين «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها ، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنّة تأكل أكلاً» (2/ 15-16) وكلمة «تفلحها» (till) لا توجد في الكتاب المقدس بل يستخدم النص الإنجليزي كلمة (dress) أي تشذّبها وترعاها ، ولا يستعمل الكتاب المقدس كلمة «الفلاحة» إلا بعد سقوط آدم وحواء (عقابًا لهما) فوجود الكلمة (work the land) أي يزرع الأرض ويفلحها ، وهو ما نراه في الترجمة العربية المعتمدة .

323-333 الإشارة إلى سفر التكوين (2/ 17) «وأما شجرة معرفة الخير

والشر فلا تأكلْ منها لأنك يومَ تأكلُ منها موتًا تموت» . وأما البيت «يُكتب عليك الفناء من ذلك اليوم» (331) فيتميز بدقة بالغة في الصياغة ، إذ شغل الأقلمون بمسألة موت آدم أي كيف لم يمت هو وحواء بعد أن عصيا أمر الله ، وانبرى المفسرون فوضعوا ثلاث درجات للموت ، أولها هو الموت الروحي بمعنى الإحساس بالذنب ، وثانيها هو الموت الجسدي أي انفصال الروح عن الجسد ، وثالثها هو الموت الأبدي . وقد رصدها جميعًا ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية . فأما الدرجتان الأوليان فعرفهما آدم بعد أن اقترف العصيان مباشرة ، وهذا هو ما يصوره الكتاب التاسع، في البيت 1010 وما بعده ، ويقبل ميلتون تفسير القديس جيروم الذي يقول :«إن آدم بدأ يموت في اليوم نفسه ، ليس موتًا فعليًا ، بل لأنه أصبح محكومًا عليه بالفناء أي بالموت» . وكان المفسرون يقولون إنه لولا خطيئة آدم لكتب له الخلود . ويؤكد ميلتون في الكتاب المذكور أن الله وضع حدودًا لحياة الإنسان بعد ارتكاب الخطيئة .

343–356 انظر الإشارات الأخرى إلى تسمية الحيوانات في 1/ 276، 6/ 73–76 ، و 7/ 493 ، وهذه الفقرة وتتضمن الأسباب الخمسة التي ذكرها ويليت (ص 36) وموجزها: 1 -أن يرى الإنسان مدى تفوقه البالغ عليها فيحمد الله على نعمائه ، 2 -أن يكون اختبارًا لذكاء آدم ، فلقد علمه الأسماء كلها وهو يريد أن يعرف إن كان يذكرها ، 3 - أن تنشأ اللغة البشرية التي نطقت بها هذه الأسماء ، 4- أن يسيطر الإنسان على الحيوانات كلها، 5- أن يدرك أنه لن يجد من بينها رفيقًا له - أي زوجًا مناسبًا . ولكن هذا الاهتمام بالأسماء كان له مبرر في عصر ميلتون ، عصر العلم الطبيعي ، إذ شغل العلماء بتقسيم المملكة الحيوانية والمملكة النباتية . وبحلول عام 1682 استطاع عالم يدعى جون راي أن يضع قائمة تتضمن 18000 نوعٍ

من النباتات . وهكذا فإن أسماء الحيوان وغيره كانت لها أهمية معاصرة ، إذ كانت الطاقة على التسمية تعني سعة المعرفة، وهو المذهب الذي يبدو أنه يدين بالكثير إلى أفلاطون (محاورات كراتيلوس) مثلما يدين لسفر التكوين ، كما كان للأسماء سحرها الخاص، فكان «فرانسيس بيكون» يقول: إن الإنسان سوف يستطيع استعادة السيطرة على المخلوقات حين يستعيد القدرة على مناداتها بأسمائها الحقيقية . (عن تفسير الطبيعة) .

350- «من كل زوجين اثنين» تذكّر القارئ بسفينة نوح (تكوين *7/ 9*).

373- كان المعتقد أن آدم كان يستطيع قبل السقوط أن يفهم لغة الحيوان، وكان المفترض أن هذه كانت اللغة العبرية ، ولكن كان يشار إليها أحيانًا على أنها السريانية ، أو اليونانية أو الآرامية .

389-384 الاستعارة الموسيقية تقوم على ضرورة التناغم الصادر عن الأوتار المضبوطة، وآدم يقول: إن الإنسان منضبط والحيوان غير منضبط وهو ما يعنيه التناقض بين المشدود والمرتخي ، ويعلن أحد النقاد قائلا: إن في ذلك مفارقة ، فالإنسان هو الذي يثبت عدم انضباطه وتراخيه في الواجب والطاعة لله آخر الأمر (لا الحيوان !) .

398- يشير أحد النقاد إلى أن الله سبحانه وتعالى يتظاهر بأنه لم يقرر خلق حواء حتى لا يبدو خلقها محتومًا ، فلقد سبق له أن قضى بخلقها (أو اعتزم ذلك) وإن كان آدم لا يعرف .

420- يقول كيلي Kelley (في صفحة *121*): إن هذا السطر يدل على تأثر ميلتون بمذهب أريوس (Arius) (Apios أو Apieos باليونانية) وهو كاهن مشيخي (presbyter) عاش في الإسكندرية في القرن الرابع للميلاد، وكان ينكر بنوة المسيح المادية لله (جل وعلا) وقد أصبح

إنكار الصلة المادية (consubstantial) رمزًا لمذهبه ، وإن كان العامة يتصورون أن المذهب الذي أصبح يسمى «الأريوسية» (Arianism) يعني إنكار أي علاقة بينهما، مما أثار رجال الكنيسة عليه ، ويذهب فيريتي أيضًا إلى اتهام ميلتون «بالأريوسيّة» استنادًا إلى السطور *405-407* (أعلاه) ويقول فاولر: إن مذهب التوحيد وما يتصل به من مبادئ لاهوتية لا يتناقض مع القول بالتثليث ، وقد عارضه البعض استنادًا إلى طبيعة الشعر التي تملي على الشاعر اتخاذ عدة مواقف ، منها ما قد يبدو متعارضًا مع غيره حتى داخل القصيدة نفسها .

421- يميل «محررو» وناشرو نصوص ميلتون إلى رصد التلاعب اللفظي بكلمة «عدد» أو «رقم» في هذا السطر ، فكلمة numbers تعني الأعداد أو الأرقام، ولكنها تحمل ظلاً من المعنى اللاتيني القديم وهو الأجزاء، وهكذا يكون المطلق دائمًا واحدًا مهما تعددت أجزاءه ، ويقول فاولر: «ولكن المعنى الأولي هنا هو أن الإله الواحد يتضمن جميع الأعداد الأخرى،وهو من ثم كامل ويتمتع بالكمال (وهو أحد معاني كلمة المطلق) باحتوائه عليها جميعًا» . ويشرح بونجو (صفحة *13* وما بعدها) المقصود بهذا قائلاً: «إن الوحدة الواحدة تشبه الله لأنها أصل جميع الأرقام والله هو أصل الوجود الذي خَلَقَهُ جَلّ وعَلا» . وهو يتوسع في بَيان هذا التماثل بين الرقم واحد والله قائلاً: إن الإله واحد لأنه يجمع كل شيء ولا حاجة له بأي شيء ، وهو يضم العالم والكون لأنه صاحبه ، ويورد العبارة التي تقول: إننا حين نقول الواحد فإننا نعني الشامل الكامل ولا نعني الرقم أو الأرقام.

Unus si dicatur non numeri sed universitatis est nomen .

وقد استمر الجدل حول معنى «الواحد» المقصود ، على وضوحه ، حتى التسعينيات من القرن العشرين ، والغريب أن

الكثيرين ينسون أو يتناسون أن هذه قصيدة، وأن الشاعر يكتب شعرًا.

431- المقصود «بالتوحّد» وهو من مصطلحات اللاهوت (ثم التصوف)، أن الله يستطيع رفع المخلوق أو «رفع نفس الإنسان إلى حالة تتجاوز طبيعتها البشرية» عن طريق الغفران والرحمة، وهو ما يتمتع به القديسون الأبرار، أي أولياء الله الصالحون (كوركوران - ص 103).

445- الإشارة إلى الكتاب المقدس: «وقال الربُّ الإله ليس جيدًا أن يكون آدم وحده» (تكوين 2/ 18).

448- الإشـــارة إلى الكتاب المقدس «ممتحن القلوب الرب» (أمثال 17/ 3) و «وإنما قال هذا ليمتحنه» (إنجيل يوحنا 6/ 6).

450- «فأصنع له معينًا نظيره» (تكوين 2/ 18) والذات الأخرى هي alter ego، وهو تعبير يطلق على أقرب الأصدقاء.

452-486 الإشارة إلى سفر التكوين «فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم» (2/ 21-22).

495-499 الإشارة إلى سفر التكوين (2/ 23-24) «فقال آدم هـــذه الآن عظـــم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرءٍ أخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدًا واحدًا».

508- الإشارة إلى العبرانيين (13/ 4) «ليكن الزواج مكرّمًا والمضجع غير نجس، وأما العاهرون والزناة فسيدينهم الله».

511- وقف الشراح طويلاً عند تعبير «حمرة الخجل» ظانّين أن فيه تناقضًا مع إصرار ميلتون على تكريم الزواج وتشريفه، ويبرر ذلك فاولر قائلا:

«لابد أن ندخل في اعتبارنا هنا ما يبدو أنه كان تغيرًا عامًا في الحساسية منذ القرن السابع عشر ، فكان الرجال في إنجلترا يميلون ميلاً شديدًا إلى أن تُظهر المرأةُ الصُّدودَ أو التَّمنُّع ، وهكذا فمهما يكن من مؤازرة ميلتون للتكاثر ، كان من المحتوم أن يشارك أهل عصره بعض ما كانوا يحسونه من أن «قبلات الرضا لا تأتي بفرحة» (كما جاء في إحدى مقطوعات المجموعة الشعرية التي أصدرها ستانلي آنذاك بعنوان: قصائد وترجمات وحررها ونشرها كرمب عام 1962) .

Stanley| Poems and Translations| ed. G.M. Crump Oxford *1462*|*55*).

574- الإشارة إلى كورنوس الأولى (*11/ 3*) «إن رأس كل رجل هو المسيح . وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله» .

635-634 انظر رسالة يوحنا الرسول الأولى (*5/ 3*) «فإن هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه» .

حواشي الكتاب التاسع

1-47 هذه هي رابع مناجاة لربة الشعر في القصيدة ، وآخر مناجاة فيها ، فالأولى كانت في الكتاب الأول (*1-49*) والثانية في الكتاب الثالث (*1-55*) والثالثة في الكتاب السابع (*1-50*) ، ولكن هذه المناجاة الأخيرة تختلف عن الثلاث الأولى في أنها تتجنب التخاطب المباشر مع ربة الشعر، بل تتناول موضوع «القصيدة البطولية» أي الملحمة ، وتسخر من موضوعات الأقدمين إعلاءً لشأن الملحمة الحالية .

6 - مناقشة معنى «المأساة» بمفهوم التراجيديا الكلاسيكية لابد أن تؤدي إلى تبرير اختيار آدم بطلاً مأسويًا ، استنادًا إلى المفهوم القروسطي الذي يعتبرها تصويرًا لسقوط العظماء من الرجال (de casibus virorum illustrium) وسقوط آدم يحتل المرتبة الثانية في قصة الراهب (التي كتبها تشوسر في مجموعة قصص كانتربري - التي ترجمها إلى العربية د. مجدي وهبة) وليكن ذلك ، مثلاً ، بعد سقوط إبليس (أو «لوسيفر» - انظر الحاشية على السطر *132* من الكتاب السابع). وقال أحد النقاد: إن ميلتون يحاول التنبيه إلى أنه سوف يعدل عن الأسلوب الرفيع للملاحم إلى أسلوب المأساة الأقل سُموًا ، ولكن جميع النقاد ينكرون ذلك ويؤكدون أن الفردوس المفقود كلها ملحمة ومكتوبة بأسلوب ملحمي ، ولم يخفض ميلتون من مستوى اللغة ولا الألفاظ في الجزء الباقي منها .

12-13 اعترض أحد النقاد على تعبير «الشقاء المنذر بقدوم الموت» قائلاً : إن الشقاء (أو الشقي) كثيرًا ما يطلب الموت عبثًا . ولكن ناقدًا آخر رد عليه قائلاً: إن الصورة تنبع بصورة طبيعية من فكرة المراحل المختلفة للموت ، وهي الفكرة التي وضعت تبريرًا لعدم موت حواء وآدم بعد أكل

الثمرة المحرمة ، وفقًا لما جاء في سفر التكوين (2/ 17) انظر الحاشية على الأبيات 323-333 من الكتاب الثامن عاليه.

16- ليس اختيار «أخيلاس» ومطاردته عدوه نموذجًا للإلياذة بالمصادفة التي اقتضاها الموقف الشعري، فلقد دأب النقاد على السخرية منها باعتبارها موضوعًا غير ذي جلال، وقال أرسطو - دفاعًا عنها - : إن الملحمة قد تتضمن أحداثًا سخيفة لا يقبلها غيرها من الأنواع الأدبية ، وأما ما يريد ميلتون أن يوحي به هنا فهو أن ملحمته الدينية لن تحتاج إلى مثل هذه «المادة» غير المقطوع بسموها .

17-18 كان تورنوس Turnus البطل الإيطالي ابنًا في (ملحمة الإنيادة التي كتبها ڤيرجيل) لأبٍ يدعي داونوس Daunus وأمٌ هي الحورية ڤينليا Venilia، وأخًا لحورية تدعي يوتورنا Juturna ، وكان يعتبر منافسًا لإينياس Aeneas في إيطاليا قبل عهد ڤيرجيل بزمن طويل ، وأما في ملحمة الإنيادة فهو ملك أرديا Ardea ، وهو يتقدم لخطبة لاڤينيا مع آخرين، ويظل في مقدمة الراغبين في خطبتها، أما لاڤينيا هذه Lavinia فهي ابنة لاتينوس Latinus ، وينافسه في خطبتها إينياس ويظفر بقلب الفتاة، فيصاب تورنوس بغضب جنوني خصوصًا بعد تدخل الإلهة جونو Juno ، فيجمع جيوش اللاتينيين ويسيّرهم للحرب التي شنها على الطرواديين (في الكتاب السابع من الإنيادة) وهو يحارب بشجاعة قائدًا لجيوشه ويحظى بتعاطف القارئ على الرغم من تهوره أحيانًا ، ولكن اينياس يقتله في آخر الملحمة. وميلتون يقول: «إنه حُرِم من لاڤينيا» كأنما كانت زوجته (disespoused) وذلك حتى يظهر إينياس بطل الملحمة في صورة غير مشرفة أو أقل شرفًا مما يصورها ڤيرجيل . وأما نبتون (Neptune) فكان إله البحر أو المياه بصفة عامة،

وأما جونو Juno فكانت من الربّات التي نُسبت إليها أساطير كثيرة، وقيل إنها ربة الشباب وربة الحمل والولادة ، وارتبط اسمها بعدة بطلات ، وهي تظهر في الصور المرسومة على شكل المقاتلة أو المحاربة ، وتُنسب لها قوة التأثير في شجاعة المحاربين، والخصوبة الفردية والتنظيم العسكري وكانت «غضبة رجلٍ واحد» عادة هي الموضوع الرئيسي للملحمة القديمة ، وميلتون يشير أولاً إلى أخيلاس بطل الإلياذة ثم إلى إينياس بطل الإنيادة في مواقف لا تشرف مؤلفيها وهما هوميروس وفيرجيل حتى يدلّل على أن موضوع القصيد البطولي القديم الذي كان يستأثر وحده بالشرف في عصره لم يعد يصلح في عصر التوحيد والتنوير .

21- «من ترعاني في السماء» أي «يورانيا» ، انظر الحاشية على السطور من *1*-*7* في الكتاب السابع . وقد أشار أحد النقاد إلى اعتقاد ميلتون بأنه كان يتلقى الشعر فعلاً من مصدر دفين أو علوي ، وفقًا لنظرية الوحي الشعري التقليدية .

27-*41* يسخر ميلتون من موضوعِ الملحمة الحديثة أو الرومانسية كما يتجلى في شعر الشاعر أريوستو ، قائلاً إنه الحرب ولا يتجاوزها إلى سواها، فالشاعر يقوم «بتشريح» جراحات الأبطال ووصف المعارك ثم لا يخرج من ذلك بفكر سامٍ ، أما ميلتون فهو يتجاوز الحرب والقتال (في النصف الأول من الملحمةً) إلى ما سما فتجاوزها في النصف الثاني . والواقع أن زعم الأصالة يعبر عنه ميلتون تعبيرًا غير مألوف في شعر الملاحم ، وإن كان سبنسر قد سبقه في ملكة الجان . وهكذا قال الدكتور صمويل جونسون: إن هذه «فقرات خارجية» لأنها تخرج عن صلب الموضوع وتناقش عمل الشاعر ، وهو في رأيه «غير صواب» وإن كان يمكن تبريره بسبب حب

الناس له قائلاً: «ما دامت غاية الشعر هي الإمتاع، فلا يمكن أن نَعُدَّ ما أمتع الجميع إلا من الشعر» . (سِيَرُ الشعراء) .

31-30 كثيرًا ما يصر ميلتون على أصالة مادته الشعرية وصدقها ، موحيًا بأنها تفوق في قيمتها المادة الخيالية أو الأسطورية ، فلقد سبق له أن أشار إلى ذلك في الكتاب الأول (البيت *746* وما بعده) وفي الكتاب الرابع (*706*) ولكنه كان في وقت من الأوقات يفكر في كتابة ملحمة عن أسطورة الملك آرثر ، وقد استمر اهتمامه بالتاريخ البريطاني ، على ما يزخر به من أساطير، ومن ثم فمن المحال القول بأنه كان يحتقر المادة الخيالية في الشعر .

32-31 يوحي ذلك بوضوح وجلاء بمراتب تصاعدية للقيم البطولية ، يعتبر أن الصبر يشغل فيها مرتبة أعلى من الجلد ، وقد أشار أحد النقاد إلى حديثه عن بعض هذه القيم في الكتاب *3/ 267* ، و *4/ 820-823* و *7/ 604-607* ، ورد عليه ناقد آخر قائلا: إن هذه قيم مأسوية لا بطولية.

33- «وصف .. المباريات» لم تكن الملاحم الكلاسيكية تخلو من وصف الألعاب والمباريات، وقد علق على ذلك الدكتور جونسون (في المرجع نفسه) وإن كان قد أشار إشارات مقتضبة إلى الألعاب والمباريات في *2/ 528* وما بعده وفي *4/ 551* وما بعده ، والمقارنة تثبت اختلافه عمن سبقوه .

37-34 يورد الشراح نماذج كثيرة من الملاحم السابقة على انشغال الشعراء بهذه الأمور .

42- «وقد بقي لي» تعبير يحاكي التعبير اللاتيني الشائع me manet .

43- المقصود بذلك الاسم اسم «الملحمة»، ومعنى السطر أن الموضوع الذي اختاره ميلتون ليس فحسب ساميًا بل هو قادر على السمو بالملحمة كنوع أدبي . والملاحظ أن الشاعر هنا يشير إلى ثلاثة

مثالب «طبيعية» قد تعيق نجاحه ، أولها هو تدهور ثقافة العصر ، وكان عصره يغص بنظريات تتنبأ بنهاية التاريخ وتنسب التشاؤم السائد إلى المكتشفات الفلكية الجديدة ، وثانيها هو برودة الجو ، وكان بيرتون يقول :إن شدة البرد مرذولة مثل شدة الحر ، وهي تلفع على الكسل وتجلب الكآبة والحزن (في كتابه تشريح الحزن جـ*1*/ فـ*2*/ *2*/ *5*) وثالثها هو تقدم ميلتون في العمر ، إذ كان في الثامنة والخمسين حين نشرت الطبعة الأولى من الفردوس المفقود . ويدافع فاولر عن هذا الاستطراد «الذاتي» قائلاً إنه يصب أيضًا في موضوع سقوط الإنسان ، فالسقوط هو الذي تنسب إليه كل هذه المثالب .

49-48 ميلتون يشير إلى كوكب الزُّهَرَة بتعبير (Star / Of Hesperus) انظر *4*/ *605* .

51-50 يقول أحد النقاد: إن الإشارة إلى الشفق باعتباره فاصلاً قصيرًا بين الليل والنهار له دلالته من حيث الإيحاء بقصر المدة التي سبقت العصيان ، وبموضوع الموازنة والاتزان ، وهو الموضوع الذي يتردد صداه في الملحمة كلها *4*/ *254-355* ، و *4*/ *998-1015* .

53- «منذ فترة» أي منذ أسبوع في زمن الملحمة ، أي في آخر الكتاب الرابع.

58- «منتصف الليل» أي منتصف الليلة الثامنة (السطر *67*) بعد رحلته (*66-63*) .

59- انظر الكتاب الثالث *440-441* وسفر أيوب (*1*/ *7*) «فقال الرَّبُّ للشيطان: من أين جئت؟ . فأجاب الشيطانُ الرَّبَّ وقال: من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها» .

60- انظر الكتاب الثالث ، السطر *648* أعلاه فيما يتعلق بوصاية أوريل

على الشمس ، والكتاب الرابع ، السطور 564-575 فيما يتعلق بحديثه عن مشاهدته دخول إبليس .

62- سبقت رواية الطّرد في نهاية الكتاب الرابع .

63- «سبع ليالٍ متصلة» أي منذ ليلة محاولة الإغواء الأولى (الكتاب الرابع - السطر 800 وما بعده) وهي الليلة السابقة لليوم 24 ، إلى الليلة السابقة لليوم 31 ، وهكذا فإن الشيطان ينتهي من تجهيزاته لمحاولة الإغواء الثانية في أسبوع ، وهي تجهيزات الشر التي تقابل خلق العالم في المدة نفسها ! أما كلمة «متصلة» فمعناها أن إبليس كان يدور مع الأرض مختبئًا في ظلّها، والليلة الأولى تحسب من منتصف الليلة 24 حتى منتصف الليلة التالية (25) حتى يصل في السابعة أو من منتصف الليلة 30 إلى منتصف الليلة 31 .

64-66 دوران إبليس حول الأرض لا سند له من الآية المقتطفة من سفر أيوب (الحاشية 59) ولكن السند هو التصاوير الدينية التي يحوّلها ميلتون إلى تصاوير فلكية ، وأهم ما في هذه التصاوير التفاف الثعبان الجهنمي حول الأرض ومريم البتول ترمقه بنظرات ازدراء . وأما القول بأن الشيطان استطاع أن يفعل ذلك ملتزمًا بظل الأرض (أي الليل) دائمًا فقد يصدق على الليالي الثلاث الأولى التي أمضاها في الدوران حول خط الاستواء، ولكنه يتعذر في الليالي الأربع التي قضاها في الدوران طوليًا من القطب إلى القطب، لأن محور الأرض - وفقًا لما يرويه ميلتون - لم يكن قد انحرف بعد ، ولم ينحرف إلا بعد السقوط (الكتاب العاشر 669) مما يعني أن إبليس كان لابد أن يمر بمنطقة ضوء ! ويستبعد فاولر أن يكون ذلك من باب السهو، نظرًا للدقة المتناهية التي يلتزم بها ميلتون ، وهو يرجح أنه استعارة درامية للمستقبل (prolepsis) ومفارقة متعمدة تنذر بميل محور الأرض بعد السقوط ، قائلاً : «إن إبليس يرسم عالمًا بعد سقوطه ، وهو

يتناقض مع رسم الله للكون أثناء الخلق في الكتاب السابع 229-232» . أما «أقطار الأرض الأربعة» فالمقصود بها تقسيم الأرض طوليًا إلى أربعة أرباع متساوية من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي ، مثل تقسيم البطيخة المكورة إلى أربعة أرباع متساوية من أعلى إلى أسفل ، وذلك بافتراض وجود دائرتين تتقاطعان بزوايا مستقيمة عند القطب أي (colures) وكانت كل دائرةتمر بنقاط التعامد الشمسي في الصيف والشتاء ، أي بمدار السرطان ومدار الجدي ونقاط تعامدها في الاعتدالين الربيعي والخريفي أي بخط الاستواء، ولما كانت هذه النقاط لم توجد بعد ، وفقًا لتصور ميلتون ، قبل السقوط ، فهي تنتمي أيضًا إلى الاستعارة المستقبلية السابق ذكرها (prolopsis) . وأما «ركب الليل» فهو في الأصل «مركبة الليل» أي (Car of night) ولا يعني ذلك أكثر من الجانب المظلم من الأرض أو ظل الأرض .

67-68 في الليلة الثامنة (قبل اليوم 32) دخل إبليس جسم الثعبان ، وفي اليوم الثامن من أسبوع الأشواق ارتفع المسيح إلى السماء ، وقد شاع الارتباط بين رقم 8 والبعث والتعميد أيضًا .

69- «المكان» يقع شرقيّ الفردوس (4/ 542) والنهر يدخل من الشمال (4/ 223) وانظر البيت 689 وما بعده من الكتاب (والحاشية عليه) حيث يُذكر الشَّمالُ باعتباره الجهة التي يرد الشر منها .

71-75 يتضمن الكتاب الرابع وصفًا أشمل لهذا المكان (223-232) .

75- «الرّذاذ والضباب المتصاعد» : يرجح فاولر أن يكون ذلك بفعل الخاصيّة الشعرية ، أي ألا يكون هناك ضباب بالمعنى المفهوم بل رذاذ ماء ينبجس عينًا دفّاقة . وميلتون يتبع سفر التكوين في نسبة العين إلى نهر

من أنهار الفردوس ، ولكنه يسميه نهر دجلة («واسم النهر الثالث حِدّاقِل (دجلة) Hiddekel » (تكوين 2/ 14) وهو أحد أربعة أنهر توزع المياه من المنبع الأول ، وقد كثر نقاش المفسرين والشراح حول هذه المسألة ، ولكن المهم هو دلالتها الرمزية وهي أن الشر يدخل إلى عالمنا حتى من المنبع ، ورغم التعميد ، وهي الدلالة التي تتأكد في الكتاب العاشر (20) عندما لا يجدي حذر الملائكة في منع الغواية والشر ، فالملائكة يوصفون بأنهم يندهشون ويعجبون لدخول إبليس .

82-86 التفاصيل الجغرافية لرحلة إبليس : البحر الأسود كان يسمى بحر بنطش في الخرائط القديمة (Pontus Euxinus) وبحر آزوف كان يسمى بالوس ماوتيس (Palus Maotis) ونهر «أوب» في سيبيريا (والترجمة تضيف سيبيريا ابتغاء الإيضاح) يتجه شمالاً حتى خليج «أوب» ومنه يصب في المحيط القطبي الشمالي ، والمحيط ذو القضبان هو المحيط الهادئ أو محيط السلام الذي تحده قضبان برزخ بَنَمَا التي كانت تسمى «داريان» (Darien) ويلاحظ النقاد أن كل المعالم الجغرافية معالم مائية (نهر أو بحر أو محيط). ويعلق الشراح على ذلك قائلين : ربما يكون الهدف هو الإيحاء بدخول إبليس خلسة إلى ماء الحياة . وفي هذا الصدد نجد القديسين يقولون: إن نهر الجانجا (Ganges) المذكور هنا هو نهر فيشون (Pison) أحد أنهار الجنة الأربعة الوارد ذكرها في الكتاب المقدس (تكوين 2/ 10-11) «وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة . ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس . اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب» .

86- لاحظ النقاد الربط السياقي في الكتاب المقدس بين الثعبان والغواية : «وكانت الحية أَحْيَلَ جميع حيوانات البرية التي حملها الرب الإله فقالت للمرأة :أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة

؟» (تكوين 3/ 1) .

99- انظر قول روفائيل: إن الأرض تشبه السماء في 329 من الكتاب الثامن .

101–102 من أخطاء التفكير عند إبليس فالله العليم بكل شيء والقادر على كل شيء لا يرتكب أخطاء ثم يصلحها .

103–113 طرح روفائيل مسألة كون الأرض مركزًا للكون من باب إثارة القضية ومناقشتها في الكتاب الثامن 86–114 ، وكان يتخذ موقف ما يسمى بمحامي الشيطان (diaboli advocatus) أي أن يعرض الحجة الخاطئة للوصول إلى الحقيقة ، وها هو الشيطان نفسه يقدم لنا الحجة الخاطئة ! فطابع الإنسان الذي يفصح عن عظمة الخالق لا يصبح لديه إلا مصدر فخر وكبرياء !

108–178 خلط في تفكير إبليس . والشراح يفنّدون حُجَجَهُ حجّة حجّة.

186- «الكــلأ المعشــب» محاكاة لعبارة ڤيرجيل (الرعائيات 5/ 26) graminis ... herbam .

187- «من فمه» لأن الاعتقاد السائد كان يقول بأن الروح تدخل وتخرج من الجسم من تلك الفتحة .

192- صباح اليوم 32 .

195- «معبد الأرض» - في الأصل «مذبح» الأرض ، وهو مجاز مرسل، أي تعبير بالبعض عن الكل، ومع ذلك فقد ألمح بعض النقاد إلى أن التعبير يتضمن تورية درامية ساخرة لأن المذبح لا يستخدم إلا في تقديم القرابين والأضحيات ، ويرد فاولر على ذلك التلميح قائلاً: إن «مزمور التوبة» يتضمن العبارات التالية «ذبائح الله هي روح منكسرة . القلب

المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره» (مزامير 17/51) . ويؤكد فاولر المجاز المرسل، وهو ما أخذنا به في الترجمة .

204- لاحظ أن حواء تتكلم أولاً ، وهو ما لم تفعله من قبل ، والفكرة تؤكدها عبارة «أفكاري الأولى» (السطر 213) مما يتناقض مع ما جاء في الكتاب الخامس ، السطر 17 وما بعده ، وخصوصًا ما جاء في الكتاب الرابع 408–410 ،حيث الإصرار على حق آدم في المبادرة بالحديث .

205–384 يوضح بيردن (في الصفحة 86 وما بعدها) أن مسارات الحوار هنا تحددها المتطلبات المنطقية للمادة التي يعالجها ميلتون . فلابد أن تكون حواء وحدها عمدًا ، ولابد أن يوافق آدم على انفرادها، حتى يصبح الاثنان مسؤولين مسؤولية كاملة عن السقوط ، أي أنه لابد من عدم ترك شيء للمصادفة أو وقوع أي حدث عارض ، إذ يجب في كل مرحلة أن تكون أفعال الإنسان هي «السبب» في النتيجة .

249- انظر الحكمة القديمة المنسوبة إلى شيشرون :

numquam minus solus quam cum solus.

وقد ذكر الشاعر إبراهام كاولي أن تلك الحكمة غدت «تعبيرًا بالغ السوقية».

265- «الجانب المخلص» - سبق وصف خلق حواء في الكتاب الثامن في السطر 465 وما بعده ، إذ أخذت من الجانب القريب من قلبه أي من جانبه «المخلص» .

270- «جلال الطهر والنقاء» - الأصل يقول (Virgin majesty) والشراح جميعًا على أن البكارة المقصودة هي الطهر والبراءة ، استنادًا إلى ما يقوله ميلتون نفسه ، ويقول فاولر: إن هذه لا تعدو كونها «صيغة جامدة» تعني العظمة التي تصدر عن الطهر والنقاء ،

ولكن نقادًا آخرين يشيرون إلى ما في العبارة من ظلال معانٍ جنسية ، ويقولون: إن الغواية تكتسي بعض هذه المعاني هنا وهناك .

335- «الإخلاص والحب والفضيلة» هي ثلاثية القيم العليا للأفلاطونية الجديدة ، وكانت الثلاثية تُصور وقد تشابكت أيديها ، ولكنها كانت تتكون من :(1) الإخلاص ، و (2) الحقيقة والفضيلة ، ويوحّد بينها ثالث هو (3) الحب .

(Fidius, Veritas and Virtus, united by a third Amor)

ويقول فاولر: إن الإجابة عن سؤال حواء هي : «إنها رمز الاستقامة والإخلاص طالما استمرت متشابكة الأيدي» . وقد بينت باحثة هي الأستاذة وليامز أن ثلاثية الإخلاص ترجع إلى (أو تتصل بصورة ما) بثلاثية الطبيعة البشرية التي وضعها بيكو Pico ألا وهي الذهن والوجدان والإرادة أو الجانب الانفعالي. ويقول أحد النقاد :إن هذه الخصال ليست مطلقة فالوجدان عقلاني وهو يضم عناصر المنطق والحس معًا ، أي يتميز عن الذهن بارتباطه بالحواس ، في حين أن الذهن قد يستخدم المنطق الخالص أي المجرد من معطيات الحواس، ويدلل على ذلك بالكلمات اللاتينية التي كانت تستخدم في الـــدلالة عليـــها intellectus,ratio and voluntas ويقـــول: إن هناك فقـــرات كثيرة في الفردوس المفقود يبرز فيها آدم رمزًا للذهن intellectus أو mens (ذهن/ نفس) وحواء رمزًا للوجدان ratio أو anima (عقل / حس). والواضح أن التفرقة بالغة الصعوبة إن لم تكن محالة ، على نحو ما يرى القارئ لقصيدة ميلتون ، فالشاعر لا يميز هذا التمييز الدقيق بين آدم وحواء على المستوى الرمزي .

361-360 يورد أحد النقاد تدليلاً على أن حواء تمثل العقل (reason) مما يقوله آدم في هذين البيتين قائلاً: إن العقل هو الاختيار - على أي حال - أي إنه هو الذي يفصل ويقرر استنادًا إلى معطيات الحواس - أي ما يسمعه ويراه وما يدركه بحواسه الأخرى ، ويورد تأكيدًا لــذلك قــول القديس أوغسطينوس إن حواءنا العزيزة التي خدعت الرجل كانت تعتمد على العقل، مستخدمًا اللفظة اللاتــينية نفســها أي ratio .

Caro nostra Eva est, quae seducit virum, id est rationem

ويقول فاولر ردًا على ذلك: إن ڤاليريانو يقدم صورة أخرى للعلاقة الرمزية تمثل فيها حواء قوة الحواس ويمثل فيها آدم قوة الذهن ، ويقول إنها تقع في منطقة وسطى بين الصورة الرمزية التي يقدمها القديس أوغسطينوس والصورة التي يقدمها ميلتون ، ولقد حاولت جاهدًا أن أضع حدودًا لهذه الصور الثلاث استنادًا إلى ما يقول الشاعر نفسه فلم أوفق ، إذ يحاول كل ناقد فرض نظرية ما على الشعر ، فيما يسميه الإنجليز «اللعبة الأكاديمية» (academic game) فيناقضه ناقد آخر ، فينبري لهما ثالث ، وهلم جرا ، وكان ذلك من أسباب جمع حواشي النص في ذيل الكتاب حتى لا تعترض قراءة القصيدة .

375-370 يجمع النقاد على أن هذه فقرة حاسمة من فقرات القصيدة ، إذ عليها يعتمد مسار الأحداث التالية .

385- «أخرجت يدها من يد آدم» تعبير واضح عن الانفصال ، والنقاد يفيضون في الحديث عن دلالته، وخصوصًا بالاشارة إلى تشابك أيدي قيم الأفلاطونية الجديدة (انظر الحاشية على السطر *335*) .

387- «ديانا» ربة من ربات الأدب اليوناني القديم ، واسمها

مشتق من مقطع «ديو» (-dyw) أي ضوء، ومن ثم فهي المنيرة ، وربة القمر ، أصلاً ، ثم أصبحت إلهة للبرّية وارتبطت بالصيد ، ويقال إنها كانت ربة المرأة ، على نحو ما يبدو من ركب الوصيفات اللاتي يحملن المشاعل الوضاءة ويسرن خلفها. وميلتون يعتمد على خصب هذا التراث المرتبط باسم ديانا ، في الإيحاء بجو الجنة الذي تغمره الأضواء .

388- «باليس» كانت ربة المراعي عند الرومان ، و «بومونا» Pomona حورية أو ربة لأشجار الفاكهة عندهم ، وكثيرًا ما كانت تصور جالسة على سلة الأزهار والفواكه وممسكة في يدها بالتفاح . وكان ڤيرتومنوس ، وهو أحد الأرباب ، يحبها ويحاول كسب ودها عبثًا حتى استطاع التخفي والتنكر في صورة كائن آخر ففاز بقلبها ، والواضح أن ذلك له دلالته الرمزية، كما سنوضح ، وكانت كيريس Ceres ربة القمح والزراعة . ويقول بعض النقاد: إن «بومونا» تعتبر نظيرًا مواتيًا من الناحية المعنوية والأخلاقية ، إذ يقول أوڤيد في كتابه مسخ الكائنات إنها تحبس نفسها في بستانها حتى لا يلتفت الذكور إليها فتنجو من ملاحقتهم ، وإنها لم تكن تحمل رمحًا بل أداة التشذيب المقوسة التي كانت تستخدمها في تهذيب ما طال من النّبات فأمعن في الطول،(*636-628/14*)، ولكن ميلتون يشير إلى غوايتها ووقوعها ضحية المخاتل ڤيرتومنوس ، ولم يشر أي ناقد إلى أن هذه تورية مستقبلية prolepsis على وضوحها ، إذ لن ينجح إبليس في غواية حواء إلا بالتخفي والتنكر في هيئة الثعبان ، وقول ميلتون إنها «فرّت» لا يعني أنها نجت ، وكنت أتمنّى أن أترجم العبارة وفقًا للأسطورة ولكن النقاد توقفوا عند الكلمة فآثرت الإبقاء عليها . وأما «كيريس» فأحيانًا ما كانت تصور إلى جانب المحرات ، وإن كان المعتاد أن تصور حاملة شعلة موقدة – وهي النار

التي ينص ميلتون صراحة على أنها لم تكن قد وجدت بعد في السطر 392 عاليه . وكانت الشعلة هي وسيلتها في البحث عن ابنتها «بروسربينا» بعد أن اختطفها «بلوتو»، وقيل إن ذلك من النظائر الأسطورية لسقوط الإنسان . والإشارة إلى الرب «جوف» لا يقصد بها العودة في الزمن فحسب إلى ما قبل السقوط من عذرية كيريس وفقدانها ، بل أيضًا للإشارة إلى غوايته (بعد أن اتخذ شكل الثعبان) وإيقاعه العذراء «بروسربينا» وارتكاب زنا المحارم. وقد ورد في الكتاب الرابع (*268–272*) ما يمكن اعتباره صورة مقلوبة لهذه الأساطير نفسها ، حيث توحي «بروسربينا» بأنها حواء قبل السقوط ، و«كيريس» بحواء بعد السقوط ، ويقول النقاد: إن قلب الأسطورة ينفي أي تحديد زمني لها ، أي إنه يصعد بها إلى مستوى «لا زمني» .

411- «البراءة والإخلاص والنعيم» ثلاث من الصفات التي قد تكون مقابلة للثلاثية التي تتسم بطابع أنطولوغي في السطر *335* ألا وهي «الإخلاص والحب والفضيلة» - انظر الحاشية على ذلك السطر، أعلاه .

421- في صورة العالم التي يرسمها إبليس ، عادة ما تقع الأحداث إما حتمًا (by necessity) وإما مصادفة (hap = by chance) .

439–443 يقول ريتشاردسون (صفحة *416*) : «لما كان مكتوبًا على حدائق أدونيس ألا تعيش إلا فترة بالغة القصر ، ومع ذلك فقد غدت مضرب الأمثال في العالم القديم ، فإن التشبيه بها يضفي على المثال هنا لمسة مؤثرة ، أضف إلى ذلك أن الحديث لا يدور الآن عن جنة عدن كلها بل عن بقعة شهّية واحدة تقف فيها حواء ، تلك البقعة الزهراء التي صنعتها يد حواء نفسها ، مثلما كانت حدائق أدونيس دائمًا من صنع أيادي العذارى الحسان ، وإن كنّ أقل حسنًا من حواء» . ويقول كريستوفر ريكس (*133–135*):

إن العلاقة الوثيقة بين حديقة سليمان والفردوس تعتمد أيضًا

على التشابه بين الملك الحكيم وآدم، فكل منهما حكيم ، وكل يحب زوجته ، وكل يتعرض لخداع «جميلة مارقة» (الكتاب الأول *444-446*) . ولكن التشبيه قديم، ويرجع إلى القديس أوغسطينوس . وتوصف حدائق أدونيس وحدائق ألكينوس بأنها «خيالية» لأنها أسطورية ووثنية . وأما تعبير «يبعث كل عام» فمعناه أن أدونيس ، بعد أن قتله الخنزير البري في الأسطورة كان يبعث في موسم الثمار كل عام ، وتسيل دماؤه في الأسطورة لتلوّن ماء النهر. أما «ابن لايرتيس» فهو «أوليس» أو «أوديسيوس» الذي جاب الآفاق ورأى عجائب الدنيا ،ومع ذلك فلم يملك إلا أن يعلن دهشته من روعة تلك الحدائق عندما وقعت عينه عليها أول مرة. (انظر ملحمة الأوديسا من تأليف هوميروس (*7/ 112-125*) ويقول أحد النقاد: إن ميلتون فضّل الإشارة إلى أوديسيوس بكنيته حتى يذكر أباه لايرتيس الذي ضحى بعرش ملكه حتى يعمل برعاية الحدائق ، وإظهار التناقض بينه وبين إبليس الذي يحتفظ بتاجه ويدمر الحديقة ! ويضيف الناقد نفسه إن هذا التشبيه المبسوط (extended simile) مثل العديد من التشبيهات الأخرى في الكتاب التاسع ، يتكون من ثلاثة أقسام مرتبة بنظام محكم هو أ أ ب اثنان وثنيان منهما والثالث مقدس) مثل *393-396* أعلاه ، ويقول ناقد آخر: إن هذه التشبيهات تتسم بالخط الصاعد إلى ذروة ، ويقول آخر: إن الاثنين والواحد يرمزان إلى عقيدة التثنية والوحدانية التي جاءت بها الأديان السماوية، ويقول ثالث إنها ترمز إلى علاقة العقل بالحواس !

505-510 يقول بعض النقاد: إن ميلتون كان على وعي بالتراث الأدبي الذي يصور افتتان حواء بجمال الثعبان ، وهو ما ورد في كتاب بعنوان: دراسة للفردوس بقلم جون سولكيلد وصدرت عام *1617* (مشار إليها في

كتاب هيوز- انظر المراجع). وقد يكون ويليام امبسون على حق في تفسير الصورة الكلاسيكية classical allusion بأنها توحي بأن «حواء تحولت - بمعنى من المعاني - إلى أفعى وغدت صاحبة «الإبليس»، وتعبير «بمعنى من المعاني» مهم، فالصورة «توحي» - كما يقول - بالتحوّل أو حتى بما يقترب من المسخ، فهي على الأقل واجهت إغراء الهبوط إلى درك الحيوانية. ولكن فاولر يقدم تفسيرًا آخر للصورة، فإن «كادموس» تحوّل أولاً إلى ثعبان، ولم تتحول زوجته «هيرميوني» إلى حية إلا بعد أن عانقها في صورته الجديدة، وهو ما أفزع كثيرًا جميع الذين شهدوا المنظر (أوفيد، مسخ الكائنات، *4/ 572-603*) وهكذا فإن حواء هي التي تسببت في التحوّل الذي أصاب زوجها آدم. أما رب الشفاء في «إبيداوروس» فاسمه «أيسكولابيوس» Aesculapius الذي تمكن من إعادة الحياة إلى الكثيرين فأثار حنق «بلوتو» Pluto ملك الجحيم. وهكذا فعندما زاره وفد من روما يطلب منه زيارتها لشفاء بعض المرضى، اضطر إلى التنكر في صورة ثعبان مرتفع القامة إلى مستوى صدر البشر، ومضى مع الوفد وهو في هذه الصورة (أوفيد، المرجع نفسه، *15/ 626-744*).

508- جوبيتر آمون هو جوبيتر الليبي الذي سبقت الإشارة إليه في *4/ 277*، ويقول بلوتارخوس في حديث عن أنساب الإسكندر الأكبر: إن والده في الظاهر أي فيليب المقدوني تراجع عن حبه لزوجته «أوليمبياس» بسبب عادتها في مضاجعة أحد الثعابين، ثم أخبرته نبوءة دلفي (Delphic oracle) أن الثعبان كان صورة من صور جوبيتر آمون. أما «جوبيتر الكابيتوليني» فقد أطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى معبده المقام في روما وهو الكابيتول.

510- «سكيبيو» المقصود هو سكيبيو الإفريقي (Scipio Africanus) وهو يوصف بعظيم الرومان بمعنى أنه كان

رومانيًا عظيمًا ، واسمه الكامل مبدوء باسم كورنيليوس Cornelius، وقد ذاع اسم ابنه وكثير من أفراد أسرته. وقد وردت قصة مضاجعة أمه لثعبان في كتاب صدر عام 1608 بعنوان: تاريخ الثعابين .

581-583 تشبيه مبسوط ينتمي إلى الشكل الثلاثي أ أ ب (انظر الحاشية على 439-443) فالتشبيه بنبات وبأثداء نوعين من الحيوان . وكان الشائع أن لبن الثدي ونبات الشَّمَار (أو الشَمر) من الأطعمة المفضلة لدى الثعابين.

585- تحديد نوع الفاكهة المحرمة بأنها تفاح قد يكون مصدره كتاب الاستجواب الكنسي الأورسيني Ursinian Catechism في هايدلبرج، على نحو ما ذهب إليه فلتشر ، ولكن الواضح أن تلك الفكرة كانت بمثابة اعتقاد شائع أو شعبي .

609- «لا يوجد جمال كفؤًا لك أو قريبًا من منزلتك» تعبير يحاكي عبارة وردت في أناشيد هوراس (1/ 12/ 18) وهو :

nec viget quicquam simile aut secundum

والتعبير يذكر بما جاء في الكتاب الثامن ، وهو القول المنسوب إلى الله تعالى :

إذ لا أعرف أحدًا

يليني في المنزلة أو يشبهني ، وما أبعد أن يكون لي كفوًا أحد (406-407)

615- معنى كلام حواء هو : إن إسرافك في المديح ، وبهذا القدر من البلاهة، يدعوني للشك فيما أَضْفَتْه تلك الفاكهة من العقل عليك !

654- الإشارة إلى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (2/ 14) «لأنه الأمم

الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم» .

685- الإشارة إلى سفر التكوين (3/ 4-5) «فقالت الحية للمرأة لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» .

735-743 الإشارة إلى سفر التكوين (3/ 6) «فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت» .

النص الإنجليزي لهذه الآية يزيد بعد كلمة «للنظر» ما يلي :

and a tree to be desired to make one wise.

473-744 لا مهرب من التوقف هنا والتمهل حتى تكون حواء مدركة كل الإدراك لما تقدم عليه .

766-767 هنا مفارقة بالغة القوة فنحن نعرف من الحديث الإلهي في الكتاب الثالث أن الموت قد «اخترع» من أجل الإنسان فعلاً .

793- من السطور ذوات التركيب «السائل» (fluid syntax) وهو :

And knew not eating death.

والمعنى الظاهر الذي أخذنا به في الترجمة هو : «وهي لا تدري أنه طعام الموت» ، ولكن الشراح يأتون بقراءات مختلفة منها :

She was unaware while she ate death.

أي «أنها لم تكن تدري ، وهي تأكل الموت» أو «لم تكن واعية / في وعيها ...» ومنها :

She knew not eating (immediate) death

أي إنها كانت تعرف (في وعيها) إذ لم تكن تأكل طعام

الموت (الآني) .

وقد سبق الحديث عن خصائص هذا التركيب السائل ، وصعوبته في الترجمة .

800- تقول حواء إنها سوف تنشد للشجرة ابتهالات الصباح التي كانت تنشدها لله فقط حتى تلك اللحظة.

804-807 تردد حواء الحجج التي أتى بها إبليس في السطور *722-725* عاليه، ولكنها تسيء تكرارها وفهمها . وعندما تشير إلى الأرباب فهي تحاكي إبليس ، وإن كانت تقصد الله الواحد ، انظر البيت *718* عاليه .

805- المقصود «بالآخرين» هو الله سبحانه وتعالى ، إذ تعلمت حواء من إبليس استخدام الصورة الوثنية الغامضة .

821-830 تتردد حواء الآن في اتخاذ قرارات تحقق كلها أغراضًا ذاتية وأنانية.

821-822 هذه أول إشارة إلى أن حواء تشعر بأي درجة من درجات النقصان.

824- «وذلك شيء غير مكروه» يقول النقاد: إن هذه الجملة الاعتراضية يمكن أن تفسر على أنها من قبيل «خداع النفس المعلن» ، فحواء - حسبما يقول فاولر - ترى أنه من المستحب والمستحسن جدًا أن تكون متفوقة على آدم في جميع الأحوال تقريبًا . قارن ذلك بأول وصف يرد لآدم وحواء في الكتاب الرابع السطر *296* .

832-833 يقول فاولر: إن هذا هو أول تعبير صريح عن الحب من حواء - وأول تعبير زائف . فإنها في الواقع تعتزم قتل آدم حتى تستريح نفسيًا . ويلفت فاولر النظر إلى الخلط في تفكيرها ، فالواقع أن مسألة الحياة دون آدم مستبعدة أصلاً ، فإذا كانت سوف تفقده، فذلك لأنها ستكون قد ماتت.

ويقول: إن الأبيات ربما ترجع صدى هوراس في الأناشيد (3/ 9/ 24)

tecum vivere amem|tecum obeam libens.

وإذا كان الأمر كذلك، فلن يكون التشابه مقصورًا على أن قصيدة هوراس حوارية وحواء تحاور نفسها، بل يتعدى ذلك إلى التضاد بين استعداد «ليديا» للموت من أجل «كاليس» لو قدر له أن يعيش بعدها (السطور 15 وما بعده) واستعدادها الأقل نبلاً للموت مع حبيبها القديم. وموقف حواء يتفق مع الطرف الأخير في هذا التضاد، وأما الطرف الأول (الاحتمال الأول) فلم يخطر لها ببال أصلاً. ويضيف فاولر قائلاً :إن الإشارة إلى هوراس لم تكن لتغيب عن نظر معاصريه إذ كانت الأناشيد قد ترجمت إلى الإنجليزية وشاعت في القرن السابع عشر.

842- يرجع بنا هذا التشبيه إلى المقارنات الأولى بين حواء وربات الزراعة: «باليس»، و «بومونا»، و «كيريس» (انظر الأبيات 393-396).

881- «الأقدار» من الكلمات التي تسربت إلى حديث حواء من إبليس.

893- أول مثال على ذبول الأزهار في الجنة.

901- «شاه الوجه» ترجمة لكلمة defaced يستند إلى التعريف الوارد في كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية (1/ 12) ويقول فيه عن الخطيئة إنها تورث «نقصًا في جلال وجه الإنسان والوعي بانحطاط العقل».

a diminution of the majesty of the human countenance, and a conscious degradation of mind

906-907 يقول فاولر: إن الخيوط الرئيسية للمعنى هي: «عزمي الراسخ هو أن أموت معك»، و«بالتأكيد أعتزم الموت معك»، و (إذا بقيتُ) معك فإن عزمي [بالمعنى اللاهوتي] هو يقينًا أن أموت»، ويضيف فاولر قائلاً :إن قوة الحب عند آدم زادت كثيرًا عن الحد، ولكن

ميلتون يقصد أن يجعلها مؤثرة أيضًا .

921- استجابة آدم لتصوير ما فعلته حواء استجابة ملحمية، ولذلك - كما يقول بيردِنْ - فهي جديرة بالإعجاب .

924- وصف الفاكهة يدل على أنها فقدت سحرها .

928- يشارك آدم زوجته (بقوله: «ربما») في المراوغة للإفلات من شرائط الأمر الذي أصدره الخالق جل وعلا .

930- لا يحاول آدم النظر في احتمال قيام العدو بحيلة أو خدعة ، وهو ما كنا نتوقعه أو نأمل فيه طبقًا لما سبق في السطور 904 وما بعده ، ولكنه يقبل دون مناقشة رواية حواء لقصة الأفعى .

936- لا يكتفي آدم بالانصياع لإرادة حواء، بل يبدي طموحًا خاصًا من جانبه.

941-942 منطق آدم يتحطم ! إنه بدأ ينسب الظلم إلى الله !

996- استعادت الفاكهة جاذبيتها لآدم بسبب الفساد الذي أصاب قلبه ومن ثم شهيته .

1002- أول عاصفة رعدية في الفردوس ، فلم تكن شهدت حتى الآن إلا النسائم العليلة .

1003-1004 لا يذكر ميلتون في الفردوس المفقود تعبير «الخطيئة الأولى» إلا هنا .

1010- وهم الربوبية ينشئ الأجنحة المناسبة للملائكة .

1013- بداية رواية «السبب الصوري» للسقوط أي السبب الذي جعل السقوط يتخذ هذه «الصورة» . فإن «صورة» عصيان الإنسان لله هي التغيّر في طبيعته ، وهو الذي يصاحب الخطيئة ، ولا يمكن التمثيل لها إلا بما

تؤدي إليه من آثار .

1027- الإشارة إلى الخروج (*32/ 6*) : «وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للّعب [وتتكرر الآية في كورنثوس الأولى (*10/ 7*) وتعني «الجماع»] فقال الرب لموسى: اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر» (خروج *32/ 7*) .

1052–1059 الإشارة إلى سفر التكوين (*3/ 7*) «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان» .

1058- «يستر» ... «ولكن رداءه ...» ربما كان وجود الخجل هنا يتضمن إشارة مستترة إلى المزامير - انظر «ليلبس خصمائي خجلاً وليتعطّفوا بخزيهم كالرداء» . (المزمور *109/ 29*) وفيما يلي النص الإنجليزي :

Let mine adversaries be clothed with shame, and Let them cover themselves with their own confusion, as with a mantle.

ونظرًا لأن الترجمة العربية المعتمدة قديمة فسوف أورد ترجمة أخرى حديثة .

«فليكتس خصمائي بالخجل ، وليستتروا بخزيهم كأنه وشاحٍ» .

ويناقش النقاد فكرة الخجل الكلاسيكية ، عند هوراس مثلاً ، التي كانت تقترب من الحياء ، وهو مفهوم حميد ، وصفة حسنة ، أما في ميلتون فهو يقترب من الخزي أو العار . والواضح أن للخجل درجاته ، ولدينا في العامية تعبيرات تدل على بعض هذه الدرجات «اللي اختشوا ماتوا» و «مش مكسوف من نفسك !» - مثلاً - ومن ثم فإن الحالة التي كان عليها آدم وحواء، حالة إدراك العُرْي (السطر *1057*) جعلتهما يشعران بالخجل من ضعفهما الذي أدى إلى ارتكاب العصيان ، ومن ثم حاول آدم

أن يستر نفسه ، وإزاء ذلك تبدو المفارقة في الآية المقتطفة من المزمور *109* حيث يتضمن الدعاء طلب الاكتساء بالخجل ، بمعنى العار والاتشاح (أو الاستتار) بالخزي ! ولم يشر النقاد إلى هذه المفارقة في الإحالة إلى الكتاب المقدس (Biblical allusion) وإن كانت الصورة تتضمن استعارة «غارقة» أي دفينة (Submerged metaphor) وهي الاستعارة التي لا تخرج إلى «السطح» إلا بالعودة إلى الآية المشار إليها .

1063-1059 قصة خيانة دليلة لشمشون الجبار يرويها سفر القضاه في الإصحاح *16* ، وأما سليل «دان» فمعناها أنه ابن «منوح» Manoah «من عشيرة الدانيين» ، (قضاة *13/ 2*). والمعروف أن دان من الأسباط أي أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام وكانت المقارنة شائعة في التراث الأدبي الديني بين آدم وشمشون .

1067- يقول كريستوفر ريكس (صفحة *103*): إن آدم قد أعلن أن كلمة الشر مشتقة من اسم حواء ، وأن الشر مستقى منها ، وهذا خلط واضح، فكلمة evil الإنجليزية مشتقة من الإنجليزية القديمة yfel (التي ترجع إلى جذور أقدم في اللهجات الشمالية) والتي جاء منها كلمة uvel في الإنجليزية الوسطى، ولا علاقة لها بالكلمة الإنجليزية لحواء (Eva, Eve المحرّفة من اللغة السامية الأم protosemitic (وهي لغة يفترض أنها أصل العربية والعبرية والسريانية والآرامية والجعزية) وهي كلمة Hava المحرفة عن Hawa أي «حواء» وهي صيغة سامية معروفة معناها العام هو واهبة الحياة (أصلها حَيَّآء - صيغة تكثير أي (فعّال) من حَيّا أي أَحْيَا) وإذن فإن افتراض هذا الاشتقاق باطل وينتمي إلى ما يسمى باشتقاق العوام folk etymology، أي الاشتقاق دون سند تاريخي والاعتماد على

أصوات الألفاظ الظاهرة. وقد نشأ خلاف كبير حول عدم تسمية الكتاب المقدس حواء باسمها إلا بعد السقوط، وكانت الإشارة إليها قبل ذلك بلفظ «المرأة»، وقال بعض الباحثين: إن السقوط كان معناه أن تحمل وتلد فتأتي بالأحياء ورد عليهم آخرون قائلين :إن ذلك يفترض أن خلودها في الجنة أولاً (قبل السقوط) لم يكن يعني عدم الحمل والإنجاب، وميلتون - كما هو واضح - من الفريق الأخير.

1074–1076 النقاد مغرمون بالتقسيم والتعديد، فبعد أن كان القدماء يؤمنون بثلاثية القيم في الأفلاطونية الجديدة (انظر الحاشية على السطر *335* من الكتاب التاسع) أصبح المحدثون يتحدثون عن رباعية للمثل العليا أو القيم العليا وهي - على نحو ما وردت في الأبيات *1054–1057* أعلاه : البراءة، والثقة، والصلاح، والشرف، وهم يربطون بين هذه الرباعية الجديدة وبين ما تضمنته هذه الأبيات من قيم مجردة هي : الشرف، والبراءة، والإخلاص (الثقة)، والنقاء (الصلاح)، ويرجع العيب في منهج التقسيم والتحديد المذكور إلى أنه لا يأخذ في اعتباره اختلاف المعاني من سياق إلى سياق، واختلاف معاني الكلمات من عصر إلى عصر، فكلمة «الشرف» في ميلتون قد تعني التكريم في سياق معين، على نحو ما ترجمت به في سياق يماثل الآية القرآنية : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ في هذه القصيدة، وقد تعني «نبل المقصد» كما ترجمت به في سياق آخر، والشرف بعد مفهوم له أصل حسي وهو الارتفاع (شرف يشرُف - ومنه جاءت الشُّرفة) ولكن «الحفاظ على العهد» من المعاني الواردة فيه أيضًا، وكذلك نرى جميع تلك المفهومات الكُلّية hypernyms التي تتضمن من العناصر الدلالية ما يجعل افتراض وحدة معناها مستحيلاً، وانظر إلى ما يقوله فاولر من معادلة الإخلاص بالثقة (ص *918*) أو معادلة النقاء

أو الطهر بالاستقامة أو الصلاح ، فالواضح أن ميلتون الشاعر ليس الباحث الذي ينبري لوضع الفروق الدقيقة بين الألفاظ بالصورة التي تسمح بجمعها في ثلاثيات ورباعيات ، شأن ما كان القدماء يفعلونه ، وأظن ظنًا أن الولع بالعدد نفسه ، ثلاثًا كان أم أربعًا ، من وراء هذا التعديد .

1079- يقول أحد الشراح (شوكروس) :إن «آخر» (last) في هذا البيت معناها «أقل» أو أدنى (Least)، على نحو ما ترد أحيانًا في نص ميلتون ، ولكنني لم آخذ برأيه ، فقول آدم :إن «الخجل» هو آخر شر يعني أنه أقرب شر عرفه زمنيًا ، أي أنه قد عرفه لتوه أو منذ عهد قريب ، ولا أعتقد أن آدم يذهب مذهب فاولر أو شوكروس في تفصيل درجات الشر ، خصوصًا لو فهمنا «العار» من الكلمة (Shame) .

1085–1090 تحمل هذه الأبيات خصائص ما يسمى بقصيدة العزلة poem of retirement أي الانسحاب من حياة المجتمع والعيش في وحدة بعيدًا عن شرور الناس ، وذلك يعني أن ميلتون كان يسير في درب التقاليد الأدبية الشائعة ، وهي حافلة ، ولكنه يتوسل بها تعبيرًا عن خجل آدم (وعاره).

1091–1098 الإشارة إلى الكتاب المقدس «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر» (تكوين *3/ 7*) ويوجد هامش على الآية في النص الإنجليزي يقول: «أشياء يحيطان بهما وسطهما».

1100–1110 أفاض الشراح في الحديث عن شجرة التين الشهيرة ، وحسبنا ما جاء في نص ميلتون نفسه .

1122- لاحظ رمزية الفرد ، الكائن الأصغر (microcosm) للكون

الأكبر (macrocosm) وما يحمل ذلك من دلالات للمجتمع والدولة

1127–1131 الدلالات هنا واضحة بالنسبة للعالم الكبير، وخصوصًا للدولة.

1144– محاكاة لما قاله أوديسيوس (أوليس) للاعتراض على خطاب ألقاه أجاممنون في الإلياذة (هوميروس) (*14/ 83*).

1146–1150 يشير بيردِنْ إلى استعمال حواء لتعبير «يتصادف فيقع» وهو صدى لكلمات إبليس الذي يؤمن بالمصادفة.

1155– الإشارة إلى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (*11/ 3*) «إن رأس كل رجل هو المسيح، وأما رأس المرأة فهو الرجل، ورأس المسيح هو الله». والملاحظ أن حواء بعد أن أوحت من حديثها في السطور *1146–1150* أن آدم لا يزيد عنها حكمة تعود هنا لتلومه على تركه إياها وعدم إرشادها إلى الخدعة. وهي من ثم تفرغ القيادة من معناها الصحيح - كما يقول فاولر - وتجعلها لا تزيد عن درجات سلطة وأوامر بعضها فوق بعض، وقارن ما تقوله هنا في السطر *442* وما بعده من الكتاب الرابع.

1178–1186 هذا هو «الإعجاب» الذي أقرّ آدم به لروفائيل في *8/ 510–559*. وتتضمن هذه الأبيات تفسيرًا نفسيًا للسقوط، ومارجوري نيكولسون تقارن بينه وبين تفسير هنري مور للسقوط على أنه صراع بين الذهن الذي يمثله آدم والإرادة التي تمثلها حواء، ولكن ذلك قد لا ينطبق تمام الانطباق على قصيدة ميلتون.

حواشي الكتاب العاشر

1 - 61 يقول فاولر: إن هذه الأبيات تمثل من زاوية البناء الملحمي ما يسمى في البلاغة الكلاسيكية بالتوطئة أو الاستهلال (principium) (أو ما يوازي في العربية «خطبة الكتاب») كما تمثل ما يوازي في الشعر القصصي عمومًا ، بل وفي الشعر المسرحي أيضًا ، ما يسمى بالمدخل (initium) وربما كان يقصد ما يوازي في فن الخطابة وفن الرسائل تعبير (exordium) ولكن بعض النقاد الكلاسيكيين يوازون بين الاستهلال الملحمي والمدخل القصصي والمسرحي ، ويفرق آخرون بينهما قائلين: إن الاستهلال يقتصر على تحديد موضوع الكتاب في الملحمة ، وإن المدخل يرسم المشهد الذي ستقع فيه الأحداث ، ولما كان ميلتون يحدد في باب «الموضوع» المكتوب نثرًا (The Argument) موضوع الكتاب، فإن هذه الأبيات تكاد تقتصر على رسم المشهد ، وإن كان ذلك في ذاته يعتبر «توطئة» للأحداث .

ويقول جوزيف أديسون تعليقا على هذا الكتاب في مجلة المُشاهد The Spectator العدد 357 (طبعة بوند ، المجلد الثالث): إن الكتاب العاشر يتميز بكثرة الشخصيات وتنوعها وزيادتها عن الشخصيات الواردة في أي كتاب آخر من كتب الملحمة ، ويضيف قائلاً (في صفحتي 329 و 330) : «إن المؤلف يعتزم اختتام الحدث Action بتقديم جميع الذين شاركوا فيه من قريب أو من بعيد ، ويعرض عرضًا جميلاً كيف أثر الحدث في كل منهم، وبذلك فإن هذا الكتاب يشبه الفصل الأخير من مسرحية محكمة الصُّنع ،حيث يقدم الكاتب المسرحي جميع أبطالها ،مهما صغرت أدوارهم ، بذريعة ما ، إلى الجمهور ، وبحيث يكون الموقف

شاملاً للملابسات التي وضع الحدث الأبطال فيها» .

ولن يفوت قارئ هذا الكتاب الطويل إدراك تنوع الشخصيات فيه ، ولكنه ليس قطعًا موازيًا للفصل الأخير من التراجيديا التي كان ميلتون يعتزم كتابتها ، بل ربما كان يعتبر الفصل قبل الأخير .

5 – تعبير «عين الله» من التعبيرات التي أثارت بعض الجدل في عصر النهضة بسبب شيوع تصوير العين رمزًا للعدالة ، واقتران ذلك الرمز بموعد قيام الساعة الذي شاعت الإشارة إليه بالتعبير الوارد في العهد الجديد (كورنثوس الأولى *15/ 52*) من أن قيام الساعة سيحدث «في طرفة عين» ، وهو ما يذهب إليه روجر وند (Wind) في كتابه الأسرار الوثنية في عصر النهضة ولكن استعمال العين استعمالاً رمزيًا أقدم بكثير من عصر النهضة ، ولنا في التراث المصري القديم أدلة تثبت عالمية الرمز وقدمه ، بل وطابعه الإنساني الشامل الذي يتجاوز تفاسير الكتاب المقدس .

16 – يؤكد النقاد على اختلافهم أهمية تعبير «تضاعفت» بمعنيتعددت وتكاثرت ، قائلين: إن التعدد والتكاثر من الصفات الأصيلة في «الإثم» ، على عكس الوحدة والتوحيد ، ويورد بعضهم آيات من المزامير (*38/ 13* ، *16/ 4*) للدلالة على ذلك ، ويقول أحدهم: إن الكلمة توحي أيضًا بالتفرق والافتراق ، مُدّللاً على ذلك بأن الخطيئة لم تقع إلا عندما افترقت حواء عن آدم ، وبأن التعدد يوحي بالشرك بالله ، وهو مذهب الوثنية المعادي للتوحيد، مستمدًا حجته من أقوال ميلتون نفسه في كتابه عن العقيدة المسيحية.

17 – «الملائكة الحارسة» angelic guards هم «الملائكة الحارسون»، (أي guardian angels) الذين ورد ذكرهم في «الموضوع» (في السطر الأول) وهم ملائكة الشاروبيم الذين ورد ذكرهم من قبل في الكتاب الرابع (السطر *550* وما بعده) وفي الكتاب التاسع (السطر *16* وما بعده) وأما التأنيث والتذكير فمسألة لغوية محضة ، فالملائكة

لا جنس لها / لهم ، والقرآن يفضل صيغة المذكر ، كما تؤنث العرب الجمع (قالت العرب / العرب تقول / تلك الرسل) .

32 – 33 صورة «السحابة الخفية» تعني في الحقيقة «السحابة التي تخفي» ومن ثم فنحن نواجه هنا الحيلة البلاغية القديمة التي تسمى transferred epithet أي نقل الصفة من اسم إلى اسم كقولك:

I read a lazy book

بمعنيإنني أقرأ كسولاً كتابًا ، لا أقرأ كتابًا كسولاً ، وكذلك فإن secret cloud هنا تعني «السحابة الساترة» أو ظلل الغمام .قال تعالى :

(البقرة:*210*) . ولكننا فضّلنا

الإبقاء على الصورة البلاغية الأصلية . وأما صورة الرعد فمصدره [illegible] *5/14*) [illegible] العرش يخرج برق ورعود وأصوات». وقد سبقت مناقشة صورة الرعد في حواشي الكتاب الثاني على السطرين *264 – 265* ، والكتاب الثالث على السطور *375 – 382*.

39 – تعبير الهوة يحيل إلى الآية الواردة في إنجيل لوقا *16/ 26* «وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا» .

43–44 سبق الحديث في حواشي الكتاب الثالث عن رفض الله جل وعلا لأي قول بالتسيير أي بفرض فعل الشر على البشر ، وهي فكرة تتكرر في ثنايا الملحمة .

46 – صورة الميزان من الصورة المتكررة والأساسية في الملحمة ، وهي – بطبيعة الحال – قديمة قدم الفكر الإنساني في مجال العقيدة (انظر

إلياد «أصول الأفكار الدينية») ولا تقتصر على المصادر الكلاسيكية من هوميروس وفيرجيل حتى عصر النهضة (سبنسر وشيكسبير) بل تسبق ذلك كله في التراث المصري القديم ، ثم في التراث الإسلامي . انظر الحاشية على السطور *997 - 1004* من الكتاب الرابع من الملحمة .

49-53 انظر الحاشية على السطور *323 - 333* من الكتاب الثامن بشأن التفسير الحرفي لكلمات سفر التكوين *(2/ 17)* «لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت» ، وأما تعبير «قبل نهاية اليوم» فقد أثار عدة مسائل تتعلق بحساب اليوم وفق التقويم العبراني (على نحو ما سبق شرحه في حواشي الكتب السابقة) أي من غروب الشمس إلى غروب الشمس التالي ، أو وفق أنواع أخرى من التقويم ، فنزول كلمة الله للحكم على آدم عند غروب الشمس يوحي باعتبار الغروب نهاية اليوم (نهاية اليوم = آخر النهار) وهو التقويم العبراني ، ولكن آدم يعود في هذا الكتاب إلى اعتبار الليل جزءًا من اليوم، وهو التقويم الحديث ، في السطر *773* ، وانظر الحاشية التي ستلحق به ، مما يسمح بتقويم يبيح اعتبار اليوم ممتدًا من منتصف الليل إلى منتصف الليل التالي ، أو من شروق الشمس إلى الشروق التالي ، والواقع أن آدم يتخبط في حساب اليوم ، وربما كان ذلك عمدًا أملاً في عدم وقوع العقوبة، حتى يدرك المعنى الحقيقي لها ، والصورة الاستعارية التي اتخذتها صياغتها .

53- «إسقاط الدَّيْن» يعني إبراء الذّمة منه ، والمثل الإنجليزي القديم يقول: إن الإهمال لا يعني الإعفاء (أي Omittance is not quittance) وهو الوارد في مسرحية شيكسبير «كما تهوى» *3/ 5/ 133* ، وهو قريب من القول المأثور: إن الله يمهل ولا يهمل .

54- «عائد العدالة» استعارة يواصل بها ميلتون الصورة «التجارية» في البيت السابق ، وهي تعني أن العدالة لا ينبغي

أن تعود عليّ بالجحود والنكران ، وإذن فإن كلمة «عائد» ترتبط «بالعودة» على صاحب الفضل ، مثلما ترتبط بما يسمى «المردود» أو «الدخل» بلغة التجار .

59- اقتران الرحمة بالعدل قديم في التفاسير اللاهوتية ، وعادة ما يشرحها الشارحون استنادًا إلى ما جاء في المزامير (*85/ 10*) «الرحمة والحق التقيا. البر والسلام تلاثما» ، ولكن أحد النقاد يقول: إن هذه أربع فضائل لا فضيلتان ، ويفضل إرجاع الاقتران إلى التراث الروماني الذي يحدد الفضائل الإمبراطورية بأنها العدل مع الرحمة (Iustitia and Clementia) .

62-60 كلمة الله التي ستصبح بشرًا هي المسيح عليه السلام،وتقول العقيدة المسيحية إن المسيح باعتباره بشرًا ،وهو كلمة من الله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران:*45*) سوف يفدي الإنسان بموته ، ويقول ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية: «إن مهمة الوساطة للمسيح هي أنه ... قام طواعية، ولا يزال يقوم ، نيابة عن الإنسان ، بأداء كل ما هو مطلوب لبلوغ رضا الله والخلاص الأبدي». آثرت استعمال لفظ «المسيح» أو «الكلمة» في الترجمة بدلاً من «الابن» خشية بلبلة القارئ غير الملم بالعقيدة المسيحية ، ونشدانًا للاتساق في النص العربي .

84-82 «الثالث» هو إبليس ، وسوف تناقش مسألة توزيع الذنب بين إبليس والثعبان في الحاشية على السطور *164 - 174* من هذا الكتاب نفسه .

101- ذكر الله صراحة (God) بدلاً من كلمته وهو المسيح مقصود ، فالحاكم هنا هو الله ، فهو تحوّل في الصياغة لا في المعنى .

102 - 108 الإحالة إلى سفر التكوين *3/ 9* «فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت» .

116 - 118 الإحالة إلى تكوين 3/ 10 «فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت».

119 - 123 انظر تكوين 3/ 11 «فقال من أعلمك أنك عريان. هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها».

143- انظر تكوين 3/ 21 «فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت».

147- «أو حتى مساوية لك» تحيل القارئ إلى حديث حواء في الكتاب التاسع (823 - 825) حيث تسأل نفسها إن كان من الأفضل ألا تدعو آدم لمشاركتها الثمرة، وأن تحتفظ بها لنفسها، فمن شأن ذلك، حسبما تقول أن «يجعلني أكثر مساواةً معه، وربما أيضًا ... أن أكون أحيانا أسمى منه».

149-150 انظر كورنثوس الأولى (11/ 8-9) «لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل، ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل».

154-155 انظر تيموثاوس الأولى (2/ 12) «ولكن لست آذن للمرأة أن تُعَلِّم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت».

164-174 قضية محاسبة الثعبان على خطيئة إبليس قضية شائكة، ويذهب دنيس بيردن في كتابه «الملحمة المنطقية» (1967) إلى أن ميلتون وجد صعوبة في تقبل حكم الله على الثعبان لأنه حيوان أعجم، الأمر الذي جعله يكتب هذه الأبيات لتبرير الحكم الذي يبدأ في السطر 175، ويرد على ذلك فاولر قائلاً: إن أحد مفسري الكتاب المقدس واسمه أندرو ويليت كان قد أصدر كتابًا في مطلع القرن السابع عشر يفسر فيه سفر التكوين، ويورد فيه رأيًا لأحد آباء الكنيسة اسمه ميرسيروس يقول فيه: «إن الله يصدر اللعنة على الثعبان لأنه كان الوسيلة والأداة التي استعملها

إبليس ، وإن عدالة الله تقضي بمعاقبة الوسيلة والفاعل معًا ...
[مستشهدًا بآية من التوراة (سفر اللاويين *15/20*) تقول: «وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها»]
.... وعلى الرغم من أن الثعبان لا عقل له فإن الله يعاقبه من أجل تعليم الإنسان ، إذ يقصد باللعنة إفهامه مدى غضبه على ما فعلاه معًا لإغوائه» .

أما طبيعة اللعنة فقد اختلفت الآراء بشأنها ، ونورد نص كلمات سفر التكوين في الحاشية التالية ، فالبعض ينسب اللعنة كلها إلى الثعبان ، وينسبهما البعض الآخر رمزيًا إلى إبليس ، وهناك فريق ثالث يفسرها تفسيرًا حرفيًا بالنسبة للثعبان وتفسيرا دينيًا بالنسبة لإبليس ، وفريق رابع (ينتمي إليه كالڤن) ينسب القسم الأول من اللعنة إلى الثعبان والقسم الثاني إلى إبليس .
ويقول فاولر: إن «سطور ميلتون تضم آراء هذه الجماعات كلها تقريبًا» .

175-181 الإحالة إلى سفر التكوين (*3/ 14-15*) «فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترابًا تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه» .

183- «حواء الثانية» إحالة إلى التعبير نفسه في الكتاب الخامس ، السطر *386*.

184- عندما عاد الحواريون من الوعظ قائلين إنهم قد أخضعوا الشياطين باسم يسوع المسيح رد عليهم قائلاً: «رأيت الشيطان ساقطًا مثل البرق من السماء» (إنجيل لوقا *10/ 18*) .

185- انظر أفسس (2/ 2) «... سلكتم ... قبلا ... حسب رئيس سلطان الهواء» .

186- انظر كولوسي(2/ 14-15) وهو الذي يذكر أن المسيح قد أعلن إزاحة الإدانة القائمة على أساس القانون «إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض ، الذي كان ضدًا لنا وقد رفعه من الوسط مسمّرًا إياه في الصليب، إذ جرد الرياسات والسلاطين ، أظهرهم جهارًا ، ظافرًا بهم فيه» .

188- انظر المزمور 86/ 18 «صعدت إلى العلاء. سبيت سبيًا» وهذه الآية نفسها تشير إلى المسيح في أفسس 4/ 8 .

190- انظر رومية (16/ 20) حيث يوجد النص الذي يقطع بصحة التفسير الديني (الروحاني) للّعنة الصادرة على الثعبان «وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم «سريعًا» وفي الهامش ، في النص الإنجليزي ، توجد كلمة «يطأ» في مقابل كلمة يسحق ، وفي طبعة أخرى تتبادل الكلمتان المواقع ، ولما كان ميلتون يعود في السطر التالي (191) إلى كلمة السحق ، فقد أبقينا عليها في السطرين ترجمة عربية للكلمتين الإنجليزيتين bruise) (tread

192- يقول فاولر: إن ترتيب اللعنات ذو أهمية بالغة . والحق أن ميلتون حريص على البدء بالأدنى والأشد قبل التقدم إلى الأعلى والأخف، خصوصًا لأن فداء الإنسان الذي تنص عليه العقيدة المسيحية ينبع من كرم الله وعطفه دون أن يكون جزاءً وفاقًا لأعماله ، ولذلك يأتي به آخر للدلالة على ذلك .

197-202 انظر سفر التكوين (3/ 17) «وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك» .

203-208 انظر سفر التكوين (3/ 18-19) «وشوكًا وحسكًا

تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود» .

210- 211 سبق إيراد شروط الحظر في الكتاب الثامن (انظر الحاشية على *323 - 333*) والله هنا يبعد خطر الموت «الآني» لأنه سبق أن أشار في السطر *202* من قبل إلى مشقة آدم «طيلة أيام حياتك كلها» .

213- انظر وصف «التغيير» الذي يصيب الهواء في السطور *692-706* من هذا الكتاب .

214- انظر فيلبي (*2/ 5-7*) «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في يسوع المسيح أيضًا . الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله . لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبد صائرًا في شبه الناس» . والواضح أن كلمة servant الإنجليزية تعني في هذا السياق العبد (عبد الله) أي الإنسان مثلما تعني الخادم في سياقات أخرى ، وهكذا فالعباد هم الناس ، والفكرة عسيرة على غير الملمّين بالعقيدة المسيحية .

216- لاحظ المعنى الرمزي للوالد هنا ، أو الأب ، فجميع المؤمنين بالمسيح يدعون أبناء الرب ، وهناك نص في الرسالة إلى العبرانيين (*2/ 7*) ربما كان ميلتون يشير إليه وهو «أنا والأولاد الذين أعطانيهم الله» ، ومازلنا نشير إلى «آباء الكنيسة» بمعنىرجال الدين .

216-223 يشير ويليت في الكتاب المذكور في الحاشية على السطور *164 - 174* عاليه ، إلى ما قيل من أن الله قتل الحيوانات وكسا بجلودها آدم وحواء «رمزًا ... لستر خُزى النفس بالتوبة» رافضًا هذا القول ، ويورد بعض أسباب ما حدث قائلاً: إن من بينها تعليم الإنسان كيف يهتم بجسده،

وستر عريه بلباس الحشمة vestimenta honoris ، وتعليم الإنسان القتل لصنع الملابس ، ولتذكيره بالفناء. ولكن هذه التفسيرات تخرج بنا عن السياق الشعري الذي تقع فيه الصورة ، فستر الجسد رمز للستر بصفة عامة ، وارتداء ثياب العفة صورة شعرية شائعة ، كما كان الشعر الديني يحفل بصور اكتساء المرء ثياب الصلاح والتقوى . ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك قصيدة «يوم الأحد» للشاعر جورج هيربرت التي يقول فيها :

The brightnesse of that day
We sullied by our foul offence
Wherefore the robe we cast away
Having a new at his expence
Whose drops of blood paid the full price
That was requird to make us gay
And fit for paradise

وترجمتها:

في وقدة النهار والضياء
تلطخ الرداء
بفعلة شنعاء
والآن ألقيناه واسترنا
بسترة جديدة أتى بها لنا
مسددًا كل الثمن
بالقطر من دمه
وهو الذي لابد منه
حتى يكون الفرح نهلاً

ونحن للفردوس أهلاً

وأما مصدره من الكتاب المقدس فهو سفر إشَعْياء *61/ 10*

«أفرح فرحًا بالرب ، تبتهج نفسي بإلهي لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص ، كساني رداء البر مثل عريس يتزين بعمامة ومثل عروس تتزين بحليّها» وقد سبق استعمال ميلتون لصورة رداء الطّهر والبراءة في الكتاب التاسع في السطور *1054 - 1059* وفي السطور *1074 - 1076* .

230 - اعترض أديسون على الحدث الرمزي الذي يبدأ هنا ويستمر على امتداد أبيات كثيرة قائلاً إنه لا يلائم طبيعة الملحمة ، ولكن نقادًا آخرين ردوا قائلين: إن جانبًا كبيرًا من قصيدة ميلتون تقع أحداثه في العالم الخفيّ، وإذا كنا قد قبلنا تصوير الملائكة والشياطين وما يدور بينهم من حوارات فلماذا لا نقبل تصوير المجردات في صور حسية ؛ وقد سبق تصوير الموت والخطيئة في الكتاب الثاني من الملحمة ؟!

244 - انظر الأبيات *1009 - 1011* من الكتاب التاسع حيث يصور ميلتون آدم وحواء وهما في نشوة الخطيئة «يتوهمان أنهما يحسان أن / الربوبية في باطنهما تنسج لهما أجنحة يطيران بها / فيطلان على الأرض من عل» ، ويقول النقاد :إن الأجنحة تنمو للزوجين وللخطيئة معًا وفي الوقت نفسه، بمعنيأن الحبكة الثانوية الخاصة بالخطيئة لا تمثل حدثاً مستقلاً بل هي معالجة للحدث نفسه (الحدث الرئيسي) بأسلوب فني مختلف ومن وجهة نظر مختلفة ، وميلتون يشير إلى ذلك من طرف خفي عندما يقول في السطر *229* :«وفي أثناء ذلك» ملمحًا إلى أن ارتقاء الخطيئة متزامن مع سقوط الإنسان .

252 - 323 المعروف أن تقاليد الملحمة الكلاسيكية تتضمن بناء صرح أو مدينه ، مثل بناء قرطاجنة في ملحمة الإنيادة لفيرجيل (*1/ 423* وما بعده)

وتزخر الفردوس المفقود بأعمال إنشائية كثيرة ، فالله سبحانه يخلق الخلق كله (في الكتاب السابق) والشياطين يبنون قصر الشياطين بانديمونيام (الكتاب الأول) والجسر الممتد فوق العماء هنا (*10*) .

253 - 254 انظر الحاشية على السطر *39* .

261- تستخدم الخطيئة المصطلح اللغوي الخاص بالفكر الشيطاني، ومن أهم ما يبرز في هذا المصطلح مفهوم «الأقدار» (بمعنى«النصيب» أو «القسمة» أو «المكتوب»). ولقد استخدم آدم اللفظ نفسه في الكتاب التاسع (*953*) وحواء (*882*) في الكتاب نفسه .

264- «الظّل الناحل» - عادة ما كان الموت يُصوّر في صورة هيكل عظمي أو جسم بلغ أقصى درجات الهزال والنحول .

268 - 270 «وأتذوق / طعم الموت» إشارة غير مباشرة ، تتضمن تورية ساخرة ، إلى ما سبق أن ورد في الكتاب التاسع حين خاطب آدمُ حواء بعد السقوط ، ملاعبًا ملاطفًا ، قائلاً بأنها تتسم

بدقة الذوق
والتأنق ، ونصيبك من الحكمة ليس ضئيلاً
مادمنا نحدد لكل مذاق معنى
ونصف حاسة الذوق بالحكمة

(*1020 - 1017 /9*)

إذ يشير آدم هنا إلى ما سبق أن ذكر عن عدم خلط مذاق بمذاق عند إعداد العشاء للملاك روفائيل (الكتاب الرابع *332 - 336*) ووصفها بالحكمة هنا فيه نقض لما فعلته حين ضحّت بالطاعة في سبيل حاسة الذوق ، مما يدل على تدهور النسق القيمي لدى آدم بعد السقوط ، ولذلك فإن الأبيات التي يقول فيها الموت إنه «يتذوق طعم الموت» تعتبر

مكمّلة أو موضحة لطبيعة ذلك المذاق الذي تغنّى به آدم من قبل ، وهذا واضح في صلب حدث الملحمة ، لأن مذاق الثمرة المحرمة كان مذاق الموت ، مما دفع ناقدة اسمها كستر سفندن إلى إقامة تماثل رمزي بين الموت وحواء ، في كتاب عنوانه ميلتون: والعلم، وهي تورد (في صفحة *128*) مقتطفات من كتاب كتبه سباستيان فرانك (Sebastian Franck) عـام *1640* بعنوان: «الثمرة المحرمة ، أو مقال حول شـجرة المعرفة بالخير والشر التي أكل منها آدم أولاً ، وغدا البشر حتى الآن يأكلون منها طعام الموت» .

(The forbidden fruit, or a Treatise of the tree of knowledge of Good and Evil which Adam at first and as yet All Mankind do eat death).

ويقول فرانك في بعض هذه المقتطفات: إن جميع البشر ، مثل حواء، «يأكلون طعام الموت ومع ذلك ... يظنون أنهم يأكلون طعام الحياة ، آملين أن يصبحوا أربابًا ». وتقول الكاتبة تعليقا على ذلك إن حواء تلتهم الثمرة المحرمة بأسلوب يذكرنا بالموت نفسه ، «فإطلاق الشهية المتطرفة في العالم يأتي بالموت الذي يلتهم الناس فلا يشبع نهمه» .

273 – *278* سبق أن ورد تشبيه إبليس بالنسر في الكتاب الثالث ، السطر *431* وما بعده ، وأما اعتبار المتوقّع حاضرًا (Prolepsis) وهي حيلة بلاغية قديمة تعني الإشارة للمستقبل باعتباره قد وقع فعلاً (مادام توقعه قائمًا ومؤكدًا) وهو ما نقرؤه في تعبير «الجثث الحية» فيقول أحد النقاد إنه ربما كان مستوحًى من «بلينيوس» (Pliny) في كتابه التاريخ الطبيعي (*10/ 7*) – وهي العبارة التالية :

triduo antea volare eos ubi cadavera futura sunt.

289 - 293 (أ) المحيط القطبي الشمالي هو المحيط المتجمد الشمالي (The Arctic Ocean) والذي اشتهر باسم البحر المتجمد فحسب mareconcretum (التي قد تعني أيضًا البحر الصُّلب) وهو يرد في النص باسم (The Cronian Sea) ويقول النقاد: إن اختياره في هذا التشبيه ملائم للموت الذي يجمّد الحياة.

(ب) الممرّ المائي المتخيَّل : في عام 1608 قام رحّالة يدعى هدسون (Hudson) بالبحث عن ممر مائي تخيّل الناس وجوده في الشمال الشرقي بحيث يوصل الملاّح إلى (قيطان) ولكنه لم يجد منفذًا وسط الجليد.

(جـ) «پتسورا» أو پتشورا نهر في سيبيريا ذكره ميلتون في دراسة أسماها «موجز تاريخ بلاد الموسقو» (أي روسيا).

(د) «قيطان» مملكة مغولية قديمة، ورد اسمها في الأطلس التاريخي، ولها اسم آخر هو «خيطان» ولكن ميلتون يوردها في النص باسم (Cathay) (انظر السطر 388 من الكتاب الحادي عشر) وكانت تعتبر مملكة مستقلة عن الصين وإلى الشمال منها. ووصفها بالثراء يوضح مرمى التشبيه، لأنها تمثل الفردوس.

293 - 296 «بحربته الصخرية» تعبير يماثل ما ورد في مسرحية «مأساة دايدو» التي كتبها كريستوفر مارلو (بالاشتراك مع ناش) قبل نحو قرن من الزمان، في الفصل الثاني، المشهد الأول، السطر 511، ألا وهو أن «للموت الشاحب حربة حجرية» والواقع أن الكلمة الإنجليزية mace قد تعني الصولجان أيضًا، ولكن الإشارة هنا واضحة إلى السلاح ذي الرأس الذي كان القدماء يستخدمونه في الحرب وكان يشير رمزيًا إلى الدمار الكامل، ومن ثم فهو يتناقض في دلالته مع قوة الخلق الإلهية، ووصفه بالصخري أو الحجري يعني أنه يتسبب في التحجر لا أنه صنع

من الحجر ، ولم أستطع ترجمة الصفة «بالمُحَجِّر» الصعوبة فهمها وعدم شيوعها ، والنسبة في الإنجليزية ، على أية حال ، تسمح بكل من الدلالتين سواء ما ورد في ميلتون (petrific) أو في مارلو (Stony) .

(ب) ديلوس (Delos) جزيرة رفعها «نبتون» (Neptune) إله البحر بحربته ذات السّنان الثلاثي من وسط الماء حتى تأوي إليها «لاتونا» (Latona) وتضع فيه مولوديها «أبولو» (Apollo) و «ديانا» (Diana) ، وظلت جزيرة طافية (أي متنقلة) حتى ثبّتها «جوبيتر» (Jupiter) بالسلاسل إلى قاع البحر . وقد سبقت الإشارة إلى ديلوس وربطها بالفردوس رمزيًا باعتبارها مأوى آدم وحواء . في الكتاب الخامس (*265*) والكتاب التاسع (*387*) حيث يكنّى عن «ديانا» بأنها «بنت جزيرة ديلوس» (Delia من Delos) ..

(جـ) الرمح ذو السنان الثلاثي ذو دلالتين متنازعتين ، الأولى هي التشبيه برمح «نبتون» الذي يتحكم في الأمواج ، وهي دلالة تتضمن الثبات والسلام ، والثانية هي ارتباط الرمح ثلاثي السنان بإبليس ، فأسنانه الثلاثة ترمز لثلاثية الجحيم (الشيطان والخطيئة والموت) .

296 - 198 جُرجونية «الجرجونات» (Gorgons) كائنات خرافية كنّ إذا نظرن إلى أحد حوّلنه إلى حجر ، وكانت «ميدوزا» (Medusa) جرجونة، وورد في الأوديسية (الصيغة التي يفضلها الدكتور أحمد عتمان لترجمة عنوان ملحمة الأوديسا) أن أوديسيوس (أُوليس) Odysseus (Ulysses) كان يتحاشى نظرتها إليه خشية تحويله إلى حجر . انظر الحاشية (رقم *70*) على السطر رقم *611* من الكتاب الثاني .

307 - 311 سوسه ، في تونس الحالية ، كانت المقر الشتوي لملوك

الفرس ، وكانت أحيانًاتسمى «ممنونيا» أو «الممنونية» (Memnonia) نسبة إلى «مِمْنون» ، ابن «تيثونوس» (Tithonus) و «أورورا» (Aurora) ، الذي كان يقيم فيها . والتشبيه يتضمن أوجه شبه كثيرة ، فالموت وأرتخششا (Xerxes = Artaxerxes) يبني كل منهما جسرًا ، وكل منهما يعتزم إخضاع أمم برمّتها ، وكلاهما متكبر ، وكلاهما «يضرب البحر» . ويقول أحد النقاد: إن أهم ما يربط الموت «بأرتخششا» إشارة مضمرة إلى قصة شهيرة فحواها هو أن ذلك الملك بكى وهو يستعرض جيشه عندما تذكر أن هذه الحشود كلها قد كتب عليها أن تموت، وسوف تختفي في غضون قرن واحد. ويلاحظ القارئ أن كثيرا من الصور الفنية مستقى من السياقات الحربية في مواطن الحديث عن الأشرار .

313- «في تشييد الجسور» - الأصل هو pontifical وهي تورية مبنية من الكلمتين اللاتينيتين pons (جسر) و facere (يصنع) ولكن المعنى المعتاد للكلمة وهو «أسقفي» مقصود أيضًا، والدلالة المضمرة، وهي أن الكهنة بارعون براعة الموت والخطيئة في تمهيد الطريق للجحيم ، تستمد قوة التورية الساخرة من اللقب الذي يطلق على البابا وهو pontifex والذي كان يفسره العلماء بأنه ينهض بدور باني الجسور بين هذا العالم والعالم الآخر . (معجم الرموز A Dictionary of Symbols الذي وضعه J. E. Cirlot وترجمه جاك سيج Jack Sage عام *1962* ونشر في لندن).

316 - «أول مرة» تشير إلى السطور *418* - *422* من الكتاب الثالث .

321 - *324* كانت الحدود (التخوم) القديمة للسماء والعالم (الكون) تلتقي دون فواصل ، ولكن الطريق إلى الجحيم أصبح الآن ذا عوائق ، وأما الطرق الثلاثة فهي : سُلّم المعراج إلى السماء (الكتاب الثالث - السطر *510* وما بعده) والممر الممتد عبر الغلاف الخارجي

المصمت للكون وحتى الأرض (الكتاب الثالث - السطر 526 وما بعده) وأخيرًا هذا الجسر الجديد . واليسار (322) دلالة على الجانب الشرير الذي يوضع فيه الفاسقون ، بناءً على المثال الوارد في إنجيل متى (25/ 33) «فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار» .

328 - 329 يختلف الشراح اختلافًا كبيرًا في تحديد مسار إبليس بين كوكبات النجوم وبين البروج ، كأنما يحققون نصًا علميًا ، وأهمهم فيريتي Verity وهيوز Hughes (في طبعته لأعمال ميلتون الصادرة في نيويورك عام 1957) اللذان يرددان مقولة نيوتن من أن إبليس يحاول تفادي اكتشاف الملاك «أوريل» (Uriel) له فيتخذ مسارًا يبتعد به كل البعد عنه ، قائلين إنه لما كانت الشمس آنذاك في برج الحمل فإن إبليس يتخذ مسارًا «بين كوكبتين في بقعة أخرى من السماء» . ولكن فاولر يرد على ذلك القول واصفًا إياه بالخطأ قائلاً إنه لو كان قد ابتعد قدر الطاقة عن نظر «أوريل» لما احتاج إلى التنكر ، ثم يثبت من واقع النص أن إبليس يدخل العالم من برج الميزان ويخرج منه بين برج العقرب وبرج القوس .

337 - المقصود بالأردية (جمع رداء) هو ما استتر به آدم وحواء (في الكتاب التاسع 1110 - 1114) وألوان التظاهر والذرائع (الكتاب العاشر السطر 166 ومابعده) .

342 - «ليلا» : المقصود في الليلة التي رفع فيها آدم شكواه .

344 - 345 أي أنه استمع إلى تذكر آدم للّعنة وتفسيره إياها في السطر 1030 وما بعده .

358 - «قوة التوافق الخفية» هي قوة «الانجذاب» أو «القوة الفطرية» المشار إليها في الأبيات 246 وما بعدها عاليه .

365 – هذا تفاخر أجوف وكاذب بدليل ما ورد في الأبيات 209 – 213 من الكتاب الأول و 80 – 86 من الثالث . وقد سبقت الإشارة إلى دلالة الثلاثية الجهنمية .

379 – انظر الكتاب الرابع ، السطر 111 : «سأتقاسم ملك الكون مع ملك السماء» .

381 – انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (21/16) حيث يرد وصف أورشليم الجديدة : «والمدينه كانت موضوعة مربعة طولها بقدر العرض . فقاس المدينة بالقصبة مسافة اثني عشر ألف غلوة الطول والعرض والارتفاع متساوية» . أما العالم (الكون) فتتكرر الإشارة إلى أنه «دائري» في الفردوس المفقود ، وانظر مثلاً الكتاب الثالث ، السطر 718 وما بعده (حيث يتحدث «أوريل» عن الخلق) وترد في السطر 720 إشارة إلى «الجدار المستدير» وكلمة «الكرة» في السطر 722 .

384 – «ولدي – وحفيدي معًا» – لأنه ثمرة علاقات إبليس الآثمة بالخطيئة وهي ابنته .

386 – «الخصومة» – لأن كلمة شيطان تعني في اللغة السامية الأم (Protosemitic) «الخصم» ، وقد انتقل المعنى إلى بعض اللغات السامية المتفرعة منها . وكلمة «شت» (القريبة من «شط» بمعنيالجهة المقابلة) ربما كانت ذات علاقة قديمة بكلمة «ست» المصرية وهي اسم رمز الشر عند المصريين القدماء ، على نحو ما يذهب إلى ذلك الدكتور لويس عوض، وربما كان في العربية بعض من المعنى القديم لا في «الشت» فقط بل في «الشطط» وفي شطّ واشتطّ (بمعنيبَعُد عن الحق – اللسان) وفي القرآن: (ص : 22 ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾) (الكهف : 14)(﴿شَطَطًا﴾ 4) ،ومن ثم فإن «الشيطان» قد يتصل بمادة الكلمة في العربية أيضًا .

399 - 402 انظر الكتاب الثاني *839 - 844* وانظر رومية (*5/ 14، 17، 21*) : «لكنْ قد مَلَكَ الموت من آدم إلى موسى»، «لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد» ، «حتى كما ملكت الخطية في الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» . وأما تعبير «استعباده» (*402*) فهو يستند إلى ما جاء في إنجيل يوحنا (*8/ 34*) «إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية» .

407 - انظر رومية (*5/ 12*) «من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيّة إلى العالم وبالخطيّة الموت،وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» .

409 - محاكاة ساخرة مريرة لأمر موسى عليه السلام إلى يشوع باصطحاب بني إسرائيل إلى الأرض الموعودة وامتلاكها (تثنية *31/ 7* وما بعده) ولكن مصدر المفارقة هنا هو أن الخلاص سوف يجعل الموت سبيلاً إلى الأرض الموعودة وهي الفردوس. ويلاحظ النقاد أن تقاليد الاحتفال بالنصر والغلبة مستقاة في هذه الملحمة من التراث الروماني الحربي والسياسي ، وهكذا يستخدم ميلتون كلمة (detriment) بمعنى«الضرر» في هذا البيت التي كانت تعني مؤاخذة القنصلين اللذين تفوض إليهما السلطة المطلقة في روما في أوقات الأزمات فقط ، فقد يأمران أو يأمر أحدهما بقتل أحد الأشخاص فلا يضار (لا يصيبه الضرر) بسبب السلطة المفوضة إليه ، وإن كان عليه أن يبرر ذلك قانونًا .

413 - «الخسوف الحقيقي» يعني أن ضوءها غام فعلاً لا بسبب الاحتجاب خلف كوكب آخر ، ويلمح ميلتون هنا إلى أن «الطمس» قد يكون بسبب الاصطدام ببعضها البعض لا بسبب الظاهرة التي يرصدها

الرائي في مكان ما ولا يرصدها راءٍ في مكان آخـــر ، وأما معنى «العدوان» فهو التأثير الضار، أو «الخبيث» الذي كان يُظنُّ أن الكواكب تمارسه على بعضها البعض.

418 - في الأصل [العُمُد] «التي ازدرت غضبته» ...

(That Scorned his indignation ...)

ويقول فاولر إن ذلك ربما يكون مستمدًا من قول فيرجيل في The Georgics (الزراعيات).إن المحيط كان غاضبًا من قيامِ لوكرين ببناء حاجز أمواج على الشاطئ .

420 - اسم الموصول للمثنى يرجع إلى الخطيئة والموت .

427 - «الكبراء» هم «شيوخ ملائكة الصاروفيم والشاروبيم» الذين التقوا في الركن القصيّ من القصر في الكتاب الأول *794* وما بعده .

431 - *439* أ - مدينه «أستراكان» (Astracan) كانت عاصمة لمملكة من ممالك التتار تحمل الاسم نفسه ، وتقع بالقرب من مصب نهر الفولجا ويكثر ميلتون من الإشارة إليها في كتابه عن تاريخ روسيا الذي سبقت الإشارة إليه .

ب- ملك الفرس : في الأصل Bactrian sophy والصفة تعني الفارسي وأما «صوفي» فهي تحريف للاسم «صافي الدين» الذي شاع بدلاً صفيّ الدين ، وهو اسم الأسرة الحاكمة في بلاد الفرس من مطلع القرن السادس عشر تقريبًا حتى عام *1736* ، وهي أسرة أو دولة الصفويين ، أو الدولة الصفوية .

جـ- قرني الهلال التركي : لا تقتصر إشارة الهلال إلى العلم التركي بل تتعداه إلى التشكيل الحربي لكتائب الأتراك ، فهي تورية .

د - مملكة أرمينيا الكبرى : في الأصل (The realm of Aladule)

والمقصود بها أرمينيا والأراضي التابعة لها ، أي الخاضعة لحكمها .

هـ- تبريز هو الاسم الحديث لمدينه «توريز» القديمة (بقلب الباء واوًا) .

و - قزوين مدينه تقع شمالي طهران وينسب إليها البحر المعروف، وللاسم عدة أشكال قديمة، مثل Casbeen (الموجود في نص ميلتون) و (Kazvin) .

444 - «پلوتو» هو حاكم العالم السفلي في الأساطير الإغريقية .

448 - كان من دواعي دخول إبليس متخفيًا هو التحقق من مدى ولاء أتباعه .

450 - *452* استدعاء صورة إبليس الأولى يقصد به إبراز التناقض إلى أقصى حد بينها وبين صورة الثعبان الذي حُوّل إليه .

457 - استعمال لفظ «الديوان» يستدعي إلى الذهن مجلس الدولة الشرقي وهو ما يساعد على استمرار الصور الشرقية السابقة ودلالاتها .

469 - *502* يقول دنيس بيردن في كتابه عن الملحمة المنطقية (*1967*): إن هناك «ملحمة شيطانية» تجري أحداثها بالتوازي مع أحداث ملحمة ميلتون، ويؤيده فاولر مستشهدا بهذه الأبيات التي يستعرض فيها إبليس الأحداث التي وقعت حتى تلك اللحظة في صورة ملخص جذاب، وبذلك يدعو الشياطين (والقارئ) إلى أن يظن أنه بطل لملحمة بطولية زائفة، وأنهم أيضًا يشاركون فيها .

471 - «اللجج الهيولية»: الصفة في الأصل هي (unreal) وهي لا تعني هنا «الوهمية» بل تعني التي لا شكل لها، ومن ثم فهي ليست مادية بالمعنى المفهوم، وهنا يكشف إبليس عن إيمانه بالصّورة التي تهب المادة حقيقتها، فكأنما يدين نفسه بعد أن تَحوّل من صورة إلى صورة في ثنايا

الملحمة ، أي كأنما يصف نفسه بأنه أصبح أقرب إلى «الهيولة» بعد أن عصى الله .

477 - 479 «القديم» أي غير المخلوق أو الأزلي ، وانظر البيت *962* من الكتاب الثاني حيث توصف ربة الليل بأنها «أكبر الأشياء سنًا» ، ولكن لا الليل ولا العماء عارض إبليس ، بل إن العماء قد ساعده في الواقع - انظر الأبيات *1002 - 1009* من الكتاب الثاني .

481 - 482 سبق ذكر الشائعات من قبل في الكتاب الأول *651 - 654* ، والثاني *346 - 352* ، والسابع *145 - 156* .

517 - «الحكم الصادر عليه» هو في الحقيقة الحكم الصادر على الثعبان (انظر الحاشية على الأبيات *164 - 174* عاليه) وهو ينفذ الآن تنفيذًا حرفيًا ، ويقول بعض النقاد: إن المسخ يجب ألا يفسر تفسيرًا حرفيًا باعتباره عقوبة فحسب ، إذ إنه في الواقع حكم من جانب الله على طبيعة إبليس ودحض لما زعمه من قبل من أنه بطل مغوار ، فالمسخ تجسيد لحقيقة معاداة إبليس لخصال البطولة أو عدم قدرته على التحلي بها ، وأهم من قال بهذا هو جون ستيدمان في مقال بعنوان: «فضيلة البطولة والصورة الإلهية في الفردوس المفقود» ، ونشره في مجلة معهدي واربورج وكورتولد عام *1959* . وهذا الانقلاب في المصير (peripeteia) ذو طابع درامي غلاّب إذ ما يكاد الشياطين يصلون إلى تصور أنهم أبطال في ملحمة إبليس حتى نتبين أنهم وحوش في ملحمة الله . ويقول هيوز في طبعته لأعمال ميلتون الكاملة: إن الفكر الديني والفكر الفلسفي يلتقيان هنا - أي عند نقطة الانقلاب المذكورة - مستشهدًا بما يقوله جاكوب بيمه (Boehme) تفسيرًا لمعنى التحول من النورانية إلى الوحشية .

524 - 526 وصف أنواع الثعابين مدرج في الترجمة - على اقتضابه في الأصل - ولكن القارئ قد يفيد من تعليق هيوز

على دلالة أنـواع الثعابين على خصال معينة ، مـن باب الطرافة لا غير ، فميلتون لا يقصد التحليل العلمي أو التاريخي أو النفسي لدلالة أنواع الثعابين في تراث الإنسانية ، بل هو يقصد «الخلط» بينها لا التمييز ، على نحو ما يتضح في السطر *523* ، فبعضها له حمة العقرب ورأس أصلة ، وبعضه له ذيل الصّل ورأس القرناء وهكذا . والطريف أن الأستاذة كستر سفندن تفصل القول تفصيلا في خصال تلك الثعابين ودلالاتها مستشهدة (في صفحة *35* وما بعدها) بكتاب كتبه باحث اسمه توبسيل (Topsell) بعنوان: تاريخ الثعابين عام *1608* . وربما يكون ميلتون قد اطلع على ذلك الكتاب ، ولكن حشده للثعابين بأنواعها يرمي إلى إبراز صور التشوه لا الصفات المفردة المميزة لكل منها .

526 – 527 يقول فاولر: «عندما كان بيرسيوس (Perseus) عائدًا وهو يحمل رأس ميدوزا المقطوعة ، وقعت قطرات من دمها على الأرض، وهو ما يفسر سبب امتلاء ليبيا بالثعابين» . انظر أوفيد مسخ الكائنات *4/ 617 – 20* ، كما يزعم لوكان (Lucan) أن عددًا من أنواع الأفاعي وجد بهذا الأسلوب

528 – «أوفيوزا» (Ophiusa) تعني حرفيًا «الحافلة بالأفاعي» [من اليونانية «أوفيس» التي تعني الثعبان (Ophis)] وقد أطلق هذا الوصف على كثير من الجزر ، من بينها جزيرة رودس (Rhodes) .

529 – 532 إنبات الأصلة من الطين ، أو مولد ذلك الثعبان الضخم من الأرض التي غمرتها المياه وانحسرت عنها ، فكرة ترجع إلى مسخ الكائنات لأوفيد ، ولكن ميلتون لا يذكر الأصلة دون أن يذكر قتل أبولّو إياها ، هنا وفي سائر شعره ، وسيلاحظ القارئ أن ميلتون يشير إلى الأصلة باسم التنين أولاً ، ليوازي بينهما ، في وصف إبليس ، مستلهمًا في ذلك الكتاب

المقدس «فطُرِحَ التنينُ العظيم، الحيةُ القديمة، المدعوّ إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله» (رؤيا يوحنا اللاهوتي 12/ 9) .

535 – «الاستعراض» الاستعراض معناه استعراض رئيسهم إياهم ، أي أنهم عُرضوا عليه .

546 – انظر هوشع (4/ 7) «على حسبما كثروا هكذا أخطأوا إليّ فأبدل كرامتهم بهوان» .

556 – «العطش الحارق والجوع الضاري» الذي يكابد الشياطين هنا – إلى جانب الأصداء الواردة في السطور 432 و 537 ، 560 – عقاب يشبه عقاب طانطال (Tantalus) الذي وضع في ماء يعلو حتى يلامس شفتيه ثم ينحسر عنه ، وهو يذكرنا بعقابهم الذي وقع في الكتاب الثاني (596 وما بعده) وأما العقاب بالمسخ فهو ينزل بهم على فترات متباعدة (انظر السطر 575 وما بعدها من هذا الكتاب). وقد كتب جون ستيدمان مقالاً ممتعًا في مجلة فقه اللغة الإنجليزية والألمانية عام 1965 بعنوان: «طانطال وتفاح البحر الميت» (وأدرج المقال بعد ذلك في كتاب صدر عن ميلتون في 2001) يقول فيه: إن هناك مزجًا بين أسطورة طانطال وبين عقوبة الشياطين في ملحمة ميلتون ، ويحلل ذلك المزج تحليلاً وافيًا ، والواضح من دراسته أن العقوبة الطانطالية هي عقوبة المِثْل بالمثل (العين بالعين والسن بالسن).

560 – «ميجيرا» (Megaera) هي إحدى ربات القِصاص اللائي يعاقبن مرتكب الخطيئة ، انظر البيت 596 من الكتاب الثاني والحاشية عليه . وعادة توصف هذه الربات بأن شعر رأسها من الحيات .

562 – «البحر الميت» – في الأصل (bituminous lake) أي بحيرة القار السائل ،فالبحر الميت يقع بجوار سدوم التي عوقب أهلها الذين كانوا يمارسون اللواط بالحريق،والإشارة هنا إلى كتاب المؤرخ يوسفوس (Josephus) وعنوانه: الحروب(8/ 4) حيث يقول:

إن آثار النار التي أحرق بها الله سدوم مازالت قائمة،مثل وجود الرماد في الفاكهة «وهي فاكهة تبدو للناظرين ناضجة شهية للطاعمين ، فإذا قطفت ثمرة بيدك تفتتت وصعد منها الدخان وانتثر الرماد»(مقتبس من كتاب كستر سفندن المشار إليه،في صفحة 28 و 29).ويضيف فاولر أن ميلتون يشير إلى تلك الرواية كأنما كان الجميع يعرفونها ، ويحدد المصدر الأساسي للفكرة قائلاً إنه سفر التثنية ، الإصحاح الثاني والثلاثون : «لأن من جفنة سدوم جفنتهم ومن كرم عمورة. عنبهم عنب سم ولهم عناقيد مرارة خمرهم حمة الثعابين وسم الأصلال القاتل» (الأيتان 32 و 33) ويعلق على ذلك قائلاً: إن إشارة موسى عليه السلام إلى «جفنة (نبيذ) سدوم» ، معناها أن شعب إسرائيل قد أصبح فاسدًا وبلغ العفن باطنه.

556 – 570 هذا هو التحقيق الحرفي للّعنة الصادرة على الثعبان في السطر 178 من هذا الكتاب نفسه، ويناقش توبسيل في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه الخطأ الشائع الذي يقول: إن الثعابين لا تأكل سوى التراب – وينفيه .

578 – 584 هذه الأبيات مبنية على ما ورد في ملحمة الأرجونوتيكا (Argonautica) (ملاحو السفينة «أرجو»)التي كتبها أبولونيوس روديوس (Apollonius Rhodius) (السكندري) في القرن الثالث الميلادي ، في الكتاب الأول (السطور 503 – 509) حيث ينشد أورفيوس (Orpheus) عن زواج «آوفيون» (Ophion) (الكلمة اليونانية المشتقة من اسم الثعبان السابق ذكره) من «يورينومي» (Eurynome) ومعناه واسعة السلطة ابنة أوقيانوس (Oceanus) (المحيط) حكما الكون من قمة جبل الأوليمب (Olympus) ، ثم خضع الأول «لكرونوس» (Cronos)

(ساتورنوس (Saturnus) عند الرومان) أو الزمن ، وخضعت الثانية لـ «ريا» (Rhea) (أوبس (Ops) عند الرومان أو ربة الوفرة والثراء) (عن معجم أكسفورد الكلاسيكي) : ثم تولى خليفتاهما حكم شعب «التيتان» (The Titans) وإن «استمر زيوس (Zeus) مقيمًا في كهف دكتايوس (the Dictaean cave) ».. وفي عام *1955* أصدر باحثان (هما ستارنز وتولبرت Starnes & Talbert) كتابًا عن الأساطير الكلاسيكية يصححان فيه بعض ما أورده فيريتي وهيوز من نسبة هذه السطور إلى أبولونيوس ، إذ يقولان :إن ميلتون يمزج بين «أوفيون» الذي أورده «أبولونيوس» بشخصية أخرى ، أحد أصدقاء كادموس (Cadmus) ، وهو أحد الذين ولدوا من أسنان الثعبان .

ideoque et nomen habet a serpente qui Graece ophis (dicitur

(عن معجم المعاني الذي وضعه ستيفانوس) ويعلق أحد النقاد على ذلك قائلاً: إن تحديد الطبيعة الثعبانية لأوفيون يسير بالرجوع إلى مصادر أخرى ، ويفصل فاولر القول في الدلالات الشعرية لاستلهام هذه المصادر الكلاسيكية .

584 - «دكتايوس» هو جبل في جزيرة كريت قضى جوبيتر فيه طفولته، وكان اسمه الأول ديكتي Dicte وأما دكتايوس Dictaeus فكان أحد ألقابه .

586 - 587 - «من حيث القوة / ومن حيث الفعل» تعبيران فلسفيان يوازيان تعبيري «بالقوة وبالفعل» عند إخوان الصفاء ، وأما معنى الأول فهو potential ، وهو يرد هنا في نص ميلتون في صورة (in power) وأما معنى الثاني فهو actual وميلتون يستعمل

المصطلح الفلسفي نفسه ، أي إن الفردوس قد شهدت إمكان حلول الخطيئة بها ، في نوازع آدم وحواء الفطرية ، وهكذا يعتبر أن الخطيئة قد زارتها من حيث القوة ، وقد تحاشيت استعمال المصطلح الفلسفي العربي القديم خشية اختلاطه بالمصطلح المعاصر الذي يعني عَنْوةً (by force) ، وثم زارتها الخطيئة بالفعل أو من حيث الفعل (ليتوازى مع التعبير الأول) حيث ارتكب آدم وحواء الخطيئة فعلاً ، وهي الآن تزور الفردوس بجسدها ، وتعبير «جسد الخطية» هو تعبير القديس بولس . انظر مثلا رومية (6/ 6) «عالمين أن إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نستعبد أيضًا للخطية» وميلتون يميز بين الخطيئة الفعلية (بالفعل / من حيث الفعل) - وهي ثمرة فعل الإرادة الحرة - وبين الخطيئة الأولى أي الفطرية ، وهي حال الميل إلى الخطأ الذي يولد به الإنسان ، ويقول ذلك في كتابه عن العقيدة المسيحية بألفاظ صريحة .

589 - *590* انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي *8/6* «ونظرت وإذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه وأعطيا سلطانًا على ربع الأرض أن يقتلا بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض» أما لماذا لم يركب الموت فرسه حتى الآن؟ فهو لأننا في بداية التاريخ لا في نهايته .

600- «الجلد الفضفاض» - الأصل هو (unhide-bound) وهو تعبير ينفرد به ميلتون إذ لا يورد معجم أوكسفورد الكبير (O. E. D) مثالاً على أحد استعمله قبل ميلتون أو بعده ، وأما المعنى فهو غريب ، إذ يعكس ميلتون المعنى بأداة النفي وهي البادئة un- في الصفة المركبة hidebound أي الذي التصق جلده بعظمه لنحوله وهزاله ، فيجعل الجلد فضفاضًا فوق العظم ، دون وجود لحمه تحته !

602- انظر الكتاب الثاني - السطر *790* وما بعده .

606- أعرب روفائيل قبل سقوط الإنسان عن أمله في أن يرتقي الإنسان عالم الروح «بمرور الزمن» ، ولكن الزمن أصبح الآن قوة مدمرة . وقد كتب إروين بانوفسكي كتابًا عنوانه: دراسات في علم الصورة عام *1962* ناقش فيه تفصيلاً تصوير الزمن في الفن والأدب وتوقف طويلاً (من ص *69* - *94*) عند صورة منجل الزمن .

611- «أو للتسبب في فناء» : في الأصل : « or unimmortal make » وهي صفة ينحتها ميلتون لأول مرة بإلحاق البادئة un- بصفة immortal وهي صفة تتكون من أصل يعني «الفاني» (إلى جانب معنى المهلك) والبادئة im - التي تنفي الفناء فتفيد الخلود ، بحيث عاد المعنى إلى الفناء بنفي النفي ، ولم يسبق ميلتون أحد إليها ، ويعلق أحد النقاد على ذلك قائلاً: إن ميلتون ينحت صفات منفية للموت (مثل *601*) - unhidebound) و unnamed (دون أسماء) و undreaded (دون أن نخيف أحدًا) في السطر 595 عاليه) لتأكيد الطابع السلبي للموت .

616- «كلاب الجحيم» انظر التعبير نفسه في السطر *653* وما بعده من الكتاب الثاني :

وحول وسطها [أي الخطيئة] التفّت زمرة من كلاب الجحيم لا تتوقف عن النباح بأفواه فاغرة - مثل كيربروس - عالية جلبتها ، رنانة طنانة مفزعة!... إلخ.

وانظر أيضًا تعبير «كلاب الحرب» الذي يستخدمه شيكسبير في مسرحية يوليوس قيصر (ف *3*/ م*1*/ *270* - *273*) في سياق استدعائها من الجحيم لإشاعة الدمار !

622 - *623* «الدخـــول والامتلاك» من المصطلح القانوني

في عصر ميلتون (يقابل «وضع اليد» في عصرنا) .

633- انظر صموئيل الأول (25/ 29) «وأما نفس أعدائك فَلْيَرْمِ بها كما من وسط كفة المقلاع» .

635 - 636 انظر هوشع (13/ 14) «أين آباؤك يا موت.. أين شوكتك ياهاوية؟» وانظر كورنثوس الأولى (15/ 54) «ابتلع الموت إلى غلبة» ورؤيا يوحنا اللاهوتي (20/ 14) «وطرح الموت والهاوية في بحيرة النار . هذا هو الموت الثاني» .

638 - 639 الإشارة هنا إلى رؤيا النهاية في رسالة بطرس الثانية (3/ 7- 31) «وأما السموات والأرض الكائنة الآن فهي مخزونة بتلك الكلمة عينها محفوظة للنار إلى يوم الدين ... ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضًا جديدة يسكن فيها البر» . والمقصود بالسماوات والأرض الكونُ كله

640- «اللعنة» ربما كان المقصود اللعنة الواردة في سفر التكوين (3/ 17) «ملعونة الأرض بسببك» .

642- انظر الكتاب الخامس ، السطر 872 وما بعده ، وانظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (19/ 6) «وسمعت كصوت جمع كثير وكصوت مياه كثيرة وكصوت رعود كثيرة قائلة: هلّلويا فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شيء» .

644- انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (16/ 7) «حق وعادلة هي أحكامك».

647- «زمن الهناء» - في الأصل (the ages) وهو اختصار للعصر أو العصور الذهبية والمقصود بها الأعوام الألف التي ستقضى في هناء في نهاية الزمن ، وانظر : ... وعصور لا نهاية لمواقيتها» - في الكتاب الثاني عشر ، السطر 549 .

648- «تنزل» - انظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (2 /21) «وأنا يوحنا رأيت المدينه المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء عند الله» .

650- ربما تكون الإشارة هنا إلى الملائكة السبعة الذين سبق ذكرهم في الكتاب الثالث - السطر 648 وما بعده .

651-706 يقول فاولر: إن هذه الأبيات تمثل خير تمثيل صورة العالم في نظر ميلتون قبل سقوط آدم وحواء وبعده ، فلقد كان عالمًا من الربيع الدائم - لا يتبع النظام الذي وضعه بطليموس ، (Ptolemy) ولا النظام التالي له الذي وضعه كوبرنيق (Copernicus) - ولكنه يقوم على «نظام نظري ذي بساطة مثالية» ، وأما النظم الجغرافية الحديثة فقد حدثت بعد السقوط.

655- تصوير الشتاء في صورة شيخ هرم أو عجوز فانية كان شائعًا في علم التصوير وفنونه ، وكان يقوم على المقابلة القديمة بين أطوار الإنسان وفصول العام .

658 - 661 يستخدم ميلتون في هذه الأبيات مصطلحات بطليموس لزوايا الميل - وهي فنية ومتخصصة - ولكن «ارتباط السوء» غير وارد في جغرافية بطليموس ، ولذلك يفرد له ميلتون مكانًا مستقلاً .

668 - 680 «يقول البعض» ... و «يقول البعض» : يشرح فاولر ذلك قائلاً: إن ميلتون لم يشأ أن يتخذ لنفسه موقفًا محددًا من تفسير الظواهر الفلكية والجغرافية الحالية والتي يمكن تفسيرها إما بافتراض ميل محور الأرض 23.5 درجة ، ومعنى ذلك أن الكواكب تدور حول الشمس ، أو بافتراض ميل مدار الشمس بالمقدار نفسه ، ومعنى ذلك أن الشمس تدور حول الأرض . ويقدم فاولر تفسيرًا لكل ما ورد في نص ميلتون في حواشيه، وقد آثرت أنا إدراج الشرح في الترجمة بصورة غير مباشرة حتى لا أرهق القارئ بالرجوع في كل كلمة إلى هذه الهوامش

678- «إقليم» - في الأصل (Clime) بمعنيإقليم مناخي ويشرحها فاولر بأنها region أي إقليم جغرافي قائلاً: إن كل نصف من نصفي الكرة الأرضية كان مقسمًا إلى سبعة أقاليم أفقية في أيام ميلتون ، ومعنى هذا أنها أقاليم مناخية لا جغرافية ، ولذلك اقتصرت في الترجمة على كلمة «إقليم» دون الصفة ، والكلمة من الدخيل المعرّب.

686 - «استوتيلاند» منطقة في شمال شرقي لبرادور الحالية ، ولكن الاسم كان يطلق في حالات كثيرة على أي منطقة باردة في الشمال .

687- «منطقة ماجلان» (Magellan) هي الأرجنتين الحالية ، وقد آثرت الإبقاء على الكلمة الأصلية لدلالتها التاريخية ، وكان اسم المنطقة (magellonica) .

687 - 689 «ثايستيس» (Theestes) أغوى «إيروبي» (Aerope) ، زوجة أخيه «أتريوس» (Atreus) حسبما تقول الأسطورة ، وعلم «أتريوس» بذلك وقرر الثأر فتظاهر بالعفو عن أخيه ودعاه إلى مأدبة لكنه قدم له طعامًا من لحم أحد أبنائه (أبناء ثايستيس) وساد الاعتقاد بأن الاشمئزاز والتقزز من ذلك الفعل قد دفع الشمس إلى تغيير مسارها والانحراف فيه حتى تتجنب رؤيته .

694- «النفثات الحارة» قد تكون شهابًا أو نيزكًا ، إذ كان المعتقد أن الشهب والنيازك كتل ملتهبة من البخار .

695 - 706 يقول هوايتنج في كتابه الوسط الأدبي الذي عاش فيه ميلتون (1964) في صفحة 121 وما بعدها: إن خريطة الرياح الوحيدة التي تتضمن جميع الرياح التي يذكرها ميلتون موجودة في الأطلس الجديد (Novus Atlas) الذي وضعه يانسون (Jansson) في أحد عشر مجلدًا ونشره

في الأعوام من 1647 - 1662 ، وأنه من المعروف أن ميلتون قد سأل عنه أو طلبه ذات يوم . وقد حوّلت الأسماء الكلاسيكية للرياح إلى مقابلاتها الحديثة تيسيرا على القارئ العربي ، بل إن القارئ الأجنبي نفسه ليجدها غريبة إلى الحد الذي يلجئه إلى الرجوع إلى التفاسير أو الحواشي .

696 - «انورمبيجا» (Norumbega) هو الاسم القديم الذي كان يطلق على منطقة تقع في جنوب شرقي كندا وتتضمن بعض المناطق التي أصبحت داخل الولايات المتحدة حاليًا ، وأما «ساموديا» (Samoedia) التي ذكرها ميلتون في تاريخه الموجز لروسيا ، المذكور آنفًا ، فهي منطقة تقع في أقصى الشمال الشرقي لسيبيريا .

710–714 قارن مرور الحيوان مرور المطمئن أمام الإنسان قبل السقوط في الكتاب الرابع ابتداءً من السطر 340 ، وأما العشب باعتباره الطعام السائد قبل السقوط ، فالإحالة هنا إلى الكتاب المقدس : «ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعامًا» (تكوين 1/ 30) .

718- التقابل بين المشاعر الجياشة والمضطربة وبين الاختلاط في النظام الكوني الكبير يتحول هنا إلى استعارة «ذاتية» - انظر إشَعْياء (57/ 20) «أما الأشرار فكالبحر المضطرب لأنه لا يستطيع أن يهدأ وتقذف مياهه حمأة وطينًا». وموضوع البحر الهائج أو المضطرب - كما يقول فاولر - (The Sea of Troubles topic) يمكن رصد تراثه في كتابات القديس أوغسطينوس ، والمزمور 107 وقصة المحامي في تشوسر ، وتصوير ربة الحظ في صور العصور الوسطى وعصر النهضة ، وهاملت 3/ 1/ 59 وغيرها كثير (يوردها فاولر) .

720- يقول برودبنت في كتابه عن الفردوس المفقود

(انظر المراجع): إن شخصيات الفردوس المفقود لا تتحدث بأسلوب المناجاة المسرحية (Soliloquy) إلا حين تسقط، وأما كلمات وحركات من لم يسقط فعادة ما تكون موجهة إلى شخص آخر (ص 80).

722- ربما كان القصد إظهار آدم هنا في صورة من يخلط في فهم أصول الدين إذ لم يكن يمثل مجد العالم بل «مجد الله» (كورنثوس الأولى 11/ 7).

728-729 المعنى هو أن الطعام يطيل الحياة ومن ثم يمد ويبسط من نطاق اللعنة، وإنجاب الأطفال ينقلها من جيل إلى جيل، ويقول فاولر: إن الطعام والجنس يعتبران مجال نشاط ملكة الاشتهاء (The concupiscible faculty) وهي التي كثيرًا ما كانت تعتبر المجال الخاص لعمل الشهوة (concupiscence) أو «جسد الخطية»، ومن ثم ينتهي فاولر إلى القول بأن الطعام والإنجاب يمكن اعتبارهما معًا لعنة.

730- انظر الكتاب السابع، السطر 530 وما بعده، وسفر التكوين (1/ 28) «وباركهم الله وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها».

736- أسلوب السخرية هنا يراه أديسون أسلوبًا عاميًا (دارجًا) لا يرقى إلى مستوى الأسلوب الرفيع للملحمة.

738 - 740 لاحظ تكرار ياء المتكلم - الضمير - في «لعناتي»، «تفارقني»، «مِنّي»، «إليّ»، «عليّ» وأخيرًا التكرار المؤكد لها في «عليّ أنا» وهي الحيلة البلاغية التي تسمى (Ploce) أي التأكيد اللفظي وإن تفاوتت صورة اللفظ المكرر. انظر 832 من هذا الكتاب والحاشية.

740 - 741 معنى البيت يعتمد على قوانين الحركة المعروفة فعند المركز تكون قوة الدفع صفرًا، وفي الأطراف تزداد السرعة والقوة إلى الحد

الأقصى ، ويقول فاولر إنه نظرًا لشيوع الانشغال بالعلم الطبيعي في عصر ميلتون وتعقيد هذه الصورة الشعرية ، فلنا أن نفترض أن ميلتون كان يريد أن يوحي بأن ذكاء آدم يشبه ذكاء الشعراء الميتافيزيقيين .

743–744 الشكوى المرذولة الواردة في سفر إشعياء (*9/45*) «ويل لمن يخاصم جابله . خزف بين أخزاف الأرض . هل يقول الطين لجابله ماذا تصنع ؟. أو يقول عملك ليس له يدان» .

754– «أحزان سرمدية» يشير بيردن (في الكتاب المشار إليه – ص *176*) إلى أنه من المحال تصور رضا ميلتون عن هذه التعميمات ، ولكن الواضح أن آدم لم يصل إلى درجة التوبة الكاملة بعد .

758– «ولكنك يا آدم» – يجري آدم حوارًا خياليًا مع الله ، فيتصور ما يقوله له ورده عليه ، وقد حاولت إيضاح ذلك في الترجمة .

760–765 انظر إشعياء (*10/45*) «ويل للذي يقول لأبيه ماذا تلد ، وللمرأة ماذا تلدين» .

770– الإحالة إلى انتهاء اللعنة التي حكم بها الله على آدم في تكوين *19/3* «لأنك تراب وإلى تراب تعود» .

786–792 حجة آدم هنا هي أنه مادامت روحه هي التي أخطأت ، ومادام الموت هو عقاب الخطيئة ، فمن الظلم أن يموت جسده ولا تموت روحه . ويقول ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية (*13/1*) إنه يرفض القول السوفسطائي بأنه على الرغم من موت كيان الإنسان كله ، فإن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن كيان الإنسان كله ينبغي أن يموت (طبعة كولمبيا *227/15*) ويقول في الفصل نفسه : «هل هناك أسخف من القول بأن العقل،

وهو المرتكب الرئيسي للجريرة ، ينبغي أن يفلت من عقوبة الموت التي تتهدد الإنسان ، وأن الجسد وحده ، الذي وُهب

الخلود مع العقل سواء بسواء قبل أن يأتي الموت إلى العالم بسبب الخطيئة ، يجب أن يتحمل عقوبة الخطيئة بالموت وإن لم يشارك في ارتكاب الإثم؟» (219) ويقول أيضًا: «إن موت الجسد هو فقدان الحياة أو إعدامها . أما التعريف الشائع الذي يفترض أن الموت هو انفصال النفس عن الجسد ، فهو تعريف غير مقبول . إذ ما الذي يموت في الإنسان عندما يحدث هذا الانفصال؟ هل هي الروح ؟ لن يقبل ذلك مناصرو التّعريف المذكور . هل هو الجسد إذن ؟ ولكن كيف يقال إنه يموت وهو الذي لم يتمتع بأي حياة في ذاته من قبل ؟ ومن ثم فلا يمكن القول بأن انفصال النفس عن الجسد هو موت الإنسان» (الفصل نفسه 217 - 219). ويعلق فاولر على ذلك قائلاً: إن إيمان ميلتون بموت العقل والجسم معًا وبعثهما معًا لم يكن بدعة شاذة ، بل كان فهمًا صحيحًا للكتاب المقدس. ولقد ناقش آخرون هذه القضية أيضًا مثل موريس كيلي الذي يؤكد صحة موقف ميلتون في كتابه عن علاقة كتاب ميلتون المذكور بالفردوس المفقود (في صفحة 13) ومثل جورج ويليامسون الذي نشر مقالاً في مجلة دراسات في فقه اللغة عام 1935 (العدد 32 ، في الصفحات 553 - 579) يعارض فيه ميلتون ثم صحح ن. هـ هنري «أخطاء» ويليامسون في مقال نشر بالمجلة نفسها عام 1951 (العدد 48 - صفحة 248) . ولكن الخلاف حول هذه القضية لم يحسم بسبب طابعها الديني المحض ، إلى جانب ما تتضمن من غموض في تعريف العقل والنفس والروح وهي المفاهيم الخلافية في تفاسير الكتاب المقدس .

788- «الموت الحي» معناه الموت الأبدي mors aeterna وهو يمثل الدرجة الرابعة من الموت ، على نحو ما ورد في حاشية سابقة على السطور 323 - 333 من الكتاب الثامن ، وكما أوضحه ميلتون في كتابه عن العقيدة

المسيحية.

798 - 801 يقول فاولر: إن آدم يخطئ هنا في فهم أصول الدين، وإن ميلتون لا يرى أي تناقض بين موت الإنسان بدنًا وروحًا أولاً وبين بعثه من جديد يوم الدين.

804 - 808 هذه الحجة التي يسوقها آدم عزاءً وتسرية مستقاةٌ من «المدارس» أي من أحد المذاهب الاسكولائية التي تقول بأن تلقي أي شيء يتوقف على أسلوب التلقي وتزعم أن ذلك بديهي (Quod recipitur per modum recipientis) وهي بديهية ترجع إلى كتاب أصدره ستاليوس Stahlius في عام (*1651*) بعنوان: البديهيات (Axiomata) وآدم يقول في الواقع: إن معنى الموت وعمل الموت يتوقفان على طبيعة الشيء الذي يموت (أي ينصب عليه فعل الموت) ولما كان الجسد عاجزًا عن الخلود في ذاته فكيف يخلد في الموت؟ وهي حجة تتضمن قدرًا كبيرًا من السفسطة.

813- انظر مونولوج الكينونة في مسرحية هاملت *3/ 1/ 64 - 68*:

نهايةٌ ما أجدر الإنسان أن يطلبها! موت هو الرقاد!
لكنّ من ينام قد تعوده الأحلام! وذاك سر العقبة!
إذ ما عسانا أن نراه في منام رقدة الأبدية
من بعد أن نفلت من قيودنا البشرية
يرغمنا على التمهل!

825- لا يؤمن ميلتون بمذهب كالفن(Calvin) القائل بانحطاط الإنسان انحطاطاً كاملاً ولكنه يؤمن «بالانحطاط المشترك (العام) للعقل الإنساني» - كما يقول في كتابه عن العقيدة المسيحية:

(Communis ... mentis humanae pravitas)

826-827 انظر رومية (*1/ 23*) «الذين إذ عرفوا حكم الله أن

الذين يعملون مثل هـذه يستوجبون الموت لا يفعلونها فقط بل أيضًا يسرّون بالذين يعملون» .

828 - 844 أخيرًا يصل آدم إلى الإقرار الكامل بخطيئته ولكن يعجز عن الانتقال إلى المرحلة التالية من مراحل التوبة وهي مرحلة الندم ، فيلقي بنفسه في غمرة اليأس . ويقول ميلتون في كتاب عن العقيدة المسيحية (19/1) «لنا أن نميز بين عدة خطوات متعاقبة على طريق التوبة ، وهي الإقرار بالإثم ، ثم الندم ، ثم الاعتراف ، ثم الإقلاع عن الشر ثم التحول إلى الخير» .

832 - يقول الشراح: إن تكرار ضمير المتكلم مستقى من الإنيادة (فيرجيل) حين يعرض «نيسوس» (Nisus) على الروتوليين (Rutulians) ويحاول افتداء «يوريالوس» Euryalus بنفسه ، قائلاً : me, me, adsum, qui feci in me convertite ferrum (ix, 427 وإشارة إلى محاولة أبيجيل افتداء «نابال» في صمويل الأول (25/ 24) وانظر 32 - 44 من الكتاب الحادي عشر والحاشية .

841 - سبق لنا سماع تمييز الله سبحانه بين خطيئة إبليس وخطيئة آدم في الكتاب الثالث (السطر 129 وما بعده) ولذلك يتضح لنا خطأ هذه النظرة التي يمليها اليأس .

842 - ولكن الله تعالى يقول في الكتاب الثالث (السطور 194 - 197) إنه سوف يجعل الضمير «الحكم الفصل» في الصدور ، هاديًا ومرشدًا ، وأن الإنسان إذا ما استمع إليه فسوف يصل إلى بر النجاة والأمان في النهاية . ويورد ميلتون «الضمير» بين شخصيات المسرحية (في المخطوطات) التي كان يحاول كتابتها عن سقوط الإنسان .

- لا يزال آدم يظن أن شروط الحظر المفروض يمكن أن تتحقق حرفيًا بموته الجسدي ، وهو لا يبدأ في إدراك العدل الإلهي إلا عندما لا يحدث ذلك وهو يدرك الألغاز المحيطة بالعدل الإلهي تدريجيًا ، فيكتشف أهم عنصر وهـــو أن الرحمة تسبق العدل ، وأن التنفيذ واقع لا محال وإن كان يتسم باللطف .

- هذا صدى لأنشودة الصباح التي أنشدها آدم وحواء ، خصوصًا في الكتاب الخامس ، السطور - .

- بعض المفسرين يقرنون حواء بالحية استنادًا إلى الاشتقاق في اللغات السامية .

- يتخذ آدم الآن موقفًا متشددًا من رغبة حواء في العمل وحدها، ويتحدث بلهجة مختلفة عن أهدافها ودوافعها - قارن ما ورد في الكتاب التاسع - .

- الهجوم الصارخ على المرأة يعكس روح العصر ، وخصوصًا الكتاب الذي يكثر الباحثون من الإشارة إليه وهو «من تأليف سويتنام (Swetnam) والذي صدر عام - وفيما يلي عنوانه الأصلي» ..

The Arrraignment of Lewdel Idlel Forwardl and .Unconstant Women

أي (اتهام الفاسقات والعاطلات والطامحات والخائنات).

وتقتطف الباحثة سفندن فقرات مطولة منه للتدليل على مغزى «الضلع الملتوي» الذي خلقت منه حواء لدى كتاب العصر وخصوصًا شراح الكتاب المقدس ، مثل أندرو ويليت ، الذي يقول في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه في شرح سفر التكوين ، واستنادًا إلى مفسرين آخرين (من بينهم ميرسيروس (Mercerus) وكالفن (Calvin) ، إن

حواء لابد أن تكون قد خلقت من ضلع زائد (إضافي extra) لدى آدم حتى تخلق بهذا الكمال أول الأمر . ثم يستمر قائلا: إن هذا الضلع كان «زائدًا عن العدد ... أي فوق العدد المعتاد أو الأضلاع التي خلقها الرب عن عمد ولغاية ما ، لا باعتباره زائدًا عن الحاجة أو من قبيل العيب في الخلقة ، بل باعتباره لازمًا لخلق المرأة الذي كان الله يعتزمه» (ص) .

- نموذج آخر للعداء للمرأة في العالم القديم - انظر مسرحية هيبوليت (Hippolytus) للكاتب المسرحي اليوناني يوريبيديس (السطر وما بعده)

- العــورة هي الخلل والعيب وهي ترجمة دقيقة لكلمة defect الإنجليزية هنا ، ويؤثر عن أرســطو قوله في De Generatione (عن التكاثر) :إن الأنثــى ذكر ناقص أو معيب / (فيه عــوار) أو (the female is a defective male) .

- يقول فاولر: «إن على من يحاول العثور في هذه الأبيات على إشارات إلى حياة الشاعر أن يذكر التطرف الشديد في نبوءات آدم ، فتكاثر المصائب التي يذكرها آدم ، والتي تكاد تثير الضحك ، تتفق مع ما يكابده من يأس في هذه اللحظة ، لكنها لا تتفق مع رأي ميلتون المتسم بالعقلانية. فإن ميلتون يتعمد أن ينسب إلى آدم على امتداد هذه الفقرة مشاعر تدين صاحبها وآراء ضالة» .

- لاحظ أن حواء هي التي تذكر آدم بذلك إذ إن العداوة - وفقًا لمنطوق الحُكْم - سوف تكون بين المرأة والثعبان - انظر تكوين / «وأضع عداوة بينك وبين المرأة» .

- هنا رجع صدى للبيت في الكتاب الرابع ، حيث تُميّز طبيعة

الرجل عن طبيعة الأنثى بألفاظ مشابهة «خُلق هو لله وحده وخلقت هي لله من خلاله» وانظر المزمور 51/ 4 «إليك وحدك أخطأت».

959 - «في مكان آخر» تعني إما «في السماء» أو «ساحة الحكم» الواردة في السطر 932.

995 - انظر دانتي - الجحيم «في شوق لا يحدوه أمل» (4/ 42) عن ترجمة حسن عثمان.

996 - لاحظ أن ميلتون يشير إلى المحبوب الماثل (حواء) بتعبير (The present object) وقد يرى البعض في ذلك تخفيضًا لقدر المرأة خصوصًا بعد أن شاع تعبير (sex object) بمعنيكيان جنسي أو حتى سلعة جنسية، ولكن ميلتون يقصد (object of love) أي المحبوب، وهو ما يظهر في الترجمة.

1007 - «اليأس المشبوب» في الأصل (vehement despair) وعادة ما يفسر اللغويون الصفة استنادًا إلى أصلها الاشتقاقي إذ تتكون من vehe - التي تعني «بدون» أو «بغير» ومن mens التي تعني العقل، ولكن الصفة تكاد تقتصر على المشاعر، على أي حال، ومعنى الشدة الوارد فيها معنى أساسي، واشتباب اليأس وشدته معناه إقصاء التفكير العقلاني.

1013 - 1024 كتب جورج ويليامسون دراسة في مجلة دراسات في فقه اللغة (32) عام 1935 بعنوان: «ميلتون وبدعة الانتحار» (553 - 579) يدافع فيها عن إدانة ميلتون للانتحار باعتباره منافيا لقانون الطبيعة، في سياق عرضه للمناقشة التي دارت في القرن السابع عشر حول هذا الموضوع، والواقع أن ميلتون يدين الانتحار في كتاباته الأخرى مستشهدًا بالثقات ممن سبقوه، ويقول بصراحة في كتابه عن العقيدة المسيحية : إن المنتحرين يجب أن يوضعوا في قائمة «رجال الدماء والغشّ لا يَنْصُفُون أيامهم» (المزمور 55/ 23) أي لا يعيشون نصف أيام حياتهم.

1028 – «أن يجعل الموت يحيا فينا» – انظر الحاشية على «الموت الحي» في السطر *788* أعلاه .

1052 – *1053* انظر إنجيل يوحنا (*16/ 21*) «المرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت . ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح لأنه قد ولد إنسان في العالم» .

1053 – «بثمرة رحمك» – في الأصل (fruit of the womb) وهي نفس العبارة الواردة في إنجيل لوقا *1/ 42* (بالإنجليزية) وقد ترجمت إلى العربية «ثمرة بطنك» وهي الإشارة إلى المسيح عليه السلام في إنجيل لوقا .

1088 – *1092* بعد أن انتقل آدم من مرحلة الإقرار بالذنب إلى مرحلة الندم على اقترافه أصبح الآن مستعدًا للاعتراف ، وهي المرحلة الثالثة من مراحل التوبة – انظر الحاشية على الأبيات *828* – *844* .

1090 – انظر إشَعْياء (*16/ 9*) «أرويكما بدموعي يا حشبون وألعالة» ، وربما كان يشير إلى الصورة نفسها في إنيادة فيرجيل *11/ 191* :

(Spargitur et tellus lacrimis)

1091 – إشارة أخرى إلى مزمور من مزامير التوبة «ذبائح الله هي روح منكسرة . القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقرْه» (مزامير *51/ 17*).

1096 – *1097* أخيرًا يأتي الإدراك الصريح لرحمة الله حتى يقترن بإدراك عدله ، ورحمة الله هي في الواقع موضوع الحديث الممتد من السطر *1046* إلى *1096* ولكن كلمة الرحمة نفسها لا تأتي حتى السطر الأخير . وفي السطر التالي *1097* يمكن اعتبار آدم تائبًا حقًا وصدقًا .

1098 – *1104* تكرار لما ورد في السطور *1086* – *1092* ،وقد تحول الكلام إلى سرد ، وقد سبق استخدام الأسلوب نفسه في الكتاب الرابع ، في السطور *641* – *656* .

حواشي الكتاب الحادي عشر

1 – يمثل السطر الأول استئنافًا للحديث بعد التوقف في آخر الكتاب العاشر، كأنما طال بآدم وحواء السجود لله عزّ وجلّ.

2 – مقعد الرحمة (mercy - seat) هو الغطاء المصنوع من الذهب الخالص الذي يغطي تابوت العهد، وقد ورد وصفه تفصيلا في سفر الخروج، في الإصحاح الخامس والعشرين، باعتباره مقرًا للإله عند بني إسرائيل، وورد في الآية الثامنة عشرة من هذا الإصحاح رسم وصناعة ملاكين من ملائكة الشاروبيم، ووضعهما على الغطاء، بحيث يكونان «باسطين أجنحتهما إلى فوق» (20) وكان مفسرو العهد القديم يقولون: إن ذلك دليل على الشفاعة عند الله في السماء.

3 – «الرحمة» هنا هي التدخل الإلهي السابق (prevenient) لكل عمل بشري، وهي إذن من أهم صور الرحمة إذ يقول المفسرون إنها الهداية التي تسبق تحديد الإرادة الإنسانية، ومع ذلك فهي لا تجبر الإنسان على قبول أي شيء، أو فعله، بل تظل إرادة الإنسان حرة في قبول الهداية أو رفضها. وذلك المفهوم يستند إلى بعض آيات الكتاب المقدس، مثل الآية العاشرة من المزمور رقم 59 «إلهي رحمتك تتقدمني»، والكلمة الإنجليزية التي يستعملها ميلتون مبنية على الكلمة الواردة في الصورة اللاتينية لهذه الآية في الترجمة الشعبية للكتاب المقدس:

(Deus meus|misericord ia|eius praeveniet me)

4 – انظر حزقيال 11/19 «وأعطيكم قلبًا واحدًا وأجعل في داخلكم روحًا جديدًا وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم».

5 – 7 انظر رومية (8/26) «وكذلك الروح أيضًا يعين ضعفاتنا. لأننا لسنا

نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنْطق بها» .

10 - 14 «ديوكاليون» (Deucalion) هو المثيل الأسطوري لنوح عليه السلام ، إذ زُعم أن أباه «بروميثيوس» نصحه ببناء سفينة مكنته من تفادي الغرق في الطوفان ، وعندما غيض الماء ذهب مع زوجته «بيرا» (Pyrrha) إلى عرافة «تيميس» (Themis) طلبًا للمشورة ، فأجيبت دعواتهما ،إذ عُلّما السبيل إلى إعادة الجنس البشري إلى الحياة ، وكان ذلك بإلقاءالحصى والحصباء خلفهما أثناء سيرهما ، فتحول الحصى إلى رجال ونساء. وترجع أهمية الصورة الأسطورية إلى رمزية الحصى باعتبارها قطعًا صغيرة من الحجر، وهكذا فإن تحول الحجر إلى بشر صورة لتحوّل القلوب الغليظة كالأحجار .قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة : *74*). أي إلى اتخاذها طابع الرحمة الإنسانية ، وهي صورة تصب مباشرة في تحوّل آدم وحواء إلى التوبة النصوح .

14 - 16 «الرياح الحسود» هنا هي «الريح العاصفة التي تهب .. ثم تلوي عاتية في الهواء الشارد» (الكتاب الثالث *487 - 489*) ، بكل من تجرفهم «جهود الخرافة والحماس الأعمى» (*3/ 452*) .

17 - «بلا أبعاد مادية» لأنها روحية محضة ، انظر المزمور *141/ 2* «لتستقم صلاتي كالبخور قدامك ليكن رفع يدي كذبيحة مسائية» . وانظر رؤيا يوحنا اللاهوتي (*8/ 3*) «وجاء ملاك آخر ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأعطى بخورًا كثيرًا لكي يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم على مذبح الذهب الذي أمام العرش» .

19 - «الشفيع» هو المسيح هنا - انظر العبرانيين (*9/ 24*) «لأن المسيح لم يدخل إلى أقداسٍ مصنوعةٍ بيدٍ أشباه الحقيقة

بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» .

24 – انظر الرؤيا (5/ 8) «جامات من ذهب مملوّةً بخورًا هي صلوات القديسين» .

26 – «أطيب رائحة» – طيب رائحة الأضحيات أو القرابين المقبولة من الصور الشائعة في الكتاب المقدس ، ولكن العبارة تحمل أصداء الفاكهة المحرمة في الكتاب الخامس «وفاحت رائحتها الطيبة الممتعة» (84) والتاسع «أثارتها رائحة رائعة اللذة لتلك الفاكهة» (741 – 742) وانظر حزقيال (20/ 41) «برائحة سروركم أرضى عنكم» .

26 – 30 يمزج ميلتون هنا بين إشارتين للكتاب المقدس، وتحديدًا لمثال الزرع والبذر ، فهو يعدّل الصورة الواردة في إنجيل مرقس 4/ 14 – 20 «الزارع يزرع الكلمة ...» على ضوء الآية الواردة في العبرانيين 13/ 15 «ثمر شفاه معترفة باسمه» .

31 – انظر رومية (8/ 26) «ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها» .

32 – 44 يقول الشراح: إن تكرار ضمير المتكلم للتأكيد (التوكيد اللفظي) يساعد على ربط هذه الفقرة بالفقرة التي يعرض المسيح فيها نفسه للموت فداءً للإنسان في الكتاب الثالث ، السطر 236 وما بعده «هاأنذا إذن أتقدم لأفديه، وأقدم حياتي/ مقابل حياته ...» وانظر الحاشية على الأبيات 738 – 740 ، والبيت 832 من الكتاب العاشر (حيث يرد ذكر الإشارات الأدبية).

33 – انظر رسالة يوحنا الرسول الأولى (2/ 1–2) «لنا شفيع عند الأب [هو] يسوع المسيح البار ، وهو كفارةٌ لخطايانا» .

35 – «تطعيم الفرع بالغصن» صورة تحافظ على استمرار الصور الزراعية

(البذر والغرس والثمر) . انظر رومية (16 /III وما بعده) «وإن كان الأصل مقدسًا فكذلك الأغصان . فإن كان قد قطع بعض الأغصان وأنت زيتونة بريّة طُعِّمَتْ فيها ...» .

43 - 44 انظر إنجيل يوحنا (17/ II، 21 - 22) «أيها الأب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن ... ليكون الجميع واحدًا ... ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا» .

45 - «دون سحائب في محياه» ، أي دون تقطيب جبينه ، ولكن الصورة تلمح من طرف خفي إلى السحائب التي تخفي وجهه عندما يخاطب الملائكة أو البشر (انظر العدد 25 /II ، إنجيل مرقس 9/ 7، والكتاب الثالث - البيت 378 وما بعده ، والكتاب السادس 28) .

49 - 57 لا يُشار هنا إلى الطرد من الفردس باعتباره «عقوبة» بل باعتباره نتيجة محتومة للتغيير الذي طرأ على طبيعة الإنسان بعد السقوط .

64 - «الأعمال التي تصدّق الإيمان» أي الأعمال التي تنبع من الإيمان وتحققه فتثبت وجوده ، فالإيمان هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل ، أي حققه ، وجاء في التنزيل العزيز: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ (سبأ : 20) ، وانظر «بالإيمان الذي يصدقه العمل الصالح» في الكتاب الثاني عشر، البيت 427، والواضح أن ميلتون كان يعتنق العقيدة البروتستانتية العامة القائلة بالتبرير بمعنى التبرئة من الخطيئة (من بَرّ يَبَرُّ أي صَلَحَ يَصْلُح والبِرُّ هو الصلاح) استنادًا إلى الإيمان ببِرّ المسيح أو استنادًا إلى رحمة من الله تجعل المرء بَرّا أي تبرّره ، والأبرار هم الصالحون (عكس الفجار) ولا مناص من وجود الإيمان. قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (البقرة : 177). ولا مناص أيضًا من الأعمال

التي تصدّق الإيمان: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران : 92) . والبِرُّ يجمع على أبرار وبَرَرَة ، ولكنني تجنبت في الترجمة كلمة «التبرير» بسبب دلالتها المعاصرة ، كما فضلت «الصلاح» على البِر بسبب دلالة الأخيرة على الإحسان والوفاء (كما في التنزيل العزيز) . والبيت الذي نحن بصدده يمثل المرحلة الهامة من مراحل توبة آدم وهي مرحلة الإيمان .

65 – «نشور الأبرار» انظر إنجيل لوقا «قيامة الأبرار» (*14/14*) .

66 – انظر رسالة بطرس الثانية (*3/ 13*) «ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضًا جديدة يسكن فيها البر» .

73 – 6 ربما يكون هذا البوق هو «البوق الأثيري» الذي أعطى الإشارة للمعركة في الكتاب السادس ، البيت 60 .

74 – انظر سفر الخروج (*16/ 19*) والكتاب السادس 56 – 60 .

75 – انظر تسالونيكي (*4/ 16*) «لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً» .

84 – 98 الإشارة إلى سفر التكوين (*3/ 22 – 23*) «وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر ،والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن» .

102 – 103 «ممتلكات بلا صاحب» تعبير لا يقصد به المعنى الظاهر فيه بل يقصد به السخرية من تصور إبليس أن ثمة «ممتلكات بلا صاحب» ، وهكذا فالتعبير يتضمن سخرية باطنة من إبليس .

105 – يقول بيرون في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه :إن هذا تحذير

من شفقة في غير محلها ، لأن الشفقة هنا تعني أن الله جل وعلا يظلم آدم وحواء بطردهما من الجنة ، والمعروف أن ميلتون يصور الملائكة في صورة من تثار شفقته بسرعة [انظر الكتاب الخامس 566 والعاشر السطر 25] .

118 - 122 الإشارة إلى سفر التكوين (*3/ 24*) «فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة».

128 - 129 انظر حزقيال (*1/ 4 - 6، 16*) حيث يتكرر ذكر الوجوه الأربعة ، وانظر البيت *753* من الكتاب السادس والحاشية على الأبيات *749 - 759* من الكتاب نفسه ، وأما «الإله يانوس مضاعفًا» فتعني أنه أصبح ذا أربعة وجوه بدلاً من اثنين ، أي Ianus quadrifrons الذي يتولى حراسة الأبواب. ويقول فاولر: إن التشبيه مناسب لأن الإنسان يخرج الآن إلى عالم من التغيير ، وهو التغيير التاريخي وتغير فصول العام . وقد نشر الباحث أ. هـ. جلبرت مقالاً في مجلة PMLA (العدد *54* لعام *1939*) يقول فيه: إن العدد «أربعة» هو العدد الذي أصبح رمزًا للتغير مستشهدًا بما يقوله القديس أوغسطينوس من موازاة الوجوه الأربعة بأركان الأرض الأربعة .

129 - 133 انظر حزقيال (*1/ 18*) «وأطرها ملآنة عيونًا حواليها للأربع». وتقول الأسطورة: إن «أرجوس» (Argus) كُلِّف بحراسة «يو » Io » لأنه كانت له مائة عين تتناوب في الرقابة ، ولكن «ميركوري» (Mercury) جعل ينفخ في مزماره المصنوع من البوص أولاً حتى جعل جميع العيون تخلد للنعاس (مسخ الكائنات - أوفيد ، *1/ 682 - 684*) ثم خدرها بعصاه المنوّمة (virga somnifera) (المرجع نفسه، السطر *671* وما بعده ، والسطر *716*) وكان المفسرون يعدون «أرجوس» ، مثل «يانوس» رمزًا زمنيًا أو فلكيًا .

134 - 135 «ليوكوثيا» (Leucothea) اليونانية هي «ماتير

ماتوتا» (أو الأم ماتوتا Mater Matuta) الرومانية، ربة الفجر ، التي تعادل (Aurora) .

141 - هذه أول مرة يذكر آدم «الإيمان» فيها ، وقد سبق الحديث عن هذه المرحلة من مراحل توبته .

142 - انظر رسالة يعقوب (*1/ 17*) «كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران».

148 - «عرش الله» - في الأصل الإنجليزي «The seat of God» - ويقول فاولر: إن seat هو مقعد الرحمة mercy - seat المشار إليه في السطر الثاني من هذا الكتاب (وانظر الحاشية) ولكن المعنى يبدو لي أكبر وأعم ، فهو أقرب إلى الكرسي أو العرش ، ولا حاجة بنا إلى الاستمساك بتراث «تابوت العهد» الخاص ببني إسرائيل وحدهم .

158 - يلقي آدم على حواء السلام «وهي التحية القدسية التي ألقيت/ بعد زمن طويل على حواء الثانية - مريم البتول - فباركتها» (الكتاب الخامس *386* - *387*) لأن حواء قد حظيت بالوعد الذي وُعِدتْه باعتبارها - كما يقول فاولر - صورة من صور مريم البتول .

159 - انظر تكوين (*3/ 20*) «ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حيّ».

171 - *172* مشيرة إلى لعنة آدم في الكتاب العاشر *205* وسفر التكوين *3/ 19*.

182 - *19* يرمز الوحشان والطائران إلى الزوجين من البشر ، ويشير اتجاه الطراد إلى الوجهة التي سيسير فيها آدم وحواء خارجين من الفردوس .

204 - انظر اشعياء (*3/ 16*) «اصنعي إنصافًا اجعلي ظلك كالليل في

وسط الظهيرة».

209 - انظر الكتاب الثالث 363 - 364 ، ورؤيا يوحنا اللاهوتي (4/ 3) حيث يتبدى «الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد».

212 - «الخوف البشري» في الأصل carnal fear أي خوف الكيان الجسدي من الكيان الروحاني.

213 - 215 - انظر تكوين (32/ 2) «وقال يعقوب إذ رآهم هذا جيش الله. فدعا اسم ذلك المكان حنايم» وهي كلمة تعني اصلجَيْشَيْنش أو اصلمُخَيَّمَيْنش، وكان سبب التسمية (وفقًا لمعجم الكتاب المقدس) The Illustrated Bible Dictionary, ed. M.G. Easton London, 1989 هو أن يعقوب عليه السلام عندما استقبل الملائكة قسّم حاشيته إلى قسمين أو مخيّمين لاستقبال ضيوفهم السماويين، ولكن عدم وجود المثنى في اللغات الأوربية الحديثة أدى إلى تصور أن الكلمة جمع. وعلى أي حال فلابد أن فكرة الخيام (من المُخَيَّمَيْن) كانت واردة في ذهن ميلتون عندما أشار في السطر 215 إلى أن الحرس ضربوا خيامهم في الميدان.

216-220 انظر ملوك ثان (6/ 13-17) حيث تفاصيل الواقعة.

232 - 233 انظر المزمور (93/ 1) «الرب قد ملك. لَبِسَ الجلال. لبس الرب القدرة. ائتزر بها. أيضًا تثبت المسكونة. لا تتزعزع». والإشارة، كما يقول فاولر: توحي بأن ميكائيل أُضفيتْ عليه مسحة ربانية.

242 - تقع مدينة «مليبوا» (Meliboea) على ساحل ثيساليا (Thessaly) وقد اشتهرت منذ العصور الغابرة بثيابها الأرجوانية الزاهية، ويشير ڤيرجيل في الإنيادة (5/ 251) إلى جائزة ثمينة هي عباءة

من أرجوان مليبوا purpura Meliboea .

243 – مدينة «صور» الحالية في بلاد الشام (Tyre) وهي في ميلتون (Sarra) .

249 – 251 البداية بلا تمهيد تتناقض مع اللقاء الهادئ المطمئن بين آدم وروفائيل في الكتاب الخامس *358 – 371* .

254 – لاحظ اللغة القانونية المستخدمة في الأصل والتي تحاكيها الترجمة العربية قدر الطاقة .

256 – 257 – انظر رسالة بطرس الأولى *4/ 8* .

259 – 262 – لاحظ أن ميكائيل ينقل الرسالة الإلهية نقلاً حرفيًا – بل كلمة بكلمة – على نحو ما وردت في السطور *96 – 98* من هذا الكتاب نفسه .

277 – 279 انظر الحاشية على الأبيات *343 – 356* من الكتاب الثامن بشأن الاهتمام بتسمية الأنواع والفصائل في المملكة الحيوانية والنباتية إبان القرن السابع عشر .

296 – 298 لم يكن آدم قبل السقوط يأبه للمراتب الاجتماعية للملائكة .

307 – 310 يقول النقاد: إن هذا أول الأخطاء الكثيرة التي يقع فيها آدم في حواره مع ميكائيل، فلقد جاء في إنجيل لوقا (*18/ 5 – 7*) أن الإلحاح بالصلوات والدعاء يمكن أن يؤتي بعض الثمار .

316 – قارن رد الفعل من جانب قابيل على اللعنة التي فرضت عليه (تكوين *4/ 14*) : «إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهًا وهاربًا في الأرض» .

325 – 326 – كان من عادة آدم وحواء ، حسبما يقول المفسرون ، إقامة مذبح في كل مكان يتجلى الله لهما فيه .

327 – إحراق القرابين ليس مناسبًا للفردوس – انظر الكتاب العاشر *1078*

1081، وانظر سفر التكوين (4/ 3) حيث يقدم قابيل قربانًا من الفاكهة .

331 - «الذرية الموعودة» هي الذرية التي قدر لها أن تسحق إبليس - انظر 10/ 175 - 192 .

332 - 333 «أردان جلال الله» - انظر 3/ 380 .

335 - 354 ميكائيل يصحح الحماس «المغلوط» الذي أصاب آدم بعد السقوط لأماكن العبادة وما يسميه النقاد بالخرافات والمأثورات بصفة عامة ، قائلين إن ذلك كله يرتبط في ذهن ميلتون بالاكتئاب والحيرة - وهما صفتان لا تليقان بالمؤمن . أما وجود الله في كل مكان فهو ما تؤكده الفردوس المفقود مرارًا وتكرارًا ، وانظر إرْميا 23/ 24 «أما أملأ أنا السموات والأرض يقول الرب» .

لا هذه الصخرة فحسب إشارة إلى ما قاله المسيح عليه السلام للمرأة السامرية من باب التحذير «قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للأب» .(إنجيل يوحنا 4/ 21) ويقول فاولر: إن استبدال «الصخرة» بالجبل عند ميلتون يعتبر «بوضوح ضربة موجهة إلى خلفاء القديس بطرس ، فاسمه يعني «الصخرة» ، بسبب المبالغة في اعتمادهم على التقاليد واعتقادهم أن وجود الله (أو حضرته) مقصور بمعنى من المعاني على الحدود الضيقة للمؤسسة الكنسية» . ولنضف هنا أن وجود الله (أو حضرته) في كل مكان هو موضوع المزمور 139 كله ، وقد قرأت في كتاب حديث عن ميلتون (1989) من تحرير دنيس دانيلسون (انظر المراجع) أن باحثًا يدعى د. هـ تشارلز حرر كتابًا يتضمن الكتب المشكوك في صحتها والكتب المنحولة في العهد القديم ونشره عام 1913 في مجلدين ويقول في تعليقه على هذا المزمور إن مؤلفه هو آدم عليه السلام (في صفحة 17 من المجلد الثاني) .

355 – يقول فاولر: إن هدف «الرؤيا» هو تثبيت (أو تأكيد to confirm) إيمان آدم، موضحًا أن الإيمان هو موضوع الكتاب الحادي عشر، مثلما كانت التوبة موضوع الكتاب العاشر .

361 – «الصبر الحقيقي» يختلف – ضمنًا – عن «الصبر العاتي» (*2/ 569*) أي الفلسفي والموازي للعناد والمكابرة ، وعن «الرحمة» وهو المذكور في *9/ 920* ، والمنسوب إلى الرواقيين والبيوريتانيين، وإن كان للرواقيين فضل الحض على الاعتدال الذي قبلته المسيحية (السطر *363*) .

362 – «ورع الحزن» هو في نظر بيردن «الشفقة» التي إذا أضيفت إلى الخوف اكتمل رد الفعل المطلوب للمأساة ، وفق تعريف أرسطو ، وهو ما يعني أن آدم سوف يشهد مأساة أو مآسي كثيرة .

366 – «طريق الهلاك» يعني الموت .

372 – يقول «برودبنت» في كتابه عن الفردوس المفقود (ص *98*) (انظر المراجع): إن إسلام الزمام ، أو إسلام الأمر للسماء ، هو الصفة التي يتميز بها تصوير ميلتون لفضيلة الصبر المسيحية ، والتي تختلف من ثم عن «الجلد البارد الرواقي» (انظر «التسليم الخاشع» (الإسلام) في السطر *597* من الكتاب الثاني عشر ، وانظر الحاشية على السطر *361* أعلاه) .

375 – *376* يتضمن السطران أصداء من آيات وردت في العبرانيين *4/ 11*، وفي فيلبي *3/ 1* مما يوحي ضمنًا بأن الغاية هي البعث .

377 – *384* تقول إيزابيل ماكافري (MacCaffrey) في كتابها «الفردوس المفقود باعتبارها أسطورة» (*1959*): إن هذه الصور التي «سيعرضها ميكائيل على آدم يمكن إدراجها في إطار «الرؤى الربانية غير الملتزمة بالسياق الزمني»،وتنتهي من ذلك إلى أنها تعتبر لوحات ثابتة (static tableaux)

(ص 61) ولكن فاولر ما يفتأ يكرر أنها مآس أو مأساوات موجزة ، يختار ميلتون من أحداثها حدثًا يتسم بالحركة لا بالسكون ، ويبدو أن ذلك هو ما انتهى إليه بيرون أيضًا إذ يقول: إن دور المُشاهد الذي يقوم به آدم يمثل الدور الذي يأمل ميلتون أن يقوم به القارئ دون أن يقع في الأخطاء التي وقع فيها آدم ، والواقع أن اللوحات تتضمن بعض الأحداث ، ولكنها لا تصل إلى عمق المأساة بمعناها المعتاد . والإشارة هنا إلى صعود حزقيال «كانت عليّ يد الرب وأتى بى إلى هناك ، في رؤى الله أتى بى إلى أرض إسرائيل ووضعني على جبل عال جدًا عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب» (40/ 1 -2) وقارن ذلك بما جاء في إنجيل متى (4/ 1 و 4/ 8) «ثم أصعد يسوع إلى البريّة من الروح ليجرّب من إبليس ... ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عالٍ جدًا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها» ..

388 – 395 يقول فاولر: إن ميلتون يرتب الممالك الآسيوية ترتيبًا يقوم على التناظر وفقًا لنسق من أنساق مذهب «الباروك» (Baroque) الفني، يتميز بوجود مركز وجناحين . فأما شبه جزيرة الملايو ، التي لا يُذكر لها حاكم ، فتحتل المركز أي تقع في الوسط ، والجناحان يضمان مملكة المغول والمملكة الفارسية ولكل منهما عاصمتان ، ثم تأتي بعدها دولتا ملوك الصين والقياصرة ولكل منهما عاصمة واحدة ، وأخيرًا تأتي – في كل جناح – مملكتان يحكم الأولى «خان» والثانية سلطان . ويمكن ترتيبها إذن على النحو التالي : (1) قيطان ، (2) مملكة التتار ، (3) الصين، (4) الإمبراطورية المغولية ، (5) شبه جزيرة الملايو «الذهبية» (6) بلاد فارس ، (7) روسيا ، (8) بيزنطة و (9) تركستان . وأما سبب احتلال الملايو الذهبية مركز الوسط فيتضح عند تكرار النسق في تعديد الممالك الإفريقية في السطور 396 – 407 .

ولقد راعيت في الترجمة إيجاد المقابل الحديث للأسماء القديمة ، تخفيفًا للغموض واعتمدت في التحديث على الأطلس التاريخي وعلى أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ، وبعض الموسوعات (والمعاجم بطبيعة الحال) وأرجو أن أكون قد وفقت في إيضاح ما قد يجده حتى قراء الإنجليزية غامضًا في نص ميلتون ، رغم شروح الشارحين وتفسيرات المفسرين .

396 - 407 «ولم يفت عينه أن تلمح» عبارة تشير إلى الانتقال من آسيا إلى إفريقيا . ويقول فاولر: إن الترتيب هنا يشبه ترتيب الممالك الآسيوية من عدة زوايا ، فهي تسع ممالك أيضًا ، والأخيرة تحتل مرتبة مستقلة (لأنها هنا أوروبية) على النحو التالي : (*1*) الحبشة ، (*2*) مومباسا ، (*3*) كيلوا ، (*4*) مالندي، (*5*) صوفالا - أوفير ، (*6*) الكونغو ، (*7*) أنجولا ، (*8*) بلاد البربر (شمال إفريقيا) التي يحكمها الملك المنصور ، (*9*) روما. والملاحظ أن «صوفالا» يُظنّ أنها «أوفير» ، وذلك مثلما أضيف اسم «أوفير» إلى الملايو ، وكل منهما يحتل مركز السيادة في الوسط ، وربما يكون ذلك بسبب الذهب أو مناجم الذهب التي اشتهرت به كل منهما ، وعلاقة ذلك بالنبي سليمان عليه السلام ، وأما «أوفير» فاسم أطلق على عدة أماكن اشتهرت بالذهب، وجاء في معجم الكتاب المقدس (المشار إليه آنفًا) أن أوفير ، وهو ابن يقطان بن عابر بن شالح بن آرام بن سام بن نوح عليه السلام (تكوين *10/ 21 - 25*) هو الاسم الذي حُرّف عن «صُفير» (أو «صوفير») الاسم القبطي للهند ، وأنه الاسم الذي يحمله المكان باللغة العربية ، كما جاء في المعجم المذكور أن المؤرخ يوسفوس قال: إن ذلك المكان هو شبه جزيرة الملايو ، وإن كان العلماء يقولون إنه مدينة «أبهيرا» المعاصرة على مصب نهر السّند . وينتهي المعجم إلى القول بأن ثمة حججًا

كثيرة على أن المكان يقع في جزيرة العرب . وأما عن علاقة ذلك بسليمان عليه السلام ، وهو الحاكم الوحيد من بين رجال الكتاب المقدس الذي ترد الإشارة إليه ضمنا في هذه الفقرة ، فتتلخص في أنه الحاكم المنصف الذي اعتمد التقسيم (عدلا) مذهبا ، وهكذا فإن الملايو تقع في الموقع الخامس بين الدول الآسيوية ، وصوفالا كذلك بين الدول الإفريقية، أي أنها تتمتع بالموقع الخامس الذي يقسم الدول التسع إلى قسمين متساويين ، كما كان الكفّ (الأصابع الخمسة) رمزًا لسليمان ، أو قل خاتمه الخاص ، بدلالته الدينية و«السحرية» . ويمكننا الاطلاع على هذه الرمزية في المزمور الخامس والأربعين «جعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير» (9)، وانظر أيضًا إشعياء (13/ 12 - 13) «وأجعل الرجل أعز من الذهب الإبريز والإنسان أعز من ذهب أوفير ، لذلك أزلزل السموات وتتزعزع الأرض من مكانها في سخط رب الجنود وفي يوم حمو غضبه». ويورد بعض الشراح مقتطفًا من كتاب أصدره كاهن يدعى فرانشسكو چورچيو (Giorgio) عام 1545 باللاتينية عن نظام العالم المتناغم ،يتحدث فيه عن حكمة وجود هيكل سليمان في منتصف العالم تمامًا in meditullio mundi باعتبار ذلك من وحي الله سبحانه وتعالى، وإن كان الربط بين سليمان والرقم «خمسة» لم يظهر في كتابات ميلتون الأخرى، ويبدو أنه من اجتهادات المفسرين تبريرًا لانشغال ميلتون بالتنظيم العددي للملحمة، واحتفاله بالتناسب العددي بين أجزائها، على نحو ما يفعل فاولر .

399 - «مومباسا» و «مالندي» مدينتان على ساحل كينيا ، و «كيلوا» في تنزانيا الحديثة .

400 - «صوفالا» ميناء يقع في موزمبيق الحديثة . وأما عن تعبير «يظن أنها أوفير» فقد بلغ من ثرائها في الزمن الغابر أن

ظنها الكتاب «أوفير» المذكورة في العهد القديم (انظر الحاشية السابقة) وقد كان نقاء ذهب «أوفير» مضرب الأمثال - انظر كتاب الأخلاق المسيحية للسير توماس براون ، (Thomas Browne) الذي يشير إليه أحد الشراح ويقتطف منه العبارة التالية : «جميع الطباع البشرية تحفل بالشوائب والحثالات الوضيعة التي تتسم بها السبائك المعدنية ، وأما من يظن أنه سوف يجد أوفير أو الذهب الإبريز في أي منها فإنما يحاول الطيران بلا أجنحة» . وكثيرًا ما يرد ذكر ذهب أوفير في سياق بناء هيكل سليمان عليه السلام حتى اكتسبت الكلمة معنى «السيادة الحكيمة» وقد تأكدت هذه الصفة الرمزية في سفر التكوين (*2/ 11* ، *10/ 29*) حيث ارتبطت في أرض «الحويلة» برافد من روافد نهر الجنة يدعى «فيشون»، وهو النهر الذي يقول أحد قدماء المفسرين إنه يعني الحكمة . ويعلق فاولر على استعمال ميلتون لذلك الاسم هنا قائلاً: إن آدم يشهد «المجرى المعنوي» للنهر ، وينسبه آخر الأمر إلى سيادة حكمة الدين الخالص، والواضح أن ذلك اجتهاد يتسم بالغلوّ .

403 - «المنصور» كان لقبًا للعديد من الأمراء المسلمين ، ولكن الكتاب الأوروبيين كانوا يعرفون ويتحدثون عن المنصور محمد بن أبي عامر، حاكم قرطبة (*939* - *1002*) والممالك المذكورة كانت جميعًا أجزاء من دولة البربر القديمة . (أطلس تاريخ الإسلام ص *188*) والمقصود ببلدة «سوسة» هو تونس الحديثة ، وأما تلمسان فهي بلدة في الجزائر .

406 - «رأى بروحه» المعنى هو أن آدم ، حتى وهو على هذا الارتفاع الشاهق ، لم يستطع أن يرى النصف الآخر من الكرة الأرضية بعيني رأسه بل رآها بخياله أو - كما يقول ميلتون - «بروحه» .

407 - *411* - كان القائد الإسباني كورتيز (Cortez) قد فتح مملكة

«مونتيزوما» (Montezoma) ، والقائد بتسارو (بيزارو) (Pizarro) قد فتح مملكة «أتاهوالبا» (Atahuallpa) في بيرو الحالية (Peru) بأمريكا الجنوبية ، وعاصمتها كوزكو (Cuzco) ونهب ثرواتها من الذهب ، ولكن الأسبان لم يكونوا قد استطاعوا فتح «مانوا» (Manoa) وهي البلد التي اشتهرت في الأساطير باسم «إلدورادو» (El Dorado) عاصمة غيانا (Guiana) ولم ينهبوا ثروات الذهب فيها . وأما لماذا يطلق ميلتون على «مانوا» اسم «جريون» (Geryon)؟ فالسبب هو أن «جريون» كان وحشًا له ثلاثة أجساد وثلاثة رؤوس ، وهو الذي قتله هرقل ، وهكذا أتى ميلتون بثلاثة أقاليم تمثل هذا التثليث ، وأما في الكوميديا الإلهية فإن دانتي يصف هذا الوحش بأنه حارس الغشاشين والمحتالين ، وميلتون يصف الإسبان بأنهم أبناء «جريون» لأن سبنسر كان قد جعل من «جريون» مثالاً للطغيان السياسي في عمله الشعري الضخم ملكة الجان ، إذ يقول في الكتاب الخامس، النشيد العاشر ، السطر *8* وما بعده : «إنه جريون/ الذي نشأ في إسبانيا فقذف الرعب في القلوب/ بسبب قوته الهائلة وطغيانه الرهيب» . وكانت غيانا تحظى باهتمام الرأي العام آنذاك ، خصوصًا في عام *1667*، عام ظهور الطبعة الأولى للفردوس المفقود ، بسبب الصفقة التي عقدتها بريطانيا مع هولندا ،وكانت تقضي بتسليم المستعمرة التي أنشأتها بريطانيا عام *1663* في المنطقة الواقعة بين نهري كوبنام (Copenam) وماروني (Maroni) إلى هولندا في مقابل التخلي عن نيويورك لبريطانيا ، وكان ذلك ما عرف باسم صلح بريدا (Breda).

411 – 412 «إزالة الغشاوة عن العينين» صورة شعرية ملحمية شائعة، فإن «بالاس» Pallas في إلياذة هوميروس يزيل الغشاوة عن عيني «ديوميديس» (*5 / 127*) (Diomedes) وفينوس (Venus)

تزيل الغشاوة عن عيني «إينياس» (Aeneas) في إنيادة ڤيرجيل (2/ 604) وميكائيل في ملحمة تاسو (Tasso) الشهيرة «تحرير أورشليم» يرفع الغشاوة عن عيني «جودفريدو» ((Godfredo 13 / 92) والسطور التالية . وقد وردت الصورة العربية في التنزيل العزيز أيضًا : ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ (الكهف: 101) و ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق:22) وأما الغشاوة فوردت في بعض الآيات الأخرى ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ (البقرة: 7) ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ (الجاثية : 23) .

414 - نبات السعد (euphrasy) واسمه المعاصر (eyebright) ونبات الخُفْت من الأعشاب التي كانت تستعمل لزيادة حدة البصر ، أو لعلاج ضعفه ، وهي مذكورة في كتاب معاصر عن الأعشاب ولكن اختيار ميلتون لهذين بصفة خاصة يرجع إلى أن الأول اسمه مشتق من الكلمة اليونانية «يوفراسيا» بمعنى البشاشة والسرور ، والثاني اسمه يتفق مع الكلمة التي تطلق على الحزن أو الشفقة أو الندم ، وكانت التورية في الأخيرة شائعة إلى الحد الذي جعل معجم أوكسفورد الكبير يورد ما لا يقل عن خمسة نماذج منها ، وانتهى بعض النقاد من ذلك إلى أن ميلتون كان يقصد أن إزالة الغشاوة من عيني آدم تطلبت مزيجًا من الفرح (بغفران الله) والندم (التوبة) . وكريستوفر ريكس (Ricks) يلح على دور التوريات في الأسلوب الرفيع عند ميلتون .

416 - انظر المزمور (*36/ 9*) «لأن عندك ينبوع الحيوة . بنورك نرى نورًا» .

418 - انظر الكتاب الثالث :

فليتك يا نور السماء تزداد
إشراقًا بين جوانحي وتضيء أعطاف الذهن
وتنير ملكاته وتكسبها عيونًا أخرى
ليتك تطهرها حتى ينقشع الضباب الذي غشيها فأرى
ما غاب عن بصر الفناء وأحكيه .   (51 - 55)

421 - في سفر دانيال (10/ 8 - 14) يأتي رسول يساعده ميكائيل - «واحد من الرؤساء الأولين» - ليكشف لدانيال عن رؤية عظيمة للمستقبل ، ويقول دانيال: «إذا بيد لمستني وأقامتني» (10) و «عاد فلمسني» (18) .

423 - تبدأ هنا ثاني القصص الكبرى في الملحمة ، فالأولى كانت رواية روفائيل للحرب في السماء في الكتابين الخامس والسادس ، ويقول الدكتور جونسون: «إن كلا منهما مرتبط بالحدث العظيم ، الأولى كانت لازمة من باب التحذير ، والثانية عزاء وسلوى» . ويقول بعض النقاد: إن ميلتون يتعمد إثارة المقارنة مع القصص المماثلة في البناء ، في ملحمة الإنيادة مثلاً (4/ 756 وما بعده) حيث يشاهد إينياس رؤيا من مستقبل روما لا غير، ونوع الشعر الذي ينتمي إليه الجزء التالي من الفردوس المفقود يعتبر قصًا تاريخيًا لروايات الكتاب المقدس أو شرحًا لها ، وقد صدر الكثير من مثل هذه الأعمال الشعرية بالإنجليزية قبل ميلتون ، ومن بينها أو من بين أنجحها ما كتبه مايكل درايتون (Drayton) عن طوفان نوح (Noahs flood) وموسى : مولده ومعجزاته (Moses: His Birth and Miracles)، وترجمة سيلفستر لكتاب دي بارتاس Du Bartas (عن الفرنسية) [والكتاب عنوانه: الأسابيع والأعمال الإلهية (Divine Weeks and Works) في جزءين ، صدر الأول عام 1613 والثاني 1621] ، وشروح ساندز (Sandys) للكتاب المقدس ، وملحمة الداوودية Davideis لإبراهام كاولي

(Cowley). وباستثناء العمل الأخير ، فإن هذه جميعًا أقل تنظيمًا «من الناحيتين المنطقية واللاهوتية» - كما يقول فاولر - من قصص ميلتون الوارد هنا.

429 - 447 أول المشاهد الستة التي يراها آدم هو مشهد قتل قابيل لهابيل، تكوين *4* ، وانظر ما سبق إيراده عن هذه المشاهد في حاشية الأبيات *377 - 384* عاليه .

434 - سبب عدم ذكر ميكائيل اسم قابيل أو هابيل هو رغبته في عدم إخبار آدم بمن سيصبح قاتلاً من أبنائه .

441 - «نار من السماء» : كانت تلك دليلاً (يتكرر إلى حد يدعو للدهشة) على قبول القربان ، انظر اللاويين (*9/ 24*) «وخرجت نار من عند الرب وأحرقت على المذبح المحرقة والشحم» وقضاه (*6/ 21*) ، وملوك (*18/ 38*) وأخبار الأيام الأول (*21/ 26*) والثاني (*7/ 1*) .

445 - يقول كاولي في الحاشية رقم *16* على ملحمة الداوودية (*1*): «لكنه لم يتضح الأسلوب الذي قتل به [قابيل] أخاه. ومن ثم كانت لي حرية اختيار الأسلوب الذي رأيته الأرجح والأقرب إلى المنطق، وهو أن يضربه على رأسه بحجر ضخم ، وكانت الأحجار من أولى الأسلحة العادية والطبيعية في أيدي الغضب ، وأما أن يكون هذا الحجر ضخمًا إلى الحد الذي يسمح بإقامته شاهدًا على قبر هابيل ، فلا مبالغة فيه ، على نحو ما يقول ڤيرجيل عن تورنوس (Turnus)» .

450 - 452 يقول بيردن: إن آدم يعترض على الحادثة فيظهر عدم الثقة في عدل الله (ص *190*) وينتهي من ذلك إلى القول بأن آدم مخطئ في «استجابته» لأول مأساة قتل في التاريخ .

453 - «تأثر ميكائيل» - وفقًا لتعريف سيدني للمأساة في مقاله دفاع عن الشعر.

458 - 459 يبرز موضع الإيمان في جميع الرؤى ، إذ إن الهدف منها تثبيت إيمان آدم .

465 - يقول بيردن: إن آدم يشعر الآن بالخوف (الرعب) وهو عنصر من عناصر الاستجابة الصحيحة للمأساة (ص 191) .

469 - «كهفه العبوس» : كهف الموت الذي يصوره ميلتون يشبه العالم السفلي عند القدماء ، والوصف الكلاسيكي في إنياده ڤيرجيل (6) يؤكد المرور خلال كهف (السطر 236 وما بعده) ويؤكد ألوان الرعب في هذا المدخل :

(Vestibulum ante ipsum primisque in faucibus Orci, 273).

كما ورد ذكر كهف الموت في مقدمة توماس ساكڤيل (Sackville) [دوق دورسِتْ Dorset الأول] لعمله الشعري القصصي مرآة للقضاة في أواخر القرن السادس عشر .

471 - 472 المشهد الأول يدور حول تأثير سقوط الإنسان في نوازع الغضب التي تؤدي إلى الموت «بضربة عنف» ، والمشهد الثاني يدور حول تأثيره في نوازع الاشتهاء التي تؤدي إلى الموت مرضًا .

491 - «الرحمة» : انظر الكتاب الثاني 672 و 786 .

492 - «طلبه مرارًا» - انظر «ولكن الموت لا يأتي عند طلبه» (10/ 858) وڤيريتي يقارن هذا السطر بما ورد في مسرحية (مأساة) فيلوكتيت Philoctetes التي كتبها سوفوكليس (Sophocles) (السطر 797) وفي الأناشيد (11) Odes/ 18/ 38 وما بعده) ولكن

فاولر يقول: إن ما ورد في بليني (بلينيوس Plinius) (Pliny)
أقرب إلى النص الحالي (في التاريخ الطبيعي 7-/ 1/ 167) :

Tot morbi tot metus tot curae totiens invocata.
morte ut nullum frequentius sit votum.

495 - 497 هذا صدى لما جاء في مسرحية ماكبث لشيكسبير (5/ 7/ 42 - 47) فعندما يسمع ماكبث أن ماكْدَفْ «لم تلده امرأة» يصيح قائلاً: «ملعون لسان من يقول لي ذلك/ فلقد أرهب أفضل خصال الرجال في كياني» . ولا يقتصر الصدى على التذكير لفظيًا بما جاء في مسرحية ماكبث ، إذ إن أحد الخيوط الفكرية الرئيسية في المسرحية هو خيط جفاف «دَرّ الشفقة الإنسانية» أي قسوة القلب بمعنى تحجره (انظر البيت 494 أعلاه) وامتناعه عن التراحم (compassion) أو الرحمة بمعنى رباط الشفقة بين البشر، والشفقة هي الإحساس الثاني الذي تثيره المأساة بعد الخوف أو الرعب - انظر السطر 465 أعلاه.

511 - 525 - «الصورة» و «الشبه» : هناك تفريق في النص الأصلي وفي الترجمة بين الصورة الإلهية image Dei في الإنسان ، والشبه الإلهي similitudo Dei فالعلماء الكاثوليك يقولون: إن سقوط الإنسان أدى إلى تعتيم الصورة لا إلى فقدانها ، ولكنه أدى إلى طمس الشبه الإلهي تمامًا، وإن كان التعميد قادرًا على إعادته ، وكثيرًا ما كانت الصورة الإلهية تعتبر متمثلة في الطبيعة الذهنية والفكرية للإنسان ، أو ممثلة فيها ، ولكن علماء اللاهوت البروتستانت كانوا أشد تأكيدًا للتحول والتشوه الذي أصاب الصورة الإلهية في الإنسان بعد السقوط ، وإن كان ميلتون يعتقد أن «بعض بقايا الصورة الإلهية لا يزال قائمًا فينا» (عن العقيدة المسيحية) وهو موقف

أكثر تحررًا من موقف أقرانه البروتستانت ، وكان يرى هذه «البقايا» قائمة في عقل الإنسان وإرادته الحرة، ويضرب الأمثلة بصفة خاصة من حكمة الكثيرين ممن لا يدينون بالأديان السماوية ومن قُرْبِهم من الله قربًا فطريًا، ويقول فاولر تعليقًا على هذه الفقرة من نص ميلتون: إن تعبير image (في السطر *515*) «يشير فيما يبدو إلى الشبه الإلهي similitudo Die وأن الشبه الإلهي likeness ... (السطر *521*) يشير إلى صورة الله imago Dei ولكن هذا تعسف واضح، إذ إن ميلتون بالغ الدقة في استعمال مصطلحه الديني ، وهو يستخدم الكلمات الثلاث image و similitude وlikeness في حديث آدم وميكائيل دون تغيير لمعناها في حديث الأخير عنها في حديث الأول ، فآدم يقول:similitude (التشابه/ الشبه) وميكائيل يقول: likeness بالمعنى نفسه ، ولن يستقيم الحوار بين البشر والمَلَك هنا إذا اختلف المعنى ، أو إذا اختلف معنى كلمة image عند آدم عنه في معناها عند ميكائيل . ولذلك فقد التزمت بظاهر النص على ما فيه من غموض ، ولم أغير معناها بسبب رأي فاولر فهو يسبق تعبيره عنه بما يوحي بعدم الاطمئنان الكامل له (قائلاً: «فيما يبدو») . والقضية نظرية ومجردة إلى حد بعيد ، لأن التفرقة بين الصورة والشبه تفرقة افتراضية ولا تساندها أدلة من الكتب المقدسة في المسيحية .

538 – 546 وصف الشيخوخة تقليدي إلى أبعد الحدود .

551 – 552 انظر سفر أيوب (*14/14*) «إن مات رجل أفيحيا . كل أيام جهادي أصبر إلى أن يأتي بدلي» .

553 – 554 ميكائيل يصحح موقف آدم من الموت (والحياة) شارحًا له أن الصبر الحقيقي لا يتطلب الاندماج الشعوري فيما يحدث ، ويقول أحد الشراح: إن هذه فكرة كلاسيكية مستشهدًا بما جاء

في أحد إبجرامات مارتيال(10/ 47/ 13)(Martial) :

summum nec metuas diem nec optes
permitte divis cetera.

وفي أناشيد هوراس (1/ 9/ 9)(Horace): وفي رسائل سنيكا (24/ 59أ 65/ 18)(Seneca) .

556 - 573 «لامك» - أحد أحفاد قابيل - أنجب ثلاثة أبناء : «يابال» «الذي كان أبا لساكني الخيام ورعاة المواشي» ، و «يوبال» «الذي كان أبًا لكل ضارب بالعود والمزمار» ، و «توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد» (تكوين 4/ 19 - 22) .

581 - 592 الإشارة إلى سفر التكوين (6/ 1-2) انظر الحاشية على السطرين 621 - 622 أدناه «كوكب المساء» - في الأصل «نجم المساء» والمقصود به كوكب الزُّهَرة ، وكان ظهوره إشارة إشعال «مصباح الزواج» في الكتاب الثامن (519 وما بعده) في الاحتفال بزفاف آدم وحواء ، ولكنهما لم يستدعيا رب الزواج «هايمن» فهو من الأرباب الوثنية .

594 - إشارة خفية إلى ما قاله ميكائيل لآدم عن حتمية فقدان شبابه في 538 وما بعده .

599 - 602 يقول بيردن في الكتاب المشار إليه آنفًا: إن آدم يخطئ من جديد هنا حين يضع ثقته الكاملة في مشاعره فلا يدرك زيف رب الزواج الوثني ولا يدرك أن هذه الزيجات قائمة على «الحماس» (589) و «الفرحة» (596) لا على الاختيار العقلاني .

605 - 606 يبرز هنا التناقص بين غاية الإنسان في الحياة وهي معـرفة الله وبين تحقيق غايات الطبيعة فحسب .

607 - 608 انظر المزامير (84/ 10) «اخترت الوقوف على العتبة في بيت

إلهي على السكن في خيام الأشرار» .

621 - *622* الإشارة إلى سفر التكوين (*6/ 1-2*) : «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل مما اختاروا» . وقد اتجه بعض أوائل شراح الكتاب المقدس في تفسير هاتين الآيتين إلى القول بأن الملائكة العاصين ضاجعوا بنات البشر ، مثل: «فيلو» (Philo) وكليمنت السكندري (Clement) وتيرتوليان (Tertullian). والواقع أن ميلتون يترك الباب مواربًا فلا يغلقه في وجه هذه التفاسير في فقرة غامضة في الكتاب الثالث (*461* وما بعده) ولكنه هنا ينفي تلك الأقوال باعتبارها أساطير لابد من دحضها وإيضاح حقيقتها قائلا: إن هؤلاء بشر وقعوا ضحية الفتنة والغواية فكان التيه جزاءهم . وقد ذهب النقاد (بعد ميلتون) إلى اعتبار تلك التفسيرات الأولى من البدع الكاذبة التي تصل إلى حد التجديف في الدين.

625 - *627* «يسبحون في بحر المرح» تذكرنا بعبارة مماثلة في الكتاب التاسع «يسبحان في موج المرح» (*1009*) و «عالم العبرات» الذي سيذرفه العالم يشير من طرف خفي (بتورية معنوية) إلى الطوفان الذي سيأتي ذكره في الـرؤيا الخامسة ، ويتكرر فيه التعبير بصورة أخرى «طوفان من الدموع» (*757*) .

632 - *636* يقول فاولر: إن ميلتون يقدس الزواج ، وإنه لا يهاجم المرأة لذاتها ، بل هو يعتزم «وضع مقولة نفسانية عن العلاقة بين الذهن والمشاعر» ، وآدم يخطئ فيصحح له ميكائيل خطأه ، ومصدر الخطأ ما شاع من تفسير لفظ المرأة بالإنجليزية Woman باعتباره يعني (Woe to man) أي «ويلٌ للرجل!» - وهو قول أصبح يجري مجرى الأمثال ، بل إنه القول الذي أخذ به بعض مفسري سفر التكوين (*2/ 23*) أو (*3/ 20*) .

638 - *711* المشهد الرابع يتضمن أربعة مشاهد فرعية أولها

هو (646 - 650) والثاني هو النزال (651 - 655) والثالث هو الحصار (656 - 659) والرابع هو المجلس (660 - 671).

ويقول فاولر: إن المشهد الرابع كله ذو علاقة وثيقة بوصف هوميروس التفصيلي لدرع أخيلاس، الذي رسمت عليه لوحة شاسعة تضم نماذج للصراع في مكان اجتماع عام، وللحصار، وللهجوم على الرعاة والأبقار. الإلياذة (18/ 490 - 540) وكذلك لمحاكاة فيرجيل لهوميروس في الإنيادة (8/ 626 - 728) حيث يرد وصف درع فولكان الذي أهدته أم إينياس إليه وعليه صورة تتنبأ بمستقبل روما. وكان كلا الدرعين القديمين يتضمنان صورًا للصراع أو الشقاق مجسمًا في صورة بشرية.

642 - «العماليق» (Giants) وردت ترجمة مختلفة لهذه الكلمة في الكتاب المقدس وهي «الجبابرة» ولكنني قررت عدم الخروج عن نص ميلتون، أولاً بسبب إجماع الشراح على ذكر الحجم والضخامة الجسدية التي يتميزون بها، وثانيًا بسبب وجود التراث العربي الذي يرجح كفة الكلمة التي اخترتها، وثالثًا بسبب انصراف كلمة الجبار إلى صفات لا تقتصر على القوة الجسدية بل تتضمن صفات نفسية مثل التكبّر والتسلط، كما أن الجبار من أسماء الله تعالى (والقلب الجبار هو مالا تدخله الرحمة ولا يقبل الموعظة).

643 - 644 يقيم ميلتون هنا موازاة ضمنية مع الشياطين أثناء حربهم في الكتاب الثاني، السطر 631 وما بعده، ويقول برودبنت في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه (ص 96): إن ميلتون يكثر من مشاهد القتال في الجحيم وفي الأرض بعد السقوط، بل هي أكثر مما يحدث في السماء، وينتهي

إلى أنه لا يضيع أي فرصة لتصوير الحماس القتالي الضاري .

655 - *671* الرجل الصالح هو أخنوخ (Enoch) واستنادًا إلى ما ورد في تكوين (*5/ 21* - *24*) والعبرانيين (*11/ 5*) ويهوذا (*14*) نعرف أن أخنوخ عاش *365* سنة (أي أقل من نصف العمر المعتاد للأنبياء) ثم رفعه الله إليه . ولكن تفاصيل الرفع غير واردة في الكتب المقدسة ، وربما كانت مستمدة من الرسوم والتصاوير اللاحقة ، ويورد تشارلز في طبعته للكتب المنحولة أو المشكوك في صحتها في العديد القديم ، في المجلد الثاني مقتطفات من سفر أخنوخ يصف فيها رفعه إلى السماء .

678 - لاحظ استمرار الإشارة هنا إلى رؤى أخنوخ ، إذ كانت إحدى نبوءاته الواردة في رسالة يهوذا (*14* - *15*) تقول: «هو ذا قد جاء الرب في ربوات قديسيه ليصنع دينونة على الجميع» . والنص الإنجليزي في نسخة الكتاب المقدس المعتمدة أقرب إلى نص ميلتون :

«The lord cometh with ten thousands of his saints,to execute judgment upon all» .

وفي نسخة الكتاب المقدس المنقح (Revised) يرد النص هكذا :

«I saw the lord come with his myriads of angels to bring all mankind to judgment» .

والمعـروف أن (saints) توازي (angels) (ملائكة لا قديسون)، وأن (myriad) تعني عشرة آلاف ، وأن رَبْوة تحمل ذلك المعنى بالعربية وإن كانت مهجورة ، ولكن «صنع الدينونة» بمعنى «إصدار الحكـم» أو «تنفيذ الحكم» تعبير غير مألوف بالعربية ، والمهم في إشارة ميلتون هو رقم الآلاف العشرة !

689 - *690* سبقت الإشارة إلى دراسة ستيدمان Stedman

عن الفردوس المفقود ، والتي يقابل فيها بين مراتب الفضائل البطولية عند ميلتون قائلاً إنه عادة ما يقيم تعارضًا بين الفضائل المسيحية المبنية على «الخير» والإحسان ، وبين الخصال الشيطانية المبنية على القوة والغلبة ، وهذان البيتان يؤكدان صحة ما ذهب إليه .

698 – انظر سفر التكوين (6/4) «كان في الأرض طغاة في تلك الأيام . وبعد ذلك أيضًا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر لهم اسم» .

700 – 710 جاء في يهوذا (14) «وتنبأ عن هؤلاء أيضًا أخنوخ السابع من آدم» . ويقول فاولر: إن صورة السحابة ذات الخيول المجنحة صورة محيّرة، ولعلها تستند إلى وصف رفع إيليّا إلى السماء الوارد في ملوك ثان (11) «وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعدَ إيليّا في العاصفة إلى السماء» . إذ يقول بعض الشراح: إن التراث «التفسيري» يربط ربطًا وثيقًا بين أخنوخ وإيليّا . وتعبير «يسير مع الله» مأخوذ من سفر التكوين (5/24) «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» . والمعروف أن قضية رفع أخنوخ إلى السماء كانت قضية خلافية في عصر ميلتون ، انظر الحاشية على الأبيات 655 – 671 عاليه ، وقد لخص «ويليت» في الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه معظم الآراء التي أبداها الشراح في هذا الموضوع (ص 71 وما بعدها) وإن كان المحدثون يرون أن «الرفع» رمز وحسب ، إما للبعث وإما لرفع المسيح إلى السماء .

719 – 753 رواية ميلتون لطوفان نوح عليه السلام تلتزم بما جاء في سفر التكوين (6/9 – 9/17) ولا تأخذ إلا بأقل القليل من شرح الشراح ، حسبما يبين Allen في كتابه عن الطوفان (انظر المراجع) .

721 - انظر العبرانيين (11/ 7) «بالإيمان نوح لما أوحي إليه عن أمور لم تُرَ بعدُ خاف فبنى فلكًا لخلاص بيته فبه دان العالم» .

723 - 725 انظر رسالة بطرس الأولى (3/ 18 - 21) «فإن المسيح أيضًا تألم مرةً واحدة من أجل الخطايا البار من أجل الأثمة لكي يقربنا إلى الله مماتًا في الجسد ولكن محيًى في الروح الذي فيه أيضًا ذهب فكرز للأرواح التي في السجن . إذ عصت قديمًا حين كانت أناة الله تنتظر مرة في أيام نوح ، إذ كان الفلك يبني الذي فيه خلص قليلون أي ثماني أنفس بالماء . الذي مثاله يخلصنا نحن الآن أي المعمودية ... بقيامة يسوع المسيح» .

730 - انظر تكوين (6/ 15) .

738 - 753 يستند الوصف هنا على وصف طوفان ديوكاليون في مسخ الكائنات (1/ 262 - 347) ويرجع النقادُ كثيرًا من صور ميلتون إلى أوفيد مثل صورة «بحر بلا ساحل» وصور الوحوش البحرية التي احتلت مكان الحيوانات البرية وغيرها (المرجع نفسه 1/ 293 - 303) وهناك فقرات يمكن أن يكون ميلتون قد اطلع عليها في كتاب «دي بارتاس» المشار إليه آنفًا والذي ترجمه سيلفستر ، وفي ملحمة الداوودية لإبراهام كاولي .

765 - 766 انظر انجيل متى (6/ 34) «فلا تهتموا للغد . لأن الغد يهتم بما لنفسه . يكفي اليوم شره» .

770 - 773 يقع آدم الآن في هوة اليأس بسبب تصوره الخاطئ أن الإنسان مسيّر لا مخير .

790 - «الفضيلة الحقة» انظر الحاشية على السطرين 689 - 690 .

797 - 806 من الفقرات القليلة في القصيدة التي تعتبر - إلى حد ما - نقدًا لأحوال عصر ميلتون .

824 - 827 انظر تكوين (7/ 11) «في ذلك اليوم انفجرت كل

ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء» .

829 - 838 يشير ألِنْ (Allen) إلى أن مصير الفردوس أثناء الطوفان كان موضوع جدل كبير بين شراح الكتاب المقدس، فمنهم من قال: إنها نقلت إلى مكان آخر، ومنهم من قال :إنها ظلت آمنة في مكانها لم تمسسها المياه بسوء . السطر 833 يتضمن تعبير «النهر العظيم» وهو يشير إلى نهر دجلة الحالي (أو نهر الفرات) استنادًا إلى سفر التكوين «إلى النهر الكبير ، نهر الفرات» (15/ 18) وهذا يفسر لنا الأبيات الغامضة التي وردت في الكتاب التاسع :

كان ثَمّ مكان -
واختفى الآن بعد أن بدّلت الخطيئة الأحوال ، لا صروف الدهر -
حيث تتدفق مياه دجلة ، في آخر الفردوس ،
في مجرى تحت الثرى ، ثم يندفع بعضها
وينجبس عينًا دفاقة بجوار شجرة الحياة

(73 - 69)

ويقول فاولر: إن ميلتون يملأ ملحمته الشعرية بأوصاف الفردوس ، وينكر وجودها في عدة أماكن ، كان آخرها في الكتاب الرابع :

لا ولا حيث يحمي ملوك الحبشة أبناءهم فوق
جبل «أمارا» - رغم ما يتصوره البعض من أن تلك هي
الفردوس الحقة الواقعة جنوب مدار إثيوبيا
عند منابع نهر النيل حيث تحيط بالجبل الصخور البراقة
وارتفاعه مسيرة يوم كامل ! (4/ 280 - 284)

وأخيرًا ، وبعد شتى النظريات الخاصة عن موقع الفردوس الأرضية ، يحسم الأمر قطعيًا لنا ، فنجد أنها جزيرة في الخليج الفارسي (العربي) .

ويضيف فاولر أن الدرس في الأبيات الأخيرة درس في التواضع البروتستانتي أي إن وجود الفردوس وجود باطني وروحاني وينبغي عدم تحديد مكان لها استنادًا إلى الخرافات . وأما قرنا الطوفان (831) فربما كان التعبير رجع صدى لوصف فيرجيل في الانيادة (8/ 77) لنهر التايبر الجبار :

corniger Hesperidum fluvius regnator aquarum

وإن كانت العبارة قد وردت في مسرحيات بن جونسون وكتاب من كتب السير توماس براون .

840 - 843 المشهد السادس مشهد خلاص الإنسان لأن الرقم 6 ، كما يقول فاولر ، هو رقم الخلق (خلق الأرض في ستة أيام) ومن ثم فهو يرمز إلى إقامة عهد جديد بين الله وبين آدم ، استنادًا إلى العهد الميثاق مع نوح عليه السلام .

851 - يتعمد ميلتون عدم تحديد موقع رسو السفينة (الفُلْك) الوارد في سفر التكوين (8/ 4) أي «على جبل أراراط» .

852 - 854 قارن انحسار المياه عند الخلق في الكتاب السابع 285 ومابعده . والعلاقة توحي ضمنًا بأن «عالمًا كاملاً» قد دُمّر (السطر 874) وأن الله يخلـق من جديد خلقًا جديدًا على أساس العهد / الميثاق .

865 - 867 الألوان الثلاثة هي الألوان الرئيسية - الأحمر والأصفر والأزرق .

عهدًا جديدًا منه العهد هو الميثاق أو الموثق : تكوين (13 - 15) «وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض . فيكون متى أنشر سحابًا على الأرض وتظهر القوس في السحاب أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم ... فلا تكون المياه أيضًا طوفانًا لتهلك كل ذي جسد»

886 - 887 انظر سفر التكوين (6/6) الذي يذكر أن السبب الذي حـــدا بالله إلى إحداث الطوفان هو أنه «حزن أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسّف في قلبه» .

888 - 889 انظر سفر التكوين (6/ 11) «ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت . إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض» .

890 - انظر سفر التكوين (6/ 8) «وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب».

حواشي الكتاب الثاني عشر

1 - *5* أضيفت الأبيات الخمسة الأولى عندما انقسم الكتاب العاشر في الطبعة الأولى للملحمة إلى الكتابين الحادي عشر والثاني عشر .

1 - «الزوال» المقصود انتصاف النهار تمامًا ، وهكذا تكون نقطة الانتقال بين عالم زال وعالم آت ، كما يتضح من الأبيات التالية ، والانتقال يشبه نقطة الزوال أي اللحظة التي تكون الشمس فيها في السمت (فوق رأس المشاهد تمامًا) لأنها الساعة السادسة في النهار وفق الكتاب المقدس . ويشير فاولر ، المولع بدلالة الأرقام والأعداد في الفردوس المفقود، إلى كتاب كتبه بيترو بونجو بعنوان: ألغاز الأعداد (باللاتينية) في أواخر القرن السادس عشر ، ويناقش فيه دلالة رقم «ستة» مناقشة مستفيضة ، ويستقي مما جاء في الأثر عن وقوع أهم الأحداث الكونية في الساعة السادسة أن هذا الرقم هو رقم الخلاص. ويضيف فاولر إن آدم قد شاهد ست رؤًى ، وأن الرؤى تنتهي بطرده من الفردوس في الساعة السادسة من النهار .

5 - «نُقلة حُلوة» : يقول فاولر: الوصف بالحلاوة يوحي بأن ميلتون يريد الإشارة من طرف خفي إلى حلاوة «شهد العقيدة» (honey of doctrine) الذي يستقي منها ، وربما يكون ذلك من باب التأويل المتعسف .

19- «القمح والنبيذ والزيت» كثيرًا ما اقترن ذكر الثلاثة في شروح العهد القديم بقانون الضرائب (مكوس العُشْر) - انظر تثنية (*14/ 23*) ونَحَمْيَا (*10/ 39*) . ولكن العبارة توحي بالمزامير التي تقرأ في الصلاة، ولا علاقة لها بالمكوس .

24-63 لا علاقة للنمروذ (Nimrod) في سفر التكوين ببناة برج بابل، فالسفر يقتصر على القول بأن «كوش وَلَد نمرود الذي ابتدأ يكون جبارًا

في الأرض . الذي كان جبار صيد أمام الرب . لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب . وكان ابتداء مملكته بابل» (8–10) ولكن العلاقة قائمة في تاريخ يوسفوس الذي يتحدث عن اشتقاق اسم بابل (من البلبلة) وبناء البرج ، قائلاً: إن النمروذ «حوّل الحكم إلى طغيان» . واستنادًا إلى ما يقوله يوسفوس حوّله شراح الكتاب المقدس ، وخصوصًا القديس جيروم (St Jerome) ، إلى نموذج أوليّ للطاغية ، وجعلوه يبدل الحكم الأبوي الذي أوصى به الأنبياء إلى «سيطرة» و «سلطان» ، والملاحظ أن تصوير ميلتون للنمروذ مصبوغ بصبغة دعوته الجمهورية ، فهو يستند إلى «قانون الطبيعة» (29) الذي يعني الإخاء والمساواة (والحرية) ، وهو ما هيأنا له ميلتون في الأبيات السابقة المستندة أو المستقاة (كما يقول هيوز في طبعته للفردوس المفقود) من سينيكا (الرسائل 81) ، ويشير إلى أن طغيان النمروذ ينافي طبيعته البشرية «الجمهورية» ، ولاحظ وجود كلمة الإخاء وكلمة المساواة (26) في تقديم ميلتون للمشهد .

36– يقول ستارنز وتولبرت (في المرجع المشار إليه): إن تفسير اسم النمروذ (نمرود) اشتقاقيًا (أي أنه من التمرد – من مَرَدَ) مذكور في معجم شارل إستين :

(Charles Estiennes Dictionarium)

41– «السهل» هو سهل «شنعار» . «وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك» (تكوين 11/ 2) وبقية الفقرة تتبع ما جاء في هذا الإصحاح من هذا السفر .

45–46 «وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء . ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض» (تكوين 11/ 4).

52 – «فيعترض أبراج السماء» عبارة ساخرة ، ولو أن إمبسون

يقول يعكس ذلك في كتابه عن ميلتون (انظر المراجع). و «يسخر منهم» تؤكد نغمة السخرية، وتلمح إلى آية في المزمور الثاني (4) «الساكن في السموات يضحك: الرب يستهزئ بهم» . وميلتون يستعمل الكلمة نفسها الواردة في الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس.

53–58 كان الاعتقاد السائد في القرن السابع عشر هو أن انفصال اللغات بعضها عن بعض، بحيث أصبحت لغات متميزة متفردة، بدأ ببلبلة الألسنة في بابل. وكان سر شيوع هذه النظرية وجاذبيتها انشغال العلماء بوضع لغة عالمية «مركبة» (composite) أو تركيبية (Synthetic)، أو قل وضع عدة لغات تتصف بالعالمية والتركيب، كأنما لاستعادة الوحدة الأوربية التي تمزقت، وحفزهم على ذلك اكتشاف لغات جديدة في الشرق تختلف اختلافات كبيرة عن اللغات الأوروبية، فوجدوا في ذلك لونًا من البلاء كأنما هو ثمرة «لعنة بابل» فوضع السير توماس إيركارت (Urquhart) كتبًا تتضمن سبيل «إحياء» تلك اللغة الواحدة المتصورة، مثل: الدرة الرائعة الفريدة و معجم اللغة العالمية الشاملة (على الترتيب Most Exquisite Jewel and Logopandecteision) وكتب ميلتون نفسه يقول: إن اللغة القديمة التي كان آدم يتكلمها واللغات التي ربما تفرعت منها فيما بعد، «وهي التي تلقاها بناة بابل فجأة، هي دون شك لغات منزّلة من السماء» . وقد أفاض النقاد في الحديث عن ذلك. وتعبير «جلبة صاخبة» (jangling noise) منقول عن كتاب دي بارتاس المشار إليه (ترجمة سيلفستر).

62– «اسمًا مشتقًا من البلبلة» – انظر سفر التكوين (11/9) «لذلك دُعي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض» .ويقول فاولر: إن يوسفوس المؤرخ اليهودي الذي يجيد العبرانية، «طور هذا الاشتقاق

الزائف على شيوعه وذيوعه» ، وأما أنه زائف فالله أعلم ، لأن القاموس يورد «بلبل الله ألسنة الخلق : فرقها» (دون ذكر اشتقاق). ويورد البال (في بول) بمعنى الخاطر أو الحال والشأن (دون اشتقاق). ويورد اللسان اسم المكان بابل في «بيل» وقد وردت في القرآن العظيم : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ (البقرة :*102*) ، ويورد معجم أكسفورد الكبير (OED) كلمة (babble) بمعنى الحديث المختلط غير المفهوم ويفسر اشتقاقها ترجيحًا من الأصوات المبهمة «با .. با» ، بمعنى محاكاتها لتلك الأصوات على غرار (prattle) ، ثم يعلق قائلاً: «وربما تأثر معناها بمعنى «بابلز» . ولذلك نقول الله أعلم .

66– يقارن «برودبنت» بين ما يحدث هنا وبين تتويج إبليس ملكًا على الرغم من الآراء «الجمهورية» التي يعرب عنها في الكتاب الخامس – السطر *790* وما بعده .

76–78 لا تصلح طبقات الجو العليا للبشر الفانين (انظر الحاشية على البيت ، *56* من الكتاب الثالث) ويقول النقاد :إن طبقات الغلاف الجوي ترمز في الفردوس المفقود للمراتب أو الدرجات المعنوية والطبيعية – انظر مثلاً «الهواء النقي» (*2/ 153*) في الفردوس ، و «الهواء الخفيف» الذي لا تستطيع الأسماك أن تتنفسه (*8/ 348*) ونحن ندرك مدى أهمية هذه الفكرة لميلتون استنادًا إلى الموقع البارز الذي تشغله في المخطوط الثالث (أي المسودة الثالثة) للمسرحية التي كان يعتزم كتابتها عن سقوط البشر .

80–101 يقول فاولر: إن هذه الفقرة كلها تذكرنا بأسلوب المقالات التي بررت قتل الملك تشارلز الأول عام *1654* ، ولكنها تتبع من حيث المنهج الفكري أقوال القديس أوغسطينوس : «إن الإنسان قد جعل سيدًا على الكائنات غير العاقلة دون غيرها، لا على الإنسان بل

على الحيوان»، ثم يقول: إن العبودية لم تأت إلا حين أخطأ ابن نوح عليه السلام، ومن ثم فهي وليدة الخطأ لا الفطرة، فأمها هي الخطيئة «السبب الأول لإخضاع الإنسان للإنسان، وهي - رغم ذلك - لا تحدث إلا بإرادة الرب الأعلى، الذي لا يظلم أحدًا». وفي هذا الإشارة إلى الآية التي سبق الاستشهاد بها من إنجيل يوحنا (8/ 34) «إن كل من يعمل الخطيّة هو عبد للخطيّة». ويقيم ميلتون علاقة بين الاستعباد النفسي والاستعباد السياسي في آخر الكتاب التاسع (1127-1131).

84- «العقل الصائب» ربما كان يعني الضمير، على نحو ما جاء في الخلافات اللاهوتية المستعرة في القرن السابع عشر، إذ كان الباحثون يفرقون بين «العقل» بصفة عامة باعتباره المنطق أو قانون التفكير العام وبين «الرُّشْد» الذي يستند إلى ما هو أعمق في نفس الإنسان، ويصل إلى أعمق أعماقه بالإيمان الروحي الخالص، ولذلك فإن ميلتون يشير في كتاباته النثرية إلى «تصويب» (بمعنى تصحيح) مسار العقل.

95- انظر الكتاب الرابع 993 حيث يشير ميلتون إلى «الضرورة» (أو ما تقتضيه الضرورة) باعتبارها «ذريعة كل طاغية».

101-114 يقول سفر التكوين: إن حام بن نوح رأى عورة أبيه وهو سكران وأخبر إخوته بذلك، الأمر الذي أدى إلى فرض اللعنة على ابنه (ابن حام) كنعان «فقال: ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته» (9/ 25).

111-113 هذه بداية جديدة من «بقايا» سلالة مؤمنة. ويقول هيوز (في الطبعة المشار إليها): إن ميلتون: «يدين المذهب الكالفيني الذي يقضي باصطفاء فرد واختصاصه بالخلاص»، ويقول فاولر: إن ميلتون لا يعارض الاصطفاء بل يعارض النَّبْذ أي الحرمان من الرضا، ومن ثم من النعيم

المقيم (الخلود) إذ لا يوجد ما يعيب اصطفاء البعض ، في رأي ميلتون ، فالله يفتح باب رحمته للكثيرين ولا يغلقه في وجه أحد . وكلمة «خاصة» في السطر *111* ترجع صدى كلمة «خاص» في الآية ، من التثنية (*14*) «لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض» .

115-114 انظر يشوع (*2/24*) «هكذا قال الرب إله إسرائيل . آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى» .

117- الرجل العظيم هو النبي نوح عليه السلام ، الذي عاش - حسبما يقول الكتاب المقدس - بعد الطوفان *350* سنة (تكوين *9/ 28*) .

120- «العليّ» هو الاسم الذي يستعمله ملكي صادق في مباركة إبراهيم. (تكوين *14/ 19-20*) .

134-121 يلتزم ميلتون بما ورد في الكتاب المقدس عن نداء الله لإبراهيم وعهده معه (تكوين *12* ، أعمال الرسل *7*) انظر *126* انظر تكوين (*12/ 3*) «تتبارك فيك جميع قبائل الأرض» . والسطر *127* - «ذو إيمان راسخ» - انظر العبرانيين (*11/ 8*) «بالإيمان إبراهيم لما دعي أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيدًا أن يأخذه ميراثًا فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي» . والتورية هنا ترجع إلى أن آدم يوشك أن يؤمر بالخروج إلى حيث لا يعلم . والسطر *128* «ولكنك لا تستطيع» معناه أن المشهد فيه نورانية لا تستطيع عين آدم في حالته الراهنة رؤيتها . وأما إشارة ميلتون إلى «المخاضة» في السطر *130* فهي من باب استقراء الكتاب المقدس ، خصوصًا تكوين (*11/ 31*)، فقد كانت مدينة «أُور» على أحد شاطئي الفرات و «حاران» على الشاطئ المقابل (انظر تفصيل ذلك كله في الحاشية على السطور -209

216 من الكتاب الرابع) .

135-151 يستند ميلتون في وصفه للرحلة إلى سفر التكوين (12/ 5 وما بعده) وفي وصفه للوعد إلى يشوع (8/ السطر 5 وما بعده) والوصف التالي موجود في الحاشية المذكورة أعلاه على السطور 209-216 من الكتاب الرابع .

143- «على الشاطئ» أي في موقع جبل الكرمل ، وكان هذا الموقع يضرب به المثل في الثبات أو لإبراز التأكد والثقة، وقد ورد في ذلك السياق في إرْميا (46/ 18) وأما تعبير «ذو المنبعين» في السطر 144 فهو يستند إلى الخرافة التي تقول: إن نهر الأردن يتكون من التقاء رافدين هما «الأرْ» و«دُنْ» (أي Jor - dan = Jordan) ويقول هيوز: إن تلك الفكرة قديمة وترجع إلى القديس جيروم .

147-151 الوعد الذي يتلقاه إبراهيم (تكوين 12/ 1-3) تجديد للوعد المضمر في اللعنة التي فرضت على الثعبان . انظر الكتاب العاشر 180 وما بعده .

152- جاء في الكتاب المقدس أن إبراهيم كان اسمه «أبرام» ثم تحول إلى إبراهيم بمعنى «والد الكثيرين» اشتقاقًا من الكلمتين الساميتين (أب + رهام) والأب هو الوالد والرهام هو المطر ، ولذلك تتفاوت صور الاسم في اللغات المختلفة فتجد إبراهام ، وأبراهام وإبرام وإبرامز ... إلخ. والشرح موجود في هامش الطبعة الإنجليزية المعتمدة للكتاب المقدس، وأما صفة الحنيف بمعنى الذي حَنَفَ عن دين آبائه فَحَسُنَ لذلك إيمانه فالمرجع فيها هو سورة النحل في القرآن العظيم (الآية 120) وسفر غلاطية (3/ 9).

153- يقول الكتاب المقدس: إن الابن هو إسحاق والحفيد هو يعقوب.

155-163 جاء في الكتاب المقدس (تكوين 45 و 46) كيف جاء يعقوب إلى مصر بناءً على طلب ابنه الأصغر يوسف عليه السلام .ويقول فاولر: إن

مصبات النيل السبعة تقابل الأماكن التسعة المحددة في الأرض الموعودة (أرض الوعد أو الميعاد) وفاولر - المولع بالأرقام ودلالتها - يقول :إن الرقم سبعة كان يرمز للتحول والتغير والفناء ، والرقم تسعة يرمز للروح والعقل والسماء .

164–168 يتبع ميلتون ما جاء في سفر الخروج (*1*) والملك المشار إليه هنا كان ميلتون قد أطلق عليه «فرعون» وحسب في الكتاب الأول (*307*) .

172– «الغنائم» هي الحليّ والملابس التي حصل عليها بنو إسرائيل من المصريين بصفة «قرض» عندما كان المصريون حريصين على التخلص منهم فأعطوهم ما يريدون .

173–190 وصف الأوبئة يستند بصفة عامة إلى الخروج (*4–12*) وأما «الكَرُّ» الوارد فينسبه الشراح إلى «كرّ» العربة الحربية ، وهي الصورة التي ابتدعها ميلتون ويلمح بها إلى ما يعني به «عربة العدالة الكونية» . انظر تفاصيل ذلك في الحاشية على الكتاب الرابع (السطور *749–759*) . وانظر السطر *311* من الكتاب الأول . وأما بلاء الجراد فكان قد أشير إليه قبل ذلك في التشبيه الوارد في الكتاب الأول ، السطور *338–343* .

188– «الظلام الغليظ الملموس» : تستند هذه الصورة إلى الترجمة اللاتينية الشعبية للآية *21* من الإصحاح العاشر من سفر الخروج .

Sint tenebrae super terram Aegyptil tan densael ut palpari queant.

والنص الإنجليزي الحديث هو :

«..So that over the land of Egypt there may be a darkness so dense that it can be felt.»

والنص العربي في الترجمة المعتمدة :

«... ليكونَ ظلامٌ على أرض مصر حتى يُلمسَ الظلام».

والواضح أن ميلتون كان يشير إلى النص اللاتيني أو كان ذلك النص مرجعه الأول .

192- كثيرًا ما يشير ميلتون إلى فرعون باعتباره نموذج قسوة القلب ويقارنه بالملك تشارلز الأول في هذه الخصيصة - خصوصًا في كتابه «تحطيم الأوثان» (Eikonoklastes) طبعة ييل(*3*/ *516* Yale) وكان ميلتون يعني بتحطيم الأوثان تحطيم الصور التي كان البيوريتانيون يرون فيها بقايا وثنية في كنائس شرق أوروبا في القرنين الثامن والتاسع للميلاد ، وكان ميلتون بطبيعة الحال يهاجم بذلك الكنيسة الكاثوليكية .

193–*194* تقول سفندن في كتابها المشار إليه (ص *99*): إن ميلتون استمد هذه الصورة من كتاب Speculum mundi الذي كتبه سوان (Swan) ويقول فيه: إن الثلج حين ينصهر ثم يتجمد يصبح جلدًا بالغ الصلابة كأنه الحجر ويسمى البلّور .

199- «الانقسام» إذا كان خيرًا اكتسب معنى الإنصاف ، فالنيل «يقسم» أرض مصر (السطر *157*) وعصا موسى تقسم البحر .

200–*205* انظر الخروج (*13*/ *21*) «وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود من سحاب ليهديهم في الطريق ، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم . لكي يمشوا نهارًا وليلاً» . في السطر *201* يقول ميلتون: إن الله أرسل إليه ملكًا من لدنه . وهو يوضح ذلك في كتابه عن العقيدة المسيحية قائلاً (*1*/ *5*) (طبعة كولمبيا *12*/ *287*–*289*): إن الله لم يذهب بنفسه إلى بني إسرائيل وإلا لدكّهم دكًا بل أرسل «من يمثل اسمه ومجده في شخص مَلَكٍ من الملائكة». أما الكليم فهو موسى عليه السلام أي إنه «كليم الله».

206–*214* انظر خروج *14* وانظر الكتاب الأول الأبيات *306* وما بعدها.

216–219 هذا هو التفسير الوارد في سفر الخروج (*13/ 17* وما بعده) وأما الطريق الفعلي الذي سلكه بنو إسرائيل فقد كان دائريًا ،بمعنى أنهم اتجهوا جنوبًا أولاً قبل أن يتجهوا شمالاً حتى يتجنبوا الدخول على «الكنعانيين» أي الفلسطينيين المتمرسين في القتال وفنون الحرب فيتشتت شملهم في حرب لم يطلبوها ولا يستطيعون خوضها ، وفق ما ورد في الكتاب المقدس ، وميلتون يركز على صورة التيه في الصحراء لأنها كانت المثال الذي كثيرًا ما ضربه للحرب الأهلية في إنجلترا (في كتاب تحطيم الأوثان على سبيل المثال *3/ 580*) .

224–226 انظر عدد (*11/ 16–25*) وخروج (*24*) .

227–230 انظر سفر الخروج (*11/ 16–20*) .

232–234 انظر العبرانيين (*8/ 5*) حيث يشار إلى الكهنة «الذين يخدمون شبه السمويات وظلها كما أوحي إلى موسى وهو مزمع أن يصنع المسكن. لأنه قال: انظر أن تصنع كل شيء حسب المثال الذي أظهر لك في الجبل».

235–238 انظر خروج (*2/ 18–19*) «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البرق والجبل يدخّن . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد . وقالوا لموسى: تكلم أنت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلاّ نموت» .

238–244«فإن موسى قال للآباء إن نبيًا مثلي يقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون في كل ما يكلمكم به» (أعمال الرسل *3/ 22*) وهذا يشير إلى ما سبق أن جاء في سفر التثنية (*18/ 15* و *18*) «يقيم لك الرب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون .. أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به» ويقول ميلتون في كتابه عن العقيدة المسيحية :«إن اسم ومنصب الوسيط يُنسبان إلى موسى بمعنى من المعاني باعتباره نموذجًا للمسيح» (*1/ 5* –

طبعة كولمبيا 15/ 587) ، وكان المفسرون يقولون: إن الآية الأخيرة هي الأولى والأسبق من حيث الزمن،ومن ثم فهي المرجع في نبوة موسى وعيسى عليهما السلام جميعًا . وأما الشرائع والطقوس فقد وصفت باعتبارها نماذج في العبرانيين (9/ 19-23) (مثلاً : «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» - 23) ويأتي بعد ذلك ذكر الذبائح تفصيلاً .

247-256 «بيت الله» المقصود به الهيكل المتنقل الذي يوضع فيه «تابوت الشهادة» داخل «قدس الأقداس»، ويعتبر «البيت» المقر الإلهي الذي يحمله بنو إسرائيل معهم في حلهم وترحالهم في الصحراء قبل الوصول إلى الأرض الموعودة ، وهو يسمى «المسكن» في سفر الخروج ويوجد وصف بنائه بالتفصيل في الإصحاحين 25 و 26 ، ومنه يتضح أنه كان خيمة كبيرة ذات دعامات خشبية ، ألواحها وعوارضها من خشب السنط ، وستائرها ذات ألوان متعددة ولها أعمدة مطعمة بالذهب (26). ولكن ميلتون يضيف، استنادًا إلى ما جاء في العبرانيين (9/ 4) ، أن «الشهادة» هي «سجلات عهد» الله ، داخل التابوت . والسفر المذكور يقول: «وتابوت العهد مغشى من كل جهة بالذهب الذي فيه قسط من ذهب فيه المن وعصا هرون التي أفرخت ولوحا العهد (4)» ،مما يعني أن هذه هي السجلات المقصودة . وأما خشب الأرز فليس واردًا في سفر الخروج وربما كان الخلط يرجع إلى تواليهما في الآية 19 من سفر إِشَعْياء ، الإصحاح 41 «أجعل في البرية الأرز والسنط والآس وشجرة الزيت . أضع في البادية السرد والسنديان والشربين معًا» وهي بالإنجليزية :

«I shall plant cedars in the wilderness, acacias, myrtles,

and wild olives, I shall grow pines on the barren heath, side by side with fir and box tree».

فالأرز هنا يسبق السنط ، الأمر الذي قد يكون أوحى لميلتون بفضل سبق هذا على ذلك . ومقعد الرحمة (253) هو الذي سبق ذكره - انظر الحاشية على السطر الثاني من الكتاب الحادي عشر . وقوله: «تمثل النجوم في السماء» يشير إلى الطابع الرمزي له . ويوسفوس يتوسع في الرموز الكونية هنا وتفسيرها .

256–258 انظر سفر الخروج (*40/ 34–38*) .

260– للمزيد من الوعد الذي أعطي لإبراهيم انظر الأبيات *137* وما بعده .

263–267 انظر يشوع (*11/ 12–13*) «حينئذٍ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيلِ وقال أمام عيون إسرائيل: يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيّلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوبًا في سفر ياشر . فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل» . وقد تكررت الإشارة إلى هذه الحادثة باعتبارها نموذجًا لقوة الإيمان .

«يعقوب ، فهكذا سيدعى» (*267*) في الأصل «إسرائيل» وانظر تكوين (*32/ 23–28*) «قال له : ما اسمك. فقال: يعقوب . فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت» .

274– «تفتحتا حقًا» التفتح الحق يشير إلى الوعد الكاذب الذي قدمه الثعبان إلى حواء قائلاً: إن الفاكهة المحرمة سوف تفتح عيني الإنسان ، وهو وعد يتضمن تورية ساخرة ، إذ إن عيني حواء قد تفتحتا فعلاً ولكن لتبصر بلاء المهوى والسقوط . انظر الكتاب الحادي عشر ، السطر *412* وما بعده.

277- «التورية الدرامية» هنا - كما يقول فاولر - ترجع إلى إلمام القارئ بقول المسيح إنه قبل أن يوجد إبراهيم كان الله منذ الأزل. وقوله في إنجيل يوحنا (8/ 56) «أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح» ولكن آدم لا يقول إلا أنه يستطيع أن يتصور «يوم» إبراهيم، ظانًا أن الوعد سوف يتحقق آنئذٍ، ولكن لا يعرف أن «البركة» التي سبق ذكرها في السطر 147 والسطور التالية تتضمن سرًا آخر لم يكشف النقاب عنه بعد. (انظر الحاشية على السطر 316 من الكتاب الثامن).

285-306 هذه فقرة تشغل مكان القلب من العقيدة المسيحية عند البروتستانت ألا وهي علاقة الشرائع بالإيمان، ويطلق عليها علماء اللاهوت «التبرير بالإيمان» Justification by Faith - ومعنى التبرير الوصول إلى البر أو الصلاح (البِرّ - انظر الحاشية على السطر 64 من الكتاب الحادي عشر) وأما تفصيل القول فيها فيسير. يقول ميلتون (على لسان ميكائيل): إن الشرائع أنزلت لا لتكون بديلاً عن الإيمان بل لتمتحنه، فهي تضع الضوابط التي تيسّر على الإنسان تثبيت إيمانه بكشف السبيل إلى الأعمال الصالحة، وابتلاء مدى طاعته لما أنزله الله، ولتحدي الخطيئة الأولى المركبة فيه، ولن يستطيع الإنسان أن ينصاع حقًا للشرائع المنزلة إلا عن طريق الإيمان، فالإيمان هو الأصل، وهو الذي يمكّن الإنسان من التغلب على نوازع الخطيئة ،ومن ثم تثبيت إيمانه. ولقد تحريت الدقة التي تصل إلى الحرفية في ترجمة هذه الفقرة حتي يجد القارئ النص الدقيق المعبر عن هذه المعاني كلها في ميلتون. وأما مصادر الفقرة فكلها من الكتاب المقدس، وفاولر يورد ثبتًا بها لا أعتقد أنه يهم القارئ العربي.

290- يقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية (3/ 18 وما بعده): إن

الناموس أي القانون الإلهي أو الشرع يجعل الجميع مسئولين عن أفعالهم وعرضة للعقاب عن انتهاك الشرع «لأن بالناموس معرفة الخطيئة» .

291- انظر الحاشية على السطور *238-244* ، فالشرع - كما جاء في تلك الحاشية ، «نموذج» فحسب أي مثال ، والأضحيات أو الكفارات التي يقدمها الإنسان في سبيل الغفران بموجب ذلك الشرع لا تصل في عمقها إلى الكفارة الحقيقية التي يقدمها المسيح - وفق العقيدة المسيحية - وهي افتداء البشر بنفسه . وجاء في العبرانيين مصداق ذلك «لأن الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء لا يقدر أبدًا بنفس الذبائح كل سنة التي يقدمونها على الدوام أن يكمّل الذين يتقدمون» (*10/ 1*) .

293- انظر رسالة بطرس الأولى (*1/ 18-19*) «عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء . بل بدم كريم كما من حمل بلا عَيْب ولا دنس دم المسيح» .

294- انظر رسالة بطرس الأولى (*3/ 18*) .

297-298 انظر غلاطية (*2/ 16*) .

300-306 الفكرة هنا مطابقة لما ورد في غلاطية (*3/ 22-26*) .

307-311 انظر تثنية (*34*) و يشوع (*1*) ونجد في كتاب ميلتون عن العقيدة المسيحية ما يكاد يكون صورة منثورة من الأبيات الحالية ، إذ يقول إن الشرع لا يستطيع أن يعد بما يستطيع الإيمان بالله ، من خلال المسيح ، تحقيقه بل وما حققه فعلاً . «وهكذا فإن نقص القانون يتجلى في شخص موسى نفسه، الذي كان نموذجًا للقانون ، إذ عجز موسى عن إدخال بني إسرائيل إلى أرض كنعان ، أي إلى النعيم المقيم أبدًا ، ولكن المدخل إليها قد أتاحه لهم يشوع أو يسوع» . (*1/ 26* - طبعة كولمبيا *16/ 111*) .

310- «الأميون» هم غير اليهود (أي gentiles) قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة :2) . وتكتب أحيانًا «الأمميين» . وأما يسوع (Jesus) فهي المعادل باليونانية لـ (يشوع) (أي Joshua) وقد وردت معادلة الاسمين في معجم شارل إستينّ ، الذي سبقت الإشارة إليه ، هكذا.

... Iosue et Iesus idem est nomen

وبقية العبارة عن عبوره الأردن تؤكد ذلك

Iosue Typum Iesu Christi nan solum in gestis,verum etiam in nomine genens, transiit Iordanem.

320- انظر القضاة (*2/ 16*) .

321-324 تلقى داود من ناثان النبي الوعد التالي: «يأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامك . كرسيك يكون ثابتًا إلى الأبد» . (صموئيل الثاني *7/ 16*) .

324-330 في كثير من فقرات العهد القديم (مثل إشعياء *10* والمزمور *89/ 36*) نجد أن السلالة الملكية لداود تحمل دلالة مسيحية . ويطبق لوقا هذا على يسوع قائلاً : «هذا يكون عظيمًا وسوف يدعى ابن العليّ ، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه» (*1/ 32*) . وأما عن الوعد الذي تلقاه آدم فانظر الكتاب العاشر السطر *180* وما بعده ، وعن تأكيد الوعد لإبراهيم انظر الكتاب الثاني عشر *125* وما بعده ، و *147* والسطور التالية .

332-334 أي سليمان عليه السلام الذي بنى الهيكل (المعبد) حتى يجعل للتابوت مكانًا ثابتًا لأول مرة (انظر ملوك أول *5-8* و أخبار الأيام الثاني *2-5*) وعندما بنى المعبد [البيت ، في الكتاب المقدس : - «بيت الرب» - «الرواق أمام هيكل البيت» (ملوك أول *6/ 3*)] أعطاه الله عهدًا جديدًا أو ميثاقًا آخر (ملوك أول *9/ 1-9*) .

339-313 انظر أخبار الأيام الثاني *36* ، والملوك الثاني *17* السطر *24*

والسطور التالية .

347-344 المرجع في قصة الأسر في بابل هو سفر إرْميا 25/ 12 ، و33/ 20-26 حيث يرد أن العودة تستند إلى الوعد (العهد) الذي تلقاه داود عليه السلام باعتباره مؤكدًا مثل تعاقب الليل والنهار . وانظر «وعد داود» في المزمور 89/ 29 : «وأجعل إلى الأبد نسله وكرسيه مثل أيام السموات». وأمّا وضع ميلتون عبارة «سبعين سنة» بجوار عبارة «أيام السموات» فربما كان المقصود به التذكير بتفسير «يوسفوس» للأجزاء السبعين من «المنارة» (الشمعدان) في الهيكل (المسكن) بأنها ترمز للديكاني (Decani) أي الأقسام السبعين للكواكب في بروج السماء .

350-348 إعادة بناء أورشليم هو موضوع «كتاب عزرا» و نحميا (1-6) وملوك الفرس هم «قيرس» و «أرتخششا» و «دارا» (,Cyrus .(Artaxerxes,Darius

358-353 يحكي كتاب مكابي الثاني (4-6) النزاع بين الكهنة المتآمرين «جاسون» (Jason) (يشوع) ومنيلاوس (Menelaus) (أونياس) (Onias) وسمعان (Simon) ، وهو النزاع الذي أدى إلى قيام الأنطاكي (أنطيوكوس) (Antiochus) بنهب أورشليم وتدنيس الهيكل (المعبد). وفرضت بعد عامين أشكال العبادة اليونانية وأعيد تكريس المعبد في أورشليم إلى «جوبيتر أوليمبيوس» . وميلتون ينظر إلى هذه الأحداث باعتبارها نموذجًا لخيانة الكنيسة، وبحيث تتضمن الأحداث إسقاطًا واضحًا على التاريخ المعاصر له .

356- «فإذا بهم» الضمير يعود إلى أسرة الأسمونيين (Asmonean) التي شغل أفرادها مناصب كبار الكهنة في الفترة من 152-135 قبل الميلاد . ولقد قبض أحدهم على «الصولجان» فأصبح

«أرسطوبولوس» الأول (Aristobulus 1) مما قضى على حكم كهنة بني إسرائيل . [انظر يوسفوس - آثار اليهود القديمة (20 كتابًا) - 8/10/1] .

357- «أبناء داود» هم سلالة داود عليه السلام وأنسابهم مذكورة في إنجيل متى (1) وإنجيل لوقا (3) .

358- «أحد الغرباء» هو «أنتيباتر الإيدوميني» (Antipater the Idumean) (والد هيرود الأكبر) (Herod the Great) الذي عينه يوليوس قيصر وكيلاً له في حكم «جوديا» (اليهودية Judea وهي أقصى جنوب فلسطين) . (يوسفوس 14/8/5) .

360- التفاصيل من إنجيل متى (2) و إنجيل لوقا (3) ، و «محرومًا من حقه» تعبير قانوني ، «إلى ذلك المكان» أي إلى بيت لحم .

369-371 يقول فاولر: إن صياغة العبارة توحي بالتأثر بنبوءة فيرجيل بالنسبة لأغسطس في الإنيادة (1/ 283):

imperium Oceano, Famam qui terminet astris.

ولكن الفكرة تتعلق - على الأرجح - بحكم المسيح على الأرض والتي جاءت النبوءات بها في أماكن كثيرة من الكتاب المقدس مثل إشعياء (9/ 7) ورؤيا يوحنا اللاهوتي (2/ 25/ 27) وغير ذلك . وانظر بصفة خاصة المزمور الثاني (8) حيث تمتد مملكة المسيح «إلى أقاصي الأرض» .

375-385 يقول بيردن في الكتاب المشار إليه آنفًا: إن حديث ميكائيل عن المسيح يستخدم إلى حد ما مفردات ملحمية وهو الذي يوقع آدم في خطأ تصوره بطلاً ملحميًا عاديًا ، وهو ما يتجلى في هذه الفقرة (ص 197 و 198) ولكن ميكائيل يسرع بتصحيح ذلك الخطأ بتأكيد الدور المأسوي للمسيح عليه السلام .

379- انظر السطر 158 من الكتاب الحادي عشر والحاشية عليه . وهنا في 279 - 382 عبارات من خطاب الملاك لمريم البتول في البشارة . انظر لوقا (1/ 31-35) .

386-387 لا يرى ميلتون في صورة المبارزة التقليدية ما يفي برسالة المسيح ، فالمبارزة تقع بين اثنين ذوي قوة متكافئة أو متقاربة ونتيجتها ليست مؤكدة ، وأما رسالة المسيح ففوق ذلك لأنه يمثل قوة الله العليّ القدير .

395-465 انظر الكتاب الثالث السطر 208 والسطور التالية . ويقول فاولر: إن هذه الفقرة ، على أهميتها (لأنها تقدم لآدم العقيدة التي عليه أن يعتنقها قبل الهبوط إلى الدنيا) تتضمن ضغطًا «للتعريفات» كثيرة ومصطلحات لاهوتية دقيقة في سطور قليلة وفي مساحة «شعورية» محدودة جدًا ، ولذلك فهي فقرة فاشلة . ولكن فاولر لا يذكر أننا نقترب الآن من ختام الملحمة وأن ميلتون مضطر لذلك هنا . وعلى أي حال فإن انتقادات فاولر لها ما يبررها من وجهة النظر الفنية الخالصة .

403-404 انظر رومية (13/ 10) «المحبة لا تصنع شرًا للقريب . فالمحبة هي تكميل الناموس» .

406- «موت ملعون» انظر غلاطية (3/ 13) و تثنية (21/ 23) .

409-410 انظر الحاشية على الأبيات 285-306 . وأما الإضافة هنا فهو أن التبرير (أي بلوغ البِرّ والصلاح) بالإيمان يمكن أن يتحقق بالانتساب إلى إيمان المسيح نفسه ، أي إن المؤمن بالمسيح حقًا سوف يُنسب إليه إيمان المسيح فيكتسبه منه وهذا هو ما يسمى التبرير بانتساب الإيمان (Justification by Faith Imputation) وهو من أسس المذهب البروتستاني . أي إن بِرّ المسيح وطاعته تنتسبان أو تُنسبان إلى المؤمن . ويقول فاولر: «وهكذا بفكرة قانونية خيالية (legal

fiction) ترجح خصال المسيح الرفيعة كفة خطايا الخاطئ» .
ويبدو أن ذلك هو ما كان ميلتون يعتقده ، وفق ما جاء في كتابه عن العقيدة المسيحية (*I* /22) (طبعة كولمبيا *16* /*24* وما بعدها)

410– «على اتفاقها مع الشرع» معناها أن «التبرير» المذكور لا يكون بالأعمال مهما تكن بل بالإيمان .

416– «إذ محا الصّكّ الذي علينا في الفرائض الذي كان ضدّا لنا وقد رفعه من الوسط مسمّرًا إياه في الصليب» (كولوسي – *2*/ *14*) .

419– «قضى ... عقوبة» تعبير قانوني . وفي الأصل إيحاء برضا المسيح عن قضائها .

422– «نجوم الصبح» تعبير يراه النقاد معقدًا ،لأنه قد يشير إلى النجوم الحقيقية وقد يكون استعاريًا فيشير إلى الملائكة .

424– «فديتك» أي فدية الإنسان الذي يمثله آدم .

425–426 إلماح إلى مبدأ الاصطفاء . انظر الكتاب الثالث *173–202* «سينجو منهم من يشاء» .

427– «بالإيمان ... العقل» انظر الحاشية على *64* من الكتاب الحادي عشر .

434– انظر تسالونيكي (*4*/ *13–15*) .

446–450 يقدم ميلتون الآن تفسيرًا روحانيًا صريحًا للوعد الذي وعد إبراهيم به (الأبيات 25 وما بعده و *147* والسطور التالية) مستوحيًا ذلك من غلاطية (*3*/ *7* و *8*) : «اعلموا إذن أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم . والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر

إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم» .

458–465 قارن ذلك بالحديث في الكتاب الثالث (السطر 321 والسطور التالية) عن المجيء الثاني للمسيح، ويقول إمبسون في الكتاب المشار إليه (ص 127): إن تعبير «سواء في السماء أو في الأرض» (363) يدل على أن ميلتون لم يكن واثقًا من فكرة العهد الذهبي (الألفية السعيدة The Millennium) ولكن العبارة لا يكتمل معناها إلا بما بعدها ، والسياق يدل على أن المقصود هو «في السماء وفي الأرض جميعًا» .ويوضح ذلك فاولر استنادًا إلى السطور 330–335 من الكتاب الثالث :

حتى يحكم في أمر
العاصين من الناس والملائكة فمن حق عليه القول سقط
بما يقضيه حكمك . حتى إذا حشروا إلى الجحيم فامتلأت بهم
أغلقت أبوابها إلى الأبد . وعندها
تحترق الدنيا ومن رمادها تنشأ
سماء جديدة وأرض جديدة يسكنها الأبرار

(335–330)

ويضيف أن السياق يعني أن النعيم سيكون شاملاً إلى الحد الذي يصبح التمييز بين السماء والأرض أمرًا لا وزن له ، فالبعض في النعيم هنا والبعض في النعيم هناك،وتعبير «الأحياء والأموات» يتكرر في الكتاب المقدس (أعمال الرسل 10/ 42 ، تيموثاوس 4/ 1 و رسالة بطرس الأولى 4/ 5) .

469–478 يقول هاوارد في دراسة له نشرتها مجلة مكتبة هنتنجتون (الفصلية) عام 1945 :إن تتبعنا لشتى أسباب السقوط ينتهي بنا هنا إلى الغاية من السقوط ، ألا وهي زيادة تمجيد الله ومعرفة مدى حبه الشديد من خلال تضحية المسيح عليه السلام (ص 165) . وأما قدرة الخالق

على تحويل الشر إلى خير فتتبدى في فقرات كثيرة - انظر مثلاً الكتاب الأول - السطر *215* والسطور التالية، وانظر كتاب ك. س. لويس «مقدمة للفردوس المفقود» (*1942*) انظر المراجع.

478- انظر رومية (*5/ 20*) «ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا» - والمعنى أن رحمة الله تزداد حيثما ازدادت خطايا البشر .

486- «المُعَزِّي» هو «الروح القُدس» - انظر إنجيل يوحنا (*14/ 18*) وأيضًا (*15/ 26*) : «ومتى جاء المُعزِّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي» وعادة ما يوازي النقاد بين «روح القدس» وجبريل عليه السلام .

488-489 انظر رومية ((*3/ 27*) «أبناموس الأعمال ؟ كلا . بل بناموس الإيمان» . وانظر أيضًا غلاطية (*5/ 6*) والعبرانيين (*8/ 10*) .

491- «الدرع الروحي» يشير إلى القصة الرمزية الواردة في أفسس (*6/ 11-17*) ومغزاها أن أهم جانب من جوانب الدرع هو الإيمان (*6/ 16*): «حاملين فوق الكل تُرْسَ الإيمان الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة» .

497-502 الإشارة إلى ما روي من أحداث - على سبيل المثال في أعمال الرسل (*2*، *10*) .

505- الاستعارة ترجع إلى الرسول بولس (كورنثوس الأول *9/ 24*) : «ألستم تعلمون أن الذين يركضون في الميدان جميعهم يركضون ولكن واحدًا يأخذ الجعالة . هكذا اركضوا كي تنالوا» .

507-508 انظـر أعمال الرسل (*20/ 29*) : «لأني أعلم هنا أنه بعد ذهابي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية» . وانظر التشبيه الذي

يشبه إبليس فيه بالذئب في الكتاب الرابع *183-187* . ويقول هاوارد شولتز في كتابه ميلتون والمعرفة المحرمة ، نيويورك ، *1955* : إن تصوير ميلتون «للمسيخ الدجال» موجه «بصفة خاصة ضد روما» (ص *127*) أي ضد الباب والكنيسة الكاثوليكية، ولكن فاولر يقول: إن القطعة كلها (*507-537*) يجب ألا تعتبر ضد كنيسة روما أو كنيسة إنجلترا ،بل هي إدانة - بصفة عامة - لكل ما لا يقوم على الإيمان في الكنيسة .

511- انظر رسالة بطرس الأول (*5/ 2*) «ارعوا رعية الله التي بينكم نظارًا ... لا لربح قبيح بل بنشاط» . وميلتون يستخدم كلمة (lucre) (الربح) المستخدمة في الكتاب المقدس نفسها .

511-522 كان من أهم أركان المذهب البروتستانتي أن الحَكَم النهائي في المسائل العقائدية هو الضمير لا مجرد السلطة . وكان ميلتون كثيرًا ما يعرب عن ازدرائه للاعتماد على السلطات الكهنوتية وغيرها ، ويسميها «البركة الموحلة للانصياع للتقاليد» . ويقول في كتابه عن العقيدة المسيحية (*1/ 30*) (طبعة كولمبيا *16/ 281*) : «من المحرم علينا صراحة أن نلتفت أدنى التفات إلى التقاليد البشرية ، مكتوبة كانت أم غير مكتوبة» وهو بهذا يشير إلى ما ورد في سفر التثنية (*4/ 2*) من ضرورة الالتزام «بالوصايا» التي أنزلها الله فقط . وانظر أيضًا كورنثوس الأولى (*2/ 14-15*) «ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة . ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يُحكم فيه روحيًا . وأما الروحي فيحكم في كل شيء» .

515-524 «السلطة العلمانية» (بفتح العين - نسبة إلى العالم) هي السلطة الزمنية أي الدنيوية - فكلمة secular مشتقة من كلمة sceulum التي تعني «العصر» أو «الجيل» ، وتعني في الفقه المسيحي «العالم» (خصوصًا في المقابلة مع الكنيسة) وكانت كلمة sceculum

اللاتينية تعني ذلك أيضًا ، وكان فساد الكنيسة الراجع إلى نشدانها السلطة العلمانية من الموضوعات التي شغلت ميلتون وناقشها باستفاضة في دراسة عنوانها: عن الإصلاح (طبعة بيل/ 1) ويدين في كتابه عن العقيدة المسيحية فرض الطاعة للأفكار أو السلطة البشرية (sanctiones quascunque ... et dogmata) والمقصود بالفطرة (523) هو الفطرة السليمة أو الضمير الحيّ لكل فرد على حدة. انظر إزميا (31/ 33) «أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم» .

526- انظر كورنثوس الثانية (3/ 17) «وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية» .

527- انظر كورنثوس الأولى (3/ 17) «لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو» .

528-530 يقول فاولر: إن ميلتون لا يخص بالهجوم كنيسة روما لاعتقادها أنها منزهة عن الخطأ ، ولكنه يهاجم كل من يتصور ذلك ، وكان الظن هو أن مراسيم المجمعات المسكونية منزهة (معصومة من الخطأ) ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن فكرة تنزه البابا عن الخطأ لم تبتكر إلا عام 1870 ، فإن كنيسة روما هي الهدف الرئيسي لهجوم ميلتون هنا . إذ يقول في دراسة له بعنوان: بحث في السلطة المدنية (طبعة كولمبيا 6/ 8): إن «البابا يدعي لنفسه العصمة ، فوق الضمير وفوق الكتب المقدسة» .

532-533 انظر إنجيل يوحنا (4/ 23) «الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق» .

536- «الأعمال التي تصدق الإيمان» انظر البيت 427 والبيت 64 من الكتاب الحادي عشر والحاشية عليه .

539 -انظر رومية (8/ 22) «فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معًا

إلى الآن» .

551-539 يلاحظ أن «الأنين» يسترجع أنّات الطبيعة عند سقوط آدم وحواء (الكتاب التاسع *783* ، *1001*) وأن «تنفس الصعداء» يعني التطلع إلى المستقبل بعد زوال الغمة ، و «التنفس» صورة أساسية في القصيدة ، فالإنسان تنفس أول ما تنفس عند الخلق (الكتاب السابع *626*) وانظر الكتاب الأول 7 حيث ترد كلمة الوحي المشتقة من الأنفاس .

551- بدأ ميكائيل روايته «بالآثار» المترتبة مباشرة على المساس بالثمرة المحرمة (الكتاب الحادي عشر *424*) وهو ينهيها الآن «بالثمار» التي تؤتيها . انظر الكتاب الأول - السطر الأول والسطور التالية .

559- «ذلك الوعاء» أي الذهن (لا الجسد) .

561- «أحسن الأشياء الطاعة» انظر صموئيل الأول (*15/ 22*) «الاستماع أفضل من الذبيحة» .

565- «الرحيم» انظر المزمور *145* (*8-9*) «الرب ... كثير الرحمة ... ومراحمه على كل أعماله» .

566- انظر رومية (*12/ 21*) «أغلب الشر بالخير» .

567- انظر كورنثوس الأولى (*1/ 27*) «واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء» .

581-576 انظر ما قاله روفائيل في الكتاب الثامن ، السطور *167-178*، كما يذكرنا التعبير «أسرار المحيط» بما جاء في الكتاب الثالث (السطر *705* والسطور التالية) من عجز أي ذهن مخلوق عن إدراك الحكمة التي تختفي وراء أعمال الله . وانظر أيضًا سفر أيوب (*28/ 28*) «مخافة الرب هي الحكمة» .

587-581 انظر رسالة بطرس الثانية (*1/ 5-7*) «قدموا في

إيمانكم فضيلة وفي الفضيلة معرفة . وفي المعرفة تعففًا وفي التعفف صبرًا وفي الصبر تقوى وفي التقوى مودة أخوية وفي المودة الأخوية محبة» .

وإزاء ما يبدو من اختلاف هذا النص بعض الشيء عن نص ميلتون، فسوف أورد ترجمتين إنجليزيتين له ، الأولى من النسخة المعتمدة (Authorised Version) والثانية من النسخة المنقحة (Revised) .

1.«Add to your faith virtue; and to virtue knowledge And to konwledge temperance; and to temperance patience; and to patience godliness; and to godliness brotherly. kindness; and to brotherly kindness charity».

2. add virtue to your faith|knowledge to virtue, self-control to knowledge, fortitude to self-control, piety to fortitude, brotherly affection to piety, and love to brotherly affection» .

ومن هذا يتضح مدى اقتراب ميلتون من نص الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس ، وإن كان يحذف من هذه القائمة «التقوى» (أو الورع) والمودة الأخوية ، ويضيف الأعمال بل يجعل لها مكان الصدارة ، وأما عن توازي الإحسان والمحبة فانظر الحاشية على السطر *216* من الكتاب الثالث .

605-594 تلخيص ميكائيل في الختام يؤكد الخيطين الفكريين في الرؤى التي سبقت وهما خيط «التسليم الخاشع» لله ، أي الخضوع لمشيئته، وخيط «الإيمان» ، وتتوازن كفتاهما توازنًا دقيقًا في عبارة «الاجتماع على إيمان واحد برغم الأحزان» أي إن على آدم أن يسلّم في خشوع بعواقب زلّته

وأن يتطلع بإيمان إلى انتصار المسيح آخر الأمر .

602- «أيامًا كثيرة» - عاش آدم حتى أصبح عمره 930 سنة (تكوين 5/5) .

608- لاحظ التناقض مع ما جاء في «الموضوع» (المقدمة النثرية) من أن آدم يوقظ حواء .

611- انظر عدد (12/6) «إن كان منكم نبيٌّ للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه». ويفرق الشراح بين الحلم والرؤيا قائلين: إن الرؤيا التي يراها النبي هو حلم يتحقق .

640- تقول ماكافري في كتابها المشار إليه: «إننا هبطنا الآن مع آدم وحواء إلى عالمنا الدنيوي» (59) .

643- انظر تكوين (3/ 24) .

645- يشير بيردن في كتابه المذكور (ص 200) إلى التوازن الدقيق هنا بين الحزن والفرح .

648- تشابك الأيدي رمز للإيمان .

649- «عدن» لا تشير إلى الفردوس بل إلى المناطق المحيطة بها .

* * *

مصادر وخلفيات

* وجميع الدراسات المترجمة في هذا الملحق منشورة في كتاب:

A Norton Critical Editio John Milton: Paradise Lost Authoritative Text Sources and Backgrounds Criticism edited by Gordon TeskeyNew York. London 2005

* * *

التكوين

(1)

فِي الْبَدْءِ خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ
2-وإِذْ كَانَتِ الأَرْضُ مُشَوَّشَةً وَمُقْفِرَةً وَتَكْتَنِفُ الظُّلْمَةُ وَجْهَ الْمِيَاهِ، وَإِذْ كَانَ رُوحُ الله يُرَفْرِفُ عَلَى سَطْحِ الْمِيَاهِ.
3- أَمَرَ الله: «لِيَكُنْ نُورٌ». فَصَارَ نُورٌ .
4-وَرَأَى الله النُّورَ فَاسْتَحْسَنَهُ وَفَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّلاَمِ .
5-وَسَمَّى الله النُّورَ نَهَارًا، أَمَّا الظَّلاَمُ فَسَمَّاهُ لَيْلاً. وَهَكَذَا جَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ، فكانَ الْيَوْمَ الأَوَّلَ.
6-ثُمَّ أَمَرَ الله: «لِيَكُنْ جَلَدٌ يَحْجُزُ بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ».
7- فَخَلَقَ الله الْجَلَدَ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْمِلُهَا السُّحُبُ وَالْمِيَاهِ الَّتِي تَغْمُرُ الأَرْضَ. وَهَكَذَا كَانَ.
8-وَسَمَّى الله الْجَلَدَ سَمَاءً. ثُمَّ جَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي.
9-ثُمَّ أَمَرَ الله: «لِتَتَجَمَّعِ الْمِيَاهُ الَّتِي تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ». وَهَكَذَا كَانَ.
10-وَسَمَّى الله الْيَابِسَةَ أَرْضًا وَالْمِيَاهَ الْمُجْتَمِعَةَ بِحَارًا وَرَأَى الله ذَلِكَ

فَاسْتَحْسَنَهُ.

11- وَأَمَرَ الله «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً مُبْزِرًا، وَشَجَرًا مُثْمِرًا فِيهِ بِزْرُهُ الَّذِي يُنْتِجُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ فِي الأَرْضِ» وَهَكَذَا كَانَ.

12-فَأَنْبَتَتِ الأَرْضُ كُلَّ أَنْوَاعِ الأَعْشَابِ وَالْبُقُولِ الَّتِي تَحْمِلُ بُزُورًا مِنْ جِنْسِهَا والأَشْجَارَ التي تَحْمِلُ أَثْمَارًا ذَاتَ بُذُورٍ مِنْ جِنْسِهَا وَرَأَى الله ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَهُ.

13-وَجَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمَ الثَّالِثَ.

14-ثُمَّ أَمَرَ الله: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُفَرِّقَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، فَتَكُونَ عَلاَمَاتٍ لِتَحْدِيدِ أَزْمِنَةٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينَ.

15-وَتَكُونَ أَيْضًا أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُضِيءَ الأَرْضَ». وَهَكَذَا كَانَ.

16-وَخَلَقَ الله نُورَيْنِ عَظِيمَيْنِ، النُّورَ الأَكْبَرَ لِيُشْرِقَ فِي النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِيُضِيءَ فِي اللَّيْلِ، كَمَا خَلَقَ النُّجُومَ أَيْضًا.

17-وَجَعَلَهَا الله فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُضِيءَ الأَرْضَ،

18-لِتَتَحَكَّمَ بِالنَّهَارِ وَبِاللَّيْلِ وَلِتُفَرِّقَ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلاَمِ. وَرَأَى الله ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَهُ.

19-وَجَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ.

20-ثُمَّ أَمَرَ الله: «لِتَزْخَرِ الْمِيَاهُ بِشَتَّى الْحَيَوَانَاتِ الْحَيَّةِ وَلْتُحَلِّقِ الطُّيُورُ فَوْقَ الأَرْضِ عَبْرَ فَضَاءِ السَّمَاءِ».

21-وَهَكَذَا خَلَقَ الله الْحَيَوَانَاتِ الْمَائِيَّةَ الضَّخْمَةَ، وَالْكَائِنَاتِ الْحَيَّةَ الَّتِي اكْتَظَّتْ بِهَا الْمِيَاهُ، كُلاً حَسَبَ أَجْنَاسِهَا، وَأَيْضًا الطُّيُورَ وَفْقًا

لأَنْوَاعِهَا. وَرَأَى الله ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَهُ.

22-وَبَارَكَهَا الله قَائِلاً: «انْتِجِي، وَتكَاثَرِي وَامْلئِي مِيَاهَ الْبِحَارِ. وَلْتَتَكَاثَر الطُّيُورُ فَوْقَ الأَرْضِ».

23-ثُمَّ جَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمَ الْخَامِسَ.

24-ثُمَّ أَمَرَ الله : «لِتُخْرِجِ الأَرْضُ كَائِنَاتٍ حَيَّةً، كُلاً حَسَبَ جِنْسِهَا، مِنْ بَهَائِمَ وَزَوَاحِفَ ووُحُوشٍ وَفْقًا لأَنوَاعِهَا». وَهَكَذَا كَانَ.

25-فَخَلَقَ الله وُحُوشَ الأَرْضِ، وَالْبَهَائِمَ وَالزَّوَاحِفَ، كُلاً حَسَبَ نَوْعِهَا. وَرَأَى الله ذَلكَ فَاسْتَحْسَنَهُ.

26-ثُمَّ قَالَ الله: «لِنَصْنَعِ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا، كَمِثَالِنَا، فَيَتَسَلَّطَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ، وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ، وَعَلَى الأَرْضِ، وَعَلَى كُلِّ زَاحِفٍ يَزْحَفُ عَلَيْهَا».

27-فَخَلَقَ الله الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ الله خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلقَهُمْ.

28-وَبَارَكَهُمُ الله قَائِلاً لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَتَكَاثَرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ وَأَخْضِعُوهَا وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ، وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ عَلَى الأَرْضِ».

29-ثُمَّ قَالَ لَهُمْ «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ أَصْنَافِ الْبُقُولِ الْمُبْزِرَةِ الْمُنْتَشِرَةِ عَلَى كُلِّ سَطْحِ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ مُثْمِرٍ مُبْزِرٍ، لِتَكُونَ لَكُمْ طَعَامًا.

30-أَمَّا الْعُشْبُ الأَخْضَرُ فَقَدْ جَعَلْتُهُ طَعَامًا لِكُلِّ مِنْ وُحُوش الأَرْضِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَالْحَيَوَانَاتِ الزَّاحِفَة، وَلِكُلِّ مَا فِيهِ نَسَمَةُ حَيَاةٍ». وَهَكَذَا

كَانَ.

31-وَرَأَى الله مَا خَلَقَهُ فَاسْتَحْسَنَهُ جِدًّا. ثُمَّ جَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمَ السَّادِسَ.

(2)

وَهَكَذَا اكْتَمَلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ بِكُلِّ مَا فِيهَا.

2-وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَتَمَّ الله عَمَلَهُ الَّذِي قَامَ بِهِ، فَاسْتَرَاحَ فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا عَمِلَهُ.

3-وَبَارَكَ الله الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ اسْتَرَاحَ فِيهِ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْخَلْقِ.

4-هَذَا وَصْفٌ مَبْدَئِيٌّ لِلسَّمَاوَاتِ والأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ.

5-وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَتَ بَعْدُ فِي الأَرْضِ شَجَرٌ بَرِّيٌّ وَلاَ عُشْبٌ بَرِّيٌّ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلَهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَرْسَلَ مَطَرًا عَلَى الأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِنْسَانٌ لِيَفْلَحَهَا.

6-إِلاَّ أَنَّ ضَبَابًا كَانَ يَتَصَاعَدُ مِنَ الأَرْضِ فَيَسْقِي سَطْحَهَا كُلَّهُ.

7-ثُمَّ جَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ مِنْ تُرَابِ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ، فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً.

8-وَأَقَامَ الرَّبُّ الإِلَهُ جَنَّةً فِي شَرْقِيِّ عَدْنٍ وَوَضَعَ فِيهَا آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ.

9-وَاستَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ بَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ، وَلَذِيذَةٍ لِلأَكْلِ، وَغَرَسَ أَيْضًا شَجَرَةَ الْحَيَاةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ.

10-وَكَانَ نَهْرٌ يَجْرِي فِي عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَسِمَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَنْهُرٍ.

11-الأَوَّلُ مِنْهَا يُدْعَى فِيشُونَ، الَّذِي يَلْتَفُّ حَوْلَ كُلِّ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ يُوْجَدُ الذَّهَبُ.

12-وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ، وَفِيهَا أَيْضًا الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ.

13-وَالنَّهْرُ الثَّانِي يُدْعَى جِيحُونَ الَّذِي يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ.

14-وَالنَّهْرُ الثَّالِثُ يُدْعَى حِدَّاقِلَ وَهُوَ الْجَارِي فِي شَرْقِيِّ أَشُّورَ وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ هُوَ الْفُرَاتُ.

15-وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِي بِهَا.

16-وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلاً: «كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ.

17-وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْمًا تَمُوتُ».

18-ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «لَيْسَ مُسْتَحْسَنًا أَنْ يَبْقَى آدَمُ وَحِيدًا سَأَصْنَعُ لَهُ مُعِينًا مُشَابِهًا لَهُ».

19-وَكَانَ الرَّبُّ الإِلَهُ قَدْ جَبَلَ مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ الْفَضَاءِ وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى بِأَيِّ أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ اسْمًا لَهُ.

20-وَهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءً عَلَى كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مُعِينًا مُشَابِهًا لَهُ.

21-فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلاَعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ.

22-وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ.

23-فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. فَهِيَ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِئٍ أُخِذَتْ».

24-لِهَذَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتْرُكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَصِيرَانِ جَسَدًا وَاحِدًا.

25-وَكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ عُرْيَانَيْنِ، وَلَمْ يَعْتَرِهُمَا الْخَجَلُ.

(3)

وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَمْكَرَ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ، فَسَأَلَتِ الْمَرْأَةَ:

«أَحَقًّا أَمَرَكُمَا الله أَلاَّ تَأْكُلاَ مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟».

2-فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا.

3-مَا عَدَا ثَمَرَ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِهَا، فَقَدْ قَالَ الله: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَلْمُسَاهُ لِكَيْ لاَ تَمُوتَا».

4-فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا.

5-بَلْ إِنَّ الله يَعْرِفُ أَنَّهُ حِينَ تَأْكُلاَنِ مِنْ ثَمَرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا فَتَصِيرَانِ مِثْلَهُ، قَادِرَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ».

6-وَعِنْدَمَا شَاهَدَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَذِيذَةٌ لِلْمَأْكَلِ وَشَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ، وَمُثِيرَةٌ لِلنَّظَرِ قَطَفَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، ثُمَّ أَعْطَتْ زَوْجَهَا أَيْضًا فَأَكَلَ مَعَهَا.

7-فَانْفَتَحَتْ لِلْحَالِ أَعْيُنُهُمَا، وَأَدْرَكَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ، فَخَاطَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ مِنْ أَوْرَاقِ التِّينِ.

8-ثُمَّ سَمِعَ الزَّوْجَانِ صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَآ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ الإِلَهِ بَيْنَ شَجَرِ الْجَنَّةِ.

9-فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟».

10-فَأَجَابَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَاخْتَبَأْتُ خِشْيَةً مِنْكَ لأَنِّي عُرْيَانٌ».

11-فَسَأَلَهُ: «مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟».

12-فَأَجَابَ آدَمُ: «إِنَّهَا الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا رَفِيقَةً لِي. هِيَ الَّتِي أَطْعَمَتْنِي مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلْتُ».

13-فَسَأَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ الْمَرْأَةَ: «مَاذَا فَعَلْتِ؟» فَأَجَابَتْ: «أَغْوَتْنِي الْحَيَّةُ فَأَكَلْتُ».

14-فَقَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ، عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ، وَمِنَ التُّرَابِ تَأْكُلِينَ طَوَالَ حَيَاتِكِ.

15-وَأُثِيرُ عَدَاوَةً دَائِمَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ نَسْلَيْكُمَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ تَلْدَغِينَ عَقِبَهُ».

16-ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَةِ: «أُكَثِّرُ تَكْثِيرًا أَوْجَاعَ مَخَاضِكِ فَتُنْجِبِينَ بِالآلامِ أَوْلاَدًا، وَإِلَى زَوْجِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكِ».

17-وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ أَذْعَنْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا، فَالأَرْضُ مَلْعُونَةٌ بِسَبَبِكَ وَبِالْمَشَقَّةِ تَقْتَاتُ مِنْهَا طَوَالَ عُمْرِكَ.

18-شَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ عُشْبَ الحَقْلِ.

19-بِعَرَقِ جَبِينِكَ تَكْسَبُ عَيْشَكَ حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ، فَمِنْ تُرَابٍ أُخِذْتَ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

20-وَسَمَّى آدَمُ زَوْجَتَهُ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ.

21-وكَسَا الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ رِدَاءَيْنِ مِنْ جِلْدٍ صَنَعَهَا لَهُمَا.

22-ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «هَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا، يُمَيِّزُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقَدْ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَتَنَاوَلُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ وَيَأْكُلُ، فَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ».

23-فَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْ تُرَابِهَا.

24-وَهَكَذَا طَرَدَ الله الإِنْسَانَ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ، وَأَقَامَ مَلاَئِكَةَ الْكَرُوبِيمِ وَسَيْفًا نَارِيًّا مُتَقَلِّبًا شَرْقِيَّ الْجَنَّةِ لِحِرَاسَةِ الطَّرِيقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ».

* * * * *

(11)

وَكَانَ أَهْلُ الأَرْضِ جَمِيعًا يَتَكَلَّمُونَ أَوَّلاً بِلِسَانٍ وَاحِدٍ وَلُغَةٍ وَاحِدَةٍ.

2-وَإِذِ ارْتَحَلُوا شَرْقًا وَجَدُوا سَهْلاً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ فَاسْتَوْطَنُوا هُنَاكَ.

3-فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَيَّا نَصْنَعُ طُوبًا مَشْوِيًا أَحْسَنَ شَيٍّ». فَاسْتَبْدَلُوا الْحِجَارَةَ بِالطُّوبِ، وَالطِّينَ بِالزِّفْتِ.

4-ثُمَّ قَالُوا: «هَيَّا نُشَيِّدْ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا يَبْلُغُ رَأْسُهُ السَّمَاءَ،

فَنُخَلِّدَ لَنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَشَتَّتَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ كُلِّهَا».

5-وَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَشْهَدَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ شَرَعَ بَنُو الْبَشَرِ فِي بِنَائِهِمَا.

6-فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنْ كَانُوا، كَشَعْبٍ وَاحِدٍ يَنْطِقُونَ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، قَدْ عَمِلُوا هَذَا مُنْذُ أَوَّلِ الأَمْرِ، فَلَنْ يَمْتَنِعَ إِذًا عَلَيْهِمْ أَيُّ شَيْءٍ عَزَمُوا عَلَى فِعْلِهِ.

7-هَيَّا نَنْزِلْ إِلَيْهِمْ وَنُبَلْبِلْ لِسَانَهُمْ، حَتَّى لاَ يَفْهَمَ بَعْضُهُمْ كَلاَمَ بَعْضٍ».

8-وَهَكَذَا شَتَّتَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ كُلِّهَا، فَكَفُّوا عَنْ بِنَاءِ الْمَدِينَةِ.

9-لِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْمَدِينَةُ «بَابِلَ لأَنَّ الرَّبَّ بَلْبَلَ لِسَانَ أَهْلِ كُلِّ الأَرْضِ، وَبِالتَّالِي شَتَّتَهُمْ مِنْ هُنَاكَ فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ كُلِّهَا.

* * * * *

(12)

وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إلىالأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ.

2-فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً (لِكَثِيرِينَ).

3-وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَأَلْعَنُ لاَعِنِيكَ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ».

4-فَارْتَحَلَ أَبْرَامُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ، وَرَافَقَهُ لُوطٌ وَكَانَ أَبْرَامُ فِي الْخَامِسَةِ

والسَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا غَادَرَ حَارَانَ.

5-وَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ زَوْجَتَهُ وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ وَكُلَّ مَا جَمَعَاهُ مِنْ مُقْتَنَيَاتٍ وَكُلَّ مَا امْتَلَكَاهُ مِنْ نُفُوسٍ فِي حَارَانَ، وَانْطَلَقُوا جَمِيعًا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَنْ وَصَلُوهَا.

6-فَشَرَعَ أَبْرَامُ يَتَنَقَّلُ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ بَلَغَ مَوْضِعَ شَكِيمَ إِلَى سَهْلِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّون آنَئِذٍ يَقْطُنُونَ تِلْكَ الأَرْضَ.

7-وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «سَأُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ لِذُرِّيَّتِكَ». فَبَنَى أَبْرَامُ هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ.

* * * * *

الخــــروج

(14)

وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى.

2-«قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْجِعُوا وَيَتَجَمَّعُوا مُقَابِلَ فَمِ الْحِيرُوثِ بَيْنَ مَجْدَلَ وَالبَحْرِ أَمَامَ بَعْلَ صَفُونَ مُبَاشَرَةً تُخَيِّمُونَ عِنْدَ الْبَحْرِ،

3-فَيَظُنُّ فِرْعَوْنُ أَنَّكُمْ هَائِمُونَ فِي الأَرْضِ عَلَى غَيْرِ هُدًى، وَقَدِ اسْتَغْلَقَتْ عَلَيْكُمُ الصَّحْرَاءُ،

4-فَأُقَسِّي قَلْبَ فِرْعَوْنَ حَتَّى يَسْعَى وَرَاءَكُمْ فَأَتَعَظَّمُ آنَئِذٍ (بِالْقَضَاءِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى جَيْشِهِ، وَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ». وَهَكَذَا فَعَلَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ.

5-وَقِيلَ لِمَلِكِ مِصْرَ: «هُوَذَا الشَّعْبُ قَدْ هَرَبَ». فَتَحَوَّلَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ وَقُلُوبُ حَاشِيَتِهِ ضِدَّهُمْ، وَقَالُوا: «مَاذَا دَهَانَا حَتَّى أَطْلَقْنَا إِسْرَائِيلَ مِنْ خِدْمَتِنَا؟».

6-فَأَعَدَّ مَرْكَبَتَهُ وَاصْطَحَبَ جَيْشَهُ مَعَهُ.

7-فَأَعَدَّ سِتَّ مِئَةِ مَرْكَبَةٍ وَسَائِرَ مَرْكَبَاتِ مِصْرَ، وَحَمَلَ عَلَيْهَا قَادَةَ سِلاَحِ الْمَرْكَبَاتِ.

8- وَقَسَّى الرَّبُّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ، فَطَارَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ غَادَرُوا مِصْرَ بِقُدْرَةٍ ظَاهِرَةٍ.

9-وَسَعَى الْمِصْرِيُّونَ وَرَاءَهُمْ بِجَمِيعِ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ وَجُيُوشِهِ، فَأَدْرَكُوهُمْ وَهُمْ مُتَجَمِّعُونَ عِنْدَ الْبَحْرِ بِالْقُرْبِ مِنْ فَمِ الْحِيرُوثِ مُقَابِلَ بَعْلِ صَفُونَ.

10-وَلَمَّا اقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ، نَظَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَإِذَا بِالْمِصْرِيِّينَ يَنْدَفِعُونَ نَحْوَهُمْ، فَارْتَعَبُوا وَاسْتَغَاثُوا بِالرَّبِّ.

11-ثُمَّ قَالُوا لِمُوسَى: «هَلْ لافْتِقَارِ مِصْرَ لِلْقُبُورِ أَخْرَجْتَنَا إِلَى الصَّحْرَاءِ لِنَمُوتَ فِيهَا؟ مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا حَتَّى أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ؟

12-أَلَمْ نَقُلْ لَكَ فِي مِصْرَ: دَعْنَا وَشَأْنَنَا فَنَخْدُمَ الْمِصْرِيِّينَ، إِذْ كَانَ خَيْرًا لَنَا أَنْ نَخْدُمَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ فِي الصَّحْرَاءِ».

13-فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: «لاَ تَخَافُوا قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ الَّذِي يُجْرِيهِ لَكُمُ الْيَوْمَ، لأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ رَأَيْتُمُوهُمُ الْيَوْمَ، لَنْ تَرَوْهُمْ فِي مَا بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ.

14-فَالرَّبُّ يُحَارِبُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ».

15-وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَا بَالُكَ تَسْتَغِيثُ بِي؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا.

16-ارْفَعْ عَصَاكَ وَابْسِطْ يَدَكَ فَوْقَ الْبَحْرِ وَشُقَّهُ، فَيَجْتَازَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ.

17-فَهَا أَنَا أُغْلِظُ قُلُوبَ الْمِصْرِيِّينَ فَيَسْعَوْنَ وَرَاءَكُمْ، فَأَتَعَظَّمُ (بِالْقَضَاءِ) عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى مَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ.

18-فَيُدْرِكُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، عِنْدَمَا أَتَعَظَّمُ (بِالْقَضَاءِ) عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ».

19-وَانْتَقَلَ مَلاَكُ اللهِ الَّذِي كَانَ يَتَقَدَّمُ عَسْكَرَ إِسْرَائِيلَ إِلَى الْمُؤَخِّرَةِ خَلْفَهُمْ، وَكَذَلِكَ انْتَقَلَ عَمُودُ السَّحَابِ مِنْ أَمَامِهِمْ وَوَقَفَ وَرَاءَهُمْ.

20-فَدَخَلَ بَيْنَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيِّينَ وَعَسْكَرِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَصَارَ عَمُودُ السَّحَابِ ظَلاَمًا قَاتِمًا عَلَى الْمِصْرِيِّينَ، وَضِيَاءً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يَقْتَرِبْ أَحَدُهُمَا مِنَ الآخَرِ طَوَالَ اللَّيْلِ.

21-وبَسَطَ مُوسَى يَدَهُ فَوْقَ الْبَحْرِ، فَأَرْسَلَ الرَّبُّ طَوَالَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ رِيحًا شَرْقِيَّةً قَوِيَّةً رَدَّتِ الْبَحْرَ إِلَى الْوَرَاءِ، وَحَوَّلَتْهُ إِلَى يَابِسَةٍ. وَهَكَذَا انْشَقَّ الْبَحْرُ.

22-فَاجْتَازَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ عَلَى أَرْضٍ يَابِسَةٍ، فَكَانَ الْمَاءُ بِمَثَابَةِ سُورَيْنِ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ.

23-وَلَحِقَ بِهِمِ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ إِلَى وَسْطِ الْبَحْرِ، بِجَمِيعِ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ.

24-وَقَبْلَ طُلُوعِ الصَّبَاحِ أَشْرَفَ الرَّبُّ فِي عَمُودِ النَّارِ وَالسَّحَابِ عَلَى عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ وَأَرْبَكَهُمْ.

25-فَجَعَلَ عَجَلاَتِ مَرْكَبَاتِهِمْ تَتَخَلَّعُ. فَطَفِقُوا يَجُرُّونَهَا بِمَشَقَّةٍ حَتَّى قَالَ الْمِصْرِيُّونَ: «لِنَهْرُبْ مِنَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ، لأَنَّ الرَّبَّ يُحَارِبُ عَنْهُمْ ضِدَّنَا».

26-وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ابْسِطْ يَدَكَ فَوْقَ الْبَحْرِ لِيَرْتَدَّ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ مَعَ مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ».

27-فَبَسَطَ مُوسَى يَدَهُ فَوْقَ الْبَحْرِ عِنْدَ انْبِثَاقِ الصَّبَاحِ، فَارْتَدَّ الْبَحْرُ إِلَى مَوْضِعِهِ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ الْهَارِبِينَ فِي اتِّجَاهِهِ، فَجَرَفَهُمُ الرَّبُّ نَحْوَ وَسْطِ الْبَحْرِ.

28-وَارْتَدَّتِ الْمِيَاهُ وَأَغْرَقَتِ الْمَرْكَبَاتِ وَالْفُرْسَانَ وَكُلَّ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي لَحِقَ بِهِمْ إِلَى الْبَحْرِ، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ نَاجٍ وَاحِدٌ.

29-أَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقَدْ سَارُوا فَوْقَ أَرْضٍ يَابِسَةٍ وَسْطَ مِيَاهِ الْبَحْرِ. وَكَانَتِ الْمِيَاهُ كَسُورَيْنِ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ شِمَالِهِمْ.

30-وَهَكَذَا أَنْقَذَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ، وَشَاهَدُوا جُثَثَ الْمِصْرِيِّينَ مَطْرُوحَةً عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ.

31-وَعِنْدَمَا شَهِدَ الإسرائيليُّونَ الْقُوَّةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي عَامَلَ بِهَا الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ، خَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِهِ، وَبِمُوسَى عَبْدِهِ.

(104)

بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. مَا أَعْظَمَكَ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهِي فَأَنْتَ مُتَسَرْبِلٌ بِالْمَجْدِ وَالْجَلاَلِ.

2-أَنْتَ اللاَّبِسُ النُّورَ كَثَوْبٍ، وَالْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ كَخَيْمَةٍ.

3-الْمُقِيمُ بَيْتَكَ فَوْقَ الْمِيَاهِ الْعُلْيَا، الْجَاعِلُ مِنَ السُّحُبِ مَرْكَبَتَكَ، السَّائِرُ عَلَى أَجْنِحَةِ الرِّيحِ.

4-الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَكَ رِيَاحًا وَخُدَّامَكَ لَهِيبَ نَارٍ.

5-الْمُؤَسِّسُ الأَرْضَ عَلَى قَوَاعِدِهَا فَلاَ تَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ.

6-غَمَرْتَهَا بِاللُّجَجِ كَثَوْبٍ فَتَغَطَّتْ رُؤُوسُ الْجِبَالِ بِالْمِيَاهِ.

7-مِنْ زَجْرِكَ تَهْرُبُ الْمِيَاهُ، وَمِنْ قَصْفِ رَعْدِكَ تَفِرُّ.

8-ارْتَفَعَتِ الْجِبَالُ وَغَاصَتِ الْوِهَادُ، إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي خَصَّصْتَهُ لَهَا.

9-وَضَعْتَ لِلْبَحْرِ حَدًّا لاَ يَتَعَدَّاهُ حَتَّى لاَ تَعُودَ مِيَاهُهُ تَغْمُرُ الأَرْضَ.

10-أَنْتَ الْمُفَجِّرُ الْيَنَابِيعَ فِي الأَوْدِيَةِ، فَتَجْرِي بَيْنَ الْجِبَالِ.

11-تَسْقِي جَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ، وَتَرْوِي مِنْهَا حَمِيرَ الْوَحْشِ عَطَشَهَا.

12-إِلَى جُوَارِهَا تُعَشِّشُ طُيُورُ السَّمَاءِ، وَتُغَرِّدُ بَيْنَ الأَغْصَانِ.

13-تَسْقِي الْجِبَالَ مِنْ أَمْطَارِ سَمَائِكَ، وتَمْتَلِئُ الأَرْضُ مِنْ أَثْمَارِ أَعْمَالِكَ.

14-أَنْتَ الْمُنْبِتُ عُشْبًا لِلْبَهَائِمِ وَخُضْرَةً لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ، لإِنْتَاجِ خُبْزٍ مِنَ الأَرْضِ.

15-وَخَمْرٍ تُفَرِّحُ قَلْبَ الإِنْسَانِ وَتُوَرِّدُ وَجْهَهُ فَيَلْمَعُ كَبَرِيقِ الزَّيْتِ، وَخُبْزٍ يُسْنِدُ قَلْبَهُ.

16-تَرْتَوِي أَشْجَارُ الرَّبِّ، أَرْزُ لُبْنَانَ الَّذِي غَرَسَهُ.

17-حَيْثُ تَبْنِي الطُّيُورُ أَوْكَارَهَا، أَمَّا اللَّقْلَقُ فَفِي السَّرْوِ مَبِيتُهُ.

18-الْجِبَالُ الْعَالِيَةُ مَوْطِنُ الْوُعُولِ، وَالصُّخُورُ مَلْجَأٌ لِلْوِبَارِ.

19-أَنْتَ صَنَعْتَ الْقَمَرَ لِتَحْدِيدِ مَوَاقِيتِ الشُّهُورِ، وَالشَّمْسُ تَعْرِفُ مَوْعِدَ مَغْرِبِهَا.

20- تُحِلُّ الظُّلْمَةَ فَيَصِيرُ لَيْلٌ يَجُوسُ فِيهِ كُلُّ حَيَوَانِ الْغَابَةِ.

21-تُزَمْجِرُ الأَشْبَالُ طَلَبًا لِفَرِيسَتِهَا مُلْتَمِسَةً طَعَامَهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ.

22-وَمَا إِنْ تُشْرِقُ الشَّمْسُ حَتَّى تَعُودَ إِلَى عَرَائِنِهَا وَتَرْبِضَ فِيهَا.

23-أَمَّا الإِنْسَانُ فَيَخْرُجُ إِلَى عَمَلِهِ وَشُغْلِهِ حَتَّى الْمَسَاءِ.

24-يَارَبُّ مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ، كُلَّهَا صَنَعْتَ بِحِكْمَةٍ، فَامْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْ غِنَاكَ.

25-هَذَا الْبَحْرُ الْكَبِيرُ الْوَاسِعُ، الَّذِي يَعِجُّ بِمَخْلُوقَاتٍ لاَ تُحْصَى مِنْ حَيَوَانَاتٍ مَائِيَّةٍ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ.

26-تَجْرِي فِيهِ السُّفُنُ، تَمْرَحُ فِيهِ الْحِيتَانُ الَّتِي خَلَقْتَهَا.

27- تَلْتَفِتُ جَمِيعُهَا إِلَيْكَ كَيْ تَرْزُقَهَا طَعَامَهَا فِي أَوَانِهِ.

28-أَنْتَ تُعْطِيهَا وَهِيَ تَلْتَقِطُ، تَبْسُطُ يَدَكَ لَهَا فَتَشْبَعُ خَيْرًا.

29-تَحْجُبُ عَنْهَا وَجْهَكَ فَتَفْزَعُ. تَقْبِضُ أَرْوَاحَهَا فَتَمُوتُ، وَإِلَى تُرَابِهَا تَعُودُ.

30-تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ ثَانِيَةً وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ.
31-مَجْدُ الرَّبِّ يَدُومُ إِلَى الأَبَدِ.الرَّبُّ يَفْرَحُ بِأَعْمَالِهِ .
32-يَنْظُرُ إِلَى الأَرْضِ فَتَرْتَجِفُ، يَمَسُّ الْجِبَالَ فَتَمْتَلِئ دُخَانًا.
33-أُرَنِّمُ لِلرَّبِّ وَأَشْدُو لإِلَهِي مَا دُمْتُ حَيًا.
34-فَيَلَذُّ لَهُ نَشِيدِي، وَأَنَا أَفْرَحُ بِالرَّبِّ.
35-لِيَنْقَطِعِ الْخُطَاةُ مِنَ الأَرْضِ، وَلْيَبِدِ الأَشْرَارُ.بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. هَلِّلُويَا.

(114)

عِنْدَ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ، وَآلِ يَعْقُوبَ مِنْ بَيْنِ شَعْبٍ غَرِيبِ اللِّسَانِ.
2-صَارَ يَهُوذَا هَيْكَلاً مُقَدَّسًا لَهُ، وَإِسْرَائِيلُ مَقَرَّ سُلْطَانِهِ.
3-رَأَى الْبَحْرُ الأَحْمَرُ ذَلِكَ فَهَرَبَ، وَتَرَاجَعَ نَهْرُ الأُرْدُنِّ إِلَى الْوَرَاءِ.
4-قَفَزَتِ الْجِبَالُ كَأَنَّهَا كِبَاشٌ، وَالتِّلاَلُ كَأَنَّهَا حُمْلاَنٌ.
5-مَا لَكَ يَا بَحْرُ قَدْ هَرَبْتَ، وَيَا أُرْدُنُّ قَدْ رَجَعْتَ إِلَى الْوَرَاءِ؟
6-مَالَكِ يَا جِبَالُ تَقْفِزِينَ كَالْكِبَاشِ، وَيَا تِلاَلُ كَالْحُمْلاَنِ؟
7-تَزَلْزَلِي يَا أَرْضُ فِي حَضْرَةِ الرَّبِّ إِلَهِ يَعْقُوبَ.
8-الَّذِي حَوَّلَ الصَّخْرَةَ إِلَى جَدَاوِلَ، وَالصَّوَّانَ إِلَى يَنَابِيعِ مِيَاهٍ.

هَلِّلُويَا اسَبِّحُوا الرَّبَّ مِنَ السَّمَاوَاتِ.

2-سَبِّحُوهُ يَا جَمِيعَ مَلاَئِكَتِهِ. سَبِّحُوهُ يَا جَمِيعَ أَجْنَادِهِ.

3-سَبِّحِيهِ يَا شَمْسُ وَيَا قَمَرُ. سَبِّحِيهِ يَا جَمِيعَ الْكَوَاكِبِ الْمُشْرِقَةِ.

4-سَبِّحِيهِ يَا سَمَاءَ السَّمَاوَاتِ، وَيَا أَيَّتُهَا السُّحُبُ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ.

5-لِتُسَبِّحْ هَذِهِ اسْمَ الرَّبِّ، لأَنَّهَا بِأَمْرِهِ خُلِقَتْ.

6-وَثَبَّتَهَا إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ، وَاضِعًا لَهَا حَدًّا لاَ تَتَجَاوَزُهُ.

7-سَبِّحِي الرَّبَّ مِنْ عَلَى الأَرْضِ يَا وُحُوشَ الْبَحْرِ وَيَا كُلَّ اللُّجَجِ.

8-أَيَّتُهَا النَّارُ وَالْبَرَدُ، وَالثَّلْجُ والضَّبَابُ، الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ الْمُنَفِّذَةُ لأَمْرِهِ.

9-الْجِبَالُ وَالتِّلاَلُ جَمِيعًا، الأَشْجَارُ الْمُثْمِرَةُ وَالأَرْزُ كُلُّهُ.

10-الْحيَوَانَاتُ الْبَرِّيَّةُ وَالْمَوَاشِي كُلُّهَا، الزَّوَاحِفُ وَالطُّيُورُ.

11-مُلُوكُ الأَرْضِ وَجَمِيعُ الشُّعُوبِ وَحُكَّامُ الأَرْضِ وَجَمِيعُ الرُّؤَسَاءِ.

12-الْفِتْيَانُ وَالْفَتَيَاتُ وَالشُّيُوخُ وَالشُّبَّانُ.

13-لِيُسَبِّحُوا اسْمَ الرَّبِّ، لأَنَّهُ وَحْدَهُ مُتَعَالٍ. مَجْدُهُ فَوْقَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.

14-يَرْفَعُ رَأْسَ شَعْبِهِ إِكْرَامًا لِكُلِّ أَتْقِيَائِهِ، لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الشَّعْبِ الْمُقَرَّبِ إِلَيْهِ. هَلِّلُويَا.

إشعياء

(6)

وَفِي سَنَةِ وَفَاةِ الْمَلِكِ عُزِّيَّا، شَاهَدْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى عَرْشٍ مُرْتَفِعٍ سَامٍ وَقَدِ امْتَلأَ الْهَيْكَلُ مِنْ أَهْدَابِهِ.

2-وَأَحَاطَ بِهِ مَلاَئِكَةُ السَّرَافِيمِ،لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، أَخْفَى وَجْهَهُ بِجَنَاحَيْنِ،وَغَطَّى قَدَمَيْهِ بِجَنَاحَيْنِ، وَيَطِيرُ بِالْجَنَاحَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ.

3-وَنَادَى أَحَدُهُمُ الآخَرَ:«قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ الرَّبُّ الْقَدِيرُ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ».

4-فَاهْتَزَّتْ أُسُسُ أَرْكَانِ الْهَيْكَلِ مِنْ صَوْتِ الْمُنَادِي، وَامْتَلأَ الْهَيْكَلُ بِالدُّخَانِ.

5-فَقُلْتُ:«وَيْلٌ لِي لأَنِّي هَلَكْتُ لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ، وَأَسْكُنُ وَسَطَ قَوْمٍ دَنِسِي الشِّفَاهِ. فَإِنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا الْمَلِكَ الرَّبَّ الْقَدِيرَ»..

6-فَطَارَ أَحَدُ السَّرَافِيمِ إِلَيَّ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ أَخَذَهَا مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ.

7-وَمَسَّ بِهَا فَمِي قَائِلاً:«انْظُرْ، هَا إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَتَمَّ التَّكْفِيرُ عَنْ خَطِيئَتِكَ».

8-وَسَمِعْتُ صَوْتَ الرَّبِّ يَقُولُ:«مَنْ أُرْسِلُ، وَمَنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِنَا؟» عِنْدَئِذٍ قُلْتُ:«هَا أَنَا أَرْسِلْنِي».

* * * * *

(9)

* * * * *

6-لأَنَّهُ يُوْلَدُ لَنَا وَلَدٌ وَيُعْطَى لَنَا ابْنٌ يَحْمِلُ الرِّيَاسَةَ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلَهًا قَدِيرًا، أَبًا، أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلاَمِ.

7-وَلاَ تَكُونُ نِهَايَةٌ لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ وَلِلسَّلاَمِ اللَّذَيْنِ يَسُودَانِ عَرْشَ دَاوُدَ وَمَمْلَكَتَهُ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الآنَ وَإِلَى الأَبَدِ. إِنَّ غَيْرَةَ الرَّبِّ الْقَدِيرِ تُتَمِّمُ هَذَا.

* * * * *

(40)

يَقُولُ إِلَهُكُمْ: «وَاسُوا، وَاسُوا شَعْبِي!

2-طَيِّبُوا خَاطِرَ أُورُشَلِيمَ وَبَلِّغُوهَا أَنَّ أَيَّامَ مِحْنَتِهَا قَدِ انْتَهَتْ، وَإِثْمَهَا قَدْ غُفِرَ، وَتَلَقَّتْ مِنْ يَدِ الرَّبِّ ضِعْفَيْنِ عَنْ جَمِيعِ مَا ارْتَكَبَتْهُ مِنْ خَطَايَا».

3-صَوْتٌ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: «أَعِدُّوا فِي الْبَرِّيَّةِ طَرِيقَ الرَّبِّ، وَأَقِيمُوا طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا لإِلَهِنَا..

4-كُلُّ وَادٍ يَرْتَفِعُ، وَكُلُّ تَلٍّ يَنْخَفِضُ. وَتُمَهَّدُ كُلُّ أَرْضٍ مُعْوَجَّةٍ وَتُعَبَّدُ كُلُّ بُقْعَةٍ وَعِرَةٍ.

5-وَيَتَجَلَّى مَجْدُ اللهِ، فَيُشَاهِدُهُ كُلُّ ذِي جَسَدٍ، لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ قَدْ تَكَلَّمَ».

6-وَعِنْدَئِذٍ قَالَ صَوْتٌ: «نَادِ بِرِسَالَةٍ». فَأَجَبْتُ: «أَيَّةُ رِسَالَةٍ؟». فَقَالَ: «كُلُّ ذِي جَسَدٍ عُشْبٌ، وَكُلُّ بَهَائِهِ كَزَهْرِ الصَّحْرَاءِ.

7-يَذْبُلُ الْعُشْبُ وَيَذْوِي الزَّهْرُ لأَنَّ نَفْخَةَ الرَّبِّ تَهُبُّ عَلَيْهِ. حَقًّا إِنَّ الشَّعْبَ

عُشْبٌ.

8-يَذْبُلُ الْعُشْبُ وَيَذْوِي الزَّهْرُ، أَمَّا كَلِمَةُ إِلَهِنَا فَتَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ».

* * * * *

حزقيـــال

(1)

وَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ الرَّابِعِ الْعِبْرِيِّ (أَيْ حُزَيْرَانَ يُونْيه)، فِي سَنَةِ الثَّلاثِينَ مِنْ عُمْرِي، فِيمَا كُنْتُ بَيْنَ الْمَسْبِيِّينَ بِجُوَارِ نَهْرِ خَابُورَ، أَنِ انْفَتَحَتِ السَّمَاوَاتُ فَشَاهَدْتُ رُؤَى مِنْ عِنْدِ اللهِ.

2-فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ، فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِسَبْيِ الْمَلِكِ يُويَاكِينَ.

3-أَوْحَى الرَّبُّ إِلَى حِزْقِيَالَ الْكَاهِنِ ابْنِ بُوزِي عِنْدَ جُوَارِ نَهْرِ خَابُورَ، فِي دِيَارِ الْكَلْدَانِيِّينَ، إِذْ كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ.

4-فَأَبْصَرْتُ رِيحًا عَاصِفَةً تَهُبُّ مِنَ الشِّمَالِ مَصْحُوبَةً بِسَحَابَةٍ هَائِلَةٍ، وَنَارٍ مُتَوَاصِلَةٍ مُتَوَهِّجَةٍ بِهَالَةٍ مُحِيطَةٍ مِنَ الضِّيَاءِ؛ وَمِنْ وَسَطِهَا يَتَأَلَّقُ مِثْلُ النُّحَاسِ اللاَّمِعِ الْبَارِقِ مِنْ وَسَطِ النَّارِ.

5-وَمِنْ دَاخِلِهَا بَدَا شِبْهُ أَرْبَعَةِ كَائِنَاتٍ حَيَّةٍ تُمَاثِلُ فِي صُوَرِهَا شِبْهَ إِنْسَانٍ.

6-وَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ وَأَرْبَعَةُ أَجْنِحَةٍ.

7-وَكَانَتْ سِيقَانُهَا مُسْتَقِيمَةً، وَأَقْدَامُهَا مُشَابِهَةً لأَقْدَامِ الْعِجْلِ، وَهِيَ تُبْرِقُ كَبَرِيقِ النُّحَاسِ الْمَصْقُولِ.

8-وَتَحْتَ أَجنِحَتِهَا الْقَائِمَةِ عَلَى جَوَانِبِهَا الأَرْبَعَةِ، أَيْدِي بَشَرٍ، وَكَانَ لِكُلِّ كَائِنٍ مِنْ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الأَرْبَعَةِ أَجْنِحَةٌ وَأَوْجُهٌ.

9-وَكَانَتْ أَجْنِحَتُهَا تَتَلاَمَسُ، وَأَوْجُهُهَا لاَ تَدُورُ عِنْدَ سَيْرِهَا، بَلْ يَسِيرُ كُلٌّ مِنْهَا وَوَجْهُهُ مُتَّجِهٌ إِلَى الأَمَامِ.

10-أَمَّا أَشْكَالُ أَوْجُهِهَا، فَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَجْهُ إِنْسَانٍ، يُحَاذِيهِ إِلَى الْيَمِينِ وَجْهُ أَسَدٍ، وَإِلَى الشِّمَالِ وَجْهُ ثَوْرٍ، ثُمَّ إِلَى جُوَارِهِ وَجْهُ نَسْرٍ.

11-كَانَتْ هَذِهِ أَشْكَالَ أَوْجُهِهَا. وَكَانَ لِكُلٍّ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَجْنِحَةٍ تَمْتَدُّ مِنْ وَسَطِ الظَّهْرِ: اثْنَانِ يَتَّصِلُ طَرَفُ كُلٍّ مِنْهُمَا بِطَرَفِ جَنَاحِ الْكَائِنِ الآخَرِ، وَاثْنَانِ يَسْتُرَانِ أَجْسَامَهُمَا.

12-وَكَانَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَتَّجِهُ إِلَى الأَمَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدُورَ، فَحَيْثُمَا يَتَوَجَّهُ الرُّوحُ يَتَوَجَّهُونَ هُمْ أَيْضًا.

13-أَمَّا مَنْظَرُ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ هَذِهِ فَكَانَ كَجَمَرَاتِ نَارٍ مُتَّقِدَةٍ، أَوْ مَشَاعِلَ تَجُوزُ جِيئَةً وَذَهَابًا بَيْنَ الكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ. وَكَانَتِ النَّارُ مُضِيئَةً يَلْمَعُ مِنْهَا وَمِيضُ بَرْقٍ.

14-وَالْكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ تَتَرَاكَضُ ذَهَابًا وَإِيَابًا فِي سُرْعَةِ لَمْحِ الْبَرْقِ.

15-وَفِيمَا كُنْتُ أَتَأَمَّلُ فِي الكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، إِذَا بِي أُشَاهِدُ أَرْبَعَ عَجَلاَتٍ، عَجَلَةٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ.

16-أَمَّا شَكْلُ الْعَجَلاَتِ وَصَنْعَتُهَا فَكَانَ كَمِثْلِ الزَّبَرْجَدِ، وَهِيَ مُتَشَابِهَةُ الصُّورَةِ. وَكَانَ مَنْظَرُهَا وَصَنْعَتُهَا وَكَأَنَّهَا عَجَلَةٌ دَاخِلَ عَجَلَةٍ.

17-وَإِذَا سَارَتْ فَإِنَّهَا تَسِيرُ فِي أَيٍّ مِنَ الاتِّجَاهَاتِ الأَرْبَعَةِ إِلَى الأَمَامِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنِ اتِّجَاهِهَا.

18-أَمَّا أُطُرُهَا فَعَالِيَةٌ وَهَائِلَةٌ، وَجَمِيعُهَا مَلأَى بِالْعُيُونِ.

19-وَكُلَّمَا تَتَحَرَّكُ الكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ، تَتَحَرَّكُ مَعَهَا الْعَجَلاَتُ،وكُلَّمَا تَرْتَفِعُ عَنِ الأَرْضِ تَرْتَفِعُ مَعَهَا الْعَجَلاَتُ أَيْضًا.

20-وَحَيْثُمَا يَتَوَجَّهُ الرُّوحُ تَتَوَجَّهُ أَيْضًا، وَتَرْتَفِعُ مَعَهَا عَجَلاَتُهَا، لأَنَّ رُوحَ الكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ سَارَ أَيْضًا فِي الْعَجَلاَتِ.

21-فَإِنْ سَارَتْ هَذِهِ تَسِيرُ تِلْكَ، وَإِنْ تَوَقَّفَتْ تَتَوَقَّفُ، لأَنَّ رُوحَ الكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ سَارَ فِي الْعَجَلاَتِ أَيْضًا.

22-وَانْبَسَطَ فَوْقَ رُؤُوسِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ جَلَدٌ يُشْبِهُ الْبِلَّوْرَ الْمُتَلأْلِئَ الْهَائِلَ.

23-وَامْتَدَّتْ أَجْنِحَتُهَا تَحْتَ الْجَلَدِ بِاسْتِقَامَةٍ، الْوَاحِدُ نَحْوَ الآخَرِ.لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا جَنَاحَانِ يَسْتُرَانِ جِسْمَهُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

24-وَعِنْدَمَا سَارَتْ سَمِعْتُ رَفْرَفَةَ أَجْنِحَتِهَا كَهَدِيرِ مِيَاهٍ غَزِيرَةٍ، كَصَوْتِ الْقَدِيرِ،كَصَوْتِ جَلَبَةِ جَيْشٍ، وَعِنْدَ تَوَقُّفِهَا كَانَتْ تُرْخِي أَجْنِحَتَهَا.

25-وَصَدَرَ صَوْتٌ مِنْ فَوْقِ الْجَلَدِ الْمُنْبَسِطِ عَلَى رُؤُوسِهَا.وَحِينَ تَتَوَقَّفُ كَانَتْ تُرْخِي أَجْنِحَتَهَا.

26-وَانْتَصَبَ فَوْقَ الْجَلَدِ الْمُنْبَسِطِ عَلَى رُؤُوسِهَا شِبْهُ عَرْشٍ، مَنْظَرُهُ كَحَجَرِ اللاَّزَوَرْدِ.وَيَجْلِسُ عَلَى شِبْهِ الْعَرْشِ مِنْ فَوْقٍ مَنْ هُوَ كَشِبْهِ إِنْسَانٍ.

27-وَرَأَيْتُ مَا يَبْدُو مِنْ حَقْوَيْهِ فَمَا فَوْقُ وَكَأَنَّهُ نُحَاسٌ لاَمِعٌ

يَتَوَهَّجُ فِي دَاخِلِهِ وَحَوَالَيْهِ. أَمَّا مَا يَبْدُو مِنْ حَقْوَيْهِ، وَمَا تَحْتُ، فَكَأَنَّهُ نَارٌ، وَحَوَالَيْهَا يَشِعُّ بِالضِّيَاءِ.

28-وَكَانَ مَنْظَرُ اللَّمَعَانِ الْمُحِيطِ بِهِ كَمَنْظَرِ قَوْسِ قُزَحٍ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ؛ هَكَذَا كَانَ مَنْظَرُ شِبْهِ مَجْدِ الرَّبِّ. وَعِنْدَمَا أَبْصَرْتُ خَرَرْتُ عَلَى وَجْهِي وَسَمِعْتُ صَوْتًا يَتَكَلَّمُ.

إنجيل مرقس

(13)

* * * * *

24-«وَلَكِنْ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ، بَعْدَ تِلْكَ الضِّيقَةِ، تُظْلِمُ الشَّمْسُ وَيَحْجُبُ الْقَمَرُ ضَوْءَهُ،

25-وَتَتَهَاوَى نُجُومُ السَّمَاءِ، وَتَتَزَعْزَعُ الْقُوَّاتُ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ.

26-وَعِنْدَئِذٍ سَوْفَ يُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي السُّحُبِ بِقُدْرَةٍ عَظِيمَةٍ وَمَجْدٍ.

27-فَيُرْسِلُ عِنْدَئِذٍ مَلائِكَتَهُ وَيَجْمَعُ مُخْتَارِيهِ مِنَ الْجِهَاتِ الأَرْبَعِ، مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ إِلَى أَقْصَى السَّمَاءِ».

28-«فَمِنْ شَجَرَةِ التِّينِ تَعَلَّمُوا هَذَا الْمَثَلَ: عِنْدَمَا تَلِينُ أَغْصَانُهَا وَتُطْلِعُ أَوْرَاقَهَا، تَعْلَمُونَ أَنَّ الصَّيْفَ قَرِيبٌ.

29-فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا، حِينَمَا تَرَوْنَ هذِهِ الأُمُورَ تَحْدُثُ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ

قَرِيبٌ، بَلْ عَلَى الأَبْوَابِ.

30-اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَزُولُ هٰذَا الْجِيلُ أَبَدًا حَتَّى تَحْدُثَ هٰذِهِ الأُمُورُ كُلُّهَا.

31-إِنَّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ تَزُولاَنِ، وَلٰكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ أَبَدًا».

* * * * *

أعمال الرسل

(13)

* * * * *

16-فَوَقَفَ بُولُسُ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «اسْمَعُوا:

17-إِنَّ إِلٰهَ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ هٰذَا اخْتَارَ آبَاءَنَا، وَرَفَعَ مِنْ شَأْنِ شَعْبِنَا طَوَالَ غُرْبَتِهِمْ فِي مِصْرَ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا بِقُدْرَةِ ذِرَاعِهِ الْفَائِقَةِ.

18-وَعَالَهُمْ فِي الصَّحْرَاءِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

19-ثُمَّ أَزَالَ سَبْعَةَ شُعُوبٍ مِنْ بِلاَدِ كَنْعَانَ، وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهَا.

20-نَحْوَ أَرْبَعِ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً. بَعْدَ ذٰلِكَ، أَقَامَ لَهُمْ قُضَاةً كَانَ آخِرَهُمُ النَّبِيُّ صَمُوئِيلُ.

21-فَطَلَبَ إِلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ مَلِكًا، فَأَقَامَ الله عَلَيْهِمْ شَاوُلَ ابْنَ قَيْسٍ، مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ فَمَلَكَ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

22-ثُمَّ عَزَلَهُ الله، وَعَيَّنَ بَدَلاً مِنْهُ دَاوُدَ الَّذِي شَهِدَ لَهُ بِقَوْلِهِ: إِنِّي

وَجَدْتُ دَاوُدَ بْنَ يَسّي رَجُلاً يُوَافِقُ قَلْبِي، سَيَعْمَلُ كُلَّ مَا أَشَاءُ.

23-وَقَدْ بَعَثَ الله إِلَى إِسْرَائِيلَ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ مُخلصًا هُوَ يَسُوعُ، إِتْمَامًا لِوَعْدِهِ.

24-وَقَدْ سَبَقَ يُوحَنَّا مَجِيءَ يَسُوعَ، فَدَعَا شَعْبَ إِسْرَائِيلَ جَمِيعًا إِلَى مَعْمُودِيَّةِ التَّوْبَةِ.

25-وَلَمَّا أَوْشَكَ يُوحَنَّا أَنْ يُنْهِيَ مُهِمَّتَهُ،قَالَ:مَنْ تَظُنُّونَنِي؟ لَسْتُ أَنَا (الْمُخَلِّصَ) ، بَلْ إِنَّهُ آتٍ بَعْدِي. وَلَسْتُ أَسْتَحِقُّ أَنْ أَحُلَّ رِبَاطَ حِذَائِهِ!

26-«أَيُّهَا الإِخْوَةُ، يَا بَنِي جِنْسِ إِبْرَاهِيمَ، وَيَا كُلَّ مَنْ يَتَّقِي الله مِنَ الْحَاضِرِينَ هُنَا: إِلَيْنَا أَرْسَلَ الله كَلِمَةَ هَذَا الْخَلاَصِ!

27-فَإِنَّ أَهْلَ أُورُشَلِيمَ وَرُؤَسَاءَهُمْ عَمِلُوا عَلَى إِتْمَامِ مَا يُقْرَأُ عَلَيْكُمْ كُلَّ يَوْمِ سَبْتٍ مِنْ نُبُوءَاتٍ، وَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. إِذْ حَكَمُوا عَلَى يَسُوعَ بِالْمَوْتِ.

28-وَمَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا عَلَيْهِ أَيَّ جُرْمٍ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ، طَلَبُوا مِنْ بِيلاَطُسَ أَنْ يَقْتُلَهُ.

29-وَبَعْدَمَا نَفَّذُوا فِيهِ كُلَّ مَا كُتِبَ عَنْهُ، أَنْزَلُوهُ عَنِ الصَّلِيبِ،وَدَفَنُوهُ فِي قَبْرٍ.

30-وَلَكِنَّ الله أَقَامَهُ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ.

31-فَظَهَرَ عِدَّةَ أَيَّامٍ لِلَّذِينَ رَافَقُوهُ مِنْ مِنْطَقَةِ الْجَلِيلِ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَهُمُ الآنَ يَشْهَدُونَ بِذَلِكَ أَمَامَ الشَّعْبِ .

32-وَهَا نَحْنُ الآنَ نُبَشِّرُكُمْ بِأَنَّ مَا وَعَدَ الله بِهِ آبَاءَنَا.

33-قَدْ أَتَمَّهُ لَنَا نَحْنُ أَبْنَاءَهُمْ، إِذْ أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الْمَوْتِ وَفْقًا لِمَا كُتِبَ فِي

الْمَزْمُورِ الثَّانِي: أَنْتَ ابْنِي؛ أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ.

34-وَأَمَّا أَنَّ الله قَدْ أَقَامَ يَسُوعَ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ وَلَنْ يَدَعَ الْفَسَادَ يَنَالُ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ، فَقَدْ وَرَدَ فِي قَوْلِهِ: سَأَمْنَحُكُمُ الْبَرَكَاتِ الْمُقَدَّسَةَ الصَّادِقَةَ الَّتِي وَعَدْتُ بِهَا دَاوُدَ».

35-وَيَقُولُ دَاوُدُ فِي مَزْمُورٍ آخَرَ: «لَنْ تَدَعَ وَحِيدَكَ الْقُدُّوسَ يَرَى فَسَادًا».

36-وَقَدْ مَاتَ دَاوُدُ بَعْدَمَا خَدَمَ شَعْبَهُ فِي عَصْرِهِ وَفْقًا لِمَشِيئَةِ الله، وَدُفِنَ فَلَحِقَ بِآبَائِهِ، وَنَالَ مِنْهُ الْفَسَادُ.

37-أَمَّا الَّذِي أَقَامَهُ الله فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُ الْفَسَادُ قَطُّ.

* * * * *

الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس

(15)

عَلَى أَنِّي أُذَكِّرُكُمْ، أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِالإِنْجِيلِ الَّذِي بَشَّرْتُكُمْ بِهِ، وَقَبِلْتُمُوهُ وَمَا زِلْتُمْ قَائِمِينَ فِيهِ.

2-وَبِهِ أَيْضًا أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ، إِنْ كُنْتُمْ تَتَمَسَّكُونَ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي بَشَّرْتُكُمْ بِهَا، إِلاَّ إِذَا كُنْتُمْ قَدْ آمَنْتُمْ عَبَثًا.

3-فَالْوَاقِعُ أَنِّي سَلَّمْتُكُمْ، فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، مَا كُنْتُ قَدْ تَسَلَّمْتُهُ، وَهُوَ أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَفْقًا لِمَا فِي الْكِتَابِ.

4-وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَفْقًا لِمَا فِي الْكِتَابِ.

5-وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِبُطْرُسَ، ثُمَّ لِلاثْنَي عَشَرَ.

6-وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ لأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ مِئَةِ أَخٍ مَعًا مَازَالَ مُعْظَمُهُمْ حَيًّا، فِي حِينِ رَقَدَ الآخَرُونَ.

7-ثُمَّ ظَهَرَ لِيَعْقُوبَ، وَبَعْدَ ذلكَ لِلرُّسُلِ جَمِيعًا.

8-وَآخِرَ الْجَمِيعِ، ظَهَرَ لِي أَنَا أَيْضًا، وَكَأَنِّي طِفْلٌ وُلِدَ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ!

9-فَإِنِّي أَنَا أَصْغَرُ الرُّسُلِ شَأْنًا، وَلَسْتُ أَهْلاً لأَنْ أُدْعَى رَسُولاً لأَنِّي اضْطَهَدْتُ كَنِيسَةَ اللهِ.

10-وَلَكِنْ، بِنِعْمَةِ اللهِ صِرْتُ عَلَى ما أَنا عَلَيْهِ الآنَ، وَنِعْمَتُهُ الْمَوْهُوبَةُ لِي لَمْ تَكُنْ عَبَثًا، إِذْ عَمِلْتُ جَاهِدًا أَكْثَرَ مِنَ الرُّسُلِ الآخَرِينَ جَمِيعًا.إلاَّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَنَا الْعَامِلَ، بَلْ نِعْمَةُ اللهِ الَّتِي كَانَتْ مَعِي.

11-وَسَوَاءٌ أَكُنْتُ أَنَا أَمْ كَانُوا هُمْ، فَهكَذَا نُبَشِّرُ، وَهكَذَا آمَنْتُمْ .

12-وَالآنَ، مَا دَامَ يُبَشَّرُ بِأَنَّ الْمَسِيحَ قَامَ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ، فَكَيْفَ يَقُولُ بَعْضُكُمْ إِنَّهُ لاَ قِيَامَةَ لِلأَمْوَاتِ؟

13-فَإِنْ كَانَتْ قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَقُمْ أَيْضًا!

14-وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، لَكَانَ تَبْشِيرُنَا عَبَثًا وَإِيمَانُكُمْ عَبَثًا.

15-وَلَكَانَ تَبَيَّنَ عِنْدَئِذٍ أَنَّنَا شُهُودُ زُورٍ عَلَى اللهِ، إِذْ إِنَّنَا شَهِدْنَا عَلَى اللهِ أَنَّهُ أَقَامَ الْمَسِيحَ، وَهُوَ لَمْ يُقِمْهُ لَوْ صَحَّ أَنَّ الأَمْوَاتَ لاَ يُقَامُونَ.

16-إِذَنْ، لَوْ كَانَ الأَمْوَاتُ لاَ يُقَامُونَ، لَكَانَ الْمَسِيحُ لَمْ يَقُمْ أَيْضًا.

17-وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، لَكَانَ إِيمَانُكُمْ عَبَثًا ، وَلَكُنْتُمْ بَعْدُ فِي

خَطَايَاكُمْ.

18-وَلَكَانَ الَّذِينَ رَقَدُوا فِي الْمَسِيحِ قَدْ هَلَكُوا!

19-وَلَوْ كَانَ رَجَاؤُنَا فِي الْمَسِيحِ يَقْتَصِرُ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ، لَكُنَّا أَشْقَى النَّاسِ جَمِيعًا!

20-أَمَّا الآنَ فَالْمَسِيحُ قَدْ قَامَ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ بِكْرًا لِلرَّاقِدِينَ.

21-فَبِمَا أَنَّ الْمَوْتَ كَانَ بِإِنْسَانٍ، فَإِنَّ قِيَامَةَ الأَمْوَاتِ أَيْضًا تَكُونُ بِإِنْسَانٍ.

22-فَإِنَّهُ كَمَا يَمُوتُ الْجَمِيعُ فِي آدَمَ، فَكَذَلِكَ سَيُحْيَى الْجَمِيعُ فِي الْمَسِيحِ.

23-عَلَى أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ رُتْبَتَهُ: فَأَوَّلاً الْمَسِيحُ بِصِفَتِهِ الْبِكْرَ؛ وَبَعْدَهُ خَاصَّتُهُ لَدَى رُجُوعِهِ.

24-وَبَعْدَ ذَلِكَ الآخِرَةُ حِينَ يُسَلِّمُ الْمَسِيحُ الْمُلْكَ لله الآبِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَبَادَ كُلَّ رِئَاسَةٍ وَكُلَّ سُلْطَةٍ وَكُلَّ قُوَّةٍ .

25-فَإِنَّهُ لاَبُدَّ أَنْ يَمْلِكَ «إِلَى أَنْ يَضَعَ جَمِيعَ الأَعْدَاءِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ».

26-وَآخِرُ عَدُوٍّ يُبَادُ هُوَ الْمَوْتُ. ذَلِكَ بِأَنَّهُ قَدْ «أَخْضَعَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ».

27-وَلَكِنْ، فِي قَوْلِهِ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُخْضِعَ، فَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ يَسْتَثْنِي الله الَّذِي جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ خَاضِعًا لِلابْنِ.

28-وَعِنْدَمَا يَتِمُّ إِخْضَاعُ كُلِّ شَيْءٍ لِلابْنِ،فَإِنَّ الابْنَ نَفْسَهُ سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ، لِكَيْ يَكُونَ الله هُوَ كُلَّ شَيْءٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ!

29-وَالآنَ، إِنْ صَحَّ أَنَّ الأَمْوَاتَ لاَ يَقُومُونَ أَبَدًا، فَمَا مَعْنَى مَا

يَفْعَلُهُ الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ بَدَلَ الَّذِينَ يَمُوتُون؟ لِمَاذَا إِذَنْ يَعْتَمِدُون بَدَلاً مِنْهُمْ؟

30-ولَمَاذَا نُعَرِّضُ نَحْنُ أَنفُسَنَا لِلخطرِ كُلَّ سَاعَةٍ؟

31-فَبِحَسَبِ افْتِخارِي بِكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا، أَشْهَدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنِّي أَمُوتُ كُلَّ يَوْمٍ!

32-وَلَوْ كُنْتُ بِمَنْطِقِ الْبَشَرِ قَدْ تَعَرَّضْتُ لِلْمَوْتِ فِي أَفَسُسَ بَيْنَ مَخَالِبِ الْوُحُوشِ، فَأَيُّ نَفْعٍ يَعُودُ عَلَيَّ إِنْ كَانَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ لا يَقُومُونَ؟ وَلِمَ لاَ «نَأْكُلُ وَنَشْرَبُ، لأَنَّنَا غَدًا نَمُوتُ؟».

33-لا تَنقَادُوا إِلَى الضَّلاَلِ: إِنَّ الْمُعَاشَرَاتِ الرَّدِيئَةَ تُفْسِدُ الأَخْلاَقَ الْجَيِّدَةَ!

34-عُودُوا إِلَى الصَّوَابِ كَمَا يَجِبُ وَلاَ تُخْطِئُوا، فَإِنَّ بَعْضًا مِنْكُمْ يَجْهَلُونَ الله تَمَامًا -أَقُولُ هَذَا لِكَيْ تَخْجَلُوا!

35-وَلَكِنَّ أَحَدًا قَدْ يَقُولُ: «كَيْفَ يُقَامُ الأَمْوَاتُ؟ وَبِأَيِّ جِسْمٍ يَعُودُونَ؟».

36-يَا غَافِلُ! إِنَّ مَا تَزْرَعُهُ لاَ يَحْيَا إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَمُوتَ.

37-وَمَا تَزْرَعُهُ لَيْسَ هُوَ الْجِسْمَ الَّذِي سَيَطْلُعُ بَلْ مُجَرَّدُ حَبَّةٍ مِنَ الْحِنْطَةِ مَثَلاً أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْبُذُورِ.

38-ثُمَّ يُعْطِيهَا الله الْجِسْمَ الَّذِي يُرِيدُ، كَمَا يُعْطِي كُلَّ نَوْعٍ مِنَ الْبُذُورِ جِسْمَهُ الْخَاصَّ.

39-ولَيْسَ لِلأَجْسَادِ كُلِّهَا شَكْلٌ وَاحِدٌ بَلْ لِلنَّاسِ جَسَدٌ وَلِلحَيَوَانَاتِ جَسَدٌ

آخَرُ وَلِلسَّمَكِ آخَرُ وَلِلطَّيْرِ آخَرُ.

40-ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ أَجْسَامًا سَمَاوِيَّةً وَأَجْسَامًا أَرْضِيَّةً. وَلَكِنَّ الأَجْسَامَ السَّمَاوِيَّةَ لَهَا بَهَاءٌ، وَالأَرْضِيَّةَ لَهَا بَهَاءٌ مُخْتَلِفٌ.

41-فَالشَّمْسُ لَهَا بَهَاءٌ، وَالْقَمَرُ لَهُ بَهَاءٌ آخَرُ، وَالنُّجُومُ لَهَا بَهَاءٌ مُخْتَلِفٌ، لأَنَّ كُلَّ نَجْمٍ يَخْتَلِفُ عَنِ الآخَرِ بِبَهَائِهِ.

42-وَهَكَذَا الْحَالُ فِي قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ: يُزْرَعُ الْجَسَدُ مُنْحَلاً، وَيُقَامُ غَيْرَ مُنْحَلٍّ.

43-يُزْرَعُ مُهَانًا، وَيُقَامُ مَجِيدًا، يُزْرَعُ ضَعِيفًا، وَيُقَامُ قَوِيًّا.

44-يُزْرَعُ جِسْمًا مَادِّيًا، وَيُقَامُ جِسْمًا رُوحِيًا. فَبِمَا أَنَّ هُنَاكَ جِسْمًا مَادِّيًا، فَهُنَاكَ أَيْضًا جِسْمٌ رُوحِيٌّ.

45-فَهكَذَا أَيْضًا قَدْ كُتِبَ: «صَارَ الإِنْسَانُ الأَوَّلُ، آدَمُ، نَفْسًا حَيَّةً» وَأَمَّا آدَمُ الأَخِيرُ فَهُوَ روحٌ بَاعِثٌ لِلْحَيَاةِ.

46-عَلَى أَنَّ الرُّوحِيَّ لَمْ يَكُنْ أَوَّلاً، بَلْ جَاءَ الْمَادِّيُّ أَوَّلاً ثُمَّ الرُّوحِيُّ.

47-الإِنْسَانُ الأَوَّلُ مِنَ الأَرْضِ وَقَدْ صُنِعَ مِنَ التُّرَابِ؛ أَمَّا الإِنْسَانُ الثَّانِي فَهُوَ مِنَ السَّمَاءِ.

48-فَعَلَى مِثَالِ الْمَصْنُوعِ مِنَ التُّرَابِ، سَيَكُونُ الْمَصْنُوعُونَ مِنَ التُّرَابِ، وَعَلَى مِثَالِ السَّمَاوِيِّ سَيَكُونُ السَّمَاوِيُّونَ.

49-وَمِثْلَمَا حَمَلْنَا صُورَةَ الْمَصْنُوعِ مِنَ التُّرَابِ، سَنَحْمِلُ أَيْضًا صُورَةَ السَّمَاوِيِّ.

50-ثُمَّ إِنِّي، أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّ الأَجْسَامَ ذَاتَ اللَّحْمِ

وَالدَّمِ لا يُمْكِنُهَا أَنْ تَرِثَ مَلَكُوتَ الله، كَمَا لاَ يُمْكِنُ لِلْمُنْحَلِّ أَنْ يَرِثَ غَيْرَ الْمُنْحَلِّ.

51-وَهَا أَنَا أَكْشِفُ لَكُمْ سِرّاً: إِنَّنَا لَنْ نَرْقُدَ جَمِيعًا، وَلَكِنَّنَا سَنَتَغَيَّرُ جَمِيعًا.

52-فِي لَحْظَةٍ بَلْ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ عِنْدَمَا يُنْفَخُ فِي الْبُوقِ الأَخِيرِ. فَإِنَّهُ سَوْفَ يُنْفَخُ في الْبُوقِ، فَيَقُومُ الأَمْوَاتُ بِلاَ انْحِلاَلٍ . وَأَمَّا نَحْنُ، فَسَنَتَغَيَّرُ.

53-فَلاَبُدَّ لِهَذَا الْجِسْمِ الْقَابِلِ لِلانْحِلاَلِ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ انْحِلاَلٍ، وَلِهَذَا الْفَانِي أَنْ يَلْبَسَ خُلُودًا.

54-وبَعْدَ أَنْ يَلْبَسَ هَذَا الْمُنْحَلُّ عَدَمَ انْحِلاَلٍ، وَهذَا الْفَانِي خُلُودًا، تَتِمُّ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَدْ كُتِبَتْ: «ابْتُلِعَ الْمَوْتُ فِي النَّصْرِ!».

55-فَأَيْنَ، يَا مَوْتُ، شَوْكَتُكَ؟ وَأَيْنَ، يَا مَوْتُ نَصْرُكَ؟

56-وَشَوْكَةُ الْمَوْتِ إِنَّمَا هِيَ الْخَطِيئَةُ، وَقُوَّةُ الْخَطِيئَةِ إِنَّمَا هِيَ الشَّرِيعَةُ.

57-وَلكِنِ الشُّكْرُ لله الَّذِي يَمْنَحُنَا النَّصْرَ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ!

58-إِذَنْ، يَا إِخْوَتِي الأَحِبَاءِ، كُونُوا رَاسِخِينَ غَيْرَ مُتَزَعْزِعِينَ، كَثِيرِي الاجْتِهَادِ فِي عَمَلِ الرَّبِّ دَائِمًا، عَالِمِينَ أَنَّ جَهْدَكُمْ فِي الرَّبِّ لَيْسَ عَبَثًا!

الرؤيا

(12)

وَظَهَرَتْ فِي السَّمَاءِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ: امْرَأَةٌ لاَبِسَةٌ الشَّمْسَ، وَالْقَمَرُ تَحْتَ قَدَمَيْهَا، وَعَلَى رَأْسِهَا تَاجٌ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ نَجْمًا.

2- وَكَانَتْ حُبْلَى تَصْرُخُ مِنْ أَلَمِ الْوِلاَدَةِ وتَتَوَجَّعُ وَهِيَ تَلِدُ.

3- وَظَهرتْ فِي السَّمَاءِ آيَةٌ أُخْرَى: تِنِّينٌ عَظِيمٌ أَحْمَرُ لَهُ سَبْعَةُ رؤُوسٍ، على كُلٍّ مِنْهَا تَاجٌ، وَلَهُ عَشَرَةُ قُرُونٍ.

4- فَسَحَبَ بِذَيْلِهِ ثُلْثَ نُجُومِ السَّمَاءِ وَأَلْقَاهَا إِلَى الأَرْضِ. ثُمَّ وَقَفَ التِّنِّينُ أَمَامَ الْمَرْأَةِ وَهِيَ تَلِدُ، لِيَبْتَلِعَ طِفْلَهَا بَعْدَ أَنْ تَلِدَهُ!

5- وَوَلَدَتِ الْمَرْأَةُ ابْنًا ذَكَرًا، وَهُوَ الَّذِي سَيَحْكُمُ الأُمَمَ كُلَّهَا بِعَصًا مِنْ حَدِيدٍ. وَرُفِعَ الطِّفْلُ إِلَى حَضْرَةِ الله وَإِلَى عَرْشِهِ.

6- أَمَّا الْمَرْأَةُ فَهَرَبَتْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، حَيْثُ أَعَدَّ الله لَهَا مَكَانًا تُعَالُ فِيهِ مُدَّةَ أَلْفٍ وَمِئَتَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا.

7- وَنَشِبَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ، إِذْ هَاجَمَ مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ التِّنِّينَ وَمَلاَئِكَتَهُ.

8- وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ، لَكِنَّهُمُ انْهَزَمُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَكَانٌ فِي السَّمَاءِ.

9- إِذْ طُرِحُوا إِلَى الأَرْضِ. هَذَا التِّنِّينُ الْعَظِيمُ هُوَ الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ،

وَيُسَمَّى إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ الَّذِي يُضَلِّلُ الْعَالَمَ كُلَّهُ.

10- ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا عَالِيًا فِي السَّمَاءِ يَقُولُ: «الآنَ تَمَّ خَلاَصُ إِلهِنَا، وَآلَتِ الْقُدْرَةُ وَالْمُلْكُ إِلَيْهِ وَالسُّلْطَانُ إِلَى مَسِيحِهِ! فَإِنَّهُ قَدْ طُرِحَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ الْمُشْتَكِي الَّذِي يَتَّهِمُ إِخْوَتَنَا أَمَامَ إِلهِنَا لَيْلاً وَنَهارًا.

11- وَهُمْ قَدِ انْتَصَرُوا عَلَيْهِ بِدَمِ الْحَمَلِ وَبِالْكَلِمَةِ الَّتِي شَهِدُوا لَهَا، فَلَمْ تَكُنْ حَيَاتُهُمْ عَزِيزَةً لَدَيْهِمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ مَاتُوا.

12- افْرَحِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ، وافْرَحُوا يَا أَهْلَهَا، الْوَيْلُ لَكُمْ يَا أَهْلَ الأَرْضِ وَالْبَحْرِ، لأَنَّ إِبْلِيسَ هَبَطَ عَلَيْكُمْ وَهُوَ فِي شِدَّةِ الْغَضَبِ، عَالِمًا أَنَّ أَيَّامَهُ صَارَتْ مَعْدُودَةً».

13- وَعِنْدَمَا وَجَدَ التِّنِّينُ أَنَّهُ طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ، أَخَذَ يُطَارِدُ الْمَرْأَةَ الَّتِي وَلَدَتِ الطِّفْلَ الذَّكَرَ.

14- فَأُعْطِيَتِ الْمَرْأَةُ جَنَاحَيِ النَّسْرِ الْعَظِيمِ، لِتَطِيرَ بِهِمَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ، إِلَى الْمَكَانِ الْمُجَهَّزِ لَهَا، حَيْثُ تُعَالُ بِمَأْمَنٍ مِنَ الْحَيَّةِ، مُدَّةَ ثَلاَثِ سَنَوَاتٍ وَنِصْفِ سَنَةٍ.

15- وَأَخْرَجَتِ الْحَيَّةُ مِنْ جَوْفِهَا خَلْفَ الْمَرْأَةِ مَا يُشْبِهُ النَّهْرَ لِتُغْرِقَهَا فِيهِ.

16- وَلكِنَّ الأَرْضَ أَعَانَتِ الْمَرْأَةَ، فَفَتَحَتْ فَمَهَا وَابْتَلَعَتِ النَّهْرَ الَّذِي أَخْرَجَهُ التِّنِّينُ مِنْ فَمِهِ!

17- فَاغْتَاظَ التِّنِّينُ مِنَ الْمَرْأَةِ وَشَنَّ حَرْبًا عَلَى بَاقِي أَوْلاَدِهَا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِوَصَايَا الله وَعِنْدَهُمُ الشَّهَادَةُ لِيَسُوعَ.

ثُمَّ رَأَيْتُ مَلاَكًا نَازِلاً مِنَ السَّمَاءِ، وَبِيَدِهِ مِفْتَاحُ الْهَاوِيَةِ وَسِلْسِلَةٌ عَظِيمَةٌ.

2- قَيَّدَ بِهَا التِّنِّينَ، أَيِ الْحَيَّةَ الْقَدِيمَةَ، وَهُوَ إِبْلِيسُ أَوِ الشَّيْطَانُ، وَسَجَنَهُ مُدَّةَ أَلْفِ سَنَةٍ.

3- وَطَرَحَهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَأَغْلَقَهَا عَلَيْهِ، وَخَتَمَهَا، حَتَّى يَكُفَّ عَنْ تضليل الأُمَمِ، إِلَى أَنْ تَنقضِيَ الأَلْفُ سَنَةٍ. وَلَكِنْ لاَبُدَّ مِنْ إِطْلاَقِهِ بَعْدَ ذَلِكَ لِمُدَّةٍ قَصِيرَةٍ.

4- ثُمَّ رَأَيْتُ عُرُوشًا مُنِحَ الْجَالِسُونَ عَلَيْهَا حَقَّ الْقَضَاءِ. وَرَأَيْتُ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الشَّهَادَةِ لِيَسُوعَ وَفِي سَبِيلِ كَلِمَةِ الله ، وَالَّذِينَ رَفَضُوا أَنْ يَسْجُدُوا لِلْوَحْشِ وَلِتِمْثَالِهِ، وَالَّذِينَ رَفَضُوا عَلاَمَتَهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَجِبَاهِهِمْ، وَقَدْ عَادُوا إِلَى الْحَيَاةِ، وَمَلَكُوا مَعَ الْمَسِيحِ أَلْفَ سَنَةٍ.

5- هَذِهِ هِيَ الْقِيَامَةُ الأُولَى. أَمَّا بَقِيَّةُ الأَمْوَاتِ فَلاَ يَعُودُونَ إِلَى الْحَيَاةِ حَتَّى تَنْقَضِيَ الأَلْفُ سَنَةٍ.

6- مَا أَسْعَدَ وَأَقْدَسَ مَنْ كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْقِيَامَةِ الأُولَى! لَنْ يَكُونَ لِلْمَوْتِ الثَّانِي سُلْطَةٌ عَلَيْهِمْ، بَلْ يَكُونُونَ كَهَنَةً لِلْمَوْتِ الثَّانِي سُلْطَةٌ عَلَيْهِمْ، بَلْ يَكُونُونَ كَهَنَةً لله وَالْمَسِيحِ، وَيَمْلِكُونَ مَعَهُ أَلْفَ سَنَةٍ.

7- فَحِينَ تَنْقَضِي الأَلْفُ سَنَةٍ، يُطْلَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ سِجْنِهِ.

8- فَيَخْرُجُ لِيُضَلِّلَ الأُمَمَ فِي زَوَايَا الأَرْضِ الأَرْبَعِ، يأجُوجَ وَمَأجُوجَ، وَيَجْمَعُهُمْ لِلْقِتَالِ، وَعَدَدُهُمْ كَثِيرٌ جِدًّا كَرَمْلِ الْبَحْرِ!

9- فَيَصْعَدُونَ عَلَى سُهُولِ الأَرْضِ الْعَرِيضَةِ، وَيُحَاصِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مُعَسْكَرَ الْقِدِّيسِينَ وَالْمَدِينَةَ الْمَحْبُوبَةَ، وَلَكِنَّ نَارًا مِنَ السَّمَاءِ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ وَتَلْتَهِمُهُمْ.

10- ثُمَّ يُطْرَحُ إِبْلِيسُ الَّذِي كَانَ يُضَلِّلُهُمْ، فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ وَالْكِبْرِيتِ، حَيْثُ الْوَحْشُ وَالنَّبِيُّ الدَّجَّالُ. هُنَاكَ سَوْفَ يُعَذَّبُون نَهَارًا وَلَيْلاً، إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ.

11- ثُمَّ رَأَيْتُ عَرْشًا عَظِيمًا أَبْيضَ هَرَبَتِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ مِنْ أَمَامِ الْجَالِسِ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمَا مَكَانٌ.

12- وَرَأَيْتُ الأَمْوَاتَ، كِبَارًا وَصِغَارًا، وَاقِفِين قُدَّامَ الْعَرْشِ. وَفُتِحَتِ الْكُتُبُ، ثُمَّ فُتِحَ كِتَابٌ آخَرُ هُوَ سِجِلُّ الْحَيَاةِ، وَدِينَ الأَمْوَاتُ بِحَسَبِ مَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ، كُلٌّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِه.

13- وَسَلَّمَ الْبَحْرُ مَنْ فِيهِ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَسَلَّمَ الْمَوْتُ وَهَاوِيَةُ الْمَوْتَى الأَمْوَاتَ الَّذِينَ فِيهِمَا، وَحُكِمَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ أَعْمَالِه.

14- وَطُرِحَ الْمَوْتُ وَهَاوِيَةُ الْمَوْتَى فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ، الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي.

15- وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُوجَدِ اسْمُهُ مَكْتُوبًا فِي سِجِلِّ الْحَيَاةِ طُرِحَ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ!

(21)

ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وأَرْضًا جَدِيدَةً لاَ بَحْرَ فِيهَا، لأَنَّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ الْقَدِيمَتَيْنِ قَدْ زَالَتَا.

2- وَأَنَا رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ، نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ الله، مُجَهَّزَةً كَأَنَّهَا عَرُوسٌ مُزَيَّنَةٌ لِعَرِيسِهَا.

3- وَسَمِعْتُ صَوْتًا هَاتِفًا مِنَ الْعَرْشِ: «الآنَ صَارَ مَسْكِنُ الله مَعَ النَّاسِ، هُوَ يَسْكُنُ بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَصِيرُونَ شَعْبًا لَهُ. الله نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهًا لَهُمْ!

4- وَسَيَمْسَحُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ. إِذْ يَزُولُ الْمَوْتُ وَالْحُزْنُ وَالصُّرَاخُ والأَلَمُ، لأَنَّ الأُمُورَ الْقَدِيمَةَ كُلَّهَا قَدْ زَالَتْ!».

5- وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: «سَأَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيدًا». ثُمَّ قَالَ لِي: «اكْتُبْ هذَا، فَإِنَّ مَا أَقُولُهُ هُوَ الصِّدْقُ وَالْحَقُّ».

6- ثُمَّ قَالَ: «قَدْ تَمَّ. أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ (الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ). أَنَا أَسْقِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا.

7- هَذَا كُلُّهُ نَصِيبُ الْمُنْتَصِرِ، وَأَكُونُ إِلهًا لَهُ، وَهُوَ يَكُونُ ابْنًا لِي.

8- أَمَّا الْجُبَنَاءُ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْفَاسِدُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ، وَالْمُتَّصِلُونَ بِالشَّيَاطِينِ وَعَبَدَةُ الأَصْنَامِ وَجَمِيعُ الدَّجَّالِينَ، فَمَصِيرُهُمْ إِلَى الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِالنَّارِ وَالْكِبْرِيتِ، الَّذِى هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي».

9- وَجَاءَ أَحَدُ الْمَلائِكَةِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ أَفْرَغُوا كُؤُوسَ بَلاَيَاهُمُ السَّبْعِ الأَخِيرَةِ، وَقَالَ لِي: «تَعَالَ فَأُرِيَكَ عَرُوسَ الْحَمَلِ».

10- وَأَخَذَنِي بِالرُّوحِ إِلَى قِمَّةِ جَبَلٍ ضَخْمٍ عَالٍ، وَأَرَانِي الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ الله.

11- وَلَهَا مَجْدُ الله ، وَهِيَ تَتَلأْلأُ كَالأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَكَأَنَّهَا مِنْ حَجَرِ الْيَشْبِ الْبِلَّوْرِيِّ!

12- لَهَا سُورٌ ضَخْمٌ عَالٍ وَاثْنَا عَشَرَ بَابًا يَحْرُسُهَا اثْنَا عَشَرَ مَلاَكًا، وَقَدْ كُتِبَتْ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ.

13- إِلَى الشَّرْقِ ثَلاَثَةُ أَبْوَابٍ، وَإِلَى الشَّمَالِ ثَلاَثَةُ أَبْوَابٍ، وَإِلَى الْجَنُوبِ ثَلاَثَةُ أَبْوَابٍ، وَإِلَى الْغَرْبِ ثَلاَثَةُ أَبْوَابٍ.

14- وَيَقُومُ سُورُ الْمَدِينَةِ عَلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دِعَامَةً كُتِبَتْ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ رُسُلِ الْحَمَلِ الاثْنَيْ عَشَرَ.

15- وَكَانَ الْمَلاَكُ الَّذِي يُكَلِّمُنِي يُمْسِكُ قَصَبَةً مِنَ الذَّهَبِ لِيَقِيسَ بِهَا الْمَدِينَةَ وَأَبْوَابَهَا وَسُورَهَا.

16- وَكَانَتْ أَرْضُ الْمَدِينَةِ مُرَبَّعَةً، طُولُهَا يُسَاوِي عَرْضَهَا، فَلَمَّا قَاسَهَا بِالْقَصَبَةِ تَبَيَّنَ أَنَّ ضِلْعَهَا يُسَاوِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ غَلْوَةٍ، وَهِيَ مُتَسَاوِيَةُ الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالارْتِفَاعِ.

17- ثُمَّ قَاسَ السُّورَ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ يُسَاوِي مِئَةً وَأَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَكَانَ الْمَلاَكُ يَسْتَعْمِلُ قِيَاسًا يُعَادِلُ ذِرَاعَ إِنْسَانٍ.

18- كَانَتِ الْمَدِينَةُ مَبْنِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ خَالِصٍ شَفَّافٍ كَالزُّجَاجِ النَّقِيِّ. أَمَّا سُورُهَا فَمِنَ الْيَشْبِ.

19- وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دِعَامَةً مُرَصَّعَةً بِالأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ: كَانَتِ الدِّعَامَةُ الأُولَى مِنَ الْيَشْبِ، وَالثَّانِيَةُ مِنَ الْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ، وَالثَّالِثَةُ مِنَ الْعَقِيقِ الأَبْيَضِ، وَالرَّابِعَةُ مِنَ الزُّمُرُّدِ الذُّبَابِيِّ.

20- وَالْخَامِسَةُ مِنَ الْجَزْعِ الْعَقِيقِيِّ، وَالسَّادِسَةُ مِنَ الْعَقِيقِ الأَحْمَرِ، وَالسَّابِعَةُ مِنَ الزَّبَرْجَدِ، والثَّامِنَةُ مِنَ الزُّمُرُّدِ السِّلْقِيِّ، وَالتَّاسِعَةُ مِنَ الْيَاقُوتِ

الأَصْفَرِ، وَالْعَاشِرَةُ مِنَ الْعَقِيقِ الأَخْضَرِ، وَالْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الأَسْمَانْجُونِيِّ، وَالثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْجَمَشْتِ.

21- أَمَّا الأَبْوَابُ الاثْنَا عَشَرَ فَهِيَ اثْنَتَا عَشْرَةَ لُؤْلُؤَةً: كُلُّ بَابٍ لُؤْلُؤَةٌ وَاحِدَةٌ. وَسَاحَةُ الْمَدِينَةِ مِنْ ذَهَبٍ خَالِصٍ كَالزُّجَاجِ الشَّفَّافِ.

22- وَلَمْ أَجِدْ فِي الْمَدِينَةِ هَيْكَلاً ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَالْحَمَلَ هُمَا هَيْكَلُهَا.

23- وَلَمْ تكُنِ الْمَدِينَةُ فِي حَاجَةٍ إِلَى نُورِ الشَّمْسِ أَوِ الْقَمَرِ، لأَنَّ مَجْدَ الله يُنِيرها، وَالْحَمَلَ مِصْبَاحُها.

24- سَتَسِيرُ بِنُورِهَا الأُمَمُ، وَيَأْتِيهَا مُلُوكُ الأَرْضِ بِكُنُوزِهِمْ.

25- وَلاَ تُقْفَلُ أَبْوَابُهَا أَبَدًا طُولَ النَّهَارِ، لأَنَّ اللَّيْلَ لاَ يَأْتِي عَلَيْها!

26- وَسَتُحْمَلُ إِلَيْهَا كُنُوزُ الأُمَمِ وَأَمْجَادُهَا.

27- وَلَن يَدْخُلَهَا شَيْءٌ نَجِسٌ، وَلاَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْقَبَائِحَ وَيُدَجِّلُونَ، بَلْ فَقَطِ الَّذِينَ كُتِبَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي سِجِلِّ الْحَيَاةِ لِلْحَمَلِ!

(22)

ثُمَّ أَرَانِي الْمَلاَكُ نَهْرَ مَاءِ الْحَيَاةِ صَافِيًا كَالْبِلَّوْرِ، يَنْبُعُ مِنْ عَرْشِ الله وَالْحَمَلِ.

2- وَيَخْتَرِقُ سَاحَةَ الْمَدِينَةِ، وَعلَى ضَفَّتَيْهِ شَجَرَةُ الْحَيَاةِ تُثْمِرُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً، كُلَّ شَهْرٍ مَرَّةً. وَأَوْرَاقُهَا دَوَاءٌ يَشْفِي الأُمَمَ.

3- لَنْ تَكُونَ فِيمَا بَعْدُ لَعْنَةٌ أَبَدًا. لأَنَّ عَرْشَ الله وَالْحَمَلِ قَائِمٌ

فِي الْمَدِينَةِ، حَيْثُ يَخْدِمُهُ عَبِيدُهُ.

4- وَيَرَوْنَ وَجْهَهُ، وَقَدْ كُتِبَ اسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ.

5- وَلَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ لَيْلٌ، فَلاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى نُورِ مِصْبَاحٍ أَوْ شَمْسٍ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ!

6- وَقَالَ لِي الْمَلاَكُ: «هذَا الْكَلاَمُ صِدْقٌ وَحَقٌّ. إِنَّ الرَّبَّ إِلهَ أَرْوَاحِ الأَنْبِيَاءِ أَرْسَلَ مَلاَكَهُ لِيُخْبِرَ عَبِيدَهُ بِمَا لاَبُدَّ أَنْ يَحْدُثَ سَرِيعًا.

7- إِنِّي آتٍ سَرِيعًا! طُوبَى لِمَنْ يُرَاعِي مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ النُّبُوءَةِ هذَا!».

8- أَنَا يُوحَنَّا رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ هَذِهِ الأُمُورَ كُلَّهَا. وَبَعْدَمَا سَمِعْتُ وَرَأَيْتُ كُلَّ مَا حَدَثَ، ارْتَمَيْتُ عَلَى قَدَمَيِ الْمَلاَكِ الَّذِي أَرَانِي إِيَّاهَا لأَسْجُدَ لَهُ.

9- فَقَالَ لِي: «لاَ تَفْعَلْ! إِنَّنِي عَبْدٌ مِثْلُكَ وَمِثْلُ إِخْوَتِكَ الأَنْبِيَاءِ، وَمِثْلُ الَّذِينَ يُرَاعُونَ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْكِتَابِ. لله اسْجُدْ!».

10- ثُمَّ قَالَ لِي: «لاَ تَخْتُمْ عَلَى مَا جَاءَ فِي كِتَابِ النُّبُوءَةِ هذَا، لأَنَّ مَوْعِدَ إِتْمَامِهِ قَدِ اقْتَرَبَ.

11- فَمَنْ كَانَ ظَالِمًا، فَلْيُمْعِنْ فِي الظُّلْمِ؛ وَمَنْ كَانَ نَجِسًا، فَلْيُمْعِنْ فِي النَّجَاسَةِ؛ وَمَنْ كَانَ صَالِحًا، فَلْيُمْعِنْ فِي الصَّلاَحِ؛ وَمَنْ كَانَ مُقَدَّسًا، فَلْيُمْعِنْ فِي الْقَدَاسَةِ!

12- إِنِّي آتٍ سَرِيعًا، وَمَعِي الْمُكَافَأَةُ لأُجَازِيَ كُلَّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ.

13- أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الأَوَّلُ وَالآخِرُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ».

14- طُوبَى لِلَّذِينَ يَغْسِلُونَ ثِيَابَهُمْ، فَلَهُمُ السُّلْطَةُ عَلَى شَجَرَةِ الْحَيَاةِ، وَالْحَقُّ فِي دُخُولِ الْمَدِينَةِ مِنَ الأَبْوَابِ!

15- أَمَّا فِي خَارِجَ الْمَدِينَةِ، فَهُنَالِكَ الْكِلاَبُ وَالْمُتَّصِلُونَ بِالشَّيَاطِينِ، وَالزُّنَاةُ وَالْقَتَلَةُ، وَعَبَدَةُ الأَصْنَامِ، والدَّجَّالُونَ وَمُحِبُّو التَّدْجِيلِ!

16- «أَنَا يَسُوعُ أَرْسَلْتُ مَلاَكِي لأَشْهَدَ لَكُمْ بِهَذِهِ الأُمُورِ فِي الْكَنَائِسِ. أَنَا أَصْلُ دَاوُدَ وَنَسْلُهُ. أَنَا كَوْكَبُ الصُّبْحِ الْمُنِيرُ».

17- الرُّوحُ وَالْعَرُوسُ يَقُولاَنِ: «تَعَالَ!» وَمَنْ يَسْمَعْ فَلْيُرَدِّدِ النِّدَاءَ: «تَعَالَ!» فَلْيَأْتِ الْعَطْشَانُ! وَكُلُّ مَنْ يُرِيدُ، فَلْيَشْرَبْ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا!

18- وَإِنِّنِي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ النُّبُوءَةِ هذَا: إِنْ زَادَ أَحَدٌ شَيْئًا عَلَى مَا كُتِبَ فِيهِ، يَزِيدُهُ الله مِنَ الْبَلاَيَا الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا.

19- وإِنْ أَسْقَطَ أَحَدٌ شَيْئًا مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ النُّبُوءَةِ هذَا، يُسْقِطُ الله نَصِيبَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، اللَّتَيْنِ جَاءَ ذِكْرُهُمَا فِي هَذَا الْكِتَابِ.

20- وَالَّذِي يَشْهَدُ بِهذِهِ الأُمُورِ يَقُولُ: «نَعَمْ! أَنَا آتٍ سَرِيعًا». آمِينَ! تَعَالَ أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ!

21- وَلْتَكُنْ نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَكُمْ جَمِيعًا. آمِين.

مختارات من نثر ميلتون

من «سبب حكم الكنيسة: الحجة المقامة عليالكهنوت»
(مقدمة الكتاب الثاني)

كم كانت تبلغ سعادة حياة الإنسان الواهنة التي قد توصف بحق بأنها فانية، لو لم تكن المعرفة (التي تعتبر أفضل وأخف ما يمتلكه الذهن) عبئًا ثقيلاً، كما يقول التعبير الشائع، ولو لم يكن ما تتطلبه من إرهاق لأي عضو من أعضاء الجسد يرين على الروح حتى بمزاياه الفائقة، مادامت حياة جميع الكائنات التي هي مصدر خير وراحة لنا في حياتنا اليومية مثقلة بالأعباء غاصة بالمتاعب. فلنضرب صفحًا عن المعرفة المستقاة من تأمل الأسباب والأبعاد الطبيعية، وهي التي لابد أن توصف بأنها حكمةٌ منحطةٌ مادام الشيء المُتَأمَّلُ منحطًا، ولنقطعْ في ثقة بتفوق من حاول أن يكتسب، ولو إلى أدنى قَدْرٍ، معرفةً واضحة بالله ، وبصدق عبادته، وبما لا يشوبه الخطأ من خير وسعادة في حياة الإنسان، وبما هو في ذاته شر وحقير، وإن لم يكن السوقة يعتبرونه كذلك، وأما من يجتهد لاكتساب هذه المعرفة، وهي الحكمة ذات القيمة الأعلى دون غيرها حقا، ويذكر أيضًا أن الله قد فرض عليه فرضًا الارتقاء بما أنعم به عليه من مواهب، وَكَلَها إليه وكلَّفه بها، فلابد أن يشعر بأن ذهنه يحمل عبئًا ثقيلاً رازحًا يفوق أي تعب أو ثِقَلٍ محتمل يستطيع الجسد مكابدته، وأما هذا العبء فيتمثل في كيفية

«التصرف» في هذه المعرفة، وكيفية الاستفادة من هذه الرؤى المضيئة التي أرسلها الله إليه في هذه الدنيا وما ينبغي له أن يفعل بها.

ومما يزيد من ثقل هذا العبء أن من يفوز (بين ما كُتب له أن يفوز به من نِعَم) ببعض الحقائق الثمينة التي تتلألأ ببريق يفوق بريق الماس يجد أن عليه أن يبيعها بأبخس الأسعار، بل أن يقدمها بلا مقابل لمن يريدها، ولكن كبار تجار هذه الدنيا سوف يخافون أن يؤدي ذلك إلى الإسراع بفضح حقيقة «بضائعهم» الخادعة وإلى دَمْغِ بريقها الزائف بالعار، وهي التي يخدعون الناس بها، مثلما يخدع فقراء الهنود بالخرز والزجاج، وسوف يدفعهم خوفهم إلى أن يبذلوا قصارى جهدهم في الحيلولة دون بيع تلك الجواهر الثمينة بأسعار بخسة تؤدي إلى إفلاسهم وبوار قمامتهم في أيديهم، ولسوف من ثَمّ يستفزون الناس، من خلال إرضاء شهواتهم الفاسدة بمذاهب «جسدية»، ويدفعونهم إلى اضطهاد الأبرار وإضمار البغضاء والازدراء لهم، وإن لم يَسْعَ الأبرار إلا إلى العيش باستقامة في كنف قوتهم الروحية. وقد يتنبأ الأبرار بذلك، وإن كانوا مرغمين أن يشهدوا بالحق، وبامتياز هذه التجارة الربانية التي يأتون بهم، مهما واجهوا من معارضة أو من أخطار، ومع ذلك فلابد أن تشعر أرواحهم بالعبء الملقى عليها، ألا وهو كونهم (بناء على ما قصد الله إليه أولاً وما قصدوه ثانيًا) مبشرين مُصْطَفِين بالسلام، وواهبي ذخائر لا تقدر بثمن ودون مقابل لمن لا مال لهم، كما إنهم يجدون في تنفيذ ما كُلِّفوا به تحقيقًا لتغيير كبير وهجومًا فتاكًا، كأنهم سيف مصلت ونار حارقة في البيت والمدينة على هذه الأرض كلها.

وذلك ما كان ذلك النبي الحزين إرميا يشكو منه قائلا: «ويل لي يا أمي لأنك أنجبتني لأكون إنسان خصام ورجل نزاع لكل الأرض»

وعلى الرغم من أن الوحي السماوي كان قطعًا عذب المذاق لأولئك الأنبياء القدماء، فإن مشاق إبلاغ الحقيقة التي كانوا يأتون بها يبلغ من مرارتها أن كانوا يَصِفُونَها في كل مكان بأنها عبء.

أجل! وانظر سفر الرؤيا الحافل بالأسرار، والذي طُلب من المبشر العظيم أن «يأكله» ، بسبب ما فيه مما يفتح العيون من معارف ونبوءات منتخبة، وتأملْ كم كان عذب المذاق في فمه وفي دراسته، وكم كان مُرًّا في بطنه وفي نشر ما فيه على الملأ! بل ولم يكن ذلك يخفى على سوفوكليس، الشاعر الحكيم، ففي اللحظة التي يأتي فيها في مأساته بالرجل تيريسياس ليجيب أوديب الملك إجابة كان يعرف مدى إيلامها له، يُدْخِلُ فيها ذلك الرجل ناعيًا نادبًا سوء حظه الذي قَدَّرَ له أن يعرف أكثر مما يعرفه غيره. فالمقطوع به أن كل رجل خير وسلم سوف يجد كراهة في أن يُغْضِبَ ويُسِيءَ إلى الآلاف، ولا شك أنه يؤثر أن يكون رسول فَرَحٍ ورضًا، فهما الغاية الأولى للبشرية جمعاء لولا أن الناس يعارضون ويقاومون سعادتهم الحقة.

ولكنه عندما يأمر الله بأن يُنْفَخَ في الصُّور، ويعلو دويُّ البوق بالصوت الحزين أو النشاز، فلن يكون بمقدور إنسان أن يحدد ما يُخْفِي وما يُعْلن. فإذا ظن أنه يستطيع التزام الصمت، مثلما التزم به إرميا، بسبب ما كان يلقاه يوميًا من سخرية وتأنيب، «وكان جميع أصحابه يرجون منه أن يسكت» حتى لا يُثَارَ منه لقول الحق، فلسوف يُرْغَمُ على الاعتراف مثلما اعترف إرميا: «كانت كلمته في قلبي مثل نار موقدة حبيسة في عظامي ؛ أجهدني احتمالها وعجزت عن الصمود». وهذا من شأنه تعليم هذا الزمان ألا يتسرع بإدانة كل ما يُتَفَوَّهُ به من لاذع القول أو كل ما يكتب من شديد اللهجة، باعتباره صادرًا عن حقد

أو بغضاء أو سوء طوية، بل أن يَنْظُرَ فيما يلي: إذا سُمِحَ للكهنة بأن يقولوا أسوأ ما يقال، وأن يفعلوا أسوأ ما يُفعل، بحيث يجتهدون لاعتزال الناس والاستغراق في متعتهم الكبرى وسلعتهم العظمى والاحتفاظ لأنفسهم بما ينبغي أن يتنازلوا عنه، فلن يكون لأحد الحق في أن يغضب ممن يحاول أن ينطق ويقدم - دون أدنى مكسب لنفسه - تلك الكلمات اللاذعة وإن كانت فيها النجاة، والتي من شأنها لو حبسها في صدره أن ترهبه وتعذبه.

وأما أنا فقد عقدت العزم على الحفاظ على أفضل ذُخْرٍ وعَزَاءٍ لي في أيام شيخوختي الأخيرة، لو مَنَّ الله عليَّ بها، ألا وهو حريةُ التعبير، وهي حرية شريفة، وأظنها متاحة في مثل هذه المهمة الغالية وهي تحقيق الخير للكنيسة. إذ إنني إذا كنتُ، بالفطرة أو لسبب آخر، أشدَّ فضولاً مما ينبغي، أو كنت أرتاب في نفسي وفي فعالي، فمن ذا الذي يستطيع تغيير هذا الواقع؟ ولكنني أتنبأ بما يلي: إنه إن تعرضت الكنيسة لقَهْرٍ ثقيلِ الوطأة، ومنحني الله الآن القدرة على أن أقيم الحجة على الرجل الذي يَثْبُتُ أنه صاحب هذه الفعلة الشنعاء، أو لو قُدِّرَ لها، بفضل مباركةٍ عُلْيًا لجهود المؤمنين وشجاعتهم، أن تنفض عن نفسها سوء حالها وتشهد عهدًا أفضل، من دون أدنى جهد من جانبي أو عطاء من المواهب القليلة التي أعارني الله إياها في الوقت الحاضر، فإنني أتنبأ بما سوف أسمعه من أحاديث التثبيط والتأنيب في أعماق نفسي فيما بقي لي من العمر. لسوف أسمع صوتًا يقول:

«أيها الجبان الجحود! إن كنيسة الله قد سقطت من جديد تحت أقدام أعدائها الذين أهانوها! وأنت تنعي حالها! ماذا يعود عليك من ذلك، وما قيمة نعيك؟ عندما كانت اللحظة سانحة لم تستطع أن تجد حرفًا واحدًا تنطقه دفاعًا عنها في كل ما قرأتَ ودَرَسْتَ، ولكنك كنت

تنعم بالراحة والفراغ الذي يتيح لك التفكير وحدك، بعيدًا عن العرق الذي يَتَفَصَّدُ من جِبَاهِ الآخرين. كنت تتمتع بالقدرة على بذل الجهد وتبدي مواهبك وتستعمل لغة الإنسان حين تصادف موضوعًا تُزَخرِفُهُ وتُزَيِّنُهُ، ولكنه عندما آن الأوان للدفاع عن قضية كنيسة الله، وهي القضية التي وهب الله لك اللسان للدفاع عنها، إذا بك تصبح أبكم مثل الحيوان الأعجم، ولقد أصغى الله راجيًا أن يسمع صوتك بين أصوات عباده المخلصين، لكنه لم يسمعْك، وإذن فلتصبحْ منذ الآن على الحال التي أحالك إليها صمتك الحيواني».

أو ربما كنت سأسمع بالأذن الأخرى صوتًا يقول: «أيها الكسول، يا من تستحق الاستخفاف بك أبدًا، لقد نجحت الكنيسة في التغلب الآن على بلاياها وأتراحها الأخيرة، في أعقاب الجهود التي بذلها دون كلل خدمها المخلصون الذين هبوا للدفاع عنها، ولقد كنت تعهدت أن تشاركهم أفراحهم أنت أيضًا، ولكن لماذا أنت؟ في أي موقع كان يمكنك أن تسرع بإنقاذها بكلمة أو بفعل؟ ليس ما تقوله أو تكتبه أو يُسهم في مظهرك سوى ما تَصَدَّقَ به عليك المجتهدون من ذوي الحكمة والحماس. لا تجرؤ الآن على أن تقول أو تفعل شيئًا أفضل مما جاء به كسلك القديم وطفولتك السابقة! ولو جَرُؤْتَ فسوف تكون قد اشتريت بثمن بخس هذه الجرأة التي ما كانت تتاح لك لولا الجهود المضنية التي بذلها غيرك من الرجال، وهكذا فإن عليك الآن أن ترضى بالذل والتفاهة بعد أن جلبتهما خطيئتك».

أعرف أن هذه الدروس والعبر كان من المحتمل أن تصبح صلوات صباحي وترانيم مسائي. لكنني أبذل الآن جهدًا متواضعًا، واعيًا بما سوف أحظى به لدى الأخيار والقديسين، حتى أثبت حقي في نعي ما تكابده

الكنيسة، إذا كانت سوف تعاني دون أن يَشْرُفَ آخرون ممن لم يخاطروا بشيء في سبيلها بأن ينعوا حالها. لكنها إن قدر لها أن ترفع رأسها الجاثية وتنهض من عثرتها، فلسوف أكون بين أولئك الذين أسهموا بما يزيد عن تَمَنِّي النجاةَ لها والازدهار، ولسوف يكون من حقي المطلق أنْ أُشِيعَ الفرح في قلبي وقلوب ورثتي. وإذن فلأقل بشأن هذا الموضوع المقلق، وهو إقامة الحجة ضد الكهنوت. إن بعض الناس يرون أن تناوله مقيت مقلق إلى حد بعيد، ولكنني أتوقع من خيار القراء أن يحسنوا الظن بي في كل ما قيل، إذ لم يدفع بي إلى ساحة هذا الجدل حسدٌ أو إحساسٌ بالمرارة، بل كان الضميرُ دافعيَ الأوحد، وخوفي الذي يقيني الاتهام بالنكوص عن أداء هذا الواجب حينما يتاحُ له ذُخْرٌ لا بأس به من أوقات الطمأنينة، وكذلك كيلا يقال، كما قيل، إن دافعًا من دوافع التبجح التي تَسُرُّ الخاطر قد دفعني إلى التنازع مع رجال ذوي أقدار عليا، وأنا بعد في سنوات العمر الخضراء اليانعة. وهكذا فأرجو أن أقنع السامع الذكي الكفء بعدم الإصغاء إلى هذا الافتراض الذي لا لزوم له، لو أنني استطعت أن أنجح وحسب في التعبير عما أريد التعبير عنه في هذه القضية الطارئة، وذلك على الرغم من أنني أود ألا يسمعني، إذا تَمَنَّى ذلك، إلا القارئ المتعلم المهذب، وإذن فإنني أستسمحه في أن أوجه خطابي إليه بصفة أساسية برهة قصيرة.

ولن يجد فيما أقول أي جديد، لكنني أقول له: إنني لو كنت أسعى لاكتساب الثناء بإظهار الذكاء والعلم ما كتبت الآن قبل الأوان، أي قبل استكمال دراساتي الخاصة كلها واستيعابها في ذهني، وإن لم أكن أشكو أي نقص في معرفة الموضوع المطروح، ولو استجبت لرغباتي لوجدت من الحمق أن أعرض أي شيء حرصت على إعداده

بدقة على أنظار أبناء هذا الزمان العاصف أو على أسماعهم اللاهية المشتتة. ولأقل بعد هذا إنني لو كنت أرجو تحقيق غاياتي الخاصة وحسب، لاخترت موضوعًا جديرًا في ذاته بالثناء والترحيب، وهذا الموضوع يتسم بكل ما يأتي بنقيض ذلك، كما إن نشره قد يتأخر وفقًا لهوى الناشرين، ناهيك بالوقت اللازم لتنقيح أسلوبه باللمسات الفنية الجذابة، حتى يخرج في كمال الصورة التي لا تشوبها شائبة. أضف أن عدم إرجاء هذا الموضوع أمر بالغ الأهمية لتحقيق النجاح، ومن ثم فإنه لو قدر لصلابة الحجة أن تؤدي عملها فلن يكون للفن دور يؤديه. ولأقل أخيرًا إنه لا ينبغي لي اختيار هذا الأسلوب في الكتابة، إذ أعرف أنني فيه أدنى من نفسي، بعد أن قادتني قوة الطبيعة البشوش إلى عمل آخر، فلم أعد أستطيع سوى استعمال يدي اليسرى، في ظني.

ورغم أنه من الحمق أن أقول المزيد في هذا الباب، فإنها مادامت حماقة يرتكبها أحكم الحكماء، إذ يقرون بأنها حماقة ويرتكبونها، فلسوف أرجو من القارئ الصفح بكل تواضع، استنادًا إلى قوة حجتي القائمة على «قوة حماقتي»! قد يلجأ الشاعر الذي يحلق في الأجواء العليا لخيالاته حاملاً إكليل زهره ومرتديًا أثواب إنشاده إلى الحديث عن نفسه، دون اعتذار، بأكثر مما أعتزم الحديث عن نفسي، لكنني أجد أنني هنا أجلس في جو النثر البارد على الأرض، بشرًا فانيًا بين كثير من القراء الذين لا يتمتعون بمخيلة سماوية، وهكذا أرجو أن يتعطف القراء فيصفحوا عن إقدامي على نشر بعض الحقائق الغريبة عن نفسي، وأرجوهم ألا يروا في ذلك ما يعيبني.

وهكذا لابد أن أقول إنني بعد أن قضيت سنواتي الأولى، بفضل جهد والدي الذي لا يكل وحرصه الشديد (جزاه الله عني كل خيرا) في تعلم

اللغات الأجنبية وبعض العلوم الطبيعية، في حدود ما تسمح به سني الصغيرة، على أيدي أساتذة ومعلمين مختلفين، سواء كان ذلك في البيت أو المدرسة، اكتشف هؤلاء أن كل شيء كَلَّفُوني بكتابته أو كَتَبْتُهُ مختارًا بالإنجليزية أو بلغة أخرى، بالنثر أو بالنظم، وأساسًا بالنظم، كان له أسلوبٌ ينم ببعض أدلة حيوية فيه على احتمال صموده للزمن. وبعد ذلك بفترة قصدت إلى بعض المعاهد الخاصة في إيطاليا، وكان ذلك من حُسْنِ طالعي، إذ أبدى الأساتذةُ إعجابهم بما اخْتَزَنْتُهُ ذاكرتي مما كنتُ أَلَّفْتُهُ وأنا بعدُ دون العشرين (فالقاعدة هناك أن يُثْبِتَ الطالب ما استفاده من دراسته ويثبت ذكاءه بالتأليف) قائلين إنه أرفع من المطلوب، كما حَظِيَ ما كتبتُه عما تعلمتُهُ من بعض الكتب والدراسات وأعدتُ صياغته، بالثناء الكتابي عليه، وهو ما لم يَعْتَدْ الإيطاليون إغداقَهُ على سكان الجانب الآخر من جبال الألب. وهكذا بدأتُ أقبَلُ ما قالوه، وما قاله شتى أصدقائي هنا في وطني، كما كنت أستجيبُ فيما انتويته لدافع باطني لا يقل تأثيرًا ويزداد قوة في أعماقي يومًا بعد يوم (وهو ما أعتبره نصيبي المكتوب لي في هذه الدنيا) والذي يُعَضِّدُهُ ميلٌ فِطْرِيٌّ غَلاَّبٌ، وأَقْصِدُ بما انتويتُه أنْ أكتبَ شيئًا أتركه للأجيال المقبلة التي قد تَأْبَى أن تحكم على ما أكتبُه بالموت.

وتملكتني هذه الأفكار يومًا، وتملكتني سواها بعد ذلك، ألا وهي إنني إن كنت سأتبع في كتابتي المبادئ المتبعة في شراء العقارات لأجل غير مسمى، بحيث لا ينتهي العقد بعد ثلاثة أجيال، فلا أجدرَ من أن أكتبَ عملاً يُعْلِي من مجد الله، وينشد تشريف وطني وإرشاده. ومن ثم كرست جهودي بعزم وتصميم لهذه القضية، دون أن يقتصر السبب على إدراكي صعوبة الوصول إلى مستوى المرتبة الثانية من مراتب شعراء اللاتينية،

وهو النهج الذي اتبعه أريوسطو ضاربًا عُرْضَ الحائط بحُجَجِ بيمبو، ومعنى ذلك تسخيرُ كل جهد وكل فنٍّ لديَّ معًا لتجميلِ لغتي القومية، بحيث لا أجعل غايتي ابتكار غرائب التعبير (فما ذاك إلا جهد مرهق ينم على الغرور) بل أن أُفَسِّرَ واقصَّ أفضل وأحكم ما يُقَصُّ على أبناء وطني في شتى أرجاء هذه الجزيرة، وبلهجتي الأم. وأن أخدم وطني الخدمة التي قدمتها أعظم وأبدع قرائح أثينا أو روما أو إيطاليا الحديثة بل وشعراء العبرانية لأوطانها، في حدود ما أستطيع، واضعًا نُصْبَ عيني أنني مسيحي، غير مكترث بمعرفة الأجانب بي، وإن كنت قد أستطيع تحقيق ذلك، قانعًا بأن يقتصر عالمي على الجزر البريطانية، مُدْرِكًا أنه إذا كان أبناء أثينا قد استطاعوا بفضل الفصحاء من كتابهم إضفاء العظمة وذيوع الصيت على صغير أعمالهم، فإن المنجزات النبيلة التي حققتها انجلترا لاقت عكس ذلك المصير فبدت صغيرة تافهة بسبب معالجتها الساذجة الفظة بأقلام الكهنة وغير الموهوبين.

ربما لا يكون الوقت مناسبًا (وربما ظهر فيما أكتب إطناب أكثر مما ينبغي) لتقديم صورة مؤكدة لما يتمتع به الذهن في بلادنا من حرية في اختيار الموضوعات، في جولات تأملاته الشاسعة الأبعاد، مهما يكن الموضوع طموحًا وعسير التحقيق، سواء في الشكل الملحمي وهو الذي لا تعتبر قصيدتا هوميروس وقصيدتا فيرچيل وتاسو إلا نماذج مترهلة له، ولا يعتبر سفر أيوب إلا نموذجًا موجزًا، أو في قضية وجوب الالتزام الصارم بقواعد أرسطو أو الانصياع لما تمليه الطبيعة، وهو الذي لا يرى فيه من يعرف الفن ويستند إلى الحكم الصائب أي تجاوز أو خطأ، بل يرى فيه إثراءً للفن، أو - أخيرًا - في قضية اختيار الملك أو الفارس الذي ظهر قبل الفتح

النورماندي والذي يصبح جديرًا بنسج صورة البطل المسيحي على غراره.
ومثلما أتاح تاسو لأمير إيطاليٍّ الخيار في أن يأمره بالكتابة عن الحملة التي قام بها جودفري ضد الكفار، أو حملة بيليزاريوس ضد القوطيين، أو حملة شارلمان ضد اللومبارديين، فربما لم يكن ثمة تهور - إذا كان لنا أن نثق في الغريزة الفطرية والجسارة المستمدة من الفن، ولم يكن أمامنا في مناخنا العام أو في مصير هذا الزمان ما يعارض ذلك - إن نحن بذلنا الجهد نفسه وأبدينا الميل نفسه فقدمنا صورًا مماثلة من تاريخنا القديم، أو إن كانت تلك الأبنية الدرامية التي يتفوق فيها سوفوكليس ويوريبيديس دون منازع، تمثل مذاهب أقرب إلى قلوب الأمة وأمثلة من الأحرى أن يُحْتَذَى بها.

والكتاب المقدس يتضمن أيضًا دراما رعوية ربانية في نشيد سليمان، تتكون من شخصين وجوقة مزدوجة، كما يقول أوريجن مُحِقًا. ورؤيا القديس يوحنا صورة ذات جلال لمأساة رفيعة سامية، فهي تختتم فصولها وتمزج مشاهدها وفعالها بجوقة سباعية من التسبيح لله وسيمفونيات رائعة، ويكفي لتأكيد رأيي هذا تعليق پاريوس، وهو الثقة الجليل، على هذا السفر. أو إذا سنحت الفرصة فلي أن أحاكي تلك الأناشيد والترانيم الجذابة التي كتبها پنداروس وكاليناخوس، والمادة في معظمها سامية، وإن كان بعض ما كتب على مثالها بديع البناء معيب الموضوع إلى أقصى الحدود. ومن اليسير أن نبين مدى تفوق هذه الأناشيد المبثوثة في أسفار القانون وأسفار الأنبياء أيضًا على الشعر كله بل وإثبات أنها لا تُجَارَى لا في موضوعها الرباني فقط بل أيضًا في فنون الصياغة البالغة الدقة.

وهذه المواهب والقدرات، حيثما وجدتها، من عطايا الله التي يُنْعِمُ بها على قلة قليلة في كل أمة، ولكنه يهبها قطعًا للبعض (وإن

كان معظمهم يسيء استعمالها) وهي تتمتع بالقدرة على الهداية بأكثر مما تستطيعه المنابر، إذ إنها تغرس وترعى في نفوس الكثيرين بذور الفضيلة والسلوك المهذب في المجتمع، وتخفف ما يعتري الذهن من قلق واضطراب، وتضبط أنغام المشاعر والعواطف، فهي تحتفل في ترانيمَ رائعةٍ ساميةٍ بعرش قدرة القادر جل وعلا وما يسخره من الملأ الأعلى، وما يقضي به فيكون، وما تقضي العناية الإلهية العليا به في كنيسته، وهي تنشد أناشيد النصر التي تتمثل في عذابات القديسين والشهداء، وفعال وانتصارات الأبرار الأتقياء من بين أمم الأرض، الذين أثبتوا شجاعتهم من خلال الإيمان في التصدي لأعداء المسيح، وهي تنعي حالات الانتكاس العامة للممالك والدول ونكوصها عن البر والإنصاف وعبادة الله حق عبادته.

وأخيرًا فإنها تصور كل ما يتميز به الدين من قداسة وسمو،وكل ما تتسم به الفضيلة من بشاشة أو وقار، وكل ما يثير العاطفة أو الإعجاب في شتى صروف الدهر والتقلبات التي ننسبها في الظاهر إلى الحظ، ودقائق أفكار الإنسان الخفية وانفعالات ذهنه جميعًا، وهي في هذا كله تتمتع بصلابة التعبير وسلاسته في التصوير والوصف. أي إنها تقدم درسًا يمثل كتاب القداسة والفضيلة كاملاً، من خلال التمثيل المجسد وضرب الأمثلة التي تدخل البهجة على أصحاب الطبع المهذب الذواق، والذين ربما استحال عليهم أن يشاهدوا الحق نفسه إلا إن كان يكتسي ثوبًا أنيقًا، وهكذا، فإذا كانت سبل الأمانة والعيش القويم تبدو لنا وعرة عسيرة، وإن كانت في الواقع مُعَبَّدَةً مُيَسَّرَةً، فإن تصويرها بالأسلوب المذكور سيجعلها معبدة ميسرة حتى ولو كانت في الواقع وعرة عسيرة. وأما الفائدة التي تعود من هذا كله

على شبابنا وعلى السادات في مجتمعنا، فما أسرع ما نستطيع أن نحدسها إذا أحطنا بالفساد والسموم التي يتجرعونها كل يوم من كتابات وهزليات كل شويعر جاهل دعيٍّ شبق، إذ يندر أن يكون من بين هؤلاء من سمع يومًا ما عن المادة التي تتشكل منها أساسًا كل قصيدة حقة، ومن ثم فهو لا يعرف كيف يختار ما ينبغي تقديمه وما يُعتبر فاضلاً مهذبًا لدى كل إنسان، ولذلك فمعظمهم يتجرع مبادئ خبيثة على شكل حبوب الدواء الحلوة المذاق، فإذا ابتلعوها جعلت مذاق الكتابات الفاضلة حامضًا مريرًا.

لكنه لما كان يتعذر على روح الإنسان أن تحطَّ من قدرها في جسده وتظل ذات حيوية دون بعض الفواصل التي تسرّي عنه وتتطلب بذل الجهد والجد، فلسوف تسعد الدولة إذا قام قضاتنا بمحاكاة قضاة الحكومات الشهيرة العريقة، بإبداء الحرص على توسيع نطاق مهمتهم بحيث لا تقتصر على البَتِّ في قضايا الخلافات والمشاجرات بل أن تشمل كذلك إدارة ملاهينا وألعابنا العامة وحفـلات التسرية والترفيه، وأن يزيدوا من اختصاصاتهم حتى تتجاوز المهام التي كُلِّفوا بها منذ ذلك الزمن البعيد مثل الفصل في المنازعات الناجمة عن السُّكْرِ والشهوات، وحتى تتضمن كل ما من شأنه تقوية أجسادنا وتدريبها بالتدريبات العسكرية على اكتساب جميع المهارات القتالية وفنون الحرب، إلى جانب ما يسهم في تحضر أذهاننا وتزيينها وتميزها من خلال اللقاءات العلمية المهذبة المتكررة مع العلماء والمتخصصين، والحصول على نصوص تتحلى بالحكمة والفن، ويزيد من حلاوتها ما تحث فيه بأسلوب فصيح رشيق على الحُبِّ وإقامةِ العدل والاعتدال في المسلك والجَلَد، فيؤدي ذلك إلى تعليم الأمة والارتقاء بمستواها في جميع الفرص المتاحة، وبحيث تعلو دعوة الحكمة والفضيلة

فتُسمع في كل مكان، أو كما يقول سليمان الحكيم: إنها تهتف في الخارج ، فصوتها ناطق في الطرقات ، وعلى قمة المباني العالية ، وفي السوق الرئيسية ، وفي فتحات الأبواب. وسواء لم يقتصر ذلك على المنابر بل اتخذ سبلاً أخرى للإقناع في الاجتماعات الوقورة أو في المسارح أو اي مكان لقاء آخر، أو بأي سبيل آخر لاستمالة أفئدة الناس بأفعل أسلوب لتلقي التسرية والعلم معًا، فينبغي لمن بيدهم مقاليد الأمور أن يشيروا به.

وأما الذي قصدتُ إلى قوله، وهذه المقاصد التي لم أَتَخَلَّ عنها في يوم من الأيام منذ أن تصورتُ أنني قادر على إنجاز ما هو جدير بوطني، فإنني أعود للإعراب عن طلب الصفح عنها، وأعتذر بأنني لم أتقاعس إلا لأسباب قاهرة عاجلة شغلتني ولم أعرف بها إلا معرفة تأخر موعدها وأحبطتني. وإنجاز ما انتويته لا يمكن الوعد بتحقيقه، ولكنني أقول إن أحدًا لم يبذل ما بذلته من جهد في هذا الصدد، وإن أحدًا لن يتصدى في المستقبل لتحقيقه بروح أشد من روحي إنكارًا للمشقة، وهو ما أتجاسر على أن أشهد به لنفسي ما دمت حيًا وما دام وقت الفراغ متاحًا لي، خصوصًا بعد أن تحررت البلاد من النير السفيه الذي وضعه الكهنة في رقبتها، إذ كان من المحال أن تثمر قريحة حرة ورائعة في ظل استبداد بلادتهم وغباء مسلكهم «التفتيشي» .

ولا أظن أنه يشينني أن أعاهد أي قارئ عليم على أن أصحبه إن وثق بي في الطريق المؤدية إلى سداد الدَّيْن الذي أَدِينُ به اليوم، ألا وهو عمل لا تُنْشِئهُ حَمِيَّةُ الشبابِ أو أَبْخِرَةُ النبيذ، ويختلف عما يفيض من قلم عاشق من السوقة أو من وَضَمِ غضبة طفيلي يجيد نظم القوافي، بل ولن يأتي باستلهام ربة الذاكرة وبناتها من الحوريات، بل سيأتي ثمرة لذلك الروح

الخالــد الذي يستطيع إثرائي بكل فنون القول والمعرفة، ويرسل إليّ ملائكة الصاروفيم حاملة الجذوة المقدسة من مذبح معبده حتى تلمس فتطهر شفاه من يرضاه. وإلى جانب هذا لابد أن يُضاف العكوفُ على قراءة النصوص المختارة، والملاحظة الدائبة، وإنعام النظر في كل ما هو جميل وكريم من الفنون والشئون، وريثما أتمكن من تحقيق ذلك إلى حد ما، بما يتضمنه من أخطار عليّ وتكاليف، لن أرفض أن أنقض توقعات كل من لا يكره المخاطرة بتصديق أفضل ما أتعهد له بتحقيقه.

ولم أكن لأقبلَ أنْ أُفصحَ عن ذلك كُلِّهِ مُقَدَّمًا لولا ثقتي في أنني بذلك أُوَضِّحُ مدى كُرْهِي للتوقف عن نُشدان آمالٍ في مثل جلالِ هذه الآمال، وخروجي من العزلة الهادئة الممتعة التي تَغْتَذِي بآمال البِشْرِ والثقة، حتى أنشر شراعي في بحر هائج غاص بالضجيج والخلافات التي بُحَّتْ أصواتُها، ومدى كرهي للتوقف عن إبصار مُحَيَّا الحقيقة في الجو الساكن الساجي للدراسات الممتعة، حتى أخرجَ إلى حُلْكَةِ ظلالِ آثارٍ باليةٍ جوفاءَ يُرَوِّجها الكثيرون فيما يبدو، والذين يسرهم أن يشاركوا في ما يقتطفونه منها رجالاً لا يزيد ما لديهم من علم وعقيدة عن حشو الحواشي على المتون، وهم الذين يُشْبِهُونَ دوابَّ الحمل الصالحة إذ ما إنْ يُفْرِغُوا حمولتهم من تلك المقتطفات وأسماء آباء الكنيسة لدى بابك، مغالين في الثناء على من كان ومن كانوا أساقفة هنا وهناك، حتى يكونَ لك أن تُزِيلَ السروج التي حملوا فيها المتاع، فقد انتهى عملهم، وظنوا أنهم بَرَّزُوا خيرَ تبريرٍ نظامَ الأساقفة. وإنني لأدعو أي إدراك رهيف يستطيع التمييز بين مشقة الاجتهاد في العلم واسترقاق الجهل حتى يتصور مدى المتعة والعمق في التصدي لذلك ودرجة الشرف التي يحوزها من ينازل أمثال هؤلاء

الخصوم.

وحتى لو كان ذلك لا يمثل إلا أشد درجات العبادة تواضعًا، فما دام الله يأمرني به من خلال ما ائتمنني عليه وهو الضمير، فلكم كان يحزنني أن أتقاعس عنه. وأنا أتحدث عن نفسي بصفة خاصة، وفي هذه الآونة تحديدًا ونحن نرى الجميع يقدمون معونتهم لمساعدة الكنيسة وتيسير مهامها الشاقة وتخفيف أعبائها. فلقد كان من المفترض وأنا طفل أن أعمل فيها، وفق مقاصد أبويَّ وأصدقائي، ووفق ما كنت قررته أنا نفسي. ولكنني عندما بلغت سنوات النضج إلى حد ما، وأدركت مدى الطغيان الذي غزا الكنيسة، وأن من يعمل بالكهنوت لابد أن يرضى بالاستعباد، بل وأن يقسم يمينًا على أن يكون عبدًا، وما لم يكن قد أقسم ذلك اليمين بضمير يتهوع، فلا بد له إما أن يحنث في قسمه أو يشق إيمانه شقين، رأيت من الأفضل اختيار الصمت المشرف على العمل المقدس بالكلام، فهو عملٌ يُشْتَرَى ويبتدئ بالعبودية والحنث في القسم. ومهما يكن الأمر فقد أخرج الكهنة الكنيسة من طريقها القويم، وهو ما يُظهر حقي في أن أتصدى لهذه الأمور، مثلما ظهرت الضرورة والقيود من قبل.

أريوباجيتيكا

دفاع عن حرية طباعة الكتب دون ترخيص سابق:
خطاب موجه إلى برلمان إنجلترا

الحريةُ حقًا أن يُسْمَحَ للحُرّ المَوْلِدِ
إنْ كانَ عَلَيْهِ إرْشَادُ الجمهورِ بأنْ يتكلمَ في حُرِّيَّةٌ
وبأنْ يَحْظَى بِثَنَاءٍ أَرْفَعَ مَنْ يقْدِرُ أنْ يُفْصِحَ عَنْ رَأْيِهِ
وبالاَّ يُكْتَمَ صوتُ القَادِرِ إنْ عَبَّرَ عنْ رَأْيِهْ
هَلَّ ثَمَّ إذَنْ أَعْدَلُ مِنْ هذا مَهْمَا تكُنِ الدَّوْلَةُ؟

يوربيديس - مسرحية الضارعات .

أتصور أن الذين يوجهون الخطاب إلى الدولة وإلى حكام هذه الدولة، أي إلى محكمة البرلمان العليا، أو من إذا افتقدوا فرصة الوصول إلى البرلمان بصفتهم الشخصية كتبوا ما يتنبأون بأنه يخدم الصالح العام، أناس شرعوا في عمل جليل، لا يتغيرون ولا يُعَدِّلُونَ إلا قليلاً من آرائهم، حيث يشك البعض في نجاح العاقبة، أو حين يخشى البعض الآخر اللوم، أو حين يراود الرجاء البعض، ويستمسك البعض الآخر بالثقة فيما سوف يقولونه. وربما كنت أنا قد تعرضت لكل حالة من هذه الحالات في أوقات أخرى وفق الموضوع الذي أتناوله، وربما كان من المحتمل أن أكشف في هذه العبارات الاستهلالية عن الحالة التي غلبت سواها، ولكنني ما إن شرعت

في هذه المحاولة حتى وجدت دافعي الداخلي يشتد فيصبح عاطفة مشبوبة، وها أنذا أرحب بها ترحيبًا يزيد عما تلقاه عبارات الاستهلال المعتادة.

ولسوف أقر بما أعنيه قبل أن يسألني سائل، إذ أعتقد بأنه لا تثريب عليَّ إن أحسست بالفرح وما يشعر به من الفرحة كل من يتمنى حرية بلده وكل من يعززها.

وسوف يكون هذا الخطاب كله شهادة تؤكد ذلك، إن لم يكن من شعارات النصر، إذ إن الحرية التي نرجوها تختلف عن قمع التعبير عن المظالم في طول الدولة وعرضها، وأرجو ألا يتوقع أحد ذلك في هذه الدنيا، ولكن الحرية تتمثل في التعبير بحرية عن الشكاوى، ودراستها دراسة عميقة والإسراع بإزالة مصدرها، فعندها نكون قد وصلنا إلى أقصى تخوم الحرية المدنية التي يَنْشُدها الحكماء. وأقول إننا، كما سوف أبين بما سوف أقوله، قد نِلْنَا فعلاً معظم ما نبغي، ولكننا كنا على شفا حفرة عميقة من الطغيان والخرافات التي تغلغلت في مبادئنا بحيث كان من المحال أن ننجو منها بما ينسبه الرومان للقوة البشرية، ولكن النجاة تحققت أولاً بفضل المعونة القوية من الله الذي خلصنا، فله الحمد والشكر، وتحققت ثانيًا بفضل إخلاصكم في الإرشاد وحكمتكم التي لا تخشى شيئًا، أنتم يا أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم في برلمان انجلترا. ولا يقول الله إننا قد ننتقص من مجده إذا أثنينا الثناء المشرف على الرجال الصالحين والقضاة المبجلين، فإذا كنت بدأتُ الآن بالتعبير عن هذا الإطراء أولاً، بعد التقدم الرائع في فعالكم الحميدة، وبعد أن لَهَجَتْ البلاد طويلاً بالتعبير عن امتنانها لفضائلكم التي لا ينضبُ لها مَعِينٌ،

فلســـوف أُعتبر من بين آخر من امتدحكم، وأكثر من كانوا عازفين عن ذلك.

ومع ذلك فلا بد من توافر ثلاثة شروط رئيسية في الثناء الحق وإلا غدا بمثابة خطب الود والمداهنة، أولاها أن يكون ما يُمْتَدَحُ جديرًا حقًا بالمديح، وثانيها أن تشير أقوى الاحتمالات إلى توافر الصفات الممدوحة حقًا وصدقًا فيمن تُنْسَبُ إليه، وثالثها أن يُثْبِتَ المادحُ أنه لا يداهن بتبيان اقتناعه الحق بمن يكتب عنه. ولقد حاولت إثبات توافر الشرطين الأولين لديّ من قبل، فأنقذتُ العمل من أيدي الذي سعى إلى إفساد صورة مزاياكم بمديح تافه خبيث، وأما الشرط الأخير، وهو الذي يعني تبرئة ساحتي، فهو أنني احتفظت بهذه المناسبة لإثبات أنني لا أداهن من أثني عليه.

فإن من يمتدح ما سبق إنجازه من الفعال النبيلة بحرية، ثم لا يخشى الإعلان بالحرية نفسها عما يمكن إنجازه من فعال أفضل، يقدم لكم أفضـــل ما يشهد بإخلاصه، ودليلاً على أن أصدق مشاعره وآماله معلقة بمداولاتكـــم البرلمانية. أي إن أرفع مديح منه ليس مداهنة، وأبسط نُصْح يقدمه ضرب من المديح. وهكذا فإذا كنت اليوم أؤكد (مقيمًا الحجة عليّ أن ما أقول أفضل لإحقاق الحق وإعلاء شأن العلم والدولة) أن أحد الأوامر التي أصدرتموها، وهو ما سوف أحدده، لا بد من إلغائه، فـــإن ذلك لن يؤدي في الوقت نفسه إلا إلى إضفاء المزيد من البريق على حكومتكم التي تعتنق المساواة وتنبذ البطش، إذ سوف يرى فيه الأفراد دليلاً على أنكم ترحبون بما يقدمه الجمهور من مشورة ترحيبًا يفوق ترحيب رجال دولة آخرين وفرحهم بمداهنة الجمهور لهم. ولسوف يرى الناس عندها الفارق بين شهامة البرلمان المنتخب لمدة ثلاث سنوات وبين الترفع والاستكبـــار

ولسوف يرى الناس أنكم، في غمرة انتصاراتكم ونجاحاتكم تسمحون بالكتابات التى تنتقد أحد أوامركم التي حازت موافقتكم بالتصويت، وذلك بأسلوب أشد تهذيبًا من أساليب المحاكم الأخرى التي لم تنجز شيئًا جديرًا بالتذكر غير التظاهر الخائر بالثراء، ولم تكن لتطيق أدنى تعبير عن النفور إذا فاجأها أحد بإعلانه.

وإذا كـان لي أن أطمع إلى هذا الحـد فيمـا تبـدونه من وداعـة السلـوك، يا أعضاء مجلسي اللوردات والعموم، وهو ما يتفق مع ما تتحلون به من عظمة مهذبة رقيقة الحاشية، بشأن ما يقضي به أمركم المنشور مباشرة، ورفضي له وإنكاري إياه، فربما استطعت الدفاع عن نفسي بسهولة، ولو اتهمني أحد بأنني حديث العهد أو صفيق، فليته يعلم وحسب إلى أي حد أُقَدِّرُ موقفكم لو أنكم حاكيتم المذهب الإنساني العريق الرشيق الذي أخذت به اليونان، بدلاً من الاستكبار الهمجي الذي شهدناه في قبائل «الهون» وفي إدارة الدولة في النرويج. وبفضل انقضاء تلك العصور، وهي التي أمدتنا بالحكمة والآداب التي أصبحت تميزنا عن القوط والدانماركيين، أستطيع أن أذكر اسم الرجل الذي أرسل من منزله خطابًا إلى برلمان أثينا يقنعهم فيه بتغيير شكل الديموقراطية التي كانوا قد أقاموها آنذاك. كم كان يُضْفِي من الشرف في تلك الأيام على الذين يتوفرون على دراسة الحكمة والفصاحة، لا في أوطانهم فقط بل خارجها أيضًا، حتى أن المدن والإمارات كان يسرها الإصغاء إليهم، وباحترام بالغ، إذ كان لديه ما يقوله علنا لإرشاد الدولة، وكان ذلك ما فعله ديون پرسيوس، وكان غريبًا على أبناء جزيرة رودس وخطيـبًا لا ينتمي لحزب ما، عندما أشار عليهم بإلغاء أمر كانوا قد أصدروه. وفي جعبتي أمثلة مشابهة كثيرة لا أظن بي حاجة

لسردها هنا.

لكنه إذا كان ينقصني الكثير برغم الجهود التي بذلتها في حياة كرستها للعلم والمعرفة، وبرغم المواهب الطبيعية التي لا بأس بها لمن يعيشون عند خط العرض الشمالي الثاني والخمسين، بحيث لا أبدو مكافئًا لأي رجل تمتع بهذه المزية، فإنني أطمع في ألا أعتبر أدنى منهم بكثير، مثلما تتفوقون على معظم من تلقوا مشورة هؤلاء، فلتثقوا في أنه لن تظهر شهادة تقطع بمدى تفوقكم، يا أعضاء مجلسي اللوردات والعموم، مثل إصغاء روح حكمتكم إلى صوت العقل مهما تكن الجهة التي يصدر منها وطاعة ما يقول به، كما إنه يثبت استعدادكم لإلغاء أمر أصدرتموه، مثلما ألغيتم ما أصدره أسلافكم.

فإن كان عزمكم قد صَحَّ على ذلك، ومن المهانة الظَّنُّ بخلاف ذلك، فلا أعرف ما يمنعني من أن أعرض عليكم نموذجًا يصلح لإثبات حبكم للحق، وهو ما تعلنونه بقوة، واستقامة ما تحكمون به، وهي استقامة لم تعتادوا أن يشوبها الانحياز لأنفسكم، ومن ثم فعليكم إعادة النظر في الأمر الذي أصدرتموه ابتغاء تنظيم الطباعة، وهو الذي يقول إنه لا يجوز، من الآن فصاعدًا، طبع كتاب أو كتيب أو دراسة، إلا بعد الموافقة عليها والترخيص بنشرها من جانب هيئة، أو على الأقل من جانب فرد من أفراد هيئة تعينونها فيما بعد لهذا الغرض. وأما ذلك البند من بنود ذلك الأمر الذي يحفظ مُحِقًّا لكل فرد النسخة التي اشتراها أو البند الذي يقول بمساعدة الفقراء في الحصول على الكتب، فلن أتعرض له، وإن كنت أتمنى ألا يُستغل هذا البند أو ذاك في الإساءة إلى الشرفاء أو الكادحين الذين لا يخالفون هذين البندين. وأما ذلك البند الآخر، ألا وهو الخاص بضرورة الترخيص

بطبع الكتب، وهو الذي كنا نظن أنه ووري التراب مع أخويه وهما قانون الصوم الكبير وقانون الزواج عندما انتهى عهد الكهنة، فلسوف ألتفت الآن إليه وأقدم إليكم الحجة التي سوف تجعلكم، عند بسطي إياها، تكرهون انتماء واضعي هذا القانون إليكم، وبعد ذلك سوف أعرض ما ينبغي أن نراه في القراءة بصفة عامة، مهما تكن أنواع الكتب التي بين أيدينا، وسوف أبين عندها أن هذا الأمر لا قيمة له فيما يتعلق بمنع نشر الكتب التي تنشر الفضائح أو تبذر الفتنة أو تتضمن السب والقذف وهي الكتب التي كان الشارع يقصد أساسًا منعها، وأخيرًا أنه سوف يؤدي أساسًا إلى تثبيط جهود اكتساب المعرفة والحيلولة دون نشر الحقائق، ولن يقتصر في ذلك على منع ممارستنا للقدرات الخاصة بما نعرفه من قبل وإصابتها بالكلالة، بل سوف يعيق اكتشاف أي جديد ويجتثه، وهو الجديد الذي قد نصل إليه في مجال الحكمة الدينية والمدنية.

لا أنكر، وإن كان ذلك مدار اهتمام بالغ في الكنيسة والدولة، أن علينا أن ننظر بعين يقظة دائمًا كيف تَحُطُّ الكتب من قدرها ومن أقدار الناس أيضًا، ومن ثم لا بد أن نحبس من يقترف ذلك باعتباره آثمًا ونسجنه ونعاقبه أقسى عقاب. فليست الكتب كائنات ميتة تمامًا بل إن بها حياة كامنة شأن أرواح من كتبوها. إنها لتحفظ أنقى عصارة وفعالية للذهن الحي الذي أنتجها كأنما هي قنينة محكمة. وإني لأعرف مدى حيويتها وقدرتها على التكاثر، فكأنما هي أسنان ذلك التنين الخرافي، التي يقال إنها كانت تُغرس في الأرض فينبت في أماكنها رجال مسلحون. ومن ناحية أخرى يجب أن نلتزم الحذر لأن

قتل الكتاب الجيد يماثل قتل الإنسان، بل إن من يقتل إنسانًا لا يعدو قتل مخلوق عاقل صوره البارئ في صورته، وأما من يهلك

الكتاب فإنه يقتل العقل نفسه وصورة الله في الصميم. فما أكثر الرجال الذين يعيشون عبئًا على الأرض، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الثمين لروح فائق، بعد تحنيطه والاحتفاظ به ذخرًا ليحيا حياة بعد هذه الحياة. فمن الثابت أن أي عصر من العصور لا يستطيع بعث حياة ما وربما لم يكن فقدها يمثل خسارة كبرى، وتوالي العصور ودورانها كثيرًا ما يعجزان عن استعادة حقيقة مفقودة، وهي الحقيقة التي يؤدي فقدها إلى مكابدة أمم كثيرة لسوء الحال.

وعلينا إذن أن نحذر من ضروب اضطهاد الجهود الحية للعاملين في الحياة العامة، وأن نحذر إراقة حياة الإنسان الناضجة المحفوظة والمخزونة في الكتب، إذ إننا نرى في ذلك ارتكاب جريمة قتل من لون ما، وأحيانًا نمطًا من أنماط الاستشهاد، فإذا امتد القتل إلى نُسَخِ الطبعة جميعًا كان بمثابة المذبحة، ونجد أن الإعدام هنا لا ينتهي بقتل روح تحرك العناصر الأربعة بل يقضي على العنصر الأثيري وهو العنصر الخامس الذي يمثل أنفاس العقلِ نفسه، فهو يقتل خلودًا لا يسلب مجرد روح من الأرواح. ولكنني، كيلا أدَانَ بأنني أقدم الترخيص، وأنا أعارض الترخيص، سوف أستند إلى براهين تاريخية قادرة على تبيان ما اتخذته الدول العريقة وذائعة الصيت من إجراءات ضد تلك الفوضى، وحتى اللحظة التي تسلل فيها مشروع الترخيص المذكور خارجًا من محاكم التفتيش، فالتقطه كهنتنا، بل إنه قد استولى هو نفسه على بعض أساقفتنا.

ولننظر إلى مدينة أثينا حيث كان نشاط كتابة الكتب وإنتاج القرائح يفوق مثيله في أية منطقة أخرى من مناطق اليونان، ولم يكن القضاة فيها يكترثون إلا لنوعين اثنين من أنواع الكتابة، النوع الأول هو الكتابة التي

تتضمن التجديف في الدين والإلحاد، والنوع الثاني هو الكتابة التي تتضمن السب والقذف. وهكذا أمر قضاة محكمة أريوباجوس العليا بإحراق كتب بروتاغوراس (السوفسطائي) وبنفي ذلك الفيلسوف نفسه من بلده بسبب رسالة كتبها وبدأها بأن أقر بأنه غير واثق إن كانت الأرباب موجودة أم غير موجودة. كما حكمت المحكمة بالتصدي لجريمة التشهير بالأفراد، فقررت تجريم من يسب شخصًا يحدد اسمه، بالأسلوب الذي طُبِّقَ في قضية كوميديا ڤيتوس، وهو الذي نحدس منه كيف كانوا يعاقبون السب والقذف. وكان هذا الأسلوب يتميز بالسرعة الكافية واللازمة لقمع قرائح الملحدين الآخرين وسد الطريق أمام التعريض بالأشخاص، على نحو ما كشفت عنه الأحداث. ولكنهم لم يلتفتوا إلى الطوائف والآراء الأخرى، مهما يكن ميلها إلى اللذائذ الحسية وإنكار العناية الإلهية.

ولذلك فنحن لا نقرأ أن القوانين قد حاسبت يومًا أبيقور، ولا أصحاب «مدرسة» الانحلال والفسق في برقة، ولا ما كان الفلاسفة الكلبيون يتلفظون به. بل ولم يسجل التاريخ أن كتابات مؤلفي الكوميديا القديمة قد منع نشرها، وإن كان تقديمها على المسرح محظورًا، وأما أن أفلاطون كان يزكي قراءة أريستوفانيس، أشد هؤلاء الكتاب انحلالاً، لتلميذه «الملكي» ديونيسيوس، فأمر لا يكاد يجهله أحد، وربما التمسنا العذر لذلك ما دام الرجل الرباني كريسوستوم كان، فيما يُرْوَى، يدرس في كل ليلة ذلك المؤلف نفسه، وكان يتمتع بفن تهذيب الأسلوب فيحول بذاءة القول وفحشه إلى أسلوب الموعظة المثيرة.

ولنلتفت الآن إلى المدينة الكبرى الأخرى من مدن اليونان، وهي «لاسيديمون» (اسبرطة) نظرًا لأن واضع القوانين فيها،

ليكورجوس، كان مدمنًا للعلوم الرشيقة إلى درجة أنه كان أول من أخرج الأشعار المتفرقة التي أبدعها هوميروس من منطقة أيونيا، وأرسل الشاعر طاليس من جزيرة كريت لتهذيب وتخفيف الصرامة الإسبرطية فيها بأغانيه وأناشيده العذبة، حتى تزداد إمكانية غرسها لبذور القانون والتأدب في المسلك بين الناس، ومن العجب العجاب أن نرى مدى خلوها من إلهام ربات الشعر وعدم استنادها إلى الكتب وانصبابها كليًا على المنجزات الحربية. لم يكن لديهم حاجة لترخيص نشر الكتب، إذ كانوا يكرهون كل شيء ما عدا ما لديهم من حِكَم موجزة وأقوال مأثورة، وانتهزوا فرصة تافهة لطرد الشاعر أرخيلوخوس من مدينتهم، وربما كان يكتب الشعر بنبرات أرقى مما تستطيع حكاياتهم المنظومة الحربية وأناشيدهم «الدائرية» أن تصل إليه. وأما بالنسبة لأشعاره «الفظة» فلم يكونوا يَحْذَرُونَها بل كان يُجَارُونَها في أحاديثهم الفاسقة، ومن ثَمَّ يؤكد الشاعر يوريبيديس في مسرحيته أندروماك أن نساءهم كُنَّ جميعًا فاسقات. ويكفي ذلك لإلقاء الضوء على أنواع الكتب التي كانت محظورة لدى اليونان.

وكان الرومان كذلك، إذ كانوا قد درجوا، على امتداد عصور كثيرة، على تلقي التدريب الحربي الصارم الذي كان كثير الشبه بالنزعة الإسبرطية، فكانت معارفهم تكاد تقتصر على ما يتلقونه من علم من ألواحهم الاثني عشر ومجمع كهانهم، إلى جانب ما يوحي به إليهم العرافون وكُهَّانُ الأرباب المفردة من معارف في الدين والقانون. ولقد بلغ من جهلهم بالمعارف الأخرى أنه حين قَدِمَ كارنيديس وكريتولاوس، بصحبة الفيلسوف الرواقي ديوچينيس، إلى روما في سفارة، وانتهزوا تلك الفرصة لتمكين

أبناء روما من تذوق فلسفتهم، اشتبه كاتو الأكبر، وهو من هو، في أنهم غاوون مضللون، واقترح على مجلس الشيوخ أن يأمر بطردهم على وجه السرعة، ونفى جميع اليونانيين الثرثارين من إيطاليا. ولكن سكيبيو وغيره من أنبل أعضاء مجلس الشيوخ عارضوه وقاوموا تزمته «السابيني» العتيق، بل وكرموا الرجال وأبدوا الإعجاب بهم، والواقع أن كاتو الأكبر نفسه انكب في شيخوخته آخر الأمر على دراسة ما كان يحذر منه ويستريب به من قبل. ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، كان نايڤيوس وپلاوتوس، أول كُتَّابِ الكوميديا اللاتينية، قد ملأوا المدينة بالمشاهد المستعارة من مسرحيات ميناندر وفيليمون. وهنا بدأ النظر هناك أيضًا فيما عسى أن تفعله السلطات إزاء السب والقذف في الكتب وإبداعات الكُتَّاب، إذ سرعان ما أُلْقِيَ نايڤيوس في السجن بسبب عربدة قلمه، وقرر القضاة الإفراج عنه عندما أعلن توبته، ونقرأ أيضًا أن الإمبراطور أوغسطوس أمر بحرق كل ما يتضمن السب والقذف ومعاقبة من يقومون بالتشهير بالأفراد. وكانوا ينزعون إلى القسوة نفسها ولا شك إذا كتب أحدٌ كتاباتٍ تتضمن المساس بقداسة أربابهم المبجلة. وباستثناء هذين الأمرين لم يكن القضاه يأبهون لما تتناوله الكتب من شئون الدنيا.

وهكذا يقوم لوكريشيوس بنظم قصيدة تعرض المبادئ الأبيقورية، دون أن يلومه أحد، ويقدمها إلى ميميوس، بل لقد تشرف بأن يقوم شيشرون، للمرة الثانية، بعرض هذه المبادئ، وهو الذي كان من آباء الدولة العظام، وعلى الرغم مما يعارض به ذلك الرأى في كتاباته الخاصة. بل ولم يصدر قط أمرًا بحظر حدة الهجاء اللاذع أو الصراحة المجردة عند لوكيليوس أو كاتولوس أو فلاتوس. وأما في السياسة فإن أوكتاڤيوس قيصر لم

يمنع نشر الرواية التاريخية التي كتبها تيتوس ليڤيوس استنادًا إلى تمجيدها للدور الذي قام به غريمه پومپي، وأما قيامه بنفي ناسو في شيخوخته بسبب الأشعار الماجنة التي كتبها في صباه، فلم يكن إلا قناعًا سياسيًا يخفي من ورائه دافعًا سِرِّيًا، كما إن كتب الشاعر لم تُصَادَرْ ولم تُسْتَبْعَدْ من البلاد، ومن ذلك الوقت لن نصادف ما لا يكاد يتجاوز الطغيان في الإمبراطورية الرومانية، حتى أننا لن ندهش إذا كان الحظر قد شمل الكتب الجيدة أكثر مما شمل الكتب الرديئة. وهكذا أرى أنني توسعت في الحديث بما فيه الكفاية عما كان القدماء يعاقبون الكاتب على كتابته، وباستثناء ذلك كان المجال مفتوحًا لمعالجة أي موضوع يختاره كاتبه.

وفي هذه الأونة كان الأباطرة قد اعتنقوا المسيحية، ولا أجد أن نظامهم في هذا الخصوص كان يزيد قسوة عما كان مطبقًا من قبل. فكانوا يأمرون بفحص الكتب التي كتبها من يعتقدون أنهم من كبار الزنادقة، وبالرد على ما جاء فيها وتفنيده، ثم إدانتها في المجالس الرسمية العامة، فإذا ثبت ما بها من ضلال أمر الإمبراطور بحظرها أو إحراقها. وأما كتابات المؤلفين الوثنيين، فما لم تكن تتضمن قدحًا صريحًا في المسيحية، مثل كتاب پورفيريوس وپروكلوس، فلم تكن تواجه بحظر يذكر حتى نحو عام 400 للميلاد، وكان ذلك في المجلس الرسمي لمدينة قرطاجنة حيث صدر الأمر بمنع الأساقفة أنفسهم من قراءة كتب الأممين (غير اليهود) وإن سُمح لهم بقراءة كتب الزندقة، والطريف أنه قد حدث عكس ذلك قبل فترة طويلة حين كان غيرهم يستريب بكتب الزنادقة أكثر من استرابته بكتب الأمميين. ومن المعروف أن الأب پاولو من أهم من كشف حقائق مجلس مدينة ترينت (الكاثوليكي)

وهو يذكر أنه كان من عادة المجالس البدائية والأساقفة الاقتصار على ذكر عناوين الكتب التي لا تُسْتَحَبُّ قراءتُها، بحيث تُتْرَكُ لضمائر الأفراد حريةُ قراءتها أو نبذها، قائلاً: إن ذلك لم يبدأ إلا بعد عام 800.

وبعد ذلك التاريخ تَسَلَّطَ بابوات روما فاستولوا على ما شاءوا من السلطة السياسية، وتوسعوا في سيطرتهم على عيون الناس، مثلما بسطوا سلطانهم من قبل على عقولهم، فانطلقوا يُحْرِقون ويَحْظُرون ما لم يَرُقْ لهم، ولكنهم لم يسرفوا في اعتراضاتهم ولم تكثر الكتب التي تعرضت لذلك المصير، وذلك حتى أصدر مارتن «المبجل» مرسومًا بابويًا لم يكتف فيه بالحظر بل نَصَّ فيه على تطبيق عقوبة الحرمان من المشاركة الكنسية على كل من يقرأ كتب الزنادقة، إذ حدث في نحو ذلك الوقت أن برز اثنان فأشاعا الرعب وهما «ويكليف» «هوس» ، وكانا أول من دفعا المحكمة البابوية إلى اتباع سياسات حظر أشد صرامة، وكان ذلك هو السبيل الذي سلكه البابا ليو العاشر وخلفاؤه، حتى رأى مجلس ترينت، الذي اقترن بمحاكم التفتيش الإسبانية، وضع ما يسمى «بالقوائم» أو «المؤشرات» الخاصة بتطهير النصوص من كل ما يعتبر مُحَرَّمًا أو محظورًا، وهو ما أدى إلى إخضاع مؤلفات الكثيرين من كبار المؤلفين القدماء للتفتيش والنبش في أحشائها نبشًا يزيد ما فيه من انتهاك للحرمة عن نبش قبور المؤلفين أنفسهم. بل ولم يقتصر هؤلاء المفتشون على أمور الزندقة، فتجاوزوها إلى كل ما لا تقبله ذائقتهم، إذ كانوا يدينونه بإصدار الأمر بحظره، أو يدرجونه في قائمة «المؤشرات» الخاصة بما ينبغي حذفه لتطهير النصوص منه.

واستكمالاً لتطاولهم أتوا ببدعة ابتكروها ألا وهي إصدار مرسوم يقضي بألا يطبع كتاب أو كتيب أو دراسة (كأنما عهد

إليهم القديس بطرس في وصيته بمفاتيح المطابع أيضًا من الفردوس) إلا بعد الموافقة عليه والترخيص به من جانب كاهنين أو ثلاثة من ذوي النَّهَم والشراهة. وانظر على سبيل المثال:

نرجو من تشيني قاضي القضاة أن يتكرم فينظر في هذا العمل حتى يرى إن كان فيه ما يجعله «يتحمل» الطباعة .

ڤينشنت رَبَّاتا ، راعي كنيسة فلورنسا

قد اطلعت على هذا العمل ولم أجد فيه ما يعارض العقيدة الكاثوليكية والأخلاق الحميدة . وهذه شهادة مني بذلك . . إلخ .

نيكولو تشيني ، قاضي قضاة فلورنسا

فيما يتعلق بالقضية السابقة ، يُسْمَحُ بطباعة هذا العمل الذي وضعه داڤانزاتي .

ڤينشنت رَبَّاتا ، راعي كنيسة فلورنسا

تجوز طباعته . *15* يوليو .

الأب سيمون مومبي داميليا ، رئيس محاكم التفتيش في فلورنسا .

لا شك أنهم يتصورون أنه إذا كان ساكن الهوة التي لا قرار لها (إبليس) قد خرج من محبسه منذ زمن بعيد، فإنهم يستطيعون بهذه الخطوات الأربع لطرد الشياطين أن يعيدوه إلى الحبس. وأخشى أن تتمثل خطوتهم التالية في فرض الوصاية على ما يقولون إن كلوديوس كان يقصده، وإن لم يضعه موضع التنفيذ. وتأمل ما يشهد على الطابع الروماني بالنظر في إحدى استماراتهم:

تصريح كنسي : إذا بدا العمل صالحًا في نظر رئيس محكمة التفتيش .

بلكاسترو ، نائب الرئيس ، إدارة التصريحات الكنسية ، إلى الأب نيكولو رودولفي ، رئيس محكمة التفتيش

وأحيانًا ترى خمسة تصريحات كنسية مجتمعة تتحاور معًا في حديقة صفحة العنوان، إذ يستكمل بعضها البعض، ويتفادى كل منها الاصطدام بالآخر، ما بين أصحاب التوقير وأصحاب التبجيل، حول ما إذا كان المؤلف الذي يقبع مرتبكًا في ذيل رسالته حائرًا ماذا سيُفعل به: هل يُرسل إلى المطبعة أم إلى ساحة التطهير. هذه هي الآيات الجميلة من المزامير، وهذه هي الترانيم التي تسبقها وتستدعيها، فلقد سحرت أفئدة كهاننا في الآونة الأخيرة، مثلما سحرت أتباعهم من صغار الكهان، بل وسلبت عقولنا إلى الحد الذي جعلنا نحاكي صاحب السيادة «التصريح الكنسي»، الذي يصدر أحيانًا من قصر لامبيث (مقر رئيس أساقفة كنتربري) وأحيانًا من الجناح الغربي في كنيسة سانت بول (في لندن)، بحيث يحاكي الرومان محاكاة عمياء، حتى إن لفظ الأمر لايزال يكتب باللاتينية، كأنما قلم النحرير النحوي الذي كتبه لن يضع المداد على الورق من دون اللاتينية، وربما لأنهم يظنون أن اللغات الشعبية غير جديرة بالتعبير عن الصورة الطاهرة للتصريح الكنسي، ولكنني أرجو أن يكون السبب أن لغتنا الإنجليزية، لغة الذين اشتهروا وتفوقوا في منجزات الحرية، لن تجد بسهولة أية حروف تتسم بالخنوع الكافي لكتابة هذا الأمر الدكتاتوري بالإنجليزية.

وهكذا ترون شجرة عائلة مخترعي ومبتكري التصريح بنشر الكتب مرسومة رسمًا تفصيليًا يتابع خطوط نسبها مثل كل ذي نسب أصيل. إننا لم نرث ذلك ولا يمكن أن نسمع به في أية دولة عريقة أو شعب عريق أو كنيسة عريقة، بل ولم يرد ذلك في أية لائحة قانونية خَلَّفَها لنا أسلافُنا قديمًا أو حديثًا، ولا في العادات الحديثة المتبعة في أية مدينة أو كنيسة شملها الإصلاح في الخارج، ولكنه أتانا من أشد المجالس عداءً

للمسيحية وأشد ما شهده التاريخ طغيانًا من محاكم التفتيش.

وقبل ذلك كانت كتبنا تخرج في حرية إلى العالم خروج المولود الطبيعي، ولم تكن تُخْنَقُ مواليدُ الذهن بأكثر مما تُوءَدُ مواليدُ الأرحام، فلم تكن لدينا ربة زواج مثل چونو الحقود، لكي تجلس واضعة ساقًا على ساق لتراقب المواليد الفكرية لأي إنسان، ولكن لو ثبت أنها شائهة وحشية فمن ذا الذي ينكر أنها تستحق الإحراق أو الإغراق في البحر؟ وأما أن يتعرض كتاب لمحنة أقسى من محنة النفس الخاطئة فيحاكم قبل أن يشهد نور الدنيا، ويتعرض في الظلام لحكم رادامانث وزملائه قبل أن يعبر النهر عائدًا إلى النور، فهو ما لم نسمع به من قبل، وذلك حتى حل بنا ذلك الظلم الغامض، حين استفزهم وأقلقهم دخول الإصلاح الديني عصرنا أول مرة، فجعلوا ينشئون أكثر من عالم نسيان جديد، وأكثر من جحيم جديدة، حتى يلقوا فيها كتبنا أيضًا مع عديد أهل جهنم منهم. وكانت هذه هي اللُّقْمَةُ السائغة التي تَطَفَّلَ هؤلاء فاختطفوها، ثُمَّ حاكاهم شر المحاكاة أساقفتنا بروح محاكم التفتيش ومن ورائهم أقليات الكهان التابعين لهم. ولسوف يبرئكم بسهولة أنكم تبغضون الآن (يا أعضاء مجلس اللوردات والعموم) مَنْ تأكد أنهم أصحاب أمر الترخيص المذكور، وأن مقصدهم الخبيث برمته كان أبعد ما يكون عن خاطركم، وأنكم تعرضتم للإلحاح والإلحاف في السؤال حتى توافقوا عليه، إلى جانب شهادة جميع الذين يعرفون نزاهة أفعالكم، ومدى تبجيلكم وإخلاصكم للحق.

ولكن قد يقول البعض: ما ضر إن كان المبتكرون أشرارًا إذا كان الشيء نفسه، رغم ذلك، خيرًا؟ ذلك جائز، ولكنه إذا كان ذلك الشيء لا يمثل ابتكارًا يستعصي فهمه، بل كان واضحًا ومن اليسير على كل إنسان أن

يهتدي إليه ومع ذلك أَحْجَمَتْ أفضلُ وأحكمُ الدول على مر العصور وفي شتى الأحوال عن العمل به، وكان أشدُّ المخادعين الغاوين الظالمين هم أول من عمل به، لا لسبب إلا عرقلة وإعاقة بوادر الإصلاح الديني الأولى، فإنني من بين من يعتقدون أن استنباط أي نفع من هذا الابتكار سوف يتطلب ضربًا من الخيمياء أشق مما قُدِّرَ للعالم لوليوس أن يعرفه يومًا ما. وأنا لا أطلب من إقامة هذه الحجة كسبًا سوى أن أبين مدى ما يكمن في هذه الثمرة من خطر وريبة، فالأمر جدير بالمعالجة نظرًا لطابع الشجرة التي أثمرتها، وذلك حتى أستطيع تفصيل القول في صفاتها صفة من بعد صفة، ولكنَّ عليّ أولاً أن أنتهي، وفقًا لما طرحته، من النظرة الواجبة إلى قراءة الكتب بصفة عامة، وبغض النظر عن أنواعها، والقول فيما إذا كانت تعود بالنفع أو الضرر على القارئ.

ودون أن أصر على ضرب الأمثلة من موسى ودانيال وبولس، الذين كانوا ذوي مِرَاسٍ وإحاطةٍ بجميع معارف المصريين والكلدانيين واليونان، وكان من المحالِ أن يتسنى ذلك لهم إلا بقراءة كتب هذه الشعوب على اختلاف ألوانها، وخصوصًا في حالة بولس الذي لم يجد غضاضة في أن يدرج في كتابه المقدس عبارات مقتبسة من ثلاثة من شعراء اليونان، وكان أحدهم من كتاب التراجيديا، أقول: إن المسألة كانت مثار خلاف أحيانًا بين العلماء الأوائل، اتسم بترجيح الكفة كثيرًا للجانب الذي أكد أن ذلك حلال ومفيد، على نحو ما اتضح بجلاء في حينه، عندما قام چوليان المرتد المارق، أشد أعداء عقيدتنا دهاءً وخبثًا، بإصدار مرسوم يحظر فيه على المسيحيين دراسة المعارف الوثنية، إذ إنه قال إنهم يجرحوننا بأسلحتنا ويتغلبون علينا بفنوننا نحن وعلومنا. وهكذا اضطُرَّ المسيحيون إلى

التحايل لقهر هذه الوسيلة الماكرة، ولما كانوا يخشون خطر التردي في الجهل المطبق، فقد أسعد أبوليناريوس وابنه وسميه، كما يقول التعبير الشائع، أن يشتقا الآداب الإنسانية السبعة كلها من الكتاب المقدس، وأن يختزلاه في أشكال منوعة من الخطب والقصائد والحوارات، بل وصل الأمر إلى وضع نحو مسيحي جديد. ولكن المؤرخ سقراط يقول: إن العناية الإلهية قدمت حَلاً أفضل من جهود أبوليناريوس وابنه، إذ أزهقت روح ذلك القانون الأمي مع روح الذي ابتكره. كان الناس يعتقدون أن الحرمان من معارف اليونان ضرر كبير، ويرون أنه يمثل اضطهادًا أشد تدميرًا وأقرب إلى التسبب في تدهور الكنيسة من القسوة الصريحة التي كان يمارسها ديشيوس أو دقلديانوس.

وربما كان ما رآه القديس چيروم في منامه في فترة الصوم الكبير، حين حلم بأن الشيطان يضربه بالسوط عقابًا على قراءته شيشرون، إحدى الشطحات التي أملتها الضرورة، وإلا فلنا أن نعده وهمًا نشأ من وقدة الحُمّى التي كان يعاني منها آنذاك. فلو كان الذي يؤدبه ملاكًا، إلا إذا كان يعاقبه على الاهتمام المفرط بالخصائص البلاغية لأسلوب شيشرون، وكان يعاقبه على القراءة لا على الزهو، لكان الملاك ذا انحياز واضح، أولاً لمعاقبته على قراءة شيشرون الوقور بدلاً من معاقبته على قراءة پلاوتوس ذي الأسلوب البذيء، وقد أقر القديس چيروم أنه كان يقرأ پلاوتوس قبل ذلك بوقت غير طويل، وثانيًا ربما كان «يصحح» له مسيرته فقط، فلم يكن الكثيرون من آبائنا القدماء يتقدم بهم العمر في مثل هذه الدراسات الممتعة المفرطة في التنميق إلا وتلقى الضرب بالسياط من طيف يزوره ليؤدبه، وها هو ذا القديس بازيل الذي يقول: إننا قد نجد بعض الفائدة في قصيدة

مارجيتيس، وهي قصيدة لاهية كتبها هوميروس ولكنها اندثرت، ولكن لم لا نجد بعض الفائدة أيضًا في رومانسة إيطالية بعنوان: مورجانتي، وهي من النمط نفسه تقريبًا.

لكننا إذا اتفقنا على قبول تحكيم الرؤى فلدينا رؤيا سجلها يوزيبيوس ورواها عن راهبة تدعى يوستوكيوم، وهي أقدم كثيرًا من قصة چيروم المذكورة كما إنها لم تنشأ من وقدة الحمى، ففي نحو عام 240 كان قد ذاع اسم ديونيسيوس السكندري وعلا موقعه في الكنيسة بسبب تقواه وغزارة علمه، وكان قد نجح في إقامة الحجة على المارقين بفضل اطلاعه على كتبهم، ولكن أحد شيوخ الكنيسة قال له ما جعله يشعر بوخز الضمير مؤنبًا إياه على قراءة تلك المجلدات المفسدة. وكره ديونيسيوس العظيم أن يرتكب معصية ما فشرع يجادل نفسه فيما عساه أن يفعله. وفجأة رأى رؤيا أرسلها الله (كما يقر بلسانه في إحدى رسائله) تؤكد له صواب ما يفعل بالكلمات التالية: **اقرأ أية كتب تحصل عليها ، فأنت تتمتع بما يكفي لإصدار الحكم الصائب وفحص كل مسألة بنفسك.** وكان مما شجعه على قبول هذه الرؤيا، وفقًا لما يعترف به، أنها تتفق مع كلمات الرسول إلى مؤمني تسالونيكي، وهي جربوا كل شيء واستمسكوا بما هو خير. وربما كان له أن يضيف كلمات أخرى جاءت على لسان المؤلف نفسه وهي عند الطاهر جميع الأشياء طاهرة، لا اللحوم والمشروبات وحسب بل المعرفة بشتى ضروبها، سواء كانت معرفة بالخير أو بالشر، فالمعرفة لا تُفسِدُ، والكتب إذن لا تُفسد، إذا لم يتطرق الفساد إلى الإرادة والضمير.

فالكتب مثل اللحوم والطعوم، بعضها خير وبعضها شر، ولكن الله يقول في تلك الرؤيا الصادقة: انهض يا بطرس فاذبح وكُلْ،

تاركًا الخيار لتقدير كل فرد على حدة. فاللحوم الطيبة لا تكاد تختلف عن الخبيثة إذا كانت المعدة فاسدة، وأفضل الكتب قادرة على أن تحث على ارتكاب الشر إذا كان الذهن فاسدًا، ويندر أن تستطيع اللحوم الخبيثة أن تصبح غذاءً طيبًا لأصح الأصحاء، ولكن الكتب الخبيثة تختلف هنا عنها، فإنها تساعد القارئ الحصيف الحكيم، من عدة زوايا، على أن يكتشف ويدحض ويحذر ويضرب الأمثلة. وهل تتوقعون مني استشهادًا بشاهد أفضل من أحدكم، عضو البرلمان الحالي، ورئيس العلماء ذائعي الصيت في هذا البلد، ألا وهو السيد سيلدن؟ لقد وضع كتابًا عن القوانين الطبيعية والقومية يثبت فيه، لا استنادًا إلى كبار الثقات الذين جمع آراءهم وحسب بل أيضًا ببراهين ونظريات رائعة تثبت بمناهج تشبه مناهج الرياضيات أن جميع الآراء، بل والأخطاء، إذا عرفها المرء وقرأها وقابل بعضها بالبعض، وجد فيها خير سند ومساعدة على الوصول بأسرع الطرق إلى الحقيقة الحقة. وهكذا فأتصور أن الله عندما وَسَّعَ نطاق الأغذية لبدن الإنسان في كل مكان، باستثناء مراعاة قواعد الاعتدال دائمًا، فإنه كذلك وعلى غراره وهب الإنسان حرية تغذية عقله وإطعامه، استنادًا إلى أن كل إنسان ناضج لابد له من ممارسة طاقته على التمييز.

ما أعظم فضيلة الاعتدال، وما أشد أهميتها في جميع مراحل حياة الإنسان! ومع ذلك فإن الله يعهد بهذه الأمانة العظمى، من دون قانون محدد أو فرض ملزم، إلى سلوك كل إنسان ناضج. وهكذا فعندما أنزل من عنده مائدة من السماء على اليهود، وكان لكل منهم نصيب يَوْمِيٌّ من المَنِّ والسَّلْوَى قدره مكيال «عومر» واحد، حسب المختصون أن ذلك المقدار

كان يزيد عما يكفي لإطعام صاحب الشهية القوية ثلاث وجبات في اليوم. ولم يشأ الله أن يفرض القيود الملزمة على ما يتعرض له إنسان من فعال لا على ما يفعله، فما يتعرض له لا يفسده، وهو لا يفرض القيود حتى لا يعيش المرء حياة طفولة دائمة، ولكن الله أنعم عليه بنعمة العقل وحَمَّلَهُ هذه الأمانة حتى يختار ما يريد. وما كان للوعظ أن يقوم بأي مهام لو قُدِّرَ للقانون وللإلزام وضع قيود صارمة على ما هو من مهام النصح والإرشاد. يقول لنا سليمان: إن كثرة القراءة مرهقة للبدن، ولكنه لم يقل لنا، ولا قال لنا غيره من المؤمنين: إن هذا النوع من القراءة أو ذاك مُحَرَّم، ولا شك أن الله لو رأى خيرًا في وضع حدود لنا هنا لكان من الأنسب أن يحدد لنا ما هو محرم لا ما يرهق البدن. وأما قيام من هداهم القديس بولس بإحراق الكتب الإفسوسية، فمردود عليه بأنها كانت في السحر، وهو المنصوص عليه باللغة السريانية: لقد كان عملاً فرديًا، وعملاً طوعيًا، ويترك لنا محاكاة طوعية، فالذين أحسوا بالندم أحرقوا كتبًا كانوا يملكونها، ويدلنا هذا المثال على عدم تعيين قاض للفصل في القضية، فإذا كانوا يمارسون ما تقول به الكتب فربما قرأها شخص آخر ووجد فيها فائدة من نوع ما.

نعلم أن الخير والشر لا ينفصلان في هذا العالم، مثلهما مثل الشجر الملتف الأغصان في حقول هذه الدنيا، وإدراك الخير مشتبك مع إدراك الشر ومختلط به بل إنهما كثيرًا ما يشتبكان ويشتبهان حتى ليصعب التفريق بينهما. وما أشبه ذلك بالعقاب الذي فُرِضَ على سايكي حين قُدِّمَتْ إليها بذور منوعة مختلطة، وفُرِضَ عليها أن تفصل بين كل نوع منها، لقد تسبب مذاق تفاحة واحدة في جلب المعرفة بالخير والشر إلى هذا العالم باعتبارهما توأمين ملتصقين. وربما كان هذا القَدَرُ الذي

انساق إليه آدم بمعرفة الخير والشر هو أن يعرف الخير عن طريق الشر. ومن ثم فإن حال الإنسان اليوم يطرح السؤال التالي: أنّى لنا أن تتأتّى حكمة الاختيار أو الفضيلة والصبر دون أن نعرف ما الشر؟ إن من يستطيع أن يدرك وينظر في الرذيلة بكل طُعْم تقدمه وبكل متعها الظاهرية ثم يمتنع عليها، ويستطيع تمييزها، مفضلاً عليها ما هو خيرٌ منها حقًا هو المسيحي ذو العمل الصالح حقًا.

لا أستطيع امتداح فضيلة هاربة تعيش في عزلة، لا يمارسها أحد ولا ينطق بها أحد، أي الفضيلة التي لا تخرج من مكمنها حين ترى خصمها بل تنسلُّ خفية منسحبة من السباق، وهو الذي يحظى الفائز به بإكليل الخلود، وفي مضماره لابد أن يثير الغبار وينضح بالعرق. ونحن قطعًا لا نأتي بالبراءة إلى الدنيا، بل الأحرى أن نقول إننا نأتي بالدنس، ولا يطهرنا منه غير التجربة، والتجربة لا تكون بغير نقيضه. وإذن فالفضيلة التي تبدو كالغِرِّ اليافع في تأمل الشر، ولا تعرف أقصى ما يَعِدُ الشَّرُّ به أتباعَهُ، ثم ترفضه، فضيلة خاوية لا فضيلة طاهرة، وما بياض بشرتها إلا بياض فقر الدم. وكان ذلك هو السبب الذى جعل شاعرنا الجاد الحكيم إدموند سبنسر - وهو الذي لا أتردد في القول بأنني أراه مُعَلِّمًا أفضل من الفيلسوف سكوتوس أو القديس طوما الأقويني - حين أراد أن يصف الاعتدال الحق ممثلاً في شخص جيون، يأتي به مع الحاج الذي يرافقه إلى كهف مامون رب الثراء والذهب، وإلى خميلة النعيم الأرضي حتى يرى ويعرف ورغم ذلك يمتنع. وما دامت معرفة الشر واستقصاء الرذيلة في هذه الدنيا لازمين لبناء فضيلة الإنسان، مثلما يُعتبر رصد الخطأ تأكيدًا للصواب، فكيف نجد سبيلاً أكثر أمنًا وأقل تعرضًا للخطر لاستكشاف أصقاع الخطيئة والزيف من

قراءة جميع ما يُكْتَبُ والإصغاء لشتى الحجج؟ وهذه هي الفائدة التي يمكن أن نجنيها من قراءة الكتب على اختلاف أنواعها.

وأما عن الضرر الذي قد ينشأ فعادة ما يشار إلى ثلاثة أنواع: الأول هو الخوف من احتمال انتشار «العدوى» ، ولكن لو كان الأمر كذلك لوجب أن نُخْرِجَ من الدنيا كل المعارف الإنسانية والجدل حول المسائل الدينية، بل والكتاب المقدس نفسه، إذ كثيرًا ما يقص قصص التجديف في الدين بأسلوب فظ، فيصف المتع الحسية التي يمارسها الأشرار بأسلوب غير لطيف، ويصور عددًا من أبرز رجال الدين وهم يتحادثون همسًا بما يعارض العناية الإلهية من خلال الحجج الأبيقورية؛ كما إنه، في بعض المجادلات الكبرى الأخرى، لا يأتي إلا بما يستريب القارئ العادي به ولا يفهمه بوضوح. بل واسأل كاتب التلمود مما ضره لو ضبط النص بالشكل بدلاً من ذكر الحركات في الهامش، وهو الذي أدى إلى عجز موسى وجميع الأنبياء عن نطق كلمات المتن. ولهذه الأسباب نعرف جميعًا أن البابويين يضعون الكتاب المقدس نفسه في المرتبة الأولى للكتب المحظورة. ولو كان الأمر كذلك، كما قلت، فلابد مـــن إقصاء أعرق آباء الكنيسة، مثل كليمنت السكندري، وذلك الكـــتاب الذي وضعه يوزيبيوس عن الإعداد الإنجيلي، وهـــو الذي يهيئ آذاننا من خلال حشد من البذاءات الوثنيـــة لاستقبال الإنجيل. ومن ذا الذي ينكـــر أن إيرينيوس، وإبيفانيوس، وجيروم وغيرهم يكشفون عن عدد كبير من البدع المارقة يزيد عما يستطيعون دحضه، وأنه يكثر أن تكون البدعة أقرب إلى الرأي الحقيقي؟

ولا فائدة من القول لصالح هؤلاء، ولصالح جميع الكُتَّاب الوثنيين الناقلين لأكبر قدر من العدوى، إن جارينا تلك الحجة،

وهم الذين ارتبطت حياة المعارف الإنسانية بهم، إنهم كانوا يكتبون بلغة مجهولة، ما دمنا نعرف قطعًا أن هذه اللغات كان يعرفها أسوأ البشر، وهم الذين يتمتعون بأكبر قدرة وأعظم اجتهاد في نشر السموم التي امتصوها، أولاً في قصور الأمراء لتعريفهم بأفضل مباهج الخطيئة وانتقاداتها. وربما كان ذلك ما فعله بترونيوس الذي كان نيرون يقول إنه الحَكَمُ الذي يرجع إليه، وكان في الواقع مدير حفلاته الماجنة، كما كان الفاحش الذي ساءت سمعته في مدينة أريتزو، فكان رجال البلاط يخشونه ويكنون له الإعزاز. ولن أذكر اسم شخص آخر حتى لا يذكره الخَلَفُ، وهو الذي كان هنري الثامن يصفه هازلاً بأنه راعي أبرشيته في جهنم. وبمثل هذا الأسلوب المختصر سوف تجد جميع ضروب العدوى التي تستطيع الكتب الأجنبية نقلها طريقًا مُعَبَّدًا إلى الناس، بل قل طريقًا أيسر وأقصر من رحلة إلى الهند، سواء أكانت سوف تتجه شرقًا شمالي الصين أم غربًا عبر كندا، في حين تظل قوانين الترخيص الإسبانية تكمم أفواه المطابع الإنجليزية بقسوة لم يسبق لها مثيل.

ولكننا نرى على الجانب الآخر أن العدوى التي تنقلها كتب الخلاف الديني أشد إثارة للشكوك وأعظم خطرًا على المتعلمين منها على الجهلاء، ومع ذلك فإن المسئول عن إصدار التراخيص لا بد أن يسمح بنشرها دون مساس بمضمونها. ولسوف يكون من العسير أن نجد حالة تعرض فيها رجل جاهل للغواية من كتاب بابوي بالإنجليزية إلا إذا زكاه له وشرحه بعض رجال الدين البابويين، والحق أن أمثال هذه الكتب كلها، زائفة كانت أو صحيحة، تشبه نبوءة إشعياء للخصي في استحالة فهمها دون مرشد. ولقد خبرنا أخيرًا ما أحزننا ألا وهو كيف أدت شروح اليسوعيين والسوربونيين

إلى إفساد عدد كبير من قساوستنا وعلمائنا، والسرعة الفائقة التي نقل بها هؤلاء الفساد إلى الشعب. لم ننس ذلك، منذ أن انحرف أرمينيوس الألمعي المتميز بمجرد أن قرأ كُتَيِّبًا مجهول المؤلف كتب في دلفيت، وكان قد اعتزم دحض ما فيه عندما وضع يده عليه أول مرة.

وإذن فلما كنت أرى أن هذه الكتب التي من المحتمل أن تُلَوِّثَ الحياة والمذهب معًا، وهي متوافرة بأعداد هائلة، من المحال منعها من دون سقوط العلم وكل مقدرة على إقامة الحجة؛ وأن هذه الكتب بنوعيها تؤثر تأثيرًا سريعًا وبالغًا في المتعلمين الذين يمكن أن ينتقل منهم دون إبطاء كل ما يتسم بالمروق والانحلال إلى العوام؛ ولما كنت أرى أيضًا أن فساد الأخلاق يمكن أن يتعلمه المرء «خير» تعليم دون وجود الكتب، وبألف طريقة لا يمكن لأحد إعاقتها، وأن مذهب الشر قادر على التكاثر من دون الكتب، ما دام يتوافر من يلقنه ويدل عليه، وقد لا يحتاج في ذلك إلى الكتابة ومن ثم من المحال أن يُحْظَرَ، فإنني لا أستطيع أن أبسط لكم كيف يمكن لهذا المشروع الخبيث، أي الترخيص بنشر الكتب، ألا يصادف في تنفيذه عددًا من حالات الإخفاق بل والمحاولات التي تذهب أدراج الرياح، بل إن من ينظر إليه بعين الرضا لن يفلح في تفادي تشبيهه بذلك الشهم الذي تصور أنه يستطيع حبس الغربان إذا أغلق باب الحديقة.

وثَمَّ مصدر صعوبة آخر وهو أننا إن قلنا: إن العلماء أول من يتلقى الكتب وينشر الرذيلة والضلال، فكيف نثق في الذين يصدرون التراخيص، إلا إن استطعنا أن نضفي عليهم شمائل العصمة من الزلل واستحالة الوقوع في الفساد، أو قل إذا كانوا هم يفترضون أنهم فوق جميع من عداهم في البلاد؟ ولأَقُلْ من جديد إنه لو كان من الصحيح أن الحكيم

العاقل يشبه مُسْتَخْرِجَ الذهب الناجح الذي يستطيع تخليص التبر من كتاب غاصٍّ بالنفايات، وأن حمق الأحمق لن يتغير بقراءة أفضل الكتب، بل دون كتب، فلا أرى سببًا يمنعنا من حرمان الحكيم من مزية حكمته، أو منع الأحمق من قراءة كتاب فاسد، فذلك الممنوع لن يكون عائقًا أمام حمقه، إذ إننا إذا شئنا الحرص إلى أبعد حد ودائمًا على عدم تمكينه من قراءة ما لا يناسبه، فعلينا في رأي أرسطو، بل في رأي سليمان ورأي مُخَلِّصِنَا، ألا نقدم له خيار الأفكار، وعلينا من ثَمَّ ألا نقدم له، راضين، الكتب الجيدة. فالمؤكد أن الحكيم سوف يزيد انتفاعه بكتيب تافه عن انتفاع أحمق بنص من الكتاب المقدس.

ويُزْعَمُ ثانيًا أن علينا ألا نُعَرِّضَ أنفسنا لضروب الغواية دونما ضرورة، وبعدها ألا نشغل أوقاتنا فيما هو باطل. وسوف أكتفي بإجابة واحدة على هذين الاعتراضين، وسأَبْنِيهَا على الأساس الذي أَرْسَيْتُه من قبل، ألا وهي أن مثل تلك الكتب لا تعتبر إغواءً لجميع الناس، كلا ولا هي باطل، بل إنها عقاقير ومواد مفيدة نستخدمها في إعداد وتجهيز أدوية قوية وفعالة، لا يمكن لحياة الإنسان أن تفتقر إليها. وأما سائر الناس فإنهم مثل الأطفال أو الرجال ذوي الطفولة الذين لا يجيدون فن مزج هذه المواد المعدنية وإعدادها فمن المستحب حثهم على تجنبها، ولكنه من المحال أن يُمْنَعُوا قَسْرًا من مقاربتها بكل وسائل الترخيص بالنشر التي يستطيع ابتكارها جهاز محاكم التفتيش الذي يضفي على نفسه القداسة. وهذا ما وعدتُ بالحديث عنه بعدما سبق، ألا وهو أن قانون الترخيص المذكور لن يحقق الغاية التي سُنَّ من أجلها، وهو ما كاد يمنعني من ذكره، بسبب وضوحه في غضون شرحي لمسائل كثيرة سواه. فانظر إلى عبقرية الحقيقة كيف تكشف عن

نفسها، حين تمتد إليها يد العَوْنِ حُرَّةً راغبة، بسرعة لا تدانيها سرعة المنهج العلمي والحديث المنطقي.

كانت تلك هي المهمة التي بدأت بها، أي تبيان أن التاريخ لم يشهد أمة أو دولة قامت على أسس سليمة تلجأ يومًا ما، إن كانت تكن أدنى تقدير لقيمة الكتب، إلى أسلوب الترخيص المذكور، وقد يقول قائل ردًا على ذلك: إن هذه الحكمة لم تُكْتَشَفْ إلا منذ عهد قريب. ورَدِّي على ذلك أن الأمر كان في الماضي بديهيًا ولا يكاد يحتاج لوضوحه إلى إنعام النظر فيه، ولو كان اكتشافه عسيرًا لبرز من يشير إليه ويبينه منذ زمن بعيد، ولما لم يكن أسلافنا يطبقون المنهج المذكور فقد خلفوا لنا من الأحكام ما يثبت أن عدم تطبيقهم له لم يكن يرجع إلى الجهل به بل إلى عدم موافقتهم عليه.

فلننظر إلى أفلاطون صاحب السلطة الرفيعة حقًا، على الأقل في كتابه المسمى «الجمهورية» : إننا نراه في الكتاب الذي ضَمَّنَهُ ما وضع من «قوانين»، وهو الذي لم تتقبله مدينة واحدة على مر التاريخ، وقد جعل يغذي خياله بابتكار قوانين كثيرة لرؤساء مدينته الوهميين، وهي القوانين التي يتمنى من يعجبون بالرجل لأسباب أخرى أن تُدْفَنَ وتُلْتَمَسَ الأعذار لها في غمار رشف أقداح القهوة البشوش أثناء سهرة أكاديمية مديدة، إذ يبدو في القوانين المذكورة أنه لا يسمح بأي لون من ألوان العلم سوى ما نَصَّ عليه قانونه الذي لا يتغير قط، وينحصر ذلك العلم في معظمه في بعض التقاليد العملية، والتي قد تضمها معًا مكتبة صغيرة قد لا تصل إلى حجم «الحوارات» التي وضعها هو نفسه. ويقضي قانونه أيضًا بألا يُسمح لأي شاعر بأن يقرأ شعره على غيره من الأفراد إلا بعد اطلاع القضاة وحماة القوانين على ما كتبه وسماحهم بذلك. ولكننا

نرى بوضوح وجلاء أن أفلاطون كان يقصد تطبيق هذا القانون في الجمهورية التي تخيلها وحسب، لا في سواها. إذن فلماذا لم يطبق قانونه على ذاته، بل كان مخطئًا نفاه القضاة الذين يبدي الرضا عنهم، لسببين: الأول الإبجرامات والحوارات المنحلة التي كتبها، والثاني مداومته قراءة كتابات سوفرون ميموس وأريستوفانيس، وهي كتب يجللها أكبر العار، وأيضًا بسبب امتداحه للكاتب الأخير، رغم أنه كان يُشَهِّرُ ويُعَرِّضُ بأهم أصدقائه، وتزكية كتب أريستوفانيس للطاغية ديونيسيوس، وهو الذي لم يكن يحتاج إلى إنفاق وقته في قراءة ذلك الهراء؟ ولكنه كان يعرف أن الترخيص بنشر الشعر كان يستند إلى شروط كثيرة أخرى وضعها في جمهوريته المتخيلة، وهي التي لا مكان لها في هذه الدنيا. وهكذا فقد امتنع هو نفسه، مثلما امتنع جميع القضاة وامتنعت جميع المدن عن اتباع هذا المنهج، وهو الذي يعتبر - بغض النظر عن أية أوامر أو نواهٍ ثانوية - باطلاً لا غناء فيه. إذ إنهم إذا اتخذوا موقفًا صارمًا من شيء ما فإن هذا الموقف وما يبذلونه فيه من الجهد لن يفضي إلى شيء إلا إذا كانوا يتمتعون بالكفاءة التي تمكنهم من تنظيم جميع الأشياء الأخرى القادرة مثله على إفساد النفس والذهن، فهم إن لم يفعلوا ذلك يكونون قد دعموا وأغلقوا بابًا واحدًا في وجه الفساد وتركوا مضطرين أبوابًا كثيرة حوله مفتوحة على مصاريعها.

وإذا فكرنا في تنظيم الطباعة ابتغاء تقويم الأخلاق فعلينا تنظيم جميع ضروب الترفيه والتسلية، وكل ما يُدْخِلُ البهجة في قلب الإنسان. ومن ثم فلا تُسمع موسيقى، ولا تُؤلف أنشودة أو تُغَنَّى، إلا الجاد والوقور من هذه وتلك. كما يجب أيضًا اشتراط ترخيص الرقص للرجال والنساء، وعدم

تعليم أبنائنا وبناتنا أية إيماءات أو حركات أو أنماط سلوك إلا ما يعتبر في رأي المراقبين شريفًا، مستشهدين بأفلاطون. ولسوف نحتاج إلى جهد أكثر من عشرين رقيبًا لفحص جميع الآلات الموسيقية، كالعود والكمان والجيتار، في كل منزل، وينبغي عدم السماح لها بالثرثرة فيما تتغنى به بل يجب فرض الرقابة على ما تتفوه به. ومن ذا الذي سوف يكتم أصوات الألحان وقصائد الغزل التي تنطق همساتها بالرقة في المنازل؟ ويجب ألا نغفل النوافذ والشرفات، كما تُعرض للبيع للناس كتبٌ بالغة الحصافة تزينها في مستهلها لوحات خطرة، فمن ذا الذي سوف يحظرها، هل يكفي عشرون رقيبًا؟ كما يجب كذلك إرسال المراقبين إلى القُرَى للتحرِّي عما تقرؤه آلات موسيقى القرب وآلة الربابة، بل وكلمات المواويل وشتى أنغام عازف الربابة القروي، فهذه حدائق القروي الهادئة وتلال هنائه.

ولنتساءل بعد ذلك إن كان ثم فساد يشيع في هذا البلد ويجلل اسم إنجلترا بالعار في الخارج أكبر من الشراهة التى نبديها في منازلنا: من ذا الذي يتولى تقويم عربدتنا اليومية؟ وما الذي نستطيع أن نفعله حتى نُقَوِّمَ الجماهير التي تغشى الحانات التي يباع فيها السُّكْرُ وتُحفظ فيها الخمور؟ كما يجب أن تعرض ملابسنا على رقباء من كبار الحائكين «الرؤساء» حتى لا يسمحوا إلا بطرز أقل خلاعة. ومن ذا الذى سوف ينظم الأحاديث المختلطة لشبابنا، ذكورًا وإناثًا معًا، كما جرت عليه عادة هذه البلد؟ ومن ذا الذي سوف يحدد موضوع الأحاديث ويقصر نطاق الأفكار على حد معين؟ وأخيرًا من تُراه يستطيع منع واستبعاد كل العابثين اللاهين، وجميع أصدقاء السوء؟ لسوف تستمر هذه الظواهر، بل لا مناص من استمرارها، وأما كيف نقلل من ضررها إلى أدنى حد ممكن، ونخفف من غوايتها للناس،

فهو المهمة الخطيرة التي تتولاها الدولة وتفصح في تنفيذها عن حصافة الحكم.

لن يصلح من أحوالنا يومًا ما أن نتصور إمكان العيش في مدينة فاضلة خيالية مثل أطلانتيس أو يوتوبيا، فمن المحال الانتفاع بذلك عمليًا، بل علينا أن نصدر القوانين الحكيمة في دنيا الشر التي نعيش فيها، والتي قضى الله بوضعنا فيها ولا راد لقضائه. بل ولن يستطيع ما نص عليه أفلاطون من ضرورة ترخيص الكتب تحقيق ذلك، فمثل هذا الترخيص لا بد أن يجرنا إلى أنواع كثيرة أخرى من الترخيص، وهو ما من شأنه أن يجعلنا مثار السخرية ويجر علينا المتاعب بل وينتهي بالإحباط. وأما تلك القوانين غير المكتوبة، أو التي لا تمثل قيودًا على الأقل، والخاصة بالتربية الفاضلة، والتنشئة الدينية والمدنية، والتي يذكرها أفلاطون باعتبارها الروابط التي تشد أطراف الدولة بعضها إلى بعض، وباعتبارها العُمُدَ التي تساند وتغذو جميع اللوائح المكتوبة، فإنها هي التي تكون لها السيادة في أمثال هذه المسائل، وعندها يتيسر تفادي شتى ضروب الرقابة والترخيص. والمؤكد أن الإفلات من العقاب والتقصير والتهاون آفة أية دولة، وأما غاية الحذق فتكمن في إدراك ما يجب على القانون أن يحظره ويعاقب مرتكبه، وإدراك الأمور التي يجب التوسل فيها بالإقناع وحسب.

وإذا كان كل فعل يفعله المرء، سواء كان خيرًا أو شرًا في سنوات النضج، سوف يكون رهنا بالقسر والإلزام والإجبار، فهل تزيد الفضيلة عن كونها مجرد اسم، وأي مديح يمكن أن يلقاه فعل الخير، وأي مزية يمكن أن يتحلى بها الرزين أو البر أو العاقل؟ قد ينعي الكثيرون على العناية الإلهية أن تركت آدم يقترف الإثم، فما أحمق تلك الألسنة! إن الله حين

وهبه العقل وهبه حرية الاختيار، فما العقل إلا الاختيار، وإن لم يوهب العقل لأصبح كائنًا مصطنعًا كأنما هو آلة صماء. ونحن أنفسنا لا نعلي قدر الطاعة أو الحب أو الهدايا إن جاءت قسرًا، ومن ثم فقد تركه الله حُرًّا، ووضع أمامه شيئًا مُحَرِّضًا، بل كاد أن يكون دومًا أمام ناظريه. وفي هذا يكمن امتيازه، ويكمن حقه في المكافأة، وفي امتداح امتناعه. ولماذا خلق الله مشاعر في أعماقنا، ونثر الملاذَّ والمسراتِ حولنا، إلا حتى تصبح إن نحن اعتدلنا في مقاربتها عناصر الفضيلة ومقوماتها؟

ليس من بين أصحاب النظرة الحصيفة إلى البشر من يتخيلون أنهم يستطيعون القضاء على الخطيئة بالقضاء على «مادة» الخطيئة، إذ إنها أولاً كومة هائلة يزداد حجمها في أثناء هدمها نفسه، وحتى إن نجحنا في تخليص بعض الأشخاص منها فترة مؤقتة، فلن ننجح في تخليص الجميع منها عندما يتعلق الأمر بقضية عامة شاملة مثل الكتب، وعندما نفعل ذلك فلسوف تظل الخطيئة كاملة غير منقوصة. بمعنى أنك إذا أخذت من شخص طماع كنزه كله، لابد أن تبقي في يده جوهرة واحدة، أي إنك لن تستطيع أن تحرمه من طمعه. تستطيع إزالة كل ما يثير الشهوة، وأن تحبس الشباب كلهم في أقسى نظام صارم تمكن ممارسته في أي دير، ولكنك لن تستطيع أن تحيل من لم يكن يتحلى بالعفة حين دخل الدير إلى شخص عفيف. والواقع أننا في حاجة إلى الحرص الشديد والحكمة في معالجة هذه القضية معالجة صحيحة. ولتفترض أنك استطعت التخلص من الخطيئة بهذه الوسيلة، ثم وازن بين ما تستطيع أن تتخلص منه من الخطيئة بهذه الوسيلة وبين ما تتخلص منه من الفضيلة في غضون ذلك، إذ إن الوضع لا يختلف من هذه إلى تلك، فإذا أزلت واحدة أزلتهما معًا.

وهذا يبرر العناية الإلهية العليا لله، فهو يأمرنا بالاعتدال والعدل والتعفف، ومع ذلك يغدق علينا من النعم والرغائب ما يفوق كل وصف، ويهبنا عقولاً تصول وتجول فتتخطى كل حد وكل إشباع. لماذا إذن نأخذ بنظام صارم مناقض لأسلوب الله والفطرة، باختزال تلك الوسائل أو تقليلها، وهي المتاحة دون حدودٍ في الكتب لتحقيق غايتين معًا هما اختبار الفضيلة وتدريبنا على معرفة الحقيقة؟ وسوف نُصِيبُ إذا اعتبرنا ذلك القانون هازلاً ما دام يضع القيود على تلك الأشياء التي تعمل بصورة غير ثابتة في سبيل الخير والشر معًا وفي الوقت نفسه. ولو خُيِّرْتُ لاخْتَرْتُ مثقال درهم واحد من فعل الخير على ما يزيد وزنه أضعافًا مضاعفة على ذلك من حظر فعل الشر بوسائل قسرية. فلاشك أن الله يرى أن نمو رجل فاضل وكماله أفضل من فرض القيود على عشرة أشخاص.

وعلى الرغم من أننا نستطيع أن نعتبر أن ما نراه أو نسمعه، جالسين أو سائرين أو متفقهين أو متحدثين معًا وحسب، جدير بأن ندعوه «كتابنا» وأنه يحدث التأثير الذي تحدثه الكتابة، فإننا إذا افترضنا أن ما نحظره مقصور على الكتب، بدا لنا أن أمر الترخيص المذكور قاصر إلى أبعد مدى عن تحقيق الغاية التي يرمي إليها. أفلا نرى ما يحدث - لا مرةً أو مرتين بل في كل أسبوع - إذ يستمر رفع دعاوى السب والقذف على البرلمان وعلى مجلس المدينة، وكيف تُطْبَعُ نصوص تلك الدعاوى، كما تشهد به الصفحات المبللة بحبر الطباعة، وتوزع علينا، برغم كل ما جاء في مرسوم الترخيص المذكور؟ ومع هذا فإن التصدي لذلك يمثل المهمة الأولى التي يستطيع هذا المرسوم إثبات نفسه فيها. وقد تَرُدُّونَ عَلَيَّ قائلين: هنا إذا نُفِّذَ

المرسوم. لكنه لا شك في أنه إن كان التنفيذ متراخيًا أو معصوب العينين الآن، وبصدد ذلك خصوصًا، فما عسى أن يكون حاله فيما بعد وفي كتب أخرى؟ ولو أننا أردنا إذن ألا يكون المرسوم قد صدر عبثًا وألا نحبط ما يرمي إليه، فلابد لكم يا أعضاء مجلسي اللوردات والعموم أن تبذلوا جهدًا جديدًا كيما تنسخوا وتحظروا تداول كل الكتب الفاضحة وغير المرخصة التي طُبِعَتْ من قبلُ ونُشِرَتْ، بعد أن تعدوا قائمة بها، حتى يعرف الجميع ما حكمتم بأنه ذميم أو غير ذميم، وكيما تأمروا بعدم السماح بتداول أي كتاب أجنبي قبل قراءته وفحصه. وسوف تتطلب هذه المهمة أن يتفرغ لها عدد غير قليل من المشرفين، وبحيث يكونون من الصفوة. كما توجد كتب أخرى بعض ما جاء فيها نافع وممتاز والبعض الآخر فاسد خبيث، ولسوف يتطلب النظر فيها عددًا موازيا من الموظفين اللازمين لحذف ما لابد من حذفه، وتطهيرها مما تحتاج إلى التطهير منه؛ حتى لا تتعرض دولة المعارف للإدانة واللعن. وفي النهاية، عندما تزداد أعداد الكتب التي ينظرون فيها، عليكم أن تصدروا قائمة بأسماء الناشرين الذين يثبت تكرارهم للمخالفات، وأن تحظروا استيراد كل ما يطبعونه من كتب تشتبهون فيها. وخلاصة القول أنكم إذا أردتم أن يتمتع مرسومكم بالدقة والكمال فلا بد لكم من تعديله حتى يتفق كل الاتفاق مع النموذج الصادر في مدينتي ترينت وإشبيلية، وأنا على ثقة أنكم تكرهون أن تفعلوا ذلك.

ومع ذلك فحتى لو تنازلتم، لا قدر الله ، وفعلتم هذا، فلسوف يظل المرسوم قاصرًا وعاجزًا عن تحقيق الغاية التي قصدتم إليها. وإذا كانت الغاية منع قيام الطوائف وضروب الفِتَنِ، فمن ذا الذي لم يسمع، بسبب أميته الثقافية وجهله بالتاريخ، عن الطوائف الكثيرة التي

لم تعترف بالكتب عائقًا، فاحتفظ كل منها بمذهبه نقيًا عصورًا طويلة، دون اعتماد على شيء سوى التقاليد غير المدونة؟ ومن المعروف أن العقيدة المسيحية، التي كانت بمثابة فتنة يومًا ما،قد انتشرت في شتى أرجاء آسيا قبل أن يُرى أيٌّ نصٍّ مكتوب للإنجيل أو لرسائل العهد الجديد. وأما إذا كان المراد تحسين الأخلاق فانظر في حالتي إيطاليا وإسبانيا وإن كانتا قد تحسنتا بمثقال خردلة أو ازدادتا شرفًا أو حكمة أو طهرًا منذ أن تعرضت الكتب في هذين البلدين للرقابة بصرامة محاكم التفتيش.

وإن أردتم سببًا آخر يوضح لكم أن المرسوم الذي أصدرتموه لن يحقق غايته المنشودة، فانظروا في الشمائل التي يجب أن يتحلى بها من يتولى الترخيص بنشر الكتب. لا يستطيع أحد أن ينكر أن الشخص الذي يُنَاطُ به تولي الحكم بمولد كتاب أو قتله لابد أن يتميز بالتفوق على ما هو معهود في غيره، فيجمع ما بين دأب الدرس والتبحر في العلم وحصافة الرأي، كما يجب ألا يخطئ أي خطأ مهما يكن طفيفًا في القطع بما هو مقبول أو مرفوض، فأي خطأ مهما يكن لا يستهان بضرره. فإذا كان يتمتع بالخصال الحميدة اللائقة به، فإن تكليفه بالتوفر طول الوقت على قراءة الكتب والكتيبات بل والمجلدات الضخمة في أحيان كثيرة أشدُّ إرهاقًا وبعثًا للضجر من الحِلِّ والترحال، وأشد إهدارًا منها للوقت. والواقع أننا لا نعتبر أي كتاب مقبولاً إلا في أوقات معينة، وهكذا فإذا أُمر أحدنا بأن يقرأ الكتب في جميع الأوقات، وقد كُتِبَ بعضُها بخطوطٍ لا تكاد تُقْرأ، وقد يكون من المحال قراءة ثلاث صفحات منها في أي وقت بعد «تبييضها» على أفضل صورة، فإنه يكون قد فرض عليه عِبْءٌ لا أعتقد أن أحدًا يقدر على تحمله

إذا كان يُقَدِّرُ قيمةَ وقته ودراساته الخاصة أو كانت لديه ذائقة معقولة. وفي هذا الأمر وحده أرجو من الرقباء الحاليين أن يصفحوا عني، أو عن هذا الرأي الذي عبرت عنه، فلقد تولوا القيام بهذا العمل، دون شك، معتقدين أنهم يطيعون البرلمان الذي أصدر هذا الأمر فجعل كل شيءٍ يبدو مُيَسَّرًا وغير مرهق لهم، ولكن الفترة القصيرة التي شهدت تنفيذ هذه المهمة قد أرهقتهم، ويكفي للشهادة على صحة ذلك ما يعتذرون به من عبارات وما يتذرعون به من ذرائع للمؤلفين الذين يقومون برحلات كثيرة إليهم طلبًا للترخيص بنشر كتبهم. وإذن فلما كنت أرى أن الذين يشغلون مناصب الرقباء الآن، استنادًا إلى جميع الدلائل الواضحة، يتمنون لو أنهم أُعْفُوا منها، ولا أرى من المحتمل أن يخلفهم فيها يومًا ما رجل عالي القَدْرِ، إلا إن كان رجلاً على استعداد صريح لإهدار وقته، وإلا إن كان يريد أن يقنع بأجر مصحح التجارب الطباعية، فلنا أن نتنبأ بسهولة بأنواع الرقباء المتوقعين في المستقبل، ما بين جاهل متسلط ومهمل أو طالب حقير للمال. وهذا ما كان عَلَيَّ تبيانه، إثباتًا لاستحالة تحقيق المرسوم للغاية التي يقصد إليها.

وأخيرًا أنتقل من عجز المرسوم عن الإتيان بخير إلى الأضرار الواضحة الناجمة منه، ما دام يمثل أولاً أكبر تثبيط وإهانة يمكن توجيهها للعلم والعلماء.

كان الكهنة، كلما سمعوا أحدًا ينبس ببنت شفة مقترحًا إلغاء شغل الكاهن أكثر من وظيفة كنسية واحدة ومطالبًا بتوزيع دخل الكنيسة بصورة أعدل، يجأرون بالشكوى والأنين قائلين: إن من شأن هذا تخريب العلم وتثبيط طلبه. وإزاء هذا الرأي، ما وجدتُ قط سببًا يجعلني أعتقد أن الكهنة يتمتعون ولو بعُشْرِ قدر من العلم، بل وما عدلت عن قولي

إن ذلك كان يمثل دعوى منحطة وحقيرة من أى كاهن بقي لديه من الكفاءة نصيب. فإذا كنتم إذن تكرهون التسبب في التثبيط الكامل والاستياء البالغ لا لفريق المرتزقة المتظاهرين بالعلم بل للأحرار ذوي النوايا السليمة الذين ولدوا للدراسة وفُطِرُوا بوضوح وجلاء عليها وأحبوا العلم لذاته لا للمال ولا لأية غاية أخرى غير ابتغاء وجه الله والحقيقة، وربما أيضًا ذيوع الصيت ودوام الإطراء اللذين يتفق الله والأخيار على أنهما الجزاء الوفاق للذين تأتي كتاباتهم المنشورة بالخير للبشرية، فاعلموا أنكم إذا اسْتَرَبْتُمْ في حُكْم وشرف رجل اشتهر بعلمه بين الناس ولم يُسِئْ لأحد حتى الآن، فَحَسِبْتُمُوهُ غيرَ جدير بأن ينشر رأيه مطبوعًا دون أن ينظر فيه مُعَلِّمٌ أو فاحص، خشية أن يثير الفتنة أو بعض ما يُعَدُّ فسادًا، فإنكم سوف تتسببون في أقصى تنغيص وأبلغ مهانة يمكن أن يتعرض لها رجل ذو روح حرة ذات علم.

بم يتميز بلوغ مرحلة الرجولة عن حال الصبي في المدرسة إن كنا لم نهرب من عصا المؤدب إلا لنواجه خيزُرانة التصريح بالطباعة، وإذا كانت الكتابات الجادة العميقة سوف تعامل معاملة التمرينات في كراسات النحو التي يُشرف عليها مُعَلِّمُ الصبيان، فَيُمْنعُ قولها دون أن تفحصها عينا الرقيب العابرتان وهو الرقيب الذي يخضع للسلطة وينصاع لمقتضيات وظيفته؟ إن من لا يوثق فيما يفعله، ما دام لمْ يُعرف عنه خبث الطوية، ويتعرض لمخاطر القانون والعقاب، لن يستطيع إقناع أحد بأنه قد اشتهر في الدولة التي ولد فيها إلا باعتباره أحمق أو من غير أبناء ديارنا. وعندما يوجه الرجل ما يكتبه إلى القراء في كل مكان في هذا العالم فإنه يستدعي طاقات ذهنه كلها وقدرته على التفكير، وهو يبحث ويتأمل ويجد ويجتهد، ومن المحتمل أن

يستشير ويناقش كل حصيف من أصدقائه، ثم يتعهد على نفسه بأن يبني ما يكتب على العلم وعلى من سبقه من الكُتَّاب. ولسوف يلقى المؤلف العار والانتقاص من قدره ومن قدر الكتاب ومن مزية العلم وكرامته، إذا لم يكن قد استطاع في كتابه الذي يمثل ذروة إخلاصه واستوائه أن يستعين بخبرة السنين الطويلة والجهد الدائب والطاقات الهائلة التي أثبت تمتعه بها في الوصول إلى مستوى النضج المنشود الذي يمنعه أن يظل قيد الشك والريبة، ويضطره إلى أن يحمل ثمار جده واجتهاده والليالي التي سهرها وزيت المصابيح الذي استهلكه، إلى رقيب مشغول حتى يلقي عليه نظرة متعجلة، وربما كان أحدث سنا منه بمراحل، وأدنى منه كثيرًا في صواب الحكم، وربما كان رجلاً لم يعرف قط ما يبذل من جهد في كتابة الكتاب، فإذا لم يلق كتاب المؤلف الرفض أو الاستهانة، فلسوف يبدو عند طباعته مثل إنتاج الصغير الذي يرافقه الوصي عليه، وقد وَضَعَ الرقيبُ يده على ظهر العنوان بمثابة كفيلٍ له وضامنٍ بأنه ليس من الحمقى أو المُغْوِين، وذلك ما أعنيه بالعار والانتقاص من المؤلف ومن الكتاب ومن مزية العلم وكرامته.

وما عساه أن يحدث إذا كان المؤلف ذا خيال بالغ الخصب، بحيث تخطر له أفكار كثيرة جديرة بالإضافة إلى الكتاب حقًا بعد الترخيص بطبع الكتاب، وأثناء وجود الكتاب في المطبعة، وهو غير نادر الحدوث لأفضل الكُتَّابِ وأشدهم عناية وحرصًا، وربما يتكرر ذلك اثنتي عشرة مرة في كتاب واحد. لن يجرؤ رجل المطبعة على تجاوز المخطوط المرخص به، وإذن فكثيرًا ما يضطر المؤلف إلى أن يمضي متثاقلاً إلى واهب التصريح طالبًا منه النظر في إضافاته الجديدة المعتزمة، وكم من الرحلات عليه أن يقوم بها

قبل أن يجد ذلك الرجل، إذ لا بد أن يكون الرجل نفسه، أو قبل أن يجد أنه في عطلة. وفي هذه الأثناء إما أن تتوقف المطبعة، وفي هذا ما فيه من الخسائر المادية، وإما يفقد المؤلف أدق أفكاره فيعيد الكتاب في حال أسوأ مما كان عليه، وذلك في نظر الكاتب المجتهد أكبر مصدر للحزن والإزعاج يمكن أن يصادفه.

وكيف يتسنى لإنسان أن يُعَلِّمَ غيره من موقع الثقة، والثقة روح التعليم، أو قل كيف يشغل في كتابه موقع العالم، كما ينبغي له، وإلا فالصمت له أفضل، إذا كان ما يعلمه، وكل ما يقدمه، يخضع لتعليم غيره أو لتصويب من سيصدر الترخيص له من موقع السلطة الأبوية ما دام من حقه أن يطمس أو يغير ما لا يتفق مع المزاج المتزمت وضيق الأفق الذي يسميه حُكْمَه؟ ومن المحتمل أن ينطق بعبارات مثل هذه كل قارئ حاد الذكاء حالما يلمح الترخيص المتحذلق وأن يُلْقِيَ بالكتاب بعيدًا عنه. إنني أكره المعلم التلميذ، ولا أصبر على مُعَلِّم يأتيني تحت وصاية قبضة المشرف عليه. إنني لا أعرف الرقيب، ولكنني أَعرف خطه الذي يفصح عن غطرسته، ومن ذا الذي يضمن لي صواب حُكْمِهِ؟ ولسوف يجيبك الناشر قائلاً: «الدولة تأتي بالرد السريع يا سيدي! ولابد أن يكون من يحكم عليَّ هو الدولة لا نُقَّادِي، والدولة قد تخطئ في اختيار الرقيب، بالسهولة التي قد يخطئ بها الرقيب في الحكم على المؤلف، وهذه أفكار معتادة شائعة» ، وربما أضاف عبارة مأثورة عن السير فرانسيس بيكون وهي: «ليست أمثال هذه الكتب المرخص بنشرها إلا لغة عصرها» ، إذ إنه حتى لو تصادف وكان الرقيب أكثر حصافة من المعتاد، وهو ما يشكل خطرًا على من يخلفه، فإن وظيفته والمهمة

المنوطة به أنفسهما تحثانه على عدم الموافقة على شيء إلا ما سبق للعوام أن تقبلوه.

بل لننظر فيما يبعث على أسف أكبر، فقد يقع في أيدي الرقباء عمل كتبه مؤلف مُتَوَفٍّ وإن لم يَحْظَ بالشهرة قط في حياته وربما إلى يومنا هذا، وكُلِّفَ الرقباء بالترخيص بطبعه أو إعادة طبعه، فإذا وجد الرقباء في هذا العمل جملة واحدة ذات حَدٍّ قاطع، نطق بها في ذروة حَمِيَّتِهِ (ومن يدري فقد تكون من وحي الملأ الأعلى؟) ولم تكن تتفق مع المزاج الخرف لهؤلاء الرقباء، ولو كان قائلها هو چون نوكس نفسه الذي أصلح مذهب مملكة بأسرها، فلن يصفحوا عن جرأته، وهكذا يضيع إلى الأبد المعنى الذي قصد إليه ذلك الرجل العظيم ولن يصل يومًا ما إلى الخَلَفِ، بسبب خوف رقيب آليّ الأداء أو بسبب تهوره وعجرفته. وأستطيع أن أضرب أمثلة للمؤلفين الذين تعرضوا لهذه الإساءة منذ عهد قريب، وللكتب البالغة الأهمية التي سوف تنشر كما كتبها مؤلفوها ولكنني سوف أؤجل ذلك إلى وقت أنسب.

لكنه إذا لم يُقَاوِمْ هذه الأمور مقاومة جادة وفي الوقت المناسب أولئك الذين يملكون علاجًا لها، تاركين أمثال هذه القوالب الحديدية باسطة سلطانها، مواصلة نحرها، حتى تقضي على أفضل الفترات التي شهدت كتابة أفضل كتب، وترتكب أحقر خُدْعَةٍ تخون فيها الكتب اليتيمة التي خلفها لنا موتانا، فلسوف تتضاعف أحزان سلالة كاملة من الناس الذين تُعْتَبَرُ قُدْرَتُهم على الفهم سوء حظ لهم. وهكذا فليقلع الناس منذ الآن عن الاهتمام باكتساب العلم، أو اكتساب ما يزيد عن الحنكة بشئون الدنيا، فالمقطوع به أن هناء الحياة لن يتحقق إلا بالجهل بالأفكار العليا وانتهاج الكسل، بل وأن يمارس المرء البلادة والغباء الشائع الذي يحقق

السرور ولا يُطْلَبُ سواه.

ومثلما يشكل المرسوم المذكور نقضًا لقَدْرِ كل رجل متعلم في قيد الحياة، ويصيب بأشد الأضرار ما خَلَّفَهُ الموتى من كتابات ومأثورات تنطق بجهودهم، فإنه يمثل في نظري انتقاصًا من قَدْرِ الأمة بأسرها وقَدْحًا في منزلتها. لا أستطيع أن أستهين بأن يُعْرَضَ كل ما لدى انجلترا من طاقة ابتكار، ومن فن وذكاء وأحكام عقلية صلبة رصينة على أفهام عشرين رقيبًا مهما تكن قدراتهم ومهما يكن امتيازهم، بل وأعارض بشدة ألا يسمح بنشر أيٍّ من ثمار هذا كله إلا بعد أن يقوموا بالنظر فيه، أيْ إلا بعد أن ينخلوه ويصفوه بمصفاتهم، بحيث لا يُتداول إلا بعد أن يصبح مختومًا بخاتم أيديهم. ليست الحقيقة وليس الفهم مما يُحْتَكَر ويُتَاجَرُ فيه ببطاقات ولوائح ومعايير، ولا ينبغي أن نتصور إمكان تحويل المعرفة كلها في هذا البلد إلى سلعة أساسية نضع لها علامات تجارية ونصدر لها التراخيص مثل الأقمشة من الجوخ والصوف. وهل يمثل ذلك إلا عبودية مثل التي فرضها الفلسطينيون في الكتاب المقدس، أي أن نُحْرَمَ من شحذ نصال فئوسنا وسيوف محاريثنا، بل أن نحملها ونقصد من جميع الجهات عشرين مسبكًا للحدادة حتى تشحذها لنا بإصدار التراخيص؟ ولو كتب أحد ونشر أفكارًا مغلوطة وشائنة للحياة الشريفة، منحرفًا ومسيئًا بل ونابذًا للتقدير الذي كان يحظى به بين الناس؛ ولو أنه بعد أن يُدَانَ لم يُحْكَمْ عليه إلا بأن يُحْرَمَ من نشر أي شيء يكتبه إلا بعد أن يفحصه أولاً موظفٌ معينٌ لهذا الغرض، وأن يضيف بخطه ما يدل على رضاه عنه حتى يستطيع الناس أن يقرءوا ما كتب في أمان، لكان في ذلك العقاب الشائن بل لا أقل من عقاب شائن. وهكذا

فإننا إذا عَرَّضْنَا الأمةَ كُلَّها، ومن لم يقترف قط مثل تلك الإساءة، لمثل هذا الحظر المريب والمشكوك فيه، فسوف نفهم بوضوح مدى ما يمثله من حط لأقدارنا جميعًا. والأدهى من ذلك أن المدينين والمنحرفين يسمح لهم بالخروج إلى الطرقات دون حارس ولكن الكتب غير المسيئة لا يسمح لها بالخروج إلى الناس دون وجود سجان مرئي في عنوان كل كتاب.

كما إن هذا لا يعتبر أقل من مَعَرَّةٍ أو مَذَمَّةٍ لعموم الناس، فإذا كنا سوف نفرض الرقابة عليهم بحيث لا نجرؤ أن نأتمنهم على كتيب بالإنجليزية فهل نضمر بهذا لهم إلا الملامة باعتبارهم شعبًا أهوج خبيثَ الطوية لا يستند إلى شيء، بل بلغ من اعتلال إيمانه وحصافته ووَهَنِهما أن غدا عاجزًا عن ابتلاع أي شيء إلا إن صَبَبْنَاهُ صبًا في بطنه بأنبوب الرقيب؟ لا نستطيع أن نتظاهر بأن هذا حرصٌ عليهم أو حبٌّ لهم، في حين أن العوام الذين يتعرضون لأكبر قدر من الكراهية والاحتقار في البلدان البابوية يتعرضون أيضًا لهذه المعاملة التي تنضح بالصرامة نفسها. ولا نستطيع أن ندعو ذلك حكمة، فإنه لا يمنع غير ضرب واحد من الانحلال، بل لا يمنعه حقا، وأما ضروب الفساد التى يسعى المرسوم إلى الوقاية منها فإنها تقتحم النفوس من أبواب يستحيل إغلاقها.

والمرسوم يَدْمَغُ بالعارِ كهنَتَنا أيضًا، وهم من كنا نرجو صورة أفضل لجهودهم، ولكفاءتهم التي تنعكس على المصلين في كنائسهم، مما يرسمه دعاة الرقابة الذين يتصورون بل يتوهمون - برغم ما في الإنجيل من نور يضيء لنا اليوم وغدًا، وبرغم مداومتهم إلقاء المواعظ - أن من يَؤُمُّ الكنائسَ طغامٌ أو دهماءُ لا مبادئ لهم ولا علم، بحيث تكفي نشقةٌ واحدةٌ من كُلِّ كتيب جديد لخروجهم مترنحين من حظيرة الإيمان

والعقيدة المسيحية. وقد يكون ذلك سببًا كافيًا لتثبيط همة الكهان ما دامت هذه الصورة المنحطة قائمة لكل ما يعظون به وكل ما يفيدون به سامعيهم، بحيث يُرى أنهم ليسوا أهلاً لكتابة ثلاث صفحات من دون رقيب، وجميع المواعظ وجميع المحاضرات التي أُلقيت وطُبعت ووُزِّعَتْ بأعداد كبيرة، وجميع هذه المجلدات التي شاعت حتى كادت تصرف الناس عن شراء أي كتب أخرى، لا تمثل درعًا تكفي للحماية من كتيب واحد، من دون الاحتماء بترخيص الطباعة الذي يمثل لديهم حصن القديس أنجلو.

ولئلا ينجح أحد في إقناعكم يا أعضاء مجلسي اللوردات والعموم بأن هذه الحجج التي تقول بأن مرسومكم المذكور يثبط همم العلماء ليست سوى كلمات جميلة لا تستند إلى الواقع، سأقص عليكم ما رأيته وسمعته في بلدان أخرى بلغ فيها هذا الضرب من «التفتيش» حد الطغيان. وأذكر كيف جلست مع علماء تلك البلدان، إذ إنني حُزْتُ ذلك الشرف، واعتبروا أنني سعدت بمولدي في بلد يتمتع بالحرية الفلسفية، وهو ما افترضوه في انجلترا، في حين أنهم لم يكونوا يفعلون شيئًا سوى الشكوى من حال الخنوع التي سقط فيها العلم عندهم، قائلين: إن ذلك هو الذي أدى إلى فتور القرائح الإيطالية، وإنه لم يكتب في السنوات الأخيرة وحتى الآن إلا الملق والكلام الطنان الأجوف. وهنا وجدت العالم الأشهر جاليليو، وزُرْتُهُ وقد تقدم به العمر، وغدا سجينًا في أيدي محاكم التفتيش لأن آراءه في علم الفلك كانت تختلف عن آراء الرقباء من الفرنسيسكان والدومينيكان.

ورغم أنني كنت أعلم أن انجلترا كانت آنذاك تصدر أعلى الأنّات وهي ترزح في نير الكهان، فإنني رأيت بارقة تبشر بالهناء في المستقبل ألا وهي

اقتناع الأمم الأخرى اقتناعًا راسخًا بحرية انجلترا. ولكم تمنيت أن يكون أولئك الكبراء آنذاك ينشقون هواء انجلترا فيقودون مسيرتها إلى الخلاص، وهو ما لن تمحو ذكراه أيٌّ دورة من دورات الزمن في هذه الدنيا. وما إن شَرَعْتُ في ذلك حتى تمنيتُ أيضًا بل كنت على ثقة أن كلمات الشكوى من محاكم التفتيش التي سمعتها من أفواه العلماء في البلاد الأخرى سوف تتكرر على أفواه العلماء الذين لا يقلون عنهم منزلةً في وطننا، وأن يجهروا بها وقت انعقاد البرلمان لمعارضة مرسوم الترخيص المذكور، وكنت أنظر إلى ذلك نظرة عامة حتى أنني حين بينت لهم أنني أشاركهم سخطهم واستياءهم وجدت ترحيبًا شديدًا بين الكثيرين الذين يجلونكم والذين تعرفونهم وتحترمونهم، والذين ألحوا عليّ إلحاحًا يزيد (وربما كان لي أن أقول هذا دون حسد) عن إلحاح الصقليين على المسئول الأمين الذي أحبوه بأن يعارض الحاكم ڤيريز، بل توسلوا إليّ وأقنعوني بألا أركن إلى اليأس من جمع شتات الأفكار التي يمليها المنطق العادل على ذهني، في سبيل تحطيم الأغلال التي تكبل العلم دون مبرر. وإذن فليس ما أقوله بمثابة تنفيس عن هوى صادفني، ولكنه الشكوى العامة التي يشترك فيها جميع من أعدوا أذهانهم وقاموا بدراسات تفوق المعروف عن السوقة، في سبيل تقدم الحقيقة عند الآخرين، وحث غيرهم على الاحتفاء بها، وقد يكون في ذلك الكفاية.

وهكذا فإنني باسمهم لن أخفي ما يتردد بين الجميع من أقوال عن عدو أو صديق، ألا وهو أننا إذا عدنا من جديد إلى التفتيش والترخيص، وازداد خوفنا من ذواتنا وازدادت ريبتنا بجميع الناس إلى الحد الذي يجعلنا نخشى كل كتاب واهتزاز كل ورقة قبل أن نعرف ما تحتويه، وإذا

كان بعض الأشخاص الذين كان من الأفضل منعهم من إلقاء المواعظ قد جاءوا الآن ليمنعونا من القراءة، إلا قراءة ما يرضون عنه، فلن نستطيع أن نحدس إلا أن المقصود ينحصر في إقامة طغيان جديد وسيطرة على العلم، وسرعان ما يثبت بلاجدال أن الأساقفة والمشايخ صنوان في أعيننا، اسمًا وكيانًا. ونحن نعرف حق المعرفة شرور الكهنة، وهم الذين كانوا يشغلون من قبل عددًا من الأسقفيات يتراوح ما بين خمسًا وعشرين وستًا وعشرين أسقفية تشارك فيما بينها في «رعاية» الشعب كله، ثم إذا بهم ينقضون بكل ثقلهم على العلم، وها نحن نرى كيف أن أحد «الرعاة» في أبرشية صغيرة ولا علاقة لها بالعلم قد ترقى فجأة فأصبح رئيس أساقفة يشرف على أسقفية هائلة زاخرة بالكتب، ولكنه لا يترك منصبه السابق بل يستبقيه فيجمع في الكنيسة ما بين منصبين، فإذا الذي لم يكن يُسمح له من قبل بأن يتولى وحده ترسيم قسيس جديد حصل لتوه على شهادة الليسانس، أو يسمح له بالانفراد بالولاية القضائية على أبسط أفراد الأبرشية، قد أصبح يضطجع الآن في كرسيه في منزله مهيمنًا على أروع وأجل وأعظم الكتب، وعلى أقدر من يكتبها من المؤلفين في الوقت نفسه.

وليس معنى هذا أيتها العهود والوعود التي قطعناها على أنفسنا! ليس معنى هذا القضاء على الكهان، ولكن معناه القضاء على النظام الأسقفي، ولا يعني هذا أكثر من تحويل السلطة في قصر رئيس الأساقفة من سيطرة معينة إلى سيطرة أخرى، وليس ذلك إلا حيلة ماكرة قديمة في الدين لتخفيف كفارة ذنوبنا. وإبداء الذعر على هذا النحو قبل أن ينشأ مبرر له من مجرد كتيب غير مرخص، سوف يتحول إلى التخوف من كل اجتماع

سِرِّيٌّ للعبادة، ولسوف يتحول ذلك إلى اعتبار كل اجتماع مسيحي اجتماعًا سِرِّيًا للعبادة. ولكنني واثق أن الدولة المحكومة بقواعد العدل والجَلَد، أو الكنيسة القائمة على أسس صلبة من الإيمان والمعرفة الحقة، لن تكون خائرة العزم إلى هذا الحد. فإذا كان الأمر غير منصوص عليه في الدين، فإن فرض القيود على حرية الكتابة بنظام يحاكي نظام كهنة روما، بعد أن تعلموه من محاكم التفتيش، وهو الذي يقضي بحبسنا جميعًا في صدر رقيب أوحد، أمر لابد أن يبث الشك والتثبيط في قلب كل متعلم وكل تقي ورع.

من ذا الذي لا يستطيع إدراك حذق هذا الانجراف المرسوم بدقة ومعرفة مدبريه؟ فعندما كان الأساقفةُ قيد السخرية، سُمح للمطابع كلها أن تفتح أبوابها، استنادًا إلى كون ذلك من حقوق الشعب الفطرية وامتيازاته في وقت انعقاد البرلمان، وكان يمثل انبثاق النور. أما الآن، وبعد إلغاء الأساقفة وإخراجهم من الكنيسة، فقد بدا كأنما كانت حركة الإصلاح الديني لدينا لا ترمي إلا إلى السماح لغيرهم بأن يشغلوا المقاعد نفسها تحت اسم آخر، إذ بدأت الفنون الأسقفية تتفتح براعمها من جديد، ومُنِعَ وَضْعُ الزيت في مصباح الحقيقة، وأصبح من المحتوم أن تُستعبد حرية الطباعة من جديد من خلال هيئة كهنوتية الطابع تتكون من عشرين عضوًا، وأُعلن أن حقوق الشعب وامتيازاته قد أُلغيت، بل حدث ما هو أسوأ، إذ إنه قد كتب على حرية العلم أن تئن من جديد وتوضع في أصفادها القديمة - كل هذا والبرلمان منعقد! ربما كانت حججهم وألوان دفاعهم الأخيرة في مناهضة الكهان قادرة على تذكيرهم بأن هذه الإعاقة العنيفة تؤدي في معظمها إلى نتيجة تناقض الغاية التي ترمي إليها، أى إنها بدلاً من قمع الانقسام

الطائفي والفتن سوف تؤدي إلى ذلك وتهيئ له ذيوع الصيت.

وكما يقول الفايكاونت سانت أولبانز: «إن عقاب كبار المثقفين يزيد من مرجعيتهم ، والكتابة المحظور تداولُها يُعتقد أنها تمثل شرارة حق موقدة في وجوه الذين يحاولون إطفاءها». وإذن فإن هذا المرسوم قد يثبت أنه مرضعة للطوائف، ولسوف أبين بسهولة كيف يتحول إلى كراهية الحقيقة كراهية زوجة الأب لابنته، وأول خطوة في هذا السبيل حرماننا من الحفاظ على ما هو معروف سلفًا.

لا أعْرَفَ بما أقول مِمَّنْ يدرك أنَّ الإيمان والمعرفة يزدهران ويترعرعان بالدربة والمران، شأنهما في ذلك شأن أطرافنا ووجوهنا. والكتاب المقدس يُشَبِّهُ الحقيقة بالنبع الجاري، فإذا لم تتدفق مياهه على الدوام، اعتل الماء وأصبح بركة موحلة من الأعراف والتقاليد. بل لقد يصبح المرء زنديقًا وهو يعرف الحقيقة، وإذا كان لا يُصَدِّقُ إلا لأن راعي كنيسته قال له «صَدِّقْ» أو لأن الجماعة اتفقت على هذا، دون معرفة أية أسباب أخرى، فإن الحقيقة التي يعرفها نفسها تصبح دليل زندقته وإن كانت عقيدته قائمة على هذه الحقيقة.

لا يوجد عبء يسر المرء أن يكل حمله إلى غيره مثل «التكاليف» الدينية والحفاظ على دينه. وقد يوجد - من ذا الذي يجهل أنه يوجد؟ - من بين البروتستانت وبين معلني عقائدهم من يعيشون ويموتون وقد ضل باطنهم مثل أي رجل بابوي من لوريتو. فالغني الذي أصبح يدمن مسراته وأرباحه يجد في الدين «معاملات» يبلغ من تعقيدها ومن كثرة حساباتها التافهة أن تمثل له سِرًا غامضًا لا يملك إزاءه المهارة اللازمة لزيادة رصيده في تلك التجارة. ماذا ينبغي له أن يفعل؟ لسوف يسعده أن يطلق على نفسه اسم

«المتدين»، ويسعده أن يتحمل جيرانَه في سبيل ذلك. وإذن فهو لا يفعل إلا أن يقرر هجر الكد والتعب، والعثور على وسيط من لون ما يكل إليه مهمة إدارة شئونه الدينية كلها مبديًا ثقته فيه وطالبًا رعايته، ولابد أن يكون كاهنًا مرموقًا يتمتع بالتقدير والاحترام. وهو يستمسك به، ويجعله وصيًا على مخزن «دينه» كله، واضعًا بين يديه أقفال المخزن ومفاتيحه، بل إنه يجعل شخص هذا الرجل نفسه دِينًا له، معتبرًا أن ارتباطه به دليل كاف يشهد ويزكي ورعه. وهكذا يجوز للمرء أن يقول إن دينه لم يعد يكمن الآن في باطنه بل أصبح مثل المنقولات المنفصلة، ويقترب منه ويأتي إليه بعدد المرات التي يتردد فيها ذلك الرجل الصالح على المنزل. وهو يستضيفه ويقدم له الهدايا ويولم له الولائم ويسمح له بالإقامة لديه؛ وهكذا يأتي «دِينُه» إلى البيت ليلاً، فيصليّ، ويُقَدَّمُ له عَشَاءٌ سخيّ، ويساقُ في أُبَّهَةٍ إلى مضجعه الفاخر، وعندما ينهض ويَلْقَي التحية، يُقَدَّمُ له شراب إسپاني رائع، أو غيره من الأنبذة ذات النكهة الطريفة، وطعام إفطار أفضل من طعام الإفطار الذي تناوله من كانت شهيته في الصباح تقبل بل يسرها تناول التين ما بين بيت عنيا وأورشليم، وبعد ذلك يخرج «دينه» من المنزل في الساعة الثامنة ويترك مضيفه الكريم في دكانه يمارس التجارة طول النهار من دون «دينه».

ويوجد نوع آخر من الناس ما إن يسمع بأن كل شيء سوف يخضع لنظام صارم، بحيث تحكمه اللوائح ويتسم بالاستقرار، وأنه لن يكتب شيء إلا بعد أن يمر بجمارك عدد معين من جباة الضرائب الذين يحتفظون بالموازين اللازمة لتحديد وزن كل حقيقة يُنطق بها في حرية، حتى يسرعوا بوضع أنفسهم بين يديك، حتى تصنع لهم وتجهز لهم أي نوع ترضاه من الدين،
ولسوف تكون لهم من بعد ذلك مباهجُ وألوانُ تسرية وضروبُ
تزجيةِ الوقت في مرحٍ من شروق الشمس إلى غروبها، بحيث

يدور العام متشيًا كأنه حلم جميل. ما حاجتهم إذن إلى تعذيب عقولهم بما تعهد الآخرون بتزويدهم به، بصرامة وأسلوب لا يتغير أبدًا؟ هذه هي الثمار التي سوف تأتي بها إلى الناس بلادة العيش الرَّخِيِّ في ظل توقف مسيرة المعرفة. ما أجمل وما أشد ما نتمنى مثل هذا الإجماع على الطاعة، وهو الذي سوف يؤدي إلى جمودنا جميعًا في إطار الاتفاق البديع! لا شك أنه إطار صامد صلب، يشبه تجمد الماء في زمهرير يناير.

ولن تزيد العاقبةُ حُسْنًا عن ذلك بين رجال الدين أنفسهم، فليس من الجديد الذي لم نسمع مثله من قبل أن نشهد كاهن الأبرشية الذي يتلقى مكافأته وما يراه في صورة أعمدة هرقل له، أي دخله الوفير من أوقاف الكنيسة، وقد أظهر بِيُسْرٍ مَيْلَهُ - إذا لم يجد شيئًا آخر يدفعه إلى الدرس - إلى استكمال دورته في معجمٍ مفهرسٍ بالإنجليزية، ومجلدٍ ضخم يضم رؤوس الموضوعات، وثمار التحصيل والادخار في عام التخرج الذي عمل فيه بجد واجتهاد، وسلسلة متصلة من الأقوال المقتطفة والاستشهادات المترابطة، فهو ما يفتأ يمر في دورات دائمة على بعض رؤوس موضوعات المذاهب، وما حولها من حواشٍ تبين أوجه نفعها ودوافعها وعلاماتها ووسائلها، وهو يعكف عليها كأنما كانت أبجدية أو حروفَ مُدَوَّنَةٍ موسيقية، فيشكِّلها ثم يغير تشكيلها بأساليب الوصل والفصل المختلفة، وفنون تأليف الكتب، وبعد ساعتين من التأمل قد يخرج منها بمادة تزيد زيادة يصعب وصفها عما يحتاجه لإلقاء موعظته الأسبوعية، هذا إذا لم نُدخل في حسابنا ما يجده من معونة لا تنتهي في الحواشي المدرجة بين السطور، والملخصات

والمجملات، وغير ذلك من لوازم التسكع. وأما عن حشود المواعظ والخطب المطبوعة والمجموعة عن كل نصٍّ غير عسير، فإن تاجرنا ابن لندن سانت توماس (ولك أن تضيف سانت مارتن وسانت هيو) لديه داخل حدود بقعته المقدسة سلع جاهزة من كل لون وأشد إغراءً بالشراء من كل هنا، وهكذا لا حاجة لكاهن الأبرشية المذكور بأن يخشى الافتقار إلى مؤونة المنبر يومًا ما، فلديه هنا من الزاد الوفير ما يكفل تجديد خزانته. لكنه إذا لم يوفر الحماية لمؤخرة جيشه وجناحيه، وإذا لم يحكم الرقيب الصارم إغلاق باب الكاهن الخلفي، فصدر من حين لآخر كتاب جسور يعلن الهجوم على بعض حشود الكاهن القديمة في خنادقها، فلسوف يُضْطَرُّ في هذه الحال إلى مداومة اليقظة والسهر على الحراسة، وتعيين حراس وديدبانات صالحة تحمي آراءه «الموافَق عليها» ، والمرور في دورات متعاقبة مع زملائه المفتشين، خشية أن يتعرض أحد رواد كنيسته للإغواء بقراءة الكتاب وإلا اكتسب علمًا أفضل وتحسن سلوكه وأدبه. ندعو الله ألا يؤدي خوفنا من جهود هذا الكاهن، التي لابد له من بذلها في هذه الحال، إلى حب الكسل الذي تتسم به الرقابة الكنسية.

فإذا كنا واثقين من أننا على حق، ولا نشعر بالذنب لمعرفتنا بالحقيقة فهو لا يليق بنا، وإذا كنا لا نُدِينُ بأنفسنا تعليمنا الضعيف الهازل، والشعب باعتباره حشدًا جاهلاً من المتسكعين غير المتدينين، فما عساه أن يزيد إنصافًا عن أن نرى رجلاً من بيننا، حصيف الرأي، راسخ العلم، وذا ضمير حيّ، وفي حدود ما نعرف لا يقل صلاحًا عنهم بعد أن علمنا ما نعلم، لا يكتفي بالانتقال من منزل إلى منزل لمخاطبة الناس بصفته الشخصية، وذا أشد خطرًا، بل يكتب وينشر صراحة على الناس آراءه وأسبابه وما يدعوه إلى

القول بأن الفكر السائد الآن لا يمكن أن يكون صحيحًا. لقد أوصى المسيح بهذا الأسلوب واتبعه في تبرير ما يقول، أي إنه كان يدعو الناس ويعظهم علنًا، ولكن الكتابة أكثر علانية من الدعوة والوعظ، وأيسر في الدحض والتفنيد، إذا اقتضت الضرورة ذلك، ما دام يوجد كثيرون ينحصر عملهم ومهمتهم في الانتصار للحقيقة، لأنهم إن أهملوا فما عسانا أن ننسب إليهم سوى الكسل أو العجز؟

وهكذا فإن منهج الرقابة المذكور يثبط سعينا وما اعتدناه من نشدان المعرفة الحقة بما يبدو أننا نحيط به. ولن أركز على أسلوب إضراره وتعويقه الرقباء أنفسهم عن تحقيق رسالتهم الكهنوتية، فضرره وتعويقه هنا أكبر مما نراه في الوظائف العلمانية، لأنهم إذا أرادوا أداء المهمة كما ينبغي فلابد بالضرورة أن يتجاهلوا هذا الواجب أو ذاك، لأن ذلك من التفاصيل الخاصة، ولكنني سوف أترك الأمر لضمير كل منهم حتى يقرروا ما يشاءون.

ويكمن أيضًا خلف كل ما قصدت الكشف عنه ما يعرضنا له نظام الرقابة المذكور من خسائر وأضرار لا تصدق، بل تزيد عما يحدث لو أن عدوًا من الأعداء أغلق كل مرافئنا وموانينا ومداخلنا البحرية، مادام يعوق ويؤخر استيرادنا لأثمن بضاعة تشترى، ألا وهي الحقيقة. بل إنه قد وُضِعَ ونُفِّذ على أيدي العداء السري الخبيث للمسيحية، وكان الغرض الذي يرمي إليه - لو أمكن تحقيقه - إطفاء نور الإصلاح الديني، وتمكين الزيف والضلال من الاستقرار، وهو لا يختلف في هذا عن محاولة الأتراك إعلاء شأن القرآن بحظر الطباعة. لا ينكر أحد بل يسر الجميع أن يعترف بأننا نرفع إلى السماء آيات الحمد والشكر بصوت يعلو على جميع الأمم على ما ننعم به

من هذا القدر العظيم من الحقيقة، خصوصًا في المسائل الرئيسية ما بيننا وبين البابا وأتباعه وكهنته، ولكنّ من يتصور أننا سوف نضرب خيامنا هنا، وأننا حققنا أقصى آفاق الإصلاح التي تستطيع المرآة البشرية التي ننظر فيها أن تعكسها لنا حتى نصل إلى الرؤيا المباركة، رجل يعلن، بإبدائه هذا الرأي، أنه لا يزال بعيدًا كل البعد عن الحقيقة.

لقد أتت الحقيقة فعلاً ذات يوم مع سيدها الرباني، وكانت في أجمل صورة وأبهى ما يمكن التطلع إليه، ولكنه عندما رُفِعَ إلى السماء، وأَوَى رسلُه من بعدِه إلى الرقاد، سرعان ما هَبَّتْ سلالة خبيثة من المخادعين، فإذا بهم، كما نقرأ في قصة طايفون المصري والمتآمرين معه وما فعلوه بأوزوريس الصالح، يأخذون الحقيقة العذراء، ويقطعون صورتها الجميلة التي ألف قطعة ويلقونها إلى الرياح الأربعة. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، وأصدقاء الحقيقة المحزونون، فيما يظهر لنا، يحاكون إيزيس في بحثها الدقيق عن أجزاء جسد أوزوريس المتناثرة، فيغدون ويروحون حتى يجمعوا أطرافه واحدًا بعد الآخر في كل مكان يستطيعون العثور عليها فيه. ولكننا لم نعثر عليها كلها بعد يا أعضاء مجلسي اللوردات والعموم، ولن نفلح في ذلك قط حتى نشهد المجيء الثاني لسيدها، فهو الذي سوف يجمع ما بين شتيت المفاصل والأعضاء ويصوغها في الصورة الخالدة للبهاء والكمال. وإذن فلا تسمحوا لمراسيم الحظر والترخيص أن تعوق كل فرصة سانحة أو أن تمنع الذين يواصلون بحثهم وتعكر صفو سعيهم، وهم الذين يواصلون مراسم الجنازة للجسد الممزق لقديستنا الشهيدة.

إننا نعتز بنورنا، لكننا إن لم نتحرز في النظر إلى الشمس نفسها فسوف تُلْقِي بنا في غياهب الظلام. من ذا الذي يستطيع أن يرى

الكواكب التي كثيرًا ما تحترق، والنجوم التي تفوق ما عداها في البريق وتشرق وتغرب مع الشمس، إلا حين تأتي بها حركة أفلاكها المتقابلة إلى مكان معين في صفحة السماء فنستطيع أن نشاهدها صباحًا أو مساءً؟ فالنور الذي اكتسبناه قد أُعطي إلينا لا لنحدق فيه دائمًا بل لنهتدي به في اكتشاف أشياء بعيدة عن مداركنا. لن يجلب لأمتنا السعادة أن نعزل كاهنًا أو أسقفًا أو شيخًا كنسيًا من وظيفته، كلا ! فإذا لم نلتفتْ إلى أمور أخرى لا تقل أهميتها عن ذلك في الكنيسة وفي إدارة الحياة اقتصاديًا وسياسيًا ونتولى إصلاحها، فلسوف نكون قد أطلنا النظر إلى وهج المنار الذي أضاءه لهدايتنا زوينجليوس وكالفين حتى عَمِيَتْ أبصارُنا تمامًا. قد يكون من بيننا من يداومون الشكوى من الفتن والانقسامات الطائفية، ويتصورون أن في اختلاف أي إنسان عما يقولونه من الحِكَم كارثة كبرى. ألا إن تعكير الصفو يرجع إلى استكبارهم وجهلهم، فهم لا يقبَلون الإصغاء في وداعة ولا يستطيعون إقناع غيرهم، لكنهم يصرون على قمع كل فكرة غير منصوص عليها في أبنيتهم الجامدة. إنهم هم من يعكرون الصفو ويفصمون عُرى الوحدة ما داموا يتجاهلون ولا يسمحون لغيرهم بتوحيد تلك الأجزاء الممزقة التي مازال جسد الحقيقة يفتقدها. إن علينا الاستمرار في محاولة التوصل إلى المجهول من خلال المعلوم، ومداومة الربط بين الحقائق بعضها والبعض كلما عثرنا على حقيقة كنا نجهلها (فجسد الحقيقة متجانس متناسب)، فهذه هي القاعدة الذهبية في اللاهوت مثلما هي في علم الحساب، وهي التي تحقق أفضل التناغم في كنيسة ما، لا التوحيد المقتسر الخارجي ما بين عقول باردة لا لون لها ومنقسمة على أنفسها.

يا أعضاء مجلسي اللوردات والعموم في انجلترا! انظروا أية أمة تنتمون

إليها، وتتولون الحكم فيها! ليست هذه الأمة كليلة بليدة، بل حادة الذهن صادقة القريحة نفاذة الروح، بارعة في الابتكار، دقيقة وقوية في الجدال، ولا تقصر عن بلوغ أعلى مرتبة تستطيع الطاقة البشرية التحليق إليها. ومن ثم فإن دراسات ربة المعرفة في أعمق علومها بالغة العراقة والامتياز بيننا، حتى لقد اقتنع عدد من الكُتّابِ من ذوي الحكم الصائب في الزمن التليد بأن الفلسفة القديمة لهذه الجزيرة كانت تمثل البداية التي انطلق الجميع منها، حتى مدرسة فيثاغورث والحكمة الفارسية. وها هو ذا الحكيم الروماني المهذب، يوليوس أجريكولا، الذي كان يتولى الحكم هنا نائبًا لقيصر، يفضل القرائح «الطبيعية» البريطانية على الدراسات التي بذل فيها الفرنسيون جهدًا جهيدًا. وليس مما يُستَهَانُ به أن يُرْسِلَ أبناءُ ترانسلفانيا الوقورون المتقشفون في كل عام من المناطق النائية على التخوم الجبلية لروسيا، بل ومن المناطق الواقعة وراء بَرِّيَّةِ هرقانيا، لا شبانهم فقط بل رجالهم الناضجين أيضًا ليتعلموا لغتنا وفنوننا اللاهوتية.

ولكننا نرى من فوق ذلك كله أن حب السماء وتفضيلها إيانا يدعمان تصورنا المتين بأنها تبشرنا بالخير وتنحاز إلينا بشكلٍ خاص، وإلا فلماذا اختارت هذه الأمة قبل غيرها حتى تكون المكان الذي تنطلق منه، مثلما انطلقت الدعوة من جبل صهيون، الأنباءُ الأولى للإصلاح، ويدوي منها صوت بوقه الذي سمعته أوروبا كلها؟ ولو لم يتخذ كهاننا ذلك الموقف العدائي العنيد ضد الروح الربانية الرائعة عند «ويكليف» ، ولو لم يحاولوا كتمان صوته باعتباره داعية فتنة وتجديد، فربما لم يسمع أحد قط بابن بوهيميا «هوس» وچيروم، لا بل ولا باسم لوثر أو كالڤين، فلنا وحدنا ينتمي شرف إصلاح مذاهب جيراننا كلها. أما الآن وبعد

أن تولى كهاننا بعناد وعنف «إذلال» القضية، فقد أصبحنا حتى هذه اللحظة أشد العلماء تأخرًا وتخلفًا، وكان الله يريد أن يجعلنا معلمين للآخرين. ومع ذلك فنحن نرى الآن أيضًا، استنادًا إلى اتفاق جميع الدلائل، وإلى نوايا المخلصين الأتقياء الذين يعربون يوميًا وبأقصى الجد عن أفكارهم، أن الله يقضي ببداية عهد جديد عظيم في كنيسته، قد يبلغ حد إصلاح «الإصلاح» نفسه، وما عساه أن يفعل إذن غير أن يتجلى لعباده، وكما قضت مشيئته، للإنجليز المؤمنين به أَوَّلاً؟ أقول: «كما قضت مشيئته» لنا أولاً، وإن كنا نجهل أسلوب ما يوحي به وغير جديرين بذلك.

انظروا الآن إلى هذه المدينة الشاسعة! إنها ملاذٌ وملجأ، إنها القصر الذي تقيم فيه الحرية، تحيط بها حمايتها وتشملها! إن المصنع الحربي لا يحتوي من المطارق والسندانات الساهرة على إعداد الدروع والأدوات اللازمة للعدالة المسلحة دفاعًا عن الحقيقة المحاصرة، عددًا يفوق الأقلام والرؤوس في هذه المدينة، إذ يجلس أصحابها بجوار مصابيح دراستهم، متأملين باحثين مبتكرين أفكارًا وآراءً جديدة لكي يقدموا بها الإصلاح المقبل، معربين عن وفائهم وإخلاصهم له، ويجلس آخرون يقرأون بالإصرار نفسه، فيجربون كل شيء ويذعنون لقوة المنطق والإقناع. ماذا عسى المرء أن يطلب أكثر من هذا من أمة بالغة المرونة وتتميز بهذا الحرص على طلب المعرفة؟ ما الذي ينقصنا إزاء هذه التربة الخصبة المثمرة غير جهود العاملين الحكماء المخلصين حتى يتحول هذا الشعب الواعي إلى أمة من الأنبياء والحكماء والعظماء؟ إن حساباتنا تقول: إن الحصاد لن يحين إلا بعد خمسة أشهر، والواقع أنه ينبغي ألا يتأخر أكثر من خمسة أسابيع،

ولو كانت لنا أعين نبصر بها لرفعنا رؤوسنا فوجدنا الثمار قد أينعت.

حينما تتوافر الرغبة في المعرفة، يكثر الجدل بالضرورة، وتكثر الكتابة، وتكثر الآراء، فما الآراء لدى الصالحين إلا معرفةٌ في طور التكوين. إننا في ظل هذه المخاوف الموهومة من الفتنة والانقسامات الطائفية نظلم التعطش الجاد الصادق للمعرفة والفهم، وهو التعطش الذي بعثه الله في هذه المدينة. وإذا كان البعض ينعي روح الإقدام الورع لدى الناس وحرصهم أن يتولوا من جديد رعاية دينهم بأنفسهم من بعد أن انتُدِبَ غيرُهم فأساءوا رعايته، فعلينا أن نفرح بهذه الروح وأن نمتدحها. إن قدرًا ضئيلاً من كرم الحكمة، ومن صبر بعضنا على بعض، ومن طابع الإحسان فينا، قد يستطيع أن يجمع شتات هذه الجهود ويوحدها في بحثٍ عامٍّ أخوي عن الحقيقة، وليتنا نستطيع وحسب أن نتجاوز التقاليد الكهنوتية النزاعة إلى تكديس الضمائر الحرة والحريات المسيحية وضغطها في قواعد ومفاهيم بشرية محددة. لاشك عندي أنه لو زارنا غريب عظيم جليل القدر وتمكن بحكمته من إدراك قالب هذا الشعب وطبعه وكيف يُحكم، ولاحظ آمالنا وغاياتنا العليا، وما نتميز به من همة لا تكل في تمديد نطاق أفكارنا واستنباطاتنا المنطقية نُشدانًا للحقيقة والحرية، لصاح صيحة بيروس عندما أبدى إعجابه بلين العريكة والشجاعة الرومانية، فهتف قائلاً: لو كان هؤلاء أهل بلدي ما استيأست من القيام بأعظم ما يمكن أن يفعله بشر لإسعاد حال كنيسة أو مملكة.

ومع ذلك فإن هؤلاء الناس هم الذين يُنْتَقَدُونَ بسبب انقساماتهم وطوائفهم. فكأننا ونحن نبني معبد الرب، حيث يقطع البعض الرخام، ويسوي البعض الآخر أسطح مكعباته، ويقوم آخرون بقطع أشجار الأَرْز، لن نجد رجالاً لاعقلانيين لا يدركون ضرورة تقطيع الصخور من

المحجر والخشب من الأشجار، أي التقسيم الكثير في سبيل بناء بيت الرب. وعندما توضع كل صخرة مع الأخريات، فإنها لن تتوحد معها بحيث تصبح استمرارًا لها، بل تظل مجاورة لها في هذه الدنيا، كما لابد أن تتفاوت أجزاء المبنى في أشكالها، بل إن كماله يكمن في هذا، أي إن ضروب التنوع الكثيرة دون تطرف، وأوجه الاختلاف ما بين الإخوة دون افتقار شديد للتناسب، هي التي تؤدي إلى نشأة التناسق الجميل الرشيق الذي يزهو به البناء والتركيب.

فلنكن إذن بنائين أشدَّ حِذْقًا في نظرتنا، ولْتَبْدِ حكمةً أكبر في عمارتنا الروحية، ما دمنا نتوقع الإصلاح العظيم. ويبدو لي الآن أن الوقت قد حان لجلوس موسى النبي العظيم في السماء مبتهجًا بمشاهدة تحقيق أمنيته المجيدة التي لا تنسى، إذ لن يقتصر عدد الأنبياء على سبعين من حكمائنا بل سيصبح شعب الرب كله أنبياء. ولن نعجب عندها، ولو أن بعض الناس، وربما بعض الصالحين أيضًا وإن كان صلاحهم لايزال يافعًا، مثلما كان يوشع آنذاك، يحسدونهم. إنهم قلقون مخافة أن تؤدي هذه الانقسامات المتكاثرة إلى هلاكنا، وإن كان ضعفهم هو الذي يعذبهم، قائلين: إن إبليس يصفق من جديد طربًا في انتظار الساعة المناسبة، ويقول: عندما يتفرقون شيعًا وأحزابًا صغيرة، أدرك أن وقتنا قد حان. يا له من أحمق! إنه لا يرى أصل الشجرة الثابت الذي نشأنا منه وترعرعنا جميعًا وإن كنا فروعًا وأغصانًا، بل ولن يحذر حتى يشهد فصائلنا الصغيرة المقسمة وقد اقتحمت من كل حدب وصوب فيلقه الذي ساءت وحدته فتعذر التحكم فيه. ولديَّ من الأسباب ما يقنعني بأن نرجو خيرًا أكبر من هذه الطوائف

والانقسامات المفترضة، وأننا لن نحتاج إلى رعاية من يزعجون الناس في هذا الصدد، وربما كان دافعها الأمانة رغم ما يبدونه من فزع مبالغ فيه، بل إننا سوف نضحك في النهاية من هؤلاء الخبثاء الذين يرحبون بخلافاتنا.

وأقول أولاً: إنه عندما تتعرض مدينة ما للحصار وسد المنافذ، إن صح هذا التشبيه، ويتعرض نهرها الذي تبحر فيه سفنها لشن الغارات، وتكثر الهجمات والاعتداءات في كل مكان، ويتردد أن المتمردين والمقاتلين يزحفون على أسوارها نفسها وعلى الخنادق المحفورة في ضواحيها، وأن الناس أو معظم الناس فيها قد انشغلوا في تلك الآونة أكثر مما انشغلوا في أي وقت مضى بدراسة تستغرقهم تمامًا، ألا وهي دراسة إصلاح أرفع وقضايا أهم، فجعلوا يتنازعون ويفكرون ويقرأون ويبتكرون ويتناقشون - ولو بصورة نادرة المثال وتثير الإعجاب - في أمور لم تَحْظَ من قبل بالمناقشة أو الكتابة عنها، فإن ذلك كله يقيم الحجة أولاً على حسن طوية فريد، وعلى رِضًا وثِقَةٍ في بُعْد نظركم الحكيم وحكومتكم المأمونة يا أعضاء مجلسي اللوردات والعموم، ومن هذه الشمائل تنبثق شجاعة رائعة واحتقار يقوم على أساس صلب بأعدائهم، كأنما كان بين ظهرانينا عدد كبير من الأرواح العظيمة، كالتي كان ذلك الرجل يتمتع بها في روما، وجيوش هانيبال تكاد تحاصر المدينة، إذ قام المذكور بشراء قطعة من الأرض بسعر غير زهيد، فاتخذها هانيبال نفسه، فيما بعد، موقعًا لإقامة معسكر جيشه.

وأقول ثانيًا: إن ذلك يحمل بشرى هنيئةً نابضةً بأن عاقبتنا هي الفوز والانتصار. فحالنا يشبه حال الجسد، حين يكون الدم ذا نضرة والقوى الحيوية طاهرة نشطة، لا فيما يتعلق بوظائف الأعضاء فقط بل أيضًا بالملكات الذهنية التي تفيض بالحيوية وأَحَدِّ طاقات البديهة

الحاضرة وعمق التفكير، وهو ما يقيم الحجة على صحة الجسم واستواء حالته. وبالمثل، فإنه عندما تكون بشاشة الناس حية دفاقة فيتمكنون لا من السهر الصادق على حريتهم وسلامتهم فقط، بل من أن يجدوا الوقت اللازم لإنفاقه في مناقشة أصلب وأسمى القضايا الخلافية، والإتيان بمبتكرات جديدة أيضًا، فإن هذا يدل على أننا لم يُصِبْنَا الانحلالُ ولا خارت قوانا فَذَبُلْنَا ذبولاً مهلكًا، لكننا نطرح الآن ما كنا نكتسيه من جِلْدِ الفساد الهَرِمِ المُتَغَضِّنِ، ونسمو فنتجاوزُ آلامَ الماضي ونعود في شرخ الشباب، سالكين دروب الحقيقة والفضيلة المزدهرة، وقد كُتِبَ لنا أن نرتقي مراقي العظمة والشرف في هذه العصور المتأخرة. وإخالني أشهد في خاطري أمة نبيلة قوية، تستنهض نفسها مثل صاحب فُتُوَّةٍ بعد الرقاد، وقد أخذت تزهو بناصيتها العَصِيَّةِ الظافرة إخالني أراها عُقابًا تجدد عنفوان شبابها، وتوقد وميض عينيها الثابتتين من شمس الظهيرة الساطع، وتغسل بصرها الذي طال إيذاؤه وتطهره في نبع الضياء السماوي نفسه، ومن حولها ضجيج الطيور الخائفة في أسرابها، مع تلك التي تحب ساعة الشفق، خفاقة بأجنحتها، دَهِشَةً مما تعنيه تلك العقاب، وإن كانت في هَذْرَمَتِها الحسود تتنبأ بعام من الطوائف والانقسامات.

ماذا علينا أن نفعل إذن؟ هل علينا أن نقضي على هذا المحصول الزاهر من المعرفة ونطفئ الضوء الجديد الذي ينبثق في كل يوم في هذه المدينة؟ أعلينا أن نقيم حكومة أقلية من عشرين رقيبًا عليها، حتى نحكم بالمجاعة من جديد عليها، بحيث لا نتلقى من العلم إلا ما يحددونه لنا بمكيالهم؟ صدقوني يا أعضاء مجلس اللوردات والعموم، إن من يشيرون عليكم بمثل هذا القمع في حكم من يشير عليكم بقمع أنفسكم، ولسوف أبين حالاً كيف

يكون ذلك. وإذا كنتم ترغبون في معرفة السبب المباشر لكل ما تشهدون من حرية في الكتابة وحرية في الكلام، فأصدق الأسباب ما تتسم به حكومتكم من اعتدال وحرية وشفقة. إنها الحرية أيها اللوردات والعموم التي اشتراها لنا مستشاروكم الشجعان الموفقون، بل الحرية التي ترضع وتربي جميع الأذهان العظمى، وهي التي رفعت وأنارت أرواحنا كأنها قبس سماوي، وهي التي حررت ووَسَّعَتْ وسَمَتْ بضروب تفكيرنا درجاتٍ فوقَ ما كانت عليه.

لن تستطيعوا الآن الانتقاص من طاقاتنا ومعرفتنا وَحَدِبنا على نشدان الحقيقة، إلا إذا بدأتم بأنفسكم - أنتم يا من لكم الفضل في هذا - كي تصبحوا أقلّ حُبًا للحرية الحقة، وتنتقصوا من فضلكم في إقامتها. نستطيع أن نعود إلى جهلنا السالف، وإلى حالتنا الوحشية، وإلى استمساكنا بكل ما هو صوري وحسب، وإلى عبوديتنا، وهو ما وجدتمونا عليه عندما توليتم الحكم، ولكن ذلك لن يتحقق إلا لو أمسيتم أنتم فيما لا تستطيعون أن تُمْسُوا فيه، أي ممارسة الظلم والتعسف والطغيان، كما كان حال الذين حررتمونا من قبضتهم. إن ازدياد رحابة قلوبنا، وازدياد توجه أفكارنا للبحث عن أعظم الأشياء وأدقها، وانتظار تحقيقها، من البنات التي أنجبتها الفضيلة التي تتحلون بها، ولن تستطيعوا نفي ذلك كله إلا إذا أعدتم العمل بالقانون القاسي المُلْغَى، والذي كان يبيح للآباء وَأْدَ بناتهم أنّى شاءوا. ومن ذا الذي يلازمكم إذن ويستطيع إثارة الآخرين؟ ليس الذي يحمل السلاح دفاعًا عن درع النبالة والمسلك الحميد والدنانير الأربعة التي يدفعها ضريبةً. إنني، رغم عدم قدحي في هذه الحصانات العادلة، أكن حُبًا أكبر للسلم، لو كان ذلك كل ما في الأمر. هبني حرية اكتساب المعرفة، والكلام، والمناقشة بحرية

وفقًا لما يمليه ضميري، قبل شتى ألوان الحرية.

لن أعتزم أن أقول ما أراه أفضل ما يشار به إذا ثبت مقدار الضرر والظلم الفادح في قمع الأفكار بسبب جدتها أو عدم ملاءمتها لما اعتاد الناس قبوله، ولكنني سوف أقتصر على تكرار ما تعلمته من أحد أعضاء هيئتكم الكريمة، وهو لورد ورع يتسم بالنبل الحق، ولولا أنه ضحَّى بحياته وثروته في سبيل الكنيسة والدولة، لكنا قد افتقدنا ونعينا فقدان نصير جليل لا شك في نُصْرَتِهِ لهذه القضية. إني واثق أنكم تعرفونه، ولكنني سوف أذكر اسمه تشريفًا وتخليدًا لذكره، ألا وهو اللورد بروك الذي ترك لكم فيما كتبه عن نظام الأساقفة، وفي معرض الحديث عن الطوائف والانقسامات، تأييدًا ومساندة، أو بالأحرى تكليفًا لكم في آخر كلماته وهو يُحتضر، وهي كلمات أعلم وأثق أنكم سوف تحلونها محل الإعزاز والتكريم، فلقد كانت حافلة بالوداعة والإحسان الناطق إلى الحد الذي لا أذكر معه أنني سمعت أو قرأت ما يفوقها رقة وسلامًا، باستثناء وصية الذي خَلَّفَ للحواريين من تلاميذه تركة المحبة والسلام، إذ إن هذا اللورد يحثنا على أن نصغي بصبر وتواضع إلى أولئك الذين، مهما يكن من خطأ في تسميتهم، يرغبون في طُهْر العيش، مطيعين ومنفذين لأوامر الله ، وأن نتحملهم، ولو كانوا لا يتفقون إلى حد ما معنا. والكتاب الذي كتبه ونشره على الناس قادر على أن يطلعكم على المزيد، فلقد أهداه إلى البرلمان ذلك الرجل الجدير بألاَّ نتجاهل النظر فيما خلفه لنا من مشورة، تكريمًا لحياته وموته معًا.

والآن أرى أن اللحظة سانحة لممارسة حقنا في أن نكتب أو نقول ما قد يفيدنا في إثراء مناقشة الأمور الخلافية، وربما جاز لنا أن نفتح باب الرب

چانوس بوجهيه المتناقضين، فهو لا يخلو من الدلالة والمغزى، وحتى لو كانت الرياح المذهبية تهب طليقة على وجه الأرض، فإنه ما دامت الحقيقة قد نزلت الحلبة، فلا ينبغي أن نستريب في قوتها ظالمين بِسَنِّ قوانين الترخيص والحظر. فَلْنَدَعْها تصارع الكذب، ومن ذا الذي شهد الحقيقة تنهزم في نِزَالٍ حُرٍّ صريح؟ إن دحضها أفضل وأوثق قمع لها، ومن يسمعْ دعواتِ الذين يرجون أن ينزل الله علينا النور والمعرفة الواضحة يتصورْ وجود أشياء تتجاوز مذهب چنيڤ، وهو الذي اكتملت صياغته واكتمل إعداده حتى ننتفع به. ومع ذلك فعندما يسطع النور الذي نطلبه فيضيء لنا الحياة، لن نعدم من يعبر عن الحسد والمعارضة إذا لم يشرق النور في نوافذهم أولاً. ما أعجب هذا التواطؤ، والحكيم يحثنا على بذل الجهد، وعلى أن نسعى في طلب الحكمة سعينا في طلب الكنوز الخبيئة، بالأمس وغدًا، وكيف يتواطؤ هؤلاء على إصدار أمر يقضي بألا نكتسب أية معرفة إلا بقانون خاص؟ قد يكد الإنسان أشد الكد في أعمق مناجم المعرفة، ويجهز مكتشفاته أجمل تجهيز، وينظم حُجَجَهُ تنظيم الجيش المقاتل، ويشتت كل العوائق في طريقه ويقهرها، ثم يدعو خصمه لنزول الميدان، ويقدم له مزايا الرياح المواتية والشمس الساطعة، إن أراد، بشرط واحد وهو الاحتكام في الأمر إلى قوة الحجة وحدها، فإذا تهرب خصومه وفضلوا التسلل خلسة حتى يقيموا الكمائن، وحتى يبنوا جسرًا ضيقًا من «الرقابة» يفرضون على من يريد منازلتهم أن يعبره، كأنما كانت في ذلك شجاعة تماثل بسالة القتال، فإن ذلك لا يعدو كونه خورًا وجبنًا في الحرب في سبيل الحقيقة.

من ذا الذي يجهل أن للحقيقة قوة تلي قوة الله القاهر الجبار؟ إنها لا تحتاج إلى دهاء السياسات والأحابيل، بل ولا تحتاج إلى قوانين «الرقابة» حتى تنتصر، فما هذه إلا الخدع وفنون الدفاع

التي يتوسل بها الباطل في مواجهة سلطانها. أفسحوا لها السبيل فحسب، ولا تقيدوها في سباتها، فعند ذلك لن تقول الصدق، كما كان حال پروتيوس الهرم الذي لم ينطق بالنبوءات إلا بعد القبض عليه وتقييده، ولكنها آنذاك قد تغير من صورتها وتتخذ شتى الصور إلا صورتها الفعلية، بل وربما عَدَّلَتْ من لهجتها حتى تساير مقتضيات الحالة الراهنة، مثلما فعل ميخا في مواجهة آخاب، وذلك حتى يستحلفها الناس أن تعود إلى صورتها الحقيقية. لكنه ليس من المستحيل أن تتخذ الحقيقة عدة صور، وإلاَّ فما شأن هذه الأمور العادية المصطفة حيث تكون الحقيقة مع هذا الجانب أو ذاك، إلا إذا كانت في صورة غير صورتها؟ وهل أصبح غير ظل باطل إلغاء تلك الأوامر ، وما خطته يد الإنسان وعُلِّقَ بمسمار في الصليب؟ وما القيمة العظمى لصفقة هذه الحرية المسيحية التي كثيرًا ما تَبَاهَى بها القديس بولس؟ كان يقول إنه ما دام من حق الإنسان أن يأكل أو لا يأكل، وأن يراعي الزمان أو لا يراعيه، فإن له أن يتخذ الموقف نفسه من الرب. وكم عدد الأمور الأخرى التي يمكن أن نتحملها بهدوء وأن نتركها للضمير لو تحلينا بفضيلة الإحسان وحسب، ولو لم يكن الحصن الرئيسي لنفاقنا مداومة إصدار بعضنا الأحكام على البعض!

أخشى أن يكون النير الحديدي للاتساق الظاهري قد خلف أثر الاسترقاق في رقابنا، ومع ذلك فمازال شبح السلوك المهذب الرقيق يسكننا. إننا نتعثر ولا نصبر قط إذا لمحنا أقل اختلاف بين جماعة وجماعة أخرى، حتى ولو كان اختلافًا في الفروع لا في الأصول، وفي غمار إقدامنا على القمع وإحجامنا عن تخليص أي جزء من الحقيقة المُسْتَرَقَّةِ من براثن العادة، لا نأبه لمواصلة الفصل بين الحقائق، وهو الذي يمثل أكبر فجوة وأشد عوامل

الفُرقة ضراوة. فنحن لا نرى ذلك، ونواصل حبنا الشديد للصور الخارجية الجامدة، ولا ندرك من ثم أن ذلك قد يوقعنا بسرعة ومن جديد في اتساق يمثل غباءً فاضحًا، فما هو إلا تَجَلُّطٌ فَظٌّ ميتٌ لأخشاب وقشٍّ وجُذَامَاتٍ ضُغِطَ بعضها مع بعض وجُمِّدَتْ، وذلك أدعى لتدهور الكنيسة فجأة من تكاثر الفصائل والفرق وتعدد الانقسامات.

ولكن ذلك لا يعني أنني أمتدح كل انفصال «خفيف» ، أو أنني أتوقع ألا يكون في الكنيسة إلا الذهب والفضة والأحجار الكريمة؛ وليس في مقدور البشر أن يفصلوا وزن القمح عن وزن الإناء الذي يحتويه، أو يفصلوا الأسماك الطيبة عن غيرها من صيد البحر، فذلك موكول إلى الملائكة في نهاية حياتنا الفانية. لكنه إذا كان من المحال أن يتفق الجميع على رأي واحد (ومن ذا الذي يريد ذلك؟) فإنه من الأَصَحِّ والأحكم والأقرب للمسيحية أن نحتمل تعدد الآراء، لا أن نُرغم الجميع على قبول رأى واحد. وأنا لا أعني احتمال البابوية والخرافات الواضحة، فإن هذه تقضي على الدين كله وعلى المراتب المدنية، ولابد من ثم أن نقضي عليها، بشرط أن نتوسل أولاً بالحكمة والموعظة الحسنة في إقناع الضعفاء والمضلِّلين وإعادتهم إلى الطريق القويم. وأما ما يتسم أيضًا بالكفر والشر المطلق سواء ضد العقيدة أو المعاملات، فمن المحال أن يبيحه قانون لا يريد إلغاء شرعيته، ولكنني أتحدث عن نقاط الخلاف المتقاربة، أو الطفيفة، سواء في المذهب أو في التطبيق، فإنها حتى إن تعددت لا تستلزم شق الوحدة الروحية إن استطعنا وحسب إقامة رابطة السلم ما بيننا.

وقد يحدث قبل أن يحين ذلك الوقت أن يكتب أحد الناس شيئًا يساعد به تقدم الإصلاح الذي نجتهد في سبيله ويسير

بخطى بطيئة، إذا كانت ربة الحقيقة قد كلمته قبل غيره، أو حتى إذا بدا أنها كلمته فسحرنا بمنطقه الصائب، فهل يجب علينا أن نكدر صفوه بأن نفرض عليه أن يطلب ترخيصًا بأداء ذلك العمل الجليل؟ وهل علينا أن نتجاهل أنه إن كانت القضية قضية حظر فأرجح ما سوف يحظر الرقيب نشره هو الحقيقة نفسها، إذ إنها حين تلمحها عيوننا التي غامت وعَشِيَ بصرُها بفعل التعصب والعادة، أي عندما تبصرها أول مرة، ستجدها قبيحة ذميمة مثل الكثير من صور الضلال، مثلما نبصر أشخاص الكثيرين من العظماء فنجدهم ذوي نحافة وقصر قد يدفعان إلى ازدرائهم. وماذا يستطيع الرقباء أن يقولوه لنا بزهو باطل عن آرائهم الجديدة، ورأيهم الجديد الوحيد، أي ألا يُسمع صوتُ أحدٍ غير صوتِ من يحبونه، أسوأ وأحدث آراء الآخرين جميعًا، بل إنه السبب الرئيسي في وفرة الطوائف والانقسامات، في حين تظل المعرفة الحقيقية على مبعدة منا، وخارجها يكمن خطر يفوق ما فيها من خطر.

فإنه حين يلهم الله مملكة بأن تنشط نشاطًا عارمًا وصحيحًا لتحقيق الإصلاح العام، قد ينشط الكثير من دعاة الفُرقة ومن المعلمين الكاذبين إلى إغواء الناس، وصحيح أيضًا أن الله يحث على نهج سبيله رجالاً ذوي قدرات نادرة المثال، ويبذلون جهودًا أشد من المعتاد، لا لاستعراض ومراجعة ما عَلَّمَهُ الكاذبون للناس وحسب، بل للتقدم إلى آفاق أرحب والمضي في خطوات مستنيرة نحو اكتشاف الحقيقة. وذلك هو الأسلوب الذي يتبعه الله في تنوير كنيسته، أي أن يشع علينا نوره في وَمَضَاتٍ متتالية حتى تستطيع عيوننا الأرضية تحمل النور الرباني.

بل إن الله لم يُعَيِّنْ ويحدد الأماكن التي سوف تسمع فيها أصوات من

اصطفاهم أول مرة، فرؤية الله تختلف عن رؤيتنا، وأسلوب اختياره يختلف عن أساليب اختيارنا، وإلا كرسنا جهودنا من جديد للاختلاف إلى أماكن محددة، أو اجتماعات معينة، أو بعض المهن الخاصة التي يمارسها البعض، فنضع ثقتنا يومًا في مبنى المجمع الكنسي القديم، ويومًا آخر في مبنى كنيسة وستمنستر، واعتماد العقيدة والدين في هذا المبنى وذاك لا يكفي من دون الاقتناع الصريح، والإحسان المتمثل في التَّحَلِّي بالصبر في التلقين لإزالة أدنى ما يؤرق الضمير، وتعليم أرق المسيحيين حالاً، ما دام يريد أن يسير في طريق الروح، لا في النهج الحرفي للوثوق بغيره من البشر، مهما كثر عدد الأصوات التي يمكن أن تُسمع هناك، كلا ولو قُدِّرَ للملك هنري السابع في قبره هناك، ولجميع أتباعه في القبور من حوله، أن يضموا أصواتهم إلى هؤلاء من عالم الموتى ليزيدوا عددهم.

وإذا كان من يظهرون في صورة أكبر دعاة الفرقة والانقسام قد ضلوا الطريق، فماذا يمنعنا غير تكاسلنا وعنادنا واسترابتنا بقضية الحق من أن نعقد معهم اجتماعات مهذبة ونصرفهم عما هم فيه برقة ولطف، ولماذا لا نناقش المسألة ونفحصها فحصًا دقيقًا، ونسمح لأعداد كبيرة بحضور هذه الاجتماعات ونكرر ذلك، إن لم يكن من أجلهم فمن أجلنا نحن؟ وذلك نظرًا لأنه ما ذاق طعم المعرفة أحد إلا أقر بأساليب الاستفادة الكثيرة من الذين لم يقنعوا بالأفكار البالية الشائعة بل استطاعوا تدبير وتقديم مواقف جديدة إلى الناس. وحتى لو لم يكونوا يشبهون إلا التراب والرماد تحت أقدامنا، فإنهم يستطيعون بأفكارهم أن يصقلوا ويضيفوا لمعانًا إلى درع ربة الحقيقة، ولو اقتصرت فائدتهم على ذلك ما استحقوا أن ننبذهم ونطرحهم، وأما إذا كانوا ممن أعَدَّهم الله للقيام بالمهام الخاصة

في هذا الزمان فأمدهم بمواهب فياضة مرموقة، وربما لم يكونوا من الكهان أو من الفريسيين، وإذا تسرعنا نحن وأبدينا تعجل ذي الحمية الغيور فلم نستطع التمييز بل قررنا تكميم أفواههم، خشية أن يأتوا بآراء جديدة خطيرة، على نحو ما اعتدناه من إصدار أحكام مسبقة عليهم قبل أن نفهمهم، فالويل لنا ولا أقل من الويل لنا، ما دمنا نتصور أننا ندافع عن الإنجيل ونحن في الواقع نعاديه ونضطهد دعاته.

لقد شهدنا عددًا غير قليل منذ بداية هذا البرلمان، من بين المشيخيين وغيرهم، ممن قاموا بإصدار كتب غير مرخصة، مزدرين ضرورة الحصول على تصريح، وهكذا كسروا طبقات الجليد الثلاث التي ترين على قلوبنا وعَلَّمُوا الناس أن يروا ضوء النهار، وأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء من بين من أقنعوا المسئولين بتجديد فَرْضِ هذا الاسترقاق علينا بعد أن عاد ازدراؤهم له بالخير الكثير علينا، لكنه إذا لم يكن في العمل بوصية موسى ليوشع اليافع، والنَّهْيِ الذي أصدره مُخَلِّصُنَا ليوحنا اليافع الذي كان قد أخذ أهبته لحظر «التعامل» مع من كان يراهم «مستبعدين» ، ما يكفي لتنبيه حكمائنا إلى مدى كراهية الله للحظر الناجم عن ضيق الصدر، وإذا لم يكن فيما يذكرونه من الشرور التي تكاثرت في الكنيسة بسبب فرض الرقابة، والخير الذي أتى به إقدامهم قبل غيرهم على انتهاكه، ما يكفي للعدول عن موقفهم، وإذا كانوا سوف يواصلون الدعوة إلى ممارسة أقرب مناهج محاكم التفتيش إلى الدومينيكانية ثم يطبقون ذلك علينا وقد وضعوا قَدَمًا في الركاب استعدادًا لتنفيذ القمع، فلن يكون من قبيل الظلم في المقام الأول أن نقمع من يقمعوننا، فلقد انتفخوا زهوًا وانتفشوا من جراء تغيير حالهم، أكثر مما اتعظوا واكتسبوا الحكمة من خبرتهم الأخيرة في الأيام العصيبة.

الألوان البراقة، ولم تكن فعلاً تزيد عن ألوان براقة، ولا غرض لها، إلا إن كان الغرض ممارسة التفوق على جميع جيرانهم، من الذين لا يعملون في مهنة شريفة يدين العلم لها بالفضل، ولابد أن يصبحوا عبيدًا للآخرين. كما قيل إن بعضهم كان يرمي إلى غاية أخرى من التماس إصدار ذلك المرسوم، وهو - ما داموا يمسكون بزمام السلطة - أن الكتب الخبيثة قد تجد من الأيسر لها أن تفر إلى خارج البلاد، كما اتضح مما حدث بعد ذلك.

ولكنني لست ماهرًا في ضروب السفسطة والدحض في مجال التجارة، فأنا واثق أن أخطاء الحكومة الصالحة لا تكاد تختلف عن أخطاء الحكومة الفاسدة، إذ ما أيسر تضليل قاض من القضاة وما أسرع ذلك إذا اقتصرت حرية الطباعة على أيدي قلة مسيطرة؟ وأما القيام طوعًا وبسرعة بتصحيح الخطأ المرتكب، وإعلان ذلك بصراحة من جانب أعلى السلطات بصورة رائعة تفوق تزيين الآخرين لعروس باهرة الجمال، فهو فضيلةٌ (أيها الشرفاء يا أعضاء مجلسي اللوردات والعموم) تتفق مع أرفع ما فعلتموه، ولا يشارك فيها إلا أعظم الرجال وأحكمهم.

مختارات من النقد الكلاسيكي

للفردوس المفقود

أندرو مارڤيل

عن الفردوس المفقود لميلتون (1674)[1]

عندما رأيت الشاعر الأعمى، على جسارته،
يقيم صرحه الكبير في كتاب صغير،
ورأيت تتويج المسيح وفق أمرالله الذي لا راد له،
والملائكة المتمردين، والشجرة المحرمة،
والجنة والنار والأرض والعماء جميعًا، أحسست بالموضوع
يستغرقني برهةً، مستريبًا بأن مقصده
أن يهدم (بسبب ما رأيت من قوته)
تلك الحقائق المقدسة الواردة في الأساطير والأناشيد القديمة
(مثلما تحسس شمشون أعمدة المعبد في حقده)
حتى يهدم الدنيا انتقامًا من فقد بصره.
لكنني ما إن مضيت في القراءة حتى خَفَّتْ حدة قسوتي
فأحببت المشروع وإن أشفقت من العاقبة،
حائرًا كيف سيهتدي إلى طريقه في ذلك المجال الرحيب
حيث يقود الإيمانُ الأعرجُ الفهمَ الأعمىَ
وخشيت أن يُزْبِك ما قصد إلى إيضاحه
وأن ما كان يسيرًا سوف يصوره في صورة الباطل.

---

1 Andrew Marvell, The Complete Poems, ed. Elizabeth Donno (Penguin Books, 1996).

وأما قضية تنظيم الطباعة والنشر، فلا يَظُنَّنَّ أحدٌ أنه قادر على أن يحوز فيها شرف نصحكم خيرًا منكم، وخيرًا مما فعلتم في المرسوم الذي أصدرتموه مباشرة قبل هذا، وهو الذي ينص على أنه «لا يجوز أن يطبع كتاب إلا إذا كان اسم صاحب المطبعة واسم المؤلف، أو اسم صاحب المطبعة على الأقل، مسجلاً». وأما الكتب التي تصدر من دون تحقيق هذا الشرط، فإذا وُجدت بها إساءة أو وُجد بها سب وقذف، فالنار وسيف الجلاد هما أنجع علاج اهتدت إليه قدرة البشر على الوقاية، وبلا إبطاء. وهكذا فإن هذه السياسة الإسپانية الصادقة التي تقضي بترخيص طباعة الكتب، على نحو ما قلت، سوف يتضح بعد وقت قصير أنها تمثل كتابًا من المحال الترخيص به وكانت صورة مباشرة لمرسوم أصدرته المحكمة العليا لهذا الغرض في الوقت الذي كانت تلك المحكمة تؤدي فيه سائر مهامها المباركة، وبذلك سقطت من سمائها مع إبليس. وهكذا تستطيعون أن تحدسوا لون حكمة الدولة، ولون حب الشعب، ولون الحرص على الدين أو على الأخلاق الفاضلة الذي كان يتوافر آنذاك عند وضع المرسوم، وإن كانت تتظاهر في نفاق لا حد له بأنها تفرض حسن السلوك على الكتب. وأما كيف تسنى لها التغلب على مرسومكم السابق الذي كان قد أحسن وضعه من قبل، إذا كان لنا أن نصدق أولئك الرجال الذين تقتضي طبيعة مهنتهم إجراء أقصى قدر من التحقيقات، فإننا نشك في أن القضية كانت تتضمن عنصر التحايل من جانب بعض أصحاب حقوق النشر القدماء ومحتكري تجارة بيع الكتب، إذ تذرع هؤلاء بما تظاهروا به من حرص على عدم مخادعة الفقراء في شركتهم،

ومن حرص على حق كل فرد في الاحتفاظ بنسخته الخاصة،

ولا قدر الله لي أن أنكر ذلك، في أن قدموا للمجلس العديد من

أو إذا كان سيسبر غور عمل لا نهائي مثل هذا
كنت أخشى أن تتصدى يَدٌ أقلُّ حذقًا
(مثل الأيادي التي دائمًا ما تفسد ما كان حسنًا
وتريد التفوق فتسيء المحاكاة)
وأن تتجرأ في تصوير يوم الخَلْقِ كُلِّه
فتغير مشاهده وترسمه رسمًا مسرحيًا.
فلتصفح عني أيها الشاعر الجبار! لا تحتقر
ما حدسته بلا مبرر، وإن لم يكن في حدسي عقوق.
لكنني اقتنعت الآن أن أحدًا لن يتجاسر
أن يزعم لنفسه نصيبًا في جهودك.
إذ لم تَفُتْكَ فكرة مناسبة واحدة
وحذفت كل ما ساء وما لا يليق؛
حتى لم يبق مجال هنا لغيرك من الكُتَّاب
إلا لكي يكتشفوا جهلهم أو قيامهم بالسرقة.
فالجلال الذي يسود عملك
يجتذب الأتقياء ويردع الخبثاء.
فأنت تعالج كل المسائل الإلهية بأسلوب
يحفظ لها قداستها ويحفظ لك حرمتك.
وسرعان ما تغمرنا البهجة ويغشانا الرعب
وأنت تنشد بأقصى وقار وأشد يسر وسهولة،
وتحلق فوق مراقي البشر إلى العلياء
بأجنحة تتمتع بأقصى القوة والكفاءة والرقة.

والطائر المسمى باسم الفردوس الذي تتغنى به
لا يهبط قط، بل إنه دائمًا يطير خفاق الجناح.
أين استطعت العثور على مثل هذه الألفاظ المنوعة؟
ومن أين أتتك هذه البسطة الشاسعة في الذهن؟
ولقد كافأك رب السماء العادل، مثل تيريسياس،
فوهبك النبوءة عوضًا عن فقدان بصرك.
من حقك أن تستهجن أن تسحر آذان قرائك
بقوافٍ رنانة، ما دمت على ثقة من جلال معانيك،
وأما شويعر البلدة فيجتهد في رصف القوافي
مثل حصان نقل المتاع الذي يتعب دون أجراس في عنقه.
وخيالات أمثال هذا تظهر كاللِّحىَ والشوارب
فالشعراء يتزينون بها، ونحن نعتبرها كالطرز الحديثة.
ولقد انجرفت أنا نفسي إلى هذا الطراز فأسأت التعبير
وإذا كنت قصدت المدح إذا بي طلبًا للقافية أزكيك!
إن نظمك الذي خُلِقَ مثل موضوعك ساميًا
في البحر الشعري وفي الوقع وفي المعيار لا يحتاج للقوافي.

چـــون درايـــدن

1- إبجرام[1]

ثَمَّ ثلاثةُ شعراءٍ ولدوا في عصور متباعدة
ويزينون اليونان وإيطاليا وانجلترا
كان الأول يتفوق في سمو الروح
والثاني في الجلال، والثالث في الصفتين معًا.
لم يكن في طوق قوة الطبيعة أن تتجاوز ذلك
فاضطرت إلى مزج الأولين حتى تبدع الثالث.

2- من تصدير الجزء الثاني من الكتابات المنوعة (*1685*)*

المحاكاة قضية دقيقة، وما أقل الشعراء الجديرين بأن يصبحوا أمثلة تحاكَى في كل مايكتبون. إن الفردوس المفقود التي كتبها ميلتون عمل رائع، فهل ينبغي لي لهذا السبب أن أقول إنه لا توجد أسطح منخفضة بين ارتفاعاته، والواضح أنه يزحف أحيانًا لما يزيد عن مائة سطر متوالية؟ أفلا أستطيع أن أبدي إعجابي بارتفاع خياله، وقوة تعبيره، دون أن أدافع عن كلماته المهجورة البالية وجرسها الأجش باستمرار؟ إن في ذلك من المديح ما يعادل الإقرار بامتيازه، وكل زيادة عن ذلك تحيل المديح إلى إجلال عبادة.

---

[1] (*) «تحت صورة ميلتون أمام فردوسه المفقود»، من كتاب:

John Dryden, Poems and Fables, ed. James Kinsley (London, OUP, 1962).

چـوزيف أديســون

من صحيفة ذا سپكتاتور العدد 297

(9 فبراير 1712)[2]

ولديَّ اعتراض آخر على القصة عند ميلتون، ويكاد يكون الاعتراض السابق نفسه، وإن وُضِعَ في ضوء مختلف، وهو أن البطل في الفردوس المفقود لا ينجح ولا يمكن اعتباره بحال من الأحوال من أنداد أعدائه. وكان ذلك ما دعا درايدن إلى أن يقول في تأملاته: إن الشيطان بطل ميلتون الحقيقي. وأظن أنني دحضت هذا الاعتراض في دراستي الأولى، فالفردوس المفقود ملحمة، أو قصيدة قصصية، ومن يبحث عن بطل فيها يبحث عن شيء لم يقصد إليه ميلتون قط، لكنه إذا كان لايزال يحتاج إلى إلصاق اسم البطل بأي شخص فيها، فالمؤكد أن المسيح هو البطل، سواء كان ذلك في الحدث الرئيسي أو في القصص المهمة. لم تستطع الوثنية أن تقدم حدثًا حقيقيًا يصلح للأسطورة أعظم مما قدمته الإلياذة أو الإنيادة، ومن ثم لم يكن بوسع الوثني أن يتصور قصيدة ما في صورة أرفع مما يبدو في أيهما، وهي التي يسمونها قصيدة بطولية. ولن أتجاسر فأبُتّ فيما إذا لم تكن قصيدة ميلتون ذات طبع أسمى، وأكتفي بأن أبين أن الفردوس المفقود تتمتع بجميع مظاهر العظمة في البناء، والانتظام في التركيب، وألوان الجمال الفائقة التي نجدها في هوميروس وفي ڤيرچيل.

٢* Works, ed. Scott and Saintsbury, vol. 12.

** Joseph Addison, The Spectator, ed. Donald Bond, vol. 3 (Oxford, Clarendon, 1965).

كانت مشاعر ميلتون وأفكاره ذات سمو بلغ من روعته أن جعل من المحال عليه أن يصورها بكل ما تتسم به من قوة وجمال، من دون الاستعانة بهذه العوامل الأجنبية، ولغتنا تتهاوى تحت أثقاله، ولم تكن مكافئة لعظمة روحه، وهي التي أمدته بصور بالغة البهاء.

ويعيب لغته عيبٌ آخر وهو أنه كثيرًا ما يأتي بألفاظ ذات جرس رنان طنان، على نحو ما نسمع فيما يلي وفي كثير غيره:

فَأَتى إلى الدُّنْيا بِدُنْيا مِنْ حَزَنْ!... /
سنُحِيطُ بِعَرْشِ الجَبَّارِ
لكيْ نتوسلَ أو نَضْربَ حَوْلَ العَرْشِ حِصَارًا!... /
مِمَّا أَغْوَانَا بِمُحَاوَلَةٍ مِنْ جَانِبِنَا... /
واسْتَعْلَى إذْ وَثَبَ بِخِفَّتِهِ وَثْبَةً فَعَلاَ كُلَّ حُدُودْ!

أعرف ما يطلقه علماء البلاغة على المحسنات البديعية في هذا الأسلوب، وأن بعض القدماء استخدموها في كتاباتهم، وأن أرسطو نفسه خصص لها موقعًا في كتابه عن البلاغة باعتبارها من محاسن ذلك الفن، ولكنها لما كانت في ذاتها ضعيفة وتافهة، فإنني أعتقد أن جميع أساتذة الأدب الرفيع ينقضونها الآن، فيما أتصور، ودون استثناء.

وآخر عيب أشير إليه في أسلوب ميلتون كثرة استعماله لما يسميه العلماء المصطلحات الفنية أو التقنية. فمن محاسن الشعر الكبرى تيسير أصعب الأمور وتقريبها إلى الأفهام، والتعبير عما يتسم بالعمق في ذاته بلغة سهلة يفهمها القراء العاديون، أضف إلى ذلك أن معرفة الشاعر ينبغي أن تبدو فطرية أو من بنات الوحي والإلهام لا مستقاة من الكتب والعلوم.

وكثيرًا ما كنت أدهش كيف استطاع درايدن أن يترجم نَصًّا من

نصوص ڤيرچيل على النحو التالي:

تنحرف السفينة يَسْرَةً ثم تقف بعُرْضِ البحر.

ثم تتحول يَمْنَةً في البحر وترسو على الشاطئ.

ويستخدم ميلتون مصطلح الانحراف «يسرة» بالطريقة نفسها. وعندما يعرض لتشييد المباني يذكر «العمد الدورية» ، والعضادات، والأطر، والأفاريز، والطلاء الذهبي. وعندما يتحدث عن الأجرام السماوية يذكر فلك البروج، والمدار الخارجي، والشعاع المغناطيسي، والنجوم الساقطة من نقطة السمت، والأشعة الصاعدة من خط الاستواء.

ويمكننا أن نضيف أمثلة كثيرة من هذا النوع، وهي المستمدة من عدة فنون وعلوم أخرى.

من صحيفة ذا سپكتاتور العدد 303

(16 فبراير 1712)[1]

* * * * *

لكنني لا أجد فقرة واحدة في القصيدة كلها أبدع الشاعر صياغتها فبلغت درجة من السمو تفوق الفقرة التي يصف فيها شخصه [أي الشيطان] في السطور الذائعة التالية:

...كانت هامته تعلو على الجميع
فبدا في صورته وحركته شامخًا متكبرًا
كالبرج الأشم،... إلخ.

ومشاعر إبليس تتفق مع كل زاوية مع شخصيته وتناسب كائنا مخلوقًا ذا طبيعة بلغت الذروة في السمو والانحطاط معًا. ومثال ذلك ما يقوله عندما يمتلك موقع تعذيبه:

... مرحبا بالهم والغم!
مرحبًا بالدرك الأسفل! وأنت يا أغوار الجحيم السحيقة
تقبلي ربك الجديد: رب يأتي إليك بذهن لا يتبدل
ولا ينال منه زمان أو مكان.

ويقول بعد ذلك:

إننا، على الأقل،
سننعم بالحرية هنا! إن ذا الجبروت لم ينشئ هذا المكان
ليبعث على الغبطة، ولذلك لن يخرجنا منه!

---

[1] (*) المرجع السابق نفسه.

لنا أن نسود هنا آمنين، وإنني لأرى
أن السيادة مطمع رفيع ولو كانت في الجحيم
سيد في جهنم أكرم من عبد في الجنة!

وهذه العبارات الكافرة التي تنطق بها هذه الروح التي يتملكها الحنق في مواقع أخرى من القصيدة، يحرص المؤلف على ألا يجعل كلا منها تتضخم بسخافة منطقها وفساده، بحيث لا تؤذي مشاعر القارئ المتدين، فكلمات إبليس توحي بمعان جليلة وهي منها خواء، كما يقول الشاعر في وصفها. كما يتفنن ميلتون في تبيان اعتراف إبليس بأن الله القهار خصمه، ومهما يقدمْ من تفاسير فاسدة لعدل الله ورحمته وصفاته الأخرى، فإنه كثيرًا ما يعترف بأن الله قادر على كل شيء، فذلك هو الكمال الذي يضطر إلى نسبته إلى الله، و«الاعتبار» الوحيد الذي يساند كبرياءه حتى وهو يشعر بعار هزيمته.

وهل أستطيع أن أتجاهل الإشارة إلى الوصف الجميل لبكاء إبليس عندما ألقى بصره على الأعداد التي لا تحصى من الأرواح التي شاركت في جريمته وتحملت مثل ذنبه وسقطت مثلما سقط؟

وتهيأ الآن للحديث
بينما أخذت صفوفهم المزدوجة تنحني
من الجناحين حتى كادوا يحيطون به
هو وأقرانه، وقد عقد الترقب ألسنتهم.
ثلاث مرات حاول أن ينطق، وثلاث مرات - رغمًا عنه -
تفجرت من عينيه دموع كدموع الملائكة...

* * * * *

ڤولتير

من كانديد (*1759*)

[يقوم كانديد ورفيقه مارتن بزيارة قصر «پوكوكورانتي» - أي الذي لا يأبه لشيء - وهو من نبلاء البندقية. وفي مكتبة بوكوكورانتي يعبر هذا النبيل عن آراء سلبية في الكثير من كبار المؤلفين، وآخر مؤلف يتعرض للانتقاد بأسلوب فكه هو ميلتون. ولكن پوكوكورانتي يثبت أنه اسم على مسمى في هجومه الغاص بالأخطاء. وهنا يسخر ڤولتير من النقد الأدبي في عصره، ولكنه في مقاله عن الشعر الملحمي (*1728*) يمتدح ميلتون أكبر مديح وأعظمه].

وعندما شاهد كانديد مجلدا من قصيدة الفردوس المفقود لميلتون، سأل مضيفه پوكوكورانتي إن لم يكن يعتبر هذا المؤلف على الأقل رجلاً عظيمًا. ورد پوكوكورانتي قائلاً: «من ذلك الهمجي الذي كتب تفسيرًا مطولاً للفصل الأول من سفر التكوين في عشرة كتب من النظم الطنان؟ ذلك الذي يحاكي اليونان محاكاة غير بارعة، والذي شوه صورة الخلق؟ لقد بين لنا موسى أن الإله الخالد أنشأ الدنيا بكلمة منه، ولكن هذا يجعل المسيح يأتي بفرجار ضخم من صوانه السماوي ويخطط لما سوف يفعله مقدمًا! هل أستطيع إبداء تقديري لمؤلف يفسد الصورة التي رسمها تاسو للجحيم وللشيطان، ويجعل إبليس يتنكر آنًا في شكل ضفدعة، وآنًا آخر في شكل قزم صغير؟ من يجعل إبليس يكرر مائة مرة نفس الحجج والمنازعات اللاهوتية؟ من يأخذ على محمل الجد حادثة فكاهية يرويها أروسطو فيجعل

الشياطين تطلق نيران المدافع في السماء؟ إنني لا أجد متعة، ولا يجد أي إنسان في إيطاليا متعة في هذه المبالغات المؤسفة! إن اتحاد الخطيئة والموت، والثعابين التي تلدها الخطيئة تدفع أي إنسان ذي حساسية إلى التقيؤ. كما أن الوصف المطول للمستشفى لا يصلح لأحد عدا حفار القبور، أو لص القبور! إن هذه القصيدة الغامضة الغريبة المقززة قوبلت بالاحتقار في بلدها منذ مولدها، وأنا أتفق مع هؤلاء!.

من مقال حول الحروب الأهلية في فرنسا...
وأيضًا حول الشعر الملحمي
للأمم الأوروبية من هوميروس إلى ميلتون (*1727*)[1]

* * * * *

كل ما تناوله ميلتون بجرأة أداه بقوة فائقة في الحكم، وبمخيلة أتت بألوان من الجمال لم يكن أحد يحلم بها من قبل. والتدني (إن كان ثَمّ أيٌّ تدنٍّ) في الموضوع، يضيع في غمرة الابتكار الشعري الهائل.

* * * * *

دائمًا ما كنت أُبدِي الإعجاب بمدى ما يظهر في الموضوع من عُقْمٍ ومدى ما يأتي به من الثمار في يديه.

إن الفردوس المفقود هي القصيدة الوحيدة التي نجد فيها، على أكمل وجه، ذلك الاتساق الذي يشبع الذهن وذلك التنوع الذي يُمتع الخيال.

* * * * *

دائمًا ما يصور الوثنيون الله في صورة طاغية لا حد لقوته، وكثيرًا ما يفعل اليهود ذلك، وأحيانًا ما يفعله كهاننا المسيحيون، ولكن الله عند ميلتون خلاق على الدوام، وأبٌ وقاضٍ؛ كما إن انتقامه لا يتناقض مع رحمته، وما كتبه وقضى به لا يتناقض مع حرية الإنسان. والقصيدة تقدم صورًا تسمو بنفس القارئ حقا. وميلتون من هذه الزاوية ومن زوايا أخرى كثيرة يعلو على الشعراء القدماء عُلُوًا يوازي علو الدين المسيحي على الخرافات الوثنية.

* * * * *

من الملاحظ أن جميع القصائد الأخرى تصور الحب في صورة رذيلة،

---

* Le Bossu & Voltaire on the Epided. Stuart Curran (١٩٧٠).

وفي قصيدة ميلتون وحدها يبدو فضيلة. والصور التي يرسمها له عارية مثل من يتكلم عنهما، وتتمتع بالوقار والتبجيل ذاته. وهو يزيل بيد عفيفة النقاب الذي يغطي في كل مكان آخر مسرات هذه العاطفة ومتعها، فهنا نجد التلطف والرقة والدفء من دون فسوق، فالشاعر يسمو بنفسه وبنا إلى حال السعادة البريئة التي عاش فيها آدم وحواء فترة قصيرة.

* * * * *

صمويل چونسون

من كتاب سير الشعراء الإنجليز (*1779*)[1]

* * * * *

أبدأ الآن في فحص الفردوس المفقود وهي قصيدة ربما كانت تشغل المكانة الأولى من حيث البناء، والمكانة الثانية من حيث الأداء، بين ما أثمرته قريحة الإنسان.

يتفق النقاد على أن أعلى مدائح العبقرية من حق كاتب الملحمة، مادامت كتابتها تقتضي استجماع شتى الطاقات التي تكفي كل منها، مفردةً، لتأليف الأنواع الشعرية الأخرى. الشعر فن التوحيد بين المتعة والحقيقة، باستدعاء المخيلة لمساعدة العقل، فالشعر الملحمي يتولى تعليم الناس أهم الحقائق من خلال أمتع المفاهيم، ومن ثم فهو يروي حدثًا عظيمًا من لون ما بأشد الطرق تأثيرًا. ولابد أن يستمد الكاتب من التاريخ العناصر الأولى للقصة، وعليه أن يُحَسِّنَها ويسمو بها من خلال فن أنبل، وأن يبث فيها الحياة من خلال الطاقة الدرامية، وأن يلجأ إلى التنويع في السرد من خلال استرجاع الماضي واستشراف المستقبل، وسوف يتعرف في علم الأخلاق على الحدود الدقيقة للرذيلة والفضيلة، وعلى ظلالهما المختلفة، وعليه أن يتعلم من سلوك الناس وممارسة الحياة أساليب الحكم على الشخصية وميول المشاعر، منفصلة أو مجتمعة، كما لابد أن يستقي من الفسيولوچيا الأمثلة الإيضاحية والصور. وتسخير هذه المواد في كتابة الشعر يتطلب مخيلة قادرة

---

*Samuel Johnson, Lives of the English Poets vol. I, ed. George Birkbeck Hill (Oxford: Clarendon Press, 1992).

على رسم الطبيعة وكساء الوهم ثوب الواقع. بل ولن يصبح شاعرًا إلا إذا وصل إلى ذروة التمكن من لغته، وتعلم التمييز بين ضروب الصياغة الدقيقة، وشتى ألوان الكلمات، وتعلم تكييف أصواتها لشتى أنواع الزحاف العروضي.

كان بوسي يعتقد أن مهمة الشاعر الأولى أن يجد مغزًى أو فكرة أخلاقية تصورها قصته فيما بعد وترسي أسسها. ويبدو أن هذا هو ما اتبعه ميلتون وحده، فالمغزى في القصائد الأخرى ذو طبع عابر ولاحق، ولكنه عند ميلتون وحده جوهري وأصيل. كان غرضها أنفع الأغراض وأعسرها تحقيقًا، أي أن يشرح حكمة ما يفعله الله بالإنسان، أو أن يبين «معقولية» الدين وضرورة طاعة القانون الإلهي.

* * * * *

عادة ما يكون موضوع القصيدة الملحمية حدثًا ذا أهمية بالغة. ولا يتمثل عند ميلتون في تدمير مدينة أو إدارة مستعمرة أو إنشاء إمبراطورية، بل إن موضوعه هو مصير العوالم، ودورات السماء والأرض؛ والتمرد على ملك السماء الأعلى من جانب أعلى مرتبة من الكائنات المخلوقة، واندحار حشدهم وعقابهم على جريمتهم، وخلق سلالة جديدة من الكائنات العاقلة، وكيف كانت سعادتهما وبراءتهما الأصلية، ثم نبذهما للخلود وإعادتهما للأمل والطمأنينة.

* * * * *

وأديسون مصيب في قوله:إن هذه القصيدة، بفضل طبيعة موضوعها، تتمتع بمزية فوق كل ما عداها، ألا وهي أنها تثير اهتمام الجميع في كل مكان وعلى الدوام. فجميع البشر سوف تربطهم العلاقة نفسها، مهما

اختلفت العصور، بآدم وحواء، ولابد أن يشاركوا في الخير والشر اللذين يمتدان إليهم.

* * * * *

إن الأفكار التي أحيانًا ما تستدعيها القصة أفكار من نوع لا يمكن أن تأتي به غير مخيلة شديدة التوهج والنشاط، وهي التي تستمد موادها من الدرس الذي لا يتوقف وحب الاستطلاع الذي لا حدود له. ولنا أن نقول: إن توهج ذهن ميلتون يُقَطِّرُ معرفته تقطيرًا يتيح له أن يسكب في عمله روح العلم المقطرة، بعد تخليصها من الشوائب.

* * * * *

والخصيصة التي تميز هذه القصيدة هي السمو. وأحيانًا ما يهبط ميلتون إلى مستوى رشاقة الأسلوب، ولكن العنصر الخاص به هو العظمة. ويستطيع في بعض المواقع أن يتحلى بالتأنق والتنميق، ولكن مرفأه الطبيعي هو الرفعة الهائلة(1). وهو يستطيع تحقيق المتعة حين تقتضي الحال الإمتاع، ولكن قوته الخاصة تكمن في قدرته على إثارة الدهشة.

ويبدو أنه يعرف عبقريته الخاصة خير المعرفة، ويعرف ما حبته به الطبيعة بسخاء يزيد عما حبت به غيره، مثل القدرة على عرض ما هو شاسع، وإضاءة ما هو باهر، وفرض ما يبعث على الرهبة قسرًا، وإظلام ما هو كئيب، وتضخيم ما يثير الفزع، ومن ثم فقد اختار موضوعًا يصعب أن يقال فيه أكثر مما ينبغي، ويجوز له أن يرهق خياله فيه دون أن يؤنبه أحد على الإسراف.

---

(1) يطلق عليها الجاروني تعبير

(gigantesca sublimita Miltoniana)

(أى السمو الميلتوني الهائل) - جونسون.

لم تكن مظاهر الطبيعة وأحداث الحياة تشبع نهمه للعظمة. وتصوير الأشياء كما هي في الواقع يتطلب يقظة للتفاصيل الدقيقة، ويتوسل بالذاكرة لا بالمخيلة. وكان ميلتون يجد سعادته في أن يلهو في الساحات الرحيبة لما هو ممكن، وأما الواقع فكان مشهدًا أضيق من أن يقبله عقله. كان يرسل ملكاته في رحلة اكتشاف، إلى عوالم لا يستطيع السفر فيها سوى الخيال، وكان يسعده أن يشكل أنماط وجود جديدة، وأن يضفي المشاعر والقدرة على العمل على كائنات فائقة، وأن يرصد اجتماعات الجحيم أو يصاحب المنشدين في الجنة.

ولكنه لم يكن يستطيع دائمًا أن يمكث في عوالم أخرى، ولم يكن أمامه مفر من أن يعود إلى زيارة الأرض من جديد، وأن يتحدث عما هو مرئي ومعروف. وكان عندما يعجز عن إثارة الدهشة من خلال سمو ذهنه، يمنحنا المتعة بفضل خصب ذلك الذهن.

* * * * *

ولكنَّ في القصيدة نقصًا من المحال استكماله، فنحن نشعر دائمًا بالافتقار إلى الاهتمام بالبشر. وهكذا فإن الفردوس المفقود كتاب من الكتب التي يبدي القارئ إعجابه بها ثم يتركها، وينسى أن يفتحها من جديد. والكتاب طويل إلى أقصى مدى ممكن. وقراءته واجب لا متعة. ونحن نقرأ ميلتون للتعليم، ثم ننزوي شاعرين بالضيق وثقل العبء، ثم نبحث عن التسرية في كتاب آخر. أي إننا نهجر مُعَلِّمنا وننشد أصحابًا نأتنس بهم.

* * * * *

لا شك أن القصة الرمزية للخطيئة والموت في ميلتون معيبة. فالحق

أن الخطيئة أم الموت، ويجوز أن نتيح لها أن تكون حارسة باب جهنم، ولكنهما عندما يقطعان رحلة إبليس، وهي الرحلة التي توصف بأوصاف واقعية، ويعرض الموت منازلته، ينكسر الاتساق الرمزي. فقد نقبل أن يدله الموت والخطيئة على الطريق إلى جهنم، ولكنهما لايستطيعان تيسير مروره ببناء جسر، لأن الشاعر يصف صعوبة رحلة إبليس استنادًا إلى عقبات حسية حقيقية، والجسر لابد أن يكون رمزيًا وحسب. والجحيم التي خصصت للأرواح المتمردة توصف وصفًا يجعلها لا تقل تجسيدًا عن مكان إقامة الإنسان، فالشاعر يحدد لها مكانًا نائيًا في الفضاء، بحيث لا يفصلها عن أصقاع التوافق والنظام إلا بَرِّيَّة من العماء وفراغٌ لا يشغله شيء. ولكن الخطيئة والموت استطاعا بناء «تل من التربة المتراكمة» ، ودعماه بالأسفلت، وهو عمل بالغ الضخامة يستعصي على المهندس المعماري المثالي.

ويبدو لي أن هذه القصة الرمزية الخرقاء من أكبر عيوب القصيدة، ولم يكن في سياق الملحمة ما يغري بها إلا ما رآه المؤلف فيها من جمال.

* * * * *

وإذا تأملنا أعمال الشاعر العظيمة رأينا ما يسودها من غرابة موحدة في المفردات، وطريقة في التعبير والصياغة التي لا تكاد تشبه طريقة أي مؤلف سابق، كما تتسم بالبعد الشديد عن الاستعمال الشائع إلى الحد الذي يجعل القارئ غير المثقف يُفَاجَأ عندما يفتح الكتاب أول مرة بلغة جديدة.

والذين لا يستطيعون أن يجدوا عيوبًا في ميلتون ينسبون هذه الجِدَّةَ إلى جهوده الشاقة للعثور على كلمات تناسب جلال أفكاره. ويقول أديسون:

«إن لغتنا تتهاوى تحت أثقاله»، ولكن الحقيقة هي أنه، في نثره وشعره، قد بنى أسلوبه على مبدأ المشاكسة والتحذلق، إذ كان

يريد أن يستخدم كلمات اللغة الإنجليزية بالمصطلح اللغوي الأجنبي. ولقد اكتشف الناس ذلك في نثره وأدانوه، ففي النثر يمارس القارئ «الحكم» بحرية، فلا يخفف من أحكامه جمال النظم ولا يرهبه جلال الفكر، ولكن للشعر قوة جبارة تجعل القارئ يستجيب لما يدعو إليه الشاعر دون مقاومة، فالقارئ يشعر أنه أسير في أغلال ذهن أسمى وأنبل، فيغرق النقد في بحر الإعجاب.

* * * * *

إن أعلى مديح للعبقرية وصفها بأصالة الابتكار. ومن المحال أن يقال إن ميلتون قد ابتكر بناء القصيدة الملحمية، ومن ثم فهو يدين بالتوقير، مثلما تدين جميع الأجيال، للذهن الذي استطاع بفضل قوته ورحابته أن يبتكر فن السرد الشعري، ونسيج القصة، وتنويع الأحداث، وتداخل الحوار، وشتى الأحابيل التي تفاجئ القارئ وتستحوذ على انتباهه. ولكننا إذا نظرنا إلى الشعراء المدينين لهوميروس فربما وجدنا أن دَيْنَ ميلتون يقل عن ديونهم جميعًا لأنه كان بطبيعته يتمتع بفكر مستقل، واثقًا من قدراته الخاصة، نابذًا للمساعدة أو التعويق، والحق أنه لم يرفض أفكار أسلافه أو صورهم، ولكنه لم يطلبها. كما إنه لم يَسْعَ إلى معونة معاصريه ولم يتلقَّ أي قدر منها. ولن تجد في كتاباته ما يمكن أن يعتز به المؤلفون الآخرون أو ينسبوا الفضل فيه لأنفسهم، ولن تجد تبادلا للمديح أو نُشْدَانًا للعون. لقد كتب أعظم أعماله في جو مثبط للهمم وبعد أن كُفَّ بصره، ولكن الصعوبات كانت تتلاشى أمامه، إذ إنه ولد ليقوم بكل ما هو شاق وعسير، ولا نقول إن ملحمته أعظم الملاحم إلا لأنها لم تكن الأولى.

* * * * *

شاتو بريان
(فرانسوا-رينيه ، ڤيكونت دي شاتوبريان)
من الخطوط العريضة للأدب الإنجليزي (1836)

* * * * *

هل أبدع أحد من قبل كتابة كهذه؟ وأي شاعر تحدث من قبل بهذه اللغة؟ ما أفقر ما تبدو جميع المؤلفات الحديثة بجوار هذه الصور الذهنية القوية الرائعة.

* * * * *

إن في القصيدة شيئًا يبدو لأول وهلة عسير التفسير، فجمهورية الجحيم تحاول الإطاحة بنظام السماء الملكي، وميلتون، على الرغم من مشاعره المنحازة تمامًا للجمهورية، ينسب العدل والنصر دائمًا لله القدير! وسبب هذا أن الشاعر كان يخضع لآرائه الدينية. ووفقًا لما كانت تنادي به حركة المستقلين (الدينية والسياسية) كان يرغب في إقامة جمهورية دينية، وحرية تقوم على المراتب، ولا تخضع إلا لسلطان السماء. وكان قد سبق له أن صور كرومويل في صورة قائد جند الله وحامي حمى الجمهورية:

كرومويل! يا قائد رجالنا! يا من لم تكتف بخوض
سحابة الحرب بل قهرت فظاظة من يحطون من قدرك،
إذ يهديك الإيمان ويهديك جَلَدٌ لا يُبارى،
فشققت طريق المجد إلى السلام والحقيقة
وطوقت رقبة ربة الحظ المزهوة
بأكاليل غار الله ، ونفذت ما أمر به،

فسمعت ثناءك يدوي عاليًا في نهر دارْوِنْ
الذي اصطبغ بالدم الاسكتلندي، وفي ميدان دنبار الشاسع،
وكُلِّلْتَ بِطَاقَاتِ الزهر في وُسْتَرْ! ولكنْ مازال عليك
أن تنجز المزيد، فللسلام أكاليل غار لا تقل
شهرة عن أكاليل الحرب! وفي كل يوم يهب أعداء جدد
يهددون بأن يَغُلُّوا أرواحنا في أصفاد دنيوية!
ساعدنا على إنقاذ ضمائرنا من براثن
الذئاب الأخيرة التي لا تؤمن إلا بملء بطونها!

وتصور مخيلة ميلتون إبليس وقبيله في صورة المشيخيين المستكبرين الذين رفضوا الانصياع إلى حزب «القديسين»، وهو الحزب الذي ينتمي إليه ميلتون، والذي كان يُحَيِّي كرومويل الملهم باعتباره زعيمه التقي الورع.

إننا نحس في ميلتون نَفْسًا تكدر صفوها فاضطربت، إذ كان لايزال خاضعًا لتأثير المشاهد والمشاعر الثورية، ولكنه وقف صامدًا بعد سقوط الثورة التي فرت إليه تطلب الاحتماء، وظلت تخفق بين جوانحه. ولكن حماس تلك الثورة يغلبه، والوقار الديني يشكل الكفة التي تعادل كفة اضطرابه السياسي. ومع ذلك فلقد كان مذهولاً من انقشاع أعز أوهامه إلى قلبه، وتبخر أحلامه بالحرية، فلم يعد يدري أيان يمضي، ويظل في حيرة وبلبلة، لكنه يستمسك بالحقيقة الدينية.

* * * * *

وليم بليك

من اقتران الجنة والنار (*1793*)[1]

من فصل عنوانه: «صوت الشيطان» (اللوحتان 5 -6)

* * * * *

من يتحكمون في رغباتهم، ينجحون في ذلك لأن ضعف رغباتهم يمكنهم من التحكم فيها، والقوة «المتحكمة» ، أي العقل، تغتصب مكانها وتسيطر على غير الراغبين.

والرغبة حين تخضع للسيطرة تصبح سلبية بالتدريج حتى تتحول إلى ظل للرغبة وحسب.

وقصة ذلك مكتوبة في الفردوس المفقود، والحاكم «المتحكم» أو العقل، يسمى المسيح.

والملاك الأكبر الأصلي، أو من بيده قيادة الملأ الأعلى، يسمى الشيطان أو إبليس، وابناه يسميان الخطيئة والموت.

ولكن في سفر أيوب نجد أن مسيح ميلتون يسمى إبليس.

إذ إن هذه القصة قد اعتنقها الحزبان جميعًا.

والواقع أنه قد ظهر للعقل كأن الرغبة قد نُبِذَتْ ولكن رواية الشيطان تقول: إن المسيح قد سقط وأقام جنة مما سرقه من الهوة.

وهذا مبين في الإنجيل حيث يصلي ويدعو الأب إلى إرسال صاحب العزاء والسلوى، أي الرغبة، حتى يتيح للعقل أفكارًا يبنيها على أساسها، وما يهوه في الكتاب المقدس إلا [الشيطان مشطوبة] ذلك الذي يقيم في النار

---

* William Blake's Writings, Vol. I, ed. G. E. Bentley, Jr. (Oxford: Clarendon, 1978).

الموقدة.

واعلم أنه بعد وفاة المسيح أصبح يهوه.

ولكننا نرى في ميلتون أن الأب هو القدر، الابن، نسبة من الحواس الخمس والروح القدس، فراغ!

ملاحظة: كان ميلتون يكتب مغلولَ اليدين عن الملائكة وا لله ، ويكتب في حرية عندما يتحدث عن الشياطين والجحيم، وذلك لأنه كان شاعرًا بحق وكان من حزب الشيطان دون أن يدري.

* * * * *

وليـــم وردزورث

لندن، 1802[1]

ميلتون! ليتك كنت تحيا بيننا اليوم
فإنجلترا في حاجة إليك. لقد غدت مستنقعًا
من المياه الراكدة. وانظر إلى المعبد والسيف والقلم
والمدفأة والثروة البطولية للقاعة والخميلة
تجد أنها تَخَلَّتْ عن تراثها الإنجليزي العريق
من السعادة الباطنة. لكم تسودنا الأنانية.
فاجعلنا ننهضْ! عُدْ إلينا من جديد
وامنحنا الأخلاق والفضيلة والحرية والقوة.
كانت روحك مثل نجم يسطع بعيدًا عن الجميع
وكان صوتك يهدر كالبحر
طاهرًا كالسماء الصافية، جليلاً حُرًا،
ولكم سافرتَ في درب الحياة المعتاد
بروح وَرَعٍ مشرقة بشوشة، ولكن قلبك
كان يفرضُ على نفسه القيام بأشد الواجبات تواضعًا.

---

* من كتاب:

William Wordsworth, ed. Stephen Gill (Oxford: OUP, 1984).

صمويل تايلور كولريدج

من المحاضرة الرابعة (4 مارس 1819)[1]

* * * * *

لم يكن من الممكن تصور هذا العمل وإنجازه إلا في ظروف خاصة، ومن المحال تحقيقه في سواها، ألا وهي طهارة الذهن والورع، وتوافر مخيلة لا تجد في الماضي أو الحاضر ما يثير اهتمامها إلا ما يستطيع أن يستدعي المثل الأعلى الأعظم ويحتضنه، ففيه ومن أجله يحيا المرء، إلى جانب العشق الجارف للحقيقة، وهو العشق الذي تمَكَّنَ بعد محاولات كثيرة مُضنية أنْ يَجِدَ المرفأ في الإصغاء السامي إلى الصوتِ الخفيض في أعماق روحه، وإلى جانب الحب الجارف أيضًا للوطن، وهو الحب الذي مَكَّنَهُ من بعد خيبةِ أملٍ كانت قمينةً بتعميق الكآبة، أن يُنْضِجَ حبه ويوسع نطاقه ليغدو حبًا للإنسان باعتباره خاضعًا لاختبار الخلود.

* * * * *

قد نقارنها بالإلياذة التي تقبل تغيير أماكن كثير من كتبها من دون إضرار بالخيط القصصي، وثانيًا بالإلياذة أيضًا وغيرها من القصائد التي تُعتبر إلى حد ما ملحمية ما دامت تستمد مادتها من التاريخ، وليست لها خاتمةٌ مُحْكَمَةٌ، فما هي في آخر المطاف إلا فصل واحد من فصول التاريخ، وإن كان فصلاً مُنَمَّقًا مُزَيَّنًا. ولنظر أيضًا إلى أهمية الموضوع عند هوميروس ألا

1 Samuel Taylor Coleridge, Lectures 1808-1819 on Literature, ed. R. A. Foak Princeton UP, 1987).

وهو أول جهد يُبْذَلُ لتوحيد بلاد اليونان، تجد أنه من الأفكار التي أتى بها النقاد فيما بعد، كما أن أهميته، بِغَضِّ النظر عن مداها، مستقاةٌ من الحادثة التاريخية لا من أسلوب تمثيل هذه الحادثة في القصيدة، وهي كليلةٌ في نظر الجميع إلا اليونان. أقول: إذا قارنّا الفردوس المفقود بها اتضح لنا تفوق القصيدة الإنجليزية، وإن لم يكثرِ النقادُ من قول ذلك لأنه من الممكن أن تُنْسَبَ إلى المسيحية نفسها، ولكن القصيدة في هذه الحالة تشمل العالم الإسلامي كله مثلما تشمل العالم المسيحي، إذ إن أصل الشر، والصراع ما بين الشر والخير، أمر بالغ الأهمية للبشرية جمعاء إلى الحد الذي يجعله يشكل أساس جميع الأديان، ويمثل الفرصة الحقة لإعمال الفكر الفلسفي برمته.

وانظر بعد ذلك إلى البساطة الرائعة الجذابة. إنها وحدها التي تتميز ببداية ووسط ونهاية، أي تمثل الشكل الكامل أو الدائرة الشعرية الكاملة، تميزًا لها عن رصد المولد في البداية ورصد السلالة وما إلى ذلك، أو الخط المستقيم الذي تتسم به كتابة التاريخ.

* * * * *

مذكرات عامة لمحاضرة
(ميلتون والفردوس المفقود)

* * * * *

تتسم شخصية إبليس بالكبرياء والانغماس في الملاذّ الحسية، إذ يجد في الذات الدافع الأوحد لكل فعل يفعله. وهذا الطابع هو الذي كثيرًا ما نراه بصورة مصغرة على المسرح السياسي. إنه يكشف عن جميع صفات القلق والجرأة الوقحة والدهاء التي ميزت صائدي البشرية الجبابرة من النمروذ إلى نابليون. وما يبهر الناس بعامة هو أن هؤلاء العظماء المزعومين لابد أن يصدروا في فعالهم عن دافع عظيم من لون ما. ولقد حرص ميلتون على أن يرصد في إبليس الذي يصوره طابع الأنانية العميق، وخمر حب الذات، وهو الذي يجعله يفضل أن يصبح سيدًا في جهنم على أن يظل عبدًا في الجنة. والغرض المحدد الذي يرمي إليه ميلتون من تصوير شخصية إبليس هو إقامة معارضة بين شهوة الذات المذكورة وبين إنكار الذات أو الواجب، وأن يبين الجهود المضنية التي تبذلها الذات، والآلام التي تعانيها في سبيل تحقيق هذه الغاية، ولكن ميلتون يكسو هذه الشخصية كساء فريدًا من الجسارة، ومعاناة ذات جلال، وبهاءً خبا وذوى، وهو ما يشكل ذروة السمو الشعري نفسها.

* * * * *

من المحال أن ينتهي فرد من قراءة هذه القصيدة الخالدة دون أن يخرج بإحساس عميق بجلال روح ميلتون وطهرها، أو دون أن يشعر كم كان مرهف الحساسية راغبًا في متع الحياة المنزلية، على الرغم مما صادفه من

المتاعب الناجمة في الواقع من اختيار غير موفق لزوجاته. كان رجلاً صالحًا مثل كل شاعر عظيم حقًا على مر التاريخ، لكنه حين وجد من المحال تحقيق ما يصبو إليه ويطمح، سواء كان ذلك في الدين أو السياسة أو في المجتمع، وهب قلبه برمته إلى الروح الحية والنور الساطع في باطنه، وثأر من الدنيا بأن أثراها بما سجله من مثله الأعلى المتعالي.

من حديث المائدة

(أنانية ميلتون، أغسطس *1883*)[1]

في الفردوس المفقود، بل في كل قصيدة من قصائده، تجد أنك ترى ميلتون نفسه، فإبليس لديه، وآدم، وروفائيل، وأكاد أقول حواء أيضًا - كلهم چون ميلتون. والواقع أن ذلك الإحساس بالأنانية العميقة هو الذي يمنحني أعظم متعة في قراءة أعمال ميلتون. وأنانية مثل هذا الرجل روح تتجلى.

---

[1] Table Talk, ed. Carl Woodring (Princeton, NJ: Princeton UP, 1990).

چورچ جوردون، لورد بايرون

من دون چوان (1819–1824)[2]

من الإهداء

(10)

إن كان ميلتون قد شكا للدهر، ذاك المنتقم،
«أيامَ شَرٍّ قد نزلتُ بها وألسنةَ شُرور»،
إن كان ذاك الدهر، ذاك المنتقم،
لا يغفر الأخطاء بل يلعنها،
حتى غدا ميلتون يرادف كل رفعة
فإنه ما خان يومًا نفسه في أي قافية كتب
كلا ولا استغل الموهبة
فيما يعد جريمةً
ولم يحول بغضه للأب مدحًا لابنه بعد وفاته!
بل ظل يكره الطغاة دائمًا حتى النهاية!

(11)

ألا تظن أن ذلك الكفيف، ذلك الهرم،
لو استطاع أن يقوم مثل صموئيل من قبره
سوف يجمد الدماء من جديد في عروق المالكين
بما لديه من نبوءات اليقين؟
وسوف يحيا من جديد بعد أن أشابه الزمان والهرم

* George Gordon, Lord Byron, Poetical Works, ed. John Jump, 2nd ed. (Oxford: OUP, 1970).

ورغم عجز العين رغم قسوة البنات
رغم البلى رغم الشحوب والعوز
فهل تراه يعبد السلطان؟ وهل يطيع يا ترى
من جَبٌ فِكْرَةُ الخِصَاءُ - كاسلري؟

من النشيد الثالث

(91)

إن ميلتون أمير الشعراء، وهذا ما نقوله،
ممل بعض الشيء، لكنه رائع ملهم،
كائن مستقل في زمانه
علاَّمَةٌ، ورع، ومعتدل في الحب والنبيذ،
ولكنْ لما كتب جونسون سيرته،
أخبرنا أن هذا الكاهن الأعظم لربات الشعر التسع جميعًا
كان يُضْرَبُ بالسوط في الكلية،
وكان والدًا قاسيًا، وزوجًا عجيبًا،
إذ هجرت زوجته الأولى منزله.

وولتر سفدج لاندور

من:المناقشات الخيالية (*1846*)[1]

* * * * *

سَذِي: يبدو أن الشاعر لم يقصد تصوير شخصية رئيسية في الفردوس المفقود وليس صحيحًا، ولا هو من الذكاء في شيء، أن يقال إن إبليس بطل الملحمة، إلا على نحو ما اعتدناه في حياة البشر، إن كان أعظم بطل يتيح أقصى مجال لهيمنة أسوأ المشاعر. فآدم هو أكثر من فيها أفعالا وأشدهم معاناة، وأشد من يتعرض للعواقب. وهذا يجعله الشخصية الرئيسية، وإن كانت حواء ذات شخصية أطرف، فإن إبليس يتميز بطاقة أكبر، وقوة الشعر في تصويره أعظم. وأما تصوير الخالق وملائكته فيأتي في المرتبة الثانية.

لاندور: أليس علينا أن نعترف بأن كل ملحمة سابقة كانت تتسم بعيوب في البناء، بل وأن كلا منها، حتى عهد تاسُّو، كانت تزيد خللاً عن سابقتها؟ لم يحدث من قبل أن اجتمعت العبقرية المذهلة بالخيال الخصب والفصاحة الدفاقة والذكاء الوقاد مثلما اجتمعت في الفردوس المفقود. ولكنها لا تتمتع بما تتمتع به الإلياذة من «صحة» أو تنوع، بل ولا يجارى الحدث، على أهميته الكبرى، أحداث الإلياذة في طرافتها. و«العظة» الأخلاقية نفسها هي التي ترهق القراء حتى من يصر منهم على ضرورتها. فالملحمة تقوم على حادثة تؤمن بها جميع الأمم تقريبًا، ولذلك فهي ترسي مبدأ يتعلق برفاهية كل فرد، وحقيقة تؤكد صحتها خبرة كل إنسان: ألا وهي أن الشقاء العظيم الذي لا علاج له قد ينشأ من معاص طفيفة في ظاهرها. ولكن هل بوسع

* Walter Savage Landor, ed. Charles G. Crump (London: Dent, 1941).

أحد أن يقول، من وجهة نظر شعرية، إن وثوقنا بالحقيقة الأخلاقية في هذا الموقف يعادل تشككنا فيمن يسميه النقاد بطل الملحمة؟

* * * * *

تقدمه بإذعان الحياء وتواضع الكبرياء
وعذب التمنع ودلال الأحبة.

ليتني كنت كتبت هذين السطرين اللذين يفضلان كل الشعر الذي كتب منذ عهد ميلتون في شتى أصقاع الأرض، فلسوف نرى من جديد شعرًا يعادل، ولو اختلفت الأساليب، شعر هؤلاء، ولكن هذين السطرين يقدمان أرق صور ومشاعر في بلاغة لا يستطيع اللحاق بها أحد. لا تتفوه بما أظنه على شفتيك، أي إن الخصلات الذهبية في عقصاتها الشاردة لا تضمر معنى الإذعان.

* * * * *

سَذِي: يبدو لي إذن أن التاريخ يقول إن أول جريمة سافرة للملائكة العصاة كانت استخدام التوريات اللفظية، إذ سرعان ما سقطوا بعدها.

* * * * *

لاندور: عليّ أن أعترف بأن أذني لم تستسغ شيئًا على امتداد أيام وأسابيع بعد تناغم ألحان الفردوس المفقود، وبعد أن غادرت ذلك المعبد الرائع الجليل يصعب أن أقنع ولو بالقصور التي بنتها الجان، والخزائن الفاخرة المزخرفة بالنقوش البارزة، والصور التي تضم جميع الأنواع معًا في شيكسبير.

* * * * *

من بعد قراءة الفردوس المفقود لا أجد ما يرضيني عند أي شاعر آخر، فكأنني تركت موسيقى هاندل كي أستمع لموسيقى الشوارع أو، على أفضل تقدير، للطبول والمزامير. وعلى الرغم من أن نصوص شيكسبير تقدم ألحانًا متوافقة لا تقل سُمُوّا ورفعة في بعض الأحيان، فإن هذه الألحان لو استمرت لأذت السمع لا في الكوميديا فقط بل في التراچيديا أيضًا. فالجانب الأكبر يجب أن يعتمد على التكافؤ والتقابل في الحوار، ولو كان مستوى الإثارة واحدًا في البداية والوسط والنهاية، أي لو كان من نتائج ذلك أن يظل مستوى اللغة والنظم رفيعًا لا يتغير طوال العمل (وهو ما لا بد أن يكون) فلسوف تصبح أي قصيدة طويلة قصيدة رديئة، وأسوأ ما يكون ذلك في المسرح. وأما في النظم البطولي الإنجليزي لدينا، مثل الذي ألفه ميلتون، فنجد تنوعًا أكبر في التفعيلات، وفي الحركات، وفي النغمات الموسيقية وتقسيم الجمل اللحنية، ويزيد كثيرًا عن النظم البطولي اليوناني، ومن ثَمّ فإن جَرْسَ الألفاظ الناجم عن ذلك لدينا أشد تنوعًا إلى درجة لا تقبل المقارنة. كنت أستمتع في صباي بشعر هوميروس، بعد أن قرأت الإلياذة مرتين والأوديسا مرة واحدة، قبل أن أقرأ الفردوس المفقود. ولما كنت أنفر من كل ما يتصل باللاهوت، وخصوصًا بصورته التي تكشف عنها تلك القصيدة، فإنني أعود إليها باستمرار باعتبارها أنبل نموذج في العالم للفصاحة والتناغم والعبقرية.

* * * * *

كان يمكن أن يكفي ضلع من شيكسبير لخلق شاعر مثل ميلتون، وأن يكفي القَدْرُ نفسه من ميلتون لخلق جميع الشعراء الذين ولدوا منذ تلك اللحظة.

* * * * *

ڤيكتور هوجو

من كرومويل (1827)

من الفصل الثالث

ميلتون: (يكلم نفسه)

المستقبل هو القاضي الذي سوف يصدر الحكم عليّ، ويفهم تصويري لحواء التي تهبط، كما لو كانت في حلم جميل، إلى ليل الجحيم. وسوف يفهم المستقبل تصويري للملاك الأكبر الصامد الذي يعتز بسيادته على خلوده الخاص، وكيف يبدو رائعًا في يأسه، وعميقًا حتى في جنونه نفسه. انظر! إنه ينهض من بحيرة اللهب ويضرب الأمواج فيخمدها بجناحه الهائل! لسوف يحيا ميلتون في أفكاره الخاصة ويعزي نفسه فيها. وعندما أتأمل صامتًا بنائي الجسور الذي لم يسمع أحد بمثله، يتوقد جنّي متحمس في صدري. نعم! إنني أجرؤ على محاكاة الخالق الأعلى. وبقوة كلماتي الخاصة سوف أخلق دنيا كاملة، جنتي الخاصة، وجحيمي الخاص، وأرضي الخاصة.

ألفريد، لورد تنيسون

ميلتون (*1863*)[1]

يا من تبتكر الألحان المتسقة وترسلها من فمك الجبار!
يا من تبرع في إنشادك عن الزمن أو الخلود!
صوت أرغن انجلترا الذي وهبه الله لنا
ميلتون! اسم تتردد أصداؤه على مر العصور!
من صور عماليق الملائكة مثل جبرئيل وعبدئيل
كالنجوم البازغة من دروع يهوه الرائعة
إذ تعلو هاماتهم وتُرْجِعُ قبةُ السماء الشاسعة
أصداءَ هديرِ هجومِ الملائك -
لكنني أفضل سحر العزلة في بعض خمائلك
وسماع خرير الجداول المتشابكة في جنة عدن
وتأمل الزروع الناضرة وأقواس شجر الأَرْز
كأنني ملاح تائه وسط المحيط
حيث تسطع شمس الغروب هابطة في الهند
فتلقي بأضوائها على جزيرة حافلة كالجنة وسط المحيط
فإذا بغابات النخيل السامقة بذوائبها الوردية
تتهامس فواحة الأريج في ذرا المساء.

* The Poems of Tennyson, ed. Christopher Ricks (Harrow Essex: Longman, 1987).

ماثيو أرنولـــــــد

من ميلتون (1888)[1]

* * * * *

يثبت ميلتون، من بداية الفردوس المفقود إلى نهايتها، أنه دائمًا فنان عظيم يبدع الأسلوب العظيم، كما يتبدى في ألفاظه وإيقاعاته.

* * * * *

والقول بأن ميلتون يتفرد بين أفراد أمتنا الإنجليزية جميعًا بأن ألفاظه وإيقاعاته تجعله الفنان الوحيد ذا المرتبة العليا لدينا من حيث إبداع الأسلوب العظيم قول لا يحتاج في نظري إلى مناقشة، إذ أراه حقيقة مؤكدة.

والجميع يقرون بالقوة الجبارة للشعر والفن، ولكن الكثير من بيننا يعجزون عن رؤية المكمن الرئيسي لروح تلك القوة، أو التي تجاور تلك القوة في أحسن حالاتها، فالواقع أنها تكمن فيما نحسه من تهذيب وتسام بفضل الامتياز الرفيع النادر للأسلوب العظيم. وقد نشعر بالتأثير دون أن نقدم لأنفسنا تفسيرًا واضحًا لسببه، ولكن ذلك هو الواقع. وفي هذا العصر، لا تحتاج أمة إلى المؤثرات التي ذكرتها - مؤثرات التهذيب والتسامي - أكثر من أمتنا، وأعظم مصدر لهما في الشعر والفن عندنا هو ميلتون.

إلام يدين بهذا الامتياز الفائق؟ إنه يدين به إلى الطبيعة أولاً وقبل كل شيء، أي إلى تلك النزعة الطبيعية إلى الاختلاف التي لا يقبلها عُبّادُ الإنسان «المتوسط» ، وإلى الموهبة، أي إلى مكرمة ربانية. ويقول جيته: إن الإنسان كلما تقدم به العمر ازداد تقديره لقيمة المواهب الطبيعية، لأنها من المحال

---

[1] From Matthew Arnold, Essays in Criticism, Second Series, 1888.

أن تُكْتَسَبَ أو أن «يلصقها» المرء بنفسه. ولقد شَكَّلَتْ الطبيعة ميلتون ليكون شاعرًا عظيمًا. ولكن هل أقدم شاعر غيره على التعبير عن إدراكه لجلال رسالته، وبذل الجهد الأخلاقي المتسق والسامي حتى يجعل نفسه جديرًا بهذه الرسالة؟

* * * * *

كان يعيش باستمرار في صحبة الامتياز الرفيع النادر المثال، مع كبار الشعراء والأنبياء العبرانيين، ومع كبار شعراء اليونان والرومان. ولم تكن المؤلفات العبرانية منظومة، وكان يمكن تقديمها بصورة مقبولة بالنثر العظيم المتزن لكتابنا المقدس بالإنجليزية. وأما نظم شعراء اليونان والرومان فمن المحال أن تُقَدِّمَ أيُّ ترجمةٍ صورةً مطابقةً له. ومن المحال أن تكون للنثر قوة الشعر، والترجمة المنظومة قد تقدم ما تعتبره نفس المترجم ذاته ساحرًا وفي طوق موهبته، وفي جيلنا يوجد آلاف القراء، وعما قريب يصبحون ملايين، ممن لا يعرفون حرفًا واحدًا من اليونانية واللاتينية ولن يتعلموا هاتين اللغتين. فإذا قُدِّرَ لهذا الحشد من القراء أن يدركوا في يوم من الأيام مدى قوة شعراء الماضي العظام وسحرهم، فلن يكون السبيل قراءة ترجمات القدماء بل قراءة الشعر الأصيل الذي أبدعه ميلتون، فهو يتمتع بنظير هذه القوة وهذا السحر، لأنه يتمتع بالأسلوب العظيم المناظر.

* * * * *

أ. أ. هاوسمان

من «تيرنس، هذا كلام فارغ»!(*1896*)[1]

* * * * *

ما أكثر اللوردات الإنجليز الذي يُعِدُّونَ
خمرًا أجملَ مما تُعِدُّهُ ربةُ الشعر
ونبيذًا يستطيع خيرًا من ميلتون
تبريرَ ما يفعله الله بالإنسان.

* * * * *

ت. س. إليوت

من ميلتون I (*1963*)[2]

إذا كان لنا أن نعترف بأن ميلتون شاعر بالغ العظمة حقًا، فسوف تصيبنا بعض الحيرة في تحديد مكمن عظمته. فعند التحليل تبدو السلبيات أكثر عددًا وأكبر دلالة من الإيجابيات. فهو باعتباره إنسانًا شخصًا منفرًا. وسواء نظرنا إليه من وجهة نظر رجل الأخلاق، أو رجل اللاهوت، أو عالم النفس، أو الفيلسوف السياسي، أو حكمنا عليه بالمعايير التي تحدد من يحلو معشره من الناس، فسوف نجد ميلتون غير مُرْضٍ. ولكن الشكوك التي أريد التعبير عنها بصدده أخطر من ذلك. فلقد احتفل الناس بعظمته الشعرية بما يكفي، وإن كنت أعتقد أن احتفاءهم كان يقوم في معظم الأحيان على غير الأسباب الصحيحة، ومن دون أن يبدوا التحفظات المناسبة. ولفت البعض الانتبـــاه

* A. E. Housman, A Shropshire Lad (Oxford: Woodstock Books, 1994).

* T. S. Eliot, On Poetry and Poets, (London: Faber &Faber, 1957).

إلى أخطائه الشعرية، مثلما فعل عزرا پاوند، ولكن ذلك كان عادة بصورة عارضة. وأما ما يبدو لي لازمًا فهو تأكيد عظمته - من حيث إنه كان فيما أجاد أداءه متفوقًا على كل ما أدّاه غيره في يوم من الأيام - وفي الوقت نفسه إبراز التهم الخطيرة التي توجه إليه فيما يتعلق بالتدهور - أو بالنوع الخاص من التدهور - الذي أصاب به اللغة.

يتفق كثير من الناس على أن المرء قد يكون فنانًا عظيمًا ويكون مع ذلك ذا تأثير سيء، والتأثير السيء الذي أحدثه ميلتون في النظم الرديء في القرن الثامن عشر أكبر من تأثير سواه، ولا شك أن ضرره كان يزيد عن ضرر درايدن وپوپ، وربما كان ينبغي توجيه قسط كبير من التنديد الذي لقيه هذان الشاعران، وخصوصًا الأخير منهما، بسبب تأثيرهما، إلى ميلتون. ولكن تبسيط المسألة بحصرها في قضية «سوء التأثير» لا يعني بالضرورة توجيه تهمة خطيرة، لأن جانبًا كبيرًا من المسئولية، إذا قدمنا المشكلة بهذه الصورة، قد تقع على عاتق شعراء القرن الثامن عشر أنفسهم، ما داموا شعراء بالغي السوء إلى الحد الذي لم يتمكنوا معه من التأثر إلا بما هو رديء. والتهمة الموجهة إلى ميلتون تتضمن ما يزيد كثيرًا عن ذلك، ولسوف تبدو أخطر بمراحل إذا قلنا إن شعر ميلتون من المحال أن يؤثر إلا تأثيرًا سيئًا، ومهما يكن الشاعر الذي يتأثر به. وستبدو أخطر أيضًا حين نقول إن التأثير السيء لميلتون يمكن رصده فيما يتجاوز القرن الثامن عشر كثيرًا، وما يتجاوز تأثيره في الشعراء غير المجيدين إذا قلنا إن ذلك التأثير مازال علينا أن نكافحه حتى اليوم.

* * * * *

من ميلتون II (*1947*)[1]

* * * * *

يبدو لي أيضًا أن نظم ميلتون يستعصي على من يريد كشف أسراره إذا هو اقتصر على فحص كل سطر بمفرده، إذ لا يتشكل نظمه بهذه الطريقة، بل يعتمد تشكيله على وحدات أكبر وهي الجُمَلُ أو العبارات، وإلى حد أبعد، على الفقرات، وأما التركيز على بناء السطر الواحد فهو الحد الأدنى اللازم لإبراز النسق المضاد لبناء الجملة. ولن نجد طول الموجة في نظم ميلتون إلا في الجملة الكاملة وحدها. والواقع أن قدرته على إضفاء نسق تام وفريد لكل فقرة، بحيث يكتمل جمال السطر في سياقها، وقدرته على وضع وحدات موسيقية أطول مما نجده عند أي شاعر آخر، هي التي تمثل في نظري البرهان القاطع على أستاذية ميلتون الفائقة. إن الجمل الطويلة التي يبنيها ميلتون تمنحك إحساسًا غريبًا، ويكاد يكون إحساسًا ماديًا بوثبة مبهورة الأنفاس، وهو مقصور عليه، ومن المحال أن تشعر به في النظم المقفى.

* * * * *

---

[1] المرجع السابق.

ب

معجم الأسماء الواردة في النص العربي للفردوس المفقود

أبانا - 1/ 469 - انظر دمشق.

إبراهيم - 12/ 152 - أبو العبرانيين والعرب أو والدهم. وكان اسمه أولاً «إبرام» ثم تحول إلى «إبراهيم» الذي يعني «الأب لأمم كثيرة».

التكوين 17 / 5. انظر كنعان، وأور الكلدانية.

إبليس - 1/ 82 - الأصل العبري «ها-شاطان» (وهو المستخدم أيضًا في العهد الجديد باليونانية) يعني الخصم (أو الغريم).

الابن - 3/ 79 - عند ميلتون لا ينفصل الابن عن الله الآب (والروح القدس) كما هو الحال في النظرة المسيحية «الصحيحة» للثالوث المقدس «كان على يمينه/ يجلس ابنه الوحيد/ صورة مشرقة لجلاله» (3/ 62-64). ويقول ميلتون: إن الله أنجب الابن، باعتباره ابنًا حقيقيًا، ولكنه أيضًا أول كائن يخلقه الله «أول من خلق الله،/ الابن الذي أنجبه، ذو الصورة القدسية» (3/ 383 - 384). وهو «الوكيل» لله في كل ما يفعله، وهو أيضًا الحكمة أو بُعْدُ النظر من وراء هذه الفعال. والأب يدعوه «كلمتي وحكمتي وقوتي الفعالة» (3/ 170). وبهذه الصفة ينجح الابن في هزيمة الملائكة المتمردين، وفي خلق العالم (وآدم وحواء) ويذهب إلى الأرض باعتباره الإنسان يسوع، ويُعَلِّمُ البشر، ويموت للتكفير عنهم. وفي نهاية الزمن يقوم الابن بتنفيذ الأحكام الصادرة على البشر.

وبعض ألفاظ ميلتون توحي بأن الابن في منزلة دون الأب، مثلما يدعو الأب الابن «يا بهاء مجدي!» (*6/ 680*) وهي الكلمات التي ترجع صدى الآية الواردة في الرسالة إلى العبرانيين «ضياء مجد الله وصورة جوهره» (*1/ 3*) ولكن الابن أيضًا هو الرب الابن الذي يشارك في كيان الأب ما دام «كلمة منه» (*7/ 175*) وما افترضه النقاد من تجديف ميلتون بتعبيره عن منزلة الابن التي هي دون منزلة الله العليا، مسألة لا تتسم بالأهمية التي يوليها لها البعض في القصيدة، إذ إن ميلتون يعتبر الابن معادلاً لله قطعًا ويعتبره ربًا في ذاته، خصوصًا في سرده لقصة الخلق في الكتاب السابع. وإذا كان ميلتون لا يستطيع أن يرى كيف يكون الابن سوى مخلوق خلقه الأب، فإن الأب يضفي على الابن شرف البنوة مثل التبني الروماني. وهذا الشرف يكتسبه الابن ويثبت جدارته به («وقد أثبتت/ خصالك أنك أكبر من مجرد ابن للرب بحق المولد» *3/ 308–309*) ولذلك فهو شرف أعلى من مجرد شرف «المولد». وكما يوضح الأب في *3/ 305–312* يرتقي الابن إلى شرف التوحد مع مجد الأب بسبب استعداده للتضحية بنفسه «لينقذ عالمًا من الضياع الكامل» (*3/ 307–308*) وأخيرًا، وعلى نحو ما يعلنه الأب بنفسه، نجد أن حب الابن للبشرية يفوق بهاؤه مجد الأب «لأن الحب لديك يفوق المجد والبهاء» (*311–312*). انظر الله، والمسيح، والروح، والكلمة.

إبيدوروس – *9/ 507* – بلدة يونانية على الساحل الشرقي لشبه جزيرة بيلوبونيزيا (المورة) وموطن أسكليبيوس (باللاتينية إيسكولابيوس) رب الشفاء، وكان ذلك الرب يتخذ صورة ثعبان مقدس، ورمزه ثعبانان يلتفان حول عصًا.

أتاهوالبا – *11/ 409* حاكم لمملكة الإنكا، واسمها كوسكو في بيرو (بأمريكا الجنوبية) وكان القائد بتزارو قد نهب ثرواتها.

إتروريا 1-/ 303 كان ذلك هو الاسم القديم لمقاطعة توسكانيا في شمال وسط إيطاليا، وكانت جبلية زاخرة بالغابات. انظر ڤالومبروزا.

إتنا ، بركان 1/ 233 بركان نشط في صقلية، يشاهد من مضيق مسينا، الذي حُبِسَ فيه العملاق إنكلادوس، وكذلك الوحش تايفون، إذ صعقهما الرب چوپيتر بصاعقة رعدية وحبسهما تحت الجبل. وكانت إتنا أيضًا كور الحدّاد في باطن الأرض حيث يتولى عماليق الكوكلوپس ذوو العين الواحدة إعداد الصواعق الرعدية لچوپيتر. (ڤيرچيل، الأشعار الفلاحية 4/ 170-175، والإنيادة 3/ 568-582، 8/ 424-53) انظر أيضًا تايفون.

أثينا 9/ 671 أشهر مدينة يونانية قديمة، شهدت مولد الفنون والديمقراطية والخطابة السياسية، وذاع صيتها بصفة خاصة بسبب قيادتها للحرب ضد طغيان الفُرْس.

أجرا 11/ 391 العاصمة المغولية الكبرى في شمال غربي الهند.

أخيرون 2/ 578 أحد الأنهار الأربعة التقليدية في الجحيم، واسمه يعني «بلا فرح» ، ويذكره ڤيرچيل، ودانتي، وسبنسر. والأنهار الأخرى هي ليثي («النسيان»)، وفليجثون («الناري») وستيكس («الرعب»).

أخيلاس 9/ 15 بطل الإلياذة الذي طارد هكتور حول أسوار المدينة وقتله. انظر طروادة.

أدرملك 6/ 365 الاسم يعني «الملك الرائع» ، وكان صنمًا يُعبد في السامرة، وكان تقدم له قرابين من الأطفال الذين يحرقون أحياء الملوك الثاني 17/ 31 انظر ملكوم.

الأدرياتي 11/ 520 البحر الأدرياتي الذي يطل عليه ساحل إيطاليا الشرقي.

آدم 4/ 323 أول إنسان، شُكِّل من التراب ووُهب الحياة حينما نفخ الله فيه

من روحه: «ثم جَبَلَ الربُّ الإلهُ آدمَ من تراب الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية» (تكوين 2/ 7). واسم آدم بالعبرية يعني «التراب» أو أديم الأرض، والله يُلْمِحُ إلى هذا المعنى عندما يحكم على آدم «فمن تراب أخذت، وإلى تراب تعود» (تكوين 3/ 19). وفي قصة الخلق التي أضيفت إلى الكتاب المقدس في تاريخ لاحق ولكنها وضعت في مطلعه (تكوين 1-2/ 3)، يَرِدُ أن آدم وحواء قد خلقا في صورة الله دون إشارة إلى التراب أو العظم أو الأنفاس «فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم» (تكوين 1/ 27) انظر حواء.

أدونيس 1/ 450 نهر في لبنان اكتسب اسمه من الغلام الذي أحبته أفروديت وجرحه خنزير بري جرحًا مهلكًا. وحولته أفروديت إلى زهرة حتى يولد من جديد كل عام. والنهر تحمرُّ مياهه مرة كل عام، وقيل إن ذلك من أثر دماء أدونيس. انظر قصيدة شيكسبير ڤينوس وأدونيس وقصيدة سبنسر ملكة الجان 3/ 6/ 29-47 وانظر تموز.

أديس 2/ 964 تشخيص للظلام والغيب المرتبطين بالعالم السفلي الكلاسيكي.

أرتخششا 10/ 307 الملك الفارسي الذي غزا اليونان عام 480 قبل الميلاد. انظر الدردنيل.

الأردن 3/ 535 النهر المقدس لدى بني إسرائيل والحد الشرقي لهم بعد البحر الميت، فنهر الأردن ينبع من شَمَاله ويصب فيه، انظر حرمون. واسم الأردن مشتق من الكلمة العبرية ياراد التي تعني «يهبط» . وعندما عبر بنو إسرائيل نهر الأردن ليدخلوا الأرض الموعودة، تراجع النهر حتى يسمح لهم بالعبور، تمامًا مثلما انشق البحر الأحمر أمامهم أثناء فرارهم من فرعون (يشوع 3).

أرجو 2/ 1017 اسم السفينة التي ركبها چيسون وزملاؤه الملاحون في رحلتهم للعثور على الفراء الذهبي.

أرجوب 1/ 398 مملكة عُوج الوثنية، تثنية 3/ 4. انظر باشان.

أرجوس 11/ 131 كان راعيًا له عيون كثيرة كُلِّفَ بحراسة «إيو» ، ولكن هيرميس جعله ينام وقطع رأسه. وبعد موته أخذت چونو عيونه ووضعتها في ذيل طاووس، أوڤيد، مسخ الكائنات 1/ 624-629، 1/ 717-723، 2/ 531-533.

أركاديا ، مزمار 11/ 132 أركاديا مقاطعة جبلية نائية في اليونان، في وسط شبه جزيرة پيلوپونيزيا، حيث يقال إنها شهدت مولد الشعر الرعوي، الذي ينشده المنشدون بمصاحبة المزمار.

إركوكو 11/ 398 مدينة أرخيكو الحديثة، وهي ميناء يقع على الساحل الغربي، أو الإفريقي، للبحر الأحمر، وكانت أيام ميلتون الميناء الوحيد لإمبراطورية النجاشي.

أرموريا ، فرسان 1/ 581 فرسان بريتاني.

أرمينيا 10/ 435 يشير إليها ميلتون باسم ملكها ألادول، الذي كان - في تلك المملكة الجبلية - يقوم بتدريب القتلة في حديقة فردوسية.

أرنون 1/ 399 نهر يصب في البحر الميت وينبع من الشرق. تثنية 3/ 8. وكان يمثل أقصى الحدود الشمالية للمؤابيين. عدد 21/ 13.

آريئيل، 6/ 371 اسم أحد الملائكة العاصين ويعني إما «أسد الله» أو «الضوء الرباني» .

أريماسپي 2/ 945 كان هذا الاسم يطلق على أفراد شعب خرافي، لكل منهم عين واحدة، وكانوا يسرقون الذهب من الغريفونات. هيرودوت 3/ 116، 4/ 27، پليني 7/ 2 ولوكان 3/ 280.

أريوك 6/ 371 أي «شبيه الأسد» .

أزموديوس 4/ 168 جني غيور، قتل سبعة أزواج لإحدى النساء قبل أن ينجح الثامن، واسمه طوبيا، في صرفه، مستعينًا بالملاك روفائيل الذي طلب من طوبيا أن يحرق أحشاء سمكة، فتسببت رائحة الأحشاء المحترقة في إبعاد أزموديوس إلى صعيد مصر، حيث وضعه روفائيل في الأصفاد. توبيت 8/ 3، انظر روفائيل وطوبيا.

الأزور 5/ 592 مجموعة من الجزر في المحيط الأطلسي، وتبعد عن البرتغال بنحو ثمانمائة ميل غربًا، ومن ثم فهي تمثل أقصى أفق غربي تغرب فيه الشمس.

أزوف، بحر 9/ 78 يقع شمالي البحر الأسود وتصله به قناة ضيقة. وهو ضحل تنمو فيه نباتات الغاب ويمتاز بأن مياهه شبه عذبة. وميلتون يسميه «بِرْكة مايوتيس» اعتمادًا على اسمه اللاتيني القديم، وكانت كلمة بِرْكة تستخدم في الإشارة إلى المستنقع أيضًا.

أسپارامونتي 1/ 583 جبل في كالابريا، في جنوبي إيطاليا، حيث انتصر شارلمان على العرب في إحدى المواقع.

أستراكان 10/ 432 هي أستراخان الحديثة، وهي مدينة تقع قريبًا من مصب نهر الڤولجا الذي يصب في بحر قزوين.

استوتيلاند 10/ 686 جزيرة يوتوبية نسجت حولها الخرافات بالقرب من الساحل الشمالي الشرقي لأمريكا الشمالية. ولكن ميلتون لا يقصد إلا الإشارة إلى منطقة شمالية جوها شديد البرودة.

إسحق 12/ 268 أحد الآباء العبرانيين، والد عيسو ويعقوب. انظر عيسو ويعقوب.

إسرائيل 1/ 413 عندما يذكر ميلتون الاسم لايشير إلى مكان

جغرافي بل إلى أمة العبرانيين. انظر كنعان.

أشدود 1/ 464 إحدى المدن الفلسطينية الخمس وأحد مراكز عبادة داجون. وكان تابوت العهد، بعد استيلاء الفلسطينيين عليه، قد حُمِلَ إلى داجون ووضع في معبد داجون حيث وجد الصنم مطروحًا على الأرض بصورة غامضة ورأسه ويداه مقطوعة. صموئيل الأول 5/ 1-7. انظر داجون.

آشور 1/ 721 مملكة عظمى في المنطقة العليا من بلاد ما بين النهرين، وكانت عاصمتها نينوي الواقعة على نهر دجلة. وكان سلطان هذه المملكة عظيمًا مديدًا يومًا ما وامتد إلى سائر مناطق الشرق الأدنى ومصر نفسها.

الأشوري، الجبل 4/ 126 انظر جبل نيفاطيس.

إصفهان 11/ 394 إحدى العواصم الفارسية.

الأصلات ، وادي 10/ 530 المقصود وادي الجبال في دلفي، حيث نجح أپوللو في قتل الأصلة پايثون. انظر صخرة دلفي وأصلة.

أصلة 10/ 531 كانت ثعبانًا وحشيًا تولد في الأساطير من طمي فيضان نهر ديوكاليون. وقد نجح أبوللو في قتل ذلك الثعبان واسمه پايثون.

أصمداي 6/ 365 كان من الملائكة العاصين. انظر ازموديوس الذي يتصل اسمه اشتقاقًا به.

أطلس 4/ 987 المقصود جبل أطلس في أقاصي غرب شمال إفريقيا. وأما أطلس الأسطوري فكان من نسل التيتان، وقد عوقب على تمرده على زيوس، رب الأرباب، بأن فُرِضَ عليه أن يحمل السماء. وقام پيرسيوس بتحويله إلى جبل. انظر جورجون.

إفريقيا ، سواحل شمال 5/ 340 سواحل البحر المتوسط الجنوبية عند قرطاج في شمال إفريقيا، ويشير ميلتون إليها باسمها التاريخي وهو السواحل

اليونية، والمعروف أن اليونية أو اليونيقية تحريف للصفة «الفينقية» استنادًا إلى أن أصول سكان هذه السواحل كانت فينيقية، وفق التسمية الرومانية، وكان الرومان يشيرون إلى حروبهم مع أهل قرطاجنة باسم «الحروب اليونية» (باللاتينية «پونيكا بيلاً»).

أفلاطون 3/ 472 فيلسوف يوناني. انظر كليومبروتس.

إكباتان 11/ 393 هذا هو الاسم التاريخي لمدينة همدان، العاصمة الصيفية القديمة لملوك الفرس.

إلدورادو 11/ 411 الاسم يعني «الذهبي» . وهي عاصمة غيانا التي جرت بذكرها الأساطير، والتي سعى للظفر بها الإسپان أولاً ثم السير وولتر رالي في 1595 و1616.

ألكينوس 5/ 341 ملك الفينيقيين في جزيرة سخيريا، وهو الذي رحب بقدوم أوديسيوس إليه في قصره الملكي الذي كان يزهو ببستان فردوسي ربط ميلتون بينه وبين جنة عدن. الأوديسية 7/ 112-121.

إلليريا 9/ 505 كان اسمها اللاتيني إلليريكوم، وهي مقاطعة رومانية قديمة تمتد حول البحر الأدرياتي من إيطاليا إلى مقدونيا، وتصل شمالاً إلى نهر الدانوب.

أمازونات ، دروع 9/ 1111 كانت الأمازونات مقاتلات أسطورية، وهن يشتهرن بالأقواس والسهام أكثر مما يشتهرن بالدروع.

أمالثيا 4/ 278 تقول الأسطورة القديمة إنها كانت الحورية التي تولت تربية زيوس (چوڤ/ چوپيتر) منذ أن كان رضيعًا على جبل إيدا، وأخفت الرب الصغير عن والده كرونوس الذي كان يبغي أن يلتهمه. وأحيانًا ما يقال إنها هي نفسها العنزة التي كانت تقدم اللبن، والتي كسر الطفل قرنها فأصبح قرن الوفرة الذي يعاد ملؤه ثمرًا وزهرًا كلما فرغ، بأسلوب

سحري. وميلتون يشير إلى أسطورة أحدث من هذه تقول: إن أمالثيا أم باخوس، إله الخمر، والذي أنجبته من جوف الأموني (ولذلك يوصف بأنه ذو «وجه متورد» (*4/ 278*) انظر أمون.

إمباذوقليس *3/ 471* شاعر فيلسوف سبق سقراط وتقول الأساطير إنه وثب إلى داخل الأنبوب البركاني لجبل إتنا كيما يضمن لنفسه الشهرة. انظر هوراس فن الشعر *463–466*.

الملايو *11/ 392* يشير إليها ميلتون باسمها القديم المشتق اشتقاقًا غير وثيق من عبارة يونانية تعني «الأرض الجافة» أو اليابسة، وهي كلمة «خيرونيسي»، ويعني بها على الأرجح شبه جزيرة الملايو التي كانت تسمى آنذاك «مالاكا» ، وهي تقع كما هو معروف شرقيّ الهند. ويقول المؤلف اليهودي القديم يوسفوس (*8/ 6*): إن سليمان أرسل أسطولاً إليها للحصول على الذهب.

أمون *4/ 277* ابن زيوس (جوف/ جوبيتر) وأنجبه من إحدى بنات أطلس، وكان ملكًا على ليبيا أو على شمال إفريقيا بصفة عامة. انظر برقة، وميلتون يقول إنه هو نفسه جوف، إذ يشير إلى «جوبيتر آمون» و«جوبيتر الكابيتوليني» (*9/ 508*) ويقال إنه كان والد باخوس رب النبيذ، ابن أمالثيا «ذي الوجه المتورد» . كما يوحد ميلتون في خياله بين أمون و«حام الهرم» (*4/ 276*) ابن نوح ووالد الشعوب الإفريقية. ونجد عند ميلتون دائمًا أن الأسطورة الوثنية أو الخرافة تمثل تشويهًا لحقيقة وردت في الكتاب المقدس الذي يعتبر تاريخًا. ففي الكتاب المقدس نجد أن نوحًا هو أول من يزرع الكروم ويعصر النبيذ. وبدلاً من أن يصبح أبًا لرب الخمر، يشاهد حام والده وهو سكران (تكوين *9/ 20–27*) انظر أمالثيا، حام، نايسا، الأوليمب.

أميون (أمميون) 4/ 277 أي غير اليهود من الأمم. ويستخدم ميلتون هذا اللفظ مرتين في الفردوس المفقود في الإشارة بصفة خاصة إلى الشعوب التي تتكلم اليونانية. انظر 12/ 310 «يشوع الذي يسميه الأميون يسوع».

أنجولا 11/ 401 مملكة إفريقية غنية تقارن في قوتها بمملكة الكونغو.

أندروميدا 3/ 559 كانت في الأساطير اليونانية أميرة قيدت في صخرة حتى يلتهمها أحد الوحوش. وهي كوكبة نجوم في السماء تلي كوكبة الحمل.

أوب 9/ 78 نهر في سيبيريا، وهي التي يسميها ميلتون الموسكوفية، ويتدفق شمالاً إلى المحيط القطبي الشمالي.

أوبس 10/ 584 هي رِيَا أو كيبيلي زوجة كرونوس أو ساتورنوس. وقد أصبحت ربة الوفرة عند الرومان.

أوثر، ابن 1/ 580 هو آرثر، الذي أصبح الملك آرثر فيما بعد، والذي دافع عن بريطانيا فصد الغزوات السكسونية ويعتبر رمزًا وطنيًا عند الإنجليز. وكان ميلتون في صباه المبكر يفكر في كتابة ملحمة شعرية عن آرثر.

أوديسيوس 2/ 1019 هذا هو الاسم اليوناني للبطل يوليسيز (أُولِيس) بطل الأوديسا، الذي يتعرض لضروب المعاناة الكثيرة والشديدة ويجتاز أخطارًا عديدة في إبان عودته من طروادة إلى مملكته في جزيرة إيثاكا. انظر خاريبديس وسيلا.

أور الكلدانية 12/ 130 مدينة عريقة على الضفة الغربية لنهر الفرات الأدنى بالقرب من الخليج العربي. وكانت الموطن الأصلي لوالد إبراهيم، واسمه تارح، ومكانًا تمارس فيه عبادة الأصنام وتعدد الآلهة. وكان الكلدانيون ذوي شهرة أيضًا في علم الفلك. وترك تارح مع أسرته تلك المدينة ورحلوا إلى وادي الفرات، وحلوا في حاران، في شمال شرقي فلسطين. وفي حاران دعا الله إبراهيم إلى دخول الأرض الموعودة. انظر

إبراهيم وكنعان.

أورفيوس: 3/ 17 وانظر أيضًا 7/ 32-37: شاعر شامانيٌّ أسطوري هبط إلى العالم السفلي ليستعيد زوجته يوريديس، وسُمح له بسبب جمال موسيقاه أن يعود بها إلى الدنيا بشرط واحد ألا وهو عدم النظر وراءه. ولكنه نظر وراءه ففقد يوريديس. ويقول ميلتون إنه ينشد أنغامًا تختلف عن أنغام أورفيوس، لأنه (أي ميلتون) يستلهم الرب الحق. وكانت موسيقى أورفيوس ترغم الصخور والحيوانات والأشجار على أن تسمعها ذاهلة، فأصبحت رمزًا لقوة الشعر ونفوذه في عالم الطبيعة. ولكن مجموعة من «الميناديات»، وهن عابدات باخوس، مزقت جسد أورفيوس إربًا وألقت رأسه في نهر هيبروس. وطفا الرأس على وجه الماء حتى وصل جزيرة ليزبوس حيث دفنه سكان الجزيرة بتبجيل وتكريم كبير. (أوفيد، مسخ الكائنات 10/ 1-60) وقد كوفئ أهل ليزبوس على هذا الفعل الفاضل بأن قدر لبعضهم أن يصبحوا شعراء مجيدين، وكانت أعظم هؤلاء الشاعرة سافو التي كانت تكتب قصائد غزل وتشبيب بالمرأة. ومن ثم فإن الصفة من اسم الجزيرة نشأت أصلاً من حب الإنشاد.

أورقس 2/ 964 رب الموت الروماني، كثيرًا ما يقال إنه پلوتو أو هاديس، رب العالم السفلي أو العالم السفلي نفسه.

أوريل 3/ 648 ملاك، واسمه يعني «نور (أونار) الله» (إسدراس الثاني 4/ 1).

الأوريم 6/ 761 والتُّميم، يفيدان أو يرمزان إلى الأشياء الغامضة الرمزية السحرية (ويتخيل ميلتون أنها جواهر) على صدر الكاهن الأكبر «وتضع أيضًا في صدرة القضاء «الأوريم والتميم» ليحملها هارون على قلبه أمام الرب دائمًا رمز قضاء بني إسرائيل» (خروج 28/ 30) وكانا يُستعملان في

التكهن وفي القرعة، وكان يُستعان بهما حين يريد الناس مشورة الرب (تثنية 27/ 21).

أورونتيس ، نهر 4/ 273 نهر في سوريا يصب في البحر المتوسط. وكانت على شاطئه خميلة من خمائل دافني. انظر 9/ 80.

أوزيريس 1/ 478 رب الخصب ورب الموتى عند المصريين، وكان أخوه سِتْ قد مزق جسده إربًا، وقامت إيزيس زوجته بجمع الأجزاء وبث فيها الروح فأصبح رب العالم السفلي.

أوسونيا، أرض 1/ 739 كانت إيطاليا تسمى أوسونيا في الزمان الغابر.

أوفير 11/ 400 أرض خرافية قيل إن سليمان كان يجلب منها ذهبًا ذا نقاءٍ فذٍّ لمعبده وأحيانًا كان يقال إنها ميناء صوفالا الثري على الساحل الشرقي لإفريقيا.

أوفيوزا 10/ 528 ربما كانت إحدى جزائر باليري، القريبة من ساحل إسپانيا في البحر المتوسط. والاسم يعني «الزاخر بالأفاعي» . وكانت هذه الأفاعي تنشأ من قطرات دمِ ميدوزا حينما طار پيرسيوس فوق الجزائر المذكورة. انظر جورجون.

أوفيوكوس 2/ 709 كوكبة نجومٍ شمالية والاسم يعني «حامل الثعابين».

أوفيون 10/ 581 رب ثعبان كان يشارك زوجته يورينومي الحكم قبل عهد كرونوس و رِيَا والدي زيوس. والاسم يعني الثعبان. انظر يورنيومي.

الأوليمپ 1/ 516 جبل تكلل هامته الثلوج في أقصى شمال بلاد اليونان، على الحدود مع مقدونيا، موطن الأرباب اليونانية، وخصوصًا زيوس بعد رحيله من جبل إيدا في جزيرة كريت.

أوليمپيا 9/ 509 زوجة فيليب الثاني المقدوني، وقد حملت من جوف الأمُّوني الذي كان متنكرًا في هيئة ثعبان. وكان الطفل

الذي أثمر ذلك عنه هو الإسكندر الأكبر. وتُروى قصة مماثلة عن مولد سكيبيو. انظر سكيبيو.

إيتا 2/ 545 جبل في جنوب ثيساليا في البحر الأيوبي. انظر هرقل/ الهرقلية.

إيثوريل 4/ 788 ملاك واسمه يعني «اكتشاف الله».

إيجه، بحر 1/ 476 بحر اليونان وجزائرها في شرقي البحر المتوسط.

إيدا، جبل 1/ 15 جبل في جزيرة كريت، وهو مسقط رأس زيوس. انظر أمالثيا.

إيريبوس 2/ 883 منطقة مظلمة بين الأرض والعالم السفلي عند اليونان.

إيزيس 1/ 478 إلهة مصرية، زوجة أوزوريس، ولها رأس بقرة.

إيقاليا 2/ 542 مدينة في يوبيا، في شمالي اليونان، فتحها هرقل، وكان قد عاد منها عندما لبس الثوب المسموم الذي أرسلته له زوجته ديانيرا، وهو الذي أدى إلى موت الجانب الفاني منه. انظـــر هرقل/ الهرقلية.

أَيَلُون 12/ 266 واد عريض غربي أورشليم، وهو الذي توقف القمر فيه عن المسار في كبد السماء استجابة لدعاء يشوع. يشوع 10/ 12. انظر جبعون.

إيليوم 1/ 578 مدينة طروادة، والمكان الذي تقع فيه أحداث ملحمة الإلياذة للشاعر هوميروس. وكان ميلتون يرى أن الرجال المنتمين إلى «السلالة البطولية»، والذين قاتلوا في إيليوم يعتبرون وسطًا ما بين البشر والعماليق.

إيماوس 3/ 431 سلسلة جبال تمتد شمال الهمالايا في وسط آسيا، وكان يعيش حولها التتار والإسقيثيون. وكان المؤرخ پليني يفترض أن الاسم يعني «الحافل بالثلوج».

إينا 4/ 269 أحد الرياض في صقلية حيث اختطف الملك هاديس، ملك العالم السفلي، الربة بيرسيفوني. انظر كيريس.

الأيوبي ، البحر 2/ 546 المضيق الذي يفصل ثيساليا، في شمالي اليونان، عن جزيرة إيوبيا الكبرى. ويطل على المضيق جبل إيتا في ثيساليا. انظر ليكاس.

أيونيا 1/ 15 جبل الپارناسوس في اليونان، وكان مقدسًا لربات الشعر وأپوللو.

الأيونيين ، آلهة 1/ 508 أيونيا هي القسم الذي كان اليونان يقيمون فيه، في آسيا الصغرى وجزائرها. وكانت أيونيا موطن هوميروس وفلاسفة اليونان الأوائل. وهكذا فإن الآلهة الأيونية هي الآلهة اليونانية، والذين يفترض ميلتون أنهم انحدروا من صُلب ياوان. وكان ياوان ابنا ليافث، أحد أبناء نوح الثلاثة، وهم الذين أصبحوا آباء الشعوب السامية، والإفريقية، والهندية الأوروبية (يونانية وحثيّة). ويوحي ميلتون بأن الآلهة اليونانية، مثلها في ذلك مثل أرباب سوريا وفلسطين ومصر، كانت من الملائكة العاصين الذين تنكروا في صورة أرباب. ولكنه يقول أيضًا (استنادًا إلى التقاليد القديمة التي أرساها يوهيمروس) إن الأرباب اليونانية ربما كانت تمثل الأسلاف العريقة في الزمن السحيق للشعب اليوناني، بعد أن رُفعت إلى مصاف الأرباب.

بابل 1/ 694 المقصود به برج بابل الذي كان يريد بانوه أن يبلغوا به أسباب السماء، ولكن الله أحبط مسعاهم إذ جعل البنائين يتكلمون بلغات مختلفة. تكوين 11/ 1-9. ويفترض ميلتون أن النمروذ كان الباني، كما كان يربط ما بين برج بابل ومملكة بابل انظر 12/ 24-62.

بابل 1/ 717 المقصود مدينة بابل بالقرب من مصب نهر الفرات في الخليج العربي، وكانت مشهورة بمبانيها من القرميد،

ومرتبطة ببرج بابل. وقد أُسِرَ بنو إسرائيل ونقلوا إليها بعد فتح أورشليم. ومن ثم فإن بابل، مثل مصر، تعتبر مكان أسر، ورمزًا للرق.

باخوس 4/ 278 الاسم الروماني للرب ديونيسيوس، رب الخمر.

باشان 1/ 398 كانت باشان قُطْرًا يقع إلى الشرق من نهر الأردن ويحكمه عُوجُ أحد أعداء بني إسرائيل. كما كانت ترتبط ببني عَمُّونَ أعداء بني إسرائيل. تثنية 3/ 1.

باليس 9/ 393 الربة الرومانية للقطعان والمراعي.

پان 4/ 707 الرب الروماني للطبيعة والرعاة والقطعان. وهو يُصَوَّرُ في صورة رب للماعز ونصفه الأعلى بشري (وإن كان له قرنان وأذنان مثل آذان الماعز) ونصفه الأسفل كالجدي. انظر فاونوس وسيلڤانوس.

پانزرورا 4/ 714 انظر يافث.

پانديمونيام 1/ 756 الاسم يعني حرفيًا «مجمع الشياطين كلهم».

پانياس 3/ 535 مدينة بالقرب من جبل حرمون في شمالي فلسطين عند أحد منابع نهر الأردن. وكان يقال إنها مدينة دان.

پتسورا 10/ 292 المقصود هو نهر پيخورا في سيبيريا، الذي ينبع من جبال الأورال ويصب في المحيط القطبي الشمالي.

البحر الأحمر 1/ 306 البحر الذي انشقت مياهه حين أمرها موسى حتى يعبره بنو إسرائيل وعندما تبعهم جيش فرعون أطبقت مياه البحر عليه. الخروج 14.

البحر الأسود 5/ 340 يسميه ميلتون بحر پُنْطُسْ.

بحيرة اللهب 1/ 239 ميلتون يُكَنِّي عنها بتعبير بحيرة ستيكس نهر الجحيم،

والاسم اليوناني يعني «الرعب» أصلاً. انظر أخيرون.

برقة 2/ 904 منطقة صحراوية في شمال إفريقيا أو في تونس تسمى سيرينيكا. انظر سيرينيكا. الإلياذة 4/ 42-43.

پروتيوس 3/ 603 كان رَبّا من أرباب البحر في ظل الرب نپتون أو پوسايدون. وهو راعي جميع مخلوقات البحر خصوصًا كلاب البحر. ويستطيع پروتيوس أن يغير صورته ويكتسب أي صورة شاء، ويتمتع أيضًا بالقدرة على التنبؤ. انظر ملحمة الأوديسية 4/ 365-570. وكان الخيميائيون يعتبرون پروتيوس رمزًا للأشكال المتعددة التي تتخذها المادة، مع يقينهم أيضًا بأن للمادة، مثل پروتيوس، صورة جوهرية حقيقية واحدة. وقد حاول الخيميائيون فصل هذه الصورة الجوهرية الحقيقية عن طريق التقطير في الإنبيق، أو الجهاز الذي يسمى المعوجة، في سعيهم الباطل لتحويل المادة المنحطة إلى ذهب. انظر هيرميس.

پروزرپيني 4/ 269 الاسم الروماني للربة پيرسيفوني. انظر كيريس.

برياروس 1/ 199 وَحْشٌ له مائة رأس، ساعد زيوس في مقاومة الآلهة الأخرى التي حاولت تقييده. كما حارب برياروس في صف الآلهة ضد التيتان، الإلياذة 1/ 396-406.

بطرس ، القديس 3/ 484 تلميذ المسيح الذي قال إنه الصخرة التي سوف يبني فوقها كنيسته (متى 16/ 18-19). وكان بطرس أول أسقف لروما، والكاثوليك الرومان يعتبرون البابوات خلفاءه في رئاسة الكنيسة. والمأثورات التي تلت وضع الكتاب المقدس تصور بطرس واقفًا عند أبواب الجنة حيث يسمح أو يرفض دخول البشر قبل موعد الحساب. ومن يرفض دخولهم يدخلون النار أو المطهر. ويرى ميلتون أن نص الكتاب المقدس لا يسمح بالإيمان إلا بيوم الحساب.

بعل 1/ 720 إله بابلي كان اسمه يعني «السيد».

بعلزبول 1/ 81 الاسم محرف عن الأصل العبري وهو «بعل ذباب» أي سيد الذباب. وفي متى 12/ 24 يُسمَّى «أمير الشياطين». وربما كان أصلا ربّا يتمتع بالقدرة على تخليص إحدى المدن من هجوم للذباب. انظر عكا. ملوك ثان 1/ 1-3.

بعليم 1/ 422 صيغة الجمع للكلمة العبرية «بعل»، والتي تعني «السيد». انظر بعلزبول، وبليعال، وبعل.

بكين 11/ 390 بيجنج عاصمة الصين، وكان يُظَنُّ أنها مملكة تختلف عن بقية الصين التي يسميها ميلتون قيطان.

بللونا 2/ 922 ربة الحرب الرومانية.

بلوتو، قاعة 10/ 444 كان بلوتو رب العالم السفلي. انظر ديس.

بليعال 1/ 490 الكلمة تعني بالعبرية «التافه» ويشار إليه في العهد الجديد باعتباره شيطانًا (كورنثة الثانية 6/ 15) ولكن تعبير «أبناء بليعال» في العهد القديم تعني من يعيشون حياة العار والانحلال والقتل. انظر جبعة وسدوم.

البنغال 2/ 638 كانت مملكة هندية كبرى.

بنزرت 1/ 585 ميناء تونسي على ساحل البحر المتوسط، في شمال إفريقيا، وكان فيه جيش عربي يستعد للإبحار إلى فرنسا. انظر أورلاندو العاشق 2/ 29/ 1-22.

بنما 9/ 81 يشير ميلتون إلى برزخ بنما باسم دَارِينْ باعتباره الحاجز الذي يحول دون التقاء مياه المحيطين الأطلسي والهادئ. انظر أيوب 38/ 8-11.

البوسفور 2/ 1018 المضيق الذي يقع بين آسيا وأوروبا، ويتميز بصخوره التي تصطدم بها السفن، على نحو ما تعرضت له سفينة جيسون المدعوة

«أرجو»، هو وزملاؤه من الملاحين. أپوللونيوس من رودس، الأرجونوتيكا 2/ 317-323 و552-576.

پومونا 5/ 378 الربة الرومانية للفاكهة.

بيت إيل 1/ 485 المعنى الحرفي هو «بيت الرب» . كان الملك يَرُبْعَامُ قد أقام معبدين في مملكة إسرائيل الوثنية الشمالية هما بيت إيل، ودان، وكان الأول في أقصى جنوب المملكة الشمالية المذكورة، ودان في أقصى شمالها. ملوك أول 12/ 28-29 . وكان هذا يمثل تكرارًا ومضاعفة لجريمة عبادة العجل الذهبي في الخروج 23/ 1-6، انظر يعقوب.

پيثيا ، حقول 2/ 530 كانت تقع في دلفي حيث تجرى ألعاب پيثيا، وهي التي كانت مقدسة للرب أپوللو.

بير سبع 3/ 536 في جنوب فلسطين.

پيرا 11/ 12 انظر ديوكاليون.

بيزنطة 11/ 395 كانت تسمى القسطنطينية ثم أصبحت استامبول الحديثة، وهي التي فتحها الأتراك في عام 1453، وهكذا فكان يحكمها سلطان في أيام ميلتون. وهي تحمي مضيق البوسفور الذي يعتبر الحد الفاصل بين آسيا وأوروبا.

بيلوفرون 7/ 18 البطل الذي حاول الوصول إلى مقر الآلهة بأن امتطى صهوة الجواد المجنح پيجاسوس وصعد به جبل الأوليمپ. ولكن زيوس أرسل ذبابة زرقاء (قُرَّة) فلدغت الجواد فألقى راكبه أرضًا. انظر الجواد الطائر.

پيلوروس 1/ 232 لسان أرضي يمتد في البحر في الركن الشمالي الشرقي من صقلية، بالقرب من جبل إتنا البركاني. أوڤيد، مسخ الكائنات 13/ 727. وقد اختار ميلتون هذا الاسم بسبب التجانس الصوتي

مع غيره من الكلمات، ولكن أساسًا بسبب إيحائه بكلمة يونانية قديمة، وهي الصفة «پيلوروس» التي تعني أي شيء ضخم وذا أبعاد هائلة. ويستخدم هيزيود في قصيدته أصل الآلهة وأنسابهم (*868-820*) هذه الصفة خمس مرات في روايته - في *48* سطرًا - وتُماهي المأثورات المتأخرة بين الموقع الذي دفن فيه تايفون وبين جبل إتنا واللسان الأرضي المذكور، ومن ثم أطلق عليه اسم پيلوروس - انظر كالابريا - وأيضًا ترينيكاريا، شاطئ - وتايفون.

تارتاروس ، كبريت *2/ 69* يُطلق هذا الاسم على أعمق منطقة في الوجود وتقع تحت العالم السفلي نفسه. وعلى الرغم من أن الاسم تارتاروس عادة ما يُوَازَى بينه وبين الجحيم أو العالم السفلي، فإنه يقع على أعماق أكبر ويبعد عنها بعد السماء عن الأرض. وكان الأرباب يُلْقون بأعداء ربوبيتهم في تارتاروس، لا في العالم السفلي المخصص لأرواح البشر.

تامريس *3/ 35* شاعر من تراقيا سلبته ربات الشعر البصر. هوميروس، الإلياذة / *594-600*).

تايفون *1/ 199* ولد تايفون نتيجة لاجتماع الأرض بتارتاروس بعد هزيمة التيتان، وهو أخطر خصوم الأرباب الأوليمبية، والوحيد الذي يستمر تهديده لها وله مائة رأس تنيني تبث اللهب، ويخور خوارًا هادرًا، وتنتهي أطراف جسده بأفاع سامة، وميلتون يصفه على هذا النحو في قصيدته «أنشودة في صبيحة مولد المسيح» قائلاً: «وتايفون الضخم ذو أطراف تنتهي بثعابين ملتفة» (السطر 27). وكان يرمز لغطرسة الكبرياء والعنف الصريح، وهو الوحيد الذي يُرغم آلهة الأوليمپ على الفرار ما عدا زيوس وأثينا، وكانا في عيني ميلتون رمزين للأب والابن. وكانت الآلهة الأخرى تفر إلى مصر حيث تتخفى في صور الحيوان وتعبد على هذا النحو، وهو

ما يشير إليه ميلتون قائلاً: إنهم كانوا «آلهة من الرحل الذين اتخذوا صور الحيوان» (*1/ 481*). وينجح زيوس أخيرًا في حبس تايفون تحت بركان إتنا في صقلية، أو تحت جزيرة صقلية وتحت المنطقة البركانية في جنوب إيطاليا. وفي الفقرة الخاصة بتايفون في مسرحية أيسخولوس پروميثوس مغلولاً (السطور *351-372*) تظهر عناصر كثيرة من تصوير ميلتون لإبليس وللجحيم، مثل «البريق الجورجوني» لعيني تايفون (انظر جورجونات)؛ ومثل استمرار تأثير صواعق زيوس لا في جسد تايفون وحسب بل في عقله أيضًا (انظر الفردوس المفقود *1/ 94*، و*126/ 1*)، واستلقاء تايفون بجسده الضخم لا على بحيرة اللهب بل تحت «جذور» جبل إتنا؛ ومثل تفاخر تايفون، بلغة رفيعة، بأنه سوف يطيح «بطغيان زيوس» (پروميثيوس مغلولاً *357*، وانظر الفردوس المفقود *1/ 124*)؛ ومثل نبوءة پروميثيوس بأن استمرار عذاب تايفون الباطن سوف يجعله يومًا ما يتقيأ لهبًا يدمر حقول صقلية المثمرة. وكانت الإشارات المتعددة في الشعر القديم إلى ثمار صقلية وخصبها من وراء اعتبار ميلتون إياها نمطًا لجنة عدن. انظر كيريس. هيزيود أصل الآلهة وأنسابهم *820-868*، پندار أناشيد پيثية *1/ 15/ 28* و*8/ 15-18*، وأناشيد أوليمپية *4/ 6-7*، والشذرات *18*، وأوڤيد مسخ الكائنات *5/ 346-353*. انظر پيلوروس.

تبريز *10/ 436* مدينة في شمال غربي بلاد فارس (إيران الحالية).

التتار *3/ 432* قبائل المغول الرُّحَّل في وسط آسيا.

ترايتون *4/ 276* انظر: نايسا.

ترينيكاريا، شاطئ *2/ 661* المقصود ساحل صقلية المقابل لكالابريا عبر المضايق التي تفصل صقلية عن أراضي إيطاليا. وأوڤيد في مسخ الكائنات *5/ 346-353* يشير إلى صقلية (عندما يُلْقَى بها فوق تايفون) بعبارة «الجزيرة الترينيكارية الضخمة» انظر كالابريا وپيلوروس.

تلسار 4/ 214 انظر سلوشيا.

تلمسان 11/ 404 مدينة في شمال إفريقيا ذاعت شهرتها، مثل فاس، بالشرف الذي تضفيه على الشعراء. وميلتون يعتمد في ذكر المواقع الواردة في شمال إفريقيا على أريوسطو غضبة أورلاندو 33/ 98-107 وترد كلمة تلمسان مُحَرَّفَةً في الفقرة 101.

تموز 1/ 446 أحد الأرباب السورية ويرتبط اسمه بأدونيس، وكانت الوثنيات يَنْدُبْنَ وفاته أمام المعبد (حزقيال 8/ 14).

تنريف 4/ 987 جبل شاهق في جزر الكناريا، يشاهد من البحر على مسافة شاسعة.

التنين النهري 12/ 191 المقصود هو الفرعون. وحزقيال يُصْدِرُ نبوءة رهيبة بشأنه قائلاً: «ها أنا أنقلب عليك يا فرعون ملك مصر، أيها التمساح الكامن في وسط أنهاره، القائل: النهر لي وقد صنعته لنفسي. ها أنا أضع خزائم في فكيك وأجعل سمك أنهارك يلتصق بحراشفك، وأخرجك قسرًا من أنهارك» (29/ 1-4).

التوأمان الإسبرطيان 10/ 674 كوكبة الجوزاء، وتسمى أيضًا التوأم، والتي كان القدماء يتخيلون أن الشمس تمر بها في طريق عبورها إلى مدار السرطان. انظر السرطان.

تورنوس 9/ 17 في النصف الثاني من ملحمة الإنيادة لڤيرچيل يصف الشاعر غضب تورنوس من حرمانه من العروس التي كان قد وُعد بها، وهي لاڤينيا، وكيف قاد عصبة من ممالك إيطاليا (أوسونيا) لمحاربة الطرواديين بزعامة إينياس.

توسكانا ، فنان *1/ 288* المقصود جاليليو، وكان من توسكانيا، وقد حبسته محاكم التفتيش في ڤيلا في فيزولي، بالقرب من فلورنسا. انظر جاليليو، والمنظار المقرب.

توفة *1/ 404* في وادي هنوم، جنوب غربي أورشليم، حيث كان الأطفال يقدمون قرابين إلى الصنم مولك أو ملكوم. وقد قام المصلح الديني، الملك يوشيا، بوضع حد لذلك. «ودنس الملك أيضًا مذبح توفه في وادي بني هنوم، لكي لا يجيز أحد ابنه أو ابنته في النار للصنم مولك» . (ملوك ثان، *23/ 10*). انظر جهنم، ويوشيا، وملكوم/ مولك.

تيتان *1/ 510* كان الابن الأكبر للسماء، أورانوس، وأخا زيوس، واشترك مع آخرين من سلالة التيتان في الحرب ضد الأوليمبيين.

تيدور *2/ 639* انظر تيرنات.

تيراقيا *7/ 34* كانت تيراقيا منطقة جبلية شبه برية في شمالي اليونان، وكان قد ارتبط اسمها بعبادة ديونيسيوس وبالشاعر أورفيوس. انظر أورفيوس.

تيرنات *2/ 639* كانت هي وتيدور من «جزر البهار» في منطقة مولوكا (في إندونيسيا).

تيريسياس *3/ 36* نبي من طيبة وكانت طاقاته على التنبؤ تعويضًا ربانيًا عن فقدان بصره.

التيفوني، التنور *2/ 539* انظر تايفون.

تيمورلنك *11/ 389* كان ميلتون يسميه تمير، ويسمى في الإنجليزية بأسماء عدة مثل تامبورلين وغير ذلك. انظر سمرقند.

تيميس *11/ 14* ربة القانون، من سلالة التيتان، ابنة أورانوس (السماء) وجي (الأرض). انظر ديوكاليون.

ثايستيس ، مائدة *10/ 688* كان أتريوس قد قتل أبناء أخيه

ثايستيس وقدم من لحمهم طعامًا مطبوخًا له، وهي الجريمة التي آذنت بحلول اللعنة على بيت أتريوس. (ايسخولوس أجاممنون 1591-1602) وسينيكا (ثايستيس 776-777 و784-884) يقول:إن الشمس كُسِفَتْ بسبب تلك الجريمة.

الثريا ، كوكبة 7/ 374 هذه كوكبة كثيفة الأنجم، تعرف باسم الشقيقات السبع، أو الأخوات الأطلسيات، وهي تشرق في الربيع في موعد حرث الأرض. وكان يقال إن لها تأثيرًا طيبًا يأتي بالخصب إلى الأرض (هيزيود الأعمال والأيام 383-384). انظر السرطان.

جاسان 1/ 309 المكان الذي كان بنو إسرائيل الأسرى يقيمون فيه في مصر (تكوين 47/ 6).

جاليليو 5/ 262 عالم وفلكي إيطالي عظيم، إذ كان أول من نظر في السماء بالتليسكوب، فأثبت خطأ النظرية البطلمية التي تقول: إن الأرض مركز الكون، وهي النظرية التي اكتسبت رسوخًا بمرور الزمن، وأثبت جاليليو صحة ما افترضه كوبرنيكوس من أن الأرض تدور حول الشمس. كما لاحظ أيضًا آثار التآكل على سطح القمر. انظر فنان توسكانا.

الجانكيز ، نهر 3/ 436 أحد النهرين العظيمين في شمال الهند، وهو مقدس عند الهندوس، ويصب ماءه في خليج البنغال، في الجانب الشرقي من شبه الجزيرة الهندية. وكان يقال إنه أول الأنهار الأربعة في جنة عدن، وهو نهر فيشون (تكوين 2/ 11) انظر هيداسبيس.

الجبار ، نجم 1/ 305 كانت كوكبة الجبار تصور صيادًا أو عملاقًا مسلحًا («جبارًا») وكان صعودها في السماء منذرًا بموسم العواصف. انظر الإنيادة 1/ 535.

جبريل 4/ 549 المعنى الحرفي هو «قوة الله»،وهو واحد من كبار

الملائكة الأربعة، وهو يقود فيلق الملائكة الذي أرسل لحراسة جنة عدن، ويواجه إبليس هناك (4/ 668-1015).

جبعة 1/ 504 مدينة بالقرب من أورشليم في أرض بنيامين حيث قام أحد اللاويين مع محظيته (التي لطّف التعبير عنها ميلتون فجعلها «امرأته») بالنزول ضيفين على رجل هرم أثناء رحلتهما وقضيا الليلة عنده وأكرم وفادتهما. ولكن «بعض أبناء بليعال» (الترجمة العربية للكتاب المقدس تقول: «بعض الأوغاد» - المترجم) (القضاة 19/ 22) طرقوا الباب وطلبوا إخراج الضيف إليهم ليغتصبوه. ولكن المحظية أُرْسِلَتْ إليهم بدلاً منه فتناوبوا اغتصابها حتى ماتت. وكانت هذه الجريمة سببًا في الحرب الأهلية ضد قبيلة بنيامين في إطار بني إسرائيل.

جبعون 12/ 265 المكان الذي دعا فيه يشوع الله بأن يوقف مسار الشمس حتى ينتهي من هزيمة الأموريين (يشوع 10/ 9) انظر أيّلُون.

جبل الله 5/ 643 في الفردوس المفقود مكان وجود الله في السماء وموقع عرش الله، والصورة مستمدة من أشهر جبلين مقدسين في الكتاب المقدس وهما طور سينين حيث تلقى موسى القانون من الله، وجبل صهيون في أورشليم. انظر 6/ 5 و7/ 584-586.

جبل طارق 1/ 355 اللسان الممتد في البحر من الساحل الجنوبي لإسپانيا عند أقرب نقطة فيه إلى ساحل إفريقيا، وهو الذي يفصل المحيط الأطلسي عن البحر المتوسط. وكانت جحافل البرابرة تعبر إسپانيا ومضيق جبل طارق ثم تنتشر في شمال إفريقيا أو ليبيا.

جت 11/ 465 إحدى المدن الفلسطينية الخمس. انظر أشدود.

الجحيم 1/ 28 موقعها ليس على الأرض بل في مكان ناءٍ قصيٍّ وسط العماء، على مسافة بعيدة من الجنة ومن الكون المخلوق.

وباعتبار الجحيم مكانًا للعقاب السرمدي فإنها قد خلقت لاستقبال الملائكة العصاة في أثناء سقوطهم. وتعتبر كذلك مكان العقاب في نهاية الزمن للبشر الفاسقين. وتبدو صورة الجحيم عند ميلتون دائرية، مثل الموقد المستدير. انظر *1/ 542 2/ 635*. ومع ذلك فإنها تشبه أيضًا قارة كبرى، فيها أربعة أنهار هي: ستيكس، وأخيرون، وكوكيتوس، وفليجيثون. وبها مساحات شاسعة يستكشفها الملائكة. انظر *2/ 570–628*. والملائكة العاصون يبنون مكانًا في الجحيم، وهو قصر پانديمونيام. انظر *1/ 700–730*. وأما أبواب الجحيم التي تحرسها الخطيئة إلى جانب الموت، فمصنوعة من النحاس والحديد والصخر الصلب، وتحيطها النيران. وعندما تفتح هذه الأبواب تنبثق ألسنة اللهيب العارمة خارجة إلى العماء. انظر *2/ 645–648*، *2/ 876–889* وانظر جهنم.

جريون *11/ 410* كان وحشًا مجنحًا أحمر اللون له ثلاثة رءوس ويكتنز الأبقار، وقتله هرقل. وسپنسر يربط ما بينه وبين طغيان الإسپان وعدوانيتهم. ويشير إليه في ملكة الجان قائلاً: «ذلك الذي كان بالغ البشاعة والرعب في إسپانيا/ بسبب قوته الجبارة وظلمه الشديد» (*5/ 10/ 9*) ومن ثم فإن ميلتون يشير إلى الفاتحين الإسپان في العالم الجديد بتعبير «أبناء جريون» .

الجزائر *11/ 404* قطر من أقطار شمال إفريقيا، وعاصمته تحمل الاسم نفسه.

جُلْجُثة *3/ 477* المعنى الحرفي هو «مكان الجمجمة» ، وتسمى أيضًا كالفاري، بالمعنى نفسه، والكلمة تشير إلى تل الإعدام خارج أورشليم حيث صُلب يسوع.

جهنم *1/ 405* كانت الكلمة التي تطلق على النار في النص اليوناني من

العهد الجديد هي «جهنم» . وإنجيل متى يورد الكلمة في 5/ 22 وفي 10/ 28 «خافوا القادر أن يهلك النفس والجسد جميعًا في جهنم» . وجهنم كلمة مشتقة من العبرانية «چي - هِنُّومْ» ، حرفيًّا: وادي هنوم، كما تسمى أيضًا «توفه» («طبلة») في الجنوب الغربي من أورشليم. وكانت إحدى الخمائل في هذا الوادي مقدسة ومخصصة لمولك أو ملكوم حيث يقدم الأطفال قرابين بحرقهم أحياء.

الجواد الطائر 7/ 4 كان پيجاسوس جوادًا مجنحًا، وكان هو الذي أنشأ مصدر نبع هيپوكرين في جبل هليكون بأن ضرب الصخر بحافره. ونبع هيپوكرين مرتبط بالشعر أو قل يتماهى معه، وخصوصًا الشعر الملحمي من بحر الداكتيل الذى يوحي بوقع حوافر الخيل. انظر بيلوفرون.

چوپيتر 1/ / 198، 4/ 499 كان النظير الروماني لرب الأرباب زيوس عند اليونان.

چوپيتر الكاپيتوليني 9/ 508 الصفة تشير إلى معبد چوپيتر أو چوڤ فوق تل الكاپيتول في روما، انظر سكيپيو.

جرجونات 2/ 628 كانت هذه ثلاثة وحوش من الإناث، وكان شعر الرأس لديهن من الثعابين، وكان من يتطلع إلى إحداهن يتحول إلى حجر. وكانت إحداهن هي ميدوزا التي قتلها البطل پيرسيوس، ووضعت رأسها على درع أثينا. ويشير أوڤيد إليها كثيرًا في مسخ الكائنات، مثلاً في 4/ 655-662 عندما يستخدم پيرسيوس رأس ميدوزا في تحويل التيتان أطلس إلى الجبل الذي يحمل هذا الاسم في شمال إفريقيا، عبر مضيق جبل طارق - انظر أوفيوزا.

چونو 4/ 500 المعادل الروماني للربة هيرا زوجة زيوس.

جيحون 11/ 389 نهر كبير في آسيا يصب في بحر آرال في كازاخستان. وأما الخرائط في أيام ميلتون فكانت تبين أنه يصب

في بحر قزوين.

حاران *12/ 131* مدينة في أقصى وادي الفرات، على رافد يصب في الفرات ويتجه جنوبا ويدعى بليخ، وكان تارح، والد إبراهيم، قد قصد هذه المدينة مع أسرته عندما غادر بلدة أور في أسفل الفرات. وقد أمر الله إبراهيم أن يترك حاران ويسافر جنوبًا إلى كنعان (فلسطين).

حام *4/ 276* أمون، والد باخوس، ويقال إنه هو نفسه چوپيتر، وكذلك كوكبة الحمل. كما يستخدم الاسم في الإشارة إلى حام بن نوح. انظر أمون وكنعان.

الحبشة، ملوك *4/ 280* انظر أمارا.

حرمون *12/ 141* جبل حرمون جبل تغطي قمته الثلوج في فلسطين ويقع شمال شرقي بحيرة طبرية (بحر الجليل)، ومن سفوحه تنحدر منابع نهر الأردن. وكان بنو إسرائيل يعتبرون جبل حرمون حدودهم الشمالية، ولكن ميلتون يتبع ما كان راسمو الخرائط المعاصرون يفترضونه من اعتباره الحد الشرقي.

حزقيال *1/ 455* النبي الذي ذهب إلى المنفى في بابل في القرن السادس قبل الميلاد، وقد اشتهر برؤياه لله في الفصل (الأصحاح) الأول من كتابه (سفره).

حشبون *1/ 408* بلدة مؤابية، أصبحت فيما بعد أمورية، وتقع في شرقي نهر الأردن، إلى الشمال الشرقي من جبل نبو. وهي مدرجة بين المدن المذكورة في نبوءة إشعياء بشأن دمار مؤاب. «تتعالى صرخات حشبون والعالة... لذلك يندب جيش مؤاب بصوت مرتفع» (إشعياء *15/ 4*) انظر العالة.

حماة 12/ 139 في سوريا على نهر أورنتيس.

الحمل، برج 10/ 329 كوكبة نجوم.

حواء 1/ 364 المرأة الأولى، وشُكِّلَتْ من ضلع أُخِذَ من الرجل الأول، آدم. واسم حواء يحمل معنى «الحياة» بالعبرية، وهو يعني ذلك إذا نطق بحرف الحاء. «وسمى آدم زوجته «حواء» لأنها أم كل حي» (تكوين 3/ 20) وفي الكتاب المقدس السبعيني (اليوناني) تُسمى حواء «زُوِي» - أي الحياة. انظر آدم.

حوران 4/ 211 الحد الغربي لعدن الشاسعة (والتي لا تمثل الفردوسُ إلا جزءًا صغيرًا منها).

حورس 1/ 478 إله مصري للسماء، ابن أوزيريس وإيزيس. وله رأس صقر. والفرعون تجسيد بشري لحورس.

حورونايم 1/ 409 مدينة في مؤاب ورد ذكرها في نبوءة إشعياء ضد مؤاب: «قلبي يصرخ متوجعًا على مؤاب... ويجهرون بصراخ الهزيمة في طريق حورونايم» (إشعياء 15/ 5) انظر أيضًا حشبون.

حوريب 1/ 7 في سيناء في الخروج 3/ 1، حيث قابل موسى الله الذي ظهر له في صورة شجرة موقدة نارًا. انظر سيناء.

خاريبديس 2/ 1020 وحش في أوديسية هوميروس 12/ 55-126، 222 - 259، في صورة دوامة عملاقة أو مهوى مائي يبتلع السفن، في أحد جانبي المضيق الذي يفصل بين صقلية وإيطاليا. وخاريبديس يبتلع السفن في أعماقه ثم يلفظها. وفي الجانب الآخر من المضيق يقبع الوحش سيلا على صخرة وله ستة رءوس كلاب ضارية. وهكذا فإن وحشًا يشد السفن من أسفل والآخر ينقض عليها من أعلى. (أوفيد، مسخ الكائنات، 7/ 62-65، و13/ 730 - 731).

الخطيئة 2/ 760 صاحبة إبليس في السماء، وُلدت من الجانب الأيسر من رأس إبليس، وحملت منه طفلهما وهو الموت. والخطيئة تسقط مع الملائكة العاصين، ولكنها تُعْطَى مفتاحًا وتُكَلَّفُ بحراسة أبواب الجحيم. وهناك يولد ابنها، وهو الموت، ويغتصبها على الفور، ومن جماعهما تولد كلاب الجحيم وتلتف حول وسطها، ولا تتوقف عن النباح. وبين الفينة والفينة تدخل رحمها وتنهش أحشاءها. وأسفل جسد الخطيئة يتحول إلى ثعبان ذي«لدغة قاتلة» (1/ 653). وصورة الخطيئة التي تجمع بين جمال المرأة في نصفها العلوي والحية في نصفها السفلي صورة تقليدية، ولكن ربما كان ميلتون يستقي تصويره من الوحش الذي يرسمه سبنسر ويسميه «الخطأ» (أو الضلال)، وهو وحش في شكل امرأة في نصفه الأعلى وشكل حية في نصفه الأسفل، وله لدغة قاتلة. وأطفال هذه المرأة من الضفادع العمياء والثعابين الصغيرة تزحف داخلة وخارجة من فمها (لا من رحمها) حتى ينجح فارس الصليب الأحمر في قطع رأسها، ومن ثم تشرب هذه الأطفال دمها وتنتفخ حتى تنفجر. انظر ملكة الجان 1/ 1/ 14-26. ويقول ميلتون: إن صورة كلاب الجحيم النابحة حول وسط الخطيئة (1/ 659-661) من تصوير أوفيد للوحش سيلا، الذي كان نصف جسده السفلي يتكون من رءوس كلاب نابحة. انظر سيلا. وعندما يواجه إبليسُ الموتَ عند أبواب الجحيم، تعقد الخطيئة مصالحة بينهما، وتكشف عن أن الموت ابنها الذي أنجبته من إبليس، وتفتح أبواب الجحيم، حتى تسمح لإبليس أن يمر بها في طريقه إلى العماء. وبعد سقوط آدم وحواء، تقوم الخطيئة مع الموت ببناء جسر عبر العماء يصل ما بين الجحيم وبين الكون المخلوق، الأمر الذي يسهل على الشياطين المجيء إلى الدنيا. وعندما يقابل إبليسُ الخطيئةَ والموتَ

عند طرف الجسر الذي اكتمل بناؤه يقول لهما ما عليهما أن يفعلا بالبشر: عليكما «باستعباده أولاً وأن تهلكاه آخر الأمر» (10/ 402). والإهلاك مهمة الموت، والاستعباد مهمة الخطيئة.

دائرة البروج 11/ 247 شريط من النجوم في قبة السماء ترتسم فيه المدارات الظاهرية للشمس والقمر والكواكب حول الأرض، بافتراض أن الأرض هي مركز النظام الفلكي. وينقسم الشريط إلى اثنتي عشرة كوكبة تشبه كل منها (عند مد بعض الخطوط بين النجوم) بعض الحيوانات والشخصيات الأسطورية. وفيما يتعلق بحركة الشمس الظاهرية في أبراج الدائرة على جانبي خط الاستواء انظر السرطان، مدار.

داجون 1/ 462 صنم على شكل سمكة كان الفلسطينيون يعبدونه، وعندما استولوا على تابوت العهد ووضعوه بجانب صنم داجون، سقط الصنم على وجهه.. وعندما أعادوا الكرة في الليلة التالية وجدوا في الصباح أن رأس داجون ويديه قد قطعت«ولم يبق منه سوى جسم السمكة» (صموئيل الأول 5/ 1-4).

دافني 4/ 272 حورية من بنات الرب النهري پينيوس، وكان أپوللو يحبها. وأثناء فرارها من أپوللو دعت أباها أن ينقذها فحولها إلى شجرة غار، فأصبحت شجرة الغار مقدسة لأپوللو. أوفيد مسخ الكائنات1/ 452-567. انظر أورنتس حيث يرد ذكر الخميلة المسماة باسمها.

دان 1/ 485 مدينة في أقصى شمال فلسطين عند منابع نهر الأردن (ملوك أول 12/ 28-33) انظر بيت إيل.

دان، سليل 9/ 1059 المقصود أحد أفراد قبيلة دان.

الدانوب 1/ 353 النهر الأوروبي الذي يشكّل مع نهر الراين الحد الشمالي الأقصى للإمبراطورية الرومانية. وهو يجري

شرقًا في وسط أوروبا ويصب في البحر الأسود. وفي القرن الخامس الميلادي عبرته جحافل البرابرة التي دمرت الإمبراطورية. انظر الراين.

الدردنيل *309/10* كان يسمى «هيليسپونت» قديمًا، وهو المضيق الذي يفصل آسيا عن أوروبا. وفي أثناء غزو الإمبراطور الفارسي أرتخششا لليونان أمر ببناء جسر فوق المضيق، وحين دمرته إحدى العواصف أمر بقتل من بنوا الجسر، وبجلد أمواج الدردنيل بالسوط ثلاثمائة جلدة، وبأن يكيل الضاربون بالسياط الشتائم المقذعة أثناء الضرب. وقد أدت هذه الغطرسة من جانب أرتخششا إلى فشل حملته (انظر هيرودوت، التاريخ، *7/ 33-36*).

داود *12/ 326* الملك الثاني لبني إسرائيل. استولى على أورشليم وجعلها العاصمة، ونقل تابوت العهد إليها. وداود نمط الإنسان الخاطئ وإن كان بقلبه إيمان دفاق. والمفترض في التراث أنه مؤلف المزامير، وعادة ما يُصَوَّرُ حاملاً قيثارة. وقال الأنبياء: إن المسيح سوف ينتمي إلى النسب الملكي لداود (المزامير *89/ 34-37*، إشعياء *11/ 10*). وحق يسوع في المُلْكِ يستند إلى كونه من سلالة داود «ويمنحه الرب الإله عرش داود أبيه» (لوقا *1/ 32*).

ديلوس *5/ 565* صغرى الجزر اليونانية في كيكلاديس. وهي مقدسة لأپوللو وديانا اللذين ولدا فيها.

دلفي، صخور *1/ 517* كانت دلفي تقع على إحدى قمم جبل پارناسوس، وتطل على خليج كورنثة، وتعتبر من أقدس المواقع في اليونان القديمة. وكانت موطن نبوءة أپوللو ومكان الألعاب البيثية التي تقام تكريمًا لأپوللو، وهي أهم ألعاب بعد الألعاب التي كانت تقام في أوليمپيا تكريمًا لزيوس.

وقد دفع ارتفاعها ميلتون إلى أن يربط ما بين عبادة الأرباب الوثنية في دلفي وبين الشياطين الذين يشغلون الأماكن الوسطى من الهواء. وأصبحت كلمة دلفي مرادفة «للأعالي» الخاصة بعبادة الأصنام والتي كثيرًا ما يرد ذكرها في الكتاب المقدس، في سفر الملوك الأول والثاني. انظر الأصلات ، وادي ، وأصلة.

دليلة *9/ 1061* عشيقة شمشون التي خانته لصالح الفلسطينيين بأن جعلته ينام وأمرت رجلاً بأن يقص شعره وهو مصدر قوته (قضاة *16/ 19*).

دمشق *1/ 468*، *584* عاصمة سوريا حيث كان النعمان قائدًا من قواد جيشها. وعندما قال له النبي إليشع أن يغتسل سبع مرات في نهر الأردن حتى يشفى من برصه، قال: إن نهر أبَانا والفرفر أفضل من الأردن، وهما نهرا دمشق. ولكنه عندما اغتسل في الأردن شُفي. (الملوك الثاني *5/ 1–14*) وفي ملحمة أريوسطو غضبة أورلاندو *16/ 1–16* يتبارز فرسان المسلمين والمسيحيين عند دمشق.

دمياط *2/ 593* مدينة عريقة في دلتا نهر النيل.

دوثان *11/ 217* بلدة في شمالي فلسطين حاصرها الملك السوري الذي كان يحاول أسر إليشع (الملوك الثاني *6/ 13–18*) واستجاب الله لدعاء إليشع وأصاب جيش الملك السوري بفقدان البصر.

دودونا *1/ 518* موقع نبوءة بالغة القدم من نبوءات زيوس، وكانت تعليمات زيوس تصدر من خشخشة أوراق شجرة بلوط مقدسة. هوميروس، الأوديسية *19/ 296–297*.

دوريس *1/ 550* مقام موسيقي قديم مرتبط بالانضباط العسكري. أفلاطون الجمهورية *398–399*.

دوريس، أرض *1/ 519* اليونان.

دومينيك 3/ 479 مؤسس إحدى «الطرق» الخاصة بالرهبان (الدومينيكان) الذين اشتهروا بثيابهم البيضاء.

ديانا 9/ 387 وتسمى أيضًا ديليا نسبة إلى مولدها في جزيرة ديلوس.

ديس 4/ 270 اسم يطلق على پلوتو ملك العالم السفلي (هاديس) كما يطلق عليه هاديس أيضًا. انظر كيريس.

ديكان 9/ 1103 كان ذلك الاسم في أيام ميلتون يطلق على الإقليم الهندي الواقع خلف ميناء جُووَا على الساحل الشمالي الغربي. انظر مالابار.

ديوكاليون 11/ 12 نجح مع زوجته پيرا في النجاة من الطوفان الذي دمر به زيوس أبناء العصر البرونزي. وكان ميلتون يرى أن هذه القصة هي الصورة الوثنية للقصة الحقيقية لطوفان نوح. وقد نجح هو وزوجته بعد الصلاة في معبد تيميس، ربة القانون، في استعادة الجنس البشري بإلقاء أحجار من خلف أكتافهم، فالأحجار التي ألقاها ديوكاليون أصبحت رجالاً، والتي ألقتها پيرا أصبحت نساءً.

رأس الرجاء 4/ 160 الطرف الجنوبي لقارة إفريقيا،والذي كان على الملاحين أن يدوروا حوله في طريقهم إلى الشرق.

راميل 6/ 372 اسمه يعني «من يرفع نفسه فوق الله» . وفي أحد الكتب المشكوك في صحتها وهو إينوخ الأول (6/ 7) يرد اسم راميل بين الملائكة الذين يحلفون بأن يضاجعوا النساء. وهم يوفون بما أقسموا عليه وينجبون سلالة من العماليق آكلي لحوم البشر. وهذه القصة مبنية على الرواية المهذبة الواردة في سفر التكوين 6/ 1-4. والعنف الذي يبديه راميل يذكرنا بعبارة ڤيرچيل «عنف تورنوس» (الإنيادة 11/ 376).

الراين ، نهر 1/ 353 الطريق المائي الرئيسي في غرب أوروبا، وكان يمثل

مع الدانوب الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية. وهو يجري باتجاه الشمال الغربي حتى يصب في بحر الشمال. وكانت قبائل البرابرة تعبر هذا النهر في القرن الخامس الميلادي وتكتسح كل شيء في طريقها، فتقوم بالسلب والنهب في روما، بل لقد خلعت آخر الأباطرة وأقامت ممالكها الخاصة في أراضي الإمبراطورية السابقة. انظر الدانوب.

رِبَّةُ *1/ 397* مدينة بني عَمُّون الرئيسية، وهم عُبَّادُ مولك أو ملكوم. وتقع شرقي نهر الأردن، في جهة الشمال. وتسمى ربة في صمويل الثاني *12/ 27* مدينة «المياه» . انظر إرمياء *49*.

ربة الشعر *1/ 6* ربات الشعر من بنات زيوس ونيموسين («الذاكرة»). ويحاكي ميلتون كبار شعراء الملاحم، وخصوصًا هوميروس، في استلهام ربة الشعر في مستهل ملحمته. والتراث الكلاسيكي يتضمن أسماء تسع ربات، وكانت ترعى شتى الفنون والعلوم، ومن بينها: كليو، ربة التاريخ، وكاليوبي، ربة الشعر الملحمي. ولما كانت قصيدةُ ميلتون ملحمةً وروايةً لأصل التاريخ معًا، كان من المتوقع أن يستلهم هاتين الربتين معًا. ولكن الشاعر لا يذكر إلا اسم ربة كلاسيكية واحدة هي يورانيا (*7/ 1*)، واسمها مشتق من كلمة يونانية تعني «السماوي» . ويورانيا هي ربة الفلك، وبالنسبة للشعراء المسيحيين ربة الشعر الديني. ويوحي ميلتون بأن ربات الشعر الكلاسيكية لا تمثل إلا ذكرى مشوهةً لحكمة الله (*7/ 3-8*). وأما ما يستلهمه ميلتون في مستهل قصيدته الفردوس المفقود فهو كلمة الله التي ألقاها على موسى في جبل سيناء (طور سينين) وعلى داود (في المزامير) في جبل صهيون. ويزيد ميلتون من تحديد هوية الربة السماوية في السطر *1/ 17* قائلاً: إنها الروح، أو النور الباطن، وهو ما يرتبط بالعقل والضمير. وهو يُمَاهِي بين هذا النور الداخلي في السطر *1/ 20* وبين الروح (تكوين *1/ 2*) التي

ترفرف على سطح المياه في العماء عند خلق العالم. وفي السطر 1/ 375 يعيد ميلتون استلهام الربة قبل تقديم قائمة بقادة الملائكة العاصين الذين كُتِبَ لهم أن يغدوا في قابل الأيام أرباب الوثنية في مصر وفلسطين واليونان وروما. وبهذا يحاكي ميلتون هوميروس الذي يقدم قائمة للسفن المبحرة إلى طروادة وقوادها (الإلياذة 2/ 483-877). ولما كانت ربات الشعر بنات الذاكرة فإن القوائم الملحمية تُقَدِّمُ ضمانًا لصدق الوقائع التي ينشد الشاعر شعره عنها.

رمون 1/ 467 إله سوري، وكان يعبد في دمشق. انظر دمشق.

الروح 1/ 17 في المسيحية التقليدية يعتبر الروح، أو الروح القدس، الشخص الثالث في الثالوث، وجزءًا من الأجزاء المتساوية الثلاثة لله، وعند ميلتون يمثل الروح قدرة الله الخالقة وهو أدنى من الأب ومن الابن. وعندما يُرسل الأب ابنه إلى العماء ليخلق الدنيا يقول له: «وها هو الروح والجبروت من عندي يظل كل شيء/ وها أنذا أرسله مع كلمتي» (7/ 165-166). وميلتون يُمَاهِي بين هذا الروح وبين قدرته الخلاقة أيضًا. فالقوة التي تساعد في خلق العالم هي القوة التي تساعد ميلتون في كتابة القصيدة كذلك. انظر 1/ 17-22. وانظر الله، الابن، الكلمة.

رودوبيا 7/ 35 سلسلة جبال في شمالي تراقيا، مقدسة لديونيسيوس، حيث كان أورفيوس يعزف الموسيقى، وحيث مزقته الميناداات (عابدات باخوس) (أوفيد مسخ الكائنات 10/ 717) انظر أورفيوس.

روفائيل 5/ 221 الاسم يعني «صحة الله» . وفي توبيت 3/ 17 يظهر روفائيل في صورة المعالج وطارد الشياطين، فهو يطرد ويقيد العفريت الشرير أزموديوس. انظر أزموديوس وطوبيا.

روما *9/ 671* يشير ميلتون إلى روما «الحرة» أي في ظل الجمهورية وقبل الأباطرة. والمعروف أن فن الخطابة السياسية ازدهر في ظل النظام الجمهوري.

رِيَا *1/ 513* زوجة كرونوس. ولما كان من عادة زوجها أن يلتهم أطفالهما عند ولادتهم فقد أخفت رِيَا الرضيع زيوس في كهف في جبل إيدا في جزيرة كريت، وخدعت كرونوس بأن ألقت في حلقه حجرًا ملفوفًا في لفائف الرضيع. انظر أمالثيا.

زوفيل *6/ 535* ملاك واسمه يعني «جاسوس الله» . وفي أثناء الحرب في السماء، يتمكن زوفيل «أسرع ملائكة الشاروبيم جناحًا» من أن يلمح مَقْدِمَ الملائكةِ العاصين، وبلغة رائعة يحث الملائكة المخلصين على الاستعداد للقتال.

ساتورنوس *1/ 512* النظير الروماني لكرونوس اليوناني، وكان حاكمًا على الأرباب حتى خلعه ابنه چوپيتر (زيوس اليوناني) انظر رِيَا.

ساموديا *10/ 696* شاطئ ساموديا، المنطقة الواقعة شمال شرقي سيبيريا.

ساموس *5/ 265* جزيرة في بحر إيجه، ليست من أرخبيل كيكلاديس بل من أرخبيل سپوراديـــس وكانت مسقط رأس الربـــة هيرا. وأوفيد في مسخ الكائنات يربط بين جزيرتي ديلوس وساموس (*8/ 220*) وكذلك يفعل ميلتون لأن كلا منهما مرتبط بميلاد مقدس. انظر ديلوس.

سبمة *1/ 410* مدينة مؤابية، اشتهرت بأنبذتها وفواكهها. ونبيذ سبمة مذكور في نبوءة إشعياء بشأن دمار مؤاب (*16/ 8–9*).

ستيكس ، نهر *2/ 577* انظر أخيرون.

سدوم *1/ 503* إحدى المدينتين الخبيثتين الواقعتين في السهل المنبسط في أقصى جنوب شرقي البحر الميت، والأخرى هي

عمورة. وأثناء مقام لوط، ابن أخي إبراهيم، في سدوم، حل به ضيفان من الملائكة فأكرمهما في بيته. ويحيط رجال سدوم بالبيت ويطالبون لوطًا بأن يقدم إليهم الرجلين حتى يضاجعوهما جنسيا (تكوين *19/ 5*) ويعرض لوط عليهم ابنتيه بدلاً منهما ولكنهم يرفضون. وعندها ضرب الملاكان على أعين الرجال في الشارع فأعميا أبصارهم «فعجزوا عن العثور على الباب» (*19/ 11*). وبعد أن يفر لوط مع بنتيه من المدينة، يمطر الله نارًا وحجارة على سدوم وعمورة حتى لم يبق بهما كائن حي واحد، ولكن امرأة لوط تعصي ما أُمِرَتْ به وتتلفَّتُ وراءها تنظر المدينة المحترقة فتتحول إلى عمود من الملح (*19/ 26*).

السِّرْبُون ،مستنقع *2/ 592* منطقة شاسعة من الرمال المتحركة في مصر كانت قادرة على ابتلاع جيوش كاملة (ديادوروس الصقلــي [*1/ 30/ 5-7*]) انظر أيضًا لوكان الفرساليا *8/ 539*. ويقول هيرودوت (في كتابه التاريخ *3/ 8*): إن بحيرة سيربونيس هي التي نفترض دفن تايفون فيها. انظر تايفون وسيرتيس.

السرطان ، مدار *10/ 675* يقال إن الشمس متعامدة على مدار السرطان عندما تكون في برج السرطان، وهو كوكبة يحدد موقعها أقصى نقطة تبتعد الشمس فيها عن خط الاستواء قبل أن تتحول أو تدور جنوبًا (وكلمة مدار الإنجليزية تحمل هذا المعنى). وهذه الحركات الشمسية تنتمي إلى النظام الفلكي الذي كان يفترض أن كل شيء يتحرك حول الأرض الثابتة. انظر مدار الجدي، وانظر أيضًا الثريا ، والتوأمان الاسبرطيان ، ودائرة البروج.

سريقانا *3/ 438* اسمها الحالي سريقا، والاسم الأطول وارد في شعر بوياردو وأريوسطو. والاسم يشير إلى سهول عريضة قاحلة تقع جنوبي جبال إيماوس، في سقيثيا. وميلتون يتخيل وجود سهول سريقانا شمالي

جبال الهمالايا. وكانت الخرائط في عهد ميلتون تصور عربات «تبحر» في سريقانا.

سكيپيو 9/ 510 المقصود هو سكيپيو الأكبر، أو سكيپيو الإفريقي الذي أطلق عليه هذا الاسم بسبب انتصاره على هانيبال في شمال إفريقيا، الأمر الذي وضع حدًا للحرب البونية الثانية. وكان يعتبر أعظم رجل روماني، وقيل إن أمَّهُ حملت فيه مثلما حملت أم الإسكندر الأكبر في ابنها، إذ ضاجعها الرب چوڤ (چوپيتر) الأموني في صورة ثعبان. وأما الثعبان الذي ضاجع أم سكيپيو فكان چوڤ الكاپيتوليني. انظر أوليمپيا.

سلوام 1/ 11 يوجد هذا النبع (جيحون) في وادي كيدرون الذي يقع شرقي أورشليم مباشرة، وتمر مياه جيحون في مَمَرٍّ حُفِرَ في الصخر إلى «بركة سلوام» وكان فيضُها يروي حديقة الملك (نحميا 3/ 15) ويسوع يشفي الأعمى من عماه بمياه سلوام (يوحنا 9/ 1-11) ولما كان سلوام مرتبطا بداود، المؤلف المفترض للمزامير، فإن ميلتون يعتبره الصورة الحقيقية للينابيع الهليكونية (ينابيع ربات الفن في اليونان) التي تلهم الشعراء. انظر الجواد الطائر.

سلوشيا 4/ 212 المدينة التي تعتبر الحد الشرقي لمنطقة عدن الشاسعة. وكان ميلتون يرى أن اسمها الأقرب زمنًا هو تلسار، المدينة التي بناها المقدونيون («ملوك اليونان») في أعقاب فتح الإسكندر الأكبر لفلسطين. وتقع سلوشيا على نهر دجلة (النهر العظيم شرقي الفرات) تحت بغداد. وتذكر هذه المدينة باسم تلسار (تلاسار) مرتين في الكتاب المقدس، حيث كان «بنو عدن» يعيشون. انظر الملوك الثاني 19/ 12 وإشعياء 37/ 12 (وهجاؤها العربي قد يكون أقرب إلى تِلاَسَّارْ) انظر حوران وعدن.

سليمان 1/ 401 ابن الملك داود الذي أنجبه من بَثْشَبَعَ، ومَلِكُ إسرائيل بعد وفاة داود، وبخلاف والده سُمِحَ لسليمان بأن يبني المعبد في أورشليم حيث يوضع تابوت العهد. وقد اكتسب سليمان شهرة أسطورية بالثراء والحكمة.

السماء 1/ 9 مكان وجود الله، وتعمرها الملائكة التي خلقها والتي تعبده وتسبح بحمده. وقد جاءت أولى أوصافها في الكتاب الثالث من الفردوس المفقود 3/ 344-371، استنادًا إلى أوصاف أورشليم السماوية الواردة في سفر الرؤيا 21/ 22. وميلتون يضع السماء خارج الكون المخلوق، الذي يتدلى منها بسلسلة ذهبية. وإبليس يراها من مسافة بعيدة، فيرى فيها أبراجًا وقلاعًا مرصعة بالجواهر، وجميعها حية. وفي الكتاب السادس عندما تحين رواية الحرب التي دارت رحاها في السماء، تبدو السماء قُطْرًا هائلاً شاسعًا يفوق المساحات المنبسطة على الأرض.

سمرقند 11/ 389 عاصمة الإمبراطورية الآسيوية المترامية الأطراف التي كان تيمورلنك يحكمها، وفي أوزبكستان حاليًا مدينة تحمل الاسم نفسه. وفي مسرحية تيمورلنك العظيم، الجزء الثاني، للشاعر كريستوفر مارلو، يصف تيمورلنك مدينته قائلاً: «ولسوف تذيع شهرة مدينتي الأصلية سمرقند،/ والأمواج البلورية لنهر چيرتيس ذي الماء العذب،/ وكبرياء وجمال عرشها الأميري/ في شتى أرجاء أقصى القارات؛/ إذ سوف ينهض فيها قصري الملكي/ بأبراجه البراقة التي سوف تفزع السماء» (4/ 3/ 107-112).

سِنَّار 3/ 467 الاسم القديم، ويسمى الآن شِنَّار، في بابل، وكان الاسم يشير إلى السهل الذي بُنِيَ فيه برجُ بابل.

السند ، نهر 9/ 82 أحد النهرين العظيمين في شمال الهند (انظر جانچيز)

وينبع من جبال الهيمالايا، في التبت، ويجري حتى يصب في بحر العرب في الساحل الغربي للهند. انظر هيداسپيس.

سنير 12/ 146 سلسلة الجبال التي تضم جبل حرمون، وتقع في أقصى تخوم الأرض الموعودة (تثنية 3/ 8-9).

سوسة 10/ 308 انظر ممنونيا.

سوسة 11/ 403 مثل فاس، مملكة مسلمة أخرى في شمال إفريقيا، جنوب غربي المغرب، وتمتد من الساحل إلى داخل إفريقيا عبر الصحراء.

سيحون 1/ 409 ملك الأموريين الذي رفض مرور بني إسرائيل في أرضه أثناء رحلتهم إلى الأرض الموعودة. ومن ثَمَّ فقد أُهْلِكَ واستُوليَ على أرضه. وكان من بين المدن التي استُوليَ عليها عاصمته حشبون التي كانت مسماة باسمه (العدد 21/ 23-28).

سيراپيس 1/ 720 رب يجمع بين أوزيريس وبين أپيس، أو هو الرب الثور. وقد دخلت عبادة سيراپيس بلاد اليونان على أيدي أول حاكم بطلمي ينشئ دينًا مُوَحِّدًا للمصريين واليونان.

سيراليون 10/ 703 المقصود ميناء، أو رأس بحري، على الساحل الغربي لإفريقيا.

سيرتا 2/ 939 منطقة بالقرب من الساحل الشمالي لإفريقيا تتسم بوجود شواطئ رملية ضخمة ورمال متحركة تبتلع السفن، ولكن المنطقة فيما يبدو لم تكن بالماء ولا باليابسة، إذ كان من المحال الإبحار فيها أو السير فيها. ولوكانْ، الشاعر الروماني، يذكر الرمال المتحركة باعتبارها صورة استعارية للمادة في حالها العمائي أي قبل أن تهبها الطبيعة شكلاً محددًا (الفارساليا 9/ 303-304). انظر مستنقع السِّرْبون.

سرينيكا 2/ 904 (وتكتب أيضًا سيرين) مدينة عريقة في شمال

إفريقيا في إقليم برقة.

سيلا 2/ 660 في أوديسية هوميروس 12/ 55 - 126، 229-59، يصور الشاعر سيلا في صورة وَحْشٍ يقبع على صخرة تطل على المضيق الفاصل ما بين إيطاليا وصقلية. وفي مواجهتها (فهي أنثى) يقبع الوحش خريبديس. انظر خريبديس. وفي مسخ الكائنات 13/ 730-733 و14/ 40-67 يصور الشاعر أوفيد سيلا في صورة عذراء يحبها جلاوكوس، ولهذا السبب تكرهها الساحرة كيركي التي تحول الجزء السفلي من جَسَدِ سيلا إلى رؤوس كلاب تنبح.

سيلفانوس 4/ 707 رب غابات روماني، لا يختلف ولا يتميز بوضوح عن فاونوس، وكثيرًا ما يتماهى مع پان. ويُمثل له بشيخ يتمتع بعنفوان الصبا، ويعيش في الخمائل المقدسة منعزلاً، ولكن غير بعيد، عن مساكن البشر. انظر فاونوس ، وپان.

سينين ، طور 1/ 7 الجبل المقدس في صحراء سيناء حيث يضرب بنو إسرائيل خيامهم في طريقهم إلى الأرض الموعودة، أو في مبدأ رحلتهم. وطور سينين هو جبل حوريب نفسه (الخروج 3/ 1)، ولكن لكل منهما قمة مختلفة، وطور سينين أعلى القمتين. وعند هذه القمة تلقى موسى من الله القانون العبراني المخطوط على ألواح حجرية (الخروج 9-20). وطور سينين، إلى جانب رمزيته للقانون العبراني، يمثل لميلتون موقعًا للوحي الرباني. وهي خبيئة لأن أحدًا لم يرها ما دام موسى قد صعد الجبل وحده (12/ 227-230) وقمته تخفيها سحب دكناء وبعض الدخان.

شارلمان 1/ 586 «شارل الأكبر» . ملك الفرنجة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. كان يعتبر إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا ومدافعًا عن ديار المسيحية في وجه هجوم العرب، خصوصًا من إسبانيا. وكانت مؤخرة جيشه تحت

قيادة البطل المغوار رولاند (أورلاندو) وأبادها جيش عربي في رونسفال، وهو ممر في جبال البرانس بالقرب من فونتارابيا (فويتيرابيا) ، وطبقًا لما ترويه القصيدة الملحمية الفرنسية القديمة أنشودة رولان لم يسقط شارلمان ولا أقرانه في الموقعة.

الشاروبيم 1/ 665 اللفظ هو الجمع العبري للمفرد «شيروب» ، وهي المرتبة الثانية من المراتب التسع للملائكة: الصاروفيم، والشاروبيم، والعروش، والسيادات،والفضائل،والقوى، والرئاسات، وكبار الملائك، والملائك. ولا يتوسط فيما بين الله والإنسان إلا كبار الملائك والملائك. وأما الشاروبيم فكانوا مكلفين بحراسة وجود الله من شئون الدنيا. وفي سفر التكوين 3/ 24 يقوم ملاك من الشاروبيم بحراسة شجرة الحياة بعد طرد آدم وحواء. وفي سفر الخروج 25/ 18، يظهر ملاكان ذهبيان من الشاروبيم في حراسة تابوت العهد، وترى فيما بعد تماثيل ضخمة للشاروبيم تحيط بتابوت العهد في معبد سليمان، ملوك أول 6/ 27، ويبلغ من جرأة ميلتون أن جعل أحد أفراد هذه الرتبة بين الملائكة الذين سقطوا في الجحيم. انظر زوفيل.

شجرة الحياة 3/ 354 تعتبر هذه من العناصر الغامضة في قصة التكوين، ويبدو أنها ترجع إلى أساطير فولكلورية قديمة عن شجرة سحرية، تتمتع ثمارها بالقدرة على منح آكلها الخلود. ويرد ذكر شجرة الحياة مقرونًا بذكر شجرة معرفة الخير والشر: «واستنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة بهية للنظر، ولذيذة للأكل، وغرس أيضًا شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر في وسط الجنة» (تكوين 2/ 9). وتُذْكر الشجرتان من جديد عند طرد آدم وحواء من الجنة: «ثم قال الرب الإله: هذا الإنسان قد صار كواحد منا، يميز بين الخير والشر، وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل، فيحيا إلى الأبد. فأخرجه من جنة عدن ليفلح الأرض

التي أُخذ من ترابها» (تكوين 3/ 22-23). وحمايةً لشجرة الحياة يضع الله عند الباب الشرقي للجنة حرسًا من الشاروبيم وأيضًا «سيفًا ناريًا» سحريا (تكوين 3/ 24). وتعود شجرة الحياة إلى الظهور في السفر الأخير من الكتاب المقدس، سفر الرؤيا 22/ 2، حيث تنمو على ضفتي نهر ماء الحياة، وتثمر اثني عشر نوعًا من الفاكهة خلال العام كله، وتشفي الأمم - أي غير اليهود - بأوراقها. وهذه الصورة تمزج ما بين الشجرة التي في جنة عدن وبين الأشجار التي يراها حزقيال في رؤياه للمياه المقدسة التي تتدفق من الحرم المقدس: «وتنمو على ضفتيه كل أنواع أشجار الفاكهة التي تؤكل. لا يذبل ورقها ولا ينقطع ثمرها. تحمل أثمارها في كل شهر، لأن مياه النهر تنبع من المقدس، فتكون ثمار الأشجار للأكل وورقها عقاقير للمداواة» (حزقيال 47/ 12).

شجرة المعرفة بالخير والشر 4/ 221 الشجرة التي تنمو فيها الثمرة المحرمة. وبعد أن يخلق الله آدم يقول له: «ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأنك حين تأكل منها حتمًا تموت» (تكوين 2/ 17). وتكرر حواء ذلك للثعبان حين يحاول إغواءها (3/ 2-3) ويرد الثعبان عليها قائلاً: إن الله قد حَرَّم الثمرة حتى يمنع آدم وحواء من أن يصبحا أربابًا «بل إن الله يعرف أنه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تنفتح أعينكما فتصيران مثله، قادرين على التمييز بين الخير والشر» (تكوين 3/ 4-5). وعند ذلك ترى حواء أن ثمرة الشجرة تغري بالأكل، وجميلة المنظر، ومطلوبة لما تأتي به من الحكمة. ويحرص ميلتون على الالتزام بهذه المراحل الثلاث للجاذبية. فحواء لديه تقول: إن «هذه الفاكهة الربانية/ جميلة في العين داعية للمذاق/ وذات قدرة على إضفاء الحكمة» (9/ 777-779). وفي الكتاب المقدس

نجد أن المعرفة التي تمنحها الثمرة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالخجل من الجنس «فانفتحت للحال أعينهما، وأدركا أنهما عريانان، فخاطا لأنفسهما مآزر من أوراق التين» (تكوين 3/ 7). وعلى الرغم من أن وصف ميلتون لمعرفة الخير والشر يتضمن الخجل من الجنس والإحساس المرتبط به وإن كان نقيضًا له وهو الشهوة، فإن الشاعر يفهم الخير والشر بالمعنى الأخلاقي الأوسع لهاتين الكلمتين. والتفسير الذي يقدمه هنا، وكان قد وضعه في أريوپاجتيكا، يقول: إن معرفة الشيء تعني إدخال الشيء في ذات المرء، بتذوقه (والفعل اللاتيني «ساپيو» أي يعرف يتضمن معنى المذاق، ومنه جاء المصدر الذي يعني الحكمة). ومعنى أن يعرف آدم وحواء الخير والشر (والخير فيهما أصلاً) أن يفقدا صفة الخير المطلق التي كانا ينعمان بها من قبل «أصبحنا نعرف/ الخير والشر جميعًا، الخير الذي ضاع والشر الذي جاء» (9/ 1071-1072).

شطيم 1/ 413 كانت شطيم المكان الذي ضرب فيه بنو إسرائيل خيامهم على الضفة الشرقية لنهر الأردن، وحيث أخذ رجالهم «يرتكبون الزنى مع المؤابيات» . وإلى جانب تلك الخطيئة جعلوا يعبدون الأصنام. (العدد 25/ 1-3، 33/ 49-56؛ يشوع 2/ 1، 3/ 1؛ ميخا 6/ 6). انظر فغور.

الشقيقات السبع 10/ 674. انظر الثريا.

شكيم 12/ 136 انظر موره.

شمشون 9/ 1059 بطل عبراني وردت سيرته في سفر القضاة ، وكانت قوته الربانية تعتمد على إطلاق شعر رأسه. انظر دليلة.

الصاروفيم 6/ 249 أعلى مراتب الملائكة. وعلى عكس الشاروبيم، الملائكة الحارسة لله، والتي تركز انتباهها على غيره، كانت الصاروفيم دائمة التحديق في الله والتسبيح بحمده. وهي لا تُرى

في الكتاب المقدس إلا مرة واحدة، في إشعياء *6/ 1-3*، حيث توصف بأن لكل واحد منها ستة أجنحة، يخفي وجهه بجناحين، ويغطي قدمه بجناحين، ويطير بالجناحين الباقيين. وهي تنشد «قدوس قدوس قدوس الرب القدير. مجده ملء كل الأرض» . ولكن رؤية ميلتون تضفي عليها حركة ونشاطًا، إذ تشترك مرة واحدة على الأقل في الحرب في السماء، فهي «صاروفيم مقاتلة» .ومن أبرز الشخصيات في الفردوس المفقود عبدئيل، وهو أشد الملائكة نشاطًا وعملاً، و«لم يكن أحد أشد منه إخلاصًا في عبادة/ الله» *(5/ 805-806)*. انظر عبدئي، والشاروبيم.



صفون *4/ 788* ملاك، واسمه يعني «الباحث عن الأسرار» .

صهيون *1/ 10* التل الذي بنيت فوقه أورشليم، وموقع المعبد، وكذلك - وهو الأهم عند ميلتون - المكان الذي أُلهم فيه الملك داود الأناشيد المقدسة التي ألفها، وهي المزامير.

صور *11/ 243* ميناء بحري فينيقي في جزيرة شبه ملاصقة لساحل البحر المتوسط الشرقي. وكانت مدينة تشتهر بما تنتجه من الصبغة الأرجوانية القاتمة المستخرجة من بعض أنواع المحارات البحرية، وكان ذلك من وراء ثرائها.

صوفالا *11/ 400* انظر أوفير.

صيدا *1/ 441* ميناء بحري فينيقي مزدهر كانت ربة القمر عشتارت (المعادلة لأفروديت) تعبد فيه. وربما كان «العذارى» يعبدنها، ولكن بعض كاهناتها لم يكُنّ من العذارى. وكانت الدعارة في المعبد، حيث تضاجع الكاهنات المصلين باعتبار المضاجعة جزءًا من الطقوس الدينية، شائعة في فلسطين، وكانت من الأسباب التي يكثر فيها في الكتاب المقدس وصف

الوثنية باعتبارها ضربًا من ضروب الدعارة. ويقول الشاعر: إن سليمان نفسه «وقع في حبائل الغيد من عابدات الأصنام» (*1/ 445*).

طانطال *2/ 614* ابن زيوس من تيتانة تدعى پلوتو. وكان من بين جرائمه تقديم طعام إلى الآلهة يتضمن قطعًا من جسم ابنه پيلوپس، وهو الذي سُمِّيَتْ شبه جزيرة پيلوپونيس (المورة) في اليونان باسمه. واكتشفت الآلهة هذه الخدعة وأعادت پيلوپس إلى الحياة. وحكمت على طانطال بعقاب في العالم السفلي اشتق منه الفعل الإنجليزي (tantalize) الذي يفيد الإغراء بما هو مستحيل، إذ كتب عليه أن يكابد العطش الشديد والجوع المؤلم حتى وهو واقف وسط الماء الذي يصل إلى ذقنه، ومن فوقه تتدلى الأغصان التي تحمل الفواكه اليانعة. وكان كلما حاول أن يشرب انحسر الماء، وكلما حاول أن يقطف الثمار هبت الريح فأبعدت الأغصان عن متناول يده. هوميروس، الأوديسية *11/ 582-92*).

طرابزون *1/ 584* مدينة بيزنطية وافرة الثروة على ساحل البحر الأسود.

طرسوس *1/ 200* مدينة مهمة من مدن الكتاب المقدس، على الساحل الجنوبي لتركيا الحديثة، التي كانت تسمى قيليقيا في الزمان الغابر، مسقط رأس القديس پولس. وميلتون يذكر طرسوس في إطار حديثه عن الوحش تايفورن الذي كان يقيم سابقًا، وفقًا لما يرويه پندار (الأناشيد البيثية *1/ 16-17*) في «كهفه الذي كان يتشرف بعدة أسماء» في قيليقيا. انظر تايفون.

طروادة *9/ 16* المدينة الكبرى في آسيا الصغرى التي حاصرتها جيوش الممالك اليونانية المتحالفة في إلياذة هوميروس. وكانت تسمى إليوم أيضًا. ويُحكم بهزيمة طروادة حين يقوم البطل اليوناني أخيلاس بمطاردة هكتور، قائد الدفاع عن طروادة، وينجح في قتله..

طوبيا *5/ 222* ورد في سفر توبيت المشكوك في صحته أنه

ابن طوبية، وأن أباه يبعث به في رحلة طويلة، ويرافقه في هذه الرحلة رفيق بَرٌّ، نكتشف فيما بعد أنه الملاك روفائيل. ويتمكن طوبيا بمساعدة روفائيل من إنقاذ قريبته سارة من سيطرة العفريت أزموديوس ويتزوجها. (توبيت 5-9) انظر أزموديوس وروفائيل.

طوبية، ابن *4/ 170* طوبيا.

عالم (آخر) *2/ 247* المقصود به الكون المخلوق كله، والذي يشكله الابن من العماء، وله غطاء خارجي يحميه، وهو الذي يحط إبليس خارجه (*3/ 418-422*) ويحتوي على الشمس والنجوم والكواكب والأرض. وهذا العالم يرتبط بالسماء بسلسلة ذهبية (*2/ 1005* و*2/ 1051*). وعلى الرغم من أن العالم يحتوي على الكون الذي يُرى من الأرض برمته، فإن إبليس حين يلمحه أول الأمر، وهو لايزال في العماء، يبدو الكون لعينيه بالغ الصغر («كأنه في الحجم نجم/ ضئيل الجرم» *2/ 2501-3501*) ولكن العالم يظهر بأبعاده الحقيقية الشاسعة عندما يستخدم الابن أجهزة القياس الذهبية لرسم حدود محيطه («فجعل من إحدى قدميه مركزًا، ودار بالأخرى في دائرة/ داخل الأعماق السحيقة الشاسعة المظلمة» (*7/ 228-229*).

عالي ، بنو (*1/ 495*) المقصود الولدان الخبيثان للكاهن الأكبر الطاعن في السِّنّ: «كانا يضاجعان النساء المجتمعات عند مدخل خيمة الاجتماع» (صموئيل الأول *2/ 22*) وولدا عالي كانا يمثلان لميلتون نمط الكهنة الخبثاء في الكنيسة.

العالة *1/ 411* من المدن المؤابية التي كانت قبيلتا رؤوبين وجاد تريدان استغلالها في رعي ماشيتهما. وقد طلبت هاتان القبيلتان من موسى ألا يعبر بهما نهر الأردن إلى الأرض الموعودة بل أن يدعهما تستقران في العالة والمدن التي حولها، وهو الطلب الذي أسهم في اتخاذ الله قرارًا بعدم

السماح للذين خرجوا من مصر بدخول الأرض الموعودة باستثناء كالب ويشوع (عدد *32/ 1-12*) انظر حشبون.

عباريم *1/ 408* سلسلة جبال شرقي الأردن، في مؤاب، ومن بينها جبلا نِبْو وفِسْجَة، وقد تصور ميلتون من المصادر المعاصرة له أنها كانت في براري الجنوب. عدد *21/ 11*.

عبدئيل *5/ 805* أحد الملائكة السيرافيم، واسمه يعني «عبدالله» . وهو يواجه إبليس ويُقَرِّعُه.

عدن *1/ 4* قُطْر شاسع يقع بين أعالي نهري دجلة والفرات، وفيه جنة الفردوس حيث يعيش آدم وحواء. ولما كان نهر دجلة يمثل الحد الشرقي لعدن ويجري، في الفردوس المفقود، تحت جبل الفردوس، فإن الجنة تقع في أقصى شرقي عدن . وفي سفر التكوين «وأقام الرب جنة في شرقي عدن ووضع فيها آدم الذي جبله» *(2/ 8)*. انظر *4/ 208 - 214، 9/ 71-73*. ويقول آخر سطر في الفردوس المفقود : إن آدم وحواء قد طُردا من الجنة، ولكنهما لايزالان في الرقعة الشاسعة لعدن، وهما يمران فيها: «سارا وحيدين في أرض عدن» . انظر الفردوس.

العذراء ، برج *4/ 998* كوكبة العذراء. وكانت أستراي (العذراء) ربة العدل التي عاشت في الأرض في العصر الذهبي، ولكنها فرت إلى السماء عندما فسد البشر.

عروعير *1/ 407* بلدة في شماليّ مؤاب.

عزازيل *1/ 534* ملاك عاصٍ وحامل لواء إبليس وشيطان رئيسي في سفر إينوخ.

عُزِّيل *4/ 782* ملاك واسمه يعني عزة الله أو قوته. وهو مساعد لجبريل في القوة التي تحرس الجنة.

عسقلان 1/ 465 مدينة من المدن الفلسطينية الخمس، وتطل على البحر المتوسط. قضاة 14/ 19، صموئيل الثاني 1/ 20، وصفنيا 2/ 4.

عشتروث 1/ 439 هذا اللفظ هو جمع اسم الربة عشتورث، وكانت صورته الفينيقية عشتارث تفيد أنها ربة الإخصاب التي كانت تعبد في شتى أرجاء فلسطين وترتبط بالقمر ولهذا قيل: إن لها «قرونًا كالأهِلّة»، وكانت ترسم دائمًا بقرنين. كما ارتبط اسمها أيضًا بربة الحب اليونانية أفروديت. انظر أدونيس.

عشتورث 1/ 422، 438 انظر عشتروث.

عطارد (ابن مايا) 5/ 285 الاسم اللاتيني ميركوري ويرادف اليوناني هيرميس رسول الآلهة.

عكا 1/ 466 كانت تسمى قديمًا «عكّارون» - ثم تحولت إلى «عكرون» - وهي إحدى المدن الفلسطينية الخمس المرتبطة بعبادة بعلزبول، وهي الشمالية القصوى بينها. انظر الملوك الثاني 1/ 2، وصفنيا 2/ 4.

العماء 1/ 10 (تعريب لليونانية خاءوس). واللفظ يعني ثلاثة أشياء: فهو مفهوم كوني، وهو مشهد قصصي (وإن لم يكن مكانًا إن شئنا الدقة) وتشخيص لكيان. وفي حالة التشخيص يكتبها الشاعر بحرف مبدئي كبير لتمييزها. أما المفهوم الكوني فيقول: إن العماء منطقة تحيط بالكيانات المخلوقة الثلاثة في الكون الذي يصوره ميلتون، وهي السماء، والجحيم والكون (العالم). والعماء ينبسط بلا نهاية وفي فوضى بلا حدود. أي إنه لا توجد في العماء حدودٌ أو مقاييس، ولا يوجد زمن ولا مكان. ولكن العماء ليس فراغًا. بل هو ممتلئ «بالمواد» في حالة اضطراب دون نظام، وكثيرًا ما يقارن بالمحيط، فهو الكيان المضطرب الوحيد المرئي على

الأرض. وكانت هذه المواد أصلاً في الله الأب، الذي يمتد وجوده بلا نهاية. وعندما يخرج الله من اللانهائية ويضع نفسه في السماء (التي يخلقها) فإنه يترك خلفه مواد العماء. ولما كانت مواد العماء تتميز كل التميز الآن عن الأب، فإنها ليست بذات شر أو خير. ولكن الابن يقوم، بمعاونة الروح، بتشكيل الكون المخلوق من هذه المواد، وهنا تغدو ذات خير. انظر *2/ 890-891*، و*7/ 210-234*. وباعتبار العماء مشهدًا قصصيًا نجد أنه لا توجد فيه «مسافة»، أو «زمن»، أو «اتجاه»، ولا «أعلى» ولا «أسفل» (*1/ 75-81*). وهذا العماء «خضم خواء» (*6/ 862*) يسقط فيه الملائكة العاصون على امتداد أيام تسعة (*6/ 871*) وهو «الهوة الظلماء التي يتعذر اجتيازها» (*10/ 366*) ولكن إبليس يجتازها من الجحيم إلى الكون (*2/ 917-950*)، وهو الهوة التي/ من المحال عبورها»، والتي يقيم الموت والخطيئة فوقها «جسرًا هائلاً» (*10/ 351*، و*10/ 283-320*). وأخيرًا فإن تشخيص العماء يجعله ملك العماء «العماء حاكم ذلك المكان» (الكتاب الثاني/ الموضوع)، وهو يجلس على عرشه مع زوجته الملكة وهي «ربة الليل في ردائها الحالك» *2/ 959-962*). ويصف ميلتون العماء بأنه رب الفوضى، كما إن العماء باعتباره ملكًا تُغْضِبُهُ كثرةُ التعدي على مملكته (*2/ 999-1003*). وفي الكتاب السادس يظل العماء مكتسيًا صورة الشخص إلى حد كبير عندما «ارتفع زئير العماء الذي ارتبك/ واضطرب وتضاعفت بلبلته عشرة أضعاف وهم يمرون/ من خلال فوضاه الموحشة» (*6/ 871-873*). وعندما نصل إلى الكتاب العاشر نجد آثار التشخيص لاتزال قائمة، فالعماء غاضب من الجسر الذي بناه الموت مع الخطيئة ويهتف معترضًا عليه: «وعلى الجانبين/ صاح العماء محتجا

على بناء الجسر الذي شقه نصفين/ وانقض بأمواج عارمة عليه»

(*10/ 415-417*).

العمالقة *1/ 576* تقول الأساطير الكلاسيكية:إن العماليق يُحَرّضون على محاربة آلهة الأوليمپ للأخذ بثأر التيتان. انظر تيتان.

عمون ، بنو *1/ 396* شعب ساميّ،كثيرًا ما كان يقاتل بني إسرائيل.انظر ملكوم/ مولك.

عنقاء *5/ 272* طائر خرافي يحرق نفسه في محرقة، ثم يبعث من جديد من وسط رماده. ويطير عندها مع ذلك الرماد إلى هليوپوليس («مدينة الشمس») في مصر. انظر أيضًا أوفيد مسخ الكائنات *15/ 391-407*.

عيسو *3/ 512* أكبر وَلَدَيْ اسحق، وأغزرهما في شعر البدن، وقد تعرض لخدعة حرمته من ميراث أبيه ومن بركته، قام بها أخوه يعقوب ذو البدن الأملس الذي وضع جلد جديين على يديه وعنقه حتى يخدع والده الذي كان على فراش موته (تكوين *27*).انظر يعقوب.

الغريفون *2/ 943* طائر خرافي له جناحا طائر ومنقار الطائر، وجسد أسد. والغريفونات تحرس الذهب في صحاري شمال الهند. انظر أريماسپي.

غزة *1/ 466* إحدى المدن الفلسطينية الخمس، في أقصى جنوب فلسطين. انظر أشدود.

غيانا *11/ 410* منطقة في شمال أمريكا الجنوبية،أكبر كثيرًا من الدولة المعروفة بهذا الاسم في الوقت الحاضر. و«لم تكن قد نُهِبَتْ بعد»،لأن الإسپان لم يكونوا قد عثروا عليها ونهبوها آنذاك. وقد باءت محاولتا السير وولتر رالي لنهبها بالفشل.

غيلان *2/ 628* الأصل اليوناني هو «خيميرا» ، وكان اللفظ يطلق على وحش له رأس أسدٍ وجَسَدُ جَدْيٍ وذيلُ ثعبانٍ وينفث النار من فمه، و«الغول»

أقرب ما يمثله.

فاس *11/ 403* مدينة صحراوية ذات أسوار في شمال إفريقيا، واشتهرت بقصورها المبنية من الرخام ومعابدها المرمرية وأحجارها الوردية. ويشير ميلتون في كتاب الأقوال الشائعة إلى ما كان الشعراء يحظون به من تكريم كبير فيها.

ڤالدارنو *1/ 290* الاسم يعني وادي نهر أرنو الذي يجري عبر فلورنسا.

ڤالومبروزا *1/ 303* المعنى الحرفي «وادي الظلال». ويشير إلى دير ناء فوق جبل في توسكانيا يطل على وادي نهر أرنو. وميلتون يقصد الوادي كله.

فاونوس *4/ 708* إله خير روماني للرعاة والغابات، ويماثل پان اليوناني. انظر پان وسيلڤانوس.

فدان-أرام *3/ 513* منطقة في سوريا، شمالي فلسطين، ومتاخمة لأعالي الفرات، حيث رأى يعقوب رؤياه لدرجات السلم التي تصعد من الأرض إلى السماء.

الفرات *1/ 420* أحد النهرين في بلاد «ما بين النهرين» ، وهي العبارة التي تعتبر ترجمة حرفية للاسم اليوناني «ميزوپوتاميا» ، وأحد الأنهار الأربعة في الفردوس (تكوين *2/ 14*) وسپنسر يقول: إن الفرات نهر «خالد» (ملكة الجان *4/ 11/ 21*). وينبع الفرات من جبال الأناضول في تركيا، ويجري باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي مسافة ألف وسبعمائة ميل ثم ينضم إلى دجلة بالقرب من الخليج العربي. وأعالي الفرات تمثل أقصى الحدود الشمالية الشرقية للأرض التي وُعد اليهود بها «سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات» (تكوين *15/ 18*).

الفردوس *3/ 354* كلمة پاراديسوس اليونانية تعني الحديقة،

وهي اللفظ المستخدم في الإشارة إلى جنة عدن في الترجمة اليونانية القديمة للكتاب المقدس بالعبرية. وتقع الفردوس في أقصى الشمال الشرقي من عدن، ذلك القطر الشاسع، وعلى قمة جبل شاهق. وتختلف فردوس ميلتون في أنها تتضمن العمل والجماع بين الزوجين، إذ كان يرى أن الحال الطبيعية المثالية لابد أن تتضمن إنجاب الأطفال. ومن ثم فإن حال البراءة تعتبر نظامًا حُرًا ينتشر فيه البشر في شتى أرجاء الأرض. «السلام عليك يا أم البشر! يا من ستملئين/ الدنيا من رحمك الخصب بأبناء يزيد عددهم/ عن هذه الفاكهة المنوعة التي حملتها أشجار الله/ فملأت بها هذه المائدة!» (*5/ 388-391*). وخلافًا لدانتي، لا يحبس ميلتون البراءة بين أسوار الحديقة، قائلاً: إن البراءة والسعادة قد كُتب لهما أن ينتشرا في أنحاء الأرض (*11/ 933-643*). وتعتبر الجنة من الزاوية السياسية «المقر الرئيسي» (*11/ 343*) لآدم (وانظر «مقعد الرفعة» *4/ 371*) الذي خلق ليكون حاكما صالحًا، وإن كان معظّما مُبَجّلاً، لجميع أفراد نسله. وفي الفردوس نجد أن آدم وحواء لا يمثلان الزواج البشري الكامل وحسب بل أيضًا نظام الدولة الكامل الذي يصبح فيه آدم حاكمًا وحواء المواطن الوحيد. (ولكن حواء تحتوي على جميع مواطني المستقبل في تلك الدولة). وعندما يسقط آدم وحواء، لا يقتصر ما يفقدانه على علاقتهما المثالية بالعالم الطبيعي بل يتجاوزه إلى فقدان حالتهما السياسية المثالية، تاركين البشرية حتى تعاني جميع الشرور السياسية التي سوف تتجلى في التاريخ وعلى رأسها الطغيان. انظر عدن.

فرس النهر *7/ 474* هو حيوان فرس النهر المعروف.

فرعون *1/ 307* المقصود فرعون موسى المذكور في سفر الخروج، وميلتون يشير إليه باسم طاغية مصري أسطوري هو بوزيريس.

الفرفر *1/ 469* انظر دمشق.

فغور *1/ 412* اسم آخر للرب كموش. كان رَبّا كنعانيّا ارتبط اسمه بالحفلات الجنسية الصاخبة على جبل فغور في مؤاب. وفي سفر العدد 25 يُذكر أن كثيرًا من بني إسرائيل، في أثناء رحلتهم في البرية، «يرتكبون الزنى مع بنات مؤاب» وتقديم القرابين إلى بعل-فغور (*25/ 1-3*)، ومن ثم يأمر الله موسى بقتل المذنبين ويبتلي الناس بطاعون قضى على أربعة وعشرين ألف نسمة.

فليجثون *2/ 581* انظر أخيرون.

فليجرا *1/ 577* لسان أرضي في بحر إيجة شهد قتالاً بين الأرباب والعماليق. والشاعر پندار يشير إلى الموقع باعتباره سهلاً من السهول (الأناشيد النيمية *1/ 67*).

فونتارابيا *1/ 587* انظر شارلمان.

ڤيرتومنوس *9/ 395* رب الحدائق الروماني الذي يطارد كيريس ربة الفاكهة.

فيزولى *1/ 289* بلدة قريبة من فلورنسا، حيث كان جاليليو يعيش قيد الإقامة الجبرية بمنزله تنفيذًا لأحكام محاكم التفتيش. انظر فنان توسكانا وجاليليو.

فينيوس *3/ 36* ملك من ملوك تراقيا ونبي أعمى.

القادة *5/ 749* انظر صاروفيم.

قار لزج *10/ 298* المادة التي يستخدمها الموت والخطيئة في تثبيت مواد العماء بعضها ببعض لبناء الجسر فوق الجحيم. وقد ذكر القار في الترجمة اليونانية السبعينية للكتاب المقدس باعتباره المادة التي استخدمت في بناء برج بابل. تكوين *11/ 3* (الترجمة العربية الحديثة تقول إنه «الزفت» - المترجم) ويستخدم الكتاب المقدس كلمة القار

نفسها (أو القطران) في وصف بقايا مدينتي سدوم وعمورة.

القاهرة/ قاهرة *1/ 718* يقصد ممفيس القديمة، عاصمة مصر، مقر عبادة أوزيريس وسيرابيس وغيرهما من الآلهة، وكانت مدينة تشتهر بروعة مبانيها، ولكن ميلتون يطلق عليها اسم القاهرة القريبة منها.

قزح *11/ 244* كانت قزح أو إيريس من رسل الآلهة، وربة في ذاتها، وكان قوس قزح (قوس المطر) يعتبر الوشاح المتعدد الألوان التي تتشح به.

قزوين *10/ 436* في شمالي بلاد الفرس، وكانت عاصمة سابقة لتلك البلاد.

القصاص، ربات *2/ 597* كان اليونان يطلقون على أرواح الانتقام (المؤنثة) لفظ «الإرنياتي وكان اللفظ اللاتيني المقابل هو «ديراي» أو «فورياي»، وميلتون هنا يعيد إلى الأذهان أول كلام مفهوم تنطق به هذه الربات في مسرحية أيسخولوس الصافحات (*130*) عندما يكررن هتافهن «اقبضن!». وأما ربات القصاص في الأدب اللاتيني فيُرجع فيها إلى شيشرون «عن طبيعة الآلهة» *3/ 18/ 46*، وإلى فيرجيل الإنيادة *6/ 570–572، 7/ 323–560، 12/ 845–869*، وإلى أوفيد مسخ الكائنات *4/ 451–454*. وانظر أيضًا الإلياذة *9/ 454* والأوديسية *2/ 135*.

القطبي الشمالي، المحيط *10/ 290* كان كثيرًا ما يتكون من حاجز جليدي، ويوصف بأنه «كروني» نسبة إلى كرونوس، الذي كان يماهي ساتورنوس الذي طرده ابنه زيوس من جبل الأوليمب ونفاه في الأصقاع الشمالية للأرض.

قوتهم الحية *1/ 433* المقصود يهوه، أو الله الآب.

القوس، برج *10/ 328* الصورة الأسطورية لهذا البرج صورة قنطروس

يرمي بالسهام من قوسه، ولذلك يسميه الشاعر «القنطروس».

قيثيريا ،ابن 9/ 19 كانت قيثيريا هي الربة ڤينوس، وابنها هو إينياس، بطل ملحمة الإنيادة لڤيرچيل.

قيطان ، ساحل 10/ 293 كانت قيطان مملكة آسيوية قديمة تشغل النصف الشمالي من الصين، وكثيرًا ما كان الشعراء يرادفون بينها وبين الصين.

قيطان ، سلطان 11/ 388 حاكم قيطان من أحفاد چنكيز خان.

كادموس 9/ 506 مؤسس طيبة الأسطوري وملكها. وقد مسخه زيوس، مع زوجته، هيرميون، فأحالهما ثعبانين، أوڤيد، مسخ الكائنات، 4/ 571–601.

الكرمل ، جبل 12/ 144 لسان جبلي سامق على ساحل البحر المتوسط، ويعتبر الحد الغربي الأقصى للأرض الموعودة، وجرى فيه الصراع بين إيليا وأنبياء بعل (ملوك أول 18).

كاستاليا ، نبع 4/ 274 نبع عند موقع نبوءة دلفي، على جبل پارناسوس، وهو مقدس لأپوللو. وكان ماؤه يمنح شاربه موهبة قرض الشعر. انظر إيونيا ودلفي.

كاسيوس ، جبل 2/ 593 جبل يقع ما بين مصر وجزيرة العرب.

كالابريا 2/ 661 الجزء الجنوبي الأقصى من إيطاليا المواجه لصقلية عبر مضيق مسينا. انظر پيلوروس ، وترينيكاريا.

الكلدانية 12/ 130 انظر أور.

كلمتي 3/ 170 يكتب ميلتون لفظ «كلمة» مبتدئًا إياها بحرف كبير للدلالة على ابن الله (من اليونانية لوغوس التي تعني «كلمة» و«المبدأ السببي»). وعندما يتجسد في الدنيا يصبح يسوع. وعندما يخاطب الله الابنَ بتعبير «ياكلمتي» ، يسرع بتحديد ما يعنيه إذ يردف الكلمة بعبارة «حكمتي وقوتي الفعالة» (3/ 170) وتستند العقيدة المسيحية

التى تقول بأن الابن كلمة الله والقوة التي خلقت العالم من خلال أمر منطوق (تكوين 1/ 3) إلى الآيات الأولى للإنجيل كما دونه يوحنا (1/ 1-5): «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله. وكان الكلمة هو الله. هو كان في البدء عند الله. به تكوّن كلُّ شيء، وبغيره لم يتكوّنْ أيُّ شيءٍ مما تكوَّنَ. فيه كانت الحياة. والحياة هذه كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلام، والظلام لم يدرك النور». وفي الكتاب السابع يصور ميلتون خلق العالم فعليًا باعتبار ذلك من فعل الابن. ولكن ميلتون يؤكد في لحظتين - لحظة خلق الإنسان ولحظة عودة الابن إلى السماء - أن الأب موجود مع الابن أثناء الخلق في 7/ 516-519، و7/ 588-590. وبذلك يجعل ميلتون روايته الخاصة للخلق متفقةً مع رواية سفر التكوين. انظر المسيح ،والروح ،والابن.

كليومبروتوس 3/ 473 شاب يوناني كان يريد أن يسرع بالاستمتاع بالحياة الأخرى التي يعد أفلاطون بها في فايدو فألقى بنفسه من سور عال في البحر.

كمبالوك 11/ 388 الاسم القديم لمدينة بكين (بيجينغ) عاصمة الصين.

كموش 1/ 406 معنى الكلمة «القاهر» . وهو الرب القومي للمؤابين، أعداء بني إسرائيل زمنًا طويلاً. ولكن كموش كان يُعْبَدُ من دون الله بين بني إسرائيل من زمن سليمان إلى عهد يُوشِيًا، الذي تخلص من عبادة الأرباب الأجنبية. عدد 21/ 29، إرميا 48/ 4-7، 13، 46، ملوك أول 11/ 7، ملوك ثان 23/ 13-14. انظر فغور.

كنعان 12/ 135 أرض العبرانيين الموعودة والتي تتماثل تقريبًا مع إسرائيل الحالية، وتحدها شمالاً جبال لبنان، وجنوبًا صحراء مصر

وحدودها، وشرقًا نهر الأردن والبحر الميت، وغربًا «البحر العظيم» أي البحر المتوسط. وكانت أرض كنعان موعودًا بها أولاً لإبراهيم ونسله ثم لبني إسرائيل حين يغادرون مصر. والأرض مسما.. باسم كنعان حفيد نوح، وأبوه حام. وكان نوح قد غضب من استكبار حام، فاستمطر اللعنات على سلالة كنعان، الأمر الذي يبرر فتح الأرض الموعودة في ظل يشوع وإخضاع الكنعانيين. ولمزيد من المعلومات عن إبراهيم،انظر تكوين *12/ 1-7*، وعن نوح،تكوين *9/ 18-27*، وعن تقسيم الأرض في ظل حكم يشوع انظر يشوع ، *15-21*. انظر حام.

كوسكو *11/ 408* انظر أتاهوالبا.

كوسيتوس *2/ 579* نهر في الجحيم، واسمه مشتق من كلمة يونانية تعني «يصرخ ويندب الموتى» . انظر أخيرون.

الكونغو *11/ 401* كان ذلك في أيام ميلتون إقليمًا يشمل معظم غربيّ إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

كيركي ، الساحرة *9/ 522* كانت كيركي وفق ما يصورها هوميروس في أوديسيته ساحرة وربة معًا، قادرة على مسخ البشر وتحويلهم إلى حيوانات مطيعة (*10/ 210-219*).

كيريس *4/ 271* هذا هو الاسم اللاتيني للربة اليونانية ديميتير، ربة المحاصيل، والحبوب خصوصًا، وكانت أم پروزرپينا (بيرسيفوني اليونانية) التي أسرها رب العالم السفلي، واسمه هاديس (أو پلوتو) أثناء قيامها بقطف الزهور في حقل «إنّا» ، في صقلية. وبسبب حدادها على ذهاب ابنتها، رفضت كيريس أن تسمح بنمو المحاصيل، وإذ ذاك سُمِحَ لبيرسيفوني أن تعود إلى الأرض طيلة ثلثي العام، وأما في الثلث الباقي، وهو الشتاء، فالأرض مقفرة.

كيكلاديس 5/ 264 مجموعة من الجزائر التي تشكل دائرة في المنطقة الجنوبية من بحر إيجة.

كيلوا 11/ 399 اسمها الكامل كيلوا-كيسيواني وهي ميناء جزري قريب من الساحل الشرقي لإفريقيا.

لاپونيا 2/ 665 أو لاپلاند، وتقع في أقصى اسكنديناڤيا ويرتبط اسمها بالسحرة من الرجال والنساء الذين يثيرون العواصف.

لاڤينيا 9/ 17 العَرُوسُ التي كان تورنوس قد وُعِدَ بها ولكنها قُدِّمَتْ لإينياس بدلا منه. انظر تورنوس.

لاهور 11/ 391 عاصمة المغول في شماليّ الهند.

لايرتيس ،ابن 9/ 442 أوديسيوس. انظر أوديسيوس.

لبنان 1/ 447 دولة جبلية شماليّ إسرائيل، يجري فيها نهر أدونيس، وتصطبغ مياهه كل صيف بلون الطين الأحمر، أو لون تويجيات زهر شقائق النعمان، وهو ما كان يُفترض أنه لون دم تموز. انظر أدونيس.

الله 1/ 42 الموجود اللانهائي، العليم القدير، وقد يخرج من اللانهائية إلى السماء التي يخلقها. ويُوصَفُ الله بأنه أبو جميع الأشياء لأنه خالقها وحاكمها. ولكن يوجد معنى خاص لوصف الله بأنه أبو الابن الذي يشارك في كيان الأب ويعتبر كلمة الله الخلاقة. ويريدنا ميلتون أن نفهم أن الله ليس فحسب قادرًا على كل شيء، بل إنه ايضًا رب الخير والعدل والرحمة والمحبة. وهو يترك تبيان الصفتين الأخيرتين للابن. والله يرى الزمن كله (الماضي والحاضر والمستقبل) في آن واحد،ولذلك فهو يعرف مُقَدَّمًا أن آدم وحواء سوف يسقطان (3/ 92). ولكن الله يضيف إنه لما كان آدم وحواء يتمتعان بالحرية فإن علمه السابق ليس سببًا في سقوطهما، حتى ولو كان علمه السابق يجعل ذلك مؤكدًا (3/ 117-119). ورغم ذلك اليقين فالله يقول

إنه خلق الإنسان ووهبه «طاقة الثبات وكذلك حرية السقوط» (3/ 98-99). ولأن الله عادل لابد من معاقبة الإنسان (3/ 210). ولأن الله رحيم فلابد من إتاحة فداءٍ للإنسان عن خطيئته وتفادي العقاب وإلا أصبح سرمديًا، والابن يحقق هذا الفداء بتجسده وبالموت في سبيل الإنسان «وليقع عليَّ أنا غضبك» (3/ 237). انظر العماء، والمسيح، والابن، والروح، والكلمة.

لوز 3/ 513 الاسم القديم لمدينة بيت إيل. انظر أيضًا يعقوب.

لوسيفر 5/ 760 الكلمة تعني «حامل النور»، نجمة الصباح، وربما كان ذلك اسم إبليس قبل السقوط «لقد أسميناه إبليس الآن لأن اسمه القديم/ لم يَعُدْ يُسمع في السماء!» (5/ 658-659) ويستعمل ميلتون اسم لوسيفر كي يسترجع نبوءة إشعياء ضد بابل (14/ 12-14) التي تُعتبر صورة لكبرياء إبليس «كيف هويت من السماء يا زُهَرَةُ بنتَ الصبح؟... قد قلت في قلبك «إني أرتقي إلى السماء وأرفع عرشي فوق كواكب الله، وأجلس على جبل الاجتماع في أقصى الشمال أرتقي فوق أعالي السحاب، وأصبح مثل العلي»

ليبيا 1/ 355 كان الاسم يطلق في أيام ميلتون على معظم شمال إفريقيا، بما في ذلك الصحراء الكبرى. انظر جبل طارق.

ليثي 2/ 253 انظر أخيرون.

ليفاياثان 1/ 201 الحوت أو وحش البحر، المرتبطة صورته بإبليس.

ليكاس 2/ 545 رفيق هرقل، وهو الذي حمل إلى هرقل دون أن يدري الثوب المسموم. انظر هرقل.

الليل، ربة 2/ 962 خليلة العماء، ويسميها ميلتون «أكبر الأشياء سِنًا». انظر سبنسر ملكة الجان 1/ 5/ 20-28، حيث يقود عربة ربة

الليل أحصنة فاحمة السواد من الجحيم، وأفواهها ترغي وتزبد قارًا.

ليمنوس *1/ 746* جزيرة كبيرة في شمال بحر إيجة، سقط فيها هيفايستوس عندما قذف زيوس به من جبل الأوليمپ (الإلياذة *1/ 590-593*).

ليوكوثيا *11/ 135* المعنى الحرفي هو «الربة البيضاء» التي ارتبط اسمها بالفجر ويرذاذ البحر.

المؤابيون *1/ 406* كانت مملكة مؤاب المملكة المواجهة لإسرائيل شرقًا، تقع على الجانب الآخر من البحر الميت، وكان أهلها (المؤابيون) وثيقي الصلة ببني إسرائيل. (وقد امتدت رقعة مؤاب في بعض الفترات شمالاً حتى بلغت حدود نهر الأردن أيضًا). وكثيرًا ما كانت الحروب تقع بين إسرائيل ومؤاب (عدد *22-24*، قضاة *3، 12-30*، *11/ 17*؛ صموئيل الأول *14/ 47-48*، صموئيل الثاني *8/ 2*). ودفَنَ الله موسى، أقدس زعماء بني إسرائيل، في موقع مجهول في مؤاب. «وناح بنو إسرائيل على موسى في سهول مؤاب طوال ثلاثين يومًا» (تثنية *34/ 1-8*). وكان المؤابيون محتقرين بسبب وثنيتهم، التي كانت مرتبطة بالإباحية الجنسية، ولذلك قيل إنهم (مع بني عَمُّون) من نسل زنا المحارم بين لوط وابنتيه، بعد تدمير سدوم وعمورة (تكوين *19/ 30-38*). وكانت راعوث، الجدة الأولى لداود، من مؤاب. (راعوث *1/ 22*، *4/ 13-22*). انظر حورونايم.

ماجلان *10/ 687* المقصود مضيق ماجلان الذي يقع عند الطرف الجنوبي بأمريكا الجنوبية، وقد أُطلِقَ عليه اسمُ الملاحِ البرتغالي ماجلان.

المارق *5/ 852* المعنى الأصلي هو المتمرِّد، أو الذي ينفرد برأيه.

مالابار *9/ 1103* منطقة على الساحل الغربي لهندستان في الهند، وكانت

تشتهر في زمن ميلتون بأشجار التين، وكانت فروعها الممتدة تضرب بجذورها في الأرض فتنشئ أشجارًا ملتفة مديدة.

مالندي *11/ 399* على ساحل إفريقيا في دولة كينيا الحديثة، وكانت الميناء الذي أبحر منه ڤاسكو دي جاما فعبر المحيط الهندي إلى جُوَا في الهند.

مامون *1/ 678* أحد الشياطين، واسمه يضرب به المثل في الجشع، وفي إنجيل متى. يقول المسيح *(6/ 24)* : «لا يمكنكم أن تكونوا عبيدًا لله وللمال (مامون) معًا» . انظر ملكيبر.

مجمع الأرباب *2/ 391* الأصل هو مجمع لأي زعماء أو مسئولين أو كهنة ومن لف لفهم، إذا عقدوا مجلسًا للنظر في مسألة مهمة. وكانت كلمة «سينود» التي تفيد هذا المعنى تشير يومًا ما إلى النظر في أوضاع النجوم قبل القيام بعمل ما، وهي تحمل من ثم استعارة فلكية.

محنايم *11/ 214* المكان الواقع شرقيّ نهر الأردن الذي قابل فيه يعقوب ملائكة معسكرين مثل الجيش في خيام.

المحيط الهرم *4/ 165* كان أوقيانوس (الهرم) أكبر التيتان سِنًا، وأبًا للأنهار، وتشخيصًا للمحيط الذي «يحيط» بالعالم الأرضي.

مدار الجدي *10/ 677* عندما تمر الشمس، في رحلتها السنوية الظاهرية، بكوكبة الجدي في السماء، يقال إنها متعامدة على مدار الجدي، وعندها «تدور» عائدة إلى الشمال عبر خط الاستواء إلى مدار السرطان. انظر السرطان ، مدار.

ميدوزا *2/ 611* انظر جورجونات.

مريم *5/ 387* أم يسوع العذراء، وتسمى حواء الثانية لأنها استطاعت بسبب طهرها وبراءتها من أي خطيئة أن تحمل المسيح

الذي سوف يعيد البشرية إلى الحال التي هوت منها حواء. ويؤكد ميلتون أن ما ضاع بسبب حواء سوف يعود بفضل حواء أيضًا: «إنني وإن كنت السبب في فقدان كل شيء... سأضع المولود الموعود الذي سوف يعيد لنا كل شيء» (*12/ 621-623*).

المسيح *5/ 664* «أي الذي مُسِحَ عليه» (بالزيت المقدس) بالعبرية، وهو المصطلح العام للملك. يسوع. كان الملك الأول شاءول قد مُسِحَ على رأسه بيد النبي صموئيل (صمويل الأول *10/ 1*) مثلما حدث للملك العظيم داود (صمويل الأول *16/ 1-13*) والله يقول في المزمور *89/ 20*: «وجدت داود عبدي فمسحته بزيتي المقدس» . وفي أسفار الأنبياء بالكتاب المقدس نبوءة بظهور مسيح يجلس على عرش داود ويحكم جميع أمم الأرض في زمن يسود فيه السلام في العالم: إشعياء *11/ 1-12*، *32/ 1-2*، إرمياء *33/ 14-16*، حزقيال *37/ 24-28*، زكريا *10/ 9*، *12/ 10*، صفنيا *1/ 1*، زكريا *14/ 1*، ملاخي *4*. وتقول الأناجيل المسيحية: إن هذه النبوءات تنطبق على يسوع، واسمه المسيح (باليونانية هُو خريستو أي الممسوح على رأسه) يعني المَسِيّا: «وجدنا المَسِيّا - أي المسيح» (إنجيل يوحنا *1/ 41*، وانظر *4/ 25*) وفي السماء التي يصورها ميلتون يُعلن أن الابن هو المسيح قبل خلق العالم.

مستشفى *11/ 479* الأصل يفيد المستشفى الخاص بالمجذومين، ولكن ميلتون يجعله مستشفى لكل الأمراض..

المغولي الأكبر *11/ 391* أي إمبراطور الهند المغولي.

ملائكة *1/ 38* كائنات خالدة خلقها الله قبل البشر، ومعظم أسماء الملائكة مشتق من كلمات عبرية تنتهي بالمقطع «ئيل» (أي تنتمي «لله»). انظر مثلا جبريل. والملائكة تعبد الله بشتى الطرق، وفقًا لمراتبها أو درجاتها. انظر

شاروبيم. والكلمة اليونانية أنجيلوس تعني «الرسول» أو المرسال. وفي الفردوس المفقود ينهض روفائيل وميكائيل بأهم المهام الملائكية. ومن المهام الأخرى قيام أوربيل بتوجيه مسار الشمس (*3/ 645-653*) وتحذير جبرئيل من مقدم إبليس (*4/ 124-130*، *549-575*) وقيام جبرئيل بحراسة الجنة (*4/ 543-554*) والمهمة التي قام بها صفون وإيثوربيل (بتكليف من جبريل) بالعثور على الدخيل في الجنة والقبض عليه (*4/ 788-796*). انظر شاروبيم ، ميكائيل ، روفائيل.

ملك سوريا *11/ 218* انظر دوثان.

ملكوم *1/ 392* أو مولك، وهو الذي يعني بالعبرية «الملك» . وكان إلهًا لبني عمون، الذين قيل إنهم كانوا من سلالة زنا المحارم بين لوط وابنتيه. انظر المؤابيين. وكان ملكوم يعبد في ربّةَ عاصمة بني عمون وانتشرت عبادته إلى بني إسرائيل. انظر جهنم. وكان صنم ملكوم تمثالاً نحاسيًا ضخمًا، في وضع الجالس على العرش وعلى رأسه التاج، وذراعاه ممدودتان، ورأسه رأس ثور، وكان فمه مفتوحًا تُلقى فيه الأطفال وتُحرق داخله. وعلى نحو ما يذكر جون سيلدن، صديق ميلتون، في رسالته عن الأرباب السورية، كان الناس يدقون الطبول ويعزفون الموسيقى حتى تعلو على أصوات صرخات الأطفال - سفر اللاويين *18/ 21* «لا تجز أحد أبنائك في النار قربانًا للوثن مولك (ملكوم)» .

مليبوا ، أرجوان *11/ 242* صبغة أرجوانية نادرة وشهيرة كانت تنتجها مدينة مليبوا على ساحل ثيساليا. ورغم أن اللون كان أفضل درجات الأرجوان وأجملها، فإن عباءة ميكائيل كانت ذات لون أرجواني «أكثربهجةً». انظر صور.

ممنون ، قصر *10/ 308* كان قصر شتاء فارسي (ويسمى صوصة

أيضًا) وقد اكتسب اسمه من اسم مؤسسه ممنون، ابن تيثونوس وإيوس، أو الفجر.

المنصور *11/ 403* حاكم مسلم في إسپانيا وشمال إفريقيا.

منظار مقرب *1/ 288* التليسكوب الذي اخترع في شمال أوروبا في القرن السادس عشر لمراقبة السفن في البحر، وقد أدخلت عليه تحسينات كثيرة، وأُعد بصفة خاصة للرصد الفلكي على أيدي ليبرشي وجاليليو في پادوا بإيطاليا.

الموت *2/ 787* ابن الخطيئة وإبليس، ويوصف بأنه مثلهما حالك ولا شكل له، ولكن يلوح ما يشبه التاج على رأسه. وهو مسلحٌ بحربة وسوط من العقارب (*1/ 672، 701*) ويوصف جسمه فيما بعد بأنه بالغ الضخامة، والجلد فضفاض فوقه، ومن المحال أن يُمْلأَ بجميع الفرائس التي تنتظره في الأرض (*10/ 599-601*). ويوصف في الجحيم بأنه يتشمم لحم الأحياء «وقد رفع/ أنفه بفتحتين متسعتين في الهواء العكر» (*10/ 279-280*). وتضع الخطيئة مولودها، الموت، بعد انتصابها على أبواب الجحيم بقليل. وما إن يخرج الموت من رحمها حتى يغتصبها فتلد كلاب الجحيم التي تعذبها بتحريض منه (*2/ 778-809*). وفي نهاية الزمان سوف يهزمُ الابنُ الخطيئةَ والموتَ و«يغرس حرابهما» في رأس إبليس (*12/ 431-433*). وسوف يقوم الابن بعد ذلك بإعادة الخطيئة والموت إلى الجحيم، قاذفًا إياهما عبر العماء، وعندما يصلان يسدان بجسديهما أبواب جهنم. وريثما تحين تلك اللحظة لن تبارح الخطيئة أفراد البشر كلهم، بل سوف تُعِدُّهُمْ كي يصبحوا وجبة لابنها: «حتى يتسنى لي أن أسكن الإنسان في ذريته... وأُعِدُّهُ لك فيمسي آخر فرائسك وألذها طعمًا» (*10/ 607-609*) انظر الخطيئة.

موره *12/ 137* موقع مدينة سكيم (شكيم؛ نابلس الحديثة) أول مكان

نزل فيه إبراهيم ونصب خيامه فيه (تكوين 12/ 6).

موزمبيق 4/ 161 كانت في أيام ميلتون مقاطعة في شرق إفريقيا استقر فيها التجار العرب واستعمرها البرتغاليون.

موسى 12/ 170 أقدس زعيم لبني إسرائيل، إذ قاد العبرانيين حين خرجوا من مصر، وعبر البرية إلى حدود الأرض الموعودة، كنعان. وأثناء مقامه في البرية، وفي طور سينين، تلقى موسى من الله عهد القانون، وهو أساس الطقوس اليهودية. وقد هدى الله موسى إلى قمة جبل الفسجة وأراه الأرض الموعودة، والتي لم يؤذن له بدخولها. وأول ذكر له في الفردوس المفقود يقول: «ذلك الراعي الذي علم الذرية المصطفاة أولاً... كيف في البدء نشأت الأرض والسماء من العماء» (1/ 8–10). والمفترض أن موسى مؤلف الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم، وأن الله أملاها عليه في طور سينين (خروج 24/ 3–12). وميلتون يخصص مساحة كبيرة لرواية خروج العبرانيين من مصر ورحلتهم إلى الأرض الموعودة بقيادة موسى، بل مساحة تفوق ما يخصصه لأية حادثة أخرى يرويها في الكتابين التاريخيين (11 و12) من الفردوس المفقود (12/ 169–260). وإلى حد ما، يرجع هذا التأكيد إلى أن ميلتون كان يرى في رحلة بني إسرائيل في البرية، وفرارهم من الرق في مصر إلى الحرية في كنعان، رمزًا للثورة الإنجليزية.

مولكيبر 1/ 740 هو الشيطان مامون. واشتهر مع ڤولكان (الاسم اللاتيني للرب اليوناني هيفايستوس) بالبراعة في أشغال الحديد المعقدة. ويُذكر في الإلياذة أنه يصنع درع أخيلاس، وفي الإنيادة أنه يصنع درع إينياس. وفي آخر الكتاب الأول من الإلياذة (590–594) يُحكى كيف ألقى به زيوس من السماء، وكيف وقع على جزيرة ليمنوس اليونانية. وكعادة

ميلتون، نراه يعتبر القصة اليونانية تشويهًا للحقيقة، وهي التي يرويها عن سقوط الملائكة العصاة في الجحيم. انظر مامون.

مومباسا *11/ 399* بلد في دولة كينيا الحديثة، في شرق إفريقيا.

مونتالبان *1/ 583* قلعة رينالدو (أريوسطو، غضبة أورلاندو، النشيد *30*، الفقرة *93*). وفي ملحمة بوياريو أورلاندو العاشق، الكتاب الثاني، النشيد *23*، والكتاب الثالث، النشيد *4*، تدور رحى معركة كبرى حول مونتالبان بين شارلمان والعرب. انظر شارلمان.

ميجيرا *10/ 560* ربة من ربات القصاص الثلاث، والأخريان هما أليكتو وتيسيفون، وقد صُوِّرَتْ هذه الربة في الآداب والفنون القديمة في صورة من يتكون شعر رأسها من أفاع وتمسك بأفاع أخرى في يديها. انظر القصاص ، آلهة.

ميديا *4/ 171* بلاد الفُرْس.

ميكائيل *2/ 294* الاسم يعني «من يشبه الرب (ئيل)» . وهو رئيس كبار الملائكة، وينازل إبليس في رؤيا الآخرة (يهوذا *9*، رؤيا *12/ 7*). وعلى الرغم من ندرة ظهوره في الكتاب المقدس فإن ميكائيل ذو أهمية كبرى في الآداب والفنون المسيحية المتأخرة، وخصوصًا عند ميلتون. ففي الحرب التي وقعت في السماء يقود ميكائيل الجيوش السماوية (*6/ 44*، *202-203*، *411-413*، *686-687*، *777-778*) ويبدو أعظم الملائكة المقاتلين (*6/ 320-323*، *250-261*). وعبدئيل يصك إبليس فيوقعه على ظهره (*6/ 193-195*) ولكن ميكائيل وحده هو الذي يستطيع أن يجرحه (*6/ 320-327*؛ وانظر *2/ 293-295*). ولما كان ميكائيل هو الذي ينفذ العدالة الربانية، فإنه يُرْسَلُ على رأس قوة من ملائكة الشاروبيم لطرد آدم وحواء من الفردوس.

نايسا ، جزيرة 4/ 275 جزيرة نايسا في نهر ترايتون في شمال إفريقيا، فردوس أرضي، مسقط رأس باخوس (ديودور الصقلي 3/ 67). انظر أمون.

نپتون 9/ 18 الرب الروماني للبحر والزلازل. واسمه اليوناني پوسايدون. وميلتون يشير إلى الرب اليوناني الذي كان غاضبًا على أوديسيوس.

نبع الحياة 3/ 357 يقتبس ميلتون فكرة النبع الفردوسي للحياة من الفصل الأخير من سفر الرؤيا 22/ 1 «ثم أراني الملاك نهر ماء الحياة صافيًا كالبِلَّوْرِ، ينبع من عرش الله ومن الأرض» . وأما تعبير «نبع الحياة» فمقتبس من المزمور 36/ 9. انظر شجرة الحياة.

نبو 1/ 407 أرض ممتدة من البحر من هضبة مؤاب الشمالية، شرقي نهر الأردن ومن جبل الفسجة على هذه الهضبة أطلع الله موسى على الأرض الموعودة (تثنية 32/ 49، 34/ 1). وتعبير ميلتون مستقى من أخبار الأيام الأول 5/ 8 «الذي استوطن في عروعير وفي الأراضي الممتدة شمالاً إلى نبو».

النجاشي 11/ 397 لقب إمبراطور الحبشة،في شرقي إفريقيا. انظر إركوكو.

نسروخ 6/ 447 أحد الملائكة العاصين الذي سيصبح الصنم الأشوري الذي يعبده سنحاريب (الملوك الثاني 19/ 36-37).

نورمبيجا 10/ 696 مدينة موقعها التقريبي في «مين» أو شمال تلك المنطقة، وربما على ضفاف نهر پينوبسكوط.

النيچر 11/ 402 نهر عظيم في غرب إفريقيا يجري شرقًا ثم جنوبًا حتى يصب في المحيط الأطلسي، في خليج غينيا. وبصر آدم يتجه شمالاً من النيچر، عبر الصحراء الكبرى، إلى جبل أطلس على ساحل البحر المتوسط.

نيفاطيس ، تل 3/ 742 جبل في أرمينيا بالقرب من الحدود بين

آشور وبلاد ما بين النهرين، وهو الذي ينبع نهر دجلة منه.

هارون 3/ 598 الأخ الأكبر لموسى. أول كاهن أكبر لبني إسرائيل. وكانت الجواهر على صداره الحربي تتمتع بطاقات خير سحرية. الخروج 29/ 9. انظر موسى والأوريم.

هايمن 11/ 591 الرب الروماني للزواج.

هرقل/ هرقلية 9/ 1060. كان هرقل بطلاً ونصف إله قام بتنفيذ اثنتي عشرة مهمة عسيرة، وتسببت امرأة آخر الأمر في هلاكه، مثل شمشون. كانت زوجته ديانيرا ترغب في استعادة حبه لها فأرسلت إليه ثوبًا مصبوغًا بما كانت تفترض أنه «شراب غرام» وإن كان في الحقيقة سُمّا زعافًا. وعندما لبس الثوب انتابته آلام مُبَرِّحةٌ فتسلق جبل إيتا وبنى لنفسه محرقته الخاصة فأحرق فيها بدنه الفاني، ثم ارتفع إلى السماء بروحه فأصبح ربًا. وقد أصابه الألم بالجنون فألقى برفيقه ليكاس في البحر الإيوبي. انظر ليكاس.

هرمز 2/ 2 مدينة عظيمة الثراء في جزيرة في الخليج العربي. ولايزال الاسم قائمًا في مضيق هرمز.

هسبيريا 3/ 568 حديقة فردوسية خرافية تقع في أقصى غرب هذا العالم، على ساحل المحيط، حيث تغرب الشمس. انظر 8/ 632. وقد زرع چوف (چوپيتر) فيها شجرة تثمر تفاحًا ذهبيًا، وتحرسها الهسبيريدات، وهن بنات الليل والظلام. وكان يساعدهن في العمل تنين متعدد الرءوس. ولما كان التفاح يذكِّر القارئ بجنة عدن، والتنين يذكّره بالثعبان، فقد ذهب ميلتون إلى أن حدائق هسبيريا، كغيرها مما ورد ذكره في الأساطير اليونانية، تمثل تشويهًا لما ورد في الكتاب المقدس من حقائق. انظر 4/ 250–151: «كأن أساطير هسبيريا قد تحققت/ فإن كانت فهنا وحسب» .

الهند *5/339* كانت الهند مشهورة في زمن ميلتون بالتوابل ومعروفة باعتبارها من مصادر الثروة. ويبدو أن ميلتون قد اهتم بالفواكه الهندية مثلما هالته الطقوس الدينية الهندية، فيما قرأه عن الهند، وخصوصًا كتاب الرحلة (*1625*) الذي وضعه صمويل بيرتشيس.

هوميروس (ابن ماءون) *3/35* يشير ميلتون إلى هوميروس بنسبته إلى أبيه.

الهيداسپيس (*3/ 436*) نهر في الهند، ينبع من جبال الهيمالايا، ويعتبر من روافد نهر السند. وكان ذلك آخر حدود فتوحات الإسكندر. وربما كانت إشارة ميلتون إليه تتضمن الإشارة إلى نهر السند كذلك. انظر السند.

هيرميس *3/ 603* رسول الأرباب ذو الأجنحة، وهو في ذاته رب. وكان الرومان يسمونه ميركوري (عطارد). ولكن الاسم الأخير يعني الزئبق أيضًا، وهو المعنى التقني الذي يستخدمه فيه ميلتون، فالزئبق كان يستخدم في الخيمياء، فن الحصول على الذهب من المعادن الحطيطة، دون أن يتأثر الزئبق أثناء التفاعل.

هيرميوني *9/ 506* انظر كادموس.

يافث (*4/ 717*) ابن نوح، ووالد اليونان (انظر الأيونيين، آلهة) وقد اشتهر التماهي بينه وبين إيبميثيوس («الفكرة اللاحقة») وابن التيتان ياپيتوس، وأخو بروميثيوس («الفكرة السابقة»). وقد أُهْدِيَتْ پاندورا (واسمها يعني «جميع العطايا») إلى إيبميثيوس، عقابًا على قيام پروميثيوس بسرقة النار من السماء. وأحضرت پاندورا معها زِقًا ضخمًا من الخمر، وما إن فُتح الزِّقّ حتى أَخْرَجَ إلى الدنيا جميع الشرور التي يكابدها البشر. (هيزيود الأعمال والأيام *54-105*).

يانوس *11/ 129* الرب الروماني للممرات والمداخل، وله

وجهان.

ياوان *1/ 508* انظر الأيونيين ،آلهة .

يسوع *10/ 183* الصورة اللاتينية للاسم هي يِسُسْ واليونانية يِسوُسْ والعبرية يشوع وهي التي تعادل الإنجليزية جوشوا. انظر يشوع.

يشوع *12/ 310* يشوع هو الزعيم الصارم للعبرانيين الذي ينجح بعد وفاة موسى في فتح الأرض الموعودة. واليونانية يسوس (اللاتينية يِسُسْ) ترجمة للعبرية جُوشُوَعْ أو يَشْوَعْ. ويظهر يشوع في تفاسير الكتاب المقدس في العصور الوسطى في صورة نمط أو رمز، أو توقع رمزي ليسوع المسيح، فلما كان يشوع هو الذي قاد مسيرة بني إسرائيل عبر الأردن إلى داخل الأرض الموعودة، فإن يسوع أيضًا هو الذي سيقود مسيرة البشرية كلها عبر الموت إلى الخلود. ويلتزم ميلتون بالتراث المسيحي في النظر إلى موسى باعتباره رمزًا للقانون، وعاجزًا كل العجز عن قيادة مسيرة الشعب إلى الأرض الموعودة. ومن ثم فإن يشوع يحمل «الاسم والمهمة» اللتين ستكونان ليسوع، إذ سوف يعود بالإنسان «الذي طال تجواله في برية العالم/ سالمًا إلى فردوس الراحة الخالدة» *(12/ 313–314)*.

يعقوب *3/ 510* بعد أن خدع يعقوب أخاه عيسو وسلبه البركة من أبيه، هرب إلى بيت إيل (بالقرب من فدان–أران) في سوريا، حيث رأى في منامه ملائكة تصعد وتهبط على سلم ما بين الأرض والسماء (تكوين 28). انظر عيسو.

يهوذا *1/ 457* المملكة الجنوبية الباقية بعد تقسيم إسرائيل إلى مملكتين عقب وفاة سليمان. ومن ثم أصبحت المملكة الشمالية تدعى «إسرائيل» . ورغم أن مملكة يهوذا كانت عاصمتها أورشليم، إلى جانب تمتعها بالمعبد وتابوت العهد، فقد كانت أصغر كثيرًا من المملكة الشمالية، التي لا تضم

إلا قبيلتين صغيرتين، في مقابل القبائل العشر في الجنوب. وكانت يهوذا تشعر «بالاغتراب» لأن قادتها كانوا قيد الأسر في بابل. وميلتون يشير إلى رؤيا حزقيال (حزقيال 8) لعبادة الأصنام التي كانت تجري في المعبد في أورشليم وبالقرب منه.

يهوه *1/ 386* الله الأب.

يوحنا *3/ 623* مؤلف سفر الرؤيا. وفي أيام ميلتون كان يقال إنه هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع.

يورانيا *7/ 1* انظر ربة الشعر.

يورينومي *10/ 581* تفسير ميلتون لاسمها يقول إنه يعني «ذات الاعتلاءات الواسعة النطاق» . وكانت تتولى حكم جبل الأوليمپ مع زوجها أوفيون، وهو رب ثعبانيٌّ أحيانًا ما يُوَازَى بينه وبين الثعبان الذي أغوى حواء في الفردوس، حتى قام كرونوس وريِّا بطردهما.

يُوشِيًّا *1/ 418* ملك يهوذا *637-608* قبل الميلاد، وكان مصلحًا دينيًا لجأ إلى العنف في تطهير الأمة من عبادة الآلهة الكاذبة. الملوك الثاني 22، *23/ 25* «ولم يقم ملك مثله من قبل ولا من بعد، رجع إلى الرب بكل قلبه ونفسه وقوته بمقتضى شريعة موسى» . وكان ميلتون يبدي إعجابًا شديدًا به، وكان يرى أن كرومويل شخصية تماثل يوشيا، ومات يوشيا في مَجِدُّو أثناء القتال مع نخو، ملك مصر (أخبار الأيام الثاني *53/ 02-24*).

*　　*　　*

المراجع

Allen, Don Cameron, *The Harmonious Vision : Studies in Milton's Poetry, Baltimore, Md ., 1954.*

Barker, Arthur. E., ed. *Milton : Modern Essays in Criticism. New York, 1965.*

Bloom, Harold, (ed.) John Milton : Modern Critical Views, Philadelphia, *1986* (reprinted *2000*). Includes inter alia extracts from books (and new articles) by Isabel G. MacCaffrey, William Empson, Thomas Greene, Northrop Frye, Geoffrey H. Hartman, Leslie Brisman, Harold Bloom, William Kerrigan, and William Flesch , all dealing with Paradise Lost. The book has been used in preparing the «Notes» though the extracts have not been specifically acknowledged : When the Arabic phrase «a critic has argued» occurs, the reference is usually to one of the above listed critics.

Bongo, Pietro. Numerum Mysteria. Bergamo, *1951.*

Broadbent, John B., Some Graver Subject : An Essay on «Paradise Lost», London, *1960.*

Burden, Dennis, The Logical Epic, London, *1967.*

Bush, D., Paradise Lost in Our Time, London, *1945.*

Caron, M. and Hutin, S., The Alchemists, London, *1961.*

Charles, R.H. ed. The Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament. *2* vols. Oxford *1913.*

Cirlot, J.E. A Dictionary of Symbols, tr. Jack Sage. *1962.*

Columbia. The Works of John Milton, ed. F.A. Patterson et al. New York, *1931-1938.*

Cowley, Abraham. Poems, ed. A.R. Waller. Cambridge *1905.*

Daiches, David. Milton. London, *1957*.
Danielson, Denis. ed. The Cambridge Companion to Milton, Cambridge, *1989* (ed. *1996*). Contains inter alia essays by Lee M. Johnson on the «invocations» in PL, Barbara Kiefer Lewaski on the «genres» of PL, Carey on Milton's Satan, and Diane K. McColley on «Milton and the Sexes» where she argues for and against a «feminist» reading of PL.
Darbishire, Helen, ed. The Early Lives of John Milton, London, *1932*.
Darbishire, Helen, «Milton and the Tragedies of Damnation», in Essays and Studies by Members of the English Association, i., *1948*.
Drayton, Michael. Works, ed. J. William Hebel. Oxford *1961*.
Dreyer, J.L.E., A History of Astronomy from Thales to Kepler, London, *1953*.
Du Bartas, Devine Weekes and Workes, tr. Joshua Sylvester. London, *1613-1621* (edn. *1963*).
Dyson, A.E. & Julian Lovelock, eds. Milton : Paradise Lost, London, 1973 (in the casebook series).
Easton, M.G., Illustrated Bible Dictionary, London, *1989*.
Ellrodt, Robert, «Neoplatonism in the Poetry of Spenser, Traveaux d'Humanisme et Renaissance, XXXV, Geneva, *1960*.
Emma, R.D. Milton's Grammar, The Hague, *1964*.
Empson, William, Milton's God, London, *1961*.
Empson, William, Some Versions of Pastoral, London, 1961.
Fish, Stanley E. Self-Consuming Artifacts, University of California Press, *1972*.
Fowler, Alistair D.S., Spenser and the Numbers of Time, London, *1964*.
Gilbert, Allan H., On the Composition of «Paradise Lost» : A Study of the Ordering and Insertion of Material, Chapel Hill, N.C., *1947*. (reprinted *1964*).

Gottfried, R.B., ed., Spenser : The Prose Works, Baltimore, Md., *1949*.
Grierson, H.J.C., Milton and Wordsworth, London, *1937*.
Grierson, H.J.C. ed. The Poems of John Milton, London, *1925*.
Herrick, Robert. The Poetical Works of Robert Herrick, ed. L.C. Martin. Oxford 1956.
Hoopes, Robert, Right Reason in the English Renaissance, Cambridge, Mass., 1962.
Howard, Leon. « The Invention» of Milton's «Great Argument» : "A Study of the Logic of God's Ways to Men» , Huntington Library Quarterly ix, *1945*.
Hughes, Merritt Y., ed., John Milton : Complete Poems and Major Prose. New York, *1957*.
Johnson, F.R., Astronomical Thought in Renaissance England, Baltimore, Md., *1937*.
Kelley, Maurice, This Great Argument : A Study of Milton's «De Doctrina Christiana» as a Gloss Upon «Paradise Lost», Princeton, N.J., *1941*.
Kermode, Frank. «Adam Unparadised», in The Living Milton, ed. Frank Kermode, London, *1960*.
Lerner, L.D. «The Miltonic Simile», Essays in Criticism iv, *1954*.
Lewis, C.S., A Preface to Paradise Lost, London, *1942*.
Lovejoy, Arthur O., The Great Chain of Being : A Study of the History of an Idea, New York, *1960*.
MacCafrey, Isabel G., «Paradise Lost» as Myth, Cambridge, Mass., *1959*.
McColley, Grant, «Paradise Lost» : An Account of Its Growth and Major Origins, Chicago, *1940*.
Marlowe, Christopher. Works, ed. C.F. Tucker Brooke. Cambridge *1910* (ed. *1984*).
Maxwell, J.C. « Gods» in «Paradise Lost», Notes & Queries cxciii,

1948.
Muir, K., John Milton, London, *1955.*
Netton, Ian, Muslim Neoplatonists, London, *1982.*
Nicolson, Marjorie H., The Breaking of the Circle : Studies in the Effect of the «New Science» Upon Seventeenth Century Poetry, Evanston, Ill., *1950.*
Nicolson, Marjorie H., «A World in the Moon», Smith College Studies in Modern Languages, XVII, *1963.*
Nicolson, Marjorie Hope, John Milton : A Reader's Guide to his Poetry, London, *1970.*
Panofsky, Erwin. Studies in Iconology, New York and Evanston, Ill. *1962.*
Peter, John, A Critique of «Paradise Lost», London, *1960.*
Rajan, B., «Paradise Lost» and the Seventeeth Century Reader, London, *1962.*
Rajan, ed. John Milton : «Paradise Lost» Books I and II. London, *1964.*
Raleigh, W. Milton, London, *1900* (reprinted *1956*).
Ricks, Christopher, Milton's Grand Style, Oxford, *1963.*
Rose, H.J., A Handbook of Greek Mythology, London, *1978.*
Rosen, Edward, Ed., Three Copernican Treatises, New York, *1959.*
Schultz, Howard, Milton and Forbidden Knowledge, New York, *1955.*
Shawcross, John T., The Complete Poetry of John Milton, New York, *1971.*
Sims, James H. The Bible in Milton's Epics, Gainsville, Fla. *1962.*
Simson, Otto Von, The Gothic Cathedral : Origins of Gothic Architecture and the Medieval Concept of Order, New York and Evanston, Ill., *1964.*
Smith, J.C. & De Selincourt, E., The Poetical Works of
Edmund Spenser, London, *1912.*

Spingarn, J.E., Ed., Critical Essays of the Seventeenth Century, Oxford, *1908*.
Sprott, S. Ernest. Milton's Art of Prosody, Oxford, *1953*.
Starnes, Dewitt T., & Talbert, E.W., Classical Myth and Legend, Chapel Hill, *1955*.
Steadman, John M. «Heroic Virtue and the Divine Image in Paradise Lost», Journal of the Warburg and Courtauld Institutes, xxii, *1959*.
Steadman, John M. «Tantalus and the Dead Sea Apples», Journal of English and Germanic Philology, lxiv, *1965*, pp. *35-40*.
Stein, Arnold. Answerable Style : Essays on «Paradise Lost». Minneapolis, Minn. *1953*.
Svendsen, Kester, Milton and Science, Cambridge, Mass., 1956.
Taylor, George C. Milton's Use of Du Bartas, Cambridge, Mass. *1934*.
Tilley, M.P. A Dictionary of Proverbs in England in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Ann Arbor, Mich. *1950*.
Tillyard, E.M.W. Milton, London, *1930*.
Tillyard, E.M.W. The Miltonic Setting, Past and Present, Cambridge, 1938.
Tillyard, E.M.W. Studies in Milton, London, *1951*.
Tillyard, E.M.W. ed. Milton : Paradise Lost, BKS I & II, with an Introduction. London, 1956 (Notes by P. Tillyard).
Traver, Hope, The Four Daughters of God, Philadelphia, Pa., *1907*.
Verity, A.W. Ed., Milton : Paradise Lost, Cambridge, *1910*.
Warner, R., John Milton, London, *1950*.
Whaler, James. «Counterpoint and Symbol : An Inquiry into the Rhythm of Milton's Epic Style», Anglistica vi, *1956*.
Whiting, George W. Milton's Literary Milieu. New York, *1964*.
Whiting, George W. Milton and this Pendant World. Austin, Texas *1958*.
Willet, Andrew. Hexapla ... Sixfold Commentary Upon Genesis,

London, 1608 (ed. *1948*).
Willey, Basil., The Seventeenth-Century Background, London, *1934* (reprinted 1956).
Williams, Arnold, The Common Expositor : An Account of The Commentaries on Genesis, *1527-1633*, Chapel Hill, N.C., *1948*.
Wilson Knight, G. The Burning Oracle, Oxford, *1939*.
Wind, Edgar. Pagan Mysteries in the Renaissance, London, *1958*.
Wright, B.A. ed. Milton's Poem, London, 1959.
The Oxford Classical Dictionary, 3rd ed., Simon Hornblower and Anthony Spawforth, OUP, *1996*.

* * *